مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الحَادِي والسّتّون

سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04

موسوعة التفسير البلاغي

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الحادِي والسّتّون

سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04

نُخبَةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الثَّامِنُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الحَشْرِ

﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١١ لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢﴾ [الحشر: 11 - 12]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

التَّقابلُ بين المؤمنين فيما بينهم والكافرين فيما بينهم لبيان التَّمايز والتَّفاضل

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقةُ محاسن أحوال المؤمنين وأقوالهم على اختلاف طبقاتهم، وحال المؤمنين اللّاحقين مع السّابقين في الدّعاء لهم بالمغفرة، وللمعاصرين في الدّعاء بألّا يجعل في قلوبهم غلًّا؛ ناسب ذكر المقابل فيما يجري بين الكفرة والمنافقين من الأقوال الكاذبة والأحوال الفاسدة؛ ليقع التّقابل بين الفريقين في بيان ما يمتاز به المؤمنون، وتعجيبًا من إصرار الكفّار والمنافقين على عدم الإيمان مع ما يرون من المعجزات والآيات البيّنات وما يرون من حال الرّسول ﷺ والمؤمنين[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُخۡرِجۡتُمۡ﴾: (خرج) يدلُّ على النَّفاذِ عَنِ الشَّيْءِ، ومنه الخروجُ، يقال: خَرَجَ خُروجًا: برز من مقرِّه أو حاله، سواء كان مقرُّه دارًا، أم بلدًا، أم ثوبًا، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ﴾ [القصص: 21]، وقال: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ﴾ [الأعراف: 13]، والإخْراجُ أكثر ما يُقالُ في الأعيان، نحو: ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥﴾ [المؤمنون: 35]، ونحو: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنفال: 5][2]، ومعنى ﴿أُخۡرِجۡتُمۡ﴾، أي: من دياركم قَسرًا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 445، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (خرج).
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.

2) ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾: (ولي) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على قُرْبٍ[1]، ومنه الوَلاءُ والتَّوالي: أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويُستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النِّسبة، ومن حيث الدّين، ومن حيث الصّداقة والنّصرة والاعتقاد، والوِلايَةُ النُّصرةُ، وإذا عدّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتضى معنى: ترك القرب، قال تعالى: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: 82]، والتَّوَلّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ [آل عمران: 111]، وقال: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: 16][2].

3) ﴿ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: (دبر) أَصْلٌ دالٌّ على آخِرِ الشَّيءِ وخَلْفِهِ، وهو: خِلافُ قُبُلِه، ودُبُرُ الشَّيء: خلاف القُبُل، وكنّي بهما عن العضوين المخصوصين، ويقال: دُبْرٌ ودُبُرٌ، وجمعه أدْبار، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ [الأنفال: 16]، وقال: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: 15]، وذلك نهي عن الانهزام[3]، وقوله تعالى: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ كناية عن الفرار وعدم الثّبات[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

المنافق مخادع كاذب مع أقبح المِلَل فكيف مع أطهرها؟.

تُبيِّن الآيتان الكريمتان واقع المنافقين مع يهود بني النَّضير، حين أرسل عبدُ الله بن أبيٍّ بن سلول رأسُ المنافقين - أثناء حصار الرّسول لهم - رسالة يدعوهم فيها إلى المُكْث وعدم الخروج من ديارهم، ويعدهم بالنُّصرة والمؤازة، وألّا يطيع هو وأتباعه في شأنهم أحدًا حتى لو كان الرَّسولَ والمسلمين، ويُقسم على ذلك بأغلظ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولى).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (ولى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (دبر).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

الأيْمان، واللّه تعالى يشهد بكذبهم في وعودهم وأيمانهم، ويعلم أنّهم لن يخرجوا مع اليهود؛ إن أُخرجوا، ولن ينصروهم؛ إن قوتلوا، وإن حاولوا نصرتَهم؛ فسرعان ما يفرّون خائفين مذعورين(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستئناف ودلالته:

الانـتـقـال من الضدِّ إلى الضدِّ لتمايز الأضدادُ

قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ كلامٌ مستأنفٌ لحكاية ما جرى بين المنافقين والكافرين من أقوال كاذبة وحوارات خادعة، بعد أن ذكر البيانُ أحوالَ المؤمنين وأقوالَهم؛ جريًا على عادته في قَرْنِ الحديث عن المؤمنين بالحديث عن الكفّار والمنافقين؛ ليميز اللّه الخبيث من الطيّب، والصّالح من الطّالح، والأمّة الصّادقة المترابطة من الأمم الكاذبة المخادعة؛ إذ الضدّ لا يظهر حسنه إلّا الضدُّ(2).

غرض الاستفهام وبلاغته:

أحوال المنافقين عجيبةٌ لمن رعاها بالتأمُّل والتفكُّر

قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أسلوب استفهام يفيد بجانب الإثارة والتَّنبيه التّعجيبَ من حال المنافقين، الّذين وعدوا إخوانَهم الكافرين بالنّصرة والمؤازة؛ إذ بني على نفي العلم بحالهم كنايةً عن التّحريض على إيقاع هذا العلم، كأنّه يقول: تأمَّل الّذين نافقوا في حال مقالتهم لإخوانهم، ولا تترك النّظر في ذلك؛ فإنّه حالٌ عجيبٌ(3).

دلالة التّعبير بفعل الرّؤية:

التّعبيرُ بفعل الرّؤية ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ دالٌّ على أنَّ ما يلفتُ القرآنُ النّظرَ إلى ضرورة التعجُّب منه أمرٌ حاصلٌ بالفعل، يُشاهد بالعين من غير شكٍّ، أي: ألم تعلمْ علمًا هو في قوة الجزم به كالمشاهَد(4).

---

(1) حجازي، التّفسير الواضح: 3/ 649، وما بعدها، بتصرّف.
(2) صدّيق خان، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 49.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 98.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 445.

نكتة تعدية فعل الرُّؤية بحرف الانتهاء:

تدَّبُرُ مواقف المنافقين وتأمُّلها هادٍ إلى معرفةِ حقائقهم

تعديةُ فعل الرُّؤية إلى معمولِه بحرف الانتهاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ دالٌّ على ضرورة التلبُّث والتوقُّف عند هذا الحدث بالتأمُّل الدّقيق، والتدبُّر العميق، وألّا تكون مشاهدتُه مجرّدَ رؤية عابرة، وألّا يكون العلمُ به مجرد إحاطة، كأنَّه خبر من الأخبار الّتي لا تتجاوز الآذان، بل لا بدّ من تفحُّصه وتدبُّر ما فيه من كذب وخداع وتغرير ومراوغة؛ ليعرف المؤمنون حقيقةَ المنافقين، ويكونوا على حذر من التَّعامل معهم، والأمن لهم.

دلالة التّعبير بفعل الرّؤية مضارعًا:

استحضارُ الصّورة يزيد من قيمة الاستفهام في التعجيب

أوثر التَّعبير بفعل الرُّؤية مضارعًا منفيًّا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ دون (أرأيت)؛ لما يمتاز به من استحضار الصّورة الماضية، كأنَّها حاضرة ماثلة، يبدو فيها المنافقون، وهم يواعدون إخوانَهم الّذين كفروا من أهل الكتاب بالنّصرة والمؤازرة ضدّ أعدائهم أيًّا كانوا، ويغرونهم بالبقاء في ديارهم، وعدم الخروج من بيوتهم، ويقسمون على نصرتهم بأغلظ الأيمان، فتعمل الصّورة المستحضرة عملها في زيادة التّعجيب والإدهاش.

تعيينُ مرجع الضّمير المستتر في فعل الرّؤية:

السُّنن الاجتماعية واحدةٌ في أصحاب الطّوائف الدّينيّة

المخاطَبُ بفعل الرّؤية هو رسولُ اللّه ﷺ، وكلُّ واحدٍ له حظٌّ من الخطاب في أيِّ زمانٍ ومكان[1]؛ لأنَّ اليهود هم اليهود، والكافرون هم الكافرون، ذريّة بعضها من بعض، يحملون الصّفات نفسها، ويكرِّرون الأفعال ذاتها، فالخطاب وإن كان لرسول اللّه ﷺ وقتَ نزول الآيات في هذه حادثة بني النّضير، إلّا أنَّ الخطاب بالمجمل صالحٌ لأن يكون لكلِّ مَن مِن شأنه الرُّؤيةُ الفكريّة الصّائبة لواقع المنافقين في داخل المجتمع المسلم، وأعدائهم من اليهود المتربّصين على مدار الزّمان بأمّة الإسلام.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.

بلاغة التّعبير بالاسم الموصول:

أوثر التّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾؛ للإشارة إلى أنّهم منافقون مقصودون بالخطاب، فهُم الّذين جمعوا إلى النّفاق أسوأ أحواله، في محاولة الرّمي بالمجتمع المسلم، والكذب على اليهود، وهم معروفون بصفاتهم الّتي عانى منها المؤمنون، مع ما في التّعبير بالاسم الموصول من التّعليل بذكر النّفاق، ولو قيل: (ألم تر إلى المنافقين)؛ لكان مجرَّد إخبار بنفاقهم من غير تعجيب ولا إدهاش.

إبراز علل الأفعال من مقاصد التّعبير القرآنيّ

نكتة التّعبير بالماضي: ﴿نَافَقُواْ﴾:

جاء التّعبير بجملة الصّلة بصيغة الفعل الماضي: ﴿نَافَقُواْ﴾؛ لدلالته على تغلغل النّفاق في قلوبهم، وجريانه في عروقِهم، ووصولهم فيه حدًّا لا رجعة معه إلى الإيمان، والمعنى: أظهروا غير ما أضمروا، فأظهروا الخير، وبالغوا في إخفاء عقائدهم بالشَّرِّ مبالغة مَن ساجَل غيره[1]، وتفوَّق عليه.

الإيماء إلى رسوخ النّفاق فيمن يؤيِّد اليهود على المؤمنين

علة فصل جملة: ﴿يَقُولُونَ﴾:

جاءت جملة: ﴿يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ مفصولة عمّا قبلها؛ لأنَّها تبيِّن المُتَعَجَّبَ منه، وتوضِّحه، فيما يُعرَف بكمال الاتِّصال الّذي تنزل فيه الجملة الثّانية من الأولى منزلة التّابع من المتبوع، فتنفصل عنها كما يُفصل بينهما، ويمكن أن يكون الفصل لشبه كمال الاتِّصال الّذي تُجيب فيه الجملة المفصولة عن سؤال أثارته الجملة السّابقة في نفس المتلقّي عن الفعل الّذي فعله المنافقون، أو القول الّذي قالوه لإخوانهم من الكفّار، والّذي عُني القرآن بلفت الأنظار إليه، ودعا إلى تأمُّله وتدبُّره، كأنّه قيل: ما بالهم، وما خطبهم؟ فجاء الجواب: ﴿يَقُولُونَ﴾.

بيانُ فعل المنافقين بعد التَّعجيب منه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 445.

نكتة التَّعبير بالمضارع: ﴿يَقُولُونَ﴾:

المنافقون يكرّرون وعودَهم الزّائفة ليثق فيهم المخاطبون

جاء التّعبير بفعل القول مضارعًا في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لما يُفيده المضارعُ من استحضار الحالة الماضية، كأنَّها حاضرةٌ ماثلة يبدو فيها المنافقون، وهم يحرِّضون بني النّضير على عدم الخروج، ويعدونهم بالنّصرة والمؤازرة ضدَّ من يحاولون إخراجهم أيًّا كانوا، بجانب دلالته على تجدُّد صدور هذه الأقوال من المنافقين مرّات ومرّات[1]، والمعنى: يقولون ذلك مؤكّدينه ومكرّرينه لا على سبيل البداء أو الخاطر المعدول عنه[2]، بل هو قولٌ أكيدٌ يسعون إلى حصولِه، وفيه بيانٌ للتَّعجُّب من شأنهم.

نوع اللّام في قوله: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ ودلالتها:

المنافقون أبلغوا اليهود بمعيَّتهم لهم ضدَّ المسلمين

اللّام في قوله: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ هي لام التَّبليغ[3]، الدالّة على أنَّ عددًا من المنافقين منهم عبد اللّه بن أبيٍّ، وعبد اللّه بن نبْتل، ورفاعة بن زيد، ورافعة بن تابوت، وأوس بن قيظيّ، ووديعة بن أبي قَوْقَل، أو ابن قوقل، وسويد (لم ينسب) وداعس (لم ينسب) بَعثوا إلى إخوانهم من بني النّضير حين حاصرهم جيش المسلمين يقولون لهم: اثبتوا في معاقلكم، فإنّا معكم[4].

وجه التَّعبير عن اليهود بلفظ: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾:

اليهودُ والمنافقون جمعتهم أُخوَّةُ المصلحة في معاداة الإسلام

عبَّر النَّظم الكريم عن يهود بني النّضير بلفظ: ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾؛ جريًا على عادته البيانيّة في التّعبير عن الأصدقاء، أو مَن يجتمعون على عقيدة واحدة بوصف (إِخْوانِ) كما سبق بيانه، وإنَّما وصفهم به؛ لأنَّهم كانوا متَّحدين في الكفر برسالة النبيّ وعداوته، وليس لأنَّهم إخوةٌ في النّسب، أو الملّة، أو الدّين، فإنَّ بني النّضير من

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 99.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 144، والمراديّ، الجنى الدانيّ، ص: 99.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 99.

اليهود، والمنافقين الّذين بَعثوا إليهم مِن بني عوف مِن عرب المدينة، وأصلُهم من الأزدِ[1]، والمنافقون ليسوا يهودًا، فأصبحت الأخوّة الّتي بينهم أخوَّة المصلحة في العداء لدين الله تعالى.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول:

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ صفة لـ ﴿لِإِخۡوَٰنِهِمُ﴾ أوثر وصفُهم به؛ ليتوصَّل بصلته إلى أنَّ جانبَ الأخوَّة الّذي يجمع بينهم هو الكفر بالإسلام، وإن اختلفت مشاربه.

فائدة اختيار لفظ الكفر دون الشِّرك:

تعيين المقصود بالخطاب وبيان كفر المنافقين لزومًا

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الكفر في وصف يهود بني النّضير، وهو كفرٌ برسالة النبيّ محمد ﷺ، فكفرهم ليس كفرَ شرك مثل كفر المنافقين الّذين يشركون مع الله آلهةً أخرى، وهذا هو السرُّ في تعبير النّظم القرآنيّ بالفعل: ﴿كَفَرُواْ﴾ صلةً لاسم الموصول، فالغرض من مفردة الكفر تعيين المقصود بإخوانهم بأنَّهم اليهود، مع بيان حكم القرآن فيهم، ولينطبق الحكم على المنافقين لزومًا.

نكتة التّعبير بصيغة الماضي:

أوثر التّعبير بفعل ﴿كَفَرُواْ﴾ ماضيًا؛ للدَّلالة على تغلغله في قلوبهم، ووصولهم فيه مبلغ الإصرار على البقاء وعدم الإقلاع، على الرّغم من ثبوت نبوَّة محمّد لديهم بالأدلَّة والبراهين.

نوع ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها:

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بيانيّة توضِّح أنَّ الّذين أغراهم المنافقون بالبقاء في ديارهم ووعدوهم بالنُّصرة والمؤازرة هم يهود بني النّضير المحاصرين.

فائدة التّعبير بـ ﴿أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

حكمُ الضّالِّ عن علمٍ ليس كحكمِ الجاهل المغبون

آثر البيان القرآنيّ التّعبير عن بني النّضير بوصف: ﴿أَهۡلِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 509، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 99.

﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون: (اليهود)؛ للإبلاغ في ذمِّهم؛ إذ التّعبيرُ به يؤكّد أنّهم ضلّوا عن علم، وكفروا برسالة رسول اللّه عن عمدٍ، وناصبوه العداء عن إصرار وضغينة وحقد، فهُم أهل كتابٍ يعرفون الحقَّ من الباطلِ، ويقفون على مواضع الإخبار عن النبيِّ الخاتم في كتابهم، فلمّا عدلوا عنه؛ زاد ذمُّهم، وارتفع قدحُهم.

دلالة إضافة لفظ ﴿أَهۡلِ﴾ إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

أهـل الكـتاب تركيب إضافيٌّ للتّعريف لا لبيان استحقاقهم أن يكونوا أهل كتاب

أُضيف لفظُ ﴿أَهۡلِ﴾ الموضوع للأقارب الأدنَيْن من جهة النَّسب ومن جهة الاختصاص[1]، مضافًا إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ المراد به التّوراة الّتي أنزلها اللّهُ على نبيّه موسى؛ لتقوية ما سبق بيانه من أنَّهم أعرفُ النّاس بما فيه، وأكثر إحاطة بنصوصه وأوامره الحاسمة باتباع النبيِّ الخاتم، ونصرته، وعدم مشاقَّته، وهي إضافة تؤكِّد أنَّ كفرهم بالرّسول كان عن عمد، وعدواتهم له كانت عن بُغض، والتّركيب الإضافيّ يُرادُ به التَّعريف العَلَميُّ المشتهر في الإطلاق عليهم، لا أنَّهم مستحقّون؛ لأن يكونوا أهلَ الكتاب.

نوع اللّام ودلالتها:

اللّامُ في قولِه: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ﴾ موطِّئةٌ للقسم، أي: قالوا لهم كلامًا مؤكَّدًا بالقسم[2]، ما يعني: أنَّ المنافقين قالوا لليهود: واللّه إن أُخرجْتم[3].

نكتة استعمال (إنْ):

المنافقون أوهموا اليهود بأنَّ المسلمين لن يستطيعوا إخراجهم

تعبير المنافقين الّذي يحكيه القرآنُ بحرف الشَّرط المفيد للشَّكِّ في قولِهم: (إنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ) فيه نوعٌ من تشجيع المنافقين لليهود على الثَّبات، وإثارتهم إلى التمسُّك بالبقاء في ديارهم، وعدم الخروج

(1) الرّاغب، مفردات اللّغة: (آل)، والعسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 281.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 99.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.

من بيوتهم، بإيهامهم أنَّ إخراج المسلمين لهم أمرٌ مشكوكٌ فيه وغيرُ متوقَّع الحصول؛ بسبب قوَّة تحصينات اليهود، والثِّقة التامّة في قدرتهم على الثّبات والمواجهة، بجانب مؤازرة المنافقين لهم.

بلاغة التّعبير بـ ﴿أُخْرِجْتُمْ﴾:

المنافقون أشعروا اليهودَ بأنَّ ترك الدّيار فيه خزيٌ لهم ومعرَّة تلحقهم

استعمل النّظم الكريم فعلَ الإخراج؛ لبيانِ علم اليهود بأمر المؤمنين لهم بالإخراج، والمنافقون علموا ذلك، وحاولوا ألّا يكونَ باستعمال ورقة الوعد الكاذب لعلَّهم يُزعزعون الأمور، بتثبيت اليهود وتحريضهم على مواصلة التمسُّك بالبقاء في الدّيار، والبسالة في الدّفاع عنها، والالتجاء إلى الحصون وعدم الخوف أو الهلع من الحصار الّذي ضربه عليهم الرّسول وأصحابه، وبيان أنّ تركَ المكانِ فيه خزيٌ لهم، ومعرَّةٌ تلحقُهُم.

نكتة بناء فعل ﴿أُخْرِجْتُمْ﴾ للمفعول:

شأنُ المنافقين التّهوين من شأن المسلمين

جيء بفعل الإخراج مبنيًّا للمفعول ﴿أُخْرِجْتُمْ﴾؛ لأنَّ فاعلَه معروفٌ للمنافقين ولبني النّضير، وكأنَّ المنافقين يريدون من وراء التّغافل عن ذكر الفاعل التّهوينَ من شأن المسلمين ودعوة اليهود إلى عدم الاكتراث بهم؛ مهما بلغت قوَّتُهم، ومهما طال حِصارُهم لهم، ونكتة أخرى أنَّ عدمَ ذكر الفاعل باعتبار شهرة الوعيد بالإخراج، فقد سارت فيه الرُّكبان، فذكر الفعل دون الفاعل باعتبار شهرته، والخوف من وقوعه.

معنى اللّام في: ﴿لَنَخْرُجَنَّ﴾، وأثر التّوكيد لدى المتلقّي:

توكيد الوعود دليل ريبة اليهود من المنافقين

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَنَخْرُجَنَّ﴾، هي الواقعة في جواب القسم، وهي تفيد توكيد الجوابِ وتقوية وقوعِه، وفائدتها في السّياق ألّا يقع في خاطر اليهود أيُّ مقدارٍ من الشكِّ في قَسَم أهل النّفاق على نصرتهم، وفي وعدهم بالمؤازرة والمساعدة ضدَّ المسلمين، فيزداد ثباتُهم، وتَقْوى عزائمُهم؛ عندما يعلمون أنَّ هناك مَن يقفُ وراءهم،

ويدعم موقفَهم، ويُلقي بنفسه في أتون المعركة معهم، وتلك حالةٌ نفسيّة عَزَفَ المنافقون على أوتارها؛ ليُضعِفوا المسلمين، ويَتَخلَّصوا من اليهود دون أن يظهروا في الصّورة.

بلاغة الكناية في فعل الإخراج:

من أساليب المنافقين ربط مصيرهم بمصير اليهود للإقناعِ بالثَّبات

إسناد فعل الخروج إلى ضمير المنافقين مؤكَّدًا باللّام في قوله تعالى: ﴿لَنَخۡرُجَنَّ﴾ الواقع جوابًا للقسم، هو وعدٌ مؤكَّد بالخروج مع اليهود إلى أيِّ مكان رغبوا فيه، وإنَّما وعدوهم بذلك؛ ليطمئنّوا، ويثبتوا، وهو كناية عن النُّصرة، وإلّا فإنَّ المنافقين لا يرضون أن يفارقوا بلادَهم[1]، فالتَّوكيد هو محاولةٌ لإقناع اليهودِ بالثّبات، بإلصاق مصيرهم بمصيرهم، وهو أسلوبٌ دالٌّ على الكذبِ العريض، والتّوريط العجيب.

دلالة التّقييد بالظّرف:

المنافقُ يُمارس أعلى درجات البيان لإقناع المقابل فيما يُريد

قُيِّد فعل ﴿لَنَخۡرُجَنَّ﴾ بالظّرف ﴿مَعَكُمۡ﴾؛ للدّلالة على أنَّ المنافقين قد أبدوا استعدادهم للذّهاب في نُصرة اليهود ومؤازرتهم إلى أبعدِ الاحتمالات وأشدِّها، وهو الخروج معهم ومصاحبتهم إلى أيِّ مكان يذهبون إليه، والمعنى: لئن أُخرجتم؛ لنخرجنَّ معكم البتَّة، ونذهبنَّ في صحبتكم أينما ذهبتم[2]، وقد دلَّ الظَّرف على المعيَّة في المكان والصّحبة في الزّمان، فهم يذهبون معهم إلى أيّ مكانٍ يذهب إليه اليهود، ويصاحبون في أيِّ وقتٍ يخرجون فيه، فالظّرف كناية عن أبلغ درجات التّضحية في مؤازرة اليهود، وهم في كنايتهم كاذبون مراوغون.

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿لَنَخۡرُجَنَّ﴾، ويمكن أن تكون معطوفة على جملة: ﴿لَئِنۡ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 99.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.

الاحتراسُ الدّافع لظنِّ اليهود بالمنافقين أن يُطيعوا الآخرين فيهم

﴿أُخۡرِجۡتُمۡ﴾، فتكون من المقول لا من المقسم عليه[1]، وأيًّا كان المعطوف عليه؛ فقد عُطفت الجملة لزيادة تطمين اليهود إلى مساعدةِ المنافقين ونصرتهم، بنفي أيِّ احتمال لطاعة أحد من المسلمين في خذلان اليهود والتَّقاعس عن نصرتهم، "فلمّا كان من المعلوم أنَّ للمنافقين أقارب من أكابر المؤمنين، وكان من الممكن أن يقوموا عليهم في منعهم من القيام مع اليهود؛ نصيحةً لهم وإحسانًا إليهم، نفي المنافقون ذلك بهذه الجملة"[2]، فالجملة من قبيل الاحتراس عن مظنّة تغيير الرّأي عند حصول الضّغط الاجتماعيّ، وهذه المبالغة في الاحتراس تدلُّ على عدم ثقة اليهود بالمنافقين.

دلالة النَّفي بـ (لا):

جاء قول المنافقين: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا﴾ منفيًّا بـ (لا)؛ لدلالته على نفي احتمال طاعة أحد من المسلمين في أمره بخذلان اليهود نفيًا قطعيًّا لا يعتريه شكٌّ.

بلاغة عطف الجملة غير المؤكَّدة على الجملة المؤكَّدة:

المنافقون أصحابُ مهاراتٍ بيانيَّة في الإقناع وبلاغة في الخطاب

جاءت جملة: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا﴾ عاريةً من التَّوكيد، بخلاف الجملة المعطوفة عليها ففيها توكيدات، وذلك أنَّ هذه الجملة جاءت احتراسًا استباقيًّا من توارد ظنون اليهود فيهم، فخلوّها من التَّوكيد يدفع شبهة الشكِّ فيهم، وهو ما يدلُّ على أنَّ الاحتراس جاء مباغتًا، لا أنَّه ردٌّ على أقوالٍ وردت، وهو ما يدلُّ على أنَّ المنافقين يستترون وراء قدراتهم البيانيَّة، وأنَّهم يتخيّرون الأساليب كما يتخيَّرون الألفاظ.

بلاغة الإيماء والكناية:

مقصودُ التّعبير بفعل الطّاعة المنفيّ: ﴿وَلَا نُطِيعُ﴾ الإيماء إلى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 99.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 447.

مؤازرةُ اليهود معصيةٌ لرسول الله وعداوةٌ صريحةٌ لا تقبل التّأويل

أنَّ المنافقين لا يوالون الرّسول ولا أحدًا من أتباعه، ولا يدينون لهم بطاعة، وأنَّهم يشاركون اليهود عداوتهم للمسلمين وكفرهم برسالة محمّد ﷺ، كما أنَّ هذا الوعد بعدم الطّاعة هو كنايةٌ عن المعصية المبيَّتة، تتمثَّل في الإلماح إلى أنَّ مؤازرة اليهود بأيِّ صورةٍ وبأيِّ شكلٍ تُعدُّ معصية عظيمة لرسول الله ﷺ، وعداوة صريحة معه.

نكتة التّعبير بصيغة المضارع:

جاء التّعبير بصيغة المضارع في جملة: ﴿وَلَا نُطِيعُ﴾؛ للدَّلالة على بيان إصرار المنافقين على تجدُّد المعصية منهم، وأنَّهم لن يتراجعوا عن معصيتهم، بل سيبقون في مؤازرتهم لليهود.

بلاغة الإيجاز باستعمال حرف الظرفيّة:

معيار تقدير المعاني المحذوفة السّياق

دلَّ استعمال حرف الظرفيّة ﴿فِيكُمْ﴾ على معانٍ كثيرة بدلالة السّياق والمقام، فكان له حظٌّ بديع من الإيجاز، والمعنى: في شأنكم، وفي ضُرِّكُم؛ إذ لا يخطر بالبال أنَّهم لا يطيعون مَن يدعوهم إلى موالاة إخوانهم، ويُقَدَّر المضاف في مثل هذا بما يناسب المقام[1]، والمعنى: لو فُرِض أنَّ أحدًا صار في القرب منكم، مثل قرب المظروف من الظَّرف ما أطعناه في التّقصير فيما يسرّكم[2]، أي: إنَّ أهل النِّفاق لن يساعدوا أحدًا في إيذاء اليهود مهما كان متمكِّنًا، وكان إيذاؤه لهم مؤكَّدًا.

نكتة تقديم ﴿فِيكُمْ﴾ على المفعول:

المنافقون حريصون على إشعار اليهود بمكانتهم عندهم

قُدِّم ذكر الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (ولا نطيع أحدًا فيكم أبدًا)؛ جريًا على عادة العرب في تقديم المفعول على الجارّ والمجرور، لكن عدلَ عن هذا التّرتيب هنا لغرض بلاغيٍّ يتمثّل في رغبة المنافقين في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 99.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 447.

إشعار اليهود بأهميتهم لديهم، وأنَّ منعَ الضّرر عنهم هو قصدهم وغايتهم، حتّى وإن كلَّفهم عداوةَ الرّسولِ والمسلمين.

نكتة تنكير المفعول:

نُكّر لفظ ﴿أَحَدًا﴾؛ لما يفيده التَّنكير من عموم فعل الطّاعة المنفيّ وشموله الرّسول ﷺ وجميع المسلمين، والمعنى: لا نطيع أحدًا يسألنا خذلانكم من الرّسول والمؤمنين(1).

دلالة ذكر ﴿أَبَدًا﴾:

نصرةُ المنافقين لإخوانهم اليهود راسخة ممتدَّةٌ إلى يوم الدّين

آثر النّظم الكريم ذكر ﴿أَبَدًا﴾، وهو ظرف زمان متعلّق بفعل الطّاعة المنفيّ، فلم يقل: (ولا نطيع فيكم أحدًا)؛ ليشمل الزّمان القادم؛ زيادةً في تطمين اليهود إلى أنَّ نصرة المنافقين لهم ستكون راسخةً لا ينال التَّغيير والتَّبديل، فهم لن يتخلّوا عنهم مهما طال الزّمان، وامتدّت الحرب، والمعنى: لا نطيع فيكم أحدًا ما دمنا نعيش، وإن طال بنا الزّمان(2).

وجه كثافة التَّوكيد وكثرته:

حركة النِّفاق تستلهم قوَّتها من جوهرها الأصيل الَّذي يُزيِّن لها الحروب

جاء كلامُ المنافقين الّذي يحكيه القرآنُ في قوله: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا﴾، مفعمًا بأساليب التَّوكيد وأدواته؛ إذ أُكِّدت جملته الأولى بالقسم، وأُكِّد جوابه باللّام والنّون الثّقيلة، كما أُكِّدت الجملة الثّانية بعدَّة أساليب غير اصطلاحيَّة، كنفي فعل الطّاعة بـ (لا)، وتقديم الجارّ والمجرور على المفعول، وتعليق الفعل بالظّرف الدّال على تجدُّد المؤازرة واستمرارها أبدَ الدّهر، بما يعكس حرصَ المنافقين على أن يصدق اليهودُ كلامَهم، ويؤذن بكراهتهم العميقة للرّسول ﷺ والّذين آمنوا معه، وهو ما يُظهر أنَّ العلاقة مع اليهود هي علاقة وجودٍ، فحركة النّفاق لا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 447.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 447، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.

تستغني عن جوهرها الأصيل الّذي يُزيِّن لها الحرب مع الإيمان، فهُم الّذين لا تستريح قلوبهم إلّا بإيقاد الحروب، وإشعال الفتن.

دلالة تقديم الإخراج على القتال:

المنافقون يُقدِّمون ما يتناسب مع الشخصيَّة اليهوديَّة في تحقيق مصالحهم

قُدِّم ذكرُ الإخراج: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾ على القتال: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾، وما يقتضيه ظاهر النّظر أنَّ القتال هو الّذي يكون سابقًا للإخراج، حتّى إذا غُلِبوا على أمرهم أُخرجوا، ونكتة التّقديم تستبين بمعرفة عقليّة النّفاق، فالمنافقون بدَؤوا بذكر الخطر الأكبر الّذي يُخيف اليهود، وهو الإخراج، باعتبارِه التّهديد الأبرز، والوعيد المذكور، وذلك أنَّ الإخراج يستلزم القتال، فلا إخراجَ من الأرض إلّا بالقتال، فعلى فرض أنَّ اليهود قوتلوا واضطرّوا للخروج فالمنافقون معهم في وحدة المصير، وعلى فرض أنَّ القتال لم يُحقِّق الغاية منه، وهي الإخراج، فإنَّ القتال بجانب اليهود متحقِّق كذلك في النُّصرة، فبدَؤوا بذكر التَّهديد الأفزع، ثم الأقلّ منه، وتوجيه آخر أنَّ المنافقين يعلمون حرص اليهود على الحياة، فبدؤوا بذكر ما يحرص عليه اليهود، فهم أهل دنيَّة يرضون بالحياة الدنيّة على الموت العزيز، فإن خُيِّروا بين الحياة مع الإخراج، أو الموت مع البقاء فسيكون الاختيار للحياة، فكان التَّقديم بهذا الاعتبار.

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾، وهو عطفٌ للتّهديد على التّهديد؛ لدفع أنَّهم لا يُقاتلون معهم إن وقع القتال.

بلاغة التّقابل في ذكر اللّام وحذفها في المتعاطفات:

خروج المنافقين مع اليهود مستبعدٌ، فاحتاج إلى توكيد بخلاف النّصرة

حذفت اللّام من جملة: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾، بخلاف قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾، فقد صُدِّرت الجملةُ باللّام، وذلك لاستبعاد وقوع الخروج من المنافقين مع اليهود، فكان تأكيد الخروج محمَّلًا أكيدًا

على الإقناع، أمّا القتال؛ فأمره أيسر؛ إذ كان الوعدُ بالنَّصر، والنَّصر قد يكون بالمالِ أو الجاه أو القتال أو بذلك كلِّه، فجاء التَّوكيد؛ بسبب استبعاد اليهود خروج المنافقين، بخلاف النّصرة فهي وإن ظهرت أنَّها أشدُّ، إلّا أنَّ الخروج عند التَّحقيق هو الأشدُّ؛ لما فيه من ترك البلاد والأموال.

نكتة استعمال (إنْ):

التّعبيرُ بحرف الشّرط المفيد للشَّكِّ في: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ يؤذن بتردُّد المنافقين في معرفة ما الّذي سيُقدم عليه المؤمنون، هل هو الإخراج أو القتال، فناسب التردُّد حرف (إنْ).

بلاغة استعمال مفردة القتال:

اليهود على التَّحقيق لا يُقاتلون بل يُعاقبون

آثر النَّظمُ استعمال لفظ القتال الموضوع؛ لإزهاق الرّوح من الجسد[1] في قوله تعالى: ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ دون رديفاته؛ باعتباره اللَّفظ الدّالَّ على الحرب في الإطلاق العرفيّ، فيُطلَق القتال على الحرب، وثمَّة إشارةٌ أخرى تدلُّ على خبث المنافقين ومكرهم، وهي الإيعاز لليهود بأنَّهم المُعتَدى عليهم، وأنَّهم في موقف الدّفاع عن الأنفس والدّيار، مع التّغافل عن خيانتهم عهدَ رسول اللّه ومحاولتهم الغدرَ به، وعدم عدِّ ذلك جريمةً يستحقّون القتلَ لأجلها، فاستعاضوا عن اللّفظ الحقيق بالمقام إلى لفظ القتال؛ إذ اللّفظ الأوفق هو (إن عوقبتم)، وشأن النَّظم الكريم ذكر المعنى الّذي ينطق به المنافقون؛ لبيان أقوالِهم كما قالوها، فتُفهم نيّاتهم وإيماءاتهم.

نكتة بناء فعل ﴿قُوتِلْتُمْ﴾ للمفعول:

المنافقون يتعهَّدون بنصرة اليهود ضدَّ أيِّ مقاتلٍ كان

جيء بفعل الشَّرط مبنيًّا للمفعول ﴿قُوتِلْتُمْ﴾؛ للعلم بمن سيصدر عنه القتال؛ إن وقع في المستقبل، وللإيماء إلى المبالغة في النُّصرة، أي: إن وقع القتالُ ضدَّ أيِّ أحدٍ قاتلَهم كائنًا مَنْ كان، ويدخل في

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (قتل).

ذلك الرّسولُ والمسلمون دخولًا أوليًّا، والمعنى: إن قوتلتم من أيِّ مقاتلٍ كان[1].

دلالة التَّوكيد وبلاغته:

الإبلاغ في تطمين اليهود ودفعهم إلى القتال

جاءت جملة ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ الواقعةُ جوابًا للقسم مؤكَّدةً باللّام والنّون الثَّقيلة؛ مبالغة من المنافقين في تطمين اليهود، وحثِّهم على القتال؛ إنْ فُرِضَ عليهم، ولم يعدْ أمامَهم بدٌّ منه أو خيارٌ غيرُه، والمعنى: إن قاتلكم المسلمون؛ لنقفنَّ إلى جواركم، ولنقدمنَّ العون الّذي يؤدّى إلى نصركم[2].

دلالة التَّعبير بمفردة النُّصرة:

النُّصرةُ أشملُ من القتال وأعمُّ

جاء التّعبير بذكر النّصرة بعد لفظ القتال بقوله: ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ دون (لنقاتلَنَّ معكم) على خلاف قولهم: ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾؛ إذ جاء الجواب مطابقًا لمفردة الشَّرط في جواب قسم الأوَّل، فاختلف قولُهم في شأن القتال عنه في شأن الإخراج، ونكتة ذلك أنَّ النّصرة أعمّ من القتالِ، فقد تكون بالقتال أو المال أو الجاه، فهُم يعدونهم بأنّهم سينصرونهم بكلّ الوسائل والأساليب، ويدخل فيها القتالُ دخولًا أوليًّا.

نوع الواو ودلالتها:

شهادةُ الله قاطعةٌ بكذب المنافقين

الواو في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ للاستئنافِ القاصدِ إلى تأكيدِ علمِ اللّهِ تعالى بحقيقة أمر المنافقين، وإحاطتِه التامَّة بما انطوتْ عليه قلوبُهم مِن حقدٍ على المسلمين، وأخوَّةٍ زائفةٍ لليهود الكافرين؛ تطمينًا للرَّسولِ ومَنْ معه؛ لئلّا يتوجَّسوا خيفةً من المنافقين ومن كيدهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 447.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 3/ 171.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 100.

براعة التّعبير باسم الجلالة:

الجمع بين مقصد المهابة والتَّرهيب

جاء التَّعبير باسم الجلالة العَلَم في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ تربيةً للمهابة، وقذفًا للرُّعبِ في قلوب المنافقين، وبثًّا للطُّمأنينة والأمن في قلوب المؤمنين، من خلال إعلام الجميع بأنَّ اللّهَ المحيطَ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا[1]، يعلم كذبهم، ويعرف ما تنطوي عليه قلوبُهم، ويقي الرّسول والمسلمين كيدَهم ومكرَهم؛ فكان ذكر الاسم الجليل جامعًا بين مقصد المهابة والإجلال في قلوب المؤمنين، والتَّخويف والإنذار في قلوب المنافقين.

غرض تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

قُدِّم المسند إليه على الخبر الفعليِّ في جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾؛ لتقوية أنَّ اللّه تعالى محيطٌ علمًا وقدرةً بحقيقة ما يقوله المنافقون لليهود وتأكيده، ويعلم كذبهم في كلِّ ما يعدونهم به.

غرض استعمال مفردة ﴿يَشۡهَدُ﴾:

توبيخ المنافقين وتبكيتهم بالشَّهادة الإلهيَّة عليهم

أوثر الإخبارُ عن اللّه تعالى بالفعل: ﴿يَشۡهَدُ﴾ دون (يعلم)؛ لأنَّ الخبر عن يقين بمنزلة الشهادة التي لا يتجازف المُخْبِر في شأنِها[2]، والمعنى: يعلم علم المشاهِد المُطَّلِع، وهذا أبلغ من ذكر العلم؛ لأنَّه يجمع بين العلم والشَّهادة، مع الإيماء إلى توبيخهم وتقريعهم وتبكيتهم، فإنَّ الشّهادة الإلهيّة عليهم بمنزلة الصَّفعة الّتي لا تزول، والضّربة الّتي تذهب.

دلالة التَّعبير بصيغة الفعل المضارع:

تجدُّد الشَّهادةِ الإلهيَّة على علاقة النّفاق باليهود

أوثر التّعبير بفعل الشّهادة ﴿يَشۡهَدُ﴾ مضارعًا؛ لدلالته على تجدّد شهادته سبحانه وعلمه؛ كلَّما تجدَّد زيف المنافقين وكذبهم، وتجدَّد تآمرُهم وكيدُهم، مع ما فيه من الإشارة إلى أنَّ موقف المنافقين

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 448.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 100.

من اليهود متجدِّد على مدى الزّمان، فتجدُّد الشّهادة يجب أن يكون حاضرًا في قلوب المؤمنين؛ ليعلموا أنّ هذه العلاقة ثابتة ومستمرّة ضد المؤمنين.

بلاغة التّوكيد ودلالته:

شـدَّة الغضبِ الإلـهـيّ على المنافقين توبيخٌ وتقريع

جاء قوله: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ مُؤَكَّدًا بإنَّ والجملة الاسميّة واللّام المزحلقة إلى الخبر؛ للإبلاغ في تأكيد كذب المنافقين في كلِّ ما قالوه لإخوانهم اليهود، وفي جميع ما وعدوهم به، وأقسموا لهم عليه بأغلظ الأيمان، والمعنى: واللّه يشهد إنَّهم لكاذبون فيما وعدوهم به من الخروج معهم والنُّصرة لهم، وفيما أكَّدوه لهم بالأيمان الفاجرة[1]، ونكتةُ التَّوكيد زيادة تقريعهم وتوبيخهم، فإنَّ التّوكيد يكون لبيان شدَّة الغضب لدى المؤكِّد؛ لقطع كلِّ ما يصدر عن الكاذب من أقوال.

بلاغة استعمال مفردة ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾:

الـكـذبُ دالٌّ عـلى الـنِّـفـاق المقترن بالوعودِ الفاضحة

آثر البيانُ الكريمُ استعمال مفردة الكذب دون النِّفاق، في قوله: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ دون (منافقون)؛ وذلك لأنَّ الكذبَ صفةٌ جامعةٌ لكل خصال المنافقين، وهي العاملُ المشترك في كلِّ ما يفعلون من كذبٍ في الكلام، ونكثٍ للعهود، وإخلافٍ للوعود، وحِنثٍ في الأيْمان وزيف في الأخوَّة، يُزاد على ذلك ما في الإخبار به عنهم من التّشنيع بهم، والتَّقبيح لصنيعهم، والذمِّ لأخلاقهم، والكذب هو الدّليل على النِّفاق، فالنِّفاق دعوى ودليلها كذبهم في مثل هذا الموضع؛ لأنَّ الكذب المقترن بمثل هذه الوعود هو نفاق وخيانة ورذالة لا يقوم بها إلّا من تلطَّخ بالنِّفاق.

نكتة التَّعبير بصيغة اسم الفاعل:

التَّعبير باسم الفاعل لإظهار الثُّبوت والعادة

أوثر التَّعبير بقوله: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ اسمَ فاعل دون الفعل؛ لدلالته

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 243، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 230.

على الثُّبوت والدَّوام، ما يعني: أنَّ الكذبَ صفةٌ لازمةٌ للمنافقين، وعادة من العادات الّتي دَرَجوا عليها، ولا يمكنهم التَّخَلُّصُ منها.

علّةُ فصل جملة: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ﴾:

الفصل اللفظي مع الاتصال المعنوي

جاءت جملة: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ﴾ مفصولة عن جملة: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ وذلك لأنَّها بيانٌ لها، فعلَّة الفصل كمال الاتِّصال، ففصلت الجملة عن السّابقة لفظيًّا، لكنَّها متصلَّةٌ بها معنويًّا.

نوع اللّام ودلالتها:

قَسَمُ الله فيه تطمينٌ للرّسول والمؤمنين لئلّا يُزعجهم قول المنافقين

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ﴾ موطئةٌ للقسم، والتَّقدير: واللّه لئن أخْرَجَ المؤمنون اليهودَ من ديارهم، فإنَّ هؤلاء المنافقين لا يخرجون معهم[1]، وهذا تأكيد من اللّه تعالى لرسوله ﷺ والمؤمنين أنَّ المنافقين لن يَضرّوهم شيئًا؛ لكيلا يعبؤوا بما بلغهم من مقالتهم[2]، وهي رسالةٌ دالَّةٌ على العلم الغيبيّ بواقع المنافقين، سواءٌ في ذكر ما قالوه لليهود، أم في ذكر ما سيكون منهم.

نكتة استعمال: (إنْ):

التّعبير بـ (إنْ) أداةً للشّرط في الآية بجملها الثّلاث مؤكِّدٌ لكذبِ المنافقين وتردُّدِهم وعدم صدقِهم فيما وعدوا به اليهود، وأقسموا لهم عليه من الخروج أو النّصرة.

بلاغة إعادة التَّعبير بما قاله المنافقون لليهود:

إقامة البرهان على علم الله تعالى بما قاله المنافقون لليهود

يُلْحَظُ في بيان الآية إعادةُ التّعبير بكلام المنافقين لليهود، والّذي حكاه قولُه تعالى: ﴿لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدٗا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾، والسرُّ في ذلك إقامةُ الدّليل والبرهان على علم اللّه تعالى بما قالوه لليهود، واطِّلاعه على ما وعدوهم به، وأقسموا لهم عليه، وتأكيد كذبهم فيه؛ زيادةً في تطمين

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 303.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 100.

الرّسول والمؤمنين، بجانب ما فيه من دلائل صدق النبوّة وإعجاز القرآن الكريم الغيبيّ.

بلاغة العطف بين الجمل:

الواو في جملة: ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؛ لعطف ما بعدها على قوله: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ﴾ جيء بها لدفع ما يمكن توهّمه من أنّ المنافقين قد لا يخرجون مع اليهود، ولكنّهم ينصرونهم، ويساعدونهم؛ إن قوتلوا، فأعيد القسم على نفي ذلك مع قرب العهد به؛ تأكيدًا لنفي النُّصرة، كما أكّد من قبل نفي الخروج، وزيادة تقريرٍ لكذبهم فيما قالوا.

تأكيد انتفاء النُّصرة كما أُكِّد انتفاء الخروج

دلالة النّفي بـ﴿لَا﴾:

عبَّر النّظم الكريم بحرف النّفي: ﴿لَا﴾، في جملتين في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؛ لدلالته على نفي خروج المنافقين مع اليهود؛ إن أُخرِجوا، ونفي نصرتهم لهم؛ إن قوتلوا، نفيًا قاطعًا لا يقبل الاحتمال، وأعيد ذكره في الجملة الثّانية مع قرب العهد به تأكيدًا لكذبهم، وتقويةً لزيف أخوّتهم، وتحقيقًا لإخلافهم الوعود.

خروج المنافقين مع اليهود ونصرتهم منفيٌّ عنهم نفيًا قاطعًا

دلالة التّعبير بالفعل المضارع:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع؛ جوابًا للقسم في جمل الآية الثّلاث، وهي: ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ و﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ و﴿لَيُوَلُّنَّ﴾؛ لما يمتاز به المضارع من استحضار مشهد المنافقين، وهم يتخلَّفون عن الخروج مع إخوانهم اليهود، واستحضار مشهدهم وهم يقعدون عن نصرتهم، واستحضار مشهدهم وهم يتركونهم في المعارك والحروب، بما يؤكّد زيف أخوَّتهم، وخبث طويَّتهم، يُزاد على ذلك ما يمتاز به المضارع من الدَّلالة على تجدُّد نفي الخروج والخذلان والتولّي في الحاضر واستمراره في المستقبل، والمعنى:

تصوير المشهد يؤكّد زيف المنافقين، وينفي نصرتهم المستقبليَّة

لئن أخرج اليهود في المستقبل لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا في المستقبل لا ينصرونهم[1].

نوع الواو ودلالتها:

الواو في جملة: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾؛ لعطف ما بعدها على ما تقدَّم[2]؛ تأكيدًا لكذبهم وزيادةً في تقريره، ويمكن أن تكون الواو للحال، والجملة بعدها ارتقاء في تكذيبهم على ما وعدوا به إخوانهم[3].

نوع اللّام في قوله: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾:

المنافقون لا ينصرون إلّا أنفسهم

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ هي الموطئة للقسم على كذبهم، وتولّيهم عن المساعدة والمعاونة عند حدوث الحرب، والمعنى: والله إن نصروهم على سبيل الفرض والتّقدير؛ ليولّين المنافقون الأدبار؛ فرارًا منكم أيُّها المؤمنون[4].

بلاغة استعمال (إنْ):

مآل المنافقين الوخيم مبنيٌّ على احتمالٍ ضعيف

استعمال أداة (إنْ) أداةً للشَّرط في جملة: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ دالٌّ على أنّ قيام المنافقين بنصرة اليهود أمرٌ ممتنعُ حصوله، مشكوكٌ في وقوعه؛ إذ يصعب عليهم القيام به والإقدام عليه، وأنَّه لو حدث على سبيل الفرض والتَّقدير؛ لانصرفوا عن القيامِ به، فهو بناء نتيجة وخيمةٍ على احتمال ضعيف.

بلاغة استعمال مفردة النُّصرة:

التهكُّم بالمنافقين فنصرتهم مآلها تولية الأدبار أو النُّكوص على الأعقاب

استعمال مفردة النُّصرة في إرادة الفعل، أو في وقوعه على سبيل الافتراض والتَّقدير، وليس على سبيل الحقيقة؛ لاستحالة قيام المنافقين به؛ لأنَّ الجبن والخور سجيَّةٌ فيهم، وطبيعةٌ لا تفارقهم، والقرينة الدّالة على ذلك هي قوله تعالى: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 100.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 50.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 100.
(4) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 303.

﴿يُنصَرُونَ﴾، فأطلق الفعل على إرادته، مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: 6]، والمعنى: أنّه لو فرض أنّ المنافقين أرادوا نصر اليهود؛ فإنَّ أمثالهم لا يُترقَّب منهم الثّبات في الوغى، فلو أرادوا نصرهم، وتجهَّزوا معهم؛ لفرّوا عند الكريهة[1]، وباستعمال هذه المفردة دلالة على معنى التَّهكُّم، أي: إن حصل نصرٌ من المنافقين؛ فمآله تولية الأدبار والنُّكوص على الأعقاب.

دلالة التّوكيد وفائدته:

الله تعالى يعلم ما لا يكون لو كان كيف يكون، كما يعلم ما يكون

اللام في قوله تعالى: ﴿لَيُوَلُّنَّ﴾ واقعة في جواب القسم، جاء التّعبير بها؛ للمبالغة في تأكيد تولّي المنافقين عن نصرة اليهود، وتقوية انصرافهم عن الحرب معهم بما لا يحتمل مجالًا للشكِّ، وسرُّ المبالغة في التَّأكيد أنَّ اللّهَ تعالى يعلمُ ما لا يكون لو كان كيف يكون، كما يعلم ما يكون[2].

فائدة التَّعبير بقوله: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ دون الفرار:

فـرارُ المنافقين ليس حيلة بل جبلَّة

قولُه تعالى: ﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ كناية عن الفرار، وقد أوثر التّعبير به دون: (لفَرّوا)؛ لما يدلّ عليه من أنّ فرار المنافقين ليس نوعًا من الكيد أو الحيلة، وليس فرارًا يتبعه هجومٌ، ولكنّه فرار مصحوب بالخوف والهلع، والإدبار الكُلّي، والإعراض التّام عن الحرب، ما يعني: أنَّهم انصرفوا عن الحرب فارّين بأرواحهم، عازفين عن نصرة إخوانهم الّذين أقسموا بأغلظ الأيمان على نصرتهم.

معنى التّعريف في لفظ ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾:

الأدبار كنايةٌ عن قبحِ الفارّين وجبنهم عن تحصيلِ المعالي

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ لتعريف العهد، وهو العضو المعروف من الجسد، وقد أوثر التّعبير به دون (الظهور)؛ لما شاع بين العرب في استعماله في مقام التَّحقير للفارّين من الحروب والقتال، فهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 100، 101.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 506، بتصرّف.

تحقيرٌ للمنافقين، وذمٌّ لفعلهم، وتقبيحٌ لصنيعهم، وإشارة إلى قبولهم بالذلّ والهوان من غير اكتراث بما يُمكن أن يُقال عنهم، أو يوصفوا به.

نكتةُ جمع ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾:

دلالة جمع (الأدبار) على الشّمول والاستمرار

جيء بلفظِ ﴿ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ جمعًا؛ للإشارة إلى حصول ذلك منهم جميعًا دون استثناء ولا تراجع، ما يعني: أنّه لا يوجد فيهم أحدٌ يسعى للنّصرة أو الإعانة على التّحقيق.

دلالة حرف التّراخي ونوعه:

انتفاءُ النّصر عن المنافقين حكمٌ إلهيٌّ لا يتبدَّل

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ للتّراخي الرّتبيّ، كما هو شأنها في عطف الجمل، فإن انتفاءَ النّصر أعظمُ رتبةً في تأييس أهل الكتاب من الانتفاع بإعانة المنافقين، فهو أقوى من انهزام المنافقين إذا جاؤوا لإعانة أهل الكتاب في القتال[1]، فانتفاء النّصر هو الحكم الإلهيّ الّذي لا يتبدّل في حقّ المنافقين، ومهما بذلوا من جهدٍ؛ فلن يبلغوا مآربهم، ولن يُحقّقوا مطالبَهم.

نكتة التّعبير بـ ﴿يُنصَرُونَ﴾ مضارعًا مبنيًّا للمفعول:

انتفاء النّصر حاضرًا ومستقبلًا هو موضع الاعتبار في الخبر

جيء بفعل: ﴿يُنصَرُونَ﴾ منفيًّا مضارعًا؛ لما يضربه هذا الفعل من الخبر الحتميّ الّذي لا يتبدّل، فالنّصرُ منفيٌّ عنهم حاضرًا ومستقبلًا، وجيء به مبنيًّا للمفعول لتوجيه الأنظار لنفي النّصر عنهم، فهو موضع الاعتبار المقصود، وليشمل المنافقين واليهود، والمعنى: لا يُنصر المنافقون بعد ذلك، أي: يُهلكهم اللّهُ، ولا ينفعُهم نفاقُهم لظهور كفرهم، وليُهزمنَّ اليهودُ، ثم لا ينفعهم نصرةُ المنافقين بعد ذلك[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 101.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

دلالة عدم ذكر قيد للفعل ﴿يُنصَرُونَ﴾:

شـمـول نـفـي النَّصر في الزّمان والمكان كلِّه

جاء التّعبير القرآنيّ بالفعل ﴿يُنصَرُونَ﴾ غير مقيّد بزمان ولا مكان؛ ليدلَّ على انتفاء انتصار الفريقين أو أيٍّ منهما في كل الأماكن وفي جميع الأزمان، والمقصود: تثبيت رسول الله ﷺ والمسلمين وتأمينهم من بأس أعدائهم[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 101.

﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ١٣ لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾ [الحشر: 13 - 14]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

اجتمع للمؤمنين أسباب الظَّفَر ووعد الكريم بالنّصر

لما كان المقصود من ذكر وهَن المنافقين في القتال في الآيات السّابقة تقويةَ نفس النبيّ ﷺ وأنفسِ المؤمنين حتّى لا يرهبوهم، ولا يخشوا مساندتهم قريظة وخيبر؛ ناسب إعلام المؤمنين بأنَّ المنافقين وأحلافَهم يخشون المسلمين خشية شديدة، وُصِفَت شدّتُها بأنّها أشدُّ من خشيتهم لله تعالى، فإنّ خشية جميع الخلق من الله أعظمُ خشيةً، فإذا بلغت الخشية في قلب أحدٍ أن تكون أعظمَ من خشية الله؛ فذلك منتهى الخشية[1]، فهو انتقالٌ من بيان شأن المنافقين مع اليهود، إلى بيان شأن اليهود مع المؤمنين؛ لإبلاغ المؤمنين بأسبابِ النّصر المعنويّة، بعد إبلاغهم بأسباب النّصر الماديّة، فاجتمع للمؤمنين وعد الله بالنّصر مع ذكر أسبابه، وهذا غاية العطاء الإلهيّ للمؤمنين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾: (حصن) أصلٌ واحِدٌ هوَ: الحِفْظُ والحياطَةُ والحِرْزُ، فالحِصْنُ مَعروفٌ والجَمْعُ حُصونٌ، قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ﴾، أي: مجعولة بالإحكام كالحصون، وقال: ﴿مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.[2]

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 101، 102.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن: (حصن).

2) ﴿جُدُرٍۭ﴾: (جدر) الجِدارُ، وهوَ الحائِطُ، وجَمْعُهُ: جُدُرٌ وجُدْرانٌ، فالجِدار: الحائط، إلا أنّ الحائط يقال اعتبارًا بالإحاطة بالمكان، والجدار يُقال اعتبارًا بالنتوِّ والارتفاع، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ﴾ [الكهف: 82]، وقال: ﴿أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾[1].

3) ﴿بَأْسُهُم﴾: (بأس) أَصْلٌ واحِدٌ هوَ: الشِّدَّةُ وما ضارَعَها، فالبَأْسُ الشِّدَّةُ في الحَرْبِ، وكل ما جاء في القرآن على صيغة (بَأسَ)؛ فهو من هذا، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ۝٨٤﴾ [النساء: 84]، وقال: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾[2].

4) ﴿شَتَّىٰ﴾: الشَّتُّ: تفريق الشّعب، يقال: شَتَّ جمعُهم شَتًّا وشَتاتًا، وجاؤوا أَشْتاتًا، أي: متفرّقي النّظام، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: 6]، وقال: ﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه: 53]، أي: مختلفة الأنواع، وقال أيضًا: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، أي: هم بخلاف مَن وصفهم بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: 63][3].

❁ المَعنى الإجماليّ:

كلُّ من اجتمع على الباطل فاجتماعه فرقةٌ باطنيّة

بيّنتِ الآيةُ الأولى هوانَ أمر اليهود والمنافقين في نفوس المؤمنين، ببيان أنّ هؤلاء الأعداء قد بلغ بهم الجبنُ والخورُ مبلغًا كبيرًا، فخشيتهم من المؤمنين أشدُّ من خشيتهم للّه تعالى، وسبب ذلك أنّهم قوم لا يفقهون الحقّ، ولا يعلمون شيئًا عن عظمة اللّه تعالى وجلاله وقدرته، وتزيد الآيةُ الثّانيةُ ذلك المعنى بيانًا، فتذكر دليلًا يحصل في الواقع على جبنهم وخورهم، فتوضّح أنَّ هؤلاء اليهود وحلفاءهم من المنافقين لا يقاتلونكم مجتمعين إلّا في قرى مُحصّنة بالخنادق وغيرها، أو يقاتلونكم من وراء الجدران الّتي يتستّرون

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، مفردات القرآن: (جدر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بأس).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (شتت).

بها؛ لأنَّهم يعجزون عن مبارزتكم، وعن مواجهتكم وجهًا لوجه، لفرط رهبتهم منكم، وعلى الرّغم من أنَّهم يظهرون أمامكم متّفقين متعاونين إلّا أنّ بينهم عداوة شديدة، وذلك الّذي ذُكِرَ من شدَّة بأسهم فيما بينهم، ومن مخالفة بواطنهم لظواهرهم، سببه أنَّهم قوم لا يعقلون الحقّ والهدى، وإنّما يُنساقون وراء أهوائهم بدافع من الأحقاد والمطامع والشّهوات، بدون إدراكٍ لعواقب الأمور، أو للفهم الصّحيح[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع اللّام ودلالتها:

تهوين أمر اليهود والمنافقين في نفوس المسلمين

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ لام الابتداء الّتي تدخل على الجملة الاسميّة، فتزيد معناها قوّةً ووكادةً، وقد أوثر التَّعبير بها في سياق الحديث عن اتِّحاد المنافقين مع إخوانهم الكافرين من أهل الكتاب وتعاونهم ضدّ المسلمين دون أن يقول: (أنتم أشدّ رهبة)؛ لتهوين أمرِ الفريقين في نفوس المسلمين، بالإبلاغ في تأكيد أنَّهم أضعفُ مما يتصوَّرُهُم المسلمون.

تعيين مرجع الضّمير المنفصل في صدر الآية:

تعزيز الثّقة بالنّفسِ من مقاصد خطابِ الله للمسلمين

الخطابُ في قولِه تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ للرّسول ﷺ ومَنْ معه مِن المسلمين، والمعنى: أنتم أيُّها المؤمنون[2]، وخطابُ المؤمنين، يُعطيهم شرف الخطاب، ويُقرِّبهم من المخاطِب، ويُكسبهم نوعًا من الثِّقة في النَّفس، وينزع القلق تجاه المنافقين من دواخلهم، فيعلموا أنَّ عدوَّهم خائف منهم؛ وذلك ممّا يزيد المسلمين إقدامًا في محاربتهم؛ إذ ليس سياق الكلام للتّسجيل على المنافقين واليهود قلّة رهبتهم للّه، بل إعلام المسلمين بأنّهم أرهبُ لهم من كل أعظم الرّهبات[3].

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 304، 305.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 102.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 102.

أثر كثافة التَّوكيد:

اليـهـود والمنافقون أقلُّ من أن يكونوا مصدر قلق للمؤمنين

جاء قولُه تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ﴾ مؤكَّدًا باللّام، والجملة الاسميّة الّتي تُفيد الثّبوت والدّوام، وتقديم المسند إليه على الخبر المشتقّ، والتّعبير بالضّمير الّذي هو أعرف المعارف لِما سبق ذكره من الإبلاغ في تطمين المسلمين وتهوين أمر اليهود والمنافقين في نفوسهم، والتّأكيد على أنّهم ليسوا بالبأس ولا بالشّجاعة الّتي تجعلهم مصدرَ قلقٍ للمسلمين؛ لأنَّ الحقيقة والواقع أنّهم يَرهبون المسلمين، ويخافونهم أكثرَ من خوفهم من اللّه جلَّ في علاه.

دلالة التّعبير بـ ﴿أَشَدُّ﴾:

المفاضلة في الرّهبة لبيانِ هوان اليهود والمنافقين على أنفسهم

قولُه: ﴿أَشَدُّ﴾ اسم تفضيل، وهو هنا خبر للضّمير المنفصل، والتّعبير به دالٌّ على أنَّ اليهود والمنافقين يخافون من المسلمين خوفًا عظيمًا لا نظير له، ولا شبيه به، فهم يخافونهم خوفًا أكبر وأقوى من خوفهم من اللّه، وإسناد اسم التّفضيل إلى ضمير المسلمين المخاطَبين إسناد سببيّ، كأنّه قيل: لرهبتُكم في صدورهم أشدُّ من رهبة اللّه فيها[1].

بلاغة التَّعبير بمفردة ﴿رَهْبَةً﴾ مادّة وصيغة:

رهبةُ المؤمنين في صدور اليهود والمنافقين راسخةٌ ثابتة

﴿رَهْبَةً﴾ مصدر للفعل (رهب) المبنيّ للمفعول؛ لأنَّ المخاطَبين مرهوب منهم لا راهبون، والمعنى: أنتم أشدُّ مرهوبيّة في صدورهم[2]، وهو تمييز منصوب، وقد جاء استعمال هذا اللّفظ دون رديفاته لدلالته على الخوف الدّائم الّذي لا يفتُر، ولا ينقطع[3]، وهو المناسب لمقام المفاضلة الّذي أفاده لفظ ﴿أَشَدُّ﴾، فالرّهبة من اللّه ﷻ حاصلة، لكنَّ الرهبة من المؤمنين أشدُّ في صدور الغافلين،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 102.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 102، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 51.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 241.

فاليهود والمنافقون يرهبون المسلمين على الدّوام، عكس ما يظنّه المسلمون بهم، ويعتقدونه فيهم، ولو قيل: (لأنتم أشدُّ خوفًا)؛ لفُهم أنَّ ذلك حاصلٌ في وقت معيَّن، وأنَّ خوفَهم من المسلمين لا يدوم أبدًا، وهو ما يُنافي الواقع والحقيقة.

بلاغة التّعبير بحرف الظرفيّة:

التّعبير بحرف الجرّ المفيد للظرفيّة في قوله: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ دالٌّ على تغلغل الرّهبة من المسلمين في صدور اليهود والمنافقين وتمكُّنه منها تمكّن المظروف من الظّرف.

نكتة التّعبير بالصّدور دون القلوب:

الصّدور أنسب بمعنى الاتّساع والانتشار من القلوب

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة الصّدور دون القلوب في قوله تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم﴾، والصّدور محلُّ القلوب، أي: إنَّ امتلاءَ الصّدور بالرَّهبة دالٌّ على شدَّة الخشية وعظمتها، وشمولها القلوب والنّفوس وسائر أعضاء البدن، والتّعبير بالصّدور هو الأدقُّ في سياق وصف رهبتهم، باعتبار اتّساع الرّهبة وامتلاء الصّدور منها، فهو تصويرٌ لشديد الرّهبة وأثرها في المجموع.

غرض جمع لفظ الصّدور:

دلالة جمع الصّدور على عدم الاستثناء

جَمْعُ الصّدور مع إضافته إلى ضمير الجمع دالٌّ على شمول التّعبير جميع الكفّار والمنافقين من غير أن يشذَّ عن تلك الحقيقة أحدٌ من الفريقين، أو يُستثنى منهم واحدٌ.

تعيين مرجع ضمير الجمع:

اليهود والمنافقون هم الرّاهبون بلا استثناء

الضّمير المجرور في قوله تعالى: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ عائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ وإلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ إذ ليس اسم أحد الفريقين أولى بعود الضّمير إليه مع صلاحيّة الضّمير لكليهما، ولأنَّ

المقصودين بالقتال: هم يهود قريظة وخيبر، وأمّا المنافقون؛ فكانوا أعوانًا لهم[1].

موقع ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ الإعرابيّ ودلالته:

رهبةُ اليهود والمنافقين من المسلمين رهبةٌ جِدُّ خفيةٍ

قولُه تعالى: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ جارٌّ ومجرور في محل نصب صفة لـ ﴿رَهْبَةً﴾، وقد أوثر وصف الرّهبة به؛ للإشارة إلى أنّها رهبةٌ جدٌّ خفيّة، أي: إنَّهم يتظاهرون بالاستعداد لحرب المسلمين، ويتطاولون بالشّجاعة؛ ليرهبهم المسلمون، وما هم بتلك المنزلة، فأطْلَعَ اللّهُ رسولَه ﷺ على دخيلتهم[2]؛ ليعرف حقيقتهم، ولا يحسب لاجتماعهم ووحدتهم حسابًا، والمعنى: إنَّ رهبتهم منكم في السرِّ أشدُّ مما يظهرونه لكم من رهبة اللّه، فإنَّهم كانوا يدَّعون أنَّ عندهم رهبةً عظيمةً من اللّه تعالى[3].

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

الدَّلالة البيانيَّة التَّفضيليَّة

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ هي البيانيَّة التفضيليَّة الّتي تبين أنَّ اليهود والمنافقين يرهبون المسلمين رهبة عظيمة، بلغت من قوَّتها أن تكون أعظم في صدورهم من خوفهم من اللّه تعالى.

غرض التَّعبير باسم الجلالة:

كلُّ من جعل اللّه أهون من غيره؛ فمآله الهزيمة والرَّذيلة

أوثر التّعبير باسم الجلالة العلم: ﴿ٱللَّهِۚ﴾ مفضَّلًا عليه، للكشف عن حقيقة الرّهبة وبيان مقدارها؛ لأنَّ اللّهَ ﷻ وتعالى قدره هو أعظم ما يُخشى، وأجلُّ مَن يُهاب، والأصل ألّا يُخشى أحد بمثل ما يُخشى به اللّه، بل لا يُتصوَّر أن يكون هناك من هو أرهب من اللّه تعالى، فذكر النّظم هذا الاسم المهيب لبيان غفلتهم، وسبب هزيمتهم، فكلُّ من رهب أحدًا أكثر من اللّه؛ فمآله إلى الانهزام والإخراج.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 103.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 103.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

بلاغة المجاز بالحذف:

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ على تقدير مضاف محذوف، تقديره: من رهبة اللّه، أي: رهبتهم من المؤمنين أشدُّ من رهبة اللّه تعالى، ونكتة الحذف لتفخيم الموقف، ولتحاشي التّقابل اللفظيّ بين الرّهبتين.

غرابة نظم الآية وتركيبها:

غرابة النَّظم وعجيب تأليفه تُناسب غرابة فعل اليهود والمنافقين

بناءُ الآية تركيبٌ غريبُ النّسج بديعُ الرّصف؛ لأنَّ المألوف في أداء مثل هذا المعنى أن يُقال: (لرهبتهم منكم في صدورهم أشدُّ من رهبتهم من اللّه)، فحوِّل عن هذا النّسج إلى النّسج الّذي حَبَكَ عليه في الآية، ليتأتّى الابتداء بضمير المسلمين اهتمامًا به، وليكون متعلّق الرّهبة ذوات المسلمين لتوقّع بطشهم، وليأتي التّمييز المحوّل عن الفاعل لما فيه من خصوصيّة الإجمال مع التّفصيل، وليتأتّى حذف المضاف في تركيب ﴿مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾؛ إذ التّقدير: من رهبة اللّه؛ لأنَّ حذفه لا يحسن إلّا إذا كان موقعه متّصلًا بلفظ ﴿رَهۡبَةٗ﴾؛ إذ لا يحسن أن يُقال: لرهبتهم أشدُّ من اللّه[1].

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

عـند وقـوع العجب يُسأل عن السّبب

جاءت جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ مفصولةً عما قبلها؛ لأنَّها تبيِّن السّبب في كون اليهود والمنافقين يرهبون المسلمين أشدَّ من رهبتهم للّه، ومن ثمّ فصلت عنها، كما يفصل السَّبب عن المسبَّب، فهي على تقدير سؤالٍ سائلٍ: لماذا وقع منهم ذلك؟ فيأتي الجوابُ بيانًا لسبب اشتداد الرّهبة في صدورهم؛ فيما يعرف بشبه كمال الاتّصال.

مرجع اسم الإشارة وبلاغته:

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة راجعٌ إلى ما ذُكر من كون رهبتهم

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 103.

منكم أشدَّ من رهبة اللّه[1]، والتّعبير به - مع كونه مختصًّا بالبعيد - دالٌّ على بلوغ المُشار إليه في الغرابة والعجب مبلغًا عظيمًا[2]، بإنزال ما فيه من بُعْدٍ معنويٍّ منزلةَ البُعْدِ الحسّي، والمعنى: ذلك الأمر الغريب، وهو خوفهم الثّابت من مخلوق مثلهم ضعيف، يزيّنه لهم عدمُ خوفهم من الخالق على ما له من العظمة في ذاته، وكونه غنيًّا عنهم[3]، فحمل اسم الإشارة معنى البُعد المضمَّن معنى التّعجب من شعورِهم المنبئَ عن غفلةٍ لا يقع فيها إلّا من فقد تعاليم الكتاب الّذي ينتمي إليه اليهود.

من تخلّى عن تعاليم التَّوراةِ؛ تشرذم في جُبِّ الرَّهب وبئر الرُّعب

نوع الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾؛ لبيان السَّبب الّذي جعلهم على النّحو السّابق ذكره، وهو خشيتهم المخلوق أكثر من خشيتهم للّه تعالى، والمعنى: سبب ذلك المذكور هو انتفاء فقاهتهم[4].

دلالة التَّوكيد في جملة الفاصلة:

جاء قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ مؤكَّدًا بأنَّ والجملة الاسميّة، والتّعبير بالضَّمير العائد إلى اليهود والمنافقين دون غيرهم؛ للمبالغة في تأكيد أنَّ السّبب الّذي جعل اليهود والمنافقين يخشون المسلمين - مع أنَّهم خلقٌ من خلق اللّه تعالى - أشدَّ من خشيتهم للخالق ﷻ هو انعدام فقههم، وعدم إدراكهم جلالَ اللّه تعالى وعظمته حتّى يخشوه حقَّ خشيته[5]؛ لأنَّهم كالحيوانات لا نظرَ لهم إلى الغيب إنَّما هم مع المحسوسات[6].

شدَّةُ الرَّهبة تدلُّ على انعدام الفقه في النَّظر للمحسوسات أكثر من الغيبيّات

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.

(5) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.

(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.

بلاغة ذكر لفظ ﴿قَوۡمٞ﴾، ودلالة تنكيره:

قيامُ اليهود والمنافقين على انعدام فقه الغيبِ سببُ خيبتهم

آثر النّظم الكريم ذكر لفظ ﴿قَوۡمٞ﴾ دون أن يكتفي بأن يُقال: (ذلك بأنَّهم لا يفقهون)؛ وذلك لِما يؤذن به من أنَّ عدمَ فقه أنفسهم أمرٌ عُرفوا به جميعًا، وصار من مقوِّمات قوميّتهم لا يخلو عنه أحدٌ منهم[1]، وتنكيره دالٌّ على تحقير شأنهم والتَّقليل من قدرهم، والإشارة إلى أنَّ عدمَ الفهم سمةٌ عامَّةٌ فيهم، غالبةٌ عليهم، من غير شذوذِ أحدٍ، أو استثناءٍ للأبد.

فائدة النّفي بـ ﴿لَّا﴾:

قولُه: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ جملة في محلّ رفع صفة لـ ﴿قَوۡمٞ﴾، و﴿لَا﴾ فيها حرف نفي يدلُّ على انتفاء علم اليهود والمنافقين وفهمهم قَدۡرَ اللّه وجلالَه نفيًا قاطعًا لا حدود له، ولا احتمالَ لحصوله بأيِّ مقدار.

فائدة نفي الفقه:

الفقه رأسُ النّجاة القلبيَّة وسرّ المكنة الإيمانيّة

آثر النّظم الكريم نفي الفقه عن الرّاهبين من اليهود والمنافقين، دون نفي الإيمان أو العقل ونحوه، وذلك أنَّ الفقه هو فهمُ المعاني الخفيّة[2]، أو هو العلم بمفهوم الكلام ظاهرِه الجليِّ وغامضِه الخفيِّ بسرعة فطنةٍ وجودة قريحةٍ[3]، فنفيه في قوله: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ انعدامَ الفقه طريقٌ إلى انتفاء الإيمان، وسبب فيه، فالفقه أو الفهم عاملٌ رئيسٌ في تمكُّن الإيمان من القلوب وتغلغله فيها؛ فلمّا غاب الفقه؛ حضر الخوف، ورأس الفقه توكيل الأمر للّه تعالى، والإيمان به كما أمر.

نكتة التّعبير بصيغة الفعل المضارع:

جيء بفعل الفقه المنفيِّ مضارعًا، فقيل: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾؛ للدَّلالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.

اغترارُ اليهود والمنافقين ومخادعتهم سببُ انعدامِ فقههم

على أنَّ جهلَ اليهود والمنافقين صفةٌ متجدّدةٌ فيهم، وليست خاصّةً بوقت من الأوقات أو موقف من المواقف، والمعنى: لا يتجدَّد لهم؛ بسبب كفرهم واعتمادهم على مكرهم في وقت من الأوقات فَهْمٌ يشرح صدورهم؛ ليدركوا به أنَّ اللّه تعالى هو الّذي ينبغي أن يُخشى لا غيره[1]، فدلَّ عدمُ الفقه على اعتماد المكر والخديعة، وهو سرُّ الخذلان الّذي هم فيه؛ لما فيه من الاغترار بالنّفس، ومخادعة الآخرين، فلمّا ثبتت لهم صفة الاغترار والمخادعة؛ دام لهم انعدام الفقه، فالنَّتيجة تدور مع سببها وجودًا وعدمًا.

نكتة حذف متعلّق ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

عدمُ الفقه وصفٌ لازمٌ لليهود والمنافقين

حُذِف متعلِّق فعل الفقه في قوله تعالى: ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾؛ ليفيد حذفُه عمومَ النّفي وشمولَه كلَّ شيء يساعد اليهود والمنافقين في إدراك عظمة اللّه تعالى، ويجعل خشيتهم له أعظمَ من خشيتهم لغيره من الخلق، مهما كانت قوَّتُه ومهما كان بأسُه، والمعنى: لا يفقهون شيئًا حتّى يعلموا عظمةَ اللّه سبحانه، فيخشوه حقَّ خشيتِه[2]، أو لتنزيل فعل الفقه المتعدّي منزلة الفعل اللّازم، فهُم لا يفقهون في سلوكهم وتفكيرهم ومشاعرهم، فانعدامُ الفقه وصفٌ لازمٌ لهم.

علة فصل جملة: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾:

شدَّة الاحتياطِ عند القتال بيانٌ لعظيم الرّهبة في سائر الأحوال

جاءت جملة: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ مفصولة؛ لأنَّها بدل اشتمال ممّا قبلها؛ إذ إنَّ شدّة الرّهبة من المسلمين تشتمل على شدَّة التحصُّن لقتالهم، والمعنى: لا يقدرون على قتالكم إلّا في هاته الأحوال[3]، وذلك فيما يعرف بكمال الاتِّصال، الّذي تنزل فيه الجملةُ المفصولةُ ممّا قبلها منزلةَ التّابعِ من المتبوع.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.

بيان واقع جبن اليهودِ في القتال ممّا قد لا يخطر على قلب مؤمن

بلاغة القصر بطريق النَّفي والاستثناء:

قوله تعالى: ﴿لَا يُقَتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾، قُصِر فيه قتالُ اليهود والمنافقين للمسلمين على كونه في قرى محصَّنة أو من وراء جُدُر، قصرَ موصوف على صفة قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا بطريق النَّفي والاستثناء، والمعنى: لا يقدرون على مقاتلتكم مجتمعين متساندين إلّا كائنين في قرًى محصّنةٍ بالخنادق والدّروب، أو من وراء جدر، دون أن يصْحَروا لكم، ويبارزوكم[1]، وقد أوثر النّفي والاستثناء طريقًا للقصر؛ لأنَّه يمتاز عن غيره بكونه يُستعمَل للأمر الّذي يُنكره المخاطَبُ، أو يشكُّ فيه[2]، كما هو حال المؤمنين؛ إذ كانوا يعتقدون أنَّ اتحادَ اليهود والمنافقين سيجعلهم ذوي قوَّة وبأس يستطيعون بهما أن يواجهوا المسلمين، ويبرزوا أمامهم في معارك قويّةٍ مُرْهِقةٍ، فجاء القصر؛ لينفي قتالهم مجتمعين مطلقًا، ويثبت كونه في الحصون أو من وراء الجدر فقط، ما من شأنه أن يزيد المسلمين اطمئنانًا وتأكُّدًا من ضعف أعدائهم وتفرُّقهم، وثقة وفخرًا بما هم فيه مِن ترابطٍ وأخوَّةٍ وإيثارٍ.

التهكُّم باليهود والمنافقين فمقاتلتهم عند التَّحقيق ليست مقاتلة

بلاغة إثبات المقاتَلة مع نفيها:

جاء التّعبير عن القتال بصيغة المفاعلة، في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَتِلُونَكُمۡ﴾، مع أنَّ السّياق ينفي إقدامَ اليهود والمنافقين على قتال المسلمين أو مواجهتهم في معركة بشكل مباشر، وذلك جَرْيًا على اعتقادهم أنَّهم يُقاتلون حين يُدافعون، أو تغليبًا لقتالِ المسلمين لهم واضطرارهم؛ للدِّفاع عن أنفسِهم في القرى المحصَّنة، أو مِنْ وراء الجُدُر، أو للتَّهكُّم بهم؛ إذ أثبت لهم المقاتلة في القرى المحصَّنة أو من وراء جدر، وهذه على التَّحقيق ليست مقاتلة، تهكُّمًا بهم، وبيانًا لشديد جبنهم.

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.

(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 332.

دلالة لفظ ﴿جَمِيعًا﴾:

قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضَّمير المرفوع في ﴿يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾، يجوز أن يكون بمعنى: كلّهم فيكون للشُّمول، أي: لا يقاتلكم اليهودُ والمنافقون كلُّهم إلّا في قرى محصَّنة، ويجوز أن يكون بمعنى: مجتمعين، أي: لا يقاتلونكم جيوشًا كشأن جيوش المتحالفين، فإنّ ذلك قتالُ مَن لا يقبعون في قراهم، فيكون النَّفي منصبًّا إلى هذا القيد، أي: لا يجتمعون على قتالكم اجتماع الجيوش، أي: لا يهاجمونكم، ولكن يقاتلون قتالَ دفاعٍ في قراهم[1].

قتال اليهود والمنافقين هو قتالُ دفاعٍ لا قتال جيوش متحالفة

نوع الاستثناء ودلالته:

إذا كان ﴿جَمِيعًا﴾ بمعنى: كلهم، فالاستثناء حقيقيٌّ من عموم الأحوال، أي: لا يقاتلونكم كلُّهم في حال من الأحوال، إلّا في حال الكون في قرى مُحَصَّنة، وإذا كان النَّفي مُنْصَبًّا على قيد الاجتماع، فالاستثناء منقطعٌ؛ لأنَّ القتال في القرى ووراء الجدر ليس من أحوال قتال الجيوش المتساندين، وعلى كلا الاحتمالين فالكلام يفيد أنَّهم لا يُقاتلون إلّا متفرّقين، كلُّ فريق في قريتهم، وإلّا خائفين متترِّسين، والمعنى: لا يهاجمونكم، وإنْ هاجمتموهم لا يبرزون إليكم، ولكنَّهم يدافعونكم في قرى محصَّنة، أو يقاتلونكم من وراء جدر، أي: في الحصون والمعاقل ومن وراء الأسوار، وهذا كنايةٌ عن مصيرهم إلى الهزيمة؛ فما حورِب قومٌ في عقر دارهم إلّا ذلّوا، وهذا إطّلاعٌ لهم على دخائل الأعداء؛ تطمينًا للرَّسول ﷺ والمؤمنين معه[2].

أطلعَ اللهُ المؤمنين على دخائل الأعداء؛ تطمينًا لهم وتثبيتًا

بلاغة التَّعبير بحرف الظرفيّة:

التَّعبير بحرف الظرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ﴾ دالٌّ على أنَّ اليهود لا يقدرون على مواجهة المسلمين مواجهةً مباشرة،

القتال في القرى المحصَّنة استراتيجيَّة قتال لا تكتيك حرب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 105.

أو في أماكن مفتوحة، إنَّما مواجهتهم معهم تكون من داخل دروع وأسوار وخنادق تحيط بهم إحاطة الظّرف بالمظروف، وهو دليل على ضعفهم وسرعة تسرُّب الرُّعب الّذي يقذفه اللّهُ تعالى في قلوبهم؛ إذ التَّغلغل في القرى الموصوفة بأنَّها محصّنة، ليس إخبارًا عن واقع عسكريٍّ، أو سلوك احتياطيّ، بل هو استراتيجيَّة ناشئة عن أخلاقٍ مجتمعيَّة، وسلوك مرتبط بنظرة الإنسان للحياة، ومدى تشبُّثه بها.

نكتة جمع لفظ ﴿قُرَى﴾:

اليهود مفرَّقين في قراهم اتِّساقًا مع طبيعتهم الّتي تَرْهَب المواجهة

جمع لفظ ﴿قُرَى﴾؛ للدَّلالة على ما سبق ذكره من أنَّهم لا يواجهون المسلمين مواجهةَ الجيوش النّظاميّة الموحَّدة المتحالِفة، ولكنّهم يقاتلونهم قابعين في قُراهم، داخل أسوار كلِّ قرية؛ لأنَّهم - فيما بينهم - ليسوا بالوحدة ولا بالاجتماع الّذي يظنّه المسلمون، على ما سيأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ﴾، فجمع القرى لبيان أمرين، الاجتماع في داخل القرى هروبًا من الموت، والفرقة الّتي بينهم الّتي جعلتهم في قرى محصّنة، كلٌّ منهم حريص على أن ينجو بنفسه.

نكتة تنكير لفظ ﴿قُرَى﴾:

تحصينُ القرى عامٌّ فيها كلِّها، وليس لبعضها دون بعضها الآخر

نُكِّر لفظ ﴿قُرَى﴾؛ للدَّلالةِ على العموم والشّمول، أي: إنَّهم يقومون بتحصين كلِّ قُراهم؛ اتِّساقًا مع طبيعتهم الّتي تَرْهَب المواجهة، وتتَّسم بالخوف من المخلوق أكثر من خوفها من الخالق، ولو قيل: (القرى المحصّنة)؛ لفُهم أنَّهم يفعلون ذلك احترافًا واحتياطًا، ويظهر أنَّ تحصين قراهم كان بعد سماعهم بالخطر الماحق، فحصَّنوا قراهم، بقطع النّظر عن أي اعتبار آخر.

غرض وصف القرى بأنَّها ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾:

وُصِفَت القرى بأنَّها ﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾؛ لتأكيد جُبن اليهود وتقوية خوفهم من المسلمين، ببيان أنَّهم يعمدون عند القتال أو الدّفاع إلى المباني

والدّروب والخنادق الّتي أعدّوها مسبقًا، والّتي يكثرون منها حول قراهم وفي مدنهم؛ ليحتموا بها من سيوف المسلمين وأسلحتهم، ويمكن أن يكون لجوؤهم إليها واحتماؤهم فيها نوعًا من التربُّص وانتظار مَنْ تكون له العاقبة(1).

تحصين اليهود لقراهم هروبٌ من القتال لا استعداد له

نوع ﴿أَوۡ﴾ ودلالته:

﴿أَوۡ﴾ حرف عطف يفيد التَّقسيم أو التَّنويع، ويمكن أن يكون هنا لِمُطلق الجمع(2) ما يعني: أنَّ اليهودَ لا يختارون من وسائل القتال والدّفاع إلّا الحصونَ والجدرَ وما كان على شاكلتهما في تحقيق الحماية والاستتار، والحيلولة بينهم وبين المسلمين؛ لئلّا يظهروا لهم، ولا يبرزوا أمامهم؛ تأكيدًا لجبنهم، وتقوية لشدَّة خوفهم وخورهم، وسرعة انهيارهم.

ينحصر قتال اليهود في القرى المحصَّنة ومن وراء الجُدُر

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها:

آثر النَّظم الكريم استعمال حرف ﴿مِن﴾، فلم يقل: (إلّا في قرى محصّنة أو وراء جدر)، فقال: ﴿مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾؛ وذلك للتَّأكيد على أنَّهم لا يبرحون وراء الجدران، ولا يخرجون خارج الحصون، ولا يبتعدون عنهما، أو عمّا كان على شاكلتهما، إنَّما يظلّون فيها أو خلفها يقاتلون، ويدافعون، ويفعلون ما يعتقدون أنَّه حرب وقتال، دون أن يصْحَروا للمسلمين، ويبارزوهم لفرط رهبتهم منهم(3)، ومَن فعل غير ذلك منهم؛ فعله بصورة فرديّة، وعن غير اجتماع(4)، فإنَّ قتال اليهود يبدأ من وراء الجدر، ليحتمي بها عن السّهام والرّماح، فدلَّ الحرف على أنّهم لا يبتعدون عن الجدر، بل يبقون ابتداءً من ورائها ثابتين؛ كي لا يصيبهم أذًى أو مكروه.

دلَّ حرف (من) على أنَّ اليهود لم يتجاوزوا الجدر، وبقوا خلفها

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 9/ 596.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 88.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450، 451.

بلاغة استعمال ﴿وَرَآءِ﴾:

آثر النّظمُ التّعبيرَ بكلمة ﴿وَرَآءِ﴾، دون (خلف) في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭ﴾؛ لشموليَّة التَّعبير بها كلَّ الاتجاهات، ما يعني: أنَّ اليهود يكونون أحيانًا خلف الجُدارن، وأحيانًا أمامها، وأحيانًا بجانبها، وأحيانًا تحيط بهم الجُدران من جميع الجوانب، فكلمة: ﴿وَرَآءِ﴾ تقال في أيِّ جانب من الجدار، فهو وراءَهُ باعتبار الّذي في الجانب الآخر[1]، ولو قيل: (خلف)؛ لدلَّ ذلك على أنّهم لا يقاتلون إلّا من اتِّجاه واحد، وهو ما يجعلهم عرضة؛ لأن ينكشفوا لأعدائهم، وهذا مخالف؛ لما دَرَجوا عليه في الحروب الّتي يخوضونها، فهم يجعلون الجدر حاميةً لهم، وهم يلزمونها بحيث تكون أمامهم، وهم وراءها لتحميهم، ولا تكشفهم للمؤمنين.

كلمة (وراء) تقال باعتبار الّذي في الجانب الآخر، فتشمل كلَّ الجوانب والاتجاهات

علّة فصل جملة: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ﴾:

جاءت جملة: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ﴾ مفصولة عمّا قبلها لشبه كمال الاتّصال، الّذي تُجيب فيه الجملةُ المفصولةُ عن سؤال أثارته الجملةُ السّابقةُ في نفوس المتلقّين، حول السّبب الّذي جعل اليهود لا يقاتلون المسلمين قتال الجيوش المتساندة، مع أنّهم متفقون على عداوتهم. فيُجاب بأنَّ بينهم بأسًا شديدًا وتدابرًا، فهم لا يتّفقون[2]، ولو قاتلوا مجتمعين في جيش واحد؛ لوقع الاختلاف فيما بينهم، لحرصهم على الحياة، ورمي كلِّ فريق منهم البقيّة في نار القتل، ومن ثم فُصِلت عمّا قبلها، كما يُفصَل الجوابُ عن السّؤال.

التّفكّك المجتمعيّ والتّمزق الدينيّ سببُ الحماية الشّديدة

فائدة استعمال مفردة ﴿بَأۡسُهُم﴾:

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿بَأۡسُهُم﴾ الدالّ على الشدَّةِ والقوَّة دون (خلافهم)؛ لدفع ما يمكن قولُه: من أنّ اليهود

البأس ثابتٌ لليهودِ لكنّه داخليٌّ يزعزعهم ولا يُقوّيهم

---

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (ورى).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 106.

والمنافقين يقاتلون المسلمين متحصّنين أو من وراء الجدر عن عجز لازم لهم[1]، فالتّعبير بالبأسِ لإثبات أنّهم ذوو بأس، لكنّه لا يظهر في مواجهة المسلمين، بل يظهر البأس الشّديد بينهم؛ لأنَّ اللّه تعالى قذف في قلوبهم الرّعب منهم، والمعنى: إنَّ البأسَ الشّديدَ الّذي يوصفون به إنّما هو بينهم؛ إذا اقتتلوا، ولو قاتلوكم لم يبقَ لهم ذلك البأس والشدَّة؛ لأنَّ الشُّجاع يجبُن، والعزيز يذلُّ عند محاربة اللّه ورسوله[2].

دلالة إضافة (بأس) إلى الضّمير:

القصد إلى الخصوصية بدلالة الإضافة

إضافة (بأس) إلى ضمير اليهود في قوله تعالى: ﴿بَأۡسُهُم﴾ تؤذن بأنَّ لهم بأسًا خاصًّا بهم، وشدَّة يعرفونها عن بعضهم، لكنَّهم لا يستعملونها إلّا فيما بينهم.

بلاغة التّعبير بالظّرف:

حصر البأس داخل نطاق اليهود والمنافقين

قولُه: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ ظرفٌ متعلِّقٌ بـ ﴿شَدِيدٞۚ﴾، وفي التَّعبير به دلالة على أنَّ مجال البأس في محيطهم، وأنَّ ما فيه من إضرار منعكسٌ عليهم، فالبأسُ منحصرٌ بينهم لا يتجاوزهم.

نكتة تقديم الظَّرف على الخبر:

الاهتمام ببيان واقع بأس اليهود المتغلغل فيهم

قُدِّم ذكر الظَّرف ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ على الخبر ﴿شَدِيدٞۚ﴾، فلم يقل: (بأسهم شديد بينهم)؛ للاهتمام ببيان أنَّه بينهم، فهو متغلغل في علاقاتهم الدّاخليّة، أي: متسلِّطٌ من بعضهم على بعضهم الآخر، وليس على المسلمين، تهكُّمًا بهم، واستهزاءً وسخريّةً منهم[3]، وبيانًا لعظيم فضل اللّه على عباده المؤمنين، "بأن ما ينظرونه من شدَّتهم وشجاعتهم؛ إذا حاربوا المشركين لا يُنكر عند محاربة المؤمنين،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 451.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 106.

كرامة أكرم الله ﷻ بها المؤمنين، تتضمَّن علمًا من أعلام النبوَّة؛ تقوية لإيمانهم، وإعلاء لشأنهم"(1).

دلالة التّعبير بـ ﴿شَدِيدٌۚ﴾:

شـدَّة اليـهـود قويّة مستحكمةٌ لا لـلـوئـام بل للخصام

أوثر الإخبار عن بأس اليهود بأنَّه ﴿شَدِيدٌۚ﴾ بصيغة فعيل؛ للدَّلالة على أنّهم يبالغون في استعمال قوّتهم فيما بينهم، وأنَّها تبلغ غايتها وأقصاها على بعضهم، وذلك على عكس ما وصَف اللّهُ به المؤمنين في هذه السّورة، وعلى عكس ما وصفهُم به في قولِه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: 29]، والشَّديد هو المتماسك بقوَّة، الآخذ من جميعِ الأطراف، فبأس اليهود قد عمَّهم، وأثَّر على جميعهم، وذلك لدلالة لفظ الشدَّة على القوّة الجامعة للأطراف المتفرّقة، فكأنّ البأس يشدُّ بعضهم إلى بعض، لكن لا للوئام بل للخصام.

علَّة فصْل جملة: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا﴾:

خـبرُ الـقـرآنِ يقومُ على تعليل الـظّـواهـر غير الواضحة

جاءت جملة: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبه كمال الاتِّصال، الّذي تُجيب فيه الجملةُ الثّانيةُ عن سؤالٍ أثارته الجملةُ الأولى في نفس المتلقّي، تقديره: كيف ذلك، ونحن نراهم متَّفقين؟ فأجيب بأنَّ ظاهر حالهم اجتماعٌ واتحادٌ، وهم في بواطنهم مشتّتون مختلفون، فآراؤهم غير متَّفقة ولا ألفة بينهم؛ لأنَّ بينهم عداوات وإحنًا، فلا يتعاضدون(2).

تعيين مرجع الضّمير في قوله: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ﴾:

الـخـطـابُ لكلِّ مــن يـحـسـب الـيــهــود على خلاف واقعهم

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ﴾، قيل: إنَّ المقصودَ به رسول اللّه ﷺ ومن ينهج نهجه، وضمير الغائب فيه يرجع إلى اليهود والمنافقين، والمعنى: تحسَبُ اليهودَ والمنافقين - يا أعلى الخلق، ويا أيُّها النّاظر - متّفقين، والحال أنَّ قلوبهم متفرِّقة، ومنازعهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 451.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 106.

مختلفة، وبواطنهم تباين ظواهرهم[1]، وقيل: الخطابُ لغير معيَّن؛ لأنَّ النبيّ ﷺ لا يحسب ذلك، وهذا تشجيع للمسلمين على قتالهم والاستخفاف بجماعتهم[2].

نكتة التّعبير بالمضارع: ﴿تَحۡسَبُهُمۡ﴾:

تصوير حال اليهود عند النّظر إليهم

أوثر التّعبير بصيغة المضارع ﴿تَحۡسَبُهُمۡ﴾؛ لما يدلُّ عليه من تصوير حال حسبان اليهود مجتمعين، فالفعل المضارع بيانٌ للحالة الّتي عليها الظّانُّ حين النّظر في واقع اليهود.

بلاغة التّعبير بـ ﴿تَحۡسَبُهُمۡ﴾:

براعةُ اليهود في إيهام النّاظرين يكشفها الوحي الأمين

ناسب استعمال مفردة ﴿تَحۡسَبُهُمۡ﴾ دون: (تظنهم) أو (تراهم) للفظ ﴿جَمِيعٗا﴾، فالحسبان متعلّق بما يُحسب، فإنَّ النّاظر إذا نظر إليهم، وتفحَّصهم؛ فسيعتقد أنَّهم متماسكون، ففيه إشارة إلى أنَّهم خبراءُ بارعون في الظُّهور متماسكون مترابطون أمام الآخرين، حتّى يصل الرّائي لهم - بناءً على ما يراه أمامه من مظاهر خادعة، وطقوسٍ زائفة، وحسابات ظاهريّة - إلى اقتناع يصل إلى درجة اليقين، ولا يتطرَّق إليه شكٌّ في وحدتهم وتماسكهم، وذلك بخلاف فعل (الظّن) الّذي يحتمل الشَّكَّ، ولا تصل الثِّقةُ فيه أقصاها[3].

دلالة التّعبير بـ ﴿جَمِيعٗا﴾:

ظاهر اليهود يوهم بلوغهم أقصى درجات الوحدة والاجتماع

قوله: ﴿جَمِيعٗا﴾ مفعول ثانٍ لفعل الحسبان، والتَّعبير به دالٌّ على وصولهم في الوحدة والاتِّفاق والاجتماع أقصى الدّرجات وأعلاها، وبلوغهم في ذلك الصّورة المثلى، والنُّموذج الأعلى الّذي يطمح الرّائي لهم في موطن من المواطن إلى تحقُّقه في كلِّ التّجمُّعات، والمعنى: تحسبهم مجتمعين متّفقين في موطن من المواطن[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 452، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 350.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 106.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 99.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

بلاغة واو الحال:

الضدُّ الدّلاليُّ الّذي تُعطيه جملة الحال تصويبٌ للنّظر

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ﴾ هي واو الحال، والجملة بعدها حاليّة تدلُّ على أنَّ صفة اليهود والمنافقين الثّابتة، وحالهم الدّائمة الّتي لا تتبدَّل، ولا تتغيَّر أنَّهم متفرِّقون متناحرون، لا تجتمع قلوبهم، وليس بينهم من دلائل الألفة والمحبَّة شيء ممّا يظهرون، أو يتظاهرون، ففي الوقت الّذي ينظر فيه النّاظر، فيظنّ اليهود جميعًا، فإنَّ الحالَ أنَّ قلوبَهم شتَّى، فدلَّت جملة الحال على الضدِّ ممّا يحسبه النّاظر، فهي تحمل معنى التَّصويب والتّعديل لظنِّ النّاظر إليهم.

وجه التّعبير بالجملة الاسميّة:

تفرُّق القلوبِ يصدّعُ الأبدان، ويهزُّ الأركان

أوثر التَّعبير عن حال اليهود والمنافقين بالجملة الاسميَّة، فقيل: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ﴾؛ لما تمتاز به من إفادة الثُّبوت والدَّوام، ما يعني: أنَّ حقيقة أمرهم أنَّهم مشتَّتون متناحرون بصفة دائمة، وأن الاجتماع والوحدة لم يثبت عنهم في موقف من المواقف، وإن بدا للرّائي والنّاظر أنَّهم على الضدِّ من ذلك، والغرض من التَّعبير بها: تجسير المؤمنين وتشجيع قلوبهم على قتال قوم لا يعقلون أنَّ تشتُّت القلوب ممّا يوهن قواهم، ويعين على أرواحهم[1].

نكتة التّعبير بالـ (قُلوب) جمعًا مضافًا إلى الضّمير:

تنافرُ القلوب أصلُ تنافر العقول والأبدان

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة القلوب في قوله تعالى: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ﴾ دون رديفاتها؛ جريًا على العادة في التَّعبير بلفظ (القلوب) في كلِّ ما يتّصل بالمشاعر والعواطف، ولما للقلب من أثر موجِّهٍ للعقل قبولًا ورفضًا، اتِّفاقًا واختلافًا، وفيه دلالة على أنَّ تنافرَ القلوب عاملٌ رئيس في تنافر العقول والأبدان، وأنَّ اجتماعَ النّفوس مع تنافر القلوب واختلافها أصلُ كلِّ فساد، وموجب كلِّ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.

تخاذل، ومقتضٍ لتجاسر العدوِّ، واتِّفاق القلوب والاشتراك في الهمَّة والتّساوي في القصد يوجبُ كلَّ ظفر وكلَّ سعادة[1]، وجيء به جمعًا مضافًا إلى ضمير الفريقين، فقيل: (قُلوبُهُم)؛ للدَّلالة على أنَّ تلك الحال تشمل الفريقين جميعًا من غير شذوذ ولا استثناء.

بلاغة التَّعبير بلفظ ﴿شَتَّىٰ﴾:

الشَّتات افتراقٌ مـع ضـياع الأهداف وافتراق الغايات

قوله: ﴿شَتَّىٰ﴾ خبر المبتدأ في جملة الحال، أوثر التَّعبير به دون: (متفرّقة)؛ لدلالته على الاختلاف الّذي لا يقبل الاحتمال أو التَّأويل، فلفظ ﴿شَتَّىٰ﴾ نص في الاختلاف المذموم، كما أنَّ ﴿شَتَّىٰ﴾ تدلُّ على شتات الجميع دون وجود هادفٍ واضحٍ لهم، ففراقهم لا أمل معه في العودة والرّجوع إلى الألفة بأيّ شكلٍ من الأشكال، والمعنى: متفرِّقة أشدَّ افتراق، وعن ذلك نشأت الرّهبة، وموجب هذا الشّتات اختلاف الأهواء الّتي لا جامع لها من نظام العقل كالبهائم، وإن اجتمعوا في عداوة أهل الحقِّ كاجتماع البهائم في الهرب من الذِّئب[2]، وهو ما يُؤكِّد أنَّ بينهم إحنًا وعداواتٍ تدوم، ولا تنتهي، فلا يتعاضدون حقَّ التَّعاضد، ولا يرمون عن قوس واحدة[3].

علَّة فصل جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ﴾:

جاءت جملة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنَّها تبيِّن السَّبب في تفرُّق اليهود والمنافقين وتشتُّتهم، ومن ثَمَّ فُصِلت عن سابقتها، كما يُفصَل السَّببُ عن المسبَّب.

تعيين مرجع اسم الإشارة ودلالته:

بلغ اليهود فيما بينهم مبلغًا عظيمًا في الفرقة والاختلاف

قولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذُكِر من أنَّ بأسهم بينهم، ومِن تشتُّت قلوبهم، أي: ذلك مُسبَّب على عدم عقلهم؛ إذ انساقوا إلى إرضاء خواطر الأحقاد، والتشفّي بين أفرادهم، وأهملوا النّظر في عواقب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 452.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 452.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.

الأمور واتّباع المصالح، فأضاعوا قومهم[1]، ونكتة التّعبير به الإشارة إلى أنَّهم بلغوا في الفرقة والشّتات مبلغًا عظيمًا، بإنزال ما فيه من البعد المعنويّ منزلة البعد الحسيّ، المفضي إلى ذمّ ما هم فيه من فرقة وتشتُّت، وتحذير المسلمين من الوقوع فيه، والانزلاق إليه.

نكتة ذكر لفظ ﴿قَوۡمٞ﴾:

ضعفُ العقل وضياع الحكمة من سمات قوميَّة اليهود

آثر النّظم الكريم ذكر لفظ ﴿قَوۡمٞ﴾ دون حذفه، فلم يقل: (ذلك بأنّهم لا يعقلون)؛ لِما يؤذن به من أنَّ تشتُّت قلوبهم ناتجٌ عن سمةٍ متأصِّلةٍ فيهم يتوارثُها قومُهم جيلًا عن جيل، كأنَّها من المقوّمات المقوِّمة لقوميَّتهم، وهي ضعف عقولهم حتى إنَّها صارت كالمعدومة[2]، وتنكيرُه دالٌّ على تحقير شأنهم، والتّقليل من قدرهم، والإشارة إلى أنَّ ضعفَ العقول سمةٌ عامّةٌ فيهم، غالبةٌ عليهم.

فائدة النّفي بـ ﴿لَّا﴾:

القصد إلى وصف القوم بعدم إدراك الخير

قولُه: ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ جملة في محلّ رفع صفة لـ ﴿قَوۡمٞ﴾، و﴿لَّا﴾ فيها حرف نفي يدلُّ على نفي تعقُّلهم في كلِّ ما من شأنه أن يقودَهم إلى الخير في عاجلتهم وآجلهم.

فائدة نفي العقل دون إثبات الجهل:

نفيُ العقلِ أعمُّ وأشملُ، وأدخلُ في الذمِّ من إثباتِ الجهلِ المحتملِ لعدمِ المعرفةِ

أوثر نفي العقل في قولِه تعالى: ﴿قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾، ولم يقل: (قوم يجهلون)؛ لأنَّ نفي العقل أعمُّ وأشملُ، وأدخل في الذَّمِّ والتّحقير الّذي يقصد إليه البيان من إثبات الجهل، كما أنَّ إثبات الجهل قد يُظنُّ منه الجهل الّذي هو بمعنى عدم المعرفة، والمقصود إثبات عدم العقل بإرادة صاحبه؛ إذ من الممكن عند إثبات الجهل أن ينصرف الذِّهن إلى أنَّهم يجهلون أهميّة الوحدة والاجتماع، وخطورة الفرقة والتشتُّت فقط، لكنَّهم يعقلون أشياء أخرى كثيرة، فكان نفي العلم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 106.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.

تحاشيًا لذلك الفهم، وتأكيدًا لأنَّهم لا دينَ يجمعهم، لعلمهم أنَّهم على الباطل فهم أسرى الأهويَة، والأهويَةُ في غاية الاختلاف، فالعقل مدار الاجتماع، كما كان الصّحابة رضوان اللّه عليهم أجمعين في زمن النبيِّ ﷺ، كما أنَّ الهوى مدار الاختلاف[1].

بلاغة التَّعبير بالفعل ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

وجـودُ العقلِ كـافٍ في إدراك خطورة الفرقة والتشتُّت

التّعبير بالفعل: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ منفيًّا دالٌّ على أنّ اليهود لا يعقلون، كما ينبغي؛ لأنَّهم لو عقلوا؛ لعلموا أنَّ السّلامة في اجتماعهم عند الخطر، وفي لقائهم له كيانًا واحدًا، وأنَّ تفرُّقَهم هو الّذي يجعل يد الخطر مبسوطةً عليهم متمكّنةً منهم جميعًا، فهُم في هذا الفراق الّذي يطلب به كلُّ واحد منهم السّلامة لنفسه، إنَّما يردون به موارد الهلكة جميعًا، ولهذا جاء وصفهم هنا ﴿بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾؛ إذ يكون العقل - مجرَّد العقل - كافيًا في تقدير السّلامة من الخطر، وأنَّ السَّلامة رهن بالاجتماع لا بالتفرُّق، حتّى إنَّ بعض الحيوانات لتهتدي إلى هذا بغريزتها، فإذا واجهها خطر؛ واجهته جبهة واحدة، لم يفرَّ منها أحد[2].

نكتة التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

دلالة المضارع على دوام عدم العمل بالعقل لدى اليهود والمنافقين

جيء بفعل العقل المنفيّ مضارعًا ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنّ تعطيل العقل وعدم العمل بمقتضاه من الصّفات المتجدِّدة في اليهود والمنافقين، ما داوموا بعيدين عن الخضوع لدين اللّه تعالى.

نكتة حذف متعلّق ﴿يَعۡقِلُونَ﴾:

حذف متعلّق فعل ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ ليعمَّ النَّفي كلَّ ما مِن شأنه أن يجعلَهم يدركون خطورة الفرقة والتشتُّت، وتحكيم الأهواء، وتقديم الخوف من الناس على الخوف من اللّه، والمعنى: لا يعقلون شيئًا،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 452، 453.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 872، 873.

انعدامُ العقل هو العقل الموصل للهدايةِ والمبلغ لدرجات الحكمة

حتّى يعرفوا الحقَّ، ويتبعوه، وتطمئنَّ به قلوبهم، وتتّحد كلمتهم، ويرموا عن قوس واحدة، فيقعون في تيه الضّلال، وتتشتَّت قلوبهم حسب تشتُّت طرقه، وتفرُّق فنونه[1]، وإمّا لتنزيل فعل يعقلون المتعدّي منزلة اللّازم، فيوصفوا بأنَّهم غير عاقلين في سلوكهم، كما تصف شخصًا بأنَّه عاقلٌ، بقطع النَّظر عن كونه عاقلًا لأيِّ شيء.

توجيه المتشابه اللفظيّ بين نفي العقل ونفي الفقه:

إدراكُ خطر الفرقة يحتاج إلى عقل، وخشيةُ الله تحتاج إلى فقه

أوثر هنا ﴿لَّا يَعۡقِلُونَ﴾، وفي الآية الّتي قبلها ﴿لَّا يَفۡقَهُونَ﴾؛ لأنَّ معرفة مآل التشتُّت في الرَّأي، وصرف البأس إلى المشارك في المصلحة من الوهن والفتِّ في ساعد الأمَّة مَعْرِفَةٌ مشهورةٌ بين العقلاء، ولأنَّ إدراك خطورة الفرقة والتشتُّت ممّا يحتاج إلى عقل يقظ، بينما الخوف من الله تعالى وخشيته أكثر من خلقه لا يحتاج إلى عقل - مجرَّد عقل - بل لا بدَّ من عقل معه فقهٌ وعلمٌ[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّدر والقلب:

الصَّدر يشمل القلب وغيره، والقلب دالٌّ على العلم والنّيَّة

الصَّدْر مُقَدَّمُ جسمِ الشَّيء أو أعلاه، الَّذي يَبْدأ منه أَضْخَمُه، كصدر الإنسان، وصدر السَّهم، وصدر الوادي، ومن ذلك قالوا: صَدْرُ كلِّ شيء: أَوَّلُه، ويأتي بعده سائره[3]، والقَلْبُ خالِص كُلِّ شَيءٍ وشَريفه[4]، وهو باطِنُ الشَّيء ولُبُّه، ومنه المُضغة المعروفة؛ لأنَّها أهمُّ ما في الباطن وأقواه[5]، قال بعض العلماءِ: حيثما ذكر اللّهُ (القلب)؛ فإشارة إلى العقل والعلم، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ [ق: 37]، وحيثما ذكر (الصَّدْر)؛ فإشارة إلى ذلك وإلى سائر

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 873.

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صدر).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلب).

(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قلب).

القوى: من الشَّهوة، والهوى، والغضب والخوف ونحوها، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]، أي: العقول الّتي هي مُندسَّة فيما بين سائر القوى، وليست بمهتدية[1]، والصَّدر أوسع مكانًا من القلب، وهو الحاوي له، فإذا ذُكِرَ الصَّدرُ؛ فيشمل القلب، وإذا ذُكِرَ القلب؛ فيُخصُّ في العلم والنّيَّة، ولما كان القصد بيانَ شدَّة رهبة اليهود والمنافقين من المسلمين، وعظيم خوفهم منهم؛ ناسب التَّعبير بمفردة (الصُّدور)؛ لأنَّ امتلاءها بالخوف دالٌّ على شدَّة الرَّهبة وعظمتها؛ لشمولها القلوبَ.

الفِقْهُ والفَهْم:

الفهمُ مرحلةٌ تسبق الفقه، ويمثِّل حالة التَّدرُّج، والفقه أدقُّ وأشمل، ويمثل حالة الاستقرار

الفقهُ فهْمُ المعاني الخفيَّة[2]، وقيل: هو العلم بمفهوم الكلام ظاهرِه الجليِّ وغامضِه الخفيِّ بسرعة فطنةٍ وجودة قريحةٍ[3]، والفَهم: هيئة للنَّفس بها يتحقَّق معاني ما يحسن، فَهِمَ فهو فَهِمٌ، واستفهمني وفهَّمته، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الأنبياء: 79]، وذلك إمّا بأن جَعَلَ اللّه له من فضل قوَّة الفهم ما أدرك به ذلك، وإمّا بأن ألقى ذلك في روعه، أو بأن أوحى إليه، وخصَّه به، وتفهَّم الكلام: فهمه شيئًا بعد شيءٍ[4]، فالفهم مرحلةٌ تسبق الفقه، وأساسٌ يقوم عليه، فلا فقه بدون فهْم، لكنَّ الفقه أعمقُ من الفهم وأدقُّ، وهو يدلُّ على الفهم الدَّقيق الكليِّ.

التشتُّت والفرقة:

التشتُّت مبعثه الغالب أخلاقيٌّ قلبيٌّ، والفرقة مبعثها في الغالب فكريٌّ

الشَّتُّ أشدُّ أنواع الفراق، والفرقة انفصالٌ بين شيئين مطلقًا، وقد يكون الانفصال عميقًا وغير عميق[5]، كما أنّ الشّتات يدلُّ على

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 392، 393.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 104.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 450.
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (شت)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 4/ 222.
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (شت).

الانتشار الفوضويّ غير واضح المآلات، بخلاف الفرقة فقد تكون المآلات واضحةً لدى المفترقين، ولذلك افترقوا، فمبعث الفرقة فكريٌّ في الغالب، وقد يتحوَّل إلى مظهر نفسيٍّ أخلاقيٍّ في المآل، ومبعث الشَّتات قلبيٌّ أخلاقيٌّ في الغالب، وقد تتشكَّل الأفكار بعد التشتُّت، وهذا شرُّ أنواع الفكر، أن ينشأ بعد الفرقة القلبيَّة.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾ [الحشر: 15 - 17]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

شأن الأمثال بعد بيان الأحوال تثبيت المعاني وتقوية النُّفوس

لما بيّنتِ الآيات السّابقة حال اليهود بانعدام فقههم وعقلهم، وأنَّ ما يختارونه من الفراق والشَّتات؛ بسبب ضعفهم الإيمانيِّ والأخلاقيِّ والفكريِّ؛ ناسب أن يذكر مثلًا على حالهم ممَّن سبقهم، فبيَّن في هذه الآيات أنَّهم يُشبهون مَن سبقهم مِن إخوانهم في انعدام الفقه وانعدام العقل، ثم شبَّه قصَّة الكلِّ بقصَّة الشَّيطان ومَن أطاعه من الإنس والجنِّ في إخلافه الوعدَ وإسلامه إيّاهم عندما حقَّ الأمرُ[1]، ولمّا كان القصدُ في الآيات السّابقة التَّهوينَ من شأن اليهود والمنافقين في نفوس المسلمين ساق اللّهُ سبحانه في هذه الآيات مثلين لهم زيادةً في تثبيت المؤمنين، ومبالغةً في التَّهوين مِنْ شأن أعدائهم، أحدُهما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، والآخرُ في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَبَالَ﴾: (وبل) أَصْلٌ يَدُلُّ على شِدَّةٍ في شَيْءٍ وتَجَمُّعٍ[3]، ومنه الوَبَلَةُ بالتَّحريك: الثِّقلُ والوَخامَةُ، وقد وبُلَ المرتَعُ بالضمِّ وبْلًا ووَبالًا، فهو وبيلٌ، أي: وخيمٌ[4]، والوَبْلُ والوابِلُ: المطر الثَّقيل القطار، قال

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 453، وما بعدها.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 306.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وبل).
(4) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (وبل).

تعالى: ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ﴾ [البقرة: 264]، ولمراعاة الثِّقل قيل للأمر الّذي يُخاف ضرره: وبالٌ، قال اللّه سبحانه: ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ [التغابن: 5]، والوبال سوء العاقبة الّتي ذاقوها في الدُّنيا.

2) ﴿عَٰقِبَتَهُمَآ﴾: (عقب) يَدُلُّ على تَأخيرِ شَيءٍ وإتيانِه بَعْدَ غَيْرِه[1]، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيْئًا فَهوَ عَقيبُه، كَقَوْلِكَ: خَلَفَ يَخْلُفُ، بِمَنْزِلَةِ اللَّيْلِ والنَّهارِ؛ إذا مَضَى أحَدُهُما عَقَبَ الآخَرِ، وهُما عَقيبانِ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما عَقيبُ صاحِبِه[2]، والعاقِبةُ إطلاقُها يختصُّ بالثَّواب نحو: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83]، وبالإضافة قَد تُستعمَل في العقوبة نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الروم: 10]، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

حال اليهود مع المنافقين كحال إخوانِهم السّابقين، فهُم على درب الشَّيطان الرَّجيم

توضِّح الآية الأولى أنَّ مَثَلَ هؤلاء اليهود والمنافقين، وحالِهم العجيبة كمثل الّذين من قبلهم، وهم يهود بني قينقاع، الَّذين أُخرِجوا من المدينة بسبب غدرهم، وكان خروجُهم قبل خروج بني النّضير بزمنٍ ليس بالطَّويل، وكمثل مشركي قريشٍ الّذين حلَّت بهم الهزيمةُ في غزوة بدر، فإنَّ هؤلاء وهؤلاء قد ذاقوا في الدُّنيا سوءَ عاقبة كفرهم بدون إمهال، أمّا في الآخرة؛ فلهم عذابٌ شديدُ الألم والإهانة، وتبيّن الآيتان الأخريان أنَّ مَثَلَ المنافقين في تزيينهم الشَّرَّ والفساد ليهود بني النَّضير كمثل الشَّيطان؛ إذ قال للإنسان في الدُّنيا: اكفر باللّه تعالى، فلمّا كفر ذلك الإنسان، ومات على الكفر، وبُعث يوم القيامة، ووجد مصيره السيّئ؛ ندم، وألقى التبعة على الشّيطان الّذي قال له: إنّي بريء منك ومن كفرك، إنّي أخاف

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).
(2) الخليل، العين: (عقب).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (عقب).

اللّه ربّ العالمين، فكان عاقبة ذلك الشّيطان وذلك الإنسان، أنّهما في النّار خالدين فيها خلودًا أبديًّا، وكذلك حال المنافقين واليهود، وذلك الخلود في النّار هو جزاء الظّالمين الّذين تجاوزوا حدودَ اللّه تعالى، وحاربوا رسله وأولياءَهُ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل صدر الآية عمّا قبلها:

البيان بالمثال يجمع قوّة الاستدلال والاعتبار بالأهوال

جاءت جملةُ: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنّها بيان لما سبقها، أي: حال أهل الكتاب الموعود بنصر المنافقين كحال الّذين من قبلهم قريبًا[2]، فالفصل لكمال الاتّصال، الّذي تنزل فيه الجملةُ المفصولةُ ممّا قبلها منزلةَ التّابعِ من المتبوع.

الغرض البلاغيُّ لحذف المسند إليه:

تنبيهُ المخاطَبين للاعتبار ممّا حصل للمتقدِّمين

قولُه: ﴿كَمَثَلِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديرُه: (مَثَلُهم)، أي: مَثَلُ المذكورين من اليهود والمنافقين، كمَثَل أهل بدر أو بني قينقاع الّذين أُخرجوا قبل بني النّضير[3]، وقد أوثر حذف المبتدأ للعلم به، ووضوحه لدى المتلقّي، إذ ما يزال حديثُ السّورة موصولًا عن الّذين نافَقوا، ووعدوا إخوانَهم الّذين كفروا من أهل الكتاب بالنُّصرةِ والمؤازرة، ونكتة حذف المسند إليه توجيه الأنظار المعتبرة إلى الخبر، فهو غاية النّظم ومقصوده، وفيه تنبيه المخاطَبين للاعتبار ممّا حصل للمتقدّمين.

نوع الكاف ودلالتها:

حالُ بني النّضير يشبه حالَ كفّار مكّة ويهود بني قينقاع

الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ﴾ حرفُ تشبيه حالِ أهل الكتاب الموعودين بنصر المنافقين بحال الّذين من قبلهم، والمعنى: أنَّ

---

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 306، 307.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 107.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

حالَهم المركَّبة من التّظاهر بالبأس مع إضمار الخوف من المسلمين، ومن التفرُّق بينهم وبين إخوانهم من أهل الكتاب، ومن خذلان المنافقين إيّاهم عند الحاجة، ومن أنَّهم لا يقاتلون المسلمين إلّا في قرى محصَّنة أو من وراء جدر، كحال الّذين كانوا من قبلهم في زمن قريب، وهم بنو النّضير، فإنَّهم أظهروا الاستعداد للحرب وأبَوا الجلاء، فلم يحاربوا إلّا في قريتهم؛ إذ حصنوها، وقبعوا فيها حتى أعياهم الحصار، فاضطرّوا إلى الجلاء، ولم ينفعهم المنافقون ولا إخوانُهم من أهل الكتاب[1].

براعة اجتماع حرف الكاف و(مَثَل):

تنزيلُ المشركين واليهود منزلةَ الأمثال المُعتَبر بها

اجتمع في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ﴾ أداتا تشبيهٍ، هما الكاف و(مَثَل)، وقد أوثر الجمعُ بينهما لتنزيل كلٍّ من السّابقين واللّاحقين منزلة الأمثال الّتي تقع للاعتبار، ثم شبَّه الآخر بالأوَّل، فدلَّ اللّفظ على أنَّ السّابقين مثَلٌ يُعتبَر به، والآخرين مَثَلٌ يُعتبَر به، فشبَّه المثَلَ بالمثَل لبيانِ وجاهة وصفهم بأنَّهم قوم لا يفقهون ولا يعقلون، فلو فقهوا، وعقلوا؛ لاعتبروا، لكنَّهم يُشابهون الأولين في انعدام الفقه والعقل، بل هم أشدُّ من الأوَّلين، ويُرشح هذا المعنى لفظ ﴿قَرِيبًاۖ﴾.

بلاغة التَّعبير بالاسم الموصول:

قُربُ العهد مُعينٌ على حسن الاعتبار وكاشفٌ عن سوء الاغترار

آثر النّظم الكريم التَّعبير عن المضاف إليه بالاسم الموصول، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ لأنَّهم معهودون معلومون، فهُم الّذين يُشابهونهم في العَداء والمآل، وهم الّذين أصابهم ما أصابهم من قبلهم، فأفاد الاسم الموصول التّعريف بهم في كَونهم مِنْ قبلهم؛ لِتَكون القبليَّة القريبة عنوانًا كاشفًا عن عدم اعتبارهم بما جرى لأمثالهم، وتحقيرًا لشأنهم، واستهجانًا للتّصريح بوصفهم، وليتوصَّل بما في الموصول من بُعد لفظيٍّ إلى أنّهم بلغوا في الكفر

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 107.

مبلغًا عظيمًا، وبعبارة ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ إلى أنّهم كانوا مثلًا لمن جاء بعدهم، فقد كان بنو قينُقاع أشجعَ اليهود وأكثرَهم أموالًا، فلمّا كانت وقعةُ بدر أظهروا البَغْي والحسد، ونبذوا العَهْد كبني النضير، فأخرجهم رسول الله من المدينة إلى الشّام؛ لأنَّ قريتَهم كانت من أعمالها، ودعا عليهم، فلم يَدُر الحولُ عليهم حتّى هلكوا أجمعون، وقد عُرِفتْ قصتُهم، وذاع أمرُهم[1].

نوع ﴿مِن﴾ ودلالة ذكرها:

القـصـد إلى إيضاح التّتابع الزّمني للأحداث

استعمل النّظم الكريم حرف ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، دون أن يقول: (الّذين قبلَهم)؛ وذلك للدّلالة على عدم استغراق زمان القبل[2]، وتأكيد أنّ قتل المشركين في بدر كان يسبق إخراج بني النّضير بوقت قريب جدًّا.

بلاغة التّعبير بالظّرف ﴿قَبۡلِهِمۡ﴾:

مـن لـم يعتبر بمن قبله؛ فلن يعتبر بما يُمليه عليه العقل في لاحق أمره

التَّعبير بالظَّرف الدالِّ على الأسبقيَّة الزّمانيَّة في قوله تعالى: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، دالٌّ على أنَّ الواجب على بني النّضير والمنافقين أن يعتبروا بمن سبقوهم في الكفر باللّه والتّعاون والمؤازرة على حرب رسوله، لا سيّما وأنَّ زمانهم ليس ببعيد، بل قريب جدًّا، وهذا يُؤكِّد ما وصفتهم به الآيةُ السّابقة من أنَّهم ﴿قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾؛ إذ لو كانوا عاقلين؛ لاتَّعظوا بسابقيهم، ولعزفوا عمّا كان سببًا في ذوقهم الوبال.

فائدة ذكر ﴿قَرِيبٗاۖ﴾ وبيان تعلُّقها:

استيثاق العناد في عقول اليهود يُـعـمـي عـن البصائر في رابعة النّهار

﴿قَرِيبٗاۖ﴾ ظرفٌ متعلِّق بالاستقرار المحذوف الّذي تعلَّق به ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، ويمكن أن يتعلَّق بفعل ﴿ذَاقُواْ﴾، وقيل: متعلِّق بمضاف مقدَّر في الخبر، أي: كوجود مثل أهل بدر قريبًا[3]، وأيًّا كان متعلِّقه ففي

(1) حقّي، روح البيان: 9/ 442.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 453.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 510، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 52.

التَّعبير به تصريحٌ وزيادة تأكيد لكون كفّار مكَّة المضروب بهم المثل كانوا قبل بني النّضير بوقتٍ قريب، قُدِّر بستّة أشهر، ما من شأنه أن يكون رادعًا عن السَّير على مِنوالهم في الكفر باللّٰه ومعاداة رسوله، والمعنى: مثل اليهود من بني النّضير فيما وقع لهم من الإجلاء والذلّ والمهانة كمثل أهل مكَّة فيما وقع لهم أيضًا قريبًا يومَ بدر من الهزيمة والأسر والقتل[1]، وهم مع ذلك لم يرتدعوا، ولم يعتبروا، ففائدة ذكر ﴿قَرِيبًاۖ﴾، هو التَّنبيه على شدَّة الغفلة الَّتي هم مواقِعوها، وقُبْح العِناد الّذي مارسوه، فرُبَّ عنادٍ أقوى من حكمةٍ يقود للمهالك في قلب النَّصائح.

سِرُّ فصل جملة: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾:

من يسأل عن واقع الأمثال يأتيه خبرُ الوبال

جاءت جملة: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ مفصولةً عمّا قبلها لشبه كمال الاتّصال، الَّذي تُجيب فيه الجملةُ المفصولةُ عن سؤال أثارته الجملةُ السّابقةُ عن خَبَرِ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾[2]، فكأنَّه قيل: ما مثلهم وما حالهم وما شأنهم؟ فقيل: ﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾، ومن ثَمَّ فُصِلت عنها كما يُفصَل الجوابُ عن السُّؤال.

نكتة التَّعبير عن نزول العذاب بالذَّوق:

كفارُ مكَّة تذوَّقوا العذاب كما يتذوَّقُ الآكلُ الطعامَ

التَّعبير عمّا حدث لمشركي مكَّة يوم بدر بالفعل: ﴿ذَاقُواْ﴾ الموضوع لإدراك الطَّعم، والّذي يُستعمَل فيما يقلُّ تناولُه دون ما يكثر[3]، دالٌّ على أنَّ عذابَهم كان حسيًّا، وأنَّهم شعروا به وذاقوه كما يتذوّق الآكلُ الطّعام، وفيه تهويل وتفخيم لما ينتظر مَن يسيرون على دربهم، وينهجون نهجهم؛ لأنَّه إذا كان ما حدث في بدر من هزيمةٍ وقتلٍ وأسرٍ وخزيٍ ذوقًا، فكيف إذا كان الوبالُ الّذي يمكن نزولُه أكبرَ وأعظمَ؟.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 453، وحقّي، روح البيان: 9/ 442، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 52.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 453.
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (ذوق).

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة:

ذوقُ العذابِ توطئةٌ بيانيَّة لتحقيق العذابِ نفسِه

في التَّعبير بالفعل: ﴿ذَاقُواْ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، شُبِّه فيها حصولُ القتل لمشركي مكّة يوم بدر بالذّوق، بجامع الإحساس والشّعور في كلٍّ، ثم حُذف المشبّه واستعير الذّوق لحصول القتل، واشتُقَّ منه: ﴿ذَاقُواْ﴾ بمعنى: قُتلوا، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة الّتي تصوّر نزول العذاب ووقوعه بالشّيء المحسوس ترهيبًا منه، وتحذيرًا من مزاولة أسبابه.

دلالة التّعبير بصيغة الماضي:

ذوق الوبال تمثيلٌ غابر لا تهديد عابر

جاء التّعبير بصيغة الماضي لفعل الذّوق ﴿ذَاقُواْ﴾؛ للدَّلالة على حصول الوبال - سواء أكان هزيمة أم قتلًا أم أسرًا - ووقوعه وقوعًا قطعيًّا، كما أنَّه دالٌّ على عمق أثره فيهم، وشدَّة ألمهم وعظم فجيعتهم بسببه، فالذَّوق ليس تهديدًا عابرًا، بل هو تمثيلٌ غابر.

دلالة إسناد فعل الذَّوق لواو الجماعة:

ذوق الوبال تحقُّق في المجموع بعد ذوق الجميع

إسنادُه إلى ضمير الجماعة العائد إلى كفّار مكّة دالٌّ على أنَّهم تذوَّقوا ألمَ الهزيمة والقتل والأسرِ جميعًا بلا استثناء، فمَن لم يُقتل في المعركة قتل له أبٌ، أو أخٌ، أو ولدٌ، ومَن لم يؤسر أسر له واحد من هؤلاء، فذاقوا بذلك - رجالًا ونساءً - وبال كفرهم باللّه تعالى، وعقابَ حربِهم لرسوله ﷺ، فذوق الوبال دخل كلَّ بيتٍ، ونال كلَّ فردٍ، وتحقَّق في المجموع بعد ذوق الجميع.

فائدة استعمال مفردة ﴿وَبَالَ﴾:

التَّنبيه على النَّكال الشَّديد والهوان البليغ والمآل الوخيم

آثر النَّظمُ التّعبيرَ بمفردة ﴿وَبَالَ﴾ دون (عاقبة)؛ للدَّلالة على وخامة العقاب وصعوبته وقوَّة أثره في المشركين الّذين ذاقوه، وللإلماح إلى أنَّ أثره سيمتد طويلًا، ولن يكون محصورًا في المدّة الّتي تلي المعركة، وتعقُّبُها، والمعنى: فنالوا سوءَ جزائهم، وذاقوا وبال

عصيانهم، ولقوا النَّكال الشَّديد والهوان البليغ[1]، فالوبال مرتبط بمعنى الوخامة والشدَّة المتتابعة، الَّتي تأتي دون قدرةٍ على ردِّها.

بلاغة الاستعارة المكنيَّة في مفردة ﴿وَبَالَ﴾:

تشبيهُ الكافرين بأنعامٍ دخلت أسبابَ هلاكِها، وهي تظنُّها أسبابَ ظفرِها

في مفردة ﴿وَبَالَ﴾ استعارة مكنيَّة، والوبال مأخوذٌ من وخامةِ المرعى المُستَلَذِّ به للماشية، يُقال: كلأٌ وبيل؛ إذا كان مرعًى خَضِرًا حلوًا تهشُّ إليه الإبلُ، فيحبطها، ويمرضها، أو يقتلها، فشُبِّهوا في إقدامِهم على حرب المسلمين مع الجهل بعاقبة تلك الحرب بإبلٍ ترامَت على مرعًى وبيلٍ، فهلكت، وأثبت الذَّوقَ على طريقة المكنيَّة وتخييلها، فكان ذكر ﴿ذَاقُواْ﴾ مع ﴿وَبَالَ﴾ إشارة إلى هذه الاستعارة[2]، الّتي تنفِّر من تعاطي أسباب هلاك السّابقين، وتحذِّر من الوقوع فيها.

دلالة استعمال الأمر:

الائتمار بأمرِ المكر والكيد سبب الهزيمة من حيث يُظنُّ أنَّه سببُ النّصر

المرادُ بلفظ ﴿أَمۡرِهِمۡ﴾: كفرُهم باللّه تعالى وعداوتُهم لرسوله ﷺ[3]، وقد أوثر استعمال الأمر دون الكفر أو الكيد أو العداوة ونحو ذلك ممّا اتَّصفوا به؛ للدَّلالة على أنَّهم اجتمعوا على أمرٍ واحدٍ في العداءِ لدين اللّه تعالى جامعٍ للكفر والشِّرك والعدوان والصَّدِّ عن سبيل اللّه تعالى، وكانوا يأتمرون له فيما بينهم، ويتَّفقون مع بعضهم على إنفاذه[4]، والمعنى: ما دبَّروه، وحسبوا له حسابه، وذلك أنَّهم أوقعوا أنفسهم في الجلاء، وترك الدّيار وما فيها، أيْ: ذاقوا سوءَ أعمالِهم في الدّنيا[5]، فكان ذكرُ الأمرِ الّذي ظنّوه سببَ انتصارهم، هو سبب هزيمتهم وانتكاستهم.

(1) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 10/ 1366.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 108.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 3/ 461.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 454.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 108.

نوع الواو ودلالتها:

الواو في جملة: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ استئنافيّة، جاءت للتّنبيه إلى أنَّ عقاب مشركي مكّة على الكفر باللّه وإيذاء الرّسول ومحاربته لن يقتصر على ما ذاقوه من الهزيمة والقتل والأسر والخزي في معركة بدر، وكذلك يهود بني قينقاع لن يقتصر عقابهم على ما ذاقوه من عذاب الدّنيا بالجلاء وما فيه من مشقّة على الأنفس والأجساد؛ لأنَّ ثمَّة عذابًا أليمًا ينتظرُ الفريقين في الآخرة، والجملة تدفع الظنَّ بأنَّ ذوقَ العذابِ في الدُّنيا يُغني عن عذابِ الآخرةِ.

عـذاب الآخـرة لصاحب أمرهم لا لمن ذاقوا وبال أمرهم

نوع اللّام ودلالتها:

اللّام في قولِه تعالى: (لَهُمۡ) حرفُ جرٍّ يفيد الاختصاص أو الاستحقاق، أي: إنَّ هؤلاء اليهود والكافرين الّذين ذاقوا وبال كفرهم باللّه، ونزل بهم عقابُ عداوتهم لرسوله في الدّنيا سيُخَصّون في الآخرة بعذابٍ مؤلمٍ يُصيب النّفس العنيدة على الكفر، والأبدان المنتنة بالمعاصي؛ ليبلغ وبالُ أمرهم قمّته، ويصل إلى ذروته في الدّنيا والآخرة.

حُـقَّ لـمن كـفرَ، وعاند أن يذوق عـذابًا أليـمًا في الآخرة

نكتة استعمال ﴿عَذَابٌ﴾ دون (عقاب):

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿عَذَابٌ﴾ دون (عقاب)؛ ليُناسب السّياق، فلمّا ذكر أنَّهم ذاقوا وبال أمرهم، فكان ما نالهم ذوقًا لا عذابًا كاملًا؛ ناسب ذكر العذاب ليقع التَّقابل بين ما هو ذوق يسير وعذاب أليم كامل، فالعذاب الّذي يتوعّدهم اللّه به في الآخرة، فما حدث من هزيمة وخزي وقتل وأسر لكفار مكّة، وكذلك ما حدث من إخراج وإذلال لبني قينقاع كان بمنزلة ذوق يسير عاجل، أمّا عذابُ الآخرة الّذي ينتظرهم، ويهدِّدُهم اللّهُ تعالى به، ويحذِّر منه مَن يحذو حذوَهم؛ فسيكون عذابًا لا مُنتهى لألَمِه، ولا تصوُّر لمعاناته.

ذِكْـرُ ذوقِ الألم اليسير يُناسبه ذِكْـرُ الـعـذاب الأليم

غرض تنكير لفظ ﴿عَذَابٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿عَذَابٌ﴾؛ لما يفيده التَّنكير من التَّفخيم والتَّهويل، والإشارة إلى أنَّه عذابٌ لا يُقادر قدرُه، ولا تحيط به العبارة، ولا يعلم حقيقته إلّا اللّهُ تعالى(1).

دلالة وصف العذاب بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ مادّةً وصيغة:

يجتمع في العذابِ الأخرويِّ عظيم الألم وشديد النَّدم

أوثر وصف العذاب الّذي ينتظر اليهود والمنافقين في الآخرة بـ ﴿أَلِيمٌ﴾ دون (عظيم) أو (كبير) أو (شديد)؛ للدَّلالة على أنّه يجمع بين العِظَم والألم، فلن يكون العذابُ مؤلِمًا إلّا إذا كان عظيمًا، وإذا كان عظيمًا أليمًا؛ كان كبيرًا، وجيء به على وزن فعيل الّذي يفيد المبالغة؛ للإشارة إلى بلوغه في الشدَّة والألم مبلغًا لا نظير له، والمعنى: عذابٌ شديدُ الإيلام(2).

علّة فصل صدر الآية:

تعليل أسباب العذاب في الآخرة بامتثال أوامر الشّيطان

جاءت جملة: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لأنَّها تبيِّنُ السَّببَ في اختصاص اليهود والمنافقين بالعذاب الأليم في الآخرة، ومن ثمَّ فُصِلت عنها، كما يُفصَل السَّبب عن المسبَّب، فيما يُعرف بشبه كمال الاتِّصال، فإن سألتَ: لماذا لهم عذابٌ أليم في الآخرة؛ فالجواب لأنَّ مثلهم كمثل الشّيطان، فهذا المثلُ متّصلٌ بقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، كما يفصح عنه قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾، والمعنى: مثلُهم في تسبيبهم لأنفسهم عذابَ الآخرة كمثل الشّيطان؛ إذ يوسوس للإنسان بالكفر، ثم يتركه، ويتبرَّأ منه، فلا ينتفع أحدُهما بصاحبه، ويقعان معًا في النّار(3)، ويمكن أن تكون الجملة في محلِّ رفع خبرًا ثانيًا - للمبتدأ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 231.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 454.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 108، 109.

المُقَدَّر المحذوف - متضمِّنًا حالًا أخرى لليهود، وهي اغترارُهم بقول المنافقين ووعودهم أوَّلًا وخيبتهم وخذلانهم آخرًا[1].

غرض حذف المسند إليه:

حـذفُ المسند إليـه تـوجيـهٌ للأنظار المعتبرة بواقع المثل

حُذِفَ المسند إليه للمسند: ﴿كَمَثَلِ﴾، والتَّقديرُ: مَثَلُهم كمثل، أي: مثلُ الكلِّ الواعدين بالنَّصر والمغترّين بوعدهم، مع علمهم بأنَّ الله كتب في الذِّكر: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة: 21]، في إخلافهم الوعد وإسلامهم إيّاهم عندما حقَّ الأمرُ[2]، ونكتة الحذفِ الثِّقةُ بأنَّ السّامعَ يردُّ كلَّ واحدٍ من المَثَلَين إلى ما يُماثله، كأنَّه قيل: مثلُ اليهود في حلول العذاب بهم كمثلِ الَّذين من قبلهم، ومثلُ المنافقين في إغرائهم إيّاهم على القتال - حسبما نُقل عنهم - كمثل الشّيطان حين يُغري الإنسانَ بالكفر، ويزيّنه له[3]، وكذلك في الحذف توجيه الأنظار المعتبِرة إلى الخبر، فهو غاية النّظم ومقصوده، وفيه تنبيه المخاطَبين للاعتبار ممّا حصل للمتقدّمين.

نوع الكاف ودلالتها:

المنافقون وكلاء الشَّيطانِ لإغواء الإنسان

الكاف في قوله: ﴿كَمَثَلِ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد تشبيه حالِ المنافقين في إغرائهم اليهودَ على القتال ووعدهم إيّاهم بالنّصر، ثم متاركتهم لهم وإخلافهم بحال الشّيطان؛ إذا استغوى الإنسان بكيده، ثم تبرَّأَ منه في العاقبة[4]، ووجه الشَّبه هو التَّرك والخذلان.

بلاغة اجتماع حرف الكاف و(مَثَلِ):

المنافقون والشَّيطان يتشابهان في إظهار الودِّ والمحبة وإبطان المكر والخديعة

اجتمع في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أداتا تشبيه، وهما الكاف و(مَثَل)، وقد أوثر الجمعُ بينهما؛ للدَّلالة على التَّطابق الشَّديد والمماثلة التامَّة بين حال المنافقين، الّذين غرّوا بني النّضير

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 232.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 455.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 232.
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 507.

بالخروج معهم، ثم خذلوهم، وما وفّوا بعهدهم، وحال الشّيطان إذ قال للإنسان: اكفر، ثم تبرَّأ منه في الآخرة[1]، فالتّطابق بين الحالين يوجب أن تكون عاقبة اليهود والمنافقين كعاقبة الشّيطان والإنسان الّذي استجاب لدعوته إلى الكفر، وهي الخلود الأبديُّ في نار جهنَّم.

نكتة إضافة (مَثَلِ) إلى ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾:

مثلُ الشَّيطانِ مثلُ المنافقين في الصّفات والأخلاق

إضافة (مَثَلِ) إلى ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، في المشبَّه به فيها تشنيعٌ بفعل المنافقين، وتقبيح لصنيعهم مع اليهود، وتنفير للمخاطَبين من أن يكونوا مثل الشّيطان، أو يفعلوا فعله؛ لأنَّه بعيدٌ من كلّ خير؛ لبعدِه من اللّه تعالى، واحتراقِه بعذابه[2]، والإضافة تدلُّ على تنزيل المنافقين منزلة المَثَل الّذي يدلُّ على المعنى الكليّ في كونه معرَّفًا بإضافته للشّيطان، فللشّيطان مثل معروف، المنافقون أشبه النّاس به، لوقوع التّشابه في الصّفات والأخلاق.

نوع (أل) ودلالتها في ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾:

الشّيطان جنسٌ معلوم الصّفات معهود السّلوك

(أل) في ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لتعريف الجنس، والمعنى: كمثل الشّيطان في إغوائه بني الإنسان، والمراد بالإغواء: عموم دعوته إلى الكفر[3]، ويمكن أن تكون (أل) للعهد الذِّهنيِّ؛ إذ لا يتبادر منه إلّا المتعارف شرعًا[4]، وقيل: التَّمثيل بشيطانٍ مخصوصٍ مع عابد مخصوص استودِعَ امرأةً، فوقع عليها، فحملت، فخشي الفضيحة، فقتلها، ودفنها، سوَّل له الشيطان ذلك، ثم شهره، فاستُخرجت، فوُجدت مقتولةً، وكان قال: إنّها ماتت، ودفنتها، فعلموا بذلك، فتعرَّض له الشَّيطانُ وقال: اكفر، واسجد لي، وأنا أنجيك ففعل، وتركه عند

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 511.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 455.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 511.
(4) الطّيبيّ، حاشية الطّيبيّ على الكشّاف: 15/ 338.

ذلك، وقال: أنا بريء منك، وقول الشّيطان: إنّي أخاف اللّه رياء؛ إذ لا يمنعه الخوف عن سوء يوقع ابن آدم فيه[1].

أثر التّعبير بـ ﴿إِذۡ﴾ في استحضار الصّورة:

استحضار لحظة الوسوسة وأثرها في تشويه سلوك الإنسان

﴿إِذۡ﴾ ظرف لما مضى من الزّمان، والتّعبير به يثير المتلقّي إلى استحضار وقت وسوسة الشّيطان للإنسان الضّعيف، ويدعوه إلى معصية اللّه تعالى، ويتدرَّج به حتى يوقعه في الكفر به، ويعدُه بالحماية والإنجاء من العذاب، ثم يتبرّأ منه عند البعث واللّقاء، فتعمل الصّورة المستحضرة عملها في الحذر من أساليب الشّيطان والنّفور من طاعته، وعدم الاطمئنان لَمَن هم على شاكلته من اليهود والمنافقين، وغيرهم من العصاة المجرمين.

نكتة الإخبار بالقول لا الإخبار بالأمر:

الشّيطان يتدرَّج بالوسوسة حتى يبلغ الأمر بالكفر الصَّريح

آثر النّظم الكريم ذِكر فعل ﴿قَالَ﴾، دون الإخبار عن الأمر مباشرةً، فلم يَقُل: (كمثل الشّيطان؛ إذ أمَرَ الإنسان بالكفر)، وقول الشّيطان: اكفر، هو أمرٌ؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ أسلوب الشّيطان هو أسلوب المراوغة، فلا يأمر الإنسانَ بالكفر أمرًا صريحًا مباشرًا؛ إذ لو فعل ذلك؛ لنفر منه الإنسان، ولكنّه يوسوس إليه، ويتدرَّج به نحو الكفر شيئًا فشيئًا، حتى يسيطر عليه، وعندئذٍ يقول له قول الآمر المتمكِّن: اكفر، والمعنى: أغراه على الكفر إغراء الآمر الأمور على المأمور به[2].

نوع اللّام ودلالتها:

وساوس الشّيطان متنوِّعة بقصد التَّأثير والإقناع

اللّام في قوله: ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾ هي لام التَّبليغ[3]، الدالَّة على أنَّ الشَّيطان حريصٌ على أن يوسوس للإنسان بالقول أو التّزيين والتّحسين، أو بغير ذلك من الوسائل الّتي تُعَدُّ أقوالًا وأوامر يصوغها

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 147.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 232.

(3) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 99.

في أشكال مختلفة، وصور متنوِّعة، بقصد التّأثير والإقناع؛ ليوقع به نهايةَ الأمر في حبائله، ويجعله أسيرًا لتوجيهاته، مطيعًا لأوامره.

نوع (أل) ودلالتها في لفظ ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾:

كُلُّ شيطانٍ يوسوس بالكفر لقرينه من بني الإنسان

(أل) في ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾ لتعريف الجنس؛ إذ كلُّ شيطان يفعل ذلك مع قرينه من بني الإنسان، ويشمل كلَّ مَن فيه نَوَسٌ واضطرابٌ من باب أولى[1]، فالمراد بالإنسان هنا: جنس مَن أطاع الشّيطان مِن نوع الإنسان، ويمكن أن تكون (أل) لتعريف العهد، والمراد: عابدٌ كان في بني إسرائيل، حَمَلَه الشَّيطانُ على الكفر، فأطاعه، فلمّا كفر؛ قال: إنّي بريء منك، وقيل: المراد: أبو جهل[2]، لكن كونها للجنس أولى.

نكتة الأمر بالكفر:

كفرُ الإنسان هو الغايةُ العظمى الّتي يسعى إليها الشّيطانُ

قولُه: ﴿ٱكۡفُرۡ﴾ حكايةٌ لقول الشَّيطان للإنسان، وقد أوثر الأمر به دون الأمر بالشِّرك؛ لأنَّه أعمُّ وأشملُ[3]، ولكونه يمثلُ الغايةَ العظمى الّتي يسعى إليها الشّيطانُ، والهدفَ الأعلى الّذي يحرص على تحقيقه، فهو لا يرضى من الإنسان إلّا أن يكون كافرًا بالله تعالى، جاحدًا لنعمه، منكرًا لوجوده؛ ليكون رفيقًا له في النّار أبد الآبدين.

غرض الأمر ومقصوده:

إغواء النُّفوس باتباع الشَّهوات

قولُه: ﴿ٱكۡفُرۡ﴾ فعل أمر غرضه الإغراء والتَّزيين والإغواء، وهو لا يكون باللّفظ الصّريح، وإنّما يكون بما يزيّنه له، ويوسوس به، من اتِّباع الشَّهوات القائمِ مقام الأمر[4].

نوع الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على فعلٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 455.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 244.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 230.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 455.

مَـهْـمـا طـالـت اســتــجــابــة الإنـــســـانِ للشَّيطان؛ فهي ســريــعــةٌ غير متوقَّعة

محذوفٍ، تقديره: فكفر، فلمّا كفر[1]، وجيء بالفاء لا لبيان سرعة إغواء الشَّيطان للإنسان، بل لبيان النَّتيجة الّتي آل إليها الإنسان بسرعةٍ غير متوقَّعة، فإنَّ الاستجابة للشَّيطان؛ ليكفر باللّه تعالى غير متصوّرة، فأن يحصل الكفر فهو سريعٌ مَهْما طال، فهي على فرضِ طولها، فهي تدلُّ بما فيها من معنى التسبُّب والتَّعقيب على أنَّ أقوالَ الشّيطان ووساوسَه الّتي يبثُّها في نفس الإنسان الضّعيف، كأنَّها أوامر يمليها عليه[2]، لا بدَّ أن يتسبَّب عنها الكفر على وجهٍ بالغٍ في التَّعقيب والإسراع، ووجه حذف الفعل بعد الفاء كونه أمرًا بدهيًّا يحصل لمن يستجيبُ لألاعيبِ الشّيطانِ، وتنطلي عليه حيَلُه.

نوع (لَمّا) ووظيفتها:

مــا أن يـكـفـر الإنــســان تقع براءة إبليس منه

(لَمّا) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ﴾ ظرفيَّة حينيَّة أو متضمِّنة معنى الشّرط، دالّة على أنَّ براءة إبليس من أتباعه ومطيعيه تتزامن مع كفرهم باللّه تعالى، ولا تتأخَّر عنه، وفي ذلك من التّحسير والتّأنيب والتّحذير ما يدفع السّامع إلى البصر بألاعيبه، وعدم الاستجابة لوساوسه وأمانيه، وسرعة البراءة الحاصلة من الشّيطان بمجرَّد كفر الإنسان، دالّةٌ على سرعة الجزاء يوم القيامة، فإنَّ الحياة سريعة، والحساب قريبٌ.

لطيفة التّعبير بالماضي ﴿كَفَرَ﴾:

إعــلان بــراءة الـشّـيـطـان من الإنــســان بـعـد استحالة التّوبة

جاء التّعبير عن استجابة الإنسان لأمر الشّيطان بفعل الكفر ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ الشّيطان لا يعلن براءته من الإنسان إلّا إذا اطمأنَّ إلى كفره باللّه تعالى، وتأكَّد من دوامه عليه، وتيقَّن من عدم تراجعه، وعدم اتّساع الوقت

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 52.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 455.

للتّوبة، فهو يعلن براءته بعد فوات الوقت واستحالة التّوبة، وهذا لا يكون إلّا بعد الموت وعند الجزاء.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

المجاز بالحذفِ دعوةٌ للتَّدبُّر والتَّأمُّل في النَّظم لفهم المقصود

في الآية إيجازٌ بالحذف؛ إذ حُذِف فيها معطوفاتٌ مقدّرةٌ بعد (لَمّا)، وهي داخلة في الشّرط؛ إذ التّقدير: فلمّا كفر، واستمرَّ على الكفر، وجاء يوم الحشر، واعتذر بأنَّ الشّيطان أضلَّه؛ قال الشّيطان: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾، وهذه المُقَدَّرات مأخوذة من آيات أخرى، مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾ [إبراهيم: 22]، وقوله: ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٢٧﴾ [ق: 27]، وظاهرٌ أنَّ هذه المحاجَّة لا تقع إلّا في يوم الجزاء، وبعد موت الكافر على الكفر دون مَن أسلموا[1].

دلالة التّعبير بفعل القول جوابًا للشَّرط:

قولُ الشَّيطان الثّاني كاشفٌ عمّا يُضمره للإنسان من مراوغةٍ ومخادعة

التّعبير بفعل القول الموضوع لإبراز ما يُتصوَّر في النَّفس[2]؛ جوابًا للشّرط في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ﴾، دالٌّ على أنَّ الشّيطان كان يخدع الإنسان بقوله الأوّل، ويظهر له في ثوب النّاصح الحريص، لكنّ غرضَه الحقيقيَّ من أقواله ووساوسه أن يصل بالإنسان إلى مرحلة الكفر بالله تعالى، ويشهد بذلك تناقض قوليه، ففي المرَّة الأولى زين للإنسان الكفر ووعده بالحماية والإنجاء، وفي القول الثّاني: أعلن البراءة والتنصُّل ممّا قال، فاتّحد الفعلان في اللّفظ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 109، 110.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (قول).

لكنَّهما اختلفا في المقصد والغاية، وكشف الثّاني منهما عمّا كان يبيِّتُه للإنسان، ويضمرُه، وهو ما يكشف مراوغة الشَّيطان للإنسان، وأنَّه صاحب وجهين كحال المنافق الّذي يعد بنصرة إخوانه من اليهود، ثم يختار طريقًا أخرى ليسلم من تبعاتهم.

دلالة التَّعبير بصيغة الماضي:

العذاب النَّفسيُّ يـوم الـقيامةِ سابقٌ للعذاب الحسيِّ وفي كلِّ هولٌ عظيم

جاء فعل القول بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ﴾، وهو من أحداث المستقبل؛ للإشارة إلى مبادرة إبليس بالبراءة، وإسراعِه في التنصُّل من الإغواء والخديعة الّتي مارسها ضدَّ الإنسان بقصد إيقاعِه في الكفر، في وقتٍ ينتظر منه ابنُ آدم أنْ يُدافع عنه، وأنْ ينجيه من العذاب الّذي لاحت بوادرُه، كما هو شأن اليهود مع المنافقين الّذين انتظروا نصرتهم ومؤازرتهم، أي: إنَّ مَنْ يطيع الشَّيطانَ، ويكفر باللّه يُعَذَّبُ عذابًا نفسيًّا، قبل أن يُعَذَّبَ عذابًا حسيًّا في نار جهنَّم مع الشّيطان الّذي أطاعه، واتَّبع قولَه.

دلالة التَّوكيد في قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾:

الشَّيطان يبالغ في نـفـي كـونه سـبـبَ ضـلال الإنسان

جملة: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾ وما بعدها حكايةٌ لقول الشَّيطان الّذي يُعلن فيه البراءة من مطيعيه، ومَنْ خُدعوا بقوله وتزيينه، وجاء قولُه هذا مؤكَّدًا بإنَّ والجملة الاسميَّة؛ لتأكيد براءته ممَّن كفروا باللّه، وتقوية عدم وجود صلة بينه وبينهم، ونفي ادِّعائهم أنَّه السّبب في ضلالهم، وعدولهم عن طريق الهدى إلى طريق الغواية.

بلاغة التَّعبير بمفردة ﴿بَرِيٓءٞ﴾:

ما بعد تخلُّص الـشَّـيطان من الإنـسـان إلّا البراءة منه

جاء بيان قول الشَّيطانِ بمفردة ﴿بَرِيٓءٞ﴾ خبرًا مسندًا إلى ضميره ﴿إِنِّي﴾؛ لدلالته على البعد التّام، والبون الشّاسع[1] بينه وبين مَن ينسب الغواية والضَّلال إليه، والمعنى: ليس بيني وبينك علاقة

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).

في شيء أصلًا[1]، فالبراءة تدلُّ على الانفصال التّام بين جهتين، كما أنَّ المفردة توحي بتهمة المبرَّأ منه، وشأنُ البريء أن يُلقي باللّوم على الآخر، ففي المفردة فوق التَّخلُّص من الإنسانِ الكافر، اتِّهامه بأنَّه صاحب الإجرام والمقبل على الكفران، وليس للشَّيطانِ شأنٌ به.

نوع (مِنْ) ودلالتها:

بيان نفي التَّبعيَّة للشَّيطان

(مِن) في قوله: ﴿مِّنكَ﴾ بيانيَّة يُؤكِّد بها الشَّيطانُ براءته من الشَّخص الَّذي أطاعه، وعدم مسؤوليَّته عن أيِّ فعل من أفعاله، أو أيِّ عمل من أعماله، ويدخل فيه كفره باللّه تعالى دخولًا أوَّليًّا؛ ظنًّا منه أنَّ هذه البراءة تنفي عنه شيئًا ممّا استوجبه المأمورُ بقبوله لأمره[2].

علَّة فصل جملة: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾:

ادِّعاءُ الشَّيطان الخوف من الله تعالى وقاحةٌ فوق تخاذل

جاءت جملة: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ مفصولة عمّا قبلها؛ لأنَّها تبيِّن أنَّ السَّبب الّذي دفع الشَّيطان إلى إعلان براءتِه وتنصُّلِه ممَّن أطاعوه، هو ادِّعاؤه الخوف من اللّه، ومن ثَمَّ فُصِلت عمّا قبلها، كما يُفصَل السَّبب عن المسبَّب، أي: لشبه كمال الاتِّصال[3]، فإنَّ شأن بيان الأسباب تعليل الأسئلة، فكأنَّ سائلًا قد سأل: لماذا تبرَّأ الشَّيطان من الإنسان؟ فكان الجواب: ادِّعاء الخوف من اللّه تعالى.

نكتة التَّعبير بالخوف دون الخشية:

لمقام الكلام أثرٌ في انتقاء الألفاظ المتقاربة

جاء بيان قول الشَّيطان في ذكر سبب البراءة من الكافر، في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾، بفعل الخوف الَّذي يتعلَّق بالمكروه، دون فعل الخشية الَّذي يتعلَّق بمُنْزِل المكروه[4]، وهو دالٌّ على أنَّ الشَّيطانَ يدَّعي أنَّه يخاف من أن يقول قولًا يؤدّي إلى غضب اللّه تعالى وسخطه، والمعنى: أخاف الملك الّذي لا أمر لأحدٍ معه، فلا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 455.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 455.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 456.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 241.

تُطاق صولتُه[1]، والمقام مقامُ جزاءٍ وعقاب، لا مقام تكليف وعمل، فإيثار لفظ الخوف الدّال على عموم المعنى، أولى من لفظ الخشية.

دلالة التَّعبير باسم الجلالة:

أعظم الخذلان تجهيل الإنسان بأسباب النَّجاة مع المعرفة بها

جاء التَّعبير باسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾؛ للدَّلالةِ على ادِّعاء الشَّيطان معرفتَه قَدْرَ اللّه حقَّ المعرفة، وإدراكه مدى قدرتِه وعظمتِه حقَّ الإدراك، أي: إنَّ خوفه منه حاصلٌ عن علم ومعرفة، وفيه اتِّهام للإنسان بأنَّ جهله باللّه تعالى هو السَّبب الَّذي أوقعه في الكفر به، ما يعني: أنَّه صادق فيما ادَّعاه من براءة، ومحقٌّ في اتِّهامه الإنسان بالكذب والافتراء، فالشَّيطان يلمز بجهل الإنسانِ بمعرفة اللّه تعالى، وينسبها لنفسِه، وهذا في غاية كشف خذلان الشّيطان للإنسان؛ لأنَّه أغواه بالابتعاد عن طريق الخوف من اللّه تعالى، ثم ادَّعى الخوف لنفسه.

فائدة الجمع بين اسم الجلالة ووصف الرُّبوبيَّة:

المبالغة في بيان استحقاق الله للعبادة تحسيرٌ لِمَن أغواهم الشَّيطان في الرَّذيلة

اقترن اسم الجلالة ووصف الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الشَّيطان كما يعرف قُدرةَ اللّه تعالى وعظمتَه يعترفُ بنعمِهِ عليه، فإنَّه يُقرُّ بأفضاله الّتي تغمره، ومَن كان كذلك؛ فلا يليق به أن يكْفر باللّه، ولا أن يدعوَ أحدًا للكفر به، لكنَّ الشَّيطانَ كفر، ودعا النّاس إلى الكفر، وما قاله إنَّما يصبُّ في بحرِ النِّكاية في أعدائه من الإنس، الَّذي أقسم أن يُغويهم، فهو ينتقم من عدوِّه الإنسيِّ في الدُّنيا بالإغواء، وكذلك في الآخرة في تمزيق أكبادهم حسرةً على مآلهم؛ بسبب غفلتهم وغباوتهم، وهذا حال المنافق مع الآخرين، فهو يتَّخذهم أعداءً في الباطن، ويُجاريهم في الظّاهر، حتّى إذا وقعت واقعة العذاب؛ تنصَّل، وتبرَّأ منهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 456.

دلالة إضافة ﴿رَبَّ﴾ إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

ادِّعاء المعرفة بالحقِّ لا يُنجي الكافرَ بعد حكم الحقِّ

إضافة اسم ﴿رَبَّ﴾ إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ يدلُّ على أنَّ الشَّيطان يقرُّ بربوبيَّة اللّه للعالمين من غير استثناءٍ؛ تأكيدًا لبراءته من كفر الكافرين، وزعمًا بأنَّهم فعلوا ذلك برغبتهم وإرادتهم، كما يحكيه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: 22]، ولم يقل: (إنّي أخاف اللّه ربّي)؛ لدخوله في لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دخولًا أوليًّا برهانيًّا يُؤكِّد إيمانه وعدم كفره، ويقوّي براءَته واتِّهامَه الكفّارَ بالجهلِ والكذبِ، وهذا الاعتراف بالمعرفة الكاملة لتوحيد الألوهيَّة والرُّبوبيَّة، لا ينقل المعترف من كفرِه الَّذي استقرَّ فيه، إلى الإيمانِ المُنجي الَّذي يطمع فيه.

بلاغة تشبيه المنافقين بالشَّيطان:

أشبه المخلوقات بالمنافقين مَن يوسوس في صدور العالمين

جاء تمثيل القرآنِ فعل المنافقين مع اليهود خصوصًا بفعل الشَّيطان مع الإنسان عمومًا في الخديعة والتخلّي لبيان حال المشبه، وإبراز الفرق الشّاسع بين أخوَّة المنافقين لليهود، وأخوَّة المؤمنين للمؤمنين، فالأولى تقوم على الخديعة والتخلّي، والأخرى تقوم على المحبَّة والإيثار، وجمع الصّورتين في قرنٍ واحد يزيد الحسن حسنًا، والقبيح قبحًا، فتبرز لدى المؤمنين - الَّذين يمتنُّ اللّهُ تعالى عليهم بإخراج بني النَّضير من مدينتهم - قيمةُ أخوتهم وعظمتُها، فيزداد شكرُهم للّه تعالى عليها بحمده وتسبيحه وتنزيهه؛ كما فيه ذمُّ المنافقين واليهود ذمًّا شنيعًا، والإضعاف من شأنهم، ودعوة المسلمين إلى الاستخفاف بهم، ومجاهدتهم بغلظة وشدَّة[1]، وبيانُ عداوةِ الشَّيطان للإنسان، وحرصِه على أن يكون رفيقَه في نار جهنَّم، والتَّحذيرُ من وساوسه وتزيينه القاصد إلى إيصال الإنسان إلى درجة الكفر باللّه تعالى.

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 307.

نوع الفاء ودلالتها:

الاستجابة للإغواء الشّيطانيّ قبولٌ بالوعيد الرّبّانيّ

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ حرف عطف يفيد تسبُّب ما بعدها عمّا قبلها، ما يعني: أنَّ خداع الشَّيطان للإنسان واستجابة الإنسان للشَّيطان سببٌ في دخولهما النّار معًا، وبهذا العقاب سوّى البيانُ الكريم بين الغارِّ والمغرور[1]؛ لينتبه الإنسانُ، ويحذرَ كيدَ الشَّيطان، والمعنى: فكان عقبى أمر الشَّيطان والإنسان الّذي أطاعه، فكفر باللّه، أنَّهما خالدان في النّار، ماكثان فيها أبدًا[2].

بلاغة التّعبير بمفردة ﴿عَٰقِبَتَهُمَآ﴾:

عاقبتُهما عقوبتُهما، وعقوبتُهما عاقبتُهما

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير عن جزاء الشَّيطانِ والإنسان الّذي أطاعه في الآخرة بمفردة: ﴿عَٰقِبَتَهُمَآ﴾؛ للدَّلالةِ على النِّهاية الّتي لا مردَّ عنها؛ فيقع اليأس في القلوب، كما يرسخ الماء في عمق الأرض، وتقع الحسرة في النُّفوس، كما تثبت الجبال الرّواسي في باطن الأرض، فلا منفسَ ولا مهربَ، ولتناسب هذه المفردة ﴿عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ لفظَ (العقوبة)، فاشتراك اللَّفظين في الجذر يدلُّ على العلاقة الّتي بينهما، فكأنَّه قيل: عاقبتُهما عقوبتُهما، وعقوبتُهما عاقبتُهما، مع ما يحمل اللَّفظ من التَّحذير الشَّديد، لِمَنْ يتَّبع وساوس المنافقين، الّذين هم جند الشَّيطان المخلصين، ودعاة إبليس المقرَّبين.

نكتة إضافة العاقبة إلى الضَّمير:

المنافقون مع اليهود كالشَّيطان مع الإنسان في استحقاق العذاب

آثر النَّظمُ إضافة لفظ العاقبة إلى ضمير الشَّيطان والإنسان في قوله تعالى: ﴿عَٰقِبَتَهُمَآ﴾؛ لبيان أنَّ العقوبةَ لا تختصُّ بواحد منهما دون الآخر، وأنَّها تشملهما معًا، فللشَّيطان عقوبته، وللإنسان الَّذي أطاعه، وكفر باللّه عقوبته، ولو قيل: (فكان عاقبتُه أنَّه في النّار)؛ لفُهِمَ أنَّ ذلك العقاب خاصٌّ بالشّيطان؛ لأنَّه هو الَّذي خدع الإنسان،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 457.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 545.

ولأنّه المشبّه به، وأنّ الإنسان لا عقاب عليه؛ لأنَّه مخدوع، لكنَّ التَّعبير القرآنيَّ آثر تثنية الضَّمير إزالةً لهذا اللَّبس، وليكون التَّحذيرُ من الشَّيطان أقوى وأنجع، وللإشارة إلى أنَّ المنافقين واليهود سواءٌ في العقاب، وأنَّهما مثل الشَّيطان والإنسان في استحقاق التَّعذيب بالنّار؛ لاشتراكهما في الكفر باللّٰه ومعاداة رسوله.

غرض تقديم خبر (كانَ) على اسمها:

دلالة التَّقديم على قصد التَّنبيه والتَّشويق ولفت الانتباه

جاء نظمُ الجملة مُقَدِّمًا خبر النّاسخ على اسمه، في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا﴾؛ لما يوجبه التَّقديمُ من روعة تنبيه الإنسان للتَّفتيش عن السَّبب، والتَّشويق إلى المؤخَّر[1].

بلاغة التَّوكيد ودلالته:

أثر التَّوكيد القرآني في شدَّة التَّحذير

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ جملةٌ في محلِّ رفع اسم (كانَ) مؤخَّر، جاء مؤكَّدًا بأنَّ والجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على ثبوت الجزاء، وليتضافر التَّأكيدُ مع التَّقديم في روعة التَّنبيه، وشدَّةِ التَّحذير.

بلاغة استعمال حرف الظَّرفية:

النّار وعاء الشَّيطان ومهبط أهل الكفران

قوله تعالى: ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ جارٌّ ومجرور في محلِّ رفع خبر للحرف النّاسخ المؤكِّد للجملة، أوثر التَّعبير بحرف الظَّرفيَّة ﴿فِى﴾؛ للدَّلالة على انغماس الشَّيطان مع الكافر الَّذي أطاعه، وكفر في قعر النّار ووسطها، وأنَّها ستحيط بهما كما يحيط الظَّرف بالمظروف، أي: إنَّ عذابَهما سيكون شديدَ الإحراقِ، عظيمَ الإيلام؛ لاقتران وجودهما في النّار بالخلود.

نوع (أل) ودلالتها في ﴿ٱلنَّارِ﴾:

الإحالة على العذاب المعهود

(أل) في ﴿ٱلنَّارِ﴾ لتعريف العهد، فالنّار هي الّتي يُهدِّد اللّٰهُ النّاسَ بها، ويتوعَّد مَن يُطيع الشَّيطانَ بالعذاب في قعرِها، وهي الّتي ذكرها القرآنُ في مواضع عديدة، وتحدَّث عن شدّة إحراقها.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 456.

موقع ﴿خَٰلِدَيۡنِ﴾ الإعرابيّ ودلالته البيانيّة:

قولُه: ﴿خَٰلِدَيۡنِ﴾ حال من الضّمير المنصوب في ﴿أَنَّهُمَا﴾، أوثر التّعبيرُ به مع جواز أن يُقال: (فكان عاقبتهما أنّهما في النّار)؛ للدّلالة على أنَّهما لن يخرجا من النّار؛ وذلك لأنَّهما ظَلَما ظُلْمًا لا فلاحَ معه[1]، ولا نهاية لعقابه، والمعنى: فكان عاقبة الشَّيطان والفريقين اللَّذَين أغراهما من اليهود والمنافقين أنَّهم جميعًا إلى النّار، وفي النّار خالدين مُخَلَّدين فيها، أبد الآبدين ودهر الدّاهرين[2]، ففيه احتراسٌ من مظنَّة النَّجاة لمن يسمع كلام الشّيطان حين اعترافه بالألوهيَّة والرُّبوبيَّة، فيظنُّ أنَّ من أظهر المعرفة الصَّحيحة دخل في حيِّز المؤمنين، بعد المغفرة والتّوبة، فجاء ذكر الخلود للاحتراس من أوهام الأفهام.

ذكرُ الخلود لدفع كلِّ وهمٍ قد يتطرّق لأحدٍ من السّامعين

نكتة التَّعبير باسم الفاعل ﴿خَٰلِدَيۡنِ﴾ دون المفعول:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير باسم الفاعل: ﴿خَٰلِدَيۡنِ﴾ دون اسم المفعول (مُخَلَّدَيْن)؛ وذلك لأنَّ إصرارَ الشَّيطان على إغواء النّاس وخداعهم، والإلحاح عليهم في الكفر باللّه وتزيينه لهم، واستجابةَ الإنسان للشّيطان وانخداعَه بألاعيبه ووقوعَه في الكفر بإرادته، هو بمنزلة اختيارٍ فعليٍّ صادرٍ عنهما للخلود في النّار، والرِّضا بالعذاب فيها أبد الآبدين، ففيه بيان أنَّ الإنسان هو الّذي يختار آخرته، وهو الّذي يختار نار الجحيم، وليس الأمر جبريًّا قهريًّا، ولو قيل: (مُخَلَّدَيْن)؛ لفُهِم أنَّه لم يكن منهما اختيار للكفر، أو إصرار على الإثم، وأنَّهما لم يكونا سببًا في الخلود بأيِّ شكلٍ من الأشكال، وهو ما يزيد حسرتهم يوم الدّين، ويُقوّي آلامهم في النّيران يوم الجزاء العظيم.

دخول النّار اختيارٌ حقيقيٌّ لأصحابِها، وهو ما يزيد حسرتهم وآلامهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 457.

(2) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 10/ 3166.

فائدة تكرار حرف الظَّرفيّة ﴿فِيهَا﴾:

نفيُ أيِّ توهُّم أن يكون الخلودُ خارجَ النّار

كان من الجائز أن يُقال: (فكان عاقبتهما أنَّهما في النّار خالدين وذلك جزاء الظّالمين)، لكنَّ النَّظم القرآنيَّ أعاد ذكر حرف الظَّرفيَّة، فقال: ﴿أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾؛ لتأكيد خلودهما في النّار لا في مكانٍ آخر، ولدفع أيِّ احتمالٍ لأن يكون الخلود في مكانٍ آخر، أو يكون الخلود معنويًّا، فذكر حرف الظَّرفيَّة يدفع كلَّ احتمال، ويقوّي بقاء الجميع فيها أبد الآبدين.

نوع الواو ودلالتها:

الواو في جملة: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للاستئناف، عبَّر بها للتَّنبيه إلى أنَّ الخلود في النّار ليس خاصًّا بالمذكورين في السّياق، بل هو عامٌّ في الظّالمين أجمعين زجرًا عن الظُّلم بجميع أنواعه[1].

تعيين مرجع اسم الإشارة:

ترجع الإشارة إلى الخلود في النّار

اسم الإشارة (ذَلِكَ) يرجع إلى ما يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ من الخلود في النّار، والبقاء فيها أبد الآبدين، والمعنى: ذلك الخلودُ في النّار جزاءُ الظّالمين جميعًا، وليس هؤلاء خاصَّة[2].

نكتة استعمال اسم الإشارة للبعيد:

جاء التّعبير باسم الإشارة (ذَلِكَ) للبعيد؛ تعظيمًا لشأن العقاب المُشار إليه، وتهويلًا لأمره، بإنزال ما فيه من بعد معنويٍّ منزلة البعد الحسيِّ، والمعنى: ذلك العذاب الأكبر[3].

بلاغة ذكر لفظ ﴿جَزَٰٓؤُاْ﴾:

خلودُ الظّالمين في النّار عقابٌ عادلٌ

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿جَزَٰٓؤُاْ﴾ الّذي يُستعمَل في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 457.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 232، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 110.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 457.

سياق المنفعة والمضرَّة، وفي الخير والشرِّ[1]، دون رديفاتها كعقابٍ ونحوه؛ للدَّلالة على أنَّ الجزاء هو عدالةٌ تامَّة، لا عقابٌ ظالم، وأنَّ هذا الجزاء مناسبٌ لما ارتكبوه من معاصٍ وأوزارٍ، ويأتي على رأسها الكفرُ باللَّه تعالى، ومعاداةُ رسوله، والتَّغريرُ بالنّاس وخداعُهم، والاستجابةُ لوساوس الشَّيطان وتزيينه، وظلم النّاس وأكل حقوقهم، فكلُّ من يصدُّ عن دين اللَّه تعالى ظالمٌ خالدٌ في النّار.

نكتة العدول عن التَّعبير بوصف الكفر إلى الظُّلم:

جـمَـعَ لـفـظُ الظُّـلـمِ الظُّـلـمَ الـسُّـلـوكيَّ والاعتقاديَّ

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (وذلك جزاء الكافرين)، لا سيّما بعد أمر الشَّيطان للإنسان بالكفر، وكفر الإنسان استجابةً له، لكن النّظم الكريم عدل عن وصف الكفر إلى وصف الظّلم، فقال: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ تقبيحًا لفعل الإنسان والشّيطان، وتشنيعًا بهما، ببيان أنهم أتَوا أقبحَ أنواع الظُّلم وأشدَّها وأعظمَها، لقول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، ما يؤكِّد عدالةَ جزائهم بالعذاب في قعر النّار، وأنَّه لا ظلم فيه ولا زيادة، فجمع لفظُ الظُّلمِ الظُّلمَ السُّلوكيَّ والاعتقاديَّ، فيدخل الكفرُ كذلك في الجزاءِ، وأيضًا فإنَّ في اختيار لفظ الظّلم تلويحًا بشأنِ إغواء النّاس عن دين اللَّه تعالى، بأنَّه ظلم عظيم يستحقُّ صاحبه الجزاء العادل.

نوع (أل) ودلالتها في لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الخلود في النّار جـــزاء جـمـيـع الظّالمين المعتدين عـلـى الاعـتـقـاد الحقِّ

(أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لتعريف الجنس، الدّالِّ على عموم الوصف وشمولِه كلَّ مَن تجاوز، واعتدى بلا استثناء، ويدخل فيه الشّيطانُ والإنسانُ الّذي أطاعه في أمره بالكفر، والمنافقون واليهود، وكلُّ مَنْ نهج نهجهم، وسار على دربهم، والمعنى: والعاقبةُ السوءَى جزاءُ جميع الظّالمين المعتدين على اللَّه تعالى، وعلى رسوله ﷺ، وعلى المسلمين،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جزى)، والرّاغب، مفردات القرآن: (جزا).

فكما كانت عاقبةُ الكافر وشيطانه عاقبةَ سوء، كذلك تكون عاقبةُ المُمَثَّلين بهما؛ لأنّهما اشتركا في ظلم أهل الحقِّ والهدى[1].

بلاغة التّذييل في جملة الفاصلة:

تأكيدُ استحقاقِ الظّالمين الخلود في النّار

جملةُ: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تذييلٌ يؤكّد استحقاق يهود بني النّضير ويهود بني قينقاع، والمنافقين وكفار مكّة، وكذلك الشّياطين ومَن يستجيبون لهم من النّاس العذابَ بالنّار؛ لأنَّهم جميعًا ظالمون فيما فعلوا، معتدون فيما أتَوا، وأصابوا.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخوف والخشية:

الـخـوفُ ذعـرٌ إجـمـاليٌّ، والخشية خوفٌ مـقـترنٌ بعلم تفصيليّ

الخوفُ ذعرٌ[2] يصيب الإنسان بسبب توقُّع المكروه[3]، ويختصُّ الخوفُ بأنّه من شَيء مخوفٍ منه إجمالًا، بخلاف الخشية فهي لأمرٍ مخشيٍّ منه عن علم تفصيليٍّ، وأيضًا فإنَّ الخاشي يستحضرُ المخشيَّ منه، فالخشيةُ أعلى رتبةً من الخوف، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]، وقد اجتمع لفظا الخشية والخوف في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: 21]، فالخشية هنا من اللّه تعالى الّتي هي خشيةُ المحسنين، وسببُ إيراد الخَوْف من سوء الحساب هو المقابلة، فلا تستوي الخشية من اللّه تعالى مع الخوف من سوء الحساب، فيقال: ويخشَون سوءَ الحساب؛ لأنَّ ذلك يعني ضمنًا التَّسويةَ بين اللّه تعالى وسوءِ حسابه، وهذا غيرُ مُتصوَّر.

واجتمع اللّفظان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 110.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، مادة: (خوف).

(3) الرّاغب، المفردات، مادة: (خوف).

﴿٧٧﴾ [طه: 77]، فخوفُ موسى عليه السلام كان من دَرَكِ فرعونَ وجنودِه، والخشيةُ ما استحضرَه موسى عليه السلام من الغرَق في البحر، وهي تكشفُ عمّا يجول في نفسه عليه السلام، وهذا يبيِّنُ لنا أنَّ الخوفَ كان محدَّدًا من دَرَك فرعون، بينما الخشيةُ فكانت عامةً؛ لذلك حُذِفَ مفعولُها، كأنَّه قال: لا تخافُ دَرَكًا، ولا تَخشَى غَرَقًا، ولمّا كان قصدُ الشّيطان تعليلَ براءته من كفر الإنسان؛ ناسب التّعبير بفعل الخوف دون الخشية؛ لإبراز خوفه من غضب اللّه تعالى وصولته وعدم قدرته على تحمُّل آثارهما.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾

[الحشر: 18 - 20]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذكر مصيبة أهل النّار إلى تحذير أهل الجنّة؛ ليثبتوا على توحيدهم

في وجه تناسب هذه الآياتِ لما سبق، هو الانتقال من ذكر مصيبةِ المنافقين واليهود، إلى خطاب المؤمنين بقصد وعظهم؛ لأنَّ الموعظةَ بعد ذكر المصيبة لها موقعٌ في النَّفس لرقَّة القلوب والحذر مما يوجب العذاب(1)، فبعد أن تحدَّثت الآياتُ السّابقةُ عن المنافقين واليهود وكفار مكّة، ووسمتهم في آخر الحديث بالظّالمين، وأخبرت باستحقاقهم عذاب الجحيم؛ ناسب أن يوجِّه الله تعالى نداءً للمؤمنين يأمرهم فيه بتقواه، وتقديم العمل الصّالح الّذي ينفعهم يومَ يلقونه، وينهاهم عن التشبُّه بالقوم الفاسقين(2)؛ كي لا ينحصر التّحذير في جانب الكافرين، بل ليعتبر منه المؤمنون، فيثبتوا على ما هم عليه من التّوحيد وطاعة الله تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلۡتَنظُرۡ﴾: (نظر) أَصْلٌ صَحيحٌ مَعْناهُ: تَأمُّلُ الشَّيْءِ ومُعايَنَتُهُ(3)، ومنه النَّظَرُ: تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشّيءِ ورؤيَتِهِ، وقد يُرادُ به التَّأمُّلُ والفَحْصُ، وقد يُرادُ به: المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، واستعمالات التّركيب في القرآن دائرة بين أمور،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 148.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 307.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).

منها: التأمّل العقليّ المأخوذ من المواجهة بالنّظر لالتقاط الشّيء، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، وقال: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥﴾ [عبس: 24 - 25]، وقال أيضًا: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 101]، أي: تَأمَّلوا[1]، والمراد في الآية: هو النّظر فيما قدّمته من أعمال بقصد تفحُّصها والحذر من التَّقصير.

2) ﴿قَدَّمَتۡ﴾: (قدم) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على سَبْقٍ، ثُمَّ يُفَرَّعُ مِنْهُ ما يُقارِبُهُ[2]، والمعنى المحوريُّ: سَبْقُ الشّيء نافذًا إلى الأمام بقوّة أو حِدَّة، كما ينتأ قيدومُ الجبل سابقًا عُظْمَ جِرْمِه نافذًا في ما أمامه، وكلُّ (قَدّم) في القرآن الكريم بمعنى: عمِلَتْ من قَبْلُ، كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ [يونس: 30]، وكقوله: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾[3]، أي: ما عملته من أعمالٍ للآخرة.

3) ﴿نَسُواْ﴾: (نسي) أَصْلانِ صَحيحانِ: يَدُلُّ أَحَدُهُما على إِغْفالِ الشَّيْءِ، والثّاني على تَرْكِ شَيْءٍ، يقال: نَسيتُ الشَّيْءَ؛ إذا لَمْ تَذْكُرْهُ، نِسْيانًا[4]، والنِّسْيانُ: تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استودِعَ، إمّا لضَعْفِ قلبِه، وإمّا عن غفْلةٍ، وإمّا عن قصْدٍ حتى يَنْحَذِفَ عن القلبِ ذِكْرُهُ، يقال: نسيته نسيانا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه: 115]، وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ تنبيهٌ إلى أنَّ الإنسان بمعرفته بنفسه يعرف اللّهَ، فنسيانُهُ للّه هو من نسيانه نَفْسَهُ[5]، والمراد غفلةُ الإنسان عن قصد وعنادٍ، فجازاهم اللّه بذلك، فتركهم، وخذلهم على ما هم عليه.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تنادي الآيةُ الأولى على المؤمنين، وتدعوهم في تلطُّف ورفق إلى الاستزادة من تقوى اللّه تعالى، والنّظر فيما قدّموا من أعمال صالحة؛ استعدادًا ليوم عظيم وغد قريب، يجدُ فيه المرءُ ما قدمت يداه، ويلاقي جزاءَه عند اللّه الخبير بما قدَّم، العليم بمدى

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نظر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدم).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قدم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (نسي).

تقوى الله واليقظة لأمره أصلٌ في الفوز بالجنّة

إخلاصه فيه، وتنهاهم الآيةُ الثّانيةُ عن الغفلة عن عبادةِ اللّه تعالى وذكرِه، حتّى لا يصرفَهم عن العمل بما فيه سلامةُ نفوسهم ونفعُها، ويحرمَهم حظوظَهم من الخير والثّواب، وتوضِّحُ لهم أنّ الّذين يفعلون ذلك هم الفاسقون المتناهون في الفسق المستحقّون للعقاب الجسيم في دار الجحيم، وتبيّنُ الآيةُ الثّالثةُ عدمَ استواء أهل النّار الّذين انخرطوا في المَلَذّات، وانهمكوا في المعاصي، وسبَحوا في مهاوي الشّرك، ومفاوز الضّلال والكفر، مع أصحاب الجنّة الّذين وقفوا أنفسهم على العمل لها، وقرنوا سلوكهم بالطّاعة وحياتَهم بالحلال الطيّب؛ إذ الّذين يفعلون ذلك هم الفائزون بكل المطالب، الجديرون بكلِّ الرّغائب، النّاجون من كل المهالك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ النِّداء بوصف الإيمان في مطلع الآيات:

النِّداءُ بوَصْف الإيمانِ توطئةٌ لتلقّي الأمر والنّهي بصفةِ النّجاة

صُدِّرت الآيات بنداء المؤمنين؛ لتنبيههم ولفت أنظارهم إلى أهميّة ما يأتي بعد النّداء؛ لتعلُّقه بما فيه فلاحُهم وفوزُهم بالجنّة في الآخرة، ولإثارة قلوبهم بالصّفة الّتي تربطهم باللّه، وتُشعرهم بأنّهم ممّن عرفوا قدره، وتزيد من تنشيطهم، وتدعوهم إلى المحافظة عليه، وتردعهم عن الإخلال به[2]، ولحثِّهم على أن يُقبِلوا على ما أمرهم به، فصيغةُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ تحمل من دلائل التّفخيم والتّشريف الدّاعي إلى أخذ ما يأتي بعده، وعدم الغفلة عنه؛ لأنَّ الغفلة عنه كانت سببًا في ندائهم بـ (يا)[3].

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول:

الإيمانُ هو علّة التّعريف بالمُنادى عليهم

﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول في محل رفع صفة أو بيان لـ (أيٌّ)، وقد

(1) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 10/ 1368، وما بعدها.
(2) تفسير أبي السّعود: 8/ 115.
(3) المراديّ، الجنى الدّانيّ، ص: 354.

أوثر التّعبيرُ به تفخيمًا للمؤمنين، وتقديرًا لشأنهم؛ لدلالته على استقرار الإيمان في قلوبهم، وبلوغهم فيه مبلغًا مرضيًّا عند الله تعالى ومقبولًا لديه، فالاسم الموصول يدلُّ على أنَّ صلته - وهي الإيمانُ - علَّة التّعريف بهم.

بلاغة تقديم النّداء على الأمر بالتّقوى:

التّوطئة بقاعدة القبول أولى بالتّقديم وأدعى في التّسليم

قُدِّم النّداءُ بوصف الإيمان على الأمر بالتّقوى تمهيدًا وتوطئة؛ لما أنَّ النداءَ بهذا الوصف دالٌّ على أنَّ ما يأتي بعده من متطلّبات الإيمان وداخلٌ في حقيقته، وأنَّ على المنادى أن يقبل على المأمور به، ويعزم على فعله عزمَ الرّاغبين في استكمال إيمانِهم وتمامه، فالإيمانُ قاعدةُ التّقوى وأصله القويم، ومن لا إيمانَ لديه؛ فلا تقوى بين يديه، ومن خلا قلبُه من الإيمانِ؛ فقد باء بالخسران.

نكتة التّعبير بالماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

إثارة المُنادَى عليهم إلى بلوغ درجةِ الكمالِ الإيمانيّ

التَّعبير في جملة الصّلة بالفعل الماضي: ﴿ءَامَنُواْ﴾ دالٌّ على أنَّ المقصودين بالنِّداء قد حقَّقوا الإيمانَ المقبول عند الله تعالى، وهم على درجاتٍ متفاوتة في التّفاضل الإيمانيّ، والله تعالى يريد أن يمنَّ عليهم بإكمال أعلى الدَّرجات، فكان النّداء من باب الإثارة والحثِّ على بلوغ درجة الكمال الإيمانيّ، من خلال التزام ما أمر به بعد النِّداء، واجتناب ما نهى عنه؛ لأنَّ الإخلال بذلك إخلال بالكمال الإيمانيّ الّذي يريده الله تعالى، ويرضاه لهم، والمعنى: يا من صدّقتم الله، ورسوله، وتحلّيتم بالإيمان، الّذي هو زينة الإنسان[1]، اتقوا الله؛ لتزدادوا إيمانًا فاضلًا على أصل إيمانكم.

غرض الأمر بالتّقوى:

غرضُ الأمر في قولِه تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ حثُّ المؤمنين على

(1) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 621.

الاستزادة من التّقوى والدّوام عليها من مقاصد الأمر بها

الدّوام على تقوى اللّه تعالى والاستزادة منها، فإنَّ لها بابًا واسعًا وعرضًا عريضًا لا يُنال مداه؛ إذ متى أُمِر أحدٌ بشيء هو به متلبِّس؛ فإنَّما معناه الدَّوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية[1]، وسببُ الأمر بها في هذا السّياق كونها المعينَ على فعل ما يأتي بعدها من أوامر ونواهٍ، كما أنَّ المُداومة على التَّحلّي بها، ممّا يُساعد على تحمُّل المهامِّ الثِّقال، فالأمر بها إذًا توطئةٌ للأمر بحساب النّفس والاستعداد للآخرة، وتوطئة كذلك للنَّهي عن الغفلة عن الطّاعة وأعمال الخير المؤهلة للجنَّة.

غرض التّعبير باسم الجلالة:

تربية المهابة في النّفوس وتوثيق دلالات الألوهيَّة أمرًا ونهيًا

آثر النَّظم الكريم التَّعبير باسم الجلالة في جملة: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ دون التّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة، فلم يقل: (اتّقوا ربَّكم)؛ لما فيه من تربية المهابة في نفوس المؤمنين، ولأنَّ السياق أتى بالتّحذير من التَّشبُّه بالَّذين نسوا اللّه، وغفلوا عن طاعتِه، فهو سياقٌ تحذيريٌّ يُناسبه اسمُ الجلالة لما يُحيط به من معاني المهابةِ والجلال، وأيضًا فإنَّ السّياق اشتمل على أمرٍ ونهيٍ، وهي من مقتضيات توحيد الألوهيّة.

بلاغة عطف الأمر على الأمر:

تنزيلُ الأمرِ بالتَّقوى منزلةَ الأصلِ والنّظر في الأعمال الصّالحة منزلة الفرع

الواو في جملة: ﴿وَلۡتَنظُرۡ﴾؛ لعطف ما بعدها على الأمر بتقوى اللّه السّابق في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عطفَ الأمر على الأمر، أي: اتَّقوا اللّه، وانظروا فيما قدَّمتم في هذه الحياة للآخرة، وقد أوثر العطف بالواو؛ لتأكيد أنَّ التحلّيَ بتقوى اللّه تعالى، والخوفَ منه معينٌ للمرء على أن يحاسب نفسه، وينظر فيما فعلَتْه استعدادًا ليوم قريب، يقف فيه العبدُ بين يَدَيّ ربِّه ومولاه، فنُزِّل المعطوف عليه منزلة الأصل، ونُزِّل الأمر بالنّظر فيما قدَّم العبد للآخرةِ منزلة الفرع، فالنَّفس لا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 367، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 89.

تتهيَّأ للنَّظر في قابل الأيّام إن لم تُحرِّكها التّقوى، ويهمزها الخوف من اللّه تعالى.

بلاغةُ الاختلاف في انتقاء صيغ الأمر ودلالاتها:

عـادةُ البيان العربي الخروجُ بالتَّعبير عن معهود لفظه؛ إذا خرج عن معهود حاله

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلۡتَنظُرۡ﴾ هي لام الأمر الَّتي تدخل على الفعل المضارع بغرض الإبلاغ في الحثِّ على المأمور به؛ نظرًا لأهمّيَّته الشَّديدة في الفوز بالجنّة والنَّجاة من النّار، وذلك جريًا على عادة البيان العربيّ في الخروج بالتّعبير عن معهود لفظه؛ إذا خرج عن معهود حاله[1]، فيكون العدول عن صيغة الأمر المعتادة إلى صيغة المضارع المقترن باللّام دلالةً على المبالغة في الأمر، وتوجيهًا إلى التّشديد في الالتزام به، فاختلاف صيغة الأمر ﴿ٱتَّقُواْ﴾ عن صيغة الأمر ﴿وَلۡتَنظُرۡ﴾ لاختلاف المضمون، فالأمر بالتّقوى جاء على أصله، والأمر بالنّظر فيما قدمت النّفس من أعمالٍ جاء مؤكّدًا لما تحتاجه المراقبة من شدّة الحذر، وكثير النّظر.

دلالة التّعبير بفعل (تَنْظُرْ) مادّة وصيغة:

النَّـظـر في الأعمال له تأثيرٌ كبيرٌ في سلوكِ الإنسان وطاعتِه

التّعبير بالفعل: (تَنْظُرْ) الموضوع لطلب إدْراك الشَّيء من جهة البَصَر أو الفِكر[2]، دالٌّ على ضرورة أن ينظر المؤمن نظرًا ممزوجًا بالتفكُّر وإعمال العقل، فيما يقوم به من أعمال بصفة عامّة، وما يقوم به من أعمال تجعله من الآمنين يوم القيامة بصفة خاصّة، قبل أن يأتي وقتٌ لا يستطيع فيه فعل ذلك بأي حال من الأحوال، وأوثر التّعبير عن ذلك بالمضارع المقترن باللّام؛ ليتجدَّد قيامه به، ويستمر فعله له بين الوقت والآخر؛ لما لذلك من تأثير كبير في سلوكه وطاعته.

(1) ابن جنيّ، الخصائص: 3/ 48.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 74.

بلاغة اختيار مفردة ﴿نَفۡسٌ﴾:

النَّظر في أعمال النَّفس من نفائس الأعمال

أسند النّظمُ فعل النّظر إلى النّفس دون الرّوح أو غيرها، فقال: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ﴾؛ لما ينطوي عليه هذا اللّفظ من دلالة على ارتفاع شأن مَنْ قام به، ورغبته في أن يتميَّز عن غيره فيه؛ لنفاسته وأهميَّته وأثره البالغ في الفوز بالجنَّة والنَّجاة من النّار، فمن المعلوم أنّ الشّيء إذا كان ذا حقيقة قيّمة، ويُرْغَب إليه لخطره، سُمّي: نَفيسًا، وأيضًا فإنَّ المنافسة والتّنافس في الشّيء، تعني: الرّغبة في الانفراد به لقيمته[1]، قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26]، والمعنى: فلتتأمَّل كلُّ نفسٍ تنظر إلى نفاستِها، وتريد العلوَّ على أقرانها[2].

غرضُ تنكير ﴿نَفۡسٌ﴾ وإفرادها:

تهويل أمر النّظر وتفخيم شأن القيامة عند الحساب

نُكِّر المسند إليه ﴿نَفۡسٌ﴾؛ لما يدلُّ عليه التَّنكير من العموم والشّمول لجميع النّاس، وتنكير النّفس لتهويل الأمر، وتفخيم شأن القيامة، فإنَّ النَّفس النّكرة تشمل جميع النّفوس دون تخصيصها بصفة ما، فهو دالٌّ على ضرورة أن يقوم بالنّظر والتأمّل والمحاسبة كلُّ النّاس قيامًا مستقلًا؛ إذ لا تُغني في ذلك نفسٌ عن نفسٍ ولا فردٌ عن فرد، فـ "تنكير ﴿نَفۡسٌ﴾ لاستقلال الأنفس النّواظر فيما قدّمن؛ لذلك اليوم الهائل، كأنّه قيل: ولتنظر نفسٌ واحدةٌ ذلك"[3]، وأمّا الإفراد؛ فللإشارة إلى قلَّة المُمْتثلين لهذا الأمر، ونُدرة القائمين به جدًّا[4].

بلاغة إظهار ﴿نَفۡسٌ﴾:

الأمر بالنّظر للمؤمنين أصالةً ولجميع النّاس تلويحًا

آثر النّظم الكريم إظهار لفظ ﴿نَفۡسٌ﴾ دون إضمارها، فلم يقل: (اتّقوا الله ولتنظروا)؛ وذلك لأنَّ المقصودَ بالأمر بالنّظر المؤمنون

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نفس).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 457.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 511، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 232.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 457.

أصالةً وجميع البشر تلويحًا إيمائيًّا؛ ليلفت النّظر إلى ما للنّفس من أثر فاعل في اختيار الإنسان وتوجيه أفعاله وأقواله، فيتسنّى له رياضتها والاهتمامُ بها؛ ليفوز بالجنّة، ولتأكيد العموم؛ إذ المعنى: لتنظروا، وتنظر كلُّ نفس[1].

نوع ﴿مَّا﴾ ونكتة استعمالها:

شمولُ النّظر في جميعِ الأعمالِ هو مقصودُ الأمر

﴿مَّا﴾ في جملة: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ اسم موصول في محلّ نصب مفعول به للفعل: (تَنۡظُرۡ)؛ أوثر التّعبير به؛ لما يدلُّ عليه من ضرورة أن تكون المحاسبة والنّظر شاملًا كلَّ الأقوال والأفعال من غير استثناء؛ لأنَّ ذلك هو الأفضل والأنفع، والأعون على تصحيح المسار، وتصويب الاتّجاه، والمعنى: فلتنظر نفسٌ ما قدَّمت من الزّاد الّذي يكون به صلاح المنزل، الّذي مَنْ لم يسعَ في إصلاحه؛ لم يكن له راحة، هل يرضي الملك ما قدمته، فينجيها؟ أو يغضبه، فيرديها[2]؟.

نوع الاستعارة وبلاغتها في فعل ﴿قَدَّمَتۡ﴾:

مداومةُ الإنسان النَّظرَ في عمله محاسبةٌ سابقة لحساب القيامة

فعل ﴿قَدَّمَتۡ﴾ مستعار للعمل الّذي يُعمَل لتحصيل فائدته في زمان آتٍ، شُبِّه قصد الانتفاع بالعمل في المستقبل بتقديم مَنْ يَحِلُّ في المنزل قبل ورود السّائرين إليه من جيش أو سفر؛ ليهيّئَ لهم ما يُصلِح أمرَهم[3]، ثم استُعير التّقديم للانتفاع بالعمل، بعد تناسي التّشبيه، وادّعاء أنّ المشبّه فرد من أفراد المشبّه به، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التبعيّة، الّتي تبرز أهمية مداومة النّظر في العمل الّذي يقدمه الإنسان استعدادًا ليوم القيامة، وعظيم فوائده، فالعاقل من يُحاسب نفسَه قبل أن تُحاسَب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 111.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 458.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 111.

نكتة التّعبير بالماضي ﴿قَدَّمَتۡ﴾:

إنعامُ النّظر فيما مضى يحفّزُ على الإصلاح والتَّصويب

جاء التّعبير بالفعل الماضي: ﴿قَدَّمَتۡ﴾ الّذي هو صلة الموصول للتَّخويف من مرور الزّمن بسرعة، والوصول إلى يوم القيامة على حين غفلة، ومن ثمَّ يصبح التّقديمُ فعلًا ماضيًا، لا يمكن حصوله أو الاستدراك به، وللتّنبيه إلى أنَّ إنعام النّظر والتأمّل فيما مضى يحفّز النّفس إلى مزيدٍ من التّقوى والخير؛ إن كان ما قدَّمتْه صالحًا، ويدعوها إلى التّوبة والتّراجع وإصلاح المسار؛ إن كان ما قدمتْ غير ذلك.

نوع اللّام ودلالتها:

توجيه الأنظار للمقاصد منهج القرآن في بناء الإنسان

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِغَدٖۖ﴾ هي لام العلّة، والمعنى: ما قدّمتْه لأجل يوم القيامة، أي: لأجل أن تنتفع به في ذلك اليوم[1]، فإنَّ فيه أهوالًا وشدائد تُفرَض على أصحاب النُّفوس الشّريفة النّفيسة الاستعداد له بما يقيها أهوالَه، ويُنجيها من شدائدِه، ففي هذا الحرف توجيه النّظر لذلك اليوم، فعليه مدار العمل، وإليه منتهى الأفعال.

بلاغة الاستعارة في لفظ: (غدٍ):

الدُّنيا يومٌ حاضر والقيامة غدٌ قادم

كلمة (غدٍ) موضوعة في الأصل؛ للدّلالة على اليوم الّذي يلي اليوم الّذي فيه المتكلّم، والمراد به هنا يوم القيامة، والتّعبير عنه بـ (غدٍ) استعارة تصريحيَّة، شُبِّه فيها ما يُستقبَل من الزّمان باليوم القريب جدًّا؛ للدَّلالة على اشتداد قرب يوم القيامة، أو باعتبار الدّنيا كيوم، والآخرة كغده، ما من شأنه أن يوجب الاستعداد الدّائم له، بالنّظر فيما قُدِّم، وفيما يُقَدَّم من أعمال؛ طالما بقي المرء قيدَ الحياة، وذلك جريًا على عادة العرب اللّغوية في التّعبير عن الزّمان المستقبل بلفظ الغد لتقريبه[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 111.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 508، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 511، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 111.

نكتة تنكير (غَدٍ):

أوثر التّعبير بـ (غَدٍ) نكرةً؛ لما يفيده التّنكير من تعظيمه وإبهام أمره، كأنّه قيل: الغد الّذي لا يُعرَف كنهُه، ولا تُحيط العبارة بوصفه؛ لِعظَمِه وعِظَمِ ما فيه(1).

القصد إلى التّعظيم والإبهام بدلالة التّنكير

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾؛ لعطف ما بعدها على الأمر بالتّقوى الوارد بعد أسلوب النّداء، وبه يكون النّظمُ الكريمُ قد عطف الأمر بالتّقوى على الأمر بالتّقوى.

نكتة الأمر بالتقوى مرّتين متعاطفتين:

الأمر بالتّقوى مرّتين في آية واحدة يحتمل وجهين: **أحدُهما:** أن يكون المرادُ من الأوّل: أن اتّقوا مخالفة اللّه في أوامره ونواهيه، وفي الثّاني: اتّقوا سخطه وعقوبته. **والثّاني:** أنّه جاء جريًا على عادة البيان القرآنيّ في التّكرير عند الوعيد، كما في قوله تعالى: ﴿۞هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦﴾ [المؤمنون: 36]، وقوله: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ٣٥﴾ [القيامة: 34 - 35]، ونكتة التّكرار هي: التّأكيد على ضرورة التحلّي بالتّقوى؛ لأنّ لها أثرًا بالغًا في التَّرك، كما أنَّ لها أثرًا بالغًا في الفعل(2)، ويمكن القول بأنَّ الأمر الأوّل؛ لإيجاد صور الأعمال، والأمر الثّاني لتصفيتها وتزكية أرواحها(3).

التّقوى تكون للأمر بالأفعالِ، وتكون لترك المنهيّات وتزكية النيّات

سرُّ فصل جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾:

جاءت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنَّها تعليل للأمر بالتّقوى، أي: إنّها فُصِلت عنه، كما يُفصَل السَّببُ عن المسبَّب، فيما يُعرف بلاغيًّا بشبه كمال الاتّصال.

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 508، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 511.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 9/ 599، والزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 508.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 458.

مهابةُ اللهِ تعالى تدفعُ إلى التحلّي بتقواه والحرصِ على مراقبتِه

بلاغة إظهار ما حقُّه الإضمار:

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (واتقوا اللّه إنه خبير)، لكنَّ البيانَ القرآنيَّ عدل عن التَّعبير بالضَّمير إلى إظهار اسم الجلالة العلم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ﴾ تربيةً للمهابة في نفوس المخاطَبين[1]، ولتأكيد ضرورة أن تتحلَّى كلُّ نفسٍ بتقوى اللّهِ ومراقبتِه فيما تقدِّمُه من أعمالٍ لأجْلِ يومِ القيامةِ المؤكّدِ وقوعُه، ولتجري الجملة مجرى الأمثال السّائرة.

النَّفس البشريَّة تــكــســل عــن المراقبة والخبير يوقظها؛ لتنتبه من غفلتها

وجه اختيار وصف ﴿خَبِيرُۢ﴾:

إيثار الإخبار عن اللّه بوصف: ﴿خَبِيرُۢ﴾، الدّالّ على "معرفته ﷻ ببواطن الأمور"[2]، - في سياق وعظ المؤمنين - يؤكِّد ضرورة النّظر في الأعمال الّتي يقدّمونها ليوم القيامة، بتنْقيتها من كلِّ ما يشوب صحتَها وإخلاصَها، بحيث تكون مقبولة عند اللّه الخبير بها، المُطَّلع على نيّات أصحابِها، والمعنى: إنّه عظيم الاطِّلاع على ظواهرِكم وبواطنِكم والإحاطة بما تعملون، فلا تعملون عملًا إلّا كان بمرأى منه ومسمَع، فاستحيوا منه[3] حقَّ الحياء، وصحِّحوا أعمالَكم، وأخلِصوها، فلمّا كان الأمر بالتّقوى ومراقبة الأعمال الظّاهرة والباطنة، وقد علم الخبير سبحانه أنَّ النّاس تقصِّر في بابِ المراقبة والمحاسبة، أخبرهم بأنّه الخبير بهم؛ ليقع الاسم الكريم موقع التّحذير والتّنبيه؛ ليتَّعظ العباد، وينتبهوا لما سيأتيهم في قريب الأيّام.

هــزُّ الـنُّـفـوس الـغـافـلـة لا العقول الشّاكة

غرض التَّوكيد في جملة الفاصلة:

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مؤكَّدًا بإنَّ والجملةِ الاسميّة مع التّعبير بالاسم الموصول الدّال على العموم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 112.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (خبر).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 458.

والشّمول؛ لتقوية علم اللّه تعالى وإحاطته التامّة بأغراض العاملين ومقاصدِهم، ما من شأنه تأكيدُ أمر المؤمنين بالنّظر فيما يقدّمونه من أعمال؛ استعدادًا ليوم القيامة، وتعزيزُ تحلّيهم بتقوى اللّه، والحرص على مراقبته فيما يفعلون وفيما يتركون.

نوع الباء ودلالتها:

اطّلاعُ الله تعالى على حقائقِ الأعمالِ من خصائصِه

الباء الدّاخلة على الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الإلصاق، وهو أصل معانيه[1]، وفي التّعبير به تأكيد لِعلم اللّه تعالى واطِّلاعه على حقيقة ما يقدِّمه المؤمنون من أعمال بصفة عامّة، وما يقدّمونه استعدادًا ليوم القيامة بصفة خاصّة؛ لأنَّ ذلك من الصّفات الّتي لا تنفكُّ عن اللّه تعالى، ولا يمكن لأحد غيره أن يقوم بها، وفيه من التَّرهيب ما يكفي لامتثال الأمر بالتحلّي بتقوى اللّه ومراقبته قبل الفعل وبعده، وكذلك قبل التّرك وبعده.

نوع (ما) ودلالتها في قوله: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾:

علمُ الله تعالى محيطٌ بجميع الأعمال الفعليَّة والتَّركيَّة

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ اسم موصول في محلّ جرٍّ، وقد أوثر التّعبير به؛ لدلالته على شمول علم اللّه تعالى وعموم إحاطته بكل ما يعمله النّاس بعامّة، والمؤمنون بخاصّة من خير أو شرٍّ، كما أنّه يشمل ما يعملون وما يتركون، والمعنى: خبير بما تأتون وما تذرون؛ لأنَّه تعالى لا تخفى عليه خافيةٌ من أعمالكم، بل إنّه محيط بها إحاطة تامّة، وسيجازيكم عليها بما تستحقّون يوم القيامة[2].

دلالة اختيار ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

الأعمال مقصودُ العاملين والأفعال أقرب إلى الجبلّيّات

قولُه: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ جملة لا محلّ لها من الإعراب صلة الموصول، وقد أوثر التّعبير بها دون (تفعلون)؛ لأنَّ الأعمال ما تكون عن قصد، والأفعال تكون جبلّيّة، وقد تكون غير مقصودة، والحساب على

(1) المراديّ، الجنى الدّانيّ، ص: 36.
(2) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 13/ 308.

الأعمال المقصودة، وهذا هو الغالب في الاستعمال، وللدّلالة على إحاطة اللّه تعالى علمًا وخبرةً بالأعمال والأفعال على السّواء؛ لأنَّ تحقُّق إحاطته بالأعمال ذات التّأثير دالٌّ على إحاطته بالأفعال الّتي لا تترك أثرًا[1] من باب أولى.

نكتة التّعبير بالفعل المضارع:

إحاطةُ اللهِ تعالى بحقيقة الأعمال متجدِّدةٌ بتجدُّد الأعمال

عبَّر النظمُ الكريمُ في جملة الصّلة بالمضارع: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ لما يمتاز به من الدّلالة على الاستمرار التجدّديّ، ما يعني: أنَّ اللّهَ تعالى خبيرٌ بما يتجدَّدُ مِنْ أعمال خلقه بصفة عامّة، وما يتجدَّدُ منها محوطًا بتقوى اللّه قبل الفعل وبعده بصفة خاصّة، وخبير كذلك بما يتجدَّد من النّظر في الأعمال الدّال على امتثال الأمر، والرّغبة في الفوز بالجنّة والنّجاة من النّار، أي: إنَّ إحاطته تعالى علمًا وخبرةً بحقيقة الأسباب الّتي تدفعهم إلى النّظر في الأعمال مُتَجَدِّدَةٌ بتجدُّدِ النّظر واختلاف أسبابه.

نكتة حذف متعلِّق ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

إحاطة الله تعالى بأعمال الإنسان شاملة

أوثر حذف متعلِّق: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ للدّلالة على شمول علم اللّه تعالى وعموم إحاطته كلَّ ما يعملُه المؤمنون، حتّى لا يُظنَّ تقييد التّقوى بحيثيّة من الحيثيّات؛ تعظيمًا لهذا المقام، وإعلامًا بأنّ شؤونه تعالى لا تنحصر، وأنَّ إحاطته لا تخصُّ مقامًا دون مقام، ولا شأنًا دون شأن[2].

براعة عطف جملة النّهي على الأمر:

التّقوى حالة مستمرّة دائمة تكتمل بترك تقليد الضّالين بالتزام طريق المؤمنين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لعطف ما بعدها من نهيٍ على الأمر بتقوى اللّه، وقد أوثر العطف بالواو الّتي تفيد المصاحبة؛ للدّلالة على أنّ من تمام تقوى اللّه تعالى ألّا يصاحبَها أيُّ نوع من الغفلة أو الإعراض عن الأعمال المقرِّبة إليه،

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 459.

فاقتضى العطف تتميم مفهوم التّقوى باعتبار امتداده الزّماني، فالتّقوى ليست حالة حاضرة، إذا استشعرها المؤمن؛ نجا عند اللّه تعالى، بل هي حالة مستمرّة دائمة، ولا تكون إلّا باجتناب الاهتداء بالضّالين من أهل الكتاب الّذين نسوا اللّه تعالى بعد أن كانوا أتقياء، فأنساهم أنفسهم، فحمل العطف معنى التّحذير من تقليد الضّالين، والاغترار بالتّقوى والوقوع في الغفلة.

غرض النّهي في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾:

غرض النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ النّصح والتّحذير، فبعد أن أمرت الآية الكريمة المؤمنين بتقوى اللّه تعالى، وإعداد العدّة للآخرة، أعقبته بهذا النَّهي؛ تحذيرًا لهم من الإعراض عن الدّين والغفلة عن التّقوى؛ لأنَّ ذلك يفضي إلى الفسوق[1]، ولأنَّ الغفلة والنِّسيان ممّا يوجب التّنبيه والتّحذير.

النّصح والتّحذير من الإعراض عن الدّين والتّغافل عن المتّقين

فائدة التّعبير بفعل الكينونة:

آثر النَّظم الكريم تسليط النّهي على فعل الكينونة المُسند إلى ضمير ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ ولم يقل: (لا تنسوا اللّه)؛ لأنَّ الغفلة والنّسيان من طبائع الإنسان الّتي توجِب التَّحذيرَ والتّذكيرَ[2]، والنّهي ليس عن النّسيان الجبلّيّ، الّذي يعتري الإنسان بشكل عارضٍ، بل عن النّسيان الّذي يُصبح منهجًا ثابتًا في السّلوك، وهو المعبَّر عنه بفعل الكون، وذلك حتى لا يستجيبَ المؤمن استجابةً تؤدي إلى تَغَوُّل النّسيان والإعراض في كيانه؛ "إذ الإعراض مراتب قد تنتهي إلى الكفر الّذي تلبَّس به اليهود، وإلى النّفاق الّذي تلبَّس به فريقٌ ممَّن أظهروا الإسلامَ في أول سنين الهجرة"[3].

النِّسيان المنهيُّ عنه هو ما يصبح سلوكًا كائنًا في الأخلاق

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 112.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 459.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 113.

معنى الكاف ودلالتها البلاغيّة:

مشابهة الفاسقين سببُ الغفلة عن الدّين

الكاف في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ حرفُ جرٍّ يُفيد التَّشبيه، والتّعبيرُ به دالٌّ على أنَّ الغفلةَ عن التّقوى، والإعراضَ عن الدّين يؤدّيان إلى أن يُشبَّه المؤمنُ بالفاسق الّذي نَسيَ اللّهَ، فأنساه اللّهُ نفسه، وهو تشبيهٌ غرضُه التّنفير من الوقوع في الغفلة والتّحذير من التّمادي في النّسيان؛ لأنَّ عاقبتَهما غايةٌ في الوخامة، فيصير مثلَ القوم الفاسقين الّذين نهاه القرآنُ عن التّشبُّه بهم.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول:

الإيماءُ إلى أقوامٍ معلومين بصفاتهم معهودين بسلوكيّاتهم

جاء التّعبير عن المشبّه به بالاسم الموصول، في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾؛ ليتوصَّل به، وبصلته إلى تجسيد المشبَّه به في حالة قوم تحقَّقت فيهم هذه الصّلة؛ ليكون النَّهي عن إضاعة التّقوى مصوَّرًا في صورةٍ محسوسة، هي صورة قوم وُجِدَت فيهم تلك الصّلة، وهم الّذين أعرضوا عن التَّقوى[1]، وبلغوا في نسيان ربِّهم مبلغًا كبيرًا، كما أنّ الاسم الموصول يدلُّ على أنَّ الذين نسوا اللّه قومٌ معلومةٌ صفاتهم، معروفةٌ سجاياهم، فوقع التّشبيه على معلومين لدى المخاطَبين.

علّة استعمال مفردة النّسيان:

النّسيان المذموم هو نسيان عظائم الأمور لا النّسيان الجبلّيّ

المقصودُ بالنّسيان في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استودِعَ، إمّا لضَعْفِ قلبِه، وإمّا عن غفْلةٍ، وإمّا عن قصْدٍ حتّى يَنْحَرِفَ عن القلبِ ذِكْرُهُ[2]، وليس المقصود النّسيان الطبيعيّ الّذي يعتري عامَّة البشر، وآثر النّظم استعمال مفردة النّسيان؛ لتنزيل الغافل عن ذكر اللّه تعالى وعبادته وتوحيده منزلةَ النّاسي لشيءٍ لا قيمة له، وشأن العبادة والذّكر ألّا يُنسى، فلمّا وقع

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 113.

(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (نسي).

النِّسيان لهما؛ دلَّ على أنَّ النّاسي قد ارتكب جرمًا عظيمًا؛ لأنَّه نزَّل الأمور الجسام، منزلةَ صغائر الأشياء، وهذا التّنزيل هو موضع الذّميم الكبير، وهو النّسيان الدّالّ على فرط الغفلة.

دلالة التّعبير بصيغة الماضي:

جيء بفعل النّسيان ماضيًا؛ للدَّلالة على أنَّ الغفلة عن التَّقوى والإعراض عن الدّين، ونسيان ذكر اللّه تعالى، صار سمة من سماتهم، وغدا صفة من الصّفات الّتي لا تنفكّ عنهم.

بلاغة المجاز في التّعبير بفعل النّسيان:

نسيان الطّاعات سبب المعصية وبداية الغفلة وأصل الإعراض

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿نَسُواْ﴾، مرادًا به الإعراض عن التّقوى، والانخراط في أفعال اللّهو والفسوق؛ للتّنبيه على أصل الغفلة، وأنّها بدأت بالنّسيان، فعلى هذا هي مجازٌ مرسلٌ علاقته السببيّة؛ إذ عبّر النّظم بالنّسيان؛ لأنَّه السَّبب الرَّئيس في وصول النّفوس إلى هذه الحالة من الانهماك فيما تهواه، والغفلة عمّا يقرّبها من الجنّة، ويباعدها عن النّار، فكان التّعبير بفعل النّسيان أبلغ؛ لمعالجته ذلك واقتلاعه من جذوره.

بلاغة المجاز بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه:

نسيانُ نِعَمِ الله وحقوق الخالق فظاعةٌ تستحقُّ العقابَ الشّديدَ

آثر النَّظم الكريم تعدية فعل النّسيان إلى اسم الجلالة العلم، فقال: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾، ولم يقل: نسوا حقَّ اللّه[1]، والمقصود هو نسيان حقوقه تعالى وطاعاته وأوامره ونواهيه، فلم يقدروه حقَّ قدره، ولم يُراعوا مواجبَ أوامره ونواهيه حقَّ رعايتِها، ونكتة حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ استفظاعُ صنيعهم، وذمُّهم والتّشنيعُ بهم؛ لنسيانهم اللّهَ الّذي خلقهم، وأرشدهم[2]، ولبيان أنَّ رأس الفسق الجهلُ باللّه تعالى، وهؤلاء لم يَدَعوا بابًا من أبواب الفسق

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 511.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 232، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 114.

إلّا فعلوه[1]، وليتوصَّل أيضًا إلى استحقاقهم الجزاء المترتِّب على حصول ذلك منهم.

نوع الفاء ودلالتها:

إعراضُ النّاس عن الهدى سببٌ في نسيان أنفسِهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ حرف عطف يفيد بجانب التَّعقيب معنى التسبُّب، الدالّ على أنّ اللّه سبحانه جعلهم ناسين لأنفسهم، حتّى لم يسعوا فيما ينفعها، ولم يفعلوا ما يُخَلِّصها من عقابه، أو أراهم ﷻ يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسَهم، أي: أراهم أمرًا هائلًا وعذابًا أليمًا[2]؛ بسبب نسيانهم له، أي: لمّا أعرضوا عن الهدى بكسبهم وإرادتهم؛ عاقبهم اللّه بأن أنساهم أنفسهم.

بلاغة التّعبير بفعل الإنساء:

الجزاء من جنس العمل، فجزاء نسيان الله إنساء الله للنّاسي

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ في الجملة المُسَبَّبة عن النّسيان بفعل الإنساء فقال: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ الجزاء من جنس العمل، فكما نسي بعض النّاس نِعَمَ اللّه تعالى عمدًا؛ أنساهم اللّه تعالى أنفسهم، فلم يخلق في مداركهم التفطُّن لفهم الهدي الإسلاميّ، فيعملوا بما ينجيهم من عذاب الآخرة، ولما فيه صلاحهم في الدّنيا؛ إذ خذلهم بذبذبة آرائهم، فأصبح اليهود في قبضة المسلمين يخرجونهم من ديارهم، وأصبح المنافقون ملموزين بين اليهود بالغدر ونقض العهد، وبين المسلمين بالاحتقار واللّعن[3]، وبعبارة أخرى: ألهاهم عمّا فيه صلاح نفوسهم وفلاحها، فانشغلوا عن التّقوى، وأعرضوا عن تقديم الأعمال الّتي تقرِّبُهم من الجنّة، وتباعدُهم من النّار؛ فاحتُقروا في الدُّنيا، وهلكوا في الآخرة.

نكتة تعدية فعل الإنساء إلى ﴿أَنفُسَهُمۡۚ﴾:

أوثر تعدية فعل الإنساء إلى الأنفس، فقال: ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 460.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 254.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 113.

التَّنبيهُ على عظيم شأن نسيان الطّاعات المؤدّي إلى نسيان الأنفس

ولم يقل: (فأنساهم الطّاعات)؛ وذلك لأنَّه إذا كان رأسُ الفسق هو الجهل بالله تعالى، فإنَّ رأسَ العلم ومفتاح الحكمة معرفةُ النّفس، فأعْرَفُ النّاس بنفسه أعرفُهم بربِّه، ومن عرف نفسه؛ فقد عرف ربَّه[1]، فذكر الأنفس لزيادة الحسرة في قلوبهم، وللتّنبيه على أنَّهم تركوا الخير العظيم العائد على أنفسهم المنسيّة، ولو ذكر الطّاعات والأعمال الصّالحات؛ لما تحقَّقت هذه النّكتة، ولما استبان خطورة النّسيان، الّذي يكون الخاسر العظيم لها أنفس النّاسين الغافلين.

علّة فصلِ جملة: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾:

تعيين معنى نسيان الله بالفسق الشّديد

جاءت جملة: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لشبه كمال الاتّصال، الّذي تُجيب فيه الجملةُ المفصولةُ عن سؤال أثارته الجملةُ الأولى في نفس المتكلّم، عمّا كان إثْرَ إنساء الله إيّاهم أنفسهم؟ فأجيب بأنّهم بلغوا - بسبب ذلك - منتهى الفسق في الأعمال السيّئة، حتّى حقَّ عليهم أن يُقال: إنّه لا فسقَ بعد فسقهم[2].

غرض التّعبير باسم الإشارة:

تنزيلُ النّاسين منزلةَ الشّيءِ البعيد ليُحذر من الاقتراب منه

أوثر التّعبير بالإشارة للبعيد ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ للتَّشهير بهم[3]، وللتّنبيه على أنَّهم استحقّوا وصفَ الفاسقين لأجل ما سبق البيان به عنهم قبل الإشارة، من أنَّهم بالغوا في الإعراض عن تقوى الله، وتمادوا في الغفلة عن الأعمال الدالّة على رغبتهم في إرضائه، حتى نسوها بالكلية، فعاقبهم اللهُ بنسيان أنفسهم، وجعلهم في الفسق رأسًا ومثلًا، ونزَّل النّاسين منزلة الشّيء البعيد الّذي يُشار إليه للتّعريف به دون الاقتراب منه؛ لبيانِ بعده عن الخير، والحذر منه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 460.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 114.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 114.

لا فِسْقَ يقاربُ فِسْقَ مَن أنساه اللهُ نفسَه

نوع القصر وبلاغته:

في جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ قصر صفة على موصوف، بطريق توسّط ضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾ بين المسند والمسند إليه، وهو قصرٌ ادعائيٌّ للمبالغة في وصفهم بشدّة الفسق، حتّى كأنَّ فسقَ غيرهم ليس بفسقٍ في جانب فسقهم[1]، لا سيّما بعد أن قَدَّم النّظمُ الكريم الأدلّة على اتّصافهم به اتّصافًا لا مجالَ للشَّك فيه.

الفاسقون هم الآتون بفواحش السّيئات ومساوئ الأعمال

دلالة التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾:

أوثر الإخبارُ عن اسم الإشارة بوصف ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الّذي يدلُّ على الخروج عن طاعة اللّه تعالى، والحَيْدَة عن طريقه بقصد الإفساد[2]؛ لذمِّهم والتَّشنيع بهم، وبيان أنّ خروجهم عن منهج اللّه ليس مجرّدَ خطأ أو زلل، لكنّه خروج مصحوب بالفساد والإفساد، وهذا يعني: أنَّهم الآتون بفواحش السيّئات ومساوئ الأعمال، وأعظمُها: الإشراكُ باللّه تعالى ونسيانه[3].

نكتة صوغ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ اسم فاعل:

أوثر التّعبير بـ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ اسمًا دالًّا على الثّبوت والدّوام؛ للإشارة إلى أنَّهم ضالعون في الإعراض عن التّقوى، عريقون في المروق من دائرة الدّين[4].

جملة التّذييل بيانٌ زائدٌ وتوكيدٌ فائد

علّة فصل جملة: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ﴾:

جاءت جملة: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ﴾ مفصولة عمّا قبلها لكمال الاتّصال، الّذي تُنَزَّل فيه الجملة المفصولة ممّا قبلها منزلة التّابع من المتبوع؛ إذ تعدُّ كالتّذييل المؤكَّد توكيدًا معنويًّا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾؛ إذ لمّا أمر اللّه تعالى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 114.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 230.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 114.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 460.

المؤمنين بالتّقوى، وبالنّظر والتيقُّظ للعاقبة، ثم نهاهم أن يكونوا من الغافلين الّذين نسوا اللّه، فأهملوا العمل للغد، فامتهنهم بالخذلان، فأنساهم أنفسهم، ذيَّل الكلام بقوله: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ﴾؛ زيادةً في التّرغيب فيما يقرِّبهم من اللّه، ويدخلهم دار كرامته، ويجعلهم من أصحابها، وترهيبًا ممّا يبعدهم من اللّه تعالى، ويدخلهم دار الإهانة، ويجعلهم من أصحابها[1].

فائدة النّفي بـ ﴿لَا﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ منفيًّا بـ ﴿لَا﴾؛ لدلالته على نفي استواء أصحاب النّار مع أصحاب الجنّة في الفضل والرّتبة[2] والجزاء والثّواب في الآخرة نفيًا قاطعًا.

بلاغة الكناية في نفي استواء فريقي الجنّة والنّار:

تشويق المؤمنين للثّمرةِ النّافعة وتنبيه الغافلين للمآل الوخيم

قولُه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ كناية عن البون الشّاسع بين الفريقين في المكانة والمنزلة والجزاء، وهو كذلك كناية عن أنّ الّذين آمنوا بيوم القيامة، واستعدّوا له بالأعمال الصّالحة هم أصحاب الجنّة، وأنّ الفاسقين الّذين نسوا اللّه، فأنساهم أنفسهم هم أصحاب النّار[3]، وقد أوثر التَّعبير بالأسلوب الكنائيّ دون الصّريح؛ لما في الكناية من تشويق المؤمنين وإثارتهم إلى مزيد من العمل والأمل في أن يكونوا من أصحاب الجنّة، وألّا يكونوا من الفريق الآخر، ولما فيه من تنبيه العصاة النّاسين وحثِّهم على التَّراجع عمّا هم فيه؛ ليكونوا ضمن أصحاب الجنَّة الفائزين، ولا يكونوا من أصحاب النّار، مع جمال المقابلة الضدّيّة بين الفريقين.

---

(1) الطيبيّ، حاشية الطّيبيّ على الكشّاف: 15/ 341.
(2) الشوكانيّ، فتح القدير: 5/ 245.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 114.

نفي مساواة أصحاب النّار لأصحاب الجنّة شاملٌ للزّمان كلّه

نكتة التّعبير بالمضارع: ﴿يَسۡتَوِيٓ﴾:

أوثر التَّعبير بصيغة المضارع المفيد للاستمرار التجدُّديّ: ﴿يَسۡتَوِيٓ﴾؛ ليدلَّ المعنى على امتداد النّفي وشموله الماضي والحاضر والمستقبل، والمعنى: لا يستوي في حكم اللّه تعالى وفي جزائه أصحاب النّار الّذين استحقّوا الخلود فيها، وأصحاب الجنّة الّذين ظفروا برضوانه؛ بسبب إيمانهم وعملهم الصّالح[1]، لا في الدّنيا في معرفة كلّ فريقٍ مصيرَه، ولا عند إصدار حكم الجزاء في الآخرة، ولا في حياة النَّعيم وحياة الجحيم التي يحياها أصحاب الجنّة وأصحاب النّار في الآخرة.

عدمُ استواء الفريقين في فوزِ فريقٍ وخسارة آخر لدلالة السّياق عليه

نكتة حذفِ متعلِّق فعل الاستواء:

حُذِف متعلِّق فعل الاستواء المنفيّ في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾؛ ليعمَّ النّفيُ كلَّ الجوانب، فيشمل الرّتبة والفضل والجزاء والمنزلة، وغير ذلك ممّا لا سبيل إلى إحصائه، والمعنى: لا يستوون بوجه من الوجوه لا في الدّنيا ولا في الآخرة[2]، ونكتةُ حذفِ المتعلِّق: تطمينُ العاملين ليوم القيامة، وتبشيرُهم بأنَّ أعمالَهم لن تضيعَ عند اللّه، وتحذيرُ اللّاهين النّاسين من الخسران المبين، يُزاد على ذلك أنَّ الحذفَ يُثير النّفوسَ، ويشوِّقُها إلى أن تذهب في أوجه الاختلاف كلَّ مذهب، وقيل: المراد بعدم الاستواء: عدم الاستواء في الأحوال الأخرويّة، كما ينبئ عنه التّعبير عن الفريقين بصاحبيّة النّار وصاحبيّة الجنّة[3]، وهذا الوجه أولى من الأوّل؛ باعتبار السّياق؛ إذ عيَّن وجه عدم الاستواء في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾، فعُلِم أنَّ المقابل هم الخاسرون، فكان عدم استوائهم في فوز فريق وخسارة آخر.

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 309.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 461.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 254.

بلاغة الانتقال من الوصف الخاصّ إلى حكم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾:

(أصْحابُ النّارِ) عـنـوان كـلِّ كـافرٍ معرضٍ، ويـدخـل فيهم المـذكـورون في السّياق

المراد بقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الّذين نسوا اللّه تعالى، فاستحقّوا الخلودَ في النّار[1]، وهذا ما يقتضيه السّياق، وتقتضي دلالة العموم أن يكون المقصود كلَّ من دخل النّار مخلَّدًا فيها، من أهل الكتاب والمنافقين والمشركين والملحدين وسائر من أعرض عن دين اللّه تعالى، وجاء التّعبير عنهم بقوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾؛ لينتقل من خصوص الّذين نسوا اللّه، فخُلِّدوا فيها، إلى عموم أصحاب النّار، ويدخل فيهم الّذين نسوا اللّه دخولًا أوّليًّا، ونكتة ذلك إعطاء الحكم الشموليّ لكل أصحاب النّار، وتخويف الفاسقين النّاسين وزجرهم وتحذيرهم من البقاء على ما هم فيه من تيهٍ ونسيانٍ، ولو قيل: (لا يستوي الفاسقون والمؤمنون)؛ لكان خبرًا ليس له من التّأثير مثل ما للتّعبير القرآنيّ؛ لخُلُوِّه من عقابِ نسيانِ اللّهِ ومصيرِ فاعلِه.

نوعُ الإضافة ودلالتها:

أضاف البيانُ القرآنيّ لفظَ: ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ إلى ﴿ٱلنَّارِ﴾، والإضافة بمعنى اللّام، فتقتضي الاختصاص، أي: المختصّون بصحبتها، الدّائمون المكثَ فيها، فإنَّ الملازم يمكث بجوار صاحبه.

نكتة اختيار لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

الـنّـار هي الاسم الأعظم والوصف الأشدّ في عذاب الآخرة

اختار النّظم الكريم لفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ دون غيرها من أسماء جهنّم؛ جريًا على الأصل في التّعبير عن عذاب الآخرة بمختلف أنواعه بهذا الاسم، ولأنَّ التَّعبير به أكثر تخويفًا وترهيبًا؛ إذ من المعلوم أنَّ النّار هي محلُّ الشّقاء الأعظم[2]، ويمكن أن يكون التَّعبير به دالًّا على أنَّ عذابَ الفاسقين الّذين نسوا اللّه تعالى لا يحيط أحدٌ بكنهه، ولا يعرف أحدٌ غيرُ اللّهِ تعالى شدَّتَه ولا دركتَه.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 233.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 461.

نكتة تقديم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾:

الإيذانُ بأنَّ عدمَ الاستواء من جهة أصحاب النّار لا من جهة أصحاب الجنّة

أوثر تقديم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في الذّكر على (أصحاب الجنَّة)؛ للإيذان بأنَّ المقصود الّذي ينبئ عنه عدمُ الاستواء من جهتهم هم لا من جهة مقابليهم، فإنَّ المقصود في السّياق هو التّحذير من أولئك الغافلين، فكان البدءُ بهم هو الأولى بالمقامِ، ثمَّ إنّ تعيين المُفَضّل من الشّيئين موكولٌ إلى فهم السّامع من قرينة المقام والسّياق[1].

بلاغة الجناس:

في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ جناسٌ تامٌّ في لفظ (أصحاب)، فإنَّ أصحاب الأولى بمعنى الكافرين، والأخرى بمعنى المؤمنين، ويُعيِّن ذلك الإضافة والسّياق.

نوع الطّباق وبلاغته:

إبراز الفارق بين الفاسقين والمؤمنين؛ تنفيرًا من الفسق وترغيبًا في الإيمان

في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ طباقٌ بين اسمين هما: ﴿ٱلنَّارِ﴾ و﴿ٱلۡجَنَّةِۚ﴾، جَمَع بينهما النّظمُ الكريم مع إضافة كلمة (أَصۡحابُ) إلى كلٍّ منهما؛ وذلك لإبراز الفارق الرّهيب والبون الشّاسع بين الفاسقين الّذين نسوا اللّه، وأهملوا العمل ليوم القيامة، وبين المؤمنين الّذين حرصوا على تقواه، والتزموا أمره بالعمل للدّار الآخرة، ببيان أنّ جزاء النّوع الأوّل هو الخلود في النّار، الّتي هي محلّ الشّقاء الأعظم، وجزاء الفريق الثّاني هو الخلود في الجنّة، الّتي هي دار النَّعيم الأكبر، فينتج عن ذلك التّفريق والبيان نفور المتلقّي من الصّنف الأوّل والبُعد عن عمله، والرّغبة والإقبال على الصِّنف الثّاني والازدياد من عمله.

نوعُ الإضافة ودلالتها:

أضاف البيانُ القرآنيُّ لفظَ: (أَصۡحابُ) إلى ﴿ٱلۡجَنَّةِۚ﴾، والإضافة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 115.

بمعنى اللّام فتقتضي الاختصاص، أي: المختصّون بصحبتها، الدّائمون المكثَ فيها، فإنَّ الملازم يمكث بجوار صاحبه.

نكتةُ اختيار لفظ ﴿ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ دون مقارباتها:

الجنَّة هي الاسمُ العَلَم على المكان الّذي يُجازى فيه المؤمنون

اختار النّظم الكريم لفظ ﴿ٱلۡجَنَّةِۚ﴾؛ جريًا على الأصل في التَّعبير عن نعيم الآخرة بمختلف أنواعه بلفظ ﴿ٱلۡجَنَّةِۚ﴾؛ لما فيه من إثارة نفوس المؤمنين وتشويقها، والجنّة هي الاسم العَلَم على المكان الّذي أعدَّه اللّه لجزاء المؤمنين، فذكر الاسم العَلَم هو الّذي تسعد به النُّفوس، وتبتهج به الأرواح.

علّة فصل جملة: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾:

جاءت جملة: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنَّها تبيِّن كيفيَّةَ عدم الاستواء بين الفريقين، وتوَضِّحُه[1]، فعدمُ الاستواء في كون أصحاب الجنَّة فائزين، والآخرون خاسرون.

نوع القصر وبلاغته:

الفَوْزُ المعتبر هو فوزُ أصحابِ الجنّةِ

في جملة: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ قصرُ صفةٍ على موصوف، بطريق توسُّط ضمير الفصل: ﴿هُمُ﴾ بين المسند والمسند إليه، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ فوزهم أبديٌّ، فاعتُبِر فوزُ غيرهم ببعض أمور الدُّنيا كالعدم[2]، وهو قصرٌ يفيد بطريق المخالفة أنَّ أصحابَ النّار هم الهالكون في الدّارين، كما وقعت الغزوة الّتي تتحدَّث عنها السّورة؛ لفريقي المؤمنين وبني النّضير ومن والاهم من المنافقين، فشتّان ما بينهما[3].

وجهُ التّعبير بـ ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ مادّة وصيغة:

الفوز تقابله الخسارة وبذكره يحضر معنى الضدِّ المحذوف

أوثر الإخبارُ عن ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بوصف ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ دون

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 233.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 115.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 461.

(المفلحون) ونحوه؛ وذلك لأنَّ الجملة أتت لبيان أوجه الاختلاف والتّمايز بين الّذين آمنوا، واستعدوا ليوم القيامة، والّذين نسوا اللّه، فأنساهم أنفسهم، من حيث العملُ والنّتائجُ المترتِّبة عليه، وهو ما يناسبه التَّعبيرُ بالفوز دون غيره، ولتحسّن المقابلة المحذوفة، وهي (وأصحاب النّار هم الخاسرون)، وجيء به اسمًا مشتقًّا؛ ليُفيد الثّبوت والدّوام؛ ليدلَّ على دوام سعادتهم وأبديّتها، وعلى بلوغِهم فيها مدًى لا حدودَ له.

دلالة حذف متعلِّق ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾:

سعادة أصحاب الجنَّة لا يُحاط بها، ولا يُدرك كُنهها

اكتفى البيانُ القرآنيُّ بالإخبار عن ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ بوصف ﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾، ولم يذكر له متعلِّقًا يُبيِّن ما فازوا به، والسرُّ في ذلك أن يعمَّ التّعبيرُ جميع جوانب الفوز، ويشمل كلَّ مناحيه، وليَضُمَّ كذلك كلَّ ما يمكن أن يدور في النّفس، أويخطر على البال، وفيه من تفخيم الفوز وتعظيمه ما لا يخفى، والمعنى: أصحابُ الجنّة هم الفائزون بالسّعادة الّتي ليس بعدها سعادةٌ، وبالنّعيم الّذي لا يقاربه نعيمٌ[1].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

النِّسيان والغفلة:

النِّسيان يُقابل الذِّكر والغفلة تُشير إلى سهوٍ ناشئٍ عن قلَّة تحفُّظ

النِّسيان: خلافُ الذّكر والحفظ، يُقال: رجلٌ نَسْيانٌ: كثير النِّسيان للشّيء، وقد نسيت الشّيء نِسْيانًا لا نَسَيانًا بالتّحريك[2]، وهو: تَرْكُ الإنسانِ ضبطَ ما استودِعَ، إمّا لضَعْفِ قلبِه، وإمّا عن غفْلةٍ، وإمّا عن قصْدٍ حتى يَنْحَرِفَ عن القلبِ ذِكْرُهُ[3]، أمّا الغفلةُ؛ فهي سهوٌ يعتري الإنسان من قلّة التّحَفُّظ والتّيقُّظ[4]، ولمّا كان قصد

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 309.
(2) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (نسا).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (نسي).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (غفل).

البيان تحذيرَ المؤمنين من التشبُّه بالقوم الفاسقين؛ ناسب التّعبير بفعل النِّسيان الدالِّ على أنَّهم عَمَدوا إليه، وتدرَّجوا فيه، حتى خلتْ قلوبُهم من التّقوى، ومن الحرص على العمل ليوم القيامة، فاستحقوا لقب الفاسقين عن جدارة، وهذا المعنى لا يقوم به فعلُ الغفلة؛ لدلالته على السَّهو الّذي يمكن التنبُّه منه.

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾

[الحشر: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقال من نتائج الأعمال إلى أسبابها

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة مصير أهل الجنّة وأهل النّار، وأنَّ كلًّا منهما اختار مصيرَه بسبب طاعة القرآن أو مخالفته؛ ناسب الانتقال إلى ذكرِ القرآن الكريم الّذي هو سبب النَّجاة والفوز، وسبب الخسران العظيم؛ لبيان سبب افتراق المصائر، وأنَّه قائم على العلّة العظمى، وهي القرآن الكريم، وانتقالُ السّورة بعد رحلتها مع غزوة بني النّضير والمنافقين إلى الحديث عن القرآن إيذانٌ بانتهائها؛ لأنَّه انتقالٌ بعد طول الكلام في غرض فتح قرى اليهود، وما نال المنافقين بسببه من خسران في الدّنيا والآخرة، وفيه من حسن الختام ما سيأتي بيانُه[1].

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَٰشِعٗا﴾: (خشع) أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على التَّطامُنِ، يُقالُ: خَشَعَ؛ إذا تَطامَنَ، وطَأْطَأَ رَأْسَهُ، يَخْشَعُ خُشوعًا، وهوَ قَريبُ المَعْنَى مِنَ الخُضوعِ، إلّا أنَّ الخُضوعَ في البَدَنِ والإقْرارَ بِالاستِخْذاءِ، والخُشوعَ في الصَّوْتِ والبَصَرِ[2]، وقيل: هو: الضّراعة، وأكثر ما يُستعمَل الخشوع فيما يوجد على الجوارح[3]، والمعنى المحوريّ: هبوط ما شأنه الارتفاعُ والغِلَظ، لتسبيب أثنائه، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء: 109]، وقال: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 116.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).

(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (خشع)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 541.

[طه: 108]، ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ [القلم: 43]، ﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ۝٩﴾ [النّازعات: 9]، وقوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا﴾: معناه: مطمئنًّا مخبتًا على صلابته متذلّلًا باكيًا(1).

2) ﴿مُّتَصَدِّعٗا﴾: (صدع) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على انفِراج في الشَّيءِ، يُقالُ: صَدَعْتُهُ فانصَدَعَ وتَصَدَّعَ، والصَّدْعُ: الشَّقُّ في الأجسام الصُّلبة كالزُّجاج والحديد ونحوهما(2) ومعناه المحوريّ: شَقٌّ دقيق يفصل الشّيء الصّلب أو الملتحم، ويخترقه، قال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: 94]، أي: شُقَّ جماعاتهم بالتَّوحيد(3)، وقوله: ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا﴾، معناه: متشقّقًا.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

القرآنُ الكريمُ عظيمُ التَّأثير في القلوب، شديدُ التَّغيير للسّلوك

في الآيةِ الكريمةِ تعجيبٌ مِن حال مَن لا يهتدي بالقرآن، ولا يستجيب لهديه، وتنبيه إلى أنَّه منار هداية، بما ينطوي عليه من فنون القوارع، ودروب الرّغائب، ومناهل العرفان، بحيث لو أُنزِل على جبلٍ أصمَّ من الجبالِ العاتية؛ لرأيناه - مع كونه مثلًا في القسوة، وأصلًا في الرُّسوخ والثّبات - متهاويًا متداعيًا متشقّقًا من قوّة خشية الله، وشدَّة جبروته؛ لعلوِّ شأن القرآن وبلاغة تأثيره بالزَّواجر والقوارع، كما تبيِّن الآية أنَّ الغرضَ من الأمثال الّتي يضربُها الله تعالى في هذه السّورة وفي غيرها أن يتفكّر النّاسُ في معانيها، ويدركوا مراميها، فينعكس ذلك على سلوكهم وأعمالهم(4).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 462.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (صدع).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (صدع)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التّمييز: 3/ 364.
(4) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 10/ 1369.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

التَّنويه بشأن القرآن بعد بيان حال موافقيه ومخالفيه

جاءت جملة: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ مستأنفةً استئنافًا ابتدائيًّا؛ للتَّنويه بشأن القرآن الكريم والتَّنبيهِ إلى عظيم أثره في أشدِّ المخلوقات صلابة وأقواها رسوخًا وثباتًا، والتَّعجيبِ من حال مَن هم ألين قلوبًا، وأرقُّ أفئدة وأضعف بنية معه، وتوبيخِهم على قسوة قلوبهم، وقلَّة تخشُّعهم عند تلاوة القرآن وتدبُّر قوارعه وزواجره[1].

نوع ﴿لَوۡ﴾ ودلالتها:

تشويق المتلقّي وإثارته لمعرفة حال الجبل مع القرآن

﴿لَوۡ﴾ في جملة: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ حرفُ شرطٍ يقتضي امتناعَ ما يليه واستلزامه لتاليه[2]، وفي التّعبير به تشويقٌ للمتلقّي وإثارتُه إلى معرفة حال الجبل عند نزول القرآن عليه، حتّى إذا ورد؛ كان له عظيمُ الأثر في تعظيمه القرآن، وإنزاله المنزلة اللّائقة به، والمعنى: لو أنزلنا هذا القرآن العظيم على جبل من الجبال الصُّلبة، وخاطبناه به لرأيت - أيُّها العاقل - هذا الجبل الّذي هو مثال في الشدّة وعدم التأثّر خاشعًا مُتَصَدِّعًا من خشية اللّه[3]، وثمَّ معنى آخرُ يلوح من التّعبير بحرف الامتناع، وهو أنَّ اللّهَ تعالى منع نزول القرآن على الجبل تشريفًا للإنسان وتكريمًا؛ إذ خصَّه باستقبال وحيه، وفضَّله على جميع خلقه بتلقّيه، ليُصلح به حالَه، ويضبط به حياتَه، وأنّ على الإنسان أن يشكرَ ربَّه على ذلك الإنعام بحسن التّعامل مع القرآن قراءةً، وخشوعًا، وتدبُّرًا، وفهمًا، وعَمَلًا.

دلالة التّعبير بـ ﴿أَنزَلۡنَا﴾:

آثر النَّظمُ الكريمُ التّعبير بفعل الإنزال ماضيًا ﴿أَنزَلۡنَا﴾؛ لأنَّ

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 509.

(2) ابن مالك، تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، تحقيق، محمد كامل بركات، ص: 240.

(3) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 310.

المقصود التّمثيل بإنزال القرآن كاملًا وفي زمن واحد وما يحدث عن ذلك؛ إن وقع، لا الإخبار عن تنزيل القرآن كما وقع.

دلالة إسناد فعل الإنزال للضّمير:

أُسنِد فعل الإنزال إلى ضمير العظمة تفخيمًا لشأن القرآن، وإعلاءً لقدره، والمعنى: لو أنزلنا بعظمتنا الّتي أبانها هذا الإنزالُ[1]؛ لحصل كيت وكيت.

بلاغة الاستعارة في فعل الإنزال:

تشبيهُ الخطاب بالأمر والنّهي بإنزال القرآن من أعلى

المراد بإنزال القرآن على الجبل في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ﴾: مخاطبةُ الجبل بما في القرآنِ من أوامر ونواهٍ، وزواجر وقوارع ورغائب؛ ليعمل بها، كما يُنزَل ذلك على رجلٍ، والتّعبير عن ذلك بفعل الإنزال استعارة تصريحيَّة، شبَّه فيها خطاب الجبل بالإنزال، ثم استُعير الثّاني للأوَّل على طريقة التبعيَّة؛ تشبيهًا لشرف الشّيء بعلوِّ المكان، ولإبلاغه الآخرين بإنزال الشَّيء من عُلوٍّ[2].

فائدة استعمال اسم الإشارة:

تعيينُ المقصود ودفع تطرُّق الاحتمال

آثر النّظم الكريم استعمال اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ دون أن يقول: (لو أنزلنا القرآن على جبل)؛ وذلك لتعيين المشار إليه وتخصيصه، حتّى لا يذهبَ الوهمُ إلى غيره، فإنَّ تتطرُّق الاحتمال يُذهب قوّة الاستدلال، وللتّعريض بأنّ القرآن غيرُ بعيد عن المتلقّين، وأنّه في متناولهم، ولا كلفة عليهم في تدبُّره، ولكنّهم هم الّذين قَصَدوا الإعراضَ عنه، وتعمَّدوه[3].

دلالة التَّعبير باسم ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾:

ذِكر الاسم العَلَم مقصودٌ لذاتِه لدفع الالتباس

أوثر التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ دون غيرِه من أسماءِ الوحي الكريم؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 462.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 116.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 116.

لأنَّه الاسمُ الأشهرُ والأكثرُ تداولًا، ولأنَّه كذلك الاسمُ الجامعُ لجميع العلوم، الفارقُ بين كلِّ ملتبس، المبينُ لجميع الحِكَم[1]، وثمَّ حكمةٌ أخرى تكمن في أنَّ القراءة - الّتي يدلُّ عليها - هي الوسيلة الأكثر تأثيرًا في متلقّيه، والأيسر في إبلاغهم بما فيه، والأسهل في إعلامهم بأوامره ونواهيه، ولذا أُمِر الرّسولُ ﷺ بتكرارها، في قوله تعالى: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ١٠٦﴾ [الإسراء: 106].

براعة تعدية فعل الإنزال بحرف الاستعلاء:

إنـزال القـرآن لـيـعـلـو عـلى الخلقِ في الحقّ

استعمال حرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ جَبَلٖ﴾ تأكيدٌ لنزول القرآن من عند الله تعالى، وأنَّه وحيُه إلى النّاس من غير شكٍّ أو ريبٍ، وتقويةٌ لعلوِّ شأنِه وارتفاع قدرِه، وفيه أيضًا إلماحٌ إلى أنّ القرآن يسيطر على ما نزل عليه، ويتمكَّنُ منه تمكُّن الرّاكبِ المُستَعْلي القادرِ على التَّوجيه والتصرُّفِ والتَّحويلِ.

توجيهُ تخصيص الجبل بالتَّمثيل، ولطيفة تنكيره:

الجبلُ مثالٌ في التحجُّر والشدّة لكنّه مع القرآن لانَ واستقام

خُصَّ اختيار الجبل للتّمثيل بإنزال القرآن عليه دون مخلوقات الله تعالى؛ لأنَّه المثالُ في التحجُّر والشدّة، والعَلَمُ في القسوة وعدم التأثُّر ممّا يصادمه[2]، وأوثر تنكيره لما يفيده التّنكير من العموم والتّعظيم، والمعنى: لو أنزلنا هذا القرآن العظيم الشّأن المنطوي على فنون القوارع على جبل من الجبال، أو على جبل عظيم[3]؛ لرأيت منه العجب في الخشوع والامتثال.

نوع اللّام ودلالتها:

رؤيـــةُ الجـبـل متـأثّرًا بالقرآن قـطـعـيُّ الـحـسّ حتميُّ المشاهدة

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ﴾ هي الّتي تربط الجوابَ بالشرط، وهي تدلُّ على أنّ رؤيةَ البشر للجبل خاشِعًا متأثِّرًا بمخاطَبة القرآن

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 462.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 233.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 255.

له، وتشريفه بالنّزول عليه أمرٌ حاصلٌ بكلِّ تأكيد، وواقع من غير أدنى شكٍّ أو ريب، ولا يخفى ما فيه من تعريضٍ بالقاسية قلوبُهم، الّذين لم يقدروا نعمة إنزال القرآن إليهم، فلم يخشعوا لتلاوته، ولم يمتثلوا أوامره، ولم يجتنبوا نواهيه.

نوع الرُّؤية في قوله: ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ﴾:

رؤيةُ الجبالِ متأثِّرةً بالقرآن رؤيةٌ بصريةٌ تمنع الشكَّ، وتحجُبُ الرّيبَ

التّعبير بفعل الرّؤية جوابًا للشّرط في قوله تعالى: ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ﴾ دالٌّ على أنّها رؤيةٌ بصريّةٌ، تمنع الشكَّ، وتحجُب الرّيبَ، ويَرَى بها المُخاطبُ كيف تتأثّر الجبال وغيرُها من مخلوقات الله بذلك القرآن النّازل إليها من عند الله؟ وكيف تخضع له خضوعًا يخرجُها عن طبيعتها الصّلبة، وينقلها من حال الشدّة إلى حال اللّيونة والرقّة.

تعيين مرجعِ ضمير الخطاب:

احتمال خصوص الرّسول وعموم الخلق قائم، والعموم أولى

جاء فعل الرّؤية مسندًا إلى ضمير المُخاطَب، المراد به: رسولُ الله ﷺ في المقام الأوّل؛ إذ هو المؤهّل لهذه الرّؤية دون غيره كما يرى البقاعيّ[1]، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون الضّمير لغير معين، فيعمَّ كلَّ مَن يسمع هذا الكلام[2]، بقرينة قوله تعالى بعده: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

دلالة التّعبير بالخشوع مادة وصيغة:

خشوعُ الجبالِ عند نزول القرآن تشهده الأكوان

قولُه: ﴿خَٰشِعٗا﴾ مفعولٌ ثانٍ لفعل الرّؤية، أو حالٌ من الضّمير المنصوب فيه، وفي التّعبير به دلالة على أنَّ أحدَ مظاهر تأثير القرآن في الجبال هو رؤيتها على حالة حقيقيّة من الخضوع والاستسلام من غير تكلُّفٍ ولا تظاهرٍ، مع فقدها أسباب العقل والفهم[3]، وأوثر التّعبير به اسمًا مشتقًّا؛ للدّلالة على ثبوت هذا الوصف ودوامه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 462.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 117.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 1/ 496.

للجبال وغيرها من المخلوقات؛ كلَّما تُليَ عليها كلامُ اللّه تعالى، أو خوطبت به.

وجه تقديم الخشوع على التصدُّع:

السَّببُ مقدَّمٌ على مسبَّبه والفاضل على المفضول

قُدِّم لفظ ﴿خَٰشِعًا﴾ على ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾؛ لأنَّ الخشوعَ من أفعال القلوب، وتأثُّرُ القلوب هو الخطوة الأولى الّتي ينبني عليها التصدّع والتشقُّق، وتغيير الأفعال وتبديل السّلوك، فقُدِّم ذكرُ الخشوع على التصدُّع باعتباره تقديم السَّبب على مسبّبه، كما أنّه من باب تقديم الفاضل على المفضول، ومن تقديم التّرغيب على التّرهيب، فالخشوع مظهر من مظاهر التّرغيب، والتصدّع مظهر من مظاهر التّرهيب.

موقع ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ الإعرابيّ ودلالته:

تشقُّقُ الأجسامِ الصّلبة وتصدُّعُها لا يحدث إلّا بشيءٍ عظيمِ الأثر قويِّ النّفاذ

قولُه: ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ حال ثانية من مفعول فعل الرّؤية، أو صفة لـ ﴿خَٰشِعًا﴾، والتّعبير به دالٌّ على أن المظهر الثّاني من مظاهر تأثّر الجبال بالخطاب القرآنيّ هو تصدّعها وتشقّقها مع ما فيها من عظيم الصّلابة وشدّة المتانة، وفي ذلك برهانٌ على قوّة تأثير القرآن، وعُمقِ نفاذِه إلى المخلوقات الصّلبة، وإلى المخلوقات اللّينة الرّقيقة من باب أولى، والمعنى: لو كان الجبل في موضع هؤلاء الّذين نسوا اللّه، وأعرضوا عن فهم القرآن، ولم يتّعظوا بمواعظه، لاتّعظ الجبلُ، وتصدَّع صخرُه من شدَّة تأثُّره بخشية اللّه، وضُرب التصدّعُ مثلًا لشدّة الانفعال والتأثُّر؛ لأنَّ منتهى تأثّر الأجسام الصّلبة أن تنشقَّ، وتتصدّع؛ إذ لا يحصلُ ذلك لها بسهولة[1].

بلاغة التّعبير بالتصدّع دون التشقُّق:

التّصدُّع دالٌّ على عمق الأثر، بينما التّشقُّق فذو أثر سطحيّ

آثر النّظم الكريم التّعبير بمفردة التصدّع في قوله: ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ دون التشقّق، والتصدّع هو انصداع الجرم القاسي إلى شقّين، أمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 116.

التّشقّق؛ فهو إحداث شقوقٍ في الجرم، فالتصدّع أبلغ وأقوى دلالة، وأثر القرآن عميقٌ في القلوب الحيّة، وعظيم فعله في النّفوس السويّة؛ إذ تصير بعد فهمه وتدبُّره إلى حال غير الحال الّتي كانت عليها قبل ذلك، فتتغيّر أخلاقُها، ويتبدّل سلوكها؛ إن كانت على حالة غير سويّة، أو يتعمّق الإيمانُ فيها، وتزداد ثباتًا على ماهي عليه، وسعادة ورضا بما هي فيه إن كانت مطمئنَّةً بالإيمان، وذلك مُستنبط من دلالة التصدُّع على: انفراج الشّيئين وابتعادهما[1]، ودلالة التشقّق على مجرَّد الخرم الواقع في الشّيء[2]، فالتّعبير بالتصدّع دالٌّ على قوّة أثر القرآن في الجبل المؤدّي إلى تصدُّعه، لا إلى مجرّد تشقُّقه، وهو ما يجب أن يكون في المتلقّين من البشر العقلاء.

نوع ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتها:

الخشية من الله سـبـب تـصـدُّع الجبل وخشوعه

﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ حرفُ جرٍّ يدلُّ على أنّ السّبب الّذي يجعل الجبلَ خاشعًا متصدِّعًا عند نزول القرآن عليه، أو مخاطبته بما فيه من أوامر ونواهٍ وزواجر ورغائب هو خوفُه العظيم ممَّن له الكمال كلُّه؛ حذرًا من ألّا يكون مؤدّيًا ما افترض عليه من تعظيم القرآن عند سماعه[3].

دلالة ذكر لفظ الخشية دون الاكتفاء باسم الجلالة:

القرآن يُحْدِثُ في متلقّيه حالةً من الخوف المقترن بتعظيم الله وخشيته

أُضيف لفظ الخشية إلى اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾، ولم يقلْ: (خاشعًا متصدِّعًا من اللّه)؛ للدّلالة على أنّ القرآن يُحْدِثُ في متلقّيه حالة من الخشية الّتي هي للّه تعالى، والمتلقّي يخشع، ويتصدّع من هذه الخشية، فكيف يكون الأمر مع اللّه تعالى؟ وهذا بخلاف ما لو قيل: (من اللّه) فقط؛ لدلالة ذلك على أنّ الخشية بسبب اللّه، أو مبتدئة من اللّه تعالى، ولا أثر للقرآن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدع).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (شق).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 462.

فيها، وكذلك الأمرُ لو قيل: (متصدِّعًا من الخشية) بدون ذكر اسم الجلالة؛ لدلالته على أنّ الخشوع والتصدُّع حاصلان من تحقّق الخشية ووجودها في الجبل، وأنَّ القرآنَ ليس له أثرٌ فيهما.

غرض المثل المضروب بالجبل:

توبيخُ الإنسان على قسوة قلبه وقلّة تدبُّره القرآن

المثلُ المذكورُ في الآية الكريمة مضروبٌ؛ لبيان عُلوِّ شأن القرآن، وعظيم تأثيره، والغرض منه توبيخ الإنسان على قسوة قلبه، وقلة تخشُّعه عند تلاوة القرآن الكريم، وعدم تدبُّر ما فيه من القوارع والزَّواجر والمواعظ، وهو الّذي لو أنزل على جبل - وقد رُكِّب فيه العقل - لخشع، وتصدَّع[1]، فما لابن آدم وقد آتاه اللّه من العقل ما لم يؤتِ الجبل يستخفّ بحقِّه، ويُعرض عمّا فيه من العبر[2]؟.

نوع الواو ودلالتها:

استئناف جملة التّذييل لبيانِ مقاصد المثل

الواو في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ﴾ هي واو الاستئناف، والجملة بعدها تذييل؛ لأنَّ ما قبلها سيق مساق المثل، فذُيِّل بأنَّ الأمثال الّتي يضربها اللّهُ في كلامه مثلُ هذا المثلِ أراد منها أن يتفكّروا، فإن لم يتفكّروا بها؛ فقد سجَّل عليهم عنادهم ومكابرتهم[3].

نكتة استعمال اسم الإشارة للبعيد:

يُزاد على ذلك ما في الإشارة بالاسم الدّال على البُعد من تعظيم المشار إليه، بإنزال ما فيه من بعدٍ معنويٍّ منزلة البعدِ المكانيِّ.

بلاغة الإشارة بالجمع (تِلْكَ) والمثل واحد:

المثل القرآنيُّ عند تأمُّله هو مجموعة أمثالٍ في الاعتبار

المضروبُ في السّورة مثلٌ واحدٌ بالجبل، ومع ذلك عبَّر البيانُ الكريمُ باسم الإشارة الدالّ على الجمع، فقال: ﴿وَتِلۡكَ﴾؛ للإشارة إلى هذا المثل وإلى غيره من الأمثال الّتي مرَّت على أسماعهم في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 310.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 462.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 509، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 117.

مواضع من التّنزيل، وتقدير الكلام: ضربنا هذا مثلًا، وتلك الأمثال أيضًا نضربها للنّاس[1]، كما أنَّ الجمع يُشير إلى أنَّ تدبُّر المثل المضروب بمنزلة أمثال كثيرة، لو تأمّل النّاظر لما أحصاها، كما أنَّ الجميع يُشير إيماءً إلى أمثال مضروبة في القرآن مثل هذا المثل، على المتلقّي أن يُنادي عليها؛ لينظر فيها، فيصل إلى رتبة التأمُّل الرَّفيع، ودرجة التدبُّر العالي.

بلاغة التّعبير بـ: ﴿نَضۡرِبُهَا﴾:

ضربُ الأمثال أوضح بيانًا وأشدُّ قوّة من مجرد بيانها

الضربُ مستعملٌ مجازًا في الوضع والجعل، من قولهم: ضرب خيمةً وضرب بيتًا[2]، والتّعبيرُ به دالٌّ على الإنشاء والإحداث، ما يعني: أنَّ اللّهَ تعالى يأتي بأمثالٍ لا نظير لها ولا شبيهَ بها، ويخرجها من العدم إلى الوجود، ويضعها بأسلوب قويٍّ مؤثر في ذهن المتلقّي، بقصد تقريب المعاني وإيصالها للنّاس، وليزيل بها ما هم فيه من تذبذب واضطراب وبعدٍ عن منهج اللّه جلَّ في علاه[3]، ولو قيل: (نُبَيِّنُها)؛ لدلَّ ذلك على وجود المثال من قبل، وأنَّ القرآن أعاد بيانه وتوضيحه فقط، وفيه دلالة على العجز عن ضرب الأمثال وإيجادها، وأيضًا فإنَّه يُحدث نوعًا من الاضطراب والتردّد بين معنى المثال القديم ومعناه الجديد، ومن ثمَّ لا تتحقَّقُ الغايةُ من إيراده، كما أنَّ فعل الضّرب فيه قوّة أثر المثل المضروب في المتلقّي، بحيث ينزل بقوّةٍ على المتلقّي، بخلاف البيان فهو كشف الغموض فحسب.

نكتة التَّعبير بـ ﴿نَضۡرِبُهَا﴾ مضارعًا مسندًا لضمير العظمة:

تفخيم الأمثال المضروبة وإعلاء شأن مضمونها

جيء بفعل الضّرب مضارعًا، فقال: ﴿نَضۡرِبُهَا﴾؛ لما يفيده من الدَّلالة على تجدُّد ضرب الأمثال بين الوقت والآخر، وبين السّورة والأخرى، وبين الموقف وغيره، ففي كل مرة يُضرب المثلُ يكون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 117.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 359.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 463.

مغايرًا لما قبله، ويكون ما بعده كذلك مغايرًا له، وأقلُّ هذه الأمثال البعوضة، كما قال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: 26]، وأسند فعل الضرب إلى ضمير الحقِّ سبحانه بصيغة التّعظيم؛ لتفخيم الأمثال المضروبة، وإعلاء شأنها، والإلماح إلى ضرورة التفكُّر فيها، والاتّعاظ بها؛ لأنَّ اللّه تعالى هو الّذي وضعها بنفسه؛ حرصًا على مصلحة خلقه.

نوع اللّام ودلالتها:

تبليغ الأمثال للنّاس هدفُ ضربِها وتقريبُ حقائقِها لمَن يعقل، ويتفكَّر

اللّام في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ أفاد تبليغ الأمثال للنّاس، وفي التّعبير به دلالة على أنّ اللّه تعالى ضرب المثل الّذي جاء في السّورة، والأمثال الّتي مرَّ ذكرها في القرآن الكريم؛ لأجل تقريب الحقائق إلى عقول النّاس؛ ليروا على مرآتها أحوالَهم، وما في تلك الأحوال من انحرافٍ أو عِوَجٍ، حتّى يقوِّموا منها ما انحرف، ويصلحوا ما اعوجَّ؛ إذا كانت لديهم عقولٌ يعقلون بها، أي: إنَّ هذه الأمثالَ مضروبةٌ لأجل مَن يعقل مِنَ النّاس بصفة خاصَّة، ولأجل مَنْ يتفكَّر فيما عَقَل بصفةٍ أخصَّ[1].

نوع (أل) ومعناها في ﴿لِلنَّاسِ﴾:

فوائدُ ضربِ الأمثالِ تَعُمُّ النّاسَ أجمعين

(أل) في ﴿لِلنَّاسِ﴾ لتعريف الجنس، وهذا يعني: أنّ الفائدةَ المرجوَّة من ضرب الأمثال لا تنحصر في ناس معيَّنين، وإنَّما تعمُّ النّاس أجمعين، ويدخل فيهم القاسيةُ قلوبهم والمتردِّدون المتذبذبون من باب أولى، والمعنى: نضربها للنّاس الّذين يحتاجونها، وهم مَنْ فيهم تذبذب، واضطرابٌ[2].

بلاغة استعمال (لَعَلَّ):

(لَعَلَّ) حرفُ نسخ يفيد الترجّي، وهو أصل معانيه، وهو ترجٍّ للعباد، والمعنى: نضرب الأمثال للنّاس رجاء أن يتفكَّروا، أو يتَّعظوا[3]،

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 880.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 463.

(3) المرادي، الجنى الدّاني، ص: 580.

أي: إنَّ ضرب الأمثال للنّاس فيه نفع أكيد لهم، ويمكن أن يفيد التَّعليل، والمعنى: وتلك الأمثال الباهرة الّتي اشتمل عليها هذا القرآن العظيم، نضربها، ونسوقها للنّاس، لكي يتفكّروا فيها، ويعملوا بما تقتضيه من توجيهاتٍ حكيمةٍ، ومواعظَ سديدةٍ، وإرشاداتٍ نافعة[1]، والرّجاء فيه معنى التّعليل، فلا تعارض بين القولين.

رجاء تفكُّر النّاس في الأمثالِ تعليل ضربِها لهم

بلاغة استعمال مفردة التفكُّر دون التَّذكُّر:

أمثال القرآن تحدث عند المتلقّي حالة من التَّفكير المتجدّد المتواصل

آثر النّظم الكريم التَّعبيرَ بفعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ دون فعل (يتذكّرون)؛ لأنَّ التفكُّر طريق التذكُّر والاعتبار، وبدون الأوَّل لا يحصل الثّاني، ولا يتحقَّق، وجيء به مضارعًا؛ لما يمتاز به من الدَّلالة على التجدُّد والتَّكرار، أي: إنَّ الأمثال الّتي يضربها القرآن للنّاس تُحْدِث فيهم حالةً من التَّفكير المتواصل المتجدِّد، الّذي يُفضي بهم إلى التذكُّر والاهتداء للعمل الّذي يقرِّبهم من الجنَّة، ويباعدهم من النّار، والمعنى: أن تكون حال النّاس عند مَن ينظرهم حالَ مَن يُرجى تفكُّره في تلك الأمثال، فينفعه ذلك إذا أراد التفكّر إلى التذكّر، فيتخلّى عن الشّهوات البهيميَّة، فينجو من الحظوظ النَّفسيَّة، ويتحلّى بالملابس الرّوحانيَّة، فيصير بالمجاهدات والمنازلات إلى الصّفات الملكيّة، فيكون أهلًا للمقامات القدسيّة في الجنان العليّة[2].

نكتة حذف متعلّق ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

التَّفكُّر الجادُّ هو الموصل إلى الجادَّة

حُذِف متعلّق فعل ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ ضرب الأمثال يُحْدِثُ في أذهان المتلقّين حالةً من التَّفكير المتلاحق في كلِّ المجالات، وليس في مجالات محدَّدة؛ ليستطيعَ كلُّ من أعمل فكره، وأجهد عقله في التدبُّر أن يتوصَّل بواسطة المثل المضروب إلى ما يجعله منيبًا

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 14/ 310.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 463.

منقادًا للحقِّ[1]، عاملًا به، داعيًا إليه، أو لتنزيله منزلة الفعل اللّازم، أي: لعلّهم يتَّصفون بصفة التّفكر الجادّ الموصل إلى الجادّة.

بلاغة التَّذييل وغرضه:

ضرب الأمثال يُعين النّاس على إحسان الأعمال

جملة: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ تذييل مؤكد في أعقاب المثل الّذي ضربه اللّه تعالى بالجبل حين ينزل عليه القرآن؛ ليتأمَّل المتلقّي هذا الحالة العجيبة، وأن يتفكَّر فيها، وأن يقيس حاله في التّعامل مع القرآن، والقيام بحقّ تأمُّله وتدبُّره، والاهتداء به بحال الجبل الّذي لا يعقل، ولا يفهم، فيترتَّب على ذلك إحسانُه الأعمالَ الّتي يقدِّمها ليوم القيامة؛ كي يكونَ من أصحاب الجنّة الفائزين، وليس من أصحاب النّار الخاسرين.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التصدُّع والتشقّق:

التصدُّع شقٌّ كبير في جانبي جوهر قاسٍ، والتشقُّق فروق سطحيّة غير غائرة

الصَّدْعُ: الشّقُّ، يُقالُ: صَدَعْتُهُ فانصَدَعَ، أي: انشقَّ، وصدَعْتُ الفلاةَ: قَطَعْتُها، وصدعت الشّيء: أظهرته، وبيَّنته، والتَّصْديعُ: التّفريقُ، وتَصَدَّعَ القوم: تفرَّقوا[2]، أمّا الشَقُّ؛ فهو واحد الشُّقوقِ، وهو في الأصل مصدر، تقول: بيد فلانٍ وبرجله شُقوقٌ، وهو: تَشَقُّقٌ يصيب أرساغَها، وربّما ارتقع إلى أوظفتها[3]، ما يعني: أنّ الصّدع هو الشق العميق الغائر، أمّا الشقُّ؛ فقد يكون ممتدًا، ولكنّه سطحيٌّ، ولمّا كان البيان معقودًا لإيضاح أثر القرآن في الجبل لو نزل عليه، وخوطب به؛ ناسب التّعبير بمفردة (التصدع)؛ لأنّها تبيّن الأثر الحقيقيّ الغائر للقرآن في الجبال وفي غيرها من المخلوقات، بينما التشقّق لا يوضِّح ذلك؛ لدلالته على أنَّ الأثرَ سطحيٌّ، وهو غيرُ صحيح.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 550.
(2) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (صدع).
(3) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (شقق).

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ
ٱلرَّحِيمُ ٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ
ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ
٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ
مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر: 22 - 24]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقال من أدلَّة العظمة الإلهيّة إلى صفاتها وأسمائها

لمّا تحدَّثت السّورة عن جلال القرآن الكريم، وعظيم أثره في المخلوقات، ومعلوم أنّ عظم الصّفة تابع لعظم الموصوف، ويُلاحظ ذلك بتكرُّر ذِكرِ اسم اللّه وضمائره وصفاته أربعين مرَّة في السّورة، منها أربع وعشرون بذكر اسم الجلالة، وستَّ عشرةَ مرّة بذكر ضميره الظّاهر، أو صفاته العليّة، وكان ما تضمّنته السّورةُ دلائل على عظيم قدرة اللّه وبديع تصرُّفه وحكمته، فناسب ذلك كلَّه أن يعقبه بذكر طائفة من عظيم صفات اللّه ذات الآثار العديدة في تصرُّفاته المناسبة لغرض السّورة؛ زيادةً في تعريف المؤمنين بعظمته المقتضية للمزيد من خشيته، وبالصّفات الحسنى الموجبة لمحبّته، وزيادةً في إرهاب المعاندين المُعرضين من صفات بطشه وجبروته، ولذلك ذكر في هذه الآيات الخواتم للسّورة من صفاته تعالى ما هو مختلف التعلّق والآثار، وما للفريقين حظٌّ يليق بهما منها[1]، وأن يختم السّورة ببيان انخراط الكون كلّه في تنزيهه وتسبيحه تسبيحًا دائمًا لا ينقطع، ولا يتوقَّف؛ ليتناغم الإنسانُ مع كون اللّهِ الفسيحِ، ولا يشذَّ عنه.

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: (غيب) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيءِ عَنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 117، 118.

العُيونِ، مِن ذَلِكَ الغَيْبُ، وهوَ كُلُّ ما غابَ عَنْكَ مِمّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّهُ[1]، ويُستعمَل في كلِّ غائِبٍ عن الحاسّة، وعمّا يَغيبُ عن علم الإنسان بمعنى الغائِب، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٧٥﴾ [النمل: 75]، ويُقال للشَّيء: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنّه لا يغيب عنه شيء، كما لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السّماوات ولا في الأرض، وقوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾، أي: ما يغيب عنكم وما تشهدونه، والغَيْب في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: 3]، ما لا يقع تحت الحواسّ، ولا تقتضيه بدايةً العقولُ[2].

2) ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: (شهد) أَصْلٌ يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[3]، ومنه الشُّهودُ والشَّهادَةُ، أي: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، وقد يُقال للحضور مفردًا، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السجدة: 6]، لكن الشّهود بالحضور المجرّد أولى، والشّهادة مع المشاهدة أولى[4].

3) ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: (قدس) أَصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على الطُّهْرِ، ومِن ذَلِكَ الأَرْضُ المُقَدَّسَةُ وهيَ المُطَهَّرَةُ، ومن أسماء اللّهِ تعالى القُدّوسُ، وهو فُعّولٌ من القُدْسِ، وهو الطّهارة؛ لأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنِ الأضدادِ والأَنْدادِ، والصّاحِبَةِ والوَلَدِ، تَعالَى اللّهُ عَمّا يَقولُ الظّالِمونَ عُلوًّا كَبيرًا[5].

4) ﴿ٱلْبَارِئُ﴾: (برئ) يدلُّ على الخَلْقِ، يُقالُ: بَرَأَ اللّهُ الخَلْقَ يَبرَؤُهُم بَرْءًا، والبارِئُ: اللّهُ جَلَّ ثَناؤُهُ، قالَ تَعالَى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: 54]، وقال: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[6]، أي: الموجد للأشياء إيجادًا بريئًا من التّفاوت، وقيل: المميّز بعضها من بعض بالأشكال المختلفة[7].

المَعْنى الإجْماليّ:

تُختَم سورةُ الحشر بذكر طائفة من أسماءِ اللّه، الّتي تناسب ما ورد في السّورة من معان، فهو الإلهُ الواحد الّذي لا يشاركه غيره، المحيطُ بعلم جميع الأشياء ما غاب منها

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (غيب).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (غيب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (شهد).
(5) الجوهريّ، تاج اللّغة وصحاح العربيّة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدس).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (برأ).
(7) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 234.

صفات الله وأسماؤه أدلّة راسخةٌ في بيان عظمةِ الله واستيلائه على خلقه

وما حضر، الرّحمنُ: الّذي تنتظم رحمته جميعَ المخلوقات، الرّحيمُ: الّذي يختصّ برحمته من يشاءُ من أهل الطّاعات، وهو المالك لجميع الأشياءِ يتصرَّف فيها كيف يشاء، القدّوس: الطّاهر من كلِّ عيب وآفة ونقص، المنزّه عن القبائح، السّلام من كل سوءٍ وعيب، الّذي تُرجى عنده السّلامة من كلّ بلاءٍ، المؤمن: الّذي يهب الأمن لكلِّ خائف، ويوفّر الاطمئنان لكلّ مظلوم مقهور، المهيمن: المسيطر الّذي لا يعلو عليه أحد، العزيز: القادر الّذي لا يُقْهر، المنيع الّذي لا يرام، ولا يمتنع عليه مرام، الجبّار: العظيم الشّأن في الملك والسّلطان، المتكبّر: المستحقّ لصفات التّعظيم، المتعالي عن كلّ نقص ورذيلة، وهو الخالق: المقدّر للأشياء بحكمته، المحدث لها على إرادته، البارئُ: الموجد لها بريئة من التّفاوت، فلا ترى فيها اختلافًا ولا عدم تناسب، المصوّر: الموجد لصورها وأشكالها، كما أراد، هذه الأسماء الحسنى الّتي اختصَّ بها ذاته، ووضّح بها صفاته، ما ذكر منها، وما لم يذكر لدلالتها على المعاني الحسنة والفضائل العالية والكمال المطلق، يسبّح له بها، ويذكّره بترديدها كل ما في السّماوات والأرض من خلائق وأجرام بحاله أو بمقاله، وهو تعالى العزيز في ملكه، الحكيم في فعله، ليس كمثله شيءٌ، وهو السّميع البصير[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تعيين مرجع الضّمير ﴿هُوَ﴾:

لمّا كان شأنُ الصّفات المذكورة عظيمًا؛ ناسب أن تبدأ بضمير الشّأن

الضّمير ﴿هُوَ﴾ الّذي بُدِئت به الآياتُ الخاتِمةُ الّتي تتحدّث عن مُنزِل القرآنِ ﷻ، يحتمل أن يعودَ إلى اسم الجلالة العلم في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وقد أوثر التّعبير عن الله تعالى بالضّمير لبداهة رجوعه إليه؛ إذ لا يُعبَّر عن غيره به، ولما يدلّ عليه مِن أنَّ وجوده سبحانه مِن ذاته، فلا عدمَ له أصلًا بوجهٍ من

(1) مجمع البحوث الإسلاميّة، التّفسير الوسيط: 10/ 1370، وما بعدها.

الوجوه، ولا يستحقُّ الوصفَ بـ ﴿هُوَ﴾ أحدٌ غيره؛ لأنَّه الموجود دائمًا أزلًا وأبدًا، فهو حاضر في كلِّ ضمير، غائبٌ بعظمته عن كلِّ حسٍّ، فلذلك يتصدَّع الجبلُ من خشيته[1].

ويحتمل أن يكون الضّميرُ للشّأن، والكلامُ استئنافٌ قُصِد منه تعليمُ المسلمين هذه الصّفات؛ ليتبصّروا فيها، وللردِّ على المشركين إشراكهم بصاحب هذه الصّفات معه أصنافًا ليس لواحد منها شيءٌ من مثل هذه الصّفات؛ ولذلك خُتِمت طائفةٌ منها بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ لتكون ختامًا لهذه السّورة الجليلة الّتي تضمّنت منّةً عظيمة، وهي منّة الفتح الواقع والفتح الميسّر في المستقبل، لا جرم أنّه حقيق بأن يعرفوا جلائل صفاته، الّتي لتعلّقاتها آثار في الأحوال الحاصلة، والّتي ستحصل من هذه الفتوح، وليعلم المشركون والكافرون من اليهود أنّهم ما تعاقبت هزائمُهم إلّا من جرّاء كفرهم، ولمّا كان شأنُ هذه الصّفات عظيمًا؛ ناسب أن تُفتتح الجملةُ بضمير الشّأن[2].

نكتة الجمع بين الضّمير واسم الجلالة:

اسمُ الجلالة هو أخصُّ الأسماءِ وأشهرُها، وهو الجامعُ للأسماء كلّها

كان مقتضى الظّاهر الاقتصارَ على الضّمير دون ذكر اسم الجلالة؛ لأنَّ المقصودَ الإخبارُ عن الضّمير بـ ﴿ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، وبما بعده من الصّفات العليّة، إلّا أنّ النّظم الكريم عدل عن ذلك إلى ذكر اسم الجلالة العلم، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّه أخصُّ الأسماء وأشهرُها، وهو الجامعُ للأسماء كلِّها[3]، وهو الّذي يدعو رسولُ الله النّاسَ إلى عبادته، والإقرارِ بألوهيّته، ولأنَّ "الجمع بين الضّمير وما يساوي مُعادَةَ اعتبارٍ بأنَّ اسمَ الجلالة يجمع صفات الكمال؛ لأنَّ أصلَه الإله، ومدلول الإله يقتضي جميعَ صفات الكمال"[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 464.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 118.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 464.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 118.

سِرُّ التّعبير باسم الموصول:

تفخيمُ الموصوف ﷻ، وتعظيم شأنه بتشويق المتلقّي إلى صلة الموصول

قولُه: ﴿ٱلَّذِى﴾ اسمُ موصولٍ في محلّ رفع صفة لاسم الجلالة العلم، أوثر وصفه به تفخيمًا للموصوف ﷻ، وتعظيمًا لشأنه، وليتوصّل من خلال جملة الصّلة إلى قصر الألوهيّة عليه سبحانه، لا تتعدّاه إلى أحد غيره، يُزاد على ذلك ما في التّعبير باسم الموصول من إثارة وتشويق إلى جملة الصّلة، حتّى إذا وردت؛ استقرّت في النّفس، وتمكّنت منها فضل تمكُّنٍ، "فالنّفس إذا وقعت على كلام غير تامّ بالمقصود منه؛ تشوّقت إلى كماله، فلو وقعت على تمام المقصود منه؛ لم يبقَ لها هناك تشوُّقٌ أصلًا؛ لأنَّ تحصيلَ الحاصل محالٌ، وإن لم تقف على شيء منه، فلا شوق لها هناك، فأمّا إذا عرفته من بعض الوجوه دون بعض؛ فإنَّ القَدْرَ المعلوم يُحدث شوقًا إلى ما ليس بمعلوم"[1].

وجه تقديم صفة الوحدانيّة على غيرها:

توحيدُ الله تعالى أصلُ كلِّ الصفاتِ، فإن صحّت؛ فقد سلم ما بعدها

ابتدأ النّظم الكريم هذه الصفات العليّة بصفة الوحدانيّة، وهي مدلول قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ وذلك لأنّها الأصل فيما يتبعُها من الصّفات والأسماء، ولأنَّ توحيده سبحانه فرضٌ، وهو أساسُ كلِّ فريضة، وتوحيد سائر الأسماء نفلٌ، وهو أيضًا أساسُ كلّ نافلة، فمن وحَّد في الكلّ؛ فقد كمل دينه، وتمَّت النعمةُ عليه، ولذلك كثر في القرآن ذكرُها عقب اسم الجلالة، كما في آية الكرسيّ، وفاتحة آل عمران[2].

بلاغة القصر في جملة الصّلة:

التّخلية التّامة مقدّمة على التّحلية الكاملة ولا توحيد مع خفايا الشّرك

قُصِرَتْ صفةُ الألوهيّة في صلة الاسم الموصول: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ على ذات الله تعالى قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، بطريق النّفي

(1) العلويّ، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 1/ 45.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 465، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 119.

والاستثناء؛ للإبلاغ في تأكيد وحدانية اللّه، وتقوية جدارته بالعبادة دون الآلهة الّتي عبدها الكفّار من دونه، والمعنى: هو المعبود الّذي لا تنبغي العبادة والألوهيّة إلّا له، الّذي لا إله إلا هو، فإنَّه لا مجانس له، ولا يليق، ولا يصح، ولا يُتصوَّر أن يكافئه، أو يدانيه أيُّ شيء؛ مهما كان، ومهما بلغ[1].

دلالة التّثنية بصفة العلم بعد التوحيد:

العلم دليل التّوحيد والإحاطة دليل الألوهيّة

ذكر البيانُ الكريم صفة علم اللّه تعالى الغيب والشّهادة بعد صفة التّوحيد في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾؛ لأنَّها الصفةُ الّتي تقتضيها صفةُ الإلهيّة؛ إذ إنَّ علم اللّه تعالى هو العلم الواجب، ولأنَّها أيضًا تقتضي جميعَ الصّفات[2]، وتدلُّ على أنَّه لا معبود إلّا هو، ويلزمه أن يكون خالقًا لكلِّ شيء بالاختيار، كما هو الواقع في نفس الأمر، والخلق بالاختيار يستحيل بدون العلم[3]، فذِكْرُ العلم بعد التّوحيد كذكر الدّليل على المدلول عليه؛ لأنّ العلم هو البرهان الأكيد على استحقاق اللّه تعالى للوحدانيّة، وبه يُعلم أنّ نقص العلم - لا انعدامه - مناقض للألوهيّة.

بلاغة التّعبير باسم الفاعل مضافًا:

علم الله تعالى أزليٌّ في رسوخِه شاملٌ لكلِّ خلقه

عبَّر النّظم الكريم عن علم اللّه تعالى بالاسم المشتقّ اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾؛ للدّلالة على أزليّة هذه الصّفة وأبديّتها، وأنّها لا تنفكّ عن اللّه سبحانه بحال من الأحوال، وذُكِرَ مضافًا إلى ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾؛ لأنَّ علم الغيب هو الّذي فارق به علمُ اللّه علمَ غيره، وذُكِرَ معه علمُ الشّهادة؛ للاحتراس من توهُّم أنَّه يعلم الحقائق العالية الكلّيَّة فقط، كما ذهب إليه فريقٌ من الفلاسفة

(1) الجمل، حاشية الجمل على الجلالين: 4/ 321.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 119.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 255.

الأقدمين، ولأنَّ التّعريف في ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ للاستغراق، أي: كلُّ غيب وشهادة، وذلك ممّا لا يشاركه فيه غيره[1].

نوع الطّباق وبلاغته:

الــلــهُ تـعـالى محيطٌ بكلِّ شيءٍ لا تخفى عليه خافية

في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ طابق النّظم الكريم بين اسمين هما ﴿ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾؛ للدّلالة على إحاطة علم الله تعالى بكلِّ شيءٍ، سواءٌ شاهده النّاسُ أم لم يشاهدوه، فالله سبحانه عالمٌ بالسِّرِّ والعلانيّة، عالمٌ بالدّنيا والآخرة، عالم بالمعدوم والموجود[2]، عالم بكلّ شيء، ولا يخفى عليه أيُّ شيء مهما دقَّ وخفي، ويدخل فيه ما بين المنافقين واليهود، وكلُّ ما ذكرته السّورةُ دخولًا أوليًّا.

فائدة ذكر ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾، مع ذكر ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾:

علمُ الله تعالى الغيب دالٌّ على علمه الشّهادة من باب أولى

ذَكَر النّظم الكريم لفظ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾، مع أنّه إذا كان ﷻ عالمًا بكلِّ غيبٍ، فهو عالم بكلّ شهادة بالطّريق الأولى، وذلك لتأكيد العلم به، ودفعًا للظنّ بأنّ وصفه بعلم الغيب أمر نسبيّ، وأنّه سمّي غيبًا بالنّسبة لناس دون ناس، فدلَّ بذكر الضدِّ على أنّ المراد كلُّ ما غاب وكلُّ ما شُهِد[3]، وذلك من باب قوله تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49].

نكتة تقديم ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ على:

قُدِّمَ لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ على لفظ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾؛ لأنَّ العلم به دليلٌ على العلم بالشّهادة، ويمكن أن يكون مقدَّمًا في الذّكر لتقدُّمه في الوجود على الشّهادة، فإنَّ كل شهادة كان غيبًا، وما برز ما برز إلّا من خزائن الغيب، ما يعني: أنّه قُدِّم لتقدُّمه في الوجود وتعلُّق العلمِ القديم به[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 119.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 3/ 463.
(3) البقاعيّ، روح المعاني: 19/ 466.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 233، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 255.

بلاغة تكرار الضّمير ﴿هُوَ﴾:

تأكيد اتِّصاف الله تعالى بما مضى، وبما هو آتٍ

أعاد النّظمُ الكريم ذكرَ الضّمير العائد إلى اللّه سبحانه مع قرب العهد به، فقال: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لتأكيد اتّصافه بما مضى، وتقوية اتّصافه بما هو آتٍ، والمعنى: إنَّ الّذي يعلم الغيب، ويطلع على ما خفي من أقوال خلائقه وأفعالهم - بما فيهم المنافقون واليهود الّذين حاربوا رسول اللّه، والمشركون الّذين عبدوا غير اللّه تعالى، وأخرجوا رسوله من مكّة - هو ذاتُه الرّحمنُ الرّحيمُ بهم وبغيرهم.

نكتة ذكر الرّحمة بعد التّوحيد والعلم:

أعظم ما يُعرِّف بالله تعالى بعد التّوحيد والعلم صفة الرّحمة

عبَّر البيانُ بقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعد ذكر صفة عموم العلم؛ لأنَّ عمومَ علمه يقتضي ألّا يغيب عنه شيءٌ من أحوال خلقه وحاجتهم إليه، ما يعني: أنَّ علمه تعالى مفضٍ إلى أن يرحم المحتاجين إلى رحمته، ويُمهل المعاندين إلى عقابِ الآخرة، فهو رحمن بهم في الدّنيا، رحيم بهم في الآخرة، وذلك جريًا على عادة القرآن في اتّباع اسم الجلالة بصفتي ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾، كما في البسملة والفاتحة وغيرهما[1]، وأيضًا فإنَّ صفتي الرّحمن الرّحيم من الأوصاف الّتي تُعرِّف باللّه تعالى، فكان ذكرهما بعد صفة العلم لبيان ألصق الصّفات به سبحانه، بعد التّوحيد والعلم.

بلاغة القصر في جملة: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

رحمةُ الأغيار لا اعتبار لها مع رحمة ربِّ الأغيار

في جملة: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قُصرت صفتي الرّحمة على ذات اللّه تعالى قصرًا حقيقيًّا، بطريق ضمير الفصل بين المسند إليه والمسند؛ للإشارة إلى بلوغه تعالى في الرّحمة مبلغًا لا يمكن لأحد أن يتصوَّرَه، أو يصلَ إليه، فرحمةُ غيره لا اعتداد بها لقصورها[2]، قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: 156]، وقال النبيّ ﷺ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 119، 120.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 119.

«جَعَلَ اللّهُ الرَّحْمَةَ في مئة جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وتِسْعينَ جُزْءًا، وأَنْزَلَ في الأَرْضِ جُزْءًا واحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الجُزْءِ يَتَراحَمُ الخَلْقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الفَرَسُ حافِرَها عَن ولَدِها، خَشيَةَ أَنْ تُصيبَهُ»[1].

دلالة التّعبير بصيغة المبالغة لوصفي الرّحمة:

الرَّحمانيَّة والرَّحيميّة من صفات الله الأزليّة الأبديّة

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اسمان من أسماء اللّه تعالى، أوثر الإخبار بهما عن ضميره؛ للدَّلالة على تأصُّل الرّحمانيّة والرّحيميّة فيه ﷻ، وأنَّهما من صفاته الأزليّة الأبديّة، الّتي لا تتبدّل، ولا تتغيّر، وصوغُ كلّ اسم منهما بصيغة من صيغ المبالغة تأكيدٌ لبلوغه فيهما المبلغ الّذي ليس لأحدٍ أن يصلَ إليه، أو يقتربَ منه.

دلالة الجمع بين الرّحمانيّة والرّحيميّة:

تعقيبُ الرّحمانيّةِ بالرّحيميّةِ تعميمٌ بعد خصوصٍ

الجمع بين الرّحمانيّة والرّحيميّة دالٌّ على اختلافهما، فالأوّل أخصُّ، والثّاني أعمُّ، وتعقيب الأوّل بالثّاني تعميمٌ بعد خاصٍّ[2]، ومدلول ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مختصٌّ به تعالى، وكان أوّلُ إطلاقه ممّا خصّه به القرآنُ على التّحقيق، بحيث لم يكن التّوصيف به معروفًا عند العرب، ومدلول ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في كون الرّحمة كثيرة التعلّق؛ إذ هو من أمثلة المبالغة، ولذلك كان يطلق على غير اللّه تعالى، كما في قوله تعالى في حقِّ رسوله: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: 128]، فليس ذِكر إحدى الصّفتين بمُغْنٍ عن الأخرى، وتقديم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنَّ الصِّفة الدّالّة على الاتّصاف الذّاتيّ أولى بالتّقديم في التّوصيف من الصّفة الدالّة على كثرة متعلّقاتها[3].

وجه تكرار جملة: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾:

إبراز كمال الاعتناء بتوحيد الله تعالى بعد ذكر الغافلين عنه

أعاد النّظمُ الكريم جملة: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مع قرب

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ، باب جعل الله الرّحمة في مئة جزء، حديث رقم: (5654)، ومسلم، صحيح مسلم: باب في سعة رحمة الله تعالى، وأنّها سبقت غضبه، حديث رقم: (2752).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 119.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 119.

العهد بها؛ لتعيين المتحدَّث عنه، وإبراز كمال الاعتناء بأمر التّوحيد، ولأنَّ المقام مقامُ تعظيم، وهو من مقامات التّكرير[1]، وفيه كذلك ضرب من التّأكيد على أنّ الإلهَ الواحد الّذي يتّصف بما سبق بيانه هو ذاته الإله الواحد المتَّصف أيضًا بما هو آتٍ، وأنَّ لكلّ صفة من صفاته، ولكل اسم من أسمائه دلائل وبراهين تؤكّد أزليّتها وأبديّتها في اللّه، وأيضًا فإنّ أثرها بادٍ بصورةٍ لا شكّ فيها فيما أنزله من قرآن تتصدَّعُ منه الجبالُ.

معنى ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾، ودلالة ترتيبه في الذِّكر:

رحمةُ الله تعالى فضلٌ منه وشأنُ المَلِك رحمة من دونه

صفة ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ خبر للضّمير العائد إلى اسم الجلالة، ومعناه: الحاكم في النّاس، والتّعريف فيه دالٌّ على أنّه لا مَلِكَ على التّحقيق إلّا اللّه تعالى، وأمّا وصف غيره بالمَلِك؛ فهو بالإضافة إلى طائفة معيّنة من النّاس، وزمن ومكان معيّنين، وتعقيب وصفي الرّحمة بوصف ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾؛ للإشارة إلى أنّ رحمة اللّه تعالى فضلٌ منه، وليست صادرة عن ضعف أو عدم اقتدار، وأنّه سبحانه مطلقُ التصرُّف، يرحم من يشاء، ويعذّب من يشاء[2]، كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١﴾ [العنكبوت: 21].

معنى ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾، ودلالة ترتيبه في الذِّكر:

اللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن نقائص الملوك وعن ظلم المملوكين

صفة ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ خبر للضّمير العائد إلى اسم الجلالة، ومعناه: البليغ في النّزاهة عمّا يُستقبَح في الذّات والأسماء والصّفات والأفعال والأحكام[3]، وعُقِّبَ به وصف ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ للاحتراس، والإشارة إلى أنّه تعالى منزَّهٌ عن نقائص الملوك المعروفة من الغرور، والاسترسال في الشّهوات، ونحو ذلك من نقائص النّفوس[4]، فإذا

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 233، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 120.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 120.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 509، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 26/ 512، 513.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 120.

كان شأن ملوك الأرض الغطرسة والغرور، فإنّ شأن ملك الملوك النّزاهة عن ظلم العباد.

معنى ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾، وسبب ذكره بعد ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾:

الاحتراس بين صفات الله تعالى تثبيتٌ لمعاني الجلال والكمال

يحتمل اسم ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ وجهين، الأوّل: أنّه مصدر بمعنى: السّلامة، وُصف به؛ مبالغةً في كونه سليمًا من النّقائص، فإن قيل: فعلى هذا التّفسير لا يبقى بين ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ و﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ فرق، قيل: كونه قدّوسًا إشارة إلى براءته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر، وكونه سلامًا إشارة إلى أنّه لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزّمان المستقبل، فإنّ الّذي يطرأ عليه شيء من العيوب تزول سلامته، ولا يبقى سليمًا. الثّاني: أنّه سَلامٌ بمعنى: كونه موجبًا للسّلامة(1). وبهذا ظهر تعقيب وصف ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ بوصف ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾، فإنّه بعد أن عقَّب بـ ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾؛ للدَّلالة على نزاهة ذاته؛ عقَّب بـ ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾؛ للدَّلالة على العدل في معاملته الخلق، وهذا احتراس أيضًا(2).

معنى ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾، ولطيفة ذكره بعد ما سبق:

الله تعالى وعد عبادَه بأمن الدّنيا والآخرة إن اعتقدوا الحقّ، وعملوا به

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ اسم فاعل من (آمن) الّذي همزته للتّعدية، ومعناه: جعل غيره آمنًا، فالله تعالى هو الّذي جعل الأمان في غالب أحوال الموجودات؛ إذ خلق نظام المخلوقات بعيدًا عن الأخطار والمصائب، وإنّما تتعرَّض المخلوقات للمصائب بعوارض تتركَّب من تقارن أو تضادّ أو تعارض مصالحها، فيرجع أقواها ويدحض أدناها، وقد تأتي من جرّاء أفعال النّاس، وذكْرُ ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ عقب الأوصاف الّتي قبله إتمام للاحتراس من توهُّم وصفه تعالى بـ ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ أنّه كالملوك المعروفين بالنّقائص، فأفيد أوّلًا نزاهة ذاته بوصف ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾، ونزاهة تصرُّفاته الظّاهرة عن الجور

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 513.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 121.

والظّلم بوصف ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾، ونزاهة تصرُّفاته المغيّبة عن الغدر والكيد بوصف ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾[1].

معنى ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾، وسرُّ ذكرِه بعد ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾:

هيمنة الله على عباده بالقيام على أرزاقهم وآجالهم وأعمالهم

معنى ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ هو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم، وإنّما قيامُه عليهم باطّلاعه واستيلائه وحفظه، والإشراف، أي: الاطِّلاع يرجع إلى العلم، والاستيلاء يرجع إلى كمال القدرة، والحفظ يرجع إلى الفعل، والجامع بين هذه المعاني اسمه: ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾، ولن يجتمع ذلك الكمال إلّا للّه تعالى، ولذلك كان القرآن الّذي هو صفته مهيمنًا على جميع الكتب الّتي قبله، مصدِّقًا لما يستحقّ التّصديق منها، مكذِّبًا لما يستحقُّ التّكذيب، فمن كان به أمهر؛ كان بذلك أعلم[2]، وتعقيب ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾ بـ ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾؛ لدفع توهُّم أنَّ تأمينه عن ضعف أو عن مخافة غيره، والمعنى: اعلموا أنَّ تأمينه راجعٌ لحكمته، مع أنَّه رقيب مطّلع على أحوال خلقه، فتأمينُه إيّاهم رحمةٌ بهم[3].

معنى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، ووجه مجيئه بعد ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾:

هيمنةُ اللهِ تعالى عن عزّةٍ وعدمِ افتقار

معنى ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب الّذي لا يُقهر[4]، وقد جيء به بعد ﴿ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾؛ للدّلالة على أنّ هيمنة اللّه على كل ما يتّصل بخلقه حاصلةٌ عن عزّة وعدم افتقار، فالعزّة هي: الغلبة الّتي لا يجد معها المغلوب وجهَ مدافعةٍ ولا انفلاتٍ ولا إعجازٍ، ومن ثمّ فـ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ هو: الّذي صعب على طالبه إدراكُه مع افتقار كلِّ شيءٍ إليه في كلّ لحظة، الشّديدُ في انتقامه الّذي لا معجز له في إنفاذ حكمه[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 121.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 472.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 122.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 122.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 472.

معنى ﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾ وعلّة ذكره بعد ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾:

جبرُ الخلق على إرادةِ الله تعالى لإصلاح نظام الكون للجميع

صفة ﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾ خبرٌ من الأخبار المتعدّدة للضّمير العائد إلى اسم الجلالة، ومعناه: الّذي جَبَرَ خلقَه على ما أراد، أو جَبَرَ أحوالهم، أي: أصلحها[1]، وجيء به بعد اسم الله ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ للدَّلالة على أن الله تعالى يسخر المخلوقات لإرادته[2]، فلا يشذُّ منها أحدٌ عمّا أراده، والكلُّ يؤدّي وظيفته الّتي تسهم في بقاء كونه صالحًا لهم جميعًا، ويُفهم منه أنّه تعالى يسلّط على المفسدين مَنْ يردعهم، وعلى الظّالمين مَنْ يقهرهم، وعلى الكفّار مَنْ يذيقهم الذلّ في الدّنيا قبل أن يذيقهم العذاب الأليم في الآخرة، أمّا مَنْ ساروا وفق ما يريد، فأصلحوا، ولم يفسدوا، وقدّموا ليوم القيامة؛ فهُم أصحاب الجنّة الفائزون.

معنى ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾، ووجه مجيئه بعد ﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾:

كبرياءُ الله تعالى يصغُر دونه كلُّ شيء

معنى ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُ﴾ بليغُ الكبرياء والعظمة والتنزُّه عمّا لا يليق بذاته، وأصل صيغة التَّفَعُّل أن تدلّ على التَّكلُّف، لكنّها استُعملت هنا في لازم التكلُّف وهو القوّة؛ إذ الفعل الصّادر عن تأنّق وتكلُّف يكون أقوى وأبلغ[3]، وجيء به بعد وصف ﴿ٱلۡجَبَّارُ﴾؛ للدّلالة على أنّ الله تعالى ذو الجبروت وذو الكبرياء الّذي يصغر كلُّ شيء دون كبريائه وبهما وبما سبقهما يجتمع في أسماء الله تعالى وصفاته ما يُطمع وما يُخيف.

نكتة ذكر ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بعد صفة ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾:

كبرياء الخالق مباينةٌ لكبرياء المخلوقين

من جميل ما قيل: لمّا ذُكر اسم الله ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾؛ قال تعالى بعده: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، كأنّه قيل: إنّ المخلوقين قد يتكبّرون ويدَّعون مشاركة الله في هذا الوصف لكنّه سبحانه منزّه عن التكبّر الحاصل للخلق؛ لأنَّهم ناقصون بحسب ذواتهم، فادّعاؤهم الكبر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 123.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 123.

يكون ضمّ نقصان الكذب إلى النّقصان الذاتيّ، أمّا الحقُّ سبحانه؛ فله العلوُّ والعزَّةُ، فإذا أظهره؛ كان ذلك ضمَّ كمال إلى كمال، فـ ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ في إثبات صفة المتكبريّة للخلق[1].

التَّذييل بالتّنزيه رعايةٌ للعقل في معرفة الكمال المطلق لخالق السّماوات

موقع جملة: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ودلالتها:

جملة: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ تذييل يؤكّد اتّصاف اللّه بما سبق من صفات، ويقوّي استحقاقه التّعظيم والتّنزيه عن الشّركاء الّذين لا يمكن لهم، ولا لأحد منهم أن يشاركه تعالى في هذه الصّفات ولا في شيء منها أصلًا[2]، ووجه تنزيهه سبحانه بعد ذكر طائفة من أسمائه وصفاته: أنّه لمّا تقرَّر بما ذكر من مظاهر عظمته استيلاؤه على الظّواهر والبواطن باللُّطف والعنف؛ أنتج ذلك تعاليه عن شوب نقص لا سيّما بالشّرك، فقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾، أي: تنزّه الملك الأعلى الّذي اختصّ بجميع صفات الكمال تنزُّهًا لا تدرك العقول منه أكثر من أنَّه علا عن أوصاف الخلق، فلا يدانيه شيء من نقص[3].

دلالة التّعبير بحرف الجرّ (عَنْ):

صفات الكمالِ المطلق تتنزّه عن سلوك المشركين في انتقاص الألوهيّة

(عَنْ) في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد المجاوزة، وهو أصل معانيه[4]، وفي التّعبير به دلالة على البعد الشّديد والبون الّذي لا حدود له بين اللّه المتّصف بالصّفات السّابق ذكرها، الجامع بين الكمال والجلال، وبين الآلهة التي يعبدونها من دونه، ويشركونها معه، وهي لا تتَّصف بشيء ممّا يتّصفُ به ﷻ، وتقدَّستْ أسماؤهُ.

نوع (ما) ودلالتها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ اسم موصول،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 514.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 234.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 474.
(4) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 246.

عُبِّر به؛ ليشمل تنزيه اللّه وتعاليه جميعَ الآلهة الّتي يشركونها معه أيًّا كانت ومهما كانت، والمعنى: تعالى اللّه عمّا يشركون من هذه المخلوقات من الأصنام وغيرها، ممّا في الأرض أو في السّماء، من كبير وصغير، وجليل وحقير[1]، والتّعبير بالموصول باعتبار أنَّ مضمونَ الصّلة، وهو فعل الشّرك المسند إلى الغافلين معلومٌ معهود، فهو إشارةٌ إلى ما يعلمه النّاس من الشّرك باللّه تعالى، واختيار (ما) دون الّذي أعطاها فوق هذا المعنى دلالة عامّة، تشمل كلَّ ما يقع فيه المشركون إلى يوم القيامة.

تنزيهُ الله تعالى وصفاتِه العليّة عن كلِّ شركٍ إلى يوم الدّين

وتحتمل (ما) أن تكون مصدريّة، والمعنى: سبحان اللّه عن إشراكهم، فيتسلَّط التّنزيه على السّلوك.

لطيفة التّعبير بالمضارع:

جاء التّعبير في جملة الصّلة بصيغ الفعل المضارع ﴿يُشۡرِكُونَ﴾؛ لما يُفيده من التّجدُّد الدّال على شمول تنزيه اللّه وتعاليه جميع الآلهة الّتي تُتّخذُ من دونه في الماضي والحاضر والمستقبل؛ إذ لو عبّر بالماضي؛ فقال: (سبحان اللّه عما أشركوا)؛ لاختصَّ بما سبق منهم، ولأوهم أنّهم أقلعوا عن شركهم، وأفاد احتمال أن يقع الشّرك في المستقبل قياسًا على ما كان منهم، لكنَّ المضارع نصٌّ في استمرار الشِّرك، وبقائه إلى يوم الدّين؛ إذ تنزيه اللّه تعالى وصفاته عن الشّرك، أمرٌ جلَلٌ يقتضي الالتفات إلى عظيم شأنه في البشريّة، وأثره في فساد البريّة.

الشِّرك أقبح ما اقترفه البشر وأفسد ما جاء به المجرمون

نكتة حذف متعلّق ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

حُذِفَ متعلِّق فعل الإشراك؛ ليشمل المعنى: تنزيه اللّه سبحانه عن الشّركاء الّذين عبدوهم من دونه، ويشمل كذلك تعاليه عن الشّرك الذي يفعلونه، والمعنى: تعالى اللّه عما يشركونه به، وعن

اللهُ سبحانه مُنَزَّهٌ عن كلِّ شركٍ ومُنَزَّهٌ عن ادِّعاء المشركين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 474.

إشراكهم به سبحانه[1]، على الرّغم من اتّصافه بما سبق وبما هو آتٍ، وعلى الرّغم من عدم اتّصاف الشّركاء بشيء ممّا يتّصف به.

بلاغة إعادة التّعبير بالضّمير: ﴿هُوَ﴾:

مقامُ التّعظيم والتّفخيم يقتضي التّكرير لإثبات المعنى من كلِّ وجهٍ

أعاد النّظم التّعبيرَ بالضّمير العائد إلى اسم الجلالة العلم في صدر الآية الأخيرة من السّورة الكريمة، فقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾؛ لما سبق بيانه من تعيين المتحدّث عنه؛ تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه، وإبرازًا لكمال الاعتناء بأمر ألوهيّته، ولأنَّ المقام مقامُ تعظيم، وهو من مقامات التّكرير، وفيه كذلك ضرب من التّأكيد على أنَّ الإلهَ الّذي يتّصف بما سبق بيانه هو ذاتُه الإلهُ المتّصف بما هو آتٍ.

فائدة تكرار اسم الجلالة:

توريث الطُّمأنينة وإيداع الهيبة في النّفوس والسّكينة في الصّدور

آثر النّظم الكريم ذكر اسم الجلالة ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾؛ دون أن يقول: (هو الخالق) مع تعيُّن معرفة المقصود؛ وذلك لأمر روحيٍّ إيمانيٍّ؛ فإنَّ تكرار الاسم العَلَم يورِّث في النّفس المؤمنة الطُّمأنينة والهيبة العليّة والرّاحة والسّكينة، ولبيان أنَّ مدارَ الصّفات على الاسم الجليل، وأنّه يجب أن يحضر في كلِّ سياق؛ ليُبنى عليه ما بعده، و"لتأكيد ما سبق ذكره من أنّه أخصُّ الأسماء وأشهرُها، وأنّه الجامعُ للأسماء كلّها"[2]، وأنّه الإلهُ الّذي يدعو رسولُ الله النّاسَ إلى عبادته، والإقرارِ بألوهيّته، ولأنّ "الجمع بين الضّمير وما يساوي مُعادَةَ اعتبارٍ بأنَّ اسمَ الجلالة يجمع صفات الكمال؛ لأنَّ أصلَه الإله، ومدلول الإله يقتضي جميعَ صفات الكمال والجلال"[3].

معنى وصف ﴿ٱلۡخَٰلِقُ﴾:

كلُّ ادّعاءٍ للقدرة على الخلق فهو رامٍ إلى الشّرك المطلق

صفة ﴿ٱلۡخَٰلِقُ﴾ هي اسم فاعل من الفعل: خَلَقَ، ومعناه: المُقَدِّرُ للأشياء على مقتضى الحكمة، أو مبدعُ الأشياء من غير أصل ولا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 234.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 464، 475.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 118.

احتذاء[1]، وتعريفه بـ (أل) دالٌّ على أنّه لا خالق في الحقيقة إلّا اللّه سبحانه، ولا اعتداد بأيّ محاولات؛ للاختراع أو الابتكار صادرة من بعض خلقه؛ لأنَّها ناقصة غير مكتملة، كما أنّه لا يستطيع أحدٌ إيجاد شيء من العدم، أو على غير مثال سابق إلّا اللّهُ جلّ في علاه، فالخالق في الحقيقة هو: الّذي كلُّ شيء عنده بمقدار[2]، وهذا لا يكون إلّا للّه جلّ في علاه.

معنى وصف ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ ودلالة ترتيب ذكره:

البـارئ خالـق البـريّـة فـهـو أخـصُّ مـن الخـالـق وأعـم من المصوّر

﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ اسم فاعل من برأ مهموزًا، المميّز لما يوجده بعضه من بعض بالأشكال المختلفة، وهو مغاير لمعنى الخالق بالخصوص، وهو الموجد للأشياء بريئةً من التّفاوت على ما تقتضيه الحكمة والجبلّة، وقيل: المميّز الأشياء بعضها عن بعض بالأشكال المختلفة، وقيل: البارئ: خالق النّاس من البرى (مقصورًا)، وهو التّراب خاصًّا بخلق جنس الإنسان، وعليه يكون اسم البريئة خاصًّا بالبشر[3]، وهو المناسب لترتيب ذكره بعد الخالق، وقبل المصوّر.

معنى صفة ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾:

اسمُ اللّه: ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾ معناه: المُمَيِّز ما يصوِّره بتفاوت الهيئات، وقيل: الموجِدُ لصور الأشياء وكيفيّاتها على ما أراد[4].

دلالة ترتيب الأسماء الثّلاثة:

تتابع الصِّفات الثّلاث يساعد في تصوُّرِ الإبداع الإلهيِّ للإنسان

بدأ النّظمُ الكريمُ بذكر اسمِ اللّه: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ﴾ مُقَدَّمًا على: ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾؛ لأنّ ترجيحَ الإرادة مقدَّمٌ على تأثير القدرة، وقَدَّمَ: ﴿ٱلۡبَارِئُ﴾ على ﴿ٱلۡمُصَوِّرُۖ﴾؛ لأنَّ إيجاد الذَّوات مقدَّمٌ على إيجاد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 234، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 257.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 475.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 509، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 257، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 125.
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 509، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 257.

الصّفات[1]، وقيل: ذُكِرَتْ هذه الصِّفات متتابعة؛ لأنَّ من مجموعها يحصل تصوُّرُ الإبداع الإلهيّ للإنسان، فابتُدِئ بالخالق، الّذي هو الإيجاد الأصليّ، ثم بالبَرْءِ، الّذي هو: تكوين جسم الإنسان، ثم بالتَّصَوُّر الّذي هو إعطاء الصّورة الحسنة، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: 7 - 8][2].

وجه ذكر هذه الأسماء بعد ما سبقها:

تنبيهُ البشرِ على أصل خلقهم وتصويرهم ليقع منهم الشُّكر

ذكَر البيانُ الكريمُ أسماءَ ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ عقبَ الصّفات المتقدّمة؛ لأنَّ المراد منها: الإشارة إلى تصرُّف اللّٰه تعالى في البشر بإيجادِهم على الكيفيّة البديعة، الّتي هم عليها؛ ليثير داعية شكرهم ذلك بتنزيههم لخالقهم وعبادتهم له عبادة دائمة لا تنقطع، ولذلك عقَّب بقوله: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3].

علّة فصل جملة: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾:

التّذييل توكيد للسّابق وإجمال للتّفاصيل

جاءت جملة: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنّها بمنزلة التّذييل المؤكِّد اتّصاف اللّٰه تعالى بمدلولات الأسماء والصّفات السّابق ذكرها، والمعنى: له جميعُ الأسماء الحسنى الّتي منها الصّفاتُ المذكورةُ آنفًا، فيما يُعرف بكمال الاتّصال الّذي تنزلُ فيه الجملةُ الثّانيةُ من الأولى منزلةَ التّابعِ من المتبوعِ.

نوع اللّام ودلالتها:

قولُه: ﴿لَهُ﴾ خبر مقدَّم، والضّمير فيه يعود إلى اسم الجلالة العلم، واللّام حرف جرٍّ يفيد اختصاص اللّٰه سبحانه بمدلولات الأسماء الحسنى ومعانيها، أي: للّٰه تعالى خاصّة، وليست لأحدٍ غيرِه[4].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 514.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 125.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 125.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 475.

غرض تقديم ﴿لَهُ﴾ على المسند إليه:

اعتقاد أنَّ الأسماء الحسنى لله وحده دون سواه توحيدٌ خالص

سبق القولُ بأنَّ ﴿لَهُ﴾ جار ومجرور في محل رفع خبر مقدَّم، وقولُه: ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ مبتدأ مُؤَخَّر، وتقديم المسند على المسند إليه؛ لزيادة الاهتمام المفيد تأكيد استحقاق المولى سبحانه إيّاها، المستفاد من اللّام، والمعنى: أن اتِّسامَه بها أمرٌ ثابتٌ مُؤَكَّد[1]، والتّقديم قد أفاد اختصاصَه بالأسماء الحسنى، وهو ما يدلُّ على أنَّ الأسماء الحسنى ليست لغيرِه، ولا يتَّصف بها أحدٌ سواه، واعتقاد ذلك من توحيد الأسماء والصّفات، الّتي نطقت به جملة الآيات.

نكتة التّعبير بـ ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾:

جمع لفظ الأسماء بين وجوب الاعتقاد وكثرة ذكر الألسن، وهو طريق العالمين

المراد بـ ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾: صفاتُ اللّه ﷻ، عبَّر عنها بـ ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾؛ لأنّه تعالى مُتَّصِفٌ بها على ألسنة خلقه، ولكونها بالغةً منتهى حقائقها بالنّسبة لوصفه تعالى بها، فصارت كالأعلام على ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[2]، والمقصود بنعتها بالأسماء: هو أن تكون جاريةً على ألسنة العباد، ولو نعتها بالصِّفات الحسنى؛ لظُنَّ توجيه الأنظار لاعتقادها في اللّه تعالى، فجمع لفظ الأسماء بين الاعتقاد الحسن، وبين أن تكون جاريةً على الألسن، أي: بين المعتقد والذّكر، وهو طريق العارفين.

دلالة وصف ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ بـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾:

أسماء الله تعالى هي أحسن الأسماء لدلالتها على أفضل المعاني

أوثر الوصف بقوله: ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ صفة لـ ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾؛ للإشارة إلى ما في مدلولات هذه الأسماء من معانٍ حسنة تساعد النّاس على أن يعرفوا ربَّهم، فيقدّروه حقَّ التّقدير، ويعظّموه حقَّ التَّعظيم، كما أنّها تضبط سلوكهم، وترغبهم في عبادته وتسبيحه، وتخيفهم من معصيته والكفر به، والمعنى: له الأسماء الّتي هي أحسن الأسماء؛ لدلالتها على أفضل المعاني، من مُلْك، ورحمة، وقُدسيّة، وسلام،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 186.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 126.

وقدرة، ومغفرة، وسمْعٍ وغير ذلك من الأسماء الكريمة والصّفات الجليلة، الّتي لا يتمُّ التّصوير إلّا بها، ولا تدركونه أنتم حقَّ الإدراك إلّا من خلالها[1].

وقيل: وصفت ﴿ٱلۡأَسۡمَآءُ﴾ بـ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾؛ لأنّها دالّة على ثبوت صفات كمال حقيقيّ، أمّا بعضها؛ فلأنّ معانيها الكاملة لم تثبت إلّا للّه نحو الحيّ، والعزيز، والحكيم، والغنيّ، وأمّا البعض الآخر؛ فلأنَّ معانيها مطلقًا لا يحسن الاتّصاف بها إلّا في جانب اللّه نحو المتكبّر، والجبّار؛ لأنَّ معاني هذه الصّفات وأشباهها كانت نقصًا في المخلوق، من حيث إنَّ المتّسم بها لم يكن مستحقًّا لها لعجزه أو لحاجته، بخلاف الإله؛ لأنَّه الغنيّ المطلق، فكان اتّصاف المخلوق بها منشأ فساد في الأرض، وكان اتّصاف الخالق بها منشأ صلاح؛ لأنَّها مصدر العدالة والجزاء القسط[2].

بلاغة التّفضيل في وصف ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾:

صفاتُ اللهِ تعالى ذات حسنٍ كاملٍ وكمالٍ تامّ

جاءت صفة ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ على صيغة التّفضيل؛ للإشارة إلى أنّها بالغةٌ في حسن المعاني والدّلالات المبلغ الّذي لا مزيد عليه، ولا وصول إليه، فهي تعني: أنَّ اللّه تعالى هو المتّصفُ بالحسن الكامل في ذاته، المقبول لدى العقول السّليمة المجرّدة عن الهوى، وليس المراد بالحسن: الملاءمة لجميع النّاس؛ لأنَّ الملاءمة وصف إضافة نسبيّ، فقد يلائم زيدًا ما لا يلائم عَمْرًا؛ لذلك فالحسنُ صفةٌ ذاتيَّة للشَّيء الحسن[3].

موقع جملة ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ ودلالتها:

اتِّصافُ اللهِ تعالى بالصّفات الحسنى علّة تعظيم جميع المخلوقات له

قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ جملةٌ في موضع الحال من الضّمير المجرور في قوله: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 479.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 187.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 186.

وهي تعني: أنَّ اتّصافَ اللّه تعالى بالصّفات الحُسنى يدفع ما في السّماوات والأرض من العقلاء إلى تعظيمه بالتّسبيح والتّنزيه عن النّقائص، فكلُّ صنفٍ يبعثه علمُه ببعض أسماء اللّه تعالى على أن ينزِّهَه ويسبِّحه، بقصد أو بغير قصد[1].

نكتة التّعبير بالمضارع: ﴿يُسَبِّحُ﴾:

آثر النّظم الكريمُ التّعبير بصيغة المضارع لفعل ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ لما يفيده من الدَّلالة على تجدُّد التَّسبيح واستمراره بصورة دائمة لا تتوقَّف، ولا تنقطع، ولما يمتاز به المضارع من إثارة المتلقّي إلى استحضار صورة الكون، وقد انخرطت كلُّ كائناته في تسبيح اللّه تعالى وتنزيهه، فيبقى مَن لا يفعل ذلك شاذًّا في كون اللّه الفسيح، نافرًا ممّا أقبلت عليه معظمُ المخلوقات طائعةً مختارةً، ما يدفعه إلى أن يكون جزءًا من الصّورة، وأن يربأ بنفسه عن أن يكون نافرًا شاذًّا.

استحضار الصّورة الجميلة يجعل الشاذَّ عنها قبيحًا رذيلًا

موقع ﴿لَهُۥ﴾ الإعرابيّ، ولطيفة تقديمه:

قولُه: ﴿لَهُۥ﴾ جارّ ومجرور متعلِّق بفعل التّسبيح، واللّام فيه حرف جرٍّ يفيد اختصاص اللّهِ بتسبيح ما في السّماوات والأرض، والمعنى: يسبّح للّه ما في السّماوات والأرض على وجه التّخصيص[2]، وجيء بـ ﴿لَهُۥ﴾ مُقَدَّمًا على الاسم الموصول؛ لتقوية اختصاص اللّه تعالى بالتّسبيح والتّنزيه دون غيره؛ فدلَّ على الاختصاص الحرف، وموقع ﴿لَهُۥ﴾.

اختصاص التَّسبيح بالله تعالى خاصيَّة لا تكون لغيره

بلاغة استعمال الاسم الموصول:

أُسنِد فعلُ التَّسبيح إلى الاسم الموصول العامّ ﴿مَا﴾؛ وذلك ليشمل المعنى جميعَ ما في السّماوات من الكواكب والنّجوم كالشّمس والقمر وغيرهما من الكواكب المبثوثة في السّماوات، والملائكة الّتي

الكونُ كلُّه يُسبِّح لله تعالى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 127.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 479.

لا يقتصر وجودُها على سماءٍ بعينها؛ ليعلمَ المخاطَبون أنّ كلَّ ما في السّماوات مِنْ كائناتٍ ومخلوقاتٍ - أيًّا كانت، ومهما كانت - عبيدٌ للّه ﷻ، فدلالة العموم هي الحاضرة في لفظ ﴿مَا﴾، وهي المناسبة لمقتضى تسبيح الكون كلِّه للّه تعالى.

بلاغة التّعبير بحرف الظرفيّة:

السّماء تحيط بالمسبّحين إحاطة الظّرف بالمظروف

جاء التّعبير بحرف الظرفيّة في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للدّلالة على أنَّ كلّ الكائنات والمخلوقات الّتي تقع داخل أقطار السّماوات والأرض، وتحيط بها إحاطة الظّرف بالمظروف تسبِّح للّه تعالى بلا فتور ولا انقطاع، سواءٌ عَلِمَها النّاس أم لم يعلموها، وسواء أكان تسبيحُها اختيارًا أم اضطرارًا.

نكتة جمع السّماوات:

جمع السّماوات فيه إبراز لجلال اللّه، وعظمة قدرته

درج البيانُ القرآنيُّ على جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّ الجمعَ يتناسب مع التّنزيه والتّمجيد؛ لما يدلّ عليه من سعة الكون المُسَبِّح وعظمته، ولأسرار أخرى منها: أنّ السّماوات أشرفُ من الأرض، والجمعَ أبلغُ في التّفخيم من الوحيد، ومنها: أنّ أوامرَ اللّه تعالى إلى الأرض تخترق جميعَ السّماوات السّبع، وهو ما يزيد شرفَها وأفضليتَها، ومنها أنّ السّماواتِ طباقٌ، بعضُها فوق بعض[1]، وفي كلّ طبقة منها ملائكة ومخلوقات وكواكب تسبّح اللّه وتمجِّده، والملحوظ بصفة عامّة أنّ البيان الكريم يجمع السّماوات في كلّ مقام يُراد فيه إبراز جلال اللّه، وعظمة قدرته، وسعة ملكه؛ ليكون في ذلك الإبراز ما يدعو إلى التأمُّل وتوجيه البصائر والأبصار إلى ما وراء هذا الأفق المحدود الّذي يعيش فيه مَن لا يمدّون أبصارهم إلى أكثر من مواقع أقدامهم[2]، كما سبق بيانه.

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/ 92، والنسفيّ، مدارك التنّزيل وحقائق التّأويل: 1/ 489، والخفاجيّ، حاشية الشّهاب على تفسير البيضاوي: 4/ 3.

(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 4/ 119.

نكتة إفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

كما درج البيانُ القرآنيّ على جمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ درج أيضًا على إفراد ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ وذلك لأنَّ الأرض وإن كانت سبعًا، فليس بعضها فوق بعض، بل بعضُها موالٍ لبعض[1]، وقيل: إنَّ الأرض طبقاتٌ، بين كلٍّ منها والأخرى مسافةٌ عظيمةٌ، وفيها مخلوقات على ما وردت به الأحاديث، والنّكتةُ في إفراد القرآن لها: أنّ جمعها ثقيل، وهو مخالف للقياس كأرضون، ولذا لّما أراد اللّه تعالى ذلك؛ قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطلاق: 12]، ولم يجمعها، وربَّ مفردٍ لم يقع في القرآن جمعُه لثقله وخفَّة المفرد، وجمعٍ لم يقعْ في الذِّكْر مفردُه كالألباب[2].

عـادةُ التَّعبير القـرآنيّ استعمالُ الكلمةِ السّهلةِ الخفيفةِ

لطيفة تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

قَدَّمت الآيةُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنَّ أهل السّماوات أسبقُ وجودًا من أهل الأرض، وأيضًا فإنَّهم أسبقُ تسبيحًا قبل خلق آدم عليه السلام، ولأنَّهم كذلك أكثرُ تسبيحًا، وأكثرُ مداومة على التّنزيه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء: 19 - 20][3].

مَنْ في السّماء أسبق تسبيحًا وأكثر ممَّن في الأرض

دلالة العطف بالواو:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ معطوفًا على ما قبله بالواو الّتي تُفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّ الكون كلَّه بسمائه وأرضه، بما فيه ومَنْ فيه يسبّح للّه تعالى، وينزّهه، ويعترف بفضله وألوهيّته.

نوع الطّباق وبلاغته:

في الجملة الكريمة نوعٌ من الطِّباق يُسمّى الطِّباق الخفيّ؛ لأنَّ التّضاد فيه ليس بين اللّفظين مباشرةً، لكنّه حاصلٌ بين لازم كلِّ

الطِّباق بين العلوِّ المتمثِّل بالسّماء والسّفل المتمثِّل بالأرض

(1) النسفيّ، مدارك التّنزيل وحقائق التّأويل: 1/ 489.
(2) الخفاجيّ، حاشية الشّهاب على تفسير البيضاوي: 2/ 261.
(3) السّامرائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 123.

طرف منهما، فالسّماوات تطابق الأرض باعتبار أنّ الأولى تدلّ على جهة الأعلى والثّانية على جهة الأسفل، وأيًّا كان نوع الطّباق، فالجمع بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ في قرن واحد يدلّ على أنَّ الكون كلَّه لا يفتر عن تسبيح اللّه وعبادته وتمجيده، ما يعني: أنّ التّسبيح هو نشيد الكون الّذي لا يتوقّف، ولا ينقطع، وأنَّ الّذي لا يسبح اللّه، ولا ينزّهه شاذٌّ عن الكون وما فيه.

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تحتمل أن تكون لعطف ما بعدها على جملة الحال، ويمكن أن تكون للحال، والجملة بعدها حاليّة دالَّة على أنّ العزّة والحكمة هي حال اللّه الّتي لا تتبدّل، ولا تتغيّر، وأنَّ تسبيح الكون بما فيه ومن فيه وتنزيهه له ما حصل إلّا لاتّصافه بما سبق ذكره من أسماء وصفات، وأيضًا لكونه عزيزًا لا يُغلب، حكيمًا لا يَزِلُّ، وأنَّ تسبيح الكون أو عدم تسبيحه، أو امتناع أحدٍ فيه عن التّسبيح لن يُنقِص من عزّته، ولن يُؤَثِّر في حكمتِه أو ربوبيتِه، فالخلق هم الفقراء إليه، بينما هو الغنيّ عنهم أجمعين.

الخلق هم المحتاجون إلى اللّه، واللّه سبحانه هو الغنيّ عنهم

نوع القصر ودلالته في جملة الختام:

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قَصَر النَّظمُ صفتي العزّة والحكمة على كونهما ثابتتين للّه تعالى، بعد نفيهما عن أيِّ أحدٍ آخر، قصر صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا، طريقه تعريف الطّرفين، بقصد زيادة التّأكيد؛ لكون اللّه تعالى مستحقًّا للتّسبيح، وفي الوقت نفسه مستغنيًا عنه، لا يضيره تفريطُ أحد فيه أو جحودُ أحد له؛ لأنَّ الخلقَ هم المحتاجون إليه، الملتجِئون إليه.

اللّه غنيٌّ عن تسبيح المسبّحين، ولا يضرّه جحود الجاحدين

وجه تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾:

قدَّمت الآيةُ صفة ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ العزيز هو

الغالب، ولأنَّه تعالى لمّا عَزَّ في ذاته بالغلبة؛ حَكَمَ على كلِّ شيء، فلم يخرج عن حكمة ملكه خارج[1].

بلاغة ردّ عجز السّورة على صدرها:

نِعَمُ الله الخاصّة والعامّة توجب على الخلق تنزيهه وشكره

افتُتِحتِ السّورة الكريمة بالإخبار بتسبيح الكون لله تعالى في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، واختُتِمت بالإخبار بأنَّ الكون كلَّه منخرط في تسبيحه وتنزيهه بصورة متجدِّدة لا تتوقَّف، ولا تنقطع في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فيما يُسمّى بلاغيًّا بردِّ الأعجاز على الصّدور، والغرض منه: التَّنبيه إلى أن ما ذكرته السّورة الكريمة بين صدرها وعجزها من نِعم الله العامّة، وأفضاله ومنَنِه الخاصّة يفرض على النّاس ضرورة الانشغال بتسبيح الله تعالى وتنزيهه بصورة لا تتوقَّف، ولا تنقطع؛ شكرًا له سبحانه على ما أنعم، وتناغمًا مع الكون الَّذي لا يفتر كلٌّ من فيه عن التَّسبيح والتَّنزيه بلسان الحال أو بلسان المقال.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخالِقُ والبارِئ:

الخالق الموجد للخلق كلِّه والبارئ لموجِدِ البريّات على وجه الخصوص

(الخالِقُ) اسم فاعل من خَلَقَ، ومعناه: المُقَدِّرُ للأشياء على مقتضى الحكمة، أومبدعُ الأشياء من غير أصل ولا احتذاء[2]، و(البارِئُ) معناه: الموجِدُ للأشياء بريئةً من التّفاوت على ما تقتضيه الحكمة والجبلَّة، وقيل: المميِّز الأشياء بعضها عن بعض بالأشكال المختلفة[3]، أو خالق البشر من البرى، وهو التُّراب، ولمّا كان قصد الآية بيان استحقاق الله تعالى للتّسبيح والتّنزيه؛ ذَكَر من أسمائه

(1) العلويّ، الطّراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: 2/ 34.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 234، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 257.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 509، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 257.

وصفاته ما يدلّ على إنعامه على الإنسان بنعمةِ الإيجاد ونعمة البراءة من العيوب؛ لبيان أنّ خلْقَه له لم يكن مجرّد إيجاد، بل كان إيجادًا على أحسن صورة وأجمل شكل، أو أنّ الخالق صفة عامّة للخلقِ كلّه، والبارئ لخصوص البريّة، وهم البشر.

سُورَةُ المُمتَحنَةِ

سُورَةُ المُمْتَحَنَةِ

التَّعريفُ العامُّ بالسّورة

المكّيُّ والمدنيُّ وعدُّ الآي:

سورةُ الممتحنة مدنيَّةٌ بالإجماع، كما نقَلَ ذلك ابن عطيَّةَ[1] والسّيوطيّ[2]، وعددُ آياتها ثلاثَ عشرةَ آيةً ليس فيها اختلافٌ باتِّفاق أهل العدد[3].

ترتيبُ النُّزولِ وترتيبُ المصحف:

التّرتيبُ المصحفيُّ يُبايِنُ التَّرتيبَ النُّزوليّ

اختُلِفَ في تعيينِ نزولِ سورة الممتحنة، فقيل: هي السّورةُ الحاديةَ عشرةَ بعدَ المئةِ في تَرْتيبِ نُزولِ السّوَر، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ آل عمران وقَبْلَ سورَةِ الجمعة[4]، وقيل: هي الثّانيةُ والتّسعون، نزلت بعد سورة المائدة وقبل سورة النّساء[5]، وأمّا ترتيبُها المصحفيّ فهي السّورة السّتّون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيبُ الثّابتُ والمُعوَّلُ عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبُها بين سورتيِ الحشرِ والصَّفّ.

فضائلُ السّورة:

هذه السّورةُ من سورِ المُفَصَّل

سورةُ الممتحنة من المُفصَّل الَّذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[6].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 293.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.
(3) الدّاني، البيان في عد آيِ القرآن، ص: 244.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 9/ 266.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 131.
(6) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطبراني في المعجم: 22/ 76، (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415) 352.

سورةُ الممتحنة اشتُهِرَتْ بهذا الاسم، ولم يَثبُتْ لها اسمٌ غيرُه

اسم السّورة ومناسبةُ تسميتِها:

وَرَدتْ تسميةُ السّورة بسورةِ (الممتحنة) عند البخاريِّ[1] والتِّرمذيّ[2]، وبه جاءت تسميتُها في جميع المصاحف وكتب التّفسير، وقد ذكروا أنَّ تسميتَها بهذا الاسم لورود آيةِ امتحانِ النّساء فيها، واختلفوا في ضبط (الممتحنة) فقال القرطبيُّ: "المُمتحِنَةُ (بِكَسْرِ الحاءِ)؛ أي: المُختَبِرَةُ، أُضيفَ الفعل إليها مجازًا... ، ومَنْ قالَ في هَذِهِ السّورَةِ: المُمْتَحَنَةُ (بِفَتْحِ الحاءِ) فإنَّهُ أضافَها إلَى المَرْأةِ الَّتي نَزَلَتْ فيها، وهيَ أُمُّ كُلْثوم بِنْتُ عُقْبَةَ بْنِ أبي مُعَيْطٍ"[3]، وقال ابن حجر: "والمشهورُ في هذه التَّسمية فتح الحاءِ"[4].

وذكر السّخاويُّ لها اسمين آخرين دون أن يذكر لذلك سندًا، وهما: سورة (المودّة)، وسورة (الامتحان)[5]، ولعلّ ذلك لورود ذكر المودّة فيها.

وقد ربط البقاعيُّ بين اسمها ومقصودها خيرَ ربطٍ فقال: "ومقصودُها براءة من أقرَّ بالإيمان من الكفّار، دلالةً على صحَّة مُدَّعاه، كما أنّ الكفّار تبرّؤوا من المؤمنين وكذّبوا بما جاءهم من الحقّ؛ لئلا يكونوا على باطلهم أحرصَ من المؤمنين على حقّهم، وتسميتُها بالممتحنة أوضحُ شيءٍ فيها، وأدلُّه على ذلك؛ لأنَّ الصّهر أعظمُ الوُصَلِ وأشرفُها بعد الدّين، فإذا بقي ومُنع دلَّ على أعظم المقاطعة؛ لدلالتِه على الامتهان"[6].

فمحورُ هذه السّورة مرتبطٌ باسمِها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنَّ محورَها

(1) البخاريّ، صحيح البخاريّ، باب تفسير سورة الممتحنة: 4/ 1854.
(2) التّرمذي، سنن التّرمذيّ، بابٌ وَمِنْ سُورَةِ الممتحنة: 5/ 409.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 49.
(4) ابن حجر، فتح الباري: 8/ 633.
(5) السّخاوي، جمال القرّاء وكمال الإقراء، ص: 92، وينظر: ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 129، حيث قال: "ولم يَذكُر سَنَدَهُ".
(6) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 75 - 76.

يقومُ على ضرورةِ تحقيق المفا ضلة في الوَلاء والبَراء وفْقَ منهج اللّه ﷻ، لا وفْقَ روابطِ الدَّم والرَّحِم والمصالحِ الدّنيويّة؛ لذلك فتسميتُها بسورة الممتحنة ناشئٌ من ضرورةِ امتحان المؤمنات المهاجرات؛ للتَّحقُّقِ من قضيَّةِ الوَلاء والبَراء في إيمانِهنَّ باللّه وتبرُّئِهنَّ من الشِّرك، فكان اسمُها علامةً دالَّةً بكلِّ وضوح على محورِها الَّذي قامَتْ عليه.

المحورُ العامُّ للسّورة:

الــوَلاءُ والــبَراءُ في دينِ الإسلامِ هــمــا مــحــورُ الــسّــورةِ ببيانِ مُقتضَياتِهما

إنَّ محورَ هذه السّورة يقومُ على تحقيق الوَلاء والبَراء وفْقَ منهج اللّه ومَوازينِه، لا وفْقَ موازين البشر، أو بعبارةٍ أخرى: قامَ محورُها على تنظيم علاقات المجتمع المسلم مع غيرِهِ وفْقَ قانون الوَلاء والبَراء، فهي بذلك مؤكِّدةٌ ومُقرَّةٌ لِما تقدَّمَها من سورتي المجادلة والحشر؛ لذا فقد اقتضى لها هذا المحورُ أن تُستهلَّ وتُختَمَ بالنّهي عن موالاة الكافرين، وتكرَّرَ فيها غيرَ مرَّةٍ علَّةُ هذا النّهي.

موضوعاتُ السّورةِ وخصائصُها:

مَــدارُ الــسّــورةِ عــلـى تـنـظـيـمِ علاقاتِ المجتمعِ المسلمِ معَ غيرِ المسلمين

جاءتْ موضوعاتُ السّورة لتوضيح النِّقاط الآتية:

أوَّلًا: اقتضى ذلك أن يكونَ ميزانُ الوَلاء والبَراء قائمًا على رابطةِ الدّين فقط، لا على روابطِ الدّم أو الرَّحِم أو المصالحِ الأخرى؛ لتحقيقِ إخلاص العقيدة وإعلاءِ مكانة الوَلاء للّهِ ورسولِه.

ثانيًا: وضَّح لهم محورُ السّورة بعضَ أحكام هذه الموالاة الَّتي تتطلَّبُ تفصيلاتٍ خاصَّةً، مثلَ أنَّ اللّهَ لم ينهَ عن البرِّ والمعاملةِ الحسنة لغير المسلمين الّذين لم يقاتلوهم في الدّين ولم يخرجوا من ديارهم، وإنَّما يطلُبُ منهم أن يتعاملوا ببرٍّ، ويقسطوا إليهم؛ لأنَّ اللّه يحبُّ المُقسِطين.

ثالثًا: من مقتضَيات هذا المحور أن يُنَبَّهَ على ضرورةِ امتحان

المؤمناتِ المهاجرات؛ للتَّحقُّق من صحَّةِ موضوع الوَلاء والبَراء عندهنَّ، بحيث يُتأكَّدُ من إيمانِهنَّ الحقيقيِّ عبر امتحانهنَّ بما يعكس صدقَ ولائِهنَّ للّٰه ولرسوله؛ للتَّحقُّق من استحقاقِهنَّ لواقع الانتماء الإيمانيِّ.

رابعًا: يتطلَّبُ هذا الأمرُ أن تُبيِّنَ حقيقةُ الوَلاء الحقيقيِّ للّٰه ولرسوله، وأنَّه لا يتحقَّقُ إلّا من خلال البَيْعةِ الشّاملةِ الَّتي تشملُ كلَّ جوانبِ حياة المسلم، وتَوافُقِ أفعالِهم مع ما أرادَهُ اللّٰه من الامتثال والطّاعة، بحيث يكون الوَلاءُ تامًّا وشاملًا لدين اللّٰه، ويتطابق مع رسالتِه وأوامره[1].

الخصائصُ الموضوعيَّةُ للسّورة:

أوَّلًا: امتازَتِ السّورةُ الكريمة بأنَّها تناوَلَتْ موضوعَ النَّهي عن موالاة الكافرين بشكل خاصٍّ، حيث أظهَرَتْ ذلك من خلال سَرْدِ قصَّةِ إبراهيمَ ﵇ وبراءتِه من قومه؛ لتكونَ نموذجًا حيًّا على عدمِ موالاة أعداء اللّٰه، وهو ما يعكسُ عُمْقَ التَّوجيهات الإيمانيَّة في مواجهةِ التّصرُّفاتِ غيرِ الإسلاميَّة.

ثانيًا: بَيَّنَتِ السّورةُ الأصنافَ الَّذين نُهوا عن موالاتِهم، كالَّذين قاتلوا المؤمنين في الدّين وأخرجوهم من ديارِهم، وأمَرتْ بمواصلةِ العلاقة مع مَن لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم؛ لتأكيدِ مفهوم العدالةِ والبرِّ في العلاقات مع غير المسلمين الَّذين لم يُظهِروا عداوةً صريحة.

ثالثًا: بَيَّنَتِ السّورةُ موقفَها من امتحان المؤمنات المهاجرات، وأوضَحَتِ الأحكامَ المتعلِّقة بالزَّواج بين المؤمنين والمشركات، حيث أشارَتْ إلى ضرورة التَّحقُّق من إيمانِهنَّ وتثبيتِ حقيقة الولاء؛ لضمانِ سلامةِ العلاقةِ وتثبيتِ أواصرِ الإيمان.

رابعًا: امتازَتِ السّورةُ أيضًا بذكر بنودِ بَيْعة النّساء، وبيَّنتِ المبادئَ الَّتي قامت عليها، من التّزامُنِ على تحقيقِ توحيد اللّٰه وقيَمِ الطّاعة والبرِّ؛ ليكون ذلك أساسًا للعلاقة الشّرعيَّة بين النّساء والمسلمين، مع مراعاةِ روحِ الإخلاص والوَلاءِ الحقيقيِّ للّٰه.

خامسًا: اتَّسَمَتِ السّورةُ بكونِ مطلعِها وخاتمتِها مُنسجِمين تمامَ الانسِجام، حيث

---

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 116 - 117.

امتازَتْ سورةُ المُمتحنةِ بخصائصَ أفرَدَتْها عن غيرِها من السّوَر

ابتُدِئَتْ بالنَّهي عن موالاةِ أعداءِ اللّه وأعداءِ رسوله، واختُتِمَتْ بالتَّحذيرِ من موالاة مَن غَضِبَ اللّه عليهم، وهو ما يُبرزُ وحْدَةَ الرِّسالة وتناسُقَها في الحفاظِ على عقيدةِ الوَلاء والانتماءِ الحقيقيِّ لدين اللّه، من البداية إلى النّهاية.

الخصائصُ الأسلوبيّةُ للسّورة:

أوَّلًا: امتازَتِ السّورةُ الكريمة بأنَّها حَوَتْ أبنيةً صرفيَّةً تكادُ تختصُّ بها دونَ غيرِها من السّوَر، مثل: ﴿يُخۡرِجُونَ﴾، ﴿تُلۡقُونَ﴾، ﴿أَعۡلَنتُمۡۚ﴾، ﴿أَخۡفَيۡتُمۡ﴾، ﴿يَعۡصِينَكَ﴾ [المتحنة:12]، ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾، ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾، ﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾ [المتحنة: 12]، ﴿عَادَيۡتُم﴾ [المتحنة: 7]، ﴿تَبَرُّوهُمۡ﴾ [المتحنة: 8]، ﴿يَسۡرِقۡنَ﴾ [المتحنة: 8]، ﴿يَزۡنِينَ﴾ [المتحنة: 8]، ﴿وَظَٰهَرُواْ﴾ [المتحنة: 9]، ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ [المتحنة: 10]، ﴿مُهَٰجِرَٰتٖ﴾ [المتحنة: 10]، وغيرها.

ثانيًا: امتازَتِ السّورةُ الكريمة بوَفْرةِ الأنْساقِ التّعبيريَّةِ الَّتي لم تتكرَّر في غيرها، مثل قوله: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾، ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾، وكقوله: ﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾، وقوله: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ [المتحنة: 1]، وقوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾، وقوله: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ﴾ [المتحنة: 4]، وقوله: ﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾ [المتحنة: 7]، وقوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [المتحنة: 8]، وقوله: ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾ [المتحنة: 9]، وقوله: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ [المتحنة: 10]، وقوله: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾ [المتحنة: 10]، وقوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ [المتحنة: 10].

مُناسَبةُ السّورةِ لِما قبلَها:

سورةُ المتحنةِ متَّصلةٌ تمامًا بسورةِ الحشرِ مضمونًا وأسلوبًا

أوّلًا: يَدورُ محورُ العلاقةِ بينَ سورةِ المتحنةِ وسورةِ الحشرِ حولَ موضوعِ موالاةِ المؤمنين بعضِهم لبعضٍ، وموالاتِهم لغيرِهم، حيث بدأت سورةُ الحشر بذكر موالاة المؤمنين بعضِهم لبعضٍ، ثمَّ توسَّعَتْ لتشملَ موالاةَ المنافقين للكفّارِ من أهل الكتاب، وهو ما استُهدِفَ في سورة المتحنة من خلالِ النَّهيِ الصَّريح للمؤمنين عن اتِّخاذ الكافرين أولياءَ؛ لئلّا يُشابِهوا المنافقين في ذلك، وقد كرَّرَت السّورةُ النّهيَ وأكَّدتْ على ذلك، وانتَهَتْ به، وهو ما يدلُّ على أهمّيَّةِ الحذرِ مِن موالاةِ أعداءِ اللّه[1].

ثانيًا: من جهةٍ أخرى، فإنَّ سياقَ السّورتين يعكِسُ اختلافَ نوعِ العلاقةِ مع غير المسلمين؛ ففي سورةِ الحشر كان الحديثُ عن علاقةِ المسلمين بأهلِ الكتاب المعاهِدين، بينَما جاءت سورة المتحنة لترتبطَ بمعاهِدين من المشركين، خاصَّةً في سياق صلحِ الحديبية، وهذا يشيرُ إلى أنَّ كلتا السّورتين تتناولان علاقاتِ المسلمين مع غيرهم، ولكن من خلالِ سياقاتٍ مختلفة، وفْقًا لنوعِ العلاقة والمرحلة التّاريخيَّة.

ثالثًا: إنَّ الأمرَ بتقوى اللّه الَّذي جاء في أوائل سورة المتحنةِ يَتَناغَمُ مع الأوامر والنَّواهي في السّورتين، خاصَّةً فيما يتعلَّقُ بتَنْقية المجتمع من مَظاهرِ الوَلاء للأعداء. كما أنَّ الحديثَ عن أسماء اللّه الحسنى في سورة الحشر يَهدِفُ إلى تعميق المعرفة باللّه وتوحيده، وهو ما يساهمُ في تبيينِ ضرورةِ تجريد الوَلاء للّه ورسوله، وإبعادِ المجتمع عن مَظاهرِ الوَلاء للأعداء[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 515.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 115.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ [الممتحنة: 1]

مناسبة مفتتح السورة لخاتمة ما قبلها:

حرمة الموالاة والتودّد إلى من لم يعترف بصفات الله المجيد

اختُتِمت سورة الحشر بالتمجيد، وعدّدت من صفات الله الولي الحميد، فقال تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر: 24]، فأظهر مَطلعُ سورة الممتحنة تحذيرًا للمؤمنين من اتّخاذ أولئك الّذين كفروا بأسماء الله تعالى وصفاته أولياء[1]، وحرّمَ التودّد إليهم، حتى لو أظهروا الولاء الكاذب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُلۡقُونَ﴾: أصلُ الكلمة يدورُ على تحصيلٍ بالمقابلة بالحسِّ أو بالبصيرة[2]، ويفيدُ اللَّفظُ معنى القوّةِ في التَّحصيل. ومنه اللِّقاءُ والمُلاقاةُ الّتي هي: تَوافي الاثنَينِ مُتقابِلين[3]. وأصلُ الإلْقاء: طرحُ الشّيء حيث تلقاه؛ أي: تراه، ثمَّ صار في التّعارفِ اسمًا لكلِّ طرحٍ[4]. ومنه الاستلقاءُ؛ لأنَّ فيه انبطاحًا[5]. والإلقاءُ: إيصالُ الشّيء بقوَّة إلى من يستقبله؛ أي: يلقاهُ ويجده[6]. فالإلقاءُ عبارةٌ عن إيصالٍ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 515.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (لقي).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لقي).
(4) الرّاغب، المفردات: (لقي).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (لقي).
(6) الرّاغب، المفردات: (لقي).

تامٍّ. والتَّلَقّي: استقبالُ ما يُلْقَى. ومعنى ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾: توصِلون مودَّتكم إليهم[1]، وتُرسِلونها إليهم[2].

2) ﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾: الوُدُّ: محبّة الشّيء، وتمنّي حصولِهِ في المستقبل[3]، وأُطلق الودُّ على الأُلْفةِ بين القلوب. والوُدُّ: الحُبُّ المجرَّدُ من غيرِ تمنّي حصول شيءٍ؛ ووَدَّ الشّيءَ يَوَدُّ وُدًّا بتثليث الواو، و ودادةً: أحبَّه. والوَدودُ: المُحِبُّ. والوَدودُ في أسماءِ اللّهِ ﷻ: المُحِبُّ لِعِبادِهِ. وتوَدَّدَ إليه: تَحَبَّبَ[4]. وتوَدَّدَهُ: اجْتَلَبَ وُدَّه[5]؛ كما يُطلَقُ الوُدُّ على أسبابِ المحبَّة من النَّصيحة ونحوِها من جميع مداخلِ الخير[6]، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾؛ أي: تُلقون إليهم بالكتاب والنَّصيحةِ؛ لاجتلابِ محبَّتِهم.

3) ﴿تُسِرُّونَ﴾: يَدورُ أصل كلمةِ (سرّ) على إخفاءِ الشّيء[7]. وأصلُهُ من: سَرَّ الزَّنْدَ يَسُرُّهُ سَرًّا، وذلك إذا كانَ أجْوَفَ فَجعل في جَوْفه عودًا ليَقْدَحَ بِهِ[8]، سُرَّ زَنْدَكَ؛ أي: احشُهُ ليَرِيَ. ومنه سُرَّةُ البطن، وهي ما يبقى بعد القَطع، وذلك لاستتارِها بعُكَنِ البطن[9]. والإسرارُ خلافُ الإعلان. والسِّرُّ: هو الحديثُ المُكتَتَمُ في النّفس، كأنَّه أُخْفيَ في الجوف بعُمق. وسارَّهُ: إذا أوصاه بأنْ يسرّه. وأسْرَرْتُ إلى فلان حديثًا: أفضيتُ إليه في خِفْية[10]. والسُّرورُ: ما يَنْكَتِمُ من الفرح. و﴿تُسِرُّونَ﴾ في الآية بمعنى: تُخفون أقوالَكم الدّالَّة على مودَّتِهم.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

افتَتَحَتِ السّورةُ الكريمةُ نداءَ المؤمنينَ بنَهْيِهم عن موالاةِ أعداءِ اللّه، قائلةً: يا أيُّها الَّذين آمنوا، لا تتَّخِذوا عدوّي وعدوَّكم أنصارًا، تَتَودَّدونَ إليهم، وقد كفر هؤلاء المشركون

(1) الشّربيني، السّراج المنير: 8/ 235.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 20/ 60.
(3) الرّاغب، المفردات: (ودد).
(4) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (ودد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ودد).
(6) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والرّاغب، المفردات: (ودد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (سرَّ).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (سرَّ).
(10) الرّاغب، المفردات: (سرر).

موالاةُ الكافرين الـصّـادّيـن عن دينِ الله تعالى مُنافيةٌ للإيمان

الَّذين نَهَيتُكُم أنْ تتَّخذوهم أولياءَ بما جاءَكم من عندِ اللّه من الحقِّ، ثمَّ أشارَتْ إلى أنَّه لم يَكْفِهم ذلك حتَّى آذَوُا المؤمنين؛ تنبيهًا إلى قطعِ العلائقِ معهم رأسًا، بسبب أنّهم يُخرجونَ رسول اللّهَ ﷺ ويُخرجونكم من دياركم وأرضكم؛ لِأنّكم آمنتم باللّه ربِّكم، إنْ كنتم خرجتم من ديارِكم، فهاجرتم منها إلى مُهاجَرِكم للجهاد في سبيل اللّه، وطلبًا لنيل رضوانِه فلا تتَّخذوا الكفّار أولياء. تتودَّدون إلى الكفّار بمناصحتِهم بالسِّرِّ وأنا أعلمُ منكم بما أخفيتم وما أعلنتم. ثمَّ توعَّدَ من يفعلُ ذلك وشدَّد النَّكير عليه، فأخبرَ أنَّه مَنْ يفعلْ ذلك منكم أيُّها المؤمنون فقد جارَ عن قصد السّبيل الَّتي جعَلَها اللّه طريقًا إلى الجنَّة ومَحَجَّةً إليها(1).

قال الواحديُّ: "قال المفسِّرونَ: إنَّ الآيةَ نزلت في حاطِبِ بنِ أبي بلتعةَ، حينَ كتَبَ إلى مُشركي قُرَيشٍ يُخبرُهم بمَسيرِ النَّبيِّ ﷺ إليهم لَمّا قصَدَ فتْحَ مكَّةَ؛ يَنهاهُ اللّهُ عن موالاةِ الكفّار"(2).

وجاء في سبب نزول الآية: أنَّ مُغنّيةً ونائحةً كانت بمكَّةَ أتَتِ المدينةَ تشكو الحاجةَ، فأمَرَ رسولُ اللّه ﷺ بني عبد المطَّلبِ أن يُعطوها ما يَدفَعُ حاجتَها، فأعطَوْها نفقةً وكسوة وحملوها، فجاءها حاطبُ بنُ أبي بلتعةَ (مولى عبدِ اللّه بنِ حميدِ بن عبد العُزّى) فأعطاها عشرةَ دنانيرَ، وكتب معها كتابًا إلى أهلِ مكَّةَ يُحذِّرُهم من أنَّ رسول اللّه ﷺ يتهيَّأُ لقتالِهم، وأخبرهم بمسيرِ رسول اللّه ﷺ إليهم؛ ليتَّخِذَ بذلك يدًا عندهم، لا شكًّا ونفاقًا، وأرسله مع تلك المرأةِ، فأُخبِرَ النَّبيُّ ﷺ بشأنِه، فأرسَلَ إلى المرأة بعضَ الصّحابة قبل وصولِها وأخذوا منها الكتاب، وعاتَبَ رسولُ اللّه ﷺ حاطبًا، فاعتذر رضي الله عنه بعُذرٍ قَبِلَهُ النّبيُّ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 310، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 63.
(2) الواحدي، الوسيط: 4/ 282.

ﷺ[1]، والعبرةُ بعموم اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّبب، فهي دالَّةٌ على حُرمةِ الإسرارِ بالمودَّةِ لغير المؤمنين فضلًا عن موالاتِهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ النِّداء ودلالتُهُ:

النِّداءُ تنبيهٌ على المعاني، وإشارةٌ إلى خُطورة المَضامين

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بأسلوب النِّداء في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لتنبيهِ المخاطَبين إلى أمرٍ عظيم، وهو النَّهيُ عن اتِّخاذ عدوِّ اللّٰه وعدوِّ المؤمنين أولياءَ، وللإشارةِ إلى خُطورةِ مضمون النّداء، وأنَّه ممّا ينبغي إعلانُهُ وإشهارُهُ بين المؤمنين؛ كي يجتنبوا موالاتَهم ولا يقتربوا منها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

الخِطابُ لعمومِ المؤمنين وإنْ كان سببُهُ خاصًّا

استعمَلَ النّظمُ الكريم الاسمَ الموصولَ - وهو ﴿ٱلَّذِينَ﴾ المُعبَّرُ به عن العقلاء - لإفادةِ العموم؛ فالخطابُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عامٌّ لجميعِ المؤمنين تحذيرًا من إتيان مثلِ فعلِ حاطبِ بن أبي بلتعةَ[2]، والخطابُ وإن كان سببُ نزوله خاصًّا إلّا أنّه دالٌّ على العموم.

دلالةُ استعمالِ لفظِ الإيمانِ في صلةِ الموصول:

الاتِّصافُ بالإيمانِ علَّةُ البراءةِ من الأعداء

أفادَتْ صلةُ الموصول ﴿ءَامَنُواْ﴾ بيانَ وجهِ ابتناءِ الخبر؛ فالاتِّصافُ بالإيمان هو السّببُ الدّاعي إلى الانكفافِ عن اتّخاذِ عدوّ اللّٰه تعالى وعدوّ المؤمنين أولياءَ؛ فكأنَّه قال: اعملوا بمقتضى إيمانِكم، فلا تتَّخِذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء.

كما أفادَ التَّعبيرُ بالصِّلة تعظيمَ شأنِ الإيمان ومدحَ المخاطبين؛ لاتِّصافِهم بالإيمان.

ويُلمَحُ في الخطابِ بوصف الإيمان مع اعتبارِ سبب نزول الآيةِ مُعاتَبةُ الصّحابيِّ حاطبٍ رضي الله عنه على فعلِه؛ لدخولِه في وصف الإيمان.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 131، وما بعدها، والبغوي، معالم التّنزيل: 5/ 69.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 133.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

التَّشريفُ بما كان، والمدحُ بما سيكون

جاءَ التَّعبيرُ بصيغة الماضي في قولِه تعالى: ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ للإيذانِ بتحقُّقِ الإيمانِ من المخاطَبين، فالمقصودُ الإخبارُ بوقوعِ الإيمانِ تشريفًا لهم بما كان، وبيانُ تحقُّقِهِ في القلوبِ مدحًا لهم بما سيكون، وأنَّ مَن تحقَّقَ إيمانُهم لا ينبغي لهم أن يَتَّخِذوا عدوَّ اللّه وليًّا. ففي التَّعبيرِ بصيغة الماضي إيماءٌ إلى الحثِّ على العملِ بمقتضى الإيمانِ؛ مِن ولايةِ مَن اتَّصَفَ بالإيمانِ، ومعاداةِ من عاداه.

دلالةُ النَّهيِ في قولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾:

قطعُ ولايةِ الكفّارِ على الفَوْرِ، والتَّحذيرُ مِنها في المستقبل

أفادَ استعمالُ ﴿لَا﴾ النّاهية في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ طلبَ تركِ اتِّخاذ عدوِّ اللّه وليًّا على الفور، والتَّعجيلَ المقطوعَ به، وفي النَّهي تحذيرٌ للمؤمنين من هذا الاتِّخاذ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنَّهيِ دونَ الأمرِ:

التَّنبيهُ على حُرمةِ ابتداءِ الموالاةِ في الحاضرِ، مع شُمولِ النَّهيِ الزَّمنَ الماضي

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير بأسلوب النَّهيِ في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ دون أسلوب الأمر؛ للإتيانِ بالفعل المضارع الَّذي يُفيدُ التَّجدُّدَ والحدوثَ، و﴿لَا﴾ النّاهيةُ تفيدُ طلبَ تركِ الاتّخاذ ابتداءً، وتركَ الاستمرارِ فيه إنْ وُجِد، فالأسلوبُ دالٌّ على الماضي والاستقبال، بخلافِ أسلوب الأمر، فلو قيل: عادوا أعداءَ اللّه تعالى، أو تبرَّؤوا من أعداءِ اللّه لدلَّ على زمانٍ واحد وهو المستقبل، كما أنَّ المطلوبَ تركُ اتِّخاذِ الأعداء أولياءَ، لا إنشاءُ العدواة ابتداءً.

براعةُ النَّهيِ عن الاتِّخاذِ دونَ النَّهيِ عن الموالاة:

النَّهيُ عن الاتِّخاذِ نهيٌ عن الفعلِ ومُقدِّماتِه ومُلابساتِه

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مُفردةِ الاتِّخاذِ دون أن يقولَ: (لا توالوا) مع أنَّها أوجزُ لفظًا؛ لِما يَحويه فعلُ الاتِّخاذِ من الدَّلالة البلاغيَّةِ العالية، فأصلُ الفعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾ مِنَ الأَخْذِ الَّذي هو في الحقيقةِ بمعنى تناوُلِ الشَّيءِ الَّذي يكون بعيدًا عنك، ويُقصَدُ به الأخذُ المجازيُّ، وهو التَّلبُّسُ بالشَّيءِ وملازمتُهُ بعدَ السَّعي في

تحصيله؛ ليفيدَ التّنبيه على أنَّ مَن تقرَّبَ من أعداء اللّه يوشكُ أن يتلبَّس بموالاتِهم ويسعى في تحصيلِها، فالنَّهيُ عن اتِّخاذ الأعداء أولياءَ أبلغُ من النّهي عن موالاتِهم؛ لأنَّهُ نهيٌ عن الفعلِ، وأسبابِه، وملابساتِه، ومقدِّماته، وهو ما يدلُّ على خُطورةِ موالاةِ أعداءِ الأمّةِ من أهل الملَّة المحمَّديَّة.

دلالةُ صيغةِ الافتعال ﴿تَتَّخِذُواْ﴾:

الأفعالُ المُخالِفةُ لفِطْرةِ الإيمانِ كُلْفةٌ على العُقولِ والقلوبِ والأبدان

لمّا كان السّياقُ في بيانِ النَّهيِ عن موالاةِ أعداء الدّين من الكافرين كان في التَّعبير بصيغةِ الافتعال في الفعل ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾ دلالةٌ على التَّكلُّفِ في هذا الاتِّخاذِ والمبالغةِ فيه؛ ليفيدَ أنَّ اتِّخاذَ عدوِّ اللّه وعدوِّ المؤمنين أولياء لا يكونُ إلّا بتكلُّفٍ وجهد، فهو مُصطَنَعٌ مُفتعَلٌ؛ لمخالفتِهِ لوصفِ الإيمان الَّذي ليس فيه كُلْفةٌ على النَّفس، فالنَّهيُ ليس عن التَّكلُّفِ، بل عن الاتِّخاذ الَّذي لا يكون إلّا بالتَّكلُّف.

نكتةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ ﴿عَدُوِّى﴾:

مفرداتُ القرآنِ تَحمِلُ دَلالاتٍ فرعيَّةً مَلحوظةً في السّياق

لمّا كان لفظُ (العدوّ) يدلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ وتقدُّمٍ لِما ينبغي أنْ يُقتصَرَ عليه[1] أفادَتْ مُفردةُ ﴿عَدُوِّى﴾ اتِّصافَ عدوِّ اللّه وعدوِّ المؤمنين بالظُّلم؛ لتجاوُزِهم ما ينبغي أن لا يفعلوه، والمعاداةُ تقتضي التَّباعُدَ عنهم لا الاقترابَ منهم والإلقاءَ بالمودَّة إليهم، فجَمَعَ لفظُ (العدوِّ) الدَّلالةَ على الظُّلم الصّادر عن الأعداء، وضرورةِ تجاوُزِهم، وعدمِ الاقترابِ من مودَّتِهم.

دلالةُ إضافةِ لفظةِ (عدوّ) إلى الضَّمير:

أُضيفَ لفظُ (عَدوّ) إلى الضَّميرِ العائد إليه تعالى في قوله تعالى: ﴿عَدُوِّى﴾ تهويلًا لشأنِ عداوتِهم - فهم يُعادون اللّه تعالى - وتقريرًا لعداوتِهم، وتغليظًا لجُرمِهم[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عدا).

(2) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 297، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 260.

نكتةُ وُرودِ لفظةِ (عدوّ) على صيغةِ المصدر:

تصويرُ شدَّةِ العداوةِ الصّادرة عن الكافرين

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ﴾ دون أن يُقال: (أعدائي وأعداءكم)؛ لأنَّ (عَدوّ) وصفٌ ضارَعَ الاسمَ، وهو على وزنِ فَعولٍ بمعنى فاعِلٍ، مِنْ عَدا يَعدو. وهو في الأصلِ على زنةِ المصادرِ كقَبولٍ ونحوِه، فعومِلَ معاملة المصدر، فوقَعَ لفظُ (العدوِّ) على الواحدِ والمثنّى والجمع والمؤنّث والمذكّر[1]، قال سبحانه: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشُّعراء: 77]، وقال سبحانه: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ﴾ [النِّساء: 92]، والمصادرُ أبلغُ من صيغةِ الجمعِ - لاشتمالِها على الجمع وزيادةٍ - في تصويرِ شدَّةِ عداوتِهم، فهم العداوةُ نفسُها.

بلاغةُ إيهامِ التَّكرار:

تهييجُ المؤمنين على البَراءةِ مِن عَدوِّهم

لسائلٍ أن يسألَ عن نكتةِ عطفِ (عدوَّكُم) على ﴿عَدُوِّى﴾، ومقتضى الظّاهر أن يُكتفى بالمعطوفِ عليه؛ لأنَّ عَدوَّ اللّهِ إنَّما هو عَدوُّ المؤمنين!

والجوابُ: أنَّ مَن كان عدوًّا للّه كان عدوًّا للمؤمنين بالتَّلازُم، لكنَّه لمّا كان في مَقامِ النّهي - والنّهيُ يتطلَّبُ التَّنْفيرَ من المَنْهيِّ عنه - ناسَبَ ذكرُ عدوِّ المؤمنين؛ لِما فيه من تهييجِ المؤمنين على مُعاداةِ عدوِّ اللّه تعالى[2] وعدوِّهم.

دلالةُ إضافةِ لفظةِ (عدوّ) إلى ضميرِ خطابِ المؤمنين:

العَداوةُ الحقيقيَّةُ الّتي تُقطَعُ بها العلاقاتُ عَداوةُ الدّينِ والإيمان

أفادَتْ إضافةُ لفظةِ (عدوّ) إلى الضّمير العائد إلى المخاطبين بوصف الإيمان ﴿وَعَدُوَّكُمۡ﴾ أنَّ المرادَ من العداوة في قوله تعالى: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ﴾ العداوةُ في الدّين، فالإضافةُ بمعنى اللّام؛ أي: عدوٌّ لكم، ويُقرِّرُ هذا المعنى أنَّ الإضافة لمّا كانت على معنى الاختصاصِ، وكان أمرُ الدّين والرّسالة مختصًّا باللّه تعالى أفادَ

(1) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والعليمي، فتح الرّحمن: 7/ 24.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 516.

أنَّ التّقديرَ: لا تتّخذوا عَدوَّ ديني، أو رَسولي[1]. فالمرادُ من العداوةِ التَّجاوُزُ في أصولِ الدّين ورسالةِ رسولِه ﷺ.

دلالةُ عطفِ (عَدوَّكُم) على ﴿عَدُوِّى﴾:

عَـداوةُ المشركين لـلـهِ تـعـالى هي السَّببُ الحقيقيُّ في البَراءةِ منهم

أفادَ عطفُ (عَدوَّكُم) على ﴿عَدُوِّى﴾ تشريكَ المعطوف والمعطوف عليه في الحكم؛ أي: في النَّهي عن اتِّخاذِهم أولياءَ، ولمّا كان مجيءُ المتعاطفين يفيدُ في الأصلِ أنَّ المعطوف أقوى وأهمُّ من المعطوف عليه من حيث السّببُ قدَّم ﴿عَدُوِّى﴾ على (عَدوَّكُم)؛ ليكون ذكرُ المعطوفِ أدعى إلى الامتثال والإذعان، مع ما في التَّعبيرِ بعداوة المؤمنين مِن إلهابٍ لهم على ترك الاتّخاذ المذكور؛ فقُدِّم السّببُ الأهمُّ والأعمُّ الَّذي هو الأصلُ؛ لأنَّ عداوةَ العبدِ للّه هي الأصلُ، وهي أشدُّ قُبحًا، وقُبحُها في أنَّهم عَبَدوا غيرَ خالِقِهم، وشكَروا غيرَ رازِقِهم، وكذَّبوا رُسُلَ ربِّهم وآذَوْهم؛ فتقديمُه يؤكِّدُ أنَّه هو السَّببُ في العداوةِ بينَ المؤمنينَ والكافِرين؛ فإنَّ العداوةَ بين المؤمن والكافر بسبب الإيمانِ باللّه وتوحيده، وما كان سببًا فحقُّه التَّقديمُ[2]، ثمَّ عطَفَ ما يُقوّي السّببَ ويزيدُه تقريرًا فقال: ﴿وَعَدُوَّكُمۡ﴾.

وفي عطفِ (عَدوَّكُم) على ﴿عَدُوِّى﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ولايةَ أعداء اللّه تعالى ومصافاتَهُم معاداةٌ للّهِ سبحانه، على حدِّ قولِ الشّاعر:

إذا صافى صديقُكَ مَن تُعادي *** فقدْ عاداكَ وانْقَطَعَ الكلامُ[3].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾:

مُتَّخِذُ الكافرين أولـيـاءَ جامعٌ بـيـنَ نُـصْـرتِـهـم ومـودَّتِـهـم، وكلاهما مخالفٌ للإيمان

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ - وهي المفعولُ الثّاني لفعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾ - ليكونَ هو محطَّ النّظر في النّهي، ولمّا كان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 516.

(3) البيت من بحر الوافر، وقد ذكره الثعالبيُّ في كتابه اللطائف والظرائف، ص: 148، ونسبه للإمام الشافعي رحمه الله، وفيه: وافى بدل صافى، وانفصل بدل انقطع، وقد ذكره كثير من المفسّرين في معرض تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ من دُونِ نسبةٍ لقائل معيَّن.

الخطابُ بوصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كان فيه إيذانٌ بمنافاة الإيمان لولايتِهم؛ لأنَّ الولايةَ تقتضي النُّصرةَ، فلا يكونُ العبد من أهل الإيمان بنُصرتِهم وموالاتِهم، كما أنَّ الولايةَ تدلُّ على المحبَّة، ومحبَّةُ أعداء الله تعالى وأعداء المؤمنين داخلةٌ في الحرمة؛ فدلَّ على أنَّ مَن يتَّصِفُ بالإيمان لا تبقى له صفةُ الإيمان إذا هو كان على ولاءٍ ومودَّةٍ لمَن كان عدوًّا لله وعدوًّا للمؤمنين[1]، فجمَعَ لفظُ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ بينَ ولاية النُّصرةِ وولاية المودّة والمحبّة، وهذا الَّذي يتّخِذُ الكافرَ وليًّا عادمُ المروءةَ، وليس عنده من الحكمة نصيبٌ، فكيف يوالي أعداءَهُ الَّذين لا يريدون له إلّا الشَّرَّ؟! ويخالفُ ربَّهُ ووليَّه الَّذي يريدُ به الخير، ويأمرُهُ به، ويحثُّه عليه[2]!

براعةُ اختلافِ التَّقابُلِ في الصّيَغ:

التَّـقـابُـلُ بـينَ المصدرِ والجمعِ لـبـيـانِ اتِّـحـادِ عَداوةِ الكافرين واخـتـلافِ ولايتِهم

خالَفَ النَّظمُ الكريم بين مفعولي الاتِّخاذِ من حيث الإفرادُ والجمع، فجاء المفعول الثّاني بصيغة الجمع ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ دون (وليًّا)، والمفعول الأوَّلُ بصيغةِ المصدرِ المفرد ﴿عَدُوِّى﴾ دون (أعدائي)؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَن يتَّخِذُ عدوَّ الله وعدوَّ المؤمنين أولياءَ إنَّما يكونُ فعلُه بقصد التَّكثُّرِ بهم، كما أنَّ التّعبيرَ بصيغة الجمع ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ هو الأوفقُ بالمقام؛ لِما تقتضيه الولايةُ من الكثرة والاجتماع.

وفيها دلالةٌ بديعةٌ، وهي أنَّ العدوَّ تجتمعُ كلمتُهُ على المؤمنين، فلذلك قال: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ﴾ بصيغةِ الإفراد فيهما، بخلافِ موالاتِهم؛ فقد تَتَباينُ وتختلفُ، فجمعَ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ لأجلِ الإيماءِ إلى ذلك الاختلاف.

دلالةُ الطِّباقِ بينَ العَداوةِ والولاية:

في قوله تعالى: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ طِباقٌ بين ﴿عَدُوِّى

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 891.
(2) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 854.

﴿وَعَدُوَّكُمۡ﴾ وبينَ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، وهو من طِباقِ التَّضادِّ، ومناسبةُ الطِّباقِ التَّنبيهُ على البَوْنِ بينَ الضِّدَّين، وأنَّه لا يمكنُ اجتماع الأمرين، وفيه إيماءٌ إلى التَّعجيب ممَّن يَجمَعُ بينَهما فيتَّخِذُ عدوَّ اللّٰه وعدوَّ المؤمنين أولياء! فكأنَّه ارتكَبَ ما لا يمكنُ حصولُهُ؛ لامتناعِ اجتماعِ الضِّدَّينِ بمقتضى الحكمة! فيكونُ استحقاقُهُ العقوبةَ بسببِ الاتِّخاذ المذكور في غايةِ الحكمةِ والعدلِ كذلك.

مَن جَمَعَ بينَ الضِّدَّينِ وانتظَرَ النَّجاةَ فقد جَمَعَ على نفسِه الغَفْلَةَ والهَلاكَ

نكتةُ النَّهيِ عن موالاةِ العدوِّ والعَداوةُ مُنافيةٌ للمودَّة:

لمّا كانت العداوةُ والولايةُ على الضِّدِّ، ولا يمكنُ اجتماعُ الضِّدَّين نشَأ إشكالٌ في هذا النَّهي؛ فكيف يَنهى عن اتِّخاذِ العدوِّ أولياءَ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، مع أنَّ العداوةَ مُنافيةٌ للمَحَبَّةِ والمَوَدَّة؟! والمحبَّةُ والمودَّةُ مِن لوازم اتِّخاذ الأولياء؟ فالنَّهيُ عن الجمعِ بين شيئين إنَّما يكون فيما يُتصوَّرُ اجتماعُهما!

الطَّمعُ في تحقيقِ مَصالحِ الدُّنيا يقودُ إلى التَّناقضِ بينَ الإيمانِ والسُّلوك

والجوابُ أن يقال: الجمعُ بينهما باعتبارين، وذلك أنْ تكونَ العداوةُ بالنِّسبةِ إلى أمرٍ معيَّنٍ وهو الدّين، فالمعاداةُ باعتبارِ الإيمان، والمحبَّةُ والمودَّةُ بالنِّسبةِ إلى أمرٍ آخَرَ، وهو الرَّغبة والطَّمع في تحقيق المنفعة الدّنيويَّة والمصلحة الشّخصيَّة، فالمودَّة باعتبار الانتفاع بها في الدّنيا، ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ [التّغابن: 14][(1)]؛ فإنَّ الأزواجَ والأولاد محبوبون بالفطرة والجِبِلَّة، وعداوتُهم بسبب دعوتِهم إلى ارتكابِ محرَّمٍ أو الإخلالِ بطاعةٍ أو مخاصمةٍ في أمرِ الدّين أو الدّنيا.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظةِ الإلقاء:

استعَمَلَ النَّظمُ الكريم مفردةَ الإلقاء؛ لدلالته في الحقيقةِ على رَمْيِ ما في اليدِ على الأرض وطرحِه، واستُعير لإيقاعِ الشَّيء مِن

إلقاءُ المودَّةِ لعدوِّ اللهِ جهلٌ وحماقةٌ وسفاهة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 516.

دونِ تدبُّرٍ في موقعِه، ففي قوله تعالى: ﴿تُلۡقُونَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، حيث شبَّهَ محاولةَ إيصالِ المودَّة من قِبَلِ المؤمنين إلى عدوِّهم بإلقاءِ شيءٍ من دونِ تدبُّرٍ أو حكمةٍ أو إدراكٍ، بجامعِ وضعِ الشَّيءِ في غيرِ موضعِهِ في كليهما[1]، وقد جَرَتِ الاستعارةُ في لفظة الفعل ﴿تُلۡقُونَ﴾ فكانت تبعيَّةً.

والمعنى: تُظهِرون لهم المودَّةَ، وتسارعون في إيصالِها، وفي السَّعي بأسبابِها من غيرِ تأمُّلٍ في الأمر. والإلقاءُ بالمودَّة: بَذْلُها في صورةِ رسائلَ، أو هدايا، أو عواطفَ من الحبِّ والودِّ، مع بُعدِ الشُّقَّة النَّفسيَّة، ولهذا عُدّيَ الفعلُ بالباء؛ لتضمُّنِه معنى: تَبعَثون إليهم بالمودَّة[2].

مناسبةُ استعمالِ مفردةِ الإلقاءِ لسببِ النُّزول:

إلقاءُ الرِّسالةِ يتضمَّنُ إلقاءَ المحبَّة

دلَّت مفردةُ ﴿تُلۡقُونَ﴾ على سرعةِ الإلقاءِ وخفّتِهِ وبُعْدِ المُلقي عن المُلقَى إليه، وهو المناسبُ لِما جاءَ في سببِ نزولِ الآية؛ من أنَّ حاطبًا ألقى الرّسالة إلى المرأة بعيدًا عن أعيُنِ النّاس بخفَّةٍ وخفاء.

بلاغةُ احتمالِ جملةِ ﴿تُلۡقُونَ﴾ للحاليَّةِ أو النَّعت:

مَآلُ مَن يتَّخِذُ أعداءَ الله أولياءَ التَّقرُّبُ إليهم وإلقاءُ المودَّة

تَحتَمِلُ جملةُ ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ أن تكون حالًا من ضميرِ الواو في ﴿تَتَّخِذُواْ﴾[3]؛ أي: لا تتَّخِذوهم أولياءَ مُلقينَ إليهم بالمودَّة، والحالُ هنا لازمةٌ غيرُ مُنفكَّةٍ، جاءت لبيانِ حالةٍ هي الغالبةُ من حالاتِ اتّخاذ عدوِّ الله وعدوِّ المؤمنين أولياءَ، فالحالُ من المنهيِّ - وهو فاعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾ - لا من النَّهي، كما أنَّ الحالَ بيانٌ لحادثةٍ وقعت، فلا يُقال: إنَّ المؤمنين نُهوا عن اتِّخاذِ عدوِّ الله وعدوِّ المؤمنين أولياءَ مطلقًا كما في قولِه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ [المائدة: 51]، وإنَّ التَّقييدَ بالحالِ يوهِمُ بدلالةِ المفهوم جوازَ اتِّخاذِهم أولياءَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 891.

(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 402.

إذا انتفى قيدُ الحالِ[1]. لا يقال ذلك؛ لأنَّ الحالَ لمّا كانت لازمةً أفادَتْ لُزومَ إلقاءِ المودَّةِ إليهم عندَ اتِّخاذِهم أولياءَ، فلا يُتصوَّرُ اتِّخاذُهم أولياءَ مِن دونِ إلقاءِ المودَّةِ إليهم؛ للتَّلازُمِ بينَ الأمرين.

والغرضُ من مجيءِ الحالِ التَّعجيبُ من إلقائهم إليهم بالمودَّة، وتقريرُ التَّعجيبِ ما دلَّ عليه طباقُ التَّضادِّ من الجمعِ بين عداوتِهم وولايتِهم. كما أنَّ جملةَ الحال لمّا جاءت بصيغةِ المضارع أفادَتْ تصويرَ الحالةِ؛ تقبيحًا لها، وتنويهًا بعلمِ اللّه تعالى بأدقِّ الخفايا.

كما تَحتمِلُ الجملةُ أن تكونَ صفةً لـ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾[2]، فتكون وصفًا كاشفًا للغالبِ مِن معنى ولايتِهم، فتكون صفةً لازمةً كذلك. وجملةُ ﴿تُلۡقُونَ﴾ على الوجهين السّابقين في محلِّ نصبٍ. وتَحتمِلُ كذلك أن تكون بيانًا وتفسيرًا لمعنى اتِّخاذِهم أولياءَ[3]، ولا محلَّ لها من الإعراب حينئذٍ.

فائدةُ تقديمِ إلقاءِ المودَّةِ على الإسرارِ بها في النَّظم الكريم:

تقديمُ ما يَأخُذُ حُكمَ العُمومِ على ما يَأخُذُ حكمَ الخَطَرِ المُحدِق

بدَأ النّظمُ الكريمُ بذكرِ إلقاءِ المودة فقال: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾، ثمَّ ذكَرَ الإسرارَ بها فقال: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾؛ تنبيهًا بذكرِ ﴿تُلۡقُونَ﴾ على ذمِّ مودَّة الأعداء جَهْرًا وسِرًّا؛ لأنَّ مفردةَ الإلقاء تعمُّ الجهرَ والسِّرَّ، وبذكرِ ﴿تُسِرُّونَ﴾ بعدها على تأكيدِ ذمِّها سرًّا، وخُصَّ ﴿تُلۡقُونَ﴾ بالتَّقدُّمِ لعُمومِه[4]، فبدأ بما يكون سرًّا وجهرًا، ثمَّ ثنّى بما يكون سرًّا.

كما أنَّه بدأ بذكرِ المودَّةِ العامَّةِ الَّتي لا يَلوحُ منها صوتُ الإثم والخطر، ثمَّ ثنَّى بالمودَّةِ الخاصَّة الَّتي تكشِفُ حقائقَ الولايةِ الَّتي قد تُهدِّدُ المجتمعَ المسلم، وتُلحِقُ به الأذى.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 152، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 297.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 402.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 42، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(4) زكريا الأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 560.

الكافرُ ليس بعدوٍّ للمُنافقِ، بل هو عدوٌّ للمُؤمنِ المُخلِص

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

أفادَت الباءُ في قوله تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ تأكيدَ اتّصالِ فعلِ الإلقاء بمفعولِه، فهي صلةٌ، والمعنى: توصِلون إليهم المودَّةَ[1] وتُلْقونها إليهم، ولو قال: (تُلقونَ إليهم المودَّةَ) مِن دونِ الباءِ لَما دلَّ الفعل إلّا على طرح المودَّةِ وإلقائِها من بعيدٍ، فلمّا زيدَت الباءُ على المفعول، وكانت تدلُّ في أصلِها على الإلصاق دلَّ التّعبير بـ﴿تُلۡقُونَ﴾ على معنى إلقاءِ المودَّة وإيصالِها إلى الملقَى إليه؛ ليُفيدَ أنَّ إلقاء المودَّة كان عن قربٍ مع إفادته معنى السّرِّ والخفاء، حيث تُلقى إليهم المودَّةُ في حالةِ بُعْدِ الشُّقَّةِ النَّفسيَّة الَّتي ينبغي أن تكون بين المؤمنين بالله والكافرين به، وبُعْدِ الشّقَّة المكانيَّة حيث المؤمنون في المدينة، والمشركون في مكة، ومع ذلك تلقى إليهم المودَّة في كلا الحالين فيتلقَّفونها من غير أن يراها أحد[2]، وهو ما يُناسب ما جاء في سبب النّزول؛ من أنَّ حاطبًا أوصل كتابًا إلى امرأةٍ وأعطاها إيّاه خفيةً لتوصلَه إلى أهلِ مكّة، فإنَّ تسليمَها الكتابَ يدلُّ على الإلقاء بطريق المناولة؛ أي: عن قربٍ وخفيةٍ.

ويُحتمَلُ أن تكون الباءُ سببيَّةً[3]، ومفعولُ ﴿تُلۡقُونَ﴾ محذوفٌ، والتّقدير: تلقون إليهم الحديثَ - ويدخلُ فيه ما يتعلَّقُ بأسرارِ الدّولةِ أو أخبارِ رسول الله ﷺ - بسببِ المودَّة بينكم وبين قرابتكم الَّذين معهم، وليس على معنى: بسبب مودَّة الكافرين وحبّهم؛ لأنَّ إلقاءَ حاطبِ الكتابَ بسبب مودَّتِه للكافرين لم يقع؛ لأنَّ حاطبًا لم تحصل منه مودَّةٌ ومحبّة للكافرين، بدليل الخطاب في قولِه: ﴿وَعَدُوَّكُمۡ﴾ الدّالِّ على إخلاصه؛ فإنَّ الكافر ليس بعدوٍّ للمنافق، بل هو عدوٌّ للمؤمن المخلِص، فلمّا سمّاه عدوًّا دلَّ على أنَّه باقٍ على إيمانِه[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 891.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235.

(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 212، والنيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 291، والشربيني، السّراج المنير: 8/ 235، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 473.

على أنَّ الباءَ تَحتمِلُ أن تكونَ للتَّعدية هنا، بتضمينِ ﴿تُلۡقُونَ﴾ معنى: (تُفضون)؛ أي: تُفضون إليهم بالمودَّة، والفعل (أفضى) يتعدَّى بالباء[1].

نكتةُ تعريفِ لفظةِ (المَوَدَّةِ) بـ(أل) دونَ الإضافة:

كلُّ مودَّةٍ من شأنِها موالاةُ أعداءِ الله تعالى فداخلةٌ في التَّحريم

جاء التَّعريفُ بأل دون الإضافة في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾، وهي تُفيد الجنسيَّة؛ فيلزمُ من اللَّفظِ استغراقُ جميع أنواع المودَّة، وسببُه الإشعارُ بأنَّ أيَّ إلقاءٍ لأيِّ مودَّةٍ هو بمثابةِ إلقاءٍ لجميعِ أنواع المودَّة، ومِن ذلك إيصالُ أسرارِ المُسلِمينَ إلى العدوِّ.

وفي التَّعبيرِ بلفظ العُموم تقبيحٌ لإلقاء أدنى المودّة إلى الكافرين وإن كانت خاصَّةً، كما أنَّ الخطابَ جاءَ عامًّا، فناسب التّعبيرُ بلفظٍ عامٍّ، وهو أن يكون معرَّفًا بـ(أل)، ويجري الكلامُ نفسُه في قولِه تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾.

بلاغةُ جملةِ الحالِ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾ ببيانِ صاحبِها:

التَّعجيبُ ممَّنْ يتَّخِذُ عدوَّ الله أولياءَ، واستبعادُ أنْ يقعَ ذلك من مؤمن

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾ للحال[2]، وجملةُ ﴿كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ حالٌ من فاعلِ ﴿تَتَّخِذُواْ﴾، والمعنى: لا تتَّخِذوهم أولياءَ وحالُهم أنَّهم قد كفروا بما جاءكم من الحقِّ! وهي حالٌ مترادفةٌ إنْ أُعربت جملةُ ﴿تُلۡقُونَ﴾ حاليَّةً أيضًا، وتكون هذه الحالُ مقرِّرةً للنّهي، كما أنّها تُفيد معنى الاستبعاد والتّعجيب من اتّخاذِهم أولياء مع وجود هذه الحالِ منهم. أو هي حالٌ من فاعل ﴿تُلۡقُونَ﴾[3]، فتكونُ من الحال المتداخلة؛ أي: لا تتولَّوهم وأنتم تلقون بالمودَّة إليهم وهذه حالُهم! وفيها معنى الاستبعاد والتَّعجيب.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 261.
(2) الواحدي، التّفسير البسيط: 21/ 404.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.

كما تَحتملُ الجملةُ أن تكون حالًا من المفعول الأوَّلِ ﴿عَدُوِّى﴾[1]؛ لتُفيدَ الحالُ زيادةً في التّعجيب من اتِّخاذِهم أولياء؛ أي: كيف تتولَّون عدوّي والحال أنَّهم قد كفروا بما جاءكم من عند الله من الحقِّ؟! فهذه الأوصافُ توجِب البغضاءَ والعداوةَ لا الولايةَ والنُّصرةَ، ففي مجيء الحال توبيخٌ شديد ووعيدٌ على من يفعل مثل هذا الفعل. كما يُحتمَلُ أن تكون الجملةُ حالًا من الضّمير في ﴿إِلَيۡهِم﴾[2] زيادةً في التَّعجيب من إلقاء المودَّةِ إليهم واستبعادًا لها كذلك.

دلالةُ حرفِ التَّحقيق:

مــوالاةُ ومــودَّةُ مَن تحقَّقَ كفرُهُ ومعاداتُهُ شيءٌ عُجاب

أفاد حرفُ التّحقيق في قولِه تعالى: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾ تحقيقَ كفرِهم وتقريرَه؛ بمعنى: قد ثبت كفرُهم وتحقَّقَ، فالعجبُ أشدُّ العجبِ مِن تولّيهم أو موادَّتِهم؛ لتقرُّرِ كفرِهم بالحقِّ وتحقّقه.

نوعُ الباء ودلالتُها:

حقدُ الكافرين يَحمِلُهم على إنكارِ كلِّ أنواع الحقّ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ للإلصاق؛ لتُفيد إلصاقَ كفرِهم بما جاء المؤمنين من الحقِّ وعدمَ انفكاكِهم منه.

دلالةُ التَّعبير بالاسمِ الموصول:

كلُّ حقٍّ مِن الله تعالى فالأعداءُ مخالفون له كافرون به

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ الاسم الموصول (ما)؛ لإفادةِ العموم، فعبَّرَ بطريق الموصوليَّة؛ ليَشمَلَ كُلَّ ما أتاهُمْ بِهِ الرَّسول ﷺ من القرآن والدّين على وجهِ الإيجاز[3]، وقد دلَّتْ جملةُ صلة الموصول ﴿جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ على مخالفة أعداء الله تعالى للحقِّ، وفيه إيذانٌ بتشنيع كفرِهم وبطلانِه؛ بمعنى: أنَّه كفرٌ بما ليس من شأنِه أن يكفُرَ به أحدٌ، لا سيّما طلّابُ الهدى؛ فإنَّ الحقَّ محبوبٌ مرغوب[4]. وفيه إقامةُ الدّليل على النَّهي عن اتّخاذ الكافرين

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 42 - 43، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 42 - 43، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.

أعداءً؛ أي: جاء الحقُّ وثبَتَ لديكم، فلا تتَّخذوا مَن أنكروه وكفروا به أولياء.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ (جاءَ) دون (أتى):

الحقُّ هو الأمرُ الثّابتُ الَّذي لا شيءَ أعظمُ ثباتًا منه

استعملَ النّظم الكريم الفعلَ (جاءَ) في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ دون الفعل (أتاكم من الحقِّ) مثلًا؛ لأنَّ الحقَّ فيه قوّةٌ وثباتٌ، فناسب التّعبيرُ بمفردة المجيء الَّتي تدلُّ على القوّة دون السّهولة؛ للإشعارِ بصلابة الحقِّ وقوّتِه وعِظَمِ شأنِه، فإنَّ الحقَّ هو الأمرُ الثّابت الكامل في الثّبات، الَّذي لا شيءَ أعظمُ ثباتًا منه[1]. ولهذا استعمل القرآنُ الكريم فعلَ (المجيءِ) مع (الحقِّ)، و(الإتيانِ) مع (الأنباء) في قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٥﴾ [الأنعام: 5]، ولهذا لم يَرِدْ في القرآن في سياق التّعبير عن مجيء الحقِّ إلّا لفظُ المجيء، كقولِه تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: 84]، وقولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا﴾ [يونس: 76]، وقولِه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٤٨﴾ [التَّوبة: 48]، وقولِه: ﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ﴾ [الإسراء: 81].

دلالةُ تعديةِ الفعلِ (جاءَ) إلى ضميرِ المخاطبين:

الحقُّ يَصِلُ أهلَهُ قاصدًا إكرامَهم ومُريدًا تعظيمَهم

عُدّيَ الفعلُ (جاءَ) إلى ضمير المخاطبين، وهم الَّذين آمنوا بالحقِّ نفسِه، فقال: ﴿جَآءَكُم﴾، ولم يُعَدَّ بالحرف؛ فلم يقل: بما جاء إليكم؛ للإشارة إلى استغراق الحقِّ لهم واستيعابِه لهم بسبب إيمانِهم؛ ولأنَّهم الَّذين انتفَعوا بذلك الحقِّ وتَقَبَّلوه؛ ففيه تصويرُ مجيءِ الحقِّ بأنَّه قصَدَهم دون غَيْرِهِمْ؛ فكأنَّ الحقَّ يَعلَمُ موضعَهُ الَّذي يجيءُ إليه فيَنتَفِعُ به.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 486.

وفي اختصاصِ المؤمنين بالحقِّ واستيعابِه لهم إيماءٌ إلى أنَّ كُفْرَ الكافرين بِهِ ناشئٌ عن حَسَدِهمُ الَّذينَ آمَنوا قَبْلَهُمْ. وفي ذَلِكَ إلْهابٌ لِقُلوبِ المُؤْمِنينَ؛ لِيَحْذَروا مِنْ موالاةِ المُشْرِكينَ[1]. وتنبيهٌ إلى أنَّ موالاتَهم باطلةٌ، وليست من الحقِّ في شيءٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظةِ ﴿ٱلْحَقِّ﴾:

تصويرُ المعاني بالقَرائنِ أرسخُ في بيانِها

في استعمالِ لفظِ الحقِّ في قوله تعالى: ﴿جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ لطيفةٌ، فقد شُبِّه الحقّ - وهو أمرٌ معنويٌّ - بشيءٍ حسّيٍّ، وهو الشَّخصُ الَّذي يمشي على قدميه ويصلُ إلى الموضع المطلوب تحقيقًا لثبات الحقِّ، وتصويرًا لوُصولِهِ إلى الَّذين آمنوا ونيلِهم له، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ به، وذُكِرَ شيءٌ من لوازمِه وهو المجيءُ.

دلالةُ جملةِ ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ﴾ بينَ الحالِ والاستئنافِ البيانيّ:

أعظمُ شناعاتِ المشركين إخراجُ أصحابِ الحقِّ بسببِ إيمانِهم

تَحتمِلُ جملةُ ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أن تكون حالًا من فاعلِ ﴿كَفَرُواْ﴾[2]، فتكون من الحال المتداخلة؛ تشنيعًا عليهم، وتقريرًا للنّهي عن الاتّخاذ المذكور؛ أي: لا تتَّخِذوهم أولياءَ وحالُهم الكفرُ بما جاءكم من الحقِّ وهم في حالِ كفرِهم يُخرجون الرّسول وإيّاكم؛ ففيه لفتةٌ لطيفةٌ إلى أنَّهم بإخراجِهم الرَّسولَ ﷺ أخرجوا الحقَّ من عندِهم؛ ففي مجيءِ جملة الحالِ توبيخٌ لهم، وتجهيلٌ وتسفيهٌ لعقولِهم، وتقبيحٌ لفعلِهم؛ فهم لَمْ يَكْتَفوا بِكُفْرِهِمْ بما جاءَ مِنَ الحَقِّ - مع أنَّ هذا وحدَهُ كافٍ في قطعِ كلِّ ولاءٍ بينكم وبينهم - فإنَّهم مع هذا تلبّسوا معه بإخراجِ الرَّسول ﷺ، وإخْراجِكُمْ مِنْ بَلَدِكُمْ[3].

كما تَحتمِلُ الجملةُ أن تكون استئنافًا بيانيًّا[4]، فتكون كالتَّفسيرِ لكفرِهم وفَرْطِ طُغْيانِهم، كأنَّه قيل: كيف كفروا بما جاءَهم من الحقِّ؟

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 134.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 135.
(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.

فأجيب: بأنَّهم كفروا أشدَّ الكفرِ بإخراج الرّسول ﷺ والمؤمنين لإيمانِهم خاصَّةً لا لغرضٍ آخرَ(1)، فيكونُ إخراجُ الرّسول والمؤمنين عينَ الكفر على سبيل المبالغة(2)؛ تشنيعًا لفعلِهم، ولقصدِهم إخراجَ الحقِّ من عندِهم وكرهِهم له. وفيه تشريفٌ لقَدْرِ الإيمان عند اللّٰه تعالى، حتَّى جعَلَ إخراجَ المؤمنين من ديارِهم بسبب إيمانِهم كفرًا يستحِقّون العقابَ لأجله.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿يُخۡرِجُونَ﴾:

تفظيعُ إخراجِ المؤمنين من بلادِهم بسببِ إيمانِهم واتِّباعِهمُ الحقّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن إخراج المشركين للنَّبيِّ والمؤمنين بصيغةِ المضارع ﴿يُخۡرِجُونَ﴾؛ لاستحضارِ الصّورَةِ؛ أي: لاستحضار الحال الماضية؛ أي: جَعْلِها بصورة الحاضر، لِما فيه من مزيدِ الشّناعة لفعلِهم(3)؛ لأنَّ الجملةَ الفعليَّة ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾ لمّا وقعتْ حالًا من ضميرِ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾ كانَ إخْراجُ الرَّسول ﷺ والمُؤْمنينَ في تِلْكَ الحالَةِ عَمَلًا فَظيعًا، فَأُريدَ اسْتِحْضارُ صورَةِ ذَلِكَ الإخْراجِ؛ لِعظيمِ فَظاعَةِ اعْتِلالِهِمْ لَهُ(4).

كما أنَّه لمّا كان المضارعُ يفيدُ تجدُّدَ الزّمن حالًا بعد حال أفادَ دوامَ أذاهم لِمَن آمَنَ المقتضي لخروجِهِ عن وطنه(5)، كما أفادَ أنَّ الكافرين مستمرّون على موقفِهم من النَّبيّ والمؤمنين، وأنَّه لو عاد النَّبيُّ والمؤمنون إلى ديارهم بمكَّةَ لأخرجهم المشركون منها، بما يلاحِقونهم به من أذًى وضرٍّ، كما أنَّ الكافرين لم يَزَلْ هذا موقفَهم من المؤمنين الَّذين كانوا في مكَّةَ، ولم تُتَحْ لهم فرصةُ الهجرة لسببٍ أو لآخر(6).

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 261.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 43.
(3) الشّربيني، السّراج المنير: 8/ 235، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 261.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 135.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 487.
(6) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 892.

دلالةُ إسنادِ الفعلِ ﴿يُخۡرِجُونَ﴾ إلى ضميرِ الجمع:

تَواطُؤُ الكافرين علـى إخـراجِ المؤمنين، بسببِ عَـداوتِـهـم للهِ وكُفرِهم بالحقّ

أُسنِدَ الفعلُ ﴿يُخۡرِجُونَ﴾ إلى ضمير الجمع العائدِ إلى ﴿عَدُوِّي﴾، والإخراجُ صَدَرَ عن بعضِهم لا عن جميعِهم؛ لِما اتَّصَفَ به من الحالِ في قولِه: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ﴾؛ ليُفيدَ تواطُؤَهم جميعًا على إخراج الرّسول وإخراجِكم، بسبب عداوتِهم للّه تعالى ولكم، وبسببِ كفرِهم بالقرآن وبما جاء به رسولُ اللّه ﷺ؛ فلمّا كان جميعُهم راضينَ بما صدَرَ عن بعضِهم من أذى المؤمنين - وربَّما أغْرَوا سفهاءَهم - ناسَبَ إسنادُ الفعل إلى ضميرِ الجمع[1].

غرضُ تقديمِ ذكرِ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ على الضَّمير (إيّاكم):

تقديمُ الأصلِ هو الأصـلُ، وبيانُ المقصودِ تفظيعٌ للمطلوب

ورَدَ النَّظم الكريمُ بتقديمِ ذكرِ الرّسول على الضّمير العائد على المؤمنين في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾، دون أن يقول مثلًا: (يُخرجونكم والرَّسولَ)؛ لئلّا يفوتَ تقديمُ رتبةِ الرّسول ﷺ في الكلام بذكر الضَّمير قبله، فقُدِّمَ ذكر الرّسول ﷺ؛ لئلّا يكون تابعًا لغيره[2]، بيانًا لِشَرَفِه ﷺ، ولِأنَّه الأصْلُ لِلۡمُؤۡمِنينَ بِهِ[3]؛ فلولاه ﷺ لَمَا آمن المؤمنون، فتقديمُ ذكره لبيانِ أنَّه المقصود بالإخراج، والمؤمنون تَبَعٌ له، وبه يزدادُ جُرۡمُهم وذنبُهم؛ تشنيعًا على مَنۡ تجاسَرَ على مثلِ ذلك الفِعلِ الفَظيعِ[4]، وكلُّ هذا تحفيزٌ للمؤمنين على سرعةِ الامتثال للنَّهي وإلهابٌ لقلوبِهم ومشاعرِهم.

توجيهُ تخصيصِ الإيمانِ بالذِّكر ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾:

عـلَّـةُ عَـداوةِ المـشـركين هي إيـمـانُ المؤمنين باللهِ ربِّ العالمين

تعلَّقَ المصدرُ المؤوَّلُ ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾ بالفعلِ ﴿يُخۡرِجُونَ﴾، وهو في مجرورٌ بحرفِ جرٍّ مقدَّرٍ، فيكون المصدرُ المؤوَّلُ تعليلًا للفعل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 135.

(2) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين، النّساء: 2/ 310.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 153، وابن عادل، اللباب: 19/ 8.

(4) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 4/ 111.

﴿يُخۡرِجُونَ﴾ وبيانًا لسبب إخراجِكم[1]، وتقديرُ الكلام: يُخرجون الرّسولَ وإيّاكم لأنْ تُؤمنوا باللّه ربِّكم؛ أي: لإيمانِكم باللّه ربِّكم[2]، وليس لهم سببٌ آخرُ سواه.

وسرُّ التّعبير بالمصدر المؤوّل دون الظّاهر؛ إذ لم يقل: (يُخرجون الرَّسولَ وإيّاكم لإيمانِكم باللّه ربِّكم) هو أنَّ التَّعبيرَ بالمصدر المؤوّل يفيدُ أنَّ إيمانَهم هو الإيمانُ المعتدّ به، وأنَّهم اتّصفوا بحقيقة الإيمان، وأنَّ اتّصافَهم بحقيقة الإيمان واستمرارَهم عليه هو الَّذي أغاظ الكفّارَ ودفَعَهم إلى إخراجِهم من دون احتمالٍ لأمرٍ زائدٍ عليه؛ من كونِهم أقرباءَ للمشركين أو غُرَباءَ عنهم، أو كونِهم أغنياءَ أو فقراء، أو قُدَماءَ في الإيمان أو حديثي عهدٍ به، إلى غير ذلك من الأحوالِ أو الأوصافِ الأخرى الَّتي قد تكونُ سببًا للإخراج؛ فبمجرَّدِ تحقُّق الإيمان وقَعَ من المشركين إخراجُ المؤمنين، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج: 8].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾:

ثَـبــاتُ أهــلِ الإيـمـانِ مِـهْـمـازُ كيدِ الفُجّار

جيءَ بصيغة المضارع في قولِه: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ إيمانِ المؤمنين وتجدُّدِه[3]، وفيه إيماءٌ إلى ثباتِ المؤمنين على إيمانِهم، وأنَّ إخراجَهم من بلدِهم وما حصل لهم من الأذى والضّيق لم يَصُدَّهم عن الإيمان[4]، فما دام المؤمنون على الإيمانِ فإنَّ الإخراجَ وعيدُ المتربِّصين، وعزمُ المشركين، ورغبةُ المنافقين.

دلالةُ تقييدِ فعلِ الإيمانِ ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾ بشبهِ الجملة ﴿بِٱللَّهِ﴾:

المؤمنُ الحقُّ هو الَّذي يَستحضِرُ المعيَّةَ الإلهيَّةَ في كلِّ وقت

قُيِّدَ الفعلُ ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ بشبهِ الجملة ﴿بِٱللَّهِ﴾، ولم يأتِ الفعلُ مطلقًا؛ للإيماءِ إلى أنَّ إيمانَ المؤمنين هو الإيمانُ الحقُّ المعتدُّ به،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 466.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 487.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 135.

وهو الإيمانُ باللّه تعالى وحده؛ ففيه تعريضٌ بالمشركين الَّذين يُؤمنون باللّه ويُشركون معه آلهةً أخرى. ولمّا كان إيمانُ المؤمنين باللّه وصفًا لازمًا لهم دلَّ على أنَّ المؤمنَ الحقَّ هو الَّذي يَستحضِرُ معيَّةَ اللّه تعالى في جميع أوقاتِه.

بلاغةُ التَّغليب في قوله تعالى: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾:

النَّهيُ عن اتِّخاذِ عدوِّ الله وعدوِّ المؤمنين أولياءَ منوطٌ بالإيمان

لمّا سبَقَ الفصلُ بين الرّسول والمؤمنين في قوله تعالى: ﴿يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾، وجاءَ الخطابُ في صدر الآيةِ بنداءِ المؤمنين دون الرّسول عادَ في قوله تعالى: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ﴾ الخطابُ للمؤمنين، وليس الخطابُ خاصًّا بهم دون رسول اللّه ﷺ، بدليلِ أنّه تعليلٌ للإخراج، والإخراجُ يشملُ الجميعَ، ففُهِم من ذلك أنّه على سبيلِ التَّغليبِ الأسلوبيِّ، في اشتمالِ الخطابِ للرَّسولِ ﷺ ولجميع المؤمنين، تقريرًا لتعظيم شأنِ الإيمانِ ولكثرة أهلِه(1). وفيه إشعارٌ بأنَّ الحكم - وهو النّهي عن اتّخاذ عدوّ اللّه وعدوّ المؤمنين أولياءَ - منوطٌ بالإيمانِ لا بخصوصِ الرّسالة؛ فهم يُخرجون الرّسولَ ويخرجونكم من دياركم وأهليكم لا من أجلِ شيءٍ سوى أنَّكم آمنتُم باللّه ربِّكم، فهم يُعادونكم لإيمانِكم باللّه ربِّكم.

بلاغةُ الالتِفات:

تعظيمُ شأنِ المعبودِ غرضُ كلِّ خِطابٍ مقصود

في قوله تعالى: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ التِفاتٌ منَ التّكلُّمِ إلى الغَيْبة؛ ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ﴾ جاءَ النَّظمُ بضمير المتكلِّم ﴿عَدُوِّي﴾، وفي قوله: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ﴾ جاء النَّظمُ بالاسمِ الظّاهر الدّالِّ على الغَيبة، ولم يقل: (أنْ تؤمنوا بي)، والسَّببُ هو الإشعارُ بما يوجِبُ الإيمانَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 183، والقونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 43.

من الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ[1]، وتعظيمُ شأنِ المعبود ﷻ وتفخيمُهُ، وللدَّلالة على أنَّ ما يوجِبُ الإيمانَ ويَستلزِمُ مُقتضَياته هو كونُهُ معبودًا بحقٍّ وربًّا لكم؛ فما ذُكِرَ يدلُّ على استجماعِهِ للصّفاتِ الكماليَّةِ عمومًا، وعلى اتِّصافِهِ بربوبيَّتِهِ خصوصًا[2].

بلاغةُ الجمعِ بينَ عُنوانِ الألوهيَّةِ والرُّبوبيَّة:

لمّا جاءَ التّعبيرُ بعنوانِ الألوهيَّةِ بذكر الاسمِ الجليل في قوله تعالى: ﴿أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أردَفَهُ بما يَقتضي وجوبَ ذلك لإحسانِهِ ونِعَمِه، فقال: ﴿رَبِّكُمۡ﴾[3]، فجمَعَ بين وصْفَيِ الإلهيَّة والرُّبوبيَّة إشعارًا بتمام إيمانِهم، وبيانًا لقبحِ صنيع المشركين في مُحارَبةِ مَن جمَعَ بينَ توحيدِ الألوهيَّةِ في العبادة، والرُّبوبيَّةِ في الخلق والتَّربية والرِّزق.

دلالةُ إضافةِ لفظةِ (الرَّبِّ) إلى ضميرِ المخاطَبين ﴿رَبِّكُمۡ﴾:

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿رَبِّكُمۡ﴾ إلى ضميرِ المخاطبين؛ للإيماءِ إلى تربية اللّه لهم ودوام إحسانِه بهم، وأنَّه لن يَخذُلَهم بخُروجِهم من بلدِهم. والإضافةُ بمعنى اللّام.

السِّرُّ البلاغيُّ في تقديمِ النَّهي على الشَّرطِ دونَ العكس:

جاء الشَّرطُ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾ متعلِّقًا بالنَّهيِ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، وتقديرُ الكلام: لا تتَّخِذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء إنْ كنتم خرجتم، ومجيءُ الشّرط في هذا المَقام بعدَ النَّهي من أبلغ الأساليبِ الَّتي يُقصَدُ بها تتميمُ ما قبلَهُ من الكلام والمبالغةُ فيه، دونَ قصدِ تعليق ما قبلَهُ بمضمون فعل الشَّرط؛ وذلك من أجل تهييجِ حَميَّةِ المؤمنين وتقريرِ إيمانِهم؛ فإنَّ تقديمَ المشروط أو ما

إحسانُ اللهِ تعالى وإنعامُهُ دليلٌ على ألوهيَّتِهِ ووجوبِ الإيمانِ به

ربُّكم في بلدِكم هو ربُّكم في غيرِه، ولن يَترُكَكم ويَخذُلَكم إنْ أخرَجوكم

براعةُ النَّظمِ القرآنيِّ في تقديمِ المَشْروطِ على الشَّرطِ؛ لقصدِ الإيذانِ بتحقُّقِ مَضمونِه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 235، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 261.

(2) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 183.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 487.

في مَقامِه على الشّرط يقتضي حصولَ مضمونِه، وأنَّه أمرٌ محقَّقٌ لا سبيلَ للشّكِّ فيه، فلمّا قال: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ كان الكلامُ بتقديرِ: لا تتَّخِذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء إنْ كنتم خرجتم في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي، وهو كقول القائل: لا تتولَّوا أعدائي إنْ كنتم أوليائي، ولو قيل: إنْ كنتم أوليائي فلا تتولوا أعدائي لم يكن بنفس المعنى؛ لأنَّ الشَّرط المذكور في الآية كالتّعليل للنَّهي عن الاتّخاذ المذكور، وهو يقتضي حصولَ مضمونِ النَّهي قبل ذلك؛ بمعنى: أنَّ انتهاءَ المؤمنين عن اتِّخاذِ عدوِّ اللّه وعدوِّهم أولياءَ أمرٌ متحقِّقٌ مضمونٌ، فالمقصودُ استقرارُ النّهي عن اتِّخاذ عدوِّ اللّه أولياءَ، والوثوقُ بأنَّ الَّذين نُهوا عن الاتِّخاذ مُتلبِّسون بمضمونِ الشَّرط بلا ريبٍ، فكان ذكرُ الشَّرطِ ممّا يزيدُ في الانكِفافِ عن الاتِّخاذ المذكور، ففيه مدحٌ للمؤمنين وتهييجٌ لهم. فهذا الأسلوبُ هو مِن الشَّرط الَّذي يجيءُ به المُدِلُّ بأمره، المُتحقِّقُ لصحَّته؛ لأنَّ الشَّرط فيه كالتَّعليل للنَّهي(1).

فلا يُقصَدُ من الشَّرطِ أنَّه إذا انتفى فعلُ الشّرط انتفى ما علِّق عليه كما هو الشَّأنُ في الشُّروط، بل يُقصَدُ به تأكيدُ الكلامِ الَّذي قبله بمضمونِ فعل الشَّرط، وإنْ قيل بالعكس - أي: (إنْ كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتَّخذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء) - لاختلَفَ الغَرَضُ والمعنى، وكان الشَّرط لمجرَّدِ التّعليق، والجوابُ حينئذٍ معلَّق بالشّرط، فقد يقعُ وقد لا يقع، لاسيّما أنَّ الشَّرطَ قد عُلِّقَ بالأداةِ ﴿إِن﴾، فلا يفيدُ تحقُّقَ مضمونِ النّهي، فكان تقديمُ النَّهي على الشَّرطِ في الآية أَقْضَى لحقِّ البلاغةِ والغرضِ الَّذي سيقَ له الكلامُ. وهذا التَّوجيهُ هو الَّذي ارتَضاهُ الزَّمخشريُّ وأبو السُّعود وابنُ عاشورٍ وغيرُهم(2).

وأمّا ما جاء في بعض التَّفاسير وما ذكره بعضُ النَّحويين؛ مِن تقديرِ جواب الشَّرطِ من المذكور قبلَهُ فهو لأجلِ بيان المعنى وإيضاحِه، وتقديرُ الكلام عندهم: إنْ كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتَّخذوا عدوّي وعدوَّكم أولياء(3).

---

(1) الطّيبي، حاشية على الكشاف: 15/ 351.

(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 236، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 136 - 137.

(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 165، وابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 294، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/ 153.

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ المُركَّبِ في أسلوبِ الشَّرط:

لمّا كان الشَّرطُ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِيۚ﴾ قد جيءَ به لقصد أنَّ انكفافَ المؤمنين عن اتِّخاذِ عدوِّ اللّه أولياءَ متحقِّقٌ ومضمونٌ، بحيث لا يُتوقَّعُ من السّامع أن يحصلَ منه غيرُ مضمونِ فعل الشَّرطِ كانت صيغةُ الشَّرطِ مرادًا بها تحذيرُ المؤمنين؛ لأنَّ معنى الشَّرطِ يلزمُهُ التَّردُّدُ غالبًا؛ أي: بسببِ أصلِ وضعِه، فيكونُ قد ذكَرَ الشَّرطَ وأرادَ التَّحذيرَ من عدمِ فعلِه على طريق المجاز المرسل المركَّب[1].

الشَّرطُ أسلوبٌ ظاهرٌ، ومقصودُهُ التَّحذيرُ من عدمِ فعلِ مضمونِه

بلاغةُ ذكرِ فعلِ ﴿كُنتُمْ﴾:

آثَرَ النَّظمُ الكريم ذكرَ الفعل ﴿كُنتُمْ﴾ دون حذفه، فلم يقل: (إنْ خرجتم جهادًا في سبيلي)؛ لِما يدلُّ عليه فعل الكون من تحقُّقِ حصول الشَّرطِ وتأكيدِه[2]؛ بمعنى: أنَّ خروجَ المؤمنين لأجلِ الجهاد في سبيل اللّه هو كونٌ راسخٌ[3]، وهو دَيدَنُهم في الأفعال والأوقات كلِّها.

دَيدَنُ المؤمنين جهادُ الكافرين

نوعُ تعلُّقِ جملةِ الشَّرطِ بجملةِ النَّهي:

لمّا كانت جملةُ الشَّرطِ ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ متعلِّقةً بجملةِ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ كانت على معنى تعلُّقِ الحالِ بعاملِها، بمعنى: لا تتَّخذوا عدوّي وعدوّكم أولياءَ والحالُ حالُ كونكم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاءَ مرضاتي. وهذا التَّوجيهُ ذكره الزّمخشريُّ، بناءً على أنَّ شَرْطَ (إنْ) و(لو) الوصليّتين يعتبر حالًا، ولا يُعكِّرُ عليه أنَّ شرطَهما يَقترِنُ بواو الحالِ والَّذي في الآية لم يَقترِنْ بواو الحال؛ لأنَّ ابنَ جنّي والزَّمخشريَّ سوَّغا خُلوَّ الحالِ في مثلِه عن الواو، والبلاغةُ والاستعمالُ يَشهدانِ لهما[4].

تعمَلُ جملةُ النَّهي في جملةِ الحالِ؛ لقوَّةِ التَّعلُّقِ بينَهما

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 136.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 136.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 487.

(4) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 261، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 137.

قرينةُ سببِ النُّزولِ تُخصِّصُ الخِطاب

تخصيصُ عموم النِّداء بضميرِ الخِطاب:

قولُه ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ عامٌّ يَشمَلُ المؤمنين جميعًا، لكنْ لمّا كان المرادُ بالخروج في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ﴾ الخروجَ مِن مكَّةَ مُهاجِرةً إلى المدينةِ كان مرجعُ الخطاب للمهاجرين خاصَّةً؛ لأنَّ القصَّة صَدَرَتْ عن حاطبِ بن أبي بلتعةَ وهو منهم، وفي ذلك تخصيصٌ للعموم المفهومِ من قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

نيَّةُ الخروجِ للجهادِ لا يُعكِّرُ عليها إخراجُ الكَفَرةِ المؤمنين مِن بلادِهم

بلاغةُ تعليلِ الخروجِ بالجهادِ وابتغاءِ المَرْضاة:

جاءَ لفظُ ﴿جِهَٰدٗا﴾ بصيغةِ المصدرِ مفعولًا لأجلِه للفعل ﴿خَرَجۡتُمۡ﴾؛ ليُفيدَ تقييدَ خروجِهم لغرضِ الجهاد في سبيل اللّه تعالى، ومثلُه في مجيئِه مفعولًا لأجلِه قولُه: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾؛ بمعنى: أنَّ الغايةَ الَّتي كانت في قلوب المؤمنين عندَ خروجِهم هي الجهادُ في سبيل اللّه وابتغاءُ مرضاتِه، وإسنادُ الخروجِ إليهم مُعلَّلًا بالجهادِ والابتغاءِ يدلُّ على أنَّ المرادَ من إخراجِ الكَفَرةِ كونُهم سببًا لخُروجِهم، بأذيَّتِهم لهم والتَّضييق عليهم، فلا يُنافي تلك السَّببيَّةَ كونُ إرادةِ الجهادِ والابتغاءِ علَّةً للخروج[1].

الجمعُ بينَ حُقوقِ العبادِ وحقِّ اللهِ تعالى

بلاغةُ عطفِ (ابتغاءِ مَرْضاةِ الله) على (الجهاد):

في قولِه تعالى: ﴿جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾ جمعٌ بينَ غرضين للمؤمنين في خروجِهم - وهو جمعٌ محمودٌ - **أحدُهما**: الجهادُ في سبيلِه بمعنى تسهيلِ الطَّريقِ الَّتي شرَعَها اللّه لعبادِه لكي يَسلُكوها. **والثّاني**: ابتغاءُ مرضاتِه سبحانه، فجَمَعَ في هذين الغرضَينِ ما يتعلَّقُ بحقوق العباد في دعوتِهم للإسلام، وما يتعلَّقُ بحقِّ اللّه تعالى، وهو إخلاصُ النِّيَّةِ له. وعطفُ (ابتغاءِ مرضاةِ اللّه تعالى) على (الجهادِ في سبيل اللّه) من بابِ التَّتميم والتَّكميل؛ فإنَّ

(1) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 29/ 194.

مَن يجاهدُ في سبيل اللّه تعالى طالبٌ لمرضاةِ اللّه سبحانه. ومَنْ كان حالُهُ الجهادَ في سبيل اللّه وابتغاءَ مرضاتِهِ فإنَّه لا يتَّخِذُ عدوَّ اللّه وعدوَّ المؤمنين أولياء؛ ففيه تعجيبٌ ممَّن يفعلُ هذا وتوبيخٌ له.

تصويرُ اجتهادِ المؤمنين في طلبِ مَرْضاةِ الله

نكتةُ إيثارِ مفردةِ ﴿وَٱبۡتِغَآءَ﴾:

أوثِرَتْ مفردةُ الابتغاءِ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾ دون أن يقال مثلًا: طلبَ مرضاتي؛ لأنَّ الابتغاءَ هو الاجتهادُ في الطّلب[1]، مع السَّعي في حصولِ المطلوب والرَّغبةِ فيه، كما تدلُّ المفردةُ على التَّزايُدِ في الطَّلبِ حتَّى اكتمالِهِ؛ ليُفيدَ استمرارَ ابتغائِهم مرضاةَ اللّه. فسببُ إيثارِ لفظِ الابتغاءِ هو الإشعارُ باجتهاد المؤمنين في الحصول على مرضاة اللّه، وشدَّةِ رغبتِهم فيه، مع طلب الزّيادة في الاجتهاد. ولو قيل: (وطلبَ مرضاتي) لفاتَتْ هذه المعاني.

زيادةُ المَبْنى تدلُّ على زيادةِ المعنى

فائدةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ الميْميّ:

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المصدر الميميِّ ﴿مَرۡضَاتِيۚ﴾ دونَ المصدر الصَّريح (رِضاي)؛ للمبالغةِ في الدَّلالة على الرِّضوانِ؛ لأنَّ المصدرَ الميميَّ أبلغُ من جهةِ الزّيادة في المبنى.

سبيلُ اللهِ ليس كسائرِ السُّبُلِ، ومرضاتُهُ ليستْ كأيِّ مَرْضاةٍ

نكتةُ الإضافةِ إلى ضميرِ المتكلّمِ في ﴿سَبِيلِي﴾ و﴿مَرۡضَاتِيۚ﴾:

أُضيفَ لفظُ السَّبيلِ والمرضاةِ إلى ضميرِ ياءِ المتكلِّم العائدِ إلى اللّه تعالى؛ للإيذانِ بتخصيص السّبيل والمرضاة باللّه تعالى؛ بمعنى: أنَّ الجهادَ المطلوب هو الَّذي يكون في سبيل اللّه تعالى لا في سبيل غيرِه، ومثلُهُ الابتغاءُ، كما أنَّ في الإضافة تشريفًا للمضاف؛ أي: تشريفَ سبيلِه ومرضاتِه ﷻ؛ فسبيلُهُ ليس كسائرِ السُّبل، ومرضاتُهُ ليست كأيِّ مرضاةٍ.

علَّةُ فَصْلِ جملةِ ﴿تُسِرُّونَ﴾:

يُحتمَلُ أن تكونَ جملةُ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ من بابِ شبهِ كمالِ

(1) الرّاغب، المفردات: (بغي).

تنوُّعُ الإعرابِ صادرٌ عن كثرةِ المعاني وسَعَتِها

الاتِّصالِ استئنافًا بيانيًّا[1]؛ لغرضِ العتابِ والتَّوبيخِ، كأنَّهم سألوا: ماذا صدَرَ عنّا حتّى عوتِبْنا؟ فقيل: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾[2]؛ أي: أيُّ طائلٍ لكم في إسرارِكم المودَّةَ إليهم؟! ليفيدَ بلازِمِه أنْ لا نفعَ لكم فيه[3].

ويُحتمَلُ أن تكون الجملةُ بدلَ اشتمالٍ من ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم﴾ من بابِ كمالِ الاتِّصال؛ لأنَّ الإسرارَ إليهم بالمودَّة ممّا اشتمَلَ عليه الإلقاءُ إليهم بالمودَّة، فيكون المرادُ بيانَ نوعِ الإلقاء الواقع[4].

ويُحتمَلُ كذلك أن تكونَ بدلَ بعضٍ من كلٍّ[5]؛ لأنَّ الإلقاءَ إليهم بالمودَّة يكون سرًّا وجهرًا، فأُبدِلَ منه بعضُهُ - وهو الإسرار - على سبيلِ بدل بعضٍ من كلٍّ، والغرضُ تقريرُ الإسرارِ إليهم بالمودَّة بعدَ إثباتِ إلقائها بزيادةِ بيانٍ وإيضاحٍ. وهذه المعاني كلُّها صحيحةٌ وسليمة.

فائدةُ الخبرِ وغرضُهُ:

حَسْبُ الأمرِ شناعةً ألّا يكونَ له وجهٌ يَظهَرُ به في النّاسِ

غرضُ الخبر في قولِه تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ التّوبيخُ على الفعل[6]، وإنكارُهُ[7]، وتقبيحُهُ، والتَّعجيبُ منه؛ فالتَّوبيخُ مستفادٌ من إيقاعِ الخبر بعد النَّهي في قولِه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾. وتقبيحُهُ مستفادٌ من أنَّ إسرارَكم هذه المودَّةَ دليلٌ على أنَّها أمرٌ تستقبِحونه أنتم وتُنكِرونه، ويَستقبِحُهُ المؤمنون عليكم، فلو كان غيرَ مُستقبَحٍ وغيرَ مُنكَرٍ لأعلنتُموه، فإخفاءُ هذه المودَّة الَّتي بين بعضِ المؤمنين وبين المشركين شاهدٌ على أنَّها

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 137.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 236.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 45.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 153، والشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 19/ 10.
(5) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 45.
(7) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184.

ممّا يُعاب على المؤمن، وممّا ينبغي سترُهُ وإخفاؤه، وحَسْبُ الأمرِ شناعةً ألّا يكون له وجهٌ يَظهَرُ به في النّاس، فإنْ ظهَرَ كان فضيحةً لصاحبِهِ[1]. والتَّعجيبُ مستفادٌ من تعقيبِه بجملةِ ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾؛ أي: كيف يخفى عليكم أنَّ إسرارَكم إليهم يخفى علينا؟! ولا نُطلِعُ عليه رسولَنا[2]؟!.

وقد دلَّ الخبرُ ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ بطريقِ لازم الفائدةِ على صدق رسالةِ سيِّدنا محمَّدٍ ﷺ؛ لأنَّ حاطبَ بنَ أبي بلتعةَ لم يُطلِعْ على سرِّه أحدًا، وقد أطلَعَ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ، حيث أخبَرَهم بالكتاب، فثبَتَ أنَّه عَلِمَهُ بالوحي[3].

فائدةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِم﴾ على ﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ في الموضعين:

تخصيصُ المشركين بالمودَّةِ والإسرارِ مِن أشنَعِ الأمورِ وأقبحِها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿إِلَيۡهِم﴾ على ﴿بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ وفي قولِه تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيص، وفي ذلك تقبيحٌ وتوبيخٌ لمن يفعلُ ذلك، لأنَّ فعلَهُ مختصٌّ بكونِه إلى عدوِّ اللّه؛ فإنَّ إلقاءَ المودَّةِ والإسرارَ بها إلى أولياءِ اللّه أمرٌ ممدوحٌ؛ لأنَّه ينفعُ المؤمنين، أمّا أنْ يكون ذلك مختصّا بالمشركين المُعادينَ للّهِ ولرسولِهِ فذلك شنيعٌ وقبيح.

يضافُ إلى ذلك: أنَّ المشركين كانوا على بُعْدٍ من المؤمنين في الشُّقَّة المكانيَّة، وهم بعيدون عنهم في الشُّقَّةِ النَّفْسيَّة، فناسَبَ تقديمُ القيدِ ﴿إِلَيۡهِم﴾؛ للإيحاءِ بقُرْبِهم ممَّن يُلقي إليهم بالموادَّة والإسرار.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

استحضارُ الإسرارِ وتقبيحُهُ

أوثِرَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع في قوله: ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ لاستحضارِ حالِ الإسرار، وفي ذلك تقبيحٌ لحالةِ الإسرارِ بالأخبار إلى عدوِّ اللّه بدافع المودَّة؛ ليدلَّ على فظاعةِ فعل الإسرارِ بمودَّة الكَفَرة.

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 893.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 138.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 608.

هذه الباءُ كتلك الباء

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

الكلامُ على الباءِ هنا جارٍ مَجرى الكلامِ عليها في قوله تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، فتَحتمِلُ الباءُ في قولِه تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أن تكون للسّببيَّة[1]؛ أي: تسرّون إليهم أخبارَ الرَّسول ﷺ بسبب المودَّة، وتَحتمل أن تكون صلةً؛ لتوكيدِ دلالةِ الفعل ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ أي: تسرّون إليهم المودَّةَ[2].

إسرارُ المودَّةِ للكافرين من أعمالِ الغافلين

غرضُ حذفِ المفعول:

حُذِفَ مفعولُ ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ إمّا لأنّه عومِلَ معاملةَ اللّازم؛ لبيان أنَّ أيَّ إسرارٍ لعدوِّ اللّه منكرٌ وقبيح ولا نفعَ فيه؛ فالإنكارُ قائمٌ بمجرَّد فعلِ الإسرار لعدوِّ اللّه، فكيف إذا تعلَّقَ الإسرارُ بحديثٍ أو خبرٍ ينكشف به أمرُ المؤمنين؟! وإمّا للإيجاز، على تقدير الكلام من السّياق، وتقدير الكلام: تسرّون إليهم الأخبارَ بالمودَّة؛ أي: بسبب المودَّة.

الواوُ تَحتَمِلُ الحالَ والاعتراضَ، والمآلُ مُتقارِب

نوعُ الواوِ وفائدتُها في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾ حاليَّةٌ[3]، فتكون جملةُ (أناْ أعلَمُ بِما أخفَيتُم وما أعلَنتُم) في محلِّ نصبٍ على الحال من الضّمير في ﴿تُسِرُّونَ﴾، وهي حالٌ لازمةٌ. وفائدةُ مجيء جملة الحال هي التَّعجيبُ من حالِ الإسرار إليهم بالمودَّة مع أنَّه تعالى أعلمُ بما أخفَوا وما أعلنوا، والمعنى: أيُّ طائلٍ لكم في إسرارِكم والحالُ أنّي أعلمُ منكم بما أخفيتم وما أعلنتم؟! وقد علمتُم أنَّ الإخفاء والإعلان سيّانِ في علمي لا تفاوتَ بينهما، وأنا مُطّلِعٌ رسولي على ما تسرّون[4]!

وأجاز ابن عاشور أن تكون جملةُ (أناْ أعلَمُ بِما أخفَيتُم وما

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 134، والسمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 298.

(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 134، والسّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 298.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 236، واسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 474.

(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512.

أعلَنتُم) اعتراضيَّةً؛ لتفيدَ الجملةُ التَّعجيبَ[1] من الإسرار بالمودّة إلى الكافرين عمومًا، ويدخلُ فيه المعرَّضُ به وهو حاطب بن أبي بلتعة دخولًا أوّليًّا، فمآلُ الوجهين في توجيهِ الجملة واحدٌ، واللّٰه تعالى أعلم.

علَّةُ استعمالِ الضَّميرِ دونَ لفظِ الجلالة:

الاتِّساقُ مع السَّوابِقِ من عِلَلِ الاختيار

أوثِرَ التَّعبيرُ بضمير المتكلّم (أنا) على أن يقالَ: (واللّٰهُ أعلمُ بما أخفيتم وما أعلنتم)؛ للمناسبة؛ فالسّياقُ من أوَّلِه استَعمَلَ ضميرَ المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى﴾، وقولِه: ﴿سَبِيلِى﴾، وقولِه: ﴿مَرۡضَاتِىۚ﴾؛ فعُبِّرَ هنا بضمير المتكلِّم ليكونَ موافقًا للسّياق. كما أنَّ التَّعبير بضمير المتكلِّم الدّالِّ على الخصوصيَّة أوفَقُ للإخبارِ بكونِه تعالى هو الأعلمَ بما أخفيتُم وما أعلنتم.

فائدةُ استعمالِ اسمِ التَّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾:

الدَّلالةُ على كمالِ العلمِ الإلهيِّ، والمبالغةُ في بيانِ ذلك

لا يدلُّ اسمُ التّفضيل في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ﴾ على حقيقةِ المفاضلة، وأنَّ غيرَ اللّٰه تعالى له عِلْمٌ، وأنَّ علمَه تعالى أكثرُ من علمِ غيرِه وأفضلُ منه؛ لأنَّ أفعلَ التَّفضيل في أوصافِ اللّٰه تعالى ليستْ على بابِها، وإنّما يُؤتى بأفعلِ التَّفضيلِ في أوصاف اللّٰه تعالى كما في ﴿أَعۡلَمُ﴾ للدَّلالةِ على تمامِ علمِه وكمالِه، بحيث لا علمَ فوقَ علمِه سبحانه، وليفيدَ أنَّ العبادَ مهما عَلِموا أشياءَ فاللّٰهُ على علمٍ أوسعَ من علمِهم، وما عَلِموا شيئًا إلّا من بحارِ علمِه سبحانه.

على أنَّ بعضَ المُفسِّرين جوَّزَ أنْ يكونَ قوله تعالى: ﴿أَعۡلَمُ﴾ فعلًا مضارعًا، والباءُ في قولِه: ﴿بِمَآ﴾ إمّا صلةٌ لتوكيدِ تعلُّقِ معنى العلم بمفعولِه، وإمّا للتَّعديةِ، على حدِّ قولنا: عَلِمْتُ بكذا.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ﴾ تدلُّ على المصاحبة؛ لتفيدَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 138.

تأكيدُ تعلُّقِ علم اللهِ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرة

مصاحبةَ علم اللّهِ تعالى التّامِ لِما أخفَوهُ وما أعلنوه، فلا يَنفَكُّ علمُه تعالى عن كلِّ ما يُخفَى وما يُعلَن.

ويُحتمَلُ أن تكون الباءُ للتَّعدية؛ لأنَّ العلمَ يتعدّى بالباء، كقولنا: علمتُ به، وأنا عالمٌ بكذا. كما يُحتملُ أن تكونَ صلةً إنْ جُعل قولُه تعالى: ﴿أَعۡلَمُ﴾ فعلًا مضارعًا لا اسمَ تفضيلٍ، كما تقدَّم في الفقرة السّابقة.

دلالةُ الاسمِ الموصول (ما):

عمومُ عِلْمِ اللهِ تعالى لكلِّ شيء

أوثِرَ استعمالُ الاسم الموصولِ (ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَآ﴾ على (الّذي)؛ لإفادة معنى العموم؛ ليشملَ كلَّ ما يَدخُلُ في الخفاءِ وفي العلن، ولو أتى بـ(الَّذي) لأشعَرَ ذلك بتعلُّقِ علمِه سبحانه بشيءٍ خاصٍّ بعينه. والعائدُ على الاسم الموصول محذوفٌ، والتَّقديرُ: وأنا أعلم بما أسررتُموهُ وما أعلنتُموه.

على أنَّ (ما) تحتملُ المصدريَّةَ، والتَّقديرُ حينئذٍ: وأنا أعلمُ بإخفائِكم وبإعلانِكم، وحينئذٍ يتعلَّقُ علمُ اللّه تعالى بالحَدَث؛ أي: حَدَثِ الإخفاءِ وحَدَثِ الإعلانِ، وإذا كان كذلك فعلمُهُ سبحانه بالمُخفَى والمُعلَن أولى. ودلالةُ العموم نجدُها في كلا الاحتمالَين.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ الإخفاءِ دونَ الإسرار:

ذكــرُ الإخـفـاءِ تـعـلـيـلٌ للعلم بالإسرارِ؛ فاللهُ تـعـالى يـعـلـمُ السِّرَّ وأخفى

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإخفاء في قولِه تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ على مفردة الإسرار، فلم يَقُلْ: (بما أسررتم وما أعلنتم) مع أنَّه في الظّاهر مناسبٌ وأليقُ بقولِه تعالى قبلَهُ: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾، والسَّببُ هو قصدُ المبالغة في عموم علم اللّه تعالى، والمقامُ يقتضيه؛ فإنَّ الإخفاءَ أبلغُ من الإسرار؛ ليدلَّ على أنَّكم وإنْ أسررتُم إليهم بالمودّة فإنّه تعالى أعلم بما هو أدقُّ من إسرارِكم وهو الإخفاء. وقد دَلَّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ

﴿يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾ [طه: 7]؛ أي: أَخْفَى مِنَ السِّرِّ[1]، فالإخفاءُ هو ما يُخفيه الإنسانُ في نفسه عن الآخرين قصدًا، والإسرارُ يكون بينَ اثنين أو أكثرَ على سبيل الحفاظ على المُسَرِّ به؛ ولذلك أتى بذكرِ الإخفاء بعدَ ذكر الإسرار على سبيل التّعليل؛ أي: إذا كنتم تُسرّون إلى الأعداء بالمودّة فاللّٰه يعلمُ الأخفى من ذلك، فما بالُكم بالسّرِّ؟.

غرضُ حذفِ المفعول:

حُذِف مفعولُ الفعلين ﴿أَخۡفَيۡتُمۡ﴾ و﴿أَعۡلَنتُمۡۚ﴾، فلم يقل: (وأنا أعلم بما أخفيتموه وما أعلنتموه)؛ لإفادةِ عموم الاسم الموصول وعموم التَّعلُّق؛ بمعنى عمومِ تعلُّقِ علمِه تعالى بكلِّ ما يُخفى وما يُعلَن؛ ممّا يَرِدُ في هذا السّياق من إسرارِ المودَّة ونحوها، وغيرِه ممّا يكون في سائرِ مجالات الحياة، ويدخلُ فيه ما أخفوهُ من الإسرارِ إلى الكَفَرةِ بالمودَّة دخولًا أوَّليًّا.

لا يَخفى على اللّٰه شيءٌ من مَكنوناتِ النُّفوسِ ومُظهَراتِها

غرضُ تقديمِ ﴿أَخۡفَيۡتُمۡ﴾ على ﴿أَعۡلَنتُمۡۚ﴾:

قُدِّمَ ذكرُ الإخفاءِ على الإعلان في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾؛ لأنَّه المناسبُ للتَّعبيرِ باسم التَّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾، وهو المناسبُ كذلك للقصَّة الَّتي أسرَّ فيها الرّجل الأخبار[2]، كما أنَّ في تقديم الإخفاء تحذيرًا من بداياتِ وقوع الفعل من أوّل الأمر، وهو التّحدُّثُ في النّفس الَّذي يكون في السّرِّ أو يكون في الخفاء. وفيه إشعارٌ بالمبالغةِ في بيانِ شمولِ علمِه المحيطِ بجميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلْمَهُ بما يُسرّونه أقدمُ منه بما يُعلِنونه مع كونِهما في الحقيقةِ على السَّويَّة، كما أنَّ مرتبةَ السِّرِّ متقدِّمةٌ على مرتبة العلنِ؛ إذ ما من شيءٍ يُعلَنُ إلّا وهو - أو مَباديهِ قبل ذلك - يكون في السِّرِّ غالبًا[3].

بدايةُ العَلَنِ وأصلُهُ سرٌّ يَخفى في النَّفس

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 517.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 138.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 1/ 118.

بديعُ الطِّباقِ وبلاغتُهُ:

علمُ الله تعالى بـالـخـفـيّـاتِ والـجَـهْـريّـاتِ واحد

في قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ﴾ طباقُ التَّضادِّ بين الفعلين ﴿أَخۡفَيۡتُمۡ﴾ و﴿أَعۡلَنتُمۡۚ﴾، وهو طباقُ إيجابٍ، ومناسبةُ الطِّباق التَّصريحُ بتعميم علمِه تعالى بكلِّ شيءٍ، والتَّنبيهُ على تساوي ما في الخفاء وما في الجهر في علمِه ﷻ؛ فعلمُه تعالى بالخفيّات كعلمه بالجهريّات؛ إذ الخفاءُ واردٌ في حقِّ البشرِ؛ فلا يخفى على اللّه شيءٌ[1]؛ إذ الإخفاء والإعلان هو باعتبار حال الإنسان لا باعتبار علم اللّه تعالى، وذِكرُ علم اللّه بهما لدفعِ جهل الجاهلين وغفلة الغافلين.

غرضُ عطفِ جملةِ الشَّرطِ على جملةِ النَّهي:

اتِّخاذُ عدوِّ اللهِ أولـيـاءَ سببٌ لـلـضَّـلالِ عن الهُدى

عَطَفتِ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ﴾ جملةَ الشَّرطِ على جملةِ النَّهي ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، فجملةُ الشَّرط في حيِّز خطاب الَّذين آمنوا؛ فكأنَّه قيل: يا أيُّها الَّذين آمنوا مَن يفعله منكم فقد ضَلَّ سواءَ السّبيل. وأفادَ عطفُ جملة الشّرط على النّهي التَّوعُّدَ على عدمِ الانتهاء، بأنَّ مَن لم ينتهِ عمّا نُهيَ عنه فقد ضلَّ عن سواء السّبيل[2]. ويُلمَحُ في العطف معنى السّببيَّة؛ ليفيدَ أنَّ اتِّخاذَ عدوِّ اللّهِ أولياءَ سببٌ للضَّلالِ عن الهُدى.

دلالةُ اسمِ الشَّرطِ (مَن):

كلُّ مَن يَصدُرُ عنه ولاءٌ لغيرِ الإسلام فقد عـرَّضَ نفسَهُ للضَّلال

جاء التَّعبيرُ باسم الشّرط (مَن) الَّذي للعاقل، الدّالِّ على العموم، ولمّا كان الخطابُ مُصدَّرًا باسم الَّذين آمنوا أفاد اسمُ الشَّرط العمومَ لكلِّ مؤمنٍ باللّه ورسولِه. وقرَّرَ هذا المعنى قولُهُ: ﴿مِنكُمۡ﴾؛ أي: منكم أيُّها المؤمنون، والعمومُ في (مَن) على سبيلِ البدل من كلِّ المؤمنين فردًا فردًا، فأيُّ فردٍ يفعلُ هذا الفعلَ فقد ضلَّ سواءَ السّبيل.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 45.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 139.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

ارتكابُ المَنهيِّ ضلالٌ بَيِّن

يعودُ الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿يَفۡعَلۡهُ﴾ على الاتِّخاذِ المفهوم من الفعل ﴿تَتَّخِذُواْ﴾[1]، وتقديرُ الكلام: مَن يفعلِ اتِّخاذَ عدوّي وعدوِّكم أولياءَ بعدَ النَّهيِ والتَّحذيرِ فقد ضلَّ سواءَ السّبيل.

ويجوزُ أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿يَفۡعَلۡهُ﴾ عائدًا على الإسرارِ المفهوم مِن الفعل ﴿تُسِرُّونَ﴾، والتَّقديرُ: ومَن يفعلْ مِنكمُ الإسرارَ بالمودَّةِ إلى العدوِّ فقد ضلَّ سواءَ السَّبيل[2].

براعةُ تقييدِ الفعلِ بقولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾:

ليس لأحدٍ أنْ يحكمَ على عقيدةِ الآخرينَ بلَواحِقِ الأفعال

قُيِّدَ الفعلُ ﴿يَفۡعَلۡهُ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿مِنكُمۡ﴾، فلم يقل: (ومن يفعله فقد ضلّ سواء السّبيل)، و(مِن) هذه بيانيَّةٌ متعلِّقةٌ مع مجرورِها بمحذوفِ حالٍ من فاعلِ ﴿يَفۡعَلۡهُ﴾ المستترِ، والتَّقدير: ومَن يفعلْهُ حالةَ كونِه مِنكم، والتَّقييدُ بـ(مِن) هنا لبيانِ الحكم الظّاهر على مَن يفعلُ ذلك من المؤمنين، فجاءت الآيةُ لبيان الظّاهر، وهو أنَّ المؤمن يُحاسَبُ على أعمالِه، ولتَدفَعَ التَّشكيكَ في النّاس فلا يُتَّهمَ مَن يفعلُ ذلك بالنّفاق، فجُعِلَ مَن يَصدُرُ عنه ذلك ضالًّا بعدَ هدًى، لا أنَّه منافقٌ أصالةً، وذلك لبيانِ أنَّ الخطأ قد يَصدُرُ عن المؤمنين مِن دونِ تَبْييتِ النّفاق، وهذا يؤكِّدُ على أنَّ الأعمالَ مرتبطةٌ بظَواهرِها، وليس لأحدٍ أن يَتَّهِمَ آخَرَ بالنّفاق ولو صدَرَ عنه مثلُ هذا الصّنيع، فالحكمُ بالضّلال عن السّبيل إنّما يكون للمُهتدي الَّذي يفعلُ هذا الفعلَ، ومن هو ضالٌّ عن السّبيل لا يدخلُ في الحكم أصلًا؛ لأنَّ ضلالَهُ قد تقرَّرَ في الأصلِ، كما أنَّ التَّعجيبَ ممَّن يفعلُ هذا الفعلَ والحكمَ عليه بالضَّلال عن الهدى إنّما يكون للمؤمنين الَّذين يتَّخِذون العدوَّ أولياء.

---

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 262.

بلاغةُ الاستعارةِ وفوائدُها:

طريقُ الحقِّ واضحٌ مستقيمٌ، ومَن انحرَف عنه وقَعَ في الهلاكِ المُبين

قولُه تعالى: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ على طريق الاستعارةِ التَّصريحيَّة، بتشبيه المعنويِّ - وهو الحقُّ الواضحُ - بالحسّيِّ وهو الطَّريقُ المستقيم، حيث شبَّه الحقَّ والهدى وما يتبعه من الأعمالِ الصّالحةِ - ومنها تولّي اللّه ورسولِه والمؤمنين - بالطَّريق المستقيم الواضح. ووجهُ الشَّبهِ بلوغُ مَنْ سلك الحقَّ والهدى إلى بُغْيته، ووقوعُ مَن انحرَفَ عنها في الهلاك. ومِن فوائدِ الاستعارة تقريبُ المعنى وتوضيحُه بتجسيدِه بالطَّريق المستقيم، ومنها التَّأثيرُ في المتلقّي، حيث تجعلُه يتخيَّلُ الحقَّ وكأنَّه شيءٌ ماديٌّ ملموس، وهو ما يجعلُه أكثرَ إقبالًا على اتِّباعِ هذا الطَّريق.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

موالاةُ أعداءِ الله سببٌ للضَّلالِ عن سواءِ السَّبيل

أفادَتِ الفاء الواقعة في جواب الشّرط في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ تعقيبَ الجواب للشّرط، وكونَ الشّرط سببًا في حصول الجواب؛ بمعنى: أنَّ اتِّخاذ العدوِّ أولياءَ سببٌ للضّلال عن سواء السّبيل، وأنَّ ضلالَه يقعُ عقبَ اتِّخاذ العدوِّ أولياءَ من غير مُهلة؛ تفظيعًا للأمر وتحذيرًا منه.

سرُّ مجيءِ الجزاءِ بصيغةِ الفعلِ الماضي المُقْترِنِ بـ(قد):

عندَ وُقوعِ الأفعالِ تتحقَّقُ نتائجُها وثمراتُها

جاءَ الجزاءُ بصيغةِ الفعل الماضي مُقترِنًا بـ(قَدۡ) في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ﴾؛ للدَّلالةِ على شدَّةِ تَرَتُّبِ الجزاء على الشَّرطِ، وتحقُّقِ وقوعِه معه؛ فبمجرَّدِ حصولِ مضمون الشّرط يحصلُ الجزاءُ معه من غير مُهلةٍ؛ فالجزاءُ حاصلٌ مع شرطه، ونظيرُهُ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ٨١﴾ [طه: 81].

بلاغةُ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ:

في قولِه تعالى: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أُضيفت الصِّفةُ إلى الموصوف؛

لقصدِ المبالغةِ في بيانِ قوَّةِ الاتِّصافِ، كأنَّه نفْسُ السَّواءِ[1]، وأصلُ الكلام: فقد ضلَّ السَّبيلَ السَّواءَ؛ أي: الطَّريقَ المستقيمَ الواضح؛ لأنَّ سواءَ السّبيل هو وسطُ الطّريق، وهو الطّريقُ الجادَّةُ الواضحة، فلمّا أضافَ الصّفةَ إلى الموصوف وقال: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أفادَ المبالغةَ في الضّلال؛ فإنَّ الضّلالَ عن استقامة الطَّريقِ أبلغُ في أسلوبِ التَّحذير والتَّفظيع من الضّلالِ عن الطّريقِ المستقيم.

الضَّلالُ عن استقامةِ الطَّريقِ أبلغُ في أسلوبِ التَّحذير مِن الضَّلالِ عن الطَّريقِ المستقيم

توجيهُ تَعْديةِ الفعلِ ﴿ضَلَّ﴾ بنفسِه:

تَعَدّى الفعلُ ﴿ضَلَّ﴾ بنفسِه، وهو من الأفعال اللّازمة الَّتي تتعدّى بحرف المجاوزة (عن)، إلّا أنَّه عدّاه هنا بنفسِهِ فقال: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، ولم يقل: (فقد ضلَّ عن سواء السّبيل)، ونكتةُ ذلك أنَّه ضمَّنَ الفعلَ اللّازم معنى المتعدّي؛ ليفيدَ تكثيرَ الدَّلالة، ويكونُ المعنى: ضلَّ عن سواء السّبيل وأضلَّ سواءَ السّبيل؛ أي: أخطَأ الطَّريقَ المستقيمَ[2] بسببِ فعلِه القبيح. وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ ﴿سَوَآءَ﴾ منصوبٌ على الظَّرفيَّة المكانيَّة[3]، كما ذهب بعضُهم إلى أنَّ الفعل ﴿ضَلَّ﴾ يأتي لازمًا ومتعدّيًا[4].

استعمالُ الأفعالِ في التَّعديةِ واللُّزومِ خاضعٌ للمعنى المقصود

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المودَّة والمحبَّة:

الفرقُ بين المودّة والمحبّة هو: أنَّ المودّة هي الحبُّ الشَّديدُ الَّذي يكونُ فيه صلةٌ وبذلٌ وعطاء، وتعلُّقٌ وملازمةٌ للشّيءِ، ورغبةٌ في حصولِ الَّذي يَوَدُّه، مع وجودِ أثرٍ ظاهر.

أمّا الحبُّ فهو ما يكونُ كامِنًا في النّفس، وقد يكون له أثرٌ ظاهر، وقد يبقى كامنًا من غيرِ أثرٍ.

المودَّةُ تَظهَرُ للآخَرينَ بعملٍ يُبرِزُها، والحبُّ ما كانَ كامِنًا في النَّفس

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 1/ 145، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 512، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.
(3) السّمين الحلبي، الدّر المصون: 10/ 301، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 45.
(4) الشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184.

وقد تأتي المودَّةُ بمعنى محبَّةِ الشَّيءِ الَّتي يُقارِنُها التَّمَنّي[1]، ومنه الوَدادةُ مصدرُ ودِدْتُ أوَدُّ، وهو مِن الأُمْنيَّة[2]، ووَدِدْتُ أنَّ ذاكَ كانَ، إذا تَمَنَّيْتَهُ[3]، والمحبَّةُ ليس فيها تمنٍّ[4].

الابتِغاء والطَّلَب:

الابتِغاءُ يُلحَظُ فيه السَّعيُ في الطَّلبِ والاجتهادُ، والطَّلبُ أعمُّ من ذلك

الابتغاءُ يدلُّ على الاجتهادِ في طلبِ حاجةٍ مقصودةٍ والسَّعيِ في حصولها، ويُشعِرُ اللَّفظُ بالاستمرارِ؛ لدلالتِه على الاجتهاد في الطَّلب مع القوَّة والشِّدَّة[5]. والبُغيةُ بفتح الباء وضمِّها: الحاجةُ[6].

أمّا الطّلبُ فهو مجرَّدُ الرّغبة في الحصول على شيءٍ مقصودٍ واستجلابِه من بعيدٍ، ولا يُفيد الاستمرار. ولمّا كان الطّلبُ يدلُّ على الفحصِ عن وجود الشّيء والسّعي في وجدانِه وأخذه فقد يكون المطلوبُ موجودًا وقد يكون غيرَ موجود. ففارق الطّلبُ الابتغاءَ؛ لأنَّ الابتغاءَ لا يكون إلّا في أمر موجود، فيُجتهد في تحصيلِه[7]، ولهذا قال: ﴿وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ﴾؛ للإشعار بأنَّ الحصول على مرضاةِ اللّٰه تعالى يتطلَّب الاجتهادَ. والمرضاةُ موجودةٌ، وإنّما يَظفَرُ بها مَن يسعى إليها ويَجِدُّ في الطَّلب والاجتهاد.

الإسرار والإخفاء:

الإسرارُ يكونُ بينَ اثنينِ فصاعدًا، والإخفاءُ يكونُ في النَّفْس

الإخفاءُ أبلغُ من الإسرار، وقد دَلَّ على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾ [طه: 7]؛ أي: أخْفَى مِنَ السِّرِّ[8]، فالإخفاءُ هو ما يُخفيه الإنسانُ عن الآخَرينَ قصدًا، والإسرارُ يكون بين

(1) الكفوي، الكليات، ص: 942.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ودد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ود).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حبب، ودد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بغى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغى).
(7) الرّاغب، المفردات: (طلب).
(8) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 517.

اثنينِ أو أكثرَ على سبيل الحفاظِ على المُسَرِّ به؛ ولذلك أتى بذكر الإخفاءِ بعد ذكر الإسرار على سبيل التَّعليل؛ أي: إذا كنتم تُسِرّون إلى الأعداء بالمودّة فاللّهُ يعلمُ الأخفى من ذلك، فما بالُكم بالسِّرِّ؟.

السِّرّ والنَّجْوى:

الإسرارُ يكونُ في المعاني والأقوالِ والأفعالِ، والنَّجْوى لا تكونُ إلّا كلامًا

النَّجوى: اسمٌ للكلام الخفيِّ الَّذي تُناجي به صاحبَك، كأنَّكَ ترفعُه عن غيرِه. وذلك أنَّ أصلَ الكلمة الرِّفعة، فالمناجاةُ فيها استخلاصٌ للمناجَى من بين الآخَرين[1].

والسِّرُّ إخفاء الشّيء في النَّفس، ولو اختفى بسِتْرٍ أو وراءَ جدارٍ لم يكن سرًّا، ويقال: في هذا الكلام سرٌّ، تشبيهًا بما يَخفى في النّفس، ويقال: سرّي عند فلان، تريدُ: ما يُخفيه في نفسه من ذلك. ولا يقال: نجوايَ عنده، والنَّجوى تتناولُ جملةَ ما يُتناجى به من الكلام، والسِّرُّ يتناول معنى ذلك. وقد يكون السِّرُّ في غير المعاني مجازًا، تقول: فَعَلَ هذا سِرًّا، وقد أسرَّ الأمرَ[2]، فقد يُطلَقُ السّرُّ على الأفعال كما يُطلَقُ على الكلام المكتوم عن الغير، ومنه قوله تعالى: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ على معنى إلقاءِ المودّة بالخفاء، وأمّا النّجوى فلا تكونُ إلّا كلامًا.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نجو).

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 63.

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾ [الممتحنة: 2]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الكافرون إنْ تَمكّنوا مِن المؤمنين وظَفِروا بهم بادَروا إلى إظهارِ العَداوة

لمّا أخبَرَ الله تعالى أنَّ مَن يتَّخذُ عدوَّ الله قد ضلَّ عن الحقِّ والهدى؛ لتوهُّمِه أنَّ هذا نافعٌ له في الدّنيا ناسَبَ أن يُبيِّنَ سببَ هذا الضّلال، فذكر أنَّ الكافرين إنْ تمكَّنوا من المؤمنين وظَفِروا بهم بادروا إلى إظهار العداوة، فقال تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾، وهذا عينُ الضّلال عن السّبيل في الدُّنيا إن بقي الموالي للكافرين من المؤمنين على موالاتِه، وعن سبيل الآخرة إنْ لَحِقَ بالكافرين.

وأيضًا لَمّا نَهى المُؤمِنينَ عَنِ اتّخاذِ الكُفّارِ أوْلياءَ، وشَرَحَ ما بِهِ الوِلايَةُ مِنَ الإلْقاءِ بِالمَوَدَّةِ بَيْنَهُمْ، وذَكَرَ ما صَنَعَ الكُفّارُ بِهِمْ أوَّلًا مِنْ إخْراجِ الرَّسولِ ﷺ والمُؤْمِنينَ ذَكَرَ صَنيعَهُمْ آخِرًا لَوْ قَدَروا عليهم مِنْ أنَّهُم ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾: يدورُ معنى الكلمة على تمكّنٍ يُبَلِّغُ به أتقنُ أحوال الشَّيء وأحكمُها[2]. وأصلُ الكلمة من قولهم: خَلٌّ ثقيفٌ[3]؛ لإحكام تعتيقه وضبطِه، ورمحٌ مُثَقَّفٌ؛ أي: مقوَّم[4]، والثَّقْفُ: الحِذْقُ في إدراكِ الشّيء وفعلِه[5]. وثَقُفَ الرّجلُ ثَقافةً إذا صارَ حاذِقًا ضابطًا لِما يحويه قائمًا بِهِ[6]. ثمَّ يُتجوَّزُ بالثّقف فيُستعمَلُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 152.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقف).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثقف).
(4) الرّاغب، المفردات: (ثقف).
(5) الرّاغب، المفردات: (ثقف).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (ثقف).

في الظَّفَرِ والإدراكِ مطلقًا. فمَن تمكَّن ما يحيط بالشَّيء منه أشدَّ التّمكُّن يُقال له: ثَقِفَه؛ أي: ظَفِرَ به أو أدركه[1]، ومعنى ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾: يظفروا بكم[2].

2) ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ﴾: البَسْطُ: نَقيضُ القَبْضِ. وأصلُهُ الأرض البَساط، وهي المنبسطة المستوية. وبسَطُ الشّيءِ: نَشرُه وتوسيعُه، وبَسْطُ اليدِ: مَدُّها. وبَسْطُ اليدِ يُستعمَلُ تارةً للطَّلب، وتارةً للأخذِ، وتارةً للبذلِ والعطاء، وتارةً للضَّربِ؛ لأنَّ الَّذي يَضرِبُ يَمُدُّ يدَهُ وينشرُها. ثمَّ توُسِّعَ فيه، فيُقال: بسَطَ لسانَه إذا أساءَ إليه بالقول. ومعنى ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾: يَمُدّوا أيديَهم بالعقوبة، وألسنتَهم بالشَّتيمة[3].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

خُلَّةُ غيرِ المتَّقينَ المؤمِنينَ لا مُعَوَّلَ عليها

أخبَرَتِ الآية الكريمة أنَّ موالاةَ المؤمنين للكافرين أعداءِ اللّه غيرُ نافعةٍ في الدّنيا والآخرة، وأنَّه لا يَنفَعُ التّقرّب إلى الكفّار وموالاتُهم، بنقلِ أخبار المسلمين الخطيرة أو نقلِ ما أعدَّوا في الحرب إليهم، فذكرتْ أنَّهم إن يلاقوا المؤمنين ويظفروا بهم يَكونوا لَهُمۡ أعداءً لا موالين لهم، ويمُدّوا إلَيهُم أيديَهُم بالضَّرب والقتل، وألسِنَتَهُم بالشَّتم والإهانة، وأنَّهم تمنَّوا لهم أنْ يكفروا بربِّهم فيكونوا على مثلِ الَّذي هم عليه من الكفر[4]. فكيف يَراهم المؤمنون على هذه الحالِ ويتَّخذونهم أصدقاءَ وأولياءَ؟! ومَقصِدُ الآية النّهيُ عن موالاتهم بسَرْدِ الدَّليل على ذلك[5].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ثقف).
(2) السّجستاني، غريب القرآن، ص: 525.
(3) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 14/ 382.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 316، والبغوي، معالم التّنزيل: 5/ 70.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 28/ 63.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

بيانُ الأسبابِ مُعينٌ على تخفيفِ الآلامِ والتِزامِ التَّكاليف

فُصِلَتْ جملةُ ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ، مفيدةٌ معنى التَّعليلِ لقولِه في الآية السّابقة: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، فمَنْ يوالِ الأعداءَ يتوهَّمْ أنَّ موالاتَهم من الدَّهاء والحزم؛ رجاءَ نفعِهم إنْ دالَتْ لهم الدّولة، فيظنُّ أنَّ في موالاتِهم منفعةً، فكأنَّه قيل: لِمَ ضَلَّ السَّبيلَ مَن يتَّخِذُ عدوَّ اللّٰه أولياءَ وهو إنّما يفعلُه لفائدةٍ ومنفعة قد تصلُ إليه بسبب هذه الموالاة؟ فأجيب: بأنَّ أعداءَ اللّٰه إن تمكّنوا من المؤمنين وظفروا بهم فلن يكونوا لهم موالين، بل سيكونون لهم أعداءً؛ لأنَّ عداوتَهم عدواةُ كفرٍ.

نكتةُ استعمالِ ﴿إِن﴾ دونَ (إذا):

المؤمنُ كيِّسٌ فَطِنٌ ملتزمٌ بشرعِ الله، فلا يقعُ، وإنْ وقَعَ فبِسببِ ضعفِه وتقصيرِه

جاءت الجملةُ الشّرطيَّةُ مصدَّرةً بحرف الشَّرط ﴿إِن﴾ الَّذي يستعملُ فيما هو غيرُ متحقِّقِ الوقوع، أو يَندُرُ وقوعُه؛ وذلك لتصويرِ أنَّ ظَفَرَ عدوِّ اللّٰه بالمؤمنين لا يصلحُ إلّا لمجرَّد الفَرْضِ، كما تُفرَضُ المحالاتُ متى تعلَّقَتْ بفَرْضِها أغراضٌ، وأنَّ ظَفَرَهم بالمؤمنين إنّما على جهةِ الاستبعاد، وأنَّه في مقامِ واجبِ الانتفاء؛ فيلزمُ منه القطعُ بعدمِ موالاتِهم وعدمِ إلقاء المودّة إليهم؛ ففيه تنبيهٌ على ما ينبغي أن يكون، وأنَّ الظَّفَرَ بالمؤمنين قد يتحقَّقُ إن ظهَرَ منهم تقصيرٌ وضعفٌ في التِزام الشّرع، فاستعمالُ ﴿إِن﴾ لبيانِ عدم تحقُّقِه على وجه القطع، وللتّنبيه على أنّه إنْ وقَعَ فسيكونُ كيتَ وكيت.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

شُغلُ الكَفَرة الشّاغلُ هو مُحاوَلةُ الإيقاعِ بالمؤمنين

أفادَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ أنَّ الكافرين مستمرّون على التَّربُّص بالمؤمنين للظَّفَرِ بهم، وأنَّ هذا الأمرَ يتجدَّدُ عندهم دائمًا.

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾:

التَّناسُبُ بينَ الألفاظِ ملحوظٌ في انتِقاءِ النَّظْمِ لمُفْرَداتِه

جاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ دون (يظفروا بكم)؛ لِما يُشعِرُ به لفظُ ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ من معانٍ مُناسِبةٍ لذكر الجزاء ليست في غيرِه من الألفاظ، فكأنَّه قيل: إنْ يُحصِّلوكم ويُدرِكوكم ويَأخُذوكم ويَأسِروكم ويَغلِبوكم. كما يدلُّ لفظ ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ على أنَّ الكافرين يَتربّصون بكم لأَخْذِكم وخَطْفِكم بسرعةٍ مع قوَّةٍ في التَّمكُّن منكم، فإنَّ مَن يُلقي إليهم المودَّةَ يأمنُهم في نفسِه بحسبِ ظنِّه، فناسَبَ الدَّلالة على أنَّ الكافر يدركُه ويأخذُه بسرعةٍ من مأمنِه بحيث يكون متمكّنًا منه، فقد قيل: ثَقِفَ الشّيءَ؛ أي: أَخَذَهُ بسرعة. فلمّا كان لفظُ ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ دالًّا على هذه المعاني ناسَبَ أن يكون الجزاءُ بالجمع بين إظهارِ عداوتِهم الشّديدةِ وتمكُّنِهم منها وبسطِهم أيديَهم بالقتل وألسنتِهم بالشَّتيمة والإهانة. فناسبُ الجزاءُ الشَّرطَ، ودلَّ على أنَّ الشّرطَ سببٌ للجزاء وموصلٌ إليه، وليس من مُفردةٍ تدلُّ على هذه المعاني المُناسِبةِ للمَقام سوى مُفردةِ ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾.

دلالةُ حذفِ مُتعلّقِ الفعلِ ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾:

التَّربُّصُ بالمُؤمنينَ دَيدَنُ الكافرينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

حُذِفَ متعلّقُ الفعل ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾، فجاء مُطلَقًا غيرَ مقيَّد، فلم يقل: (إن يثقفوكم في الحرب) أو نحوَ ذلك؛ للإشعارِ بأنَّ ما يترتَّبُ على الظَّفَرِ بالمؤمنين هو أمرٌ عامٌّ، سواءٌ كان في الحربِ أم في غيرِها؛ ليتناولَ اللَّفظُ بسبب حذفِ المتعلّق عُمومَ الأمكنة والأزمنة؛ أي: إنْ يَثقَفوكم في أيِّ وقتٍ من الأوقات، وفي أيِّ مكانٍ من الأمكنة[1].

دلالةُ تعلُّقِ الجوابِ بالشَّرط:

إنْ ظَفِرَ أعداءُ اللهِ بالمؤمنين فلن يُراعوا لهم مودَّةً ولا قُرْبى

لمّا كانتْ جملةُ جوابِ الشّرط على معنى تعلُّقِها بالشّرط، وأنَّها تقعُ بمجرَّدِ وقوع الشّرط أفادَتْ جملةُ الجواب في قوله تعالى:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 394.

﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ أنَّهم يكونون لكم أعداءً بمجرَّدِ ثَقْفِكم والظَّفَرِ بكم، ولن يَتَماهلوا في الأمر، ولن يُراعوا إلقاءَ مودَّتِكم إليهم، ففي مجيءِ الجزاءِ بظُهورِ العَداوةِ وخُلوصِها إشارةٌ إلى أنَّ هذه المودَّةَ الَّتي بينَ بعضِ المؤمنين والمشركين هي الَّتي تُخفي هذه العداوةَ الَّتي في صدور المشركين لهم؛ فإذا أَمْكَنَت الفرصةُ وتمكّن المشركون منهم ظَهَرَتْ هذه العداوةُ الكامنة[1]، وظَهَرَتْ قسوتُهم على المؤمنين بالفعلِ والقول.

بلاغةُ الإطنابِ بقولِه: ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ دون (يُعادوكم):

عَـراقـةُ عَـداوةِ الـكـافـريـن لـلـمـؤمـنـين، ورُسـوخُـهـا فيهم، وتَجَدُّدُها في كلِّ زَمان

آثَرَ النّظمُ الكريم ذكرَ الفعلِ ﴿يَكُونُواْ﴾ في جوابِ الشَّرطِ على أن يُقال: إنْ يَثقَفوكم يُعادوكم؛ لِما يُفيدُهُ فعلُ الكون من تمكُّنِ عداوتِهم للمؤمنين وإصرارِهم عليها وعَراقتِهم فيها، وهو دالٌّ على الاستمرار؛ أي: أنَّهم يكونون أعداءً على الدّوام، كما أنَّ وصْفَهم بالاسم ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ أبلغُ في ثبوت العداوةِ من التّعبير بالفعل (يعادوكم)؛ ليدلَّ على أنَّ عداوتَهم للمؤمنين راسخةٌ فيهم. كما أفاد التَّعبيرُ بـ﴿يَكُونُواْ﴾ أنَّهم إنْ يَثقَفوكم يُخلِصوا لكم العداوةَ؛ لرُسوخِهم فيها[2]، ويُظهِروها لكم[3]، فهم لا يُسِرّونها كما تُسِرّون في إلقائِكم إليهم بالمودّة، ولن يكونوا لكم أولياءَ كما أنتم لهم أولياءُ. والمقصودُ اشتدادُ عداوتِهم وإظهارُها، ففيه إشارةٌ إلى خيانتِهم لِمَن يتقرّب منهم ويُلقي إليهم بالمودّة بعدَ ظُهورِهم والظَّفَر بالمؤمنين. كما أفاد مجيءُ الفعل ﴿يَكُونُواْ﴾ بصيغةِ المضارع أنَّ عدواتَهم للمؤمنين ثابتةٌ مستمرَّةٌ متجدِّدةٌ لا يَنفَكّون عنها.

(1) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 894.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 513.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 46.

دلالةُ إسنادِ الفعلِ ﴿يَكُونُواْ﴾ إلى الضَّمير:

سببُ عداوةِ الكافرين للمؤمنين هو إيمانُهم بالله

أُسنِدَ فعلُ الكون في قوله: ﴿يَكُونُواْ﴾ إلى ضميرِ الجماعةِ العائدِ إلى عدوِّ اللّه، والمقصودُ أنَّ جميعَ الكافرين يَرغَبون في الظّفر بالمؤمنين. فأفادَ تعميمُ الضَّمير أنَّ الأمرَ ليس مختصًّا بمَن يُظهِرُ عداوتَه للّهِ وللمؤمنين، بل هو عامٌّ في جميع الكافرين، إنْ ظَفِروا بالمؤمنين وتمكَّنوا منهم يكونوا لهم أعداءً؛ لأنَّ سببَ العداوةِ هو الإيمانُ باللّهِ الَّذي أكرَمَ اللّه تعالى به المؤمنين وحرَمَ منه الكافرين.

فائدةُ تقديمِ ﴿لَكُمْ﴾:

مُسارَعةُ الكافرين إلى الظَّفَرِ بالمؤمنين دليلُ الحقدِ الدَّفين والكيدِ اللَّئيم

قُدِّمَ متعلّق خبرِ كان على خبرِها في قوله تعالى: ﴿يَكُونُواْ لَكُمْ أَعۡدَآءٗ﴾؛ لتخصيصِ عداوتِهم بالمؤمنين[1]؛ بمعنى: أنَّهم إنْ يظفروا بكم فلن يكونوا أعداءً إلّا لكم؛ لأنَّ عداوتَهم لكم بسببِ كفرِهم باللّه وبرسولِه ﷺ وإيمانِكم بهما، ولأنَّ ملَّةَ الكفرِ واحدةٌ. كما يُفيد تقديمُ شبهِ الجملة ﴿لَكُمْ﴾ مسارعتَهم إلى عدواتِهم ورغبتَهُم فيها، واهتمامَهُم بها، حتّى إنَّهم إنْ ظَفِروا بالمؤمنين سارَعوا إلى عداوتِهم؛ فليس لهم شأنٌ معهم سوى أن يكونوا لهم أعداءً، وأنْ يُمارسوا ما يترتَّبُ على هذه العداوةِ؛ مِن بسطِ أيديهم وألسنتِهم إليهم بالضَّرب والقتل والشَّتيمة والإهانة.

نكتةُ تنكيرِ لفظةِ ﴿أَعۡدَآءٗ﴾:

كثرةُ الأعداءِ للمُؤمنين، وتَنَوُّعُ عَداوَتِهم

جاء لفظُ ﴿أَعۡدَآءٗ﴾ نكرةً؛ لإفادةِ الكثرةِ، وشُيوعِ عَداوتِهم وتنوُّعِها، وأنَّ المؤمنين لرُبَّما جَهِلوا بعضَ أنواعِها، فهم أعداءٌ في أمورٍ متوقَّعةٍ وأمورٍ غيرِ مُتوقَّعة.

بلاغةُ العطفِ في ترتُّبِ المعطوفِ على المعطوفِ عليه:

تفيدُ واوُ العطف في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 493.

بَسْطُ الكافرينَ أيديَهم بالقتالِ والإهانةِ مُترتِّبٌ على عَداوَتِهم للمُؤمنين

اجتماعَ المعطوف والمعطوف عليه في كونِهما مُعلَّقَين على الشَّرطِ؛ بمعنى: أنَّ كلًّا من المعطوف والمعطوف عليه مسبَّبٌ عن ظَفَرِ الكافرين بالمؤمنين إنْ وقع. وسببُ اجتماعِ المعطوفاتِ في الجزاءِ الإشعارُ بشدَّةِ ارتباطِ إظهارِ العداوةِ بالقتلِ والضَّربِ والشَّتيمةِ والإهانة. ويُحتمَلُ أن يكون العطفُ في جزاءِ الشّرط على معنى أنَّه لا يكون المعطوفُ ولا يحصلُ حتَّى يحصلَ المعطوفُ عليه؛ أي: أنَّ ظَفَرَ الكافرين بالمؤمنين سببٌ في وقوعِ الجزاء، وهو إظهارُ خُلوصِ عداوتِهم، وهذا سببٌ في أن يَبسُطوا إليكم أيديَهم وألسنتَهم بالسّوء؛ ليفيدَ الشَّرطُ والجزاءُ أنَّ ظَفَرَهم بهم سببٌ في إظهارِ خُلوصِ عَداوتِهم، وإظهارَ خُلوصِ عداوتِهم سببٌ في أن يَبسُطوا إليكم أيديَهم وألسنتَهم بالسّوء، فيكونُ معنى الشَّرطِ والجزاء على كلامين، وتقديرُهُ: إنْ يَثقَفوكم يكونوا لكم أعداءً، وإنْ يكونوا لكم أعداءً يَبسُطوا إليكم أيديَهم، فجاء العطفُ على مقتضى ترتُّبِ المعطوفِ على المعطوف عليه وتسبُّبِه منه. وهذا الأسلوبُ ذكره عبدُ القاهر الجُرجانيُّ، ومثَّلَ له بقولهم: إنْ رجَعَ الأميرُ إلى الدّارِ استأذنتُهُ وخرجتُ، فالخروجُ لا يكونُ حتّى يكونَ الاستئذانُ، وقد صارَ الرُّجوعُ سَببًا في الخروج، من أجلِ كونِه سببًا في الاستئذان[1].

دلالةُ تقديمِ العَداوةِ على بَسْطِ الأيدي بالسّوءِ:

تَرَقّي الأعداءِ في مَظاهِرِ الكراهيةِ والحقدِ يأتي تِباعًا مُباغتةً

العطفُ في قولِه تعالى: ﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ على سبيلِ التَّرَقّي في عَداوةِ الكافرين للمؤمنين؛ تحذيرًا للمؤمنين وإلهابًا لقلوبهم، فذَكَرَ إظهارَ العَداوةِ وخُلوصَها إنْ ظَفِروا بالمؤمنين، ثمَّ تَرَقّى في ذكرِ الأثَرِ الدُّنيويِّ لها بالفعل والقول؛ أي: ما يترتَّبُ على إظهارِ العَداوةِ من الضَّررِ ببَسْطِ أيديهم بالقتلِ وألسنتِهم بالسّوء.

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 234.

دلالةُ الكنايةِ في بَسْطِ اليد:

بَسْطُ اليدِ إلى الآخَرينَ كنايةٌ عن إلحاقِ الضُّرِّ والأذى بهم

يدلُّ بسطُ اليد في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ على عمل اليدِ الَّذي يكون بالضَّرب والطّعن والتّقييد في الأسر والقتل(1)، فهو كنايةٌ عن عموم الضُّرِّ والأذى اللَّذَينِ يكونان باليدِ وكثرتِهما، ويُلحَظُ أنَّ (بسطَ اليدِ) في القرآن الكريم إن قُيِّدَ بحرفِ الجرِّ (إلى) أفادَ معنى الأذى والضُّرِّ، كما في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ﴾ [المائدة: 11]، وقولِه: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ﴾ [المائدة: 28].

بلاغةُ الاستعارةِ في بَسْطِ الألْسِنة:

أذيَّةُ الكافرين للمُؤمنين بألسنَتِهم لا تَقِلُّ سوءًا وكثرةً عن أذيَّتِهم لهم بأيديهم

في تعديةِ فعلِ البسطِ إلى الأيدي في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ كنايةٌ عن كثرةِ الأذى والسّوءِ والضُّرِّ الواقعِ من الكافرين على المؤمنين إنْ هم ظَفِروا بهم، كما تقدَّمَ في الفقرة السّابقة.

وفي تعديةِ فعلِ البسطِ إلى الألسنةِ ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم﴾ استعارةٌ؛ لأنَّ بسطَ الألسُنِ على الحقيقةِ لا يتأتّى كما يتأتّى بسطُ الأيدي، وإنَّما المرادُ إظهارُ الكلام السَّيِّئ فيهم بعدَ زَمِّ الألسُنِ عنهم، فيكون الكلامُ كالشَّيءِ الَّذي بُسِطَ بعدَ انطوائِه، وأُظهِرَ بعدَ إخفائِه. فشبَّه النَّظمُ الكريمُ كلامَ الكافرين بألسنتِهم على المؤمنين إنْ ظَفِروا بهم بشيءٍ مبسوطٍ من يدٍ أو نحوِها، بجامعِ الكثرةِ في كلٍّ منهما على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

ويجوزُ أن يكون بسطُ اللِّسانِ من باب المُزاوَجة، وأنَّه تعالى إنَّما حَمَلَ بسطَ الألسُنِ على بسطِ الأيدي ليتوافَقَ الكلام، ويَتَزاوَجَ النِّظام؛ لأنَّ الأيديَ والألسنَ مُشتركةٌ في المعنى المشار إليه، فلِلأيدي الأفعال، ولِلألسُنِ الأقوال، وتلك ضَرَرُها بالإيقاع، وهذه ضَرَرُها بالسَّماع(2).

(1) الكرماني، لباب النّقول، ص: 3227، والبغوي، معالم التّنزيل: 8/ 93.

(2) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 331.

ولمّا قيَّد البسطَ بقوله: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ أفادَ أنَّ المرادَ عملُ اليدِ الَّذي يَضُرُّ كالضَّرب، وعملُ اللِّسانِ الَّذي يُؤذي مثلُ الشَّتمِ والتَّهكُّمِ والاستهزاء[1].

فائدةُ تقديمِ متعلّقِ المفعول:

إلهابُ قلوبِ المؤمنين ببيانِ حقائقِ المُناوِئين

قدَّم متعلّقَ المفعول به - وهو شبهُ الجملة ﴿إِلَيۡكُمۡ﴾ - على المفعول به ﴿أَيۡدِيَهُمۡ﴾؛ ليفيد التّخصيص الإضافي؛ بمعنى: أنَّهم يبسطون إليكم خاصَّة أيديَهم؛ فكأنَّه لو اجتمع عندهم قتلُكم وقتلُ عدوٍّ آخرَ له عداوةٌ دنيويَّة لسارعوا إليكم في قتلِكم والإساءة إليكم؛ ففيه تلهيبٌ لقلوب المؤمنين في التّحذير من موالاتِهم وإلقاءِ المودّة إليهم.

دلالةُ عطفِ بَسْطِ الألسُنِ على بَسْطِ الأيدي:

بَسْطُ اللِّسانِ إمدادُ الآذان، بما فيه مَساءَةُ أهلِ الإيمان

تفيدُ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم﴾ العطفَ على معنى التَّشريك بين أيديهم وألسنتِهم، وهي مانعةُ خلوٍّ؛ بمعنى: أنَّهم يجمعون بين بسطِ أيديهم وبسطِ ألسنتِهم إليكم؛ أي: أنَّهم يبسطون إليكم ألسنتَهم مضمومةً إلى أيديهم، أو أنَّهم يوقِعون بسطَ الأيدي وبسطَ الألسُنِ كلَّ واحدٍ منهما على حِدَةٍ؛ فمرَّةً يبسطون أيديَهم، ومرَّةً يبسطون ألسنتَهم بالسّوء. ودلَّ بسطُ اللِّسان على السَّبِّ والشَّتم والتَّهكُّم[2]، والاستهزاءِ الَّذي يكون باللِّسان.

دلالةُ جَمْعِ الأيدي والألسِنة:

أذى المشركين للمُؤمنين مادّيٌّ ومعنويّ:

جُمِعَ لفظُ الأيدي والألسِنة في قوله تعالى: ﴿أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم﴾؛ لبيانِ التَّنوُّعِ في الأضرار الَّتي يُلحِقُها المشركون بالمؤمنين في الجانبِ المادّي والفِكريِّ المعنويّ.

فائدةُ تقييدِ فعلِ البَسْط بالسّوء، ودلالةُ الباءِ الجارَّة:

لا يأتي مِن أهلِ السّوءِ إلّا السّوء

الباء الجارَّةُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ للمُلابَسة، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقان بمحذوفِ حالٍ من الضَّمير في ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ﴾؛ وهي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 140.
(2) الكرماني، لباب النّقول، ص: 3227، والبغوي، معالم التّنزيل: 8/ 93.

حالٌ مقيِّدةٌ لمعنى بسطِهم أيديَهم وألسِنتَهم، والتَّقديرُ: يبسطوا إليكم أيديَهم وألسِنتَهم مُتلبِّسين بالسّوء، فالسّوء حالُهم الدّائمُ الذي لا يفارقُهم إنْ ظَفِروا بكم، فلا يأتي من بسطِ أيديهم وألسنتِهم إليكم إلّا ما يَسوءُكم ويضرُّكم، فموالاةُ هؤلاء الكفرةِ غيرُ نافعةٍ، بل هي ضارَّةٌ بكم إنْ ظَفِروا بكم، وقد أفاد القيدُ توكيدَ القصدِ المذموم لبسطِ الكافرين أيديَهم وألسنتَهم.

دلالةُ تعريفِ لفظةِ (السّوء):

السّوءُ لفظٌ جامعٌ لِما يوقِعُ الأذى في النُّفوسِ والأبْدان

(أل) في قوله سبحانه: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ جنسيَّةٌ للاستغراق؛ لتفيدَ استغراقَ جميعِ أنواعِ السّوء الَّذي يكون باليدِ والألسِنة، والمعنى: يبسُطوا إليكم أيديَهم وألسِنتَهم بكلِّ ما مِن شأنه أن يسوءَكم[1]. وليس ذكرُ القتلِ والطَّعنِ في بسط أيدي الكافرين، وذكرُ الشَّتم والإهانة في بسطِ ألسِنتِهم إلّا تمثيلًا للغالبِ والأقربِ إلى الواقع.

دلالةُ المُقابَلةِ في استعمالِ مُفردةِ (السّوء):

مَنْ أحسَنَ إلى الكافرين بإلقاءِ المودَّةِ قابَلوه ببَسْطِ السّوء

لمّا كان الإلقاءُ بالمودَّةِ مُشعِرًا بإحسانِ المُلْقي بما يُلقيه من المودّة إلى الكافرين ناسَبَهُ أن يُذكَرَ في مُقابِلِه قولُهُ: ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ ليفيدَ أنَّه إنْ أحسنتُم إليهم قابَلوكم بالإساءةِ إنْ تَمَكَّنوا منكم وظَفِروا بكم؛ لأنَّهم لا يأتي منهم إلّا السّوء؛ ففيه بيانٌ للمُقابل، وتذكيرٌ للمؤمنين وتحذيرٌ لهم من عاقبةِ اتِّخاذ عدوِّ اللّٰه أولياءَ والإلقاءِ إليهم بالمودَّة.

كما أنَّ لفظَ (السّوء) لمّا كان من المعاني العامَّة الدّالَّة على كلِّ ما يَغُمُّ الإنسانَ من الأحوال النَّفسيَّة والبدنيَّة أفادَ أنَّ الكافرين يبسُطون إلى المؤمنين أيديَهم وألسِنتَهم بكلِّ ما يَغُمُّهم ويُؤذيهم.

نوعُ الواوِ ودلالتُها في قولِه: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾:

ذهَبَ بعضُ المُفسِّرين إلى أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 494.

معنى العطفِ هو الظّاهرُ المتُبادِرُ، والحالُ مِن مَعانيه اللُّزوميَّة

﴿تَكۡفُرُونَ﴾ للحالِ من ضميرِ ﴿يَكُونُواْ﴾[1]؛ والمعنى: وهم قد ودّوا مِن الآنَ أن تكفُروا، فكيف إنْ ظَفِروا بكم وأسَروكم؟! فإنَّ أهمَّ شيءٍ عندَهم حينئذٍ أن يَرُدّوكم كفّارًا؛ فجملةُ الحالِ دليلٌ على مَعطوفٍ مُقدَّرٍ على جَوابِ الشَّرْطِ، كأنَّهُ قيلَ: إنْ يَثْقَفوكُمْ يَكونوا لَكُمْ أعْداءً، ويَرُدّوكُمْ كُفّارًا. وإنَّما لم تكنْ جملةُ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ معطوفةً على جملةِ الجواب؛ لأنَّ محبَّتَهُم أنْ يَكفُرَ المُسلِمونَ محبَّةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ بالشَّرطِ؛ لأنَّ الكافرين يَوَدّون كفرَ المؤمنين على كلِّ حالٍ، سواءٌ ظَفِروا بهم أم لم يَظفَروا، وهذه نكتةُ وقوعِ فعلِ ﴿وَدُّواْ﴾ ماضيًا لا مُضارِعًا كالأفعالِ الثَّلاثة قبلَهُ ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ﴾، و﴿يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾، و﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه ليس مَعطوفًا على جوابِ الشَّرطِ[2].

والظّاهرُ أنَّ الواوَ عاطفةٌ؛ لأنَّ العطفَ هو المُتبادِرُ، وكونُهُ على الجزاءِ أبعدُ مَغْزًى، وأبلغُ معنًى، وهو اختيارُ جمهورِ المفسِّرين كالزَّمخشريِّ والبيضاويِّ والنَّسفيِّ والآلوسيِّ وغيرِهم. وسببُ كونِهِ أبلغَ في المعنى هو أنَّه إذا كانت الواوُ عاطفةً والجملةُ من تمام جزاءِ الشَّرطِ أفادَ الكلامُ أنَّ ودادتَهُم لأنْ يَكفُرَ المؤمنون عندَ الظَّفَرِ والتَّسليط أقربُ وأطمعُ لهم فيهم، كما أنَّ من الوَدادةِ تزيينَ الكفرِ وتحسينَهُ والتَّرغيبَ فيه، وهذا يكونُ بعدَ الظَّفَرِ أقربَ مِنهُ قبلَه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي ﴿وَوَدُّواْ﴾:

مَجمَعُ رغبةِ الكافرين في ارتدادِ المؤمنين عن الدّين

جاءَ الفعلُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَوَدُّواْ﴾ بصيغةِ الماضي دون المضارعِ مع اقتضاءِ الظّاهرِ له باعتبارِ حُدوثِه في المستقبل، وذلك أنّه لمّا لَمْ يكنْ يَحتمِلُ ودادتُهم لكفرِهم من الشَّكِّ فيها ما يَحْتَمِلُهُ أنَّهُمْ إذا ثَقِفوهُمْ صاروا لَهُمْ أعْداءً، وبَسَطوا أيْدِيَهُمْ إليهم بالقَتْلِ وألْسِنَتَهُمْ بالشَّتْمِ أتَى فيهِ بِلَفْظِ الماضي؛ لأنَّ ودادتَهُمْ في ذَلِكَ مَقْطوعٌ بِها،

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 184، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 263.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 140.

وكَوْنَهُمْ أعْداءً وباسِطي الأيْدي والأَلْسُنِ بِالسّوءِ مَشْكوكٌ؛ لِاحْتِمالِ أنْ يَعْرِضَ ما يَصُدُّهُمْ عَنْهُ، فَلَمْ يُتَحَقَّقْ وُقوعُهُ[1].

كما أنَّ صيغةَ الماضي تُبيِّن أنَّ رغبةَ الكافرين في ارتدادِ المؤمنين عن دينِهم هي رغبةٌ قديمة، لم تنقطعْ بالمودَّة الَّتي تجري بينهم وبين هؤلاء المؤمنين، بل هي قائمةٌ في صدورِ المشركين، لن تموتَ أبدًا إلّا بعودة المؤمنين كفّارًا[2]، فالعطفُ على سبيل تَرَقّيهم في العداوة وإظهارِها؛ لعلمِهم أنَّ الدّينَ أعزُّ على المؤمنين من أرواحِهم، والعدوُّ أهمُّ شيءٍ عنده أنْ يَقصِدَ أعزَّ شيءٍ عندَ صاحبِه[3].

ومن بلاغةِ العُدولِ إلى صيغةِ الماضي عندَ مَن جعَلَ الواوَ في قوله تعالى: ﴿وَوَدُّواْ﴾ للحالِ هو الإيذانُ بأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ ليس على معنى أنَّه مُرتَّبٌ على ما قبلَهُ، وليس جزاءً للظَّفَرِ بالمؤمنين، فليس بسطُ أيديهم سببًا في ودادتِهم أن يكفرَ المؤمنون، وإنْ كان في ودادةِ الكافرين تَرَقٍّ في العداوة؛ لأنَّ المعنى: ودّوا لو يَرجِعونكم كفّارًا بتزيينِ الكفرِ والتَّرغيبِ فيه وفرطِ الاجتهاد في التَّحريضِ على الارتدادِ عن الإيمان باللّه ورسوله ﷺ، وهو أشدُّ درجاتِ العداوةِ للإيمانِ وأهلِه وأبلغُها[4].

فائدةُ استعمالِ ﴿لَوۡ﴾ المصدريّة:

رَغْبةُ الكافرين في رِدَّةِ المُؤمنين باقيةٌ في أفئِدَتِهم لا يَحولون عنها

أفادَ استعمالُ ﴿لَوۡ﴾ الَّتي للتَّمنّي في قولِه تعالى: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ المصدريَّةَ بدخولِها على المضارعِ وسَبْقِها بالفعل ﴿وَوَدُّواْ﴾، فتكونُ مع ما دخلتْ عليه في تأويلِ مصدرٍ منصوبٍ على المفعوليَّة، والتَّقدير: ودّوا كفرَكم؛ ليُفيدَ المصدرُ المؤوَّلُ ﴿لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أنَّهم تَمَنَّوا كفرَ المؤمنين من غيرِ تقييدٍ بأيِّ وصفٍ، فهم

(1) الزّركشي، البرهان: 2/ 362.
(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 894.
(3) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 513، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 204.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 48.

يتمنَّون أن تتَّصِفوا بحقيقةِ الكفر على أيِّ وصفٍ أو حالٍ كان، كما أنَّ التِّعبير أتى بالفعل المضارع ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ الَّذي أفادَ وقوعَ ذلك في أيِّ وقتٍ في المستقبل، وأنَّهم لا يَمَلّون عن رغبتِهم ووُدِّهم لهذا الأمر، فهو عملُ القلبِ وأُمنيَّةُ الفؤاد، وهو ما يَحُضُّ المؤمنين على شدَّةِ الحذر، وكبيرِ الاحتياطِ مِن صَنيعِهم.

دلالةُ اجتماعِ فعلِ الوُدِّ مع ﴿لَوۡ﴾:

ردَّةُ المؤمنين غايةُ أماني أعداءِ الله، وهو ما يَدُلُّ على حربِ العَقيدة

التَّعبيرُ بالفعل الدّالِّ على التّمنّي مع ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أقوى في الدَّلالةِ على شدَّةِ التَّمنّي من استعمال (لَو) وحدها، حتّى إنَّ بعض البلاغيّين ذهب إلى أنَّ (لو) إنَّما تفيدُ التَّمنّيَ إنْ جاءت بعد فعلٍ فيه معنى التَّمنّي مثلِ (ودَّ)[1]؛ ليُفيدَ أنَّ الكافرين يحبّون ارتدادَ المؤمنين ويتمنَّونه غايةَ التَّمنّي[2]. ولمّا جاء التَّمنّي بلفظِ ﴿لَوۡ﴾ أفادَ أنَّ المقصودَ فَرْضُ غيرِ الواقع واقعًا؛ ليومِئَ إلى أنَّ تمنّيَهم هذا إنَّما هو على سبيل فَرْضِ المُحالِ؛ تحذيرًا للمؤمنين.

نكتةُ حذفِ مُتعلّقِ الفعل:

حِرْصُ الكافرين على أنْ يكفُرَ المؤمنون بكلِّ ما آمَنوا به

حُذِفَ مُتعلّقُ الفعلِ ﴿تَكۡفُرُونَ﴾؛ ليفيدَ عُمومَ ما يَوَدُّونه أنْ يقع مِن الكفر في قلوب المؤمنين، فهم يَوَدّون أن يكفرَ المؤمنون باللّه ورسوله والقرآنِ، وأنْ يَتَّصِفوا بكلِّ ما مِن شأنِه أن يجعلَهم يَحيدون عن الحقِّ الَّذي هم فيه. ويُحتمَلُ أن يكون حذفُ المتعلّقِ لمعاملةِ المُتعدّي معاملةَ اللّازم، بحيث يتَّصِفُ المؤمنون بصفةِ الكفر، فيَسْتَووا هم والكافرون في الدّينِ الباطل، بقطعِ النَّظرِ أكانوا أهلَ كتابٍ أو وثَنيّين، فَلْيَكونوا كَفَرةً من أيِّ نوعٍ، إلّا أنْ يكونوا على دينِ الإسلام.

---

(1) التّفتازاني، المطول، ص: 407.

(2) البهاء السّبكي، عروس الأفراح: 1/ 421.

﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣﴾ [الممتحنة: 3]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتِقالُ مِن خَطَرِ الدُّنيا إلى خَطَرِ الآخرة، ومِن خَطَرِ الأباعِدِ إلى خَطَرِ الأقارِب

لمّا بيَّنَ في الآية السّابقة ما يَوَدُّه الكافرون من كفرِ المؤمنين وردَّتِهم، وما يَكتُمونه في قلوبهم من سوءِ المَكايِدِ ناسَبَ الانتقالُ إلى التَّصريحِ بنَفْيِ أن ينفعَ المؤمنَ أيُّ شيءٍ سوى دينه في الآخرة؛ لِما قد يظنُّه المؤمنون من نفعِ الأرحام والأولاد، فهو انتقالٌ من نَفْيِ منافعِ الكافرين في الدّنيا، إلى نَفْيِ منافعِ الأرحام والأقارب في الآخرة، وهو كذلك انتقالٌ مناسبٌ من الحديث عن أعداءِ الخارج إلى الحديثِ عن أعداءِ الدّاخل من الأرحام والأولاد.

ويُذكرُ في المناسبة أيضًا: أنّه لمّا ذكر اللّه تعالى عاقبةَ موالاةِ أعداء اللّه والمؤمنين في الدّنيا بأنَّه قد ضلَّ سواءَ السّبيل تخلَّصَ مِنْ تَبْيِينِ سوءِ عاقِبتهم في الحَياةِ الدُّنيا، إلَى بَيانِ سوءِ عاقِبَةِ تِلْكَ المُوالاةِ في الآخِرَةِ، ومُناسَبَةُ حُسْنِ التَّخَلُّصِ قوله: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ الدّالُّ على مَعْنَى: أنَّ ودادَتَهُمْ كُفْرَكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ يَثْقَفوكُمْ تَنْقَلِبُ إلَى أنْ يُكْرِهوكُمْ على الكفرِ حين يَثْقَفونكم، فَلا تنفعُكم أرْحامُكُمْ مِثْلُ الأُمَّهاتِ، والإخْوَةِ الأشِقّاءِ ولِلأُمِّ، ولا أوْلادُكُمْ، ولا تَدْفَعُ عَنْكُم عَذابَ الآخِرَةِ إنْ كانوا قَدْ نَفَعوكُمْ في الدُّنْيا بِصِلَةِ ذَوِي الأرْحامِ ونُصْرَةِ الأوْلادِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفۡصِلُ﴾: يدورُ معنى كلمة (فصل) على تمييز الشّيءِ من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.

الشّيءِ وإبانتِه عنه حتَّى يكونَ بينهما فُرجةٌ[1]. وأصل الكلمة من الفصيل الَّذي هو ولدُ النّاقة إذا افتُصِلَ عَن أُمِّهِ وعن لَبَنِها[2]. ومنه الفِصالُ: التَّفريق بين الصّبيّ والرّضاع، وتفصيلُ الشّيء: تبيينُهُ بجَعْلِهِ فُصولًا مُتمايِزةً في أجزائِه واضحةً في جُزْئيّاتِه[3]. وفَصَلَ بين الخصمين: حَكَم لأنَّه ميَّزَ بين المُحِقِّ والمُبطِل منهما. ومعنى ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾: يفرِّقُ بين المؤمن والكافر وإن كانوا أولي أرحامٍ؛ فيدخلُ المؤمنون الجنَّة ويدخلُ الكافرون النّار[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

بَيَّنَتِ الآيةُ الكريمة أنَّ الأهلَ والأولادَ الَّذين لأجلهم يُناصِحُ المؤمنون المشركين ويوالونهم لا ينفعونهم شيئًا؛ فلا يَدْعوَنَّكم أرحامُكم وقراباتُكم وأولادكم إلى الكفر باللّه؛ فإنَّه لن ينفعَكم قراباتكم ولا أخصُّ منهم، وهم أولادكم الَّذين توالون المشركين لأجلِهم، يومَ القيامة يَفصِلُ بينكم ويفرّق بينكم، فيدخلُ أهلُ الإيمان الجنَّة، ويدخلُ أهلُ الكفر النّار، واللّه بجميع أعمالِكم الَّتي تعملونها بصير[5].

رَوابِطُ الدّينِ أقوى وألزَمُ مِن رَوابِطِ النَّسَب

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفَصْلِ بينَ الجُمَل:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾ عن الكلامِ السّابق؛ لأنَّها مستأنَفةٌ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤالٍ مفروضٍ ممَّن يَسمَعُ جملةَ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ أي: مِن حقِّ ذلك أن يُسألَ

الاستئنافُ البيانيُّ بيانٌ شافٍ للسّائل، وتعليلٌ مُكتمِلٌ للمُستعلِم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (فصل).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (فصل).

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فصل).

(4) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 14/ 383، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 205.

(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 316.

عن آثارِهِ لخَطَرِ أمرها[1]. وإذا كانَ ناشِئًا عَنْ كَلام جَرَى مَجْرَى التَّعْليلِ لِجُمْلَةِ ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ فَهوَ أَيْضًا مُفيدٌ تَعْليلًا ثانيًا بِحَسَبِ المَعْنى، ولَوْلا إرادَةُ الاِسْتِئْنافِ البَيانيِّ لَجاءَتْ هَذِهِ الجُمْلَةُ مَعْطوفَةً بِالواوِ على الَّتي قَبْلَها، وزادَ ذَلِكَ حُسْنًا أَنَّ ما صَدَرَ مِنْ حاطِبِ بْنِ أبي بَلْتَعَةَ مِمّا عُدَّ عليه هوَ موالاةٌ لِلْعَدوِّ، وأنَّهُ اعْتَذَرَ بِأَنَّهُ أرادَ أَنْ يَتَّخِذَ عِنْدَ المُشْرِكينَ يَدًا يَحْمونَ بِها قَرابَتَهُ[2]، فكان ذلك تعليلًا لما سبق؛ بأنَّ هذه الأرحامَ والأقاربَ لن تنفعَ عند اللّه شيئًا يومَ القيامة.

فائدةُ النَّفْيِ وغرضُهُ:

أوهامُ العُقولِ هيَ المُزهِقةُ لأرواحِ القُلوب

لمّا كان النَّفْيُ يُؤتى به لدفع إثباتٍ قد يُتَصوَّرُ صُدِّرتِ الجملةُ بنفيِ نفع الأرحام والأولاد لِمَن يوادّون المشركين من أجلِهم؛ لِدفع ما عسى أن يَتخيَّلوا كونَه عذرًا نافعًا من أنَّ الدّاعيَ للاتِّخاذ وإلقاءِ المودّة صيانةُ الأرحامِ والأولاد مِن أذى المشركين[3].

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ النَّفْع:

حقيقةُ ما يَجولُ في النُّفوسِ هو البحثُ عن نَفْعِها لا نَفْعِ غيرِها

آثَرَ النّظمُ الكريم نفيَ مُفردةِ النَّفعِ الَّذي هو خلافُ الضُّرِّ يومَ القيامة على مُقارِباتها باعتبارِ ما استقرَّ في أذهانِ بعضِ المؤمنين من أنَّ الأرحامَ والأولاد تنفعُ أصحابها، فجاء نفيُ النّفع بهذا الاعتبار، وهو ما يدلُّ على أنَّ الإنسان إنّما يبحثُ عن نفعه لا نفعِ غيره، فهو تلميحٌ لِما يَجولُ في النّفس، كأنّه قيل: إذا ظننتُم أنَّ أرحامكم وأولادكم تنفعُكم فالأمرُ على ضدِّ ذلك، فلن تنفعَكم يوم القيامة، ويُحتمَلُ أن يكون نفيُ النّفع باعتبارِ تنزيل المخاطَب منزلةَ مَن يظنُّ ذلك؛ فيكون تحذيرًا وتنبيهًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 263.

بلاغةُ التَّعبيرِ المَجازيِّ في لفظِ الأرحام:

الأرحامُ هم الأقرباءُ مِن جِهَةِ الأُمِّ؛ لأنَّهم خارِجون مِن رَحِمٍ واحدة

المرادُ مِن الأرحام في قولِه تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ﴾ ذَوو الأرحام[1]؛ أي: أصحابُها، فهو على حذفِ مضافٍ بقرينةِ السّياق، والمقصودُ بذوي الأرحام الأقرباءُ، واستُعيرَ الرَّحِمُ للقرابة؛ لكونِهم خارجين من رَحِمِ امرأةٍ واحدة[2]. وذُكرت الأرحامُ هنا لموافَقةِ قِصَّةِ حاطِبٍ؛ فقد كان في مكَّةَ حينَها أمُّه وإخوتُه؛ لأنَّ الأمَّ ذاتُ رَحِمٍ، والإخوةُ أبناؤها هم إخوةُ حاطبٍ من رَحِمِه[3]، وهذا من التَّعبيرِ المَجازيِّ بغرضِ الإيجازِ اللَّفظيّ.

دلالةُ النَّفْيِ بالأداةِ ﴿لَن﴾:

الوَلاءُ لا يكونُ إلّا للنّافِعِ الضّارِّ يومَ القيامة

استعمَلَ النّظمُ الكريم أداةَ النّفي ﴿لَن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ﴾ الَّتي هي لنفيِ المستقبَلِ نفيًا مؤكَّدًا، ولمّا كانت الأداةُ ﴿لَن﴾ نقيضَ (سوف) في الإثباتِ جاءَ نفيُ نفعِهم يوم القيامة على سبيلِ الاستدلال لإقناعِ المؤمنين؛ بمعنى: إذا كانَتْ أرحامُكم وأولادكم لن تنفعَكم يوم القيامة فما لكم تَرفُضون حقَّ اللّه وتوالون عدوَّ اللّه مراعاةً لحقِّ مَن يَفِرُّ منكم غدًا[4]؟!.

توجيهُ تخصيصِ عدمِ نَفْعِ الأرحامِ بالذِّكر:

الأرحامُ لا تَنفَعُ، فكيف بالأموالِ الباطلةِ والسُّلطانِ الجائرِ؟!

خَصَّ النّظمُ الكريم نفيَ نفعِ الأرحام بالذّكر؛ لأنَّ الأرحامَ لَمّا كانَتْ مشتقَّةً من الرَّحم المُقتضي للعطف والرّحمة واللّين كان ربَّما يُتوهَّمُ أنْ يكون لها سببٌ في إيصال الخير ودفعِ الضُّرّ؛ فلمّا نفى النّفعَ بها دَفَعَ هذا الوهمَ، ونفى ما هو أبعدُ من مُقتضَى النّفع من المالِ والجاهِ والسُّلطان، فهو من التَّنبيه بالأقربِ إلى الأذهان في النَّفع على الأبعدِ.

---

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 268.
(2) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.
(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 513.

سببُ تقديمِ الأرحامِ على الأولاد:

ابتُدِئَ في نفي النَّفع بذكر الأرحام؛ لموافقةِ قصَّةِ حاطبٍ؛ لأنَّ الأُمَّ ذاتُ رَحِم، والإخوةُ أبْناؤُها هُمْ إخْوَتُه مِنْ رَحِمِه[1]، وليكونَ البدءُ بذكر الأعمِّ أوقَعَ وأقطَعَ في نفيِ نفعِ أيِّ رحمٍ يوم القيامة، فبَدَأ بالأسبَقِ وُجودًا، ثمَّ ثنَّى بمَن يَليهم من الأولاد.

البَدْءُ بالأسبَقِ وُجودًا والأقوى عَطْفًا

بلاغةُ التَّتْميمِ في عطفِ الخاصِّ على العامّ:

عطفُ الأولادِ على الأرحام في قوله تعالى: ﴿أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾ من بابِ التَّتميم في الخطاب؛ للإيضاح والبيان، وهو من باب عطف الخاصِّ على العامِّ، وخُصَّ الأولادُ بالذِّكر مَعَ دُخولِهِمْ في الأرْحام لِمَزيدِ المَحَبَّةِ لَهُمْ والحُنوِّ عليهمْ، كأنَّه قيل: لن تنفعَكم جميعُ قراباتِكم وإنْ كانوا أولادَكم الَّذين هم أخصُّ قراباتِكم يومَ القيامة. ومن فوائدِ تخصيص الأولاد بالذِّكر شمولُ النَّهيِ عن الإلقاء إلى الكافرين بالمودّة قومًا لهم أبناءٌ في مكَّةَ في وقت نزول الآية[2].

الأولادُ أخصُّ قَراباتِ الأرحامِ وأقربُ المَظْنونِ بهم فائدةً

دلالةُ إضافةِ الأرحامِ والأولادِ إلى ضميرِ الخِطاب:

أُضيف لفظُ الأرحام والأولاد إلى ضمير الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾، فإضافةُ الأرحام بمعنى اللّام؛ أي: أرحامٌ لكم، وإضافةُ الأولادِ بمعنى (مِن)؛ أي: أولادٌ منكم.

إضافةُ الأرحامِ بمعنى اللّام، وإضافةُ الأولادِ بمعنى (مِن)

بلاغةُ التَّلميحِ والإيماء:

لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّه لن تنفعَ الأرحام والأولاد يوم القيامة لَمَّحَ إلى النّافع الحقيقيِّ، وهو اللّه تعالى، وأنَّ مَن عصى اللّهَ تعالى وأطاعَ هواه فقد استحقَّ الويلَ والثُّبور.

لا نافعَ يومَ القيامةِ إلّا الله

بلاغةُ توجيهِ تعلُّقِ الظَّرفِ في المعنى البيانيّ:

يَحتمِلُ ظرفُ الزّمان ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أن يكونَ مُتعلِّقًا بالفعل

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 142.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 142.

أغراضُ الاستئنافِ والإيجازِ في ثَنايا توجيهِ تعليقِ الظُّروفِ بالأفعال

﴿تَنفَعَكُمۡ﴾ فيكون معمولًا له، ويَحتمِلُ أن يكونَ مُتعلِّقًا بالفعل ﴿يَفۡصِلُ﴾[1]، ويحتملُ أن يكون جاء على سبيل التَّنازُع بين العاملين ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ﴾ و﴿يَفۡصِلُ﴾[2]؛ لأنَّ الظَّرفَ لا يُشترَطُ في عامِلَيه المُتنازِعَينِ أنْ يتقدَّما عليه على قولِ بعضِهم.

ويترتَّبُ على ذلك أنَّه إن كانَ الظّرفُ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ متعلِّقًا بالفعل ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ﴾ وُقِفَ على ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وابتُدِئَ بما بعدَهُ، وتكونُ جملةُ ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ استئنافًا لبيانِ سببِ عدمِ نفعِ الأرحامِ والأولادِ يوم القيامة، فكأنَّه قيل: لِمَ لن تنفعَ الأرحامُ والأولاد يوم القيامة؟ فأُجيبَ: لأنَّ اللّه تعالى يَفصِلُ بينَ النّاس في ذلك اليوم، فيقدَّرُ ظرفٌ محذوفٌ مع الفعل ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ دلَّ عليه المذكور، فيكون الحذفُ للإيجاز[3]، والمعنى: يُفرِّقُ اللّه بينَكم بما اعتراكُم من الهولِ الموجِبِ لفرارِ كلٍّ منكُم من الآخَرِ حسبَما نطَقَ به قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾ [عبس: 33 - 36]، أو يُفرِّقُ اللّه بينَكم فيَجعلُ فريقًا في الجنَّة وفريقًا في السَّعير، فما لكم ترفُضونَ حقَّ اللّه تعالى وموالاتَهُ لمراعاةِ حقِّ مَن لا ينفعُكم يوم القيامة؟!.

وإن كان الظّرفُ مُتعلِّقًا بالفعل ﴿يَفۡصِلُ﴾ كان الوقفُ على ﴿أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾، ويكونُ قولُهُ: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ استئنافًا لبيانِ سببِ عدم نفعِهم؛ أي: عدمُ نفعِهم إنّما يظهرُ في وقتِ الفصلِ بينكم يومَ القيامة[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 154.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.
(3) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 294، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 236، والشوكاني، فتح القدير: 5/ 251، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.
(4) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 513، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 205، والنسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 467.

دلالةُ ذكرِ الظَّرف:

بيانُ زَمَنِ ظُهورِ عدمِ النَّفْع

أفادَ ذكرُ ظرف الزّمان ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تقييدَ عدم النّفع في ذلك اليوم؛ أي: أنَّ ظهورَ عدم النّفع وتقريرَ المصير إنّما يكونُ في الآخرة لا في الدّنيا.

سرُّ استعمالِ لفظةِ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

كـم مِـن بَهْجَةٍ دامَـتْ هنـاك، وكم مِن مُهْجَةٍ ذابَتْ عندَ ذاك

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ التّركيب الإضافيِّ العَلَميِّ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دون بقيَّة الألفاظ الدّالَّةِ على هذا اليوم المَهيب، وذلك أنَّه الاسمُ العَلَم، الجامعُ للصِّفات الكثيرة كالبعث، والنَّشر، والحشر، والجزاء، والحساب، فهو الأصلُ في الذِّكر، كما أنَّه يومِئُ إلى لحظةِ قيام النّاس من قبورِهم لله ربِّ العالمين[1] إلى لحظةِ قيامِهم في دار الخُلْد، فلجميعِ هذه المعاني المقتضية لتهويل الموقف والتّنبيهِ عليها كان ذكرُهُ الأنسبَ من غيرِه.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿يَفۡصِلُ﴾:

يمتازُ الأسلوبُ القرآنيُّ بالمعاني الوَفيرةِ والألفاظِ الوَجيزة

آثر النّظم الكريم استعمالَ مفردة الفصلِ في قوله تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾؛ لاحتمالِها معنى التّفريق بين الأقارب ومعنى القضاء بينهم، وذلك أنَّ هذا الفعلَ يَحتمِلُ في السّياق معنى: يُفرِّقُ بينكم وبين ذوي أرحامكم وأولادكم بعدَ الجمع يومَ الحشر[2]، وذلك بما يكونُ من الهول الموجِبِ لفرارِ كلٍّ منكم من الآخر. وعبّر بفعل ﴿يَفۡصِلُ﴾ دون (يُفرِّقُ)؛ للإشعار بالفُرقة العظيمة الَّتي يكون فيها انقطاعُ جميعِ الأسباب إلّا سببَ الإيمان، فيُفرِّقُ بين الوليِّ والعدوِّ، والمؤمنِ والكافر، والموحِّد والمشرك، فالفصلُ على سبيل التَّمييز والإبانة، بحيث يَبِينُ كلُّ فريق عن الآخر؛ ففريقٌ في الجنّة، وفريق في السّعير[3].

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب الأصفهاني: 3/ 1372، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 5/ 305.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 141.

ويُحتمَلُ أن يكون الفعلُ ﴿يَفۡصِلُ﴾ على معنى القضاء؛ أي: يَقضي بينكم؛ فيَحكُمُ بالجزاء بالجنَّة لأهل طاعتِه من المؤمنين وأوليائِهم، وبالنّار لأهل معصيتِه من الكافرين وأعوانِهم.

والخلاصةُ: أنَّ الفصل إمّا أن يكونَ بمعنى الحُكمِ بينهم، أو مِن الفصل بمعنى التّفريق[1].

توجيهُ القِراءاتِ القُرآنيَّة:

تنوُّعُ القِراءاتِ إثراءٌ للمعنى وتكثيرٌ للدَّلالة

اختَلَفَ القرّاء في قوله تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾؛ فقرأ عاصمٌ ويعقوبُ: ﴿يَفۡصِلُ﴾ بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصّاد، وقرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرو: ﴿يُفۡصَلُ﴾ بضمِّ الياء وفتح الصّاد خفيفةً، وقرأ ابنُ عامرٍ: ﴿يُفَصَّلُ﴾ بضمِّ الياء وفتحِ الصّاد مشدَّدةً، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخَلَفٌ: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بضمِّ الياء وكسرِ الصّاد مشدَّدةً[2]. وقد دلّتْ كلُّ قراءةٍ على معنًى لطيفٍ، ودلالةٍ بديعة، اجتَمَعَتْ في التّصريح بالفاعل ضميرًا، وحذفِه للعلم به، والتَّخفيفِ للدَّلالة على الحكم النِّهائيِّ، والتَّشديدِ لبيان توزيعِ القضاء على النّاس في ذلك اليوم.

بلاغةُ الاحتِجاجِ بذِكْرِ التَّقْسيم الحاصِر:

إقامةُ الحُجَّةِ على العبادِ مِن تَمامِ الحُجَّةِ على رأفةِ ربِّ العِباد

جاء قولُه تعالى ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ مُتمِّمًا للشّرطِ وجزائِه في قوله تعالى: ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءً وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾؛ فتكونُ الآيتان من قَبيلِ التّقسيم الحاصر، حيث خطَّأ رأيَهم أوَّلًا في موالاةِ مَن هو خالصُ العداوةِ لهم بما يَرجِعُ إلى حال مَن والوه من العداوةِ وبسطِ الأيدي والألسُن بالسّوء، ثمَّ خطَّأ رأيَهم ثانيًا فيمَن يوالون العدوَّ لأجلِه؛ أي: بما يَرجِعُ إلى حال مَن اقتضى تلك الموالاةَ، وبيَّن أنَّ مرجعَ حال قراباتهم وأولادهم الَّذين يوالون

---

(1) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 365.

(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/ 39، وابن الجزري، النّشر: 2/ 387.

الكفار مِن أجْلِهم أنَّهم لا ينفعونهم يوم القيامة، ويفرّون منهم[1]، فقال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾؛ ليُرِيَهم أنَّ ما أقدَموا عليه مِن موالاةِ أعداء اللّٰه مِن أيِّ جهةٍ نَظَرْتَ فيها وجَدْتَها باطلًا[2]. وهذا طريقٌ في الحِجاج بليغٌ؛ ليَرُدَّ على جميعِ ما يتحجَّجُ به مَن يتَّخِذُ عدوَّ اللّٰه أولياءَ.

بلاغةُ النَّظْمِ بينَ الإيجازِ بالحَذْفِ وعَدَمِه:

احتمالُ أنْ يكونَ الخِطابُ لعُمومِ النّاس فلا حذفَ، أو للمُخاطَبين فالحذفُ

اكتفى النَّظمُ الكريم بذكرِ ﴿بَيۡنَكُمۡۚ﴾، دون أن يذكرَ ظرفَ الطَّرَفِ المقابلِ؛ أي: (وبينَهم)، فإمّا أنْ يكونَ الكلامُ محمولًا على الإيجازِ بالحذف اكتفاءً بقرينة المقام، وتقديرُ الكلام: يَفصِلُ بينَكم وبينَهم؛ أي: بينَكم وبينَ أقاربكم وأولادكم[3]، ونكتةُ الحذفِ الإشارةُ إلى قوَّةِ سبب لُحمةِ القَرابة، فكأنَّهم شيءٌ واحدٌ، ومع هذا فإنَّه تعالى يفصلُ بينَكم في إشارةٍ إلى أنَّ سببَ الإيمان أقوى وأثبتُ وأنفعُ.

وإمّا أن يكون الكلامُ محمولًا على الالتفات، ولا حذفَ للظَّرفِ حينئذٍ؛ أي: إنَّه لمّا كان الخطابُ للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾ عدَلَ إلى خطاب النّاس جميعًا؛ لَمقام يوم القيامة الَّذي يكون فيه الحشرُ لجميع النّاس، فقال: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾؛ أي: يفصل بينكم أيُّها النّاسُ جميعًا.

ففي الخطابِ بضميرِ الجمعِ مبالغةٌ في التّهديد والوعيد لِمَن يُلقون إلى الكافرين بالمودَّة؛ فكيف بالكافرين أنفُسِهم؟.

وإمّا أن يكونَ الخِطابُ ابتداءً بقوله: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ﴾ لجميع النّاسِ، فيكون الالتفاتُ من بدايةِ الآية، لا من قوله تعالى: ﴿يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾، فلا حذف على هذا التَّوجيه.

(1) الطّيبي، حاشية على الكشاف: 15/ 355.

(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 513، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 142.

(3) النّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 467.

دلالةُ التَّذييلِ في الفاصِلة:

اجتماعُ الوَعْدِ والوَعيدِ في جُملةٍ واحدة

جاءَتْ جملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ جملةً تذييليَّةً؛ لتفيدَ معنًى كلّيًّا مع اتّصالِها بما قبلَها، والمعنى: واللّهُ بما تعملون بَصيرٌ فيُجازيكُم بعملِكم[1]؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ، فالجملةُ على معنى الوعيدِ والوعد[2].

علَّةُ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمار:

لكلِّ مَقامٍ مَقال

ما يَقتضيهِ ظاهرُ النّظمِ إضمارُ اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، لكنَّه عدَلَ إلى الاسم الظّاهر الدّالِّ على إظهار عُنوانِ الألوهيَّة؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ ترهيبٍ ووعيد.

فائدةُ الاسمِ الموصول:

الدَّلالةُ على مُراقبةِ عُمومِ الأعمال

أفادَ التّعبيرُ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ الدّلالةَ على العموم، وقرَّرَ هذا العمومَ وقوّاهُ حذفُ الضّمير العائدِ في الفعل ﴿تَعۡمَلُونَ﴾، فاللّهُ تعالى بصيرٌ بكلِّ ما يعملُه العباد، ومجيءُ الاسم الموصول دالًّا على العُموم مناسبٌ لكونِ الجملة تذييليَّةً.

غرضُ تقديمِ القَيْدِ على المُسنَد:

العملُ هو مَناطُ الفَصْلِ والجَزاءِ يومَ القيامة

قُدِّمَ ذكرُ الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ على الخبرِ ﴿بَصِيرٞ﴾، فلم يقل: (واللّه بصير بما تعملون)، وغرضُ تقديم القيدِ التّنبيهُ على مزيدِ الاعتناء بما يعملُهُ العباد؛ بمعنى: أنَّ الأعمالَ هي مَناطُ الفصل بين النّاس، وهي الَّتي يكون عليها الجزاءُ يوم القيامة، فليس في التّقديم معنى التّخصيص؛ لأنَّه تعالى بصيرٌ بالذّوات وبأعمالِها وبكلِّ مخلوق.

توجيهُ تخصيصِ صفةِ ﴿بَصِيرٞ﴾ بالذِّكر:

آثر النّظمُ الكريم اختيارَ صفة البصيرِ دونَ الخبير والعليم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 236.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 142.

ونحوِهما، والكلامُ عن علمِ الله تعالى بخَفايا ما يُسِرّون؛ فيُسألُ عن سرِّ استعمالِ هذا الاسم دون غيره؟ والجوابُ: أنَّ أعمالَ العبادِ ظاهرةٌ وإن أخفَوها، فجَعَلَ عملَهم الخفيَّ كالمحسوس الظّاهر الَّذي يُحَسُّ بالبصر؛ لظهورِه ووضوحِه عنده تعالى[1]، مع ما في ذكر الاسم من الوعيد الشّديد، فإنَّ ذكرَ البصير يدلُّ على الرّقابة الإلهيَّة للعباد.

تنزيلُ الأعمالِ الخَفيَّةِ منزلةَ الظّاهرة، والتَّنبيهُ على الرَّقابةِ الإلهيَّة

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأولاد والبَنين:

الأولادُ: جمعُ ولدٍ، ويشمل الذَّكَر والأنثى[2]، والمولودُ يكون ذكرًا أو أنثى. أمّا لفظُ البَنينَ فهو جمعُ ابنٍ، ويَقتصِرُ على الذّكور فقط، فاللَّفظُ خاصٌّ بالذّكور من الأبناء، فلفظُ (الأولاد) أعمُّ من لفظِ (البنين). وعبَّر بالأولادِ في قولِه تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾؛ ليشملَ نفيَ نفعِ البَنينَ والبناتِ دون الاقتصار على البَنينَ وحدَهم.

(الأولادُ) كلمةٌ تَشمَلُ الذُّكورَ والإناث، و(البَنون) لفظٌ خاصٌّ بالذُّكور

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 518.

(2) الفيُّومي، المصباح المنير: (ولد).

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ٤﴾

[الممتحنة: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن الأمرِ النَّظَريِّ إلى الأمرِ بالتَّأسّي بالسُّلوكِ العَمَليّ

لمّا تناولتِ الآياتُ السّابقة حالَ مَن يوالي عدوَّ الله بما يَجُرُّ إلى مَضارِّ الدّنيا والآخرة، فكانت الآيةُ بيانًا تحذيريًّا في أمر الوَلاء والبَراء من الأعداء ناسَبَ بعد ذلك ذكرُ عنوان الوَلاء والبَراء في السُّلوك الإيمانيِّ، وهو خبرُ سيِّدِنا إبراهيمَ عليه السلام، فقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، وهذا من تربيةِ الحاضر بالماضي، والاعتبارِ بحال مَن ينتمي إليه النّاس، فإبراهيمُ عليه السلام هو مَجمَعُ الخير في التَّجرُّدِ من الكفرِ واعتناق التّوحيد، فالآيةُ تمثِّلُ الانتقالَ من التّنظير بالنّهيِ عن موالاة الأعداء إلى التّطبيق في الاعتبارِ بالخليل عليه السلام.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُسْوَةٌ﴾: يَدورُ معنى الأسوة على المُداواة والإصلاح، وأصلُ الكلمة من: أَسَوْتُ الجُرْحَ: إذا داويتَه، ومنه الأسى الحزن، ويُقالُ: أَسَوْتُ بَيْنَ القَوْمِ: إذا أَصْلَحْتَ بَيْنَهُمْ[1]. ويقال: ائْتَسِ به؛ أي: اقتدِ به. وفُلانٌ يَأْتَسي بفُلانٍ؛ أي: يَرْضَى لِنَفْسِهِ ما رَضِيَهُ ويَقْتَدي بِهِ وكانَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أسا).

في مِثْلِ حالِه[1]. والأُسْوةُ بضمِّ الهمزة وكسرِها تُطلَقُ على الحالة الَّتي يكون الإنسانُ عليها في اتِّباع غيره إن حسنًا وإن قبيحًا، وإن سارًّا وإن ضارًّا[2]، فالأسوةُ اسمٌ لكلِّ ما يُقتدى به، ومَن يُقتدى به أسوةٌ أيضًا[3]. يُقال: فلانٌ أسوةٌ في هذا الأمر، فالأسوةُ القدوة[4]، وهي من التَّأسّي بمَن هو في مقام الفضل والإحسان في الأمر الَّذي يُتأسَّى به فيه.

2) ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾: يدلُّ البُرْءُ والبَراءُ والتَّبَرّي على سلامةِ الحيِّ وخُلوصِهِ ممّا يَكتَنِفُهُ أو يَنقُصُهُ، وأصلُهُ من البُرْأةِ. وهي قُتْرَةُ الصّائدِ الَّتي يَكْمُنُ فيها ليسلَمَ ممّا حولَه[5]. وبَرِئَ إذا تنزَّهَ وتَباعد. ويُقال: هو بريءٌ من الدَّين أو العيب أو التُّهمة وكلِّ ما هو شرٌّ بمعنى الخُلوصِ والسّلامة منها. ويدلُّ اللَّفظُ على معنى القوَّة في المُزايَلة. ومنه مَطرٌ ذو بُرايةٍ: يَبْري الأرْض ويَقْشرها. ودابّةٌ ذاتُ بُرايةٍ؛ أي: ذاتُ قوّة على السَّيْر[6]، ثمَّ عُبِّرَ بالبراءة عن التّباعدِ من كلِّ ما هو شرٌّ، ومُزايَلَتِهِ بشدَّةٍ وقوَّةٍ على سبيل السّلامة منه وكُرهِ مُجاوَرَتِه[7]. وبريءٌ مفردٌ، وجمعُهُ: بُرَآءُ وبَريئون[8]. ومعنى ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ﴾: إنّا مُتبرِّئون ومُنكِرون لِما تعملون.

3) ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: أصلُ الكلمة من صَيَر، ويَدورُ اللَّفظُ على معنى الانتهاء إلى موضعٍ بعدَ التّنقُّل والحركة، بحيث يكون فيه تحوُّلٌ من حالٍ إلى حالٍ يكون فيه المآلُ والمرجع[9]. والمَصيرُ: المَوْضِعُ الَّذي تَصيرُ إليه المياهُ بعد تنقُّلها، فلفظُ المصير يأتي مصدرًا واسمَ مكان؛ ويُقالُ: أين مَصيرُكم؟ أي: أين مَنزِلُكم؛ لأنَّ المنزلَ مكانُ رجوع القوم في مَحاضرِهم بعدَ تنقُّلِهم. وصيِّرُ الأمرِ: مُنْتهاهُ ومَصيره وعاقِبَتُهُ وما يَصير إليه. و﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ في الآية بمعنى المَرجِع[10].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (أسا).
(2) الرّاغب، المفردات: (أسا).
(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 21/ 408.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أسا).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (برأ).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (برأ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).
(8) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (برأ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (صير).

المَعنى الإجماليُّ:

قصَّةُ إبراهيم أُنموذَجُ التَّطبيق العَمَليّ في الوَلاء والبَراء

ذكرتِ الآيةُ الكريمة مثالَ التّأسّي العظيمِ في البراءة من أعداء الله تعالى؛ ليتأسّى المؤمنون بإبراهيمَ والَّذين آمنوا معه، حين قالوا لقومهم المشركين: إنّا نتبرَّأُ منكم، ومن الَّذين تعبدون مِن دون الله من الآلهة والأنداد، أنكَرْنا ما أنتم عليه من الكفر بالله تعالى، وظهَرَ بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاءُ أبدًا على كُفرِكم بالله، وعبادتِكم ما سواه، ولا صلحَ بيننا ولا هَوادةَ إلى أن تؤمنوا بالله وحده، إلّا قولَ إبراهيم لأبيه المشرك: لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ اللّهَ؛ فإنَّه لا أُسوةَ لكم في هذا القولِ، إذ لا ينبغي لأحَدٍ أن يَستغفِرَ للمُشرِكينَ ولو كانوا ذَوي قُرْبَى[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عن السّابِق:

موالاةُ أعداءِ الأُمَّةِ المحمَّديَّة مُخالَفَةٌ للملَّةِ الإبراهيميَّة

فُصِلَتْ جملةُ ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها تأكيدٌ للكلام السّابق، فهي تأكيدٌ لِمَضمونِ جُمْلَةِ ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾، وجُمْلَةِ ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ﴾، وذلك لأنَّ الآية جاءت لبيان السّبب بما دلَّت عليه، مِن أنَّ مَن توجَّهَ إليهم التّوبيخُ خالفوا الأُسوةَ الحسنةَ في عملِهم بالإلقاء إلى عدوِّ الله بالمودّة؛ فتكونُ جملةُ ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ مُقوّيةً لإثباتِ الخطَإ المُستوجِبِ للتّوبيخ[2]، فمقتضى الحقِّ هو متابعةُ الأسوة الحسنة في أعمالِها، لا مخالفتُها في موالاةِ أعداء الأُمَّة، والنَّسْجِ على خُطا مُحرِّفي المِلَّة.

دلالةُ استعمالِ حرفِ التَّحقيق:

الحَثُّ على التَّأسّي بسيِّدِنا إبراهيمَ مِن دونِ تَرَدُّد

أفادَ حرفُ التّحقيق ﴿قَدۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ تأكيدَ كونِ إبراهيمَ ومَن معه أسوةً حسنةً يُقتدى بها دون تردُّدٍ؛ بمعنى: أنَّ هذه الخَصْلةَ حَقيقةٌ أن يُقتدَى بها.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 318.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 142.

غرضُ تقديمِ ﴿لَكُمۡ﴾ على المُسنَدِ إليه:

مَزيدُ الاعتناءِ يوجِبُ التِزامَ الأمر

أفاد تقديمُ ﴿لَكُمۡ﴾ على ﴿أُسۡوَةٌ﴾ في قوله: ﴿كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ مزيدَ اعتناءٍ بكونِ هذه الأسوةِ لكم أيُّها المؤمنون؛ لمُناسبتِها لسبب النّزول؛ أي: فالزَموها ولا تُخالِفوها.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿أُسۡوَةٌ﴾:

أعظمُ الخِصالِ الّتي حَفِظَها القرآنُ لِمِلَّةِ إبراهيمَ بَراءَتُهُ من قَوْمِه

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بمفردة ﴿أُسۡوَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذه الحالةَ هي من حالات الفضل الإحسان، وأنَّ صاحبَها يُتأسَّى به، فالأسوةُ هي الخَصْلةُ الَّتي يُقتدى بها من فعلٍ أو قولٍ أو وصفٍ، وجاء ذكرُ الأُسوةِ دون القدوة لبيانِ أنَّ المقصودَ بالدَّرجة الأولى هو الخَصْلة الحسنة، أمّا القدوةُ فهي أعمُّ من ذلك؛ إذ تأتي في المَنهَجِ والسُّلوك العامّ.

فائدةُ تنكيرِ لفظةِ ﴿أُسۡوَةٌ﴾:

التَّعظيمُ والتَّفخيمُ لفَخامةِ مَن صَدَرَتْ عنه

جاءتْ لفظةُ ﴿أُسۡوَةٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ﴾ منكَّرةً لإفادةِ التَّعظيم؛ بمعنى: أنَّها أسوةٌ تَستحِقُّ الاقتداءَ بها؛ لعَظَمتِها وفخامتِها، باعتبارِ دلالتها على التّوحيد النّقيِّ، وباعتبار مَن صدَرَتْ عنه.

دلالةُ وصفِ ﴿أُسۡوَةٌ﴾ بـ﴿حَسَنَةٌ﴾:

تأكيدُ حُسْنِ الأُسوةِ، وأنَّها بمكانٍ رفيعٍ ممدوح

لمّا غلَبَ على الأسوة أن تكون في الأمور الحسنة المرضيَّة الَّتي يحسُنُ الاقتداءُ بها كان وصفُ الأسوة بالحسنة في قوله تعالى: ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تأكيدًا لمدح هذه الأسوة؛ لأنَّ كونَها حسنةً قد عُلِمَ من السّياق[1] ومن اللَّفظِ ذاتِه، فكان في وصفِها تأكيدٌ لتلك الصّفة الغالبة عليها؛ فقد يَتأسّى المرءُ بما هو قبيحٌ، ظنًّا منه أنّه حسن[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 143.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 898.

بيانُ عُمْقِ البَراءةِ مِن الكافرين في سُلوكِ إبراهيمَ عليه السلام

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

حرفُ الظَّرفيَّة ﴿فِيٓ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ مستعارًا للتّعبير عن قوّة الملابسة؛ إذ جُعِلَ تَلبُّسُ إبراهيمَ والَّذين معه بكَونِهم أُسوةً حَسنةً، بمَنزِلةِ تَلبُّسِ الظَّرفِ بالمظروفِ في شِدَّةِ التَّمكُّنِ مِن الوصْفِ، ولذلك كان المعْنى: قدْ كان لكم إبراهيمُ والَّذين معه أسوةً في حينِ قَولِهم لقومِهم[1]؛ بمعنى: أنَّ فيه خَصْلةً حسنةً ثابتةً متمكِّنةً منه ومن الَّذين معه، وأنَّ من حقِّها أن يُؤتَسى بها وتُتَّبَعَ، فيكونُ المقصودُ الخصلةَ الحسنة الَّتي يُقتدى بها في إبراهيم عليه السلام، فليس الكلامُ في أن تكون ذَواتُهم أسوةً، بل خصلةُ تبرُّئِهم من الكافرين وكفرِهم بهم.

ويُحتمَلُ أن يكون الكلام على التَّجريدِ؛ أي: جَرَّدَ مِن إبراهيمَ عليه السلام ومَن معه مَن يُؤتَسَى به، وهم المُؤتَسى بهم[2]؛ أي: فإبراهيمُ في نفسه ومَن معه أسوةٌ حسنة؛ أي: قدوةٌ، وهو المؤتسَى به؛ أي: المُقتدى به.

بـراءةُ إبراهيـمَ عليه السلام مِن الكافرين أُسْـوةٌ للحاضِرِ بالغابِرِ

توجيهُ تخصيصِ إبراهيمَ بالذِّكر:

اختار النّظمُ الكريم أُنْموذَجَ إبراهيمَ عليه السلام في الاقتداءِ بالبراءة من الكفّار، وإبداءِ العداوة والبغضاء لأعداء اللّه تعالى؛ ليكون أسوةً للحاضر بالغابر، دون بقيَّة المرسلين، وهم جميعًا عليهم السلام نَماذِجُ في البراءةِ من الكفر والكافرين، وذلك أنَّ إبراهيمَ عليه السلام مَثَلٌ في اليَقين باللّه والغَضَب بِه، عَرَفَ ذَلكَ العَرَبُ واليَهودُ[3].

اكتِمالُ النَّموذَجِ في بَراءَةِ الرَّسولِ وأتْباعِه

غَرَضُ عَطْفِ المؤمنين مِن قومِ إبراهيمَ على رَسولِهم:

عُطِفَ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ ليَتِمَّ التَّمْثيلُ لِحالِ المُسْلِمينَ مَعَ رسولهم ﷺ بحالِ إبراهيمَ عليه السلام مع قومِه؛ أي: أنْ يَكونَ المُسْلِمونَ تابِعينَ لِهَدْيِ رسولِهم ﷺ، كَما كانَ الَّذينَ مَعَ إبْراهيمَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 144.

(2) الطّيبي، حاشية على الكشاف: 15/ 356.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 143.

ﷺ تابعين له في البراءةِ من الكافرين وإبدائِهم العداوةَ والبغضاءَ لهم(1)، فلم تكنِ البراءةُ صادرةً عن إبراهيمَ ﷺ وحدَهُ، بل كان له أتباعٌ في ذلك ممَّن آمَنَ به وبدعوتِه.

دلالةُ ذكرِ المعيَّةِ وعدمِ التَّصريحِ بالإيمان:

مُتَّبِعو الرَّسولِ مُتَّصِفون بهَدْيِه وخِصالِه

لمّا كانت المعيَّةُ تقتضي المتابعةَ، وكان إبراهيمُ ﷺ مشهورًا بالحنيفيَّةِ وتوحيدِه لله تعالى أفادَ الموصولُ وصلتُهُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ أنَّ المراد به الَّذين اتَّبعوه في إيمانِه وتوحيدِه وهَدْيِه، ولذلك لم يقل: (والَّذين آمنوا معه)؛ لأنَّ الكلامَ في الأسوة والاقتداءِ؛ ليدلَّ بلفظِ المعيَّة على أنَّهم اتَّبعوا هَدْيَهُ وخصالَهُ الحسنةَ. والمُرادُ بـ(الَّذينَ مَعَهُ) أصحابُه وأتباعُه(2).

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في التَّقْديمِ والتَّأخير:

التَّأسّي بسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ بالمُطلَق، وبسيِّدِنا إبراهيمَ ﷺ بموضوعِ البَراءة

في قولِه تعالى في سورةِ الأحزاب: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١﴾ [الأحزاب: 21] قُدِّمَ قولُه: ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ على ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾، وهنا في سورة الممتحنة قُدِّمَ قولُه: ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ على ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾؛ فما سرُّ ذلك؟.

والجوابُ: أنَّ سرَّ ذلك أنَّ الكلام في سورة الأحزاب عن الإيمان برسول اللّه ﷺ وصدقِ وعده وكونِه أسوةً حسنةً للمؤمنين، فناسب تقديمُ ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه هو موضوعُ سياق الآيات؛ فذُكِرَ التّأسّي برسول اللّه ﷺ باعتبارِه رسولًا يُقتدى به مطلقًا، لا باعتبار أنّ الاقتداءَ به خاصٌّ بموضوع معيّن.

أمّا في سورة الممتحنة فإنَّ موضوعَ السّياق هو نَهْيُ المؤمنين عن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 143.

(2) الواحدي، الوجيز، ص: 1088.

موالاةِ أعداء الله، فذكَرَ حالةً تصلُحُ للتّأسّي، فالكلامُ على التّأسّي بخَصْلةٍ حسنةٍ حميدةٍ، لا على التّأسّي بإبراهيمَ عليه السلام باعتبارِه رسولًا.

فأفاد تقديمُ نبيِّنا على ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أنَّه ﷺ أسوةٌ حسنة بالإطلاق، وأفاد تقديمُ الأسوة على إبراهيم عليه السلام أنَّ هذه الأسوة مقيَّدةٌ بموضوعِ البراءة من الكفّار، وهو مُطَّرِدٌ في كلِّ ملَّةٍ[1].

توجيهُ تعلُّقِ الظَّرفِ ﴿إِذۡ﴾:

الأقوالُ الصّادرةُ عن أصحابِها ترجمةٌ لعقائِدِهم وقيَمِهم

الظّاهرُ أنَّ ﴿إِذۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بالأسوة[2]؛ أي: في إبراهيم ومن معه أسوةٌ حينَ قولِهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّه ظرفٌ لـ﴿لَكُمۡ﴾؛ بمعنى: قد كان في إبراهيم وقومه أسوةٌ حسنةٌ كائنةٌ لكم حين قالوا، كما ذهب آخرون إلى أنَّ الظّرف بدلُ اشتمالٍ من ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾؛ والمعنى على هذا الوجهِ: قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في إبراهيمَ والَّذين معه في حينِ قولِهم لقومهم الكفّار: إنّا بُرَآءُ منكم، وقد كان كفّارُ قومِ إبراهيمَ أكثرَ من عدوِّكم وأقوى، ولهم فيهم أرحامٌ وقرابات، ومع ذلك لم يُبالوا بهم[3].

نكتةُ استعمالِ ظرفِ الزَّمانِ ﴿إِذۡ﴾ دونَ (حين):

ما بعدَ (إذ) حَدَثٌ عظيمٌ يَستحِقُّ الانتباهَ والالتفاتَ، لا مجرَّدُ خبرٍ يُذكَر

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ ظرفِ الزَّمانِ ﴿إِذۡ﴾ على غيره؛ لاستعمالِهِ في مَقامِ التّنبيه إلى زمانٍ وقَعَ فيه أمرٌ عظيم يَستحِقُّ أن يكون ما بعد ﴿إِذۡ﴾ مثلًا للذِّكرى والتَّدبُّر والعِظَة[4]، وللإشارةِ إلى عِظَمِ هذا القول، وأنَّه قولٌ جليل يَستحِقُّ أن يكون أسوةً حسنةً للمؤمنين.

ويُلمَحُ في ﴿إِذۡ﴾ معنى التَّعليل[5]؛ ليفيدَ الكلامُ تعليلَ حثِّ المؤمنين

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 295.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 144.
(3) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 77.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 143.
(5) ابن مالك، شرح التّسهيل: 2/ 208.

على اتِّخاذِ أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه من المؤمنين؛ بمعنى: أنَّ سببَ كون الأسوة الحسنة في إبراهيم ومن معه هو أنَّهم قالوا لقومِهم: إنّا بُرَآء منكم وممّا تعبدون من دون الله.

دلالةُ استعمالِ مُفردةِ القوم:

كثرةُ الكافرين في العُدَّةِ والعَدَدِ لا تَمنَعُ مِن البَراءةِ مِنهم

استعملَ النّظمُ الكريم مفردةَ (قوم) في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ﴾؛ لِما يفيدُهُ لفظُ (القوم) من الإشارة إلى قوَّتِهم وشدَّتهم واجتماعِهم، فهم يقومون على أمرٍ جامع، ففيه تنبيهٌ للمؤمنين بأنَّ الَّذين كانوا مع إبراهيم عليه السلام من المؤمنين كانوا أقلَّ منكم وأضعفَ، وقد قالوا لقومِهم الكفرةِ هذا القولَ، مع أنَّ فيهم أرحامًا لهم، وقد كان قومُهم أكثرَ مِن عدوِّكم وأقوى، فاقتداءُ المؤمنين الحاضرين بهم أيسرُ من أصلِ فعلِ الَّذين آمنوا مع إبراهيم عليه السلام.

نكتةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ البَراءة:

البَراءةُ لفظٌ جامعٌ بينَ المُفارَقةِ والتَّحلّي بالعافية

آثرَ النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾ للدَّلالةِ على تباعُدِ المؤمنين عن قومهم الكافرين، والبراءةُ تومئُ إلى الصِّحَّة والعافية من المرض، وهي مأخوذةٌ من البُرْء، فالَّذي يتبرَّأُ من غيره إنَّما يتبرَّأُ ممّا فيه من أمراضٍ تُلحِق الضُّرَّ والأذى، فكان هذا اللَّفظُ جامعًا بينَ البراءةِ مِن الأمراض القلبيَّة والبراءةِ الحسّيَّةِ بمفارَقةِ المُتبرَّإِ منه، فهي براءةٌ تَلحَقُها الصِّحَّةُ والعافية في الدّين والدُّنيا.

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾ بصيغةِ الجمع:

البَراءةُ المُعتبَرةُ هي القاطعةُ لكلِّ مَوَدَّة

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ جمع التّكسير ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾ الدّالِّ على الكثرة، مع أنَّ مَن قال هذا القولَ كانوا قلَّةً؛ للإشعارِ بأنَّهم مُتبرِّؤون منهم وممّا يعبدون تَبَرُّؤًا عظيمًا قاطعًا لكلِّ مودَّة، فجمعُ الكثرة للدَّلالة على كثرةِ التَّبرُّؤ. كما أنَّ الكثرةَ والقلَّةَ أمرٌ نِسْبيٌّ، فقد يكونُ الَّذين آمنوا مع سيِّدِنا إبراهيمَ كثيرين من حيث العددُ، إلّا أنَّهم أقلُّ بكثيرٍ من عددِ الكفّار حَتْمًا.

هَجْرُ المُعتقَداتِ لِجَوْهرِها، وهَجْرُ الأشخاصِ لِما يَلزَمُ عنهم

دلالةُ تعلُّقِ ﴿مِنكُمۡ﴾ بلفظِ ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾:

تعلَّقَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنكُمۡ﴾ بلفظِ ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾ - والبراءةُ تكون من الأفعال لا من الذَّوات - للإشعارِ بتمكُّنِ الكفرِ باللّه من القوم الكافرين، حتَّى صار جزءًا من ذاتِهم، كما أنَّ التَّبَرُّؤَ من ذواتِهم يَلزَمُ منه التّبرُّؤُ من أفعالِهم كذلك؛ أي: من عبادتِهم الَّتي أشركوا فيها آلهتَهم مع اللّه تعالى، والمقصودُ تبرُّؤُهم من مخالطتهم ومُلابَستِهم؛ لأنَّ ذلك يبعثُ على المودّة والمحبَّة لدينِهم[1]، فالبراءةُ من القوم باعتبار ما يُقارفونه من الباطل والشِّرك، وكان لذواتِهم كي لا تعودَ أسبابُ الوصال، فهم قومُهم وقرابتُهم، فالأحمدُ للدّين البراءةُ منهم ذاتًا والتزامًا.

الأصلُ في البَراءةِ أنْ تكونَ مِن ذواتِ المشركين إيذانًا بالتَّباعُدِ المعنويّ

دلالةُ العطفِ وترتيبِ المعطوفاتِ في قولِه: ﴿مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ﴾:

أفادَ العطفُ في قولِه: ﴿وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ التَّشريكَ في تبرّي إبراهيمَ والَّذين آمنوا معه من المشركين وممّا يعبدون، والعطفُ على اعتبار تكرار العامل، والتّقدير: إنّا برآءُ منكم وبرآءُ ممّا تعبدون من دون اللّه، وفي ذكر المعطوفِ إشارةٌ إلى سببِ براءتهم منهم، وأنَّه بسبب إشراكِهم باللّه تعالى، وإنَّما قدَّمَ البراءةَ من قومهم على البراءة ممّا يعبدون؛ للإشارة إلى تقديم الأصل والأهمِّ؛ بمعنى: أنَّ الأصلَ في البراءة أن تكونَ منكم؛ لأنَّ المعبوداتِ لم تُلزِمْكُم بعبادتِها، فقدَّم في المُتعاطِفَينِ السَّببَ الأهمَّ الَّذي هو الأصل.

البَراءةُ مِن عُمومِ مَعبوداتِ المشركين

دلالةُ الاسمِ الموصولِ (ما):

أفادَ الاسمُ الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ العمومَ؛ ليدلَّ على تبرّيهم من جميع ما يعبدون من دون اللّه، والمقصودُ الأصنامُ الَّتي يعبدونها مع اللّه تعالى، وقرَّرَ هذا العمومَ وأكَّدَهُ حذفُ العائدِ على الاسمِ الموصول، وهو مفعولُ الفعل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 144.

﴿تَعۡبُدُونَ﴾، وعُبِّرَ بلفظِ (ما) دون (الَّذين) - أي: دونَ أن يُقالَ: (ومن الَّذين تعبدون) - لأنَّ (ما) أكثرُ عمومًا من (الَّذين)، كما أنَّ (ما) يُقصَدُ بها الفرد والمجموع؛ أي: سواءٌ أشركتُم في فردٍ أم في مجموعٍ، وبقطع النَّظر عن صفتِهِ وحاله فإنّا بُرَآءُ منكم.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع ﴿تَعۡبُدُونَ﴾:

البـــرَاءةُ مِـن عبادةِ المشركين مُستمِرَّةٌ في كلِّ أوانٍ مِـن آوِنَـةِ عبادتِهم

جيءَ بصيغة المضارع في الفعل ﴿تَعۡبُدُونَ﴾؛ لتصويرِ الحالة واستمرارِهم عليها[1]. فينطوي اللَّفظُ على ذمِّهم على عبادتِهم المُنكَرةِ وعلى استمرارِهم عليها، كما أنَّ في التَّعبيرِ بصيغة المضارع إشارةً إلى أنَّهم برآءُ منهم في كلِّ أوانٍ من آوِنَةِ عبادتِهم المذمومة.

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

عقيدةُ الكافرين مَبدَؤُها تعظيمُ ما هو دونَ الله

﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيّةٌ؛ أي: أنَّ البراءةَ منكم بسببِ عبادتِكم الَّتي بدأتُموها بتعظيمِ ما هو دونَ اللّه تعالى، وكلُّ معبودٍ هو دونَ اللّه تعالى في الاستحقاق والحقّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ ﴿دُونِ﴾:

كـلُّ معبودٍ من دون الله مكانتُهُ مُـنـحـطَّـةٌ في عقيدةِ المؤمنين

جاء التّعبيرُ بالظَّرفِ ﴿دُونِ﴾ مجرورًا بـ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى: من غيرِ اللّهِ؛ للإشعارِ بأنَّ كلَّ ما سوى اللّه هو دونَه وأقلُّ مِن أنْ يكونَ بمرتبةِ الألوهيَّة.

فائدةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دونَ (ومِن آلهتِكم):

دِيـنُ الـتَّـوحـيـدِ هو دِينُ الإسلامِ الحقُّ الَّـذي لم يُـنـزِلْ سبحانه سِواه

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالموصول وصلتِهِ في قولِه تعالى: ﴿وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على أن يُقالَ: (ومِن آلهتِكم)؛ إيذانًا بعلمِ القومِ بشركِهم باللّه تعالى في عبادتِهم، وعلمِهم أنَّهم يعبدون آلهةً من دون اللّه؛ لأنَّ جملةَ الصِّلة تكونُ معلومةَ الانتساب إلى مشارٍ إليه عندَ إحضارِها في ذهن المخاطب. وفي التَّعبيرِ بالصِّلة

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 497.

وقيدِها بيانٌ لعلَّةِ براءَتِهم من آلهتِهم، وإشعارٌ بذمِّهم على عبادتِهم وقُبحِ فعلِهم؛ لكيلا يستصعبَ المؤمنون البراءةَ منهم، كما أنَّ في ذكر الصِّلة تقريرًا لكفرِهم الَّذي يستحقّون به البراءةَ منهم، وهو الشّركُ باللّه تعالى، وعدمُ إفراده بالعبادةِ الحقَّة، والطّاعةِ المطلقة، وهو ما يُؤكِّد أنَّ الدّين عند اللّه الإسلام، الَّذي هو دينُ التّوحيد مِن لَدُنْ آدمَ مُرورًا بإبراهيمَ عليه السلام، إلى أن يرثَ اللّه الأرضَ ومَن عليها.

علَّةُ فَصْلِ جُملةِ ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾، ودلالتُها:

بيانُ البراءةِ مِن الكافرين هو إعلانُ الكفرِ بهم

فُصلت جملةُ ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ عن السّابق؛ لأنَّها بيانٌ وتفسيرٌ لمعنى جملةِ ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾[1]، فعلَّةُ الفصل كمالُ الاتِّصال؛ لتفيدَ الجملةُ بيانَ المرادِ من براءَتِهم منهم وممّا يعبدون من دون اللّه، فيحصلُ بمجموعِ الجملتين تمامُ البيان والإيضاح لموقفِ المؤمنين من الكافرين.

بلاغةُ الكِناية في قولِهِ تعالى ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾:

التَّهكُّمُ بالكافرين غيرُ ممنوعٍ عندَ البَراءةِ مِنهم

يُحتمَلُ أن يكون قولُه تعالى: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ على سبيل الكنايةِ عن إظهارِ الاستهزاءِ بهم والتَّهكُّم بمعبوداتهم، وأنْ لا يُقصَدَ به الكفرُ المعروف، فيكون معنى ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾: إنّا لا نعتدُّ بشأنِكم ولا بشأنِ آلهتِكم، وما أنتم عندَنا بشيءٍ[2]؛ تهكُّمًا بهم واستهزاءً بعبادتِهم وبما يعبدونه؛ فإنَّ مَنْ كفر بشيءٍ يلزمُ منه أن لا يعتدَّ به ولا يهتمَّ لشأنه.

والأفضلُ الجمعُ بين المعنى الصَّريحِ والكناية؛ أي: كفرنا بكم وبمعبوداتِكم، فلا نعتدُّ بشأنِكم وبآلهتِكم[3].

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 50، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 143.
(2) الزّمخشري، الكشاف: 4/ 514، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 202، والشّهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 186.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 237.

دلالةُ تقييدِ فعلِ الكفرِ بقولِه: ﴿بِكُمۡ﴾:

أربابُ الضَّلالةِ أصلُ الباطلِ ورأسُ الكفر

لسائلٍ أن يسألَ عن سرِّ التَّعبير بقوله: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ دون أن يقول: (كفرنا بدينكم) أو (بمعبوداتكم). وجوابُهُ: أنَّه لمّا قال: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ تضمَّنَ الكفرَ بجميعِ ما أتوا به وما تلبَّسوا به؛ فإنَّ الكفرَ بذواتِهم كفرٌ بكلِّ ما يأتي منها؛ ليشملَ الكفرَ بإيمانِهم وبعبادتِهم وبآلهتِهم وبأقوالِهم وأفعالِهم؛ فيكونُ قولُه: ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ أبلغَ في البراءةِ مِن معبوداتِهم الباطلةِ من أن يُقال: (كفرنا بدينكم)، كما أنَّه أوجزُ في اللَّفظ.

بلاغةُ التَّغليبِ في ضميرِ الخِطاب:

البَراءةُ التّامَّةُ هي البَراءةُ مِن أعداءِ اللهِ ومِن مَعبوداتِهم

الضّميرُ في قوله: ﴿بِكُمۡ﴾ عائدٌ إلى مجموع المخاطبين من قومِهم مع ما يعبدونه من دون اللّه من الأصنام، ففيه تغليبٌ لضميرِ العاقل ﴿بِكُمۡ﴾، والمعنى: كفرنا بجميعِكم، ويُفسَّرُ الكفرُ بِما يُناسب المعطوفَ والمعطوفَ عليه؛ أي: جَحَدْنا ما أنتم عليه من الكفر، وأنكَرْنا عبادتَكم، وكفَرْنا بآلهتِكم الَّتي تعبدونها من دون اللّه[1]، فَكُفْرُهُمْ بِالقَوْمِ غَيْرُ كُفْرِهِمْ بِما يَعْبُدُهُ قَوْمُهُمْ، ولمّا كان القومُ مشركين باللّه تعالى، حيث يعبدون مع اللّه آلهةً أخرى كان المعنى: كفرنا بكم وآمنّا باللّه وحده.

دلالةُ عطفِ جملةِ ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ على جملةِ ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾:

التَّرَقّي في البَراءةِ مِن الفعلِ إلى القول

عُطفت جملةُ ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ﴾ على جملةِ ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾؛ لتكونَ من تمام عطف البيان لجملة ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾، ومناسبةُ هذا العطفِ الدَّلالةُ على أنَّهم صرَّحوا لهم بالبغضاء لأجلِ كفرِهم باللّه، ولم يُصانِعوهم ويَغُضّوا عن كفرِهم لاكتساب مودَّتِهم[2]. وفي العطف معنى التَّرَقّي في براءةِ المؤمنين من

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 317.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 145.

الكافرين؛ فإنَّهم لم يكتفوا بالكفرِ بهم، بل زادوا في القول؛ فقالوا: ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ﴾؛ لبيانِ شدَّتِهم في دينِ اللّٰه وقوَّتِهم فيه.

نكتةُ تذكيرِ الفعلِ ﴿وَبَدَا﴾:

الإيماءُ إلى صَلابةِ براءةِ المؤمنين مِن الكافرين

جاء الفعلُ ﴿وَبَدَا﴾ مذكَّرًا، والفاعلُ ﴿ٱلۡعَدَٰوَةُ﴾ مؤنَّثٌ في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ﴾، وذلك لوجود الفاصل بين الفعل والفاعل، ولكونِ الفاعل مُؤنَّثًا مجازيًّا لا حقيقيًّا. كما أنَّ في تذكير الفعل إشارةً إلى قوَّةِ بُدوِّ العداوةِ وثباتِها[1]؛ فإنَّ مِن شأنِ التَّذكير القوَّةَ والصَّلابة. ويُحتمل أن يكون على المجاز بالحذف على تقدير: وبدا بيننا وبينكم أمرُ العداوة، أو شأنُ العداوة.

بلاغةُ استعمالِ لفظةِ الفعلِ (بَدا):

جَمَعَ الفعلُ (بدا) الظُّهورَ السَّريعَ والمُفاجِئَ والبَيِّن

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ الفعل (بدا) في قولِه تعالى: ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ على أن يقال: (وظَهَرَ بيننا وبينكم العداوةُ والبغضاء) ونحوِه؛ لِما في مفردةِ البُدوِّ من معنى الظُّهورِ البَيِّنِ الَّذي يكون في مَطلعِ الأمر، بحيث لا يحتاجُ إلى كلفةٍ في المُعايَنة، فالبدوُّ هو ظهورُ بَوادِرِ الأمور، ففيه إشعارٌ بأنَّ المؤمنين أظهروا العداوةَ إظهارًا عظيمًا بينهم وبين الكافرين في البدايات، وأنَّها لم تكن مَخْفيَّة ولا متأخِّرة، كما أنَّ في الفعل (بَدا) معنى الفجاءة؛ بمعنى: أنَّ الكافرين لم يتوقَّعوا أن يُظهِرَ المؤمنون العداوةَ والبغضاءَ لهم مع ضعفِ المؤمنين في العددِ والعُدَّةِ وقوَّةِ الكافرين.

نكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾:

العلاقةُ بين المؤمنين وأعداءِ اللهِ العَداوةُ والبَغْضاء

جاء التّعبيرُ عن العلاقة بين المؤمنين والكافرين في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ﴾ بالبَيْنيَّةِ مكرَّرةً، ومقتضاها الجمعُ بين طرفين؛ ليدلَّ التّركيبُ على سَرَيانَ العداوة والبغضاء

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 497.

مشتركٌ بينهما، ولم يقل: (وبدا منّا لكم العداوة والبغضاء)؛ ليُفيدَ أنَّ العلاقةَ الَّتي بيننا وبينكم هي العداوةُ والبغضاء؛ فدلَّ الظَّرفُ (بين) مُكرَّرًا على المُبايَنةِ بسبب العداوة والبغضاء المشتركةِ بين المؤمنين والكافرين.

فائدةُ إسنادِ البُدوِّ إلى ﴿ٱلْعَدَٰوَةُ﴾:

عَداوةُ العقيدةِ لا يمكنُ إخفاؤُها

آثرَ النّظمُ الكريم إسنادَ حَدَثِ البُدوِّ إلى ﴿ٱلْعَدَٰوَةُ﴾ بجَعْلِها فاعلًا، مع أنَّ المُبديَ للعداوةِ هم المؤمنون، فهي من حيث المعنى مفعولٌ به لا فاعل، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ عداوةَ الدّينِ لا بدَّ أنْ تظهرَ، سواءٌ أظهرَها المؤمنون أم أخفوها مُداهَنةً للكفّار. والمعنى: أَحدَثْنا معكم عداوةً مُظْهَرةً لا موارَبةَ فيها؛ أي: لَيْسَتْ عَداوةً في القَلْبِ خاصَّةً، بَلْ هيَ عَداوَةٌ واضِحَةٌ مُعْلَنَةٌ بِالقَوْلِ والقَلْبِ، والعداوةُ تقتضي عدمَ مُتابعةِ العدوِّ وعدمَ موالاتِه، فإنَّ نقيضَ العداوة الولاية(1).

بلاغةُ عطفِ (البَغضاءُ) على ﴿ٱلْعَدَٰوَةُ﴾:

إظهارُ العَداوةِ ليس لفسادِ المَصالِحِ الشَّخصيَّة، بل للبُغْضِ في الله

قرَنَ النّظم الكريم بين العداوة والبغضاء في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾، ونكتةُ ذلك أنَّ العداوةَ هي ما يتَّصلُ بالمعاملة بالسّوءِ والاعتداءِ، وتكون بالأفعال والأقوال، فتكون ظاهرةً، والبَغْضاءُ تكون في القلب، ويُقصَدُ بها نَفْرَةُ النَّفْسِ، والكَراهيَةُ؛ لأنَّ البغضاء هي المباينة بالقلوب بالبغض العظيم(2)، فتكون باطنةً، وقَدْ تُطْلَقُ إحْداهُما في مَوْضِعِ الأُخْرَى إذا افْتَرَقَتا، فَذِكْرُهُما مَعًا هُنا مَقْصودٌ بِهِ حُصولُ الحالَتَيْنِ في أنْفُسِهِمْ: حالَةِ المُعامَلَةِ بِالعُدْوانِ، وحالَةِ النَّفْرَةِ والكَراهيَةِ؛ أيْ: نُسيءُ مُعامَلَتَكُمْ ونُضْمِرُ لَكُمُ الكَراهيَةَ حَتَّى تؤمنوا بِاللَّهِ وحْدَهُ دونَ إشْراكٍ(3). ويلزمُ عن العداوة والبغضاء

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 131.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 499.

(3) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 14/ 384، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 145.

انتفاءُ الصُّحبةِ لهم وعدمُ محبَّتهم. ومن فوائد العطفِ أنَّ العداوة قد تكون عن بَغْيٍ ونحوه؛ فإذا زال زالَتْ أو خفَّتْ، أو قد تكون العداوةُ من غير بُغضٍ في القلب؛ لذلك أتبعه بقولِه: ﴿وَٱلۡبَغۡضَآءُ﴾؛ للإيذان بالمباينةِ بالقلوب بالبغض العظيم(1).

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡعَدَٰوَةُ﴾ على (البَغْضاء):

العَداوةُ تَقتَضي البَرَاءةَ مِن العدوِّ وقَطْعَ العلاقةِ معَه

قُدّم ذكرُ ﴿ٱلۡعَدَٰوَةُ﴾ على (البغضاء) على ما هو الأصلُ في المُتعاطِفين من تقديم الأهمِّ، ولأنَّ العطفَ هنا من بابِ عطفِ المُسبَّب على السَّبب، والسَّببُ مُتقدِّمٌ على المُسبَّبِ حُكمًا، فالبغضاءُ مُسبَّبةٌ عن العداوةِ النّاشئةِ عن إشراكهم باللّه.

دلالةُ استعمالِ الظَّرفِ ﴿أَبَدًا﴾:

بقاءُ العَداوةِ والبغضاءِ مَرهونٌ ببقاءِ الكُفر

دلَّ استعمالُ ظرفِ الزّمان ﴿أَبَدًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا﴾ على عنصر الزَّمن، فإظهارُ العداوة والبغضاء دائمٌ ما دامَ كفرُهم؛ بمعنى: ظَهَرَ في الماضي العداوةُ والبغضاءُ، ويستمرُّ ذلك في الظُّهورِ ولا ينقطعُ أبدًا إلى غايةِ إيمانِكم(2)؛ ليفيدَ ظرفُ الزّمان تأبيدَ إبداءِ العداوة والبغضاء بينهم وبين الكافرين، ما دام السّبب قائمًا وهو كفرُهم باللّه، والمعنى: هذا دَأْبُنا معَكم لا نترُكُه(3).

فائدةُ استعمالِ ﴿حَتَّىٰ﴾ دون (إلى) ودلالتُها:

عَداوةُ أعداءِ الله تَنتَهي بمجرَّدِ إيمانِهم باللهِ وحده

جاء استعمالُ الحرفِ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾، ولم يقل: إلى أنْ تؤمنوا باللّه وحده، وذلك أنَّ الحرف ﴿حَتَّىٰ﴾ يُفيد انقضاءَ الأمر شيئًا فشيئًا إلى انتهاء الغايةِ بالدّخول فيها، أمّا (إلى) فيفيدُ الوصولَ إلى نهايةِ الشَّيء من غيرِ دلالةٍ على تقضّي الأمر شيئًا فشيئًا؛ فلمّا كان الأمر كذلك كان التّعبير

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 499.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 50.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 237.

بالحرف ﴿حَتَّىٰ﴾ دالًّا على تَنامي العداوةِ والبغضاء شيئًا فشيئًا بسبب كفرهم بالله تعالى، وأنَّها تنتهي بمجرَّد إيمانِهم بالله وحده، كما أفاد التّعبير بالحرف ﴿حَتَّىٰ﴾ أنَّ انتهاء العداوة والبغضاء يكون بدخولِهم في الإيمان لا بالوقوف على بابِه.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

المطلوبُ بعدَ الإيمانِ الثَّباتُ والاستمرارُ عليه

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع ﴿تُؤۡمِنُواْ﴾؛ لتضمُّنِها معنى الاستقبال، ولإفادتِها معنى تجدُّدِ الحَدَثِ مع ثُبوتِهِ واستمرارِه؛ أي: حتّى يقعَ منكم الإيمانُ في قادماتِ أيّامِكم فعلًا قلبيًّا مُظهَرًا، متجدِّدًا ثابتًا مستمرًّا، لا مجرَّدَ معرفةٍ ظنّيَّة.

نكتةُ الاحتراسِ في لفظةِ ﴿وَحۡدَهُۥٓ﴾:

مَن أشرَكَ معَ اللهِ أحدًا في ألوهيَّتِهِ فقَدَ شرطَ الإيمان

جاء ذكرُ الإيمانِ باللهِ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ مُقيَّدًا بالحالِ ﴿وَحۡدَهُۥٓ﴾، فصاحبُ الحالِ اسمُ الجلالة ﴿بِٱللَّهِ﴾، ونكتةُ ذلك أنَّ مقتضى الإيمان بالله وحده هو الإيمانُ بالملائكة والرُّسل واليوم الآخر؛ فهي مِن لَوازمِ الإيمان بالله وحده، ولبيان فسادِ إيمان مَن آمَنَ مع إشراكه أحدًا مع الله تعالى في أُلوهيَّتِهِ وطاعته وعبوديَّته؛ فالإيمانُ بألوهيَّةِ غيرِه سبحانه لا يكونُ إيمانًا بالله، إذ هوَ الإشْراكُ في الحَقيقَةِ، والمُشْرِكُ لا يَكونُ مُؤْمِنًا[1]، فنكتةُ ذكرِ ﴿وَحۡدَهُۥٓ﴾ بمعنى (مُنفرِدًا) حالًا من اسم الجلالة الإيذانُ بأنَّ هذا القيدَ من تمام تحقُّقِ الإيمان الصَّحيح السّليم.

نوعُ الاستثناءِ ودلالتُهُ:

التَّأسّي في مُطلَقِ البَراءةِ إلّا في استغفارِ إبراهيمَ عليه السلام لأبيه، فمَنْهيٌّ عنه

يَحتمِلُ الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أن يكون منقطعًا؛ لأنَّ قول إبراهيمَ عليه السلام لأبيه: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ رفقٌ بأبيه، وهو يُغايِرُ التَّبرُّؤَ منه، فاختلَفَ جنسا القولين، فكان الاستثناءُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 519.

في معنى الاستدراك[1]، ونكتةُ مجيءِ جملة الاستثناء هو بيانُ أنَّ هذه المقولةَ خاصَّةٌ بإبراهيمَ لأبيه لم يُشارِكْهُ فيها الَّذين آمنوا معه.

ويَتَّجِهُ الاستثناء على معانٍ، أظهرُها أن يكون على معنى النَّهي عن الاقتداء بهذه المقولة، والمعنى: لكنَّ قولَ إبراهيم لأبيه: لأستغفرنَّ لك لا تأتسوا به، فلا تستغفروا للمشركين؛ فإنَّ استغفارَ إبراهيمَ كان عن مَوْعِدةٍ وعَدَها إيّاهُ، أو أنَّ ذلك إنَّما وقَعَ مِنه؛ لأنَّه ظَنَّ أنَّه قد أسْلَمَ، فلمّا تبيَّنَ له أنَّه عدوٌّ لِلّٰه تبرَّأ منه[2].

ويَحتمِلُ أن يكون مُتَّصلًا من قوله: ﴿فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بتقديرِ مضافٍ محذوفٍ؛ ليصحَّ الاستثناء؛ أي: قد كانت لكم أسوةٌ حسنةٌ في مقالاتِ إبراهيمَ كلِّها إلّا قولَهُ لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾[3].

توجيهُ الاستثناءِ للوَعْدِ لا للاستغفار:

الوَعْدُ بالاستغفارِ مَنْهِيٌّ عنه فَضْلًا عن الاستغفار

أجازَ بعضُ المفسِّرين أن يكون الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناءً من الوعد بالاستغفار، بدلالةِ لامِ القَسَمِ ونون التّوكيد الَّتي تُخَلِّصُ الفعلَ للاستقبال في ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ﴾؛ فيكونُ المستثنى في التَّأسّي هو العِدَةَ بالاستغفار، ويُعلَمُ منه أنَّ استثناءَ الاستغفارِ نفسِهِ يكونُ بطريقِ الأولى[4]؛ ليُفيدَ الاستثناءُ النَّهيَ عن التَّأسّي بالوَعْدِ بالاستغفار للمشركين، فَضْلًا عن الاستغفار نفسِهِ؛ فإنَّه لا مُسوِّغَ له أصلًا. والمقصود: لا تَعِدوهم بالاستغفار، ولا تُجامِلوهم، ولا تُبْدوا لهم الرَّأفةَ كما فعَلَ إبراهيمُ عليه السلام، فيكونُ النَّهيُ عن الاستغفارِ نفسِهِ أبلغَ وأشدَّ.

(1) العكبري، التّبيان: 2/ 1218، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 51، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 145.

(2) الشّوكاني، فتح القدير: 5/ 253.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 155، والدّر المصون، السّمين الحلبي: 10/ 305، والخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 4/ 263، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 78.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 237.

دَفْعُ التَّعارُضِ في دلالةِ الاستغفارِ بينَ الآيةِ والسُّنَّة:

الاستغفارُ في الآيةِ على حقيقتِه، وفي السُّنَّةِ على لازِمِه

الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يفيدُ أنَّ الاستغفارَ للمشركين لا يُتأسَّى به، وهو منهيٌّ عنه، وهو محمولٌ على حقيقتِه. وقد جاء في الحديثِ الصَّحيح عن عبد اللّه بن مسعود أنَّه قال: كَأنّي أَنْظُرُ إلَى النَّبيِّ ﷺ يَحْكي نَبيًّا مِنَ الأنبياء، ضربَهُ قومُه فأدمَوه، وهو يمسحُ الدَّمَ عن وجهه ويقول: (اللهمَّ اغفِرْ لقومي؛ فإنَّهم لا يعلمون)[1]. وتوجيهُ دعاءِ هذا النَّبيِّ لقومه بالمغفرة هو أنَّ المراد بها لازِمُها وهو الهداية، بقرينة قوله ﷺ: «اللهمَّ اهْدِ قَومي؛ فإنَّهُم لا يعلمون»[2]. فمعنى (اللهمَّ اغفِرْ لقومي): اللهمَّ اهدِهم للإيمانِ ثمَّ اغفِرْ لهم[3]، فالاستغفارُ في الحديث محمولٌ على لازِمِه وهو الهداية، وبه يرتفعُ التّعارُض.

بلاغةُ التَّذييل:

الاستثناءُ للاستغفارِ، لا لإظهارِ عَجْزِ إبراهيمَ عليه السلام وتفويضِهِ الأمرَ للهِ تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ من تمام قول إبراهيمَ عليه السلام، ولا تدخلُ الجملةُ في الاستثناء من التّأسّي، بل هي من تمام طلبِ التّأسّي بقولِ إبراهيم، ولا يلزمُ من استثناء المجموعِ استثناءُ جميع أجزائه[4]، والقرينةُ دالَّةٌ على أنَّه خارجٌ من الاستثناء، والعبرةُ بالقرينة إذا تعدَّدَ الاحتمال؛ فمَوردُ الاستثناءِ نفسُ الاستغفارِ، لا قيدُهُ الَّذي هو في نفسه من خصال الخير[5]. وفائدةُ ذكرِ جملةِ الحال في مَقام التَّذييل إظهارُهُ عجزَهُ وتفويضُهُ الأمرَ للّه تعالى، وأنَّ استغفارَه قد لا يَقبَلُهُ اللّه تعالى؛ فكأنَّه قال: لأستغفرَنَّ لك والحالُ أنّي ما أملكُ لك من اللّه من شيءٍ وإن استغفرتُ لك ما لم يَغفِرِ اللّهُ لك؛ فما في طاقتي إلّا الاستغفار[6].

---

(1) صحيح البخاري، (3290).

(2) البيهقي، شعب الإيمان، برقم: (1375).

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 52.

(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 205.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 237.

(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 53، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 145.

بلاغةُ الكنايةِ في استعمالِ مُفردةِ ﴿أَمۡلِكُ﴾:

نَفْيُ المِلْكِ يَلزَمُ عنه نَفْيُ القُدرة

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ لفظة ﴿أَمۡلِكُ﴾ دون (أقدر)، وهو مستعملٌ هنا في لازمِ معناهُ على الكناية؛ فإنَّ مَن ملَكَ شيئًا قدَرَ عليه وتصرَّفَ فيه، والمعنى: وما أقدِرُ لك على فعلِ شيءٍ، ولا قدرةَ لي على التَّصرُّفِ أمامَ قدرةِ اللّه تعالى، وهو أبلغُ مِن نفيِ القدرة، لأنَّ نفيَ المِلك يدلُّ على نفيِ القدرة وزيادة، فأدنى مِلكٍ ليس بيده عليه السلام، فكيف القدرةُ على إنفاذِ أمرٍ، فهي منفيَّةٌ من باب أولى.

نكتةُ ذِكْرِ القيدِ ﴿لَكَ﴾:

مَن لم يملك لأبيه شيئًا فلغيرِه أولى وأظهَر

الجارُّ والمجرور ﴿لَكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ﴾ لتخصيصِ نفيِ مِلكِ إبراهيمَ عليه السلام في أن يفعلَ أيَّ شيءٍ لأبيه أمامَ قدرةِ اللّه تعالى، وإنّما جيءَ بـ﴿لَكَ﴾؛ لأنَّ السّياقَ في بيان استغفار إبراهيم لأبيه، ولإفادة أنَّه إذا لم يكن يَملِكُ لأبيه من اللّه من شيءٍ فلغيرِه أولى وأظهَرُ.

دلالةُ مَجيءِ النَّكرةِ في سياقِ النَّفْي مجرورةً بـ﴿مِن﴾:

نفيُ عمومِ القدرةِ على النَّفْعِ ودَفْعِ الأذى

جاء لفظُ ﴿شَيۡءٖۖ﴾ نكرةً في سياقِ النَّفيِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۖ﴾؛ ليُفيدَ العمومَ؛ أي: لا أملِكُ المغفرةَ الَّتي سألَها المُذنِبُ ولا غيرَها، ودلَّ دخولُ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ على ﴿شَيۡءٖۖ﴾ على تأكيدِ العُمومِ والمبالغةِ فيه، كما أفادَ تنكيرُ ﴿شَيۡءٖۖ﴾ التَّقليلَ؛ بمعنى: ما أملِكُ لك من اللّه من شيءٍ وإنْ كان قليلًا صغيرًا.

علَّةُ فَصْلِ جُملةِ الدُّعاء:

الالتِجاءُ إلى اللهِ تعالى في مُدافَعَةِ الكافرين وكفايةِ شُرورِهم

تَحتمِلُ جملةُ الدُّعاءِ ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أن تكونَ مِن تمامِ ما نُقِلَ عن إبراهيمَ عليه السلام وقومِه المؤمنين، فيكونُ هذا الدّعاءُ من الأُسوةِ الحسنة الَّتي يُقتدَى بها، وإنّما قالوهُ بعدَ المُجاهَرَةِ وقَشْرِ العَصا؛ التِجاءً إلى اللّه تعالى في جميعِ أمورِهِم،

لا سيَّما في مُدافَعةِ الكفرةِ وكفايةِ شرورِهم[1]. وعلى هذا التَّوجيهِ يكون الاستثناءُ وما تعلَّقَ به في قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ﴾ كلامًا مُعترضًا خاصًّا بمقولةِ إبراهيمَ لأبيه، الَّتي لم يشاركه فيها الَّذين آمنوا معه، وبه يكونُ الكلامُ شديدَ الاتِّصالِ مع قولِه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: 6][2].

وتَحتمِلُ الجملةُ أن تكون استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ قائلًا قال: اتِّخاذُ العدوِّ أولياءَ إنَّما هو لدفع شرِّهم، فإذا لم نتَّخِذْ منهم وليًّا بحسب الظّاهر فماذا نفعلُ؟ وكيف ندفعُ شرَّهم؟ فأجيب: بأنّ أفضلَ شيءٍ هو الالتجاءُ إلى اللّه وتفويضُ الأمر إليه، فقال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[3].

وعلى هذا يكونُ الأمرُ منه تعالى للمؤمنين المخاطبين أن يقولوا هذا الدّعاءَ، وبيانُهُ على وجهين:

فإمّا أن يُقالَ: إنَّه أمَرَهم أوّلًا بأنْ يقتدوا بإبراهيمَ والَّذين معه في مكافحةِ الكفّار ومكاشفتِهم بالعداوة، ثمَّ أمَرَهم أن يقولوا مثلَ قول إبراهيم والَّذين معه، فقال: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾؛ أي: اعتَذِروا إلى اللّه بإبدالِ التَّوكُّلِ على العزيز الجبّار بالتَّوكُّلِ على الكفّار، وبالإنابةِ إليه في كلِّ حالٍ، والاستِعاذَةِ من فتنةِ أعداء الدّين، والاستغفارِ ممّا فَرَطَ منكم مِن الموالاة[4].

وإمّا أن يُقالَ: إنَّه تعالى لمّا نهاهم أوّلًا عن الاقتداءِ بقول إبراهيمَ لأبيه أمَرَهم ثانيًا بأن يقولوا هذا الدُّعاءَ؛ تعليمًا منه ﷻ لهم لِما وصّاهم سبحانه به من قطع العَلائقِ بينهم وبين الكفار، والاقتداءِ بإبراهيمَ ﵇ وقومِه في البراءة منهم، والاستعاذةِ به من فتنة أهل الكفر، والاستغفارِ ممّا فَرَطَ منهم، فيكون الكلامُ على معنى النَّهيِ عن الأوَّلِ والأمرِ بالثّاني؛ أي: قولوا: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[5].

---

(1) أبو حفص النّسفي، التّيسير في التّفسير: 14/ 385، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 237، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 145.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 899، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 146.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 54.

(4) الطّيبي، حاشية على الكشاف: 15/ 360.

(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 514، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 205، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 267.

غرضُ التَّعبيرِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّة:

إظهارُ الاستعانةِ بالرَّبِّ المُعين

آثر النّظمُ استعمالَ عنوان الرّبوبية في جملة الدُّعاء ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا﴾؛ لأنَّ مقتضى الرُّبوبيَّة الإعانةُ والرِّعاية والعناية، ومن شأن الدّاعي أن يستعينَ على عبادته بالرُّبوبيَّة.

دلالةُ الجملةِ الخبريَّةِ على الإنشاء:

بعضُ الدُّعاءِ يكون خبرًا لفظًا، وهو إنشاءٌ معنًى

جملةُ ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ دعائيَّةٌ، فهي خبريَّةٌ لفظًا إنشائيَّةٌ معنًى؛ إذ القصدُ من ﴿عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾ إنشاءُ التَّوكُّلِ عليه وحدَهُ والإنابةِ إليه وحدَه[1].

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرور:

قَصْرُ التَّوكُّلِ والإنابةِ على اللهِ وحده

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في الجمل الثَّلاث في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ لإفادةِ القصر والاختصاصِ؛ تحقيقًا لمعنى توحيد الرُّبوبيَّةِ ونَبْذِ أيِّ ربٍّ سواه سبحانه.

ولمّا جاء التّوكُّلُ في سياق النّهيِ عن موالاةِ أعداء اللّه أفادَ قصرُ التّوكُّلِ بجَعْلِه على ربِّ العالمين وحده أنّه تعالى هو الَّذي يَكفيكُم في دفعِ مضرَّةِ الكافرين. والتَّوكُّلُ انفعالٌ قلبيٌّ عقليٌّ يتوجَّهُ به الفاعلُ إلى اللّه، راجيًا منه الإعانةَ والاعتمادَ عليه، بقصدِ طلب الخير ودفعِ الضّرِّ والخيبةِ والعوائق.

وقصرُ الإنابةِ يفيدُ أنَّه تعالى هو الَّذي تُنيبون إليه في جميع أمورِكم، لاسيَّما عند الخطأ والمعصية، وأنَّه يغفرُ ذنوبَكم إن استغفرتُموه وأنبتُم إليه.

وقصرُ المصيرِ يُفيد أنَّه ما دام المصيرُ إليه تعالى وحده فلا ينبغي أن ترهبوا من عدوٍّ اللّه، ولا تخافوا على أمرٍ من أمور الدّنيا. والمصيرُ مصيرانِ: مصيرٌ بعدَ الحياةِ، ومصيرٌ بعدَ البَعْث.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 54.

غرضُ إطلاقِ الأفعالِ عن القُيود:

أفعالُ العبادِ في المُعتقَداتِ القلبيَّةِ لا استثناءَ لها

جاء الفعلُ ﴿تَوَكَّلۡنَا﴾ مطلقًا غيرَ مقيَّدٍ، فلم يقل: (عليك توكّلنا في أمرِ كذا) ليدلَّ على العموم؛ أي: رَبَّنا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنا في جَميعِ أُمورِنا، ومثلُهُ قوله: ﴿وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾؛ أي: إليك أنبنا في أمورنا كلّها، ولم يقل: (إليك نَصيرُ)؛ لدلالةِ الجملة الاسميَّة ﴿وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ على الثّبوت، فالمرجعُ إلى الله تعالى وحدَهُ، ويُقصَدُ به المرجعُ إليه بالموتِ ويومَ القيامة، وهو أمرٌ ثابتٌ لا علاقةَ له بتجدُّدِ الحَدَثِ والفعل.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَداوة والبَغْضاء:

العَداوةُ تَقتَضي المُباعدةَ وتكونُ بالفعلِ والقولِ، والبَغْضاءُ تكونُ بمُنافَرةِ القلب

العداوةُ هي إرادةُ السّوءِ والأذى لِمن تُعاديه، وتكونُ العداوةُ بالقول والفعل، ولمّا كانت العداوةُ في الأصل بمعنى البُعد أفادت البعدَ من العدوِّ حسًّا أو معنًى بمعنى مُنافاةِ الالتئام؛ فالعداوةُ تقتضي المباعدةَ والخصومةَ وعدمَ متابعةِ العدوِّ. والعداوة تكون بين الأقارب والأباعد، فقد يكون القريبُ عدوَّ قريبِه وإن كان من الأرحام، ونقيضُ العداوة الولايةُ والصَّداقة، والعداوةُ لا تقتضي تجاوُزَ الحقِّ بخلاف الاعتداء.

أمّا البغضاء فهي نِفارُ النّفس عن الشّيء الَّذي ترغبُ عنه، وتكون البغضاءُ في القلبِ، ونقيضُها المحبَّة[1]، وبعبارةٍ جامعة: "العَداوَةُ: كَراهيَةٌ تَصْدُرُ عَنْ صاحِبِها؛ مُعامَلَةٌ بِجَفاءٍ، أَوْ قَطيعَةٌ، أَوْ إضْرارٌ، لِأَنَّ العَداوَةَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ العَدْوِ وهوَ التَّجاوُزُ والتَّباعُدُ؛ فَإِنَّ مُشْتَقّاتِ مادَّةِ (ع د و) كُلَّها تَحومُ حَوْلَ التَّفَرُّقِ وعَدَمِ الوِئامِ. وأمّا البَغْضاءُ فَهيَ شِدَّةُ البُغْضِ"[2].

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 131، والرّاغب، المفردات: (عدا).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 6/ 148.

الإنابة والرُّجوع:

الإنابةُ رجوعٌ إلى الطّاعةِ، والرُّجوع أعمُّ

الإنابة: رُجوعٌ مقيَّدٌ بالرُّجوع إلَى الطّاعَة؛ فَلا يُقال لمن رَجَعَ إلَى مَعْصيةٍ: إنَّه أناب، والمُنيب اسْمُ مدحٍ كالمؤمن والمُتَّقي؛ لأنَّه يَقصِدُ الرّجوع إلى الطّاعة، ومنه قولهم: فلانٌ يَنْتابُ فلانًا؛ أي: يَقصِدُهُ مرَّةً بعد أخرى.

أمّا الرّجوع فهو عامٌّ؛ فقد يكون الرّجوعُ إلى طاعةٍ وقد يكون إلى معصية[1].

كما أنَّ الإنابة تدلُّ على رجوع الشّيء مرّة بعد أخرى[2] بخلاف الرُّجوع. فالتّعبير بلفظ ﴿أَنَبْنَا﴾ فيه إشعارٌ بقصد الرّجوع إلى الطّاعة والتّوبة وتجدُّدِ هذا الرّجوع والرّغبة فيه، وهو يُشير إلى أنَّ المؤمنَ قد يَعصي اللّهَ تعالى، لكنَّ معصيتَهُ تلحقُها الإنابة.

المصير والمُنْتهَى:

المصيرُ يدلُّ على التَّنقُّلِ مِن حالٍ إلى حالٍ، والمُنْتهَى يدلُّ على انتهاءِ المَسير

المصيرُ: اسمُ مكانٍ للموضع الَّذي يُتحوَّلُ إليه؛ فيُشيرُ إلى تنقُّلٍ في الحركة قبل الوصول إلى المصير؛ لأنَّه من (صار) الدّالِّ على الانتقال والتَّحوُّل.

أمّا المُنتهَى فأصْلُهُ: مكانُ انتهاء السّير؛ ففيه إيذانٌ بانتهاءِ السّير والبلوغ عنده، بحيث لا يمكنُ تجاوزه.

والفرق بينهما: أنّ المصير يشملُ المنتهى والحال، فإذا سُئِلَ عن المصير فإنّما يُسأل عن انتهاءِ الزّمن وحالِ الَّذي صار إلى مُنتهى أمره، أمّا المُنتهى فيُلْحَظُ فيه جانب الزّمن.

فإن كان السّياقُ في بيان تحوُّلِ الإنسان من حالٍ إلى حالٍ ومن حياةٍ إلى حياةٍ أخرى استُعمل المصير؛ ليفيدَ معنى الانتقال بحالٍ مذمومةٍ أو محمودةٍ إلى اللّه تعالى بعد الموتِ.

---

(1) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 303.

(2) الرّاغب، المفردات: (نوب).

وإن كان السّياق في بيان نهاية المسير؛ بمعنى بلوغ النّهاية استُعمل المنتهى، فالتَّعبيرُ بالمنتهى الدّالِّ على الآخرةِ يأتي في سياق التَّعريضِ بالتَّهديد والوعيد للمكذِّبين بيوم المَعاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النَّجم: 42].

﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾ [الممتحنة: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الـدُّعـاءُ مِـن تمامِ العُبوديَّةِ لـلـهِ تـعـالى، والالـتِـجـاءُ مِن تـمامِ التَّوفيقِ للحقِّ

لمّا ذكَرتْ فاصلةُ الآيةِ السّابقة تفويضَ المؤمنين أمرَهم إلى اللّه تعالى، وحَصَروا توكُّلَهم عليه، وإنابتَهم إليه سبحانه ناسَبَ ذكرُ ما جاء بعد ذلك من الدُّعاء في أن لا يكونوا فتنةً للكافرين، وصرَّحوا بطلبِهم من ربِّهم بما يَجمَعُ خيرَ الدّنيا والآخرة؛ إيذانًا بأنَّ دعاءَهم هو من تمامِ الثّناء على اللّه تعالى، ومن تمام عبوديَّتِهم للواحد الأحدِ الَّذي لا يَملِكُ أيُّ أحدٍ منه شيئًا، فقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

كما أنَّهم لّما التَجؤوا إلى اللّه تعالَى في جميع أمورِهم - لا سيَّما في مُدافعةِ الكَفرةِ وكفايةِ شرورِهم - وقَصَروا إنابتَهم عليه سبحانه ناسَبَ أن يَدْعوا ربَّهم بأن لا يجعلَهم فتنةً للذّين كفروا، بأنْ لا يُسلِّطَهم عليهم فيَفتِنوهم بعذابٍ لا يطيقونهُ، وأن يغفرَ لهم ما تقدَّم من الخطأ في التَّقرُّبِ من الكافرين لدَفْعِ شرِّهم.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٗ﴾: يدورُ معنى (فَتَنَ) على إذابةِ مادَّةِ باطنِ الشَّيءِ وتحويلِها بإدخالِها نارًا حاميةً، فأصلُ الفَتْنِ: إدخال الذّهب النّارَ لتظهر جَوْدتُه من رداءَتِه، وتدلُّ الفتنةُ على إيقاعِ الابْتِلاءِ أو التَّعريضِ له بالاختِبارِ[1]، والإيقاعُ في البليَّة والتَّعريضُ للعذاب فتنةٌ، والفتنةُ من الأفعال الكريهة[2]. ومعنى ﴿فِتۡنَةٗ﴾: مَفتونينَ بالابتلاء والشِّدَّةِ والعذابِ بتسلُّط الكافرين علينا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي: (فتن).
(2) الرّاغب، المفردات: (فتن).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

تَـمـامُ الـخـيرِ تَجْنيبُ المُؤمنين فتنةَ الكافرين

تُخبرُ الآية الكريمة عن دعاءِ إبراهيمَ ﷺ والَّذين معه بعد إظهارِ البراءة من الكافرين: ربَّنا لا تجعلنا فتنةً للذّين كفروا بك فجَحَدوا وحدانيَّتَك، وعبَدوا غيرَك، بأنْ تُسلِّطَهم علينا، فيَفتِنونا عن دينِنا ويُعذِّبونا، واسترْ علينا ذنوبَنا بعفوك لنا عنها يا ربَّنا، إنَّك أنت الشَّديدُ الانتقامِ، الحكيم في تدبيرِ خلقه.

وهو ما يدلُّ على إدراك المؤمنين حقائقَ الكافرين، وأنّهم لن يتركوا المؤمنين على حالهم إلّا ويُعرِّضونهم للفتنة والضَّرر والأذى، فهذا دعاءٌ ناطقٌ بالعلم، مُحَلًّى بالحلم.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ جُملةِ الدُّعاء:

تـعـدُّدُ الـدُّعـاءِ دلـيـلُ تـعـدُّدِ المَطالِبِ واختِلافِ مَقاصِدِها

إنْ كانت جملةُ الدُّعاءِ ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من قولِ إبراهيمَ ﷺ فإنَّ هذه الجملةَ لم تُعطَفْ على الَّتي قبلَها سلوكًا بهما مَسلَكَ الجُمَلِ المعدودة، فيكونُ من قَبيلِ الدُّعاء المُتعدِّد[1]، فكأنَّ كلَّ دعاءٍ من تَيْنِ الجملتين مطلوبٌ باستقلالِه؛ تعظيمًا لشأن الدُّعاء بكلٍّ منهما جمعًا أو على سبيل الانفرادِ.

وإنْ كانت جملةُ الدُّعاءِ أمرًا من الله تعالى للمؤمنين أن يقولوا هذا الدُّعاءَ، على تقدير: قولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فالاستئنافُ لبيانِ عدمِ تعلُّقِ هذه الجملةِ بقولِ إبراهيم، وأنَّها أمرٌ من الله للمؤمنين.

دلالةُ حذفِ أداةِ النِّداء:

المُـتـوكِّـلُ على الـلـهِ قـريـبٌ مِنه مُستشعِرٌ إجابتَه

حُذِفَ حرفُ النِّداء في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ﴾ إشعارًا بقُربِه تعالى من الدّاعي بِما له من الإحاطةِ وقُربِ الإجابة.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 267، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 79.

كما أنَّه لمّا فَوَّض المؤمنون أمرَهم إلى اللّه بتوكُّلِهم عليه وحده، وإنابتِهم إليه دون سواه ناسَبَ نداءُ ربِّهم من غير أداةٍ، فالمُتوكِّلُ على اللّه قريبٌ منه.

بلاغةُ أسلوبِ النَّهْيِ وغرضُهُ:

خُروجُ النَّهْيِ عن مَقصِدِهِ بإرادةِ التَّضرُّعِ والتَّذلُّل

جاء استعمالُ أسلوب النّهي في قوله تعالى: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً﴾ بحرف ﴿لَا﴾ النّاهية، بغرضِ الدُّعاء؛ لإفادة العَزْم على طلبِ إجابة الدُّعاء وتحقيقِ المبالغة في الطّلب بالكفِّ عن أن يكونوا فتنةً للذّين كفروا، فحرف ﴿لَا﴾ النّاهية في مَقامِ الدُّعاء يُفيد طلبَ الكفِّ عن أمرٍ على سبيلِ التَّضرُّع والتَّذلُّل.

بلاغةُ الدُّعاءِ بقولِهِ: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً﴾ دونَ (لا تَفْتِنّا):

إفادةُ طَلَبِ الكفِّ في كلِّ وضعٍ مِن الأوضاعِ، فيَستَلزِمُ جميعَ الأوقات

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ فعل الجَعْلِ في قوله تعالى: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً﴾ في الدُّعاء، على معنى طلبِ الكفِّ عن جعلِهم فتنةً، وهذا أبلغُ من طلبِ الكفِّ عن الاتِّصاف بالفتنةِ؛ إذ طلبُ الكفِّ عن الجَعْلِ على صفةٍ يدلُّ بالوضع على عُموم أيِّ جَعْلٍ في المستقبل على تلك الصّفة، ويلزمُ من ذلك عُمومُ تلك الصّفة. أمّا طلبُ الكفِّ عن الصِّفة فيدلُّ بالوضعِ على عُموم تلك الصِّفة فقط، وفرقٌ كبيرٌ بين ما يدلُّ على عموم ويَستلزِمُ عمومًا، وبين ما يدلُّ على عموم فقط، فلذلك كان الطّلبُ بقولِه تعالى: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً﴾ أبلغَ؛ لأنَّه يُفيدُ طلبَ الكفِّ في كلِّ وضعٍ من الأوضاع، فيستلزم جميع الأوقات. ولذلك كَثُرَ النّهيُ عن الجَعلِ، والدّعاءُ بطلب الكفِّ عن الجعل، والمعنى: لا تجعلْنا فتنةً في كلِّ جعلٍ لنا، فلا يمرُّ وقتٌ من الأوقات ووضعٌ من الأوضاع لنا نكونُ فيه فتنةً للذّين كفروا، فيصيرُ (جَعَلَ) نصًّا على سائر الأوضاع والأحوال، ويَستلزِمُ عمومَ الأوقات، بخلافِ: لا تَفْتِنّا.

دلالةُ المصدرِ ﴿فِتۡنَةً﴾ بينَ اسمِ المفعولِ واسمِ الفاعل:

يَحتمِلُ المصدرُ ﴿فِتۡنَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً﴾ أن يكون

دعاءُ المؤمنين أنْ لا يكونوا فاتِنينَ للكفّار ولا مَفتونينَ بهم

بمعنى اسم المفعول، والتّقدير: لا تجعلْنا مفتونين للذّين كفروا؛ أي: لا تُسَلِّطهُم عَلَينا فَيَفتِنونا عن ديننا ويُعذِّبونا بعذاب لا نَحتمِلُهُ ولا نُطيقُه؛ ليُفيدَ طلبُهم أن لا يجعلَهم في موضعِ الفتنةِ فيكونوا مفتونين لهم، فيكونُ صريحًا في دعاء المؤمنين لأنفسِهم.

ويَحتملُ أن يكون بمعنى اسم الفاعل، والتّقدير: لا تجعلْنا فاتنين؛ أي: لا تُظْهِرْ عَدوَّنا عَلَيْنا؛ فَيَظُنّوا أنَّهُمْ على حَقٍّ، فنكونَ فاتنين لهم فيتمسَّكوا بكفرِهم، ويقولوا: إنَّما غَلَبناهم لأنّا على الحقِّ وهم على الباطل. ويكون المقصودُ الدّعاءَ بأن لا يَظهَرَ الكفرُ عليهم[1]، والمعنى على الاحتمالين؛ أي: لا تجعلنا فاتِنين ولا مفتونين، وهو الأحذقُ بالبلاغة، والأثرى لمقام الدُّعاء.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿فِتۡنَةٗ﴾:

يَلزَمُ عن فتنةِ الكافرِ قوَّتُهُ وسَطْوتُهُ، فالدُّعاءُ كنايةٌ عن دَفْعِهما عنه

على القولِ بأنَّ ﴿فِتۡنَةٗ﴾ بمعنى اسم الفاعل بتقدير: لا تجعلنا فاتنين للذّين كفروا؛ أي: مُقوّينَ فتنتَهم فيزدادوا كفرًا يكونُ اللَّفظُ على الكنايةِ عن معنًى: لا تُغَلِّبِ الَّذينَ كَفَروا عَلَيْنا واصرِفْ عنّا ما يكونُ فيه ضعفُنا وسوءُ حالِنا؛ كيلا يكونَ ذلك مُقوّيًا الَّذين كفروا فيصرِفونا عن ديننا، فيَزدادوا كُفْرًا بتغلُّبِهم علينا، فَيَظُنّوا أنّا على الباطِلِ وأنَّهم على الحَقِّ. وممّا يدخلُ في الكنايةِ: لا توسِّعْ عليهم الدّنيا وتضيِّق علينا، فيظنّوا أنَّهم على حقٍّ ونحن على باطل؛ فإنَّ سوءَ حالِ المؤمنين وأهلِ الحقِّ من ضعفٍ وفقرٍ وقلَّةٍ في العُدَّةِ يجعلُهم موضعًا أو موضوعًا لافتِتان الكفّار وأهل الباطل بهم، باعتقاد أنَّهم خيرٌ منهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ [الأنعام: 53][2].

(1) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 296، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 75، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 205، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 148.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/ 348، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 148.

احتمالُ معنى المِلْكِ أو التَّبليغِ لـلّامِ عائدٌ إلى تأويلِ (فتنة):

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

يتعيَّنُ معنى اللّامِ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بحسب تأويل ﴿فِتۡنَةٗ﴾؛ فإذا كانت بمعنى (مفتونين) فإنَّ اللّامَ على معنى المِلْك؛ أي: لا تجعلنا مَفْتونينَ مُسَخَّرينَ لَهُم؛ بمعنى: يَملِكون أمرَنا فيعذِّبوننا ويبتلوننا في ديننا. وإذا كانت بمعنى (فاتنين) - أي: مُقوّينَ فتنتَهم فيزدادوا كفرًا - فإنَّ اللّامَ في ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للتَّبليغ[1]؛ أي: لا تجعلْنا مُبلغين الفتنةَ للَّذين كفروا.

بيانُ الأسبابِ مُعينٌ على فَهمِ الأفعالِ

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

جاءَ التَّعبيرُ بالموصول وصلتِه في قولِه تعالى: ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الاسم الظّاهر، فلم يقل: (للكافرين)؛ لبيان وجهِ بناء الخبر وبيانِ علّتِه؛ بمعنى: أنَّ كفرَ الكافرين هو السَّببُ في فتنتِهم للمؤمنين، كما أفادتْ صلةُ الموصول تقبيحَ الكافرين وذمَّهم على كفرِهم وعلى محاولتِهم فتنةَ المؤمنين.

تقديمُ إصلاحِ الدّينِ في الدُّنيا؛ لأنَّ بِـهِ صلاحَ أُمورِ الآخرة

دلالةُ العطفِ وترتيبِ المَعطوفات:

جاء طلبُ المغفرة معطوفًا على طلبِ عدم كونِ المؤمنين فتنةً للكافرين في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ﴾؛ لتَنْقيةِ الأنفُسِ ممّا قد يوقِعُ أصحابَها في الفتنة، فطلبُ المغفرة من تمامِ الدُّعاءِ وكمالِ الالتجاء إلى اللّه تعالى، كما أنَّ المعطوفَ عليه يتعلَّقُ بالدّنيا، وطلبَ المغفرةِ يتعلَّقُ بالآخرة، فهم قد أعْقَبوا دَعواتِهم الَّتي تَعودُ إلى إصلاحِ دينِهم في الحياةِ الدُّنيا بطَلَبِ ما يُصلِحُ أُمورَهم في الحياةِ الآخِرةِ، وما يوجِبُ رِضا اللّهِ عنهم؛ فإنَّ رِضاهُ يُفْضي إلى عِنايتِه بهم بتَيسيرِ أُمورِهم في الحياتَينِ[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 148.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 148.

فائدةُ حذفِ مفعولِ قولِه: ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾:

بيانُ عُمومِ طلبِ المغفرةِ ممّا يَعلَمُهُ المؤمنون وممّا يَجهَلونه

لمّا كان المَقامُ مقامَ تذلُّلٍ وتضرُّعٍ ناسبَ حذفُ مفعولِ الفعل (اغفِر)؛ ليفيدَ الحذفُ طلبَ مغفرةِ جميعِ الذّنوب، ونكتةُ حذفِ (ذنوبَنا) الإشارةُ إلى تبرُّؤِ المؤمنين من كلِّ فعلٍ لا يرضاه اللّه تعالى، والإشعارُ بأنَّ من الذّنوب ما لا يعلمون به؛ ففي الحذف لطيفةٌ إلى استحياءِ المؤمنين مِن ذكر ذنوبِهم في مَقامِ خطابِ اللّه تعالى وطلبِ المغفرة، فأفادَ حذفُ المفعول طلبَ الاستغفار من كلِّ فعلٍ أو قولٍ يستحقُّ أن يغفرَهُ اللّه للمؤمنين، ويدخلُ فيه دخولًا أوّليًّا الاستغفارُ ممّا فَرَطَ منهم من موالاة أعداء اللّه تعالى ومن التّقرُّب إليهم.

غرضُ التَّعبيرِ بصيغةِ الأمر:

العَزْمُ على الطَّلب

فعلُ الأمر في قولِه تعالى: ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ﴾ يفيدُ الدّعاءَ، وسببُ التَّعبير بفعل الأمر الدَّلالةُ على العزمِ على الطّلب وتحقيقِ المسألة.

دلالةُ تكرارِ النِّداءِ بعُنوانِ الرُّبوبيَّة:

المؤمنُ كثيرُ التَّضرُّعِ بَليغُ النِّداء

دلَّ تكرارُ النّداء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ﴾ على تأكيدِ إظهارِ التَّضرُّعِ والتَّذلُّلِ والجُؤارِ مع كلِّ دَعوةٍ مِن الدَّعواتِ، وهو المناسبُ لمقام الضّعف وتفويض الأمر والإنابة للّه وحده، فإنَّ دَفْعَ كلِّ شرٍّ، وجَلْبَ كلِّ خيرٍ من مُقتضيات الرُّبوبيَّة، فناسَبَ تكرارُ دعاءِ صاحب الأمر ﷻ بهذا العنوان.

دلالةُ تَوالي المؤكِّدات:

قد يُؤكِّدُ المتكلِّمُ كلامَهُ لبيانِ شديدِ إيمانِهِ وعظيمِ رجائِه

توالَتْ ثلاثةُ توكيداتٍ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، وهي (إنَّ)، واسميَّةُ الجملة، وضميرُ الفصل ﴿أَنتَ﴾؛ لتقريرِ إيمانِهم باللّه تعالى وتحقيقِ إجابة دعائِهم، وفيه ردٌّ على الكافرين المُنكِرين لكونِ اللّه تعالى غالبَهم وقاهرَهم وأنَّه إنّما يَفعَلُ ذلك بحكمتِه، كما أفادَ التّوكيدُ شديدَ التّضرُّعِ للّه تعالى؛ فإنّ التّأكيدَ

يُظهِرُ ما يَجولُ في الأنفُسِ من المعاني، فالمُتكلِّمُ يؤكِّدُ أحيانًا لبيانِ شديد إيمانه بما يقول.

بلاغةُ القَصْر:

لا يُجيبُ المُضطرَّ ولا يُعينُ المُحتاجَ إلّا مَنْ عَزَّ فحَكَم

أفاد تعريفُ الجزأين مع ضمير الفصلِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قصرَ الصِّفةِ على الموصوف، والمعنى: تخصيصُ وصْفَي العزيز والحكيم بكونِهما لله تعالى، وحصرُهما بالله دون غيره، ومَن كان له هذان الوصفان الجليلان وهو مختصٌّ بهما كان حقيقًا أن يُجيرَ المتوكِّلَ عليه ويُجيبَ الدّاعيَ.

دلالةُ فَصْلِ جملةِ الفاصِلة:

جملةُ الفاصِلةِ تعليلٌ للدَّعاءَين قبلَها

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عمّا قبلَهُ، وجاء في صدر جملةِ الفاصلة الأداةُ (إنَّ)؛ لإفادة التَّعليل لِما قبلَها، فتكون جملةُ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تَعْليلًا لِلدَّعَواتِ كُلِّها، فبينَ الجملتين شبهُ كمالِ الاتِّصال.

بلاغةُ تَناسُبِ الأطْراف:

العزيزُ: النّاصِرُ لِعبادِهِ، والحكيمُ: المُجيبُ للدُّعاء

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مناسِبًا لِما قبله؛ فإنَّ التَّوكُّلَ والإنابةَ والمصيرَ تُناسِبُ صفةَ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ إذ مِثْلُهُ يُعامِلُ بمثلِ ذلك، فالقويُّ القادرُ يُجيرُ المُتوكِّلَ ويتقبَّلُ المنيب، كما أنَّ طلبَ أنْ لا يَجعلَهم فتنةً باختلافِ مَعانيهِ يُناسِبُ صفةَ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنّ الحكيمَ هو الَّذي لا يفعلُ إلّا ما فيه حكمةٌ بالغةٌ ومصلحةٌ راجحةٌ، وإجابةُ الدّاعي المؤمنِ مِن الحكمةِ، وكذلك طلبُ المغفرةِ؛ لأنَّهم لَمّا ابْتَهَلوا إليه أن لا يجعلَهم فتنةَ الكافرين، وأنْ يَغفِرَ لهم رَأَوْا أنَّ حكمتَهُ تُناسِبُها إجابةُ دُعائِهم؛ لِما فيه مِن صَلاحِهم وقد جاؤوا سائِليه[1].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 28/ 149.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦﴾ [الممتحنة: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن حُكمِ الوَلاءِ إلى وُجوبِ التَّأسّي بأتْباعِ الرُّسُل

لمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقة حكمَ موالاة أعداء الله تعالى بالنّهي المباشر، ثمَّ بيّنت أنَّ الولاء يجبُ أن يكون لله تعالى وحدَه دون سواه، ونبَّهتْ على خَطَرِ موالاة الأرحام دون موالاة الله تعالى، وانتقلتْ بالبيان إلى ذكر الأُسوة بإبراهيمَ عليه السلام ومن معه من المؤمنين، الَّذين وضَعوا قواعدَ الولاء والبراء، فكان السّياق جامعًا بين الجانب النَّظري والجانب التَّطبيقي ناسَبَ الانتقالُ بعد ذلك إلى مخاطبة المؤمنين؛ ليكونوا على الجادَّة في التّأسّي بأتْباع إبراهيم عليه السلام، ليوالوا سيِّدَ الخلق؛ وذلك لأنَّ التّأسّيَ بهم هو لونٌ من ألوان الولاءِ الشّرعي، وترك التّأسّي بهم مخالفةٌ للملّة الإبراهيميّة ومُصادَّةٌ عن الطَّريقة المحمَّديَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرْجُوا۟﴾: (رجى) أصلان مُتباينان، يدلُّ أحدُهما على الأملِ والآخرُ على ناحيةِ الشَّيء. فالأوَّلُ الرَّجاءُ، وهو الأمل، يقال: رَجَوتُ الأمرَ أرجوه رجاءً، ويُتَّسَعُ في ذلك، فرُبَّما عُبِّرَ عن الخوف بالرَّجاء، قال سبحانه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: 13]؛ أي: لا تخافون له عظمةً. وأمّا الآخرُ فهو من الرَّجا، مقصورٌ، وهو النّاحيةُ، ورَجا البئرِ: نَواحيه، فكلُّ ناحيةٍ فيه رَجًا، قال سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: 17][1]. فالرَّجاءُ ظنٌّ يقتضي حصولَ ما فيه مَسَرَّةٌ، ومعنى ﴿يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ﴾: يرجو ثوابَ الله أو يرجو لقاءَه[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجى).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 320.

2) ﴿يَتَوَلَّ﴾: أصلُ الكلمةِ مِن الوَليِّ وهو المطرُ يَجيءُ بعدَ الوَسْميِّ، سُمّيَ بذلك لأنَّه يَلي الوَسْميَّ. ويدورُ معنى الكلمةِ على لُزوم الشّيء ومتابعتِه، ويدلُّ التّولّي لزومًا على القربِ والتَّوجُّه إلى الشّيء بالالتفاتِ والانصرافِ إليه. وتُعيَّنُ جهةُ الانصراف بالحرف. فإذا عُدِّيَ بالحرف (إلى) أفادَ الإقبالَ المُقتضيَ للقربِ، وإذا عُدّيَ بالحرف (عن) لفظًا أو تقديرًا أفاد الإعراضُ المُقتضيَ للبُعدِ؛ لأنَّ (عن) تفيد المُجاوزة، فيكون (تولّى عن) بمعنى جاوَزَ القرب وابتعدَ. فإذا قيل: (تولّى عن فلان) فالمعنى: انصرَفَ عنه مُعرِضًا. وقد يكون التَّولِّي عن الشَّيءِ بإدبارٍ حسّيٍّ بالجسم أو معنويٍّ بترك الإصغاء والائتمار[1]، ومعنى ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾: ومَن يُعرِضْ عن الإيمانِ والطّاعة[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّـأسّي بأتْباعِ إبراهيمَ مُتابَعةٌ لِمَنهَجِ الـوَلاءِ ومَسلَكِ البَراء

تُبيِّنُ الآيةُ حُكمَ التَّأسّي بإبراهيمَ والَّذين معه في براءِتهم من الكفّار، وذلك لِمَن كان منكم يرجو لقاءَ اللّه تعالى وثوابَه، والنَّجاةَ في اليوم الآخر. ومَن يُعرِضْ عن الإيمانِ والطّاعة فيما أمره اللّه به مِن مُعاداةِ مَن عادَوا ربَّهم، وتقرَّبَ إلى أعداءِ اللّه، وألقى إليهم بالمودّة فإنَّ اللّه هو الغنيُّ عن إيمانِه به وطاعتِه إيّاه، وعن جميع خلقه، وهو الحميدُ عند أهل المعرفة بأياديه وآلائِه عندَهم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ اللّامِ على القَسَمِ المُقدَّر:

توكيدُ الاقتداءِ بأصحابِ المَنهَجِ الحقِّ مَرهونٌ بتصريحِ القرآنِ بذلك

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ﴾ دالَّةٌ على قَسَمٍ مقدَّر؛ فهي واقعةٌ في جواب قَسَم مقدَّر؛ والتَّقديرُ: واللّهِ لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنة، ونكتةُ ذلك تنبيهُ أمَّةِ الإسلامِ على وجوب

(1) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ولي).
(2) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 71.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 320.

التّأسّي بالقدوة الصّالحة، وتقريرُ الأمرِ في نفوسِهم. وجيءَ باللّام لمزيدِ الحثِّ على التّأسّي بإبراهيمَ والَّذين معه والتّرغيبِ فيه، كما أنَّ في تصديرِ الجملة باللّام تأكيدًا لكونِ الأسوة الحسنة فيهم.

دلالةُ استعمالِ (قد) على التَّحقيقِ:

تحقيقُ المعاني لتَثْبيتِ القُلوبِ وطَمْأنةِ النُّفوس

أفادتِ الأداة (قَد) التَّحقيقَ بدخولِها على الفعلِ الماضي ﴿كَانَ﴾؛ زيادةً في تأكيدِ الحثِّ على الائتِساءِ بإبراهيمَ والَّذين معه في البراءة من الكافرين وعدمِ خوفِهم منهم في إعلانِ براءَتِهم مع قلَّتِهم وضعفِهم، فالتَّحقيقُ المُقترنُ بالتَّوكيدِ جامعٌ بين المعنى المرادِ تثبيتُهُ والاطمئنانِ لسلامةِ مَسلَكِهِ، فلا يَترُكُ للعقلِ مجالًا للشّكِّ، ولا للقلب مَسلَكًا للحَيْرة.

دلالةُ ذكرِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾:

أرفَعُ مَقاماتِ التَّأسّي أنْ يكونَ المؤمنُ في تأسّيه كأنَّه قد فُطِرَ عليه

آثَرَ النّظمُ الكريم استعمالَ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّأسِّيَ بهم ينبغي أن يكون راسخًا مُتَأصِّلًا عريقًا فيهم، بحيث يكون المخاطَبُ كأنَّه قد جُبِلَ على التّأسّي بهم؛ فلا يجدُ كُلفةً فيه، وهذا من مَحاسِنِ الخِطاب القرآنيِّ؛ بأنْ يُنزِّلَ المُخاطَبين منزلةَ مَن استقرَّ التّأسّي في قلبه؛ لزيادةِ الحثِّ على الطّاعة.

دلالةُ عدمِ اتِّصالِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ بعلامةِ التَّأنيث مع تأنيثِ مَعمولِه:

الإيماءُ إلى قوَّةِ التَّأسّي في قُلوبِ المؤمنين

جاء الفعلُ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ﴾ مُذكَّرًا، ولم تتَّصِلْ تاءُ التّأنيث به مع أنَّ اسمَهُ مؤنَّثٌ مجازيٌّ؛ لوجودِ أكثرَ من فاصلٍ بينَهُ وبين اسمِه، وللإشعارِ بأنَّ التّأسِّيَ فيهم بجميع أوصافِهم وأحوالِهم فيه من القوَّة والصَّلابة ما فيه؛ فإنَّ في تذكير الفعل إشعارًا بقوَّةِ مَدخولِه.

نكتةُ تقديمِ معمولِ اسمِ ﴿كَانَ﴾ وخبرِها على اسمِها:

قُدِّمَ معمولُ اسمِ كان ﴿لَكُمۡ﴾ كما قُدِّمَ خبرُها ﴿فِيهِمۡ﴾ على

العِنايةُ بالمُخاطَبينَ الماحُّ إلى أهمّيَّةِ العِنايةِ بمَضمونِ الخِطاب

اسم كان ﴿أُسۡوَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ﴾، وأصل الكلام: كان أسوةٌ حسنةٌ لكم فيهم، وإنّما قُدِّم ﴿لَكُمۡ﴾ بيانًا لموضع الاهتمام وتشريفًا للمؤمنين المُخاطَبين بهذا التّأسّي؛ ليُفيدَ التَّقديمُ إظهارَ المنَّةِ على المخاطَبين، كأنَّه قيل: (إنَّه تعالى أكرَمَكم بهذا التّأسّي فجعله لكم وشرَّفكم به). كما أنَّ في تقديم خبر كان على اسمها عنايةً بأحوالِ المُؤتَسَى بهم.

دلالةُ إيثارِ الخِطابِ على الغَيْبة:

قـوّةُ الحَثِّ على التَّأسّي بالأنبياءِ تكونُ بالخِطابِ؛ لتَنْزيلِهم منزلةَ الحاضِرين

الخِطابُ في ﴿لَكُمۡ﴾ لجميع المؤمنين، وليس لمخاطَبينَ مُعيَّنين؛ فيكون على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لأنَّ أصلَ الخطابِ بضميرِ الكاف ونحوِه أن يكون لمُعيَّن، أو أن يأتي غيبةً، كأن يُقال: (لقد كان للمؤمنين فيهم أسوة حسنة)، فهو عدولٌ عن الغَيبة إلى الخطاب، وفائدتُه: بيانُ أنَّ الحثَّ لكلِّ مخاطَبٍ، وأنَّ التَّأسّي بهم مطلوبٌ ومقدورٌ عليه لِكلِّ مَن يَصِلُه الخِطابُ، فلا يُفرَّقُ بينَ مخاطَبٍ وآخَرَ، كما أنَّ في الخطابِ مِن قوَّة الحثِّ ما ليس في الغائب، فمُخاطَبةُ كلِّ مؤمنٍ إلى يوم الدّين بهذا الخطابِ ليس كأمرِه بطريق الغَيبة.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّةِ الدّاخلِ على الضَّمير:

الائتِساءُ سُلوكٌ راقٍ؛ لارتباطِه بتفكيرٍ وتأمُّلٍ

الضّميرُ في قولِه تعالى: ﴿فِيهِمۡ﴾ عائدٌ على ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾، وقد دلَّ دخولُ حرف الظّرفيّة على الضّمير على أنَّ الائتِساءَ بإبراهيم عليه السلام ومَن معه يَحتاجُ إلى تأمُّلٍ وتدبُّرٍ؛ إذ جُعلوا ظرفًا فيه خيرٌ عميمٌ، فالائتِساء بهم يَحتاجُ إلى تأمُّلِ أحوالهم، وتدبُّرِ سلوكيّاتهم، فمَن أراده وطلبه فعليه أن يَدخُلَ في واقعِهم، ويطَّلِعَ عليه حقَّ الاطِّلاع، ولهذا جَمَعَ هذا التّعبيرُ الدّعوةَ إلى أمرين: الائتِساءِ بهم، وتأمُّلِ واقعِهم، ولو قال: (ائْتَسوا بهم) لَما أفاد هذا المعنى، ونكتةُ ذلك أنَّ الائتِساءَ يجب أن يُحيط به العلمُ والحكمة،

وكلُّ ائتِساءٍ خلا منهما فسلبيّاتُهُ أكثرُ مِن إيجابيّاته، بل قد يتحوَّلُ إلى شرٍّ محضٍ.

فائدةُ تكرارِ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾:

الأُسْــوةُ الأولى تـأسٍّ بخصوصِ الــبَراءةِ مِـن المــشــركـين، والـثّـانـيـةُ في عمومِ الائتِساء

تكرَّرَ التَّركيبُ التَّقييديُّ (الموصوفُ وصفتُهُ) ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ وقولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، والتّكريرُ لفظيٌّ؛ لأنَّ الأسوةَ الحسنة في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يُقصَدُ بها أسوةٌ مخصوصة في قول إبراهيمَ والَّذين معه لقومِهم؛ لمُناسبتِها لقصَّةِ حاطب ابن أبي بلتعةَ، والأسوةُ الحسنة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يُقصَدُ بها عموم الأسوةِ فيهم لا في القول بالبراءة من أعداء اللّه فقط. ففي تكرارِ الأسوةِ وإطلاقِها عمّا قُيِّدَتْ به الأسوةُ الأولى بقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تعميمٌ بعدَ تخصيص؛ ليكونَ التّعميمُ صالحًا لجميع ما يجبُ أن يُؤتَسَى به، ويشهدُ له قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾[1]، فدلَّ التّكرارُ على العموم؛ لدفعِ توهُّم إرادة الخصوص؛ فإنَّه يدلُّ على أنَّ مَن لم يتأسَّ بهم في أحوالِهم وشؤونِهم كلِّها فإنَّه يكون مِن المُعرِضين. وفي التَّعميم تقريرٌ لكونِهم أُسوةً حسنةً للمؤمنين يُقتَدَى بها، كما أنَّ في التَّعميم تنبيهًا للمؤمنين إلى أنَّه لا ينبغي الاقتداءُ إلّا بمَن كان فيه أسوةٌ حسنة، فحصَلَ من تكرير الأسوة الحسنة التّأكيدُ والتّقرير مع الشُّمول والعموم.

وذهب الإسكافيُّ وغيرُهُ إلى أنَّ الأُسوة الأولى للتّبرّي من الآلهة وعبادتِها ولإثبات توحيد اللّه تعالى، فهذه الأسوةُ يُقصَد بها فَصْلُ المؤمنِ مِن الكافر ليتميَّزَ عنه في الظّاهر ويُظهِرَ عداوتَه له،

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 15/ 362.

والأُسوة الثّانية في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يُقصَدُ بها الحثُّ على التّأسّي بهم؛ لتنالوا مثلَ ثوابِهم وتنقلبوا في الآخرة مبشَّرين بالجنَّة غيرَ خائفين. فالأسوة الأولى يحصُلُ بها أصلُ الإيمان الَّذي هو ركنُ التَّعبُّدِ، والأسوة الثّانية بها يحصُلُ ثوابُ الأسوة الأولى في اليوم الآخِر، فالتّكرير ليس للتّأكيد، والمراد بالأسوة الثّانية غيرُ المرادِ بالأسوة الأولى[1].

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿أُسۡوَةٌ﴾:

التّأسّي بالصّالحينَ أمرٌ عظيم

نُكِّر لفظُ ﴿أُسۡوَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ لتعظيمِ الأسوةِ وتفخيمِها، فهي أسوةٌ يُستَحقُّ الاقتداءُ بها لعظمتِها وفخامتِها، كما أنَّها ليستْ كسائرِ الأُسى في الانتفاعِ مِنها.

علَّةُ وصْفِ الأُسوةِ بالحَسَنَة:

مَن أتى الحَسَنَةَ وُعِدَ بالحُسْنى

وصفُ الأسوة بالحسنةً في قوله تعالى: ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ إشعارٌ بمدح هذه الأسوة وتزيينِها في قلوب السّامعين؛ لأنَّ كونَها حسنةً قد عُلِمَ مِن السّياق، فوصفُها بالحسنة مع العلم بأنّها حسنة تأكيدٌ لتلك الصّفة، وبيانٌ لكونِها أسوةً حسنةً مَرْضيَّةً من اللّه تعالى، فهي أسوةٌ صفتُها الحسنُ، ونعتُها الخيرُ، كما أنَّ في نعتِها بالحسنةِ ترغيبًا في امتثال المُؤتَسَى بهم، ووعدًا بالجنَّة؛ فإنَّ شأنَ مَن يعملُ الحسنةَ أنْ يوعَدَ بالحُسنى.

فائدةُ تَوالي المُؤكِّدات:

تَنزيلُ تاركِ البَراءةِ مِن المُشرِكينَ منزلةَ المُنكِرِ لحُكمِ الأُسْوة

تَوالَتِ المُؤكِّداتُ في جملةِ ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ بلام القسم و(قد) واسميَّةِ الجملةِ قبلَ دخولِ ﴿كَانَ﴾ عليها؛ ليكونَ التّأكيدُ في غايتِه، وذلك لتقريرِ حثِّ المؤمنين على الائتِساءِ بإبراهيم وقومِه والتّأكيدِ عليهم؛ إذ كان مِن إبراهيم فعلٌ حسنٌ - وهو تبرُّؤُه

(1) الإسكافي، درّة التّنزيل: 1/ 1267، والطيبي، حاشية على الكشاف: 15/ 361، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 54 - 55.

من الكافرين - وقولٌ حسنٌ، وهو دعاءُ ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، ولذلك جيْءَ بالتَّأكيد مُصدَّرًا بالقسم الَّذي هو الغايةُ في التّأكيد، كما أنَّ تواليَ ثلاثةِ مُؤكِّداتٍ مُشعِرٌ بالإنكار على مَن لا يَتَأسّى بهم في البراءةِ مِن عدوِّ الله، ويَركَنُ إلى التَّقرُّب إليهم بالمودّة وإلى موالاتِهم، وعلى مَن لا يُفَوِّضُ أمرَه إلى الله ولا يُنيبُ إليه، وشدَّةُ الإنكار تُناسِبُ سياقَ البراءة من المشركين، فنُزِّلَ مَن لم يتأسَّ بأتْباعِ إبراهيم عليه السلام منزلةَ مَن يُنكِرُ ذلك التَّأسّيَ، حثًّا للمؤمنين ودفعًا للتَّباطُؤِ في ذلك.

دلالةُ الجُملةِ الخبريَّةِ على الطَّلَب:

الاقتِداءُ بالصّالحينَ أمرٌ ثابتٌ، فلا يَحتاجُ إلى الطَّلَبِ الصَّريح

الجملةُ الخبريَّةُ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وفي قولِه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يُرادُ بها الطّلبُ؛ بمعنى: أنَّها على معنى الأمرِ بالتَّأسّي بهم، فليس المقصودُ مجرَّدَ الخبر، والمعنى: تَأسَّوا - أيُّها المؤمنون - بإبراهيم والَّذين معه[1]، فيكونُ الخبرُ على خلافِ مُقتضى الظّاهر؛ لدلالتِه على الطَّلب بصيغة الخبر.

ونكتةُ مجيءِ الأمر بصيغةِ الخبر الإشعارُ بأنَّ شأنَ التّأسّي بهم مِن شدَّةِ وُضوحِه وظُهورِه لا يَحتاجُ إلى صَوْغِه بصيغة الأمر، بل يَكفي المؤمنين مجرَّدُ الإخبارِ عنه للتَّشمير للاقتداءِ بهم.

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

التَّأسّي بالمُرسَلينَ وأتْباعِهم تَأسٍ بالنَّبيِّ بطريقِ اللُّزوم

دلَّ ذكرُ الأُسوةِ الحسنة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب: 21]، وقولِه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ على أنَّ المؤمنين مُطالَبون بالتَّأسّي برسولِ الله ﷺ، ومُطالَبون كذلك بالتَّأسّي بمَن أُمر عليه السلام أنْ يقتديَ بهم مِن المرسلين،

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 901.

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: 90]، فالرّسولُ والمؤمنون مأمورون بالتّأسّي والاقتداءِ بالمُرسَلين السّابقين، ولمّا كان اقتداءُ النّبيِّ بهم كان اقتداءُ المؤمنين بهم اقتداءً به باللّازم، وهو ما يدلُّ على وحدةِ الرِّسالةِ وأصولِ التَّشريع، لا سيَّما ما يتعلّقُ بالتَّوحيدِ والدَّعوة.

فائدةُ تكريرِ حرفِ اللّام:

غايةُ التّأسّي رِضا اللهِ يومَ القيامة

كُرِّرَ حرفُ اللّام في ﴿لِّمَن﴾؛ ليكونَ تأكيدًا لِلّام الَّتي في ﴿لَكُمۡ﴾؛ بمعنى: أنَّ الإيمان باللّه واليوم الآخر يَستَلزِمُ التَّأسّيَ بهم، وليَتَحقَّقَ البدلُ الَّذي هو المقصودُ في الكلامِ؛ ليفيدَ أنَّ التّأسّيَ بهم لأجلِ الرَّجاء المذكور.

بلاغةُ البَدَلِ في تقييدِ وبيانِ المُبدَلِ منه:

لا يَقتدي بالمَقبولينَ المُوَفَّقينَ إلّا كلُّ راجٍ للهِ واليومِ الآخِرِ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾ بدلَ بعضٍ من كلٍّ من قولِه: ﴿لَكُمۡ﴾[1]، فيكونُ في ذكرِ بدلِ البعضِ تخصيصٌ بعدَ التَّعميم للمؤمنين بالأُسوة، والتَّقديرُ: لقد كان لكم فيهم أسوةٌ حسنةٌ، وهذه الأسوةُ حسنةٌ لَمن كان منكم يرجو اللّه[2]؛ بمعنى: أنَّ هذه الأسوةَ لَمن يرجو اللّه واليوم الآخر، ففي مجيءِ بدل البعضِ حثٌّ لكلِّ مؤمنٍ على أنْ لا يكونَ له شأنٌ يَشغَلُهُ عن أنْ يرجوَ اللّهَ واليومَ الآخر. وأُبدِلَ الغائبُ من المُخاطَبِ لِما فيه من التّعميم، وذلك أنَّ الخطابَ ليس لقوم بأعيانهم، فلمّا كانوا كذلك نُزِّلوا منزلةَ الغُيَّب[3].

ويُحتمَلُ أن يكون البدلُ من قَبيل بدلِ كلٍّ من كلٍّ[4]؛ ليفيدَ أنَّ مَن يُؤْمِنُ باللّه واليوم الآخرِ لا يتركُ الاقتداءَ بالمذكورين، وأنَّ تَرْكَهُ من

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 156، والسمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 306.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 387.
(3) الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 249.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 55، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 165.

مَخايِلِ عدمِ الإيمان بهما، فكأنَّه قيل: مَن لم يأتسِ بهم فلا يرجو اللّهَ واليوم الآخر، فليسَ ذِكْرُ ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾ تخصيصًا لبعضِ المؤمنينَ المُخاطَبين؛ لأنَّ البدلَ مِن قبيلِ بدلِ كلٍّ مِن كلٍّ، فيكونُ سببُ مجيءِ البدل تذكيرَ المؤمنين بأنَّ إيمانَهم باللّهِ واليومِ الآخِرِ يَقتَضي تَأسّيَهم بالمؤمنينَ السّابقينَ وهم إبراهيمُ والَّذين معه[1]، ففي مجيءِ البدل دلالةٌ على أنَّه لا ينبغي لمؤمنٍ أنْ يتركَ التّأسّيَ بهم، وأنَّ تَرْكَهُ مُؤْذِنٌ بسوءِ العقيدة؛ فإنَّ مَن لا يرجو اللّهَ واليومَ الآخر مُنبِئٌ عدمُ رجائِهِ بالوعيد، ولذلك عقَّبَهُ بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾، ومثلُ هذا الوعيدِ جديرٌ بأنْ يوعَدَ به الكَفَرةُ تهديدًا لهم[2]، فالقصدُ مِن البدلِ هو زيادةُ الحثِّ على الائتِساءِ بإبراهيمَ ومَن معَهُ، وليكونَ تمهيدًا لِما بعدَهُ؛ بمعنى أنْ يُرتَّبَ عليه قولُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾[3]، فتكونُ كلُّ لفظةٍ لها مَقامُها الَّذي تنتهي إليه، والَّذي تُمهِّد فيه لِما بعدَها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

الرّاجي هو الَّذي يَتَأسّى ولا يَتمنّى على الله الأمانيّ

جاءَ التَّعبيرُ بالاسمِ الموصولِ (مَن) في قولِه تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾ للدَّلالةِ على العمومِ؛ للإيذانِ بأنَّ التَّأسِّيَ بهم عامٌّ لكلِّ مَن يرجو اللّه واليوم الآخر.

وأفادت صلةُ الموصول في قوله تعالى: ﴿كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾ بيانَ علَّة الحثِّ على التّأسّي بهم وطلبِهِ والحرصِ عليه، وبيانَ أنَّ مَن لم يتأسَّ بهم في هذا لم يكن راجيًا لِما ذكر[4]؛ بمعنى: أنَّ الائتِساءَ بهم سببٌ لنيل رجاء اللّه والآخرة، ففيه إخبارٌ بأنَّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 149.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 205، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 283.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 149.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 503.

الرّجاء لا يكونُ مِن غيرِ عملٍ وأنَّ الرّاجيَ في الحقيقة هو الطّالبُ لِما يرجوه، بأنْ يقومَ بالأسباب الَّتي يرجو الوصولَ بها إلى ما يرجوه، والخائفُ في الحقيقةِ هو الحاذرُ عمّا حُذِّر، والمُنتهي عما نُهي عنه. ففيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن اعتمَدَ على مجرَّدِ الرّجاء والخوف دون التَّمسُّكِ بسببِهما والقيام بحقِّهما كان مُتَمنّيًا على اللّه تعالى[1]، كما أنَّ في ذكرِ الصّلة مدحًا للمُتأسّي بأنّه ممَّن يرجو اللّه واليوم الآخر.

بلاغةُ الالتفاتِ مِن الخِطابِ إلى الغَيْبة:

الالتِفاتُ إلى الغَيبةِ تعميمٌ للخِطاب وتَوطِئةٌ لِما بعدَه

التَفتَ الكلامُ مِن الخِطاب في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ إلى الغَيْبةِ في قولِه تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾، فلم يقل: (إنْ كنتُم ترجون اللّهَ واليوم الآخِرَ)، وفائدتُهُ تعميمُ الخطاب؛ ليكونَ توطئةً وتمهيدًا لجملةِ التَّذييل الَّتي جاءت بصيغةِ الغَيبة؛ لِتفيدَ العمومَ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

نكتةُ دُخولِ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ على الفعلِ المضارع:

دَأْبُ المؤمنِ وعادتُهُ أنْ يكونَ راجيًا اللهَ واليومَ الآخِرِ

آثَرَ النَّظمُ الكريم ذكرَ الفعلِ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لبيانِ أنَّ الرّجاءَ المذكورَ عريقٌ راسخٌ، وكأنَّه قد جُبِلَ عليه، رغبةً فيه وحرصًا عليه، وجاء التَّعبير بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للإشعارِ بالحثِّ على استمرارِ رجاءِ اللّه واليوم الآخر، وتجدُّدِه حالًا فحالًا ووقتًا فوقتًا، واستعمالُ ﴿كَانَ﴾ مع الفعل المضارع دلَّ على الاستمرار في الفعلِ، بحيث يكونُ خبرُ ﴿كَانَ﴾ دأبَه وعادتَه؛ بمعنى: أنْ يكونَ دأبُ المؤمن وعادتُه رجاءَ اللّه واليومِ الآخر.

بلاغةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿يَرۡجُواْ﴾ دونَ الخوف:

لمّا كان السِّياق في بيان الحثِّ على التّأسّي بإبراهيم والَّذين

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 613.

معه، وأنَّه محبوبٌ عند اللّه ناسَبَ التّعبير بالرّجاء في قوله تعالى: ﴿يَرۡجُواْ ٱللَّهَ﴾، الَّذي هو توقُّعُ محبوبٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ دون الخوف؛ ليفيدَ أنَّ مَن يتأسّى بهم يَتوقَّع خيرًا في لقاء اللّه وثوابِه المرجوّ وعطائه، فالمراد هو الحثُّ على الفعل المقتضي للرّجاء؛ فالمتأسّي بهم يرجو اللّه واليوم الآخر، ولهذا لم يقل: (لمن يخاف اللّه واليوم الآخر)؛ لأنَّ التّعبير بالخوف يقتضي تجنُّبَ الفعلِ المذكور قبله، فالخوفُ توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ أو معلومةٍ؛ بمعنى: أنَّ فعلًا سابقًا اقتضى توقُّع المكروه في المستقبل، فاقتضى السّياقُ اختيارَ مفردةِ ﴿يَرۡجُواْ﴾ دونَ (يخاف).

الـــرّيـــادةُ فــي الـتَّـأسّي بـالـصَّـالـحـين تـــورِثُ رجـاءَ الـخيرِ لا خـوفَ الشَّرّ

نكتةُ إطلاقِ الفعلِ ﴿يَرۡجُواْ﴾ عن القيود:

لم يُقيَّد الفعل ﴿يَرۡجُواْ﴾ بقيدٍ زمانيٍّ أو مكانيٍّ، وذلك للحثِّ على أن يكون هذا هو شأنَ المؤمن وعادتَه في عمومِ الأحوالِ والأزمنةِ والأمكنة.

ينبغي أنْ يكونَ الرَّجاءُ مُصاحِبًا للمؤمن في كلِّ أحوالِه

بلاغةُ حذفِ المضاف:

حُذِف المضاف وأُقيم المضاف إليه في قوله تعالى: ﴿يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾؛ فلم يقل: (لمن كان يرجو ثواب اللّه واليوم الآخر)، أو على تقدير: (أيّامَ اللّه)، وذلك لتربية المهابة في قلوب المخاطبين، وليكون الرّجاءُ لذات اللّه تعالى، وثوابُهُ مِن آثارِ رجائه، وهو أدقُّ مَسْلَكًا، وأبلغُ طريقًا مِن ذكرِ المحذوف.

مَـن رجـا الـلـهَ تعالى فقد نالَ ثوابَه

نوعُ العطفِ ودلالتُه:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾ لعطفِ رجاء اليوم الآخر على رجاء اللّه، وذلك للإشعارِ بأنَّ رجاء اليوم الآخر داخلٌ في رجاء اللّه تعالى، ومقتضى رجاءِ اللّه رجاءُ ثوابِ اليوم الآخر، فيكونُ من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأهمّيَّةٍ في الخاصِّ، ويُحتمَلُ أن يكونَ عطفُ الخاصِّ على العامِّ بتقديرِ: (لمن يرجو أيّام اللّه

مَـــرَدُّ أصـــولِ الإيمان كلِّها إلى الإيـمـانِ بالله وتوحيدِه

واليوم الآخر)[1]؛ تنبيهًا على أهمّيَّة ثوابِ التّأسّي في اليوم الآخر؛ لمناسبتِه للسّياق، فيكون سببُ ذكرِ اليوم الآخر هو ترغيبَ المؤمنين في البراءة مِن أعداء اللّه، وتخويفَ مَن يواليهم ولا يَتبرأُ منهم.

دلالةُ حذفِ فعلِ الرَّجاء:

رجاءُ اللهِ تعالى يَدخُلُ تحتَهُ كلُّ رجاء

لم يُكرَّر الفعلُ ﴿يَرۡجُواْ﴾، فلم يُقَل: (ويرجو اليوم الآخر)؛ للإيماء إلى أنَّ الرَّجاء المذكورَ واحدٌ لا يتجزَّأ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الإيمانَ واحدٌ لا يتجزَّأُ، وهو ما يُقوّي عنصرَ الرَّقابة.

نكتةُ ذكرِ (اليوم الآخر) دونَ مُقارِباتِه:

الإيماءُ إلى ضرورةِ المُسارعةِ قبلَ انتِهاءِ زمنِ العَمَل

جاءَ ذكرُ (اليومِ الآخِرِ) دون مُقارِباتِهِ كيوم البعث؛ لأنَّ اليوَمَ الآخرَ هو وصفٌ مِن أوصاف يوم القيامة، يُقصَدُ به اليومُ الَّذي لا يومَ بعده. وهو مِنَ المَوتِ إلى آخِرِ ما يَقَعُ يَومَ القيامةِ، فيَشملُ أحوالَ القَبرِ والبَرزَخِ، ونعيمَهُ وعَذابه، وأحوالَ يَومِ القيامةِ وما فيها مِنَ الحساب والثَّوابِ والعِقابِ والصُّحُفِ والميزانِ والشَّفاعة، وأحوالَ الجَنَّةِ والنّارِ وصَفاتِهما وصَفاتِ أهلِهما، وما أعَدَّ اللّهُ لأهلِها إجمالًا وتَفصيلًا. وفي التّعبير باليوم الآخر إشارةٌ إلى أنَّ أيّام الدّنيا منتهيةٌ؛ ففي ذكره تحريضُ العبادِ على العمل ليوم ليس بعده عملٌ؛ إيماءً إلى ضرورة المبادرة وحُسنِ المسارعة لِما في رضا ربِّ العباد، أمّا ذكرُ يوم البعث فهو دالٌّ على التّعريف بيوم القيامة وما يكون فيه من البعث.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

شأنُ النَّظمِ أنْ يدلَّ على الأغراضِ العامَّة والخاصَّة

تَحتمِلُ الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أنْ تكونَ عاطفةً أو أنْ تكونَ للاستئناف، وعلى الاستئنافِ فهي مفيدةٌ أنَّ ما بعدها جملةٌ تذييليَّةٌ تُفيد العمومَ؛ لِكليَّتِها وعموم ألفاظِها؛ لأنَّ التَّولّيَ يَعُمُّ الَّذين

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 531، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 228، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 97.

لا يتأسَّون بإبراهيم والَّذين معه وغيرَهم ممّن يُعرِض عن أمر اللّه تعالى وعن طاعتِه، فأفادت الجملةُ ذمَّ عموم المُعرِضين عن امتثال أمر اللّه تعالى، وذمَّ المُعرِضين عن التَّأسّي على الخُصوص.

دلالةُ اسمِ الشَّرْطِ (مَن):

أفادَ اسمُ الشَّرط (مَن) معنى العموم؛ ليفيدَ دخولَ كلِّ مَن يتولّى عن أمرِ اللّه وعن الحقِّ في عُموم الشَّرط.

اللهُ تعالى غنيٌّ عن كلِّ مُعرِضٍ عنه

براعةُ الاحتِمالِ في استعمالِ الفعلِ ﴿يَتَوَلَّ﴾:

الظّاهرُ أنَّ الفعل المضارع ﴿يَتَوَلَّ﴾ ماضيه (تولّى)، ويتعدّى بـ(عن) فيكون بمعنى (يُعرِضُ)، وهو الَّذي ذكره جمهور المفسّرين[1]، والتَّقديرُ: ومَن يُعرِضْ فإنَّ اللّه هو الغنيُّ الحميد؛ لأنَّ السّياقَ في بيان الوعيد عمّن يُعرِضُ عن طاعةِ اللّه في البراءة من عدوِّه، وعن طاعتِه في الاقتداء بإبراهيم والَّذين معه. فكأنَّه قيل: من يتولَّ عن طاعة اللّه فيما أمره من معاداة من عادوا ربَّهم فإنَّ اللّه هو الغنيُّ الحميد[2]. وجوَّز ابن عاشور أن يكون الفعلُ ﴿يَتَوَلَّ﴾ من التّولّي بمعنى اتّخاذ الوليِّ؛ فيكون بمعنى الإقبال إليهم وموالاتِهم؛ أي: ومن يتولَّهم؛ فيكون من قبيل حذف المفعول به. والمعنى: مَن يتَّخِذْ عدوَّ اللّه أولياءَ فَإنَّ اللّهَ غَنيٌّ عَنْ وِلايَتِهِ، كَما في قوله تَعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، وهو مُحتمَلٌ من حيث اللَّفظ، ومُتَّسِقٌ من حيث السّياق.

احتِمالُ معنى الإعراضِ ومعنى موالاةِ أعداء الله تعالى

نكتةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ ﴿يَتَوَلَّ﴾ دونَ (يُعرِض):

معنى ﴿يَتَوَلَّ﴾: (يُعرِضْ) على ظاهر السّياق، ونكتةُ التَّعبير به دون أن يقال: (ومن يُعرِض)، احتمالُ معنى الإعراض ومعنى تولّي الأعداء، ولمّا كان التّولّي يُشعر بالقربِ من الشّيءِ كان هو الأنسبَ،

التَّولّي أشدُّ مِن الإعراضِ؛ لأنَّه بعدَ إظهارِ الوَلاء

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 320، والواحدي، التفسير البسيط: 21/ 412، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 71، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 469.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 613.

فالتّولّي إنّما يكون بعد إظهار الولاء، فيأتي المُتولّي بضدٍّ ما كان عليه أو ضدّ ما كان يَظهَرُ منه، وأمّا الإعراض فليس كذلك، فإعراضُ المُعرِضِ أعمُّ من إعراض المتولّي، فالكافرُ يوصَفُ بالإعراض.

بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَتَوَلَّ﴾:

الذَّمُّ يَلحَقُ كلَّ مُعرِضٍ عن عُمومِ الطّاعات

على الوجهِ الظّاهر بأنَّ ﴿يَتَوَلَّ﴾ بمعنى (يعرض) يكونُ التَّولّي متعدّيًا بـ(عن)، فيكونُ حذفُ الجارِّ والمجرور لإفادة العموم، والتَّقدير: ومن يتولَّ عن أمرِ اللّه، ويدخلُ فيه الإعراض عمّا أمَرَ اللّه به من التَّأسّي بإبراهيم والَّذين معه، وعن نهيه في موالاة عدوِّه دخولًا أوليًّا. فالحذفُ مناسبٌ لعموم التَّهديد والوعيد. وعلى ما ذهب إليه ابنُ عاشور من أنَّ التَّولِّيَ يكون بمعنى اتّخاذ الوليّ يكونُ المحذوف مفعولَ الفعلِ ﴿يَتَوَلَّ﴾؛ أي: ومَن يتولَّهم، وحُذِفَ المفعولُ لإفادة عموم تولّي غير اللّه تعالى، وفي الحذفِ إشارةٌ إلى أنّ المحذوف لا يستحقُّ الذّكر إعراضًا عنه.

فائدةُ الفاءِ الواقعةِ في جوابِ الشَّرط:

مَـآلُ التَّولّي تهديدٌ ضمنيٌّ ووعيدٌ مُجمَل

أفادت الفاءُ الواقعة في جواب الشّرط في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ مآلَ التّولّي؛ بمعنى: أنَّ مَن يتولّى عن التَّأسّي بأتْباعِ إبراهيم عليه السلام، ويُعرِضُ عن رجاء اللّه واليوم الآخر يترتَّبُ عليه التَّهديدُ والوعيد المذكور، كما أفادت الفاءُ التّعقيبَ؛ بمعنى عدم إمهالِهم فيما يترتّب على التّهديد.

بلاغةُ ذكرِ علّة جزاءِ الشَّرط بدلَ الجزاء:

اللهُ تعالى هو الغنيُّ، فلا يَنفعُهُ ولاءُ مَن والاه، ولا تضرُّهُ عداوةُ مَن عاداه

كان الظّاهرُ في جزاء الشّرط أن يكونَ مناسبًا للتّولّي عن أمر اللّه وعن عدم التّأسّي، لكنّه ذكر علَّة الجزاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾، فأُقيمَتْ علّةُ الجزاء مُقامَ الجزاء، وتقديرُ المعنى: ومن يتولَّ عن التّأسّي فضررُه عليه، ولا يضرُّ اللّهَ شيئًا ولا يضرُّ أولياءَ

اللّه؛ لأنَّ اللّه هو الغنيُّ الحميد(1)؛ إذ لم يَدْعُكُم إلى ترك موالاة عدوِّه لحاجة نفسه أو لحاجتِه إليكم؛ إذ هو الغنيُّ بذاته. وفي الجزاءِ تهديدٌ وإشعارٌ بأنَّ الأمر بالتَّأسّي بإبراهيم والَّذين معه في البراءة من عدوِّ اللّه لمصلحة المُتأسّي وفائدتِه، ولا يفيد اللّه شيئًا؛ لأنَّه الغنيُّ عن كلِّ شيءٍ(2).

كما أنَّ في ذكر الجزاء إشعارًا بأنَّ الجزاء من جنس العمل، وبيانُهُ: أنَّ المُعرِضَ قد استغنى عن أمرِ اللّه ولم يكترث به، فجاء الجزاءُ على وفْقِ عملِه، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾؛ أي: فإنَّ اللّه هو الغنيُّ عنه، لا يَنفعُهُ ولاءُ مَن والاه، ولا تَضرُّهُ عداوةٌ من عاداه، وإنَّه ليس بمحتاج إلى نصرتِهم وموالاتِهم له سبحانه.

كما أنَّ في الجزاء إشارةً إلى أنَّ الإعراضَ عن التَّأسّي بإبراهيم والَّذين معه في البراءة من عدوِّ اللّه ومن معبوداتِهم هو إعراضٌ عن عبادتِه سبحانه، وأنَّه تعالى ليس بمحتاجٍ لهم ولعبادتِهم.

دلالةُ إظهارِ اسمِ الجلالةِ دونَ إضمارِه:

عُمومُ الفائدةِ أولى مِن خُصوصِ البيان

آثر النَّظمُ الكريم إظهارَ اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ دون أن يقول: (ومن يتولَّ فإنَّه هو الغنيُّ الحميد) بإضمارِ الاسم الجليل لقرب ذكرِه، فعدَلَ إلى الإظهار؛ لتكون الجملة تذييليَّةً مستقلَّةً بنفسِها، فتجري مَجرى المَثَل في عمومِها وكلّيَّتِها.

دلالةُ ضميرِ الفصل:

تأكيدُ معنى الحَصْر

في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ جاء ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾؛ لتأكيدِ الحصر المستفاد من تعريف المسند والمسند إليه.

بلاغةُ أسلوبِ الحصر بتعريف الجزأين:

لمّا جاء المسند والمسند إليه معرفتين في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 55.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 190.

﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أفاد تعريفُ الجزأين الحصرَ، والحصرُ هنا ادّعائي لِعَدَمِ الاعتدادِ بِغِنى غَيرِهِ ولا بِحمدِهِ؛ أي: إنَّ اللّه هو الغنيُّ فلا غنيَّ سواه، وهو الحميد فلا حميدَ سواه. ولمّا أفاد الحصر أنَّه تعالى هو وحده الغنيُّ دلَّ على أنَّ غيرَهُ فقيرٌ إليه؛ ليُفيدَ أنَّهم هم المحتاجون إلى تأسِّيهم بإبراهيم والَّذين معه؛ لأنَّ الغنيَّ تعالى هو الَّذي أمرَهم به وحثَّهم عليه.

اللـه تـعالى هو الغنيُّ فلا غنيَّ سـواه، وهـو الـحـمـيـدُ فلا حميدَ سواه

معنى صفة ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾:

الغَنيُّ هو الموصوف بالغنى؛ أي: عدم الاحتياج المطلق لأحدٍ، ولمّا لم يُذكر له مُتعلَّقٌ كان مفيدًا الغنى العامَّ المطلقَ المستمرّ، ومَن كان كذلك فالخلقُ مَحاويجُ إليه.

بلاغةُ التَّتميمِ في ذكرِ الأوصافِ الحُسنى:

جاء ذكرُ صفة ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ تتميمًا لصفة ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾؛ لأنَّ الجزاءَ جاء على سبيل التّهديد للمُعرِض عن أمر اللّه تعالى، فلمّا ذكر صفة ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ الَّذي هو من مقتضى الجزاء تمَّمَهُ بوصف ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ على سبيل الإطناب؛ ليفيدَ أنَّه كثيرُ الحمد لَمَن يَمتثِلُ أمرَهُ ولا يُعرِضُ عنه، المُقبِلِ إليه، المُتمسِّكِ بأوامرِه سبحانه، ويدخل فيه المُتأسّي بإبراهيم والَّذين معه في البراءة من عدوِّ اللّه دخولًا أوَّليًّا.

غِنى الله تعالى مقرونٌ بالحمد، فـغِـنـاهُ ليس كغِنى المخلوقين المُنتظِرين الجزاءَ على العطاء

ويُحتمَلُ أن يكون وصف ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ بمعنى أنَّه المحمود على أفعالِه؛ أي: هو المحمود بكلِّ ما يفعلُه بأعدائه وأوليائه.

كما يُحتمَلُ أن يكون المعنى محمولًا على التّقييد والاحتراس، فليس كلُّ غنيٍّ محمودًا، فالغنيُّ البخيلُ غيرُ محمودٍ، لكنَّ اللّهَ ﷻ غنيٌّ حميدٌ يُحمَدُ على غِناه؛ لأنَّه ﷻ واسعُ العَطاءِ كثيرُه[1]، وكلُّ هذه المعاني صحيحةٌ، ولا يمتنع حَمْلُ اللَّفظِ عليها جميعًا.

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الحجرات - الحديد، ص: 417.

﴿۞عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ [الممتحنة: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تَسليةُ المؤمنين إلى حينِ إيمانِ بقيَّةِ الكافرين والخلاصِ مِن عِداءِ الجَبّارين

لَمّا أمَرَ اللّهُ المُؤمنينَ بِالبراءة من الكُفّارِ تبرَّأ المؤمنونَ من أقرِبائهم المُشركينَ، وأظْهَروا لَهُمُ العَداوَةَ، وعلمَ اللّهُ شِدَّةَ ذلك على المُؤْمِنينَ، فناسب أن يَذكُرَ المودّة؛ لتخفيفِ حدَّةِ العِداء بين الفريقين؛ رجاءَ إسلامِ أقارِبِهم الكفّارِ، فقال تعالى مبشِّرًا لهم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾[1]، كما أنَّ فريقًا من المؤمنين كانوا على درجةٍ من حبِّ أقربائِهم، فلمّا أُمروا بالبراءة منهم كان ذلك شاقًّا عليهم؛ لِما جُبِلَ عليه البَشَرُ من حُبِّ ذَوي الأرحامِ والعَطْفِ عليهم، فتشَوَّفَت النُّفوسُ إلى تخفيفٍ بنَوعٍ مِنَ الأنواعِ، فأتْبَعَهُ التَّرجيةَ فيما قَصَدَهُ حاطِبٌ رضي الله عنه بغيرِ الطَّريقِ الَّذي يُتوصَّلُ به، فقال على عادةِ الملوكِ في الرَّمزِ إلى ما يُريدونَه، فيَقنَعُ الموعودُ به، بل يكونُ ذلك الرَّمزُ عندَه أعظَمَ مِنَ البَتِّ مِن غَيرِهم، فقال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾[2].

ثمَّ أخبر تعالى أنَّ هذه العداوةَ للمشركين الَّتي أمر اللّه بها المؤمنين، ووصَفَهم بالامتثالِ للأمر بها إنّما تكون ما دام المشركونَ على شركهم وكفرهم، وأنَّهم إن انتقلوا إلى الإيمان فإنَّ العداوة تنقلب مودَّةً إيمانيَّة؛ تسليةً للمؤمنين عمّا نهوا عنه من المودّة مع أقربائِهم. فلا تيْئَسوا - أيُّها المؤمنون - من

(1) أبو السعود، إرشاد العقل اسليم: 8/ 238.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 505 - 506.

رجوعهم إلى الإيمان، فقال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَادَيۡتُم﴾: أصل الكلمة من العُدوةِ، وهي شاطئُ الوادي وجانبُه. والعُدَواء كنُفَساءَ: المكانُ الَّذي بعضُه مرتفعٌ وبعضُه متطأطئ. ويدورُ أصلُ الكلمة على تَجاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّم لِما يَنْبَغي أنْ يُقْتَصَرَ عليه. ففيه معنى منافاة الالتئام بين طرفين، فتارةً يعتبر التّجاوز بالقلب، فيُقال له: العَداوَةُ والمُعاداةُ. وتارةً بالمشي، فيُقال له: العَدْوُ، وتارةً في الإخلال بالعدالة في المعاملة، فيُقال له: العُدْوانُ والعَدْوُ. والعَداوة: المباعدة والخصومة، والعدوُّ ضدُّ الصَّديق، فكأنَّ كُلًّا في جانبٍ، كعُدوة الوادي. والعداوةُ ضدُّ المودَّة. و﴿عَادَيۡتُم﴾ بمعنى (خاصمتم).

2) ﴿مَّوَدَّةٗۚ﴾: الودُّ الحبُّ[2]، ويكونُ في جَميع مَداخِل الخَيْر[3]، وأطلق الودُّ على الأُلفة بين القلوب[4]، والودُّ محبَّة الشّيء مع صلةٍ ومُطاوَلةٍ في المحبَّة ولينٍ في المعاملة. ففي المودّة تقرُّبٌ وصلة. ومنه حَديثُ ابْنِ عُمَرَ: (إنَّ أبا هَذا كانَ وُدًّا لعُمَر)؛ أيْ: صَديقًا[5]. ومعنى ﴿مَّوَدَّةٗۚ﴾: محبَّة[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـزْجُ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ مَسلَكُ القرآنِ في إعانةِ العِبادِ على الطّاعة

بشَّرَ تعالى عبادَهُ المؤمنين بأنَّه يَهدي إلى الإسلامِ قومًا مِن الأعداءِ الَّذين تَربِطُهم بهم رابطةُ الدَّمِ والقرابةِ، ولكيلا تبلغ

(1) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 856.
(2) الراغب، المفردات: (ودد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ودد).
(4) الراغب، المفردات: (ودد).
(5) ابن الأثير النهاية في غريب الحديث: (ودد).
(6) العليمي، فتح القرآن: 7/ 29.

القطيعةُ مَداها خاطَبَ المؤمنين بأنْ عسى أن يَجعَلَ بيْنَكم - أيُّها المؤمِنونَ - وبيْنَ الَّذين عادَيْتُم من المُشرِكينَ مَوَدَّةً بعدَ العداوةِ والبَغضاءِ الَّتي انعقَدَت بيْنَكم، واللّهُ ذو قُدرةٍ تامَّةٍ على كُلِّ شَيءٍ، وهو قديرٌ على أن يجعلَ بينكم وبين الَّذين عاديتُم من المشركين مودَّةً فيهديَهم للإيمانِ، واللّهُ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رحَيمٌ بهم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فَصْلِ الجُملةِ عن السّابِق:

أعـظـمُ فَـرَحٍ يَستكِنُّ في قلوبِ المـؤمـنـين هـو هدايةُ العالَمين

جملةُ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ﴾ اعتراضيَّةٌ، وهو استئناف متَّصلٌ بما قبله من أوّل السّورة[1]، ولا تعارُضَ بين الاعتراض والاستئناف، وفائدتُه تقريرُ مضمون الجملة وتثبيتُه في قلوب المؤمنين؛ تسليةً لهم عمّا نُهوا عنه، وتطييبًا لقلوبِهم، بأنَّ المعاداة عن زمانٍ قريب ستنقلبُ مودَّةً وسببًا لسعادة أولئك بدخولهم في الإسلام، وهو غايةُ ما يرجوه المؤمن.

بلاغةُ استعمالِ الفعلِ ﴿عَسَى﴾:

بـنـاءُ مَـنـهَـجِ الـتَّـوازُنِ والاعـتـدالِ في الـتَّـعـامُـلِ مع العدوِّ

صُدِّرَتِ الجملةُ بفعل المقاربة ﴿عَسَى﴾ على سبيل الرَّجاء في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ﴾؛ ليفيدَ في أصلِه مقاربةَ رجاءِ حصول الخبر على سبيل تراخي وقوعه في المستقبل، ولمّا أُسند الفعلُ إلى اللّه تعالى كان إطماعًا لعبادِه المؤمنين على معنى الوعد من اللّه على عادات الملوك، حيث يقولون في بعض الحوائج: عسى أو لعلَّ، فلا تبقى شبهةٌ للمُحتاج في تمام الأمرِ والقطع والبتِّ فيه، وهذا هو الظّاهر. ولهذا قال كثيرٌ من المُفسّرين: (عسى) من اللّه واجبةُ الوقوع بإذن اللّه تعالى[2]، على معنى الإطماع.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 150.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 8/ 579، 17/ 526، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 296، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 151.

كما يُحتمَلُ أن يكون المقصودُ مِن استعمال ﴿عَسَى﴾ إطماعًا من اللّه تعالى لعبادِه المؤمنين؛ ليكونوا على رجاءٍ من الأمر؛ لأنَّهم بامتثالِهم أوامرَ اللّه تعالى جديرون أن يَطمَعوا في فضلِه ورحمتِه، فتطيبَ نفوسُهم وتهدأ معاداتُهم. وفيه تنبيهٌ للمؤمنين على اقتصادِهم في عداوة المشركين، فعدوُّ اليوم قد يكون مواليًا مناصرًا غدًا، فجملةُ الفائدة هي في الاقتِصادِ في العَداوةِ والموالاةِ(1).

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الجَلالةِ دونَ عُنوانِ الرُّبوبيَّة:

هدايةُ الخَلقِ مِن مُقتضَياتِ توحيدِ الأُلوهيَّة

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الجليلِ في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ دون عنوان الرّبوبيّة؛ لتوريث الهيبةِ في قلوب المؤمنين، فيقعَ الامتثال والاتّزان على أبلغ وجهٍ، وللإشعار بأنَّ تحويل المعاداة الَّتي بين المؤمنين وبين الكافرين إلى مودّةٍ هو من مُقتضَيات وصف الألوهيَّة، فالهدايةُ من اللّه تعالى، ولا يقدرُ على مثل هذا التّحويل في القلوب أحدٌ سوى اللّه تعالى. ففيه امتنانٌ من اللّه تعالى لعبادِه في هذا الجَعْلِ، وإشعارٌ بقدرتِه العظيمة.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَن﴾ المصدريَّة:

وعدُ اللهِ للمؤمنين نافذٌ تصريحًا وإيماءً

دلَّ استعمالُ ﴿أَن﴾ المصدريَّة في قوله تعالى: ﴿أَن يَجۡعَلَ﴾ على أنَّ الجعل المذكور يكون في المستقبل؛ فيكون من قَبيل تأكيد الوعد من اللّه تعالى على حصول الجعل المذكور في المستقبل، وقد أنجز اللّه وعده، ووقع ما وعد به سبحانه عام الفتح بدخول مشركي مكَّة في الإسلام، وهو ما يتّسق مع فعل المقاربة ﴿عَسَى﴾، كما أنَّ فيها إيماءً إلى ما سيكون بطريق الإغراء والإطماع.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿يَجۡعَلَ﴾:

دلَّ فعلُ الجَعْلِ المُسنَدُ إلى اللّه تعالى في قولِه تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ﴾ على التّحويل من حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، وهي تحويلُ

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 264.

الحالة بين المؤمنين والكافرين من المعاداة إلى المودّة، وهي لا تكون إلّا بجعل الله تعالى؛ فيكون بأسبابٍ لا تعلمونها. ولهذا أسند الجعلَ المذكور إليه سبحانه، وفي التّعبير بالجعل دون فعل التّصيير أو التّحويل - بأنْ يُقالَ: عسى الله أن يُصيِّر، أو عسى الله أن يُحوِّلَ - إشارةٌ إلى أنَّ هذا الجعلَ عجيبٌ، وأنّه يكونُ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، كما هي العادة في استعمال الجعل المنسوب إلى الله تعالى في القرآن في مَجاري العظمة والتّعجيب من الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران: 103]، فهي آيةٌ من صنعِ الله تعالى.

جَعْلُ المُتَعادينَ مُتَوادّينَ مِن آياتِ العَظَمةِ الإلهيَّةِ وبديعِ اللُّطفِ الرَّبّاني

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفِ (بينَ):

آثر النّظم الكريم استعمال الظّرف (بين) في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم﴾، ولم يقل: (عسى الله أن يجعل عداوتكم مودّةً)؛ للإشعارِ بأنَّه تعالى يجعل الصّلةَ الَّتي بين المؤمنين وبين المشركين هي المودّة؛ ففي التّعبير بالبينيَّة إشارة إلى أنَّه تعالى سيجعل الصّلة قائمةً على التّرابط القلبي بالمودَّة؛ أي: الولايةِ القلبيَّة بين الفريقين، والبينيّة هي ترجمة واضحة للعلاقات الاجتماعيّة القائمة على ضوابط الشّرع، ذلك أنَّ المودّة الموعود بها المؤمنون هي مرضيّة عند ربِّ العالمين، فكانت شرعيّة بهذا الاعتبار، ولا يَعِدُ الله تعالى بأمرٍ للمؤمنين إلّا وهو يرتضيه.

العلاقاتُ البينيَّةُ سُننٌ ربّانيَّةٌ؛ فموعودُها مُتحقِّقٌ ولو بعدَ حين

نكتةُ تقديمِ الظَّرفِ على المفعول الأوَّل:

قُدِّم ذكر ظرف المكان ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ وما عطف عليه على المفعول ﴿مَّوَدَّةٗۚ﴾ للاهتمام بموضع العلاقة بين المؤمنين والكافرين، ولعدم التِباسِ المفعول الثّاني بالنّعت؛ إذ لو أُخِّر الظّرفُ فقيل: (مودّةً

الاهتمامُ وعدمُ الالتِباس

بينكم وبين الَّذين عاديتُم) لظُنَّ أنَّه نعتٌ للمودة، مع أنَّه المفعولُ الثّاني للفعلِ ﴿يَجۡعَلَ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

معرفةُ صفاتِ المُعادينَ طريقُ الأملِ في رَسْمِ مُستقبَلِ الاتِّحاد

جاءَ التَّعبيرُ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم﴾؛ للإشارة إلى تخصيص المقصود بالجعل المذكور، فالَّذين عاداهم المؤمنون هم مجموعةٌ من المشركين معلومون بصفاتهم، معروفون بنعوتهم، وهم المقصودون بتصييرِ عداوتهم مودّةً، والمؤمنون يعلمونهم، والعلمُ بهم هو مَعقِدُ الأملِ في جَعْلِ عداوتِهم مودّةً.

دلالةُ صيغةِ المُفاعَلة:

انقلابُ طَرَفي المُعاداةِ معًا إلى المودَّةِ هو مَوضِعُ الامتِنان

جاء التَّعبيرُ بصيغة المُفاعَلة في قولِه تعالى: ﴿عَادَيۡتُم﴾؛ لبيانِ أنَّ المُعاداةَ الصّادرة عن الطّرفين هي الَّتي ستتحوَّلُ إلى مودَّةٍ في الطّرفين معًا، لا أنّها ستكون في طرفٍ دونَ الآخَرِ، وهو ما يُرشِّحه استعمال الظَّرف المعطوف على الظَّرف ﴿بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ﴾، وهو تذكيرٌ بالمعاداة الَّتي كانت بين الطّرفين بأنّها ستصبح مودَّةً ومحبَّةً، وهو موضعُ الامتنان.

دلالةُ إسنادِ الفعلِ للمؤمنين:

مُعاداةُ المؤمنين ومودَّتُهم مرهونةٌ بالشَّرعِ لا بالعَواطِفِ والأهْواء

أُسنِدَ فعلُ المعاداة إلى المؤمنين المخاطَبين ﴿عَادَيۡتُم﴾، ولم يقل: (عادَوْكم)؛ للإشارة إلى قوَّة مُعاداة المؤمنين للكافرين وصَلابتهم في ذلك، وذلك أنَّ اللّه تعالى حين حثَّ المؤمنين على عداوة كفّار مكَّةَ والبراءةِ منهم، وذكر لهم فعل إبراهيم والَّذين معه في البراءة من قومهم، وأمَرهم بالتّأسّي بهم كان الانقيادُ لأمرِ اللّه تعالى هو المعتبرَ في مدحهم؛ فكانت المكافأةُ بأنْ تَنقلِبَ المعاداةُ مودَّة، وهو ما يدلُّ على أنَّ المؤمن لا يكرهُ إلّا للّهِ تعالى، ولا يُعادي إلّا على ضوءِ ضوابط الشّرع، ففي حينِ أنّه عادى لأجل اللّه تعالى فرح بالوعد الضِّمنيِّ بانقلاب العداوة مودَّة، فعادى للّهِ، ووَدَّ للّه، وهو قريبٌ من

موقف إبراهيم ﵇ حين أرادَ ذبح ابنِه للّهِ، وترَكَ ذبحَهُ للّهِ، وهذا هو معنى الإيمان القائم على الاستسلام.

نوعُ (مِن) ودلالتُها:

يَحتمِلُ حرفُ الجرِّ (مِن) في قوله تعالى: ﴿عَادَيۡتُم مِّنۡهُم﴾ أن يكون للتّبعيض؛ بمعنى: مِن بعض كفّار مكّة؛ ليدلَّ الكلامُ على أنَّ معاداة المشركين كانت لبعضِهم لا لجميعِهم، كما يُحتمَلُ أن يكون حرفُ الجرِّ (مِن) بيانًا؛ أي: عاديتموهم.

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ ودلالتُهُ:

المشـركـون هم مَن بدَأ العداوةَ بإيثارِهم الكفرَ على الإيمان

يرجعُ الضّميرُ في قوله: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ إلى المقصودين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، ولمّا عاد الضّمير إلى المشركين، وكان لفظُ ﴿عَادَيۡتُم﴾ يُفيدُ المشاركةَ كان التّقدير: من المشركين الّذين عادوكم؛ أي: بما تقدَّم مِن أعيانهم من أهل مكَّة[1]، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ العداوةَ بدأت منهم بسبب كفرِهم ومحاربتِهم لكم من أجلِ إيمانِكم وتمسُّكِكم بدينِكم.

بلاغةُ الكناية:

المـــودَّةُ كنـايةٌ عـــن دخـــولِ الإسلامِ وإقامةِ الـعـلاقـاتِ على أساسِ الشَّرع

الوعدُ بتحويل مُعاداة المؤمنين للكافرين إلى مودَّة في قوله تعالى: ﴿أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾ كنايةٌ عن دخول الإسلام؛ لأنَّه تعالى لمّا نهى عن إلقاء المؤمنين إلى الكافرين بالمودَّة دلَّ على أنَّ المودَّة لا تكون إلّا بين المؤمنين، فلمّا أخبر تعالى أنَّه يجعل بين المؤمنين وبين الَّذين عادوهم مودَّة دلَّ على أنَّهم يدخلون في الإسلام ويؤمنون؛ لأنَّ المودَّة لا تكونُ إلّا بين المؤمنين. وفي هذا تأكيدٌ لما أمَرَهم به مِن ترك موالاتِهم ما داموا كفّارًا[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 506.

(2) الثعلبي، الكشف والبيان: 26/ 30، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 11/ 7421، وأبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 14/ 387، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 205، والسعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 856.

وأفاد دخول المشركين في الإسلام مَيْلَهم إليه، ومخالطتَهم للمسلمين، ومعاملتَهم معهم، ومناكحتَهم إيّاهم[1]، وفي هذا تأليفٌ للقلوب؛ ليكونَ غيرُ المؤمنين قريبين من الإسلام، فيعرفوا أحكامَه وأخلاقه؛ فيكونُ المراد أعمَّ من الوجهِ الأوّل الَّذي اقتَصَرَ على أن تكون المودَّة بدخول الإسلام.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

تقليبُ القُلوبِ وتسهيلُ أسبابِ المحبَّةِ من مَظاهِرِ القُدرةِ الإلهيَّة

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ﴾ استئنافيّةٌ، أفادَتْ تعليلَ جعلِ المعاداة مودّةً، وهو تذييلٌ يُشعِرُ بأنَّ تأليفَ القُلوبِ ومَودَّتَها إنَّما هو مِن قُدرةِ اللّهِ تعالى وحدَه[2]، فهو وحدَهُ سبحانه قديرٌ على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيلِ أسباب المحبَّة[3]، فاللّه قديرٌ على أن يفتحَ قلوبَ المشركين للإيمان.

نكتةُ حَذْفِ مُتعلَّقِ صيغةِ المُبالَغة:

إيجازُ القَصْرِ مبنيٌّ على لَحْظِ قَرائنِ السِّياق

مجيءُ جملةِ ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ﴾ اسميَّةً يفيدُ ثبوتَ مضمونِها، وحُذِفَ متعلَّقُ صيغةِ المبالغةِ للإيجازِ المعلوم من السّياق؛ إذ تقدير المعنى: واللّهُ قدير على أن يوفّق المشركين للإيمان، وعلى أن يجعلَ العداوةَ مودَّةً[4]، فلمّا حُذِفَ المتعلَّق أشعَرَ باستقلاليَّة الجملة، فتكونُ بمثابة تذييلٍ لِما قبلها[5] مع ارتباطِها في المعنى بعلاقة السّياق؛ فيدخلُ الجعلُ المذكورُ في قدرةِ اللّه تعالى دخولًا أوّليًّا، كما أنَّ الجملةَ التّذييليَّة تجري مَجرى المَثَلِ في حكايتِها والإخبارِ بها.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ ﴿قَدِيرٌۚ﴾:

تبديلُ أحوالِ القلوبِ من مُقتضَياتِ القُدرةِ الإلهيَّة

جاءَ استعمال صفةِ ﴿قَدِيرٌۚ﴾ على وزن (فعيلٍ)؛ للإيذان بالمبالغة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 520.
(2) عطية سالم، تتمة أضواء البيان: 8/ 90.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 515.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 321.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 151.

في القُدرةِ؛ إشعارًا بأنَّ الجعلَ المذكورَ لا يكون إلّا مِن اللّه تعالى ذي القدرة البالغة على تقليبِ القلوبِ وتسهيلِ أسبابِ المودَّةِ والمحبَّة بعدَ المعاداة، بأنْ يُغيِّرَ الأحوالَ، فيصيرَ المشركونَ مؤمنين صادقين، وتصيروا أوِدّاءَ لهم متحابّين فيما بينكم[1].

سرُّ تكرارِ اسمِ الجلالةِ (اللهُ):

الإيــــــذانُ بـاسـتـقـلالِ مـضـمـونِ كـلِّ جـمـلـةٍ عـن مـضــمــونِ سابقتِها

تكرَّرَ الاسمُ الجليل (اللّهُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لتثبيتِ معنى الاسم الجليل في قلوبِ المؤمنين، وللتَّلذُّذِ بذكرِه، فهو الَّذي يجعلُ العداوةَ مودّةً بين المؤمنين والكافرين، ففي تكراره إيماءٌ إلى رِفْقِ اللّه تعالى بالمؤمنين ورحمته بهم، وإيذانٌ باستقلالِ كلِّ جملةٍ في الدَّلالة، فتكون تذييلًا، مع ارتباطِها بما قبلَها في المعنى.

بلاغةُ جُملةِ الفاصِلة:

الاحــتـراسُ عن صَــرْفِ الـقُـدرة على العذابِ إلى الهداية

جاءت جملةُ الفاصلة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اسميَّةً؛ لتفيدَ ثبوتَ مضمونها؛ بمعنى ثبوتِ مضمون كون اللّه تعالى غفورًا رحيمًا، كما أنَّ الجملة لمّا كانت تحمل معانيَ عامَّةً كليَّةً بقرينةِ حذف متعلَّق لفظَي ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أفادت معنى الاستقلال؛ لتكون جملةً تذييليَّةً بعدَ التَّذييلِ بجملةِ ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌۚ﴾، وفائدة الجملة الاحتراسُ عن إرادة القدرة على التّعذيب، وصرفِها للهداية والرّحمة، فاللّه قديرٌ على هداية المشركين، وهو غفورٌ لذنوبهم رحيمٌ بهم إنْ آمَنوا.

دلالةُ اقترانِ صفةِ المغفرةِ بالرَّحمة بصيغةِ المبالغة:

مـغـفـرةُ الـلـه ورحـمـتُـهُ تـنـالُ مَـن أسـلَـمَ مـنَ الـمـشـركـيـنَ ومـا فـرَطَ مِـن مـوالاةِ المؤمنين لهم

لمّا أظهر اللّه قدرتَهُ في قلب العداوة مودَّةً، ولم يبقَ إلا كدرُ الذّنب ناسَبَ أن يختمَ الآيةَ بقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: فيغفرُ بمغفرتِه البالغةِ ما فرَطَ منكم في موالاتهم، ويرحمُكم برحمته الواسعة بضمِّ الشَّمل، كما أنَّه تعالى لمّا ذكَرَ تحويلَ المعاداةِ إلى

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 151.

المودَّةِ الَّتي تَستلزِمُ إيمانَ الكفّار دلَّ بذكر الوصفين بصيغة المبالغة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على مغفرتِه البالغةِ لذنوبِهم بسبب إيمانِهم ورحمتِه العظيمة بهم؛ إذ جعل الإيمانَ في قلوبِهم، فيكون تعقيبُ جملة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لِما سبقَ مناسبًا للسّياق؛ لأنَّ فيه إشعارًا بأنَّه تعالى يغفرُ لِمَن أسلمَ مِنَ المشركينَ ويرحمُهُم، ويَغفِرُ ما فرَطَ من المؤمنين في موالاتِهم مِن قبلُ، وما بقيَ في قلوبِهم من مَيْلِ الرَّحِمِ[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المُعاداةُ والمُخاصَمة:

يَغلِبُ على العداوةِ أنَّها من أفعالِ القلوب، أمّا المُخاصَمةُ فبالأقوال

العَداوَةُ إرادَةُ السّوءِ لِمَن تعاديه، وتفيد بُعْدَ المُعادي ونفرتَهُ قلبيًّا، كما تُفيد وجودَ نزاعٍ بين الأعداء، والعداوة سببُ الشَّنآن، وأخَصُّ من البغضاء؛ لأنَّ كلَّ عَدوٍّ مبغَضٌ، وقد يُبغَضُ مَن ليس بعدوٍّ[2]، وقد يَعتدي البغيضُ عليك وقد لا يعتدي، كما أنَّ العداوة فيها منازعةٌ بقتالٍ أو غيرِه، والبغضُ ليس كذلك.

أمّا المخاصمةُ فهي من قبيل القَوْل؛ لأنَّ المخاصمة فيها منازعةٌ ومجادَلةٌ في القول، والمعاداةُ مِن أفعال القُلوب، ولهذا قابَلَ الله تعالى في آية الممتحنة المعاداةَ بالمودّة الَّتي تكون في القلوب كذلك. ويجوزُ أن يُخاصِمَ الإنسانُ غيره من غير أنْ يعاديَهُ، ويجوزُ أنْ يعاديَهُ ولا يُخاصِمَهُ بالقولِ[3]، بأن يُضمِرَ عداوتَه في قلبِه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 4/ 264، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 238، وعبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 902.
(2) الكفوي، الكليات، ص: 644.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 131.

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم
مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ
٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن
دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ [الممتحنة: 8 - 9]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لَمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة النّهيَ عن موالاة الأعداء من المشركين والانقطاعَ بِالكُلّيَّةِ عَنِ الكُفّارِ ناسب ذكرُ مَن لم يُظهر العداوة من المشركين؛ فرَخَّصَ في صِلَةِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلوهُمْ مِنَ الكفار، ثمَّ ذكر الَّذين ينهاهم عن صلتهم فقال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]، كما أنّه لمّا نزلت هذه الآيات الكريماتُ المُهيِّجةُ على عداوة الكافرين وقعت من المؤمنين كلَّ موقعٍ، وقاموا بها أتمَّ القيام، وتأثَّموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنّوا أنَّ ذلك داخلٌ فيما نهى الله عنه؛ فأخبرهم الله أنَّ ذلك لا يدخلُ في المحرم، فقال تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾[2].

الاحـــتراسُ عـن الـتَّـطـرُّفُ والـتَّـعـمـيـمُ مَـنـهَـجُ الـقـرآنِ في بناءِ التَّوازُنِ الاجتماعيّ

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَبَرُّوهُمۡ﴾: البَرُّ - بفتح الباء - خلاف البحر. وتُصوِّرَ منه التَّوسُّعُ، فصارت الكلمة تَدورُ على التّوسُّع في الخير[3]، وتفسيرُ البرِّ بالخير أجمعُ ما قيل في معناه. وعَن ابن الأعرابي: البِرُّ: فِعْل كُلِّ خَيْر من أيّ ضَرْبٍ كانَ[4]. ويقال: بَرَّ العبد ربَّه؛ أي: توسّع في طاعته،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 520.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 856.
(3) الراغب، المفردات: (برر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (برّ).

وبِرُّ الوالدين - بكسر الباء - التّوسُّع في الإحسان إليهما. ومن البِرّ الصّلة والإحسان والنَّفع المتسع. واللّه هو البَرّ: المستجيب لحاجات عباده الَّذي يُفيض عليهم عطاياه الَّتي تُيسِّرُ حياتَهم[1]. ومعنى ﴿تَبَرُّوهُمْ﴾: تصلوهم وتُحسنوا إليهم بالقول، وحسن المعاشرة[2].

2) ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ﴾: القِسْطُ: النّصيب بالعدلِ. وقَسَّطَ الشّيءَ: فرَّقَه[3]. والإقْساطُ: أن يعطي قسط غيره، وذلك إنصاف[4]، والقِسْطُ: الحِصَّةُ والنَّصيبُ. يُقالُ: أخذ كُلُّ واحِدٍ مِنْ الشُّرَكاءِ قِسْطَه؛ أي: حِصَّتَه. وتقَسَّطوا الشّيءَ بَيْنَهُمْ: تقسَّموه عَلى العَدْل والسَّواء[5]. ولذلك قيل: قَسَطَ الرّجل يقسِطُ فهو قاسطٌ: إذا جار وظلم؛ لأنَّه لم يعطِ نصيب غيرِه، ويقال أقسَطَ الرَّجلُ يُقْسِطُ فهو مُقسِط إذا عدل؛ لأنَّه أعطى نصيب غيرِه[6]، ومعنى ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ﴾: تعدلوا وتُنصفوا في القول والفعل[7].

3) ﴿وَظَٰهَرُواْ﴾: ظَهَرَ الشّيءُ يظهر ظهورًا فهو ظاهرٌ إذا انكشف وبرزَ. وأصل التّظاهر من ظَهْرِ الإنْسانِ، فكأنَّ التَّظاهُرَ: أن يَجعَلَ كُلُّ واحدٍ مِن الرَّجُلَيِن أو مِن القَوم الآخَرَ له ظَهرًا يتقَوّى به، ويَستَنِدُ إليه؛ فيعين أحدهما الآخر. وأصل (ظهر) يَدلُّ على البُروزَ والقوَّةَ[8]. والظّاهر ما يُدرك بالمشاهدة[9]. والظُّهورُ: الغَلَبَةُ. والظَّهيرُ: المُعينُ، كَأنَّهُ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إلى ظَهْرِكَ. وتَظاهروا عليه: تَعاوَنوا. وظاهرتُه: عاونته[10]. ومعنى ﴿وَظَٰهَرُواْ﴾: عاونوا[11].

4) ﴿تَوَلَّوْهُمْۚ﴾: الوَلْيُ: القربُ[12]. ويدور معنى الكلمة على القربِ مطلقًا. يُقالُ: تباعَد بعد ولْيٍ؛ أي: بعدَ قُربٍ. وجَلَسَ مِمّا يَليني، أي يُقارِبُني. وأصل الكلمة من الوَلي: وهو المطرُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (برر).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 323، وأبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 14/ 388.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قسط).
(4) الراغب، المفردات: (قسط).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (قسط).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قسط).
(7) ابن الهائم، التبيان، ص: 298.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ظهر).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظهر).
(10) الراغب، المفردات: (ظهر).
(11) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 324.
(12) الأزهري، تهذيب اللغة وابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

يجيءُ بعدَ أوّل ما ينزل من المطرِ، سُمّيَ بذلِكَ لأنَّهُ يَليه[1]. فيستعمل اللَّفظ في القرب المكانيِّ ومن حيث النّسبة، ومن حيث الدّين، ومن حيث الصّداقة والنّصرة والاعتقاد، والوِلايَةُ: النُّصرةُ، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ. والوليّ: وليّ اليَتيم الَّذي يَلي أمرَه ويَقوم بكِفايته[2]. وتَوَلّى إذا عدّي بنفسه اقتضى معنى الوَلايَةِ والاتّباع، ففي اللَّفظ معنى الإقبال، وإذا عدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضى معنى الإعراض وترك القُرب والابتعاد[3]، ومعنى ﴿تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾: تَنۡصُروهم[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

البـرُّ بالمشركين غـيـرِ المقاتـلين مـقـصـدٌ من مقاصد الدّعوة وسـجـيّـةٌ من أخلاق الرّحمة

لمّا تأثَّمَ المؤمنون من صِلةِ بَعضِ أقاربِهم المُشرِكينَ، وظَنّوا أنَّ ذلك داخِلٌ فيما نهى اللّهُ عنه عرَّفَهم اللّه تعالى أنَّه لم يُرِد بما أمرهم به من قطع موالاتِهم قصدًا لقطع الأرحام، لكنْ تشديدًا على المشركين؛ ليكون ذلك سببًا لإجابتهم إلى الإسلام. فبيَّن لهم موضع الإباحة في مبرَّتِهم وموضع النّهي عن ولايتِهم، فأخبر أنَّه لا يَنهاكم اللّهُ - أيُّها المؤمِنونَ - عن الكافِرينَ من جميع أصناف الملل والأديان الَّذين لم يُقاتِلوكم مِن أجْلِ دينِكم؛ مِن أقارِبِكم وغيرِهم مِن الكُفّارِ، ولم يُخرِجوكم مِن بلادِكم كما أخرَجَكم كُفّارُ مَكَّةَ؛ أن تصلوهم وتُحسِنوا إليهم وتُكرِموهم، وتَعدِلوا في تعامُلِكم معهم عدلًا تامًّا؛ لأنَّ اللّه يحبّ المنصفين الَّذين ينصفون النّاس، ويعطونهم الحقّ والعدل من أنفسهم، فيبرّون من برّهم، ويُحْسنون إلى من أحسن إليهم. ثمَّ زاد الأمر إيضاحًا وبيانًا. فذكر أنَّه: إنَّما ينهاكم عن أن تتولَّوا الَّذين ناصبوكم العداوة وقاتلوكم من أجلِ دينكم وعاونوا من أخرجكم من ديارِكم على إخراجِكم. ثمَّ أكَّد النّهي بالوعيد على موالاتِهم فأخبر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (ولي).
(3) الراغب، المفردات: (ولي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ولي).

أنَّ من يتّخذهم أولياء فأولئك هم الظّالمون؛ لتولّيهم غير الَّذي يجوز لهم أن يتولوهم، ولأنَّهم وضعوا ولايتهم في غير موضعها، وخالفوا أمر اللّه في ذلك(1). قال المفسّرون "هذه الآية تدلُّ على جواز البرِّ بين المسلمين والمشركين، وإن كانت الموالاة أو المودَّة منقطعة"(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل جملة ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾:

مـا لـه حكـمُ الاستـثـناء من الحـكـم الـكـلّيّ يَـجـري مَـجـرى البيان والإيضاح

جاءت جملة ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ مستأنفةً؛ لبيان معنى العداوة في الدّين المجعولةِ علّةً للنّهي في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾. وبيان وجه الاستئناف أنَّه لمّا ذكر اللّه تعالى عدوَّه وعدوَّ المؤمنين ونهى عن اتّخاذِهم أولياءَ فإنْ حملت العداوة على معنى المخالفة في الدّين كانَ مَضمونُ قوله ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ بَيانًا لِمَعْنى العَداوَةِ المَجْعولَة عِلَّةً لِلنَّهي عَنِ الموالاة، وكانَ المَعْنى: أنَّ مَناطَ النَّهْي هوَ مَجْموعُ الصِّفات المَذْكورَة لا كلُّ صِفَةٍ عَلى حيالِها. وإنْ نَظَرْنا إلى أنَّ وصْفَ العَدوِّ هوَ عَدوُّ الدّينِ – أيْ: مُخالِفُهُ في نَفْسِه مَعَ ضَميمَةِ وصْفِ ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ﴾ – كانَ مَضْمونُ ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ تَخْصيصًا لِلنَّهْي بِخُصوص أعْداءِ الدّينِ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلوا المُسْلِمينَ لِأجْلِ الدّين، ولَمْ يُخْرِجوا المُسْلِمينَ مِنْ دِيارِهِمْ. فالجملة المستأنفة بين بيان معنى ما قبلها وبين تخصيص حكمه. والتّخصيص بيانٌ كذلك. وأيًّا ما كانَ فَهَذِهِ الجُمْلَةُ قَدْ أخْرَجَتْ مِنْ حُكْمِ النَّهْيِ القَوْمَ الَّذينَ لَمْ يُقاتِلوا في الدّين، ولَمْ يُخْرِجوا المُسْلِمينَ مِنْ دِيارِهِمْ(3). فسبب الاستئناف هو بيان حكم المعاملة مع غير المسلمين وتفصيله، فهي في حكم ابتداء تشريع جديد.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 324، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 69 - 70.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 415، والتفسير الوسيط: 4/ 285، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 521.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 151 - 152.

فائدةُ جملةِ النَّفْي:

دفعُ أوهامِ الأفهامِ ودفعُ مظانِّ العُموم

يأتي النّفي لدفع ما يُتوهَّم إثباته، وبيانُه أنَّه تعالى لمّا نهى في أوَّلِ السّورةِ عنِ اتِّخاذِ المُسلِمينَ الكُفّارَ أولياءَ، وقَطَعِ المَوَدَّةِ معهم، وكان قد يُتوهَّمُ أنَّ بِرَّهُم والإحسانَ إليهم مِن الموالاةِ والمودَّةِ عبّر بصيغة النّفي في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ لدفعِ هذا التّوهّم، فبَيَّنَ اللّهُ سُبحانَه بنفي النّهي أنَّ برَّهم والإحسانَ إليهم ليس مِن الموالاةِ المنهيِّ عنها، وأنَّه لم يَنْهَ عن ذلك، بل هو مِن الإحسانِ الَّذي يُحِبُّه ويَرضاه، وكتَبَه على كُلِّ شَيءٍ، وإنَّما المنهيُّ عنه تولّي الكُفّار، والإلقاءُ إليهم بالمودَّة[1].

بلاغةُ نفيِ النَّهيِ دونَ إثباتِ الأمرِ أو الجواز:

الاحتمالُ الدَّلاليُّ إنَّما يُعيِّنُ مقصودَه العلماءُ باجتهادٍ على ضوءِ فقهِ الواقع

يُحتمل أن يكون المراد من الإخبار بنفي النّهي عن برٍّ من لم يقاتلوا المؤمنين في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الأمرَ بمبرَّتهم والإقساط إليهم؛ لأنَّ ضدَّ نفي النّهي إثباتُ الأمر؛ فيكون المؤمنون مأمورين بمبرَّتِهم والعدل معهم، ونكتةُ إيثار نفي النّهي دون إثبات الأمر بمبرَّتهم مباشرةً دفعُ توهّم النّهي عن مبرَّتِهم بسبب ما ذُكِر من التّهييج على عداوة الكفّار.

ويُحتمل أن يكون المراد من نفي النّهي التّرخيصَ بمبرّتهم؛ لأنَّ نفي النّهي يدلُّ على الرُّخصةِ في المقابل؛ فيكون الأمرُ موكولًا إلى وليِّ المؤمنين في تقدير الحالة، كما في قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ﴾ [البقرة: 16]، فإنَّ معناه: بل خَسِرَتْ، وإنْ كان يجوز أنْ تكون التّجارةُ غيرَ خاسرةٍ وإن لم تربح[2].

والاحتمالان قائمان وعائدان إلى السّياسة الشّرعيَّة الَّتي يراها الحاكم المسلم على ضوء المعطيات الفقهيَّة والدّعويَّة والاجتماعيَّة الَّتي يُقرُّها أهل العلم.

---

(1) ابن القيم، أحكام أهل الذّمة: 1/ 602.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 615.

بيانُ استقلالِ الجملةِ، ومناسبةُ الأمر والنَّهي للألوهيَّة

فائدةُ إظهارِ اسمِ الجلالة:

آثر النّظم الكريم إظهار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ دون إضماره مع قرب ورودِه؛ لأنَّ الجملة مستأنفةٌ، فتكون في حكم الجملة المستقلَّة؛ لأنَّها جاءت لبيان حكم، وللإشعار بأنَّ أحكام الأمر والنّهي من مقتضيات الألوهيَّةِ، وهو الأنسب باسم الجلالة، فكانت فائدة إظهار اسم الجلالة لبيان استقلال الجملة، وللإشعار بمقتضيات توحيد الألوهيّة.

الحثُّ على البرِّ يَشمَلُ كلَّ مَن لم يُباشِرْ أذى المسلمين وعداوتَهم

فائدةُ الاسم الموصول ودلالتُه:

أفاد التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إرادة أقوام بأعيانِهم ممّن لم يقاتلوا المؤمنين، بدليل المقابلة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾، فالمشركون قسمان: قسمٌ قاتل عداءً لدين اللّه تعالى، وآخر لم يُقاتل لهذه الغاية ولا لغيرِها، ويُقاس على ذلك جميع أصناف أهلِ الملل والأديان، فيعمَّ جميعَ من كان ذلك صفتَه، فلم يخصِّص به بعضَ الكفّار دون بعض[1] في الحكم، فالحكم عامٌّ، فلا يختصُّ اللَّفظ بكفّار مكَّة ولا بالمشركين فقط. فيكون عدمُ النّهي عن الصّلة والبرِّ شاملًا لكلِّ من لم يباشِر أذى المسلمين وعداوتَهم.

نفي النّهي عن برِّ غير المسلمين قائمٌ على انتفاء المقاتلة في الدّين

كما أنّه جاء التّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ للإيماءِ إلى وجه بناء الحكم وبيان علَّته؛ بمعنى: أنَّ سبب نفي النّهي عن مبرَّتِهم هو أنَّهم لم يقاتلوا المؤمنين في الدّين ولم يخرجوهم من ديارهم؛ فإذا انتفى سببُ البراءةِ - وهو قتال الكفّار للمسلمين وتهجيرهم بسبب دينِهم - رجع الأمر إلى أصلِه وهو أن تكون العلاقة قائمةً على البرِّ والإقساطِ؛ ليفيدَ بيانُ علَّة نفي النّهي أنَّ الأصلَ في العلاقة بين المسلمين وغيرِهم هي أن

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 323.

تكون إنسانيَّة قائمة على البرِّ بجميعِ أنواعِه. وإنّما تنشأ العداوة إذا باشر غيرُ المسلمين عداوتَهم للمسلمين بقتالٍ أو تهجيرٍ أو أذًى.

من ترك قتال المؤمنين يُكافأُ بالإحسان إليه وبرِّه

كما أنّه لمّا دلَّ الموصول وصلته على علَّة الحكم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أفاد أنَّ المشركين إذا لم يُخرجوا المؤمنين من ديارهم ولم يؤذوهم كان هذا برًّا منهم، فمن الإنصاف والإقساط معهم أن تقابلوا - أيُّها المؤمنون - عدمَ أذيّتهم لكم بالحسنة، بل بما هو أفضل منها، وذلك بأن تبرّوهم أنتم أيضًا وتقسطوا إليهم[1]. فمن لطيف ما أشار به القرآن مقابلة السّلب بالإيجاب؛ إذ قابل انتفاء مقاتلة غير المسلمين للمسلمين وانتفاء إخراجِهم لهم من ديارِهم بإيصال المبرَّة لهم والإنصاف في معاملتِهم؛ فجعل لهم حقًّا في البِرِّ والإحسان إليهم، وإن كانوا على دينٍ آخر.

فائدة النّفي بأداةِ ﴿لَمۡ﴾ دون (لا):

فقهُ التّعامل مع غير المسلمين قائمٌ على الأحكام الواضحات لا المبهمات

آثر النّظم الكريم استعمالَ حرف النّفي ﴿لَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ لبيان أنَّ نفي النّهي عن مبرّةِ غير المسلمين والإحسان إليهم هي فيما كان؛ أي: باعتبار ما حصل من المشركين من قتال المؤمنين، فمنهم من قاتل ومنهم من لم يقاتل، فهو حكمٌ شارحٌ لواقع، ويُقاس عليه من يأتي بعده، ولبيان أنّ تعيين البرّ من عدمه إنّما يكون بعد جلاء الموقف من المشركين، وتحديد العلاقات بوضوح، فلا يتسرّعْ متسرِّع فيقضيَ بحكم البرّ لأناسٍ يكيدون للمؤمنين، ولذلك لم يقل: (لا ينهاكم اللّه عن الَّذين لا يقاتلونكم في الدّين) أي: الآن؛ لاحتمال أن تكون المقاتلة في المستقبل القريب، فتُبيِّن الآية ضرورة الاحتياط، وبذل الاجتهاد في فقه واقع الكافرين المحيطين بأمّة الإسلام.

(1) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 14/ 388.

دلالة صيغة ﴿يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ وإسناد الفعل للكافرين:

ابتداءُ القتال يبدأ من جهة الكافرين، وشأنُ المؤمنين الدّعوةُ وصدُّ العدوان

لمّا كانت صيغة فاعَل في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ تفيد نسبة أصل الفعل إلى أحدِ الطَّرفين الَّذي هو الفاعلُ، بحيث يكون متعلّقًا بالمفعول؛ بمعنى: أنَّ الصّيغة تفيد التّشارُك بين اثنين فأكثر، وهو أن يفعل أحدهما بصاحبه فعلًا، فيقابلَه الآخر بمثله، وحينئذ فيُنْسَب للبادئ نسبة الفاعلية، وللمقابل نسبة المفعولية[1]. فلمّا كانت الصّيغة تفيد ذلك دلَّ على أنَّ الحكم بمبرَّة الكافرين وحسن معاملتِهم متعلِّق بعدم بدء الكافرين بقتالِ المؤمنين، وفيه إشارة إلى أنَّ الكفّار هم الَّذين يبدؤون قتال المؤمنين، وأنَّ المؤمنين إنّما يقابلونهم بالقتال على وجه الرّدِّ ودفع قتالِ الكفّار عنهم، فأفاد نفي القتال بصيغة ﴿لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾ عدمَ الصّدام، وعدم الولوغ في الدّم.

بلاغة استعمال حرف الظّرفية:

معاداةُ الدّين بجميع أنواعها تستلزمُ نفيَ البرّ والصّلة

دلَّ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ على معنى السّببيَّة؛ أي: لم يقاتلوكم بسبب الدّين، فيكون التّقييد بحرف الجرِّ معتبرًا في الحكم بانتفاء النّهي، ونكتة استعمال حرف الظّرفيّة هو بيان سعة أمر الدّين، وأنَّ أيَّ مقاتلة مرتبطة بالدّين فهي داعيةٌ إلى مقاتلة المشركين، وإبراز المعاداة لهم، فجعل الدّين ظرفًا واسعًا والمقاتلة فيه، فيدخل القتال المادّيُّ والمعنويُّ والفكريُّ والثّقافيُّ، ولو قال: بالدّين، أو لأجل الدّين لظُنَّ أنَّ الأمر مرتبطٌ بالعقيدة فحسب، لكنَّ الأمر أوسع من ذلك؛ إذ يشمل العقيدة والأخلاق والتّربية والتّعليم والثّقافة والاقتصاد باعتبارها صادرة عن الدّين؛ فكلُّ عداء للمؤمنين أيًّا كان نوعه، وإن ظهر ناعمًا في سلوك أصحابه، فهو مستدعٍ للمعاداة وعدم البرّ والقسط.

---

(1) الرضي الأستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 1/ 96، والحملاوي، شذا العرف، ص: 30 - 31.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

أل في لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ للعهد، وهو دينُ الإسلام؛ أي: لم يقاتلوكم بسبب الدّين الَّذي آمنتم به، وهو النّازل على قلب محمَّدٍ ﷺ، بجميع أصوله وفروعه.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ دون مقارباته:

حسد الكافرين من نزول القرآن على المؤمنين هو أصل كلِّ عداوة

جاء التّعبير بلفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ دونَ غيرِه كالإسلام والإيمان؛ لأنَّه يشمل كلَّ ما يتعلَّق بالدّين من أمور الإيمان وتعاليم الشّريعة وأحكامِها، وفيه تعظيم لشأنِ الدّين، وبيان أنَّ الباعث على المقاتلة هو ما ناله المؤمنون من خيرٍ عظيم في الدّنيا بنزول القرآن، الَّذي هو مجلبة الحسد والبغضاء، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ١٠٥﴾ [البقرة: 105].

فائدة العطف ودلالته:

من لوازم المقاتَلة في الدّين محاولةُ تهجير المسلمين

لمّا كان الغرض من صلة الموصول بيان سبب الحكم وعلّتِه أفاد العطف في قوله تعالى: ﴿لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أنَّ سبب عدم النّهي عن مبرَّتهم منوطٌ باجتماع المعطوف عليه والمعطوف، وذكرُ المعطوف من باب تتميم الوصف القائم عند نزول الآيات، لا تخصيص الأمر باجتماع المقاتلة في الدّين والإخراج من الدّيار في الظّاهر؛ إذ نزول الآيات في شأن ما كان من المشركين مع المؤمنين، ومقتضى المقاتلة في الدّين إخراج المؤمنين، فأفاد العطف بيان التّلازم بين الأمرين، وإن لم يتحقّق الأمر فعلًا واقعًا لعدم قدرة المشركين على ذلك، فبمجرّد ظهور بوادر المقاتلة في الدّين؛ فإنَّ أسباب الصّلة والبرّ منفيّة.

نوعُ عطفِ الإخراجِ مِن الدّيارِ على القتالِ في الدّين:

لمّا كان شرطُ العطف حصولَ المناسبة بين المعطوفين - بمعنى:

الإخـــراجُ مِـن الدّيار خاصٌّ مِن عـمومِ المقاتَلة لاستلزامِهِ سفكَ الدّماء

أن يكون بين المعطوف والمعطوف عليه جهةٌ جامعةٌ[1] أفاد العطفُ في قولِه تعالى: ﴿لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أنَّ إخراجَ المسلمين من ديارِهم بمثابة قتالِهم وسفكِ دمائِهم، وأنَّه قريب من منزلتِه في الضّرِّ والكره والشّدّة؛ لاجتماع أذى النّفس والمال في التّهجير من الدّيار؛ فلا يخلو الإخراج من سفك الدّماء ومصادرة الأموال قهرًا وقسرًا، وهو نوعٌ من القتال، فيكون من باب عطف الخاصِّ على العامّ.

دلالة تقديم القتال على الإخراج:

العـــداوة بين الـكــافـريــن والمسلمين تكون في القتالِ ابتداءً

قُدِّم ذكرُ انتفاء قتال الكفّار للمسلمين على انتفاء إخراجِهم من ديارِهم، دون العكس في قولِه تعالى: ﴿لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾؛ باعتبار أنّ المعطوف عليه هو الظّاهر في العلاقة بين المشركين والمؤمنين، ولا يحصل الإخراج إلا بعد وقوع المقاتلة، كما أنَّ في تقديم المقاتلة إيماءً إلى أنَّ أظهر ما تكون العداوة في القتال، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾.

نكتة التّعبير بمفردة ﴿تَبَرُّوهُمۡ﴾:

البرُّ لفظٌ جامع لأنواع الإحسان، ويتعيّن معرفته بـفـقـهِ الـواقـع وسؤالِ العُلَماء

البرُّ هو حُسْنُ المُعامَلَة، والإكْرامُ[2] على سبيل التّوسّع فيهما، وجاء التّعبير بمفردة ﴿تَبَرُّوهُمۡ﴾؛ للإشعار بأنَّ المؤمنين في سعةٍ في التّوسَّع بالخير مع الكفّار غير المقاتلين، والإحسان في معاملتِهم وإكرامِهم وصلتِهم، ومن البرِّ لين الكلام ومراسلتُهم ومواساتهم في حياتِهم بالمالِ والطّعام وغيره[3]. ويُؤْخَذُ من عموم المبرَّة جوازُ مُعامَلَةِ أهْلِ الذِّمَّةِ بِالإحْسانِ وجَوازُ الاحتفاء بأعيانهم[4]. قال القشيريُّ: "مَن

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 251.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 153.
(3) الشافعي، أحكام القرآن جمع البيهقي: 2/ 193، والنّحاس، إعراب القرآن: 4/ 273.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 153.

كان فيهم ذا خلق حسن، أو كان منه للمسلمين وجهُ نفعٍ أو رفق فقد أمرهم بالملاينة معه"[1]، وهو داخلٌ في عموم معاملة المؤلَّفة قلوبهم، ويتعيّن معرفةُ الإحسان إلى الكافرين بحسب فقه الواقع، وما يُبيِّنه العلماء بضوابطِ الشّرع.

بلاغةُ الموقعِ الإعرابيِّ لقوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾:

ذكرُ برِّ غيرِ المقاتلين ضمنيًّا وصريحًا أقوى في توكيده

المصدر المؤوّل ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ بدلُ اشتمالٍ من الاسم الموصول وصلتِه ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾[2]، والمعنى: لا ينهاكم اللّه عن أن تبرّوا الَّذين لم يقاتلوكم؛ وجاء بدل الاشتمال بصيغة الحدث ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ من اسم الذّات ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأنَّ تعلُّقَ عدمِ النّهي بالذّات أبلغ[3]؛ إذ يَجْعَلُ برَّ المُسْلِمينَ بِهِمْ مِمّا تَشْتَمِلُ عليه جميعُ أحوالِهِم[4]. كما أنَّه ببدل الاشتمال كان كأنَّه قرّر المعنى مرّتين، مرَّةً عن طريق ذكرِ المبدل منه لاشتمالِه على برِّهم، وأخرى عن طريق بدل الاشتمال بذكر برِّهم صريحًا.

نكتة إيثار تعدية فعل ﴿تَبَرُّوهُمۡ﴾ بنفسِه على تأويل نزع الخافض:

الحثُّ على حسن معاملة المؤمنين لغيرِهم في بابِ البرِّ

الفعل (برَّ) يتعدّى بحرف الجرِّ؛ فيُقال: برَّ به، وتبرّون بهم؛ فلمّا قال تعالى: ﴿تَبَرُّوهُمۡ﴾ دلَّ بتعديتِه بنفسِه على نزعِ الخافض من المفعول به، وفائدته الإشعارُ بالحثِّ على إيصالِ البرِّ إليهم حتّى يتمكّن منهم؛ ففيه إيماءٌ إلى الحرص على حسن الخلقِ مع غير المسلمين والاعتناء بهم حتى يصل إليهم، ولبيان أنَّ ذواتهم مقصودةٌ بالبرِّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾:

الإقساطُ موازنةٌ في تطبيقِ العدل بالإحسان للخَلْق

جاء التّعبير بمفردة ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾ دون أن يقال: (وتعدلوا معهم)؛

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 3/ 572.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 414، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1218.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 56.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 153.

لأنَّ الإقساط بمعنى الإنصاف في المعاملة المضمّن معنى العدل في القسمة والتّسوية في جميع المعاملات، ومن الإقساط الإنفاقُ على من وجبت نفقته منهم، ولا يكون اختلاف الدّين مانعًا من استحقاقها[1]. وممّا يدلُّ على أنَّ الإقساط أعمُّ من العدلِ، أنَّ العدلَ يكون مع المسلم وغيرِه؛ فلا ينهى عنه، وهو واجبٌ فيمَنْ قاتَلَ وفيمَن لم يقاتِل[2]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ﴾ [المائدة: 8]، فقد أخبر تعالى أنه لا يحلُّ للمسلم ترك العدل مع غيرِه مطلقًا بسبب العداوة والبغضاء. ويفيد التّعبير بالإقساط عدمَ الغلوِّ في مقاربتهم، وعدمَ الإسراف في مباعدتهم. ويدخل في الإقساط أن يجعل المؤمن لجيرانه وقراباته مِن غيرِ المسلمين حظًّا من طعامه وما كان له[3].

دلالة التّعبير بصيغة ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾:

صيغة ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾: مأخوذة من أقسط، والهمزة للسّلب. ولمّا كان (القِسط) بمعنى الجَور والظّلم أفاد دخولُ همزةِ السّلبِ على الفعل سلبَ الجور والظّلم، فيكون معنى ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾: أن تُزيلوا الجور والظّلم عنهم بحسن معاملتِهم؛ ليكون ذلك مقابلًا لانتفاء مقاتلتِهم لكم، وانتفاء إخراجهم لكم من ديارِكم؛ فكأنَّ مَنْ لم يبرَّهم ويحسنْ معاملته معهم قد جارَ عليهم وظلمهم؛ إذ لم يقابلهم بالحسنى؛ فالمُقسِط هو الَّذي يُزيل الجور ويُنصف في معاملتِه[4].

المُقسِطُ هو الَّذي يُزيلُ الجَوْرَ عن غيرِ المسلمين، ويُنصِفُ في معاملتِه معهم

نوعُ العطف ودلالتُه:

العطف بالواو في قولِه تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ دلَّ على أنَّ الإقساط إلى غير المقاتلين من المشركين بمنزلة البرِّ

الإقساطُ مع غير المسلمين تحرٍّ له وعنايةٌ بهم

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 520.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 228.
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 388.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 508.

في الإحسانِ والإكرام، وأنَّه قريبٌ منه؛ ليُفيد العطفُ الحثَّ على اجتماع المعطوف والمعطوف عليه؛ بمعنى الحثِّ على الجمعِ بين البرِّ بغير المسلمين والإقساط إليهم، وتنزيل الإقساط إليهم منزلة البرّ؛ فإنَّ من شأن المعاملة بالعدل مع غير المسلمين البرَّ بهم؛ وليس المطلوب مجرَّدَ الإقساط، بل المطلوبُ تحرّيه والعناية به؛ فهو من عطف الخاصّ على العامِّ؛ لأنّ الإقساطَ نوعٌ من البرِّ.

سرُّ تقديم البرِّ على الإقساط:

الإقســـاطُ مع الـكـافـريـن نـوعٌ من البرِّ معهم

قدَّمَ ذكرَ ﴿أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ على ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾؛ لأنَّ العطفَ من قبيل عطف الخاصِّ على العامِّ؛ فيكونُ تقديم العامِّ هو الأولى في الرّعاية والاهتمام؛ فكأنَّ مَن برَّ بهم قد أقسط إليهم وأنصف في المعاملة. وسببُ عطف الخاصِّ على العامِّ التّأكيدُ على المعطوف على سبيل النّصِّ عليه؛ بسبب أنَّ النّفس قد يَختلِجُ فيها أنَّ الاختلاف في الدّين يُفضي إلى تقديم المسلم على غيرِه في القسمةِ والعدل؛ فجاء العطفُ على سبيل التّأكيد على الإقساط إلى الكفّار، مع أنَّ الإقساط إليهم نوع من البرِّ بهم؛ فإنَّه بمعنى: أن تعطوهم مثلَ ما يعطون[1].

بلاغةُ التَّضمينِ بتعديةِ فعلِ ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾ بالحرفِ (إلى):

الإقساطُ إلى غير المسلمين يكونُ بـتـحـقـيـقـه مع الإحسانِ إليهم

عدّي الفعلُ ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾ بحرف الجرِّ (إلى) الَّذي هو لانتهاء الغاية، فقال: ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾، مع أنَّه في الأصل يتعدّى باللّام؛ إذ يُقال: أقسط له، وسببُ العدول إلى التّعدية بالحرف (إلى) تضمينُ فعل ﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾ معنى: (تُفْضوا)، فالمعنى: تفضوا بالإقساط إليهم[2]؛ أي: توصلوا ما يُقسَطُ به إليهم وإن كان الإرسال إليهم عن بُعدٍ[3] مبالغةً في البرِّ؛ ليُفيد لزومًا معنى المبادرة بالإقساط، لا أن تنتظروا مطالبتهم به. ويُحتمَلُ أن يُضمّن معنى الإحسان، ولهذا

(1) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 3234.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 516، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 206، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 268.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 508.

عدّي بـ(إلى)؛ أي: تحسنوا في الإقساط[1]، وعلى الوجهين فإنَّ في تعدية الفعل بالحرف (إلى) إشارةً إلى ما ينبغي أن يكون عليه أهل الإيمان في خُلُقِهم ومعاملتِهم مع أهل الملل والأديان الأخرى من ذمّيين وغيرِهم.

بلاغةُ التَّعليلِ في جملةِ الفاصلة:

العدلُ أساسُ الأخلاق التّواصليّة وأصلُ الثّوابتِ الحضاريّة

جاء قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ بمثابة الإلهاب والتّهييج للمخاطَبين، ولتعليلِ الأمر بالبرِّ والإقساط لغير المقاتلين من المشركين، فجاءت الجملة في موضع التّعليل وبيان السّبب لبرِّهم والإقساط إليهم[2]؛ أي: أقسطوا؛ لأنَّ اللّه يحبُّ المقسطين، وفي الكلامِ إيذانٌ بمدح العدل والإقساط عمومًا؛ لأنَّ المرءَ به يصير محبوبًا للّه سبحانه، وفيه إشعارٌ كذلك بأنَّ كُرهَ الكفر لا يمنع من العدل مع الكفّار وإنصافهم والإحسان إليهم.

بلاغةُ التّأكيد وفائدتُه:

دفعُ ظنِّ أنّ أذيّةَ الكفّار مطلوبةٌ

أفاد التّأكيد بالحرف ﴿إِنَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ تحقيقَ دلالة الإقساط مع غير المؤمنين، ذلك أنّه قد يُظَنُّ أنَّ أذى الكفار يكون في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وفي جميع الأحوال[3]، فدُفِعَ ذلك الظّنُّ المشكوك فيه؛ وبُيِّن أنّ اللّه يحبُّ المقسطين في سياق الحقّ والخير والهداية، ومؤذِنًا بأنَّه تعالى يحبُّ مَن يُزيل الظّلم مطلقًا؛ فيشمل إزالة الظّلم عن جميع أهل الملل.

نكتةُ التّعبير بمفردةِ المحبَّة:

جاء التّعبير بمفردة المحبَّة في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ دون أن يقال: (إنَّ اللّه يجزي المقسطين) أو (يثيب

(1) الكرماني، لباب التّفاسير، ص: 3234، والهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 137، وعبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 903.
(2) الصافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 222.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 508.

المناسبةُ بينَ المُفرداتِ والسّياقِ من بديع النَّظم الرّابطِ بين المعنى وألفاظِه

المقسطين)؛ للمناسبة بين اللَّفظ والسّياق؛ فلمّا كان السّياق في ذكر معاداة المؤمنين للكافرين بسبب كفرِهم ونهيِ المؤمنين عن إلقاء المودَّة إليهم ناسَبَ التّعبيرُ بمفردةٍ تناسب السّياقَ في ذكر المعاداة والمودِّة؛ فقال: ﴿يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾، كما أنَّ في التّعبير بلفظ المحبَّة ترطيبًا لشأنِ عداوة المؤمنين للكافرين وعدم المغالاة فيها؛ لأنَّ الإقساط إليهم فيه تهوينٌ من شأنِها، كما أنَّه لمّا أمَرَهم بمعاداة الكافرين أبدَلَهم بحبِّه تعالى للمُقسطين؛ أي: إذ لم تحبّوا الكافرين وعاديتُموهم فقد أبدلكم اللّه به حبَّه لكم عند الإقساط إليهم.

نكتةُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾:

(أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ للاستغراق؛ فيشمل اللَّفظُ كلَّ مقسِطٍ، ويدخل في عموم اللَّفظ الَّذينَ يُقْسِطونَ لِلَّذينَ خالفوهم في الدّين؛ إذ كانوا مع المُخالَفةِ مُحسِنينَ مُعاملتَهم[1].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾:

المخالفةُ في الدّينِ ليست علّةً للإساءةِ أو الإجحافِ بحقوق عمومِ الخَلْق

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ عُبِّر بمفردة ﴿ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ دون أن يقال: (يحبُّ العادلين)؛ لمناسبة مفردة ﴿ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ للسّياق، فهذا هو مَقامها. وبيانُهُ: أنّه لمّا كان السّياقُ في بيان حسن المعاملة ومقابلة الحسنة بمثلِها عبّر بالمقسطين الدّالِّ على إنصاف المؤمنين لغيرهم بالحَسَنِ على الحَسَنِ على سبيل العدل[2]، كما أنَّ العداوة لّما كانت مُضمَرةً في النّفس ظاهرةً في الفعل عبّر بالمقسطين؛ لأنَّ "القِسطَ هو العدل البيِّن الظّاهر، ومنه سمّيَ المكيالُ قِسطًا، والميزانُ قِسطًا؛ لأنَّه يصوِّرُ لك العدلَ في الوزن حتّى تراه ظاهرًا"[3]. فيكون المرادُ الحثَّ على أنْ يكون العدلُ ظاهرًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 153.
(2) النّحاس، إعراب القرآن: 4/ 273.
(3) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234.

بيِّنًا، بحيثُ لا تكون العداوة في الدّين مؤثِّرَةً في حسن المعاملة معهم. كما أنّ العدل يُستعمل في مجاري الحكم والأمر والنّهي، والإقساط في مجاري القسمة والإنصاف في المعاملة، بأن يُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّه، ولهذا تعلّق الحكم بالعدل، وتعلَّقت القسمة بالإقساط؛ إذ قيل: إذا حكَموا عدَلوا، وإذا قسَموا أقْسَطوا[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النساء: 58]. وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٤٢﴾ [المائدة: 42] فقد عبّر عن الحكم بالقسط؛ لأنَّ المراد: فاحكم بينهم بأن تعطيَ كلَّ واحدٍ منهم نصيبَه، بحيث يكون ظاهرًا بيّنًا لا يستطيعون المنازعةَ فيه. فالقسط هو النّصيب الَّذي بُيِّنت وجوهُه[2]، فإنَّه قد يكون من العدل ما يخفى وجهُ العدالة فيه على المحكوم عليهم.

نكتةُ حذف متعلَّقِ لفظِ ﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾:

الإقساطُ المحمودُ هو اتّصافُ المؤمنِ به في كلِّ أفعالِه

حُذِف متعلَّقُ اسم الفاعل المجموع في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾؛ لتقرير عموم اللَّفظ، فلم يقل: (يحبُّ المقسطين في المال، أو في الكلام، أو في شأن من شؤون الحياة)؛ ليُفيد الإقساطَ في كلِّ أمرٍ يكون للمؤمن قدرةٌ على الإقساط إليهم به، أو على تنزيل الإقساط منزلةَ اللّازم غير المتعدي؛ أي: إنَّ الله يحبُّ الَّذين يتَّصفون بالإقساط ولو لم يفعلوه.

بلاغةُ التَّذييل ودلالتُه على الإيماء:

الإقساطُ أولويَّةُ المسلم في الإحسانِ إلى أخيه المسلم

جاءت الجملة الاسميَّة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ تذييليَّةً بعموم معناها وكلّيَّته؛ فتكون الجملة بمثابة المَثَل في حكايتِها والتّمثّل بها؛ للإشعار باستمرار حكمِها؛ لتفيد الحثَّ على الإقساط وحسن المعاملة مع أهل الملل والأديان المسالمين؛ فإذا كان هذا حالَ المسلمين

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قسط).

(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 234.

مع غيرِهم، فإنَّه من باب أولى أن يُقسط المسلم إلى أخيه المسلم، بأن يُفضيَ إليه بالإحسان وحسن المعاملة. قال الزّمخشري: "وناهيك بتوصية اللّه المؤمنين أن يستعملوا الإقساط مع المشركين به ويتحامَوا ظلمهم مُترجِمةً عن حال مسلم يجترئُ على ظلم أخيه المسلم"[1]. فإذا نهى اللّه تعالى عن الظُّلمِ في حقِّ المشركِ، فكيف في حقِّ المسلمِ؟!![2].

نوعُ القصرِ وبلاغتُه في قوله: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ:

الإحسانُ إلى غير المؤمنين ضوابطُهُ شرعيَّةٌ، فليس الأمرُ مطلقًا

حثَّت الآيات على برِّ الَّذين لم يقاتلوا المؤمنين في الدّين ولم يخرجوهم من ديارِهم حثًّا غير ملزم، وقد يوهِمُ ذلك جواز صلة المشركين مطلقًا؛ فجاء القصر في جملة ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ بأسلوب القصر، بغرض قلبِ الظّنّ؛ لردِّ اعتقادِ مَنْ ظنَّ أو شكَّ في جوازِ صلة المشركين على الإطلاق، ومَن تحقّقت فيهم هذه الصّفات يوم نزول الآية هم مشركو مكّة[3]، كما أفاد قصر القلب أنَّه لم يُرِد بما أمرهم به من معاداة الكفّار قصدًا لقطع الأرحام وعدم مبرَّتِهم، لكنْ تشديدًا عليهم؛ ليكون ذلك سببًا لإجابتهم إلى الإسلام[4].

نكتةُ القصرِ بصيغةِ ﴿إِنَّمَا﴾:

الاتّصافُ بوصفِ الإيمان يَقتضي سرعةَ الامتثال وتلقِّيَ الحكم الإلهيِّ بالقبول

جاء القصرُ بصيغة ﴿إِنَّمَا﴾ دون غيرها من أساليب القصر؛ وذلك لأنَّ القصر بالأداة ﴿إِنَّمَا﴾ يُسلَكُ في مقام مؤذنٍ بأنّ السّامع يجب عليه أن يتلقّاه بالقبول، وأنَّه من الوضوح والبيان بحيث لا يحتاج إلى استدلال وتحقيق، فلا يمكن ردُّه ولا الإصرارُ على مخالفتِه[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 516.
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 469.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 153.
(4) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 389.
(5) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 295.

ولمّا كان الخطاب في قولِه: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ للمؤمنين أفادَ أنَّ النّهي عن تولّي الَّذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من ديارهم ممّا لا يُحتاج إلى مراجعةٍ، وأنَّه ليس على المؤمنين إلّا تلقّيه بالقبول؛ لأنَّه خاطبَهم بوصف الإيمان - الدّالِّ على الإيمانِ بحكم اللّه وكمالِ الامتثال - مِن بداية السّورة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾؛ فالنّهي عن تولي الكافرين الَّذين قاتلوا المؤمنين أمرٌ ظاهر واضحٌ، بسبب اتّصافِهم بالصّفات المذكورة. كما يومِئُ استعمال القصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ إلى مدح المؤمنين المخاطبين؛ لأنَّه تعالى جعلهم في مقام الَّذي يتلقّى كلامَه بالقبول.

دلالةُ جُملةِ القصرِ على الاستئناف:

من براعة الإيجازِ القرآنيِّ مجيءُ جملة الفذلكةِ في بيان خُلاصةِ المعنى

جاءت جملة ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ مستأنفةً؛ لأنَّها فذلكةٌ لِما تقدَّم من الآيات، بإيجاز الكلام وتلخيصِه بعد تفصيلٍ تقدَّمَ. وذلك بحصرِ حكم الآيةِ المتقدِّمَة؛ فكأنَّه تعالى أجمَلَ ما فصَّلَ في الآياتِ السّابقةِ ولخّصَه في هذه الجملة، فتكون الجملةُ بيانًا واضحًا لحكم التّعامل مع المقاتلين من غير المسلمين. ولمّا كانت هذه الجملة فذلكةً لِما تقدَّم كانت مُؤذِنةً بانتهاء الغرض المسوق له الكلامُ من أوّله[1].

دلالةُ إسنادِ فعلِ النّهي إلى اسمِ الجلالة:

نهيُ اللّه مُلزِمٌ إلزامًا مُصاحِبًا للتّعظيم والتّفخيم

لمّا أُسنِدَ فعلُ النّهي إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾، وجاء بطريق الحصرِ أعطى تفخيمًا للتّشريعِ وتفخيمًا للمقام، فأفاد أنَّ هذا الحكم ملزِمٌ؛ لأنَّه من اللّه تعالى، وأنَّ هذا النّهيَ يجب العمل به بمقتضى ألوهيَّتِه سبحانه، ففيه إشارة إلى أنَّ مقتضى كونكم عبادًا للّه تعالى أنْ تنتهوا عن تولّيهم، وهو المناسب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 153.

للخطاب بوصفِ الإيمان من مطلع السّورة، وشأن المؤمنين الإيمانُ باللّه تعالى، والعملُ بما يأمر، والاجتنابُ لما ينهى عنه.

دلالةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول:

جاء التّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾؛ للإشعار بعلّيَّة الحكم، فسببُ النّهي عن تولّي المشركين هو أنَّهم قاتلوا المؤمنين في الدّين وأخرجوهم من ديارهم؛ ليُفيد أنَّ الحكم المذكور متعلِّقٌ بسببِه؛ فكلَّما وُجِد السّببُ وُجد الحكم؛ بمعنى: كلَّما قاتلوكم وأخرجوكم من ديارِكم فإنَّه تعالى ينهاكم عن تولِّيهم.

قتالُ المؤمنين وإخراجُهم من ديارِهم علَّةُ النّهي عن الإحسانِ للكافرين

دلالةُ حرفِ الظّرفيَّة:

أفاد حرفُ الظّرفيّة في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ السّببيَّة، والتّقدير: إنّما ينهاكم اللّه عن الَّذين قاتلوكم بسبب الدّين؛ ليفيد الكلامُ النّهي عن موالاة المقاتلين لنا في الدّين.

سببُ عِداءِ الكفّار للمؤمنين هو إيمانُهم بالله سبحانه

دلالةُ العطفِ على جُملةِ صلةِ الموصول:

عُطِفت الجملتان ﴿وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ على جملةِ ﴿قَٰتَلُوكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾، والمعنى: إنَّ الَّذين يقاتلون المؤمنين يحرصون على إخراجهم من ديارهم، بل على المظاهرة عليها، وحرصُهم هذا من لَوازِمِ مُقاتَلتِهم، فهم صنفٌ واحد يتّصف بفعلي القتال والإخراج اتِّصافًا واحدًا، ولو قيل: الَّذين قاتلوكم في الدّين والَّذين أخرجوكم من ديارِكم؛ لأفاد أنَّ من يقاتلُكم غيرُ الَّذي يُخرجُكم من ديارِكم.

مَن قاتَلَ المؤمنين حرَصَ على إخراجِهم من ديارهم لُزومًا لا فِكاكَ له

دلالةُ إضافةِ الدّيار إلى الضّمير:

أضيف لفظُ الدّيار إلى ضمير المؤمنين المخاطبين في قوله: ﴿مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾، والإضافة بمعنى اللّام، فالدّيار مِلك للمؤمنين ومختصَّة بهم؛ أي: أخرجوكم من دياركم الَّتي تملكونها، أو الَّتي هي مختصَّة

سَفْكُ الدّماء ومُصادَرةُ الأموال أبرزُ مزايا مُقاتَلةِ المشركين

بكم ومنسوبة إليكم، بعد أن قاتلوكم، فهم حريصون على سفك الدّماء، وزهق الأرواح، ومصادرة الأموال، ونشر الإفساد في الأرض.

بلاغةُ الموقع الإعرابيّ لقوله: ﴿أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾:

تـولّي الّـذين كفروا رُكونٌ إلى الظّالمين ورضًا بذِلَّةِ الدّين

المصدر المؤوّل ﴿أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾ بدلُ اشتمالٍ من الاسم الموصول وصلتِه ﴿ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾[1]. والمعنى: إنّما ينهاكم عن أن تتولَّوا الَّذين قاتلوكم في الدّين؛ وجاء بدلُ الاشتمال بصيغة الحدث ﴿أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾ من اسم الذّات ﴿ٱلَّذِينَ﴾ للمبالغة في النّهي؛ فإنَّ تعلُّق النّهي بالذّات أبلغُ من تعلَّقه بالفعل[2] الَّذي هو الأصل؛ لأنَّه يفيد: عن تولّيهم في جميع شؤونِهم وأحوالِهم، كما أنَّ مجيءَ الكلام بطريق بدل الاشتمال كان كأنَّه قرَّر النّهيَ عن تولّيهم مرّتين، مرَّةً عن طريق ذكرِ المُبدَلِ منه لاشتمالِه على النّهي، وأُخرى عن طريق بدل الاشتمال بذكر النّهي عن تولّيهم صريحًا.

دلالةُ حذفِ إحدى التّاءَين:

قـليـلُ الـتّـولّي ككثيرِه يَستجلِبُ غضبَ الله

حُذِفَتْ إحدى التّاءين - على اختلافٍ بينَ أهل الصَّنعة في تعيينِ المحذوفة - مِن الفعل ﴿تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾ تخفيفًا؛ لأنَّ أصل الكلمة (تتولَّوهم)، وحذفُ التّاء يُشعرُ بأنَّه تعالى نهى عن تولّيهم وإن كان قليلًا، فقليل التّولّي وكثيرُه منهيٌّ عنه.

دلالةُ الكنايةِ في النّهي عن تَوَلّي الكافرين:

النّهيُ عن موالاة الكافرين نهيٌ عن إضعاف الدّين وإظهار سرِّ المسلمين

النّهي عن تولّي الكافرين الَّذين يُقاتلوننا في الدّين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾ كنايةٌ عن النَّهي عن موالاتِهم ونصرتِهم في الظّاهر والباطن؛ لأنّ ولايتَهم تعني الضّعف

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 414، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1218.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 56.

في الدّين، ومن ولايتِهم مكاتبتُهم بإظهارِ سرِّ المسلمين[1]؛ ومفهوم التّولّي يُفيد أنَّ الصِّلَةَ بالمال والمُراسَلة وعموم الإحْسانِ من المبرَّة، وليست موالاةً لهم[2]؛ لأنَّ الصّلة بالمال وغيرِه من مكارم الأخلاق وحسن الشّيم.

دلالةُ استعمالِ مُفردةِ التّولّي دون البرّ:

البـرُّ مع غير المقاتلين من الكافرين؛ لاستمالةِ قلوبِهم بخلافِ المُقاتِلين، فأمْرُهم أشدّ

جاء النّهي عن تولّي الكافرين في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾، دون النّهي عن برّهم كما جاء في الآية السّابقة؛ ليُفيد أنَّه يجوز أن يَبَرَّ من نُهي عن أن يتولّاه، وأنَّ الولايَةَ غيرُ البرِّ والإقساط، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان: 15]، ثمَّ نهى عن تولّي الكفار بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾، فكما جازَ أن يجتمعَ في نَفْسٍ واحدةٍ البِرُّ وتركُ التَّولّي كذلك جاز أن يؤمر بالبِرِّ بمَنْ يُنهى عن تولّيه[3]، مع ملاحظة أنّ برَّ الّذين يقاتلوننا في الدّين له ضوابطُ وشروطٌ تختلف عن برِّ الَّذين لا يُقاتلوننا، وإنّما ذلك يرجع إلى السّياسة الشّرعية وما تقتضيه المصلحة الرّاجحة باعتباراتٍ متباينة، بخلاف تولّي الكافرين فممتنع على العموم، ونكتة ذكر البرّ مع الَّذين لم يقاتلونا دون الَّذين قاتلونا هو استمالةُ قلوبِهم بالبرِّ والإحسان إليهم، أمّا المقاتلون فأمرُهم أشدُّ من ذلك.

نكتةُ عطف المُظاهَرةِ على الإخراج على الإخراج:

أفاد عطف قوله تعالى: ﴿وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾ على

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 285.

(2) الشافعي، أحكام القرآن، جمع البيهقي، ص: 377.

(3) الشافعي، أحكام القرآن، جمع البيهقي، ص: 377، والماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 615.

﴿وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ أنَّ المظاهرة على إخراج المؤمنين من ديارِهم غير الإخراج من ديارِهم؛ لأنَّ العطفَ يقتضي التّغاير بين المعطوفين، فقد كان أهل مكَّة فريقين، مِنْهُمْ مَنْ يَأْتي بِالأسْبابِ الَّتي لا يَحْتَمِلُ المُسْلِمونَ مَعَها البَقاءَ بِمَكَّةَ، ومِنْهُمْ مَنْ يُعِينُ عَلى ذَلِكَ ويُغْري عليه[1]. فالمعين على إخراجِ المسلمين من بلادِهم - ولو بكلمةٍ - كالَّذي يقوم بإخراجِهم ويُصدِرُ القراراتِ فيهم، كما أفاد العطف أنَّ المظاهرة على إخراج المؤمنين من ديارِهم تَدخُلُ في حكم من يقاتل المؤمنين في النّهي عن تولّيه؛ فشَمِلَ العطف فريقين من المشركين: الَّذين يُخرجون المؤمنين وهم الأُصَلاءُ، والَّذين يُظاهرون على إخراجهم وهم المُعينون بالكلامِ والرّأيِ والتّأييدِ ونحوه.

المُعينُ على إخراجِ المسلمين مِن بلادِهم - ولو برأيٍ أو تأييدٍ - كمَنْ يُخرِجُهم

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿وَظَٰهَرُواْ﴾:

جاء التّعبير بمفردة ﴿وَظَٰهَرُواْ﴾ دون (أعانوا)؛ لِما تُفيده المظاهرة من معنى التّقوّي والمساندة، بحيث يُعينون من يُريد إخراجَ المؤمنين من ديارِهم، ويُقَوّونهم حتى يكونوا هم الغالبين، فيدخلُ في المظاهرة الإعانةُ بالمال والعدَّة والعتاد، والإعانةُ باليد وبالقول والإعلام.

مُظاهَرةُ العدوّ على المسلمين تَقَوٍّ عليهم وظهورٌ بالباطل

دلالةُ ترتيبِ المعطوفات:

جاءت جملُ صلةِ الموصول متعاطفة في قولِه تعالى: ﴿قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ﴾، فبدأ بالمقاتلة ثم الإخراج ثم المظاهرة على الإخراج، وذلك من باب ترتيبها بالأشدِّ على المسلمين، فمقاتلة المؤمنين أشدُّ الصّفات، ثم الإخراج، ثم المظاهرة على الإخراج، وهذا التّرتيب على طريق التّدلّي من الأعلى إلى الأدنى في القبحِ والذّمِّ، وفي التّأثير في حالِ المسلمين.

أشدُّ النّاس قُبحًا وذمًّا المُقاتِلون، فالمُخرِجون، فالمُظاهِرون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 154.

دلالةُ أسلوبِ الشَّرط:

أفادَ أسلوبُ الشّرط ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ﴾ معنى تعليق وقوع الجزاء على وقوع الشّرط؛ أي: إذا تحقّقت الولاية للكافرين فقد اتّصفوا بأنّهم في صفِّ الظّالمين، ونكتتُه تحقيق الظُّلم وتأكيدُه.

مُتولّي الكفّار المُقاتِلين ظالمٌ بَيِّنُ الظُّلم

نكتةُ حذفِ متعلّقِ الفعلِ ﴿يَتَوَلَّهُمۡ﴾:

جاء الفعل ﴿يَتَوَلَّهُمۡ﴾ غيرَ مقيّد بالجارِّ والمجرور (منكم)؛ ليعمَّ المخاطَبين من المهاجرين وغيرِهم[1]، وليكون مضمونُ الجملة عامًّا كلّيًّا، وهو المناسب لوصف الجملة بالتّذييل.

النّهيُ عن تَوَلّي الكفّار المُقاتِلين عامٌّ لكلِّ المسلمين

دلالةُ جملةِ الشّرط على التّذييل:

جاءت جملةُ الشَّرطِ وجزائِهِ ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تذييليَّةً؛ لِما فيها من معنى العموم والكلّيَّة، بسبب عموم اسم الشّرط وعموم الجزاء، وذلك لتُفيدَ استمرارَ حكمِها بقرينة دلالة صيغة المضارع ﴿يَتَوَلَّهُمۡ﴾، ودوامَ التَّمثُّلِ بها في الوقائع الَّتي تجري في معناها، فتكون الجملةُ ناطقةً بحكم تولّي الكافرين إلى يوم الدّين، بأنَّه لا يَصنَعُ ذلك إلّا الظّالمون.

أحكامُ الشّرع الكلّيّةُ شاملةٌ للعموم الزّمانيّ والمكانيّ

غرضُ استعمالِ اسمِ الإشارة للبعيد:

جاء التّعبيرُ باسم الإشارة (أولَئِكَ)؛ لتمييز المُشار إليهم أكملَ تمييز؛ زيادةً في إيضاح الحكم[2]. وجيء به بصيغة البعيد للإشارة إلى أنَّ مَن يتولّى الَّذين قاتلوا المؤمنين بعيدٌ عن العدل والقسط، والبعيدون عن العدلِ هم الظّالمون.

البعيدون عن العَدلِ هم الظّالمون

علَّةُ مجيءِ الجزاءِ بصيغة الجَمْع:

جاء جوابُ الشّرط ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ دالًّا على الجمع في اسم الإشارة والضّمير واسم الفاعل الجمعي؛ لأنّ اسمَ الشّرط

تنبيهُ المؤمنين على عدم الاغترار بكثرة مَن يَجتمِعُ على الباطل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 509.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 154.

(مَنْ) دالٌّ على معنى المجموع، فالمبتدأ في معنى الجمع[1]. فالتّعبيرُ بصيغة الجمع مراعاةٌ لِمعنى (مَنْ) بعد مراعاة لفظِها الإفراديِّ في قولِه: ﴿يَتَوَلَّهُمْ﴾.

نكتةُ مجيءِ جزاءِ الشّرطِ بوصفٍ دُنيويٍّ لا أُخرويّ:

الظّلمُ وصفٌ تَنفِرُ منه النُّفوسُ المُعتدِلة

جاء التّعبيرُ في الجزاء بقوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ولم يُذكَر الجزاءُ الّذي يكون يوم القيامة؛ وذلك للمبالغةِ في ذمِّهم، فإنَّ وصف الظّلم ممّا تنفِرُ منه النّفوسُ المعتدلة، ففيه تنفيرٌ مِن موالاتِهم، كما دلَّ وصفُهم بالظّلم على استحقاقِهم الويلَ والعذاب الأليم، بسبب خروجهم عن مقتضى النَّهي الإلهي، فجُمِعَ في الجزاءِ ذمُّهم في الدّنيا واستحقاقَهم الوعيدَ يوم القيامة.

نكتةُ اختيارِ لفظةِ الظّلم:

تعكيسُ المَوازينِ طَبْعُ الظّالمين

نكتةُ اختيار لفظةِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هو أنّهم تولَّوا غير الّذي يَستحِقُّ الولاية، ووضعوا ولايتهم في غير موضعها[2]؛ فقد تولَّوا من يستحقُّ العداوةَ[3]؛ فوضعوا الولاية موضعَ العداوة، فعكسوا الموازين، وظلموا أنفسَهم بتعريضِها للعذابِ[4].

نوعُ القصرِ وبلاغتُه:

موالاةُ أعداءِ الله والمسلمين ظلمٌ بالِغٌ درجتَهُ العُظْمى

القصرُ في جملة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ جاءَ بطريق القصرِ بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾، وتقرّر القصرُ بمجيء المسند والمسند إليه معرفتين، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لأنَّ الظّلم لا يَقتصِرُ على من يتولّى المذكورين، وسبب مجيء القصر الادّعائيِّ هو أنَّه لمّا كان حسابُ مَنْ يتولّى المذكورين أكبرَ وفسادُهم أكثرَ ناسَبَ قصرَ الظّلم عليهم وحصرَهُ بهم، بجعلِهم هم الظّالمين خاصَّةً لا أحدًا غيرَهم، كما أفاد

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 481.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 324، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 206.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 254.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل اسليم: 8/ 239.

القصرُ الادّعائيُّ أنَّ ظلمَهم لشدَّتِه ووقوعِه بعد النّهي الشّديد والتّنبيه على الأخطاء والعصيان في تولّيهم هو ظلمٌ لا يُغفر؛ لأنَّه اعتداء على حقوقِ اللّه وحُقوقِ المُسْلِمينَ وعَلى حَقِّ الظّالِمِ نَفْسِه[1]. فجاء القصرُ للتَّغليظ على مَن يتولّاهم، وللمُبالغةِ في التّحذير مِن موالاة أعداء اللّه تعالى والمؤمنين، وللإيذانِ بشدَّة الوعيدِ يوم القيامة[2].

دلالةُ اسميَّةِ الجُملة:

الظُّلمُ مُتَأَصِّلٌ في نَفْسِ المُتَولّي للكفّار القاتِلين

أفادَ التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ثبوتَ مضمونِها، ففي الكلامِ تأكيدٌ بعد تأكيد؛ تنبيهًا على فظاعةِ من يتوّلى المذكورين، ويغفلُ عن نُصرة المؤمنين.

دلالةُ اسمِ الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

ظُلمُ المُتولّي للكفّار ثابتٌ مُتجدِّد

جاءَ التّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّهم الكاملون في الظّلم، العريقون في إيقاع الأشياء في غير مواضعِها، كمن يَمشي في مأخذِ الاشتقاق بسببِ هذا التّولي[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

القتالُ والجِهاد:

الجهادُ بَذْلُ الجُهدِ والوُسعِ في سبيل الله بالنّفس والمالِ، وهو أعمُّ مِن القتالِ

القتالُ يُقصَدُ به فعلُ القتل، وهو إزهاقُ الرّوح، وكلُّ ما يكون بالمحاربة بقصدِ تحرّي القتل يسمّى قِتالًا[4]، وقد يكون لدُنيا، وقد يكون في سبيل للّه تعالى. أمّا الجهادُ فهو استفراغُ الوُسع في مُدافَعة العدوِّ[5]، ففيه بذلُ الجهد والطّاقة، وأصلُ الكلمة يدلُّ على المشقَّة[6]. فقد يكون الجهادُ في مدافعة العدوِّ الباطن - وهو النّفس والشّيطان -

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 154.
(2) اسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 481.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 509.
(4) الراغب، المفردات: (قتل).
(5) الراغب، المفردات: (جهد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جهد).

وقد يكون في مدافعة العدوِّ الظّاهر، وهو جهاد الكفّار والظّالمين وأهل الظّلم، فالجهادُ بذل الجهد والوُسعِ في سبيل اللّه بالنّفس والمالِ وكلِّ ما يستطيع الإنسان أن يبذُلَه في سبيل اللّه، وهو أعمُّ من القتال؛ لأنَّه يَشمَلُ الجهاد بالمالِ وباللّسان وبالنّفس، وبالصّبر على الفِتَنِ والأذى، كما يَشمَلُ مجاهدةَ النّفس والشّيطان، ومنه الجهاد بالكيدِ والتّدبير والفكر لمقاومة المنافقين والكافرين، وبالعِلم بكلِّ مجالاته[1].

النَّهيُ والتَّحريم:

النَّـهـيُ زجـرٌ عـن فـعـلِ أمـرٍ، والتَّحـريـمُ منعٌ لبُلوغِ أمر

النّهيُ يدلُّ على الزّجر عن الشّيء بأنْ يبلغَ به نهايتَهُ، والانتهاءُ: الانزِجار عمّا نهي عنه[2]. وأصل النّهي من التّحبُّس والتّوقُّف عند حدٍّ في الأصل[3].

فالنَّهيُ طلبُ كفٍّ عن بدء أمرٍ أو عن استمراره، أمّا التّحريم فهو منعٌ، والحرام هو الممنوع منه. فالنّهي يدلُّ على بلوغ النّهاية في الزّجر، بقصد التّوقّف عند حدٍّ معيّن لا يمكن تجاوزُه، والتّحريم يدلُّ على أنَّ المحرَّم ممنوعٌ ولا يحلُّ الاقترابُ منه. فالنّهي أبلغُ من التّحريم في الدّلالة على الزّجر وتجنُّبِ المنهيِّ عنه.

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جهد).
(2) الراغب، المفردات: (نهى).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نهى).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾ [الممتحنة: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن بيانِ الإحسانِ العامِّ إلى بناءِ العلاقاتِ الاجتماعيَّة

لمّا كان النّهي عن موالاة المشركين يتطرَّق إلى ما بين المسلمين والمشركين من المصاهرة والمناكحة الَّتي كانت سببًا في التّوّلي بيَّن الأحكام المتعلِّقة بالأمرِ؛ فقد يكون المسلم زوجًا لمشركةٍ، وتكون المسلمة زوجًا لمشرك بيّن اللّه تعالى حكمَ الشّريعة في مثل هذه الحوادث، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾[1].

وأيضًا في نَظْمِ هَذِهِ الآياتِ وجْهٌ حَسَنٌ مَعْقولٌ، وهوَ أنَّ المُعانِدَ لا يَخْلو مِنْ أحَدِ أحْوالٍ ثَلاثَةٍ: إمّا أنْ يَسْتَمِرَّ عِنادُهُ، أوْ يُرْجى مِنْهُ أنْ يَتْرُكَ العِنادَ، أوْ يَتْرُكَ العِنادَ ويَسْتَسْلِمَ، وقَدْ بَيَّنَ اللّه تَعالى في هَذِهِ الآياتِ أحْوالَهُمْ، وأمَرَ المُسْلِمينَ أنْ يُعامِلوهُمْ في كُلِّ حالَةٍ عَلى ما يَقْتَضيهِ الحالُ. أمّا قوله تَعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾ فَهوَ إشارَةٌ إلى الحالَةِ الأولى، ثُمَّ قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ﴾ إشارَةٌ إلى الحالة الثّانية، ثُمَّ قولُهُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 154.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ إشارَةٌ إلى الحالَةِ الثّالِثَة. ثُمَّ فيهِ لَطيفَةٌ وتَنْبيهٌ وحَثٌّ عَلى مَكارِمِ الأَخْلاقِ، لِأَنَّهُ تَعالى ما أمَرَ المُؤْمنينَ في مُقابَلَةِ تِلْكَ الأَحْوالِ الثَّلاثِ بِالجَزاءِ إلّا بِالَّتي هيَ أحْسَنُ، وبِالكَلامِ إلّا بِالَّذي هوَ ألْيَقُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾: أصل الامتحان من: امتحنتُ الذّهب والفضة: إذا أذبتَهما لتختبرَهما أهما خالصان أم لا. ومَحَنتُ الفضَّةَ إذا صَفَّيْتَها وخَلَّصتَها بِالنّارِ. والمَحْنُ: الاختبار[2]. وامتَحَنَ القولَ: نَظَرَ فيهِ ودَبَّره[3]. ففي الامتحان معنى النّظر والتّفتيش. والمُمْتَحَن: المُصفّى المُهذَّب المخلَّصُ. ومعنى ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾: اختبِروهنَّ وجَرِّبوهنَّ[4]. والمُرادُ اخْتِبارُ إيمانِهنَّ حتّى يظهرَ صدقُ إيمانِهنَّ[5].

2) ﴿جُنَاحَ﴾: الجُناحُ هو الميل، ومنه قولهم: أجنحتُ الشّيءَ - أي: أَمَلْتُه - فجَنَحَ، أي: مال[6]. يُقال: جَنَحَ يَجْنَحُ جُناحًا. وأصله من جَناحِ الطّائر؛ لأَنَّه يَميل به إلى جانبٍ، ومنه قولهم: جَنحَت السَّفينةُ؛ أي: مالت إلى أحد جانبيها، وسمّيَ الإثمُ المائل بالإنسانِ عن الحقِّ جُناحًا، ثمَّ سمّي كلّ إثم جُناحًا[7]، واستعمل الجُناح في الإثم والحرج والتّعدّي؛ لِمَيلِه عن طَريقِ الحَقِّ. و ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بمعنى: لا إثمَ عليكم ولا حرجَ[8]. وكلُّ نفي للجُناح فمعناه نفيُ الإثم والذّنبِ والحرج[9].

3) ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾: (عصم) يدلُّ في أصلِه على إمساكٍ ومنعٍ وملازمةٍ. والاعتصامُ: الاستمساك. وكلُّ ما أمْسَك شَيْئًا فَقَدْ عَصَمَه. والعُصْمُ: الحِنّاءُ، وهو ما لزمَ يدَ المُخْتضِبَة. وأثره في اليد عصمٌ لأنّه باقٍ ملازمٍ. والعصْمَةُ في الخَيْلِ بَياضٌ قَلَّ أوْ كَثُرَ، بِاليَدَيْنِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 521.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (محن).
(3) ابن منظور، لسان العرب،: (محن).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (محن).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 156.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (جنح).
(7) الراغب، المفردات: (جنح).
(8) الواحدي، التفسير البسيط: 1/ 333.
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جنح).

دونَ الرِّجْلَيْنِ فَيَقولونَ: هوَ أعْصَمُ اليَدَيْنِ[1]. والعصمةُ شبهُ السّوار في اليدِ. ومِعْصَمُ المَرْأةِ، مَوْضِعُ السِّوارَيْنِ مِنْ اليدِ[2]. وإنَّما سُمّيَ مِعْصَمًا لإمْساكِهِ السِّوارَ، ثُمَّ يسمّى مِعْصَمًا وإن لم يكن في اليدِ سوارٌ[3]. وعصمُ النّكاح: عُقْدته ولُحْمَته الَّتي تربط بين الزّوجين[4]. ومعنى ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾: عُقَدَ النّكاحِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مجرَّدُ إظهارِ الإسلامِ لا يكونُ دليلًا على الإيمانِ في الباطنِ

نزلت الآيةُ بعد صلح الحديبية، وكان الصُّلح قد وقعَ على أن يُرَدَّ إلى أهل مكَّة مَنْ جاء مؤمنًا منهم، فجاءت هذه الآية مبيّنةً بعض الأحكام الَّتي تتعلَّق بالنّساء المؤمنات اللّاتي تركنَ أزواجهنَّ الكفّار وهاجرْنَ، فأمر اللّه المؤمنين أن يمتحنوا هؤلاء المؤمنات إذا جئْنَ مهاجراتٍ؛ فاللّه أعلم بحقيقة إيمانهنَّ منكم وهو يتولى السّرائر. فإنْ علمتُم بعدَ امتحانهنَّ أنَّهنَّ مؤمناتٌ بما أقررنَ به عقدَ الإيمان لهنّ، والدّخولَ في الإسلام فلا تردّوهنّ عند ذلك إلى الكفّار. وإنّما قيل ذلك للمؤمنين؛ لأنَّ العهد كان جرى بين رسول اللّه ﷺ وبين مشركي قريش في صلح الحديبية أنْ يَرُدَّ المسلمون إلى المشركين مَنْ جاءهم مسلمًا، فكان الشّرط للرّجال دون النّساء. فأمر اللّه المؤمنين أن لا يردّوهنّ إلى المشركين إذا علموا أنهنّ مؤمناتٌ وثبت ذلك عندهم. فليست المُؤمناتُ بمُباحاتٍ للكافِرينَ بالنِّكاحِ، ولا الكُفّارُ يَحِلّونَ للمُؤمِناتِ بالنِّكاحِ، وأعطوا أزواجَ مَن هاجَرْنَ إليكم ما دَفَعوا إليهنَّ مِن مُهورٍ، ولا إثمَ عليكم - أيُّها المؤمِنونَ - أن تتزَوَّجوا المؤمِناتِ المهاجراتِ إليكم إذا أعطيتموهنَّ مهورَهنَّ. ومَن كانت له منكم - أيُّها المؤمِنونَ - زوجةٌ مُشرِكةٌ فلْيُطلِّقْها ولا يُمسِكْها

(1) الأزهري، تهذيب اللغة وابن فارس، مقاييس اللغة: (عصم).

(2) الراغب، المفردات: (عصم).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عصم).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (عصم).

عندَه، وطالبوا - أيُّها المؤمِنونَ - ما دفَعْتُم مِن المهورِ إلى أزواجِكم اللّاتي فارَقْتُموهنَّ لكُفْرِهنَّ، وليطالب المُشرِكونَ ما دَفَعوا مِن المُهورِ إلى أزواجِهم المؤمِناتِ اللّاتي هاجَرْنَ إليكم، وذلكم هو حُكمُ اللهِ الَّذي يَحكمُ بيْنَكم وبيْنَ الكُفّارِ، واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عبادَهُ حكيمٌ في ذلك[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الجملة الاستئنافيّة:

ردُّ المؤمنات المهاجراتِ إلى الكفّار موالاةٌ خَفيَّةٌ لهم

جاءت جملةُ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ﴾ استئنافيّةً؛ لبيان مبرَّة هؤلاء المؤمنات بالامتحانِ وما يترتّب عليه من عدم ردِّهنَّ إلى الكفّار[2]، فهي استئنافٌ لتشريع كيفيّة التّعامل مع مَنْ أتى المدينةَ مؤمنًا من النّساء، وأُعطيت الجملةُ سِمةَ الاستقلال والانفراد بالحكم؛ لِما فيها من خصوصيّة التّعامل مع المهاجرات المؤمنات، والجملة متّصلةٌ مع أحكام ما قبلها من الآيات، في عدم ردِّ المؤمنات إلى الكفّار؛ لِما في ذلك الرّدِّ من موالاةٍ سلوكيّة.

دلالةُ أسلوبِ النّداء:

التَّنبيهُ على أمرٍ جَلَل

جاء قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بأسلوب النّداء؛ للتّنبيه إلى أمرٍ مهمٍّ ينبغي أن يعلمه المؤمنون وأن يقوموا به، ولَفْتِ الانتباه إلى أهمّيَّةِ الحكم التّشريعيّ المذكورِ بعد النّداء.

دلالةُ الاسم الموصول:

وصفُ الإيمان أصلُ النّداء وعِلّةُ الاستجابة

آثر النّظم الكريم التّعبيرَ بالاسم الموصول المختصّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ دون الوصف الظّاهر (المؤمنون)؛ لِما فيه من الإشعار بعلّيَّةِ الحكم؛ فالنِّداءُ اتّجه للمؤمنين باعتبار إيمانهم، وأنَّ عليهم أن يتيقَّظوا لما بعده من أوامرَ ونواهٍ، وصفةُ الإيمان هي الّتي تُحرِّك قلوبَ المؤمنين

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 95.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 57.

لتلقّي الأمر والنّهي؛ بمعنى: أنَّ إيمانكم باللّه تعالى وبرسولِه ﷺ يقتضي منكم أن تستقبلوا المؤمنات المهاجرات، وأن تمتحنوهنَّ، لا أن ترجعوهنَّ إلى الكفّار. كما أنَّ في الصّلة إيماءً إلى مدح المخاطَبين بوصف الإيمانِ وتقريرًا لإيمانِهم؛ لمجيء الفعل ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ بصيغة الفعل الماضي الدّالِّ على تحقُّق الوقوع.

فائدةُ استعمال الأداة ﴿إِذَا﴾:

هجرةُ المُؤمناتِ مقطوعٌ بها مُرغَّبٌ فيها

آثر النّظم الكريم استعمال أداة الشّرط ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾؛ للإيذانِ بالقطع في حصول الشّرط في المستقبل؛ بمعنى: أنَّ مجيء المؤمنات إلى المؤمنين مهاجراتٍ مقطوعٌ به. وفي استعمال أداة الشّرط ﴿إِذَا﴾ إشارةٌ إلى ترغيب المؤمنات في الهجرة إلى مكانٍ يَستطِعْنَ به أن يُظهِرْنَ إيمانَهنَّ، بحيث لا يَبقَيْنَ في موضعِ الكفّار.

نكتةُ إطلاقِ الفعلِ ﴿جَآءَكُمُ﴾ عن التّقييد:

العنايةُ بحَدَثِ الهجرةِ لا مكانِ الانطِلاق

أُطلق فعلُ المجيء في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ عن التّقييدِ المكاني؛ للعناية بمجيئهنَّ لا تعيينِ المكان الَّذي جئن منه، فلم يقل: (إذا جاءكم المؤمنات من مكّة)؛ فيدخلُ في ذلك عمومُ الأماكن الَّتي جئنَ منها، والعنايةُ بذات المجيء في حال كونهنَّ مهاجراتٍ، كما أنّه لم يُقيِّد مكان الوصول، فلم يقل: (إذا جاءكم المؤمنات إلى المدينة)، وذلك لأنَّ مكان الوصول معلومٌ للمخاطَبين، فإيثارُ الإيجاز هو المقدَّمُ في حالِ العلم بالمضمون.

نكتةُ تعديةِ الفعلِ بنفسِه:

أخلاقُ الرِّجالِ تأبى ضَيْمَ النِّساءِ المُهاجِرات

تعدّى الفعلُ ﴿جَآءَكُمُ﴾ إلى المفعول بنفسِه دون أن يقال: (إذا جاء إليكم المؤمنات)؛ للإشعار ببلوغ المؤمنات موضعَ أهل الإيمان وتمكّنِهنَّ من إظهار إيمانِهنَّ فيه، ولتحريك أخلاق النّخوة والأنَفةِ

في قلوب المؤمنين؛ فالمؤمناتُ قد جِئْنَكم أيُّها المؤمنون؛ فلا تُقصِّروا في حقِّهنَّ، ولا تتوانَوا عن نصرتِهنَّ.

فائدةُ الوصفِ بالمؤمنات مع الأمرِ بامتحانِهنَّ:

استمالةُ القلوبِ للإيمانِ، وتعليمُ المؤمنين حُسنَ الظّنِّ مع الأخذِ بالحيْطة

لسائلٍ أن يسألَ: ما سرُّ امتحان المهاجرات اللّاتي أُطلق عليهنَّ وصفُ الإيمان في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾؟ وجوابه: أنَّه تعالى سمّاهنَّ مؤمناتٍ لإظهارهنَّ الإيمانَ وكلمةَ التّصديق؛ بمعنى: لتصديقِهنَّ بألسنتهنَّ ونُطقِهنَّ بكلمة الشّهادة وتقرُّرِ الأمر بهجرتهنَّ. ولم يظهر منهنَّ ما ينافي ذلك[1]، فالإيمان المذكور في قولِه تعالى: ﴿جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ هو من الإيمان بدلالة الحال؛ بسبب نطقهنَّ بالشّهادة وبنفس هجرتهنَّ إلى المؤمنين، فإنَّ ذلك إظهارُ الإيمان منهنَّ[2]، وإظهارُ الإيمان علَّةٌ كافية لإطلاق صفة الإيمان على مَظهَره، مع ما في ذلك من بديع تربيتهنّ واستمالة قلوبهنَّ للإيمان، وتعليم المؤمنين حُسنَ الظّنِّ في الآخرين، مع أخذ الحيطة والحذر بالامتحان؛ لدَفْعِ الشّكوك والأوهام، ويُحتمَلُ أنهنَّ لمّا كُنَّ قد شارفْنَ على الإيمان لثباتِ إيمانهنَّ بالامتحان سمّاهنَّ مؤمناتٍ لذلك[3].

دلالةُ الحالِ وفائدتُها:

الهجرةُ هي علَّةُ امتحانِ المؤمنات

الحالُ في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ أفادَ أنّ حالَ كونهنَّ مهاجراتٍ من الكفّار ومن أرضِهم قرَّرَ إيمانَهنَّ، فتكون الهجرة سببًا في الحكم بظاهر الأمر، كما دلَّ على أنَّ مِن أمارات الإيمان الهجرةَ إلى بلادِ أهل الإيمان وموضعِ ظهور شعائر الإسلام؛ فالهجرةُ هي قيد الامتحان، وإذا أظهرْنَ شيئًا آخرَ فالامتحان غيرُ مأمور به.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 417، والزمخشري، الكشاف: 15/ 366.
(2) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 14/ 391.
(3) الزمخشري، الكشاف: 15/ 366، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 522.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

أفادت الفاءُ الواقعة في جواب الشّرط في قولِه تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ تَرَتُّبَ حصولَ الامتحان على مجيء المهاجرات مؤمناتٍ على الفورِ مِن دونِ تأخيرٍ أو إبطاءٍ؛ بمعنى: أنَّ الامتحان يكون عقب مجيء المؤمنات مهاجرات من غير مهلةٍ، وأنّ امتحانهنَّ مترتّب على مجيئهنَّ مهاجراتٍ، فلا يقع الامتحان قبل هجرتهنَّ ووصولهنَّ إلى موضع أهل الإيمان؛ لكي تتمكّنَ المؤمناتُ مِن إظهار ما في قلوبِهنَّ من غير خوفٍ ولا وجَلٍ، كما أفادت الفاء أنَّ الامتحان إنّما يكون من أجل حصول العلم بحالهنَّ والتّثبّتِ من إيمانِهنَّ.

المُسارعةُ إلى الامتحانِ جدّيَّةٌ في الانتقاءِ ومعياريَّةٌ في القَبول

دلالةُ إطلاقِ الأمرِ عن القيود:

جاء فعل الأمر ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ مطلقًا غيرَ مقيَّدٍ؛ ليكون امتحانُهنَّ متروكًا للاجتهاد في آليّاتِ ووسائلِ معرفة صدقِهنَّ، بكلِّ ما يؤدّي إلى غلبة الظّنِّ في صدق إيمانهنَّ، فيدخل فيه الامتحانُ بالحَلِف، وبالنظر في الأمارات القوليَّة والفعليَّة وسائر الأحوال. وأفاد قوله تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ تنبيهَ المؤمنين على عدم استغفالِهم من قِبَلِ مَنْ لا يَصْدُقْنَ في إيمانِهنَّ بإظهارِهنَّ الإيمانَ بالقول من غيرِ اختبارٍ.

الامتحانُ أداةُ استيثاقٍ ومعيارُ صدقٍ

دلالةُ لفظِ الامتحان:

لمّا كان الامتحان - بمعنى الاختبارِ المرادِ به تفتيشُ إيمان المهاجرات - مفيدًا للاحتمال بينَ أن تكون نتيجتُهُ الحكمَ بإيمانهنّ أو عدمَهُ دلَّ قوله تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ على قبول إمساك المهاجرات أو ردِّهنّ إلى الكفّار، والمعنى: فاختبروهنَّ وفتِّشوهنَّ بالكشف عمّا دعاهنَّ إلى ترك ديارهنَّ وإتيانكم[1]، فإمّا أن تقبلوا إيمانَهنَّ وإمّا أن تردّوهنّ. وقد قيل: إنَّهُ كانَ مَنْ أرادَتْ من نساء قريشٍ إضْرارَ

الامتحانُ طَريقٌ إلى المعرفةِ، وجواهِرُ النّاسِ تَتَبَيَّنُ بالتّفتيش

(1) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 14/ 390.

زَوْجِها قالَتْ: سَأُهاجِرُ إلى مُحَمَّدٍ، ﷺ، فَلِذَلِكَ أَمَرَ اللّه تعالى المؤمنين بِامْتِحانِهِنَّ[1].

بلاغةُ المجازِ بحَذْفِ المُضاف:

مَنِ امْتُحِنَتْ ذاتُهُ بقرائنِ الأحوالِ امتُحِنَ إيمانُه

لمّا كان الغرض هو امتحانَ إيمانِ المؤمنات للتّثبّت منهنَّ كان الظّاهر أن يُقال: (فامتحنوا إيمانهنَّ)، بدليل: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾، لكنَّ النّظم آثَرَ حذفَ المضاف بقولِه تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾، فجعل الفعلَ يتعدّى إلى ذات المؤمنات (هُنَّ)، مبالغةً في تصفية حقيقة إيمانهنِّ؛ فمَن امتُحِنَتْ ذاتُه امتُحِنَ إيمانُه؛ ليفيد أنَّ امتحانَهنَّ يكونُ بطريق قرائن الأحوال المتنوّعة الموصلةِ إلى امتحان الإيمان، وبعدم التّقيّد بالسّؤال عن الإيمان مباشرة؛ فالامتحان لذاتِ كلِّ مؤمنةٍ، وذلك لغرضِ التّثبّت والاستيثاق.

بلاغةُ الجملةِ الاعتراضيَّة:

تفويضُ العلمِ اليقينيِّ للهِ تعالى والاكتفاءُ بالظَّنِّ الغالِب

جاءتْ جملةُ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ اعتراضًا بين قوله: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾ وقوله: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾، وكونُ اللّه أعلمَ بإيمانهنَّ ممّا لا يتطرّق إليه شكٌّ؛ للتّنبيه على الاكتفاء بالظنِّ الغالبِ في الحكم بإيمانهنَّ؛ لِما تدلُّ عليه الجملة الاعتراضيَّة من أنَّ العلم اليقينيّ لا يتيسّر لكم، فإنَّه تعالى أعلم بما في القلوب من الأسرار[2]. ومن أغراض مجيء الجملة الاعتراضيَّة دفعُ توهّم أن يعلم أحد حقيقة إيمانهنَّ؛ بمعنى: أنَّ امتحانكم لهنَّ لا يَعدو أن يكون عندكم غلبةَ الظّنِّ في إيمانهنَّ، ولن تصلوا إلى العلمِ بحقيقة ما في قلوبهنَّ ولا الإحاطةِ به، فإنَّ ذلك ممّا استأثر به اللّه علّام الغيوب، فحصرُ علمه تعالى وحده

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 62.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 57.

بحقيقةِ إيمانهنَّ فيه إشعارٌ بأنَّكم بامتحانهنَّ لا تكسبون فيه علمًا تطمئنُّ معه نفوسُكم، وإن استحلفتُموهنَّ واختبرتُم أحوالهنَّ، فعند اللّٰه حقيقة العلم بإيمانهنَّ(1).

بلاغةُ صيغةِ اسمِ التَّفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾:

امتحانُ المؤمناتِ تقريبٌ للعلم بإيمانهنَّ، ويقينُ العلم مقصورٌ على الله تعالى

جاء التّعبيرُ بصيغة اسم التّفضيل في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ لا للمفاضلة بين علمه تعالى وعلم المؤمنين، بل لبيانِ تمام العلم الإلهيّ بالغيبيّات، ونقصِ علم مَنْ سواه من الخلق، فالصّيغةُ منزوعةُ المفاضلة، ونكتتُها المبالغةُ في إثبات العلم الكامل للّٰه وحده، وفائدةُ ذلك تفويض الأمر لصاحبِ الأمر، ومعرفةُ أنّ امتحانَ المؤمنات ما هو إلّا طريقٌ موصلٌ إلى حُكم اللّٰه فيهنَّ، لا تحقيقَ الأمر في إيمانهنَّ على وجه اليقين، مع ما فيه من الإشارةِ إلى الاسترابة ببعضهنَّ ممّن يأتين مهاجراتٍ، والحضِّ على امتحانهنَّ وعدمِ تركِه(2)، وفيه تنبيهٌ كذلك على خطإ من يظنّ أنَه بالامتحان يصلُ إلى حقيقة الأمر، فيُقصَد بصيغة ﴿أَعۡلَمُ﴾ تقريرُ المخاطَبين بحَصْرِ التَّفضيل في العلم في جانب واحد وهو عند اللّٰه تعالى، وانتفائه عن غيرِه.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الامتحانُ سبيلُ العِلم

أفادت الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ التَّعقيبَ؛ بمعنى: أنَّ حصول علمِكم بإيمانهنَّ يكونُ عقب امتحانِهنَّ، كما أفادت الفاءُ ترتُّبَ علمِكم على امتحانِهنَّ.

نكتةُ ذكرِ احتمالِ إيمانِ المُهاجراتِ دونَ خِلافِه:

حُسنُ الظّنِّ مقدَّمٌ على سوءِ الظّنِّ، والفألُ الحَسَنُ هو الأوقعُ في مَظانِّ الأحكام

لمّا كان الامتحانُ على معنى الاختبار، ويترتّب عليه الحكمُ بإيمانهنّ أو عدمِه ذكَرَ الوجهَ الحسنَ فقال: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾، ولم يذكر الوجهَ المقابل، وهو العلم بكونِهنَّ غيرَ مؤمنات،

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 517، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 522.
(2) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 297.

والسّبب استحسانُ الإيمان، وتهيئة المؤمنين بأنّه المتوقّع، وتقبيحُ الوجه الآخر، وعدمُ الالتفات إليه باستبعاد ذكره، وفيه إشارةٌ إلى التّرغيب في الحمل على أيِّ أمارةٍ على إيمانهنّ والتّشوّف إليها؛ لكي لا يُرَدّوا إلى الكفّار، وهذه الجملةُ أصلٌ في تقديم حسن الظّنِّ على سوء الظّنِّ.

دلالةُ التّعبير بأداةِ الشَّرط (إنْ):

العلمُ القطعيُّ بحقيقةِ إيمانِ المؤمنين محصورٌ بالله تعالى

دلَّ التّعبير بأداة الشّرط (إن) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ على عدم جزم المخاطَبين بوقوع الشّرط؛ بمعنى: أنَّ العلمَ بكونهنَّ مؤمناتٍ يجري على سَنَنِ اعتقادِكم؛ ليفيد بلازمِه أنّ علمَكم بإيمانِهنَّ غيرُ مقطوعٍ به؛ لحصر العلم القطعيِّ بحقيقة إيمانهنَّ بالله تعالى، فاستعمال (إنْ) يُقوّي دلالة الجملة المعترضة ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾، وأنَّ أقصى ما يصل إليه المؤمنون عن طريق امتحانهنّ هو غلبة الظّنِّ، ولا يصل ظنُّكم إلى اليقين.

دلالةُ إسنادِ العِلم إلى المؤمنين:

اجتهادُ المؤمنين في العِلمِ يترتَّبُ عليه عملٌ مُلزِم

أسندَ النَّظمُ الكريم فعلَ العلم إلى الضّمير العائد على المؤمنين المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾، وذلك أنّ المؤمنين هم الّذي امتَحَنوا المؤمنات، فهو إسنادٌ حقيقيٌّ، يترتَّبُ عليه ما بعدَهُ من حرمة إرجاعهنَّ للكفّار، وأنَّ مناطَ الاحتفاظ بهنَّ هو إيمانُهنَّ، فإسناد العلم إلى المؤمنين بمعنى أنَّ أقصى ما تبلغه طاقتكم هو الظّنُّ الغالب بالحَلِفِ وظهورِ الأمارات، وما يُفضي إليه الاجتهادُ، والتّقدير: فإنْ غلَبَ على ظنِّكم وانكشَفَ لكم بالامتحان أنهنَّ مؤمناتٌ كما ظهر منهنَّ ذلك؛ أي: بسبب إظهارهنَّ الإيمانَ[1].

كما أفاد الإسنادُ أنَّ الحكم بالعلم راجع إلى مجموع المؤمنين،

(1) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 14/ 390.

ولمّا كان هذا العلمُ هو حيثيّاتِ حكمٍ قائم على الظّنِّ الغالبِ عن طريق الاستحلاف والاستجواب دلَّ على أنَّه إنّما يتولّاه عن المؤمنين وليُّ الأمر، أو مَن ينوب عنه كالقاضي.

بلاغةُ إطلاقِ العِلمِ على الظَّنِّ الغالِب:

الاجتهادُ الصّحيحُ هو الَّذي يُعمَلُ به

جاء التّعبير عن الظّنِّ الغالب بلفظ العلم في قولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ على طريق المجاز؛ ليكون استعارةً تصريحيّة تبعيَّة؛ بمعنى: أنَّه شبَّه الظّنّ الغالبَ بالعلم، والجامعُ بينهما وجوب العملِ بما يُفضي إليه كلُّ واحدٍ منهما، فالدّاعي إلى تشبيه الظّنّ الغالب بالعلم هو الإيذانُ بأنَّ الظَّنَّ الغالبَ لكم بسبب الامتحان وما يفضي إليه الاجتهادُ والقياسُ جارٍ مجرى العلم[1]، فيُؤخَذُ به، ويجري الحكم عليهنَّ في قبول إيمانهنَّ والنّهي عن ردّهنَّ أو عكسِه، فالاجتهادُ المفضي إلى الظّنِّ الغالبِ هو في حقّ صاحبه علمٌ يترتَّبُ عليه عملٌ مؤثّر.

نوعُ الفاءِ وفائدتُها:

بمجرَّد غَلَبةِ الظَّنِّ بالإيمانِ يمتنعُ الإرجاعُ إلى الكفّار

أفادت الفاءُ الواقعة في جواب الشّرط التَّرتُّبَ والتّعقيبَ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾؛ بمعنى: أنَّ النّهي عن إرجاعهنَّ إلى الكفّار يَعقُبُ العلمَ بإيمانهنَّ، كما أفادت التّرتّب والسّببيَّ؛ بمعنى: يترتّب على امتحانهنَّ والعلم بإيمانهنَّ الكفُّ عن إرجاعهنَّ إلى الكفّار؛ لتفيدَ الفاء أنَّ الامتحان علَّةٌ لحمايتهنَّ من الهلاكِ والدّفع عنهنَّ وبقائهنَّ في مكانٍ آمنٍ[2].

تعيينُ مرجعِ الضَّميرِ ودلالتُه:

مُفارَقةُ المؤمنةِ دارَ الكفر موجِبٌ لتفريقِها عن زوجِها

لمّا كان الضّمير في ﴿عَلِمۡتُمُوهُنَّ﴾ راجعًا إلى المؤمنات بقيد الحال - أي: فإن علمتم المهاجراتِ مؤمناتٍ - أفاد أنَّ سبب عدم إرجاعهنَّ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 57، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 57.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 514.

وحصولِ الفرقة هو تباينُ الدّارين بسبب الهجرة والإسلام؛ لأنَّه تعالى وصَفَهنَّ بالإيمان[1]. وقد ذهب بعضُ الفقهاء إلى أنَّ الَّذي أوجب فرقةَ المسلمة من زوجِها هو إسلامُها لا هجرتُها، وقال أبو حنيفة رحمه اللّه: الَّذي فرّق بينهما هو اختلافُ الدّارين[2].

عدمُ إرجاعِ المهاجراتِ المؤمناتِ مقطوعٌ به

غرضُ النّهي ودلالتُه:

أفاد النَّهيُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾ وجوبَ الكفِّ عن إرجاع المؤمنات الصّادقات في إيمانهنَّ، والأمرَ ضمنًا بالمحافظة عليهنَّ والقيامِ عليهنَّ بما يَعصِمُهنَّ.

خطابُ المؤمنين تكليفٌ جمعيٌّ، والتّنفيذُ تكليفٌ جزئيّ

بلاغةُ إطلاق الكلِّ وإرادةِ الجزء:

الضّميرُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ﴾ يرجعُ إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فكان المخاطَبُ بالنّهي جميعَ المؤمنين، وتعيَّن أن يقوم بتنفيذِه مَن إليه تنفيذُ أمور المسلمين العامَّة في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، وهم الولاة والقضاة؛ إذْ لا يُمْكِنُ أنْ يَقومَ المُسْلِمونَ بما خوطِبوا بِهِ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الأُمورِ العامَّةِ إلّا عَلى هَذا الوَجْهِ، ومناسبة الخطابِ لجميع المؤمنين الإيذانُ بأنَّ على كلِّ فردٍ من المسلمين التزامَ العملِ به في خاصَّةِ نَفْسِه، والتزامَ الامتثال لِما يقرّره ولاةُ الأمور أو القضاة[3]، فيكون الضّميرُ عائدًا إلى الكلّ مع إرادة الجزء، وفائدةُ ذلك الإيماء إلى أنَّ ذلك مسؤوليَّةُ الأمّة جميعِها، والَّذي ينوب عنها مَن ترتضيه الأمّة من الولاة والقضاة.

تنبيهُ المؤمنين إلى مآلاتِ الأفعالِ المذمومةِ؛ لاجتنابِ مُقدّماتِها

نكتةُ التّعبير بمفردةِ ﴿تَرۡجِعُوهُنَّ﴾ دونَ (تَرُدّوهنَّ):

دلَّت تعديةُ الفعل ﴿تَرۡجِعُوهُنَّ﴾ إلى المفعول بنفسِه على أنَّه من الرَّجْع بمعنى الرّدِّ، لا من الرّجوع[4]؛ أي: لا تردّوهنَّ الى أزواجهنَّ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 58.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 63.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 156.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 482.

الكفرة، ونكتةُ التّعبير بفعل ﴿تَرۡجِعُوهُنَّ﴾ دون (تردّوهنَّ) هو الإشعارُ بأنَّ في ردِّهنَّ إلى أزواجهنَّ رجعًا لهنَّ إلى الكفر وإعادةً إليه؛ ففيه تنبيهٌ لطيف إلى ضعف النّساء ورقّتِهنَّ، وعدمِ قدرتهنَّ على الدّفع عن أنفسِهنَّ، وعجزهنَّ عن الصّبر على الفتنة في كَنَفِ الزّوج الكافر في أرضِ الكفر وأهلِه.

دلالةُ تقييدِ فعلِ رَجْعِ المؤمنات:

اللّجوءُ العقائديّ يُلزِمُ المؤمنين بقبولِ الملتجئ إليهم وحمايتِه

جاء فعل ﴿تَرۡجِعُوهُنَّ﴾ مقيَّدًا بالجارّ والمجرور ﴿إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾؛ ليدلَّ على أنَّ رجع المؤمنات الصّادقات إلى الكفّار قد يؤدّي إلى رجوعهنَّ إلى الكفرِ؛ وهو ما يُرشِّح نكتةَ اختيار فعل الرّجع دون الرّدِّ؛ فكأنَّه قيل: فلا ترجعوهنَّ إلى الكفرِ، كما أفاد التّقييد أنَّ كفر أزواجهنَّ سبب في الفرقة بينهم، وأنَّ الكفر يناقض الإيمان ولا يجتمع معه. وفي هذه الجملة بيانٌ لِحكم لجوءِ المؤمنة إلى المؤمنين هاربةً من الكفّار.

علّة حذف الموصوف وإقامةِ الصّفة مُقامه:

حفظُ مَقصِدِ الدِّين من أعظم الضّروريّات الخمسِ في الشّريعة

آثر النّظم الكريم تحاشيَ لفظ الأزواج؛ فلم يقل: (فلا ترجعوهنَّ إلى أزواجهنَّ الكفرة)، وإنّما قال: ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾؛ للإشارة إلى امتناع إرجاعهنَّ إلى الكفّار مطلقًا وإن كانوا أزواجًا لهنَّ في السّابق، كما أفاد الاقتصار على لفظ ﴿ٱلۡكُفَّارِۖ﴾ أنَّه بمجرَّد إيمانهنَّ وهجرتهنَّ تكون الفرقة، فلا يُسَمَّون من كانوا أزواجًا لهنَّ بالأزواج، كما أنَّ ذكر لفظ ﴿ٱلۡكُفَّارِۖ﴾ وحده أوقعُ في نفوس المؤمنين المخاطبين؛ ترغيبًا في الالتزام بالنّهي وحثًّا عليه، وتبشيعًا لمن أراد رجعهنَّ إلى الكفّار، وكذلك الرّجعُ سيكون للأزواج وغيرهم من الآباء والإخوة والأقارب، وجميع أولئك سيكون لهم سطوةٌ على المؤمنات وسلطةٌ قد تُلحق بهنَّ الضّررَ العظيم في الدّنيا والآخرة.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

إيمانُ المرأة وهَجْرُها دارَ الكفر يُحرِّمُها على زوجِها الكافر

جاءت جملةُ ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ على طريق الاستئناف البيانيِّ؛ لتعليل النّهي وبيان سببِه على جهة التّفصيل[1]؛ أي: لبيان العلَّة في أنْ لا يُرَدَّ النِّساءُ المؤمنات إلى الكفار، والتّقدير: فلا ترجعوهنَّ إلى الكفار؛ لأنَّه ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾؛ أي: لامتناع الوطء وحرمته. ولم يكتفِ بقولِه ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ﴾؛ للدّلالة على أنَّه لا يَحِلُّ أحدُهما للآخر؛ لأنَّ النّهي عن ردِّهنَّ إلى الكفّار لا ينصُّ على ارتفاع الحلِّ من الجانبين ولا يفيده[2]، فصرَّح بارتفاع الحلِّ من الجانبين؛ للإشعار بعلَّة النّهي عن ردِّهنَّ إلى الكفّار تحقيقًا لوجوب التّفرقة بين المَرْأةِ المُؤْمِنَةِ، وزَوْجِها الكافِرِ[3]، وإيذانًا بقطع التّولّي بينهما.

دلالةُ العطفِ بينَ التَّتْميمِ والتَّأكيد:

الإيمان شرطٌ أصيلٌ في الرّجل والمرأةِ للنّكاح، إلّا ما جوّزه الشّرع مِن حِلِّ الكتابيّة

يُحتمل أن يكون العطف في قولِه تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ للمبالغة في نفي الحلِّ وتأكيدِه؛ لأنَّه إذا لم تحلَّ المؤمنة للكافر عُلِم منه لزومًا أنَّه لا حلَّ بينهما ألبتَّةَ. ويُحتمل أن يكون العطف مفيدًا تغايرَ المعطوفين في المعنى؛ ليكون المعطوف متمّمًا معنى المعطوف عليه؛ أي: ليكونَ قولُه تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمۡ﴾ دالًّا على حصولِ الفرقةِ بين الطّرفين لتباين الدّارين مع الإسلام؛ أي: لبيانِ زوالِ النّكاحِ الأولِ، ويكون قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ دالًّا على المنعِ من استئناف النّكاح[4]؛ أي: لبيانِ امتناعِ النِّكاحِ الجديدِ[5]. وبهذا يمتنع الحلُّ بين الطّرفين من جميع الجهات. أو

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 239، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 156.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 522.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 156.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 206.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 239.

يقال في تتميم المعنى بين المعطوفين: يكون قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ دالًّا على الحكم بنفي الحلِّ على المؤمنات والحظرِ على الكافرين نكاحَ المؤمنات، ويكون ذكر المعطوف ﴿وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ دالًّا على العكس؛ أي: دالًّا على الحكم بنفي الحلِّ على الكافرين والحظرِ على المؤمنات نكاح الكفّار(1)، فيكون بذكر المعطوفين قد سُدَّ البابُ تمامًا على حلِّ النّكاح بين الطّرفين.

وعلى الوجهين فإنَّ العطف دلَّ على أنَّ الإيمان من الجانبين شرطٌ للحلِّ، إلّا ما أجازه الشّرع من حلِّ الزّواج بأهل الذِّمَّة، وأنَّ انتفاء الحلِّ حاصلٌ من كلِّ جهةٍ.

بلاغةُ العكسِ في النَّظم بينَ الجُمَلِ المتقابلة:

تحريمُ دوامِ عصمةِ المؤمنة للكافرِ، وتحريمُ تجديدِ عقدِ نكاحِهما

جاء التّعبير في الجملة الأولى ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ﴾ بجعل الحلِّ خبرًا عن النّساء المؤمنات، بينما في الجملة الثّانية ﴿وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾، فجاء بطريق العكسِ في الإخبار بالحلِّ، ففي الأولى نفى حلّ النّساء بتقديم الضّمير، المفيد للثّبات والاستمرار؛ إذ جعَلَ النّساءَ المؤمناتِ منفيًّا عنهنّ حلُّهنَّ للأزواج، وفي الثّانية جعل ضمير الرّجال مقدّمًا، والحلُّ جاء فعلًا مضارعًا، وذلك لبيان الاستمرار والتّجدد لنفي الحلّ عن الأزواج؛ أي: لا يحلون لهنَّ ما داموا كافرين، وفي الأولى كان نفي الحلِّ ثابتًا باعتبار نفي حلِّهنَّ للرّجال الكافرين، فكُنَّ موطنَ الخبر، وفي الثّانية إخبارٌ عن نفي حل الرّجال للنّساء، فكان الرّجال هم المقصودين، فلمّا أخبر عن النّساء جاء الخبر اسمًا لإفادة الثّبات، ولمّا أخبر عن الرّجال جاء الخبر فعلًا لإفادة التّجدد بتجدد الأحوال ما داموا كافرين، وإيذانًا بأنَّ هذا الحكم مستمرٌّ الامتناعِ في الأزمنة المستقبلة، لكنَّه قابلٌ للتّغيير، وذلك إذا استبدل الكافرُ الهدى بالضّلال وصار مؤمنًا(2).

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 15/ 368.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 158، والطيبي، حاشية على الكشّاف: 15/ 368.

فائدةُ النّفي بالأداة (لا):

نفيُ حِلِّ الكفّارِ للمؤمنات

أفادَ دخولُ (لا) النّافية على ضمير الرّجال في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ نفيَ حلِّهم للمؤمنات؛ لدفعِ ظنِّ الكافرين أنَّ لهم عصمةً على أزواجهم المؤمنات، فلا عِصۡمَةَ لَهُمۡ عَلَى أَزۡوَاجِهِمُ المُؤۡمِنات تُثۡبِتُ أنّهنَّ حِلٌّ لَهُمۡ.

دلالةُ تقديمِ ذكرِ ضميرِ ﴿هُنَّ﴾ على ﴿هُمۡ﴾:

مراعاةُ التّقديمِ يُلحَظُ فيه عِنايةُ السّياقِ بالمعاني

قُدِّمَ ذكرُ المؤمنات على ذكر الكافرين في قولِه تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾؛ لِأَنَّ مَساقَ الآية في بيان حالهنَّ مع الكفّار بعد هجرتهنَّ، فالكلامَ راجعٌ إلى الصّورَةِ الأَكۡثَرِ أَهَمّيَّةً عِنۡدَ المُشۡرِكِينَ؛ إذۡ كانوا يَسۡأَلونَ إرۡجاعَ النِّساءِ إِلَيۡهِمۡ، ويُرۡسِلونَ الوَسائِطَ في ذَلِكَ بِقَصۡدِ الرَّدِّ عليهِمۡ بِهَذا[1]. كما أنَّ في تقديم ذكر نساء المؤمنات تشريفًا لقدرهنَّ ولهجرتهنَّ[2]، فقدَّمَ ما البيان به أعنى، وما التّشريع له قد نزل.

بديعُ فنِّ الطِّباق:

تقريرُ الحُكمِ وتوكيدُهُ بذِكرِ الضِّدّين

في قوله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ﴾ جاء الطّباق بين المذكّر والمؤنّث، بين ﴿هُنَّ﴾ و﴿هُمۡ﴾، وبين ﴿لَّهُمۡ﴾ و﴿لَهُنَّۖ﴾، وفائدته تتميمُ الحكم أو تقريرُهُ وتأكيدُه.

براعةُ فعلِ الأمر ﴿وَءَاتُوهُم﴾:

بذلُ الحقوقِ لأصحابِها واجبٌ يَجمَعُ بين الدّيانة والأخلاقِ والهداية

جاء فعلُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾ لإيجابِ إيتاءِ الزّوج ما أنفقه على زوجته وإيصالِه إليه، وتقديرُ الكلام: وآتوا الأزواجَ ما أنفقوا عليهنَّ من المهور في نظير أصلِ العشرة ودوامِها وقد فوَّتَتۡها المُهاجَرة. وذلك من الوفاء بالعهدِ؛ لأنَّه لمّا مُنِعَ من زوجِته بسبب إسلامِها وهجرتِها أُمِرَ بردِّ المال إليه؛ حتّى لا يُجمَعَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 157.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 517.

عليه خسرانُ الزّوجة والمال[1]. أو يقال: لمّا كانت الفُرقةُ بين المؤمنة وزوجها المشرك قد جاءت من جهة المرأة كانَ كأنّها بهذا هي الَّتي رغبت في المفارقة، فكان عليها - والأمر كذلك - أن تردّ إليه ما أخذت منه من مهرٍ[2]. ففي التّعبير بقولِه: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾ رعايةُ جانبِ المؤمنين بالحثِّ على إظهارِ المروءةِ وإيثارِ السَّخاءِ وبذل المبرَّة، كما أنَّ في إيتاءِ ما أنفقوا تأليفًا لقلوب المشركين وإمالتَها إلى جانب الإسلام[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الإيتاءِ دون الإعطاء:

إيتاءُ الكفّارَ ما أنفقوا بمقدارِ نَفَقاتِهم بيُسرٍ وسلاسة

جاء التّعبير بمفردة ﴿وَءَاتُوهُم﴾ دون (أعطوهم)؛ لأنَّ الإيتاء أعمُّ من الإعطاء، فقد يكون إيتاء الكفّار ما أنفقوا بالفعل بأن يكون باليد، وقد يكون بالتزامه والتّعهّد بإرسالهِ إليهم[4]، وفي التّعبير بمفردة الإيتاء لفتةٌ أخرى، وهي أنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء[5]، فيستعمل الإيتاء في معنى القوّة والثّبات إشارةً إلى أنَّ إيتاء المؤمنين الكفّارَ ما أنفقوا يكون من منطلق القوّة؛ إيماءً إلى قوّة الإيمان وثبات أهلِه وتمكّنهم من الأمر، وفيه إشارة كذلك إلى رفعةِ شأنِ المؤمنة المهاجرة عند المؤمنين، وقد لُحِظَ في عموم الاستعمال القرآنيّ أنَّ الإيتاء يكون فيما له مقدارٌ محدّد كالزّكاة، بخلاف الإعطاء، كما أنّ الإيتاء يكون متضمِّنًا معنى السّلاسة؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ ردّ نفقاتِهم يجب أن يكون سلسًا بدون عسرٍ ولا تأخير.

دلالةُ إسنادِ الفعلِ ﴿وَءَاتُوهُم﴾ إلى ضمير الجمع:

إطلاقُ الجميعِ وإرادةُ الوالي نيابةً عن المؤمنة بيانٌ لاجتماعِ كلمةِ المؤمنين

لمّا أُسند الفعل ﴿وَءَاتُوهُم﴾ إلى الواو أفاد أنَّ الأمر بإعطاء

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 64، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 19/ 26، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 518.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 907.

(3) اسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 483.

(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 19/ 59، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 271.

(5) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 85.

الكافرين ما أنفقوا يقوم به المسلمون، فيكون الخطاب لمن يتولّى أمر المسلمين، فالخطاب للوالي أو القاضي[1] ينفّذ من بيت مال المسلمين، فتقوم به الدّولة نيابةً عن المؤمنة. قال القرطبيُّ: "المخاطبُ بهذا الإمامُ، يُنفَّذ من بيت المالِ الَّذي لا يَتعيَّنُ له مصرفٌ"[2]؛ فلا تتولّى المؤمنة المهاجرة إيتاءَ الكافر ما أنفقه عليها؛ تكريمًا لها وحفظًا لها من مساومتها على دينِها وشرفِها، وهذا من إطلاق الكلِّ وإرادة الجزء الموكَّل بالمهمَّةِ التّنفيذيّة؛ لبيان أهمّيَّةِ الأمر، وأنّه يجب أن يَشيعَ بين المؤمنين معرفتُه، وأنّه مطلب شرعيٌّ يجب أن يتحقّق.

دلالةُ التّعبير بالموصول العامِّ ﴿مَّآ﴾:

كلُّ حقٍّ ماليٍّ لكافرٍ يُرَدُّ له ردًّا جميلًا

أفاد التّعبيرُ بالاسم الموصول العامِّ ﴿مَّآ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾ الإتيانَ بكلِّ ما أنفقه الكافرون على المؤمنات قليلًا أو كثيرًا؛ بمعنى الوفاءِ بكامل حقِّه في المهر؛ ولهذا لم يقل: وآتوهم مثلَ ما أنفقوا؛ أي: للإشارة إلى تمام الوفاء بالأمر؛ لكيلا يبقى على المؤمنة المهاجرة أيُّ دَينٍ أو طلبٍ، ففيه بيانُ تربيةِ القرآن للمجتمع المسلم على الفضيلة الإيمانية، الَّتي تدعو إلى المحافظة على أموال الآخرين منذ لحظةِ الدّخول في دين اللّه تعالى، وهذا ما لا نظيرَ له في قيَمِ البشر وثقافاتهم ودياناتهم كما هو محافظٌ عليه في دين اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ عن (المهر) بقولِه: ﴿مَّآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾:

ما أعطاه الكافرُ للمؤمنةِ باعتبارِ دِينِها السّابقِ ليس صداقًا على التَّحقيق

جاء التّعبير عن الصّداق والنّفقة بقوله تعالى: ﴿مَّآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ المؤمنات بمجرّد إيمانهنَّ أو هجرتهنَّ ينقطع عقد الزّوجيَّة؛ فلمّا أصبحنَ غيرَ زوجاتٍ لهم أُلغيَ إطلاقُ اسمِ المهورِ على

(1) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 86.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 65، وابن عادل، اللباب: 19/ 26.

ما يُدفعُ لهم[1]. ولهذا سمّى ما يؤتى في نكاح المؤمن للمؤمنة المهاجرة أجرًا؛ أي: مهرًا، قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾، وذلك للإيذانِ بأنَّ ما أُعطيَ أزواجُهن من الكفّار لا يقوم مَقامَ المهر؛ لأنَّ ظاهر النَّظم يقتضي إيتاءين: أحدُهما إيتاءٌ الى الأزواج الكفّار الَّذين حصلت بينهما فرقةٌ بسبب الإسلام وتباينِ الدّارين، والثّاني إيتاءٌ إليهنَّ على سبيل المهرِ[2].

فائدةُ عطفِ جُملةِ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ على ما قبلها:

الاحـــتراسُ عن مَظانِّ الأوهامِ والطَّمعُ في تخفيفِ النَّفَقات

جاءت جملةُ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ معطوفةً على ما قبلها؛ لِلتَّنْبيهِ عَلى خُصوصِ قوله: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾؛ لِئَلّا يُظَنَّ أنَّ ما دُفِعَ لِلزَّوْجِ السّابِقِ مُسْقِطٌ اسْتِحْقاقَ المَرْأةِ المَهْرَ مِمَّنْ يَرومُ تَزْويجَها[3]. كما أفاد العطف أنَّ التّقدُّم لنكاحهنَّ يكون بعد إيتاء الكافرين مثلَ ما أنفقوا.

فائدةُ نَفيِ الجُناحِ:

دَفعُ تَوَهُّمِ حُرمةِ نكاحِ المهاجراتِ بسببِ أزواجهنَّ السّابقين

أفادت جملةُ النّفي في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ دفعَ توهُّم حرمةِ نكاح المهاجرات بشرط إيتاء المهور، كما أفاده قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾؛ لأنهنَّ قد صِرنَ من أهل دينِكم؛ أي: وإنْ كان أزواجهنَّ الكفارُ لم يطلقوهنَّ؛ لانفساخ العقد بمجرّد إسلامهنَّ؛ ليفيدَ رفع توهُّم أنَّ المؤمنين لا يستطيعون الزّواج منهنَّ بسبب هروبهنَّ من أزواجهنَّ الكفّار؛ فإنَّ إسلامَهُنَّ حالَ بينهنَّ وبينَ أزواجهنَّ الكفّار[4].

بلاغةُ نفيِ الجُناحِ دونَ المَيْلِ:

نَفيُ الجُناحِ نفيٌ للحَرَجِ النّفسيِّ والسّلوكِ الحسّيّ

لمّا كان تركيب (لا جُناحَ) يفيدُ معنى: لا ميلَ عن الحقِّ ولا حرجَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 158.

(2) اسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 484.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 158.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 239.

ولا إثم[1] أفاد أنَّ نكاح المؤمنين للمؤمنات الهاربات من الشّرك وأهلِه لا ميلَ فيه عن الحقِّ، ولا حرجَ في فعلِهم ولا إثمَ عليهم، ولمّا كان نفيُ الجُناح عن الفعل - وهو فعل النّكاح - لا عن التّرك كان على معنى النّدب إلى الفعل، ولاسيّما اقترانه بالأداة ﴿إِذَا﴾ الشّرطيَّة الدّالَّة في أصلِها على توقّع حصول الفعل والرّغبة فيه؛ بمعنى التّرغيبِ فيه.

فائدةُ الإيجازِ بالحذف:

التّرغيبُ في نكاح المؤمنات مُعينٌ على ثباتِهنَّ على الإيمان

دلَّ تركيبُ ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ﴾ على الرّغبة في النّكاح، دون استعمال حرف الظّرفية في قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ لأنَّه لو قيل: ولا جناح عليكم في أن تنكحوهنَّ لأفادَ نفيَ الجناح في سلوك الطّريق الموصِل إلى نكاحهنَّ؛ فلمّا حذف حرف الجرِّ دلَّ على الحثِّ على المباشرة من غير تأخير. ومثله قولِه تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ [البقرة: 158].

نكتةُ التّعبيرِ عن الزّواج بالنّكاح:

النِّكاحُ فعلٌ جامعٌ دالٌّ على بقاء الزَّواج واستمرارِه

آثر النّظم الكريم استعمال مفردةِ ﴿تَنكِحُوهُنَّ﴾ دون الزّواج؛ وذلك للدّلالةِ على العقد الَّذي يكون بين الطّرفين، وما يتبعُه من الوطءِ والجماع، ففيه إشعارٌ بأنَّ العلاقة قائمةٌ على العقد الشّرعيِّ؛ لأنَّ النّكاح هو العقد، كما تفيد المفردةُ قوَّةَ العلاقةِ الَّتي تجمع بينهما، فالمناكحة في أصل اللُّغة هي اختلاطُ الأغصانِ بعضِها ببعضٍ.

دلالةُ التّعبير بالمصدرِ المؤوّل:

جاء التّعبير بصيغة المصدر المؤوّل ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ دون أن يُقال: ولا جناح عليكم في نكاحهنَّ؛ إذ لو عُبّر بصيغة المصدر الصّريح لاحتاج النّظم إلى التّعبير بحرف الجرِّ (في)، وقد تقدَّم

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جنح).

أنَّ حذفَه فيه مقصدٌ وغرض لطيف، كما أنّ التّعبير بالمصدر المؤَوّل - بسبب اقترانِه بـ ﴿أَن﴾ المصدريَّة - يدلّ على أنَّ نفي الجناح في نكاحهنَّ يكون في المستقبل؛ أي: بعد مجيئهنَّ إلى بلاد المسلمين. ويفيد المصدر المؤّول كذلك إمكانَ الفعل دون وجوبِه ولا استحالتِه، ولهذا اقترن بنفي الحرجِ. كما أنَّ المصدر المؤوّل يدلُّ على مجرد معنى الحدث مِن دونِ احتمال معنًى زائدٍ عليه، ففيه تحصين من الإشكال وتخليص له من شوائب الإجمال[1]، وأفاد أنَّ نفي الحرجِ الَّذي يقصد به التّرغيب فيه هو في نفس التّقدّم للزّواج منهنَّ دون النّظر إلى أيِّ وصفٍ أو هيئةٍ أو قيدٍ يخصُّ بعض المؤمنات ممّا قد لا يُرَغِّبُ بعضَ المؤمنين في الزّواج منهنَّ فيما لو صُرِّحَ بلفظِ النّكاح.

اجتماعُ معانٍ لطيفةٍ ودلالاتٍ بديعةٍ لا تكونُ في المصدر الصَّريح

دلالةُ التّعبير بأداةِ الشّرط ﴿إِذَآ﴾:

أفادَ التّعبير بأداة الشّرط ﴿إِذَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾ أنَّ نكاحهنَّ يكون في وقتِ الإيتاء؛ أي: في وقتِ التزام أداء المهر. وعبّر بالأداة ﴿إِذَآ﴾ دون (إنْ) للإيذانِ بأنَّ إيتاءَ أجورهنَّ أمرٌ مقطوعٌ به لحصول النّكاح؛ ليُفيد إباحة الزّواج منهنَّ بشرطِ أداء المهر؛ إيذانًا بأنَّ ما أُعطي أزواجُهنَّ المشركون لا يَقومُ مَقام المهر. كما أفاد تعليق النّكاح على إيتاء أجورهنَّ أنَّ النّكاح لا يقع إلّا بحصولِ الشّرط.

إيتاءُ المُهور للزّوجات شرطٌ قطعيٌّ تشريعًا ووجودًا

نكتةُ التّعبيرِ بمفردة ﴿ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾:

أفادَ التّعبير بمفردة ﴿ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ التزام المهر؛ أي: إذا التَزمْتُم مُهورهنَّ، ولم يُرِد به حقيقةَ الأداء والتّسليم[2]. وإنّما عبّر بالإيتاءِ إشارة إلى قوّة التِزامِ أداء المهر وثبوتِه على الزّوج.

الإيتاءُ على قَصْدِ الالتِزام به

(1) ابن قيم الجوزيَّة، بدائع الفوائد: 1/ 92.
(2) النّسفي، التيسير في التفسير: 14/ 392.

دلالةُ اشتراطِ إيتاءِ المهور:

المهرُ في الجاهليَّة لا اعتبارَ له، فمَن أسلَمَ وأراد الزّواج فعليه مهرٌ أصيل

لمّا علَّق اللّه تعالى جواز نكاحِ المؤمنات على إيتائِهنَّ أجورَهنَّ في قولِه تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾، وكان على معنى العموم أفاد أنَّ الكافرَ إذا أسلم وجب عليه المهرُ وإن رجع إلى زوجِه المؤمنة بعقدٍ جديد؛ لأنَّه نكاح جديد بسبب توافقِهما في الدّين، والمرادُ عدم سقوط المهر في الزَّواج الثّاني للكافر بعد إسلامه، فيُفهم من الشّرط أنّه لا اعتبار لما قدّمه الزّوج في الجاهلية، وأنّ المعتبر ما كان مهرًا شرعيًّا في الإسلام.

نكتةُ حذفِ جوابِ الشّرط:

التَّرغيبُ في النّكاح مرتبطٌ بتثبيتِ المؤمنات والمحافظةِ عليهنَّ

حُذِفَ جوابُ الشّرط: ﴿إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ﴾، وقد دلَّ عليه ما قبله ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾؛ أي: إذا آتيتموهنَّ أجورهنَّ فلا جناح عليكم أن تنكحوهنَّ، وهذا الأسلوب جارٍ في القرآن وفي كلام العرب؛ ليفيد تأكيدَ الجواب وتقريرَه، كما أنَّ في تقديم ما يدلُّ على الجواب إشارةً إلى الحثِّ على نكاحهنَّ والتّرغيب فيه.

غرضُ النّهي ودلالتُه:

الإمساكُ بالكوافِرِ الوَثَنيّاتِ كإبقاءِ عَقدِ الزّوجيّة من الكفّار

أفاد النّهي في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ وجوبَ فسخ عقد زواج المشركات وفراقهنَّ، ويلزم منه النّهي عن الإقدام ابتداءً على نكاح النّساء المشركات من أهل الأوثان[1]؛ لأنَّه لمّا نهى عن الإمساكِ بعِصمتِها، كان النَّهيُ عن ابتداءِ تَزويجِها أولى[2].

بلاغةُ التّعبيرِ بمفردة ﴿تُمۡسِكُواْ﴾:

لمّا كان الإمساك إنّما يكون باليد بقصد التّعلّق بالشّيء وحفظه[3] لكيلا يتسيَّبَ أفاد النّهي عن الإمساك في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ﴾

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 331.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 857.

(3) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك).

تركُ الكوافرِ وطلاقُهنَّ مِن دَواعي الإيمانِ والعملِ بتعاليمِ الإسلام

طلبَ حلِّ عِصَمِ الكوافرِ من اليدِ مجازًا عن تركِها وعدم التّمسّك بها؛ بمعنى طلبِ الكفِّ عن التّعلّق برباط الزّوجيَّة مع المرأة المشركة، وجاء استعمال مفردة الإمساك؛ لتنزيل المخاطَبين منزلة المُمسكين بالكوافر، الحريصين عليهنَّ، لا باعتبار الواقع، بل باعتبار ما قد يُفترض في الواقع، فلو كان الأمر كذلك؛ فلا تُمسكوا بهنَّ، بل طلقوهنَّ واحرِصوا على الزّواج من المؤمنات.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

تنوُّعُ القراءات فيه تنوُّعٌ في المعنى واتِّساعٌ في الدَّلالة

قرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿وَلَا تُمَسِّكُواْ﴾ بتشديد السّين. وهو من: مَسَّكَ يُمَسِّكُ تمسيكًا، بمعنى: أمسك يمسك. وقرأ الباقون: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ﴾ بسكون الميم[1]. وهو من: أمسك يُمسِكُ إمساكًا. فعلى قراءة التّشديد ﴿وَلَا تُمَسِّكُواْ﴾ إيماءٌ إلى قوّة العصمة القديمة الَّتي نشأت بسبب القرابة وأسبابٍ اجتماعيَّة وبيئيَّة موجبةٍ لقوّة العلاقة. وعلى قراءة التّخفيف ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ﴾ إيماءٌ إلى سهولةِ التّفريق بسبب تباين الدّين واختلافِه.

بلاغةُ الاستعارة:

تشبيهُ عقد النّكاح بالحبلِ الَّذي يُتمسَّكُ به في إشارةٍ إلى قوَّة الرّباط ولُزومِه

في قولِه تعالى: ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ استعارة لطيفة؛ إذ شبّه عقد النّكاح بالحبلِ الَّذي يتمسّك به في قوّة الرّباط ولزومِه، وذلك أنَّ العِصَم: جمعُ عصمةٍ، وهي ما يُعتصَمُ به؛ أي: ما يُتمسّك به، والعصمة ما يعتصم به من عقد وسبب[2]، فذكَرَ العِصَم وأراد عقد النّكاح على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وكلُّ من أمسك شيئًا فقد عصمه، والمعنى: لا تُمسكوا - أيُّها المؤمنون - بحبال النّساء الكوافر وأسبابهنّ[3]، وسبب التّعبير بطريق الاستعارة الإشعارُ بقوّة الأسباب

(1) الأزهري، معاني القراءات: 3/ 66، وابن الجزري، النشر: 2/ 387.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 331.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 331.

الَّتي قد تربط الزّوج المسلم بزوجِه المشركةِ الَّتي هي من بلدِه وقومِه، والَّتي قد يكون له معها روابط معنويَّة من صحبة وغيرها. ولهذا أضاف العصم إلى الكوافر تقبيحًا لهذا الرّباط عند المؤمنين، في إشارةٍ إلى أنَّه غير ملزم ولا ينبغي التّمسّك به؛ تسهيلًا للامتثال للنّهي في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾.

بلاغةُ الكناية:

النِّكاحُ عِصمةٌ للزَّوجين

ويُحتمل أن يُحمَلَ قوله تعالى: ﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾ على الكناية عن عقدِ الزّوجية ورباطها، الَّذي يربط كلًّا من الزّوجين بصاحبه، ويعتصم به[1]؛ أي: لا يكنْ بينكم أيُّ عُلْقةٍ زوجيَّة.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡكَوَافِرِ﴾:

المـرأةُ المحـرَّمُ الزّواج منها هي المشركةُ الوَثَنيَّة لا الكتابيَّةُ المتديِّنة

(أل) في قوله سبحانه: ﴿ٱلۡكَوَافِرِ﴾ لتعريف الجنس، والمراد من لفظ ﴿ٱلۡكَوَافِرِ﴾ المشركات[2]، بقرينة سبب نزول الآية؛ إذ جاءت بسبب ما وقع في صلح الحديبيَّة بين المسلمين ومشركي مكَّة. فالنّساء المشركات هنَّ موضوعُ هذه التّشريعات؛ لأنّها حالةٌ واقعةٌ. فَلَمّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ طَلَّقَ المُسْلِمونَ مَنْ كانَ لَهُمْ مِنْ أزْواجٍ بِمَكَّةَ، فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له بالشِّرك. كما أنَّه قد نصَّ القرآن على جواز نكاح النِّساءِ المحصناتِ من أهلِ الذِّمَّة غير المشركات، في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ﴾ [المائدة: 5]، فالقرآنُ يفسِّرُ بعضُه بعضًا، فالكوافرُ المحرَّمُ بقاؤهنَّ في عصمة الزّوج المشركاتُ لا الكتابيّات.

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 907.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 333.

نكتةُ التّعبير بصيغة ﴿ٱلۡكَوَافِرِ﴾:

تقبيحُ شأن الكفر إذا ارتبَطَ بالعلاقة الزّوجيّة

﴿ٱلۡكَوَافِرِ﴾ جمعُ كافرةٍ، وقد جمعت جمع تكسير، ولم تُجمع جمع المؤنث السّالم (الكافرات) تنفيرًا منهنَّ، واستخفافًا بهنَّ، وعزلًا لهنَّ عن مجتمع العقلاء؛ إذ أقامَهم مُقام غير العقلاء بسبب كفرهنَّ، تقبيحًا للبقاء في رباط الزّوجيَّة معهنَّ. فقد اغتال الكفرُ الَّذي لَبِسَهنّ مَعلَمَ الإنسانيَّةِ فيهنَّ. وهذا من شأنه أن يهوّن على الأزواج المؤمنين فِراقِ مثل هؤلاء الكوافر[1].

نوعُ الواو ودلالتُها:

الأمـرُ بطلب الحقوقِ شرعٌ يُربّي أهلَ الحقِّ على القوّة

أفاد العطف في قولِه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ بيانَ تمام المعنى، وبيانُه: أنَّه لمّا نهى الله تعالى عن الإمساك بعصمِ الكوافرِ وأوجب فسخ العقدِ بيَّن حكم المهرِ الَّذي أنفقه المؤمنون على المشركات، وحُكمَ المهرِ الَّذي أنفقه المشركون على المؤمنات؛ لبيانِ الإقساط بين الطّرفين؛ بمعنى: أنَّ الأمرَ لا يتمُّ بالتّفريق بين الطّرفين، بل لا بدَّ من أن يُضَمَّ إليه الإقساطُ والقسمةُ بالعدل.

بلاغةُ تسميةِ المهرِ نفقةً:

بُطلانُ زواج المؤمنين من المشركاتِ بإبطالِ المُهورِ بينهم

المراد من الأمر ﴿وَسۡـَٔلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾؛ أي: اسألوا الكفّار واطلبوا منهم المهرَ الَّذي أعطيَ نساءَكم اللّاحقاتِ بالمشركين[2]، فلمّا سمّى المهرَ المعطى سَلَفًا نفقةً دلَّ على أنَّه غيرُ مملَّكٍ لِمَن أعطيَ له؛ ليُفيد صحَّة طلبِ إرجاعِه، وتسميتُه بالنّفقة دونَ المهرِ يُفيد بطلانَ زواجهم من نساء المشركين، ومثله في قولِه تعالى: ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾، فإنَّه يفيد بطلانَ زواج المشركين من المؤمنات.

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 907 - 908.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 334، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 272.

دلالةُ التَّتْميمِ التَّقابُليِّ بالعطفِ:

واوُ العطف على معنى الجمعِ والمعيَّة لبيانِ تمامِ الحُكم

أفاد العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ معنى التّتميم لحكمِه تعالى، فيكون من قبيل الإطناب لأجلِ المعادلة بين الطّرفين في أداء كلِّ طرفٍ للطّرف الآخر. فواو العطف مفيدةٌ معنى المعيَّة بقرينة السّياق؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ لو أريد حكمُه كان مُغنيًا عنه قولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ﴾، فلمّا كُرِّرَ عَقِبَ قولِه: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ عَلِمْنا أنَّ المرادَ جمْعُ مَضمونِ الجُملتين؛ أي: إذا أعْطَوا ما عليهم فأعْطوهم ما عليكم، وإلّا فلا؛ فالواوُ مُفيدةٌ معنى المعيَّةِ هنا بالقرينة[1]. وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّه أعاده للتّأكيد؛ لئلّا يُتهاونَ به من حيث إنَّهم مشركون، ولذلك أمرهم بالسّؤال؛ أي: بأداء ما أنفقوه؛ فإنَّه حقٌّ مِن حُقوقِهم[2].

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في قوله: ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ﴾:

وجـــوبُ أداءِ حقوقِ الكافِرينَ عدالةُ الشَّريعة وامتيازُ القيَم

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ على معنى: ولْيسألْكُمُ الكفّارُ مهورَ نسائِهم المهاجراتِ إليكم؛ بمعنى أمرِ الكفّار أن يسألوا مهورَهم الّتي أنفقوها على المؤمنات، لكنَّه ليس على ظاهرِه؛ لأنَّ الكفّار ليسوا مأمورين بفروع الشّريعة؛ فيكون المرادُ أمرَ المؤمنين بأداء المهر إليهم[3]، فيكون مجازًا من قبيل إطلاق الملزوم وإرادة اللّازم[4]، وإنّما عبّر بقولِه تعالى: ﴿وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ دون أن يُقال ما معناه: ولْيُؤَدِّ المؤمنون ما أنفقه الكافرون؛ ليكونَ ما في النّظم الجليل مقابلًا لقولِه: ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾ على جهةِ العدل بين الطّرفين. وفيه إيذانٌ بأنَّ هذا حقُّهم، ولا يجوز تَجاوُزُ حقِّهم وإن كانوا كفّارًا، ففيه إشارةٌ إلى أنّ سؤال الإرجاع لِما أنفق كلُّ طرف هو من عدل الشّريعة مع جميع الملل والطّوائف.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 160.

(2) الكوراني، تفسير الكوراني، ص: 149.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 272.

(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 486.

بلاغةُ استعمال اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

أحكامُ هذه الآياتِ تُنَبِّهُ على تدبُّرِ طرائق التَّعامُل مع الأعداء وإنصافِهم

جاء التّعبير باسم الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾؛ للإيماء إلى علوِّ هذا الحكم ورفعتِه، ولتمييز المشار إليه الَّذي هو حكم اللّٰه أكملَ تمييز، وهو ما ذكره من الأمر بامتحان المؤمنات المهاجرات، ومن النّهي عن إرجاعهنَّ إلى الكفّار بعد العلم بإيمانهنَّ، ومن الأمرِ بإتيان ما أنفقه الكفّار على المؤمنة المهاجرة الَّتي كانت زوجَهُ، ومن طلب سؤال ما أنفقوا وسؤال ما أنفقه المؤمنون، وقد أشار إلى كلِّ هذه الأحكام باسم الإشارة للمفرد ولم يقل: تلك أحكام اللّٰه؛ للإشعار بأنَّ كلَّ ما ذُكرَ له بمثابة حكم واحدٍ؛ لتعلُّق بعض الأحكامِ المذكورة ببعضٍ؛ فهو حكم واحدٌ لا يتجزَّأ.

فائدةُ الإخبار عن اسم الإشارة بأنَّه ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾:

حكمُ الله عدلٌ لا جورَ فيه، ورحمةٌ لا غلظةَ فيها

لمّا أخبر عن اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ بأنَّه ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ أفاد فوائدَ، منها: بيانُ سبب رفعةِ هذا الحكم، وبيانُ كونِه حكمًا عدلًا لا جورَ فيه، وأنَّه ثابت مقرّر على المؤمنين. كما أفادَ أنَّه حكم عدلٌ بين الفريقين؛ إذ ليس لأحدٍ أن يأخذ بأحدِ جانبيه ويتركَ الآخر؛ لأنَّه حكم الإله الواحد الأحد[1]، ومن فوائد الإخبار بقولِه: ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ الإيذانُ بأنَّه حكمٌ إلهيٌّ قد شرّعه للبشر لينتفعوا منه، كما أنَّه لمّا أسند ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ إلى ما ذكره من الأحكام الَّتي أشير إليها بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ كان كأنَّه قيل: ذلكم حكم اللّٰه فاتّبعوه وامتثلوا له[2]؛ ففي مجيء قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ إشعار بالحثِّ على الامتثال لحكم اللّٰه تعالى.

دلالةُ جملةِ ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ﴾ بينَ الاستئناف والحال:

تَحتمِلُ جملةُ ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ﴾ أن تكون مستأنفةً، وفائدتها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 161.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 272.

في تعدُّدِ الأخبارِ تكثيرٌ للمعنى وتعظيمٌ لشأنِ حكم الله

إثباتُ حكم عامٍّ؛ بمعنى: أنَّه لَمّا أخبر عمّا ذكره من الأحكام بأنَّها حكم اللّه أخبر بمعنًى آخرَ له صلةٌ بما قبله، وهو أنَّه تعالى هو يحكم بينكم. ففي تعدُّدِ الأخبار تكثيرٌ للمعنى وتعظيمٌ لشأنِ حكم اللّه. ويدخلُ فيما يَحكُمُ به اللّه ما ذكره من الأحكام السّابقة؛ ففي جملة الاستئناف تأكيدٌ وحثٌّ على رعاية حكم اللّه الَّذي ذكرَهُ والعملِ به. كما تَحتمِلُ أن تكون حاليَّةً، بتقدير ضمير محذوف عائد إلى ﴿حُكۡمُ﴾، وتقدير الكلام: يحكمه بينكم، فتكون الحالُ مؤكِّدةً لصاحبها ﴿حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾، وفائدةُ التّأكيد: تقريرُ المعنى للحثِّ على الالتزام بحكمِه تعالى.

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ المضارع:

حكمُ الله بالعدلِ مُتجدِّدٌ

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿يَحۡكُمُ﴾؛ للإشعار بأنّ آثارَ حكمِه تتجدّد؛ أي: أنَّه لا يزال يحكمُ بين النّاس بالحكم العادل، والإنصاف المبين، وهو المستحقُّ أن يوصفَ بأنّه الحاكم.

نوعُ الواو في جملةِ الفاصلة:

الاستئنافُ بالواوِ يَربِطُ ما بعدَها بما قبلَها من حيث المعنى

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ استئنافيَّة؛ أفادت أنَّ ما بعدها جملة استئنافيَّة؛ لتكون الجملة مستقلَّة بنفسِها مع صلتِها بما قبلها في المعنى.

بلاغةُ التّذييل:

ما مِن حُكْمٍ من أحكامِ الشّريعة إلّا للـه تعالى عِلْمٌ بـه، وله حِكمةٌ فيه

جملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تذييليَّة لعمومِها وكلّيّتها، فتكون بمثابة المَثَل في حكايتِها والتّمثُّل به في كلِّ حكم يحكمه اللّه وفي كلِّ أمرٍ يقضيه؛ لتفيدَ أنَّ هذا الحكمَ يقتضيه علمُ اللّه بحاجاتِ عبادِه وتقتضيه حكمتُه؛ إذ أعطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه[1]. كما أفادت الجملة التّذييليَّة أنَّه تعالى عليم بكلِّ شيءٍ وحكيم في كلِّ أمرٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 161.

ويدخل فيه دخولًا أوّليًّا علمُه بأحوالِكم وحقيقةِ ما في صدورِكم، وعلمُه بما تحتاجونه، كما يدخل فيه أنَّ كلَّ ما يحكم فيه هو بحكمتِه البليغة، فما مِن حُكمٍ مِن أحكامِ الشّريعة إلّا له حِكمةٌ عندَ اللّهِ تعالى ﷻ، قد تظهرُ لنا، وقد نغفلُ عنها لقصورنا أو لتقصيرنا في الطّلب.

دلالةُ اسميَّةِ الفاصلة:

ثُبوتُ المعنى ورُسوخُه

جاءت الفاصلة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ اسميَّةً لثبوت مضمونها، كما أنَّ الجملة الاسميَّة أقوى من الفعليَّة في المعنى، وهذا شأن الجمل التّذييليَّة الَّتي يقصد بها الدَّلالة على معنًى عامٍّ.

دلالةُ إظهارِ اسمِ الجلالة:

إظهارُ اسمِ الجلالةِ في سياقِ آياتِ التّشريعِ أقوى دلالةً وأفخمُ وقْعًا

آثر النّظم الكريم إظهارَ اسمِ الجلالة في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ولم يقل: (وهو عليم حكيم) مع قرب ذكرِه سبحانه؛ لتقرير شأن ألوهيَّة اللّه تعالى في أحكامِه، كما أنَّه ذكَرَ الاسمَ الجليل في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ في معرض ذكر حكمِه، وذكَرَ الاسمَ الجليل ظاهرًا في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾؛ لتكونَ الجملةُ تذييليَّةً يُتمثَّلُ بها في الكلام.

نكتةُ تقديمِ صفةِ العِلمِ على الحِكمة:

أحكامُ اللهِ مَبْنيَّةٌ على علمٍ بليغٍ بمصالِحِ العبادِ، وأحكامُهُ مُحاطَةٌ بالحِكمة

لمّا قال اللّه تعالى في بداية الآية: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ وقال: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾، ثمَّ انتهى في الآية إلى ذكر الحُكم في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ﴾ الَّذي يفيد أنَّه تعالى حكم بينهم بالعدل والحكمة ناسَبَ مجيءُ الوصفين مقترنين، مع تقديم لفظ ﴿عَلِيمٌ﴾ على ﴿حَكِيمٌ﴾؛ إشعارًا بأنَّ الحكمةَ مِن آثارِ العلم، فكلُّ أحكامِه هي عن علم بليغٍ منه تعالى بمصالِح العباد وحاجاتِهم، كما أنَّ أحكامَهُ قد شرَّعها بحكمةٍ بليغةٍ منه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الامتحانُ والاختبار:

الاختبـــارُ تحصيلُ الخبرِ بحقيقة الشّيء، والامــتحـــانُ تصفيةُ الـشّيءِ من الكَدَر

الاختبار من الخُبرِ، وهو العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخَبَر، وقيل: العلم ببواطن الأمور وحقائقها[1]. فالاختبار يكون من جهة الخبر للعلم بحقيقةِ الشّيء[2]. أمّا الامتحان فهو بمعنى تخليص الشّيء وتصفيتِه؛ لتُعرَفَ حقيقته عن طريق النّظر والتّفتيش. فالاختبار يقصد به تحصيل الخبر بحقيقة الشّيء، والامتحان يقصَد به تصفية الشّيء، فالنّظر في الاختبار إلى المعلومة الحاصلة منه لمعرفة حقيقتِه. ومنه قول اللغويين: خَبَرْتُ الأمرَ أَخْبُرُهُ إذا عَرَفْتَهُ عَلى حَقيقَتِهِ[3]. والنّظر في الامتحان إلى تصفية الشّيء ممّا كَدِرَ به مثلُ تصفية الذّهب والفضَّة من الشّوائب؛ فالأولويَّةُ في الامتحان أن يكون المُمتَحَن مُصفًّى مهذَّبًا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾؛ لأنَّه وصَفَهنَّ بالإيمان والهجرة.

---

(1) الراغب، المفردات: (خبر).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (خبر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خبر).

﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ١١﴾ [المتحنة: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ إلى بيانِ تَتْميماتِ الأحكامِ الشّرعيَّة

لَمّا كان المَظْنونُ بالكفار عدمَ العدل، فلا يُعطونَ المؤمنين مهورَ نسائِهم الكافرات قال مداويًا لذلك الدّاء: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾[1]، فهو انتقالٌ من بيان الحكم التّشريعي العام إلى بيان الحكم التّشريعي في بعض فروعه الَّتي قد تَحدُثُ تَتْميمًا وتكميلًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَاتَكُمۡ﴾: يدلُّ الفَوْتُ على بُعْد الشّيء عن الإنسان بتقدُّمه عليه حتّى صارت بينهما مسافةٌ بحيث يتعذّر إدراكُه والوصول إليه[2]. ففيه معنى سبقِ الشّيءِ وعدمِ إدراكِه، والمفارقة والمباعدة. ومنه قولهم: فاتَني كَذا؛ أي: سَبَقَني وذهب عنّي[3]، ومصدر فاتَ: الفَوْتُ والفَواتُ، ومعنى ﴿فَاتَكُمۡ﴾: سبقكُم وانفلتَ منكُم وتباعد عنكم[4].

2) ﴿فَعَاقَبۡتُمۡ﴾: أصل الكلمة من العقِب وهو مُؤخَّرُ الرّجل[5]. ويدلُّ اللّفظ على تَأْخيرِ شَيْءٍ وإتْيانِهِ بَعْدَ غَيْرِهِ[6]. وكلُّ شيءٍ جاءَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 520.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فوت).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فوت).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 240.
(5) الراغب، المفردات: (عقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).

بَعْدَ شَيْءٍ، وخَلَفه أو كان آخرَهُ فَهوَ عَقبُه[1]، والتّعقيب أن يأتي شيءٌ بعد آخر. والعُقْبَة: أن يتعاقب اثنان على ركوبِ مركوب. والعُقْبةُ: النَّوْبةُ، ومنه قول الرَّجُلِ لزَميله: أعْقِبْ وعاقِبْ؛ أي: انْزِلْ حَتّى أرْكَبَ عُقْبتي[2]؛ أي: نوبتي. والعقبى جزاءُ الأمر؛ لأنَّه يكون آخرًا، وقوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ في الآية إمّا بمعنى: فجاءت نوبتكم في أداء المهر فيكون من التّعاقب، وإمّا بمعنى: فأصبتم عُقبى؛ أي: غنيمةً[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

حكمةُ الإسلام لا تَعني ضعفَهُ، وحيلةُ المسلم لا تقودُ إلى الاحتيال

تُبيِّن الآية أنَّه إنْ فرَّ بعضُ أزواجِكم - أيُّها المؤمِنونَ - مُرتدّاتٍ إلى الكُفّارِ ولَحِقْنَ بهم ولم يُعطوكم المُهورَ الَّتي دَفَعتُموها لهنَّ، فجاءت نوبتُكم في أداء المهرِ فأعطوا المؤمنينَ الَّذين فَرَّت أزواجُهم إلى الكُفّارِ ما دَفعوه إليهنَّ من مُهورٍ[4]. وفي وجهٍ آخرَ لتفسير ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: وإن فرَّ بعضُ أزواجِكم - أيُّها المؤمنونَ - مُرتدّاتٍ إلى الكُفّارِ ولَحِقْنَ بهم ولم يُعطوكم المُهورَ الَّتي دفعتموها لهنَّ، فظفرتم بالمشركين وانتصرتم عليهم وغنمتم منهم فأعطوا الَّذين ذهبت أزواجهم من الغنيمة مثلَ ما أنفقوا عليهنّ من الصّداق، وخافوا اللّهَ الَّذي أنتم به مُؤمِنون[5]. قال ابن عطيَّة: "هَذِهِ الآيَةُ كُلُّها قَدِ ارْتَفَعَ حُكْمُها"[6]. وقال أبو بكر ابن العربي القاضي: "كانَ هَذا حُكْمَ اللّهِ مَخْصوصًا بِذَلِكَ الزَّمانِ في تِلْكَ النّازِلَةِ بِإجْماعِ الأُمَّةِ"[7].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 74، وابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 368.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 206.
(5) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 286، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 74.
(6) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 298.
(7) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 160.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ﴾ عاطفة، وقد جاءت لإتمام بيان حكم الآية الَّتي قبلها، فهو من عطف الشّيء على ما يتمّم معناه. وبيانه: أنَّه تعالى لمّا ذكر مجيء المؤمنات مهاجرات وكان من حكمهنَّ أن يؤتى الكفّار ما أنفقوا عليهنَّ، ومن متمّمات الحكم أن يُسألَ الكفّارُ مهورَ أزواج المؤمنين اللّاتي ذهبن إليهم؛ أي: واسألوا أولئك الَّذين ذهبت نساؤكم إليهم ما أنفقتم، فلمّا بيَّن هذا الحكمَ الأوّل عطف عليه نوبةَ أداء المسلمين الَّذين ذهبت أزواجهم إلى الكفّار المهرَ من صداقِ زوجات المشركين اللّائي جِئۡنَ مؤمناتٍ مهاجراتٍ.

عطفُ تمام المعنى التّشريعيِّ لإشباعِ رغبة السّائلين

دلالةُ التَّعبير بأداة الشّرط (إن):

التّعبير بأداة الشّرط (إن) في قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ للإشعارِ بنُدرة وقوع مثل هذا الفوت وتقليله، وأنَّه ينبغي ألّا يقعَ، فمثلُ هذا الفوت حقُّه أن يكون نادرَ الوقوعِ، ونكتةُ ذكر مثل هذا التّشريع الافتراضي تتميمُ المعنى التّشريعي؛ لبيان عدل الشّرع، وأنَّ اللّه ﷻ يُشرِّع للعبادِ ما فيه مصلحتهم، وأنَّ المطالبة بالحقوق مَسلَكُ النّابهين، بقطع النّظر عن وقوع مثل هذه الحالة من عدمه.

تشريعاتُ القرآنِ تُعالِجُ جميعَ الأحوال الواقعةِ والمتوقَّعة

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردةِ ﴿فَاتَكُمۡ﴾:

في لفظ ﴿فَاتَكُمۡ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّة؛ إذ شبَّه ذهاب المرأة وانفلاتها عن زوجها المسلم بفوت الشّيء وتباعُدِه، بحيث لا يمكن إدراكه، فالزّوجة الَّتي ارتدّت قد سبقت إلى الكفرِ بذهابها إلى الكفّار، ففيه ذمٌّ لفعلِهنَّ وتقبيح شديد لالتحاقهنَّ بالكفّار. وفي الاستعارة إيماء إلى انعدام تفكيرِهنَّ وتسرُّعهنَّ في الانفلات. ويُحتمَلُ أن تكون الاستعارة على معنى تشبيه ضياع الحقِّ بالفَوت والانفلات بحيث لا يمكن الوصول إليه، فيكون لفظ ﴿فَاتَكُمۡ﴾

الأحكامُ التّشريعيَّةُ مُضمَّنةٌ بالقيم التّربوية والإرشادات النّفسيّة

استعارةً تصريحيَّة تبعيَّة لضياعِ حقِّ المؤمنين[1]، بسببِ ارتداد زوجاتِهم وذهابهنَّ إلى الكفّار.

ويوحي لفظُ الفوت بذهابِ الشّيءِ وعدمِ الطّمع في تحصيله، فتكونُ الآية قد حَملتْ إرشادًا نفسيًّا قيِّمًا للأزواج المؤمنين بأن لا يَطمَعوا في عودة زوجاتهم لهم بعد ارتدادهنَّ إلى الكفرِ، أو بعد تفضيل الكفر على الإيمان، ففي المفردةِ رسالة تربويَّةٌ اجتماعيّة مضمّنةٌ في التّشريع.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿شَيۡءٞ﴾:

كلُّ مَن آثَرَ الشِّركَ على الإيمان فقد آثَرَ الهَوانَ على الإحسان

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿شَيۡءٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ على معنى: (بعضُ النّساء)، فيكون المعنى: وإن فاتكم شيءٌ من النّساء، فيكون التّعبير بلفظ ﴿شَيۡءٞ﴾ استعارةً تصريحيَّة بتشبيه المرأة الّتي ارتدّت بلفظٍ دالٍّ على العموم الَّذي يُستعمل مع غير العاقل؛ لقصدِ تحقير ما فات من الزّوجات اللّائي أبَيْنَ الإسلامَ، فكأنّهنَّ باختيارهنَّ الكفرَ على الإسلام قد التَحَقْنَ بغير العاقل؛ لاختيارهنَّ الكفرَ على الإيمان، كما يُشير اختيار لفظ ﴿شَيۡءٞ﴾ في سياق خطاب المؤمنين في قولِه: ﴿فَاتَكُمۡ﴾ إلى تحقيرِ الأمر وتهوينِه على المسلمين؛ لأنَّ مَن فاتَ من أزواجهم إلى الكفار هيِّنٌ حقير، فيستحقُّ الهونَ والهَوان[2]. ويُحتَمَلُ أن يكون المرادَ المهرَ، فيكون المعنى: وإن فاتكم مهرٌ من مهور أزواجكم.

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿شَيۡءٞ﴾:

ما فاتَ الأزواجَ المسلمين من رِدَّةِ زوجاتِهم حقيرٌ قليلٌ لا يُؤْبَهُ به

نُكِّر لفظ ﴿شَيۡءٞ﴾ للتّهوين ممّا فات من النّساء إلى الكفّار، مع ما فيه من دلالة العموم؛ أي: أيُّ شيءٍ منهنَّ، وقرّر هذا العمومَ مجيءُ لفظِ ﴿شَيۡءٞ﴾ نكرةً في سياق الشّرط.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 162.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 272.

دَوَرانُ المعنى بينَ الابتداءِ والبيان

معنى ﴿مِّنۡ﴾ الجارَّة:

الحرفُ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ ابتدائيّة[1]؛ أي: فاتكم ابتداءً من جهةِ أزواجكم، ويُحتمَلُ أن تكون بيانية على تقدير: وإنْ فاتَكم شيءٌ هو أزواجُكم.

بيانُ طرائقِ التّفكير وكشفُ غاياتِ الأفعال

نكتةُ تعديةِ الفعل (فاتَ) بحرفي ﴿مِّنۡ﴾ و﴿إِلَى﴾:

عُدّيَ الفعل (فاتَ) في قوله تعالى: ﴿فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ بحرفي الجرِّ ﴿مِّنۡ﴾ و ﴿إِلَى﴾؛ لتضمين الفعل معنى الفِرار[2]، فيكون المعنى: فاتَ شيءٌ وانفلَتَ وفرَّ ابتداءً من أزواجكم انتهاءً إلى الكّفار، ففيه بيانٌ للبداية والغاية؛ أي: بدايةُ الانفلات هي أزواج المؤمنين المرتدّات، والغاية هي الكفّار، ففيه إشارةٌ إلى أنّهن قَصَدْنَ مِن فوتِهنَّ وانفلاتِهنَّ من البداية وصولَهنَّ إلى الكفّار والتّحيُّزَ إليهم. كما يدلُّ التّعبير بحرف الجرِّ ﴿إِلَى﴾ على عجزِكم عن الوصول إليهنَّ بعد انفلاتهنَّ إلى الكفّار ووصولهنَّ إليهم، ففي الحرفين بيانٌ لطرائق التّفكير، وفضحٌ لغايات الفوت.

كلُّ مُخالِفٍ في الدّين يَشمَلُهُ حكمُ الآية

فائدةُ استعمالِ لفظةِ ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ دون المشركين:

آثَرَ النّظم الكريم استعمال لفظةِ ﴿ٱلۡكُفَّارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ دون لفظة (المشركين)؛ ليُفيدَ أنَّ الحكم يشملُ كلَّ مخالفٍ في الدّين، ولا يقتصر على المشركين من قريشٍ، فَعِلَّةُ الحكم منوطةٌ بكلّ كافرٍ باللّه ورسولِه ﷺ.

يتعيَّنُ إيجازُ القصرِ من اختيارِ المُفرداتِ والتّراكيبِ ودقّةِ النَّظْم

بلاغةُ إيجازِ القَصْر:

اشتملتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ إيجازًا بليغًا دلَّ عليه مجموع الكلامِ في الآية، وتقديره: وإن فاتكم شيء من أزواجِكم إلى الكفّار، وأبى الكفّار إعطاء مهور

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 272.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 309، وابن عادل، اللباب: 19/ 32، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 163.

النّساء اللّاتي ذهبن إليهم، فعاقبتم وكانت لكم النّوبة فَلْيُعْطِ المُؤْمِنونَ لِإِخْوانِهِمُ الَّذينَ ذَهَبَتْ أَزْواجُهُمْ ما يُماثِلُ ما كانوا أَعْطَوْهُ مِنَ المُهورِ لِزَوْجاتِهِمْ[1]، وهذا الإيجاز مأخوذةٌ دلالاتُهُ من اختيارِ المفردات والأساليب، وتركيبِ الألفاظ، تقديمًا وتأخيرًا، وتصريحًا وإيماءً.

بلاغةُ الأوجُهِ المجازيّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾:

ثَراءُ الاحتِمالِ للأوجُهِ البلاغيّةِ خصوصيةُ النّظمِ القرآنيِّ في الكشفِ عن بديعِ المعاني

اشتُقَّ فعل ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ من العقبة وهي النَّوبة لا من العقاب؛ ففيه استعارةٌ؛ إذ شبَّه ما حكَمَ به على المسلمين والكافرين من أداء هؤلاء مهورَ نساء أولئك تارة، وأداء أولئك مهورَ نساء هؤلاء مرَّة أخرى بأمرٍ يتعاقبون فيه ويتناوبون عليه، كما يُتعاقَبُ في الرّكوب على الدّاوبِّ؛ أي: فصِرتُم منهم إلى الحال الَّتي صاروا إليها منكم، وذلك بأن يفوت إليكم شيء من أزواجكم، فاللَّفظ على الاستعارة التّصريحيّة التّبعيَّة، والمرادُ لزوم أداء المهر على المؤمنين والمشركين، ففيه تعليمُ العدل في التّعامل مع الآخر.

ويُحتمل أن يكون الفعلُ ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ محمولًا على الاستعارة التّمثيليَّة من تشبيه الحكم بهيئة أداء المهر من المؤمنين والكفّار بأمرٍ يتعاقبون فيه كما يُتعاقَبُ في الرّكوب على الجَمَلِ والدّواب، بأن يركبَ هذا عقبَهُ ويركب الآخرُ عقبَهُ؛ فيُقال: عاقبتم؛ أي: تعاقبتم في الرّكوب، فمعنى ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: فجاءت عقبتكم ونوبتُكم من أداء المهر، فآتوا من فاتته امرأته إلى الكفار مثلَ مهرها من مهر المُهاجِرة، ولا تؤتوه زوجَها الكافرَ[2].

ويُحتمل أن يكون لفظ ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ مجازًا مرسلًا عن الغنيمة، وذلك بأن يكون (عاقَبتُم) من العُقبى؛ أي: الغلبةِ الَّتي يتبعها الغنيمة، وتقدير الكلام: فغنمتم، وذلك من إقامة السّبب مُقام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 162.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 519، وابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 298.

المُسبَّب؛ لأنّ الغنيمة مسبَّبةٌ عن الغَلَبةِ؛ إذ المعنى: أصبتموهم بعقوبة حتى غنمتم[1]، والأوجُهُ البلاغية مُحتمَلةٌ وسليمةٌ مع تمامِ المعنى وصحّتِه، وهذا من براعة الاستعمال القرآنيّ وبلاغتِه.

نوعُ الفاء وفائدتُها:

لمّا كانت الفاء للتّعقيب والتّرتُّب، وجاءت واقعةً في جواب الشّرط في قولِه: ﴿فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ أفادت وُجوبَ إعطاء حقوق المهر للمؤمنين من دون تأخير.

بلاغةُ التّعبير بالاسم الموصول:

الإيماءُ إلى علّيّةِ الحُكم ومُعلوميّةِ الصِّلة

جاء التّعبير عن المؤمنين بصيغة الموصول وصلته في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم﴾، ولم يقل: فآتوا المؤمنين مثلَ ما أنفقوا، وذلك أنَّ التّعبير بالموصول وصلتِه يُشير إلى سبب الحكم وعلَّته، فسببُ الأمرِ بإتيانِهم مثلَ المهرِ الَّذي أنفقوه هو ذهاب أزواجِهم، كما أنَّهم معروفون بين النّاس، فجَمَعَ الاسمُ الموصول بين المعلوميّة والعلّيّة.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿ذَهَبَتۡ﴾:

ذهابُ الباطلِ غيرُ مأسوفٍ عليه، ولا يَستحِقُّ التَّشوُّقَ إليه

جاء التّعبير بلفظ ﴿ذَهَبَتۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم﴾؛ للدِّلالة على معنى عدم القدرة على إرجاعِ النّساء اللّاتي ذهبْنَ إلى الكفّار[2]، وعدمِ التّمكُّنِ من ردّهنَّ، وسببُ التّعبير بلفظ الذّهاب الإشارةُ إلى أنَّ هؤلاء الزّوجاتِ إنّما هنَّ شيءٌ قد ضلَّ وخَسِرَ وذهَبَ في مَتاهةِ الكفرِ؛ فذهَبَ بغيرِ رَجْعةٍ، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ مثل هؤلاء لا تأسى عليهنَّ نفسٌ ولا يحزنُ لهنَّ قلبٌ[3].

براعةُ الدِّقّةِ في التَّعبيرِ بالمِثْل:

استعمَلَ النّظم الكريم كلمةَ (المِثْل) في قولِه تعالى: ﴿مِّثۡلَ مَآ

---

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 189.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 163.

(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 909.

مِثْليّةُ الإنفاق تَعكِسُ العناية بالعدالةِ ورعاية أصحاب الحُقوق

﴿أَنفَقُواْۚ﴾؛ للإيماءِ إلى الدّقَّة في استيفاء الحقوق، وليكون بمثابة القصاص من فعل الكفّار، فيجب على المسلمين أن يُعطوا المسلم الَّذي فاتت امرأته الى الكفار مثلَ مهر زوجته الفائتة من مهرِ هذه المرأة المهاجرة؛ لأنَّ المقصود تعويض المسلم مهرَ زوجتِه الفائتة الَّتي أبى الكفّار أن يعطوا مهرَها، فيكون المهر الَّذي يُستوفى مساويًا لِما سبق إنفاقه، من دون زيادةٍ ولا نقصٍ ولا إجحافٍ. كما أنَّ التّعبير بالمِثْل مناسبٌ لسياق الآيات الدّالَّة على وجوب الإقساط في القسمة والعدل في الحكم.

بلاغةُ جُملةِ التَّذييل:

تقوى الله أصلٌ في ثبات المسلمين على رعايةِ العدل مع الآخرين

جملةُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ تذييلٌ مناسبٌ لِما تقدَّم؛ ففي التّذييل حثٌّ للمسلمين على رعاية العدل ولو مع الكفرةِ[1]، وتحريضٌ على الوفاء بما أمرهم الله، وأن لا يصدَّهم عن الوفاء ببعضِه معاملةُ المشركين لهم بالجور وقلَّة النَّصَفَة، فَأمَرَ بِأنْ يُؤَدّيَ المُسْلِمونَ لإخْوانِهِمْ مُهور النِّساء اللاء فارَقوهُنَّ ولَمْ يَرْضَ المُشْرِكونَ بإعْطائِهم[2]. ولمّا كانت جملةُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ تذييليَّةً أفادتْ دخولَ رعاية العدل مع المؤمنين وغيرِهم في الأمرِ بالتّقوى دخولًا أوّليًّا، فإنَّ الأمر بتقوى الله المبنيّة على الإيمان به هي الأصل في معاملة الآخرين بما يُرضي الله تعالى، وهي الَّتي تَحفَظُ للمجتمع المسلم هيبتَهُ وبقاءَهُ سامقًا في نظر الآخرين.

غرضُ فعلِ الأمرِ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

التّقوى مُلزِمةٌ باعتبارِ أنّ مآلها واجبُ التَّنفيذ

لمّا جاء أمرُ المؤمنين بالتّقوى في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، وكان الأمرُ في سياق رعايةِ العدل في المعاملة أفاد تعلَّق الأمر بالتّقوى

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 293.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 163.

بالحقوق المادّيَّة؛ أي: في الإعطاء والمنع وغير ذلك[1]، كما يتعلّق بالعبادة البدنيَّة، فالأمر بالتقوى مُلزِمٌ لا لأنّه يُعين على رفعة العباد في سُلَّم الوصول إلى رضا ربّ العالمين فحسب، بل لأنّه يشتمل كذلك على أداء الحقوق وعدم التّهاون بها، فهو أمرٌ ملزمٌ باعتبار أنّ مآلَهُ واجب التّنفيذ، لا باعتبار أنّ مآله مندوب العمل.

نكتةُ إيثارِ عنوانِ الألوهيَّة:

الألـوهـيَّـةُ هي العنوانُ الأنسبُ فـــي سـيـاق التّشريع

أوثِرَ اختيار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ دون أن يُقال: (واتّقوا ربَّكم)؛ لمناسبتِه لمقام رعاية الإقساط في القسمة والعدل في الحكم الَّذي يُناسبه وصف الألوهيَّة. كما أنَّ في التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ إيماءً إلى صدق إيمان المؤمنين لتوحيدِهم له سبحانه، ففيه إشارة إلى أنَّ الإيمان الَّذي يَعصِمُ من الجَور والظّلم هو إيمان الموحّدين باللّه تعالى.

نكتةُ الوصفِ بالاسم الموصول:

الإيـمـانُ هـو ما يُـمـيِّـزُ المتَّـقين ويـجـعَـلُـهـم في دائرة المقبولين

وُصِفَ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾؛ للإيذان بوجه بناء الخبر وعلَّة الأمر بالتّقوى، كأنّه قيل: إنَّ إيمانَكم باللّه تعالى هو الَّذي يقتضي تقواه تعالى ويكونُ سببًا لها، وفيه إشارةٌ إلى تخصيص المؤمنين بالإيمان الدّاعي إلى التّقوى الَّذي يُميِّزهم عن المشركين؛ أي: لمّا لم يؤمن المشركون باللّه تعالى انتَفَتْ عنهم التّقوى، فانتفى عنهم وازِعُ الإنصاف والعدل، فلا تكونوا مثلَهم[2]، وهذا إلهابٌ وتهييجٌ للمؤمنين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجُملةِ الاسميَّة:

الإيـمـانُ ثـابـتٌ كـاسـمِـهِ راسـخٌ كرَسْمِه

جاءتْ صلة الموصول جملةً اسميَّةً مُكوَّنة من مسندٍ إليه ومسند ﴿أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾؛ إشعارًا بتعظيم شأنِ الإيمان باللّه تعالى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 516.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 164.

وتوحيدِه، وإلهابًا للمؤمنين كلَّ الإلهابِ، هازًّا لهم بالوصف بالرُّسوخِ في الإيمان والتّمكّن منه[1]، وفي الجملة دليلٌ على أنَّ الإيمانَ لا يَزولُ بزوال التَّقوى[2]، وأنَّ الإيمان أصلٌ للتّقوى؛ فقد أمر اللّه تعالى بالتّقوى بعد إثباتِ الإيمان.

دلالةُ تقديم ﴿بِهِۦ﴾ على المُسنَد:

الإيمانُ الممدوحُ عليه المؤمنون هو ما كان بالله تعالى

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ في قولِه تعالى ﴿أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ على الخبر ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾؛ ليفيدَ التَّقديمُ التّخصيصَ والاهتمامَ بالمُقدَّم؛ أي: الَّذي أنتم به وليس بسواه مؤمنون؛ ففيه مدحٌ للمؤمنين بإثبات إيمانِهم باللّه وتمكُّنِهم فيه، كما أنَّ في تقديم ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿مُؤۡمِنُونَ﴾ رعايةً للفاصلة ومناسبةً لرُؤوسِ الآي.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التّقوى والخشية:

التّقوى تَعُمُّ المؤمنين، والخشيةُ تَخُصُّ مَن له عِلْمٌ بالله

التّقوى من الوقايةِ، ففيها معنى الاحتراسِ ممّا يُخاف والحذرِ منه، فالتّقوى تدفع الضّرر. وحاصل التّقوى اجتنابٌ وامتثالٌ في الظّاهر والباطن. أمّا الخشيةُ فهي الخوفُ المقرون بالمعرفة والتّعظيم والهيبة؛ فالخشيةُ لا تكون إلّا عن علم بمن تخشاه. فالخشيةُ خوفٌ خاصٌّ. والتّقوى تكون لجميع المؤمنين، والخشية إنّما تكون لمن له معرفةٌ باللّه وعلمٌ بأوصافِه. قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، فالتّقوى أعمُّ من الخشية، ولهذا كان أكلُ الحلالِ الطّيِّب مَثَلًا من التّقوى، ولا يقال: إنَّ أكلَ الحلالِ يدلُّ على خشيةِ اللّه تعالى.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 516.

(2) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 5/ 471.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الممتحنة: 12]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن الأمرِ بالامتحان إلى بيانِ كيفيَّتِهِ والتَّعريفِ به

لمّا خاطب اللّه سبحانه المؤمنين الَّذين هم موضعُ الذَّبِّ والحماية والنّصرة بما وطّن به المؤمناتِ في دار الهجرة، فوَقَعَ الامتحانُ وعُرِفَ الإيمانُ أمَرَ النَّبيَّ ﷺ بعد الحكم بإيمانهنَّ بمُبايَعتِهنَّ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾[1]، فعرَّف طريقةَ الامتحان وبيَّنها، قالت عائشة رضي الله عنها: ما كان النَّبيُّ ﷺ يَمتحِنُ إلّا بالآية ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾: يدور معنى (بَيَعَ) على مقابلة شيءٍ بشيءٍ. والبيعُ ضدُّ الشّراء، وهو الصَّفْقةُ عَلى إيجاب البيْع. والمبايعة من البيعِ بمعنى المعاقدة والمعاهدة[3]. وليس من الباعِ الَّذي يُقال فيه: باعَ يَبوعُ إذا مدَّ باعَه[4]. والبَيعةُ والمبايعة صفقةٌ تُبذل فيها الطّاعةُ مقابلَ الرّعايةِ والأمنِ، أو مقابلَ ثوابِ اللّه وفضْله[5]. يُقالُ: بايَعَ السُّلطان إذا تضمَّنَ بَذْلَ الطّاعةِ بما رضَخ له[6]؛ فسُمّيت المعاهدة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 522.
(2) البخاري رقم الحديث: (2713)، ومسلم، رقم الحديث: (1866).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (بيع).
(4) الراغب، المفردات: (بيع).
(5) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بيع).
(6) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (بيع).

بين المعاهدين مبايعةً تشبيهًا للمعاهدة بالبيع في الأحكام والإبرام، وفي كونِها صفقةً ملزمةً بين طرفين[1].

2) ﴿بِبُهْتَٰنٍ﴾: البهتان هو افتراءٌ وكذبٌ يَبهَتُ سامِعَه لِفَظاعَتِه، يُقالُ: بَهَت فُلانٌ فُلانًا: إذا كَذَب عليه، وأصلُه مِن قولِهم: بُهِت الرَّجُلُ: إذا دُهِش وتحيَّرَ[2]. ويُقال: رأى شَيْئًا فبُهِت؛ أي: ينظرُ نَظر المتحيّر المتعجِّب[3]؛ فالبُهتانُ كَذِبٌ بحيث يسكت سامعُهُ متحيِّرًا منه لعِظَمِه وفظاعتِه، ثمَّ جُعِل كلُّ باطلٍ يُتحيَّرُ مِن بطلانِه بُهتانًا، فالبهتان هو الخبر الكاذب الصّريح في كذبه، والَّذي يَجعَلُ مَن قيل فيه يقف مبهوتًا ومتحيِّرًا من شدَّة أثرِ هذا الكذب السّافر. والبهتان المفترى في الآية هو أن يُلْحِقَ النّساءُ برجالهنَّ أولادًا من غيرِهم بزنًا أو غيره؛ بمعنى: أن تلتَقِطَ المرأةُ الوَلَدَ فتَقولَ لزَوجِها: هذا ولَدي منك[4].

3) ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾: يدور معنى الفَري على قطعِ الشّيء. ومِنَ البابِ: فُلانٌ يَفْري الفَرِيَّ، إذا كانَ يَأْتي بِالعَجَب، كَأنَّهُ يَقْطَعُ الشَّيْءَ قَطْعًا عَجَبًا[5]. وأصلُه من قطعِ الجلدِ للخرزِ والإصلاحِ، والافتراءُ بصيغة الافتعال اختِلاقُ الكَذِبِ للإفسادِ[6]. كأنَّه يقتطع الكذب ويختلقه من غير تحقيقٍ. وافْتَرى الكَذِبَ يَفْتريه: اخْتَلَقَهُ. وافترى فُلانٌ على فُلانٍ: إذا قذَفَه بما ليس فيه[7]. وكل ما في القرآن من لفظ (الافتراء) فهو بمعنى اختلاقِ ما لا حقيقة له[8]. فالافتراءُ هو اختلاق الكذب واختراعُ الشّخص له من عند نفسه. ومعنى ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾: يختلقْنَهُ ويتعمّدْنَ كذبَه.

4) ﴿يَعْصِينَكَ﴾: يدور معنى عصى على امتداد الشّيء في صلابةٍ وغِلَظٍ بحيث لا يَنْثني[9]. وأصله من العصا المعروفة، وهي ما يُضربُ به ممّا يكون مصنوعًا من الخشب بحيث يكون فيه صلابةٌ وشدّة، وسمّي الخروج عن الطّاعة عصيانًا، وأصله أن يتمنّع

(1) اسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 488.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (بهت).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (بهت).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 463، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 72.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فري).
(6) الراغب، المفردات: (فري).
(7) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فري).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عصا).

بِعَصاهُ[1]. أو لعدم انقيادِه وانثنائِه للأمر[2]. وعَصيَ الرّجلُ في القَوْم بِعَصاه فَهوَ يَعْصي فيهِمْ إذا عاثَ فيهِمْ عَيْثًا[3]، ومعنى ﴿يَعۡصِينَكَ﴾: لا يَخرُجْنَ عن طاعتك فيما تأمُرُهنَّ به.

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

مبايعةُ المؤمناتِ بشروطٍ معلومةٍ قائمةٍ على أصول الإسلام ومقاصدِه

تُخاطب الآية الكريمة رسول اللّه ﷺ: إذا جاءَكَ المؤمِناتُ يُبايِعْنَك ويعطينك العهدَ على الالتزامِ بأن لا يشركنَ باللّه شيئًا من الأشياء ولا يعبدنَ أحدًا غير اللّه تعالى، ولا يَسرِقْنَ، ولا يَزنينَ، ولا يَقتُلْنَ أولادَهنَّ خَوفًا مِنَ الفَقرِ أو غَيرِه، ولا يُلْحِقْنَ بأزواجِهنَّ أولادًا مِن غَيرِهم، ولا يَعصينَك في معروفٍ ممّا تأمُرُهنَّ به مِن طاعةِ اللّهِ، أو تنهاهنَّ عنه من تَركِ مَعصيتِه فبايِعْهنَّ على الوَفاءِ بتلك الشُّروطِ، واطلب لهنَّ المغفرة من اللّه؛ إنَّ اللّهَ غفورٌ رحيمٌ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ جملةِ الاستئناف:

بيانُ المبايعة بذكرِ طريقةِ امتحان المؤمنات المهاجرات

جاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ على طريق الاستئناف؛ للشّروع في الغرض الأصليِّ من الامتحان، وهو بيانُ ظهور إيمان المؤمنات اللّاتي أُمر بامتحانهنَّ، فالاستئناف بيانٌ للمبايعة بتكملة امتحان النّساء السّابق في قوله: ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾. وفي الاستئناف إشارة إلى أنَّه تعالى أمر نبيَّه ﷺ أن يقبل مَن جاءه من المهاجرات من عند المشركين إذا أقرَرْنَ بأنَّهنَّ لا يشركن باللّه شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين، إلى آخر الشّروط[5].

---

(1) الراغب، المفردات: (عصا).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عصا).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عصا).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 340، وما بعدها، والمراغي، تفسير المراغي: 28/ 75 - 76.
(5) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 11/ 7431.

دلالةُ استعمالِ أسلوبِ النِّداء:

التَّنبيهُ إلى إعلان شرائعِ الإسلامِ لجميع المؤمنات

لمّا كان النّداء يُستعمَلُ فيما له شأنٌ عندَ المنادى؛ لأهميَّتِه وللتّنبيه على أمرٍ ينبغي التّنبّه له عُبِّرَ بأسلوب النّداء في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ للإشعارِ بأهمّيَّة مبايعة النّساء، وفي مجيء النّداء تنبيهٌ على الإعلام والإعلان بما يُنادى به.

دلالةُ تخصيصِ نداءِ النَّبيِّ:

مبايعةُ النَّبيِّ باعتباره وليَّ الأمرِ والحاكمَ الفعليَّ للمسلمين

وُجِّهَ النِّداءُ إلى النَّبيّ ﷺ باعتبارِه الحاكمَ الَّذي يأخذ بيعةَ المؤمنين والمؤمنات، فالتّعبيرُ بوصف النّبوّة لم يُقصد به أن تكون البيعةُ لشخصِ النّبيِّ حصرًا، بل المقصود مبايعته باعتباره وليَّ الأمر والحاكمَ الَّذي يقوم بأمور المسلمين وشؤونِهم، كما أنَّ النّداء جاء بوصف النّبوّة للتّشريف والتّعظيم[1]، فهو تشريفٌ للنّبيّ ﷺ وتعظيمٌ له، كما أنَّ فيه تشريفًا لمن يبايعُهنَّ؛ لتولّيه مبايعتَهنَّ بوصف نبوّتِه ﷺ.

دلالةُ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ دون الرّسول:

وصفُ النّبوّة يغلبُ في مَقامِ الحُكم، والرّسالةِ في مَقامِ التّبليغ والدّعوة

آثر النّظم الكريم استعمال وصف النّبوّة في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ دون الرّسالة؛ لأنَّ لفظ النّبي من النّبأ؛ فخاطبه بوصف النّبوّة والعلم للإشارة إلى أنَّه منبَّأٌ بما يُبايعُ به وعلى علم به، فخاطبه بالوصف المُقتضي للعلم[2]؛ ففيه إشارة إلى أنَّ مبايعةَ المؤمنات للنَّبيِّ ﷺ هي مبايعة لله تعالى؛ لأنَّه بايَعَهنَّ بمقتضى ما نُبِّئَ به. ويُلاحَظُ أنَّ النّبوّة تُستعمل في غالب السّياق القرآني في مقامات الخطاب للنَّبيِّ باعتباره حاكمًا بالشّرع، وفيما يَخُصُّ بيت النّبوّة، بينما تأتي الرّسالةُ في مقام الدّعوة والهداية والتّبليغ.

---

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 488.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 522، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 4/ 270.

نكتةُ استعمالِ أداة الشّرط ﴿إِذَا﴾:

الإخبارُ عن مجيء المؤمنات مُبايِعاتٍ حَتْمٌ لازِم

دلَّ التّعبير بأداة الشّرط ﴿إِذَا﴾ على التّرغيب في مجيء المؤمنات مبايعاتٍ على الشّروط المذكورة؛ لِما في التّعبير بهذه الأداة من الدّلالة على تيقُّنِ حصول الشّرط، وقوّى هذا المعنى ورودُ فعل الشّرط ﴿جَآءَكَ﴾ بلفظِ الماضي الدّالِّ على تحقُّق الوقوع.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿جَآءَكَ﴾:

ورَدَ التَّعبير بلفظ المجيء في قولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾؛ لِما فيه من الدّلالة على قوّة مجيئهنَّ، وتحقُّق ذلك في الواقع، مع ما فيه من الإيحاء بلَمْسةِ النّصر؛ فالنَّصرُ يجيء.

نكتةُ عدم لُحوقِ تاء التّأنيثِ لفعل ﴿جَآءَكَ﴾:

افتراقُ المؤمناتِ عن المشركين جعَلَهنَّ فريقًا متكاملًا

آثَرَ النّظم الكريم عدمَ إلحاق تاء التّأنيث بفعل المجيء في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾، مع إسنادِ فعل (جاءَ) إلى الفاعل المؤنّث ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾؛ لورودِه بصيغةِ الجمع، وللدَّلالة على قوَّةِ المجيء، وبيانِ صدق المؤمنات في إيمانهنَّ، وقوَّة إقبالهنَّ في مبايعةِ النّبيِّ ﷺ، ولتنزيلِ المؤمنات منزلةَ الفريق الواحد، كأنّه قيل: إذا جاءك فريقُ المؤمنات الَّذي افترق عن طريق المشركات.

دلالةُ وصفِ المؤمنات بوصفِ الإيمان:

وصفُ القرآن للمؤمنات منهجٌ في الحُكم بالظّاهر

وصفُ المؤمنات بوصف الإيمانِ في قولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ يُؤصِّل أُسُسَ التّعامل معهنَّ؛ لأنَّه لمّا جُعِلَ مجيئُهنَّ إلى النّبيِّ ﷺ وإقبالُهنَّ عليه - لا سيَّما مع الهجرة - مُصحِّحًا لإطلاق وصفِ الإيمانِ عليهنَّ كان إطلاق وصف الإيمانِ عليهنَّ من قبيل الحكم عليهنَّ بالظّاهر من أمرهنَّ[1]، وفي وصفهنَّ بالإيمان مدحٌ لهنَّ وإلهاب لهنَّ على المبايعة، وليُعامَلْنَ معاملةَ المؤمنات الأصيلات في دار الهجرة.

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 5/ 299، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 522.

دلالةُ الإيماءِ بالخبر:

آيـةُ المُبـايَـعـةِ اشـتَـمَـلَـتْ على مكـارمِ الأخـلاقِ ومـحـاسـنِ الأفعال

الإخبارُ عن مبايعة النّساء في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ فيه ترغيبٌ لغير المسلماتِ في الإسلام، وذلك أنَّ الَّذي أُمِرَ به النِّساء من المبايعة هو من مكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال؛ ليكون المجتمع في صفاء ونقاء، ولهذا كانت بيعة النّساء على اجتناب الشّرك وقبائح الأفعال، والكفرةُ إذا علموا أنَّ هذا يُؤمَرُ فيه بمحاسن الأمور رغَّبهم ذلك في الإسلام[1]. ولهذا نزلت آية المبايعة بعد صلحِ الحديبيَّة ترغيبًا للنّساء في الإيمان والهجرة.

دلالةُ التَّعبير بصيغةِ المضارع:

إقـامـةُ فـعـلِ المبايعةِ مُقامَ الـقَـصْـدِ إليـها مجازٌ مُرسَل

جاء التّعبير بصيغة المضارع ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ الدّالِّ على وقوع الفعل في الحالِ، مع أنَّ المرادَ قصدُ المبايعة؛ لاستحضارِ حالةِ المبايعة الجليلة، وللإشارة إلى أنَّ المبايعة مستمرَّة لوليِّ الأمرِ، والمعنى: إذا جاءك المؤمنات قاصداتٍ للمبايعةِ فبايِعْهنَّ، ولم يقل: إذا جاءك المؤمنات يَقصِدْنَ مبايعتك أو يُرِدْنَ مبايعتك كما هو الظّاهر؛ لأنَّهنَّ لمّا كُنَّ عازماتٍ على المبايعة قاصداتٍ لها، وكان قصدهنَّ قريبًا من الفعل مع صدقِهن فيه عبّر بالفعل ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ على طريق المجاز المرسل، بإقامة الفعلِ مُقامَ القصد لإظهارِ صدقِهنَّ في إيمانهنَّ وصدقِهنَّ في قصد المبايعة.

فائدةُ مجيءِ الجملةِ حاليَّةً:

المُـبـايَـعـةُ على شرائعِ الإسلامِ مِن آثارِ الإيمان

أفاد مجيء جملةِ ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ حالًا من ﴿ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ﴾[2] تقييدَ مجيئِهنَّ بحال كونهنَّ مُبايِعاتٍ، والحالُ قيدٌ مُعتبَرٌ، وهي حالٌ مقدَّرةٌ؛ لأنَّ البيعة غير محقَّقةٍ وقت المجيء، وإنّما تكون بعد المجيء، وسببُ تقييد مجيء المؤمنات بحال مبايعتهنَّ الدَّلالةُ على أنَّهنَّ

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 625.

(2) العكبري، التبيان: 2/ 1219، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 6/ 140.

قصدْنَ المبايعة من وقت مجيئهنَّ، ففيه مدح للمؤمنات وبيانٌ لِما أضمَرْنَهُ من الإيمان؛ فإنَّ المبايعة من آثار الإيمان.

نكتةُ التّعبير بالحالِ جُملةً لا اسمًا:

اجتماعُ حُسنِ النّوايا مع جميلِ الأفعال

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالحال جملةً في قولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ لا اسمًا، فلم يقل: (إذا جاءك المؤمنات مبايعات لك)؛ لأنَّ التّعبير بجملة الحال فيه دلالة على أنّهنَّ من وقت مجيئهنَّ كنَّ يَقصِدْنَ مبايعتَكَ، كما أنَّ الحال فيه تكثيرٌ للمعنى؛ لأنَّ جملة ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ على تقدير جملتين، فكأنَّه قيل: إذا جاءك المؤمنات راغباتٍ في البيعة وإذا بايعنك المؤمنات فبايعهنَّ؛ ففيه شهادةٌ لهنَّ بالمجيء راغباتٍ في البيعة، وهذا مدحٌ للنّيّة، وشهادةٌ لهنَّ بالمبايعة.

تعيينُ مَرجِعِ الضّمير ودلالتُه:

النّبيُّ وليُّ أمرِ المؤمنين ومِشكاةُ الموحّدين

يعودُ ضمير الخِطابِ في الفعلين ﴿جَآءَكَ﴾ و ﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾ إلى الاسم الظّاهر ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾، فيكون الضّمير مُحَمَّلًا بوصف النّبوّة والولايةِ لأمر المؤمنين؛ ليُفيدَ أنّهنَّ قد جئنَ وهنَّ مؤمناتٌ بنبوّتك، وجئنَ يبايعنك وهنَّ على علم بأنّهنَّ يبايعنَ النّبيَّ ووليَّ أمر المؤمنين والمؤمنات جميعًا، وهو ما يدلُّ على أنَّ فعل المجيءِ والمبايعة مليءٌ بالإيمان الباعث عليهما؛ إذ غاية المجيء طاعةُ مَن جيءَ إليه، وغايةُ المُبايَعةِ عقد صفقة القلبِ على الطّاعة، ومَجمَعُ ذلك كلِّه النَّبيُّ ﷺ.

بلاغةُ استعمالِ حرف الاستعلاء:

شرطُ المُبايِعِ أن يكون مُستعليًا على جميع المعاصي

لمّا كان حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ للاستعلاء دلَّ في قولِه تعالى: ﴿يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ﴾ على معنى الإلزام المقتضي للاستعلاء؛ فإنَّ مِن عادة النّاس حين المبايعة: أن يضعَ أحدُ المتبايعين يدَه على يد الآخر؛ لتكون الصّفقة مُحْكَمةً مثبتة، فيفيد حرف الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ أنَّ المبايعة على وجه لزوم المبايِعِ بشروط البيعة لمن يبايعُه، ولبيان

استعلائهنَّ على جميع المعاصي، ابتداءً من الشّرك باللّه تعالى، وانتهاءً بعموم الطّاعة في المعروف.

دلالةُ البدءِ بتركِ الشِّرْك:

إذا صحّ له التّوحيدُ فكلُّ الّذي بعدَه هيِّنٌ

بدأ النّظم الكريم في شروط المبايعة بقوله تعالى: ﴿لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه لمّا وصفهنّ بالإيمان بحسب الظّاهر دلَّ بمقتضاه على توحيدهنَّ للّه تعالى؛ فلا يُناسبه أن يُقال: يُبايعنك على توحيد اللّه؛ لأنَّه إن اشترط توحيدَه سبحانه بعد وصفهنَّ بالإيمانِ كانَ من قبيل اشتراط حصولِ الحاصلِ المحقّق؛ فبدأ بنفي الإشراك للإيذان بمحض إيمانهنَّ، كما أنَّ في البدء بنفي الإشراكِ تحصينًا لإيمانهنَّ وبيانًا لخطورة الإشراكِ وقبيح آثارِه في الفرد والمجتمع، وكلُّ ما بعده أهونُ منه، والأعمال إنّما تصلُحُ بعد توحيد اللّه تعالى، كما أنَّه إنّما قدَّم الأظهرَ والأكثر شيوعًا فيما بين النّاس في ذلك الوقت، وهو الإشراك باللّه تعالى[1].

فائدةُ استعمال (لا) النّافية:

مدحُ المؤمناتِ بتحقيق التّوبة الصّادقة في الحال والمآل

استعمَلَ النّظم الكريم حرف النَّفي (لا)، فأدخله على الأفعال المضارعة ﴿لَّا يُشۡرِكۡنَ﴾، ﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ﴾، ﴿وَلَا يَزۡنِينَ﴾، ﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ﴾، ﴿وَلَا يَأۡتِينَ﴾، ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ﴾، وغرضُ ذلك نفي الحالِ والاستقبال؛ لتفيد المبايعةُ استمرار نفي الإشراك والسّرقة والأفعال الأخرى، كما أنَّ النّفي بالحرف (لا) يُفيد تأكيدَ النّفي والمبالغةَ فيه، فوقعت المبايعة على ترك جميع المعاصي المذكورة في الحال والاستقبال، تحقيقًا للتّوبة التّامَّة، الَّتي من شروطها العزمُ على عدم العودة لها لاحقًا، فيكون هذا الحرف قد أومأ إلى مدحهنَّ بكونهنَّ مبايعاتٍ على التّوبة الخالصة بشروطها الشّرعيّة.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 524.

أصالةُ الحقائقِ الفِطْريَّة وطروُّ المعاني المحرَّفة في ميزان اللُّغة

دلالةُ صيغةِ الفعل (أشرك):

لمّا كان الفعل المضارع ﴿يُشۡرِكۡنَ﴾ مأخوذًا من الفعل الماضي (أشرك)، وكان من معاني صيغة (أفعل) الَّتي للتّعدية أنّها تفيد أنَّ الفاعل هو الَّذي غيّر الوصف إلى وصفٍ آخر باعتقاد أو فعل، فلمّا كان الأمر كذلك دلَّ التّعبير بنفي الصّيغة في قوله تعالى: ﴿لَّا يُشۡرِكۡنَ﴾ على أنَّه تعالى متفرّد في ألوهيَّتِه، وأنَّ الإشراك به سبحانه خلافُ الواقع الحقِّ الَّذي يتّصف به سبحانه من التّفرّد والألوهيّة الحقَّة؛ فالإشراكُ به هو بفعل الضّالين من البشر، وليس وصفًا للحقيقة؛ فدلّت صيغة اللَّفظ المنفيِّ ﴿لَّا يُشۡرِكۡنَ﴾ على إحداث أمرٍ طارئ، يحتاج إلى جحدٍ ونفيٍ وإثباتِ الأصل الَّذي هو فطرة التّوحيد.

نـفـيُ وصـفِ المُـشـركـاتِ والمنـافـقاتِ عن المؤمنات

فائدةُ عدمِ تقييدِ فعل الشِّرك المنْفيّ:

جاء فعلُ الإشراك باللّه تعالى المنفيُّ في قوله تعالى: ﴿لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ﴾ مطلقًا غيرَ مقيّد؛ ليتناولَ تحريم الشِّرك الاعتقاديِّ الَّذي يكون في القلب، والعمليِّ الَّذي يكون بالأفعال والأقوال[1]، فينفي عنهنَّ اسمَ المشركات والمنافقات؛ ليخلُصنَ إلى صفة المؤمنات.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ﴾ للمُلابَسةِ؛ أي: نفي ملابسةِ إشراكِهم أيَّ أحدٍ باللّه تعالى في ألوهيَّتِه، تنزيهًا للّه تعالى عن الشّريك.

أدنى شركٍ وأيُّ إشـراكٍ داخـلٌ فـي التَّحـريـم القطعيّ

براعةُ إعرابِ لفظِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

يُحتمل أن يكون لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ نائبًا عن المفعولِ المطلق[2]، والتّقدير: لا يُشركنَ باللّه شيئًا من الإشراكِ؛ ليفيد تحريم أيِّ نوعٍ من أنواعِ الشّرك، ولمّا جاء لفظ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 9/ 625.

(2) ابن عادل، اللباب: 19/ 38.

﴿شَيْـٔٗا﴾ نكرةً في سياق النّفي أفاد عمومَ نفي أيِّ نوعٍ من الإشراك ولو كان قليلًا، والمعنى: لا يُشركنَ باللّه أيَّ نوعٍ من أنواعِ الإشراك ولو كان هذا الإشراك قليلًا يسيرًا. وأجاز بعض المفسّرين أن يكون ﴿شَيْـٔٗا﴾ مفعولًا به للفعل ﴿لَّا يُشۡرِكۡنَ﴾، والتّقدير: لا يُشركنَ شيئًا من الأشياءِ باللّه؛ أي: لا يُشركن باللّه كائنًا ما كان[1]؛ ليُفيد تحريمَ إشراكِ أيِّ شيءٍ من المخلوقاتِ باللّه تعالى. وكِلا المعنيين صحيحٌ ومراد، فالمنفيُّ هو أدنى شركٍ باللّه، وإشراك أيِّ أحدٍ من مخلوقاته ولو كان سيِّدَ الخلق.

فائدةُ حَذفِ مُقيّدات جميعِ الأفعال:

المُحرّمات تشملُ الزّمانَ والمكانَ وجميعَ الأحوال، فلا تخصيصَ ولا استثناء

لمّا حذَفَ النّظم القرآني مُقيّداتِ الإسناد الزّمانيَّةَ والمكانيَّة والحاليَّة في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ أفاد تحريم أيَّ نوعٍ من أنواعِ الإشراك باللّه تعالى على الإطلاق؛ فيتناول التّحريمُ جميعَ الأزمنة والأمكنة وجميع الأحوال فيكون إطلاق الأفعال عن المقيّدات الزّمانيَّة والمكانيَّة والحاليَّة مقرّرًا لاستمرار النّفي الَّذي دلَّ عليه النّفي بـ﴿لَّا﴾. ومثله يقال في حذف هذه المقيِّدات في الأفعال ﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾ فيتناول تحريمَ هذه الأفعال مطلقًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارع في جميع الأفعال:

يَقظةُ المؤمن بعدَ إيمانه ضرورةٌ إيمانيَّةٌ وواجبٌ عَقَديّ

جاء التّعبير بصيغة المضارع في جميع الأفعال المطلوبِ تجنُّبُها في قوله تعالى: ﴿أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾؛ لبيانِ أنّها أفعالٌ قد تطرأ على الإنسان في أيِّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 240، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 273.

وقت، وأنّها ممّا قد يأتي مِنها الخطرُ المُدْلَهِمُّ، والشّرّ العريض، فدلّ المضارع على ضرورة اليقظة على الدّوام، فنفيُ الشّرك مستمرٌّ، ومثله السّرقة والزّنا والقتل وإتيان البهتان والمعصية، وهو ما يومئ إلى ضرورةِ اليقظة، والعمل على الابتعاد عن المحرّمات على الدّوام.

بلاغةُ ذكرِ السَّرقةِ بعدَ الشِّرك:

ذكــرُ حُـقـوق العباد بعدَ حقِّ الله تعالى

لمّا كان الشِّركُ بذلَ حقِّ المَلِكِ لِمَنْ لا يستحقُّه أتبعه أخذَ مالِ المالكِ بغير حقٍّ؛ لاقتضاء الحال لذلك، بتمكّن المرأة من اختلاس مال الزّوج وعسرِ تحفُّظِه منها، فقال: ﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ﴾ أي: يأخُذْنَ مالَ الغير بغير استحقاقٍ في خِفيةٍ(1)، كما أنَّ السّرقة تضييعٌ لحقوق النّاس، فناسَبَ ذكرُهُ بعد النّهي عن تضييع حقّ الله في التّوحيد.

دلالةُ حذفِ مفعولِ الفعل ﴿يَسۡرِقۡنَ﴾:

كلُّ سرقةٍ داخلةٌ فــي مـسـمّـى الكبائر

لمّا حذف المفعول به للفعل المتعدّي ﴿وَلَا يَسۡرِقۡنَ﴾ دلَّ على عموم المحذوف، والتّقدير: لا يسرقنَ أيَّ شيءٍ؛ ليُفيد تحريم سرقةِ أيِّ شيءٍ، ويُحتمل أن يكون حذف المفعول لإفادة نفي وقوع أصل الفعل منهنَّ، بمعنى أنَّ من يتّصفُ بوصف الإيمان لا ينبغي له أن تقع منه سرقةٌ.

دلالةُ إسنادِ السَّرقة إلى النّساء:

صـغـارُ الأمـوال سرقةُ النِّساء، وكبارُها لرجالها

شرط الله تعالى في مبايعة النّساء ترك السّرقة؛ بمعنى تركِ أن يأخذن مالَ الغير بغير استحقاق في خِفيةٍ، وإنّما ذكر السّرقة ونسَبَها إلى النّساء لتساهُلِهنّ فيها، كما أنَّ السّرقة فيهنَّ كانت أكثرَ منها في الرّجال(2)، قيل هذا، والأظهر أنّهن يتساهلن في سرقة صغار الأموال، وأمّا كبارها فلا شكَّ أنّها سلوك الرّجال، والنّهي عن السّرقة إنّما جاء لوقوعه فيهنَّ، ولاعتيادِهنّ عليه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 522.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 166.

نكتةُ تقديمِ السَّرقة على الزّنا:

تقديمُ سَلْبِ حُقوقِ العبادِ المباشرةِ على غيرِ المباشرة

لّما كانت السّرقة تفيد أخذَ مال الغير بغير استحقاق في خِفية أتبع ذلك بذكر حقِّ الغير لغير أهله، فقال: ﴿وَلَا يَزۡنِينَ﴾[1]، ويُحتمل أنَّ السّرقةَ قُدِّمَتْ باعتبارها أكلًا لحقوق العباد، والزّنا تضييعٌ لحقوق الشّرف والنّسب، وقدَّم تحريم الزّنا على تحريم قتل الأولاد؛ لأنَّ الزّنا هو الأظهرُ والأكثر شيوعًا من قتل الأولاد، فالتّقديمُ باعتبار الأكثر انتشارًا.

دلالةُ إسنادِ فعلِ الزّنا إلى النّساء:

منعُ الزِّنا منعٌ لفُشوِّ الفاحشةِ ونشرِ الرَّذيلة

أُسنِد فعلُ الزّنا إلى النّساء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزۡنِينَ﴾، وذلك باعتبارِ أنَّ الزّنا من الأفعال الَّتي تقوم بها المرأة بمحض إرادتها دون إجبارٍ، أو لقاءَ مال، فكان ذلك أيسرَ ما يكون عليها، وإذا رضيت المرأة بهذه الفاحشة فَشَتْ في المجتمع، فكان منعُها بمنع أسبابها، ومنها امتناع النّساء، دَرْءًا لها وحفظًا للمجتمعِ المسلم، ويُمثِّل الامتناعُ عن الزّنا الامتناعَ عن أسبابه ومقدِّماته وجميع مظاهره، وهو ما يدلُّ على أثر المرأة في عَفاف المجتمع وفساده.

نكتةُ ذكرِ جريمةِ القتلِ بعدَ فاحشةِ الزّنا:

الزِّنا أكثرُ انتشارًا مِن القتل، وهو علَّةُ القتل

لّما كان الزِّنا أمرًا محرَّمًا قد يُفضي إلى حملٍ وإنجابٍ واختلاط الأنساب - وهو ما قد يُؤدّي إلى الخلاص من ذلك بالقتل والوأد المحرَّم - أعقب ذكرَ فاحشة الزّنا جريمةَ قتل الأولاد فقال: ﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾، كما أنَّ الزّنا أكثرُ انتشارًا في المجتمع الجاهليِّ مِن قتل الأولاد، فكان تقديمه باعتبار كثرة الانتشار، فالتّقديمُ باعتبار كثرة الزّنا مقارنةً بقتل الأولاد، وأنَّ الزّنا قامَ مَقامَ العلّة للقتل.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ القتل:

المرادُ بقتل الأولاد هو التّخلُّص منهم بأيِّ شكلٍ من أشكال القتل،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 523.

القتلُ المُحرَّمُ عامٌّ يَشمَلُ الجنسين، ويضمُّ جميعَ أشكال الاعتقادِ الجاهليّ

والنّهيُ عن قتلهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ قيل فيه: هو وأدُ البنات[1]؛ أي: دفنُهنَّ أحياءً خوفًا من العارِ والفقرِ أو غيره[2]؛ وإنّما حُمل لفظُ الأولاد على وأدِ البناتِ بالقصدِ الأوّل بدلالة القرينة الخارجيَّة[3]، وهي أنَّ الآية نزلت في قوم كان من عادتِهم في الجاهليَّة وأدُ بناتِهم، وهذا التّوجيهُ مبنيٌّ على ما استقرَّ في الأذهانِ تجاهَ سلوك بعض قبائل العرب في وأد البنات. والصّحيحُ أنَّ الآية أعمُّ من ذلك، بدليلِ لفظ القتلِ دون الوأد، والأولادِ دون البنات، فيعمّ الأولادَ والبناتِ، وما كان بسببِ الحمل المجهول، وما كان بسبب اعتقاداتٍ جاهليَّةٍ، كالتَّخلُّص من العار أو غيرِهِ من أسباب تزيين قتل الأولاد.

دلالةُ الإيماءِ بصيغةِ الفعل المضارع:

كلُّ إزهاقٍ للرّوح قتلٌ وجريمةٌ في الشّريعة

أفاد التّعبيرُ بلفظ الفعل المضارع في قولِه: ﴿يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ احتمالَ تجدُّدِ قتل النّساء لأولادهنَّ في المستقبل؛ فنهى الشّرع عنه استباقًا للجريمة؛ منعًا لوقوعها، فيدخل فيه ما وقع في الحاضر من الإجهاضِ الَّذي يفعله بعضُ النّساء وسوّغته بعض القوانين، فيكون المرادُ من النّهي عن قتل الأولاد المستفادِ من نفي قتلِهم كلَّ ما يُزهق روح الولد؛ أي: بعد نفخِ الرّوح فيه وتخلُّقِه، وهذا بدلالةِ الإيماء لا بالدّلالة الصّريحة، ويشملُ قتلَهُ بعد وجوده، كما كان أهلُ الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الإملاق، ويعمُّ قتلَهُ وهو جنينٌ، كما قد يفعله بعض الجهلة من النّساء، تطرحُ نفسَها لئلا تحبل، إمّا لغرض فاسد، أو ما أشبهه[4]، فيتناول عمومُ قتل الأولادِ إجهاضَ الولدِ المخلَّق، ويدخل فيه وأدُ البنات دخولًا أوّليًّا[5].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 207، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 240.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 523، والخطيب الشربيني: 4/ 270.
(3) الشهاب الخفاجي، حاشية على تفسير البيضاوي: 8/ 189.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 100.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 166.

نكتةُ إسنادِ فعل القتلِ إلى النّساء:

كلُّ مشاركٍ في القتل بفعلٍ أو قولٍ فهو قاتل

أُسند فعل القتل في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ إلى النّساء، وكثيرٌ من حالات القتل قد تكون بفعل الرّجال؛ لأنَّ المرأة تُعين على قتل الأولاد إمّا بالسُّكوت، أو إبداء الرّغبة، أو المشورة، فمن كانت كذلك فهي شريكةٌ في القتل، فليس القتلُ عبارةً عن فعل القتل الصّريح فحسب، بل هو أعمُّ من ذلك، فكلُّ مُشارِكٍ في القتل قاتلٌ.

بلاغةُ التَّغليبِ بذكرِ لفظ الأولاد:

تعجيبُ السّامع مِمَّن تقتلُ وليدَها بعدَ جَهدٍ ومشقَّة

لمّا كان لفظ الأولاد دالًّا على الولادةِ كان اللَّفظ شاملًا للبنين والبنات، فيُحمل اللَّفظُ على عموم قتل الولدِ[1]، ويدخل فيه وأدُ البنات دخولًا أوّليًّا، وهذا من التّغليب، كما أنَّ استعمال لفظ الأولاد يومئُ إلى قبيح فعل القتل وشناعته؛ إذ إنَّهنَّ يقتلن ما يَلِدْنَهُ، ففيه تعجيبٌ من فعلهنَّ، وأنَّه ممّا لا تقبله العقولُ ولا ترتضيه الأنفس. كما أنَّ في التّعبير باللَّفظ الأعمِّ (الأولاد) إيذانًا بحرمة قتل أولادهنَّ لأيِّ سبب كان كالفقرِ والحاجةِ.

نكتةُ التّعبير بلفظ ﴿يَأۡتِينَ﴾:

النَّهيُ عن عَوالِق الجاهليّة تطهيرٌ للمُجتمعِ المسلم

آثر النّظم الكريم استعمالَ مفردة الإتيان في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ﴾ دون مُقارباتها؛ للدَّلالة على سهولةِ الأمر عند النّساء وقدرتِهنَّ على البهتان، في أن تنسب إلى زوجها ولدًا ليس هو له، وللإيماء إلى أنَّ من طبعِهنَّ هذا الصّنيعَ، فهو أخذٌ للعهد أنْ لا يَعُدْنَ إلى سيرة الجاهليّة في الافتراء وإتيان الباطل.

دلالةُ صيغةِ المضارع:

النَّهيُ عن عدمِ العَوْدِ له في المستقبل

جاء التّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يَأۡتِينَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذا الفعلَ يُحتمل تجدُّده من النّساء، فدلَّ المضارع على منعه في المستقبل، وهو مقتضى الظّاهر.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 423.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ البُهتان:

شأنُ البُهتان نشرُ ثقافةِ الفُحش والإشاعة في المجتمع

البُهتان هو الخبر الكاذب الصَّريحُ في كَذِبِه، والَّذي يجعل سامعَه يقف مبهوتًا ومتحيِّرًا من شدَّة أثرِ هذا الكذب السّافر، كما أنَّه أعظمُ أنواع الكذب وأقبحُه؛ لأنَّه يكون بحَضرةِ المقولِ فيه. لأجل ذلك ناسبَ استعمالُ لفظ البهتان في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ﴾؛ للدّلالة على خِسَّة الباهت، وصفاقتِه وضلالِ سَعيه؛ لِما فيه من المكابرة في الكذب، وفيه تنفيرٌ من هذا المولود، وإثارةٌ لمشاعر الخوف منه والكراهيةِ له[1]. كما أنَّ في التّعبير به ترويعًا للمخاطَبين جميعًا منه.

فائدةُ استعمالِ مفردة الافتراء:

توكيدُ دَلالةِ البُهتانِ وبيانُ شدَّةِ الكُفران

لمّا كان الافتراءُ هو اختلاقَ الكذب واختراعَ الشّخص له من عند نفسه ناسب استعمالُ لفظ ﴿يَفۡتَرِينَهُۥ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذا البهتانَ هو اختلاقٌ واختراع من النّساء في نسبة الولد إلى غير أبيه، وأنَّهن على علم بأنَّ هذا الافتراء لا يُرضي الرّجل ويُنكِرُه، والبهتان افتراءٌ، وذكرُ الافتراء بعده توكيدٌ على قُبح البهتان، وبشاعة الكُفران.

نكتةُ مجيءِ الوصفِ جملةً فعليَّة:

تصويرُ بشاعةِ البُهتان بالافتراءِ المُتجدِّد

جاءَ الوصفُ لقوله: ﴿بِبُهۡتَٰنٖ﴾ جملةً فعليَّة ﴿يَفۡتَرِينَهُۥ﴾ دون أن يُقال: ببهتانٍ مفترًى، مع أنَّ المعنى عليه؛ لتقوية البُهتان والمبالغة فيه، كما أنَّه لمّا كانت الجملةُ مشتملةً على الفعل المضارع أشارت صيغةُ المضارع في ﴿يَفۡتَرِينَهُۥ﴾ إلى استحضار الصّورة المَقيتة وتقبيحِها عند النّساء خِصّيصًا، وعند المخاطبين عمومًا. كما أنَّ في التّعبير بصيغة المضارع إشارةً إلى احتمالِ تجدُّد افترائِهنَّ على الرّجال بنسبةِ ما لم يلدوه إليهم.

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 910.

بلاغةُ الاستعارةِ في افتراءِ البُهتان:

تشبيهُ الخبرِ الباطلِ بالبهتان بجامعِ الكذب المُلحِقِ ضَررًا بالمُفترى عليه

على القول بأنَّ كلَّ كنايةٍ يمكن أن تكونَ استعارةً؛ إذ نسبتُها إلى الاستعارة نسبةُ الخاصِّ إلى العامِّ[1] يمكنُ حملُ قولِه تعالى: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ على استعارةِ الباطل الشّبيهِ بالخبرِ بالبهتان، وذلك بتشبيهِ التِقاط المرأة الولدَ ونسبتِه إلى غير أبيه بوضعها الولدَ الحقيقيَّ بين يديها ورجليها، والجامعُ بينهما حملُ الولد ونسبته للزّوج، وفائدةُ الاستعارة الإشعارُ بشدّة البهتان المفترى، بتصويره بأنّه حقٌّ مع مُكابَرةٍ في الكذب وصَفاقةٍ في الأمر.

بلاغةُ الكنايةِ ودَلالتُها:

تصويرُ قبحِ صنيعِ النّساء في افتراءِ البهتان وبشاعةِ عملهنَّ

في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ كنايةٌ لطيفة؛ فإنَّه لمّا كان الولدُ الحقيقيّ إذا وضعته الأم سَقَطَ بين يديها ورجليها كنّى عن التِقاطِ المرأة الولدَ ونسبتِه إلى غير أبيه بقوله: ﴿بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾؛ لِما يلزم من ولادةِ النّساء للولد أن يكون بينَ أيديهنّ وأرجلهنَّ، فمجموعُ قوله: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ كنايةٌ عن الولد الَّذي تُلصِقُه بزوجها كذبًا؛ لأنّ بطنَها الَّذي تحملُهُ فيه بين اليدين، وفرجَها الَّذي تَلِدُهُ به بين الرّجلين[2]. أو يقالُ في الكناية: عبّر بالأيدي للالتقاط بين اليدين، وبالأرجل للولادة؛ لأنَّها إذا التَقَطَتْ بيديها وأضافت إلى ولادتها فقد أتَتْ ببهتانٍ بين يديها ورجليها[3]. وسببُ العدول إلى الكنايةِ بيانُ قوّة البهتان الَّذي يفترينه، حتّى صار في نسبتِه كالولد الحقيقيِّ. ففي التّعبير بالكناية إشارةٌ إلى افتراء المرأة مرّتين: إحداهما التِقاطُها بيديها، والثّانية إضافته إلى ولادتها، ولهذا وصفه بأشدِّ أنواع الكذب والاختلاق فقال: ﴿بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ﴾. فعلى هذا التّوجيه ليس المعنى نهيَهنَّ من

(1) ابن الأثير، المثل السائر: 2/ 185.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 520.
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 397.

أن يأتين بولد من الزّنا فيَنسبنَه إلى الأزواج؛ لأنَّ النَّهي عن الزِّنا قد تقدم في قولِه: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾[1].

ويُحتمل أن يكون لكلِّ لفظٍ في قوله ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كنايتُهُ، فيكون قوله: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ كنايةً عن الولد الَّذي تلتقطه الزّوجة وتُلحِقُهُ بزوجِها، ويكون قوله: ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ كنايةً عن الولد الَّذي ولدته من زنا، بأنْ تحبلَ بالولد من غير زوجها فتُلحِقَه به[2]، فيكون في الآية كنايتان.

وفائدة الكنايةِ تصوير ما كانت تصنعه نساءُ الجاهليّة؛ من نسبة الأولادِ لغير آبائهنّ؛ بغرض ذمِّ صنيعِهنَّ السّابق، والتَّشنيعِ عليه، والتّحذيرِ من إتيانه مستقبلًا.

نكتةُ التّعبير بالمصدرِ (بهتان) دون اسم المفعول:

افـتراءُ الـولـد في نسبتِهِ لغير أبيه عـيـنُ الـبُـهـتـان وأصلُ الكفران

جاء التّعبير بصيغة المصدر (بُهْتَان) دون اسم المفعول؛ كالخلق بمعنى المخلوق، والمعنى: ولا يأتين بقولٍ مَبهوتٍ، ونكتة التّعبير بالمصدر الدَّلالةُ على أنَّ هذا الإخبارَ هو من قبيل الإخبار بالكذب الواضح، كما أنَّ في التّعبير بالمصدر مبالغةً في المعنى، فكأنّ قولَ المرأة في الولد المنسوب إلى غير أبيه عينُ البهتان وحقيقتُه، بل هو البهتان بذاته؛ إذ الإتيان بالولد المفترى ونسبتُه لغير أبيه بهتٌ، كما أنَّ الافتراءَ على الغائب بأمرٍ لم يفعله بهت.

دلالةُ إضافةِ الأيدي والأرجُلِ للضّمير:

لمّا كانت إضافة الأيدي والأرجُل إلى الضّمير (هُنَّ) في قولِه: ﴿أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ على معنى المِلك أفادت أنَّ كلَّ ما يكون بين أيديهن وأرجلهنَّ يُنسب إليهنَّ ويُسألنَ عنه.

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 424.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 521، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 3243.

بلاغةُ التَّعريضِ وفائدةُ التّلميح:

المجتمعُ الجاهليُّ انطَوَى على مصائبَ مَخفيَّةٍ وفضائحَ رَديَّة

كلُّ الأفعال المنهيِّ عنها في الآية تشترك فيها النّساء والرّجال، إلّا قولَهُ تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾، فإنَّه خاصٌّ بالنّساء؛ فإنَّ نسبة الولد إلى غير أبيه بهتان خاصٌّ بالنّساء، ومن البهتان الخاصّ بهنَّ البهتان بالحمل، والافتراء على الرّجال فيما يتعلَّق بالولد أو الحمل بما ليس حقًّا، وهذا الافتراءُ من النّساء من مُخلَّفاتِ الجاهليّة، ومن كواشف انتشار الرّذيلة الخفيّة، والمصائب الدّنيّة، ففيه تعريضٌ بالمجتمع الجاهليِّ، ومدحٌ للمجتمع المسلم الَّذي يَعتني بطُهر البيت، وعفَّةِ المرأة، وجعلِها عمادًا في إصلاح المجتمع وتنقيتِهِ من الفُحش والرّذيلة.

مناسبةُ ختمِ المَنهيّات بتركِ العصيان:

تركُ عمومِ المعاصي تتميمٌ للجُزئيّات بعدَ النّصِّ على الكلّيّات

لمّا ذكرت الآيةُ مجموعةَ المعاصي الَّتي هي أصل الكبائر فيما يخصُّ النّساء مع الشّرك بالله تعالى، وعظَّمَ شأنها تعظيمًا لأمرِها؛ لعسرِ الاحتراز منها، ولخطورة أثرها في المجتمع، وأكد النَّهيَ عن الزِّنا؛ لِما يجرُّ إليه من شرورِ القتلِ فما دونه، وغلَّظ أمرَ النَّسبِ؛ لِما يتفرَّعُ عليه من إيقاع الشّبهات وانتهاك الحرمات عمَّم في الأمر والنّهي فقال: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ﴾[1]، فختم المعطوفاتِ بقولٍ هو من الأقوال الجامعةِ لكلِّ ما يخبر به النَّبيُّ ﷺ ويأمرُ بفعله، أو ينهى عن الاقتراب منه وفعلِه، فيكون المعطوفُ الأخير جامعًا لكلِّ المعطوفات الَّتي سبقته، ففيه تقريرٌ لِلنّهي عمّا تقدَّم، وأنَّ فعلَ أيِّ أمرٍ من المنهيّات هو معصية للّه تعالى وللرّسول ﷺ، كما أنَّه لمّا كان من الأقوال الجامعة كان فيه زيادةٌ في المعنى؛ ليشملَ تحريم عصيانه ﷺ في كلِّ ما يأمر به وينهى عنه. ويشملُ ذلك النّهيَ عن شقِّ الجيوب، ولطم الخدود، ودعوى الجاهلية، وغيرِ ذلك من المنكرات الَّتي نهى الإسلام عنها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 523.

نكتةُ استعمالِ مفردةِ المعصية:

شمولُ المعصيةِ للأوامرِ والنّواهي على حدٍّ سواء

آثر النّظمُ الكريم استعمال مفردةِ العصيان في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ﴾؛ ليشملَ ما يأمر به النّبيّ ﷺ وما ينهى عنه؛ فإنَّ مخالفة أمره، وإتيانَ نهيه يجمعُهما لفظُ المعصية، فالعصيان يقع على الأمر والنّهي معًا، وعصيان الأمر عدمُ امتثاله، وعصيان النّهي الإتيان بالمنهيِّ عنه؛ فتناوَلَ اللّفظُ جميع ما أمرَ به النّبيُّ ﷺ وما نهى عنه[1]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ﴾ نصٌّ في إيجابِ الطّاعة؛ فإنَّ النّهي عن الشّيءِ أمرٌ بضدِّه[2].

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ ﴿مَعۡرُوفٖ﴾:

كلُّ ما وافَقَ الشَّرعَ فهو معروفٌ، وكلُّ ما خالفَهُ فمنكرٌ

العربُ تُطلِقُ المَعروفَ على ضِدِّ المُنكَرِ وعلى ضِدِّ المجهولِ، والمُنكَرُ هو المُستقبَحُ عندَ النّاسِ، الَّذي يَنفِرون منه لقُبحِهِ أو ضَرَرِهِ، ويَذُمّونه ويَذُمّونَ أهلَهُ[3]؛ فجاء التّعبيرُ بلفظ المعروف دالًّا على أنَّه ضدُّ المنكرِ، فيكون المنكر هو كلَّ ما يُخالِفُ الشّرع، والمعروفُ هو كلَّ ما يوافق الشّرع، وفيه إيذانٌ بأنَّ ما يأمر به رسول اللّه ﷺ وما ينهى عنه فيه خيرٌ ومنفعةٌ، وأنَّه ممّا تقبلُهُ العقول الصّحيحةُ وتأمرُ به.

نكتةُ تقييدِ الفعلِ ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ﴾ بقيدِ ﴿فِي مَعۡرُوفٖ﴾:

المجتمعُ المسلمُ رائدٌ في تعليم المعارفِ ونقلِ العلوم للمُستجدّين فيه

لسائلٍ أن يسأل: ما نكتةُ تقييد الفعل ﴿وَلَا يَعۡصِينَكَ﴾ بقوله: ﴿فِي مَعۡرُوفٖ﴾، وقد عُلِم أنَّ رسول اللّه ﷺ لا يأمر إلّا بمعروف؟ وجوابُه: أنَّه إن كان القيدُ ﴿فِي مَعۡرُوفٖ﴾ على سبيل الكشف والبيان للنّهي عن عصيانه ﷺ كانَ التّقييد بقوله ﴿فِي مَعۡرُوفٖ﴾ من قبيل التّفسير بالمعنى على سبيل التّأكيد؛ كما قال تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ [الأنبياء: 112]؛ لأنَّه لو قال: (احۡكُمۡ) لكفى في المعنى[4]،

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 910.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 236.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 9/ 446.
(4) ابن العربي، أحكام القرآن: 4/ 236.

ونكتة ذلك بيانُ أنّ طاعة المخلوق في معصية الخالق جديرةٌ بغاية التّوقّي والاجتناب[1].

وإن كان القيدُ ﴿فِي مَعْرُوفٍ﴾ تقييدًا للإطلاق في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾ - أي: أنّه لم يأتِ تأكيدًا - كان القيد دالًّا على أنَّ العصيانَ لا يكون عصيانًا إلّا فيما عُرِف لهنَّ من أمرٍ أو نهيٍ، وهذا يعني: أنَّ غيرَ المعروف لهنَّ من أحكام الشّريعة، من أوامرَ ونواهٍ هو معفوّ عنه، ويعني كذلك: أنَّ على النّبيِّ أن يبلِّغَ رسالةَ ربِّه كاملةً إليهنَّ[2]، وأنَّ عليهنَّ أن يتعلَّمْن هذه الرّسالةَ وأن يتعرّفن عليها. كما أنَّ في التّقييد كذلك توسعةً على النّساء فيما لا يتعلَّق بالمعروف في الدّين؛ أي: فيما هو من شؤون الدّنيا[3]. والوجهُ الثّاني أقوى؛ لما عُلِم مِن أنَّ تقديم التّأسيس على التّأكيد أولى؛ لما فيه من معانٍ وفوائدَ لا تكون في وجه التّأكيد، وعلى رأس ذلك الإشارةُ إلى ضرورة معرفةِ أحكام الشّرع، وطلب العلم، وعدم الاستتار بالجهل، أو ضعف المعرفة.

علّةُ ذكرِ المَنهيّاتِ دون المأمورات:

التَّخليةُ مُقدَّمةٌ على التَّحلية: قاعدةٌ عقليَّةٌ سُلوكيَّةٌ شَرعيّة

ذكر اللّه تعالى في شروط المبايعةِ المنهيّات دون المأمورات في قولِه تعالى: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؛ وذلك لأنَّ المقصود تخليتُهنَّ من عَوالِقِ الجاهليّة، فإذا تخلّينَ عنها وتركنَ مفاسدَها وسلوكيّاتِها كُنَّ مُستعِدّاتٍ للتّحلّي بأوامر الشّرعِ، والأوامرُ تأتي بعد اجتناب المنهيّات، فهذه قاعدةٌ عقليّةٌ وسلوكيّة وشرعيّة.

فائدةُ الفاءِ ودلالتُها:

إذا ظَهَرَتْ دلائلُ صدقِ الإيمان فالمبايعةُ مكافَأةُ الرّحمن

أفادت الفاءُ الواقعةُ في جواب الشّرط في قوله تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 520.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 911.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 167.

معنى التّعقيب والتّرتّب؛ بمعنى: ترتُّبِ قبولِ مبايعتِهنَّ على قبولهنَّ بالشّروط، وأن يكون قبولُ مبايعتهنَّ من غير تأخير، في إشارة إلى قبول إيمانهنَّ بعد ظهور الدّلائل عليه. والمعنى: أمْضِ معهنَّ صفقةَ الإيمان، واقبَلْ مبايعتَهنَّ، واقبَلْ إيمانَهنَّ من غير تأخير، واعتبِرْهنَّ في جماعة المؤمنين، لهنَّ ما للمؤمنين، وعليهنَّ ما عليهم[1].

دلالةُ صيغة المفاعلة ﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾:

للنِّساء مكانةٌ في المبايعةِ في إنشاءِ المجتمع والتّعاونِ في الخير

دلَّتْ صيغةُ ﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾ على معنى المفاعلة، واللّفظُ على معنى المفاعلة الَّتي تكون من الطّرفين؛ ليفيدَ قبول المبايعة ومشاركةَ الطّرف الأوّل في بيعتِه، فيكون قوله تعالى: ﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾ بمعنى: أن يُعطينَ ذلك من أنفسهنَّ، ويكون قوله: ﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾ بمعنى: أن يُعطَيْنَ عليه الثّوابَ والجنَّة؛ فالمبايعةُ صفقة بين طرفين[2]، وهو ما يدلُّ على مكانةِ النّساءِ في المجتمعِ المسلم، ودَوْرِهنَّ في المبايعة وإنشاء المجتمع، والتّعاون في سبيل تخليصه من الآفات والمحافظة عليه.

بلاغةُ الكنايةِ في الأمرِ بالاستغفار للمُبايِعات:

مغفرةُ الله تعالى مُتحقِّقةٌ للمُبايِعات بأدلَّةٍ كثيرةٍ وبراهينَ وفيرة

جاء الأمرُ الإلهيُّ للنّبيّ ﷺ بأنْ يستغفرَ للمبايعات في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ﴾، للإيماء إلى ما صدر عنهنَّ من أفعالٍ سابقة ونوايا سالفة، ولبيان أنَّ اللّه تعالى قد قَبِلَ توبتهنَّ وإسلامهنَّ وغفر لهنَّ، فالأمر بالاستغفار لهنَّ كنايةٌ عن المغفرة، فإنَّ النَّبيّ لن يتوانى عن الاستغفار لأمّته عمومًا، كيف وقد أتى النّصُّ على ذلك؟ واللّه ﷻ يستجيب لعموم عباده الصّالحين، فكيف لسيّد الخلق أجمعين؟ فكان الأمر كنايةً عن المغفرة، بطريق أمر النَّبيِّ؛ ليقع في قلوبهنَّ حبُّه وطاعتُه موضعَ الانقياد والقبول.

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 911.

(2) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 299.

دلالةُ عطفِ الأمر بالاستغفارِ على الأمرِ بالمبايعة:

عُطِفَ طلبُ الاستغفار لهنَّ على قبول مبايعتهنَّ في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ﴾؛ ليكون قبولُ النّبيِّ ﷺ مبايعتَهنَّ بمثابة المكافأة على إعطائهنَّ عقدَ المبايعة له ﷺ، فزاد عليهم في قبول المبايعة طلبَ الاستغفار لهنَّ؛ ليفيدَ العطفُ في قولِه ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ﴾ معنى المكافأة على إيمانهنَّ وإعطائهنَّ البيعة؛ فلمّا لم يَطلُبْنَ الاستغفارَ لهنَّ كان عطفُ طلب الاستغفار فضلًا منه تعالى عليهنَّ. وفي العطف إيذانٌ بأنّهنَّ بهذه المغفرة العامة الشّاملة يدخلنَ الإسلام طاهراتٍ من كلِّ ذنب، مبرَّآتٍ من كلِّ إثم، وبهذا العفو العامِّ يبدأنَ حياةً جديدةً نقيَّةً، وهذا من شأنِه أن يقوّي من عزائمهنَّ على الاحتفاظ بنقاءِ حياة الإيمانِ وصفائِها[1].

العـفـوُ الـعـامُّ طـريـقٌ لـلـبـدءِ بـحـيـاةٍ نـقـيَّـةٍ جديدة

دَلالةُ إطلاقِ الفعلِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾ عن التّقييد:

لم يُقيَّد فعل الأمر بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ﴾ فجاء مطلقًا، والتّقدير: واستغفر لهنَّ اللّه لِما فرطَ منهنَّ من ذنوبٍ في الجاهليَّةِ مِمّا خُصَّ بالنَّهي في شُروطِ البيعةِ، فكان المعنى على العموم، وخلا الفعل ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ﴾ من التّقييد؛ ليشمل ما خُصَّ بالنّهي في شروط البيعةِ وغيرَ ذلك، فيكون الاستغفارُ على عموم أفعالهنَّ وأقوالهنَّ، فحُذِف القيدُ بقصد تعلَّق الاستغفار بعموم أفعالهنَّ وأقوالهنَّ الَّتي نُهي عنها، مع ما في الإطلاق من الغضِّ عمّا مضى، وعدم التّصريح بما كان.

الاستغفارُ يَعُمُّ جميعَ المعاصي السّابقة مِن دونِ استثناء

نكتةُ إظهارِ ما حقُّهُ الإضمار:

لمّا قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ﴾، فجاء باسم الجلالة مصرّحًا به كان الظّاهر أن يُقال بعد هذه الجملة: (إنَّه غفور رحيم)؛ بإضمار الاسم الجليل، لكنَّه أظهره فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فجاء

للاسمِ الجليل مَوقِعٌ في تربيةِ المَهابةِ في قلوبِ العباد

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 911.

الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر؛ لتكون الجملة تذييليّةً وعامَّةً لكلِّ العباد وشاملة لجميع الذّنوب، ولتُنزَّلَ منزلة الأمثال السّائرة، مع ما في إظهار الاسم الجليل من التَّعبُّد بذكره، واستحضار هيبة التّكرار لمعانيه.

بلاغةُ التّذييل في جُملةِ الفاصلة:

رحمةُ الله بالنّساء داعيةُ المغفرة لهنَّ وقبولهنَّ مسلماتٍ طاهرات

جاءتْ جملةُ الفاصلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تذييلًا لِما قبلَها؛ لِما فيها من معنى العمومِ والكلّيَّة، فتكون الجملة كالمثل في حكايتِها والتّمثّل بها، وسببُ مجيء الجملة بوصف اللّه تعالى بالمغفرة والرّحمة الإشارةُ إلى أنَّ كلَّ ما نهيَ عنه ممّا ينبغي الاستغفار منه، وأنَّه لولا رحمةُ اللّه بهنَّ ورِفقُ نبيّه ﷺ بهنَّ لَما قبلَ النّبيُّ مبايعتهنَّ ولا استغفر لهنَّ؛ فالجملة على معنى العموم؛ فمغفرته لكلِّ عبدٍ مؤمنٍ يستغفر من ذنوبِه، ورحمته لجميع العباد، ويدخل في العموم النّساء المؤمنات المبايِعات دخولًا أوَّليًّا.

دلالةُ توكيدِ جُملةِ التّذييل:

قبولُ مُبايَعةِ النّساءِ من مُقتضَيات مغفرة الله تعالى لذنوبهنَّ ورحمتِه بهنَّ

أُكِّدتْ جملة التّذييل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بأداةِ ﴿إِنَّ﴾؛ فأفادت ارتباطَها بِما قبلها على معنى العلّيَّة والسّببيَّة، وكأنَّ التّقدير: فبايعهنَّ واستغفر لهنَّ اللّه؛ لأنَّ اللّه غفور رحيم، فقبولُ مبايعتهنَّ من مقتضيات مغفرة اللّه تعالى لذنوبهنَّ ورحمتِه بهنَّ، فتكون ﴿إِنَّ﴾ رابطةً للطّلبين ﴿فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ﴾، وإن كان اقترانُها بطلب الاستغفار أوثقَ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشِّرْكُ والكفر:

الكفرُ يأتي بمعنى الجُحود، وأصله من جحود النّعمة أي: سترِها، ثمّ أطلق على الجحود لبعض ما يجبُ الإيمان به، كجحود اللّه تعالى،

الكفرُ عامٌّ، وله مراتبُ أعظمُها الشِّرْكُ بالله تعالى

وجحد النّبوّة، وجحد كون القرآن نزل على رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ من عندِ اللّه تعالى. وإن أطلق لفظ الكافر فهو مُتعارَفٌ فيمن يجحد الوحدانيّة، أو النّبوّة، أو الشَّريعة، أو ثلاثتَها[1]، والكفّار: في جمع الكافِر المضادِّ للإيمان أكثرُ استعمالًا، والكفرة في جمع كافِر النِّعْمَة أكثرُ استعمالًا[2].

والشّركُ: إثبات الشّريك للّه تعالى في ألوهيّتِه، وهو أعظم الكفرِ. فيُخَصُّ الشِّركُ بعَبَدةِ الأوثانِ وغيرِها من المخلوقات مع اعترافهم باللّه تعالى ككفّار قريش؛ أي: يخصُّ الشّرك بكلِّ من أشرك مع اللّه تعالى إلهًا آخر فصاعدًا، فنقيض الكفر باللّه الإيمان به، ونقيض الشّرك باللّه الإيمان بوحدانيَّتِه، فيكون الكفرُ أعمَّ من الشّرك؛ لأنَّ كلَّ مشركٍ كافرٌ وليس كلُّ كافرٍ مشركًا، فقد يكفر الإنسان بالإلحاد أو بسبِّ الذّات الإلهيَّة، كما يدلُّ عموم الكفرِ أنَّ الكفرَ مراتبُ، وأعظمُها الشّركُ باللّه تعالى[3].

الكَذِبُ والبُهْتان والافتِراء:

البُهتانُ هو الكَذِبُ الَّذي يُدهِشُ سامعَهُ، والافتراءُ هو اختِلاقُ الكذب، والكذبُ أعمُّها

اشترَكَ الجميعُ في عَدَمِ مطابقةِ الخبَرِ للواقِع؛ فالكَذِبُ يكونُ في حَقِّ النَّفسِ، وحَقِّ الغيرِ، والافتراءُ والبُهتانُ: يكونُ في حَقِّ الغيرِ فقط، والكَذِبُ: يَحسُنُ في بعضِ الأحوالِ، كالكَذِبِ في الحَربِ، وإصلاحِ ذاتِ البينِ، وعلى الزَّوجةِ، ولا يحسُنُ الافتراءُ والبُهتانُ في جميعِ الأحوالِ، فالبهتان هو الكَذِب الَّذي يُبهَتُ سامعُهُ؛ أي: يُدهَشُ ويتحيَّر، وهوَ أفحش الكَذِب، والافتراء هو اختلاق ما لا يَصح أن يكون، وهو العظيم من الكذب[4]؛ فالكذبُ أعمُّ هذه الثّلاثة؛ لأنَّ الكَذِبَ إمّا أن يكونَ اختراعًا لقِصَّةٍ لا أصلَ لها، أو زيادةً في القِصَّةِ،

(1) الراغب، المفردات: (كفر).
(2) الكفوي، الكليات، ص: 763.
(3) الراغب، المفردات: (شرك).
(4) الكفوي، الكليات، ص: 154.

أو نقصانًا يُغَيِّرانِ المعنى، أو تحريفًا بتغييرِ عبارة؛ فما كان اختراعًا يُقالُ له: الافتِراءُ والاختلاقُ، وما كان من زيادةٍ أو نقصانٍ فمَينٌ، وكُلُّ مَن أورَدَ كَذِبًا في غيرِه فإمّا أن يقولَه بحَضرةِ المقولِ فيه أو بغيرِ حضرتِه، وأعظَمُ الكَذِبِ ما كان اختراعًا بحَضرةِ المقولِ فيه، وهو المعبَّرُ عنه بالبُهتانِ[1].

(1) الراغب، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص: 196.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾

[الممتحنة: 13]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ردُّ آخرِ السّورةِ على أوّلِها من بديعِ المناسبة الكاشفةِ عن ترابُطِ موضوعِها

لمّا ختم اللّه تعالى الآية السّابقة بصفتي المغفرة والرّحمة، وكان ذلك قد يُظَنُّ به التّساهل في محاباة المؤمنين لبعض الكفّار ناسب أن يذكر اللّه ﷻ الأمرَ بالبراءة من كلِّ عدوٍّ ردًّا لآخر السّورة على أوّلها، وتأكيدًا للإعراضِ عنهم وتنفيرًا من تولّيهم كما أفهمته آية الامتحان وآية المبايعة فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾[1]، وبعد أن استقصت السّورة إرشادَ المؤمنين إلى ما يجب في المعاملة مع المشركين جاء في خاتمتها الإرشادُ إلى المعاملة مع قوم ليسوا دون المشركين في وجوب الحذر منهم، وهم اليهود فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَضِبَ﴾: يدور معنى الغضب على الشّدّة والقوّة. وأصلُ الكلمة من الغَضْبَةِ، وهي الصَّخْرَةُ الصُّلْبَةُ. قالوا: ومِنْهُ اشْتُقَّ الغَضَبُ[3]؛ لأَنَّهُ اشْتِدادُ السُّخْطِ، والغضب ضدَّ الرّضا[4]. وهو ثَوَرانُ دم القلب إرادةَ الانتقام[5]، أو يقال: هو امتلاءُ النّفس بالحِدَّة والجفاء لأمرٍ ما[6]. وإذا وُصف اللّه تعالى بالغضبِ فالمراد به

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 526 - 527.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 169.
(3) ابن فارس، المعجم الاشتقاقي: (غضب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).
(5) الراغب، المفردات: (غضب).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (غضب).

الانتقام دون غيره[1]. ونقل عن ابن عرفة: أنَّ الغَضَبَ مِنَ المَخلوقينَ شيءٌ يُداخِل قُلوبَهم؛ ومِنه محمودٌ ومذمومٌ، فالمذمومُ ما كان في غيرِ الحقِّ، والمحمودُ ما كانَ في جانِبِ الدّينِ والحقِّ؛ وأمّا غَضَبُ اللّهِ فهو إنكاره على مَنْ عَصاهُ، وسخطُهُ عليه وإعراضُه عنه ممّا يقتضي معاقبتَه له[2].

2) ﴿يَئِسُواْ﴾: اليأسُ: قطع الرّجاء[3] وانتفاء الطّمع[4]، وفيه معنى القنوط[5]. واليأسُ: شعور حادٌّ بتمام استغلاق السّبيل نحوَ خير معيّن، يَصحَبُه سخط، ويتبعه إعراض تامٌّ عن المحاولة[6]، يقال: أيِس يَيأسُ، والمصدر: اليأسُ والإياسُ، وقد استَيْأسَ وأيْأستُه. واسمُ الفاعل منه يائِسٌ. وصيغة المبالغة: يَئِسٌ ويَؤوس[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

كلُّ عملٍ فيه شبهةُ تولٍّ للكافرين عمومًا فمآلُهُ عظيمٌ وبقاؤه وخيم

ختم اللّه تعالى هذه السّورةَ بما بدأ به أوّلَها بالنّهي عن موالاة الكافرين عمومًا، فخاطَبَهم بوصف الإيمان، وأمَرَهم أن لا يَتوَلَّوْا الكافِرينَ الَّذين غَضِبَ اللّهُ عليهم لكُفرِهم، الَّذين قد يَئِسوا مِن ثوابِ اللّهِ ورَحمتِه في الآخِرةِ كما يَئِسَ الكفّار الأحياءُ من موتاهم الَّذين في القبور أن يرجعوا إلى الدّنيا أحياءً، أو كما يئس الكفّار من بعث موتاهم؛ لأنَّهم لا يعتقدون ببعثٍ ولا نشورٍ[8]. وعلى القولِ بأنَّ المراد من الكفّار اليهودُ أو أهلُ الكتاب مطلقًا يكون المعنى: يا أيّها الَّذين آمنوا لا تتولَّوا قومًا مغضوبًا عليهم، قد يئِسوا من أن يكون

(1) الراغب، المفردات: (غضب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غضب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يئس).
(4) الراغب، المفردات: (يئس).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (يئس).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (يئس).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (يئس).
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 130، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 241.

لهم حظٌّ في الآخرة؛ لعنادهم رسولَ اللّه ﷺ المنعوتَ في التّوراة، المؤيَّدَ بالآيات، كما يئس الكفّار من موتاهم من أن يبعثوا ويرجعوا أحياءً أو من أن ينالوا خيرًا منهم[1]. وجاء في سبب نزول الآية أنَّها نَزَلتْ في ناسٍ من فقراء المسلمين كانوا يُخبِرونَ اليهودَ بأخبار المسلمين يتوصّلون إليهم بذلك، ويتقرّبون به إليهم عن غفلةٍ منهم وقلَّةِ حذرٍ؛ ليصيبوا بذلك من ثمارِهم؛ فَنَهاهُمُ اللّهُ ﷻ عن ذلك، ونبَّهَهم إلى أنْ لا يتولَّوهم[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ جُملةِ الاستئناف:

استئنافُ المعاني في ختام السّورة ترسيخٌ لِما بَدَأتْ به

جاءَ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ استئنافًا لبيان النّهي عن تولّي الكافرين الَّذين غضب اللّه عليهم، فإنَّه بعد أن بيّن مبايعة النّساء استأنَفَ فبيّن لجميع المؤمنين وجوبَ تركِ تولّي من غضب اللّه عليه، فيكون في الاستئناف عودٌ على ما بدأت به السّورة في تركِ اتّخاذ عدوّ اللّه أولياءَ لغضب اللّه عليهم؛ فجاء ختام السّورة بجملةٍ مستأنفة تَنهى عن تولّي من غضب اللّه تعالى عليه، كما بُدِئَتْ بنهي المؤمنين عن موالاة أعداء المؤمنين من الكفّار والمشركين، وبهذا لا يكونُ للمؤمنين ولاءٌ مع جميع أهلِ العداوة للّه وللمؤمنين.

دلالةُ نداءِ المؤمنين في الخِتام:

النِّـداءُ الأخـيرُ وصيَّةٌ للمؤمنين بـالـبـقـاءِ على الجادَّة

استعمَلَ النّظم الكريم أسلوبَ النِّداء؛ لإشعار المؤمنين بأهمّيَّة ما يُنادى به في ختام السّورة؛ للإعلام به وإشهارِهِ بين جميع المؤمنين المخاطبين، نداءً أخيرًا آخِذًا وصيَّةَ المؤمنين أن يكونوا على الجادَّة في أن يكون ولاؤهم للّه تعالى، وتركِ ما سواه. ولمّا جاء النِّداءُ خطابًا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 207.

(2) الواحدي، أسباب النزول، ص: 425، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 78، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 169.

للَّذين آمنوا أفادَ توجُّهَ الخِطابِ لجميع المؤمنين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وفي جميع أحوالِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الماضي:

تحقُّقُ الإيمان ورِفعةُ المتَّصفينَ به

أفاد التّعبير بصيغة الماضي للفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ أنَّ الخِطابَ لِمن تحقّق منه الإيمان، ففيه رفعةٌ لشأنِ من يُخاطَب بهذا الخِطاب لشهادة اللّه تعالى له بالإيمان، وتلذُّذٌ للمؤمنين بوصفِهم في خطابِ اللّه لهم بوصف الإيمان(1).

نكتةُ حذفِ متعلّقِ الفعل ﴿ءَامَنُواْ﴾:

الإيمانُ كلٌّ لا يَتَجزَّأ، وسلوكٌ لا يَغيب، فمَن آمَنَ فقد آمَنَ بكلِّ الأركان

جاء الفعلُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ مطلقًا غيرَ مقيَّد في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فأفاد الإشعارَ بأنَّ الإيمان كلٌّ لا يتجزَّأ، وأنَّ المقصود مَن صحّ إيمانُه بإقرارِه بأصول الإيمان كلِّها، فدلَّ على عموم الإيمان بالأركان والأصول، كما أنَّ إطلاق الفعل دلَّ على أنَّ المخاطَبين قد تحلَّوا بالإيمان سلوكًا عمليًّا في الحياة، فهم آمنوا فعلًا وقولًا وتصديقًا، فأصبح الإيمان سجيَّةً لهم، وحذفُ متعلّق الإيمان مِن أدلّة البلاغة العالية على أنَّ الإيمان تصديقٌ وقولٌ وعمل، لا مجرّدُ تصديقٍ مُستكنٍّ في فضاءِ القلوب.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصول:

الإيمانُ علَّةُ عدمِ موالاةِ المغضوبِ عليهم

أفاد مجيءُ الموصول وصلتِه في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ بيانَ وجهِ بناءِ الخبر وعلّته؛ بمعنى: أنَّ إيمانَهم باللّه يقتضي أن لا يتولَّوا قومًا غضب اللّه عليهم، ففيه إشارة إلى مُنافاةِ الإيمانِ باللّهِ لتولّي مَنۡ غَضِبَ اللّهُ عليه. وفي التّعبير بالموصول وصلتِه إشارةٌ إلى أنّه لا يتأتّى من الَّذين آمنوا سوى الامتثالِ لهذا النّهي بالكفِّ عن تولّي هؤلاء القوم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 527.

لَحْظُ الأنباءِ إلى أنَّ القوم قاموا على غضب الله

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ القوم:

لمّا كان لفظُ القوم يدلُّ على الجماعةِ من النّاس الَّذين فيهم شدّةٌ وقوّة، بحيث يقومون بالأمر، وتَجمَعُهم جامعةٌ يقومون لها أفاد التّعبير بلفظ (قوم) في قوله: ﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا﴾ النّهيَ عن تولّي أيِّ صنفٍ من النّاس موصوفين بغضب الله عليهم، وإن كانوا أقوياءَ وأشدّاءَ، وتَجمَعُهم جامعةٌ فيما بينهم، فيكون النّهي عن تولّي غيرِهم من باب الأولى[1]، ففيه لَحظُ الأنباءِ إلى أنَّهم قاموا على ما يُغضب الله تعالى، ومن كانوا كذلك فالبراءةُ منهم هي مقتضى الإيمان.

مَن عرَّض نفسَهُ لغضبِ الله كان حقيرًا مَهينًا، وعاشَ في ذِلَّةٍ وهَوان

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿قَوۡمًا﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿قَوۡمًا﴾؛ للإيماءِ إلى ازدراءِ هؤلاء القوم لِغضبِ الله عليهم وهوانِهم، وأنَّهم - حيث كانوا ومهما تَقَوَّوا واشتدّوا - هم في صَغارٍ وذِلَّةٍ وهوانٍ[2]، وليَعُمَّ كلَّ قوم هذا شأنُهم.

اشتهارُ اليهودِ بالحَيْدِ عن الحقِّ والنُّكوص عنه مع علمِهم بأنَّه حقٌّ

توجيهُ تخصيصِ صفةِ الغضبِ بالذِّكر:

جاءتْ جملةُ ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ صفةً للاسم النّكرة ﴿قَوۡمًا﴾، والنّكرةُ فردٌ شائعٌ غير معيَّنٍ، ومن حقِّ الصِّفة أن تُخَصِّصَ الموصوفَ، فلمّا قال: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ دلَّ على وضوح المقصود وتخصُّصِ الموصوف؛ لأنَّه لمّا كان المغضوبُ عليه هو الَّذي يَعلَمُ الحقَّ ويَحيدُ عنه[3] ناسَبَ ذكرُ هذا الوصفِ دون غيرِه، ففيه إيماء إلى أنَّ الحقَّ إنّما هو في الإيمان بنبوّة سيّدنا محمَّد ﷺ، وفي كونِه هو الأسوةَ الحسنة، كما أنَّ في الوصفِ بقولِه: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ إشارةً إلى أنَّ المراد بهم اليهودُ؛ لاشتهارِهم بالحَيْدِ عن الحقِّ مع علمِهم به، أو إلى أنَّ المراد كلُّ مَن يَعلَمُ الحقَّ ويحيد عنه؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 527.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 912.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 15.

فيشمل اللَّفظُ عمومَ طوائف الكفّار، ويدخلُ فيه اليهود والنّصارى دخولًا أوّليًّا(1).

نكتةُ الوصفِ بالجُملةِ الفعليَّة:

اجتماعُ قَطْعيَّةِ الغضبِ مع تعيينِ الفاعلِ وكونِهِ متمكِّنًا منهم

أفاد مجيءُ جملة ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ صفةً لـ﴿قَوۡمًا﴾ لزومَ هذا الوصف لهم، وحسبُهم صغارًا وذلَّةً وهوانًا أن يلازمَهم غضبُ اللّهِ ويصحبَهم في كلِّ زمان ومكان. ولمّا جاء لفظُ ﴿قَوۡمًا﴾ نكرةً، وكانت النّكرةُ تدلُّ على الشّيوع وعدم التّعيين جاءت الصّفة مخصِّصةً للنّكرة، فهي بمثابة التّعيين للقومِ، فكان وصفُ القوم بغضب اللّه عليهم كاشفًا عن هؤلاء القوم بكونِهم معيّنين بهذا الوصف الملازم لهم، فالصّفة قرينة دالَّة على الموصوف؛ إذ كانت مقصورةً عليه، فكان المراد من القوم اليهودَ على وجهٍ دلَّ على شهرتِهم بهذا الوصف واقترانهم به، وذلك بارتكابِهم كلَّ ما يغضب اللّه تعالى وإعلانهم به. وإيثارُ الجملةِ دون المفردِ لجمعِ دلالة الفعل الماضي، وذكر اسمِ الجلالة الفاعل، والقيدِ بكونه عليهم، وهو أرسخ وصفًا من الاكتفاء بالاسم.

بلاغةُ استعمال حرف الاستعلاء:

مُكْنةُ الغضبِ تعني الإبعادَ عن أسبابِ الرَّحَمات وأبوابِ الجنّات

أفاد حرفُ الجرِّ (عَلى) تمكُّنَ غضب اللّه من اليهود، فهو نازلٌ عليهم، آثارُهُ مستعليةٌ عليهم، ومحيطةٌ بهم من كلِّ جانب، فلا يوفّقون إلى أسباب الآخرة، ولا إلى طريق الجنّة، وهذه أعظمُ المصائب الَّتي يُبتلى بها العباد، وأفظعُ ما قد يحلُّ بعبدٍ؛ إذ التّوفيق والرّحمة يقتضيان سَوْقَ النّاس إلى أسباب النّجاة عند اللّه تعالى، لا إلى أسباب الاستزادة من عذاب السّعير.

تنوُّعُ إعرابِ ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ ودلالتُه:

تَحتمِلُ جملةُ ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أن تكون صفةً أُخرى لِلَفظِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 527.

تنوُّعُ التَّوجيه النَّحويِّ في القرآن توسيعٌ في المعنى وتكثيرٌ له

﴿قَوۡمًا﴾[1]، فيكون قد وصفَهم بوصفين على سبيل التّعداد من غير عاطفٍ؛ للدّلالة على قوّة كلِّ وصف واستحقاقِه أن يكون وحده كافيًا للنّهي عن تولّيهم، والوصفان متغايران في التّعلّق؛ فأحدهما يتعلّق بحالتِهم مع اللّه تعالى فوصفهم بأنَّه تعالى قد غضب عليهم، والثّاني يتعلَّق بحالتِهم مع المؤمنين فوصفهم بأنَّهم لا يُرجى منهم خيرٌ ولا يَنفَعُ معهم نصحٌ ليأسِهم من الآخرة.

كما تَحتمِلُ جملةُ ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أن تكون استئنافًا بيانيًّا؛ وذلك أنَّه لمّا كان السّامع لقولِه: ﴿قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ يَتَوقَّعُ بيانَ سببِ الغضبِ قال مُعلِّلًا ومُبيِّنًا أنَّه لا خير فيهم يُرجى وإن ظهر خلافُ ذلك: ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[2].

كما تَحتمِلُ أن تكون الجملة حالًا من ﴿قَوۡمًا﴾[3]؛ فإنَّه بعد أن وصف القوم بقولِه: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ وخَصَّصَهم بالوصفِ ذكَرَ حالَهم اللّازمة غيرَ المنتقلة فقال: ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

دلالةُ الإيماء والتَّعريضِ بالتَّهديد:

مَن يتولَّ المغضوبَ عليهم فمعرَّضٌ لمصيرهم دُنيا وأُخرى

اشتملت جملةُ ﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إيماءً إلى أنَّ من يتولّاهم يكونُ حالُه مثل حالِهم في الحرمان من خير الآخرة، والمعنى: فاحذَروا - أيُّها المؤمنون - أن تَوَلَّوهم، فتوافِقوهم على شَرِّهم وكُفرِهم، فتُحرَموا من خيرِ الآخِرةِ كما حُرِموا[4]، مع ما فيها من التّعريض بالتّهديد، كما أنَّ مجيء الصّفة الأولى ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيها إيماءٌ إلى أنَّ من يتولّاهم يَغضَبُ اللّه عليه.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 71، والصافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 229.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 527.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 71.

(4) السعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 858.

دلالةُ حرفِ التَّحقيق:

العَجَبُ مِن تولّي قومٍ تحقَّقَ يأسُهم مِن رحمةِ الله

أفاد حرف التّحقيق ﴿قَدۡ﴾ الدّاخلُ على الفعل الماضي ﴿يَئِسُواْ﴾ تأكيدَ يأسِهم من الآخرة وتقريرَه، فمن مات مغضوبًا عليه فهو آيسٌ من رحمة اللّٰه تعالى.

دلالةُ لفظ ﴿يَئِسُواْ﴾ بينَ الكناية والمجازِ المرسل:

اليأسُ من الآخرة إمّا كنايةٌ عن الإعراض عنها لإنكارِها، أو مجازٌ بحملِ اليأس على الحرمان

إن كان المراد من القوم الَّذين غضب اللّٰه عليهم عمومَ طوائف الكفّار كان المرادُ من يأسِهم من الآخرة في قولِه تعالى: ﴿يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عدمَ اعتقادِهم بها وبوجودِها أصلًا؛ بمعنى: أنَّ الكفّار على يقينٍ بعدم وجود الآخرة؛ لأنَّ اليأسَ من الشّيء يدلُّ على انقطاع الطّمع في حصولِه، فإن علِّقَ بذاتٍ كان دالًّا على عدم توقّع وجودِها. وإن كان المرادُ من القوم اليهودَ - كما جاء في سبب نزول الآية - فإنَّهم لمّا كانوا لا يُنكرون الآخرة كان معنى يأسِهم من الآخرة كنايةً عن الإعراض عنها وإهمالِهم الاستعدادَ لها بالغفلةِ عنها وارتكابِ ما يوقِعُ غضب اللّٰه عليهم، فكأنَّهم آيسون منها ومن أن يكون لهم حظٌّ فيها[1]، أو يقال: إنَّ يأسَ اليهود من الآخرة لا يُقصَد به عدم الإيمان بالآخرة؛ لأنَّ اليهودَ طامعون في الآخرة؛ لاعتقادِهم أنَّهم على حقٍّ، وأنَّ تمسُّكَهم بشريعةِ موسى ينفعُهم يوم القيامةِ، فلا يكونون آيسين، بل يعتقدون أنَّ نعيمَها خاصٌّ بهم، فيكون إسناد اليأسِ إليهم على طريق المجاز المرسل[2]، ويكون المراد باليأس مآلَهُ، وهو الحرمان؛ أي: قد حرموا من ثواب الآخرة ونعيمها والسَّعادة فيها[3].

بلاغةُ الاستعارة في مفردةِ اليأس:

اليائسُ مِن الآخرة ينقطعُ رجاؤه منها، فلا يراعي خيرًا في الدّنيا

ذهب ابن عاشور إلى أنَّ قوله تعالى: ﴿يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ جاء

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 170.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 220.

(3) القنّوجي، فتح البيان: 14/ 93.

على طريق الاستعارة؛ إذ استعير لفظ ﴿يَئِسُواْ﴾ لمعنى الإعراض عن الآخرة، بقصد المبالغةِ في بيان إعراضِهم عن الآخرة؛ فكأنَّه قد انقطع طمعهم فيها، فلا يراعون خيرًا في الدّنيا، ويخوضون في ارتكاب القبائح فيها، ولهذا غضب الله عليهم.

وجاءت الاستعارة تصريحيَّةً بتشبيه إعراضِهم عن الآخرة باليأس منها وانقطاع الرّجاء فيها بجامع عدم الانتفاع بها، كما أنَّ في استعارةِ لفظ ﴿يَئِسُواْ﴾ مشاكلةً في اللَّفظ[1] لقولِه: ﴿يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾؛ لأنَّ يأس الكفّار من أصحاب القبور هو على المعنى الحقيقي؛ أي: بمعنى انقطاع الطّمع، سواءٌ أكان التّوجيه على معنى انقطاع الطّمع من بعثِ أصحاب القبور، أم على معنى انقطاع طمع الموتى الَّذين هم أصحاب القبور، كما تقدّم في تنوّع المعنى. وهذا الاختلاف في توجيه دلالة لفظ ﴿يَئِسُواْ﴾ بلاغيًّا جارٍ على مقتضيات البلاغة، فإنَّ كلَّ كنايةٍ يصحُّ توجيهُها على الاستعارة أو المجاز المرسل؛ إذ نسبةُ الكناية إلى الاستعارة نسبة الخاصِّ إلى العامِّ[2].

دلالةُ الحرف ﴿مِنَ﴾ وأثرُهُ في توجيهِ التّشبيه البلاغيّ:

يَحتملُ الحرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ وجهين: الأوّل: أن تكون ﴿مِنَ﴾ لابتداء الغاية[3]، فيكون المراد من القوم الَّذين غضب الله عليهم عمومَ الكفّار المنكرين للبعثِ، والمعنى: إنَّ هؤلاء القومَ المغضوبَ عليهم قد يئسوا من الآخرة وكذّبوا بها كما يئسوا من موتاهم أن يبعثوا ويلقوهم في دار الدّنيا؛ لأنَّه إذا مات له حميمٌ قال: هذا آخر العهد به لن يُبعَثَ أبدًا؛ أي: إنَّ هؤلاء الكفّار قد يئسوا من الآخرة كما أنَّهم لا يوقنون ببعث الموتى ألبتَّةَ، فيكون المرادُ من اليأس من الآخرة إنكارَها والتّكذيب بها.

والثاني: أنَّها لبيان الجنس[4]، فإذا كانت ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس كان الكفار هم أصحابَ القبور، وكان المراد من القوم اليهودَ. والمعنى: إنَّ هؤلاء القومَ الَّذين غضب الله عليهم - وهم اليهود - قد يئسوا من خيرِ الآخرة ونعيمِها كما يئس الكفار الَّذين هم أصحاب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 170.
(2) ابن الأثير، المثل السائر: 2/ 185.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 161، والسمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 311، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 275.
(4) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 5/ 300، والسمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 311، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 275.

القبور من خير الآخرة؛ أي: إنَّ يأسَ هؤلاء من الآخرة كيأس الكفّار الَّذين ماتوا وسكنوا القبور، وتبيَّنوا حرمانَهم من نعيمها المقيم، والمراد وصفُهم بكمال اليأس من الآخرة، ويكون المراد باليأس من الآخرة المعنى المجازيَّ، أو أن يكون المعنى على الكناية كما تقدَّم. وفيه تخييلُ حالهم بالموتى في صورة الآيسين من رحمة اللّه ﷻ[1]، ويكون مُتعلّق ﴿يَئِسَ﴾ الثّاني محذوفًا، وتقدير الكلام: كما يئس الكفّار من أصحاب القبور من خير الآخرة.

اليأسُ مِن الآخرة إمّا بمعنى إنكارِها أو بمعنى إهمالها والإعراض عن العمل لها

بلاغةُ وضعِ الظّاهر موضعَ المُضمَر:

على القول بأنَّ المرادَ من القوم الكافرين المُكذِّبون بالآخرة يكونُ ذكرُ الاسم الظّاهر ﴿ٱلۡكُفَّارُ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ من قبيل وضعِ الظّاهر موضعَ المضمر؛ لأنَّ الكلام بتقدير: قد يئسوا من الآخرة كما يئسوا من أصحاب القبور أن يُبعثوا، وسببُ العدول إلى الاسم الظّاهر بيانُ أنَّ كفرَهم هو الَّذي أيأسَهم[2]، فيكون وضعُ الظّاهر موضع المضمر بقصدِ الدَّلالة على سبب الحكم وعلّتِه.

الكفرُ بالله هو السَّببُ في إنكار الآخرة وعدم اعتقادها

بلاغةُ التّشبيهِ ودلالتُهُ:

إن كان المرادُ من القوم الكفّار المكذّبين بالآخرة يكون قد شبَّه يأسَهم من نعيمِ الآخرة بسبب تكذيبِهم بها بالقوم الَّذين يئسوا من بعثِ الموتى من أصحاب القبور، ووجهُ الشّبه عدمُ انقطاع الطّمع في حصول المأمول. وإن كان المرادُ من القوم اليهودَ يكون قد شبَّه عدمَ انتفاعِهم في الآخرة وعدمَ نيل نعيمِها بسبب غضب اللّه عليهم وإعراضهم عن العمل بيأسِ الكفّار المكذّبين بالآخرة من حياة الموتى؛ أي: مِن أن يُبعَثوا في الدّنيا؛ أي: كما أنَّ الكافرين موقنون من عدم رجوع الموتى من قبورهم في الدّنيا فأنتم موقنون من حرمانِكم من

يقينُ اليهودِ بحِرمانِهم من الآخرة كيقينِ الكفّار من حياةِ موتاهم في الدّنيا

(1) الطيبي، حاشية على الكشّاف: 15/ 377.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 207.

نعيم الآخرة يوم القيامة، ووجه الشّبه شدّةُ الإعراض وعدمُ التّفكّر في الأمر وعاقبتِه. وفي التّشبيه تشنيعُ المشبَّه وتقبيحه، أو يكونُ التّشبيه على معنى تشبيه إعراضِ اليهود عن الآخرة بيأسِ الكفّار من نعيم الآخرة، ووجه الشّبه تحقُّقُ عدمِ الانتفاع بالآخرة. وعلى الوجهين فإنّ المشبّه به معلومٌ عند المسلمين بالاعتقاد، فالكلامُ من تشبيه المحسوس بالمعقول[1].

دلالةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

اليأسُ في قلب المُنكِرِ ثابتٌ راسخٌ

دلَّ التّعبير بصيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ على وقوع يأسِهم من أصحاب القبور وتحقُّقِه سلفًا، ولمّا جاء قوله تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ﴾ في مَقام المشبّه به، وكان الأصل في المشبّه به أن يكون أقوى وأظهر في المعنى من المشبّه دلَّ على تحقُّقِ وقوع يأسِ الكفّار من أصحاب القبور أن يبعثوا أو أن ينالوا خيرًا في الآخرة.

دلالةُ التَّعبير بصيغة ﴿ٱلۡكُفَّارُ﴾ دون (الكافرون):

دلالةُ المبالغة في لفظِ الكفر أشدُّ، واتِّساقُ اللَّفظ مع السّياق أسَدّ

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة جمع التّكسير ﴿ٱلۡكُفَّارُ﴾ دون صيغة جمع المذكر السّالم (الكافرون) وكلاهما جمع (كافر)، والفرق بين الصّيغتين: أنَّ جمع المذكّر السّالم يقرّبه من الإيماء إلى الحدث والفعليَّة مع الإشارة إلى الذّوات لمجيئّه على صيغة اسم الفاعل المشبّه به الفعلُ المضارع، بينما جمعُ التّكسير يقرّبه من الإيماء إلى الذّوات مع الإشارة إلى حدث الكفر لمجيئه بصيغة تكسير الصّيغة ممّا يدلُّ على بُعدِها من معنى الفعل؛ لتفيد صيغة التّكسير قوّةَ تحقُّقِ الوصف في الذّوات، حتّى كأنّه إذا ذكرت الذّات لزم من ذكرها تصوُّرُ الوصف واقترانه بها، فلمّا كان الأمر كذلك كان إيثار التّعبير بلفظ ﴿ٱلۡكُفَّارُ﴾ في قوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 170.

﴿أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ للإيماء إلى قوّة وصفهم بالكفرِ وتحقّقه فيهم، وهو المناسب؛ لأنَّ يكون في مقام المشبّه به.

كما أنَّ في صيغة ﴿ٱلۡكُفَّارُ﴾ مناسبةً لفظيّةً لِلَفظِ ﴿ٱلۡقُبُورِ﴾، ولو وُضِعَ الجمعُ الآخرُ لكان فيه ثقلٌ في النّطق، ولِما في جمع التّكسير من إيماءٍ إلى المبالغة في الكفر.

بلاغةُ الاستطراد:

على القول بأنَّ المراد في الآية هو نهيُ المؤمنين عن تولّي اليهودِ يكون في الآية استطرادٌ لطيف؛ فقد ذمَّ اليهودَ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾، واستَطْرَدَ ذَمَّهم بذَمِّ المشركين في قولِه تعالى: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾[1]، وفيه إشارة إلى النِّسبةِ بين اليهود والكفّار، وذلك في معاندة النّبيِّ ﷺ وتكذيبِه، مع ظهور الآيات والأدلّة المؤيّدة له ﷺ.

بينَ اليهود والمشركين علاقةٌ جامعةٌ في عداوةِ المؤمنين والاتّفاق على الكفر

الفروقُ المُعجَميَّة:

اليأسُ والقُنوط:

القنوط أشدُّ مُبالغَةً من اليَأس[2]، والقنوط مطلق، واليأس هو انقطاع الطّمع من شيءٍ بعينه، ولهذا عبّر باليأس في قولِه تعالى: ﴿يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنَّ المقصود اليأس من الآخرة ونعيمها، واليأس يكون في القلب، وأمّا القنوط فهو أن يظهر على القانطِ أثرُ اليأس في الوجه والأحوال الظّاهرة، كأن يتضاءَلَ وينكسرَ؛ للدّلالة على انقطاعِ رجائِه من رحمة الله وفضلِه. والقنوط صفة الكافر[3]. كما انَّ اليأس من رحمة الله لا يتأتّى إلّا من الكافر، فالقنوط يأس

القُنوطُ أشدُّ مِن اليأسِ، واليأسُ انقطاعُ الطّمع مِن مطموعٍ بعينه

(1) ابن المنيّر، حاشية على الكشاف: 4/ 521، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 71.
(2) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 245.
(3) الزمخشري، الكشاف: 13/ 623، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 241، وابن عادل، اللباب: 17/ 155، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 18.

مفرطٌ[1]. وقد يقال: إنَّ اليأس يكون من الخير مطلقًا، وأمّا القنوط فيكون من الرّحمة[2].

القبورُ والأجداث:

القبورُ اسمٌ لمَدافِنِ النّاس، والأجداثُ يُلحَظُ فيها وقتُ خروجِ الأجسادِ وبعثِها

القبورُ جمع قبر، وهو مدفنُ الإنسان[3]؛ أي: المكانُ الَّذي يُدفَنُ فيها الميتُ، فيستعمل في الدّلالة على مقرِّ الميت[4]، وأمّا الجَدَثُ فهو الموضع الَّذي يكون منه إخراجُ الميت لأجل البعثِ يوم النّشور يوم القيامة، والغالب فيه استعماله في القبر، فالمعنى المحوريُّ للجدث يدورُ على نَبْثِ التّراب وإخراجه بقوَّةٍ من قطعةٍ عريضة من الأرض[5]. والاستعمالُ القرآنيُّ للقبور والأجداث جاءَ على وفْقِ المعنى اللُّغويِّ، فقد استعمَلَ القبورَ في سياق الكلام عن موضعِ دفنِ الميتِ، وهمدتِه وسكونِه في موضعٍ معيَّن.

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 8/ 278.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 188، والسمعاني، تفسير السمعاني: 5/ 59.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قبر).
(4) الراغب، المفردات: (قبر).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (جدث).

سُورَةُ الصَّفِّ

سُورَةُ الصَّفِّ

التَّعريف العامُّ بالسّورة

المكّيُّ والمدنيُّ وعدُّ الآي:

سورة الصَّفِّ مدنيَّة

هذه السّورة مدنيَّة عند جمهور العلماء، كما نقل ذلك ابن عطيَّة؛ إذ قال: "وهي مدنيَّة في قول الجمهور، وقال بعضهم: إنَّها مكّيَّة، والأوَّل أصحُّ؛ لأنَّ معانيَ السّورة تعضده، ويشبه أن يكون فيها المكّيُّ والمدنيُّ"[1]، ويقصد بذلك أنَّ بعض آياتها تشبه الآياتِ المكّيَّة، وإلى مدنيَّتها ذهب القرطبيُّ[2] و السُّيوطيُّ[3] وأغلبُ المفسِّرين[4]، وقال ابن عاشور: "وعن ابن عبّاس ومجاهد وعطاء أنَّها مكّيَّة، ودرج عليه في الكَشّاف، والفخرُ"[5]، وأمّا عدد آياتها؛ فهي أربعَ عشرةَ آيَةً، ليس فيها اختلافٌ باتِّفاق أهل العدد[6].

ترتيب النُّزول، وترتيب المصحف:

جـاء ترتيب سورة الصَّفِّ المصحفيِّ بين سورتي الممتحنة والجُمُعة

هذه السّورة هي الواحدة والسُّتّون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتي الممتحنة والجمعة، وأمّا ترتيبها النُّزوليُّ؛ فهيَ السّورَةُ الثّامنة بعد المئة في تَرْتيبِ نُزولِ السّورِ، نَزَلَت بَعدَ سورَةِ التَّغابن وقَبلَ سورَةِ الفتح[7].

فضائل السّورة:

سورة الصَّفِّ من سور المُفَصَّل

سورة الصَّفِّ من المفصَّل الذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ، فيما رواه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 301.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 77.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 50.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 555، 556.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 172.
(6) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 245.
(7) دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 555، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 172.

عنه واثلةُ بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»(1).

اسم السّورة ومناسبة تسميتِها:

سورةُ الصَّفِّ اشتهرت بهذا الاسم، ولم يثبت لها اسمٌ غيرُه

وردت تسميتها بسورة (الصَّفِّ) عند البخاريِّ(2) والتِّرمذيِّ(3)، وبه جاءت تسميتُها في جميع المصاحف وكتب التَّفسير، وقد ذكروا أنَّ تسميتها بهذا الاسم؛ لورود لفظة الصَّفِّ فيها في قوله تعالى: ﴿صَفًّا﴾.

وذكرَ السَّخاويُّ لها اسمًا آخر دون أن يذكر لذلك سندًا، وهو: (سورة الحواريّين)(4)، ولعلَّ ذلك لورود هذه اللَّفظة فيها في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ [الصّفّ: 14]، ﴿لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [الصّفّ: 14]، وذكر الآلوسيُّ تسميتَها سورةَ (عيسى)(5)، ولم يسنده أيضًا.

وقد قام البقاعيُّ بالرَّبط بين اسمها ومقصودها خيرَ ربطٍ، فقال: "ومقصودُها: الحثُّ على الاجتهاد التّامِّ، والاجتماعِ على قلبٍ واحد، في جهاد مَن دعت المتحنة إلى البراءة منهم، بحملهم على الدّين الحقِّ، أو محقهم عن جديد الأرض؛ تنزيهًا للملك الأعلى عن الشِّرك، وصيانةً لِجَنابِهِ الأقْدَسِ عن الإفْك، ودلالةً على الصِّدق في البراءة منهم والعداوة لهم، وأدلُّ ما فيها على هذا المقصد: الصَّفُّ، بتأمُّل آيته، وتدبُّر ما له من جليل النَّفع في أوّله، وأثنائه، وغايته"(6).

والحقُّ أنَّ ما قاله، له وجاهتُه، فمِحورُ هذه السّورة مرتبطٌ باسمها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنَّ محورها يقومُ على ضرورة تحقيق

(1) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطّبرانيّ في الكبير: 22/ 76، والبيهقيّ في شعب الإيمان: 4/ 71.
(2) البخاريّ، صحيح البخاريّ، باب تفسير سورة الصّفّ: 4/ 1858.
(3) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، بابٌ ومن سورة الصّفّ: 5/ 412.
(4) السّخاوي، جمال القرّاء وكمال الإقراء، ص: 92.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 277.
(6) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 81.

الوحدة الكاملة عند المسلمين بينهم وبين قيادتهم، وبين أقوالهم وبين أفعالهم، وبين معتقداتهم وبين مواقفهم، في السِّلم وفي الحرب؛ حتّى يتحقَّق لهم النّورُ الذي وعدهم اللّهُ تعالى به، وإنَّ تسميتها بالصَّفِّ ما يرتبط بهذا المحور ارتباطًا ظاهرًا لا يحتاج فيه إلى أدنى تكلُّفٍ؛ لأنَّ الصَّفَّ هو شِعار الوَحدة والانضباط.

المِحور العامّ للسّورة:

جاءت هذه السّورة؛ لتبيِّن ثمرةَ المِحورِ الذي ورد في السّور السّابقة، مؤكِّدةً أنَّ الولاء للّه، والبراءَ من كلِّ ما سواه، وهذا من شأنه أن يحقِّق وحدة المسلمين على الصَّعيدَيْن الدّاخليِّ والخارجيِّ، فعلى الصَّعيد الدّاخليِّ تتَّفق أقوالُهم مع أفعالهم، فلا يُشابهوا المنافقين في مواقفهم، ويظهر ذلك من خلال النِّقاط الآتية:

أوَّلًا: استُهلَّت السّورة بهذا الاستفهام التَّوبيخيِّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾.

ثانيًا: ضربت السّورة لهم المثل ببني إسرائيل الذين عاتبهم نبيُّهم على هذا الفصام النَّكد بين ما يعلمونه وبين ما يفعلونه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، وكذلك فعلوا نفس الفِعلة مع نبيِّهم عيسى بعد ذلك: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٦﴾ [الصّفّ: 6].

ثالثًا: ضربتِ السّورةُ في المقابل لهم أُنموذجًا مزدوجًا من موقف الحواريّين مع عيسى عليه السلام، وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه موقف المؤمنين برسالة محمَّدٍ ﷺ، ومن موقف سائر بني إسرائيل؛ إذ انقسموا إلى فريقين مختلفين، فاختتمت السّورةُ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾ [الصّفّ: 14].

رابعًا: بيَّنتِ السّورةُ لهم مقوِّمات الوَحدة الوحيدة التي يجب أن يتحلَّوا بها حتّى يخرجوا من فصام الرَّغبات وصراع الولاءات والانتماءات، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ

أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصّفّ: 10 - 13].

محور سورة الصَّفِّ يقوم على ضرورة تحقيق الوَحدة الكاملة بين المسلمين

موضوعات السّورة وخصائصُها:

جاءت موضوعاتُ السّورة مقسَّمةً على الشَّكل الآتي:

أوّلًا: تؤكِّد السّورة على أنَّ الوَحدة والتَّماسك داخلَ الأُمَّةِ الإسلاميَّة هما الرَّكيزة الأساسيَّة لتحقيق النَّصر، وأنَّه لا يُقبَل التَّفكُّك والانقسام في صفوف المسلمين؛ لأنَّ ذلك يُضعِف قدرتَهم على مواجهة الأعداء، فهي تحثُّ على التَّلاحم والالتزام بأوامر الله، وأن يكون المسلمون صفًّا واحدًا في الجهاد والدَّعوة، لرفع كلمة الحقِّ وإعلاء شأن الدّين.

دعوة المسلمين للالتفاف صفًّا واحـدًا حولَ خوَيْصَتِهم

ثانيًا: تُبرِز السّورةُ أنَّ الجهاد في سبيل الله ليس مجرَّدَ قتالٍ، وإنَّما هو عمل روحيٌّ يقترن بالإيمان والتَّوحيد، وأنَّ من شأنه أن يُؤدّيَ إلى فتح أبواب النَّصر والتَّمكين للمؤمنين، بتوثيق العلاقة بين الإخلاص للّه والثَّبات على الحقِّ، وتُذَكِّر أنَّ الثَّبات على هذه المبادئ هو الطَّريق لتحقيق النَّصر في الدُّنيا، والفوزِ بالثَّواب في الآخرة.

ثالثًا: تُبيِّن السّورةُ أنَّ الانحراف والفُرقة يعوقان مسيرة الأُمَّة، وتُحذِّر من الاستعانة بالطُّرق غيرِ الشَّرعيَّة أو الابتعاد عن منهاج الله، مع التَّدليل على ذلك بحال بني إسرائيل الذين عصَوا أوامرَ اللّهِ، وأمَروا المسلمين أن يلتزموا بأوامر اللّه ورسوله، كما تؤكِّد على أنَّ الإسلام هو نورٌ يهدي، وحَقٌّ يُعلي شأنه، وأنَّ نصره من عند الله لا يتوقَّف إلّا على التَّوحد والطّاعة.

رابعًا: تختتم السّورة بتأكيد أنَّ الثَّمرة الحقيقية للجهاد والعمل الصّالح هي النَّصر في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ تأسيس الاجتماع على الإيمان والعمل يدلُّ على أنَّ الله يوفِّق عبادَه للمسير على طريق الهداية، وأنَّ الانتصار النِّهائيَّ يتحقَّق بتوفيق من الله، مع التَّشديد على أنَّ إعداد النَّفسِ والجهاد هو سبيلُ السَّعادة في الدُّنيا، والفوزِ في الآخرة[1].

الخصائص الموضوعيّة لسورة الصَّفِّ:

تميَّزت سورةُ الصَّفِّ بأنَّها تناولت الموضوعات الآتية:

تـمـيَّـزت سـورة الـصَّـفِّ بـخـصـائـصَ أفـردتـهـا عن غيرها من السّور

أوَّلًا: نهيُ المؤمنين عن مخالفة أقوالهم أفعالَهم، وتميَّزت كذلك بالمشاهد الحِواريَّة التي عرضتها لموسى وعيسى عليهما السلام مع بني إسرائيل، وامتازت كذلك بدعوتها المسلمين لتجارةٍ تنجيهم من عذابٍ أليم، وتميَّزت بنداء المؤمنين أن يكونوا أنصارًا لله كالحواريّين.

ثانيًا: تميَّزت سورةُ الصَّفِّ بتعانق النِّداء في مطلعها مع النِّداء في خاتمتها، فقدِ ابتدأت بنداء المؤمنين بهذا الاستفهام التَّوبيخيِّ التَّعجُّبيِّ في مخالفة أقوالهم أفعالَهم، واختُتِمت بندائهم بما ينبغي أن يكون عليه حالُهم.

الخصائص الأسلوبيّة لسورة الصَّفِّ:

على الرَّغم من قِصَرها فقد تميَّزت سورةُ الصَّفِّ بالأمور الآتية:

أوَّلًا: تميَّزتِ السّورةُ بوفرة النِّداءات فيها، حيثُ وصلت إلى خمسة نداءات، وهي: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، وقولُه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾ [الصّفّ: 6]، وقولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ [الصّفّ: 10]، وقولُه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصّفّ: 14].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 158.

ثانيًا: تميَّزت سورةُ الصَّفِّ بوفرة الاستفهام الإنكاريِّ فيها، وهي قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وقولُه تعالى: ﴿لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، وقولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [الصّفّ: 7]، وقولُه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠﴾ [الصّفّ: 10].

ثالثًا: اختصَّت سورةُ الصَّفِّ بذِكر نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ باسم ﴿أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصّفّ: 6]، وحوت قاموسًا من الحقول الدَّلاليَّة المتعلِّقة بالبُشرى والنَّصر، مثل: ﴿وَمُبَشِّرًۢا﴾ [الصف: 6]، ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ [الصف: 8]، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ [الصف: 9]، ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾ [الصف: 12]، ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ [الصف: 12]، ﴿نَصْرٌ﴾ [الصف: 13]، ﴿وَفَتْحٌ﴾ [الصف: 13]، ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصف: 14]، ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ [الصف: 14]، ﴿ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾ [الصف: 14].

رابعًا: تميَّزت سورةُ الصَّفِّ بأنَّها حوت أفعالًا وأسماءً كثيرةً زادت على الثَّلاثين، مسندةً إلى ضمير الجمع، ممّا يُؤكِّد عنايةَ سورةِ الصَّفِّ بجمع الأُمَّة، وذلك مثل: ﴿ءَامَنُواْ﴾، ﴿تَقُولُونَ﴾، ﴿تَفْعَلُونَ﴾، ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾، ﴿كَأَنَّهُم﴾، ﴿تُؤْذُونَنِي﴾، ﴿تَّعْلَمُونَ﴾، ﴿إِلَيْكُم﴾، ﴿زَاغُوٓاْ﴾، ﴿قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿جَآءَهُم﴾ [الصف: 6]، ﴿قَالُواْ﴾ [الصف: 6]، ﴿يُرِيدُونَ﴾ [الصف: 8] ... وغيرها.

خامسًا: برزت ظاهرةُ الجِناس الاشتقاقيِّ في سورة الصَّفِّ من خلال استعمالها صيَغًا مختلفةً للجذر الواحد، مثل: ﴿لِقَوْمِهِۦ﴾، ﴿يَٰقَوْمِ﴾، ﴿زَاغُوٓاْ﴾، ﴿أَزَاغَ﴾، ﴿أَظْلَمُ﴾ [الصف: 7]، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ [الصف: 7]، ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ [الصف: 9]، ﴿ظَٰهِرِينَ ۝١٤﴾ [الصف: 14]، ﴿أَنصَارِيٓ﴾ [الصف: 14]، ﴿نَصْرٌ﴾ [الصف: 13]، ﴿أَنصَارَ﴾ [الصف: 14]، ﴿وَمُبَشِّرًۢا﴾ [الصف: 6]، ﴿وَبَشِّرِ﴾ [الصف: 13]، وغيرها.

سادسًا: تميَّزت سورةُ الصَّفِّ بأنَّها حوت أبنيَةً صرفيَّةً لم تأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿تُؤْذُونَنِي﴾، ﴿أَزَاغَ﴾، ﴿أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]، ﴿يُدْعَىٰٓ﴾ [الصف: 7]، ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾ [الصف: 8]، ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ [الصف: 8].

سابعًا: تميَّزت سورةُ الصَّفِّ بانفرادها بلفظةٍ لم ترد في غيرها من السّور مادَّةً وصيغةً، وهي ﴿مَّرْصُوصٌ﴾، وواضحٌ مدى اتِّصالها بمِحور السّورة الكريمة.

ثامنًا: تميَّزت سورة الصَّفِّ بوفرة الأنساق التَّعبيريَّة الَّتي لم تتكرَّر في غيرها، مثل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ

صَفًّا﴾، ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾، ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ [الصّفّ: 6]، ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾ [الصّفّ: 10]، ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ [الصّفّ: 14].

مناسبة السّورة لما قبلها:

سورة الصَّفِّ متَّصلة تمامًا بسورة الممتحنة مضمونًا وأسلوبًا

تترابط سورة الصَّفِّ بسورة الممتحنة بروابطَ وثيقةٍ تتجلّى في عِدَّة جوانب؛ إذ يظهر التَّكامل بين السّورتين في بناء المعاني والأحكام، ومن ذلك:

أوَّلًا: يمكن ملاحظة أنَّ افتتاح سورةِ الصَّفِّ بالتَّسبيح يأتي استكمالًا لختام سورة الممتحنة، الذي نهى عن موالاة الذين غضب اللّهُ عليهم، وهو ما يقتضي تنزيهَ اللّهِ عن حال من استحقّوا غضبَه، وقد تمَّ توجيهُ عتابٍ للمؤمنين في سورة الصَّفِّ بخصوص عدم وفائهم بالقول والفعل، مُحَذِّرةً إيّاهم من التَّشبُّه بحال من استحقّوا اللَّعنةَ والغضب من الأمم السّابقة.

ثانيًا: بينما قدَّمت سورةُ الممتحنة وصايا وإرشاداتٍ للمؤمنين بأسلوب النُّصح بخصوص عدم موالاة الكفّار، فإنَّ سورة الصَّفِّ جاءت بأسلوب أكثرَ صراحةً وعتابًا، وهو ما يجعل هذا العتابَ أشدَّ تأثيرًا في قلوب المؤمنين، وأكثرَ زجرًا لهم.

ثالثًا: تظهر المناسبة أيضًا في أنَّ سورة الممتحنة نهت عن موالاة الكفّار من دون المؤمنين، في حين أنَّ سورة الصَّفِّ أمرت المؤمنين بالوَحدة والوقوف صفًّا واحدًا ضِدَّ الأعداء.

رابعًا: في حين تطرَّقت سورةُ الممتحنة إلى أحكام العلاقات الدَّوليَّة في أوقات السِّلم، فإنَّ سورة الصَّفِّ ركَّزت على الجهاد، وحثَّت عليه في أوقات الحرب والعُدوان، وأنَّبَت المتخلِّفين عن القتال، وشبَّهتهم بمَن عَصَوا موسى وعيسى عليهما السلام[1].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 334، 335، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 157.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾

[الصّفّ: 1]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ارتكابُ الجرائم العظيمة داعيَةٌ للتَّسابيحِ القَويمة

إنَّ مناسبةَ سورة الصَّفِّ "لما قبلَها، اشتمالُها على الحَثِّ على الجهاد والتَّرغيبِ فيه، وفي ذلك تأكيدٌ للنَّهي عنِ اتِّخاذِ الكفّارِ أولياءَ، الَّذي تضمَّنَتْه السّورةُ السّابقة (سورة الممتحنة)"[1]، وذكر البقاعيُّ في مُناسبةِ البدءِ فيها بالتَّسبيح أنَّهُ: "لمّا خُتمَتِ (المُمتحنةُ) بالأمرِ بتنزيهه سُبحانَه عن تولّي مَن يُخالفُ أمرَهُ بالتَّولّي عنهم والبراءةِ منهم؛ اتِّباعًا لأهلِ الصّافّاتِ المتجرِّدين عن كلِّ ما سوى اللّه، لا سيَّما عمَّن: ﴿كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝٣٥﴾ [الصّافّات: 35]، افتُتِحتِ (الصَّفُّ) بما هو كالعِلَّة لذلك، فقالَ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، وقال الإمام أبو جعفر بن الزُّبير: "افتُتِحتْ بالتَّسبيح لِما خُتمت به سورةُ (الممتحنة)، من قوله: ﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم اليهود، فأُتبِعَ بالتَّنزيه - لما تقدَّم بيانُه - فإنَّه ممّا تُعُقِّبَ به ذِكرُ جرائم المُرتكبات، ولا يَرِدُ في غير ذلك"[2]، في حين علَّل ابنُ عاشور وجه "مُناسَبَةِ هَذِه الفاتِحَة؛ لِما بَعْدَها مِنَ السّورَة، وهو بَيانُ أنَّ الكافِرينَ مَحْقوقونَ بِأن تُقاتِلوهُم؛ لأَنَّهُم شَذّوا عَن جَميعِ المَخْلوقاتِ، فَلم يُسَبِّحوا اللّهَ، ولم يَصِفوهُ بِصِفاتِ الكَمالِ؛ إذْ جَعَلوا لَهُ شُرَكاءَ في الإلَهيَّة، وفيه تَعْريضٌ بِالَّذينَ أَخْلَفوا ما وعَدوا بِأَنَّهُم لم يُؤَدّوا حَقَّ تَسْبيحِ اللّهِ؛ لأَنَّ اللّهَ مُسْتَحِقٌّ لِأن يوَفَّى بِعَهْدِه في الحَياةِ الدُّنْيا، وأنَّ اللّهَ ناصِرُ الَّذينَ آمَنوا على عَدوِّهم"[3].

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1393.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 3.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 174.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبَّحَ﴾: السَّبحُ: المَرُّ السَّريعُ في الماء وفي الهواء، واستُعير لِمَرِّ النُّجوم في الفلك، ولجَرْي الفرس، ولسُرعة الذَّهاب في العمَل[1]، والتَّسبيحُ: تنزيهُ اللّٰه تعالى[2]، وأصلُهُ المَرُّ السَّريعُ في عبادة اللّٰه، وجُعِلَ التَّسبيحُ عامًّا في العبادات؛ قولًا كانَ أو فِعلًا أو نيَّةً، ويُلاحظ في التَّسبيحِ جهتان: جهةُ الحركة في مسيرِ الحقِّ، وجهةُ التَّباعُدِ عن الضَّعف، وبهذا يظهرُ الفرقُ بينَه وبينَ موادِّ (التَّنزيه، والتَّقديس، والتَّبرئة، والتَّبعيد، والتَّزكية، والتَّخليَة، والتَّهذيب، والتَّطهير، والفراغ، والتَّفصيل، والتَّجنيب، والتَّنحيَة، والتَّخليص) ونظائرها؛ فإنَّ النَّظر في التَّنزيه والتَّبرئة والتَّبعيد والتَّخلية والتَّزكيَة والتَّنحيَة إلى جهةِ التَّباعُدِ فقط، والنَّظر في التَّقديس والتَّطهير والتَّفصيل والتَّخليص والتَّهذيب والفراغ إلى جهة وجوديَّةٍ بعدَ تحقُّق تباعُدٍ وإزالةٍ ما"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تنزيهُ الله عمّا لا يليق صعودٌ في معارجِ التَّحقيق

يُخبِرُ اللّٰهُ تعالى أنَّ جميعَ ما في السَّماوات وما في الأرضِ مِن الحيواناتِ والنَّباتات وغيرِهما يُسبِّحُه ﷻ، ويُنزِّهُهُ عمّا لا يليقُ به، ويُمجِّدُهُ، ويُقدِّسُهُ، ويُصلّي له، ويوحِّده، ويَدُلُّ عليه، وهو سُبحانَه وحدَهُ الغالبُ على كلِّ شيءٍ، الَّذي خضعَ لهُ كلُّ شيءٍ، وهو ذو الحِكمةِ البالغة، يضَعُ الشَّيءَ في مَوضِعِهِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿سَبَّحَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

دوامُ التَّسبيح لله بـدوامِ مُلكِ الله

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سبح).
(2) الخليل، العين: (سبح).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 5/ 30.
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1395.

وهو من: "التَّسْبيح؛ وهو تَبْعيدُ اللّٰه تعالى مِنَ السّوءِ، وكَذا التَّقْديسُ، مِن سَبَحَ في الماءِ، وقَدَّسَ في الأَرْضِ؛ إذا ذَهَبَ فيها، وأَبْعَدَ"(1)، واختارَ صيغةَ الماضي؛ للدَّلالةِ على القطعِ بحصولِ التَّسبيحِ، و"هو تنزيهُ اللّٰه تعالى اعتقادًا وقولًا وفعلًا، عمّا لا يليقُ بجنابه سُبحانَه"(2)، وأنَّه أمرٌ مقطوعُ الحصولِ لا شكَّ فيه، ولذا قالَ ابنُ عاشور: "وصيغ فِعْلُ التَّسْبيح بِصيغَةِ الماضي؛ لِلدَّلالَةِ على أنَّ تَنْزيهَهُ تعالى أمرٌ مُقَرَّرٌ، أَمَرَ اللّٰهُ به عِبادَهُ مِن قَبلُ، وألْهَمَهُ النّاسَ، وأودَعَ دَلائِلَهُ في أحوالِ ما لا اختيارَ لَهُ"(3)، والصّيغةُ وإنْ كانت ماضيةً، إلّا أنَّها بدلالةِ المقامِ تُفيدُ المُداومةَ في الحاضر والمستقبل، فـ"فيه تعليمُ عبادِه استمرارَ وجودِ التَّسبيح منهم في جميعِ الأزمنةِ والأوقات"(4)، و"تَعْريضٌ بالمُشْرِكينَ الَّذينَ أَهْمَلوا أَهَمَّ التَّسْبيحِ، وهو تَسبيحُهُ عَنِ الشَّريكِ والنِّدِّ"(5)، قال الحنبليُّ: "وهو إخبارٌ بصيغةِ الماضي، مُضمَّنةً الدَّوام، وأنَّ التَّسبيح ممّا ذُكِر دائمٌ مستمرٌّ"(6)، وفي ذلك: "إشارَةٌ إلى أنَّ كَوْنَ هَذِه الأشياءِ مُسَبِّحَةً غَيْرُ مُخْتَصٍّ بوقْتٍ دونَ وقْتٍ، بَل هيَ كانَت مُسَبِّحَةً أبَدًا في الماضي، وتَكونُ مُسَبِّحَةً أبَدًا في المُستَقبَلِ؛ وذَلِكَ لأنَّ كَونَها مُسَبِّحَةً صِفَةٌ لازِمَةٌ لِماهيّاتِها، فَيَستَحيلُ انفكاكُ تِلكَ الماهيّاتِ عَن ذَلِكَ التَّسْبيحِ"(7)؛ إذ دوامُ مُلكِ المُسَبَّح له يستلزمُ دوامَ التَّسبيحِ والتَّنزيهِ.

واختارَ النَّظْمُ صيغةَ الفعلِ المزيدِ فيه بالتَّضعيف؛ للدَّلالة على حصولِ التَّنزيه والتَّقديس على سبيلِ الكثرةِ في الفعل، قال الطِّيبيُّ: "وجاءَ في (بني إسرائيلَ) بلفظ المصدَر، وفي (الحديد والصَّف) بالماضي، وفي (الجمعة والتَّغابن) بالمضارع، وفي ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: 1] بالأمر، فاستوعبَ جميعَ جهاتِ هذه الكلمة؛ إعلامًا بأنَّ المكوَّنات - من لَدُنِ إخراجِها من العدمِ إلى الوجودِ إلى الأبدِ - مُسبِّحةٌ مقدِّسةٌ لذاته ﷻ قَوْلًا وفِعْلًا، طَوْعًا وكَرْهًا، ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44]"(8).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 441.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 433.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 434.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 256، والحنبليّ، فتح الرّحمن: 1/ 527.
(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 442.
(8) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 229.

كلُّ المخلوقات مُسبِّحةٌ بدلالةِ المقال وبدلالةِ الحال

الفعلُ ﴿سَبَّحَ﴾ بين الحقيقةِ والمجاز:

استعملَ النَّظم الجليلُ الفعلَ ﴿سَبَّحَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾؛ إمّا في حقيقتِه، وهو أنْ تقولَ الكائناتُ بأسرِها: سُبحانَ اللّه، أي: بلسانِ المَقال؛ إذِ الفعلُ ﴿سَبَّحَ﴾ من الأفعالِ اللِّسانية كـ (التَّحميد والتَّشهُّد)، يعني: "ذكرَ اللّهَ ما في السَّماوات، ويقال: هو التَّسبيحُ بعينِه"(1)، فيكونُ التَّسبيح بلسانِ المقال، ويدلُّ عليه ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾ [الإسراء: 44]، قال الإمام الواحديُّ: "سبَّح... كلُّ شيءٍ من ذي الرَّوح وغيرِه من الشَّجر، والجبال، والبحار، والشَّمس، والقمر، وكلُّ خَلْقٍ فيهما، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾ [الإسراء: 44]، وقال أهلُ المعاني: تسبيحُ ما لا يعقِلُ تنزيهٌ للّه من السّوء بما فيه من الآيةِ الدّاعية إلى ذلك، كأنَّها ناطقةٌ به؛ إذ صنعُهُ يَقتضي صانعًا غيرَ مصنوع، قال أبو إسحاق: وهذا خطأ؛ لأنَّ التَّسبيح تمجيدٌ للّه ﷻ، وتنزيهُهُ من السّوء، قال اللّه ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْۚ﴾ [الإسراء: 44]، فلو كان التَّسبيحُ آثارَ الصُّنعة؛ لكانت معقولةً، وكانوا يفقهونها، وأيضًا فإنَّه قال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: 79]، فلو كان تسبيحُها آثارَ الصُّنعةِ؛ لم يكُن في هذا تخصيصٌ لداود"(2)، أو يكون التَّسبيحُ مُستعمَلٌ في حقيقتِه ومجازِه معًا بناءً على جوازِ الجمع بينهما، قال ابنُ عاشور: "فَإِن جُعِلَ عُمومُ (ما في السَّماواتِ والأَرْضِ) مَخْصوصًا بِمَن يَتَأَتّى مِنهُمُ النُّطْقُ بِالتَّسْبيحِ، وهُمُ العُقَلاءُ؛ كانَ إطلاقُ التَّسبيح على تَسبيحِهم حَقيقَةً، وإن حُمِلَ العُمومُ على ظاهِرِه؛ لَزِمَ تَأويلُ فِعْلِ ﴿سَبَّحَ﴾، بما يَشْمَلُ الحَقيقَةَ والمَجازَ، فَيَكونُ مُستعمَلًا في حَقيقَتِه ومَجازِهِ"(3)، أو من

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 400.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 275.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 358.

بابِ عمومِ المجازِ عندَ مَن لا يرى جوازَ الجمعِ بينَ المعنَيين[1]، فيكونُ التَّسبيحُ بمعنى التَّنزيه الصّادق بفردَين: مقاليٍّ وحاليٍّ، فما له لسانٌ يكونُ التَّسبيحُ مقاليًّا في حقِّه، وما ليس له لسانٌ، فيكون تسبيحُه حاليًّا، بمعنى أنَّه يدلُّ بحُدوثِه وافتقارِه للصّانع الحكيم على موجدِه العظيم الواحدِ الَّذي ليس كمثله شيءٌ، وذهبَ السَّمرقنديُّ: إلى أنَّ الفعلَ ﴿سَبَّحَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ بمعنى: "صلّى للّه ما في السَّماوات من الملائكة والأرضِ من المؤمنين، فسمَّى الصَّلاةَ تسبيحًا؛ لأنَّه يجري فيها التَّسبيحُ، ويقال: سَبَّحَ لِلَّه، يعني: خضعَ للّه"[2].

لزوميَّةُ الفعلِ المتعدّي ﴿سَبَّحَ﴾:

كـمـالُ المـديـح لِـمَـن داومَ على التَّسبيح

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المتعدّي، في قولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ لازمًا، "وأصلُه التَّعدّي بنفسِه؛ لأنَّ معنى سبَّحتُه: بعَّدتُه عنِ السّوء، منقولٌ مِن (سبح)؛ إذا ذهبَ، وبعُدَ"[3]، و"فعلُ التَّسبيحِ قد يتعدّى بنفسِه تارةً، كما في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ [الأحزاب: 42]، وباللّامِ أُخرى كهذه الآية، والفعلُ منزَّلٌ منزلةَ اللّازم، أي: فعلَ ما في السَّماوات والأرض التَّسبيحَ، وأوقعَهُ، وأحدثَهُ لأجل اللّه تعالى، وخالِصًا لوجهه"[4]، فلم يقلِ النَّظمُ: (سبَّحَ اللّهَ)؛ لإرادةِ العموم في الفعل والتَّركيزِ على فعلِ التَّسبيح، والتَّقديرُ: وقعَ التَّسبيحُ للّه؛ بكافَّةِ صورِه التَّنزيهيَّةِ ومعانيه وأبعاده وآفاقِه، فيكونُ الإخبارُ عن وقوعِ التَّسبيحِ للّه تعالى وصُدورِه غيرَ مقيَّدٍ بمفعولِه الصَّريح.

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿لِلَّهِ﴾:

السَّبكُ المنظوم في دلالةِ التَّعديةِ واللُّزوم

استعملَ النَّظمُ (لامَ) الجرِّ، في قولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، وهي إمّا لتقويةِ تعديةِ الفعلِ المتعدّي للمفعول، فتكون زائدةً للتَّوكيد، سمّاها

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 203، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 433.
(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 400.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 472.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 434.

ابنُ عاشور: "لامَ التَّبْيين، وفائِدَتُها: زيادَةُ بيانِ ارتباطِ المَعمولِ بِعامِلِهِ؛ لِأَنَّ فِعْلَ التَّسْبيحِ مُتَعَدٍّ بِنَفْسِه لا يَحتاجُ إِلَى التَّعديَةِ بِحَرْفٍ، قال تعالى: ﴿فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: 26]، فاللّامُ هُنا نَظيرُهُ اللّامُ في قَولِهِم: شَكَرْتُ لَكَ، ونَصَحْتُ لَكَ"[1]، وهنا نُكتةٌ جليلةٌ؛ إذ تُرِكت تعديةُ الفعلِ بنفسه لمفعولِه؛ لإفادةِ معنى اللُّزوم، واستُعمِلت لامُ التَّعديةِ والتَّقوية؛ لتحقيقِ الارتباطِ بين الفعل والمفعول، وكون التَّسبيح مُستَحَقًّا للّه تعالى، فهو لازمٌ صورةً، ومتعدٍّ مَضمونًا، ولكلٍّ فائدةٌ وغايةٌ مقصودةٌ، أعربَ عنها الماتُريديُّ بقوله: "ويجوزُ أنْ يكون معناهما في الظّاهر مُختلفًا، ويتَّفقَ في الحقيقة والباطن؛ لأنَّ التَّسبيح هو التَّخليصُ والتَّنزيه والتَّبرئة، فمتى أُضيف الفعلُ إلى اللّه تعالى، ووقعَ عليه؛ فيقال: (سبَّحَ اللّهَ)، فمعناه: أنَّه نزَّهَه، وبرَّأه عن جميع معاني الخَلْق، وخلَّصَه عن شَبَه المخلوقين، وإذا قيل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾، فقد وقعَ الفعلُ على الأشياء المخلوقة، أي: خلَّصها كلَّها له، وبرَّأها عن غيره، وإذا وُصِفَ بأنَّ كلَّ الأشياء له، وهو المالكُ لها، وهم عبيدُهُ ومماليكُهُ، خاضعون أذلّاء، فقد وُصِفَ بالغَناء ونفيِ الحاجة عنه، وأنَّه مُتبرِّئٌ عن الشَّبَه بمماليكِه ومخلوقاته، فهما جميعًا من هذا الوجه يَنظِّمان معنًى واحدًا وإنْ كانا مختلفَين، وفي الباطنِ مُؤتلِفَين"[2].

وإمّا أن تدلَّ اللّامُ على التَّعليلِ والغرض، فيكونَ الفعل لازمًا، وأنَّ التَّسبيحَ واقعٌ لأجلِ اللّه تعالى، والغرضُ من التَّعليلِ بيانُ استحقاقِ الذّات الجليلةِ للتَّسبيح، قال الهرريُّ: "واللّامُ إمّا مزيدةٌ للتَّأكيد، كما في (نصحتُ له)، و(شكرتُ له)، في (نصحته وشكرته)، أو للتَّعليل"[3].

نُكْتَةُ التَّعبير بالاسمِ الجليل:

تعليلُ الدّعوى بالبرهان مِن دقائقِ البيان

عبَّر النَّظم بالاسمِ الجليل، في قولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾؛ لبيانِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 357.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 511.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 434.

علَّةِ التَّعديةِ أوِ الاستحقاقِ أوِ الغرض؛ إذِ الاسمُ الجليل دالٌّ على الذّاتِ المُستجمِعة لجميع صِفات الكمال، فيكونُ من تعليقِ الحُكم الذي هو (التَّسبيح) بالمُنَزَّل منزلةَ المُشتقِّ؛ للدَّلالة على عِلّيَّة المأخذ فيه؛ فالتَّسبيحُ مستحقٌّ للّه ولأجلِ اللّه؛ لأنَّه اللّهُ تعالى المستجمِعُ لكلِّ صفاتِ الكمال، فيكونُ من ذكرِ الدَّعوى مصحوبةً بالبيِّنة والبُرهان[1].

دلالةُ تقديمِ المتعلِّق ﴿لِلَّهِ﴾:

الرَّدُّ على المشركين بتقديم التَّنزيه لربِّ العالَمين

قدَّمَ النَّظمُ الكريم الجارَّ والمجرورَ على الفاعل، في قولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمام بالمسبَّح له على حسابِ المُسبِّحينَ[2]؛ لأنَّ الغرَض من التَّسبيحِ التَّنزيهُ والتَّبعيدُ للذّاتِ الجليلة عن كلِّ سِمات النَّقص وأوهام العُقول والظُّنون للمشركينَ، فكانَ بيانُهُ أهمَّ من بيانِ المُسبِّح، ولا يدلُّ التَّقديمُ للمُتعلِّق على الحصر إلّا لو قُدِّمَ على الفعل؛ لأنَّ التَّنزيهَ كما يكون للّه تعالى، يكونُ لرُسُله ولملائكتِه عن شوائبِ النَّقص وسِمات الضَّعف.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

التَّجريحُ لمَن يَعزِفُ عن التَّسبيح

استعملَ النَّظمُ الكريم ﴿مَا﴾ الموصولةَ فاعلًا، في قولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للدَّلالة على العموم والشُّمول الاستغراقيِّ الإفراديِّ[3]، فـ"أُسنِدَ التَّسبيحُ إلى ما في السَّماوات والأرض؛ ليَعُمَّ جميعَ ما فيهما من الموجودات؛ عُقلاءَ وغيرَهم، فتسبيحُ العقلاءِ يكونُ بلسان المقال، فإنَّهم يُنَزِّهونه، ويقدِّسونه بألسنتهم، كما يُنَزِّهونَهُ بقلوبهم وأعمالِهم، أمّا بالنِّسبة لغير العقلاء؛ فإنَّ تسبيحَهم يكونُ بلسانِ الحالِ، أي: إنَّ حدوثَ هذه الموجودات على ما هيَ عليه من إبداعٍ وإتقانٍ تدلُّ على الصّانع الواجبِ الوجود،

(1) حاشية اليزديّ على تهذيب المنطق للتّفتازانيّ، ص: 10.
(2) القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 2/ 165.
(3) التّفتازانيّ، حاشية التّلويح على التّوضيح: 1/ 111.

المتَّصف بكلِّ كمالٍ، المُنزَّه عن كلِّ نقصٍ"[1]، قال القُشيريُّ: "وقولُه: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحديد: 1]، المرادُ به (مَن في السَّماوات والأرض)، يَسجدونَ للّه طَوۡعًا وكَرهًا: طوعًا: تسبيحَ طاعةٍ وعبادةٍ، وكَرۡهًا: تسبيحَ علامةٍ ودلالةٍ، وتُحۡمَلُ (ما) على ظاهرها، فيكون المعنى: ما من مخلوقٍ من عينٍ أو أثرٍ إلّا ويدلُّ على الصّانع، وعلى إثباتِ جلالِه، وعلى استحقاقِه لنُعوتِ كبريائه"[2]، وفُهِم بدلالة الفحوى أنَّ اللّائقَ بالإنسان العاقلِ المُكرَّم أنۡ يكون من أهلِ التَّسبيح، إذِ العجماواتُ والجماداتُ تُسبِّحُ للّه تعالى، ففيه تعريضٌ وتجريح بمَن عزفَ عنِ التَّسبيح.

نُكۡتَةُ الاستعارةِ لحرفِ الظَّرف ﴿فِي﴾:

من شـــدَّةِ الاستقرار صاروا داخلَ الأسوار

استعار النَّظمُ حرفَ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾، في قوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للدَّلالة على الإحاطةِ والشُّمول، وضعفِ الَّذين هم على الأرض والسَّماء، فقد أحاطتۡ بهم الأسوارُ، وكبَّلتهم الطَّبقاتُ، فلا يستطيعونَ منها فِكاكًا، فَهُم وإنۡ كانوا فوقَها إلّا أنَّهم صاروا داخلَها، فقد استعارَ النَّظمُ حرفَ الظَّرفيَّة لإرادة الشُّمول والعموم، وبيانِ العجزِ والافتقار؛ فاللّائق بهمُ التَّسبيحُ والتَّقديس لذي الجلالِ والإكرام، الذي لا تحيطُ به أرضٌ ولا سماءٌ، وفيه تعريضٌ بعابدي المخلوقاتِ المحصورةِ داخلَ السَّماء والأرض، وهي ملازمةٌ للتَّسبيح، وإنَّما لم يقُلِ النَّظمُ: "(سبَّح للّه السَّماواتُ والأرضُ وما فيهما)، فيكونُ أكثرَ مبالغةً؛ لأنَّ المراد بالسَّماء جهةُ العُلوِّ، فيشمل السَّماءَ وما فيها، وبالأرض جهةُ السُّفۡل، فيشملُ الأرضَ وما فيها"[3]، وقال القونويُّ: "ثمَّ هذا الكَلامُ شاملٌ لنفسِ السَّماوات والأرۡض؛ إذِ المُراد بما فيهما ما وُجِدَ فيهما داخلًا في حقيقتهما، أو خارجًا

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 1278.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 530.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 246.

عنهما مُتمكِّنًا فيهما، فهو أبلغُ من قوله: (سبح للّه ما في السَّماوات والأرض وما فيهنَّ)"[1].

دلالةُ الجمعِ والتَّعريفِ في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

جميعُ المخلوقات السَّماويَّة تُنزِّهُ الذّاتَ العَليَّة

جمعَ النَّظمُ الكريم لفظَ (السَّماء)، في قولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على الشُّمول والعموم لكلِّ السَّماوات؛ ليشملَ كلَّ ما فيها من مخلوقاتٍ لا يُحيط بعلمِها أحدٌ من خَلْقِه، وعرَّف اللَّفظَ المجموعَ بـ (أل)؛ للدَّلالةِ على العهد أوِ الاستغراق[2]، فيكونُ المرادُ السَّماواتِ السَّبعَ المعهودةَ ذِكرُها، أو كافةَ السَّماوات الدّاخلةِ ضمنَ السَّماواتِ السَّبعِ بمعنى الأعالي؛ إذ كلُّ ما عَلا فهو سماءٌ.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَمَا﴾:

اجتماعُ المخلوقات السَّماويَّة والأرضيَّة على تقديسِ ربِّ البَريَّة

عطفَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو)، في قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالة على الجمع والاقتران بينَ المخلوقاتِ السَّماويَّة والأرضيَّة، الَّتي لا تنفكُّ عن التَّسبيح والتَّقديسِ للّه بلسانِ المقال أوْ بلسانِ الحال، وقال البقاعيُّ في تعليلِ العطفِ: "لمّا كان الخطابُ معَ غيرِ الخُلَّصِ؛ أكَّدَهُ، فقال: ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: بامتثالِ جميع ما يُرادُ منه، ممّا هو كالمأمورِ بالنِّسبةِ إلى أفعالِ العُقلاء، مِن نزولِ المياه وإخراجِ النَّبات منَ النَّجم والشَّجَر، وإنضاجِ الحُبوب والثِّمار، وغيرِ ذلك من الأمورِ الصِّغارِ والكِبار"[3].

تكرارُ الاسمِ الموصول (ما):

تقديسُ المَجرَّة الصَّغيرة حتّى الذَّرَّة الحقيرة

كرَّرَ النَّظمُ في العطفِ الاسمَ الموصول (ما)، في قولِه تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالةِ على العُموم والشُّمول على سبيلِ التَّوكيد والكمالِ، و"لزيادةِ التَّقرير والتَّنبيه على استقلالِ كلٍّ من

(1) حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 433.
(2) التّفتازانيّ، حاشية التّلويح على التّوضيح: 1/ 95.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 2.

الفريقينِ بالتَّسبيح"[1]، فلم يقلِ النَّظمُ: (ما في السَّماوات والأرض)؛ إذِ الغَرضُ تعميمُ شمولِ التَّسبيح لكلِّ المخلوقات، الَّتي بَرَأها اللّٰهُ تعالى، وأوجدَها؛ فكلُّها في حالة تقديسٍ وتعظيم لخالقِها، من الذَّرَّة المتناهية في الصِّغَر وحتّى المَجرَّة الصَّغيرة أيضًا، وإنْ كانت عظيمةً بالنِّسبة للذَّرَّة.

دلالةُ المتُعلِّق ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

الــضَّــعــفُ الفسيح موجِبٌ للتَّسبيح

استعملَ النَّظمُ الجليل حرفَ الظَّرفيَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ للدَّلالة على الإحاطةِ والشُّمول معَ إظهارِ الضَّعف والعجزِ للمُسبِّحين السَّماويّينَ والأرضيّينَ؛ فَهُم وإنْ كانوا على السَّماوات وعلى الأرض إلّا أنَّهم من عَجزِهم، كأنَّهم داخلها، ومُحاطونَ بأسوارها وأغلفتِها، فيكون ذلك الضَّعْفُ مُشْعِرًا بعِلَّة التَّسبيح ووجاهةِ التَّقديس، قال الزَّمخشريُّ: "وقولُهم في قولِ اللّٰه ﷻ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: 71]، إنَّها بمعنى (على) عملٌ على الظّاهر، والحقيقةُ أنَّها على أصلِها؛ لتمكُّنِ المصلوبِ في الجِذع تمكُّنَ الكائنِ في الظَّرف فيه[2].

علَّةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

تسبيحُ ما في السَّماوات دعوةٌ لتسبيح الإنسانِ حتَّى المَمات

قدَّمَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، في قولِه تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ للرَّدِّ على المشركينَ المعتقدينَ أنَّ مَن في السَّماوات آلهةٌ لا يُسبِّحون، ولا يُنزِّهون، فأبانَ النَّظمُ بالتَّقديم أنَّ جميعَ المخلوقات سماويَّها وأرضيَّها مفتقرٌ محتاجٌ، وحادِثٌ ضعيفٌ إلى عَظَمةِ مَولاه الغَنيِّ، كما أنَّ تقديمَ السَّماواتِ - وهي مستقَرُّ ملائكةِ اللّٰه الَّتي لا تنفكُّ عن التَّسبيح - دعوةٌ للإنسان الأرضيِّ للاقتداءِ بها في تنزيه المولى الجليل وتقديسِه.

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1348.

(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 471.

دلالةُ الخبرِ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ جملةً فعليَّةً:

الإرشادُ إلى ما فيه خيرُ العِباد

جاء النَّظم الكريمُ بقولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بأسلوب الخبر؛ للدَّلالة على فائدةِ الخبر لِمَن كان يجهلُ ذلك الحُكم، أو يكون الخبرُ خرج إلى غرضٍ مجازيٍّ، وهو النُّصحُ والإرشادُ؛ للَّذين عزفوا بلسانِ مقالهم عنِ التَّسبيح والتَّقديس لَمولاهم[1]، فظنّوا به ما لا يليقُ، وأشرَكوا معه غيرَهُ في العبادة والتَّنزيه، واختار النَّظمُ أن تكون جملةُ الخبر فعليَّةً؛ للدَّلالة على الحدوث والتَّجدُّد[2]؛ إذ ذلك التَّسبيحُ وقعَ بعدَ خَلْقِ السَّماوات والأرض، ووجودُ المخلوقات منبئٌ عن خالقها وكمالِه وعظمتِه، فبِوجودِها حدثَ التَّسبيحُ ووقعتِ الدَّلالةُ.

دلالةُ الجملةِ الاسميَّة ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

الكمالُ اللّامتناهي علَّةٌ للتَّسبيحِ المتُناهي

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجملة الاسميَّةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ للدَّلالةِ على الثُّبوت والدَّوام؛ ليكونَ التَّسبيحُ المُعبِّر عنه بالجملةِ الفعليَّة الدّالَّةِ على التَّجدُّد والحدوث مُعلَّلًا بدوام المُسبَّح له، الثّابتِ الحقِّ الَّذي لا يزول، فتكونَ الجملة الاسميَّةُ دالَّةً على عِلَّة توجُّهِ التَّسبيح له، وهو ديموميَّتُه وثباتُه وكمالُه اللّامتناهي، ولذا قال أبو السُّعود: "والجملةُ اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَهُ، مُشعِرٌ بعِلَّة الحُكم"[3].

الموقعُ النَّحويُّ لـ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

التَّقييد احتراسٌ عن وهمٍ غير مفيد

عبَّر النَّظمُ الكريم بالجملة الاسميَّة الواقعة حالًا، في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ للدَّلالة على تقييد التَّسبيح تقيدَ العِلَّة للمعلول، فيكون التَّسبيحُ؛ لأنَّه العزيز الحكيم، قال البيضاويُّ:

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 1/ 65.

(2) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 113.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 203.

"﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ حالٌ يُشعِرُ بما هو المبدأُ للتَّسبيح"[1]، وذهبَ البقاعيُّ إلى أنَّ فائدةَ التَّقييدِ بالحال أنَّه "لمّا كان امتثالُ غيرِ العاقل وعصيانُ العاقل ربَّما أوهمَ نَقْصًا؛ قال: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾"[2].

بلاغةُ الضَّمير (هو) ودلالتُه:

الضَّميرُ العائدُ دالٌّ على الذّات أوَّلًا، وعلى الصِّفات ثانيًا

عبَّرَ النَّظم القرآنيُّ بالضَّمير العائدِ إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ الأصلَ عندَ إعادةِ اللَّفظ أنْ يكونَ التَّعبيرُ عنهُ بالضَّمير الموضوعِ للاختصار، لكنَّ الضَّمير عندما يعودُ إلى اللَّفظ يأخذُ منه كلَّ دلالاتِه التي دلَّ عليها، فهو يشيرُ إلى الذّاتِ أوَّلًا وبالذّات، وإلى كلِّ صفاتِ الكمال التي يُفيدُها بالالتزام، فيكونُ ذِكرُ الضَّمير دالًّا على الذّاتِ الجليلة بكلِّ صفاتها الجميلة، التي أنبأ عنها الاسمُ العلَمُ ضِمْنًا وإشارةً.

فائدةُ الإخبارِ عنِ الضَّمير:

التَّصريحُ بما عُلِمَ ضِمْنًا وما فُهِمَ التزامًا

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن الضَّمير بقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الذّاتَ الجليلةَ المُستجمعةَ لكلِّ صفاتِ الجلالِ والكَمال هو العزيزُ الحكيم، ولا يقالُ: إنْ كان الضَّميرُ راجِعًا إلى الذّات المتَّصفة بصفاتِ الكمال؛ فما الدّاعي إلى الإخبارِ عنها ببعضِ تلك الصِّفات الكماليَّة والأسماءِ الجليلة؟ لأنّا نقول: إنَّ الضَّمير يدلُّ على الذّات أوَّلًا وبالذّات، وعلى الصِّفات ثانيًا وبالعَرَض، فيكونُ من التَّصريحِ بما عُلِمَ ضِمْنًا، والتَّنصيصِ على ما فُهِمَ التزامًا، وليكونَ تخصيصُ الاسمَين الكريمينِ دون سائرِ الأسماء له دلالتُه ومكانتُه.

دلالةُ تكرارِ الخبر ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

عدَّدَ النَّظمُ الكريم الإخبارَ عن الضَّمير، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 185.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 2.

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ للدَّلالةِ على استجماعِ الذّاتِ الجليلةِ الوَصفينِ الكريمينِ على سبيلِ التَّنصيصِ، ولإثباتِ أنَّ التَّسبيحَ له والتَّنزيهَ والتَّقديسَ المستحَقَّ ثابتٌ لِعزَّتِه وحكمتِه، كما يتحقَّقُ الاختصارُ في النَّظمِ، والإيجازُ في التَّعبيرِ، فلم يقل: (وهو العزيزُ، وهو الحكيمُ).

العزيزُ فلا يُغالَبُ، والحكيمُ فلا يُمارى

سرُّ ذِكرِ الاسمَينِ الكريمين:

اقتصرَ النَّظمُ الجليلُ على ذكرِ الاسمَينِ الجليلينِ، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لتناسُبِهما مع التَّسبيحِ والتَّنزيهِ؛ إذ يُفيدُ التَّسبيحُ في أصلِه التَّبعيدَ للشَّيءِ عن الضَّعفِ والاحتياجِ، فيكونُ ذِكرُ العزيزِ الذي لا يقدرُ أحدٌ على مُغالبتِه ومُعارضتِه، والحكيمُ الذي يضعُ الأشياءَ في مواضِعِها بكمالِ علمِه وكمالِ حِلمِه مُتناسبَينِ معَ التَّسبيحِ والتَّبعيدِ لهُ عن شوائبِ النَّقصِ وسماتِ الضَّعفِ، ولذا قال القونويُّ: "لأنَّ المَوْصوفَ بالعِزَّةِ، أي: القدرةِ التّامَّةِ، وبالحكْمَةِ، أي: إيقانُ العِلْمِ وإتقانِ الفعْلِ، لا ريبَ أنَّه مُنزَّهٌ عن صفاتِ النُّقصانِ، يَستحِقُّ التَّنزيهَ عمّا لا يليقُ"[1]، وذهبَ النَّسفيُّ إلى بيانِ وجهِ التَّناسُبِ بين التَّسبيحِ والوصفينِ الجليلين، فقال: "﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ المُنتقِمُ من مُكلَّفٍ لم يُسبِّحْ له عِنادًا، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في مُجازاةِ مَن سبَّحَ لهُ انقيادًا"[2]، ولا يبعدُ أن يكونَ ذِكرُ الوصفينِ على سبيلِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرتَّبِ، فهو العزيزُ بالنِّسبةِ للخلائقِ العُلويَّةِ؛ ردًّا على المشركينَ في اعتقادهم بتأثيرِ العُلْويّاتِ، والحكيمُ بالنِّسبةِ للخلائقِ الأرضيَّةِ.

اقتضاءُ التَّسبيحةِ للعِزَّةِ والحكمةِ الفَسيحة

وفسَّر ابن عاشور الوصفين سياقيًّا بقوله: "وفي إجراءِ وصفِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ عليه تعالى هُنا إيماءٌ إِلَى أَنَّهُ الغالِبُ لِعَدوِّه، فَما كانَ لَكُم أن تَرهَبوا أعداءَهُ، فَتَفِرّوا مِنهُم عِندَ اللِّقاءِ، وإجراءُ صِفَةِ

(1) حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 435.

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 432.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ إنْ حُملَتْ على مَعنَى المُتَّصِفِ بالحِكْمَةِ، أنَّ المَوْصوفَ بالحِكمَةِ لا يَأمُرُكم بِجِهادِ العَدوِّ عَبَثًا، ولا يُخَلّيهِم يَغلِبونَكُمْ"[1].

دلالةُ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مادَّةً وصيغةً وتقديمًا:

العِزَّةُ والغلَبة مرتبطةٌ بالإتقانِ والحِكمة

عبَّر النَّظمُ الكريم بالاسمَينِ الأحسنَينِ، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ للدَّلالة على العزَّةِ والغَلبة مع الحكمةِ والإتقان؛ إذ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ من: عَزَّهُ؛ بمعنى: غلَبَهُ، وقهَرَهُ، فلا يقدرُ أحدٌ على مغالبةِ الله تعالى ومُمانعته، و﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ من الحكمة الدّالَّة على الضَّبط، ويلزمها الرُّشدُ والإحكام والإتقان، وفي تقديم (العزَّة) على (الحكمة) إشارةٌ إلى أنَّ تلك العزَّةَ وذلك القهرَ مبنيّان على إتقانٍ وإحكام، ولذا أردفَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ بـ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾، وذهبَ الرّازيُّ إلى أنَّه "لَمّا كانَ العِلمُ بِكَونِه قادِرًا مُتَقَدِّمًا على العِلْمِ، بِكَوْنِه عالِمًا لا جَرَمَ؛ قَدَّمَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في الذِّكْرِ"[2]، وكلٌّ من الاسمَين على صيغةٍ يحتملُ الصِّفةَ المشبَّهة ووزنَ المبالغة واسمَ الفاعل، والأوَّل أوْلى؛ لأنَّ اتِّصاف المولى الجليل بهاتينِ الصِّفتين على سبيل الدَّوام، فيكون مفيدًا لتأصُّلِ هاتين الصِّفتين تأصُّلَ الشَّيءِ الثّابت المستمرِّ الدّائم.

دلالةُ (أل) في الاسمين الكريمين:

كمالُ العزَّةِ والحِكمة في ذي الجَلال والمِنَّة

عرَّف النَّظمُ كلًّا من الاسمين الكريمين بـ(أل)، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ إمّا للدَّلالة على تعريف الجنسِ الدّالِّ على الكمالِ في الوصفين، فكلُّ عزيز وحكيم موصوفٌ بهما على سبيلِ النُّقصان، إلّا المولى تعالى، فإنَّه الكامل في العِزَّة والحِكمة، وإمّا أنَّ (أل) في الوصفَين اسمُ موصولٍ بمعنى (الذي)، "وفيه إشعارٌ بِعليَّة الحُكم، فإنَّ (العزَّة)، وهي الغلبةُ على كلِّ شيءٍ تدلُّ على كمال القُدرة، و(الحكمة) تدلُّ على كمال العِلم، والعقلُ يحكمُ بأنَّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 174.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.

الموصوفَ بهما يكونُ مُنزَّهًا عن كلِّ نقصٍ، كـ(العجز والجهل) ونحوِهما"[1]، ويؤولُ إلى تعريفِ الموصول تعريفَ الجنس، وقد جاء ركنا الجملة الاسميَّة من المبتدأ والخبرِ مَعْرِفتين، فيُفيدُ التَّركيبُ الحصرَ والقصر؛ حصرًا للصِّفة في الموصوف، قال الرّازيُّ: "واعْلم أنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يَدُلُّ على أنَّ العَزيزَ لَيْسَ إلّا هو؛ لأنَّ هَذِه الصّيغَةَ تُفيدُ الحَصْرَ، يُقالُ: (زَيْدٌ هو العالِمُ) لا غَيْرُهُ، فَهَذا يَقْتَضي أنَّهُ لا إلَهَ إلّا الواحِدُ؛ لأنَّ غَيْرَهُ لَيْسَ بِعَزيزٍ ولا حَكيم، وما لا يَكونُ كذلك لا يكونُ إلهًا"[2]، فيُفيدُ كمالًا على سبيل الحقيقة، فكلُّ مَن عداه ليس عزيزًا ولا حكيمًا، وذلك يتلاءمُ مع إرادةِ الجنسيَّة.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِزَّةُ والحِكمة:

العِـزَّةُ كمالُ القُـدرة، والحِكمةُ كمالُ العِلْم

"العَزيزُ مِن: عَزَّ؛ إذا غَلَبَ، وهو الَّذي يَغْلِبُ على غَيْرِه، أيَّ شَيءٍ كانَ ذَلِكَ الآخر، ولا يمكنُ أنْ يغلبَ عليه غيرُهُ، والحَكيمُ مِن: حَكَمَ على الشَّيءِ؛ إذا قَضَى عليه، وهو الَّذي يَحْكُمُ على غَيرِه، أيَّ شَيءٍ كانَ ذَلِكَ الآخر، ولا يُمْكِنُ أنْ يَحْكُمَ عليْه غَيْرُهُ"[3]، فلا يلزمُ من العِزَّةِ تحقُّقُ الحِكمة، كما لا يلزم من الحِكمة تحقُّقُ العِزَّة، ولذا كان الجمعُ بينهما إظهارًا لكمالِ القدرة وكمالِ العِلم؛ إذِ القُدرةُ الكاملة على الفعلِ عِزَّةٌ وغلبةٌ فيه، والعِلمُ الكاملُ بالأشياء وما تترتَّبُ عليه حِكمةٌ وإتقانٌ، قال الرّازيُّ: "العزيزُ: القادِرُ الَّذي لا يُنازِعُهُ شَيءٌ، فَهو إشارَةٌ إلَى كَمالِ القُدْرَة، والحَكيمُ: إشارَةٌ إلَى أنَّهُ العالِمُ الَّذي لا يَحْتَجِبُ عَن عِلمه شَيْءٌ مِنَ الجُزْئيّاتِ والكُلّيّاتِ، أوْ أنَّهُ الَّذي يَفْعَلُ أفْعالَهُ على وفقِ الحِكمَةِ والصَّوابِ"[4].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 435.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 526.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصّفّ: 2 - 3]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

ذِكــرُ صـفـاتِ الـنَّـقـصِ بـعـدَ الـكـمـال دعـوةٌ للتزيُّنِ بأجملِ الخِصالِ

لمّا ذكرَ المولى تعالى تنزيهَ ما في السَّماوات والأرضِ لهُ عن سِمات النَّقص والضَّعف؛ ناسَبَ أنْ يذكُرَ صفاتِ النَّقص للإنسان، قال الهرريُّ: "وبعدَ أنْ وصفَ نفسَهُ بصفاتِ الكَمال، ذكرَ ما يلحقُ المخلوقينَ من صفاتِ النَّقص"[1]، حتَّى يَجتنبَها، ويتحلَّى بصفات الكمال الَّتي يُحبُّها اللّه تعالى، ويَرضَى عنها، وقال البقاعيُّ مُعلِّلًا المناسبةَ بينَهما، والسّورة التي قبلها: "ثمَّ أتبعَ ذلك بأمرِ العبادِ بالوفاءِ، وهو الَّذي حدَّ لهم في (المُمتحنة)؛ ليَتنزَّهوا عن حالِ مُستوجِبي الغضبِ بنقيضِ الوفاء، والمخالفةِ بالقلوبِ والألسنةِ، وبمجموعِ هذا استجمَعوا اللَّعنةَ والغضبَ، فقيل للمؤمنينَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، احذروا أن تُشبِهَ أحوالُكم حالَ مَنِ استحقَّ المَقتَ واللَّعنة والغَضَب"[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿كَبُرَ﴾: أَصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ، يُقالُ: هو كَبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ[3]، وكَبُرَ الشَّيءُ كُبْرًا، مِن باب قَرُبَ: عَظُمَ، فَهو كَبيرٌ أَيْضًا[4]، والمرادُ به في الآيةِ: الإكبارُ من البُغضِ على سبيلِ التَّعجيبِ والتَّشنيع.

2) ﴿مَقۡتًا﴾: هو أشدُّ الإبغاض، قال اللَّيث: "المَقتُ: بغضٌ عن أمرٍ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 246.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 3.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كبر).
(4) الفيوميّ، المصباح المنير: (كبر).

قبيح رَكِبَهُ، فهو مَقيتٌ، وقد مُقِتَ إلى النّاسِ مَقاتَةً، ومَقَتَه النّاسُ مَقْتًا، فهو ممقوتٌ"(1)، والتَّحقيقُ: أنَّ الأصلَ الواحدَ في المادَّة هو البُغضُ الشَّديد، والمُراد به في الآية: حدوثُ البُغضِ الشَّديد في مقام مَربوطٍ باللّه تعالى، فإنَّ كلمة ﴿عِندَ﴾ تدلُّ على ارتباطٍ وشدٍّ(2).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

التَّوبيخُ على الفرار بعدَ الوعد بالجهادِ والقَرار

يخاطبُ اللّهُ تعالى الَّذين آمنوا قائِلًا لهم: لأيِّ شيءٍ تقولونَ بألسنتكم ما لا تُصدِّقُه أفعالُكم، وما لا تفعلونَهُ من الخير والمعروفِ؟ على أنَّ مدارَ التَّوبيخ في الحقيقة عدمُ فعلهم، وإنَّما وُجِّهَ إلى قولهم؛ تنبيهًا على تضاعُفِ مَعصيتِهم، قال الزَّمخشريُّ: "هذا الكلامُ تناولَ الكذبَ وإخلافَ الوعدِ"(3)، والظّاهُر أنَّه عتابٌ على الوعد بالجهاد والثَّباتِ عندَ الحربِ، لكنَّهم لم يَلتزِموا بذلك بدليل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (يا) ودلالتُها:

طلبُ الإقبالِ من المُخاطَبين دلالةٌ على أهمّيَّةِ المَضامين

استعملَ النَّظمُ الكريم حرفَ النِّداء (يا)، في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لتنبيه المخاطَبينَ وطلبِ إقبالِهم لسَماع مضمونِ ما نودوا لأجله؛ اهتمامًا به وإرشادًا لأهمّيَّتِه وقيمتِه، وإثارةً لهم حتّى يتحقَّقَ الإصغاءُ الكامل، قال الطَّيبيُّ: فهو "يدلُّ على أنَّ ما يلي كلمةَ النِّداءِ والتَّنبيه من الخطاب معنيٌّ به جِدًّا"(4)، والمخاطَبونَ وإنْ لم يكونوا غافلينَ ولاهينَ إلّا أنَّهم نُزِّلوا منزلةَ الغافلِ اللّاهي، قال البقاعيُّ: "قال مُرهِّبًا بنداءِ البُعد والتَّوبيخ الَّذي من مَبادئ

(1) الخليل، العين: (مقت).

(2) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 11/ 132.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 522.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 382.

الغضَبِ، والإنكار بالاستفهام، والتَّعبير بما يُفهم أدنى مراتبِ الإيمان: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: ادَّعَوا الإيمان"[1].

سرُّ التَّعبير بالمنادى (أيّ):

الإتيانُ بالوسيطِ في الكلام دالٌّ على التَّفخيم والإعظام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن المُنادى بلفظ (أيّ)، في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، مع أنَّ المُنادَى في الحقيقة الاسمُ الموصول، لكنْ لمّا كانت (يا) لا تدخلُ على المعرَّف؛ أُتي بـ (أيُّ) للتَّوصُّلِ بها، فهي وصلةٌ مساعدةٌ لفظًا، تفيدُ تعظيمًا وتفخيمًا لشأنِ المخاطَبينَ معنًى؛ لكي يُقبِلوا على الإصغاءِ والعمَلِ بالمضمون[2].

دلالةُ الالتفات:

تغايرُ المضمونَين استدعى الالتفات في الكلامَين

التفتَ النَّظمُ الكريم في جملةِ النِّداء الدّالَّةِ على الخطاب، مِن قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عن أسلوب الغَيبة؛ للدَّلالةِ على مغايرةِ مضمونِ الكلامَين، فالكلامُ الأوَّلُ دالٌّ على تعظيمِ الذّاتِ الإلهيَّة وتنزيهِها عن النَّقائص، والكلامُ الثّاني دالٌّ على هبوطِ بعضِ المؤمنينَ إلى نقائصِ عدمِ الوفاء بالوعدِ بالخَير.

دلالةُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

العمومُ في الكلام مَدعاةٌ للاهتمام

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن المخاطَبينَ بالاسمِ الموصول جمعًا، في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على العُموم والشُّمول لكلِّ مَن يتحقَّقُ فيه مضمونُ الصِّلة، وفائدةُ العمومِ الإشارةُ إلى أنَّ ما سيأتي بعدَ النِّداء أمرٌ يَنبغي أن يهتمَّ له الجميع.

دلالةُ جملةِ الصِّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾:

احترامُ المُخاطَبين تحفيزٌ لتنفيذِ أوامرِ الدّين

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بجملةِ الصِّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على إشعارِ المخاطَبين بالاهتمام والتَّوقير، قال ابن عاشور: "ناداهُم بِوصفِ الإيمانِ تَعريضًا بِأنَّ الإيمانَ من شَأنه أن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 5.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 52.

يَزَعَ المُؤمِنَ عَن أن يُخالِفَ فِعْلُه قَوْلَهُ في الوعدِ بالخَيرِ"[1]؛ إذ خِطابُهُم بشِعار الإيمانِ وعلامةِ الإيقان، تحفيزٌ لهم على الاهتمام بمضمونِ جملةِ النِّداء، ودفعٌ لهم لتنفيذِ ما يُطلَبُ منهم، وما نودوا من أجلِه، وذهب أبو حيّان إلى أنَّ "النِّداء بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ إن كانَ لِلمُؤمِنينَ حَقيقَةً، فالاستِفهامُ يُرادُ به التَّلَطُّفُ في العَتبِ، وإن كانَ لِلمُنافِقينَ، فالمَعنَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: بِألسِنَتِهِم"[2].

معنى اللّامِ في ﴿لِمَ﴾:

البحثُ عن السَّببِ منعٌ من الذَّنب ودَرءٌ للعَتَب

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(لام الجرِّ)، في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ﴾؛ للدّلالة على التَّعليلِ والسَّببيَّة؛ ليكونَ الاستفهامُ منصبًّا على العِلَّةِ والسَّبب الباعثِ، أي: لأيِّ شيءٍ وأمرٍ مهمٍّ تقولونَ: نفعلُ، وأنتم لا تفعلونَهُ؟ فـ "اللّامُ لِتَعليلِ المُستَفهَمِ عَنهُ، وهو الشَّيءُ المُبهَمُ الَّذي هو مَدلولُ (ما) الاستِفهاميَّة؛ لأنَّها تَدُلُّ على أمرٍ مُبهَمٍ يُطلَبُ تَعيينُهُ"[3]، واللّامُ متعلِّقةٌ بالفعلِ المضارع ﴿تَقُولُونَ﴾، وقد تقدَّمت عليه لاتِّصالها بأداةِ الاستفهام (ما)، قال الهرريُّ: "و﴿لِمَ﴾ مركَّبةٌ من اللّام الجارَّة و(ما) الاستفهاميَّة، قد حُذِفت ألفُها تخفيفًا لكثرةِ استعمالِها، كما في (عمَّ وفيمَ) ونظائرهما، معناها: لأيِّ شيء، ولأيِّ غرضٍ تقولونَ: نفعلُ ما لا تفعلونَ من الخير؟"[4]، وقال الزَّمخشريُّ: "لامُ الجرِّ داخلةٌ على (ما) الاستفهاميَّة، كما دخلَ عليها غيرُها من حروف الجرِّ، في قولك: (بمَ، فيمَ، وممَّ، وعمَّ، وإلامَ، وعلامَ، وحتّامَ)، وإنَّما حُذِفَتِ الألفُ؛ لأنَّ (ما) وحروفَ الجرِّ كشيءٍ واحدٍ، ووقعَ استعمالُها كثيرًا في كلامِ المُستفهَم محذوفةَ الألف، وجاءَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 174.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 164.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 174.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 247.

استعمالُ الأصلِ قليلًا"[1]، وقال الرَّضيُّ في الموصول: "إنَّها حُذِفَت؛ لأنَّ لها صدرَ الكلام، ولم يُمكنْ تأخيرُ الجارِّ عنها، فقُدِّمَ، ورُكِّب معَها حتّى يصيرَ المجموعُ موضوعةً للاستفهام، فلا يسقطُ الاستفهامُ عن مَرتبةِ الصَّدر، وجُعِل حَذْفُ الألف دليلَ التَّركيب"[2].

دلالةُ اسمِ الاستفهام (ما)، وتعيينُ المستفهَمِ عنه:

الـجُـرمُ من عظمتِه مجهولٌ للأنام، فاللّائقُ به الاستفهام

استعملَ النَّظمُ الكريم (ما) الاستفهاميَّةَ، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على السُّؤالِ الطّالبِ شرحَ الماهيَّةِ والحقيقةِ الباعثةِ على القول، أي: لأيِّ شيءٍ مهمٍّ تقولون: نفعلُ؟ وتفيدُ تعظيمَ ذلك الأمرِ الباعث؛ لأنَّ التَّعبيرَ عنه بـ(ما) - الدّالَّة على الجهالةِ والإبهام - مفيدٌ أنَّه أمرٌ عظيمٌ ومهمٌّ، بعثَ المخاطَبينَ للقول، فـ"الاستِفهامُ عَنِ العِلَّةِ مُستَعمَلٌ هُنا في إنكارِ أن يَكونَ سَبَبُ ذَلِكَ مُرْضيًّا لِلَّه تعالى، أي: إنَّ ما يَدعوهُم إلى ذَلِكَ هو أمرٌ مُنكَرٌ، وذَلِكَ كِنايَةٌ عَنِ اللَّومِ والتَّحذيرِ مِن ذَلِكَ"[3]، فالغَرضُ مِنَ الاستفهامِ إنكارُ السَّببِ الباعث، ويَلزمُهُ التَّحذيرُ والتَّهديدُ واللَّومُ والزَّجرُ، "فليس المرادُ من (ما) حقيقةَ الاستفهام؛ لأنَّ الاستفهام من اللّه محالٌ؛ لأنَّه عالمٌ بجميع الأشياء، بل المُرادُ الإنكارُ والتَّوبيخُ على أن يقول الإنسانُ من نفسِه ما لا يفعلُه من الخير"[4]، وإنَّما عبَّر عنها بالاستفهام؛ للدَّلالة على تعظيمِ ذلك الجُرْم حتّى صارَ مَجهولًا يُسألُ عن سببِ اقترافِه.

وذهب الهرريُّ أنَّ المستفهَم عنه هو الفعلُ في الحقيقة دون السَّببِ الباعثِ للقول، فقال: "والمعروفُ على أنَّ مدارَ التَّعيير والتَّوبيخ في الحقيقةِ عدمُ فعلِهم، وإنَّما وجَّهَه إلى قولِهم؛ تنبيهًا على تضاعُفِ معصيتِهم، ببيانِ أنَّ المُنكَر ليسَ تركَ الخيرِ الموعود

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 522.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 6.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 174.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 247.

فقط، بل الوعد به أيضًا، وقد كانوا يَحسبونَهُ مَعروفًا، ولو قيلَ: لمَ لا تفعلون ما تقولونَ؟ لفهِمَ منه أنَّ المنكَرَ هو تركُ الموعودِ"[1]، وذهبَ أبو حيّان إلى أنَّ النِّداء إمّا متعلّق بالمؤمنينَ، كما هو الظّاهر، فالاستفهامُ للتَّلطُّفِ والعتاب، وإمّا للمنافقينَ، فالاستفهام للإنكارِ والتَّحذير والتَّهكُّم، فقال: "إن كانَ لِلمُؤمِنينَ حَقيقَةً؛ فالاستِفهامُ يُرادُ به التَّلَطُّفُ في العَتبِ، وإن كانَ لِلمُنافِقينَ، فالمَعنَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، أي: بألسِنَتِهم، والاستِفهامُ يُرادُ به الإنكارُ والتَّوبيخُ، وتَهَكُّمٌ بِهِم في إسنادِ الإيمانِ إلَيهِم"[2].

دلالةُ الفعلينِ المُضارعين ﴿تَقُولُونَ﴾ و﴿تَفۡعَلُونَ﴾ مُسندَينِ لضميرِ الجمع:

عبَّر النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارع مرَّتين، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّحذيرِ من مُخالفة القولِ للعمل، على سبيلِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، بحيثُ يصيرُ هذا السُّلوكُ عادةً ودأبًا مُستمرًّا، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّه قد تصدرُ من المؤمن مخالفةٌ في قولِه ووعدِه بالخير لما يصدرُ عنه من فعلٍ، وذلك الأمر مقبولٌ وممكنٌ، لكن أن يتحوَّل ذلك إلى سلوكٍ جماعيٍّ على سبيلِ التَّكرُّرِ، فإنَّه سلوكٌ مُنتقَد، ولذا أسندَ النَّظمُ الكريم الفِعلَينِ المُضارعَينِ؛ لضميرِ الجماعة الدّالِّ على حالةٍ من التَّوافُق الجمعيِّ على هذا السُّلوك، الذي يَتنافى فيه الوعدُ بالخير مع الفعل، ويتقاطَعُ، وقدَّرَ البقاعيُّ متعلِّقَ القول بقوله: "أي: مِن دَعوى الإيمان التي مُقتضاها التزامُ الإخلاصِ في جميعِ الأحوال"[3].

ثنائيَّةُ القول والعمَل ارتباطٌ سلوكيٌّ مؤصَّل

دلالةُ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾:

عبَّر النَّظم الكريم بـ﴿مَا﴾ الموصولة، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على العمومِ والإبهام، دونَ تحديدٍ لذلك

عمومُ التَّعبير يتَّسق مع عمومِ التَّحذير

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 247.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 164.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 6.

المقول بشيءٍ محدَّدٍ ومعيَّنٍ؛ ليدلَّ على النَّهي والتَّحذيرِ من كلِّ قولٍ ووعدٍ بالخير مع عدم الإقدامِ عليه وعملِه وتنفيذِه، ولا سيَّما الوعودُ الَّتي تؤدّي إلى إصدارِ تشريعاتٍ، تَستصعبونها، وتجدونَ فيها عَنَتًا وكُلفةً، وخصَّهُ الطِّيبيُّ بالوعدِ بالجهادِ، فقال: "هو تمهيدٌ وتوطئةٌ لهذا الخطاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾، وتقدمةُ تنبيهٍ على أنَّ ما يُخالفُهُ مَبغوضٌ عند اللّه، والتَّقاعدُ عنه بعدَ الوعد من أشدِّ البُغض، وأكبرِ المَقت عندَهُ، وممّا يشدُّ من عضُد ذلك أنَّ قطبَ هذه السّورة الكريمة يدورُ على أمرِ الجِهاد"[1].

دلالةُ النَّفي بـ ﴿لَا﴾:

قلبُ المُحذَّرِ منهُ بالسُّؤالِ القصيرِ عنه

استعملَ النَّظمُ الكريم النَّفيَ بـ﴿لَا﴾، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ الفعلِ الموافِق للقولِ على سبيل الحالِ والاستقبال، بحيثُ يكونُ زمنُ القولِ والوعدِ بالخير مُقارنًا لزمنِ عدم الإرادةِ للفعل، فالمنهيُّ عنه والمُحذَّرُ منه هو الوعدُ بالخير، المقارنُ لعدم الرَّغبةِ بالإنجاز، فتكونُ الألسنة مخالفةً لإرادة الفعل زمنًا، ويحرصُ القائلُ على عدمِ تعلُّقِ الرَّغبة بالفعلِ حتّى في الأزمنةِ المستقبلة؛ لدلالة ﴿لَا﴾ على نفيِ الحال والاستقبال، وثمَّة تناسبٌ صوتيٌّ بين ﴿مَا﴾ و﴿لَا﴾، في كونِ كلٍّ منهما باستطالتِه الصَّوتيَّة يشيرُ إلى امتدادٍ في الوعد وامتدادٍ في الانتفاء وعدمِ الفعل، كما أنَّ تلك الحالةَ الامتداديَّة قابلتها حالةُ تقصيرٍ زمانيٍّ في الاستفهام بـ ﴿لِمَ﴾، فإنَّ اللّام مقصورةٌ من (لا)، و(مَ) مقصورةٌ من (ما)؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الامتداد في الوعودِ مع الامتدادِ في عدم التَّنفيذ، قابلَهُ سؤالٌ عن سرِّ ذلك بأقصرِ لفظ بغيةَ معرفةِ السَّبب، فيعارضُ السُّؤالُ بأصواتِه منهجَهم، كما يعارضُ مضمونُ السُّؤالِ ذلك الصَّنيعَ، فكانتِ اللّام التَّعليليَّةُ متوجِّهةً للنَّفي، و(ما) الاستفهاميَّةُ متوجِّهةً لذلك العُموم.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 382.

دلالةُ الطِّباق بينَ (القَوْل والفعل):

كمالُ الطِّباق دليلُ سوءِ الاعتقادِ والأخلاق

عبَّر النَّظم الكريمُ بفنِّ الطِّباق البديعيِّ بين (القول والفعل)، في قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ إذِ القولُ مجرَّدُ صدورِ الكلامِ باللِّسانِ، والفعلُ هو تحويلُ الكلام المنطوقِ إلى واقع عمليٍّ، فيكون بينَ (القول والفعل) تضادٌّ، يُمثِّلُ القولُ فيه النُّطقَ باللِّسان، ويُمثِّلُ الفعلُ تحويلًا لما يدورُ على اللِّسان إلى فعلٍ وواقع، وقد اقترنَ القولُ بحالةِ إثبات، والفعلُ بحالةِ نفيٍ، فيكون الطِّباق واقعًا مرَّتين، طباقُ الإيجاب بين (القول والفعل)، وطباقُ السَّلب بين (المثبت والمنفي)؛ للدَّلالةِ على حالةِ التَّناقض العميقةِ في ذلك السُّلوك والازدواجيَّةِ الشَّديدة بين حالةِ التَّعبيرِ المُثبتة، وحالة الإنجازِ المَنفيَّة.

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ دونَ العمل:

انتفاءُ الأعمِّ يلزمُ منه انتفاءُ الأخصِّ

اختارَ النَّظمُ الكريم لفظَ (الفعل)، بدلًا من لفظ (العمَل)، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ لما في الفعلِ من عمومٍ، فهو ما يصدُرُ عن الإنسان بقصدٍ أو بغير قصدٍ، بخلاف العمَلِ المنحصِرِ بالقصد[1]، وللدَّلالة على التَّحذيرِ من الوعدِ بالعمَل؛ لأنَّ الوعد لا يكونُ إلّا بما يريدُ الإنسان إنجازَه، مع عدم الإقدام على أيِّ شيء، وانتفاءُ الأعمِّ يستلزمُ انتفاءَ الأخصِّ، فهُم في حالةِ وعْدِهم بعملِ الخير وإيجادِه، لا يصدُرُ عنهم الفعلُ مطلقًا، فضلًا عن عدمِ صُدور العمَل.

دلالةُ الكنايةِ بنفيِ القولِ والفعل:

التَّحذيرُ من عدمِ الوفاء بالوعدِ خوفًا من الوصولِ للكذبِ والنِّفاق

نفى النَّظمُ الكريم (القولَ) بالاستفهام الإنكاريِّ، و(الفعلَ) بالنَّفي الصَّريح في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على لازمِه، وهو عدمُ الإيفاء بالوعد الخَير، قال الهرريُّ: "والمعنى: لأيِّ غرضٍ تقولونَ: لَودِدنا أنْ نعملَ كذا وكذا من أفعالِ الخير،

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 640، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 134.

حتَّى إذا طُلِبَ منكم ذلك؛ كَرِهتُم، ولم تَفعلوا؟ والتَّوبيخُ والإنكارُ موجَّهٌ إلى عدمِ فعلِهم ما وُعِدوا به، وإنَّما وُجِّهَ إلى القول؛ لبيانِ أنَّ معصيتَهم مُزدوجةٌ؛ إذ هم تركوا فعلَ الخير، وقد وعَدوا بفعلِه[1]، كما يشير نفيُ الفعلِ الصَّريح إلى كنايةٍ عن فراغ القلبِ من إرادة العمل، فيكونُ مع النَّهي والزَّجرِ عن الوفاء بالوعدِ النَّهيُ عن النِّفاق؛ إذِ القولُ لما لا يفعلُهُ قد يكونُ عن قلبٍ مُصمِّمٍ على عدم الفعل، فيؤدّي إلى نفاقٍ وكذبٍ بإظهار خلافِ ما يُبطن، فيكون ذنبًا أعظمَ من عدمِ الوفاء بالوعْد، قال ابن عاشور: "وفيه تَعريضٌ بالمنافِقينَ؛ إذ يُظهِرون الإيمانَ بِأقوالِهم، وهُم لا يَعملون أعمالَ أهلِ الإيمانِ بالقلبِ ولا بالجسدِ"[2].

دلالةُ فصلِ الجملة في ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾:

التَّوضيحُ والبيان لعاقبةِ التَّحذيرِ والنُّكران

فصلَ النَّظمُ الكريم الجملةَ الواردةَ في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَها؛ لكونِها بمنزلةِ البيان والتَّوضيح عن الإنكارِ، والتَّحذيرِ والتَّهديدِ اللّازم من الاستفهام لقولٍ لا يوافقُهُ الفعلُ والعمل، قال البقاعيُّ: "ولمّا كان ذلك مُهلِكًا؛ رَحِمَ المخاطَبينَ بتعظيمِه؛ لينجوا أنفسَهم بالكفِّ عنه، فقال: ﴿كَبُرَ﴾"[3]، فتُنزَّلُ الجملةُ الثّانية ممّا قبلَها منزلةَ البيان لذلك النَّهي والتَّحذير، ففي النَّظم كمالُ الاتِّصال، قال ابنُ عاشور: "بَيانٌ لِجُمْلَةِ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، تَصْريحًا بِالْمَعْنَى الْمُكَنَّى عَنْهُ بها، وهو خَبَرٌ عَن كَونِ قَولِهم: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أمرًا كَبيرًا في جِنسِ المَقتِ[4]، أو أنَّها واقعةٌ في جوابِ سُؤالٍ مقدَّرٍ عن نتيجةِ التَّحذير من ذلك الأمرِ، فأجابَ بأنَّه قولٌ كبيرٌ بالغُ السّوءِ، فبينَ الجُملتَينِ شِبهُ كمالِ الاتِّصال.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 248.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 175.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 6.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 175.

دلالةُ الفعلِ ﴿كَبُرَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّعاظُمُ الكيفيُّ والتَّكاثُرُ الكَمّيُّ لزيادةِ البُغضِ المتُنامي

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بصيغةِ الفعلِ الماضي ﴿كَبُرَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الوقوعِ لذلك البُغض المُتكاثِر المُتعاظِم؛ نتيجةَ القولِ الَّذي لا يوافِقُهُ العملُ، وفي اختيارِ مادَّةِ ﴿كَبُرَ﴾ إشارةٌ إلى التَّعاظُم الكمّيِّ والكيفيِّ لذلك المَقتِ والقولِ، فالكثرةُ الكَمّيَّةُ والعَظَمةُ النَّوعيَّة تجتمعُ في (الكبيرِ)؛ للدَّلالة على شناعةِ ذلك القولِ المُستوجِبِ لمزيدِ البُغض وتَناميه.

الخلافُ في دلالةِ الفعل ﴿كَبُرَ﴾:

الذَّمُّ والتَّعجُّبُ مـن إخـلاف الوعدِ معَ الرَّبِّ

اختلف المفسِّرون في تحديد دلالة الفعل الماضي ﴿كَبُرَ﴾، الوارد في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾؛ فقيل: من بابِ (نِعْمَ وبئسَ)، فيه ضميرٌ مبهَمٌ مفسَّرٌ بالنَّكرة بعدَهُ، و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ هو المخصوصُ بالذَّمِّ، و﴿مَقۡتًا﴾ منتصِبٌ على التَّمييز، والكلامُ بيانٌ لغايةِ قُبح ما فعلوهُ، أي: عظُمَ بُغضًا في علْمِه تعالى وحكمته هذا القولُ المجرَّدُ، فهو أشدُّ ممقوتيَّةً ومبغوضيَّةً، وقيل: إنَّه قُصِد بقوله: ﴿كَبُرَ﴾ التَّعجُّبُ، وقد عدَّه ابنُ عصفور من أفعالِ التَّعجُّبِ(1)، قالَ السَّمين: "وهذه قاعدةٌ مطَّردة، وهي أنَّ كلَّ فعلٍ يجوزُ التَّعجُّبُ منه، يجوزُ أن يُبنى على (فَعُلَ) بضمِّ العين، ويَجري مُجرى (نعم وبئس) في جميع الأحكام"(2)، وقيل: إنَّه ليس من أفعالِ الذَّمِّ ولا من أفعال التَّعجُّبِ، بل هو مسندٌ إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، و﴿مَقۡتًا﴾: تمييز محوَّلٌ عنِ الفاعل"(3)، "والأصل: كَبُرَ مَقْتُ أن يقولوا، أي: مَقْتُ قَوْلِكم"(4)، ويفهم هذا من قول البقاعيِّ: "ولمّا كان ذلك - قول ما لا يفعلون - مُهلِكًا، رَحِمَ المُخاطَبين بتعظيمِه؛ لينجوا

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 248.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 14/ 98.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 248.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 314.

أنفسَهم بالكفِّ عنه، فقال: ﴿كَبُرَ﴾، فقصدَ به التَّعجيبَ، وهو تعظيمُ الأمر في قلوبِ السّامعين؛ لأنَّ التَّعجُّبَ لا يكون إلّا في أمرٍ خارجٍ عن نظائرِه وأشكالِه"[1].

دلالةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ أوِ المَكنيَّةِ في ﴿كَبُرَ﴾:

تفظيعُ القولِ المخالِفِ للعمل نُصْحٌ وإرشادٌ لمَن اعتبَرَ

حمل النَّظمُ الكريم في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ﴾ استعارةً بليغة، وهي إمّا أن تكونَ استعارةً تصريحيَّةً، وقعت في لفظِ ﴿كَبُرَ﴾ المستعارِ للشِّدَّة؛ "لأنَّ الكَبيرَ فيه كَثْرَةٌ وشِدَّةٌ في نَوْعِهِ"[2]، فيكونَ قد شَبَّهَ الشِّدَّةَ بالكِبَر، ثمَّ حذفَها على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ، واشتقَّ من الكِبَر الفعلَ ﴿كَبُرَ﴾ تبعيَّةً؛ للدَّلالةِ على الكثرة والعظَمة معًا، وإمّا أن تكونَ استعارةً مكنيَّةً تمثَّلت في تشبيه القولِ بشيءٍ يتَّصفُ بالكبَر والكثرةِ والعظَمة، فيكونَ القولُ كجسمٍ كبيرٍ، ثمَّ حذفَ المُشبَّهَ به، وأبقى من خواصِّه ولوازمِه الفعلَ ﴿كَبُرَ﴾؛ ليدلَّ عليه، أو أنَّه شبَّه المقتَ والبغضَ بذلك الجسم؛ لأنَّ هذا التَّمييزَ محوَّلٌ عن الفاعلِ، والتَّقديرُ: (كَبُر مقتُ ذلك القول)، وحذفَهُ، وأبقى من خواصِّه الكِبَر، وسواءٌ كانت الاستعارةُ تصريحيَّةً أم مَكنيَّةً، فإنَّ في ذلك دلالةً عاليةً على التَّشنيع والتَّفظيع وزيادةِ التَّحذير منَ القولِ الَّذي لا يوافقُهُ الفعلُ والعمَلُ، حتَّى كاد ذلك القولُ أوَ ذلك البُغضُ له أنْ يكونَ جسمًا ثقيلًا كبيرًا مُتعاظِمًا من شدَّته وفظاعتِه.

الموقعُ الإعرابيُّ لـ ﴿مَقْتًا﴾ ودلالتِه:

تـوالي مُكـوِّناتِ الكراهةِ تصويرٌ لغايةِ السَّفاهة

استعملَ النَّظمُ الكريم لفظَ (المقت) تمييزًا مُحوَّلًا عن الفاعل في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ﴾؛ للدَّلالة على تهويلِ ذلك القولِ والتَّفظيعِ له والتَّشنيعِ فيه، قال ابن عاشور: "ونُظِمَ هَذا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 6.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 175.

الكَلامُ بِطَريقَةِ الإجمالِ ثُمَّ التَّفصيلِ بِالتَّمييزِ؛ لِتَهويلِ هَذا الأمرِ في قُلوبِ السّامِعينَ؛ لِكَونِ الكَثيرِ مِنهُم بِمظَنَّةِ التَّهاوُنِ في الحَيطَةِ مِنهُ"(1)، وأصلُ النَّظم: (كَبُرَ مقتُ ذلك القول) إلّا أنَّه حوِّلَ الإسنادُ إلى القولِ، وانتصبَ الفاعلُ تمييزًا؛ ليكونَ ذلك القولُ كلُّه مَقْتًا وبُغْضًا كبيرًا، والمعنى: "كَبُرَ قَولُكُم ما لا تَفعَلونَ مَقتًا عِندَ اللّه"(2)، وقال الزَّمخشريُّ: "ونُصِبَ ﴿مَقْتًا﴾ على تفسيرِه؛ دلالةً على أنَّ قولَهم: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ مقتٌ خالصٌ لا شَوْبَ فيه، لفرطِ تمكُّنِ المقتِ منهُ"(3)، وإنَّما اختارَ النَّظمُ الكريم لفظةَ (المَقْتِ) دونَ (البُغض والكَراهة) مثلًا؛ لأنَّ المقتَ شدَّةُ البُغضِ وكثرتُه وتناميه، فيكونُ البُغضُ الكبير مُتحقِّقًا من جهةِ المادَّةِ والتَّركيبِ والصّياغةِ معًا، وذهبَ الآلوسيُّ والزَّمخشريُّ إلى أنَّه: "قُصِد في ﴿كَبُرَ﴾ التَّعجُّبُ وتعظيمُ الأمر في قلوبِ السّامعين؛ لأنَّ التَّعجيب لا يكون إلّا من شيءٍ خارجٍ عن نظائره وأشكالِه، واختيرَ لفظُ (المقت)؛ لأنّه أشدُّ البغضِ وأبلغُهُ، ومنهُ: (نكاحُ المَقتِ)؛ لتزوُّجِ الرَّجلِ امرأةَ أبيه، ولم يقتصِرْ على أنْ جعلَ البغضَ كبيرًا حتَّى جعله أشدَّهُ وأقبحَهُ وأفحشَهُ"(4)، ووازن أبو حيّان بين الأقوالِ، فقرَّرَ أنَّ: "الظّاهِرَ انتِصابُ ﴿مَقْتًا﴾ على التَّمييزِ، وفاعِلُ ﴿كَبُرَ﴾: ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، وهو مِنَ التَّمييزِ المَنْقولِ مِنَ الفاعِلِ، والتَّقْديرُ: (كَبُرَ مَقْتُ قَولِكُم ما لا تَفعَلون)، ويَجوزُ أن يَكونَ مِن بابِ نِعْمَ وبِئْسَ، فيكونَ في ﴿كَبُرَ﴾ ضَميرٌ مُبْهَمٌ مُفَسَّرٌ بِالتَّمييزِ، و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ هو المَخْصوصُ بِالذَّمِّ، أيْ: بِئْسَ مَقْتًا قَوْلُكُمْ كَذا، ويَجوزُ أنْ يَكونَ في ﴿كَبُرَ﴾ ضَميرٌ يَعودُ على المَصْدَرِ المَفْهوم مِن قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾، أي: كَبُرَ هو، أي: القَولُ مَقْتًا، و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ بَدَلٌ مِنَ المُضْمَرِ، أو خَبَرُ ابتِداءٍ مُضمَرٍ، وقيلَ: هو مِن أبنيَةِ التَّعَجُّبِ، أي: ما أَكْبَرَهُ مَقْتًا!"(5).

دلالةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة في ﴿مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ المقتَ القريبَ من اللّه تعالى في قوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ لِيُشيرَ إلى استعارةٍ تمثيليَّة؛ إذ أُريد به لازمُهُ، وهو البُعد عن رحمةِ اللّه تعالى، فيكون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 175.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 527.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 523.
(4) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1396.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 164.

البُعدُ منَ الرَّحمة إقصاءٌ عن النِّعمة

قد شبَّه البُعدَ عن الرَّحمة الإلهيَّة بالبُغض الشَّديد، بجامع البُعد والإبعاد، ثمَّ حذف المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به على سبيل التَّمثيلِ؛ للدَّلالة على المُبالغة في الإبعادِ من رحمةِ اللّٰه تعالى[1].

دلالةُ العنديَّة:

العنديَّة مجازيَّة، واللّٰهُ سبحانه مُنزَّه عن القُرب والبُعد المادّيِّ

استعملَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿عِندَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على العنديَّةِ المجازيَّة؛ لتنزُّهِه تعالى عن القُرب والبُعد؛ إذ ذلك من خواصِّ الأجسام، فيكونُ المراد القُربَ المعنويَّ؛ تمييزًا له عن القُربِ من غيره، قال المصطفويُّ: "يرادُ [بعندَ] حدوثُ البُغضِ الشَّديد في مقام مربوطٍ باللّٰه تعالى، فإنَّ كلمةَ ﴿عِندَ﴾ تدلُّ على ارتباطٍ وشدٍّ، ويُعبَّرُ عنهُ بالحضور والدُّنوِّ، فالقولُ يوجبُ مقتًا وبُغضًا شديدًا في مَحضَرِ اللّٰه المُتعالي، أي: يتبدَّلُ محيطُ الحبِّ واللُّطف والرَّحمة والعطوفة إلى مُحيطِ بُغْضٍ شديد، وفي التَّعبير بكلمة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لطفٌ آخرُ؛ إذ لم ينسبِ (المقتَ) إلى اللّٰه المتعالي، بل عبَّرَ بحدوثِه المُطلَقِ في جنابِه ومحضَره، وفيه دلالةٌ على أنَّ ذلك المَقتَ يتبَعُ أعمالَهم ونتيجةَ كُفرهم وجدالِهم وخلافِهم"[2].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

تحديدُ جهةِ الكَراهة زيادةٌ في التَّنبيه على شدَّةِ الشَّناعة

أضافَ النَّظمُ الكريم العنديَّة إلى اللّٰه تعالى، في قوله: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على تحديدِ جهةِ الكَراهة والشَّناعة لذلك القولِ، بأنَّها مِن اللّٰه تعالى، وكفى في ذلك تشنيعًا وتبغيضًا عنده: "لأنَّ الممقوتَ عندَهُ ممقوتٌ عندَ كلِّ ذي لُبٍّ"[3]، قال البيضاويُّ: "كَبُرَ عندَ مَن يحقُرُ دونَه كلُّ عظيم؛ مبالغةً في المنعِ عنهُ"[4]؛ إذ اللّٰهُ تعالى يحبُّ الصّادقينَ في أقوالهم، التي توافِقُ أفعالُهم تلك

(1) حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 67.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 11/ 132.
(3) غرائب القرآن، النّيسابوريّ: 6/ 296.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 208.

الأقوالَ ولا تُنافيها، فالغايةُ من الإضافة زيادةُ التَّكريه والتَّحذيرِ من ذلك الفعلِ.

دلالةُ ﴿أَن﴾ في ﴿أَن تَقُولُواْ﴾:

التَّحذيرُ من الخَصلةِ الذَّميمةِ الواقِعةِ، والتَّشنيعُ من مُمارستِها المستقبليَّةِ القادِمة

أوقعَ النَّظمُ الكريم الحرفَ المصدريَّ ﴿أَن﴾ النّاصِبَ للفعلِ المضارع، في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ﴾ فاعِلًا؛ بناءً على أنَّه قُصِدَ بقوله: ﴿كَبُرَ﴾ التَّعجُّبُ، "وعَدَلَ عَن جَعلِ فاعِلِ ﴿كَبُرَ﴾ ضَميرَ القَولِ، بأن يَقتَصِرَ على (كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللّهِ)، أو يقالَ: (كَبُرَ ذَلِكَ مَقْتًا)؛ لِقَصْدِ زيادَةِ التَّهويلِ بإعادَةِ لَفْظِه، ولإفادَةِ التَّأْكيدِ"[1]، وللدَّلالة على الاستقبالِ الزَّمنيِّ لذلك القول، فبعد أنْ وبَّخَ المَولى تعالى، ونهى عن قولِهم ما لا يفعلونَ في الحالِ؛ خصَّصَ زيادةَ المقتِ والبُغض في حالِ تكرَّرَ ذلك في المستقبلِ؛ ليكونَ دَيدَنًا لهم، فالَّذي وقعَ في الماضي أو في زمن الحال؛ استدعى الاستفهامَ الدّالَّ على الإنكارِ والتَّحذير، والَّذي سيقعُ في المستقبل؛ استدعَى التَّحذيرَ وإعلانَ البُغضِ الشَّديدِ المُتعاظِم، وقيل: إنَّ قوله: "﴿أَن تَقُولُواْ﴾ في موضعِ رفعٍ؛ لأنَّ ﴿كَبُرَ﴾ فعلٌ بمعنى (بئس)، و﴿مَقْتًا﴾ منتصبٌ على التَّمييز، وعلى هذا فيكونُ في ﴿كَبُرَ﴾ ضميرٌ مبهَمٌ مفسَّرٌ بالنَّكرة، و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ هو المخصوصُ بالذَّمِّ"[2].

دلالةُ المضارِعِ في ﴿تَقُولُواْ﴾:

زيادةُ المقتِ والبُغض بتكرُّرِ ذلك الفعلِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارعِ المستقبليِّ، في قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ الوقوعيِّ لذلك القولِ واستمرارِه في المستقبل[3]، حتَّى يُصبحَ صفةً لازمةً للقول لكثرةِ تكرُّرِه واستدامتِه، وإنَّما اختار النَّظمُ المصدرَ المؤوَّلَ دونَ المصدرِ الصَّريح؛ للدَّلالة على الزَّمنِ الاستقباليِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 176.

(2) القنوجيّ، فتح البيان: 14/ 98.

(3) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 140.

الذي يدلُّ الفعل عليه، فتكون زيادة المقت حاصلةً بتكرُّر ذلك القول في المستقبل.

دلالةُ الموصولِ ﴿مَا﴾:

عمومُ الأقوال الخاليةِ من التّنفيذِ والأفعال

عبَّرَ النَّظمُ بالاسمِ الموصول ﴿مَا﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على العمومِ والإبهامِ والشُّمول، فيفيدُ تنوُّعًا في الأقوالِ وتكثُّرًا في صورها الخاليةِ من التَّطبيقِ والتَّنفيذ، فهي مجرَّدُ وعودٍ زائفة لا يُصدِّقُها العمَلُ، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ "﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ في الموضِعَين مَوصولَةٌ، وهيَ بِمَعنَى لامِ العَهدِ، أي: الفِعلُ الَّذي وعدتُم أن تَفعلوهُ، وهو أَحَبُّ الأعمالِ إلى اللّه أوِ الجِهادُ، فاقتَضَتِ الآيَةُ أنَّ الوعدَ في مِثلِ هَذا يَجِبُ الوفاءُ بِهِ؛ لأنَّ المَوْعودَ بِهِ طاعَةٌ، فالوعْدُ بِهِ مِن قَبيلِ النَّذْرِ المَقصودِ مِنهُ القُرْبَةُ، فَيَجِبُ الوفاءُ بِهِ"[1].

دلالةُ ﴿لَا﴾ النّافية:

تحديدُ مناطِ المقْتِ لكفِّ الإخلافِ في الوعدِ

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ﴿لَا﴾ النّافيةِ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ للدّلالة على نفيِ الفعلِ في المستقبلِ، بقرينةِ ﴿أَن﴾ المصدريَّةِ الاستقباليَّة، وتحديدُ محطِّ التَّحذيرِ وشدَّةِ المَقتِ، وهو انتفاءُ الفعل الموافقِ لما يصدُرُ عنهم من أقوالٍ ووعودٍ وعُهودٍ؛ للكفِّ عن الإخلافِ في الوعْدِ.

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿تَفۡعَلُونَ﴾:

استمرارُ إخلافِ الوعدِ يُفضي لمزيدٍ مِنَ المَقت

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارعِ، في قولِه تعالى: ﴿مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ[2]؛ لانتفاءِ الفعل الدّالِّ على إخلافِ ما وعدوه وقالوهُ، ممّا يؤدّي إلى استجلابِ المزيدِ منَ المَقْت.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 176.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/ 97.

دلالةُ التَّكرارِ في ﴿تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾:

تكرارُ التَّقبيح دلالةُ الاستهجانِ الصَّريح

كرَّرَ النَّظمُ الكريم الجملةَ الواردةَ في قولِه تعالى: ﴿تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؛ للدَّلالة على فظاعةِ ذلك الخُلُقِ الذَّميم، المُفضي لمزيدٍ من الكراهةِ والبُغض الشَّديد عند الله تعالى، فتارةً وردَ في سياق الاستفهام الإنكاريِّ الَّذي غرضُهُ التَّحذيرُ والتَّنديد، وأُخرى ورد في سياقِ الإخبار الَّذي غرضُهُ التَّهديدُ والإنذار، ومن المعلوم أنَّ الخبرَ لا يُنسَخُ، ممّا يُفيدُ استمرارَ هذا الحُكم ودوامِه، فـ: "حُكْمُ هذه الآيةِ باقٍ غابرَ الدَّهرِ"[1]، وينبغي أنْ يَجتنبَهُ المؤمنون؛ ليكمُلَ إيمانُهم، ولا يَهبطوا إلى الكذبِ في الوعد الذي رُبَّما يجرُّهُم إلى النِّفاق القلبيِّ، قال الهرريُّ: "لأنَّه إن أخبرَ أنَّه فعلٌ في الماضي والحال، ولم يفعلْه كانَ كاذبًا، وإن وعدَ أن يفعلَهُ في المستقبلِ، ولا يفعلُهُ كانَ خُلفًا، وكلاهما مذمومٌ، كما قال في الكشّاف: هذا الكلامُ يتناول الكذبَ وإخلافَ الوعد، وهذا بخلافِ ما إذا وعدَ، فلم يَفِ بميعادِه لعُذْرٍ من الأعذار، فإنَّه لا إثمَ عليه"[2].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المَقْتُ والبُغْضُ:

الاختلافُ الكمّيُّ والتَّكوينيُّ

المقتُ أشدُّ أنواعِ البُغض وأكثرُه، ولذا فإنَّ البُغْضَ أخفُّ من المَقْتِ كمًّا، كما أنَّ البُغضَ عبارةٌ عن كراهيَةٍ مُمتزجةٍ بحسَدٍ وحِقْدٍ، لكنَّ المقتَ عبارةٌ عن كراهيَةٍ ممتزجةٍ ببُغْضٍ واحتقارٍ وإهانة، وقال ابنُ عَطيَّةَ: "والمَقْتُ: البُغضُ من أجلِ ذَنبٍ أو ريبَةٍ أو دَناءَةٍ يَصنَعُها الممقوتُ"[3]، ولمّا كان الَّذين يقولونَ ما لا يفعلونَ ضعفاءَ الشَّخصيَّة والتَّكوين النَّفسيِّ؛ إذ يَعِدونَ، ويُخلِفونَ الوعدَ؛ عبَّرَ عنهم بالمَقْتِ المُشعِرِ بضَعْفِ شخصيَّتِهم المعنويَّة.

---

(1) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 5/ 424.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 247.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 277، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 164.

الكبير والعظيم والكثير:

الكثرةُ مُنافيَةٌ للقِلَّة في الكمّيَّة؛ فهي في الأجسام عبارةٌ عن جُزَيئاتٍ أكثرَ وُجودًا مقارنةً بالقِلَّةِ في غيرها، والعظَمةُ ضِدُّها الحقارةُ والصِّغَرُ المعنويُّ الكيفيُّ، وأمّا الكِبَرُ؛ فمُنافٍ للقِلَّةِ الكمّيَّة والصِّغَرِ المعنويِّ، فالكبيرُ يوحي باللَّفظ الجامعِ للكثير والعظيم مَعًا، ولمّا كان المقتُ أشدَّ من البُغض وأكثرَ؛ ناسبَ أنْ يُسنِدَ النَّظمُ الكريم إليه الكِبر؛ ليكونَ جامعًا للكمِّ والكيفِ معًا.

الكثيرُ كمًّا، والعظيمُ كَيفًا، والكبيرُ كمًّا وكَيفًا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ [الصّف: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّحذيرُ من الرَّذائل يُناسبُهُ التَّرغيبُ في الفضائل

لمّا ذكر النَّظمُ الكريم ما يكرهُهُ اللّهُ، ويُبغِضُه من عبيدِه؛ ناسبَ أن يتكلَّمَ عمّا يُريدُهُ من عبادِه، ويُحبُّهُ لهم؛ إرشادًا لهم على الفضائل، كما حذَّرَهم منَ الرَّذائل، فبعدَ أنْ ذَمَّ الذين وعَدوا بالقتال ونحوِه من أفعالِ الخير، ولم يَفعَلوا؛ مدحَ الَّذين قاتلوا في سبيلِه وبالغوا فيه[1]، قال الطِّيبيُّ: "اعلم أنَّه لمّا بولِغَ في بُغْضِ القول إبهامًا؛ جيءَ بما يُحِبُّ من الفعلِ تعريضًا، فقوبِلَ البغضُ بالحُبِّ، والقولُ بالفعلِ، ووصفهُ بالبنيان المَرصوص؛ تعريضًا بالقولِ المتزلزِلِ والوعدِ المُخلَف"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَفًّا﴾: الصَّفُّ من (صفف)، يقال: صَفَفْتُ الشَّيءَ صفًّا من بابِ قتلَ[3]، وجمعُ الصَّفِّ صُفوف، وصففتُ القومَ، فاصطَفّوا[4]، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على استواءٍ في الشَّيءِ وتساوٍ بينَ شيئَين في المَقرِّ، من ذلك الصَّفُّ[5]، يقال: وقفا صفًّا؛ إذا وقفَ كلُّ واحدٍ إلى جنبِ صاحبِهِ، ثمَّ إنَّ الاصطفافَ إنَّما هو شعارُ الخدمةِ والاستسلام والطّاعة الصِّرفة، وهذا المعنى في المادّيّات إنَّما يتحقَّقُ بالوقوفِ على خطٍّ واحدٍ ظاهريٍّ، كما في صُفوفِ الصَّلاة والجهادِ وغيرهما[6]، والمرادُ به في الآية: الثَّباتُ عند القتال وعدمُ التفرُّق عندَ المواجهة.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 249.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 382.
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (صفف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صفف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفف).
(6) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 6/ 263.

2) ﴿بُنۡيَٰنٞ﴾: البنيان من: (بني)، وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على بناء الشَّيءِ بضمِّ بعضِه إلى بعضٍ، تقولُ: بنيتُ البناءَ أبنيه، والبنيانُ ما يُبنى[1]، والمرادُ به في الآية: الجدارُ المبنيُّ الثّابتُ الَّذي لا يتزلزلُ، ولا يَنهدِمُ.

3) ﴿مَّرۡصُوصٞ﴾: من (رصص)، يقال: رَصَصْتُ البناءَ رَصًّا؛ إذا ضَمَمتَ بعضَهُ إلى بعض، منَ (الرَّصيصِ)، وهو انضمامُ الأسنانِ بعضِها إلى بعض، والتَّراصُّ: التَّلاصُقُ، قال ابنُ عبّاس: يُرفَعُ الحجرُ على الحَجَر، ثمَّ يُرَصُّ بحجارةٍ صِغار، ثمَّ يوضَعُ اللَّبِنُ عليه، تُسمّيه أهلُ مكَّة: المَرصوص، وقال مقاتلٌ: مُلتزِقٌ بعضُهُ ببعضٍ[2]، وقال الرّاغب: "كأنَّما بُنِيَ بالرَّصاص، ويقالُ: رَصَصْتُهُ ورصَّصْتُهُ، وتراصّوا في الصَّلاة، أي: تضايَقوا فيها"[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

محبَّةُ الله للمجاهدين تتعاظَمُ عندَ الاصطفافِ المتَين

إنَّ اللّهَ يُحِبُّ الَّذينَ يجاهدونَ في سبيلِ دينِه وضِمن شريعتِه، لا في سبيلِ غيره، ولا خارجينَ عن شريعته، صافّينَ أنفسَهم، كَأنَّهُم بُنيانٌ مُلتصِقٌ بعضُهُ ببعض، مُتماسِكٌ أشدَّ التَّماسُك، بأن يدخلوا المعركة برأيٍ موحَّد، وأن يأخذ كلٌّ منهم محلَّه فيها، وألّا يكونَ في صفِّهم خللٌ[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ﴾:

اتِّفاقُ الكلمةِ في القتال أساسٌ للنَّصر وباعثٌ على الاستبسالِ

فصلَ النَّظمُ الكريم قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾ عمّا قبلَه؛ لعلاقةِ شبه كمالِ الاتِّصال؛ إذ نجمَ من بيانِ كُره الله

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بني).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 432.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 382.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 287.

تعالى لقولٍ ووعدٍ بالقتال معَ عدمِ تصديقِه بالفعل والعملِ له سؤالٌ مُفادُه: وما الذي يُحبُّهُ اللّه تعالى؟ فأجابَ باللّازم؛ إذ يلزمُ من حُبِّ اللّه تعالى لوعدٍ بالجهاد، ويوافقُهُ العمل، أن يكونوا يدًا واحدةً في القتال، يشدُّ بعضُها بعضًا، قال ابنُ عاشور: "هذا جَوابٌ على تَمَنّيهم مَعرِفَةَ أَحَبِّ الأعمالِ إِلَى اللَّهِ"[1].

أو أنَّ الفصلَ لكمالِ الاتِّصال بينَ الجملتين؛ إذ تمارسُ هذه الجملة وظيفةَ البيان التَّخصيصيِّ لما فُهِم ضِمْنًا من محبَّةِ اللّه لقولٍ ووعدٍ يوافقُه العمل؛ بأنَّ ذلك الحُبَّ هو للثَّبات في المعركة، لمَن وعدَ بالقتال، ورغِبَ فيه، وليس للفرارِ منهُ، ولذا يرى الطَّيبيُّ أنَّ قوله: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾: "بساطٌ لهذا، كما يقولُ: (لا تفعلْ ما يُلصِقُ بك العارَ، لا تُشاتم زيدًا)؛ ليقعَ النَّهيُ مَرَّتينِ عامًّا وخاصًّا، فهو أَوْلى من النَّهيِ على الخصوصِ مرَّتينِ، فإنَّ ذلك تكرارٌ، وقلتُ: أراد أنَّه تخصيصٌ بعدَ تعميم"[2]، فهو بيانٌ: "لِما هو مَرضيٌّ عنده تعالى بعدَ بيانِ ما هو ممقوتٌ عندهُ"[3]، فالنَّهيُ العامُّ وردَ أوَّلًا، والمقصودُ اندراج هذا الخاصِّ فيه، وفائدةُ مثلِ هذا النَّظْم النَّهيُ عن الشَّيء الواحد مرَّتينِ، مُندرِجًا في العموم، ومُفرَدًا بالخصوص، وهو أَوْلى من النَّهي عنه على الخصوص مَرَّتينِ؛ فإنَّ ذلك معدودٌ في حيِّزِ التَّكرار، وهذا يتكرَّرُ مع ما في التَّعميم منَ التَّعظيمِ والتَّهويل[4].

العدولُ في الجواب:

لم يقُلِ النَّظمُ الكريمُ: (إنَّ اللّه يحبُّ أن تقولوا ما تفعلون) بعدَ أنْ بيَّن ما يكرَهُه اللّهُ، ويَمقُتُهُ، بل قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ بيانًا لطبيعةِ ذلك القول المَقوت، وهو الوعدُ بالقتال مع عدمِ الفعل، بل الفرارُ من المُقاتلة، فهو: "دليلٌ على أنَّ (المَقْتَ) قد تعلَّقَ بقولِ الَّذين وعَدوا الثَّباتَ في قتالِ الكفّار، فلم يَفوا"[5]، وصريحٌ في أنَّ ما قالوه عبارةٌ عن الوعدِ بالقتالِ، لا عمّا تقوَّلَهُ المتمدِّحُ، أو انتحلَهُ المُنتحِلُ، أوْ أعادَهُ المنافقُ، وأنَّ مناطَ التَّعيير والتَّوبيخِ هو إخلافُهم لا وعدُهم"[6]، ولذا أكَّدَ في الجوابِ على وحْدةِ الصَّفِّ، وعدمِ الفرار

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 176.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 381.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 243.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 217.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 523.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 243.

تحقيقُ المعنى الأصليِّ وزيادة، تفسيرٌ للمَقصِد وإفادة

من خلالِ تشبيه الثَّباتِ في المعركة بالبنيانِ المَرصوص، فقد حقَّقَ العدولُ عن ذلك المرادَ من إخلافِ الوعد الممقوتِ، معَ فهم الالتزام بالوعد؛ إذِ الأشياءُ تُعرَفُ بأضدادها، وبهذا فسَّرَ الجوابُ طبيعةَ الوعد المُخلَف، وعلَّل تلك الكراهةَ الشَّديدة بأنَّها وصلت إلى درجة الفرارِ منَ القِتال.

دلالةُ التَّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

تنزيلُ المخاطَبين منزلةَ المنكِرين بيانٌ للغَفْلةِ عن الحقِّ المُبين

أكَّد النَّظمُ الكريم الجملةَ الواردة في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على تأكيدِ نسبةِ الحبِّ والإرادةِ لذلك الصَّنيع؛ وإنَّما أكَّدَهُ مع عدم وجودِ شاكٍّ في ذلك أوْ مُنكِرٍ له؛ لأنَّ إخلافَ الوعدِ بالقتال معَ الفرار من المُجابَهة نزَّلتِ المُخاطَبينَ به منزلةَ مَن تردَّدَ في ذلك، أو شكَّ فيه؛ إذ عدمُ العمَل بالصَّواب مع اعتقادِ صحَّتِه وصدقِه، داعيةٌ للتَّنزيلِ، وإبرازٌ لشِدَّةِ النَّكير.

دلالةُ تقديمِ المسنَدِ إليه والتَّعبيرُ باسم الجَلالة:

حُبُّ الله تعالى لخَصلةٍ توجِبُ استعظامَ تلك الفِعلة

قدَّمَ النَّظمُ الكريم المسندَ إليه على الجملةِ الفعليَّة، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمام بمصدرِ المحبَّة ومَبدئِها، ممّا يتوجَّبُ على الجميع عندَ معرفتِه أن يكونوا مُحبّين لذلك أيضًا، كما حدثت تقويةٌ وتأكيدٌ لنسبةِ المحبَّة له تعالى[1]؛ ردًّا على الَّذين يقولونَ ما لا يفعلونَ، فإنَّهم خالفوا ما يُحبُّهُ اللّهُ تعالى لهم، وعَبَّر النَّظم الكريم عن الذّات الجليلةِ باسم العلَم ﴿ٱللَّهَ﴾ الدّالِّ بوضعِه على الذّاتِ المُستجمِعة لكلِّ الفضائل والكمالاتِ؛ ليكونَ بمنزلة البُرهان على أنَّ حُبَّه نابعٌ من مصدرِ كلِّ كَمال، فيكون حبُّهم كاملًا لذواتٍ اتَّصفت بالكَمالات.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ ﴿يُحِبُّ﴾:

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن اسمِ ﴿إِنَّ﴾ بالفعل المضارعِ المُسند

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/ 59.

حبُّ الله نُصرةٌ بشرطِ اتّحاد الكلمة

لضميره، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الحبَّ مُستمرٌّ ومتجدِّدٌ بتجدُّدِ المتَّصفين بالقول الموافِقِ للعمل، والجهادِ المُتَّحِدِ الكلمة حتَّى يتحقَّقَ الانتصارُ لهم، وذلك مقترنٌ بائتلافِهم ووحدتِهم ضِدَّ عدوِّهم، وثمَّة طباقٌ بينَ ﴿مَقۡتًا﴾ و﴿يُحِبُّ﴾، وهو طباق الفعلِ للاسم، وعبَّر عن (المقت) بالاسم ﴿مَقۡتًا﴾؛ للدَّلالةِ على الثُّبوتِ لهذا الكُره الشَّديد، وعن (الحبِّ) بالفعلِ ﴿يُحِبُّ﴾؛ دلالةً على التَّجدُّدِ والحُدوث، فيكون بينهما طباقُ الاسميَّة والفعليَّة أيضًا؛ للدَّلالة على شدَّةِ التَّباينِ بينَ الموقفين، تباينًا أدَّى إلى تغايرِ التَّعبير عنهما اسميَّةً وفعليَّةً.

دلالة اختيار لفظ ﴿يُحِبُّ﴾:

الله ناصرٌ المؤمنين، ومؤيِّدٌ لهم على الكافرين

استعملَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿يُحِبُّ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على النُّصرةِ والتَّأييد، قال ابن عطيَّة: "ومحبَّةُ اللّه تعالى: هي ما يظهَرُ عليهم من نَصْرِه وكَرامتِه، وهي صفةُ فعلٍ، وليست بمعنى الإرادة؛ لأنَّ الإرادة لا يصِحُّ أنْ يقعَ ما يخالفُها، ونحن نجدُ المقاتلين على غيرِ هذه الصِّفة كثيرًا"[1]، والغرضُ من التَّجوُّزِ الإشارةُ إلى عِلَّةِ النُّصرة، وهي الرِّضا عمّا يفعلُه المؤمنونَ المُجاهدونَ.

الإخبارُ بالجملةِ الفعليَّة:

تكرُّرُ الإسناد يقوّي الحُكم

اختارَ النَّظم الكريمُ الجملةَ الفعليَّة خبرًا عن اسم ﴿إِنَّ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ والحدوث[2]، مع التَّوكيدِ لذلك الحبِّ؛ إذ يلزم من هذا الإخبارِ تكرُّر الإسناد للذّاتِ الجليلةِ تارةً بالإسناد للفعلِ إلى الضَّمير، وتارةً أخرى بإسنادِ الجملة إلى اسمِها.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 302.

(2) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 113.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإجمالُ والتَّفصيل ممّا إليه النُّفوسُ تميل

عبَّر النَّظمُ الكريم عن الَّذين وقعَ عليهم الحُبُّ بالاسمِ الموصول، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على العموم معَ ما يُفيده الموصول من إبهام تعملُ الصِّلة على توضيحِه وبيانِه، فيكونُ من قبيل الإجمالِ المرفَق بتفصيلِه وإيضاحِه، ففيه تشويقٌ لسماعِ الكاشفِ عن موطنِ الإبهامِ فيه.

دلالةُ جملةِ الصِّلة: ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾:

تعليلُ الحُكم بالصِّلة دفعٌ للعملِ بتلك الخصلة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الفعليَّة صلةً، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ والحدوث والاستمرارِ، أي: يتكرَّرُ منهم القتالُ، ويتجدَّدُ حدوثُه ممّا يُؤدّي إلى تجدُّدِ الحُبِّ لهم ولعمَلِهم، مع الإيحاءِ إلى علَّةِ الحُكم بالحبِّ عليهم، وهو القتال؛ إذ تعليقُ الحُكم على جملةِ الصِّلة يشعرُ بعِلّيَّة المصدرِ له، وفيه تنبيهٌ إلى أثر القتالِ وأهمّيَّتِه في حياة النّاس من أجلِ إحقاقِ الحقِّ ومنعِ الظُّلم.

دلالةُ حذفِ المتعلِّق:

الفعلُ هو الأساس، والقولُ ساقطٌ عن القياس

حذفَ النَّظمُ الكريم متعلِّق الفعلِ ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾، في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾؛ للتَّركيز على القتال والاهتمام بالحدثِ؛ لأنَّهم يفعلونَ ما يقولونَ، بل الفعلُ هو الأساس، والقول ساقطٌ عن الاعتبارِ والقياس، أي: الذينَ يوجَدُ منهم القتالُ في سبيل اللّه، فهو من تنزيلِ المتعدّي منزلةَ اللّازم، ويمكنُ أن يكونَ باقيًا على التَّعدّي، وحَذْفُهُ لإرادةِ العموم، فيكون تقديرُهُ: (يقاتلونَ أعداءَ اللّه)[1].

دلالةُ حرفِ الظَّرفِ ﴿فِي﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريم حرفَ الظَّرفِ ﴿فِي﴾، في قولِه تعالى:

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 249.

ظرفيّةُ العِلّيّة حاصِرةٌ لكمالِ اللّمّيّة

﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعليلِ المُستغرِق المحيطِ بالمعلول، والتَّقديرُ: (يقاتلونَ لأجلِ اللّه)، فيكونُ الباعثُ لقتالِهم هو نيل رِضا اللّه تعالى وحدَه، وليس لأجلِ الغنائم والمجدِ والشُّهرة، وإنَّما عبَّر عن التَّعليلِ بحرفِ الظَّرف؛ ليُفيدَ استغراقَ الظَّرفِ وعِلّيَّتَه للمعلولِ الَّذي هو القتال؛ إذ هنالك فرقٌ ظاهرٌ بينَ: (قاتلتُ لك، وقاتلتُ فيك)، فالأوَّلُ: يدلُّ على التَّعليلِ فقط من دون حصرٍ، والثّاني: يدلُّ على أنَّ العِلَّة منحصرةٌ، وقد توغَّل في تلك العِلَّة حتّى أخذتْ عليه كلَّ جوانبِه، قال البقاعيُّ: "يوقِعونَ القتال ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾، أي: بسببِ تسهيلِ طريقِه الموصِلة إلى رِضاه إيقاعًا مظروفًا للسَّبيل، لا يكونُ شيءٌ منه كشيءٍ خارجٍ عنهُ"[(1)].

دلالةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ في (السَّبيل):

منهاجُ الإسلامِ موصِلٌ إلى دارِ السَّلام

استعملَ النَّظمُ الكريم لفظَ (السَّبيلِ)، في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ الموضوعِ للطَّريقِ المُذَلَّلِ الميسَّر، وقد استُعيرَ للدّين والمنهج والطَّريقة، فيكون قد شبَّه الدّينَ بالطَّريقِ، بجامعِ الإيصالِ في كلٍّ إلى الهدفِ المنشود، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والغرضُ منها بيانُ أنَّ الدّين نظامٌ حياتيٌّ، ووسيلةٌ يكونُ الهدف منه الوصولَ إلى سعادةِ الدُّنيا والآخرة، كما أنَّ الطَّريقَ المُذلَّلَ يوصِلُ إلى المقصِد بكلِّ يُسْرٍ ووُضوحٍ.

دلالةُ إضافةِ السَّبيلِ إلى الضَّمير:

نيّةُ المُقاتلةِ المرضيَّة سرٌّ لتحقيقِ السَّعادةِ الأبديَّة

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (السَّبيل) إلى ضميرِ الاسم الجليل، في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على تشخيصِ السَّبيل وتعيينِه[(2)]، والغرضُ من التَّشخيص: بيانُ أنَّ حُبَّ اللّهِ للمقاتَلة؛ لأنَّها في سبيلِه ودينِه ومنهاجِه ونظامِه ليس إلّا، وقد اكتسبَ المضافُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 8.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/ 126.

التَّشريفَ والكرامةَ من المضافِ إليه، ويكونُ الجارُّ والمجرور بإضافتِه تقييدًا للمقاتَلة؛ ممّا يفيدُ بمفهوم المخالفة أنَّ اللّه يكره القتالَ في غير سبيلِه، وقد أوحتِ الإضافةُ إلى أنَّ نيَّةَ المقاتلة لها دورٌ في تعليلِ المحبَّة، فيكون ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾ دالًّا على نيَّةٍ جازمةٍ تقصدُ وجهَ اللّه ونيلَ رِضاهُ.

دلالةُ الحالِ أو المفعولِ المطلقِ ﴿صَفًّا﴾:

النّيَّةُ السَّليمة، والوحدةُ القويمة، عِلّتان لإيجابِ الهَزيمة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالحال في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾؛ للدَّلالة على هيئةِ مُقاتلتِهم في سبيلِ اللّه، بأنْ يكونوا مُصطفّينَ صُفوفًا تجعلُهُم في عينِ العدوِّ وحدةً واحدةً، لا تَفرُّقَ فيها ولا تَشَرْذُمَ؛ إذ أصلُ الصَّفِّ: "جَعْلُ الشَّيءِ على خطٍّ مُستوٍ كالنّاس والأشجارِ"[1]، ممّا يدلُّ على وحدةِ الكلمةِ واتِّحادِ المقصِد، كما أفاد الحالُ صورةَ المقاتلين الظّاهريَّة المُنبئَةَ عن الوحدةِ المعنويَّة، وبذا تكون نيّتُهم صحيحةً؛ لأنَّهم في سبيل اللّه، وشكلُهم قويًّا؛ لأنَّهم في صفٍّ متكاتفٍ، والتَّعبير عن الحال بالمصدرِ؛ للدَّلالة على المبالغة، فهو "مصدرٌ وقعَ موقعَ الحال"[2]، فيكونُ المقاتِلون كأنَّهم الصَّفُّ بكمالِه، أي: "حتّى كأنَّهم في اتِّحاد المُرادِ على قلبٍ واحدٍ، كما كانوا في التَّساوي في الاصطفافِ كالبدَنِ الواحدِ"[3]، ولا يبعُدُ أن يكون النَّظمُ الكريم مُشتمِلًا على التَّشبيه البليغ الذي حُذِفَت منه أداةُ التَّشبيه، والتَّقدير: (المقاتلونَ كالصَّفِّ)؛ للدَّلالة على وحدةِ الكلمة والجدارِ المترابط المتينِ، وتُرشِّحُ إرادةَ التَّشبيهِ الدَّلالةُ التَّشبيهيَّةُ الصَّريحةُ بالبُنيانِ المَرصوصِ، وجعل الإمامُ الواحديُّ ﴿صَفًّا﴾ مفعولًا مطلقًا، والتَّقدير: (يصُفّونَ صفًّا)[4]، قال السَّمين: "يحتملُ

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 343.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 475.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 8.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 432.

أن يكونَ مَصدرًا، وأنْ يكونَ بمعنى الصّافّينَ، ومعنى المصدريَّةِ أنْ يتناولَ الفعلُ قبلَهُ بِهِ، كأنَّه قيلَ: (يصطفّونَ في القتالِ صفًّا)"[1].

عدمُ دلالةِ ﴿صَفّٗا﴾ على التَّخصيص:

أثرُ الفهمِ الظّاهرِ في عدمِ الوصولِ للعُمقِ الزّاخرِ

استدلَّ بعضُهم في استعمالِ لفظ ﴿صَفّٗا﴾، على مدحِ المقاتلين الرّاجلينَ مقارنةً بالمبارِزينَ الرّاكبينَ في قوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾، وفنَّد الماتريديُّ هذا التَّصوُّرَ بقوله: "ليس فيه أنَّ اللّه تعالى لا يحبُّ المُبارِزَ؛ لأنَّ الجهاد والقتال على المبارِز أشدُّ، وذلك أنَّه إذا كان في الصَّفِّ أعانَهُ على القتال غيرُه؛ فكان أمنُهُ على نفسه في الصَّفِّ أكثرَ، وأمّا المبارِزُ؛ فإنَّه وحدَهُ ليس له مُعين؛ فإن ظفرَ على صاحبِه وإلّا هلك، والخوفُ عليه في ذلك أشدُّ، فيجب أن تكون المحنة فيه أكثرَ، ولكنَّه يجوز أنْ يكونَ اللّه تعالى علَّمَهم بهذه الآية كيفيَّةَ القتال؛ ليستعينَ بعضُهم ببعض، ولتكون كلمتُهم واحدةً؛ لأنَّهم إذا تفرَّقوا؛ اختلفت آراؤُهم، فيُخشى عليهم الهزيمةُ والإدبار، وإذا كانت آراؤُهم متَّفقةً، وكلمتُهم واحدةً، وشوكتُهم واحدة، فذلك قوَّةٌ في القتالِ وزيادة نُصرة"[2].

المصدرُ ﴿صَفّٗا﴾ بين الفاعليَّة والمفعوليَّة:

اتِّحادُ الصَّفِّ ثباتٌ على الهدف

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالمصدرِ في قوله تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾، فإنْ كان ﴿صَفّٗا﴾ مفعولًا مطلقًا؛ فهو باقٍ على المصدريَّة بلا تأويلٍ، وإن كان حالًا؛ فهو إمّا بمعنى اسم الفاعل، أي: صافّينَ أنفسَهم، وإمّا بمعنى اسم المفعول، أي: مَصفوفينَ، وكونُهم صافّينَ أنفسَهم دالٌّ على اتِّحادِ كلمتِهم وسَعْيِهم في الثَّباتِ على حالةٍ قويَّة، ولذا قال الهرريُّ: "مصدرٌ وقعَ موقعَ الفاعلِ أوِ المفعول، ونصبُهُ على الحاليَّة من فاعلِ ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾، أي: حالَ كونِهم صافّينَ أنفسَهم أو

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 343.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 629.

مَصفوفين، أو منصوبٌ على المصدريَّةِ بعاملٍ محذوفٍ، والمفعولُ محذوفٌ، أي: يَصفّونَ أنفسَهم صَفًّا"[1].

دلالةُ الكنايةِ في ﴿صَفًّا﴾:

الانتظامُ والتَّدبُّر تحقيقٌ للنَّصر المؤزَّر

كنَّى البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿صَفًّا﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ "عَنِ الانتِظامِ والمُقاتَلَةِ عَن تَدَبُّرٍ، وأمّا حَرَكاتُ القِتالِ؛ فَتَعْرِضُ بِحَسَبِ مَصالِحِ الحَرْبِ، في اجتماعٍ وتَفرُّقٍ وكَرٍّ وفَرٍّ؛ إذ أصلُ الصَّفِّ عَدَدٌ من أشياءَ مُتَجانِبَةٍ مُنْتَظِمَةِ الأماكِنِ، فَيُطْلَقُ على صَفِّ المُصَلّينَ، وصَفِّ المَلائِكَةِ، وصَفِّ الجَيْشِ في مَيْدانِ القِتالِ بِالجَيْشِ، إذا حَضَرَ القِتالُ؛ كانَ صَفًّا مِن رَجّالَةٍ أو فُرْسانٍ، ثُمَّ يَقَعُ تَقَدُّمُ بَعضِهِم إلى بَعضٍ فُرادَى أو زرافاتٍ"[2].

دلالةُ (كأنَّ) التَّشبيهيَّة:

صفوفُ المؤمنين ثابتةٌ لا تتزلزلُ بضرَباتِ المعتدين

استعملَ النَّظمُ الكريم أداةَ التَّشبيه (كأنَّ)، في قولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٌ مَّرۡصُوصٌ﴾؛ للدَّلالة على تشبيه هيئتِهم الصَّفّيَّة واصطفافِهم للقتال، بالبُنيانِ المَرصوص معَ توكيدٍ في النِّسبةِ التَّشبيهيَّة، فهُم بُنيانٌ لا يهربونَ، كما أنَّ البنيانَ لا يتحرَّكُ مِن مكانه، ولا يوجدُ في صفِّهم فراغٌ ينفُذُ العدوُّ منه، كما أنَّ البنيان قد تراصَّتْ أجزاؤه، وتلاحمَتْ مكوِّناتُه تلاحُمًا حسّيًّا ومعنويًّا، ولذا قال الإمام الواحديُّ: "مَن يثبتُ في الجهاد في سبيله يلزمُ مكانَهُ كثبوتِ البناءِ المرصوص، ويجوزُ على أنْ تستويَ نيّاتُهم في حربِ عدوٍّ؛ حتّى يكونوا في اجتماعِ الكلمة وموالاةِ بعضِهم بعضًا كالبنيان المَرصوص، فالأوَّلُ على التَّشبيه به في رأي العَين، والثّاني على التَّشبيه من حيثُ التَّضافرُ كالبنيان يشدُّ بعضُهُ بَعْضًا"[3].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 249.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 176.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 433.

الموقع الإعرابيّ لـ ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ﴾:

تكرُّرُ الحال بيانٌ لهيئةِ أهلِ القتال

لمّا كان الرّاجحُ في ﴿صَفّٗا﴾ الحاليَّةَ؛ ذهبَ الزَّمخشريُّ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ﴾، إلى أنّها من الحالِ المُتداخلة، فقال: حالانِ مُتداخلتانِ، أي: إنَّ الحالَ الثّانية وقعتْ جزاءً من الحالِ الأولى؛ لأنَّ معنى ﴿صَفّٗا﴾: مُصطّفين، وفيه ضميرُهُ، وقوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ﴾ حالٌ من الضَّمير المذكور، فالحالُ الثّانيةُ داخلةٌ في الأولى، وهي كقوله: ﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [الأنبياء: 2 - 3]؛ إذ المشبَّهُ به في الحقيقة بيانٌ للمشبَّه ووصفٌ له"[1]، فلمّا كانَ الاصطفافُ يصدقُ مع التَّقدُّم والتَّأخُّرِ اليسيرِ؛ نفَى ذلك بقولِه حالًا بعدَ حالٍ: ﴿كَأَنَّهُم﴾"[2]، وأوضحَ القونويُّ وجهَ التَّقييدِ بالحاليَّة، والتَّداخُلَ فيها، والاختلافَ بينَ الحالينِ إفرادًا وجملةً، فقال: "حالٌ من المُستكِنِّ؛ إذ كونُهم مُصطفِّينَ أعمَّ، فقُيِّدَ بالتَّراصِّ، والحالُ الأولى مشتملةٌ على الثّانية، فوُجِدَ معنى التَّداخُلِ فيها، والمشبَّهُ المقاتلونَ بقيدِ الاصطفافِ، والمُشبَّه به المقاتلونَ أيضًا بقيد التَّراصِّ، فظهرَ وجهُ التَّقديم، ووجهُ كونِ الأولى مُفردةً والثّانيةِ جملةً"[3]، وقال الحوفيُّ: "﴿كَأَنَّهُم﴾ في موضِعِ النَّعت لـ ﴿صَفّٗا﴾"[4].

دلالةُ الضَّمير في ﴿كَأَنَّهُم﴾:

الضَّميرُ العائدُ للذّات يتحلَّى بجميعِ الصِّفات

استعملَ النَّظمُ الكريم ضميرَ الغَيبةِ مشبَّهًا، في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾؛ للدَّلالةِ على ذواتِ المقاتلينَ المُعلَّلِ قتالُهم بنيلِ رِضا اللّه تعالى، وبكونِهم مُصطفّينَ اصطفافًا مَتينًا مُترابطًا مُحكَمًا، فالضَّميرُ وإنْ دلَّ على الذَّواتِ إلّا أنَّه يعود إليها بكلِّ ما تحملُهُ من صفاتٍ حتّى يتحقَّقَ التَّشبيهُ بينَ المُشبَّه والمُشبَّه به،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 383.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 8.
(3) حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 68.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 249.

فكأنَّهم "من شِدَّةِ التَّراصِّ والمُساواة بالصُّدور والمَناكِب والثَّباتِ في المراكز بنيانٌ"[1].

دلالةُ الخبرِ ﴿بُنۡيَٰنٞ﴾:

البناءُ صامِدٌ أمامَ السَّيلِ الجارف والرّيحِ العاصِف

عبَّرَ النَّظمُ الكريم عن المشبَّه به بلفظ (البُنيانِ)، في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾؛ للدَّلالة على البناءِ الثّابتِ الَّذي لا يتحرَّك، "والمعنى: حالَ كونِهم مُشبَّهينَ في تراصِّهم من غير فُرجةٍ ولا خللٍ، ببنيان رُصَّ بعضُهُ إلى بعض، ورُصِفَ حتّى صارَ شيئًا واحدًا"[2]؛ إذِ العيشُ في البنيان غيرُ الحياةِ في الخيام، فهو يصمُدُ أمامَ السَّيلِ الجارف، والهواءِ العاصِف، فيكون دالًّا على الثَّباتِ والاستقرار والصُّمود، ويُضفي على المشبَّه دلالةَ الصَّفِّ الصّامدِ، الَّذي لا يتزلزلُ أمامَ ضرباتِ المُعتدين، فهُم إنْ ضَرَبوا الصُّفوف؛ فكأنَّهم يضربونَ البناءَ الثّابتَ الذي لا يَتزلزلُ، قال الماتريديُّ في بيانِ دلالة التَّشبيه: "ضُربَ هذا المَثل للثَّبات، يعني: إذا اصطفّوا؛ ثَبَتوا كالبنيانِ المرصوص، الَّذي يكون ثابتًا مُستقرًّا لا ينتقضُ بأدنى شيء، ومنهم مَن قال: ضُرِبَ هذا المثل؛ لأن تكونَ كلمتُهم واحدةً، ويُعين بعضُهم بعضًا، ويشبه أنْ يكونَ للأمرينِ جميعًا؛ لأنَّهم إذا ثبَتوا؛ أعانَ بعضُهم بعضًا، وكانت كلمتُهم واحدةً، وإذا كانت كلمتُهم واحدةً؛ كان ذلك أدعى إلى الثَّباتِ وأقربَ إليه؛ فلذلك قلنا: إنَّه يجوزُ أنْ يكونَ للأمرينِ جميعًا"[3].

دلالةُ الصِّفةِ ﴿مَّرۡصُوصٞ﴾:

الصَّفُّ لا يتزلزَلُ، ولا ينفُذُ منه عدوٌّ، فيَتخلخَلُ

وصفَ النَّظمُ الكريمُ المشبَّهَ به في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾؛ للدَّلالة على حالةِ التَّلاحُم بينَ أجزاءِ البُنيان، فلا فجوةَ فيه ولا منفذَ لدخولِ شيءٍ فيه، فهو: "لاصقٌ بعضُه ببعض، قد أُحكِم،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 8.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 250.

(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 629.

فليس فيه فُرجةٌ ولا خلَلٌ"[1]، ويُضفي على المشبَّه صفة التَّلاحُم والتَّماسكِ بينَ أفراد صفوفِ المقاتلينَ، حتّى يبدوَ اجتماعُهُم لا يتزلزلُ، ومُتماسِكًا بحيثُ لا ينفذُ عدوٌّ إليه، ولا يستطيعُ اختراقَهُ، فيتخَلخَل، والتَّشبيهُ بأكملِه كنايةٌ عن جيشٍ ثابتٍ لا يهربُ، ولا يَفِرُّ، وقوَّةٍ مُتماسِكةٍ لا ينفُذُ لساحتِها عدوٌّ، قال ابنُ عاشور: "والتَّشبيهُ في الثَّباتِ وعَدَمِ الانفِلاتِ، وهو الَّذي اقتَضاهُ التَّوْبيخُ السّابِقُ، في قَولِهِ: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحُبُّ والإرادة:

الحُبُّ أخصُّ مُطلقًا من الإرادة

لا يلزمُ من الحُبِّ للشَّيءِ إرادتُهُ، فقد يُحِبُّ الإنسانُ شيئًا، ولا يُريدُهُ؛ إذِ المحبَّةُ ميلٌ قلبيٌّ، والإرادةُ ترجيحٌ لأحدِ طَرَفَي المُمكن، وقد نُحبُّ قضاءَ العطلة بلا درسٍ ولا تعبٍ، لكنَّ إرادتَنا لا تتعلَّقُ بترجيح جهةِ ما نُحِبُّ، والمولى تعالى يحبُّ لعباده الإيمانَ، ولكنْ لا يُريدُهُ لبعضٍ منهم، وهي في حقِّ اللّه تعالى صفةُ فعلٍ.

القتال والجهاد:

القتالُ أخصُّ منَ الجِهاد من وجهٍ

القتالُ مشتقٌّ من القتل، ويكونُ دالًّا على النِّزاعِ بينَ اثنينِ أو جماعتينِ، حتّى يؤدّي إلى إزهاق الرّوح بآلاتٍ معيَّنة، وأمّا الجهاد؛ فهو من الجَهْد والطّاقة، ويُستعمَلُ بمعنى القتالِ في سبيل اللّه، كما يُستعمَلُ في مُجاهدةِ النَّفس على أهوائِها ومُجاهدة الرَّغبة في المعاصي بأفعالِ الطّاعات، كما أنَّ القتالَ قد يكونُ في سبيل اللّه، وقد يكونُ في سبيلِ المَجد والتَّوسُّعِ والغِنى، في حين أنَّ الجهادَ لا يكون إلّا في سبيل اللّه، فبينَ الجهاد والقتالِ تلاقٍ من وجهٍ وافتراقٌ من وجهٍ.

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 39.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 176.

الصَّفُّ والجَماعة:

الصَّفُّ أخصُّ من الجماعةِ مُطلقًا

الصَّفُّ من الاصطفافِ والتَّوالي بينَ الجَماعات، نقولُ: (جاءَ القومُ صفًّا صفًّا)، أي: جماعاتٍ متتابعةً بعضُها خلفَ بعضٍ، فالصَّفُّ: هم الجماعةُ المُستوونَ، وأمّا الجماعةُ فمِنَ الجمعِ، وقد يكونونَ مُتساويينَ أو غيرَ مُتساويين، ومن ثَمَّ فإنَّ كلَّ صفٍّ جماعةٌ، ولا ينعكِسُ كلّيًّا.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾ [الصّف: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تسليةُ النّبيِّ الكريم بما جَرَى للأنبياءِ السّابقين

لمّا ذكرَ النَّظم الكريمُ مقتَ اللّه تعالى للَّذين يقولونَ ما لا يفعلون، وكان مقتُ اللّه ذلك لِما فيه منَ الإيذاءِ لرسولِه الكريم ﷺ؛ إذ وعَدوهُ بعدمِ الفِرار من الجهاد، والثَّباتِ معَهُ في أرضِ القتال، وأخلَفوا الوعد، وآذاهُ ذلك إيذاءً بالغًا؛ أرادَ المَولى تعالى تسليَةَ النَّبيِّ ﷺ بما وقعَ لموسى عليه السلام من إيذاءٍ، فصبرَ على فِسقهم، وأوكلَ الأمرَ إلى اللّه تعالى، ولذا قالَ أبو حيّان: "ولَمّا كانَ في المُؤمنينَ مَن يَقولُ ما لا يَفعَلُ، وهو راجعٌ إلى الكَذبِ؛ فَإنَّ ذَلِكَ في مَعْنَى الإذايَةِ لِلرَّسولِ عليه السلام؛ إذ كانَ في أتْباعِه مَنْ عانَى الكَذِبَ، فَناسَبَ ذِكْرُ قِصَّةِ موسَى وقولِه لِقَومِه: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾"[1]، في حينِ رأى الطِّيبيُّ: "أنَّ اللّه تعالى لمّا وبَّخ المؤمنين الَّذين ما وفَوا بما عاهدوا، وأخلفوا المواعيدَ تمهيدًا وبساطًا، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾ حتّى يكونوا في اجتماعِ الكلمة كالبنيان المرصوصِ في القتال؛ حذَّرَهم ممّا لقي قومُ موسى من إزاغة القلوب، والحِرمانِ من التَّوفيقِ بسبب الأذى، وممّا ارتكب قومُ عيسى بعدَ مجيئه بالبيِّنات، من تكذيبه وقولِهم فيه: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصف: 6]، ألا ترى كيفَ جمعَ الكلَّ في قوله: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾، أي: قضيَّة الدَّعوة إلى الإسلام توقيرُ مَن يدعو إليه، وتوقيرُ حُرمته، وإجابةُ دعوته، والتَّفادي عن إخلاف المواعيد، وعمّا يُؤذيه من القول

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 165.

والفعل؟"[1]، وقيل: "لمّا ذكر سُبحانه أنَّه يحبُّ المقاتلينَ في سبيله؛ أرادَ أن يُبيّنَ أنَّ (موسى وعيسى) عليهما السلام أُمِرا بالتَّوحيد، وجاهدا في سبيلِ اللّه، وحلَّ العقابُ بمَن خالفَهما"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُؤْذُونَنِي﴾: أذيَ الشَّيءُ أذًى، من بابِ تَعِبَ[3]، ويُعدّى بالهمزةِ، فيقالُ: آذيتُهُ بالإيذاء، والأذيَّةُ اسمٌ منه، فتأذّى[4]، والأذى: ما يصلُ إلى الحيوانِ منَ الضَّررِ؛ إمّا في نفسِه أو جسمِه، أو تبعاتِه دنيويًّا كانَ أو أُخرويًّا، والأصلُ في هذه المادَّة هو ما يتكرَّهُ، وما لا يلائمُ، فالإيذاءُ إيصالُ ما يَكرَهُهُ، والتَّأذّي: الحالةُ الحاصلةُ من وصولِ المكروه واختيارِه، وكذلك الأذى مصدرًا كالتَّعَب[5]، والمرادُ به في الآيةِ: الإيذاءُ بالتَّكذيبِ، والاتِّهامُ لعيسى بالسِّحر، واتِّهام أُمِّه بالزّنى.

2) ﴿زَاغُوٓاْ﴾: أصلٌ يدلُّ على ميلِ الشَّيءِ، يقالُ: زاغَ يَزيغُ زَيغًا، وزاغتِ الشَّمس، وذلك إذا مالَتْ، وفاءَ الفيءُ، والزَّيغُ: الميلُ عن الاستقامة، ورجلٌ زائغٌ، وقومٌ زاغةٌ وزائغونَ[6]، والمرادُ به في الآيةِ: الميلُ عن الحقِّ، والانحرافُ عن الهدفِ الصَّحيح، والضَّلالُ عنِ الدَّعوة النّافعة.

المَعنى الإجماليُّ:

مِنْ شأنِ الرُّسُل التَّوقيرُ والتَّعظيم، دونَ الإيذاءِ والتَّجريم

واذكُرْ يا محمَّد صلى الله عليه وآله إذ قالَ موسى لِقَوْمِهِ: لِمَ توصِلونَ الأذى إليَّ، وأنتم تعلمونَ صِدقي فيما جئتُكُم به من الرِّسالة، وقضيَّةُ علمِكم بذلك توقيري وتعظيمي، لا أنْ تؤذوني، فَلَمّا مالوا عن الحقِّ؛ أمالَ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 385.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 250.
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (أذي).
(4) الخليل، العين: (أذي).
(5) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 1/ 59.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زيغ).

اللّهُ قلوبَهم عن الهداية، وأسكَنَها الشَّكَّ والحيرةَ والخِذلان، واللّهُ لا يَهْدي مَن سَبَقَ في علمِه أنَّه فاسقٌ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواوِ في ﴿وَإِذۡ﴾:

إيــرادُ الـكـلام بـصـورة الاسـتـقـلال؛ لـيـكـونَ أنـفـعَ لـلـتَّـذكـيرِ والاستدلال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على الاستئنافِ والابتداءِ للكلام بجَعْلِه مُستقلًّا عمّا قبلَهُ؛ للتَّركيزِ عليه وإعطائِه اهتمامًا واسِعًا؛ إذ كان الإخلافُ بالوعد مُؤذيًا للرَّسول ﷺ، فأرادَ بالاستئناف تذكيرَ النَّبيِّ ﷺ بما جرى للأنبياءِ السّابقين ﵈ من إيذاءٍ شديدٍ، فصبَروا على ما أوذوا، وعليك أيُّها النَّبيُّ الكريم الاقتداءَ بهم، فالاستئنافُ يُعطي اعتناءً بالدَّليلِ والحُجَّة، فهو: "مُستأنَفٌ مُقرِّرٌ لما قبلَه من شناعةِ تركِ القتال"[2]، في حين ذهب ابن عاشور إلى أنَّ (الواو)؛ لعطفِ القصَّة على القصَّة أو عطفِ الجُمَل، فقال: "يَجوزُ أن تَكونَ الجُملَةُ مُعترِضَةً استِئنافًا ابتِدائيًّا، انتُقِلَ به مِنَ النَّهْيِ عَن عَدَمِ الوفاءِ بما وعَدوا اللّهَ عليه إلَى التَّعْريضِ بِقَومٍ آذَوا النَّبيَّ ﷺ بالقَوْلِ أو بالعِصيانِ أو نَحْوِ ذَلِكَ، فَيَكونُ الكَلامُ موجَّهًا إلَى المُنافِقينَ، وعلى هَذا الوجْه فَهو اقتِضابٌ، نُقِلَ به الكَلامُ مِنَ الغَرَضِ الَّذي قَبلَهُ لِتَمامه إلَى هَذا الغَرَضِ، والواوُ على هَذا الوجْه عَطْفُ غَرَضٍ على غَرَضٍ، وهو المُسَمَّى بِعَطْفِ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن تَتِمَّةِ الكَلامِ الَّذي قَبْلَها، ضَرَبَ اللّهُ مَثَلًا لِلمُسلِمينَ لِتَحْذيرِهم مِن إتيانِ ما يُؤْذي رَسوله ﷺ، ويَسوؤُه مِنَ الخُروجِ عَن جادَّةِ الكَمالِ الدّينيِّ، مِثْلِ عَدَمِ الوفاءِ بِوعدِهِم في الإتيانِ بِأحَبِّ الأعْمالِ إلى اللّه تعالى، وأشفَقَهُم من أن يَكونَ

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 8/ 108.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 250.

ذَلِكَ سَبَبًا لِلزَّيغِ والضَّلالِ، كَما حَدَثَ لِقَومِ موسَى؛ لَمّا آذَوهُ، والواوُ على هَذا الوجْه عَطْفُ تَحْذيرٍ"[1].

دلالةُ الظَّرفِ (إذ):

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ (إذ) الظَّرفيَّة، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ المتعلِّق المحذوفِ - كـ (اذكر) مثلًا - بالزَّمن الماضي، فهو: "منصوبٌ على المفعوليَّةِ بمضمَرٍ خوطِب به ﷺ بطريقِ التَّلوين، أي: اذكُر لهؤلاء المؤمنينَ المتقاعدينَ عن القتال وقتَ قولِ موسى عليه السلام لبني إسرائيلَ حين ندبَهم إلى قتالِ الجبابرة بقولِه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ۝٢١﴾ [المائدة: 21]، فلم يَمتثلوا بأمره؛ إذ قالوا له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ۝٢٢﴾ [المائدة: 22]، إلى قوله: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ۝٢٤﴾ [المائدة: 24]، وأصرّوا على ذلك، وآذَوه عليه السلام كلَّ الأذيَّة"[2]، أو منصوبٌ بـ﴿قَالَ﴾، ولذا قال الزَّمخشريُّ: "أَوَ: وحينَ قالَ لهم ما قالَ كانَ كذا وكذا"[3]، وأفادَ التَّقييدُ للذِّكرِ اللِّسانيِّ والقلبيِّ بالظَّرف الماضي أهمّيَّةَ نظرِ الدُّعاة فيما جَرى للسّابقين من مشاقَّ وآلامٍ في طريقِ التَّبليغ والإرشاد، فالرُّجوعُ للماضي من أجلِ الصَّبْرِ على آلامِ الحاضِر وإيذاءِ المُستقبل.

دروسُ الماضي عِبَرٌ للحاضِر والمُستقبل

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿قَالَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ القولِ وصُدوره منه؛ إذِ الماضي يدلُّ على القطعِ بالحصول، كما أفادتْ مادَّةُ القولِ اللُّغةَ اللَّيِّنة، والخطاب الجميلَ، والحوارَ المزوجَ بسَلامةِ النِّيَّةِ والمَقصد.

لغةُ الأنبياء الكِرام تتَّسِمُ بالرَّحمة والإفهام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 178.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 251.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 524.

نُكْتَةُ التَّصريحِ باسمِ العلَم ﴿مُوسَىٰ﴾:

إخلافُ الوُعودِ مِنَ الفِسْقِ والجُحود

صرَّحَ النَّظمُ الكريم باسمِ أحدِ الرُّسُل والأنبياء، الَّذين تعرَّضوا للإيذاء، وهو ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على تعرُّض هذا النَّبيِّ الكريم لنوعِ الإيذاءِ المذكور نفسِه في النَّظم، وهو الوعدُ له بالثَّباتِ معَهُ والصَّبرِ على ما يُلاقيه في دعوتِه، ثمَّ التَّخلّي عنه والفرارِ أمامَه؛ إذ قالوا له: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]، وهذا القولُ إيذاءٌ شديدٌ، وتخلٍّ كبير، فصبرَ على ظُلمِهم حتَّى فرَّق اللّهُ بينَهُ وبينَهُم، وفي ذلك وعيدٌ شديدٌ للمخاطَبين حتّى لا يجري عليهم ما جَرَى على السّابقين من تعذيبٍ وتعنيفٍ.

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لِقَوۡمِهِۦ﴾:

حرصُ الأنبياء على نُصحِ الصُّلحاءِ والأشقياء

استعملَ النَّظمُ الكريم (لام) الجرِّ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّبليغِ للمقولِ وإيصالِه لهُم، وتفيدُ (اللّامُ) إيثارَ موسى عليه السلام قومَهُ بالقولِ؛ حُبًّا لهم ورَغبةً في نُصحِهم وإرشادِهم، فالقولُ وُجِّهَ لهم ولأجلِهم، وانتهى إلى آذانِهم.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿لِقَوۡمِهِۦ﴾:

عمقُ الارتباطِ سببٌ للالتزام والانضباط

أضافَ النَّظمُ الكريم (القومَ) إلى ضميرِ (موسى) عليه السلام، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على عُمقِ الارتباطِ بقومِه، وشديدِ محبَّتِه لهم، فهو يُذكِّرُهم بأنَّهم قومُهُ، وهو حريصٌ على هدايتِهم ونفعِهم، فاللّائقُ بهم التَّوقيرُ دونَ الإيذاءِ.

دلالةُ حرفِ النِّداءِ في ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

نداءُ المُخاطَبين يدلُّ على الاهتمامِ بالمَقولِ المتين

عبَّر النَّظمُ الكريم بأسلوبِ النِّداء الواقعِ مقولَ القولِ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمامِ بالمخاطَبين، "والاستعطافِ لهم والاستنهاضِ إلى رضا ربِّهم"[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 10.

و"أصلُه (يا قومي)، ولذا كُسِرت الميمُ، ولولا تقديرُ (الياء)؛ لقيل: (يا قومُ) بالضَّمِّ؛ لأنَّه يكون حينَئذٍ مفردًا معرفةً، وهو نداءُ رفقٍ وشفقةٍ، كما هو شأنُ الأنبياء ومَن يليهم"[1]؛ فيعمَدُ المُنادي إلى تنبيهِهم ولفتِ انتباهِهم إليه، حتّى يَلتفتوا إلى ما يطلبُهُ منهم بجُملة النِّداء، كما يشيرُ أسلوبُ النِّداء إلى أنَّ هذا الأمرَ الَّذي يُتحدَّثُ عنه جديرٌ بالاهتمام والإصغاء، واستعملَ حرفَ النِّداء (يا) التي للبعيد؛ إشارةً إلى أنَّهم كانوا بعيدينَ عنهُ في الإصغاء والقَبولِ معَ المُسارعة إلى التَّكذيبِ والإيذاء.

دلالةُ المُنادَى المُضاف (قومِ):

انتسابُ النَّبيِّ لقومِه مَدعاةٌ لتصديقِه ومُساعدَتِه

عبَّر النَّظمُ الكريم بالمُنادى مُضافًا إلى (ياء) المتكلِّم المحذوفةِ، في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾؛ للدَّلالة على التَّذكيرِ بالحقوق الَّتي بينهم، فهم قومُهُ، ويَنتمي إليهم، واللّائق بهم الإذعانُ والإصغاءُ والعملُ بما يطلبُهُ منهم، فكيف إنْ كانوا يتعمَّدونَ إيذاءَهُ وإهانته، فهو توجيهٌ لما يَنبغي عليهم عملُه من كونِه منسوبًا لهم ومُرتبطًا بجماعتهم، ولذا قال ابن عاشور: "وابتِداءُ كَلامِ موسَى عليه السلام بِـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تَعريضٌ بِأنَّ شَأۡنَ قَوۡمِ الرَّسولِ أن يُطيعوهُ، بَلَهَ ألّا يُؤۡذوهُ، فَفي النِّداءِ بِوصۡفِ (قَوۡم) تمهيدٌ لِلإنكارِ، في قَولِهِ: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾"[2].

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لِمَ﴾:

تعليلُ فعلِ الإيذاء كنايةٌ عن افتقادِهم السَّببَ بالإيماء

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ(لامِ الجرِّ) في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾؛ للدَّلالة على التَّعليلِ، أي: لأجلِ أيِّ أمرٍ مهمٍّ تتركونَ مُساعدتي، وتقومونَ بإيذائي؟ وفي هذا التَّعليلِ للإيذاءِ دعوةٌ للتَّفكيرِ في الغرضِ من التَّكذيب والباعثِ على الإيذاء، وكأنَّه لا يجدُ لهم سببًا واضحًا لذلك الصَّنيع سِوى الظُّلم والفِسق والاستكبار.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 251.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 178.

دلالةُ اسمِ الاستفهام (ما):

الإنكار بالاستفهام كناية عن جَهالةٍ في العقولِ والأفهام

استعملَ النَّظمُ الكريم (ما) الاستفهاميَّةَ، في قولِه تعالى: ﴿يَقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾؛ للدَّلالة على الاستفهام عن السَّبب الباعثِ للإيذاء، وأبهمَ المستفهَمَ عنه؛ للدَّلالةِ على تنزيلِ نفسِه المنكرة عليهم، منزلةَ مَن لا يعلمُ السَّببَ الباعثَ على الإيذاء، فيكونُ الغرضُ من الاستفهام الإنكارَ لوجودِ سببٍ حقيقيٍّ وصحيحٍ يدفعُهم إلى الإيذاء، قال الطِّيبيُّ: فهو "إنكارٌ لمُطلَقِ الإيذاء، فيصحُّ حملُه على الإيذاءِ في الدِّين وفي النَّفس"[1]، وإنَّما عبَّر عن الإنكار بالاستفهام لأجل ذلك التَّنزيل، الَّذي يجعلُ المنكرَ له كالجاهلِ؛ بسببِ ذلك الأمر المنكَر؛ لغرابةِ صُدوره بلا سببٍ مُقنعٍ، فيكون أعمقَ في الإنكار، وأبلغَ في التحذير من تلك الخَصلةِ الشَّنيعةِ السَّيّئة؛ إذ يلزمُ من الإنكارِ التَّحذيرُ كنايةً، ولذا قال ابنُ عاشور: "والاستِفهامُ لِلإنكارِ، أي: إنكارِ أن يَكونَ لِلإذايَةِ سَبَبٌ"[2].

سرُّ التَّعبير بالجملةِ الفعليَّة المُضارعيَّة ﴿تُؤۡذُونَنِي﴾:

اتِّفاقُهم على الإيذاءِ المُستمرِّ جحودٌ قويٌّ مُنهمِر

عبَّر النَّظم الكريم عن الحَدَثِ المستفهَم عن سرِّ صدوره بالفعلِ المضارعِ، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الحدث واقعٌ منهم على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرار، فهم لا ينفكّونَ عن إيذائه نفسيًّا وكلاميًّا بسبب عدم صَبْرهم وسُرعةِ مُخالفتهم وعُنفِ خِطابهم، فالإيذاء هنا نفسيٌّ وشعوريٌّ، وأسندَ الإيذاء إلى القوم جميعًا؛ للدَّلالة على توافُقِهم واتِّفاقِ كلمتِهم على ذلك، كما شخَّصَ نفسَه بـ(ياء) المتكلِّم بيانًا لانفراده بالإيذاء؛ وتصويرًا لشدَّةِ حالتِه، فيكون ذلك التَّشخيصُ أكثرَ تسليَةً للنَّبيِّ ﷺ، قال ابن كثير: "وفي هَذا تَسليَةٌ لِرَسولِ اللَّه ﷺ، فيما أصابَه مِنَ الكُفّارِ من قَومِه وغَيرِهم، وأمرٌ لَهُ بِالصَّبرِ"[3].

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 384.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 178.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 109.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَقَد﴾:

تقييدُ الإنكار بالحال يفيدُ التَّعجُّبَ من سوءِ الفِعال

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على الحال، فهي: "جملةٌ حاليَّةٌ مؤكِّدةٌ لإنكارِ الأذيَّة ونفيِ سَبَبِها"[1]، أي: لِمَ يصدُرُ منكم الإيذاءُ، وأنتم عندَكم علْمٌ بأنّي رسولُ اللّه إليكم، فيكونُ الإنكارُ والتَّحذيرُ المفهومانِ من الاستفهام مَصحوبَينِ بتَعجُّبٍ أيضًا دلَّتْ عليه (الواوُ) الحاليَّةُ التَّقييديَّةُ، قال الإمام الواحديُّ: أنكرَ "عليهم إيذاءَهُ بعدما علِموا أنَّه رسول اللّه، ورسولُ اللّه يُحترَمُ، ويُعظَّمُ، ولا يُؤذى"[2]، فـ(الواوُ) تفيدُ البرهنةَ والتَّعليلَ للنَّفي، وتكونُ بمنزلة سندِ المنعِ الَّذي يورِدُهُ المُحاجِجُ لتقويةِ إنكارِه ومَنعِه، فالجملةُ: "في مَوضِعِ الحال، أي: تُؤذونني عالمينَ عِلْمًا يقينًا ﴿أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ﴾، وقضيَّةُ علْمِكم بذلك وموجِبه تعظيميٌّ وتوقيريٌّ، لا أنْ تؤذوني، وتَستهينوا بي؛ لأنَّ مَن عرَفَ اللّه وعظَمتَه؛ عظَّمَ رسولَه، علْمًا بأنَّ تعظيمَه في تعظيمِ رسولِه، ولأنَّ مَن آذاه؛ كانَ وعيدُ اللّه لاحقًا به"[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالحرفِ (قد):

مخالفةُ التَّوقُّعِ يدلُّ على سوءِ الطَّبعِ والتَّطبُّع

عبَّر النَّظمُ الكريم بحرفِ التَّحقيقِ (قد)، في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على التَّحقيقِ و"التَّوكيد، كأنَّه قالَ: وتعلمونَ علمًا يقينًا لا شُبهةَ لكم فيه"[4]، أي: مع علْمِكم المُحقَّقِ بصِدقي وصحَّةِ كلامي، فالإيذاءُ المتعدِّدُ المتجدِّدُ قد رافقَهُ علمٌ مُحقَّقٌ بما ينافيه، وما يُقْدِمُ على ذلك إلّا أحمقُ غافلٌ، قال الهرريُّ: "﴿وَقَد﴾ لتحقيقِ العِلْم، لا للتَّوقُّع، ولا للتَّقريبِ ولا للتَّقليل، فإنَّهم قالوا: إنَّ (قد) إذا دخلتْ على الحال؛ تكونُ للتَّحقيق، وإذا دخلتْ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 252.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 434.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 524.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 524.

على الاستقبال؛ تكونُ للتَّقليل"[1]، وإمّا للدَّلالة على التَّوقُّع، فيكونُ إنكارُهُ لإيذائِهم المتجدِّد مُقترِنًا بتوقُّعِه المتكرّر، وعلْمِه بأنَّهم يَعلمونَ رُسوليَّتَهُ علْمًا مُستمرًّا، فيكون صدورُ إيذائِهم مخالفًا لما يتوقَّعُهُ هو منهم من فعلٍ مُنافٍ لذلك ومُناقضٍ له، ويُفيدُ ذلك التَّحذيرَ الشَّديدَ من خَصلة المُخالفة وخُلْفِ الوعدِ للأنبياء والرُّسُل؛ لأنَّ ذلك مُؤدٍّ لإنكارِ ما علِموهُ من صِدق الرِّسالة وصحَّةِ النُّبوَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضارع ﴿تَّعۡلَمُونَ﴾:

الجمعُ بين التَّصديق والإيذاء يدلُّ على عِظَمِ الدّاء

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالفعلِ المضارِع، في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لعلْمِهم وتصديقِهم، فـ"صيغةُ المضارع للدَّلالةِ على استمرارِ العلْم، أي: كيفَ تُؤذونني؟ والحالُ أنَّكم تعلمونَ علْمًا قطعيًّا مُستمِرًّا بمُشاهدة ما ظهرَ بيدَيَّ من المعجزات أنّي مرسَلٌ من اللهِ إليكم، ومن قضيَّة علمِكم بذلك أنْ تُبالغوا في تعظيمي، وتُسارِعوا إلى طاعتي، فإنَّ تعظيمي تعظيمٌ لله، وإطاعتي إطاعةٌ له، ولذا قال ابنُ عاشور: "والإتيانُ بَعدَ (قَد) بِالمُضارِعِ هُنا؛ لِلدَّلالَة على أنَّ عِلمَهُم بِذَلِكَ مُجَدَّدٌ بِتَجَدُّدِ الآياتِ والوحيِ، وذَلِكَ أجدَى بِدَوامِ امتِثالِه؛ لِأنَّهُ لَو جيءَ بِفِعلِ المضيِّ؛ لَما دَلَّ على أكثَرِ مِن حُصولِ ذَلِكَ العِلمِ فيما مَضَى، ولَعَلَّهُ قَد طَرَأَ عليه ما يُبطِلُهُ"[2]، وفيه تسليَةٌ للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ الأذيَّةَ قد كانت من الأُمم السّالفة أيضًا لأنبيائهم، والبلاءُ إذا عمَّ؛ خَفَّ"[3]، فيكونُ إنكارُهُ لإيذائهم في حالةِ تجدُّدِ علمِهم برُسوليَّته، وذلك يحملُ طابَعَ التَّكذيب والإنكارِ لصِدقِه في دَعوى النُّبوَّة، فيتناقَضُ علمُهم وتصديقُهم برسالتِه مَعَ سوءِ فعلِهم الدّالِّ على إنكارِهم، فيكونُ في الكلام إلزامٌ لهم بالجمع بينَ النَّقيضين، في حين ذهبَ أبو حيّان إلى أنَّ المضارعَ: "هُنا مَعناهُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 252.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 179.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 252.

المُضيُّ، أي: وقد عَلِمتُم، كَقَولِه: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [النّور: 64]، أي: قد عُلِمَ، ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ﴾ [البقرة: 144]، وعُبِّرَ عَنهُ بالمُضارِعِ؛ ليَدُلَّ على استِصحابِ الفِعلِ"[1].

دلالةُ حرفِ التَّوكيد في ﴿أَنِّي﴾:

تحقيقُ النِّسبة الكلاميَّةِ مفيدٌ تحقيقَ النِّسبةِ الذِّهنيَّة

علَّقَ النَّظمُ الكريمُ العلْمَ الواردَ في قولِه تعالى: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، بالمصدرِ المُؤَوَّلِ من الجملةِ المصدَّرة بأداةِ التَّوكيد (أنَّ)؛ للدَّلالةِ على تحقيقِ تلك النِّسبةِ المُعتقَدة، وتوكيدِ ذلك الحُكم المُصدَّقِ به، فيفيدُ أنَّ علمَهم بتلك النِّسبة الذِّهنيَّة المُحقَّقة عِلمٌ مقطوعٌ به، والعلمُ بالمحقَّقِ يُفيدُ أنَّه عِلمٌ محقَّقٌ أيضًا، فيكون هنالك جزمٌ علميٌّ بصدقِ رسوليَّته، ومع ذلك يصدرُ منهم الإيذاءُ لنبيِّهم! قال ابن عاشور: "وكَما أُكِّدَ عِلمُهُم بِـ (قَد)؛ أُكِّدَ حُصولُ المَعْلوم بِـ (أنَّ) المَفْتوحَة، فَحَصَلَ تَأْكيدانِ للرِّسالَة، والمَعْنَى: فَكَيفَ لا يَجري أمرُكُم على وفْقِ هَذا العِلْم"[2]، وأورد النَّظمُ الكريمُ اسمَ (أنَّ) ضميرًا للمتكلِّم؛ للدَّلالة على الذّاتِ الَّتي وقعَ عليها الإيذاء، فاتّحاد ضميرَي المتكلِّم في ﴿تُؤۡذُونَنِي﴾ و﴿أَنِّي﴾ دالٌّ على أنَّ تلك الذّات قد وقعَ عليها الإيذاء، فهي في الضَّمير الثاني مأخوذةٌ بقيدِ وقوعِ الإيذاء عليها، حتّى يكونَ الإخبارُ عنها بالخبرِ محطَّ التَّعجيب.

نُكْتَةُ الإخبارِ بـ ﴿رَسُولُ﴾:

تكريمُ مَن وقعَ عليه الإيذاء بيانٌ كاشِفٌ عن عظيمِ البَلاء

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن اسم (أنَّ) بعنوان ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الذّات الَّتي وقعَ عليها الإيذاء هي ذاتٌ عظيمةٌ وشريفة، ولا تثبُتُ الرَّسوليَّةُ إلّا بالبراهين العقليَّة والمُعجزات الخارقةِ للعادة، فيكونُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 165.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 179.

صدورُ الإيذاء المقيَّدِ بالعِلْم بصِدقِه وصحَّةِ رسوليَّته عملًا فظيعًا وذنْبًا كبيرًا وجريرةً مَقيتةً.

نُكتةُ التَّعبيرِ بوصف ﴿رَسُولُ﴾:

الـلّائـق بمقام الرَّسول التَّوقيرُ والتَّعظيمُ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ (الرَّسول)، في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾، بدلًا من (نبيِّ اللّه)؛ لما في لفظ (الرَّسول) من خصوصيَّةٍ على لفظِ (النَّبيِّ)، ولإيحائه بوجوبِ الالتزام بشريعته بدلًا من إيذائِه؛ إذِ الرَّسولُ نبيٌّ له شريعةٌ وكتاب، كما أنَّ لفظَ (الرَّسول) يدلُّ على أنَّه مُرسَلٌ من اللّه إليهم، واللّائق بهم الاحتفاءُ به والتَّوقيرُ له، بدلًا من الإيذاءِ والعِصيان، قال ابنُ كثير: "وفيه نَهيٌ لِلمُؤمِنينَ أن يَنالوا مِنَ النَّبيِّ ﷺ، أو يوصِّلوا إلَيه أذًى"[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

تـحـديـدُ مـصـدرِ الرِّسالة يَقتضي الإيمانَ والطّاعة

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظ (الرَّسول) إلى اللّه تعالى، في قولِه: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيين والتَّعريف[2]، وفيها أيضًا التَّشريفُ والتَّكريم، بل في الإضافة دليلٌ على وجوبِ الطّاعة؛ إذ كونُه رسولًا من اللّه يوجِبُ طاعتَهُ ومحبَّتَه وإكرامَهُ، بدلًا من إيذائِه وعدمِ طاعتِه، فهذه "الآيةُ تدلُّ على عِظَمِ إيذاءِ الرَّسول، حتّى إنَّه يُؤدّي إلى الكفر، وزيغِ القلوبِ عن الهدى"[3].

إيثارُ الاسم الجليلِ مُضافًا إليه:

الاسـمُ الجليل عِـلَّـةٌ لـلإنـكـارِ والتَّحذير

آثرَ النَّظمُ الكريم إضافةَ لفظِ (الرَّسول) إلى الاسم الجليل، في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالة على تعليلِ إنكارِه وتحذيرِه لهم من إيذائِه؛ إذِ الاسمُ الجليل بكلِّ ما يُنبئُ عنه من صفاتِ الجَلال والكَمال قد اختارَهُ رَسولًا إليهم، فكيفَ يتأتّى

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 109.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/ 126.
(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 19/ 52.

منهم الإيذاء؟ قال البقاعيُّ: "أي: رسول المَلِكِ الأعظم، الذي لا كفوءَ له، ورسولُهُ أيضًا يُعظَّمُ، ويُحترَمُ، لا أنَّه تُنتهَكُ جلالتُه، وتُخترَم"[1].

دلالةُ حرفِ الجرِّ (إلى):

انتهاءُ الرِّسالة للمخاطَبين إلزامٌ لهم بالكونِ معَ المؤمنين

استعملَ النَّظمُ الكريم حرفَ الجرِّ (إلى)، في قولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾؛ للدَّلالةِ على انتهاءِ الغاية، فصارَ المخاطَبونَ غايةً للإرسال ونهايةً له، ويلزمُ من كونهم غايةً مبادلةُ ذلك الإكرام الإلهيِّ بالعمل والطّاعة والاستقامة، بدلًا من الإيذاءِ والعِصيان.

معنى (الفاء) ودلالتُها في ﴿فَلَمَّا﴾:

بدلًا من الخُضوع والانصياع لجؤوا إلى الزَّيغِ والضَّياع

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء)، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على التَّعقيب والتَّفريع والتَّسبُّب، قال البقاعيُّ: "ولمّا تحنَّنَ إليهم، واستعطفَهُم، وذكَّرهم ما يعلمونَ من رسليَّته وصِلتِه باللّه، بما شاهدوا من الآياتِ الَّتي هي أعظمُ الإحسانِ إليهم؛ أُعلِمَ أنَّهم أوشكوا العِصيانَ، فقال مُعبِّرًا عن ذلك بـ(الفاء)؛ تسبيبًا عن هذا القول الَّذي هو أهلٌ لأن يُسبِّبَ الثَّباتَ، وتعقيبًا وتقريبًا"[2]، والغرضُ منه: بيانُ عدمِ الانصياع للإنكارِ والتَّحذيرِ السّابقَين؛ إذ صُدورُ الإيذاءِ منهم بعدَ علْمِهم برسوليَّتِه إليهم منكَرٌ ومُستهجَنٌ، لكنَّهم بدلًا منَ الانخراط في الطّاعة صدرَ منهم الزَّيغُ والضَّلال عن المنهجِ المُستقيم.

معنى (لمّا) ودلالتُها:

تعليقُ الإضلالِ بالرَّغبة البشريَّة في الضَّلال

استعملَ النَّظمُ الكريمُ (لمّا)، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على تعليقِ حصولِ مضمونِ الجوابِ بحُصول

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 11.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 11.

مضمونِ الشَّرط[1]؛ إذ (لمّا) حرفُ شرطٍ غيرُ جازم، يدلُّ على الظَّرفيَّة والحين، وفي ربطِ إزاغةِ اللّه لقلوبِهم بزيغهم في ظرفٍ مبهَم دليلٌ على أنَّهم اختاروا طريقَ الضَّلال والانحرافِ، عندما أحسّوا بأنَّ الأوامرَ الإلهيَّةَ بدأتْ تُتعِبُهم.

دلالةُ المجازِ المرسَل أوِ الاستعارةِ في ﴿زَاغُوٓاْ﴾:

الميلُ عن الحقيقة خروجٌ على حُسنِ الطَّريقة

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ عن المُخالفة لأمرِ اللّه ورسولِه بالزَّيغ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ على سبيلِ المجازِ المُرسَل؛ إذ أصلُ الزَّيغِ الميلُ عن الحقِّ والانحرافُ عنه، وأُريدَ به لازمُهُ، وهو المخالفةُ للأوامر، قال الإمام الواحديُّ: "والمعنى: أنَّهم لمّا تركوا الحقَّ بإيذاءِ نبيِّهم؛ أمالَ اللّهُ قلوبَهم، وأظلَّهم، وصَرَفَهم عن الدّين؛ جزاءً لما ارتكبوا"[2]، والغرضُ من التَّجوُّزِ بيانُ سببِ المخالفة والباعثِ عليها، وهو الميلُ والانصرافُ؛ استكبارًا وعدمَ رِضًا عن تلك الأوامر، ويحتملُ أن يكونَ النَّظمُ الكريم قد استعارَ الزَّيغَ للضَّلال استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً؛ إذ شبَّهَ الضَّلالَ المعنويَّ عن الحقِّ بالزَّيغ الَّذي هو ميلٌ بالأبدانِ؛ تشخيصًا له وتجسيمًا، والتَّعبير عن زيغِ قلوبِهم بالفعلِ الماضي اللّازم؛ للدَّلالة على تحقُّقِ حصولِ الزَّيغ لهم، وتمكُّنِه في قلوبهم، فلا يَستطيعونَ الانفكاكَ عنهُ، ولذا قال الهرريُّ: "أصرّوا على الزَّيغ والميلِ عن الحقِّ الَّذي جاءَ به موسى، واستمرّوا عليه"[3].

دلالةُ الإسنادِ المجازيّ في ﴿زَاغُوٓاْ﴾:

شدَّةُ الزَّيغ والضَّلال تدلُّ على سوءِ النِّيَّةِ والأحوال

أسندَ النَّظمُ الكريم الزَّيغَ إلى ضميرِ (الواو)، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾، مع أنَّ الزّائغةَ والمائلةَ عن الحقِّ هي القلوبُ، فحوِّلَ الإسنادُ من القلوبِ إلى ذواتهم؛ لعلاقةِ السَّببيَّة؛

(1) ابن هشام، شرح قطر النّدى، ص: 43.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 434.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 252.

فيكونُ المراد من المجاز الإسناديِّ المبالغةَ في إظهارِ زَيغِهم، حتَّى إنَّهم بذواتِهم اختاروا الزَّيغَ، وحذفَ النَّظمُ الكريمُ متعلِّقَ الزَّيغ؛ لإرادةِ العُموم؛ إذ يذهبُ الذِّهنُ كلَّ مَذهَبٍ في تقديره، فقد زاغوا عن الحقِّ وطريقِ الخير والصَّواب.

دلالةُ التَّعديَةِ بالهمزة ﴿أَزَاغَ﴾:

الـجـزاءُ مِـن جنسِ العملِ نتيجةٌ لكثرةِ الزَّلل

عدّى النَّظمُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿أَزَاغَ﴾ بالهمزةِ، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على الجَعْل والتَّصيير مَعَ المُسارعةِ في الإزاغةِ، أي: صيَّرَ اللّهُ قلوبَهم زائغةً؛ فلا يستطيعونَ رُؤيةَ الحقِّ، ولا العودةَ إليه، واختارَ النَّظمُ المادَّةَ الفعليَّةَ نفسَها؛ ليكون الجزاءُ من جنس العمَل؛ إذ خلقَ اللّه الزَّيغَ في قلوبِهم بعدَ إرادتِهم له وسَعيِهم في تَحصيله، قال البقاعيُّ: "فأسندَ الذَّنْبَ إليهم، والعقوبةَ إليه، وإن كان الكلُّ فعلَهُ؛ تعليمًا لعبادِه الأدبَ"[1].

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليلِ فاعِلًا:

كما يخلُقُ اللهُ الهدايةَ يفعَلُ الإزاغةَ

صرَّحَ النَّظمُ الكريمُ بفاعلِ الإزاغةِ، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ فعلَهم للزَّيغ كَلا فعلٍ؛ إذِ الفاعلُ الحقيقيُّ هو اللّه تعالى، فكانَ إظهارُ الفاعل يدلُّ على فاعليَّةٍ أشدَّ من فاعليَّتهم، فقد زاغَتْ قلوبُهم، ومالتْ عن الحقِّ، فخلقَ اللّهُ الزَّيغَ والمَيَلانَ فيها؛ حتّى لا يَجدوا منها فِكاكًا، وفي إظهارِ الاسم الجليل فائدةٌ بيانيَّةٌ؛ إذ قد عَلِموا أنَّ موسى عليه السلام رسولُ اللّه، لكنَّهم جَهِلوا فعلَ اللّه فيهم؛ إن خالفوا أمرَ رسولِه، فكان الإظهارُ للاسم الجليلِ في محلِّ الإضمار؛ ردًّا عليهم بإنكارهم رسولَهُ.

دلالةُ تعليقِ الإزاغةِ بالقُلوب:

إزاغـةُ الـقـلـوبِ بـصَـرْفِـهـا عن عَلّامِ الغُيوبِ

علَّقَ النَّظمُ الكريم فعلَ (الإزاغة) بالقلوب، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على محلِّ الزَّيغ الحقيقيِّ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 11.

وهي القلوبُ، التي إنِ انحرفَتْ عن الحقِّ؛ لَزِمَ انحرافُ أصحابِها عنه بالكلِّيَّة، ولمّا كان القلبُ مَحَلًّا للاعتقاداتِ الحَقَّة والزّائغة، يكونُ المعنى: صرفَ اللّهُ القلوبَ عن الاعتقاداتِ الحَقّة، وأمالَها إلى الاعتقاداتِ الزّائغة، ووجَّهَها إليه خذلانًا لهم، وفي دلالة (القلوب) على التَّقلُّب تعليلٌ لزيغِهم، بعدم ثباتِ تلك القلوب.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿قُلُوبَهُمۡۚ﴾:

تعيينُ القلوبِ الزّائغة قرينةٌ للمجازِ قاطِعة

أضافَ النَّظمُ الكريم القلوبَ إلى ضميرِ الزّائغةِ قلوبُهم، في قولِه تعالى: ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على تعيينِ تلك القلوبِ الزّائغة بأنَّها قلوبُ مَن اختارَ الزَّيغَ والميلَ عن الحقِّ، والمخالفةَ لأمرِ موسى عليه السلام، ويكونُ التَّصريحُ بقلوبِهم قرينةً على المجازِ في قولِه: ﴿زَاغُوٓاْ﴾، أي: زاغَتْ قلوبُهم، وفي جمعِ القلوب وإضافتِها إلى ضمير الجمع دلالةٌ على الاستغراقِ التَّوزيعيِّ، فلم يترك قلبًا من تلك القلوبِ إلّا أزاغَهُ وأمالَهُ، قال البقاعيُّ: "وجمعُ الكَثرة يدلُّ على أنَّه لم يثبُتْ منهم إلّا القليلُ"[1].

دلالةُ (الواو) في ﴿وَٱللَّهُ﴾:

تأكيدُ الإزاغةِ بعدمِ خَلْقِ الله الهِداية

استعملَ النَّظمُ الكريم (الواو)، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ إمّا على العطفِ المُؤكِّد لمضمونِ قوله: ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾؛ إذ عطفَ النَّفي على الإثباتِ توكيدًا؛ لأنَّ اللّه تعالى إنْ كان قد فعلَ الإزاغةَ في قلوبِهم؛ فاللّهُ لا يهديهم، قال الهرريُّ: "أكَّدَ إزاغتَهُ لقلوبِهم، وبيَّنَ علَّتَها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾، فهذه الجملةُ مقرِّرةٌ لمضمونِ ما قبلَها من الإزاغة، وتذييلٌ مُؤْذِنٌ بعلِّيَّته"[2]، أو للدَّلالة على الاستئناف؛ بيانًا لكونِ اللّه تعالى لا يخلقُ الهدايةَ في قلوبِ الفاسقين، أو للدَّلالةِ على الاعتراض، فهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 11.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 253.

"اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَهُ من الإزاغةِ، ومُؤذِنٌ بعِلَّتِهِ، أي: لا يهدي القومَ الخارجينَ عن الطّاعةِ ومنهاجِ الحقِّ، المُصرّين على الغَوايةِ"(1).

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمُسنَدِ إليه مُقدَّمًا:

سلبُ الرَّشادِ مختصٌّ بربِّ العبادِ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ المسندَ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الحصرِ والاختصاصِ لعَدَمِ الهدايةِ باللّه تعالى، فكما أنَّ الهدايةَ والإيصالَ إلى الحقِّ مُنحصِرةٌ باللّه تعالى، فإنَّ عدمَها مُنحصِرةٌ به تعالى، كما يدلُّ التَّقديمُ على التَّأكيدِ؛ إذ تحقَّقَ الإسنادُ إلى اللّه تعالى مرَّتينِ؛ تارةً بجملةِ الخبرِ، وتارةً أُخرى بالفعل.

دلالةُ النَّفيِ بـ ﴿لَا﴾:

الانتفاءُ المُعلَّلُ يدلُّ على الزَّمنِ الأشمَلِ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿لَا﴾ النّافيةَ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على انتفاءِ الهدايةِ عنهم في الزَّمنِ الحاليِّ والاستقباليِّ، كما يُفيدُ عدمَ خَلْقِ الهدايةِ لهم في الماضي أيضًا؛ إذِ النَّفيُ المعلَّلُ بالفِسْقِ يدلُّ على أنَّ ذلك سنَّتُهُ وطريقتُهُ تعالى معَ خَلْقِهِ الفاسقينَ، لا يختلفُ باختلافِ الزَّمانِ.

دلالةُ الفعلِ المُضارعِ ﴿يَهۡدِي﴾:

تجدُّدُ عدمِ الهدايةِ جزاءٌ للقلوبِ ذاتِ الغوايَةِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المُضارعِ ﴿يَهۡدِي﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على عدمِ إيصالِ الهدايةِ إلى قلوبِ الفاسقينَ؛ لفسقِهِم على سبيلِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ، قال الإمامُ الواحديُّ: "وفي هذا تنبيهٌ على عظَمِ إيذاءِ الرَّسول، حتّى إنَّه يُؤدّي إلى الكفر، ويُزيغُ القلبَ عنِ الهُدى"(2).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 243.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 434.

دلالةُ التَّعريفِ للفظ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾:

جميعُ أفرادِ القومِ الفاسقين مَسلوبةٌ عنهُم الهدايةُ للدّين القويم

عرَّفَ النَّظم الكريمُ لفظَ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على العَهد؛ "فالمرادُ بهم إمّا المذكورونَ خاصَّةً، والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ؛ لذَمِّهم بالفسقِ وتعليلِ عدم الهدايةِ به"(1)، أو للدَّلالةِ على جنسِ "الفاسقينَ، وهم داخلونَ في حُكمِه دُخولًا أوَّليًّا"(2)، ويفيدُ أنَّ اللّه تعالى لا يخلقُ الهدايةَ في جميعِ الأزمنة لجميعِ الأفراد الدّاخلة تحتَ اسم (القوم)، ويحتملُ أن تكونَ (اللّام) فيه للعهدِ الذِّكريِّ النّاظرِ لقولِه قبلُ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ﴾.

دلالةُ الوصفِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾:

دلالةُ الوصفِ على التَّعليل مُنبئةٌ عن حِكمةِ الجَليل

استعملَ النَّظمُ الكريم وصفَ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على علَّة انتفاءِ الهداية عن القوم؛ إذ تعليقُ الحُكمِ بالمشتقِّ يدلُّ على عِلّيَّة المَأخَذ فيه، فيكونُ عدمُ الهداية والإيصال إلى الحقِّ بسببِ فِسقهم، وعلَّل ابنُ عاشور التَّوصيف بقوله: "وذُكِرَ وصْفُ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ جاريًا على لَفْظِ ﴿ٱلْقَوْمَ﴾؛ لِلإيماءِ إلَى الفُسوقِ الَّذي دَخَلَ في مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهِم، فالمَعنَى: الَّذينَ كانَ الفُسوقُ عَنِ الحَقِّ سَجيَّةً لَهُم، لا يَلطُفُ اللَّهُ بِهِم، ولا يَعتَني بِهِم عِنايَةً خاصَّةً تَسوقُهُم إلَى الهُدَى، وإنَّما هو طَوعُ الأسباب والمناسبات"(3).

ويحتملُ الوصفُ أن يكونَ اسمَ فاعلٍ، أو صفةً مشبَّهةً، وهي الأرجحُ لدلالتها على الثُّبوت والدَّوام، قال البقاعيُّ: "أي: العريقينَ في الفِسق، الذين لهم قوَّةُ المحاولةِ، فلم يَحمِلْهم على الفِسق ضَعفٌ"(4)، فيكون دوامُ فسقِهم عِلَّةً صالحةً لسلبِ الهدايةِ عنهم، ورأى بعضُهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 243.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 243.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 179.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 12.

أنَّ ذلك الوصفَ مجازٌ مرسَلٌ عن الإرادةِ، وأنَّ التَّقدير: "لا يهدي مَن يريدُ الفِسقَ، وهو من بابِ ذِكْرِ الفعل وإرادةِ الإرادة، قلت: هذا التَّقديرُ غيرُ مُفتقَر إليه؛ لأنَّ هذه الفاصلةَ تذييلٌ للآية، وكالتَّعليل لقوله: ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾"[1].

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾:

كُلُّ المتَّصفينَ بالفُسوق عن الحقِّ مُروق

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاستغراق، أي: لا يهدي اللّهُ كلَّ فردٍ من أفرادِ هذا الوصفِ العنوانيِّ، ويحتملُ أن تكونَ (أل) موصولًا اسميًّا؛ للدَّلالة على عِلَّةِ عدمِ الهداية، والتَّقديرُ: (الذين فسقوا).

حذفُ مفعولِ الهدايةِ المُطلَق:

مَن لم يَصِل لنورِ الإسلام؛ لن يدخلَ دارَ السَّلام

حذفَ النَّظمُ الكريمُ مفعولَ فعلِ الهدايةِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وقدَّرَهُ البيضاويُّ بالمفعولِ المُطلَقِ المُبيِّن للنَّوع مع متعلِّقه، وهو "هداية موصلة إلى معرفةِ الحقِّ أو إلى الجنَّة"[2]، والهدايةُ الأولى تستلزمُ الثّانية، فإنَّ مَن لم يصلْ لمعرفةِ الحقِّ، فإنَّه لن يَصِلَ إلى الجنَّة.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزَّيغُ والضَّلال:

الزَّيغُ الميلُ عن الحقِّ، والضَّلالُ الضَّياعُ للحقِّ

يُعَدُّ الزَّيغُ مَيلانًا عن الحقِّ، وانصرافًا عنه إلى الباطل، بحيثُ يكونُ الحقُّ أمامَهُم، فيَنحرِفونَ عنه بأبصارِهِم وقُلوبهم، وأمّا الضَّلالُ؛ فهو ضياعٌ للحقِّ نتيجةَ الإهمالِ لهُ والزَّيغِ عنه، فيقال: رجلٌ ضالٌّ؛ لأنَّه تاهَ عن الطَّريقِ الموصِل إلى المطلوب، ومن ثَمَّ يكونُ الزَّيغُ فعلًا سابقًا، ومُسبِّبًا للضَّلال، ومُقدِّمةً للوصولِ إليه، حتّى إذ ما استمرَّ على الانحراف؛ تاهَ، وضاعَ الحقُّ أمامَه؛ فكان ضالًّا.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 385.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 208.

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾ [الصّف: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّسلية والتَّحذير أسلوبٌ قرآنيٌّ ليس له نظير

لَمّا ذكرَ المولى تعالى ما سبق؛ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ، وتحذيرًا لقومِه وللمنافقينَ وأهلِ الكتاب بما جرى لسيِّدنا موسى عليه السلام، من إيذاءٍ له من قومِه وصَبْرِه عليهم؛ ناسبَ أن ينتقلَ إلى قصَّةٍ أُخرى جرتْ لسيِّدنا عيسى ابن مريمَ عليهما السلام، وما جرى له معَهُم من إيذاءٍ وإيلامٍ؛ ليكون تثبيتًا للنَّبيِّ ﷺ على ما يلاقيه من إيذاءٍ أو نفاقٍ أو تكذيب، وتحذيرًا للمخاطَبينَ بما صنَعَتْهُ تلك الأقوامُ من زَيغٍ صدرَ منهم وخذلانٍ وقعَ عليهم.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّصَدِّقٗا﴾: الصِّدقُ نَقيضُ الكذب، ويقالُ للرَّجُلِ الجوادِ والفرسِ الجواد: إنَّه لذو مَصْدَقٍ، أي: صادِقُ الحَمْلة، وصَدَقْتَه: قلتُ لهُ صِدْقًا[1]، وصَدَّقْتُهُ - بالتَّثْقيلِ - : نَسَبْتُهُ إلى الصِّدْقِ، وصَدَّقْتُه: قُلْتُ لَهُ: صَدَقْتَ[2]، والمرادُ به في الآية: مُثبتًا بكلامي ونبوَّتي صدقَ التَّوراةِ، من خلالِ عدمِ الخروجِ عن أحكامِها وشرائعِها، ونِسبَتي الصِّدقَ لَها.

2) ﴿وَمُبَشِّرَۢا﴾: (بشر) أصلٌ واحدٌ، هو ظُهورُ الشَّيءِ مَعَ حُسنٍ وجَمالٍ، ويُقالُ: بَشَّرْتُ فُلانًا أُبَشِّرُهُ تَبشيرًا، وذَلِكَ يَكونُ بِالخَيرِ،

(1) الخليل، العين: (صدق).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (صدق).

ورُبَّما حُمِلَ عليه غيرُهُ مِنَ الشَّرِّ، وذَلِكَ مِنَ التَّبْكيتِ، فَأمّا إذا أُطْلِقَ الكَلامُ إطلاقًا؛ فالبِشارَةُ بِالخَيرِ، والنِّذارَةُ بِغَيْرِهِ[1]، وبَشَرْتُ الرَّجلَ أَبْشُرُه؛ إذا فَرَّحتَه، ومعنى يَبْشُرُكَ من البِشارَة، أي: يَسُرُّك، ويُفْرِحُك، وأصلُ هَذا كُلِّه أنَّ بَشرَةَ الإنسانِ تنْبَسِطُ عِنْد السُّرور، ومن هَذا قَوْلهم: فلان يَلْقاني بِبِشْرٍ، أي: بوجهٍ مُنْبَسِطٍ عِند السُّرور[2]، والمُرادُ به في الآيةِ: الإخبارُ بما يُفرِحُ من مَجيءِ النَّبيِّ ﷺ ومبعثه بالرِّسالة.

3) ﴿سِحۡرٌ﴾: (سحر) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الصَّرف عمّا هو واقعٌ وحَقٌّ إلى خلافِهِ، كصَرْفِ الأبصارِ عمّا يُشاهِدونَهُ في الظّاهر إلى خلافِهِ، والسِّحْر: إخراجُ الباطل في صورةِ الحقِّ، ويقالُ: هو الخَديعة، وسَحَرَهُ بكلامِهِ: استمالَهُ برقَّتِه وحُسنِ تركيبِهِ، والسِّحرُ إمّا واقعيٌّ أوِ ادِّعائيٌّ؛ فالأوَّلُ كما في: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾ [الأعراف: 116]، والثّاني كما في: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [النّمل: 13]، وهو المرادُ به في الآيةِ هنا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

خذلانُ النَّبيّين تكذيبٌ لكلامِ ربِّ العالَمين

يُخبرنا اللّهُ تعالى بما قالَه سيِّدُنا عيسى عليه السلام لقومه: إنّي أُرسِلتُ إليكم حالَ كوني مُصدِّقًا لما بينَ يديَّ من التَّوراة، ومُبشِّرًا بِرَسولٍ يَأْتي مِن بَعدي اسمُهُ أحمدُ، وهذا أيضًا داعٍ إلى تصديقه عليه السلام، من حيثُ إنَّ البشارةَ به واقعةٌ في التَّوراة، وحينَ جاءَهم أحمدُ المبشَّرُ به، بالأدلَّة الواضحةِ والمُعجزات الباهرةِ، فاجَؤوه بالتَّكذيبِ والإعراض عنه؛ استكبارًا وعِنادًا، وقالوا: إنَّ ما جئتَ به ما هو إلّا تُرَّهاتٌ وأباطيلُ، وسحرٌ واضحٌ لا شكَّ فيه[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بشر).
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 256.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَإِذۡ﴾:

صَبْرُ النَّبيّينَ درسٌ لكلِّ المُصلحين

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾، على ما تقدَّمَ من قولِه: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ [الصف: 5]، عطْفَ الإنشاءِ على الإنشاء، وعطْفَ القصَّةِ على القصَّة[1]، قال الهرريُّ: "إمّا معطوفٌ على (إذ) الأولى معمولٌ لعاملِها، وإمّا معمولٌ لمُضمَرٍ معطوفٍ على عاملِها"[2]، والغرضُ من العطف بيانُ الارتباطِ والاشتراك بينَ القصَّتين، فكلتاهما مثَلٌ ضُرِبَ للنَّبيِّ ﷺ، دالٌّ على ما تعرَّض له موسى وعيسى عليهما السلام مِن قَبلِه معَ أقوامِهم من إيذاءٍ ورفضٍ واستكبارٍ وعِناد.

دلالةُ الظَّرف (إذ):

العــــودةُ إلى المــاضي انــتـزاعٌ للعِبَرِ والدُّروس المَواضي

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الظَّرفَ (إذ)، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ للدَّلالة على الزَّمن الماضي[3]؛ لأنَّ (إذ) الظَّرفيَّةَ تدلُّ على حَدَثٍ وقعَ في الماضي، وهي متعلِّقةٌ كسابقتِها بالفعل (اذكُر) مثلًا، وفائدةُ تقييدِ الذِّكر بزمنِ الماضي استلهامُ الدُّروسِ والاستفادة بما فيه من عِبرٍ ومواعظَ نافعةٍ، تعملُ على التَّثبيت والتَّسليةِ والتَّطمين.

دلالةُ فعلِ (القول) مادَّةً وصيغةً:

اللّينُ في الدَّعوة خُلُقُ المُصلحينَ الكَمَلَة

اختارَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ القولِ الماضي، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ للدَّلالة على صدورِ ذلك القول منه على سبيلِ التَّحقُّقِ والحُصول، كما دلَّتْ مادَّةُ القولِ على الأُنس في الحوارِ، واللّيونةِ في التَّعبير؛ جلبًا منه لنفوسِهم الصّادَّةِ عن الحقِّ إلى دُروبِ الخير بكلِّ أسلوبٍ عَذْبٍ ورشيق.

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 19/ 70.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 253.
(3) ابن يعيش، شرح المفصّل: 1/ 244.

دلالةُ التَّصريحِ باسمِ العلَم ﴿عِيسَى﴾:

استحضارُ الشَّخصيَّةِ بالتَّعيين يولِّدُ التَّفاعُلَ معَها بكلِّ يقين

صرَّحَ النَّظمُ الكريم بالاسم العلم ﴿عِيسَى﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيينِ والتَّشخيص للقائلِ، كما شخَّصَ النَّظمُ من قبلُ الاسمَ العلَمَ ﴿مُوسَىٰ﴾ [الصف: 5]، والتَّعيينُ للشَّخصيَّة يُسهِمُ في تكوينِ تعارُفٍ معَها، يعملُ على تثبيتِ المعنى المقصود منَ الاستحضار للشَّخصيَّة، فينفعل معَها، ويأخذ الدَّرسَ والمغزى بكلِّ تقبُّلٍ واشتياق، بخلاف ما لو قالَ في الموضعينِ: (رجل)؛ فإنَّه يفيدُ غربةً عنها، وعدمَ تجانُسٍ فاعِلٍ بها.

دلالةُ عطفِ البيان والبدَل ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾:

التَّوضيحُ والتَّقريرُ والاحتراس وظائفُ العطفِ والإبدالِ في الأساس

حدَّدَ النَّظمُ الكريم الاسمَ العلَمَ ﴿عِيسَى﴾ بعطفِ البيانِ أوِ البدلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ للدَّلالةِ على تعيينِه بشكلٍ أكثرَ وضوحًا أوَّلًا؛ بناءً على أنَّه عطفُ بيانٍ منه، وليكونَ أكثرَ تقريرًا للمُرادِ وتأكيدًا له ثانيًا؛ بناءً على كونِه بدَلًا منه، وقد أفادتْ بُنوَّتُه لمريمَ عليها السلام نفيًا وتنزيهًا له عنِ ادِّعاءِ الأُلوهيَّة والبُنُوَّة للّه تعالى، فيكون العطف والإبدالُ بمنزلة الاحتراسِ عمّا نُسِبَ له مِن أتباعِه بذلك، وتوقيرًا له عمّا نُسِبَ له مِن أعدائِه، من كونِه ابنَ زنًى لا يُعرَفُ أبوهُ، وقال الشِّربينيُّ: "ووصَفَهُ بقولِه: ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ ليُعلَمَ أنّه من غيرِ أبٍ، وثبتت نبوَّته بالمعجزات"[(1)].

دلالةُ البُنوَّةِ في ﴿ٱبۡنُ﴾:

نفيُ الأُلوهيَّة بإثباتِ البنوَّة البشريَّة

استعملَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظَ (البنوَّة)، في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ للدَّلالة على الفرعيَّة من الأصلِ، وهذه الفرعيَّةُ تَستدعي الافتقارَ والاحتياج للأصلِ، والمحتاجُ لأصلٍ لا يجوزُ أن يكونَ إلهًا، ومن لطائف رسم "لفظ ﴿ٱبۡنُ﴾ بإثباتِ الألف خطًّا؛ لنُدرةِ وقوعِه بينَ ذكرٍ وأُنثى"[(2)].

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 275.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 253.

دلالةُ الأُمومةِ في ﴿مَرۡيَمَ﴾:

بشريَّةُ الأُمِّ ووجاهةُ النَّسبِ مع بشريَّةِ الفرعِ وكرامةِ الولَد

حرَصَ النَّظمُ القرآنيُّ على ذكرِ ﴿مَرۡيَمَ﴾، والتَّأكيد على أنَّ عيسى ابنُها، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ للدَّلالة على الأُمومةِ التي تُنافي الأُلوهيَّةَ أيضًا؛ إذِ الأُمُّ مفتقِرةٌ في كونِها أُمًّا لولدٍ إلى زوجٍ أو مؤثِّرٍ فيها بطريقةٍ لتكونَ أُمًّا، وأفاد ذِكرُ الاسم العلَم ﴿مَرۡيَمَ﴾ تحديدًا دقيقًا لبشريَّةِ عيسى عليه السلام، وبشريَّةِ أُمِّه عليها السلام؛ إذِ الإلهُ لا يفتقرُ إلى أصلٍ، ولا يكونُ متَّصِفًا بصفاتِ الحوادث؛ إذ كلُّ ذلك سِمةُ العجزِ والافتقار، كما أنَّ في ذِكر ﴿مَرۡيَمَ﴾ مع ابنها تشريفًا لها بالحَصانة والرَّزانة؛ إذ إثباتُ الولد لها دالٌّ على خَلْقِ ﴿عِيسَى﴾ منها بدون الحاجةِ إلى الأبِ، فلا تكونُ زانيةً كما يَدَّعيه اليهودُ فيها زورًا وبُهتانًا.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾:

التَّكريمُ والتَّشريفُ لائقانِ بالنَّظمِ المُنيف

أضافَ النَّظمُ الكريم الابنَ إلى مريمَ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعيين والتَّعريف لذاتِ الابن[1]، وإنْ عُرِفَ بأنَّ اسمَهُ عيسى، ولكن لم يُعرَفْ أنَّه ابنُ لمريمَ إلّا بالإضافةِ لها، والإضافةُ دلَّتْ على وضعِ الأشياء في نِصابها، فهو ابنُ مريمَ، وليس ابنًا للّه، وهو ابنُ مريمَ، وليس ابنًا لأبٍ مجهول، ففي الإضافةِ تكريمٌ وتشريفٌ واحتراسٌ.

دلالةُ النِّداءِ بـ(يا):

بُعدُ المُخاطَبينَ حِسًّا أو حُكمًا مُستجلِبٌ للاستبدالِ نَظْمًا

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(يا) النِّدائيَّةِ التَّنبيهيَّة، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدّلالة على الاهتمام بمضمونِ الكلام، حتّى طُلِبَ منَ المخاطَبينَ الإصغاءُ والاهتمامُ والإقبالُ، كما يفيدُ النِّداء بـ(يا) الدّالَّة على البُعد أنَّ المخاطَبينَ بها غافلونَ أوْ في منزلتهم

(1) حاشية الصّبان على شرح الأشمونيّ: 2/ 360.

بقرينةِ السّياق، أي: إنَّهم بعيدونَ عن المُنادي حسًّا أو حُكمًا، فيُطلَب إقبالُهم لتحقيقِ مَزيدٍ من الإصغاءِ للأمرِ العظيم.

سرُّ اختيار (بني) دونَ (يَهود):

تَساوي الرُّتبةِ داعٍ للإصغاءِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ المنادى (بني)، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالة على انتمائِهم بالبُنُوَّةِ لأصل، كما أنَّ المُنادي والمخاطِبَ لهُم مُنتَمٍ بالبنوَّةِ لأصل، وموجِبِ كونِهم فُروعًا تساوي الطّالبِ والمطلوب في الفرعيَّة، وذلك التَّساوي يُحقِّقُ فائدةَ الإصغاءِ له، والإقبالِ على سَماعِ كلامِه بشكلٍ أكبرَ.

دلالةُ الإضافةِ في (بني إسرائيل):

التَّذكيرُ بالأصل الشَّريف يَستلزمُ الإقبالَ للكلام المُنيف

أضافَ النَّظمُ الكريم (بني) إلى ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالةِ على انتمائِهم لنبيٍّ عظيمٍ يَدعوهم للإقبالِ وسَماعِ كلامِهِ؛ إذ خطابُ الإنسانِ بلفظٍ شريفٍ وأصلٍ كريمٍ يَدعوه للإصغاءِ والاهتمام، فاختارَ النَّظمُ الكريمُ المُركَّبَ الإضافيَّ مُنادًى؛ حتّى يُذكِّرَهُم بأنَّهم من نسلِ الأنبياءِ العِظام، وأنَّه نبيٌّ مثلُهم، فانتماؤُهم بالبنوَّة للأنبياءِ يَجعلُهُم لا يَستبعدونَ نبوَّته ورسالتَه، وقال الشَّربينيُّ: "ذكَّرهم بما كانَ عليه أبوهم من الدّين، وما أوْصَى به بنيه من التَّمسُّكِ بالإسلام"[1].

إيثارُ النَّظم العلَمَ ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

الانتماءُ للأنبياء موجِبٌ كونَهم مِنَ الصَّلَحاء

استعملَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ العلَم ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالةِ على تعيينِ البنينَ؛ إذِ الإضافةُ إلى المعرفةِ تحقِّقُ التَّعيينَ والتَّشخيصَ للبنين[2]، و﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ علَمٌ على يعقوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومعناهُ بالعبريَّة (عبد اللّه)، ومقتضى العبوديَّةِ الطّاعةُ والخضوعُ لكلامِ الأنبياءِ والرُّسُل.

(1) الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 275.

(2) حاشية الصّبّان على شرح الأشمونيّ: 2/ 360.

دلالةُ العُدول من (القَوم) إلى (بني إسرائيلَ):

إثباتُ نَزاهتِه مُقرَّرٌ لتوهينِ اتِّهامِه، ودفاعٌ عن شرفِه وكَرامتِه

عدلَ النَّظمُ الكريم عن مناداةِ المخاطبينَ بـ(يا قوم) - كما وقعَ لموسى معَ قومِه من قبل - إلى قولِه: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم ليسوا قومَهُ، ولا يَنتمي لهم بالبنوَّةِ والأُبوَّة، قال الحنبليُّ: "لأنَّه لم يكُن لهُ في بني إسرائيلَ قَرابةٌ"[1]، بل يرتبطُ بهم من جهةِ الأُمومةِ فحسبُ، "فمريمُ من بني إسرائيل؛ لأنَّ إسرائيلَ لَقَبُ يعقوبَ، ومريمُ مِن نَسلِهِ"[2]، وفي ذلك ردٌّ لهم عمّا اعتقدوهُ في أُمِّه، وأنَّه جاءَ من سِفاح، فلو قالَ لهم: (يا قوم)؛ لكان مُصدِّقًا لهم في اتِّهامِهم وانتمائِه إليهم بالقوميَّة، وجوَّزَ الطَّيبيُّ أن يكونَ العدولُ: "للاستعطاف؛ لمجيءِ قولِه: ﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾، أي: إنّي أُرسلتُ إليكم في حالِ تصديقي لكتابٍ نزلَ إليكُم يا بني إسرائيلَ خاصَّةً"[3]، "أو إشارةٌ إلى أنَّه عاملٌ بالتَّوراة، وأنَّه مثلُهم من قومِ (موسى) عليه السلام، هَضْمًا لنفسِه بأنَّه لا أتباعَ له ولا قومَ[4]، وفيه من الاستعطافِ ما فيه، وقيل: إنَّ التَّعبيرَ بما ذكر؛ لِما فيه مِنَ التَّعظيم لهم، فقد كانوا يفتخرونَ بِنسبتِهم إلى إسرائيلَ عليه السلام"[5].

وجوَّزَ ابنُ عاشور للعدولِ وجْهًا آخَرَ بقوله: "ونادَى عيسَى قَوْمَهُ بِعُنوانِ: (بَني إسْرائيلَ) دونَ (يا قَوْمِ)؛ لأنَّ بَني إسرائيلَ بَعدَ (موسَى) اشتُهِروا بِعُنوانِ: (بَني إسْرائيلَ)، ولم يُطلَق عليهم عُنوانُ (قوم موسى) إلّا في مُدَّةِ حَياةِ (موسى) خاصَّةً، فَإنَّهُم إنَّما صاروا أُمَّةً وقومًا بِسَبَبِه وشَريعَتِه، فَأمّا (عيسَى)؛ فَإنَّما كانَ مُرسَلًا بِتَأييدِ شَريعَةِ موسَى، والتَّذكيرِ بِها وتَغييرِ بَعضِ أحكامِها،

(1) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 41.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 254.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 387.
(4) وردّ هذا التّوجيهَ القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 19/ 71.
(5) مجموع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1399.

ولأنَّ عيسَى حينَ خاطَبَهُم لم يَكونوا قَدِ اتَّبَعوهُ، ولا صَدَّقوهُ، فَلم يَكونوا قَوْمًا لَهُ خالِصينَ"[1].

دلالةُ الحرفِ (إنَّ):

تحقيقُ الكلامِ ردٌّ لسيّئ الاتّهام

ابتدأ النَّظمُ الكريم جملةَ النِّداء بالحرف (إنَّ)، في قولِه تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾؛ للدَّلالة على تحقيقِ نسبةِ الجُملة، وتثبيتِ مَعناها في ذهن السّامعِ وتقريرِ مَضمونِ الكلام؛ لأنَّهم أنكروا ذلك، وسَعوا جاهِدينَ إلى تكذيبِه واتِّهامه بالسِّحر، كما سيأتي تفصيلُهُ.

دلالةُ الضَّميرِ في ﴿إِنِّي﴾:

تعيينُ الذّات موجبٌ للتَّصديقِ لها بما اقترنَتْ به من الآيات

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ضميرَ المتكلِّم، في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾؛ للدَّلالة على الذّاتِ الَّتي يعرفونَها بقرينةِ التَّكلُّم، فيكونُ تعريفًا لنفسِه وتعيينًا لها، ومقتضى ذلك التَّعيينِ تذكيرُهم بما أظهَرَه اللّه على يدَيه من المعجزاتِ والآياتِ والبراهين المقترنةِ بذاتِه المُتكلِّمة، فلا داعيَ للشَّكِّ في أيِّ شيءٍ يُثبتُهُ لنفسِه ممّا يليقُ بتلك الأمورِ الخارقةِ للعادة.

نُكْتَةُ التَّعبير بـ ﴿رَسُولُ﴾:

مُقتضى الرَّسوليَّةِ دالٌّ على البشريَّةِ والكرامةِ النَّسَبيَّة

اختارَ النَّظمُ الكريم الخبرَ ﴿رَسُولُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾؛ للدَّلالة على وصفِ ذاتِه بحُكمٍ يُناسِبُ ما ظهرَ على يدَيه من الخوارق والمعجزاتِ منذُ وُلادتِه، ومُؤكِّدٌ على أنَّه رسولٌ، وليس إلهًا، وأنَّه شريفُ الأصل، وليس من سِفاح؛ لأنَّ اللّه تعالى يختارُ الأصيلَ الشَّريفَ من القوم؛ ليكونَ رَسولًا ونبيًّا، ففيه ردٌّ على كلتا الدَّعوتَين الكاذبتَين، وأورد النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿رَسُولُ﴾ على صيغةِ (فعول)[2]؛ للدَّلالة على المُبالغة في الاتِّصاف بذلك الوصفِ، أو أنَّه بمعنى (مُرسَل) اسم مفعول، والإلهُ يُرسِلُ، ولا يُرسَلُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 180.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 24.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾:

مصدرُ اللّقب يوجِبُ عليهم المزيدَ منَ الأدَب

أضافَ النَّظمُ الكريم (الرَّسول)، الواردَ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ مصدرِ هذا الوصفِ واللَّقبِ الَّذي حازَهُ، بأنَّه من الله تعالى، فالإضافةُ بيانيَّةٌ بمعنى (مِن)؛ لإفادةِ أنَّ مبدأ اتِّصافه بذلك الوصفِ من الله تعالى، فكيف يكونُ إلهًا أوْ من سِفاحٍ؟ إذ مقتضى الإضافةِ أنَّه رسولٌ كغيره من الرُّسُل، وأنَّه شريفٌ كريمٌ؛ إذِ الإضافةُ للذّاتِ الجليلةِ تشريفٌ وتكريمٌ.

دلالةُ المتعلّقِ ﴿إِلَيۡكُم﴾:

تحديدُ الغاية للاختصاص موجِبٌ للعناية والاستئناس

اختارَ النَّظمُ الكريمُ المتعلِّقَ بالرَّسول، وهو ﴿إِلَيۡكُم﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾؛ للدَّلالة على تحديدِ غايةِ إرسالِه بعدَ أن حدَّدَ مبدأ إرسالِه، ووظيفةُ المبدأ الدَّلالةُ على البشريَّة والنَّسَبِ الأصيل، وغايةُ الانتهاء والغايةِ الدَّلالةُ على الاختصاصِ بالمُرسَل إليهم، فلم تكنْ دعوتُه عليه السلام إلّا مختصَّةً بهم، وذلك أدعَى لقَبولِهم والإيمانِ به، فهو نعمةٌ محيطةٌ بهم، ومقتضى النِّعمةِ المختصَّة التَّصديقُ بالشُّكْرِ عليها.

دلالةُ ﴿مُّصَدِّقٗا﴾ موقعًا ومادَّةً:

تصديقُ الرَّسولِ لما قبلَه أدعَى لإجابتِه والإذعانِ لَه

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالحالِ ﴿مُّصَدِّقٗا﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا﴾؛ للدَّلالة على هيئةِ الضَّميرِ المُخبَرِ عنه بأنَّه المُرسَلُ إليهم، فيكون الضَّميرُ صاحبَ الحالِ، و(رسولاً) عامَلًا في الحالِ لـ"ما في الرَّسول من معنى الإرسال"[1]، واسمُ الفاعل مُشتقٌّ من الفعلِ المزيدِ فيه بالتَّضعيف (صدَّق)، فيكونُ مُثبِتًا لصدقِ التَّوراةِ من خلال عدمِ نقضِ أحكامِها، وعدمِ الخروجِ عن إثباتِ حقّيَّتِها وصِدْقِها؛ إذ إرسالُهُ تصديقٌ بالتَّوراة، الَّتي بشَّرت به، وبمَن سيأتي بعدَهُ، وذلك أدعى لإجابتِه وتصديقِهِ؛ لأنَّ شريعتَهُ امتدادُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 254.

لشريعةِ التَّوراة، ووجودُهُ حاكمٌ بصدقِها، فاللّائق بهم الإذعانُ له والتَّصديقُ به، ولذا فإنَّ مادَّةَ الحالِ تَحتمِلُ: أنّي جئتُ إليكم بالنَّعتِ الذي وُصِفتُ في التَّوراة، أو ﴿مُّصَدِّقًا﴾ بالتَّوراة وبكُتُبِ اللّه تعالى؛ ليُعلَمَ أنَّ الرُّسُلَ كان يلزمُهم الإيمانُ بالكتب المتقدِّمة والرُّسُلِ جميعًا، كما يلزمُ ذلك أمَّتَهم، أو آمرُكم بعبادةِ اللّه ﷻ وتوحيدِه، كما أُمِرتُم به في التَّوراة؛ ليُعلَمَ أنَّ الرُّسُل كان دينُهم واحِدًا، وأنَّهم كلَّهم يدعونَ إلى التَّوحيد وعبادةِ الرَّحمن، وأمّا الشَّرائع؛ فقد يجوزُ اختلافُها، ولا يدلُّ ذلك على اختلافٍ في الدّين؛ لأنَّ الشَّرائع قد تختلفُ في رسولٍ واحدٍ، ولا يَختلفُ دينُه، فكذلك الرُّسُل"[1]، وفي الحال دلالةٌ: "على أنَّ تصديقَ المتقدِّم من الأنبياء والكتُب من شعائرِ أهلِ الصِّدق، وفيه مدحٌ لأمَّةِ محمَّد ﷺ حيثُ صدَّقوا الكلَّ"[2].

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لِّمَا﴾:

التَّصديقُ للمضامين موافقةٌ لوصايا المُرسَلين السّابقين

عدَّى النَّظمُ الكريمُ التَّصديقَ بـ(اللّام) دونَ (الباء)، في قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ رسوليَّته تصديقٌ له، لا مجرَّدُ تصديقٍ به؛ إذِ التَّصديقُ بالشَّيء اعترافٌ وإذعانٌ بصحَّتِه، والتَّصديقُ له بالإتيانِ بشريعةٍ تكونُ امتدادًا له وإثباتًا لصحَّته، وأنَّ ادِّعاءَهُ الرِّسالةَ موافقٌ لنصوصِها المبشِّرة به، فيكونُ تصديقًا لها وموافقةً لمضمونِها.

دلالةُ (ما) في ﴿لِّمَا﴾:

الإجمالُ بالكلام بلوغُ المَرام

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاسم الموصول (ما)، في قولِه تعالى: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾؛ للدَّلالةِ على العموم الشّاملِ لَمجموعِ الأوامرِ والأحكام، وفي (ما) إبهامٌ يحتاجُ إلى تفسيرٍ وتفصيل، فيكون فيه تشويقٌ لما سيأتي بعدَهُ من بيانٍ وإيضاح.

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 631.

(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 254.

دلالةُ الكنايةِ في الإضافةِ ﴿بَيۡنَ يَدَيَّ﴾:

الـشَّيءُ بينَ اليدَينِ حاضرٌ أمامَ العَينِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ التَّركيبَ الظَّرفيَّ صلةً للموصولِ، في قولِه تعالى: ﴿مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾؛ للدَّلالةِ على الحُضورِ أمامَهُ وفي مَرأى العين ومَسمَعِ الأُذُن، فهو كنايةٌ عن الحاضِرِ أمامَهُ؛ إذ يلزمُ من كونِ الشَّيء بينَ اليدين أنَّه حاضِرٌ لديه، ولا يكونُ حاضِرًا عنده إلّا إذا كان مُتقدِّمًا عليه، فهو مُصدِّقٌ للشَّيءِ السّابق عليه، والمُمتدِّ إلى زمنِ حاضِرِه.

دلالةُ (اليدين):

الحضورُ بينَ اليدين تصديقٌ بمجموعِ المَضامين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن الحاضرِ أمامَ المُصدِّق بكونِه بينَ اليدينِ في قولِه تعالى: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾؛ للدَّلالة على القَبولِ به؛ إذ كونُ الشَّيءِ بينَ اليدينِ يفيدُ الاعترافَ به، والتَّصديقَ أيضًا.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

التَّفصيلُ والبيان كاشفٌ عن اللّائق بالإيمان

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿مِنَ﴾ الجارَّة، في قولِه تعالى: ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾؛ للدَّلالة على البيانِ للمُبهَم والإيضاحِ للمُجمَل، وفي ذلك التَّفصيلِ ترغيبٌ منه لهم بالإيمانِ به؛ فهو مُصدِّقٌ لما يُؤمنونَ به، فالأجدرُ منهم القَبولُ والإذعانُ.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾:

تعيينُ الكتابِ المُصدَّق يَستدعي الإيمانَ المُحقَّق

عرَّفَ النَّظمُ الكريم لفظَ ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾؛ للدَّلالةِ على العهدِ العلْميِّ بالكتابِ المنزَّلِ على بني إسرائيل، وفي التَّعريفِ والتَّعيينِ لهُ إشارةٌ إلى أنَّ إيمانَهم بالتَّوراةِ المنزَّلة عليهم داعٍ للتَّصديقِ بها؛ فرَسوليَّتُه مصدِّقةٌ بما تضمَّنتْهُ من بشاراتٍ به، وموافقته لأحكامها ومضامينِها.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَمُبَشِّرَۢا﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ﴾ على

الحالِ السّابقة، و"العاملُ في الحالينِ ما في (الرسول) من معنى الإرسال"[1]؛ ليُفيدَ الجمعَ بينَ الحالينِ، وهما التَّصديقُ لما في التَّوراةِ من بِشاراتٍ بشَّرتْ بعيسى ﵇، وبشاراتٍ بشَّرتْ بمحمَّدٍ ﷺ، والتَّبشيرُ مجدَّدًا بالرَّسولِ الخاتَم ﷺ، فيكونَ النَّظم الكريمُ قد بيَّنَ هيئةَ المُرسَلِ إليهم بالتَّصديقِ منه لما جاءتْ به بشاراتُ التَّوراة، والتَّأكيدِ على البشاراتِ الَّتي جاءتْ بها التَّوراةُ بالنَّبيِّ الكريم ﷺ، حتّى إنَّه بَشَّرَ به مُحقِّقًا لتلك البشاراتِ السّابقة، "وهذا أيضًا داعٍ إلى تصديقِه ﵇، من حيثُ إنَّ البشارةَ به واقعةٌ في التَّوراة"[2].

التَّصديق والتَّبشير تأكيد على قُرْب وصولِ البشير النَّذير

دلالةُ اسمِ الفاعلِ (مُبشِّرًا):

المُبشَّرُ به رحمةٌ للعالَمين وفرحةٌ للمُؤمنين

آثرَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الفاعلِ من (التَّبشير)، في قولِه تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ رسوليَّةَ عيسى ﵇ مقيَّدةٌ بالتَّبشير، فيكونُ التَّبشيرُ به غايةً أساسيَّةً للرَّسوليَّة، و"بشَّرهم به؛ ليُؤمنوا به عندَ مَجيئه، أوْ ليكونَ معجزةً لعيسى عندَ ظُهوره، والتَّبشيرُ به تبشيرٌ بالقُرآن أيضًا، وتصديقٌ له كالتَّوراة"[3]، ودلَّ اسمُ الفاعل على حصولِ ذلك منه على سبيل التَّكثيرِ والمبالغة؛ لأنَّ اسم الفاعلِ مشتقٌّ من الفعلِ (يُبشِّرُ)، الدّالِّ على التَّكثيرِ والمُبالغة في الفعل، والتَّبشير هو الإخبارُ بالسّارِّ من الكلامِ، فهو المقابلُ للتَّخويفِ والتَّهديد، ممّا يدلُّ على أنَّ المبشَّر به رحمةٌ للعالَمينَ، وفرحةٌ للمؤمنينَ، و(مبشِّرًا) يرفعُ فاعلًا مُستترًا يعودُ إلى (عيسى ﵇)، وإنَّما أُفردَ التَّبشيرُ به - مع أنَّ كلَّ نبيٍّ بشَّرَ قومَهُ بنبيِّنا ﷺ - "لأنَّه آخرُ نبيٍّ قبلَ نبيِّنا ﷺ؛ فبيَّن بذلك أنَّ البشارةَ به عمَّتْ جميعَ الأنبياء واحدًا بعدَ واحدٍ، حتَّى انتهتْ بعيسى ﵇"[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 208.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 254.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 254.
(4) القشيريّ، لطائف الإشارات: 3/ 577.

معنى (الباءِ) ودلالتُها في ﴿بِرَسُولٖ﴾:

تقييدُ التَّبشير يدلُّ على البِشْرِ الجامِعِ الكبير

عدَّى النَّظمُ الكريمُ اسمَ الفاعل (مُبشِّرًا) بالباءِ، في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ﴾؛ للدَّلالةِ على المبشَّرِ به، وقد حذفَ النَّظمُ الكريمُ المُبشَّرينَ، وهم (بنو إسرائيل)؛ للعلْم بهم من الكلام السّابق، ولإفادةِ العموم، فيشملُ الجميع، ويدخلُ بنو إسرائيل فيهم بطريقِ الأولويَّة، وقد دلَّتِ (الباءُ) المعدّية على تقييدِ فعل التَّبشيرِ بالمبشَّر به، وهو الرَّسولُ دون أيَّةِ بشارةٍ أُخرى، والمعتادُ أنْ نقولَ: (بشَّرتُك بالخيرِ)، فيكون المبشَّرُ به جامعًا لكلِّ بشاراتِ الخير؛ إذ أعلى بشارةٍ يحصلُ عليها النَّوعُ الإنسانيُّ أن يُرسِلَ المولى الجليلُ لهم رَسولًا منه، ولذا قالَ ابنُ عاشور عن التَّبشير: "الإخبارُ بِحادِثٍ يَسُرُّ، وأُطلِقَ هُنا على الإخبارِ بِأمرٍ عَظيمِ النَّفعِ لَهُم؛ لأنَّهُ يَلزَمُهُ السُّرورُ الحَقُّ؛ فَإنَّ مَجيءَ الرَّسولِ إلى النّاسِ نِعمَةٌ عَظيمَةٌ"[1].

دلالةُ التَّنكيرِ في (رَسول):

تفخيمُ الرَّسول لكونه لكلِّ الأُمَم والأُصول

حدَّدَ النَّظمُ الكريم المُبشَّرَ به بأنَّه (رسولٌ)، في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ﴾؛ للدَّلالةِ على جنسِ البِشارة ووظيفةِ المبشَّرِ به، وعُلِمَ ممّا سبق أنَّه رسولٌ من الله؛ لقوله قبلُ: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم﴾، فهو رسولُ الله، والمُبشَّرُ به رسولُ الله أيضًا، لكنَّ النَّظمَ الكريم، كما حذفَ مَبدأ الإرسالِ حذفَ غايةَ الإرسال، فلم يقُل: (إليكم)؛ للدَّلالةِ على عالميَّة تلك الرِّسالة، وأنَّها غيرُ مختصَّةٍ بأُمَّةٍ من الأمم، ففي تنكيرِ (رسول) تفخيمٌ وتعظيمٌ لشأنِه ﷺ.

دلالةُ النَّعتِ بالجملةِ الفعليَّة ﴿يَأۡتِي﴾:

استعارةُ الإتيان دالٌّ على القَبول والجَرَيان

وصفَ النَّظمُ الكريمُ النَّكرةَ بالجملةِ الفعليَّةِ، في قوله تعالى: ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾؛ للدَّلالةِ على تخصيصِ الرَّسول المنكَّرِ بالإتيانِ والقدومِ، وذلك الإتيانُ دليلٌ على أنَّه رسولٌ من الله تعالى؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 181.

لأنَّ الَّذي يأتي لا بدَّ من أنْ يكونَ قادمًا مِن مُرسِلٍ، فيكون النَّظمُ الكريمُ قدِ استعارَ الإتيانَ للإرسالِ، فلم يقل: (برسولٍ يُرسَلُ مِن بعدي)، فقد شبَّه الإرسالَ بالإتيانِ بجامعِ الحُضور في كلٍّ من الرَّسول والآتي، والغرضُ من الاستعارة إفادةُ أنَّه قَبِلَ الإرسالَ، واتَّصفَ بالإتيانِ، وأفادتِ الجملةُ الفعليَّةُ دلالةَ الحدوثِ لعمليَّة الإتيانِ والقُدوم.

دلالةُ الفعلِ المُضارعِ ﴿يَأۡتِي﴾:

انتظارُ الخبرِ السَّعيد بقدومِ النَّبيِّ الجديد

اختارَ النَّظمُ الكريم الفعلَ المضارعَ ﴿يَأۡتِي﴾، في قولِه تعالى: ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾؛ للدَّلالةِ على حصولِ ذلك الإتيانِ في المستقبلِ لزمنِ التَّكلُّم، وفي تحديدِ الزَّمنِ المستقبلِ دعوةٌ للأذهانِ وتهيئةٌ لانتظارِ الخبرِ السَّعيد بقدوم النَّبيِّ المَجيد ﷺ.

معنى المتعلّق ﴿مِنۢ بَعۡدِي﴾، ودلالته:

ابتداءُ الإتيانِ بالبَعديَّة تقريبٌ للأزمنةِ المستقبليَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ﴿مِنۢ﴾ الجارَّة ومجرورها، في قولِه تعالى: ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾؛ للدَّلالة على الابتداءِ الزَّمنيِّ، فهو يأتي مِن اللّه تعالى إرسالًا، ويبدأ الإتيانُ مِن زمنٍ يقرُبُ من زمانٍ هو بعدي، فيكونُ في ذلك إشارةٌ إلى أنَّ المدَّةَ الزَّمنيَّةَ بينَ عيسى عليه السلام، وبينَ نبيِّنا ﷺ مدَّةٌ يسيرةٌ، حتّى كأنَّها تبدأ بمُجرَّدِ بَعْديَّتِه، وأنَّه لا نبيَّ أوْ رسولَ بينَهُما، فهو الآتي مِن بعدِه، ولم يقُل: (يأتي من اللّه)؛ لأنَّه فُهِم من كونِه رسولًا أنَّه مُرسَلٌ من اللّه تعالى.

الموقعُ الإعرابيُّ لجملةِ ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾:

التَّسميةُ والتَّوصيفُ دائمانِ له؛ لكمالِ التَّشريف

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الاسميَّة، في قوله تعالى: ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾؛ لتكونَ نعتًا ثانيًا لـ(رسول)، ووظيفةُ النَّعت التَّخصيصُ للنَّكرة؛ تقليلًا للشُّيوع وتوضيحًا للإبهام، وقد خُصِّصتِ النَّكرةُ بجُملتَين: الأولى منهما فعليَّةٌ: ﴿يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾؛ لمُناسبتها للإرسالِ والإتيانِ، وهُما فعلانِ حادثانِ، والثّانيةُ منهما اسميَّةٌ: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ

﴿أَحۡمَدُۖ﴾؛ للدَّلالة على الثُّبوت والدَّوام؛ إذِ التَّسميةُ له، أوِ التَّوصيفُ بذلك الوصفِ حاصِلٌ أزلًا وأبدًا، ويحتملُ أن تكونَ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا؛ دلالةً على استقلالِها والاهتمام بها، فيكونَ ترْكُ الوصلِ؛ لكونِها واقعةً في جوابِ سُؤالٍ مُفادُه: وما اسمُهُ؟ فقال: اسمُهُ أحمدُ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ العلَم ﴿أَحۡمَدُۖ﴾:

تحقيقُ التَّعيينِ بدَفْعِ اللَّبسِ عنِ المُخاطَبين

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بالاسم العلَم، في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعيينِ والتَّعريف، حتّى لا يقعَ إبهامٌ في تحديدِه وتشخيصِه، ومِن ثَمَّ قال البقاعيُّ: "ولمّا كان الإتيانُ بغايةِ البيان وإزاحةِ اللَّبس بكلِّ اعتبارٍ؛ أقعدَ في العتابِ لِمَن هفا بعدَهُ، والأخذ لِمَن جفا، فنقضَ عهدَهُ؛ أتى بالاسمِ الَّذي ما شاركَ النَّبيَّ ﷺ فيه أحدٌ في زمانِه ولا قبلَهُ أصلًا"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الاسم):

ثبوتُ الأحمديَّة علـى سبيـلِ العلَميَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بلفظِ (الاسم)، في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾؛ للدَّلالة إمّا على (الاسم) بمعنى (العلَم)، أي: عَلَمُهُ الَّذي يُعرَفُ به في التَّوراةِ هو أحمدُ، فيكونُ استعمالُ (الاسم) حينئذٍ على سبيل الحقيقة، وإمّا بمعنى (الوصْف)، أي: وصفُه أحمدُ، فيكونُ مجازًا في إطلاقِ الاسم على الوصْف، وإنَّما عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن الوصفِ بالاسم استعارةً؛ للدَّلالة على أنَّ هذا الوصفَ لازمٌ له ﷺ لزومَ الأعلامِ لمُسمَّياتها، فيكون هنالك استعارةٌ تصريحيَّةٌ، ويقوّي إرادةَ الوصفيَّةِ على العلميَّةِ أنَّ اسمَهُ ﷺ المعروفَ به هو (محمَّد)، وليسَ (أحمدَ)، وأنَّ اللّائق بالبِشارات ذِكرُ الأوصافِ دونَ الأعلام؛ حمايةً للمبشَّرِ به، وإكرامًا له بذِكرِ أوصافِه الجليلةِ، ومنعًا للادِّعاء نتيجةَ توافُقِ الأسماءِ الأعلام.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 528.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 14.

تعدُّدُ المعنى الاستعماليّ، وأثرُهُ في الحمل الدّلاليّ

إطلاقاتُ (اسم) ودلالاتُهُ:

ناقشَ ابن عاشور دلالات الاسم وإطلاقاته في كلام العرب عندما تعرَّض لقوله تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ قائلًا: "ولا يُحمَلُ قَولُهُ: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ على ما يَتَبادَرُ من لَفظِ (اسم) من أنَّهُ العلَمُ؛ لأنَّ هَذا الحملَ يمنَعُ منهُ أنَّهُ ليسَ بمُطابقٍ للواقعِ؛ لأنَّ الرَّسولَ المَوعودَ به لم يَدعُهُ النّاسُ (أحْمَد)، فلَم يكُنْ أحَدٌ يَدعو النَّبيَّ مُحَمَّدًا ﷺ باسْمِ (أحْمَدَ)، لا قبلَ نبوَّتِه ولا بَعدَها، ولا يُعرَفُ ذَلكَ"[1]، وحدَّدَ استعمالاتِ لفظةِ (اسم) بثلاثة إطلاقاتٍ، هي:

أوّلًا: أنْ يَكونَ بمَعنى المُسَمَّى، فإن كانَ لفظُ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ اسمَ تَفْضيل يَجوزُ أنْ يَكونَ مَسلوبَ المُفاضَلَة، مَعْنيًّا به القوَّة فيما هو مُشتَقٌّ منهُ، أي: الحمد، وهو الثَّناءُ، فيكونَ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ هُنا مُستعمَلًا في قوَّةِ مَفعوليَّةِ الحمدِ، أي: حمدِ النّاسِ إيّاهُ، فالوصْفُ بـ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ بالنِّسبَةِ للمَعنى الأوَّلِ في (اسْم): أنَّ مُسمَّى هذا الرَّسول ونفسهُ مَوصوفة بأقوى ما يَحمَدُ عليه مَحمودٌ، فَيَشمَلُ ذَلكَ جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ النَّفسانيَّةِ والخُلُقيَّةِ والخلقيَّةِ والنَّسبيَّةِ والقَوميَّة، وغَيرِ ذَلكَ ممّا هو مَعْدودٌ مِنَ الكمالات الذّاتيَّة والعَرَضيَّة، ويَصِحُّ اعتبارُ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ تَفْضيلًا حَقيقيًّا في كَلامِ عيسَى عليه السلام، أي: مُسَمّاهُ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ منّي، أي: أفْضَلُ، أي: في رِسالَتِه وشَريعَتِه.

ثانيًا: أنْ يَكونَ الاسمُ بمَعْنَى شُهْرَةٍ في الخَيْرِ، والوصْفُ بـ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ على هذا المعنى أنَّ سُمْعَتَهُ وذِكْرَهُ في جيلِه والأجْيالِ بَعْدَهُ مَوْصوفٌ بأنَّهُ أشَدُّ ذِكْرًا مَحْمودًا وسُمْعَةً مَحْمودَةً.

ثالثًا: أنْ يُطْلَقَ على لَفْظٍ جُعِلَ دالًّا على ذاتٍ؛ لِتُمَيَّزَ مِن كَثيرٍ من أمثالِها، وهَذا هو العلَمُ، ووَصْفُ ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ بالنِّسْبَةِ إلَى هذا المَعْنَى رمزٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 182.

إلَى أنَّهُ اسمُهُ العلَمُ، ويكونُ بمعنى: أحْمَدَ، فَإنَّ لَفْظَ (مُحَمَّدٍ) اسمُ مَفْعولٍ مِن (حَمَّدَ) المُضاعَفِ الدّالِّ على كَثْرَةِ حَمْدِ الحامِدينَ إيّاهُ؛ كَما قالوا: فُلانٌ مُمَدَّحٌ؛ إذا تَكَرَّرَ مَدحُهُ مِن مادِحينَ كَثيرينَ، فاسْمُ (مُحَمَّدٍ) يُفيدُ مَعنَى المَحمودِ حمدًا كَثيرًا، ورُمِزَ إلَيه بِأحمَدَ"[1].

دلالةُ الاسمِ ﴿أَحۡمَدُ﴾:

أغلبيَّتُهُ لكلِّ حامِدٍ تعظيمٌ لمقامِه الماجِد

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن الاسم للنَّبيِّ الكريم بلفظِ ﴿أَحۡمَدُ﴾، في قولِه تعالى: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه مُشارِكٌ للآخر في الحمْدِ معَ زيادةٍ فيه، ففيه إشارةٌ إلى تفضيلِ مقامِه الشَّريف على سائِرِ الحمّادينَ للّه تعالى، إذِ اسمُ التَّفضيل: ما دلَّ على معنًى في صاحبِه معَ زيادةٍ في ذلك المعنى على غيرِه، ولذا قال الحنبليُّ: "هو الَّذي حَمْدُه لربِّه أفضلُ من حمدِ الحامدينَ غيرِه، وهو الذي يَحمدُهُ أهلُ الدُّنيا وأهلُ الآخرة، وأهلُ السَّماء والأرض، فلكثرة خَصائِله المحمودة التي تفوقُ عددَ العادّين سُمّيَ باسمَينِ من أسماءِ الحمد، يَقتضيانِ التَّفضيلَ والزّيادة في القَدْرِ والصِّفة، فدلَّ أحدُ الاسمَين، وهو (محمَّد) على كونِه مَحمودًا، ودلَّ الاسمُ الثاني، وهو ﴿أَحۡمَدُ﴾ على كونِه أحمدَ الحامدينَ لربِّه، وأنَّ الحمدَ الَّذي يَستحقُّه أفضلُ ممّا يَستحِقُّهُ غيرُهُ"[2]، فالاسمُ: "﴿أَحۡمَدُ﴾ يحتملُ معنيين: **أحدهما:** أنَّه مبالغةٌ من الفاعل، أي: إنَّه أكثرُ حمدًا للّه من غيرِه، **والآخر:** أنَّه مبالغةٌ من المفعول، أي: إنَّه يُحمَدُ بما فيه من الأخلاقِ والمَحاسنِ أكثرَ ممّا يُحمَدُ غيرُهُ"[3]، فإن كانَ في مُبالغةِ (الفاعل)؛ فيترجَّحُ كونُ ﴿ٱسۡمُهُۥٓ﴾ بمعنى الصِّفة، وإن كان في مُبالغةِ (المفعول)؛ فيترجَّحُ كونُ ﴿ٱسۡمُهُۥٓ﴾ بمعنى العلَم؛ لأنَّ محمَّدًا هو أحمدُ حينَئذٍ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 182، وما بعدها.
(2) الحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 41.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 388.

والحمدُ هو الثَّناءُ باللِّسان على الجميلِ الاختياريِّ مقابلَ نعمةٍ أوْ غيرها، فيكون أحمدَ بموافقةِ جَنانِه لِسانِه، وبزيادةِ حمْده اللِّسانيِّ على غَيره.

بلاغةُ إدماجِ التَّبشيرِ في الإيذاء:

الخبرُ السَّعيد يُزيلُ الحُزنَ معَ التَّبديد

أدمجَ النَّظمُ الكريمُ التَّبشيرَ بالنَّبيِّ ﷺ، في قوله: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾، في الموضوعِ الأساسِ الذي هو بيانُ إيذاءِ النَّبيّينَ السّابقينَ وصبرِهم على أقوامِهم، قال ابن عاشور: "وذِكْرُ القُرآنِ تَبشيرَ عيسَى بِمُحَمَّدٍ عليهما الصَّلاة والسَّلام إدماجٌ في خِلالِ المَقْصودِ، الذي هو تَنْظيرُ ما أوذيَ به موسَى من قَومِه، وما أوذيَ به عيسَى من قَوْمِه؛ إدماجًا يُؤَيِّدُ به النَّبيَّ ﷺ، ويُثَبِّتُ فُؤادَهُ، ويَزيدُهُ تَسليَةً، وفيها تَخَلُّصٌ إلى أنَّ ما لَقيَهُ مِن قَومِه نَظيرُ ما لَقيَهُ عيسَى مِن بَني إسرائيلَ"(1).

طبيعةُ الإسنادِ في ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾:

الإسنادُ اللَّفظيُّ مقابلٌ للإسنادِ المَعنويِّ

أسندَ النَّظمُ الكريمُ ﴿أَحْمَدُۖ﴾ إلى ﴿ٱسْمُهُۥٓ﴾، في قولِه تعالى: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُۖ﴾، وهذا من الإسناد اللَّفظيِّ دونَ المعنويِّ، قال ابنُ عطيَّة: "وهو في هذه الآيةِ الكلمةُ لا الشَّخصُ، وليستْ على حدِّ قولِك: (جاءنا أحمدُ)؛ لأنَّك هاهنا أوقعتَ الاسمَ على مُسمّاه، وفي الآية إنَّما أراد: ﴿ٱسْمُهُۥٓ﴾ هذه الكلمة"(2).

معنى (الفاءِ) ودلالتُها في ﴿فَلَمَّا﴾:

التَّسبُّبُ والتَّعقيبُ نتيجةٌ لكلِّ خبرٍ مُهمٍّ عَجيب

عطفَ النَّظمُ الكريم بـ(الفاء)، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعقيبِ والتَّسبُّبِ عن كونِه رسولَ الله إليهم، أو للدَّلالةِ على التَّسبُّبِ والتَّعقيب؛ لكونِ المبشَّرِ به رسولًا يأتي مِن بعده؛ إذِ الإخبارُ برسوليَّتِه لبني إسرائيلَ خبرٌ مهمٌّ عظيم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 186.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 303.

وتبشيرُه برسولٍ مِن بعدِه حدثٌ عجيبٌ، لا بدَّ من أن تتسبَّبَ عنهما نتيجةٌ وموقفٌ.

معنى (لمّا) ودلالتُها:

المُسارعةُ إلى التَّكذيب يدلُّ على جهلٍ عجيب

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ(لمّا)، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ﴾؛ للدَّلالة على الشَّرطيَّة الظَّرفيَّة الحينيَّة، وتفيدُ تعليقَ حصولِ مَضمونِ جَوابها بحصولِ مَضمونِ شَرْطِها، وفيها دلالةٌ على المُسارعة إلى التَّكذيبِ، فيكونُ قولُهم بأنَّه: ﴿سِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾ عقيبَ مجيئِه بالآياتِ البيِّنات من دونِ تخلُّلِ تفكيرٍ أو نظرٍ أو تدبُّرٍ في دلالةِ تلك الآيات ومَعانيها.

دلالةُ العُدولِ عن (الإيتاءِ) إلى (المجيء):

صعوبةُ المعجزات تقتضي صُعوبةَ الكلماتِ

عدلَ النَّظمُ الكريم عن فعلِ (الإيتاء) إلى فعلِ (المجيءِ)، في قولِه تعالى: ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ للتَّفرقةِ بينَ إتيانِه إليهم ومَجيئِه بالآيات البيِّنات؛ لأنَّ الإتيان أمرٌ ميسورٌ له؛ إذ بمُجرَّدِ اصطفاءِ اللّه له يأتي، ويُقبِلُ إليهم بكلِّ يُسْرٍ وسُهولة، لكنَّ تقديمَهُ للآيات يحتاجُ إلى فعلِ اللّه تعالى؛ ليُثبِتَ صِدقَهُ ونبوَّتَه، فيكونُ المجيءُ بالآيات أمرًا مَعسورًا؛ لتوقُّفِه على الحكمةِ الإلهيَّة، التي تختارُ الوقتَ المناسب والمكانَ المناسب ممّا لا يُحاطُ به عِلْمًا، فناسبَ التَّعبيرُ بلفظِ المجيءِ، ويحتملُ أنَّ صعوبةَ الإتيانِ بالأمرِ الخارقِ عادةً يَقتضي في النَّظم لفظًا دالًّا على صُعوبةِ الإيجادِ له، كما أنَّ اختيار الفعلِ الماضي دالٌّ على تحقُّقِ ذلك المجيءِ وحصولِه، ويحتمل أنَّ فعلَ المجيء مستعارٌ لدعوى النُّبوَّة؛ إذ دَعوى النُّبوَّة كالمَجيء.

الاختلافُ في مَرجع ضميرَي الرَّفعِ والنَّصب:

اختلف المفسِّرون في تحديد مرجع ضميرَي الرَّفع والنَّصب، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، أهو عائدٌ إلى عيسى

أثرُ تحديدِ مَرجعِ الضَّمير في التَّسويةِ في المَصير

ابنِ مريمَ ﵇؟ أمْ هو عائدٌ إلى النبيِّ الكريمِ ﷺ؟ قال ابنُ عطيَّة: "يحتملُ أن يريدَ (عيسَى)، وتكونَ الآيةُ وما بعدَها تمثيلًا بأولئك لهؤلاءِ المعاصِرين لمحمَّد ﷺ، ويحتملُ أنْ يكون التمثيلُ قد فرغَ عندَ قولِه: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾، ثمَّ خرجَ إلى ذكر أَحْمَدَ لمّا تطرَّق ذكره، فقال مخاطبًا المؤمنين: فَلَمّا جاءَ أحمدُ هؤلاءِ الكفّارَ؛ قالوا"[1]. والظّاهرُ أنَّه يَحتملُهما، ولا مانعَ من أنْ يكونَ مُستعمَلًا فيهما معًا، قال ابن عاشور: "فَإنَّ المُتَبادِرَ أن يَعودَ ضَميرُ الرَّفْعِ في قوله: ﴿جَآءَهُم﴾ إلَى عيسَى، وأن يَعودَ ضَميرُ النَّصبِ إلَى الَّذينَ خاطَبَهُم عيسَى، والتَّقديرُ: فَكَذَّبوهُ، فَلَمّا جاءَهُم بِالمُعْجِزاتِ؛ قالوا: هَذا سِحرٌ، أو هو ساحِرٌ، ويُحْتَمَلُ أن يَكونَ ضَميرُ الرَّفْعِ عائِدًا إلَى ﴿بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾، وضَميرُ النَّصبِ عائِدًا إلَى لَفظِ بَني إسرائيلَ، أي: فَلَمّا جاءَهُمُ الرَّسولُ الَّذي دَعاهُ عيسَى بِاسْمِ أحمَدَ بِالبَيِّناتِ، أي: دَلائِلِ انطِباقِ الصِّفاتِ المَوْعودِ بها، قالوا: هَذا سِحرٌ، أوْ هَذا ساحِرٌ مُبينٌ، فَيَكون هَذا التَّركيب مِن قَبيل الكلام الموجَّه، وحَصَلَ أذاهُم بِهَذا القَوْلِ لِكِلا الرَّسولَيْن، فالجُمْلَةُ على هَذا الاحتِمالِ تُحْمَلُ على أنَّها اعتِراضٌ بَينَ المُتَعاطِفاتِ، ومُمَهِّدَةٌ لِلتَّخَلُّصِ إلَى مَذَمَّةِ المُشْرِكينَ وغَيرِهِم، مِمَّن لم يَقبَلْ دَعوةَ مُحَمَّد ﷺ"[2].

مَعنى (الباءِ) ودلالتُها في ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾:

اقتران البيِّناتِ بدَعْوى النُّبوّات

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بباء الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ إمّا للدَّلالة على التَّعديةِ، أو للدَّلالة على المُصاحَبةِ والمعيَّة[3]، فتكونُ (الباءُ) متعلِّقةً بحالٍ محذوفةٍ، أي: مُلتبِسًا المجيءُ إليهم بالبيِّنات؛ دلالةً على مُصاحبةِ الآياتِ البيِّناتِ لمجيئِه إليهِم،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 303.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 187.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 256.

وإنْ كان المجيءُ بمعنى ادِّعاءِ النُّبوَّة؛ فيكونُ مُلتبِسًا ذلك الادِّعاءُ بالبيِّنات والمعجزات؛ لأنَّ النَّبيَّ الصّادقَ يتميَّزُ عن المتنبّي الكاذبِ بإظهار البيِّنة مقرونةً بدَعوى النُّبوَّة.

دلالةُ جمعِ (البيِّنات) ومجازيَّتِها:

تسميةُ الآياتِ بالبيِّناتِ من التَّسميةِ باللُّزوميّات

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن المعجزاتِ بجمعِ المؤنَّث السّالم، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، أي: بالآياتِ البيِّنات الظّاهراتِ الواضِحات، الدّالَّةِ على أنَّه نبيٌّ ورسول، وإنَّما جُمعت كذلك؛ للدَّلالةِ على أنَّها قليلةٌ نسبيًّا، لكنْ على قلَّتِها فهي بيِّنةٌ ظاهرةٌ واضحةٌ، فيكونُ العدولُ عن الآياتِ إلى البيِّنات؛ لجبرِ القِلَّةِ العدديَّة بالقيمةِ النَّوعيَّة، وتسميةُ الآيات والمعجزاتِ بالبيِّنات مجازٌ مرسَلٌ، من تسميةِ الشَّيء باسمِ وصفِه اللّازم له، فالعلاقةُ لزوميَّةٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ (القول) ماضيًا:

أقوالُ الأنبياءِ لطفٌ واستعطاف، وأقوالُ المكذِّبين تهجُّمٌ وجَفاف

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (القولِ) ماضيًا ومُسنَدًا إلى (واو) الجماعةِ، في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ للدَّلالةِ على صُدورِ القولِ منهم، وتحقُّقِ وقوعِه بمُجرَّدِ تقديمِ الآياتِ والبيِّنات "عندَ مَجيئِها، سواءٌ من غيرِ نظرةٍ لتأمُّلٍ ولا غيرِه"[1]، وليكونَ قولُهم التَّكذيبيُّ التَّهجُّميُّ مُقابِلًا لقولِه الصّادقِ المُستعطِفِ صدرَ الآيةِ؛ إظهارًا للطِّباقِ بينَ القولينِ والتَّبايُنِ بينَ الموقفين، وأسندَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ إلى الجماعةِ؛ لبيانِ أنَّ تكذيبَهم له واتِّهامَهم إيّاه على سبيلِ الاجتماعِ والتَّوافُق، وقد اختلفَ المفسِّرون في تحديدِ مرجعِ ضميرِ (الواو)؛ أهو عائدٌ إلى بني إسرائيلَ في تكذيبِهم لعيسى ابنِ مَريم ورسالتِه، أم هو عائدٌ إلى مُشركي العربِ ومَن تابعهم في تكذيبِهم لرسولِ اللّه ﷺ؟ والظّاهر أنَّه يحتملُ الاثنين، كما تقدَّمَ في تفسيرِ ضميرِ قولِه: ﴿جَآءَهُم﴾.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 28.

موقعُ جملةِ: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾:

تعنُّت الجاحدين على سبيل الدَّوامِ والثُّبوتِ التّامِّين

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الاسميَّة الواقعةِ في محلِّ النَّصب مقولَ القولِ، في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ للدَّلالةِ على تعنُّتِهم وجُحودهم الثّابتِ الدّائم، وتكذيبِهم للآياتِ بمقولةٍ وقعَ الحُكم فيها على سبيلِ الدَّوامِ والثُّبوتِ التّامَّين[1].

مَرجِعُ اسمِ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ ودلالتُهُ:

التَّقليلُ مِن شأنِ الآياتِ استكبارٌ وتهكُّمٌ بالواضِحات

عبَّر النَّظمُ الكريمُ باسمِ الإشارة الموضوعِ للقريب، في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ البيِّناتِ الَّتي جاءَهم بها سحرٌ وتمويهٌ وخِداعٌ ظاهرٌ، وإنَّما عبَّر عن (البيِّنات)، وهي مؤنَّثة باسمِ الإشارة المذكَّر ﴿هَٰذَا﴾؛ إمّا لكونها مجازيَّةَ التَّأنيثِ، أو مراعاةً للخبر ﴿سِحۡرٞ﴾، أو أنَّ المرجع هو المصدرُ المفهومُ من قوله: ﴿جَآءَهُم﴾ بتقدير: (المجيءُ بالبيِّنات سِحْرٌ)[2]، ويحتملُ أيضًا أن يكونَ مَرجِعُ اسمِ الإشارة: الآتيَ بالبيِّنات، كما دلَّت عليه قراءة حمزة والكسائيِّ وخَلَف: (ساحر)[3].

وفي التَّعبير باسمِ الإشارة للقريب؛ دلالةٌ على الاستخفافِ والتَّهكُّمِ والتَّصغير من شأنِ تلك الآياتِ العظيمةِ الباهِرة، وفي الإشارةِ إلى القريبِ - بعدَ الإشارة بـ(فاءِ) التَّعقُّبِ - إشارةٌ إلى شِدَّةِ اتِّصال الكفر بأوَّل أوقاتِ المَجيء[4].

دلالةُ الخبرِ ﴿سِحۡرٞ﴾ صيغةً ومادَّةً:

نسبةُ الآياتِ للسِّحر صورةٌ للخِداعِ والمكْر

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالخبرِ ﴿سِحۡرٞ﴾ مَصدرًا، في قولِه: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ حقيقةَ السِّحر وماهيّتَهُ تمثَّلتْ في

---

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 113.
(2) السّيوطيّ، تفسير الجلالين، ص: 739.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 28.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 28.

ذلك الصَّنيع؛ مبالغةً في الطَّعنِ والتَّشكيك، وأفادَ (السّحرُ) دلالةَ المُخادعةِ والتَّمويه وخِداعِ العين برؤيةِ الأشياءِ الخياليَّة حتّى يُعتقدَ أنَّها أمورٌ واقعيَّةٌ حقيقيَّة، قال الماتريديُّ: "وهذا يدلُّ على أنَّه جاءَهم بالآياتِ المعجزةِ؛ حيثُ نسبوهُ إلى السِّحر"[1].

تنوُّعُ القِراءاتِ في ﴿سِحۡرٌ﴾:

أثرُ القراءاتِ في تنوُّعِ الدّلالات

قرأ الجمهور: ﴿سِحۡرٌ﴾، من قوله تعالى: ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٌ﴾، أي: ما جاءَ به من البيِّنات سِحْرٌ، فتكونُ المبالغةُ في تسميةِ البيِّنات بالسِّحر، مع أنَّها أثَرُ السِّحر وناتجُه، لكنَّه جعلَها نفسَ السِّحرِ مُبالغةً، في حين قرأ حمزةُ، والكسائيُّ، وخَلَف العاشر: ﴿سَٰحِرٌ﴾، أي: هذا الجائي ساحِرٌ"[2]، وهذا إسنادٌ حقيقيٌّ لا مبالغةَ فيه، لكن فيه تهجُّمٌ على ذاتِ النَّبيِّ الَّذي أتى بالبيِّنات، وتتحقَّقُ المبالغةُ بشكلٍ ظاهرٍ لو كان مَرجِعُ اسمِ الإشارة هو النَّبيَّ، والإخبارُ عنه بأنَّه سِحْرٌ، وفيه حينَئذٍ مجازٌ عقليٌّ، من قبيلِ: جدَّ جِدُّه.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿مُّبِينٌ﴾:

من شدَّةِ الإساءةِ وصفُ الآياتِ بالسِّحر ذي الإبانة

وصفَ النَّظمُ الكريمُ السِّحرَ بـ(المبين)، في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا سِحۡرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالة على الظُّهورِ والوضوح؛ ليكونَ اتِّهامُهم للآياتِ بالسِّحر المُبين مُقابلًا لوصفِ الآياتِ أو تسميتِها بالبيِّنات، و﴿مُّبِينٌ﴾ اسمُ فاعلٍ مُشتقٌّ من الإبانةِ والبيان، ويشتمِلُ على ضميرِ (السّحر)، وفي نسبةِ النَّظم الكريم الإبانةَ والحديثَ إلى (السِّحر) إشارةٌ إلى استعارةٍ مكنيَّةٍ بتشبيه السِّحر بذاتٍ متكلِّمةٍ، تُفهم كونَها سِحرًا وخِداعًا، ثمَّ حذفَهُ، وأبقى من خواصِّه الإبانة؛ مبالغةً في توصيفِ الآياتِ بالخِداع، حتّى كأنَّها تتكلَّمُ، وتُبِينُ عن ذلك.

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 631.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 256.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإتيانُ والمَجيءُ:

الإتيانُ أوَّلُ المجيءِ، وهو أعمُّ مطلقًا منه وأيسرُ

يُطلَقُ (الإتيان) على أوَّلِ التَّحرُّكِ والقدوم نحو الهدفِ والمكانِ المقصود، فيقولُ القائل: (أتيتُك)، أي: شَرَعْتُ في القدومِ إليك، في حين أنَّ (المجيءَ) يكونُ عند الوصولِ إلى المقصَد، كما أنَّ كلَّ مجيءٍ هو إتيانٌ؛ إذ يستلزمُ المجيءُ الشُّروعَ في الإقبال، وليس كلُّ إتيانٍ مَجيئًا، ولذا وقعَ في قولِه: ﴿بِرَسُولٍ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي﴾ بالإتيان، أي: هو قادمٌ إليكم ولمّا يصِلْ بعدُ، وبعضُهم فرَّق بينَهما باليُسر والصُّعوبة، فالإتيانُ قدومٌ بكلِّ يُسْرٍ وسُهولةٍ، والمَجيءُ يكونُ بصُعوبة، ومِن ثَمَّ عبَّر النَّظمُ في الآيةِ عن حركةِ الرَّسول بالإتيان، وعبَّرَ عن المعجزات بالمَجيءِ؛ لتوقُّفِها على خَلْقِ المَوْلى لها.

التَّبشير والإخبار:

التَّبشيرُ أخصُّ مُطلقًا من الإخبار

التَّبشيرُ هو الإخبارُ المقيَّدُ بما يُسِرُّ، ويُفرِحُ النَّفْسَ والقلبَ، وأمّا الإخبار؛ فإنَّه يشملُ التَّحديثَ بالخبرِ السّارِّ والمُحزِن، فكلُّ تبشيرٍ هو إخبارٌ، ولا يَنعكِسُ كلّيًّا.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ [الصّف: 7]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعدَ التَّكذيبِ والهُجران يأتي التَّهديدُ والنُّكران

لَمّا ذكرَ النَّظمُ الكريمُ إيذاءَ الأقوامِ السّابقةِ لأنبيائهم، وأدمجَ تكذيبَ المُشركين من أهلِ مكَّة وأهلِ الكتاب للنَّبيِّ ﷺ لَمّا جاءَهم بالبيِّنات والآياتِ الواضِحات، شأنُهُ في ذلك شأنُ أولئك الأنبياءِ والرُّسُل الكرام؛ ناسبَ أنْ يذكر التَّهديدَ لأولئكَ المُكذِّبين، من خلالِ الإنكارِ والتَّعجُّبِ من شدَّةِ ظُلمِهم واستكبارِهم على الحقِّ البيِّن والمُعجزات الظّاهِرات، قالَ ابنُ عاشور: "كانَت دَعوةُ النَّبيِّ ﷺ مُماثِلَةً دَعوةَ عيسَى عليه السلام، وكانَ جَوابُ الَّذينَ دَعاهُم إلَى الإسلامِ مِن أهلِ الكِتابَينِ والمُشْرِكينَ مُماثِلًا لِجَوابِ الَّذينَ دَعاهُم عليه السلام، فَلَمّا أدْمَجَ في حِكايَةِ دَعوةِ عيسَى بِشارَتَهُ بِرَسولٍ يَأتي من بَعدِهِ؛ ناسَبَ أن يَنقُلَ الكَلامَ إلَى ما قابَلَ به قَوْمُ الرَّسولِ المَوْعود دَعْوَةَ رسولِهم، فَلِذَلِكَ ذُكِرَ في دَعوةِ هَذا الرَّسولِ (دينُ الإسلام)، فوُصِفوا بِأنَّهُم أظلَمُ النّاسِ تَشنيعًا لِحالِهِم"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: من (فري)، وهو أصل واحد يدلُّ على قَطْعٍ مع تقديرٍ، والافتراءُ: افتعالٌ، ويدلُّ على اختيارِ الفعلِ وقصدِه، سواءٌ كان في صلاحٍ أو فسادٍ، وفي كذبٍ أو صدقٍ[2]، وفَرَى يَفْري فلانٌ الكَذِبَ؛ إذا اختلقَهُ، والفِريةُ: الكَذِبُ والقذف[3]، والمرادُ به في الآية:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 187.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 9/ 70.
(3) الخليل، العين: (فري).

نسبة الكذِب إلى الله تعالى، واختلقوهُ عليه، وتعمَّدوا الكذبَ بقولِهم: إنَّ التوراة لم تُبشِّرْ بنبوَّةِ محمد ﷺ.

المَعنى الإجماليُّ:

مِن أشنع صورِ الافتراء التَّكذيبُ لِما فيه النَّجاء

والمرادُ: "أيُّ النّاس أشدُّ ظُلمًا ممَّن يُدْعَى إلى الإسلام الذي يوصِلُهُ إلى سَعادةِ الدّارَين، فتكونُ استجابتُه الافتراءَ والاختلاقَ على الله بتكذيبِ رسولِه، وتسميةِ آياتِه سِحرًا، فهو أظلمُ مِن كلِّ ظالِم، واللهُ لا يوفِّقُ الظّالمين إلى ما فيه فلاحُهُم؛ لسوءِ استعدادِهم وعدمِ توجُّهِهم إليه"[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواو) في ﴿وَمَنْ﴾:

إظهارُ أشنعِ الظُّلم بتركِ البِشارات والحُكْم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو)، في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ للدَّلالة على الاستئناف؛ إظهارًا لأبشعِ صورِ الظُّلم بعد بيانِ أفعالِ المُكذِّبين والظّالمينَ منَ الأُمَمِ السّابقة، فقد ظلمَ قومُ موسى نبيَّهُم بزيغِهِم، وظلمَ بنو إسرائيلَ عيسى نبيَّهُم بتكذيبِهم واتِّهامِهم، فأرادَ النَّظمُ الكريمُ بيانَ شدَّةِ ظُلْم المُكذِّبين بدعوةِ الإسلام من المشركينَ عمومًا وأهلِ الكتاب خُصوصًا، قال الطِّيبيُّ: "وفي إيقاع ﴿ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ مُقابلًا لـ(افتراء الكذب) إيذانٌ باتِّصالِها بقصَّةِ محمَّد صلواتُ الله عليه وسلامه، وأنَّ ذِكرَ ﴿ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ كالتَّخلُّص من القصَّةِ إلى القصَّة"[2]، في حينِ قالَ القاسميُّ: "وهذه الآيةُ إمّا مستأنِفةٌ رسالةَ النَّبيِّ ﷺ، طليعةٌ للآياتِ بعدَها، وإمّا متمِّمةٌ لما قبلَها؛ لتقبيحِ ما بهتَ به الإسرائيليّون عيسى عليه السلام، معَ الإشارة بعمومِها إلى ذَمِّ كلِّ مَن كانَ على شاكلتِهم، ولا يقالُ ﴿ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ يؤيِّدُ الأوَّل؛ لأنَّه عنوانُ المِلَّةِ الحنيفيَّة؛ لأنَّه قد يرادُ به معناهُ اللُّغويُّ، وقد كثُرَ ذلك في

---

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1401.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 389.

آياتٍ شتَّى، نعَم الأقربُ الأوَّلُ، واحتمالُ مثلِ الآيةِ لهذينِ الوجهينِ مِن بدائعِ التَّنزيل"[1]، ورجَّحَ ابنُ عاشور قائلا: "فالمُرادُ من هَذا الاستِفهامِ هُمُ الَّذينَ كَذَّبوا النَّبيَّ ﷺ، ولِذَلِكَ عُطِفَ هَذا الكَلامُ بِـ(الواوِ) دونَ (الفاءِ)؛ لأنَّهُ لَيسَ مُفَرَّعًا على دَعوةِ عيسَى عليه السلام"[2].

دلالةُ اسمِ الاستفهامِ (مَن):

الـتَّـعـبـيرُ عـن الإنـكـارِ بـالاسـتـفـهـامِ ادِّعـاءٌ لغرابتِه على الأفهامِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسمِ الاستفهامِ (مَن)، في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾؛ للدَّلالة على الإنكارِ لوُجودِ ظُلمٍ أعظمَ من هذا الظُّلم، قال الهرريُّ: "والاستفهامُ فيه للإنكار، أي: وأيُّ النّاسِ منَ المفترينَ أشدُّ ظُلمًا وأكثرُ جُرمًا ممَّنِ اختلقَ على اللهِ الكذبَ"[3]، معَ ما فيه منَ التَّعجيبِ ممّا يفعلونَهُ من افتراءٍ حينَ دعوتِهم إلى الإسلامِ، وقالَ ابنُ عادل: "وهذا تعجُّبٌ ممَّن كفرَ بعيسى ومحمَّد ﷺ بعدَ المُعجزاتِ الَّتي ظهَرَتْ لهُما"[4]، والمعنى: لا يوجَدُ أظلمُ من ذلك، ويؤولُ إلى: هو أظلمُ من كلِّ ظُلْم، قال ابن عاشور: "والاستِفهامُ بِـ (مَنۡ أَظۡلَمُ) إنكارٌ، أي: لا أحَدَ أظلَمُ مِن هَؤُلاءِ، فالمُكَذِّبونَ مِن قَبلِهِم إمّا أن يَكونوا أظلَمَ مِنهُم، وإمّا أن يُساووهُم، على كُلِّ حالٍ فالكَلامُ مُبالَغَةٌ"[5]، ولا يخفى أنَّ التَّعبير بالإنكارِ لوجودِ ظُلْمٍ أشنعَ من هذا، فالاستفهام يدلُّ على التَّفخيم لذلك الأمرِ المُنكَر، والتَّحيُّرِ في مَعرفةِ سببِه، والجهالةِ بحالِه ادِّعاءً، حتّى إنَّ ذلك الأمرَ المنكَرَ من شدَّةِ غرابتِه يُستفهَمُ عن سببِه، مع أنَّه معلومٌ؛ ولذا توجَّهَ إليه الإنكارُ.

دلالةُ اسمِ التَّفضيل ﴿أَظۡلَمُ﴾:

الاتِّـصـافُ بـالأظـلـمـيَّـةِ عـنـدَ اقـتـرانِ الافتراءِ بالدَّعوةِ الإسلاميَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسمِ التَّفضيلِ، في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على

---

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 223.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 188.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 257.
(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 19/ 55.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 188.

اتِّصاف المُفتري الكذبَ - حالَ دعوتِه للإسلامِ - بالظُّلم وزيادة على غيره، فهنالك ظالمٌ يَفتري على الله الكذبَ، وهنالك أظلمُ منه عندما يقترنُ افتراؤُه الظُّلمَ بالدَّعوة إلى الإسلام، فيكونُ اختيارُ اسم التَّفضيل مُناسبًا لسياقِ النَّظم من حصولِ الافتراءِ مُقترِنًا بالدَّعوة إلى الإسلامِ.

دلالةُ (مِن) في ﴿مِمَّنِ﴾:

التَّقريبُ للأذهان بالابتداءِ والبَيان

عبَّرَ النَّظمُ الكريم بـ(مِن) الجارَّةِ للمُفضَّلِ عليه، في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على الابتداءِ أوِ البيان، فكأنَّ الَّذين يفترونَ على الله الكذبَ منبعٌ لأشنعِ صورِ الظُّلم، أو أنَّها بيانٌ للإبهامِ والعُمومِ في (مَن) الاستفهاميَّةِ؛ بأنَّ مَن صدرَ منه ذلك هو الأشنعُ ظُلمًا مِن غيره.

دلالةُ المَوصول (مَن) في ﴿مِمَّنِ﴾:

التَّعبيرُ بالموصول تعليلٌ للإنكارِ المذكور

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الموصول، في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾؛ للدَّلالة على العمومِ الشّامل لكلِّ مَنِ اتَّصفَ بالافتراء والكذبِ على الله تعالى، قال ابن عاشور: "وقد شَمِلَ هذا التَّشْنيعُ جَميعَ الَّذينَ كَذَّبوا دَعوة النَّبيِّ ﷺ مِن أهلِ الكِتابَين والمُشرِكينَ، والمَقصودُ الأوَّلُ هُم أهلُ الكِتابِ"[1]، وإنَّما عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالموصول لدلالةِ الصِّلة على علَّةِ الاتِّصاف بالأظلميَّة، فتكونُ الصِّلةُ كاشفةً عن سرِّ الإنكارِ لوجودِ أظلمَ من ذلك، و(مِن) الجارَّةُ وإنْ دخلتْ على المفضَّلِ عليه، إلّا أنَّها في سياقِ النَّفي أفادتْ أنَّ مَنِ اتَّصفَ بذلك أظلمُ من كلِّ ظالم، والتَّقدير: لا يوجَدُ أظلمُ من ذلك.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الكذبُ المُتعمَّد افتراءٌ بِلا امتِراء

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي، في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 188.

مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾؛ للدَّلالة على حُصول الافتراءِ ووُقوعِه منهم على سبيلِ القَطْع والتَّحقُّق، وتدلُّ مادَّةُ (الافتراء) على الاختلاقِ والنِّسبةِ لغيرِ مَن هو له على سبيلِ الشِّدَّةِ والقوَّة؛ لأنَّها مأخوذةٌ من فَرْيِ الكلام بمعنى إحكامِه وإتقانِه، فيكونُ اختلاقُ الكذبِ ونسبتُه إلى اللّه تعالى بكلِّ تصميم وقوَّةٍ.

دلالةُ حرفِ الجرِّ ﴿عَلَى﴾:

الاستخفافُ والاستكبار بجَعْلِ افترائِهم فوقَ كلامِ الجبّار

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَى﴾، في قولِه تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾؛ للدَّلالة على الاستعلاءِ المجازيِّ؛ إذ الكلامُ لا يَعلو الكلامَ، ولإفادةِ أنَّ تقوُّلَهم الكذبَ على اللّه تقوُّلٌ عظيمٌ، حتّى كأنَّه صارَ افتراؤُهم الكذبَ فوقَ خبرِه وكلامِه الحقِّ المتعلِّق ببشاراتِ أحمدَ ﷺ، فهنالك مضافٌ محذوفٌ تقديره: افترى على كلامِ اللّه الكذبَ، بأنِ اختلقَ الكذبَ على كلامِه وبشاراتِه، ونسبَها إلى غيرِ النَّبيِّ الكريم ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليل:

الكذبُ على الله ورسُلِه كبيرٌ حجمٌ وبالِه

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الجليل في قولِه تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾؛ للدَّلالة على الاستبشاعِ والتَّفظيع؛ فإنَّ الافتراءَ في حدِّ ذاته مَعيبٌ وظُلمٌ كبيرٌ، فإنْ كان على اللّه تعالى؛ فإنَّه أعلى درجاتِ الظُّلم والبُهتان؛ لأنَّ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ مصدرُ كلِّ حقٍّ وحقيقةٍ؛ إذ هو دالٌّ على الذّاتِ الكاملةِ في الفَضائل والكَمالات، فتكونُ نسبةُ الكذبِ إليه وإلى كلامِه وأنبيائه ظُلمًا شديدًا.

دلالةُ المجازِ العقليِّ:

نسبةُ الكذبِ للمُسبَّب نسبةٌ له في الحقيقةِ للسَّبب

علَّقَ النَّظمُ الكريمُ افتراءَ الكذبِ بالجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، مع أنَّهم نَسَبوا الكذبَ إلى رُسُلِه وأنبيائه، فاتَّهموهم عندما جاؤوا بالبيِّنات بالسِّحر المُبين؛ للدَّلالةِ على أنَّ نسبةَ الكذبِ لأنبياءِ اللّه نسبتُه في

الحقيقة لمُرسِلِ أولئك الأنبياءِ، الذينَ منحَهُم خوارقَ العادات؛ لِكَي يُؤمنوا بهم وبكلامِهم، ولذا قال ابنُ عاشور: "وإنَّما جُعِلَ افتراؤُهُمُ الكَذِبَ على اللّهِ؛ لأنَّهُم كَذَّبوا رَسولًا يُخبِرُهُم أنَّهُ مُرسَلٌ مِنَ اللّهِ، فَكانَت حُرمَةُ هَذِه النِّسبَةِ تَقْتَضي أن يُقبِلوا على التَّأمُّلِ والتَّدَبُّرِ فيما دَعاهُم إلَيهِ؛ لِيَصِلوا إلَى التَّصديقِ، فَلَمّا بادَروها بِالإعراضِ، وانتَحَلوا لِلدّاعي صفاتِ النَّقْصِ؛ كانوا قَد نَسَبوا ذَلِكَ إلَى اللّه دونَ تَوَقيرٍ"[1].

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾:

قدَّم النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ على المفعولِ به ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾؛ للدَّلالة على الاهتمام بالتَّصريحِ بالمكذوبِ عليه؛ ليكونَ بمنزلة الحُجَّة القاطعةِ، على أنَّ الَّذي يُقدِمُ على ذلك؛ فإنَّه يكون أظلمَ الظّالمين وأشنعَ المُتجرِّئينَ.

تقديمُ المهتمِّ به تشنيعٌ على ما أقدَموا عليه

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾:

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الَّذي اختلقوهُ، ونَسبوهُ إلى اللّه تعالى هو الحقيقةُ الشَّنيعةُ والماهيَّةُ الكريهةُ المعروفة، فتكونُ (أل) فيه للجنس؛ دلالةً على استعظامِ ما نَسبوه وكراهةِ ما قالوهُ، ولعلَّ المرادَ بافتراءِ الكذبِ ونسبتِه إلى اللّه تعالى في السّياقِ ما يخصُّ اليهودَ، ومَن تَبِعَهم من أهل الكتابِ منَ النَّصارى، فتكون (أل) فيه للعهد، قال الهرريُّ: "وقالَهُ بتعريفِ ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾؛ إشارةً إلى قولِ اليهود: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾، فاللّامُ في ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ للعهد، أي: لا أحدَ منَ المُفترينَ أظلمُ منه، ومنَ الافتراءِ على اللّه الكذبُ في دَعوى النَّسب، والكذبِ في الرُّؤيا، والكذبِ في الإخبارِ عن رسول اللّه ﷺ"[2]، فقد

الكذبُ أساسُ كلِّ شناعة، فهو مَكروهٌ بكلِّ قناعة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 188.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 257.

جاءَ وصفُ النَّبيِّ ﷺ في كُتُبهم وعلى لسانِ رُسُلهم، فنَسبوا الكذبَ إلى اللّه تعالى من خلالِ تكذيبِهم لِما جاءَ في كُتُبه تعالى، المُنبئةِ عنِ اسمِه الشَّريف ووصفِه المُنيف ﷺ.

مَعنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَهُوَ﴾:

وقتُ الدَّعوةِ إلى الخيرِ العميم يظهَرُ عندَهُم الافتراءُ العظيم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾؛ للدَّلالة على الحال، فتكونُ جملتُها مُقيَّدةً لافتراءِ الكذبِ على اللّه تعالى؛ بيانًا لشِدَّة ذلك الكذبِ المُمازِج وقتَ الدَّعوة إلى الخيرِ المَحْض، فهذا الصِّنفُ من المُكذِّبين أظلمُ من كلِّ الظّالمين؛ فإنَّهم يَنسِبونَ الكذبَ إلى اللّه تعالى ورُسُلِه وكُتُبه حينَ دَعوتِهم إلى ما فيه خيرُهُم ومَنفعتُهُم، قال ابنُ عاشور: "وقَد كانَ لِجُملَةِ الحالِ: ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾ مَوْقِعٌ مَتينٌ هُنا، أي: فَعَلوا ذَلِكَ في حين أنَّ الرَّسولَ يدعوهُم إلَى ما فيه خَيرُهُم، فَعاضوا الشُّكرَ بِالكُفرِ"[1].

دلالةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه (هو):

مِن شدَّة الجُحود رفضُ الحقِّ مع الصُّدود

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ المسندَ إليه في الجملةِ الحاليَّة، من قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ والانحصارِ بحالةِ الدُّعاء إلى الصِّدقِ والفضيلة، مع تقويةِ الحُكم وتأكيدِه؛ إظهارًا لشِدَّةِ الجُحود الصّادرِ من هذا الظّالم، الذي انحصرَتْ، واختصَّتِ الدَّعوة به، ومع ذلك يَفتري الكذبَ، وينسِبُه إلى اللّه تعالى صدودًا عنه.

دلالةُ الفعلِ المضارعِ المَجهول ﴿يُدۡعَىٰٓ﴾:

تجدُّدُ الدَّعوةِ مُصاحِبٌ لتجدُّدِ الافتراءِ والكِذبة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارعِ المبنيِّ للمفعولِ، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ للدُّعاءِ له، وتجدُّدُ الدُّعاء له دالٌّ على تجدُّدِ افترائِه؛ لكونِ الدُّعاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 188.

واقعًا في الجملةِ الحاليَّة المقيِّدةِ لافترائِه، معَ عدم تعيينِ الدّاعي لكونه معلومًا، وليكونَ التَّركيزُ على فعلِ الدُّعاء الذي لم يُؤثِّرْ فيه.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿إِلَى﴾:

شدَّةُ الحرصِ والمُتابعة بالإيصالِ إلى الحقِّ بلا مُنازَعة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ ﴿إِلَى﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ غايةَ الدُّعاء الوصولُ بالمَدعوِّ إلى الإسلام؛ حرصًا عليه من التَّشتُّتِ والضَّياع، وأصلُ (إلى) للغايةِ المكانيَّة، فتكون (إلى) مُستعمَلَةً في الوصولِ المجازيِّ إلى ما ليس بمَكانٍ، أو شُبِّهَ الإسلامُ بمكانٍ يوصَلُ إليه، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ به، وكانت ﴿إِلَى﴾ دالَّةً على تلك الاستعارةِ المَكنيَّة.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾:

المدعوُّ للإسلامِ يَجمُلُ به الإقدامُ دونَ الافتراءِ واتِّباعِ الأوْهامِ

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾؛ للدَّلالة إمّا على العهد، وهو دينُ الإسلامِ الَّذي جاء به النَّبيُّ ﷺ بما يشتملُ عليه من عقائدَ وأحكامٍ وسلوكيّات، ولذا قال ابنُ كثير: "أي: لا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن يَفتَري الكَذِبَ على اللّٰهِ، ويَجعَلُ لَهُ أندادًا وشُرَكاءَ، وهو يُدعَى إلى التَّوحيدِ والإخلاصِ"[1]، وإمّا للحقيقة والجنس، أي: الدَّعوة إلى هذه الحقيقةِ المعيَّنة بكونِها أصلَ كلِّ سَعادةٍ وخَير، ولا يبعُدُ أنَّ (أل) في ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾؛ للدَّلالة على العَلَميَّة الغالبةِ، مثل: (قرأتُ الكتاب)، أي: كتابَ سيبويه، ولذا قال ابنُ عاشور: "واسمُ ﴿ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾ علَمٌ لِلدّينِ الَّذي جاءَ بِه النَّبيُّ ﷺ، وهو جامِعٌ لِما فيه خَيرُ الدُّنيا والآخِرَة، فَكانَ ذِكرُ هَذا الاسمِ في (الجُملَةِ الحاليَّةِ) زيادَةً في تَشنيعِ حالِ الَّذينَ أعرَضوا عَنهُ، أي: وهو يُدعَى إلَى ما فيه خَيْرُهُ، وبِذَلِكَ حَقَّ عليه وصفُ ﴿أَظۡلَمُ﴾"[2].

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 111.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 189.

دلالةُ التَّقابُلِ:

الدَّعوةُ تُقابَلُ بالافتراء، والإسلامُ يُقابَلُ بالكذِب

قابلَ النَّظمُ الكريمُ بينَ المَدعوِّ والدّاعي، في قولِه تعالى: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾؛ إذ نجدُ بينَ ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾ و﴿يُدۡعَىٰٓ﴾ تقابلًا ضِدّيًّا، وبينَ ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ و﴿ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾ تقابُلًا ضِدّيًّا، فيكونُ الإسلامُ هو الصِّدقَ والحقَّ بدلالةِ التَّقابل، فبدلًا من أن يكون النَّظمُ: (وهويُدعى إلى الصِّدق)، استبدلَ النَّظمُ الكريمُ (الإسلامَ) به؛ ليكونَ أعمقَ تأثيرًا في تسميةِ الإسلام بالصِّدق والحقِّ، فكأنَّ الإسلامَ هو الصِّدقُ كلُّه، ولا يتحقَّقُ في غيره، واستبدالُ الصِّدقِ المقابلِ للكذبِ بـ(الإسلام) مقابلٌ لاستبدالِهم الإجابةَ والإذعانَ له بـ(افتراءِ الكذب) على اللّه تعالى، وذلك: "أنَّ الظُّلمَ وضعُ الشَّيء في غيرِ مَوضعِه، فيَجعلُ إجابتَه افتراءَ الكذبِ على اللّه تعالى، يعني: كان جزاءُ الدّاعي القَبولَ والتَّصديقَ، فوضَعوا مَوضعَ التَّصديق والقَبول أنْ كذَّبوا، وسَمّوا ما جاءَ به سِحرًا"[1].

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَٱللَّهُ﴾:

حِرمانُ الظّالمينَ مِنَ الاهتداء جزاءٌ على ما كانوا يُبدونَهُ من الافتراء

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاستئنافِ، وهذه الجملةُ الاستئنافيةُ: "مُقرِّرةٌ لمضمونِ ما قبلَها، أي: واللّهُ لا يُرشِدُ الظّالمينَ لأنفسهم إلى ما فيه صلاحُهُم ورَشادُهم؛ لعدمِ توجُّهِهِم إليه؛ لأنَّهم دسّوها باجتراح السَّيِّئات وارتكابِ الموبقات، فختَمَ على قلوبهم، وجعلَ على أبصارهم غشاوةً"[2]، ومفيدةٌ جزاءَ اللّهِ تعالى لأولئك الظّالمين؛ بأنْ عاقبَهم بجنسِ عَمَلِهم، فقد كانوا يُسارعون إلى الافتراءِ على اللّه، ونسبةِ الكذب إلى أنبيائه؛ رغبةً عن الاهتداءِ، وانزعاجًا من سَماع الدُّعاء للإسلامِ والحقِّ والصِّدق، فعاقبَهم اللّهُ تعالى بالحِرمان من

(1) القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 70.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 258.

الاهتداءِ، ومنعَهم من الوصولِ لعظيمِ الافتراءِ، فالجملة: "تَأْييسٌ لهُم مِنَ الإقلاعِ عَن هذا الظُّلْمِ، أيَ: إنَّ الَّذينَ بَلَغوا هذا المَبْلَغَ مِنَ الظُّلْمِ لا طَمَعَ في صَلاحِهِم؛ لِتَمَكُّنِ الكُفْرِ مِنهُم حَتَّى خالَطَ سَجاياهُم، وهَذا يَعُمُّ المُخْبَرَ عَنهُم وأمثالَهُمُ الَّذينَ افتَرَوا على عيسَى، فَفيها مَعنى التَّذييلِ"[1].

دلالةُ تقديمِ المسندِ إليه (الله):

المبالغةُ في الافتراء تَقتضي الرَّدَّ بعدمِ الإيصالِ والإهداء

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ المسندَ إليه في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الانحصارِ والاختصاص، فاللهُ وحدَهُ دونَ ما عداه لا يوصِلُ القومَ الظّالمين إلى الهداية، مع ما فيه من تقويةِ الحُكم وتحقيقِه؛ ردًّا على سوءِ افترائهم وشِدَّةِ ظُلمهم.

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَا﴾:

نفيُ الهدايةِ في المستقبَلِ والحالِ على ما صدرَ مِنهم من سوءِ المقَال

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿لَا﴾ النّافيةَ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على نفيِ الهدايةِ عنهم في الحالِ والاستقبال؛ لأنَّهم كلَّما تجدَّدَتْ دعوتُهُم في الحالِ والاستقبالِ إلى الإسلامِ يصدرُ منهم نسبةُ الكذبِ إلى اللهِ تعالى، وما جاءَ به من الحقِّ.

دلالةُ الفعلِ المُضارعِ ﴿يَهۡدِي﴾:

تكذيبُ الظّالمين صورةٌ لعدمِ خَلْقِ الهدايةِ لهُم مِن ربِّ العالَمين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المُضارعِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لعدمِ الهدايةِ لهم، فلا أملَ لهم بالوصولِ إلى ما يُفضي إلى الهداية، ولا قابليَّةَ لهم لسَماعِ كلمةِ الإسلامِ والإيمانِ بها، فما نراهُ من صدودٍ ونسبةِ الكذبِ إلى اللهِ ورسولِه صورةٌ من صورِ عدمِ الهداية، ونموذجٌ من نماذجِ الخُذلانِ لهم عن الرَّشاد.

دلالةُ الإسنادِ في ﴿لَا يَهۡدِي﴾:

أسندَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ عدمِ الهدايةِ إلى اللهِ تعالى، في قولِه:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 189.

الغضبُ الإلهيُّ مانِعٌ مِنَ الاهتداءِ القَلبيّ

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ "لأنَّ سَبَبَ انتِفاءِ هَذا الهَدي عَنهُم أثَرٌ من آثارِ تَكوينِ عُقولِهم ومَدارِكِهم على المُكابَرَة بِأسبابِ التَّكوين، الَّتي أوْدَعَها اللّهُ في نِظام تَكَوُّن الكائِنات وتَطَوُّرِها، مِنَ ارتِباطِ المُسَبِّباتِ بِأسبابِها، مَعَ التَّنْبيه على أنَّ اللّهَ لا يَتَدارَكُ أكْثَرَهُم بعِنايَتِه، فَمُغَيِّرٌ فيهم بَعضَ القوى المانِعَةِ لَهُم مِنَ الهُدَى غَضَبًا عليهِم؛ إذ لم يُخلِفوا بِدَعوةٍ تَستَحِقُّ التَّبَصُّرَ؛ بِسَبَبِ نِسبَتِها إلَى جانِبِ اللّه تَعالَى، حَتَّى يَتَمَيَّزَ لَهُمُ الصِّدْقُ مِنَ الكَذِبِ، والحَقُّ من الباطِل"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾:

التَّعبيرُ بالقَوْم دليلُ القوَّةِ والحَزْم

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن المُشركينَ من أهلِ مكَّةَ وأهلِ الكتاب بلفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالة على مَدى قوَّتِهم وقيامِهم، وشدَّةِ شَوكتِهم وحزمِهم، فقد اجتمعَتْ كلمتُهم، وتحزَّبَ رأيُهم حتّى صاروا قَوْمًا يقومونَ بالأمور المهمَّة، فلم يقُلِ النَّظمُ: (واللّهُ لا يَهدي الظّالمين)، بل ذكرَ موصوفَ الظّالمينَ للدَّلالةِ على شدَّةِ أمرِهم واجتماعِ كلمتِهم؛ لما في لفظ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ من قَوامةٍ وسَيطرةٍ ونفاذِ رأيٍ، قال ابن عاشور: "فلا طَمَعَ في صَلاحِهم؛ لِتَمَكُّنِ الكُفْرِ مِنهُم حَتَّى خالَطَ سَجاياهُم، وتَقَوَّمَ مَعَ قَوميَّتِهِم، ولِذَلِكَ أقْحَمَ لَفْظَ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾؛ لِلدَّلالَةِ على أنَّ الظُّلْمَ بَلَغَ حَدَّ أنْ صارَ مِن مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهِم"[2].

دلالةُ النَّعتِ بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

تعليقُ الحُكمِ بالمشتقِّ دالٌّ على عليَّةِ التَّحقُّق

نعتَ النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱلۡقَوۡمَ﴾ بلفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على تعليلِ الحُكم بعدم الهِداية؛ إذ صدورُ الظُّلم منهم دالٌّ على علَّةِ عدمِ هدايتهم، كما

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 189.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 189.

أفادَ النَّعتُ حصولَ الظُّلم فيهم على سبيلِ الثُّبوتِ والدَّوام، وتلك عِلَّةٌ أيضًا؛ لانتفاءِ الهداية عنهم في الحالِ والاستقبال.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الحُكمُ الكلِّيُّ تذييلٌ طبيعيٌّ

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستغراقِ والشُّمول، فاللّٰهُ تعالى لا يَهدي كلَّ ظالم؛ بسببِ ظُلمِه بالافتراءِ على اللّٰه الكذبَ، وهو يُدعى إلى الإسلام، فيكونُ التَّذييل دالًّا على حُكم كلّيٍّ لا يتخلَّفُ مع كلِّ ظالم، وهو نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لمن عكفَ على الظُّلمِ.

حَذْفُ متعلِّقِ اسمِ الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

حـذْفُ مُتعلِّقِ الظُّلمِ للدَّلالةِ على عمومِ اللَّوْمِ

حذفَ النَّظمُ الكريمُ مُتعلِّقَ اسمِ الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ ليُفيدَ العُمومَ والشُّمولَ؛ إذِ المَوْلى تعالى لا يَهدي مَن ظلمَ نفسَهُ، أَوْ ظلمَ الحقَّ والإسلامَ، أَوْ ظلمَ الأنبياءَ بالإساءةِ لهم بالتَّكذيبِ، فكانَ الحَذْفُ مفيدًا لعموم الظُّلم بعُموم متعلِّقه، قال ابن عاشور: "لِأَنَّهُم ظلموا الرَّسول ﷺ بِنِسبَتِه إِلَى ما لَيسَ فيه؛ إذ قالوا: هو ساحِرٌ، وظَلَموا أنفُسَهُم؛ إذ لم يَتَوخَّوا لَها النَّجاةَ، فَيَعْرِضوا دَعْوة الرَّسولِ ﷺ على النَّظَرِ الصَّحيح؛ حَتَّى يَعْلَموا صِدْقَهُ، وظَلَموا رَبَّهُم؛ إذ نَسَبوا ما جاءَهُم مِن هَديه وحُجَجِ رَسوله ﷺ إِلَى ما لَيسَ مِنهُ، فَسَمَّوُا الآياتِ والحُجَجَ سِحْرًا، وظَلَموا النّاسَ بِحملِهِم على التَّكْذيب، وظَلَموهُم بإِخْفاءِ الأخبارِ الَّتي جاءَت في التَّوْراةِ والإنجيلِ مُثْبِتَةً صِدْقَ رَسول الإسلام ﷺ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الكذبُ والافتراءُ:

الافـتراءُ أخـصُّ مُـطـلـقًـا مـنَ الكذِبِ

الافتراءُ افتعالٌ من الفَرْيِ في الكلامِ الدّالِّ على الإحكامِ والقوَّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 188.

فيه، وضبطٍ لهُ بكلِّ قصدٍ وعُمقٍ ودلالة، ثمَّ دلَّ بالزِّيادةِ فيه على الاختلاقِ للكلام ونسبتِه للآخرين بكلِّ تعمُّدٍ وقوَّةٍ وإحكام، فكان ذلك الاختلاقُ وتلك النِّسبةُ لغيرِ مَن هو له، صورةً من صورِ الكذِب، الدّالِّ على عدمِ مُطابقةِ الكلامِ للواقع، ومن ثمَّ كانَ الافتراء أخصَّ مُطلقًا من الكذِب، وفرَّقَ الهرريُّ بينَهما باعتبارِ العلاقة ذاتها، فقال: "والفرقُ بينَ الكذب والافتراءِ: هو أنَّ الافتراء افتعالُ الكذِب من قولِ نفسِه، والكذبُ قد يكونُ على وجه التَّقليدِ للآخرين فيه"[1]، ومن ثمَّ آثَر النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ الافتراءِ للكذب؛ ليكونَ الكذبُ على سبيلِ الاجتراحِ الذّاتيِّ الخارجِ عن التَّقليد، فيكونُ أشدَّ أنواعِ الكذبِ كذِبًا، وقيل: "مذهبُ الأكثريَّة القائلينَ بعمومِ إطلاقِ (الكذِب) على: العمّد والسَّهوِ ظاهرٌ؛ لأنَّ الكذبَ المُفترى هو العمّدُ، وغيرَ المُفترى هو السَّهْو"[2].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 257.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 224.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الصّف: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تعليلُ التَّكذيبِ بالأفواه بكراهةِ نورِ الله

لمّا ذكرَ اللّه تعالى موقفَ الظّالمين من أهلِ الكتاب والمُشركينَ من النَّبيِّ ﷺ؛ تكذيبًا وافتراءً معَ أنَّهم انتظَروا جميعًا قدومَهُ؛ لمّا بشَّرت به الكتبُ السَّماويَّة، وأخبرَ عن قدومِه عيسى ابنُ مريمَ؛ ناسبَ أن يذكرَ ما يُريدونَه من هذا التَّكذيبِ وعِلَّةَ الإنكارِ لنُبوَّتِه ورسالتِهِ، ولأيِّ شيءٍ يَرومونَ اختلاقَ الكذب على اللّه تعالى، وأنَّ الرَّسول ليس النَّبيَّ المُنتظَر.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ﴾: مِن طَفِئَتِ النّارُ تَطفَأُ طُفوءًا: سكنَ لَهَبُها، وبَرَدَ جمرُها، وأطفَأْتُها؛ إذا سَكَّنتَ لهبَها، وأذهبتَه[1]، فالإطفاءُ هو تسكينُ ما يلتهبُ وإذهابُه، وهو أعمُّ من أنْ يكونَ في نارٍ أوْ في نورٍ، فالنّورُ؛ إذا تنوّرَ، واشتعلَ يصِحُّ أنْ يقال: إنَّه قد أُطفِئَ، فلا يختصُّ الإطفاءُ بتعلُّقِه بالنّار المُتوقِّدة[2]، والمرادُ به في الآية: إهمادُ دينِ اللّه والقضاءُ عليه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

انتشارُ الدّينِ وإتمامُ النّور إرادةُ مَن بيده الأُمور

يريد هؤلاء المُكذِّبون أن يُطفِئوا نورَ اللّه بما يفترونه من المقالات الباطلة ومن التَّشويه للحقِّ، واللّهُ مُكمِّلُ الحقَّ ومُبلِّغُهُ غايتَهُ بإتمامِ دينِه، ولو كَرِهَ الجاحدونَ إتمامَهُ قَسرًا عنهُم وإرغامًا لهُم[3].

(1) الخليل، العين: (طفا).

(2) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 7/ 89.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 614، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 263.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في الآية:

تعليلُ الافتراءِ بإرادتِهم الإطفاءَ لما هو للأبصارِ جَلاء

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِه استئنافًا بيانيًّا له؛ إذ نشأ سؤالٌ مقدَّرٌ عن الَّذين يَفترونَ على اللّٰه الكذب مُفادُهُ: ما سِرُّ افترائِهم واختلاقِهم الكذبَ على اللّٰه تعالى، ونسبتِهم الكذبَ على رسولِه الكريم ﷺ، بعدَ أنْ كانوا يُبشِّرونَ العالَم بظهوره وصفاتِه وأحوالِه؟ قال القونويُّ: "فإنَّ هذه الجُمْلَة جوابُ سؤالٍ بأنَّه ماذا أرادوا بهذا الافتراءِ؟ ولذا لم يَعطف"[1]، فأجابَ: بأنَّهم يُريدونَ إطفاءَ نورِ اللّٰه، وكان ذلك تعليلًا لما صدرَ منهم من تكذيبٍ وعدمِ تَصديق، وهو في ذاته معلَّلٌ بحسدِهم له واستكبارِهم على قَبولِ نبوَّته ﷺ، قال ابن عاشور: "استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عَنِ الإخبارِ عَنهُم بِأنَّهُم افترَوا على اللّٰه الكَذِبَ، في حالِ أنهم يُدعَونَ إلى الإسلام؛ لأنَّهُ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عَمّا دَعاهُم إلَى هَذا الافتِراءِ، فَأُجيب بِأنَّهُم يُريدونَ أن يُخفوا الإسلامَ عَنِ النّاسِ، ويَعوقوا انتشاره"[2].

دلالةُ الفعلِ المضارع ﴿يُرِيدُونَ﴾:

إظهارُ فعلِ الإرادة بيانٌ لرغبتِهم في الضَّلالة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المُضارع ﴿يُرِيدُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لتلك الإرادة، فهُم مُستمِرّونَ على ترجيح جانبِ الوأدِ للإسلام وأحكامِه، على جانبِ الإيمانِ والتَّصديقِ به؛ إذِ الإرادةُ صفةٌ مخصِّصَةٌ ومُرَجِّحَةٌ لأحدِ جانبَي الفعل إيجادًا وإعدامًا، وإنَّما لم يقلِ النَّظمُ: (واللّٰه لا يهدي القوم الظّالمين* ليطفئوا نور اللّٰه) مباشرةً دون (يريدون)، وعبَّرَ عن فعلهم بـ(الإرادة)؛ بيانًا لسَعْيهم الحثيثِ ورغبتِهم المُستمرَّة،

(1) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 73.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 189.

وأنَّهم مُختارون في توجُّههم وعملِهم ضدَّ الإسلام ورسولِه الكريم، في حين أنَّ (الإطفاءَ) يدلُّ وحدَه على التَّوجُّه العمليِّ لمحاربةِ الدّين الحقِّ، والإرادةُ بيانٌ لذلك الاختيارِ العمليِّ، فهُم شديدو الحِرص على اختيارِ جانب العداوة، ومن ثمَّ أظهرَ فعلَ (الإرادة) مضارعًا.

معنى (اللّامِ) ودلالتُها في ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾:

مُحاربةُ النّورِ المُبين بالإرادةِ والفعلِ المَكين

عدّى النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الإرادة) المتعدّي بنفسِه إلى المفعولِ به بـ(اللّام)، في قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ إمّا للدَّلالة على مجرَّدِ التَّأكيد، فتكونُ زائدةً، قال القونويُّ موضِّحًا لذلك: "أي: يريدونَ أن يُطفِئوا، واللّام مَزيدةٌ، لما فيها من معنى الإرادة؛ تأكيدًا لـ ﴿يُرِيدُونَ﴾ بقرينة قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ [التّوبة: 32]، وجهُ الزّيادَةِ تأكيدُ معنى (الإرادة) لما في (لام العِلَّة) من الإشعار بالإرادةِ والقصد، فهي وإنْ لم تكن للتَّعليل هنا لكن باعتبارِ أصلِه يُشعر بذلك"[1]، وإمّا للدَّلالةِ على التَّعليل، ونُقدِّرُ حينَئذٍ مفعولًا محذوفًا، أي: يريدونَ الافتراءَ؛ ليُطفئوا، والذي يبدو أنَّ هذا التَّعليلَ من جَعلِ المفعولِ به كالعِلَّةِ أيضًا لذلك الافتراءِ على اللّه تعالى؛ لأنَّه علَّةُ العِلَّة، أي: العِلَّةُ الأولى وقعَتْ بأسلوبِ الفَصلِ والاستئنافِ البيانيِّ، والعِلَّةُ الثّانية حصلَتْ بتنزيلِ المفعولِ به منزلةَ التَّعليل، قال ابن عاشور: "واللّامُ من قَوْله: ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ تُسَمَّى اللّامَ الزّائِدَةَ، وتُفيدُ التَّأكيدَ، وأصْلُها لامُ التَّعْليل، ذُكِرَتْ عِلَّةُ فِعْلِ الإرادَةِ عِوضًا عَن مَفعولِه بتَنزيلِ المَفعولِ مَنزِلَةَ العِلَّة، والتَّقديرُ: (يُريدونَ إطْفاءَ نورِ اللّه؛ ليُطْفِئوا)، ويكثر وُقوعُ هَذه (اللّام)، بَعْدَ مادَّةِ الإرادَةِ ومادَّةِ الأمر، وقَدْ سَمّاها بَعْضُ أهْلُ العَرَبيَّة: لامَ (أن)؛ لأنَّ مَعنَى (أنْ) المَصدَريَّةِ مُلازِمٌ لَها، فَلِذَلِكَ قيلَ: إنَّ هذه اللّامَ بَعدَ فِعلِ الإرادَةِ مَزيدَةٌ للتَّأْكيدِ"[2]، وفي ذلك

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 19/ 72.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 190، والدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 82.

التَّوكيدِ أوِ التَّعليلِ رسمٌ لحالةِ العداوة العظيمةِ لهذا الدّين، وما جاءَ به من النّورِ والحقِّ، فهُم يفترونَ لإرادتهم ذلك الإطفاء، ويفترونَ الكذبَ، ويريدونَهُ لإطفاءِ النّورِ الإسلاميِّ المبين، فإن كانت الإرادةُ اختيارًا لهم ومَنهجًا في عمَلِهم؛ فإنَّ الإطفاءَ والفعلَ موافقٌ لتلك الإرادة وعلّةٌ لها، فهم يُعادونَ الإسلام والنّورَ المبين إرادةً وفِعلًا معًا.

دلالةُ الفعلِ المضارع (يُطفئوا) مادَّةً وصيغةً:

الإطفاءُ خنقٌ للحقِّ واغتيالٌ لمنهجِ الصِّدق

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ المضارع المنصوبِ بـ(أنِ) المضمرةِ بعدَ (لام التَّعليل)، في قولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الإرادة الحاليَّة والمستقبليَّة لإطفاءٍ حاليٍّ ومستقبليٍّ متجدِّدٍ ومستمرٍّ؛ دلالةً على حرصِهم ورغبتهم في إخمادِ نورِ الإسلام وإطفاءِ جذوتِه النّوريَّة الحَقَّة، والإطفاءُ فعلٌ يمنعُ النّورَ من الوصولِ إلى المُستضيئينَ به، "وإطفاءُ نورِ اللّه بأفواههم تهكُّمٌ بهم في إرادتِهم إبطالَ الإسلامِ بقولهم في القرآن: هذا سحرٌ"[1]، قال المصطفويُّ: "والتَّعبيرُ بالإطفاء إشارةٌ إلى أنَّ مقصدَهم الهمودُ بالكلّيَّة، والتَّعبيرُ بالأفواه: إشارةٌ إلى ضَعفهم وضعفِ ما به يُطفئون نورَ اللّه، فإنَّ نورَ اللّه لا نورَ أقوى وأشدَّ وأثبتَ منه، فكيفَ يمكنُ إطفاؤهُ بما هو في غاية الضَّعف؟ وهو النَّفخُ بالتَّنفُّس الضَّعيف المحدود، هذا مع مقابلة هذا النَّفخ بإرادة اللّه القاطع وحُكمِه بأنَّ اللّه مُتمُّ نورِه، ويأبى عن كلِّ ما يخالفُ إلّا أن يتمَّ ويديمَ إظهارَ نورِه"[2]، وفي ذلك إشارةٌ إلى رغبتهم في منعِ وصولِ الدَّعوة الإلَهيَّة للنّاس بشتَّى السُّبُل، ومنها اغتيالُ النَّبيِّ ﷺ، كما أنَّ الإطفاءَ يوحي بإزالةِ النّورِ من الوجودِ أصلًا، فهُم لا يُريدونَ مجرَّدَ الصَّدِّ والإعاقة، بل يَسعَونَ لخنقِ الحقِّ والحقيقة، ووأدِها قبلَ أنْ تصلَ إلى الآذانِ، فتسعدَ بها.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 525.

(2) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 7/ 90.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ على الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

فداحةُ صُنعِ المُجرمين منعُ وصولِ نورِ ربِّ العالَمين إلى قُلوبِ المتعطِّشين

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (النّور) إلى اللّه تعالى، في قولِه تعالى: ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ (النّور) وتعريفِه؛ إذ يكتسبُ المضاف من المضافِ إليه - إنْ كان معرفةً - التَّعينَ والتَّشخُّصَ، ولمّا كان النّورُ مُضافًا إلى اللّه تعالى؛ اكتسبَ من المضاف إليه تشريفًا وتكريمًا لشرفِ المضافِ إليه، والغرضُ من "إضافَةِ النّورِ إلى اسم الجَلالَةِ إشارَةٌ إلى أنَّ مُحاولَةَ إطفائِه عَبَثٌ، وأنَّ أصحابَ تِلْكَ المُحاولَةِ لا يَبلغونَ مُرادَهُم"[(1)]، والتَّركيبُ الإضافيُّ من حيث هو دالٌّ على استعارةٍ تصريحيَّةٍ؛ إذ شَبَّه النَّظمُ الكريمُ الإسلامَ وأحكامَهُ أوِ النَّبيَّ الكريمَ وبِعْثَتَه بالنّورِ المنسوبِ إلى اللّه تعالى، ثمَّ حذفَ المُشَبَّهَ، وأبقى المُشَبَّهَ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة، قال السَّمينُ: "أي: ليُذهِبوا دينَ اللّه، وهو استعارةٌ مِن: أطفأتُ النّارَ، أي: أخمدتُها، فَطَفِئَتْ"[(2)]، وقال القِنّوجي: "والمرادُ بـ(النّور) القرآنُ، أي: يريدونَ إبطالَهُ وتكذيبَهُ بالقول، أوِ المرادُ الإسلام، أوْ محمَّدٌ ﷺ يُريدونَ هلاكَهُ بالأراجيفِ، أوِ الحُجَجِ والدَّلائل، فـ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، و(الإطفاء) ترشيحٌ"[(3)]، أو "﴿نُورَ ٱللَّـهِ﴾ هو ما يَتوقَّدُ، ويظهرُ، ويتلألأُ، ويتجلّى من اللّه تعالى من نورٍ تكوينيٍّ مثلُ أنبيائِه ورسلِه ومظاهرِ صِفاتِه، ومن نورٍ تشريعيٍّ كأحكامِه وشرائعِه وقوانينِه وآياتِه وكلماتِه"[(4)]، والغرضُ من الاستعارة بيانُ جُرمِ ما يريدونَ إطفاءَهُ، وفداحةُ ظُلمِ ما قرَّروا مُعاداتِه، فهُم في حالةِ منعٍ لوصولِ نورِ اللّه الَّذي هو الإسلامُ وصاحبُ الشَّرعِ الحكيم، إلى عُيونِ النّاسِ المُتعطِّشة للنّور والخَير والسَّعادةِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 172.
(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/ 408.
(3) القنوجيّ، فتح البيان: 14/ 120.
(4) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 7/ 89.

معنى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾:

إطفاءُ النّور بالأفواه والتَّكذيبُ للإسلامِ بالأهواء

استعملَ النَّظمُ الكريمُ (الباء)، في قولِه تعالى: ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على الآلة والاستعانة، فقد استعانوا بالأفواه لإطفاءِ نورِ الإسلام المتمثِّلِ بالكتاب والرَّسول الكريم ﷺ، ولا يخفى أنَّ النّورَ الذي يَنبعِثُ من إشعالِ النّار ينطفئُ بالرّيح والهواءِ الخارج من الأفواه، فيكون هنالك مضافٌ محذوفٌ دلَّت عليه (باءُ) الاستعانة، والتَّقدير: (بهواءِ أفواهِهم)، ولمّا كان نورُ الله بمعنى الإسلامِ ومِنهاجِه المتين ورسولِه الكريم، فإنَّ الأفواهَ تنطِقُ بالافتراءِ والتَّكذيب، فيكونُ إيرادُ (الأفواه) ناظرًا لقولِه من قبلُ: ﴿مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ﴾، فقد سخَّروا أفواهَهم للرَّدِّ والتَّكذيب بنبوَّة الرَّسول الكريم ﷺ بعدَ أن عرفوا أوصافَهُ، وبشَّرت به التَّوراة، فكانوا يقولونَ لأهل مكَّةَ بأفواههم أنَّه كاذبٌ في دعواه، وليس هو النَّبيَّ الَّذي يَنتظرونَهُ.

دلالةُ (الأفواه)، وإضافتُها:

أفواهُ اليهودِ ناطقةٌ بإيقافِ الإسلامِ بضَربةٍ منهم قاضية

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (الأفواه) المجموعةَ إلى ضميرِ الغَيبة، في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾؛ تعريفًا لتلك الأفواه وتَعيينًا لها، وهي الأفواهُ التي اختارَتْ طريقَ خنقِ الإسلام والتَّكذيبَ به بعدَ أن قامَتِ الآياتُ، ودلَّت على صدقِه وأوصافِه في كُتبِهم، وهم اليهودُ الَّذين كانوا يُحاربون الإسلامَ بالأفواهِ؛ لأنَّهم أهلُ كتابٍ، فيجدونَ في التَّكذيبِ بأقوالِهم سلاحًا كافيًا لمنعِ الإسلام من الانتشارِ والتَّوسُّع في جزيرةِ العَرب، قال ابن عطيَّة: فالأفواهُ "عبارةٌ عن قلَّةِ حيلتِهم وضَعفِها، أخبرَ عنهم أنَّهم يُحاولون مقاومةَ أمرٍ جسيم بسعيٍ ضعيفٍ، فكانَ الإطفاء بنفخِ الأفواهِ، ويحتملُ أن يراد بأقوالٍ لا برهانَ عليها، فهي لا تُجاوزُ الأفواهَ إلى فهمِ سامعٍ"[1].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 26.

ولا يَبعدُ أن تكونَ (الأفواهُ) مجازًا مُرسَلًا عن الأباطيل والأكاذيب لعلاقةِ المحلّيَّة؛ إذِ الأباطيلُ تكونُ خارجةً من الفَم، قال الهرريُّ: "أي: بأقوالهم الخارجةِ من أفواهِهم المتضمِّنةِ للطَّعْنِ"(1).

دلالةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة:

تمثيلُ حالِ المانعينَ عنِ الإسلامِ بحالِ المُطفئينَ نورَ بدرِ التَّمام

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاستعارةِ التَّمثيليَّة في قولِه تعالى: ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾، من خلالِ تشبيه قيامِ اليهودِ بنشرِ الأكاذيب حولَ الإسلام، والتَّشكيكِ في أنَّ محمَّدًا ﷺ هو الذي بشَّرتْ به الكتبُ السَّماويَّة، ومنعِ النّاسِ من خلال عِلْمِهم بالتَّوراة منَ الإصغاء للدَّعوة وصاحبِها ﷺ بحالِ مَن وجدوا نورًا ساطعًا من نارٍ عظيمةٍ، فهم يُحاولونَ لاهثينَ إطفاءَها بالأفواه، لكنَّهم من كُرهِهم المَقيت تصرَّفوا تصرُّفَ الأغبياء، فظنّوا أنَّ النّار الباعثةَ للنّورِ تنطفئُ بالهواءِ الخارج من الفم، بل عملوا على إيقادِها وإبقاءِ النّورِ ساطعًا في الأجواء، "والمقصودُ: تشبيهُ حالِهم في مُحاربة النَّبيِّ ﷺ والقرآنِ الكريم، بحالِ مَن يريدُ طمسَ نورٍ عظيم نشرَهُ اللهُ في الآفاق، وإطفاءَه بنفخةٍ بالفم، والمقصودُ بهذا التَّشبيه إقناطُهُم من نَيلهم ما يبتغونَ من هدمِ الإسلامِ ورسالتِه الهادية"(2)، وقيل: "هذا تمثيلٌ لحالِهم، وهُم يجتهدونَ في إبطالِ الحقِّ بحالِ مَن ينفخُ الشَّمسَ بفيه ليُطفئَها؛ تهكُّمًا وسُخريةً بهم"(3)، قال ابنُ عاشور: "والكَلامُ تمثيلٌ لِحالِهم في مُحاولَةِ تَكْذيبِ النَّبيِّ ﷺ، وصَدِّ النّاسِ عَنِ اتِّباعِ الإسلام، وإعانَةِ المُناوِئينَ لِلإسلام بالقَولِ والإرجاف، والتَّحريض على المُقاوَمَة، بِحال من يحاولُ إطفاءَ نورٍ بِنَفْخِ فَمه عليْه، فهذا الكَلامُ مُرَكَّبٌ مُستَعمَلٌ في غيرِ ما وُضِعَ لَهُ على طَريقَةِ تَشبيهِ الهَيئَةِ بِالهَيئَةِ، ومِن كَمالِ بَلاغَتِه أنَّهُ صالِحٌ لِتَفكيكِ التَّشبيهِ، بِأن يُشَبَّهَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 258.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 3/ 1693.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1401.

الإسلامُ وحدَهُ بالنّورِ، ويُشَبَّهَ مُحاوِلو إبطالِه بمُريدي إطفاءِ النّورِ، ويُشَبَّهَ الإرجافُ والتَّكذيبُ بالنَّفخِ، ومِنَ الرَّشاقَةِ أنَّ آلَةَ النَّفخِ وآلَةَ التَّكذيبِ واحِدَةٌ، وهيَ الأفواهُ"[1].

معنى (الواو)، ودلالتُها في ﴿وَٱللَّهُ﴾:

عطفُ الأضداد لتيئيس كلِّ صادٍّ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالواوِ في صدر الجُملة الاسميَّةِ، من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ إمّا على الحال[2]، فهُم يَرومونَ الإطفاءَ للنّورِ والحقِّ حالَ كونِ اللهِ، يُتِمُّ النّورَ، ويوصِلُه إلى قلوبِ العالَمين، فكانَ التَّقييدُ بالحالِ مفيدًا لتيئيسِهم من فعلِهم الشَّيطانيِّ المُريب؛ لأنَّهم بذلك يُناجزون القويَّ العظيم في إرادته إيصالَ أنوارِ الإسلامِ ودينِه الحنيف إلى كلِّ الآذانِ والقلوبِ، وإمّا للعطف، قال ابن عاشور: "وجُملَةُ ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ مَعطوفَةٌ على جُملَةِ ﴿يُرِيدُونَ﴾، وهيَ إخبارٌ بأنَّهُم لا يَبلُغونَ مُرادَهُم، وأنَّ هَذا الدّينَ سَيَتِمُّ، أي: يَبلُغُ تَمامَ الانتِشارِ"[3].

دلالةُ الاسمِ الجليلِ (الله):

مُتولّي الإتمام اللهُ ربُّ الأنام

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الجليلِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على الذّاتِ المُستجمِعةِ لجميعِ صفاتِ الجَلالِ والكَمال، فيكونُ بمنزلةِ التَّعليلِ لإتمامِ نورِ اللّه؛ إذِ الإتمامُ مَعَ مُحاولاتِ الصَّدِّ والمنعِ يفتقرُ إلى ذاتٍ عظيمةٍ، ذاتِ قدرةٍ باهِرة، فكان الاسمُ الجليل دالًّا على تحقُّقِ ذلك الإتمام؛ لأنَّه من اللّه تعالى القويِّ العظيم، كما أفادَ تقديمُ المسنَدِ إليه دلالةً على إثارةِ السُّرور في نفوسِ المؤمنينَ؛ بأنَّ الَّذي يتولَّى الإتمامَ هو اللّه تعالى، وكفى به مُنجِزًا لوعدِه الصّادقِ الأمين.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 171.

(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 83.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 190.

دلالةُ اسمِ الفاعل ﴿مُتِمُّ﴾ مادّةً وصيغةً:

إتمامُ النّور ونشرُ السّعادةِ والسُّرور

اختارَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الفاعل خبرًا في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على ثبوتِ الإتمام لهذا الدّين والنَّبيِّ الكريم ودوامِه، فإنْ كانوا يريدونَ أن يُطفئوا هذا النّورَ الذي بدأ بالفعلَين الدّالّين على التَّجدُّدِ بعدَ عدم؛ فإنَّ اللّه متمٌّ لهذا النّور بكلِّ ثُبوت واستقرار، كما أنَّ الجملةَ الاسميَّةَ دالَّةٌ على ثبوتِ هذا الحُكم مهما حاولَ المانعونَ عدمَ وصولِه وانتشاره، قال ابن عاشور: "والجُملَةُ الاسميَّةُ تُفيدُ ثُبوتَ هَذا الإتمام، والتَّمامُ: هو حُصولُ جَميعِ ما لِلشَّيءِ مِن كَيفيَّةٍ أو كَمّيَّةٍ، فَتَمامُ النّورِ: حُصولُ أقوى شُعاعِهِ، وإتمامُهُ إمدادُ آلَتِه بِما يُقَوّي شُعاعَهُ، كَزيادَةِ الزَّيتِ في المِصباحِ وإزالَةِ ما يَغشاهُ"[1]، فقد اختار النَّظمُ الكريمُ مادَّةَ (الإتمام)؛ للدَّلالةِ على أنَّ النّور قد ظهرَ، وبدأ بالانتشار، وتكفَّلَ المولى تعالى بالإتمام لهذا النّور في الانتشارِ والتَّوسُّعِ والامتداد، وأنَّ هذا النّور الإلهيَّ لن يبقى ناقصًا وقاصِرًا؛ لأنَّه الدّينُ الخاتم؛ فلا بدَّ أن يصلَ إلى جميعِ أرجاءِ المَعمورة.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾:

الإضافةُ التَّخفيفيَّة دليلٌ على سهولةِ الإتماميَّة

أضافَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الفاعل إلى معمولِه، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على التَّخفيفِ اللَّفظيِّ بتركِ التَّنوين، فلعلَّ فيه إشارةً إلى سهولةِ هذا الإتمام؛ إذ حذْفُ التَّنوينِ يدلُّ على التَّخفيفِ واليُسر، فيكون إتمامُهُ بكلِّ يُسرٍ وسُهولة، قال القونويُّ: "وقرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ بالإضافَة ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾، وهذا يفيدُ الحصرَ بأنَّ اللّه هو متمُّ نورِه فقط، فهو أبلَغُ من هذه الحيثيَّة[2]؛ لما فيه من تعريفِ الطَّرفينِ الدّالِّ على الحصرِ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 190 - 191.
(2) حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 73.

وقد قُرِئَ أيضًا بلا إضافة، قال ابن عاشور: "وقَرَأ نافِعٌ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ وأبو بَكرٍ عَن عاصِم ﴿مُتِمٌّ نُورَهُۥ﴾ بِتَنوين ﴿مُتِمٌّ﴾ ونَصْبِ ﴿نُورَهُۥ﴾"(1)، فيكون التَّثقيلُ بالتَّنوينِ دالًّا على القطعِ بحُصول ذلك.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿نُورِهِۦ﴾:

استعارَ النَّظم الكريمُ (النّورَ)، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾؛ لدلالاتٍ متعدِّدة محتملةٍ، جمعَها الرّازيُّ بقوله: "قالَ ابْنُ عَبّاسٍ: يُظْهِرُ دينَهُ، وقالَ صاحِبُ الكَشّافِ: مُتِمُّ الحَقَّ، ومُبَلِّغُهُ غايَتَهُ، وقيلَ: دينُ اللّه، كِتابُ اللّه، ورَسولُ اللّه، وكُلُّ واحِدٍ مِن هَذه الثَّلاثَةِ بِهَذه الصِّفَةِ؛ لأنَّهُ يَظْهَرُ عليهِم مِنَ الآثارِ"(2)، قال البقاعيُّ: "ولمّا كان النّورُ لإظهارِ صور الأشياءِ بعدَ انطماسِها سَببًا لوضعِ الأشياءِ في أتقنِ مواضعِها، وكانَ ما أتى مِن عند اللّه من العِلْم كذلك، جُعِلَ عينَهُ، فأُطلِقَ عليه اسمُهُ، فقال: ﴿نُورِهِۦ﴾؛ فلا يضرُّهُ سترُ أحدٍ له بتكذيبِه ولا إرادةُ إطفائِه"(3)، فيكون استعمالُ نور اللّه لدينه ورسوله وكتابه على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة.

الإســـلامُ نـورٌ ومَن تبِعَهُ فهو في حُبور

دلالةُ الإضافةِ في ﴿نُورِهِۦ﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (النّور) إلى الضَّمير العائدِ إلى اللّه تعالى، في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيين مَعَ التَّشريف، وفي إطلاقِ (النّور) على الكتابِ المبين والرَّسولِ الكريم ﷺ استعارةٌ تصريحيَّة، الغرضُ منها إثباتُ نوريَّتِهما وعدمُ إمكانِ الوقوفِ أمامَهما والصَّدِّ عن سبيلِهما؛ إذِ النّورُ يَسري في الأبدانِ والأذهان.

تكريمُ الإسلام ونبيِّه بإطلاقِ النّورِ عليه

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَلَوۡ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو) في الجملةِ الفعليَّة، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الحال، والغرضُ منه الاحترازُ؛

إتمامُ النّورِ المُبين مع كراهةِ القومِ الكافرين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 191.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 529.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 31.

إذ قد يقولُ قائلٌ: هل اللّهُ متمٌّ نورِه معَ كَراهةِ الكافرينَ لذلك؟ فدفعَ النَّظمُ الكريمُ ذلك التَّوهُّمَ بتلك الحالِ الاحترازيَّة.

معنى (لو) ودلالتُها:

توكيدُ الأحكام دفعٌ للأوهام

استعملَ النَّظمُ الكريمُ (لو) الوصليَّةَ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على إتمام اللّه نورَهُ المُبين، وإن كانَ ذلك مكروهًا للقوم الكافرين، وفائدةُ (لو الوصليَّة) تأكيدُ حُكمِ ما قبلَها بأنَّه مُتحقِّقٌ في كلِّ حالٍ، حتّى في الحالِ التي يُتوهَّمُ فيها عدمُ تحقُّقِ ذلك الحُكم، قال ابن عاشور: "وجُملَةُ: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ حاليَّةٌ، و(لَوْ) وصليَّةٌ، وهيَ تَدُلُّ على أنَّ مَضمونَ شَرْطِها أجْدَرُ ما يُظَنُّ ألّا يحصلَ عِنْدَ حُصولِه مَضْمونُ الجَواب، ولِذَلِكَ يُقَدِّرُ المُعْرِبونَ قَبلَهُ ما يَدُلُّ على تَقديرِ حُصولِ ضِدِّ الشَّرْطِ، فَيَقولونَ: هَذا إذا لم يَكُنْ كَذا، بَلْ وإنْ كانَ كَذا، وهو تَقديرُ مَعنًى لا تَقديرُ حَذْفٍ؛ لأنَّ مِثْلَ ذَلِكَ المَحذوفِ لا يَطَّرِدُ في كُلِّ مَوقِعٍ، وكَذَلِكَ ما في هَذِه الآيَةِ؛ لأنَّ المَعْنَى: واللّهُ مُتِمٌّ نورِه على فَرْضِ كَراهَةِ الكافِرينَ، ولَمّا كانَتْ كَراهَةُ الكافِرينَ إتْمامَ هَذا النّورِ مُحَقَّقَةً؛ كانَ سياقُها في صورَةِ الأمرِ المَفْروضِ تَهَكُّمًا"[1].

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿كَرِهَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إظهارُ سببِ الإرادة تعريةٌ للمواقفِ الضّالَّة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي ﴿كَرِهَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ تلك الكراهيَةِ وعدمِ الرَّغبة بوصولِ النّورِ المُبين، وأنَّ تلك الكراهيةَ مقطوعٌ بحُصولِها وتحقُّقِها، واختارَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ (الكراهية)؛ توضيحًا للمعنى المُستلزمِ لفعلِ (الإرادة)؛ إذ فُهِمَ من كونِهم يُريدونَ إطفاءَ النّورِ كراهيتَهم لذلك النّور، فاختارَ الأصلَ المُسبِّبَ لتلك الإرادة، وهي الكراهيَة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 191.

فأثبتَ إتمامَ هذا الدّين، ولو كان مبعثَ الإرادة الكرهُ لهذا الدّين، فأظهر الفعلُ الماضي سببَ تلك الإرادة وملزومها، وأنَّها إرادة قائمةٌ على باطلٍ ونفسيَّةٍ شرّيرةٍ وعقلٍ مريضٍ كارهٍ للحقِّ الإلهيِّ في الاختيارِ رَسولًا له من العربِ.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

عـلَّـةُ كـراهـيـةِ الإتـمـام جحودُ الآياتِ والإسلام

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستغراقِ والشُّمول بقرينة الجمع، فيدخلُ فيهم اليهودُ بطريقِ الأوليَّة، ويحتملُ أنْ تكونَ (أل) مَوصولًا اسميًّا؛ للدَّلالةِ على علَّة تلك الكراهية لذلك الإتمام، وهو كفرُهم وجحدُهم بآياتِ اللَّه والمبشِّراتِ التي بشَّرتْ بالإسلام الحقِّ ونبيِّه ﷺ.

دلالةُ صيغةِ ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

مـلازمـةُ الـكـفـر والامتناع ضلالٌ بلا انقِطاع

استعملَ النَّظمُ الكريمُ صيغةَ (الصِّفةِ المشبَّهة)، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالة على الثُّبوتِ والدَّوام؛ إذ (الكافرُ) أُطلِقَ على وصفٍ لازمٍ ثابتٍ مُستمرٍّ في المتَّصِفِ به، فيكون المرادُ به معنى الصِّفةِ المشبَّهة اللَّازمة المُستمرَّة، وإنْ كان على وزنِ اسم الفاعل، ولذا قال البقاعيُّ: "الكافرونَ الرّاسخونَ في صفةِ الكفرِ، المُجتهِدونَ في المُحاماةِ عنهُ"[1].

دلالةُ حذفِ متعلِّق الفعلِ ﴿كَرِهَ﴾:

كـراهـيـتُـهـم الإتمام دالَّةٌ على بُغضِهم ظهورَهُ بينَ الأنام

حذفَ النَّظمُ الكريمُ مُتعلِّقَ الفعلِ ﴿كَرِهَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ للعِلْم به مِن الكلام، والتَّقديرُ: (ولو كَرِهَ الكافرون الإتمامَ)، وفي حذفِ متعلِّق الفعلِ إيجازٌ مُستحسَنٌ عدمُ ذكرِه؛ لأنَّهم كما يكرهونَ الإتمامَ؛ يكرهونَ الوجودَ له أَصْلًا.

المتشابهُ اللَّفظيُّ بين: ﴿أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ [التّوبة: 32]، و﴿لِيُطۡفِـُٔواْ﴾:

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ في سورةِ التَّوبةِ بقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 31.

مقابلةُ فعلِ الإطفاءِ بالإتمامِ والإباءِ

نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التّوبة: 32]، وهنا في سورة الصَّفِّ عبَّر بقوله: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾؛ إذ اختارَ في الأولى تعدية فعلِ الإطفاءِ إلى المفعولِ به بلا واسطةٍ، واختارَ في الثّانية تعديةَ فعلِ الإرادة إلى الافتراءِ ثمَّ التَّعليل، أوْ أنَّ اللّامَ زائدةٌ، أي: يريدونَ الافتراء؛ ليطفئوا، واختار هنالك الرَّدَّ عليهم بالإباءِ وهنا بالجملةِ الاسميَّة، والسَّبب في ذلك: أنَّ "التَّعبيرَ في الآيةِ الثّانية بقوله ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم يَتوسَّلون بأيِّ وسيلةٍ ممكنةٍ وبأيَّةِ مُقدِّمةٍ موصِلة إلى نظرهم، وقد حكم اللّه تعالى في قبالِ هذا التَّشبُّث والتَّوسُّلِ بالحُكم القاطع بأنَّه ﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾، وهذا بخلافِ الآيةِ الأولى، فعبَّر فيها بقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ﴾ [التوبة: 32]، فالإطفاءُ من حيثُ هو قد وقعَ مُتعلِّقًا للإرادة الضَّعيفة منهم، فيناسبُه ما يقابله، ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: 32]، أي: يمنعُ، ويدفعُ عن نفوذ إرادتهم، ويعملُ مُستمرًّا في إتمامِ نوره وتكميلِه وإدامتِه، فإنَّ المضارعَ يدلُّ على التَّوقُّع والانتظار والاستمرار.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإطفاء والإخماد:

الإطفاءُ: قطعٌ للنّورِ بالكلّيَّة، والإخمادُ: همودٌ مؤقَّتٌ قابلٌ للانبعاثِ الذّاتيّ

الإطفاءُ قطْعٌ للنور بالكلّيَّة، ومنعٌ من انتشارِه، وخنقٌ له على سبيلِ الدَّوام، حتّى إنَّه كي يعودَ إلى حالةِ النّوريَّة، فلا بدَّ له من عمليَّةِ إيقادٍ متجدِّدةٍ وبعثٍ آخرَ، بخلاف (الإخماد)، فإنَّه يجعلُ النّارَ قابلةً قبولًا ذاتيًّا للاتّقاد؛ لأنَّ الإخماد محاولةٌ في التَّهدئة وهمودٌ في النّاريَّة، ولذلك اختارَ النَّظم الكريمُ ﴿لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ بدلًا من (ليُخمدوا)؛ لأنَّ الخمود يحتملُ العودةَ مجدَّدًا للانبعاثِ، بخلافِ الإطفاء المُحتاج إلى إيقادٍ جديدٍ، قال المصطفويُّ: الإطفاءُ: "هو

سكونُ اللهَب والجمر معًا، وإذا سكنَ اللهبُ فقط؛ فهي خامدةٌ، فالخمودُ: سكونُ اللهَب، والطُّفوء: سكونُ اللهب وبَردُ النّار معًا"(1)، وفرّقَ ابنُ عادل بينَهُما بقولِهِ: "ويفترقُ الإخمادُ والإطفاءُ من حيثُ إنَّ الإطفاء يُستعمَلُ في القليل، فيقال: أطفأتُ السِّراج، ولا يقالُ: أخمدتُ السِّراج"(2).

الكرهُ والبُغْض:

الـكُـرهُ سببُـهُ ذاتيٌّ، والبُغضُ سببُهُ غيريٌّ

الكراهيةُ متعلِّقةٌ بالشَّخص نفسِه، ولا تعودُ لشيءٍ في ذلك الشَّيءِ المكروه، وأمّا البُغضُ؛ فإنَّه متعلِّقٌ بالمبغوضِ لوجودِ خِلالٍ فيه لا تُحبُّها، فالكُره شخصيٌّ ذاتيٌّ يتعلَّقُ بالإرادة، والبغضُ غيريٌّ يتعلَّق بالحبِّ، ومن ثَمَّ فإنَّ ضِدَّ الكراهيةِ الإرادةُ للشَّيءِ، فكلتاهما شخصيّتانِ بالمُريدِ والكارِهِ، وأمّا ضِدُّ البُغضِ؛ فهو الحُبُّ؛ لأمرٍ متعلِّقٍ بالمحبوب والمَبغوض، ومن ثَمَّ نقولُ: أكرهُ هذا الطَّعامَ، ولا أقولُ: أبغضُهُ، وأقولُ: أُبْغِضُ هذا الشَّخصَ في اللّه، ولا أقولُ: أكرهُهُ في اللّه، ومن ثَمَّ آثرَ النَّظم التَّعبيرَ بالكُره دونَ البُغض؛ لأنَّهم يكرهونَ الحقَّ لأمرٍ شخصيٍّ لا يتعلَّقُ بالحقِّ نفسِهِ؛ إذ هو نورٌ غيرُ قابلٍ للبُغض، قال العسكريُّ: "قدِ اتُّسِعَ بـ(البُغْض) ما لم يُتَّسَع بالكَراهَةِ، فَقيل: أُبْغِضُ زيدًا، أي: أُبْغِضُ إكرامَهُ ونفْعَهُ، ولا يُقالُ: أكرهُ بِهَذا المَعْنى، كَما اتُّسِع بِلَفْظ المحبَّة، فَقيل: أُحبُّ زيدًا، بِمَعْنى أحبُّ إكرامَهُ ونفعهُ، ولا يُقالُ: أُريدُهُ في هذا المَعْنى، ومَعَ هَذا فَإِنَّ الكَراهَة تُستعمَل في ما لا يُستعمَل فيه البُغض، فَيُقالُ: أكرهُ هَذا الطَّعامَ، ولا يُقال: أُبْغِضُهُ، كَما تَقولُ: أُحِبُّهُ، والمراد: أنّي أكره أكلَه، كَما أنَّ المُراد بِقَولِك: أُريدُ هَذا الطَّعامَ، أنَّك تُريدُ أكلَهُ أَوْ شِراءَهُ"(3).

(1) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 7/ 89.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم القرآن: 19/ 66.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 129.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ [الصّفّ: 9]

إتمامُ هذا الدّين وإظهارُه وعدٌ من ربِّ العالَمين

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لمّا ذكر النَّظمُ الكريمُ إرادةَ الكافرينَ إطفاءَ نورِ الكتابِ المُبين، ودعوةِ الإسلام التي هي خيرٌ وسرٌّ كريم، وردَّ عليهم الذِّكرُ الحكيمُ بأنَّ اللّه ناشرٌ نورِه في رُبوعِ العالَمين؛ ناسبَ أنْ يُؤكِّدَ ذلك المرادَ المُستقيم، بأنَّه الَّذي أرسلَ رسولَه بالهدى، مُظهِرًا له على الأديانِ جميعًا، حتّى القيام للّه الرَّحمنِ الرَّحيم، أوْ يُعلِّلَ سِرَّ "إخمادِ دَعوتِهم، وأنَّه لا سبيلَ لقَبولِها لَدَى العُقول"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرۡسَلَ﴾: من (رسل)، وهو أصلٌ واحدٌ مطَّرد مُنقاس يدلُّ على الانبعاث والامتداد، فالرَّسْلُ: السَّيرُ السَّهل، وناقةٌ رَسِلةٌ: لا تُكلِّفُكَ سياقًا، وشَعَرٌ رَسْلٌ؛ إذا كان مُسترسِلًا[2]، وتقول: جاءَ القومُ أرسالًا: يتبَعُ بعضُهُم بعضًا، وأرسلتُ رسولًا: بعثتُه برسالةٍ يُؤدّيها، فهو فعولٌ بمعنى مَفعول[3]، والمعاني الكلّيَّة للإرسال تتركَّز في الإنفاذِ مَعَ الحملِ، بمعنى أنْ تُنفِذَ شيئًا مع قيدِ أن تجعلَهُ حامِلًا لأمرٍ، ويلازم هذا المفهومَ التَّحرُّكُ[4]، والمرادُ به في الآية: بعثَ، وأنفذَ إنسانًا برسالةٍ.

2) ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾: من (هدي)، والهُدَى أصلانِ، أحدُهما: التَّقدُّمُ للإرشاد، والآخَرُ: بعثةُ لطفٍ[5]، وهَدَيْتُهُ الطَّريقَ أهديه هِدايةً،

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 259.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (رسل).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 4/ 125.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).

هذه لغةُ الحِجاز، ولغةُ غيرِهم يتعدّى بالحرف، فيقال: هديتُه إلى الطَّريق وللطَّريق، وهداهُ اللّه إلى الإيمان هُدى، والهُدى: البيانُ[1]، والمعاني الكلّيَّة للهدى تنصبُّ على بيانِ طريقِ الرُّشدِ والتَّمكُّنِ منَ الوصولِ إلى الشَّيءِ، أي: دلالةً إليه[2]، والمرادُ به في الآيةِ المعنى المصدريُّ على سبيلِ المُبالغة، أوْ بمعنى المفعولِ، أي: ما به الإرشادُ والإيصالُ إلى الحقِّ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

رســولُ الـهُـدى ودِيـــنُ الـتُّـقـى يَعلو، ولا يُعلَى عليه

أي: إنَّ اللّه ﷻ هو الَّذي أرسلَ رسولَه محمَّدًا ﷺ بالقرآنِ، أوِ المعجزةِ عامَّةً، وبالمِلَّة الحنيفيَّةِ ودينِ الإسلام؛ ليُعْلِيَهُ على جميعِ الأديانِ المُخالفةِ له، ولقد أنجزَ اللّهُ ﷻ وعدَهُ؛ إذْ لم يبقَ دينٌ من الأديانِ إلّا وهو مقهورٌ مغلوبٌ بدينِ الإسلام، فقد هزمَ الأديانَ الباطلةَ، ونسخَ الأديانَ السَّماويَّةَ السّابقة، ولو كرِهَ المشركونَ ذلك؛ لِما فيه من التَّوحيدِ الخالصِ وإبطالِ الشِّرك[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ ﴿هُوَ﴾:

الانــتــشــارُ الــعــظــيــمُ للإسلام مؤكِّدٌ بـظـهـورِه على الأديانِ والأنام

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ عمّا قبلَه؛ لأنَّه بمنزلة التَّأكيد لما تقدَّمَ من أنَّ اللّه مُتِمُّ نورِه؛ إذ إتمامُ النّورِ بنشرِ الإسلام في مختلفِ أرجاءِ المَعمورة، فأكَّدَ ذلك الانتشارَ بأنَّ اللّه أرسلَ نبيَّهُ ﷺ بالآياتِ البيِّنات؛ ليكونَ هذا الدّينُ ظاهرًا على غيرِه من الأديان، وما ظهورُه عليها إلّا لانتشارِه وامتدادِه في كلِّ مكان، وما انتشارُهُ أيضًا إلّا لظُهورِه وتفوُّقِه، فبينَ الجُملتَينِ تلازمٌ، فتكونُ الجملةُ مفصولةً لكمالِ الاتِّصال بينهما تأكيدًا وتحقُّقًا،

(1) الفيوميّ، المصباح المنير: (هدي).
(2) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 11/ 233.
(3) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1401.

قال ابن عطيَّة: "هذا تأكيدٌ لأمرِ الرِّسالة وشدٌّ لأَزْرِها، كما يقولُ الإنسانُ لأمرٍ يُثبِتُهُ، ويُقوّيه: أنا فعلتُهُ، أي: فمَن يَقدِرُ على مُعارضته؛ فليُعارِض"[1]، في حين جعلَها ابنُ عاشور تأكيدًا وتعليلًا بقوله: "هَذا زيادَةُ تَحَدٍّ لِلمُشركينَ وأحلافِهم مِن أهلِ الكِتابِ، فيه تَقويَةٌ لِمَضمونِ قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، وفيه مَعنَى التَّعليلِ لِلجُملَةِ الَّتي قَبلَهُ"[2].

دلالةُ المُسنَدِ إليه ضَميرًا:

نفيُ الرَّيبِ في المُرسِل دليلٌ قاطِعٌ على صدقِ المُرسَل

أوردَ النَّظمُ الكريمُ المسندَ إليه ضميرًا، في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والانحصار؛ إذ تعريفُ المسنَدِ إليه معَ الخبرِ الفعليِّ مفيدٌ لنفي رَيبِ مَن ارتابَ، في أنَّ اللّٰه تعالى هو الذي أرسلَ النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ، فيكونُ دالًّا على أنَّه هو المُرسِلُ لا غيرُه، وفي ذلك دلالةٌ على صدقِ المُرسَل، كما أفاد تقديمُ المسنَدِ إليه على الخبرِ الفعليِّ التَّوكيدَ والتَّقوية، والمرادُ بالضَّمير الغائبِ اللّٰهُ تعالى، الَّذي أخبرَ عن نفسِه بأنَّه متمُّ نورِه، فاللّٰه الَّذي تعهَّدَ بإتمام نورِه هو الَّذي أرسلَهُ لا غيرُهُ، الذي "ثبتَ أنَّه جامعٌ لصفاتِ الجمال والجَلال وحدَهُ، من غيرِ أن يكونَ له شريكٌ أوْ وزيرٌ"[3].

دلالةُ الاسمِ الموصول:

اللّٰهُ الجليلُ العظيمُ هو الَّذي يختارُ النَّبيَّ القويم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن المُسنَد بالاسمِ الموصول، في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾؛ للدَّلالة على عِظَمِ شأنِه وجَلالةِ قَدرِه، فلم يقُل: (هو أرسلَ رسولَهُ)، بل أتى بالموصولِ تفخيمًا وتعظيمًا لقَدْرِه، حتّى إنَّه من جلالتِه وإبهامِ شأنِه يحتاجُ لجملةِ صلةٍ تعملُ على الكشفِ عنه، كما يوحي الموصولُ بصلتِه أنَّ الَّذي يُبنى عليه من جنسِ العظَمة

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 304.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 192.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 31.

والفخامةِ والكمال، فيَتوقَّعُ السّامعُ من سَماع التَّركيب أنَّ الذي يَعْقبُهُ يكونُ خيرًا للمُرسَل وإعلاءً لقَدْرِه أيضًا، وقال ابن عاشور: "واجتِلابُ اسمُ المَوصولِ؛ لِلإيماءِ إلَى أنَّ مَضمونَ الصِّلَةِ عِلَّةٌ لِلجُملَةِ الَّتي بُنِيَت عليها هَذِه الجُملَةُ"[1]، وهي جملة: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾.

دلالةُ الحصرِ في ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾:

انحصارُ الإرسالِ بالله دالٌّ على صدقِ النَّبيِّ في مُدَّعاه

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ طَرَفَي الإسنادِ - ﴿هُوَ﴾ و﴿ٱلَّذِىٓ﴾ - في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾؛ للدَّلالةِ على الحصر والقصر، "فَقَد أفادَ تَعريفُ الجُزأينِ في قَولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ قَصرًا إضافيًّا؛ لِقَلْبِ زَعْمِ الكافِرينَ أنَّ محمَّدًا ﷺ أتَى مِن قِبَلِ نَفسِه، أي: اللّهُ لا غَيْرُهُ أرسلَ مُحَمَّدًا ﷺ بالهُدَى ودينِ الحَقِّ، وأنَّ شَيْئًا تَولَّى اللّهُ فِعْلَهُ، لا يَستَطيعُ أحَدٌ أن يُزيلَهُ"[2]، فيكون اللّهُ هو المُرسِلَ لرسولِه لا غيرُه ممّا تتَّهمونَهُ به من اتِّهامات، أَوْ تنكرونَهُ فيه من علاماتٍ مكتوبةٍ في كُتُبكم تُنبئُ عنه وعن خصالِه الشَّريفة، قال ابن عاشور: "﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ صيغَةُ قَصرٍ، أي: هو لا غَيْرُهُ أرْسَلَ رَسولَهُ بِهَذا النّورِ، فَكَيفَ يَترُكُ مُعانِديه يُطْفِئونَهُ؟"[3].

دلالةُ جملةِ الصِّلة ﴿أَرۡسَلَ﴾:

قِدَمُ الرِّسالة الإسلاميَّة تمثَّلتْ في البِشارات والكُتبِ السَّماويَّة

اختارَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الفعليَّةَ الماضيَةَ صلةً للموصول، في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ ذلك الإرسال ووجودِه بعدَ عدَم؛ إذ تعلَّقتِ القدرةُ التَّنجيزيَّةُ بإرساله بعدَ أن لم يكُن، وكانَ الفعلُ ماضيًا؛ للدَّلالة على أنَّ اختيارَهُ رسولًا منذُ زمنٍ قديم سَحيق، فقد بشَّر به الأنبياءُ، وتكلَّم فيه المُرسَلون منذ القِدَم، فكونُهُ رسولًا أمرٌ عتيقٌ، تواطأ عليه المُخبِرونَ، وذَكَّر به المُبشِّرون.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 173.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 192.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 173.

دلالةُ ذِكرِ الوصفِ (رَسول):

التّحاشي عن التّصريح فيه تعظيمٌ بالتّلميح

عندما عدّى النَّظمُ الكريمُ الفعلَ ﴿أَرۡسَلَ﴾ ذكرَ وصفَ (الرَّسول) مفعولًا به في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾، دونَ التّصريحِ باسمِ الرَّسولِ العَلَم، فلم يقُل: (هو الَّذي أرسلَ محمَّدًا) مثلًا؛ إكرامًا لشأنِ هذا النَّبيِّ ﷺ، وإجلالًا لقَدْرِه الشَّريف، فلم يُصرِّحْ باسمِه مباشرةً، بل أعطاهُ أغلى الأوصافِ وأجملَ النُّعوت، وهو (الرَّسول).

دلالةُ صيغةِ (فَعول):

المُبالغةُ في الاتِّصاف تدلُّ على وجوبِ الاعتراف

عبَّر النظمُ الكريمُ عن المُرسَل بصيغةِ (فَعول)، في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾؛ للدَّلالةِ على المُبالغة، فلم يقلِ النَّظمُ (المُرسَل) بصيغة المفعول، بل أوردَ ما يُفيد المُبالغةَ في تحقُّق الرِّسالة فيه؛ ردًّا على مَن توهَّمَ ضعفَ الرِّسالةِ فيه، وأنَّه ليس مُساويًا للأنبياءِ السّابقين في الدَّرجة، فبيَّنَ بالصّيغةِ أنَّه يعلوهم فَضْلًا ومِقدارًا، كما أنَّ تعديةَ الفعل ﴿أَرۡسَلَ﴾ إلى الذّاتِ الموصوفةِ بالرِّسالة القويَّة يقوّي الإرسالَ الإلهيَّ له، بحيثُ لا يبقَى أدنى ريبٍ في اختيارِ اللّه تعالى لهُ رَسولًا.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رَسُولَهُۥ﴾:

إضافة الرّسول إلى الله، شهادةٌ له واعتراف

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الرَّسول)، إلى ضميرِ الغائب العائدِ إلى اللّه تعالى، في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ للدَّلالة على التَّشريفِ والتَّكريم لهذا الرَّسول المبعوثِ رحمةً للعالَمين، فكيف يضيفُ اللّه تعالى الرَّسولَ إلى ذاته الجليلة دلالةً على تصديقِه والشَّهادةِ له بأنَّه الرَّسولُ المختار من اللّه تعالى، وتكفرونَ برسالتِه، ولا تُصدِّقون بالآيات الَّتي امتلأَتْ بها كتبُكُم الَّتي تُبشِّرُ بمَبعثِه؟ وعظَّم النَّظمُ الكريمُ المُرسِلَ الجليلَ أوَّلًا، ثمَّ عظَّم مِن شأنِ الرَّسولِ ﷺ ثانيًا، ثمَّ إنَّ

النَّظمَ الكريمَ "لم يذكر حرفَ الغايةِ؛ إشارةً إلى عمومِ الإرسالِ إلى كلِّ مَن شملَهُ المُلك"(1).

معنى (الباء) ودلالتُها في ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾:

التَّلبُّسُ بالهُدى أفضلُ خيرٍ يُرتَجى

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بـ(الباء) في قولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على المُلابَسة والمُصاحبة، والتَّقديرُ: (أرسلَهُ مُلتبسًا بالهُدى)، قال ابنُ عاشور: "والباءُ في ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ لِلمُصاحَبَةِ، وهو مُتَعَلِّقٌ بـ﴿أَرۡسَلَ﴾"(2)، فيكون في ذلك مدحٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ ردًّا على ما اتَّهموهُ به منَ السِّحرِ المُبين، وبيانٌ لما أُرسِلَ معه من خيرٍ ونورٍ وضياء يُهتدَى به، والملابسةُ والامتزاجُ بالشَّيء حالَ الإرسالِ يكونُ دالًّا على أنَّ هذا النَّبيَّ الكريم ﷺ لا يخرجُ عن الرِّشاد والهداية قيدَ أُنمُلة، وأجازَ البيضاويُّ السَّببيَّةَ، فقال: "مُلتبِسًا به، أو بسببِه، أو لأجلِه"(3)، قال القونويُّ: "رَجَّحَ كونَ (الباءِ) للمُلابسة؛ لأنَّها تُفيدُ كونَه عليه السلام هاديًا على الدَّوام، لا ينفكُّ عنها أصلًا، ثمَّ جوَّزَ كونَها للسَّببيَّة أوِ للتَّعليل، وهما متقاربان، والفرقُ أنَّ السَّببَ مُفضٍ إلى الشَّيءِ في الجُملَة، والعِلَّة مؤثِّرةٌ فيه، فهو يَهْدي إلى الحقِّ، ويوصِله إليه بالسَّببيَّة، أو هو عليه السلام يَهْدي - أي: يُرشدُ - إلى ما يدلُّ على الحقِّ بالعِلِّيَّة، فعلى هذَين الاحتمالينِ يكونُ الظَّرفُ لغوًا"(4)، وعلى الاحتمالِ الأوَّلِ يكونُ مُستقَرًّا، وأنَّ موقعَ الجارِّ والمجرورِ (بالهدى) حالٌ، فيكونُ المُرسَلُ عينَ الهُدى، وليس مُجرَّدَ هادٍ من الهُداة.

دلالةُ تعريفِ (الهُدى):

للهدايةِ أنوارٌ، مَن آمنَ بها؛ نجا، وفازَ بالأسرار

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الهدى)، في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ للدَّلالة على الجنسِ والحقيقة، الصّادقِ بكلِّ ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 31.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 201.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 131.

(4) حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 95.

يُهتدَى به إلى خيرٍ وفضلٍ، فمِن مصاديقِه المعجزةُ؛ لأنَّها تَهدي، وتدلُّ على صدقِ مُدَّعي النُّبوَّة، والقرآنُ الكريم؛ لأنَّه يَهدي بآياته وأحكامِه؛ لما فيه خيرُ الدُّنيا والآخرة، وأجاز الرّازيُّ أن يكون التَّعريف للجنسِ والعهدِ أيضًا، فقال: "والألِفُ واللّامُ في (الهُدَى) يُحْتَمَلُ أن تَكونَ لِلاستِغراقِ، أي: كُلُّ ما هو هُدًى، ويُحتَمَلُ أن تَكونَ لِلعَهدِ"[1]، وفي استعمال النَّظمِ الكريم (الهدى) مصدرًا، وجَعْلِها مُصاحِبةً للرَّسول مبالغةٌ، فهو لا يُصاحِبُ جزءًا من الهداية، بل حقيقةُ الهدايةِ تصاحبهُ، وتمتزجُ بإرساله، ففيه مبالغةٌ واضحةٌ، كما أنَّ: "إطلاقَ (الهدى) على (القُرْآن) للمُبالَغَة، وكذا الكَلام في (المعجزة)، ولا يؤَوَّل بـ(الهادي) أَوْ بتقدير المُضاف؛ لأنَّه يُنافي المُبالَغَة"[2].

دلالةُ الاستعارةِ في (الهُدى):

الاتِّهامُ بالخِداعِ والهَوى يقابلُهُ التَّصديقُ له بالهُدى

استعارَ النَّظمُ القرآنيُّ (الهدى)، في قولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ للمعجزة والقرآن؛ لأنَّ "(الهُدى) بمَعنى: ما به الاهتداءُ إلى الصِّراط المستقيم"[3]، فقد شبَّهَ كلًّا منهما بالهُدى، ثمَّ حذفَهُ، وأبقى المشبَّه به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والغرضُ منها الرَّدُّ على ما زعمَهُ الكفّار، مِن أنَّ ما يأتي به من ربِّه سحرٌ وخِداع وتمويهٌ وإضلالٌ، قال الرّازيُّ: "و(الهُدَى) يُحتَمَلُ أن يَكونَ هو القُرآنَ، كَما قال تعالى: ﴿أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [البَقَرَة: 185]، ويُحتَمَلُ أن يَكونَ (الهُدَى) هو المُعجِزَةُ، أي: أرسَلَهُ بالحَقِّ، أي: مَعَ الحَقِّ"[4]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بـ (الهُدى) التَّوحيدَ[5]، وذهبَ ابنُ عاشورٍ إلى أنَّه: "عَبَّرَ عَنِ الإسلامِ بِالهُدى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 88.
(2) حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 73.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 259.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 88.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 344.

ودينِ الحَقِّ؛ تَنويهًا بِفَضلِهِ، وتَعريضًا بِأَنَّ ما هُم عليه لَيسَ بِهُدًى ولا حَقٍّ"[1].

معنى (الواو) ودِلالتُها في ﴿وَدِينِ﴾:

الاعتقادُ بالدّينِ الحقِّ يكونُ بالاهتداءِ إلى طريقِ الصِّدق

عطفَ النَّظمُ الكريمُ (دين الحق) على (الهدى)، في قولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ للدَّلالة على المغايرةِ بين المُتعاطِفَين، فـ (الهدى) مصدرٌ أُريدَ به القرآنُ الكريم أوِ المعجزةُ، اللَّذان يَهديانِ النّاسَ إلى التَّصديقِ والإيمان، و(دينُ الحقِّ) أُريدَ به الإسلام، والغرضُ من العطفِ: بيانُ أثرِ القرآن والمُعجزات في الوصولِ إلى الاعتقادِ بالدّين الحقِّ، فهو مِن عطف المسبَّب على السَّبب، فلولا الهُدى؛ لم يكن ثَمَّةَ اعتقادٌ بالدّينِ الحقِّ، كما أفادَ العطفُ مصاحبةَ المُرسَلِ للدّين الحقِّ عند الإرسالِ، فهو مُرسَلٌ مُلتبِسًا بالدّين الحقِّ، لا يفارِقُهُ، ولا ينفكُّ عنه، وفي جَعْلِ الهدى والدّين الحقِّ مُلابسَينِ للرَّسول دلالةٌ على اشتمالِ الهُدى والدّينِ الحقِّ على الرَّسولِ، بحيثُ يكونانِ مُحيطَينِ به ثابتَينِ فيه.

دلالةُ المضافِ (دين):

الإسلامُ الحنيف خضوعٌ وطاعةٌ للحَقِّ المُنيف

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ (الدّين)، في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ للدَّلالةِ به على الإسلام، وإنَّما عدلَ النَّظمُ الكريمُ عن لفظِ الإسلام إلى لفظِ (دين)؛ لغرضِ الوصول إلى تخصيصِه بالحقِّ؛ احترازًا عن الدّينِ غيرِ الحقِّ، فلو قال: (الإسلام الحق)؛ لكان موهِمًا أنَّ هنالك إسلامًا غيرَ حقٍّ، فاستبدلَ النَّظمُ الإسلامَ بدينٍ، كما استبدل القرآنَ والمعجزةَ بلفظ (الهدى)؛ ليكون كلٌّ من الاستبدالَين مُشيرَينِ إلى الغرضِ من المستبدَل منه، فالغرضُ من القرآن والمعجزة الهُدى بهما، والغَرَضُ من الإسلام الاعتقادُ بالحقِّ، ولفظ (دين) يدلُّ على الخضوعِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 173.

والطّاعة، فهو دينٌ حقٌّ، وخضوعٌ وطاعةٌ للحقِّ تعالى، فيكون الإسلامُ عبارةً عن طاعةِ الحقِّ.

دلالةُ المضافِ إليه ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

دينُ الله الحقُّ يهدي للخيرِ والصِّدق

يحتملُ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ الواقعُ مُضافًا إليه، في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنْ يُرادَ به الشَّيءُ الثّابتُ، وبناءً عليه: فالإضافةُ من إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفة، وأنْ يُرادَ به الذّاتُ الإلَهيَّة الحَقَّة الثّابتة، وعليه: فالإضافةُ حقيقيَّةٌ بمعنى (اللّام)، أي: دينُ اللّه الحقِّ، واختارَ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ دونَ بقيَّةِ أسمائه الجليلةِ؛ ليدلَّ على ثبوتِ هذا الدّين، وأنَّه حقٌّ لنزولِه من الحقِّ تعالى، قال البقاعيُّ: "الحقُّ، أي: المَلِك الَّذي ثباتُهُ لا يُدانيه ثباتٌ، فلا ثباتَ لغيرِه، فثَباتُ هذا الدّينِ بثباتِه، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: والدّينُ الَّذي هو الحقُّ، الثّابتُ في الحَقّيَّةِ، الكاملُ فيها كمالًا ليسَ لغيرِه، فيكونَ من إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه؛ إشارةً إلى شِدَّةِ التباسِه بها"[1]

دلالةُ العدولِ من التَّوصيفِ إلى الإضافةِ في ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾:

ثبوتُ دينِ الإسلامِ ونسخُ بقيَّةِ أديانِ الأنام

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (دين) إلى ﴿ٱلۡحَقِّ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ للدَّلالةِ على تعيينِ الدّين بإضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفة[2]؛ إذِ الأصلُ (الدّينُ الحقُّ)، لكنْ عدلَ عن الوصفِ الكاشفِ إلى الإضافةِ؛ للدَّلالة على تعيينه ببيانِ أنَّه الحقُّ، بخلافِ التَّركيبِ الوصفيِّ الَّذي يَلزَمُ منه أنَّ تلك الأديانَ السَّماويَّةَ ليستْ حقًّا، كما دلَّ العدولُ على التَّركيزِ على الحقِّ دونَ المُضاف، بخلافِ التَّركيبِ الوصفيِّ الذي يكونُ الموصوفُ محطَّ الاهتمامِ فيه، وتأتي الصِّفةُ للكشفِ عنه، واكتسبَ المضافُ من المضافِ إليه التَّأييدَ والتَّسديد بأنَّه الدّينُ الثّابت؛ إذِ الحقُّ هو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 31.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 259.

الشَّيءُ الثّابتُ الَّذي لا يزول، بخلافِ بقيَّة الأديان التي بظهورِه صارَتْ إلى زَوالٍ ونَسْخٍ.

دلالةُ تقديمِ (الهدى) على ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾:

الهدايةُ سببٌ لاعتناقِ الدّيانة

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ (الهُدى) على ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾، في قولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّ الهدايةَ والإرشادَ إلى اللّه تعالى يُؤدّي إلى دينِ الحقِّ، فهو من عطفِ المُسبَّب على السَّبب؛ لأنَّ الدّينَ هو مجموعةٌ من القوانين والأحكام الشرعيَّة والأعمالِ التَّكليفيَّة، معَ ما يتضمَّنُهُ من إخبارٍ بالغيب، فما لم يتقدَّمْهُ اهتداءٌ بالأدلَّة العقليَّة، ورؤيةٌ للمعجزاتِ النَّبويَّة، ومعرفةٌ بأوجه الاستدلالات القرآنيَّة، فإنَّه لن تكونَ هنالك طاعةٌ وخضوعٌ، لذلك عبَّر عنه بـ ﴿دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾، أي: يُتديَّنُ به، ويُخضَعُ له بعدَ حصولِ الهداية، كما أنَّ تقديم (الهداية)، وهي الدَّلالةُ على الحقِّ بلُطْفٍ يقودُ للخضوعِ القلبيِّ والجوارحيِّ لكلِّ ما يطلبُهُ الدّينُ الحقُّ.

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾:

تعليلُ الأفعالِ بالحِكمة محقَّقٌ ثبوتُها بلا كُلفةٍ

علَّلَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الإرسالِ بـ(اللّام)[1]، في قولِه تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، ولمّا كانت أفعالُ اللّه تعالى لا تُعلَّلُ بالأغراض؛ لاستلزامِ النَّقصِ المُحالِ عليه؛ كانتِ (اللّام) للدَّلالة على الصَّيرورة والمآل، فتكون هنالك استعارةٌ تبعيَّةٌ بالحرف؛ إذ شبَّه عاقبةَ الشَّيء ومَصيرَه بالعِلَّة، بجامعِ التَّرتُّبِ في كلٍّ على الفعلِ، ونتلمَّسُ في تلك العِلَّة - وإن كانتْ جعليَّةً - أنَّ الإظهارَ على الأديان كلِّها كانَ باعثًا للإرسال، وبما أنَّ حكمةَ اللّه تعالى في الفعلِ لا تتخلَّفُ، فإنَّ الإظهار واقعٌ لا محالةَ، فتكونُ اللّامُ بمنزلةِ التَّوكيدِ لحصولِ الإظهار والإعلاء؛ إذِ المولى تعالى لا يحتاجُ إلى تعليل أفعالِه إلّا لبيان أنَّ تلك العللَ واقعةٌ لا محالةَ، ومُترتِّبةٌ على الفعل بلا كُلفةٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 202.

ومَشقَّة، ولذا قال ابن عاشور: "وتَعليلُ ذَلِكَ بِقَولِهِ: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، إعلامٌ بِأنَّ اللّهَ أرادَ ظُهورَ هَذا الدّينِ وانتِشارَهُ؛ كَيلا يَطمَعوا أنْ يَنالَهُ ما نالَ دينَ عيسَى عليه السلام مِنَ القَمْعِ والخَفْتِ"(1).

دلالةُ الكنايةِ في (يُظهره):

إظهارُ الدّين بالحُجَّة والعقلِ واليقين

كنَّى النَّظمُ الكريمُ بفعلِ الإظهارِ، في قولِه تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ عن الانتصارِ والتَّفوُّقِ والعُلوِّ(2)، فـ"يجوزُ أنْ يكونَ من الغلَبة والمُعاونة، أي: ليُعليَه على الدّينِ كلِّه، ويَغلِبَه أيضًا، وأن يكونَ من البُروز وعدم الخفاء"(3)، قال الرّازيُّ: "وتَحقيقُ القَولِ فيه: أنَّ مَن غَلَبَ غَيرَهُ؛ حَصَلَتْ لَهُ صِفَةُ كَمالٍ، ومَن كانَ كذلك؛ أظهرَ نفسَهُ، ومنه صارَ مَغْلوبًا، وصارَ كالنّاقِصِ، والنّاقِصُ لا يُظْهِرُ نَفْسَهُ، ويُخْفي نُقْصانَهُ، فَصارَ الظُّهورُ كِنايَةً لِلغَلَبَةِ؛ لكونه من لوازمِها"(4)؛ إذ يلزمُ من إظهارِه على الأديانِ كلِّها انتصارُهُ بالحُجَّة والبُرهان والأدلَّةِ العقليَّة، وتفوُّقِه عليهم في سوحِ القتالِ معَ قلَّةِ العُدَّة والعَدَد، وجعلَهُ ابنُ عاشور كنايةً عن: "الارتِفاعِ الحَقيقيِّ، ثُمَّ أُطْلِقَ مَجازًا عَنِ الشَّرَفِ، فَصارَ (أظْهَرَهُ)، بِمَعنَى: أعلاهُ، أي: لِيُشَرِّفَهُ على الأدْيانِ كُلِّها"(5).

دلالةُ فعلِ (الإظهار) مادَّةً وصيغةً:

كلَّما جدَّدوا الإطفاءَ؛ جدَّدَ المولَى الإظهارَ والاستعلاء

عبَّر النَّظمُ القرآنيُّ بفعلِ (الإظهار) المُضارع، في قولِه تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الدّينَ يتعرَّضُ من أهل الكتابِ إلى محاولاتِ الإخفاء، من خلال تكذيبِه وافتراءِ الكذب على اللّه تعالى، بأنَّه لم يُبَشِّر بنبوَّتِه ولا بدينِه، فهم يَعمَدون إلى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 192.

(2) حاشيتا القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 95.

(3) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 3/ 19.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 532.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 202.

إطفاءِ جذوتِه وإخمادِ نوره، فكان اختيارُ فعلِ (الإظهار) مُقابلًا لفعلِ (الإطفاء) الدّالِّ على الإخفاء، فيكون بينَهما طباقٌ خفيٌّ، والإظهارُ يكون بانتشارِه وامتدادِه وسَماعِ العالمينَ به، مع التَّفوُّق والانتصارِ بالحُجَّة والسّيفِ والبُرهان، وقال الواحديُّ: "قالَ أهلُ المعاني: معناه: ليُعليَ دينَ الإسلام على كلِّ دينٍ بالحُجَّة والغَلَبة، وقد صحَّ ظهورُهُ عليها، فحُجَّة هذا الدّينِ أقوى الحُجَج"[1]، في حين رأى ابنُ عاشور أنَّ الفعلَ مُضمَّنٌ معنى (النَّصر)؛ لتعديته بـ(على): "أوِ التَّفضيلِ، أي: ليَنْصُرَهُ على الأديانِ كُلِّها، أي: ليَكونَ أشرَفَ الأديانِ وأغلَبَها"[2]، واختارَ النَّظمُ الكريمُ صيغةَ الفعلِ المضارع؛ للدَّلالة على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ إذ هم يُجدِّدونَ الإطفاء، واللّهُ تعالى يُجدِّدُ الإظهار، فيكون إطفاؤُهم إظهارًا من حيثُ لا يَشعُرونَ.

تحديدُ مرجعِ ضميرِ الغَيبةِ في ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾:

عُلوُّ الدّينِ أو رسولِه تلازُمٌ لا سبيلَ للشَّكِّ فيه

جوَّزَ المُفسِّرونَ في مَرجعِ ضميرِ الغَيبةِ المفعولِ، في قوله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، عودتَهُ إمّا إلى الرَّسولِ ﷺ، وحينَئِذٍ فإظهارُهُ يكونُ على أهلِ الأديان كلِّها؛ ليكونَ إظهارَ ذاتٍ على ذواتٍ، وإمّا أنَّه عائدٌ إلى الدّين، وهو الرّاجحُ، قال الرّازيُّ: "وأَكْثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ (الهاءَ) في قَولِه: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ راجعَةٌ إلَى الرَّسولِ، والأظهَرُ أنَّهُ راجِعٌ إلَى دينِ الحَقِّ، أي: أرسَلَ الرَّسولَ بِالدّينِ الحَقِّ؛ ليُظهِرَهُ، أي: ليُظْهِرَ الدّينَ الحَقَّ على الأديانِ، وعلى هَذا فَيُحتَمَلُ أن يَكونَ الفاعِلُ لِلإظهارِ هو اللّهُ، ويُحتَمَلُ أن يَكونَ هو النَّبيَّ، أي: ليُظْهِرَ النَّبيُّ دينَ الحَقِّ"[3]، وإنْ كان بينَهما تلازمٌ، فالمرادُ حينَئذٍ إظهارُ دينِ الإسلامِ على سائرِ الأديانِ بالنَّسخِ والانتشارِ وقوَّةِ الحُجَّةِ والبيان، قال الزَّمخشريُّ: "ليُظهِرَ الرَّسولَ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 10/ 391.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/ 173.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 88.

ﷺ ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، على أهلِ الأديانِ كلِّهم، أو ليُظهِرَ دينَ الحقِّ على كلِّ دينٍ"(1).

معنى ﴿عَلَى﴾ ودلالتُها:

الاعــتـــلاءُ عـلى الأشـيـاء اسـتـمـكـانٌ وسَـيـطـرةٌ بِلا خَفاء

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَى﴾، في قولِه تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستعلاءِ المجازيِّ؛ إذ عُلوُّ دينِ الحقِّ على بقيَّةِ الأديان المَنسوخةِ بظُهوره وبروزِه لا يكونُ استعلاءً حقيقيًّا؛ والغرضُ من ذلك تنزيلُ دينِ الحقِّ وبقيَّةِ الأديان بهيئةِ جسمَين، أحدُهما: يظهرُ، وينتصِرُ، ويتفوَّقُ على الآخر، فيكونُ الدّينُ الحقُّ بمنزلة المُعتلي فوقَ تلك الأديانِ المُسيطرِ عليها لقوَّةِ حُجَّتِه وعظيمِ بُرهانِه، قال البيضاويُّ: "ليَغلِبَهُ على جنسِ الدّينِ كلِّه بنَسْخِ ما كانَ حقًّا وإظهارِ فسادِ ما كانَ باطِلًا"(2).

معنى التَّعريفِ في ﴿ٱلدِّينِ﴾:

الأديـانُ الحقَّةُ مـنـسـوخـةٌ، والأديانُ الباطلةُ مَشروخةٌ

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلدِّينِ﴾، في قولِه تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ للدَّلالة على الاستغراقِ والشُّمول بقرينةِ التَّأكيد بـ ﴿كُلِّهِۦ﴾، قال ابن عاشور: "أي: أرسَلَهُ بِذَلِكَ؛ لِيُظْهِرَ هَذا الدّينَ على جَميعِ الأديانِ الإلَهيَّةِ السّالِفَةِ، ولِذَلِكَ أُكِّدَ بِـ ﴿كُلِّهِۦ﴾؛ لأنَّهُ في مَعْنَى الجمعِ"(3)، أي: كافَّة ما يُسمَّى دينًا، ويُخضَعُ له، ويُطاع، سواءٌ كان دينًا سماويًّا أم لا، قال الزَّمخشريُّ: "﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ على جنسِ الدّينِ كلِّه، يريدُ: الأديانَ المختلفةَ من أديانِ المُشركينَ والجاحدينَ من أهلِ الكتاب"(4)، ولم يَصِفْ، أو يُضِف النَّظمُ الكريمُ الدّينَ إلى الباطلِ مُقابِلًا للحقِّ في قوله: (دين الحق)؛ للدَّلالة على أنَّ بعض الأديانِ - وهي السَّماويَّةُ - حقَّةٌ أيضًا، لكنَّها

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 265.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 131.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 202.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 346.

بظهورِ هذا الدّينِ بطَلَتْ، ونُسِخت، ولا يتَّصفُ بالثُّبوت والدَّوام إلّا هذا الدّينُ العظيم.

دلالةُ التَّوكيدِ بـ ﴿كُلِّهِۦ﴾:

التَّفوُّقُ على الأديانِ بمُجمَلِها والعُلوُّ على الأحكامِ بتفاصيلِها

أكَّدَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلدِّينِ﴾ بلفظِ ﴿كُلِّهِۦ﴾، في قوله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ للدَّلالةِ على رفعِ توهُّمِ عدمِ الشُّمول المستفادِ من تعريفِ الاستغراق، وليُفيدَ التَّوكيدُ الكليُّ الاستغراقَ الإفراديَّ للأديانِ جميعِها، والاستغراقَ في أحكام كلِّ دينٍ من تلك الأديانِ بتفاصيلِها، فهو كما يتفوَّقُ على كافَّةِ الأديان، فإنَّه يتفوَّقُ على كلِّ دينٍ على حدةٍ بمكوِّناتِه وأحكامه، فكلُّ حُكمٍ من أحكام هذا الدّين مُتفوِّقٌ على كلِّ حُكمٍ من أحكام تلك الأديان، وبذا كان ناسِخًا لها، قال ابنُ عطية في بيانِ فائدةِ الكلّيَّة: "لفظٌ يصلحُ للعُموم، وأنْ يكون المعنى: أوْ لا يَبقى موضعٌ فيه دينٌ غيرُ الإسلام، وهذا لا يكونُ إلّا عندَ نُزول عيسى ابنِ مريمَ، ويحتملُ أنْ يكون المعنى: أنْ يُظهِرَه حتّى لا يوجدَ دينٌ إلّا الإسلامُ أظهرُ منه، وهذا قد كانَ ووُجِد"[1].

دلالةُ (الواو) في ﴿وَلَوۡ﴾:

ظهورُ هذا الدّين حتّى مع كراهةِ المُشركين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على العطف أوْ على الحال، وعلى كلا المعنَيين فإنَّ هذا الدّين ظاهرٌ على بقيَّة الأديان في حالةِ الكراهةِ لذلك، فكيف إذا لم يكُنْ في حالةِ الكراهة، ففي العطف أو الحالِ توكيدٌ لذلك الظُّهورِ والتَّفوُّق.

دلالةُ (لو) الشَّرطيَّةِ أوِ الوَصليَّة:

تَيئيسُ المشركينَ دعوةٌ للتَّفكيرِ في هذا الدّين

اختارَ النَّظمُ الكريمُ (لو)، في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على الشَّرطيَّة، أوْ أنَّها (لو) الوصليَّة، والغرضُ من ذلك التَّعليقِ أوِ الوصلِ: الإظهارُ بحالةِ الكراهة،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 304.

وتيئيسُ الكارهينَ ظهورَ هذا الدّينِ وانتشارَهُ، وفيه دعوةٌ لما يَنبغي أنْ يقوموا به إزاءَ هذا الدّين.

دلالةُ الفعلِ ﴿كَرِهَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

كراهةُ المشركين ليسَتْ مَبنيَّةً على بُرهانٍ مَتين

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ الماضي ﴿كَرِهَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ بُغضَهم لهذا الدّينِ وظُهورِه لم يكن إلّا عن أمرٍ مُتعلِّقٍ بهم، جُحودًا واستكبارًا وغُرورًا؛ إذ لم يَجِدوا في الدّين عَيْبًا أو نَقْصًا، فبَغَضوه، وإنَّما هم كَرِهوه لأمرٍ مُتعلِّقٍ بهم، فلم تكنْ كراهتُهم عقليَّةً أوْ مبنيَّةً على دليلٍ صحيحٍ، واختارَ النَّظمُ الكريمُ صيغةَ الفعلِ الماضي؛ لبيانِ أنَّ كراهيتَهم لهذا الدّين أمرٌ متحقّقٌ ومُتأصِّلٌ فيهم، وأنَّه مقطوعٌ بوقوعِه.

دلالةُ التَّعريفِ والجمعِ في ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾:

التَّقاطُعُ التّامُّ بينَ الإشراكِ وتوحيدِ الإسلام

استعملَ النَّظمُ الجليل لفظَ ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ مُعرَّفًا مَجموعًا، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستغراق والشُّمول بقرينةِ الجمع، فلو أطبقَ المشركونَ كافَّةً على إخفاتِ صَوْتِ الإسلام ومُحاربتِه؛ فإنَّ أمرَ هذا الدّين ظاهرٌ، وتحتملُ أنْ تكون (أل) موصولةً، والتَّقديرُ: (الذين أشركوا)؛ فيكون تعليلًا للكراهة؛ إذِ الكراهةُ لظهورِ هذا الدّين؛ بسببِ إشراكِهم باللّه تعالى وعدمِ توحيده، ودينُ الإسلام قائمٌ على التَّوحيدِ الخالصِ للّه تعالى، فيكونُ هنالك تقاطعٌ تامٌّ بين إشراكِهم وبينَ الإسلامِ الحَنيف.

دلالةُ اسمِ الفاعل ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾:

شأنُ المُشركين مُجانبةُ الإخلاصِ لربِّ العالَمين

اختارَ النَّظمُ الكريمُ صيغةَ اسم الفاعل، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾؛ للدَّلالة على الذَّواتِ المتَّصفةِ بحدثِ الإشراك القائم فيهم على سبيلِ التَّجدُّدِ والحصولِ، والمتعدّي إلى ظهورِ هذا الدّين، ولا يبعُدُ أن يكونَ اسمُ الفاعل المأخوذُ من الفعلِ المتعدّي (أشرَكَ) قد قُصِدَ به اللُّزومُ، فيكون مُفيدًا حصولَ الشِّرك فيهم على سبيلِ اللُّزوم وعدمِ الانفكاكِ.

سرُّ التَّعبير هنا بـ ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾:

اليهودُ يُغطّونَ البشاراتِ، والمشركونَ يكرهونَ ظهورَ الآيات

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ هنا بلفظ ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، في حينِ عبَّر بلفظِ: ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في ذيلِ الآيةِ السّابقة؛ لأنَّ الآيةَ السّابقة كانت تتكلَّمُ عن اليهود الَّذين راموا إطفاءَ نورِ الإسلام من خلالِ إنكارِ البشارات بنبوَّته، وتحريفِ النُّصوصِ الَّتي أخبرَتْ عن مَبعَثِه ﷺ، فكانوا كافرينَ مُغطّينَ للحقيقة النّاصعة، مُطفِئينَ لها، فهم المقصودونَ بالكافرين، في حينَ كان النَّظمُ هنا يتحدَّثُ مع المشركينَ عُمومًا؛ سواءٌ كانوا من أهلِ الكتاب أو من أهلِ مكَّةَ بقرينةِ: ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فاختارَ الوصفَ المناسبَ لهم، وهو الإشراكُ باللّه تعالى الَّذي يَمنَعُهم من الإيمان، قال الطَّيبيُّ: "والتَّناسبُ بينَ الكُفرِ والإطفاء؛ لأنَّ الكفرَ التَّغطيةُ والسَّتر، وبينَ الشِّرك ودينِ الحقِّ؛ لأنَّ دينَ الحقِّ التَّوحيدُ"[(1)]، وجوَّز ابنُ عطيَّة تعليلًا آخر، عبَّر عنه بقوله: "وخُصَّ ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ هنا بالذِّكر؛ لمّا كانت كراهيَةً مختصَّةً بظهورِ دينِ محمَّد ﷺ، فذكرَ المُعظَم والأوَّلَ ممَّن كَرِهَ ذلك، وصدَّ فيه، وذكرَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في الآيةِ قبلُ؛ لأنَّها كراهيَةُ إتمام نور اللّه في قديم الدَّهر، وهي باقيةٌ، فعَمَّ الكُفرَ من لَدن خَلْق الدُّنيا إلى انقراضها"[(2)].

دلالةُ الاحتباكِ في ﴿ٱلْمُشْرِكُونَ﴾:

المشركون كالكافرينَ في كراهةِ الإتمام والظُّهور لهذا الدّين

ذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّ النَّظمَ الكريمَ خصَّ (المشركين) بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾: "إتْمامًا للَّذين يَكرَهونَ إتمامَ هَذا النّورِ، وظُهورَ هَذا الدِّين على جَميعِ الأديانِ، ويُعلَمُ أنَّ غيرَ المُشركينَ يَكرَهونَ ظُهورَ هَذا الدِّينِ؛ لأنَّهُم أرادوا إطفاءَ نورِ الدّينِ، ولِأنَّهُم يَكْرَهونَ ظُهورَ هَذا الدّينِ، فَحَصَلَ في الكَلام احتباك"[(3)].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/ 203.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 26.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 193.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ
عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ
﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا
ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾
وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾

[الصّفّ: 10 - 13]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

التَّرغيبُ بالإيمان والجهاد تخليةً وتحليةً يومَ المَعاد

لمّا حثَّ اللّهُ تعالى في الآيات السّابقة على الجهادِ في سبيلِه، ونهاهُم عن أن يكونوا مثلَ قوم موسى في التَّواكُل والتَّخاذُل، وقوم عيسى في العِصيانِ؛ ذكرَ هنا أنَّ الإيمان باللّه والجهادَ بالمالِ والنَّفس في سبيلِه تجارةٌ رابحةٌ(1).

ويمكن أن يقال: إنَّ النَّظمَ الكريمَ أرادَ أنْ يُقدِّمَ النُّصحَ لليهودِ بعدَ أنْ أسمعَهُم واقِعَهُم المُرَّ، فتلطَّفَ لهم بالقول، وأرادَ أنْ يدلَّهُم على التِّجارةِ التي يَعشقونها لربحِ المالِ النَّفيس لديهم؛ إذ لو كانَ المُخاطَبونَ هم المؤمنينَ؛ فكيفَ يُطلَبُ منهم الإيمانُ باللّه ورسولِه، إلّا أنْ يكونَ بمعنى: استمِرّوا على الإيمان، فدلَّ على أنَّهم أهلُ الكتاب الَّذين آمنوا باللّه، وتَركوا الإيمانَ برسولِه الكريم ﷺ، قال الرّازيّ: "ومنها: أنَّ الأمرَ بالإيمانِ كيفَ هو بعدَ قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فَنَقولُ: يُمْكِنُ أنْ يَكونَ المُرادُ مِنْ هَذِه الآيَةِ المُنافِقينَ، وهُمُ الَّذينَ آمَنوا في الظّاهِرِ، ويُمْكِنُ أنْ يَكونَ أهْلَ الكِتابِ، وهُمْ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 244.

اليَهودُ والنَّصارَى؛ فَإِنَّهم آمَنوا بِالكُتُبِ المُتَقدِّمَةِ، فَكَأَنَّهُ قالَ: (يا أَيُّها الَّذينَ آمَنوا بِالكُتُبِ المُتَقَدِّمَةِ آمِنوا باللّه وبِمُحَمَّدٍ رَسولِ اللّه)"[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تِجَٰرَةٍ﴾: من تَجَرَ تَجْرًا، من بابِ قتَلَ، واتَّجَرَ، والاسمُ التِّجارةُ، وهو تاجرٌ[2]، وكذلك اتَّجرَ يَتَّجِرُ، فهو تاجرٌ، والجمعُ تَجْرٌ، مثالُ صاحِب وصَحْب[3]، والتِّجارةُ عبارةٌ عن كلِّ مُعاملةٍ يُرادُ منها الرِّبحُ، سواءٌ كانت بيعًا أَوْ شِرًى أَوْ غيرَهما من المُعاملاتِ الرّابحة، وقد تُطلَقُ على المعاملةِ المعنويَّة[4]، كما في الآيةِ الَّتي نحنُ بصدَدِها.

2) ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾: (سكن) أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ، يدلُّ على خلافِ الاضطرابِ والحَرَكة، يقالُ: سكنَ الشَّيءُ يَسكُنُ سُكونًا، فهو ساكِنٌ[5]، والمَسكنُ بفتحِ الكافِ وكسرِها: البيتُ، والجمعُ مَساكِنُ[6]، والأصلُ في هذه المادَّة: هو الاستقرارُ في مُقابلِ الحركةِ، وهو أعمُّ من الاستقرارِ المادّيِّ والرّوحيِّ[7]، والمرادُ به في الآيةِ: المكانُ الَّذي يسكنُ إليه، ويَستقِرُّ فيه أهلُ الجنَّة مُطمَئِنّين.

3) ﴿عَدۡنٖۚ﴾: (عدن) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الإقامة، تقولُ: عدنَتِ الإبلُ تعدِنُ عَدْنًا: أقامَتْ، ومنَ البابِ: المَعدِن، ويقيسونَ على ذلك، فيقولونَ: هو مَعْدِنُ الخيرِ والكرم[8]، والعدَنُ: أَنْ تلزمَ الإبلُ المكانَ فتألفُهُ، ولا تَبرَحُهُ[9]، والمُرادُ به في الآيةِ: الإقامةُ في الجنَّة باعتبارِ الاستقرارِ فيها ودوامِها وتناسبِها وتلاؤمِها الموجبِ للسُّرور والبَهجة.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

والمعنى: يا أيُّها الَّذين آمنوا هل أُرشِدُكم إلى تجارةٍ عظيمةِ الشَّأن، تُنجيكم، وتخلِّصُكم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 531.
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (تجر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (تجر).
(4) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 1/ 338.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكن).
(6) الفيوميّ، المصباح المنير: (سكن).
(7) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 5/ 167.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدن).
(9) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: (عدن).

التِّجارةُ الرّابحةُ الإيمانُ بالله ورسولِه والمُجاهَدة

مِن عذابٍ شديدِ الألم يومَ القيامة؟ هذه التِّجارةُ هي أنْ تثبتوا على الإيمانِ باللّه ورسولِه، وتُجاهِدوا في سبيلِ اللّه بأموالِكم وأنفُسِكم، ذلكم الإيمانُ والجهادُ خيرٌ لكم على الإطلاق، فيغفِرُ لكم سيّئاتِكم، ويُدخلُكم جنّاتٍ تجري من تحتِها الأنهار، ومَساكِنَ طاهرةً زكيَّةً مُستلذَّةً، في جَنّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الجزاءُ الَّذي ذُكِر من المغفرةِ الفَوْزُ العَظيمُ الَّذي لا فوزَ بعدَهُ، وبَشِّرْ يا محمَّد المؤمنينَ بالنَّصرِ والفتح، وفي هذا دلالةٌ على صدقِ النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه أخبرَ عمّا يحصلُ، ويقَعُ في المستقبلِ منَ الأيّام على ما أخبرَهُ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في الآية:

بعدَ ضَربِ الأمثالِ يعودُ الكلامُ لأصلِ المَقال

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِه مُنقطِعًا عنه كمالَ الانقطاع، فالنِّداءُ إنشاءٌ لفظًا ومعنًى، وما قبلَهُ خبرٌ لفظًا ومعنًى، والغَرَضُ منَ الانقطاع التَّخَلُّصُ "إلى الغَرَضِ الَّذي افتُتِحَتْ به السّورةُ من قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾ [الصف: 2]، إلى قوله: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ [الصَّفّ: 4]، فَبَعْدَ أنْ ضُرِبَتْ لَهُمُ الأمثالُ، انتقَلَ الكلامُ مِن مَجالٍ إلَى مَجالٍ"[2]، فهو غيرُ مُرتبطٍ بما قبلَهُ من قصَّتَي موسى وعيسى عليهما السلام، وإنَّما ارتبطَ بما افتُتِحَت به السّورةُ منَ القولِ المُخالِفِ للفعلِ، الَّذي كانَ يُؤذي النَّبيَّ ﷺ، فأرادوا أنْ يُبيِّنَ لهم العملَ الَّذي لا يُؤذيه، ويُحِبُّه اللّهُ تعالى، فانفصلَ الكلامُ عمّا قبلَه؛ ليرتبطَ بما قبلَ ذلك.

معنى (يا) ودلالتُها:

تنبيهُ المُخاطَبين للإقبالِ على السَّماعِ والتوجيه المُبِين

استعملَ النظمُ الكريمُ الحرفَ (يا)، في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على النِّداء، والغرضُ من النِّداء التنبيهُ إلى

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1405.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 193، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 265.

أهمّيَّةِ ما نودوا من أجلِهِ[1]؛ لكَي يُقبِلوا على الإصغاءِ والإنصاتِ، وفي النِّداءِ إشارةٌ إلى غفلةٍ منَ المُخاطَبين تستدعي تنبيهَهم وإزالةَ الغَفلةِ عنهم؛ لكي يُقبِلوا على السَّماعِ باهتمامٍ، والعملِ بمضمونِ الجُملةِ الَّتي جاءَ النِّداءُ لأجلِها.

دلالةُ الوصْلةِ (أيّ) في النِّداء:

الاستعانةُ بالوصْلَةِ تفخيمٌ للخطابِ وإيقاظٌ منَ الغَفْلة

استعملَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (أيّ) وصْلةً لنِداءِ المؤمنينَ، في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ نداءَ الموصولِ لا يكونُ مُباشرًا، فأُتي بـ(أيّ) للتَّوصُّلِ بها إلى ندائِه؛ إشعارًا بأهمّيَّةِ مُخاطبةِ المؤمنينَ بلفظِ الموصول، وإظهارًا لمزيدِ الالتفاتِ والإقبالِ من خلالِ تفخيمِ شأنِ المُخاطَبينَ بهذا النِّداء.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الموصولُ في الكلامِ إجمالٌ يَعقِبُهُ إتمام

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على العُموم معَ الإبهامِ المحتاجِ إلى تفسيرٍ وبَيان، فيُقبِلُ المُخاطَبونَ إلى النِّداء لسَماعِ ذلك الإيضاحِ بعدَ الإبهام؛ إذِ النُّفوسُ تتشوَّقُ إلى سَماعِ المُبهم؛ لتشوُّقِها إلى سماعِ الموضِّحِ والمُفصِّلِ والمُبيِّن، كما يوحي لفظُ الموصول بالتَّعظيم لهؤلاءِ المُخاطَبين بالنِّداء؛ لما في الإبهامِ مِن فَخامةٍ وإجلال.

دلالةُ جملةِ الصِّلةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾:

نداءُ المُخاطَبينَ بشِعارِ الإيمانِ داعٍ لمزيدٍ منَ الإصغاءِ والقَبولِ والإذعان

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الفعليَّة الماضيَةِ صلةً للموصولِ، في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على حُدوث ذلك الوصفِ فيهم على سبيلِ التَّحقُّقِ والقطعِ بالحُصول؛ لأنَّ الماضيَ مفيدٌ اتِّصافَ الفاعلِ بالوصفِ منذ أمَدٍ سحيقٍ، كما أنَّ خطابَهم بوصفِ الإيمانِ داعٍ لمزيدِ الإقبال؛ إذ يوحي بالتَّشريفِ والتَّكريم؛ لأنَّ الإيمانَ تصديقٌ وإذعان، والمتَّصِفُ بذلك يُشعِرُ بالقيمةِ والامتنان، فيُقبِلُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 52.

إلى مضمونِ النِّداء إقبالَ المتشوِّقِ المُهتمِّ معَ العِرفان، وبهذا المُنادَى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ارتبطَ هذا النِّداءُ بالنِّداءِ الواردِ أوَّلَ السّورة، المتضمِّنِ للعتابِ على قولٍ مُخالفٍ للعمل، معَ محبَّةٍ للجهاد في سبيلِ اللّه صفًّا مَرصوصًا، فأُعيدَ الخطابُ مُجدَّدًا بلفظِ الإيمان؛ لا للعتابِ والتَّعنيف، بل للإرشادِ والدَّلالة على ما يَنبغي العملُ به.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿هَلۡ﴾ التَّصوُّريَّة:

التَّلطُّفُ في العَرْض موجبٌ لتحقيقِ الغَرَض

استعملَ النَّظمُ الكريمُ أداةَ الاستفهام ﴿هَلۡ﴾ التَّصوريَّة، في قوله تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على العَرْضِ بطريقِ النُّصح والإرشادِ والتَّلطُّف، قال الرّازيُّ: "(هَلۡ) بِمَعْنَى الاستِفهام، ثُمَّ يَتَدَرَّجُ إِلَى أن يَصيرَ عَرْضًا وحَثًّا، والحَثُّ كالإغراءِ"[1]، واختارَ النَّظمُ الكريمُ للعَرْض أداةَ الاستفهام (هل) التَّصوريَّة، ولم يقلِ النَّظمُ: (ألا أدلُّكم) بأسلوبِ العَرْضِ المُباشَر الوضعيِّ؛ لأنَّ الاستفهام في أصلِ وضْعِه يدلُّ على عدم العِلْم بالشَّيء، واستُعمِلَ هنا للدَّلالة على عدم علْم المُتكلِّم بموقِفِ المخاطَب من العَرْض المقدَّم، وهو الدَّلالة والإرشاد، أهو يريدُ ذلك أم يمتنعُ عن قبولِه؟ ولذا قال ابن عاشور: "والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في العَرْضِ مَجازًا؛ لأنَّ العارِضَ قَد يَسألُ المَعروضَ عليهِ؛ ليَعلَمَ رَغْبَتَهُ في الأمرِ المَعْروض، كَما يُقالُ: هَل لَكَ في كَذا؟ أو هَل لَكَ إِلَى كَذا؟ والعَرْضُ هُنا كِنايَةٌ عَنِ التَّشويقِ إلَى الأمرِ المعروض، وهو دلالَتُهُ إيّاهُم على تِجارَةٍ نافِعَة"[2]، ويكونُ فيه كمالُ التَّلطُّفِ في العرض؛ إذ يجعلُ المخاطَبَ يختارُ المعروض من عدمِه، بخلاف ما لو قال: (ألا أدلكم)، فإنَّه يُفيدُ طلبَ العرض بشكلٍ مباشِر، ولذا قالَ البقاعيُّ: "ذُكِرَ بلفظِ الاستفهام تشويقًا؛ ليكونَ أوقعَ في النَّفس، فتكونَ له أشدَّ تقبُّلًا"[3]، وأمّا الاستفهام؛

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 531.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 193.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 34.

فإنَّه يُفيدُ السُّؤال عن المعروضِ وموقفِ المعروضِ عليه قَبولًا وعدمًا، فيكونُ مُتلطِّفًا في تقديم العَرْضِ، وقال القِنّوجي: "وذُكِرَ بلفظِه تشريفًا؛ لكونِه أوقعَ في النَّفس"(1).

معنى الفعلِ المُضارع ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

محبَّةُ المُرشِدِ للمُستدلّين يدفعُهُ للتَّذكيرِ الاستمراريِّ المكين

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ الواقعَ في حيّزِ الاستفهامِ المُستعملِ للعَرْضِ بطريقِ التَّلطُّف في الطَّلب، في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على الإبانةِ من المُرشدِ على سبيلِ التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، مع دلالتِه على الحال أوِ الاستقبال، والغرضُ من ذلك إظهارُ رغبةِ فاعلِ الدَّلالة على الرَّغبة المستمرَّةِ في النُّصح والإرشادِ من دونِ انقطاع، كما أنَّ مادَّةَ الفعلِ (أدُلُّ) تُفيدُ التَّعليمَ بطريق النُّصح والمحبَّة والحرصِ على التَّعليم؛ خوفًا من ضياعِ المُستدلِّ في جَهالة الطَّريق، فليس المرادُ مفهومَ الهداية وإراءةِ الطَّريق إلى هذه الموضوعات، ولا الإرشاد وقصد الخير والصَّلاح، بل يُرادُ الإبانة وإراءةُ موضوعٍ مجهولٍ لهم حتّى يُبيَّن، ويتَّضحَ لهم، وهذا المعنى أقوى وآكَدُ وأقربُ في تفهيم المَعنى والإيصال إلى المطلوب"(2)، "وجيءَ بفِعْلِ ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾؛ لإفادةِ ما يُذْكَرُ بَعدَهُ مِنَ الأشياءِ، الَّتي لا يُهتَدى إلَيها بِسُهولَةٍ"(3)، وفيه إشعارٌ بكونِ المخاطَبين في غفلةٍ عن ذلك الأمرِ المدلولِ عليه، كما أنَّ الفعل بمادَّته يدلُّ على مجرَّدِ الدَّلالة على العمل، وأمّا العملُ نفسُهُ؛ فهو اختيارٌ طوعيٌّ لِمَن شاءَ، وأحَبَّ.

مرجعُ ضميرِ الفاعلِ في ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾:

عظيم فضل اللهِ ورسولِه على إنقاذِ أهلِ الإيمان

يحتملُ فاعلُ الدَّلالةِ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ عَوْدَهُ إلى اللّه تعالى، وعودَهُ إلى الرَّسول ﷺ؛ فإنْ كان عائدًا إلى اللّه تعالى؛ فقد

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 14/ 122.
(2) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 3/ 226.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 194.

وردَ على لسانِ رسولِه، وإنْ كان عائدًا إلى الرَّسول ﷺ، فإنَّ اللّه قد أمرَهُ به، وفي ذلك إظهارٌ لعظيم فضل اللّه ورسولِه لإنقاذِ المؤمنينَ بأحبِّ الأعمالِ إليهما، قال ابن عاشور: "والظّاهِرُ أنَّ الضَّميرَ المُسْتَتِرَ في ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ عائِدٌ إلَى اللّه تَعالَى؛ لِأنَّ ظاهِرَ الخِطابِ أنَّهُ موجَّهٌ مِنَ اللّه تعالى إلى المُؤْمِنينَ، ويَجوزُ أنْ يُجْعَلَ الضَّميرُ إلى النَّبيِّ ﷺ على تَقْديرِ قَوْلٍ مَحْذوفٍ"[1].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾ ودلالتُها في ﴿أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ﴾:

أعلى درجاتِ الإيضاح الوقوفُ على المدلولِ بكلِّ ارتياح

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾؛ للدَّلالة على استعلاءِ الدَّلالةِ على التِّجارةِ استعلاءً مجازيًّا، الغرضُ منه إظهارُ التَّمكُّن والسَّيطرة في وضع الدّالِّ للمدلولِ على التِّجارةِ، حتَّى إنَّه واقفٌ عليها وقوفًا حسيًّا؛ بحيثُ يراها، ويُحِسُّ بها، ويعلمُ أنَّ ذلك المدلولَ عليه صارَ عِلْمًا يقينيًّا له.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿تِجَٰرَةٍ﴾:

التِّجارةُ مع اللّه رابحةٌ، فالسَّعيُ لها بكلِّ قوَّةٍ طامِحة

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿تِجَٰرَةٍ﴾، في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾؛ للدَّلالةِ على النَّوعيَّة؛ إذ هذه التِّجارةُ تختلفُ عن بقيَّة أنواعِ التِّجارات؛ لأنَّ الذي يدلُّ عليها هو اللّه ورسولُه، فهي تجارةٌ رابحة تتضمَّنُ سعادةَ الدّارينِ معًا، قال الهرريُّ: "التِّجارةُ: التَّصرُّفُ في رأسِ المال طلبًا للرِّبح، والتّاجرُ هو الذي يبيعُ، ويَشتري"[2].

دلالةُ الاستعارة في ﴿تِجَٰرَةٍ﴾:

ترغيبُ النُّفوسِ بالجهاد رغبةً بالثَّوابِ مقابلَ الأجساد

استعارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿تِجَٰرَةٍ﴾، في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم﴾؛ لمبادلةِ الإيمانِ والجهادِ بالثَّواب؛ فقد شبَّهَ تلك المبادلةَ والمعاوضةَ المعنويَّة بالتِّجارةِ الحسّيَّة، التي تتمُّ فيها مبادلةُ السِّلعةِ بالمال لغرضِ الرِّبح، قال الهرريُّ: "جعلَ ذلك

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 193.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 261.

تجارةً تشبيهًا له في الاشتمالِ على معنى المبادلةِ والمُعاوضة؛ طلبًا لنيلِ الفضلِ والزّيادة، فإنَّ التِّجارة هي معاوضةُ المالِ بالمال لطمَعِ الرِّبح، والإيمانُ والجهادُ شُبِّها بها من حيثُ إنَّ فيهما بذلَ النَّفس والمالِ؛ طمَعًا لنيل رِضا اللّه تعالى والنَّجاةِ من عذابِه"[1]، والغرضُ من الاستعارة ترغيبُ النُّفوسِ في ذلك الأمرِ المكروه طبْعًا وجِبِلَّةً؛ خاصَّةً الجهادَ وما قد يتضمَّنُهُ من إزهاقٍ للرّوح، لكنْ إذا أيقنَ المؤمنُ بأنَّ وراء ذلك رِبْحًا وثوابًا وجِنانًا؛ فإنَّه تهونُ نفسُهُ، وترغبُ في ذلك طلبًا للثَّواب.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تُنجِيكُم﴾ مادَّةً وصيغةً:

أربحُ التِّجارات المُنجيةُ باستمرارٍ من المُهلِكات

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارع ﴿تُنجِيكُم﴾، في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه التِّجارةَ مستمرَّةٌ على سبيل التَّجدُّدِ في عملية الإنجاءِ والتَّخليصِ، والسَّلامة والخروجِ من المآزقِ، كما دلَّ فعل (الإنجاء) المتعدّي بالهمزةِ على أنَّ هذه التِّجارةَ تجعلُكم ناجينَ، وتُصيِّرُكم خارجينَ إلى مكان السَّلامة والأمان، ومادَّةُ الإنجاءِ تفيدُ الإخراجَ والإنقاذَ والتَّخليصَ من الشَّرِّ والمَهلكةِ، و"وَصْفُ التِّجارَةِ بِأنَّها (تُنْجي مِنْ عَذابٍ أليم) تَجريدٌ لِلاستِعارَة؛ لِقَصْدِ الصَّراحَةِ بِهَذِه الفائِدَةِ لِأهَمّيَتِها، ولَيْسَ الإنْجاءُ مِنَ العَذابِ مِن شَأنِ التِّجارَة، فَهو مِن مُناسِباتِ المَعْنَى الحَقيقيِّ لِلعَمَلِ الصّالِحِ"[2].

الإسنادُ المجازيُّ في ﴿تُنجِيكُم﴾ ودلالتُهُ:

التِّجارةُ المُنجية هي التي لا غبن بعدها

أسندَ النَّظمُ الكريمُ الإنجاءَ إلى (التِّجارة)، في قولِه تعالى: ﴿تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم﴾، والمُنجي في الحقيقة هو اللّه تعالى، لكنْ لمّا كان الإيمانُ باللّه والجهادُ في سبيله أمارةً على طاعةِ اللّه تعالى؛

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 262.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 194.

أسندَ الإنجاءَ إليها، قال الهرريُّ: "أي: تكونُ سَببًا لإنجاءِ اللّه إيّاكم وتخليصِهِ"[1]، والغرضُ من ارتكاب المجازِ العقليِّ بيانُ قيمةِ تلك التِّجارةِ، والتَّعظيمُ من شأنِها، وإعطاؤها الدَّورَ والأثرَ البالغَ، حتّى يقومَ المخاطَبُ بذلك خيرَ قيامٍ، فيُبادرَ إلى تلك التِّجارةِ وعقدِ تلك الصَّفقةِ المُربِحة.

النَّعتُ بالجملةِ الفعليَّة ﴿تُنجِيكُم﴾:

تجارةٌ تُنجي خيرٌ من خسارةٍ تُردي

نعتَ النَّظمُ الكريمُ التِّجارةَ بالجملة الفعليَّة، في قوله تعالى: ﴿تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ تلك التِّجارةِ وتحديدِ وظيفتها، فهي تختلفُ عن كلِّ التِّجارات، التي تكون الغايةُ منها تحقيقَ الرِّبح الوفير والنَّجاةَ من الإفلاس، وكلاهما أمرانِ زائلانِ، إلّا أنَّ هذه التِّجارةَ مُنجيةٌ من واقعٍ أليمٍ لا يقبلُ الزَّوال، قال الهرريُّ: "وأفادتِ الصِّفةُ المقيِّدة أنَّ مِن التِّجارة ما يكونُ على عكسِها، كما أشارَ إليها قولُه تعالى: ﴿يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩﴾ [فاطر: 29]، فإنَّ بوارَ التِّجارة وكسادَها يكون لصاحبِها عذابًا أليمًا، كجمعِ المالِ وحفظِهِ ومنعِ حقوقِه، فإنَّه وبالٌ في الآخرة؛ فهي تجارة خاسرةٌ"[2].

معنى ﴿مِّنۡ﴾، ودلالتُها:

الإنجاءُ من العذاب بيانٌ للتِّجارةِ مع الكريمِ الوهّاب

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ﴿مِّنۡ﴾ الجارَّة، في قوله تعالى: ﴿تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ﴾؛ للدَّلالةِ على الابتداءِ المَمزوج بالبيان؛ إذ يبدأ الإنجاءُ من العذابِ؛ ليصِلَ بالنّاجي إلى أعلى المقاماتِ وأرفع الكرامات، و﴿مِّنۡ﴾ هنا للابتداءِ المجازيِّ؛ إذِ العذاب ليس مكانًا يبدأ الإنجاءُ منه، لكنَّه جُعِلَ كالمكانِ حتّى يتمَّ التَّحوُّلُ والانتقالُ منه.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٍ﴾:

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿عَذَابٍ﴾، في قوله تعالى: ﴿تِجَٰرَةٖ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 260.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 260.

الإنـجـاءُ من الحالِ إنجاءٌ من مرارةِ المَحَلِّ

﴿تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ﴾؛ للدَّلالة على التَّفخيمِ والتَّعظيم، فهي تجارةٌ واحدةٌ ذاتُ نوعٍ مختلفٍ، تُخلِّصُ من عذابٍ عظيم لا يُطاقُ، وفي لفظِ ﴿عَذَابٍ﴾ مجازٌ مُرسَلٌ قرينتُه ﴿مِّنۡ﴾؛ إذ أطلقَ الحالَّ، وأرادَ به المحلَّ، فهي تُنجي من جهنَّمَ التي يحلُّ فيها العذاب، لكنَّ النَّظمَ الكريمَ جعلَ النَّجاةَ من العذاب؛ لأنَّه محطُّ المرارةِ في جهنَّم.

دلالةُ النَّعتِ بصيغةِ ﴿أَلِيمٍ﴾:

تألُّمُ العذابِ وتلوّيه، فتُنقذُهُ التِّجارةُ، وتُنجيه

نعتَ النَّظمُ الكريمُ (العذابَ) بصيغةِ (فعيل) في قولِه تعالى: ﴿تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها لا تُنجي من أيِّ عذاب، بل من عذابٍ شديدِ الإيلام لا يُطاق، فهي تجارةٌ تُخلِّصُ الإنسان من أعظم صورِ العذاب وأشكالِه، قال الهرريُّ: ﴿عَذَابٍ﴾، أي: "مؤلم جسمانيٍّ - وهو ظاهرٌ - وروحانيٍّ وهو التَّحسُّرُ والتَّضجُّرُ"[1]، ودلَّتْ صيغةُ (فعيل) في السّياق على أنَّها بمعنى اسمِ المفعول، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ العذابَ من شدَّتِه يتلوَّى، ويتألَّمُ.

دلالةُ الفصلِ في ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾:

الحـاصـلُ بعدَ الطَّلَبِ أعزُّ منَ المُنساقِ بلا تَعَب

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ عمّا قبلَه؛ لكونِه بمنزلةِ البيانِ للتِّجارةِ المُنجيةِ من العذابِ الأليم، فيكون بينَهما علاقةُ كمالِ الاتِّصال، قال الطَّيبيُّ: "بيانٌ لجملةِ قولِه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ على سبيلِ الاستئناف، وعُلِمَ أنَّ البيانَ والمبيَّنَ واحدٌ"[2]، أو لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ لوقوعِها في جوابِ سؤالٍ مُقدَّرٍ مُفادُه: ما تلك التِّجارةُ المُنجيةُ؟ فأجاب بذلك، فتكون العلاقةُ شِبهَ كمالِ الاتِّصال، وعلى كلٍّ من التَّوجيهين فإنَّ البيانَ والتَّفسيرَ وقعَ بهذه الجملة، فيكونُ هنالك إجمالٌ ثمَّ تفصيلٌ، والنَّفس تتشوَّقُ لسماعه، قال الهرريُّ: "وهذا كلامٌ مُستأنَفٌ واقعٌ في

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 260.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 392.

جوابِ سؤالٍ مقدَّرٍ، فكأنَّهم قالوا: كيف نعملُ؟ أو ماذا نصنعُ؟ فقيل: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، وهذا أسلوبٌ يُفيدُ التَّشويقَ والاهتمامَ بما يأتي بعدَه، كما تقولُ: هل أدلُّكَ على عالمٍ عظيمٍ ذي خُلُقٍ حَسَنٍ وعِلْمٍ فيّاضٍ؟ هو فلانٌ، فيكونُ ذلك أروعَ في الخِطاب وأجلبَ لقَبولِه"[1].

معنى الفعلِ المُضارع ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

استمرارُ الإيمان بالقَلْب مُؤَدٍّ إلى طمأنينةٍ بلا تَعَب

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعل المضارعِ ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على حدوثِ ذلك الإيمان على سبيلِ الاستمرارِ، "وذَلِكَ تَعريضٌ بالمُنافِقينَ، وتَحذيرٌ مِنَ التَّغافُلِ عَن مُلازَمَةِ الإيمانِ وشُؤونِه"[2]، وتجدُّدُ الإيمانِ في القلب واستمرارُهُ بمعنى تكامُلِه، فيزدادُ بكثرةِ النَّظرِ في الأدلَّة والبيِّنات، ويتجذَّر، كما دلَّت مادَّةُ الإيمانِ على التَّصديقِ الَّذي يؤدّي إلى الشُّعور بالأمانِ والطُّمأنينة والرّاحة، فلا تُقلِقُهُ الشُّكوكُ، ولا تُؤرِّقُه الأوهامُ والظُّنون.

دلالةُ الجملةِ الخبريّة على الطَّلَب:

الامتثالُ السَّريع للخطابِ اللَّطيفِ البديع

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالجملةِ الخبريَّة، في قوله تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على الطَّلب، فهي جملةٌ خبريَّةٌ لفظًا، طلبيَّةٌ معنًى، والتَّقديرُ: (آمِنوا باللّه ورسوله)؛ بدليلِ جزم الفعلِ المضارعِ في قوله: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾، قال الطِّيبيُّ: "قال الزَّجّاج: وقد غَلِطَ بعضُ النَّحويين، فقال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ جوابُ ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾، وذلك أنَّه ليس إذا دلَّهم النَّبيُّ ﷺ على ما ينفعُهُم؛ غفرَ اللّهُ لهم، إنَّما يغفرُ اللّه لهم؛ إذا آمَنوا، وجاهَدوا، وإنَّما هو جوابُ: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾؛ لأنَّ معناه معنى الأمر، أي: آمِنوا باللّه ورسوله، وجاهِدوا؛ يغفرْ لكم، أي: إن فعلتم ذلك؛ يَغفِرْ لكم"[3].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 261.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 194.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 392.

ووجَّهَ الزَّمخشريُّ قول من يرى أنَّ ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ جوابَ ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ فقال: "وجهُهُ أنَّ متعلِّقَ الدَّلالةِ هو التِّجارة، والتِّجارةُ مفسَّرةٌ بالإيمان والجهاد، فكأنَّه قيل: هل تتَّجرونَ بالإيمانِ والجهادِ؟ يغفرْ لكم"[1]، والغرضُ من التَّعبيرِ عن الطَّلب بالخبرِ؛ الدَّلالةُ على ما ينبغي عملُهُ من سُرعةِ الامتثال؛ إذِ التِّجارةُ الرّابحة لا تحتاجُ إلى جبرٍ في مزاولتِها، بل إلى الهجوم لعمَلِها وإنجازِها، فكأنَّهم بمُجرَّدِ سَماع ذلك امتثلوا للخطابِ، فأقبلوا على العملِ والاعتقاد، ذلك: "أنَّ المؤمنَ الرّاسخَ في الإيمان لمّا كان مَظِنَّةً لحصولِ الامتثالِ؛ صارَ كالمحقَّقِ منه ذلك"[2]، فأخبرَ عنهم بطريقِ الإخبارِ عن الواقع، قال الهرريُّ: "وهذا خبرٌ بمعنى الأمر، جيءَ به للإيذانِ بوجوبِ الامتثال، فكأنَّه قد وقعَ، فأخبرَ بوقوعِه، كما تقولُ: غفرَ اللّهُ لهم، ويَغفِرُ اللّه لهم، جُعِلَتِ المغفرةُ حاصلةً لقوَّةِ الرَّجاء، كأنَّها كانت، ووُجِدَتْ، وقِسْ عليه، نحو: سلَّمَكُم اللّه، وعافاكم اللّه، وأعاذَكُمُ اللّه"[3]، كما أنَّ تحويل الطَّلبيِّ إلى إخباريٍّ أدْعَى لقَبولِ المخاطَبِ الأمرَ والامتثالِ له.

معنى (الباءِ) ودلالتُها في ﴿بِٱللَّهِ﴾:

الاعتقادُ الجازم ارتباطٌ وثيقٌ لازم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ (الباء)، في قولِه تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على التَّعديةِ، وليفيدَ تضمينَ فعلِ (الإيمان) معنى التَّصديقِ والثِّقةِ والاعتقاد، كما تدلُّ (الباءُ) في أصلِ وضْعِها على الإلصاقِ، فيكون الإيمانُ مُلتصِقًا باللّه تعالى التصاقًا مجازيًّا، يقومُ على الارتباطِ العميق والصِّلة القويَّة القلبيَّةِ باللّه تعالى.

دلالةُ الاسمِ الجليلِ (الله):

عَظَمةُ الاعتقاد بالمُتنزِّه عن الأندادِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن متعلِّقِ الإيمانِ والتَّصديق بالاسمِ الجليل،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 527.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 392.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 261.

في قولِه تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على عظَمةِ ذلك الإيمانِ بعظمة المصدَّقِ به، كما يدلُّ الاسم الكريمُ بما يُفهَمُ من معناه الدّالِّ على الذّات المتَّصفةِ بصفات الكمالاتِ والجلال على تعليلِ فعلِ الإيمان، فيكونُ من تعليقِ الحُكم بما يُفهِمُ معنى الوصفِ؛ للدَّلالةِ على العِلّيَّة[1].

معنى (الواوِ) ودلالتُها في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

الإيمانُ الصَّحيح بالاعتقادِ بالله ورسولِه الفصيح

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على الإشراكِ في حكم الإيمان والتَّصديق بينَ الله تعالى ورسولِه، وأنَّ الإيمان لا يكمُلُ إلّا باعتقادِ الله ربًّا ومحمَّدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، ففي ذلك العطفِ إرشادٌ لمتعلِّق الإيمان الصَّحيح؛ ردًّا على مَن يعتقدُ بأنَّ الإيمانَ بالله وحدَهُ كافٍ لصحَّة الإيمان.

نُكْتَةُ التَّعبير بوصف (الرَّسول):

التَّصديقُ بالرَّسولِ الكريم تصديقٌ بالمُرسِل الرَّحيم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن النَّبيِّ ﷺ بلفظِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾، في قوله تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على علَّة الإيمان بمحمَّد ﷺ، وهو الوصفُ العنوانيُّ له بالرَّسوليَّة؛ إذ كونُه مُرسَلًا من الله تعالى علَّةٌ للإيمانِ به؛ إذ تكذيبُهُ تكذيبٌ للمُرسِلِ الَّذي أرسلَهُ بالهدى ودينِ الحقِّ، فالعدولُ عن الاسمِ العلَمِ الشَّريف إلى الوصفِ تعليلٌ للإيمانِ بهِ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾:

تشريفُ الرَّسول يوجب طاعتَهُ بكلِّ الأحكامِ والأُصول

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الرَّسول) إلى الضَّمير العائدِ إلى الله تعالى، في قولِه: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على التَّشريف والتَّكريم؛ فقدِ اكتسبَ المضافُ من المضافِ إليه عَظَمةً ومكانةً، وبيانًا لسِرِّ الإيمانِ له، وهو أنَّه رسولُ مَن خَلَقَ العوالمَ كلَّها، فيكونُ

(1) حاشية اليزديّ على تهذيب المنطق للتّفتازانيّ، ص: 10.

الإيمان به واجبًا لانتسابه إليه، واختيارِ اللّه تعالى له رَسولًا بينَهُ وبينَ خَلْقِه.

دلالةُ تقديم الذّاتِ الجليلة على ذاتِ الرَّسولِ الكريم:

الإيمـانُ بالله الجليل سرٌّ للإيمانِ بنبيّه الخليلِ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الإيمانَ باللّه تعالى على الإيمانِ برسوله ﷺ، في قولِه تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الإيمان باللّه تعالى مقدَّمٌ على الإيمانِ بغيرِهِ؛ إذ بالاعتقادِ باللّه تعالى وبكَمالاته يتحقَّقُ الاعتقادُ بمَن أرسلَه، وإنْ كان الرَّسولُ مُرشِدًا للإيمان باللّه تعالى، و(الواوُ) وإنْ كانت لمطلقِ الجمع؛ فإنَّ السّياق يفيدُ أنَّ الإيمان بالإله الحقِّ مقدَّمٌ على الإيمانِ بالنُّبوَّة الحقَّة، وإنْ كانتِ النُّبوَّةُ مُخبِرةً عن الإله الحقِّ.

دلالةُ (الواو) في ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾:

الاقتصارُ على الجهادِ إبرازٌ لمكانتِه عندَ الخُطوبِ الشِّداد

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الفعليَّةَ، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ على ما قبلَها؛ للدَّلالةِ على عطفِ نوعٍ من العملِ الصّالح على الإيمانِ؛ بيانًا للمُغايرةِ بينَ رُتبتَي الاعتقادِ والعمَل، وأنَّ الأعمالَ لا تُقبلُ ما لم تكُن عن إيمانٍ، وأهمّيَّةِ العمل في تحويلِ الاعتقاد إلى سلوكٍ دائم، واقتصرَ النَّظمُ الكريمُ من الأعمال الصّالحةِ على الجهادِ؛ لأنَّهُ الأنسبُ في سياقِ السّورةِ التي تتحدَّثُ عن الصَّفِّ والوحدةِ في القتال، والتَّلاحُم مع النَّبيِّ في الجهاد، قال ابن عاشور: "وإذ قَد كانَ الخِطابُ لِقَومٍ مُؤمنينَ فَإنَّ فِعْلَ ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مَعَ ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ مُرادٌ بِهِ: تَجمَعونَ بَينَ الإيمانِ باللّه ورَسوله، وبَينَ الجِهادِ في سَبيلِ اللّه بأموالِكُم وأنفُسِكُم؛ تَنويهًا بِشَأنِ الجِهادِ"[1].

دلالةُ الفعلِ المضارعِ (تُجاهدون) مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعل المضارعِ، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 194.

المبالغةُ في الجهاد مطلوبةٌ على سبيلِ الازدياد

﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ لهذا العمَلِ الصّالحِ، كلَّما دعَتِ الدَّواعي له، وتطلَّبَتْهُ الظُّروفُ والأزَمات، وهذا العملُ الصّالح استقرَّتْ له صيغةٌ صرفيَّةٌ في الاستعمالِ، وهي صيغةُ (فاعل) الدّالَّةُ على المُبالغة والكثرة؛ بيانًا لما يحتاجُهُ هذا العمل مِن تعَبٍ ومشقَّةٍ واستعداد وتَضحيات، والفعل ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ بمادَّته المأخوذةِ من (الجُهد) دالٌّ على التَّعبِ والمشقَّةِ والعَناء، ولم يقُلِ النَّظمُ: (تقاتلون)، كما عبَّر بقولِه من قبلُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾؛ لأنَّ المراد بالجهادِ ما هو أعمُّ من القتال، وهو بذلُ الجُهد والطّاقةِ في نُصرة الإسلام، الذي يكونُ بالقتال وغيرِه، قال الهرريُّ: "الجهادُ له ضروبٌ شتّى: جهادٌ للعدوِّ في ميدانِ القتال لنُصرةِ الدّين، وجهادٌ للنَّفس بقهْرِها ومَنْعِها عن شَهَواتها التي تُرديها، وجهادٌ بينَ النَّفْسِ والخَلْقِ بتَركِ الطَّمَعِ في أموالِهم والشَّفقةِ عليهم والرَّحمةِ بهم، وجهادٌ بين المَرءِ والدُّنيا بألّا يتكالبَ على جمعِ حُطامها، وألّا ينفق المالَ إلّا فيما تُجيزه الشَّرائعُ، وتقرُّه العقولُ السَّليمة"[1].

تحديدُ الطَّريق أساسٌ للجهادِ عندَ التَّحقيق

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على الظَّرفيَّة؛ إذ شبَّهَ المنهجَ الإلهيَّ بالسَّبيل والطَّريق تمييزًا لهُ عن بقيَّةِ السُّبُل، فيكونُ وقوعُ الجهادِ في ذلك الطَّريق وُقوعًا حقيقيًّا، وإنْ كانتِ الظَّرفيَّةُ بالنَّظرِ للمُستعارِ له مجازيَّةً، وتحتملُ ﴿فِي﴾ أن تكون للسَّببيَّة بمعنى (الباء)، أي: تجاهدونَ بسببِ أمرِ اللّه وشأنِه ومَنهجِه، ومِن ثَمَّ قالَ البقاعيُّ: "أي: بسببِ تسهيلِ طريقِ المَلِكِ الأعظمِ الموصِلِ إليه، الَّذي لا أمرَ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 262.

لغيرِهِ، بحيثُ يكونُ ظرفًا لكم في جميعِ هذا الفعلِ، فلا شيءَ يكونُ منه خارجًا عنهُ"[1]، فيكونُ من جَعْلِ السَّببِ كالظَّرف؛ للدَّلالةِ على المبالغةِ بالعملِ بالسَّبب، حتّى كأنَّه محيطٌ بهم، ففي الحرفِ ﴿فِي﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ حينئذٍ.

دلالةُ الاستعارةِ في ﴿سَبِيلِ﴾:

استعارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (السَّبيل)، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على المنهجِ والقضيَّة، فقد شبَّهَ المنهجَ الإلهيَّ والدّينَ الإسلاميَّ بالسَّبيلِ بمعنى الطَّريق، الَّذي يوصِلُ إلى الخيرِ والفَلاح، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ، وأبقى المشبَّهَ به على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة، وفي تشبيه المنهجِ والدّين بالسَّبيل بيانٌ لكونِ هذا الطَّريقِ مُذلَّلًا مُعبَّدًا موصِلًا بكلِّ يُسرٍ إلى الرِّضا الإلهيِّ، ولذا اختار النَّظمُ (السّبيلَ) على (الطَّريق).

المُضيُّ على السَّبيلِ موصِلٌ للخيرِ الكَبير

دلالةُ الإضافةِ في ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (السَّبيل)، إلى اللهِ تعالى في قولِه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعيينِ والتَّعريف؛ تمييزًا له عن بقيَّةِ السُّبُلِ والطُّرُقِ الَّتي لا تصِلُ إلى خيرٍ وفلاحٍ وسعادة؛ إذ يكتسبُ (السَّبيلُ) بإضافتِه إلى اسم الجَلالة - الدّالِّ على كلِّ جَمالٍ وكَمال - شَرَفًا لذلك السَّبيل ومكانةً وجلالًا؛ لأنَّ خالقَ كلِّ شيءٍ أضافَهُ لنفسه، فما بقيَّةُ السُّبُلِ إلّا طرقٌ غيرُ موصِلةٍ لشَيءٍ.

سبيلُ اللهِ موصِلٌ للخير، وبقيَّةُ السُّبُلِ فيها الضَّررُ والضَّير

دلالة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرورَ ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، على الجارِّ والمجرورِ أيضًا: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾؛ للدَّلالة على أهمّيَّةِ النِّيَّةِ والقصدِ قبلَ ذِكرِ ما يَبذلونَهُ من غالٍ ونفيس، فيكون التَّقديمُ

كلُّ ما يُقدَّمُ نعمةٌ مِنَ النِّعَم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 35.

دالًّا على تحديدِ الجهةِ المبذول من أجلها؛ ليُعتدَّ بعمَلِها، ولأنَّها أعظمُ من كلِّ مالٍ ونفس؛ لأنَّها التي منحتِ الإنسانَ المالَ والنَّفسَ وكلَّ النِّعَم.

تقديمُ النَّفسِ والمالِ وُصولًا إلى دَرجاتِ الكَمال

مَعنى (الباءِ) ودِلالتُها في ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ (الباء)، في قولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾؛ للدَّلالةِ على شبه الآلة والاستعانةِ المُنَزَّلِ مَنزلتَها، فقولُنا: (كتبتُ بالقلم)، أي: مُستعينًا بهذه الآلةِ لتحقيقِ الكتابة، ولم يذكُرِ النَّظمُ الكريمُ آلاتِ الجهادِ كالسَّيفِ وما في معناه، وإن كان هو الآلةَ في الحقيقة؛ لأنَّ المرادَ بالجهاد ما هو أعمُّ من القتالِ، فيكونُ ببذلِ المالِ أوِ النَّفس في طريقِ الله، عن طريقِ المُقاتلةِ بالسَّيف أوِ الجري في سبيلِ الدَّعوة، مُسترخِصًا المالَ والنَّفسَ والرّاحةَ والصِّحَّةَ من أجلِ الدَّعوةِ والقضيَّة.

تقديمُ النَّفيسِ والـغـالي مـعَ امـتـلاكِـهِـم للأموال

دلالةُ الإضافةِ في ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (الأموالَ) إلى ضميرِ المُخاطَبينَ، في قولِه تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعريفِ والتَّعيين، فهي أموالُ المُجاهدينَ الَّذينَ بذلوها قُربةً للّه تعالى، وأفادَتِ الإضافةُ التَّملُّك، وهم مع ذلك يَدفعونَ ما يَمتلكونَهُ ابتغاءَ مَرضاتِ اللّه.

التّرقّي في البَذلِ مُـراعـاةٌ لجَهْدِ المُقِلِّ

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَأَنفُسِكُمْۚ﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ﴾؛ للدَّلالة على التَّرقّي في بذلِ ما يَمتلكونَهُ من غالٍ ونفيس من أجلِ الدَّعوة والمنهجِ الرَّبّانيِّ، فقد قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ (الأموالَ) على (الأنفُس)؛ للتَّرقّي في درجاتِ البذل، إذِ المالُ عزيزٌ على النَّفس، إلّا أنَّ النَّفس أعلى وأعظَمُ، وذلك التَّرقّي متناسِبٌ مع الفعلِ المضارع (تُجاهدون) الدّالِّ على التَّجدُّدِ في البذلِ، بحيثُ يترقّونَ في منازلِه، ويَصعدونَ في مَدارجِه، قال الهرريُّ: "وقدَّمَ (الأموالَ) على

(الأنفس)؛ لأنَّها هي الَّتي يُبدأ بها في الإنفاقِ والتَّجهُّز إلى الجهاد، أو لأنَّ الإنسان رُبَّما يَضِنُّ بنفسِه، أو للتَّرقّي من الأدنى إلى الأعلى، أو لأنَّه إذا كان له مالٌ؛ فإنَّه يُؤخَذُ به النَّفسُ لتغزو"[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾:

بـذلُ الـنُّـفـوسِ والـمُـهَـجِ وُصـولًا إلى رِفعةِ الدَّرَج

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (الأنفس) إلى ضميرِ المخاطَبين، في قوله تعالى: ﴿بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيينِ والتَّعريف، والغرضُ من ذلك تحديدُ تلك الأنفسِ التي هي أعزُّ ما يَمتلكون؛ ليبذِلوها في سبيلِ اللّه، في حينِ ذهبَ البقاعيُّ إلى أنَّ النَّظمَ الكريمَ قدَّمَ الأموال على الأنفس: "لعزَّتِها في ذلك الزَّمان، ولأنَّها قوامُ الأنفُس والأبدان، فمَن بذلَ مالَهُ كلَّهُ؛ لم يبخَلْ بنفسِه؛ لأنَّ المالَ قوامُها، ولمّا قدَّمَ القوامَ؛ أتبعَهُ القائمَ به، فقال: ﴿وَأَنفُسِكُمۡ﴾"[2].

دلالةُ الفصلِ في ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ﴾:

توكيدُ الخيريَّة ترغيبٌ في الهدفِ والقضيَّة

فصلَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ عمّا قبلها؛ لكمالِ الاتِّصال؛ إذ تُنزَّلُ هذه الجملةُ ممّا قبلَها منزلةَ التَّوكيد والتَّقوية؛ إذ بعدَ أنْ أخبرَ النَّظمُ الكريمُ أنَّ الإيمانَ والجهادَ أعظمُ تجارةٍ للإنسان؛ أكَّدَ ذلك بأنَّه الخيرُ والأنفعُ له، وبذلك يتحقَّقُ الجانبُ الماديُّ في التَّرغيبِ بكونه تجارةً، والجانبُ المعنويُّ بكونِه الخيرَ النّافع.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

الإيمانُ والجهاد أعظمُ ما يتحلَّى به العِباد

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسمِ الإشارة البعيدِ، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم، كما أنَّ الأصلَ في اسم الإشارة أن يكونَ مُحيلًا إلى أمرٍ حسّيٍّ؛ إلّا أنَّه نزَّلَ الأمرَ المعنويَّ من الإيمان والجهاد منزلةَ الحسّيِّ بجامعِ الظُّهور والوضوحِ وكمالِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 261.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 36.

الامتياز، فعبَّر عنه باسم الإشارة الحسّيَّة، فـ: "الإشارَةُ بـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلَى الإيمانِ والجهادِ بتَأويلِ المذكورِ ﴿خَيْرٌ﴾"(1)، واختار اسمَ الإشارة للبعيدِ؛ للدَّلالة على جلالةِ ذلك الصَّنيعِ وفخامتِه.

دلالةُ اسمِ التَّفضيل ﴿خَيْرٌ﴾:

بَذْلُ المالِ والنَّفسِ إتلافٌ، لكنَّهُ للحسناتِ اقتِرافٌ وباللهِ اعتِراف

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن اسم الإشارة العائدِ إلى الإيمان والجهادِ، في سبيل الله باسم التَّفضيلِ ﴿خَيْرٌ﴾، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه الأعظم منزلةً ومكانةً بين سائر الأعمال والاعتقادات، فهو الخيرُ الذي فيه سعادةُ الدّارين، ووجهُ الأخيريَّة على سائرِ العباداتِ أنَّهما بذلٌ للمالِ والرّاحة والجسم والوقت، بخلافِ بقيَّة العباداتِ، فمنها الماليَّةُ فقط، ومنها البدنيَّةُ فقط، مع أنَّ بذل المالِ إتلافٌ، وبذلَ المُهَجِ موتٌ، إلّا أنَّه خيرٌ وأنفعُ من كلِّ عمل؛ لأنَّ الثّواب المُترتِّبَ والأجرَ الثّابتَ أعظمُ من كلِّ ما يُبذَلُ، ويُقدَّمُ، قال ابنُ عطيَّة: "و﴿خَيْرٌ﴾ هنا يحتملُ أنْ يكونَ للتَّفضيل، فالمعنى: من كلِّ عملٍ، ويحتملُ أنْ يكون إخبارًا أنَّ هذا خيرٌ في ذاتِه ونفسِه"(2)، ورجَّح ابنُ عاشور المعنى الثّاني بقوله: "و﴿خَيْرٌ﴾ هَذا لَيسَ اسمَ تَفضيلِ الَّذي أصلُهُ: أخْيَرُ، ووزْنُهُ: (أفْعَلُ)، بَل هو اسمٌ لِضِدِّ الشَّرِّ، ووزْنُهُ: (فَعْلٌ)"(3)، وحينَئذٍ يكونُ اسمُ التَّفضيل على غيرِ بابِه.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿خَيْرٌ﴾:

الخيرُ العظيم نصيبُ كلِّ كَريم

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ الخبرَ ﴿خَيْرٌ﴾، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعظيم والتَّفخيم؛ إذ ما أعدَّ اللّهُ للباذلينَ في الدُّنيا والآخرة من خيرٍ أمرٌ جليلٌ، لا يُقارَنُ به شيءٌ من أعمالِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 304.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.

الطّاعات، ولو كانَ النَّفسَ والمالَ جَميعًا، ولذا قال ابن عاشور: "وجَمَعَ قَولُهُ: ﴿خَيْرٌ﴾ ما هو خَيرُ الدُّنيا وخَيرُ الآخِرَةِ"[1].

الموقعُ الإعرابيُّ لـ ﴿لَّكُمْ﴾:

اختصاصُ الأخيريَّة بالمتقرِّبين لربِّ البريَّة

نعتَ النَّظمُ الكريمُ النَّكرةَ ﴿خَيْرٌ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿لَّكُمْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الخير العميمَ مختصٌّ بكم ولأجلِكم؛ إذِ اللامُ في ﴿لَّكُمْ﴾ للاختصاصِ أو للغرَض.

دلالةُ حرفِ الشَّرطِ ﴿إِن﴾:

الشَّكُّ في حصولِ العِلْم لقِلَّةِ الوعيِ عندَهم والفَهْم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالحرفِ الشَّرطيِّ ﴿إِن﴾، في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على الشَّكِّ في وقوعِ العِلْم من المخاطَبينَ، الَّذين كان دأبُهم حِفظَ أموالِهم وأرواحِهم، حتَّى قالوا لنبيِّهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ [المائدة: 24]، فقد أفاد حرفُ الشَّكِّ قِلَّةَ علمِهم النّاجم عن ضعف إيمانهم وسوء مُعتقدهم.

دلالةُ الفعلِ النّاقص ﴿كُنتُمْ﴾:

الشَّكُّ في الوجود شكٌّ في الاتِّصاف بلا حُدود

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ النّاقصَ، في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الأمرَ المُرغَّب فيه خيرٌ لكم؛ إنْ وُجِدَ عندكم عِلمٌ، فالشَّكُّ لم يتسلَّط على الاتِّصاف بالعِلْم، بل على وُجودِه وتحقُّقِه أصلًا؛ ليدلَّ على الشَّكِّ في تحقُّقِ العِلم فضلًا عن الاتِّصاف به، ولذا لم يقل: (إنْ عَلِمْتُم ذلك).

دلالةُ الفعلِ المُضارع ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

الشَّكُّ في الاستمرار إثباتٌ للجهلِ بكلِّ إصرار

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن فعلِ (العِلْم) مُضارعًا، في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ، فيكون الشَّكُّ مُتسلِّطًا على وجودِ العِلْم وتحقُّقه فيهم على سبيلِ الاستمرار، فيكون في ذلك شكٌّ بالعِلْم ووجودِه على سبيلِ الاستمرار.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.

دلالةُ تعليقِ الخيريّة على العِلْم:

إلهابُ حميَّةِ الطّاعة، والتَّحفيزُ للعملِ بكلِّ شَجاعة

علَّق النَّظمُ الكريمُ حصولَ الخيريَّةِ وتحقُّقَها على العِلْم، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، مع أنَّ الخيريَّةَ واقعةٌ لا محالةَ؛ سواءٌ كان لهم عِلمٌ بها أم لم يكُنْ، والجوابُ عنه: "أنَّ الشَّرطَ ليسَ على حقيقتِه، بل هو من وادي قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾ [البقرة: 278]، والمقصودُ بهذا الشَّرطِ التَّنبيهُ على المعنى الَّذي يَقتضي الامتثالَ، وإلهابُ الحميَّةِ للطّاعة، كما تقولُ لِمَن تأمرُهُ بالانتصافِ مِن عدوِّه: إنْ كنتَ حُرًّا؛ فانتصِرْ، تريدُ أنْ تُثيرَ منه حميَّةَ الانتصارِ لا غير"(1)، وحملَ ابنُ عاشور الشَّرطَ على حقيقتِه، ورأى أنَّ الخطابَ معَ المؤمنينَ، ففيه "تَعريضٌ لَهُم بِالعِتابِ على تَولّيهم يَومَ أُحُدٍ، بَعدَ أن قالوا: (لَو نَعلَمُ أيَّ الأعمالِ أحَبَّ إلَى اللّه؛ لَعَمِلناهُ)، فَنُدِبوا إلَى الجِهادِ، فَكانَ ما كانَ مِنهُم يَومَ أُحُدٍ، كَما تَقَدَّمَ في أوَّلِ السّورَةِ، فَنُزِّلوا مَنزِلَةَ مَنْ يُشَكُّ في عَمَلِهِم بِأنَّهُ خَيرٌ؛ لِعَدَمِ جَريهِم على موجِب العِلم"(2).

دلالةُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ ﴿يَغۡفِرۡ﴾:

طبيعةُ التِّجارة الرِّبحُ والخَسارة

أوردَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ ﴿يَغۡفِرۡ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ مجزومًا؛ إمّا لكونِه في جوابِ الطَّلب ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّه بمعنى (آمِنوا) أوْ بـ(إنِ) الجازمةِ المُقدَّرة، وقيلَ: في جوابِ الاستفهامِ ﴿هَلۡ﴾، والتَّقديرُ على الأوَّل: (آمِنوا يغفِرْ لكم)، وعلى الثّاني: (إنْ تُؤمنوا؛ يغفرْ لكم)، قال الواحديُّ: "ثمَّ ابتدأ شرطًا آخَرَ مُضمَرًا، وأظهرَ جزاءَهُ، فدلَّ الجزاءُ الظّاهرُ على الشَّرط المُضمَر، وهو قولُه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾، على تأويل: (إنْ تَفعلوا ذلك

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 224.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.

يَغفِرْ لَكُم)"[1]، وأيًّا يكنْ؛ فإنَّ الموقعَ الإعرابيَّ دالٌّ على جزاءِ الإيمانِ والجِهاد، وبذلك اتَّضحتْ أركانُ التِّجارة من عمَلٍ وربحٍ مبنيٍّ عليه، واتّسقَ الجوابُ معَ وصفِ التِّجارة؛ بأنَّها المُنجيةُ من عذاب أليم، فيكونُ الإنجاء متحقِّقًا من خلال غُفرانِ الذَّنْب، وأمّا القولُ الثّالثُ؛ فقد انتقدَهُ الزَّجّاج بقوله: "وقد غَلِطَ بعضُ النَّحويين، فقال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ جواب ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾، وذلك أنَّه ليس إذا دلَّهم النَّبيُّ ﷺ على ما يَنفعُهم؛ غفرَ اللّه لهم، إنَّما يغفر اللّهُ لهم إذا آمَنوا، وجاهَدوا، وإنَّما هو جواب: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ﴾؛ لأنَّ معناه معنى الأمْر، أي: آمِنوا باللّه ورسولِه، وجاهِدوا؛ يَغفرْ لَكُم، ويدلُّ عليه قراءةُ ابنِ مسعود"[2]، ودافعَ الزَّمخشريُّ عن القول الآنف بما مُفادُهُ: أنَّ قولَه: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخره، بيانٌ لجملةِ قوله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ على سبيل الاستئناف، وعُلِم أنَّ البيانَ والمبيَّنَ واحد، فبهذا الاعتبارِ كانَ جوابًا[3]، وقال الرّازيُّ في توجيهه: "إنَّ ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ في معنى الأمرِ عندَه، يقال: هل أنتَ ساكتٌ؟ أي: اسكُتْ، وبيانه: أنَّ ﴿هَلۡ﴾ بمعنى الاستفهام، ثمَّ يتدرَّجُ إلى أنْ يصيرَ عرْضًا وحثًّا بمعنى (ألا)، والحَثُّ كالإغراء، والإغراءُ أمرٌ"[4].

معنى الفعلِ المُضارع ﴿يَغۡفِرۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

غفرانُ الذُّنوب تغطيةٌ وسترٌ للعُيوب

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ ﴿يَغۡفِرۡ﴾ مُضارِعًا، في قولِه تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ إذ غُفرانُ الذُّنوبِ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ معَ تجدُّدِ الإيمان وتناميه في القلب، وتجدُّدِ الجهاد؛ كلَّما دُعوا إلى إحقاقِ الحقِّ ورَدْعِ الظُّلم، ودلَّ الفعلُ بمادَّته

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 7/ 298.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 166، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 392.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 392.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 263.

على التَّغطيةِ والسِّتر، ومقتضى التَّغطيةِ المُسامحةُ والمُجاوزةُ وعدمُ النَّشرِ والفَضْحِ لتلك الذُّنوب.

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكُمْ﴾:

تحفيزُ الطّاعة بذكرِ الاختصاص والغاية

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن مُتعلِّق ﴿يَغْفِرْ﴾ بالجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾، في قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾؛ للدَّلالة على الاختصاصِ والغَرَضيَّة؛ تحفيزًا لهم على ما فُرِضَ عليهم من الإيمانِ والجهاد، حتّى إنَّ الغُفران يكونُ لهم وحدَهم دونَ مَن سواهم، ويتحقَّقُ لأجلِهم بجَعْلِ اللّه تعالى له غرَضًا يَصُبُّ في مصلحتِهم.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾:

أثمنُ التِّجارات التَّخلُّصُ من كلِّ الخَسارات

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الذُّنوبَ إلى ضميرِ المخاطَبِينَ، في قولِه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾؛ للدَّلالة على تعيينِ تلك الذُّنوبِ وتعريفِها بتذكيرِ المخاطَبِينَ بها؛ إذِ الإضافةُ إمّا للعهدِ؛ لأنَّ الذُّنوب معهودةٌ للمخاطَبِينَ مَعلومةٌ لدَيهم، أو للاستغراق دلالةً على غُفرانِ جميعِ الذُّنوب المعلومةِ لدَيهم؛ وبذلك تُحقِّقُ التِّجارةُ كمالَ الرِّبح بالتَّخلُّصِ من كل أشكالِ الخَساراتِ السّابقة؛ لأنَّ للتِّجارة جانبينِ: تخليصٌ من أضرارٍ وخَساراتٍ سابقة، ورِبحٌ جديدٌ مُتنامٍ لهم.

معنى (الواوِ) في ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ﴾:

عطفُ السَّببيَّة يدلُّ على الأرباحِ الجديدةِ السَّنيَّة

لمّا كانت أعلى التِّجاراتِ تخليصًا من خساراتٍ سابقةٍ معَ أرباحٍ جديدةٍ مُتنامية؛ عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن ذلك الرِّبحِ الوفير الجديد من خلالِ واو العطف، في قولِه تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٍ﴾؛ وذلك العطفُ للجملةِ الفعليَّةِ على ما قبلَها دالٌّ على التَّسبُّبِ والتَّرتُّب؛ إذ "لمّا فرَّغَ القلوبَ من كَدَرِ العقابِ والعِتاب؛ لذَّذها بطيبِ الثَّواب، فقالَ: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ﴾، أي: بعدَ التَّزكيةِ بالمغفرةِ رحمةً"[1]، فقد نجمَ عن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 37.

غُفرانِ الذُّنوب إدخالُ الجنّات، فالواوُ عاطفةٌ للمسبَّب على السَّبب، قال القونويُّ: "زيدَ في الجَواب إدخالُ الجنَّة بعدَ الوعدِ بالمَغْفرَة؛ إذِ الإنجاءُ من العذاب يَستلزمُهُما، لكنَّ دفْعَ المضرَّةِ لمّا كان أهمَّ من جَلْبِ المنفعة؛ اكتفى بالإنجاءِ من العذابِ أوَّلًا، والجَوابُ لمّا كان لائقًا بالبَسْط؛ اختيرَ الإطناب فيه ببيانِ أنَّ إنجاءَهُم من العذاب؛ بسَبَب المَغْفرَةِ وإدخالِ الجنَّة"[1].

معنى الفعلِ المضارع ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تعدُّدُ الجنّات مُقتضٍ لتجدُّدِ الإدخالات

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الفعليَّةَ المضارعيَّةَ على ما قبلَها، في قولِه تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾؛ للدَّلالة على الحدوثِ والتَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ وبذلك يتشاكَلُ الإيمانُ والجهادُ الاستمراريّان المتجدِّدان معَ الغُفران والإدخالِ المُتجدِدين الاستمراريّين، فكلُّ جنَّةٍ يَدخلونها تُحْدِثُ لهم تجدُّدًا وارتياحًا وسعادةً، وآثرَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ المضارعَ المتعدّيَ بالهمزة؛ للدَّلالةِ على الجَعْلِ والتَّصيير؛ إذِ الدُّخولُ يقتضي جُهدًا للوصول، وأمّا الإدخال؛ فإنَّه وصولٌ سريعٌ حتّى إنَّهم يجدونَ أنفسهم داخلينَ بالجعل والتَّصيير، كما تُفيدُ التَّعدية أنَّ تلك الجناتِ مقفلةٌ لا يمكنُ دخولها من دون إدخالٍ وفعلٍ عظيم، معَ زيادةِ تشريفٍ للدّاخلين، الَّذين تهيَّؤوا لذلك الدُّخول الجَعليِّ.

دلالةُ اللَّفِّ والنَّشرِ:

التَّناسُقُ البديع والنَّظمُ المَنيع

لمّا فسَّر النَّظمُ الكريمُ التِّجارةَ بالإيمانِ باللّه ورسولِه والجهادِ في سبيله؛ رتَّبَ عليهما غفرانَ الذُّنوبِ وإدخالَ الجنّات، فقال: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾... ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾؛ واتَّكأ النَّظمُ الكريمُ على أسلوبِ اللَّفِّ والنَّشرِ المرتَّب؛ إذ الإيمانُ باللّه

(1) حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 76.

ورسولِه غفرانٌ وخلاصٌ من الذُّنوب، وبينَهما تناسُبٌ؛ إذِ الإيمانُ بهما تصديقٌ واعتقادٌ قلبيٌّ معنويٌّ، وغفرانُ الذُّنوبِ تخليصٌ من ذنوبٍ سابقةٍ وأخطاءٍ ماضية؛ والإيمان يَجُبُّ ما قبلَه، وهو رِبحٌ معنويٌّ، والجهادُ فعلٌ بدنيٌّ ومشقَّةٌ في العملِ، فناسبَهُ الإدخالُ للجنّات بكلِّ يُسرٍ وسُهولة، ولمّا كان الإيمانُ باللّه مع رسولِه؛ ذَكرَ النَّظمُ أنَّ الغُفرانَ لأجل الذُّنوبِ الماضية، ولمقام الجهاد في سبيل اللّه معَ الأموال والأنفس ذَكرَ الجنّاتِ المُغنيةَ عن الأموالِ، والمساكنَ الطَّيّبةَ المُرفِّهة للنُّفوسِ.

دلالةُ تقديمِ الغُفرانِ على الإدخال:

التَّخليةُ قبلَ التَّحليَة

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ حُصولَ الغُفران على الإدخالِ، في قوله تعالى: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ﴾؛ للدَّلالة على السَّببيَّةِ والمُسبَّبيَّة؛ إذِ التَّخليةُ قبلَ التَّحلية، فيتحقَّقُ في الذِّكر الغُفرانُ من الذُّنوب؛ ليأتيَ عقيبَهُ الإكرامُ والعَطاء.

دلالةُ التَّنكيرِ والجَمعِ في ﴿جَنَّٰتٖ﴾:

الجنّاتُ العظيمةُ لمَنْ بذلَ الأموالَ في نُصرةِ الحقيقة

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الجنّات) مَجموعًا، في قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم والغَرابة، وأنَّها ليست من الجنّات الأرضيَّةِ المألوفة، كما دلَّ الجمعُ على الكثرةِ الكاثرةِ لها، فيكونُ من قبيل التَّوزيعِ، أي: يُدخلُ كلَّ واحدٍ منكم جنَّةً خاصَّةً به تحتَ تصرُّفِه[1]، وتدلُّ مادَّة (الجنّات) على أنَّها مستورةٌ محميَّةٌ من العُيون، فهي جنّاتٌ محجوبةٌ لا ينظرُ الخارج منها إلى أهلِها وساكنيها لكثرةِ أشجارِها، قال الهرريُّ: "والجنَّةُ في اللُّغة: البُستانُ الَّذي فيه أشجارٌ مُتكاثِفةٌ مُظلَّلةٌ تسترُ ما تحتَها"[2]، وذلك في حدِّ ذاته نعيمٌ يطيبُ لساكنيها، ونلمح أنَّ هنالك

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 263.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 263.

صلةً بين (الأموال والجنّات)، فالمجاهدُ في سبيل اللّه استرخصَ المالَ، وبذلَهُ من أجلِ نُصرةِ دينِ اللّه، فكوفِئَ بما هو أعظمُ وألذُّ، وهي تلك الجنّاتُ، التي لا تُشترى بكلِّ أموالِ الدُّنيا.

دلالةُ الوصفِ بالفعلِ المُضارع ﴿تَجۡرِي﴾:

جَرَيانُ الأنهار من تحتِ الجِنانِ والأشجار

وصفَ النَّظمُ الكريمُ الجنّاتِ بالجملةِ الفعليَّة المضارعيَّة، في قولِه تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ تلك الجنّات بجريانِ الأنهار من تحتِها، واختار الفعلَ المضارعَ؛ ليُفيدَ أنَّ ذلك الجريانَ للأنهارِ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ لا ينقطعُ، فهي ليست كأنهارِ الدُّنيا التي تتعرَّضُ للانقطاعِ والتَّوقُّف، كما تفيدُ مادةُ ﴿تَجۡرِي﴾ أنَّ للماء جَرَيانًا يُحَسُّ به، فهو لا يتوقَّفُ، ويُرى جَريانُهُ وجرياتُهُ، وذلك أطيبُ وأنفعُ من الماءِ الرّاكد.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

منابعُ الأنهار الفوّارة تجري تحت الجنّات بغزارة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بحرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾، في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدَّلالةِ على الابتداءِ المكانيِّ للجَرَيان، وذلك يدلُّ على أنَّ بَدءَ الجَريان من موضع تحتها، فهي جنانٌ واقفةٌ على منابع تلك الأنهار، فتبدأُ بالجَرَيان مِن موضع التَّحت؛ دلالةً على غرابةِ تلك الجنانِ الجاثمةِ على المنابعِ، فيُرى الجَريانُ بادِئًا منها، أو لعلَّها يفور الماءُ من تحتِها، فتكونُ التَّحتيَّة كأنَّها المنابعُ التي تبدأُ منها الجَرَيات، وقالَ البقاعيُّ: "ودلَّ على قُربِ الجاري وتخلُّلِه الأراضيَ بالجارِّ، فقال: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾"[1].

دلالةُ الإضافةِ في ﴿تَحۡتِهَا﴾:

الجِنانُ بلَوْرٌ عجيب، وبدخولِها النُّفوسُ تَطيب

أضافَ النَّظمُ الكريمُ التَّحتيَّةَ إلى ضميرِ (الجنّات)، في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ لتعيينِ تلك التَّحتيَّةِ وتحديدِها، والغرضُ من التَّحديد بيانُ تلك الجهة، ومن المعلومِ أنَّ الأنهارَ تَجري

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 37.

في جنانِ الدُّنيا، إمّا في وسَطِها أو بمُحاذاتها، فيكونُ تحديد التَّحتيَّةِ دلالةً على أنَّها كالبِلّور، فتُرى الأنهارُ جاريةً مِن تحتها.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على الفاعِل:

تقديمُ المكان دالٌّ على غرابةِ تلك الجِنان

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الجارَّ والمجرور على الفاعلِ، في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدَّلالةِ على الاهتمام بمكانِ الجَرَيانِ؛ لأنَّ تحديد المكان يدلُّ على أنَّها جنانٌ بلّوريَّةٌ مختلفةٌ عن الجنانِ الأرضيَّة.

دلالةُ التَّعريفِ والجمعِ في ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

بهجةُ الأنهار تُضفي بهجةً في نفوسِ الأبرار

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ مَجموعًا، في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستغراقِ والشُّمول، فكلُّ الأنهار تجري من تحتِ تلك الجِنان، فتُضفي الأنهارُ بموسيقاها عذوبةً في الأسماع، وبمنظَرِها السّاحر رَوْنقًا وبَهجةً وضياء، قال الشَّربينيُّ مُبيِّنًا فائدةَ الأنهار: "فهي لا تزالُ غضَّةً زهراءَ، ولم يحتج هذا الأسلوبُ إلى ذكر (الخلود)؛ لإغناءِ ما بعدَهُ عنهُ"[1]، ويقصدُ ما يُفهَمُ من ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍۚ﴾.

الإسنادُ المجازيُّ في ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾:

جريانُ المقرِّ لصفاءِ الماءِ المُستَقِرِّ

أسندَ النَّظمُ الكريمُ الجريانَ للأنهار، في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾؛ إسنادًا مجازيًّا عقليًّا لعلاقةِ المكانيَّة؛ إذِ الأنهارُ - وهي الشُّقوق - لا تَجري، بل يَجري الماء في تلك الشُّقوق؛ مبالغةً في تصويرِ جريانِ الماء، حتَّى لَيُخيَّلُ للنّاظرِ أنَّ المكان هو الجاري من شدَّةِ صفاءِ الماء وبهائِه.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو) المساكِنَ على الجنّات، في قولِه تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾

---

(1) الخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 279.

لا غُربةَ في الجنان، بل رَفاهيةٌ وسكنٌ وأمان

للجمعِ بينَهُما في حُكم الإدخال، فالجنّاتُ جزاءُ ما أنفقوا من أموالٍ في سبيل اللّه عِوضًا عنها، والمساكنُ جزاءُ ما بذلوا من مُهَجٍ فيه، والتي تركَتْ باستشهادِها سَكَنَها الدُّنيويَّ، قال ابن عاشور: "وإنَّما خُصَّتِ (المَساكِنُ) بالذِّكْرِ هُنا؛ لأنَّ في الجهادِ مُفارَقَةَ مَساكِنِهِم، فَوُعِدوا على تِلْكَ المُفارقَة الموقَّتةِ بِمَساكِنَ أبَديَّة"[1]، والمسكَنُ من السُّكنى الذي يدلُّ على المكوثِ والاستقرارِ فيه بعدَ التَّنزُّه في الجِنان.

دلالةُ التَّنكيرِ والجَمعِ في ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾:

جنّاتٌ لا توصَف ومَساكنُ لا تُعرَّف

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (مساكن) وجمعَها، كما نكَّر لفظَ (جنّات) وجمعَها، في قوله تعالى: ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾؛ للدَّلالة على الفَخامةِ والعظَمةِ والكثرةِ والتَّنوُّعِ، معَ كمالِ الجَمالِ والنِّعمةِ فيها، فهي ليست كمساكنِ الدُّنيا المَعروفة، قال البقاعيُّ: "ودلَّ على الكثرةِ المُفرِطةِ في الدّور بقولِه بصيغةِ مُنتهى الجموع: ﴿وَمَسَٰكِنَ﴾"[2].

دلالةُ النَّعتِ بِـ ﴿طَيِّبَةٗ﴾:

الطَّيِّبَةُ والهَناءة سكينةٌ وراحة

وصفَ النَّظمُ الكريم المَساكنَ بأنَّها طَيّبةٌ في قولِه تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها مُريحةٌ واسِعةٌ مُترفَةٌ، يلتذُّ ساكنُها فيها؛ لما فيها من مظاهرَ تُعجِبُ النّاظرَ، وتُريحُ النَّفسَ، فهي معَ كثرتِها ووظيفتِها في السُّكنى تكون طيّبةً تَهْنَأُ النَّفسُ فيها وترتاحُ، فيكونُ الوصفُ للكشفِ والاحتراسِ، قالَ البقاعيُّ: "ولمّا كانتِ المساكنُ لا تروقُ إلّا بما يُقارِنُها منَ المَعاني الحسَنة، قالَ: ﴿طَيِّبَةٗ﴾"[3]، وصيغةُ (فيعلة) تدلُّ على كثرةٍ ومُبالغةٍ، خاصَّة أنَّها جاءت نكرةً تابعةً لموصوفِها.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 37.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 37.

الموقعُ الإعرابيُّ ﴿فِى جَنَّـٰتِ﴾:

طيّبةٌ في داخلِها، جميلةٌ في مَوقِعِها

بعدَ أنْ وصفَ النَّظمُ الكريمُ (المَساكنَ) بأنَّها ﴿طَيِّبَةً﴾، أتى بالصِّفةِ الثّانية ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾، وهي جارٌّ ومجرورٌ في قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾؛ ليدلَّ على زيادةٍ في الأبَّهة والجمال، فالمساكنُ معَ كونِها طيِّبةً؛ فإنَّ مكانَها في جنّات عدن، فالظَّرفيَّةُ حقيقيَّةٌ، والغرضُ من الوصفِ تحديدُ موقعِها بعد أن حدَّد بالنَّعت طبيعتَها، فهي تَتَّصِفُ من داخلِها بأنَّها طيّبةٌ، ومن خارجِها بأنَّ موقعَها في جنّاتِ عدن، قال الهرريُّ: "وهذا ظرفٌ صفةٌ مختصَّةٌ بـ(مساكن)"(1)، ويحتملُ أنْ يكون ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ حالًا، وهي بيانٌ لهيئةِ تلك المساكِن، وقيدٌ وتعليلٌ لوصفِها بالطَّيِّبة، لكنَّه قيدٌ أفرزَ جمالًا، وتعليلٌ أضفى رَوْنقًا.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾:

جنّاتُ عَدن لأهلِ المساكنِ إقامةٌ ووطَن

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الجنّاتِ إلى ﴿عَدۡنٖۚ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾، إمّا للدَّلالة على المعنى الإضافيِّ؛ إذِ العَدْنُ يدلُّ على الخُلودِ والدَّوام والاستمرار، قال النَّسَفيُّ: "يقالُ: عدنَ بالمكان؛ إذا أقامَ به"(2)، فالمساكنُ في جنّاتٍ دائمةٍ باقية، فليستِ المساكنُ في أماكنَ زائلةٍ وفانيةٍ كمساكنِ الدُّنيا، قالَ البقاعيُّ: "ولمّا كانتْ لا يُرغَبُ فيها إلّا بدوامِ الإقامة؛ بيَّنَ صلاحيّتَها لذلك بقوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾، أي: بساتينَ هي أهلٌ للإقامةِ بها، لا يُحتاجُ في إصلاحِها إلى شيءٍ خارجٍ يحتاجُ في تحصيلِه إلى الخروج عنها لهُ، ولا آخرَ لتلك الإقامة"(3)، وإمّا لأنَّ ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ علَمٌ ولقبٌ على جنّات معيَّنة، فالإضافةُ على الأوّل لمُجرَّد التَّخصيص، وتكونُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 263.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 477.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 38.

من إضافةِ الموصوف إلى الصِّفة، وعلى الثّاني للتَّعريفِ والتَّعيين لعلَميَّة عَدْن، واندفعَتْ بهذه الإضافةِ ما يُشعر به (المَسكنُ) من عدم البقاءِ والخُلود.

دلالةُ الفصلِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإدخـالُ في الجـنّـات فـوزٌ بالمقامات

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لكونِه بمنزلةِ البيان لما قبلَهُ، فالعلاقةُ بين الجُملتين كمالُ الاتِّصال، والغرض من ذلك الفصلِ الإفصاحُ عن ذلك النَّعيم المُتمثِّل بالإدخالِ في الجنّات والنَّجاة من النّار، فهو تذييلٌ دالٌّ على التَّوضيح والبيانِ، والحُكم على ذلك الإدخالِ بأنَّه فوزٌ عظيمٌ.

نُكتَةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

الإشارةُ للنَّعيم تـدلُّ على ثـوابٍ مَـحـسـوسٍ عظيم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسم الإشارةِ البعيد، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ للإشارةِ إلى مجموعِ ما وقعَ الحديثُ عنه من غُفرانِ الذُّنوب وإدخالِ الجنّات والمَساكن، واختارَ اسمَ الإشارةِ للبعيد؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم، وأشارَ إليه للدَّلالة على كمالِ تمييزِه، حتّى إنَّ ذلك المشارَ إليه قد صارَ مُشاهَدًا مَرئيًّا مَحسوسًا.

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡفَوۡزُ﴾:

أعـظـمُ الـفـوْز النَّعيمُ بلا عَوْز

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ الخبرَ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ للدَّلالة على الجنسِ والكَمال، فهو يُمثِّلُ حقيقةَ الفوزِ وكمالَه الذي لا يُدانيه فوزٌ ولا كمالٌ؛ إذ لا يُقارَنُ أيُّ فوزٍ بفوزِ الخَلاص من الذُّنوب ودُخولِ دارِ النَّعيم.

دلالةُ تعريفِ الطَّرفين ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ﴾:

تـشـويـقُ المُخاطَبين بما أُعِدَّ للفائزين

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ طَرفَي الحُكم، في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ للدَّلالة على الحصرِ والقصرِ الادِّعائيِّ، وهو من قَصرِ الصِّفة في الموصوف، أي: ذلك هو الفوزُ العظيمُ لا غيرُ، وفيه تشويقٌ للمخاطَبين أن يَتسابقوا إليه، ويَعملوا جاهدينَ لتحقيقِه وبُلوغِه.

الكثرةُ الكمّيَّةُ والفَخامةُ النَّوعيَّةُ بالفوزِ بالرَّحمةِ الإلهيَّة

دلالةُ النَّعت بـ ﴿ٱلۡعَظِيمُ﴾:

نعتَ النَّظمُ الكريمُ الفوزَ بالعَظَمةِ، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾؛ للدَّلالة على المدحِ والمُبالغة في ذلك الفوزِ من حيثُ الكمُّ والكيفُ، فإنَّ العَظَمة تدلُّ على الكثرةِ الكمّيَّة والفَخامةِ النَّوعيَّة، واستعملَ صيغةَ (فعيل) الدّالَّةِ بوضْعِها صفةً مشبَّهة على الثُّبوتِ والاستمرارِ لتلك العَظَمة، فعَظَمة ذلك الفوزِ دائمةٌ، وفخامتُه مُستمرَّة لا تنقطِعُ.

الجمعُ بينَ النَّعيمِ الأُخرويِّ والتَّمكينِ الدُّنيويِّ

دلالةُ الوصلِ في ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّةَ، في قولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾ على ما قبلَها؛ للدَّلالة على الرَّبطِ والجمع بينَ النَّعيم الأُخرويِّ المتمثِّلِ بغُفران الذُّنوبِ وإدخالِ الجنّات، وبينَ النَّعيم الدُّنيويِّ المتمثِّل بتحقيقِ ما يُحبُّه المجاهدُ، ويَرجوه من النَّصر على الأعداءِ والفتحِ للبُلدان.

النِّعَمُ الدُّنيويَّة آنيَّةٌ ثابتة، والنِّعَمُ الأُخرويَّةُ مُتجدِّدةٌ مُستمرَّة

دلالةُ المغايرةِ في عطفِ الاسميَّةِ على الفعليَّة:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّة: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾، على الجُملةِ الفعليَّة: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾[1]؛ للدَّلالة على المُغايرةِ بينَ النَّعيمَين في التَّجدُّدِ الاستمراريِّ والثُّبوتِ الدّائميِّ، فإنَّ غُفرانَ الذُّنوب متجدِّدٌ مُستمرٌّ مع تجدُّدِ الإيمانِ وتَناميه، وإدخالَ الجنّات والنَّعيمَ الأخرويَّ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ مَعَ استمراريَّةِ الجهاد وتقديم الأموال والأنفُس، فلا يشعرُ الدّاخلُ في ذلك النَّعيم بمَلَلٍ؛ لما يَرى من نِعَمٍ مُتجدِّدة متنوِّعة، وأمّا النَّعيم الدُّنيوي؛ فهو يقعُ دفعةً واحدة؛ إذ شعورُ النَّصر والفتحِ يكونُ في ساعتِه ويَنقضي، فلا شيءَ يعدلُ لذَّةَ الآخرة، ولا حلاوةَ تُساوي شيئًا من نعيمِها، قال ابنُ عاشور: "وجيءَ بالاسميَّةِ؛ لإفادَةِ الثُّبوتِ والتَّحقُّقِ"[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 195.

الاختلافُ في تحديدِ الموقعِ الإعرابيِّ لـ (أخرى):

أثرُ البيان في تحديدِ الإعرابِ ووجه الرُّجحان

اختلفَ النَّحويّونَ في تحديدِ الموقع الإعرابيِّ لـ(أُخرى)، في قولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾؛ قال الطَّبريُّ: "اختلفَ أهلُ العربيَّة فيما نُعِتَتْ به، فقال بعضُ نحويّي البصرة: (وتجارةٍ أُخرى)، فعلى هذا القولِ يجبُ أن يكونَ (أخرى) في موضِع خفضٍ عطفًا به، وقد يحتملُ أنْ يكونَ رَفعًا على الابتداء، وكان بعضُ نحويّي الكوفةِ يقول: هي في موضِع رفعٍ، أي: (ولكم أُخرى في العاجل معَ ثوابِ الآخرةِ)، ثمَّ قال: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مفسِّرًا لـ (أُخرى)، والصَّوابُ من القولِ في ذلك عندي القولُ الثّاني، وهو أنَّه مَعنيٌّ به: (ولكم أُخرى تُحبّونها)؛ لأنَّ قولَه: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ مُبيِّنٌ عن أنَّ قولَه: ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ في موضعِ رفعٍ، ولو كان جاءَ ذلك خفضًا؛ حَسُنَ أنْ يُجعلَ قولُه: ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ عطفًا على قولِه: ﴿تِجَٰرَةٖ﴾، فيكونَ تأويلُ الكلامِ حينَئذٍ لو قُرِئَ ذلك خفضًا: (وعلى خُلَّةٍ أُخرى تُحبّونها)"[1]، وضعَّفَ الخفضَ ابنُ عطيَّة أيضًا من جهةِ المعنى، فقال: "لأنَّ هذه (الأخرى) ليستْ ممّا دَلَّ عليه، إنَّما هي ممّا أُعطيَ ثمنًا وجزاءً على الإيمانِ والجهادِ بالنَّفس والمالِ"[2].

دلالةُ صيغةِ (أُخرى):

المُغايرةُ بينَ النِّعمتينِ والفرقُ بينَ المزيّتين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بصيغةِ المؤنَّثِ على وزنِ (فُعلى)، في قولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها صفةٌ لمحذوفٍ تقديرُهُ: (نعمة) تضافُ إلى تلك النِّعَم السّابقة، و(مزيَّةٌ) تُحتسَبُ مع تلك المزايا السّابقة، قال أبو حيان: "﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ صِفَةٌ لِمَحْذوفٍ، أي: ولَكُم مَثوبَةٌ أُخرَى، أَوْ نِعْمَةٌ أُخْرَى عاجِلَةٌ إلى هَذِه النِّعمَةِ الآجِلَةِ"[3]، كما أنَّ (أُخرى) تدلُّ بمادَّتِها على المُغايرة والمُباينة بينَ النِّعمتين، فإنَّ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 364.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 304.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 168.

هذه نعمةٌ محبوبةٌ لا تحتاجُ لترغيب، وتلك نعمةٌ مكروهةٌ لما فيها من تقديمِ الأموال والنُّفوس، فتحتاجُ إلى تشويق وتحسينٍ، كما أنَّها نعمةٌ عاجلةٌ وتلك نعمةٌ آجلة، ومن ثَمَّ قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ النَّعيمَ المتعلِّقَ بالآخرة على النَّعيم المُتعلِّق بالدُّنيا، واستغرقَ النَّظمُ الكريمُ في وصفِ النَّعيم الأُخرويِّ لبقائِه، وخاضَ في تفاصيله؛ تشويقًا وتأنيسًا للقلوب، واختصرَ في النَّعيم الدُّنيويِّ لكونِه العاجلَ المرغوبَ فيه والمعلومَ.

دلالةُ النَّعتِ بالجملة الفعليَّة المضارعيَّة ﴿تُحِبُّونَهَا﴾:

النِّعمةُ المَحبوبة تُفسِّرُ النِّعمةَ المَكروهة

نعتَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (أُخرى) بالجملةِ الفعليَّةِ المُضارعيَّة، في قولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ﴾؛ للدَّلالة على تخصيصِ تلك النِّعمة الأُخرى وتقييدِها بكونِها محبوبةً للمُخاطَبين، قال ابن عاشور: "ووصَفَ (أُخرى) بِجُملَةِ ﴿تُحِبُّونَهَاۖ﴾؛ إشارَةً إلَى الامتِنانِ عليهم بإعطائِهم ما يُحِبّونَ في الحَياةِ الدُّنيا قَبلَ إعطاءِ نَعيمِ الآخِرَةِ"(1)، وفُهِمَ بدلالةِ المُقابلة مع تلك النِّعَمِ السّابقة أنَّ تلك النِّعمَ مكروهةٌ للمُخاطَبين؛ لأنَّ الإنسان فُطِرَ على كراهةِ ما يُتلِفُهُ، ومَحبَّةِ ما يحصلُ عليه، ويَجنيه، ولذا رغَّب بتلك النِّعمةِ تشويقًا وتأنيسًا، قال أبو حيّان: "ووصَفَ (أُخرَى) بِـ ﴿تُحِبُّونَهَاۖ﴾؛ لأنَّ النَّفسَ قد وُكِّلَت بِحُبِّ العاجِلِ، وفي ذَلِكَ تَحريضٌ على ما يُحصِّلُ ذَلِكَ، وهو الإيمانُ والجِهادُ"(2)، وعبَّر النَّظمُ الكريمُ عن تلك المحبَّة بصيغةِ المضارع؛ للدَّلالة على تجدُّدِ ذلك الحُبِّ واستمراريَّته من جميعهم، وشدَّةِ تفكيرهم في تحصيلِ النَّعيم الدُّنيويِّ من خلالِ المُجاهَدة والمقاتلة في سبيل الله، ولذا أُسنِدَ الفعلُ إلى ضميرِ الجماعةِ، قال الهرريُّ: "تعريضٌ بأنَّهم يُؤثِرونَ العاجِلَ على الآجِلِ، وتوبيخٌ على مَحبَّتِه، وهو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 196.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 168.

صفةٌ بعدَ صفةٍ لذلك المَحذوف"(1)، وجمعَ البقاعيُّ فائدتينِ لهذا الوصفِ ظاهرةً وباطنةً، بقوله: "ففي ظاهرِ هذه البُشرى تشويقٌ إلى الجهادِ وتحبيبٌ، وفي باطنها حثٌّ على حُبِّ الشَّهادة بما يشيرُ إليه منَ التَّوبيخِ أيضًا على حبِّ العاجل، والتَّقريع"(2).

دلالةُ الموقعِ الإعرابيّ لـ ﴿نَصۡرٌ﴾:

كمالُ الظَّفَر بالوصولِ إلى النَّصر

يحتملُ لفظُ ﴿نَصۡرٌ﴾ الواردُ في قولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أنْ يكونَ خبرًا عن ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾، فيكونَ الحُكمُ على تلك النِّعمة المُغايرةِ بأنَّها نصرٌ من اللّه، فالنِّعمةُ هي نَصۡرٌ، والإخبارُ بالمصدرِ عن النِّعمة يفيدُ المُبالغةَ بأنَّها حقيقةُ النَّصرِ وكمالُه، ويَحتمِلُ أنْ يكون بدلًا بتقديرِ خبرٍ محذوفٍ لـ(أخرى)، والتَّقديرُ: (وأُخرى لكم نصرٌ من اللّه)؛ فيكون تقريرًا وتوضيحًا لتلك النِّعمة الأخرى، بعدَما أخبرَ عنها بكونِها لكُم دونَ مَن سِواكم، ويمكن أنْ يكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُهُ: (وأُخرى لكُم هي نَصۡرٌ)(3)، وحينَئذٍ تكونُ الجملة مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ لعلاقةِ شِبه كمالِ الاتِّصال.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿نَصۡرٌ﴾:

النَّصرُ العظيم لتأييدِ العظيمِ الحكيم

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (النَّصر)، في قولِه تعالى: ﴿نَصۡرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على التَّعظيم والتَّفخيم لذلك النَّصر(4)، وكيف لا يكونُ عظيمًا، وهو صادرٌ من اللّه تعالى وتأييدِه وتسديدِه، كما يحتملُ التَّنكير أنْ يكون دالًّا على النَّوعيَّة؛ لأنَّ غَلَبةَ القِلَّة في العُدَّة والعدد على الكثرة أمرٌ غريبٌ، ممّا يدلُّ على نوعٍ خاصٍّ في النَّصر غيرِ مَألوف.

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 265.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 39.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 265.
(4) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 36.

معنى المتعلّق ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ودلالتُه:

الابتداءُ المجازيُّ مانعٌ من التَّصوُّرِ الوهْميّ

استعملَ النَّظمُ الكريمُ المتعلِّقَ شبه الجُملة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ نعتًا للنَّصرِ، في قوله تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لتحديدِ المكانِ الَّذي يصدرُ منه النَّصر، فالابتداءُ هنا مجازيٌّ بتشبيه ما يَحصُلُ بإذن اللّه وأمرِه وفعلِه بالمكان والمصدرِ لذلك الفعلِ؛ دفعًا لمَن يتوهَّمُ الاعتزازَ بالقُدرات الذّاتيَّة والإمكاناتِ الاستعداديَّة، فإنَّ النَّصرَ لا يكون إلّا بأمرِ اللّه تعالى.

دلالةُ الاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

تعليقُ الحُكم بشبيه المشتقِّ دالٌّ على التَّعليل

استعملَ النَّظمُ الكريمُ العلَمَ الجليلَ، في قولِه تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعليلِ لحصولِ النَّصر؛ إذ الاسمُ الجليل كالمشتقِّ في تعليقِ الحُكم عليه، فيُفيدُ العِلّيَّةَ له[1]، فكأنَّ التَّقدير: النَّصرُ من اللّه؛ لأنَّه الدّالُّ على الذّات المُستجمعةِ لصفاتِ الجَلال والكَمال.

وضْعُ الظّاهرِ موضِعَ المُضمَر ﴿ٱللَّهِ﴾:

التَّصريحُ بالاسم الجليل لتحقيقِ مَعنى التَّعليل

يحتملُ أنْ يكونَ التَّصريح بالاسم الجليل من وضْعِ الظّاهر موضِعَ المُضمَرِ، في قوله تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، بأن يكون الخطابُ في صدرِ الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾، صادرًا من جنابِ اللّه تعالى كما هو المتبادر، فكان حقُّ النَّظم أن يكونَ (نصري)، لكنَّه أظهرَ المضمرَ لتعليلِ ذلك الانتصارِ العظيم على الأعداءِ، وتذكيرِ المقاتلينَ في سبيل اللّه بأنَّ النَّصرَ منه على سبيلِ التَّصريح باسمِه العلَم الجليل دونَ الآلهةِ المزعومةِ والأفكار الموهومة، وأمّا إنْ كان الخطابُ صادرًا من الرَّسول ﷺ بأنْ يكونَ التَّقدير: (وقلْ يا محمَّد للمؤمنينَ هل أدلُّكم)، فلا يكون من وضع الظّاهرِ موضِعَ المضمَر، قال ابن عاشور: "وذِكرُ اسم الجَلالَةِ يَجوزُ أن يَكونَ إظهارًا

(1) حاشية اليزديّ على تهذيب المنطق للتفتازاني، ص: 10.

في مَقامِ الإضمارِ، على احتِمالِ أن يَكونَ ضَميرُ التَّكَلُّمِ في قَولِه: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ كَلامًا مِنَ اللهِ تعالى، ويَجوزُ أنْ يَكونَ جاريًا على مُقْتَضى الظّاهِرِ إنْ كانَ الخِطابُ أُمِرَ به رَسولُ اللهِ ﷺ بتَقديرِ: (قُل)"[1].

دلالةُ عطفِ اللّازمِ الأخصِّ على الملزومِ الأعمِّ ﴿وَفَتۡحٞ﴾:

الفتحُ كمالُ النَّصرِ، وبه تَسعَدُ النُّفوسُ وتُسَرُّ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ (الفتح) على (النَّصر)، في قولِه تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾؛ للدَّلالة على الجمعِ والارتباطِ، وللمُغايرة بينَ النَّصر على الأعداءِ والفتحِ للبُلدان؛ إذِ النَّصرُ ملزومٌ للفتح، فيكون الفتحُ لازمًا لهُ ومُسبَّبًا عنه، ولذا كانا نعمةً واحدةً في الحقيقة، ويُفهَمُ من عطفِ اللّازمِ الأخصِّ على الملزوم الأعمِّ أنَّ الفتحَ كمالُ النَّصر وغايتُهُ ونهايتُه، ومِن ثَمَّ قَدَّمَ النَّظمُ الكريمُ النَّصرَ على الفتحِ؛ حتّى ينتقلَ من الأعمِّ إلى الأخصِّ.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿وَفَتۡحٞ﴾:

كرامةُ الفتحِ من كمالِ المِنَح

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ (الفتحَ)، في قوله تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾؛ للدَّلالة على التَّفخيم والتَّعظيم لذلك الفتحِ المَحبوب، وكيف لا يكونُ عظيمًا، وهو يصدُرُ من اللهِ تعالى؟ كما يحتملُ التَّنكيرُ أن يكونَ دالًّا على النَّوعيَّة[2]؛ للإشارة إلى أنَّه نوعٌ مختلفٌ وغريبٌ؛ إذ كيف يفتحُ المُستضعفون الأقطارَ والبُلدانَ؟.

دلالةُ النَّعت بـ ﴿قَرِيبٞۗ﴾:

الفتحُ المُستبعَد قريبٌ ومُسَدَّد

نعتَ النَّظمُ الكريمُ الفتحَ بـ(القُرب)، في قوله تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المحبوب لديهم أن يكونَ الفتح قريبًا لا بعيدًا؛ إذِ النُّفوسُ ترغبُ بقُرْبِ حُصول النَّتائجِ عن الأفعالِ والأعمال، وتكرهُ الانتظارَ، وتملُّه، وفي ذلك وعدٌ من الله تعالى للمُخاطَبين بأنَّ النَّصرَ الَّذي تستبعدونَ حصولَه واقعٌ بإذن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 196.

(2) القزوينيّ، الإيضاح: 2/ 36.

اللّه، والفتحَ الذي تستبعدونَه قريبُ التَّحقُّقِ والوقوع، واختار النَّظمُ الكريمُ صيغةَ (الصِّفة المشبَّهة) الموضوعةِ؛ للدَّلالةِ على الثُّبوت والدَّوام؛ لإفادةِ أنَّ ذلك القُربَ ثابتٌ دائمٌ.

تصويرُ الفتح والانتصار بما يَستوجِبُ كلٌّ منهما بالاستِئثار

دلالةُ الاحتباك:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الاحتباكَ البديعيَّ، في قولِه تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾؛ إذ وصفَ النَّصرَ بأنَّه ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، ولم يذكُرِ القُربَ معه، ووصفَ الفتحَ بـ﴿قَرِيبٞۗ﴾، ولم يذكرْ أنَّه من اللّه، فيكونُ قد حذفَ من الأوَّلِ القُربَ لدلالة الثّاني، وحذفَ المتعلِّقَ من الثّاني لدلالةِ الأوَّل اكتفاءً، ويكونُ التَّقدير: (نصرٌ قريبٌ من اللّه وفتحٌ قريبٌ من اللّه)، وإنَّما ذكرَ المتعلِّق ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مع النَّصر دفعًا لما يتوهَّمُهُ المقاتلونَ من انتصارٍ بالنَّفس والبطولة والشَّجاعة، فأوضحَ أنَّه من اللّه، في حين أنَّ الفتح لا يشكُّ أحدٌ بعدَ العِلم بأنَّ النَّصر من اللّه أنَّ الفتح منه تعالى.

الرَّبطُ بين الأهدافِ والدَّلالات موضِّحٌ للمعاني والتَّصوُّرات

معنى (الواو) في ﴿وَبَشِّرِ﴾:

تحتملُ (الواو) في ﴿وَبَشِّرِ﴾ أنْ تكونَ لعطفِ الجملةِ الإنشائيَّة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ على الجملة الإنشائيَّةِ الواردةِ في صدرِ الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾، والغرضُ من ذلك الرَّبطُ بينَ غَرض وغَرض، فالغرضُ الأوَّل من الإنشاء: عَرْضُ اللّهِ تعالى الدَّلالةَ على ما يُسعدُهم في الدُّنيا والآخرة، وغرضُ الجملة المعطوفةِ: أمرُ النَّبيِّ ﷺ بتبشيرِ المؤمنينَ بحصول النَّصر والفتح القريبِ المحبوبِ لهم، فيكون هنالك جمعٌ بين غَرَضينِ وهَدَفينِ ظهرا من خلال العطفِ، هذا إن كان العَرْضُ للدَّلالة من جناب الحقِّ تعالى، فإنْ كان من جنابِ الرَّسول ﷺ، فيكون العطفُ عرضَ الدَّلالةِ وإحداثَ البُشرى منه ﷺ، في حينِ ذهبَ الرّازيُّ إلى أنَّه: "عَطْفٌ على ﴿تُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّهُ في مَعْنَى الأمرِ، كَأنَّهُ قيلَ: آمِنوا، وجاهِدوا؛ يُثِبْكُمُ

اللّهُ، ويَنصُركُم، وبَشِّر يا رَسولَ اللّه المؤمِنينَ بِذَلِكَ"[1]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ الخطابَ من جنابِ الحقِّ تعالى.

دلالةُ فعلِ الأمرِ (بَشِّرْ) مادَّةً وصيغةً:

التَّبشيرُ للمُؤمنين دعوةٌ لكلِّ الرّاغبين

استعملَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الأمر، في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للدَّلالة على الوجوبِ؛ واختارَ فعلَ التَّبشيرِ؛ لكونه حديثًا بما يُسِرُّ، ويُفرِحُ القلبَ، ويُثلجُ الصَّدر؛ إذ بمُجرَّدِ سماعِه يُدرك أنَّ المُتحدَّثَ عنه من قبيلِ الخَير.

الالتفاتُ وعدمُهُ في ﴿وَبَشِّرِ﴾:

حِرْصُ النَّبيِّ ﷺ على التَّبشير؛ لأنَّه النَّذيرُ البشير

في تعيينِ صدورِ الخطاب، في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ احتمالان؛ فإمّا أن يكون الخطاب من جناب اللّه ﷻ، وحينَئذٍ يكونُ المخاطَبُ في: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هو النَّبيَّ ﷺ، فيكون الحقُّ تعالى قد خاطبَ الَّذين آمنوا بذلك، كما خاطبَ النَّبيَّ ﷺ بالأمرِ بالتَّبشير، ولا يتحقَّقُ الالتفاتُ حينَئذٍ، وإمّا أن يكون الخطابُ من جنابِ الرَّسول ﷺ، قال ابن عاشور: "فَيَكونُ الأمرُ في ﴿وَبَشِّرِ﴾ التِفاتًا مِن قَبيلِ التَّجريدِ، والمَعنَى: وأُبَشِّرُ المؤمنينَ"[2]؛ إذ جرَّدَ من ذاته الشَّريفة ذاتًا، فخاطبَها؛ للدَّلالة على الحرصِ على التَّبشيرِ، حتّى إنَّه أمرَ ذاتَهُ بذلك، ولم يقل: (وأُبشِّرُكم).

دلالةُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

الإشعارُ بأنَّ صفةَ الإيمان هي التي تَقتضي هذه البِشارة

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للدَّلالة إمّا على الجنس المفيدِ للاستغراق، فيكون التَّبشيرُ لكلِّ المؤمنينَ في زمنِه المُبارك ومَن جاءَ بعدَهم، وإمّا على أنَّها موصولٌ اسميٌّ، أي: الَّذين اتَّصفوا بالإيمان، فتكون هنالك إشارةٌ إلى علَّةِ الأمر بالتَّبشير؛ إذ تعليقُ الحُكم بالمشتقِّ يدلُّ على

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 532.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 197.

عِليَّة المأخَذ فيه، وقد افتُتِحت الآيةُ بخطابِ المؤمنين بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾، وخُتِمت بالبشارةِ للمُؤمنين، ومِن ثَمَّ كان هنالك وضعٌ للظّاهر موضِعَ المُضمَر؛ "للإشعار بأنَّ صفةَ الإيمان هي التي تَقتضي هذه البِشارة"[1].

دلالة الإظهار في موضع الإضمار:

الإظهار اهتمامٌ واحتفاء، وتعليل لموجب الإعطاء

في وضع الظّاهر موضعَ المُضمر؛ إذ قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ولم يقل: و(بشرهم)؛ دلالةٌ على أنَّهم إنَّما استحقّوا البشارة بما حقَّقوه من الإيمان، والطّاعة والإذعان، قال الطَّيبيُّ: "ووضَعَ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ موضِعَ الضَّمير؛ للإشعار بأنَّ صفةَ الإيمان هي التي تَقتضي هذه البِشارة"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجهادُ والقتال:

الجهادُ أعمُّ مُطلقًا من القتال

القتالُ مُجابهة بالوسائلِ المُؤدّية إلى القتل، فيكون استعمالُهُ خاصًّا بالحروب والمعارك، وأمّا الجهادُ؛ فقد يكون بالقتالِ أيضًا، وقد يكونُ ببذلِ المالِ والوقتِ والصِّحَّة من أجل نصرةِ اللّٰه تعالى ومُجابهةِ النَّفس وأهوائِها والظّالمينَ وشُرورِهم، فالغايةُ ساميةٌ ونافعةٌ للفردِ والمُجتمع، فيكون الجهادُ أعمَّ من القتال، وأعظمُ الجهاد مجاهدةُ النَّفس على هَواها، ولذا يُندَبُ استعمالُها في التَّعبير القرآنيِّ على القتالِ الَّذي قد يكونُ لغاياتٍ غيرِ ساميةٍ.

المَسكَنُ والمَنزِلُ والبيتُ:

البيتُ مكانُ البيتوتةِ، والمنزلُ مكانُ النُّزول في الطَّريق، والمسكَنُ مكانُ السُّكنى والإقامة

يطلقُ لفظُ (البيت) على المكانِ الَّذي يبيتُ فيه الشَّخصُ ليلًا؛ لأنَّه من البيتوتة والاستقرار اللّيليِّ خاصَّةً في المكان، فهو بمعنى (الغُرفة) في عَصرِنا الحاضر، التي يَلجَأُ إليها صاحبُ الدّارِ لغرضِ النَّوم والرّاحة بعدَ تعبِ النَّهار.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 395.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 395.

وأمّا (المَنزِلُ)؛ فهو اسمُ مكانٍ يَنزلُ فيه المسافرونَ في الطَّريق، وكأنَّهم كانوا على قارعةِ الطَّريق يَسيرونَ، فنزلوا فيه، وانحدَروا إليه جزءًا من الوقت.

وأمّا المَسكَنُ؛ فهو اسمُ مكانٍ للسُّكنى بعدَ الحركةِ والتَّعب، فهو يسكُنُ إليه، ويرتاحُ فيه.

(عَدَنَ) و(خَلَدَ):

العَدْنُ مَكانيٌّ، والخُلودُ زَمانيٌّ

عَدَنَ بالمكان: أقامَ فيه إقامةً طيّبةً ذاتَ بهجةٍ ونعيم، ويستلزمُ ذلك في الجنّاتِ الخلودَ الزَّمانيَّ، وأمّا خلدَ بالمكانِ؛ فأقام فيه طويلًا، والعَدْن فيه إشارةٌ إلى مكانٍ، والخُلْدُ فيه إشارةٌ إلى بقاءٍ زمانيٍّ طويلٍ أوْ دائمٍ.

النَّصرُ والفتحُ:

الفتحُ أخصُّ مُطلقًا من النَّصر

كلُّ فتحٍ نصرٌ، وليس كلُّ نصرٍ فتحًا، فقد يتحقَّقُ النَّصرُ على الأعداء، لكنْ لا يَنتهي بفتحِ بلادهم، فالنَّصرُ أعمُّ منَ الفتح، لكنْ إذا فُتحتِ البلدانُ أمامَ المقاتلين؛ فإنَّ النَّصرَ مُتحقِّقٌ، سواءٌ كان النَّصرُ بالسَّيف، أو بالرُّعبِ، أو بالمُصالحةِ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾ [الصّف: 14]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

امتزاج الأسلوب بين التَّرغيب في المطلوب والتَّحذير من المرهوب

لَمّا حثَّ اللّه سُبحانَه على الجهادِ، وشوَّق إليه بأنَّه متجرٌ رابحٌ، ولَوَّح إلى النِّذارةِ بالتَّنشيطِ بالبِشارةِ، فتهيَّأت النُّفوسُ إلى الإقبالِ عليه، وانبعثَت أيَّ انبعاثٍ؛ حضَّ عليه بالإيجابِ المقتضي للثَّوابِ أو العِقابِ[1].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿أَنصَارَ﴾: الأنصارُ: جماعةُ النّاصِر، وأنصارُ النَّبيِّ ﷺ: أعوانُه[2]، والنَّصرُ: أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إتيانِ خَيرٍ وإيتائِه، ونَصَرَ اللّهُ المُسلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ على عَدوِّهم[3]، ونَصَرَهُ اللّه على عدوِّه يَنصُرُهُ نَصرًا، والاسم النُّصرةُ، والنَّصيرُ: النّاصِرُ، والجمعُ الأنصارُ، مثلُ شريفٍ وأشرافٍ[4]، ونَصَرْتُهُ على عَدوِّه: أعَنْتُه، وقوَّيْتُهُ[5]، والمرادُ به في الآيةِ: المُعينونَ للنَّبيِّ في دعوتِه إزاءَ المُخالفينَ لهُ.

2) ﴿ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾: (حور) ثلاثةُ أصولٍ، أحدُها: لونٌ، والآخرُ: الرُّجوع، والثّالثُ: أنْ يدورَ الشَّيءُ دَوْرًا، فأمّا الأوَّلُ؛ فالحَوَرُ شِدَّة بياضِ العين في شدَّةِ سَوادها، ويقالُ: حَوَّرتُ الثّياب: بيَّضتُها، ويقالُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 40.
(2) الخليل، العين: (نصر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نصر).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (نصر).

لأصحابِ عيسى ﵇: الحواريّونَ؛ لأنَّهم كانوا يُحوِّرونَ الثّياب، أي: يُبيِّضونها، هذا هو الأصلُ، ثمَّ قيل لكلِّ ناصرٍ: حواريٌّ، واحورَّ الشَّيءُ: ابيضَّ، احورارًا[1]، والحواريُّ: النّاصحُ، وأصلُهُ: الشَّيءُ الخالصُ، وكلُّ شيءٍ خلُصَ لونُهُ، فهو حواريٌّ، والحَواريّونَ: خُلَصاءُ الأنبياء وصفوتُهم[2]، والمرادُ بهم في الآية: الّذين خَرَجوا من جامعةِ المُخالفين، وخالفوا جريانَ سَيرِهم، ثمَّ نصَروا رسولَ اللّه، وآمنوا به، وعَمِلوا على ما يَقضي، ويُريد، فهُم مَشهورون بينَ النّاس بالحوار، ومَنسوبون إليه؛ لتغيُّر حالِهم وتبدُّلِ جَريانِ أمورهم[3].

3) ﴿طَّآئِفَةٌ﴾: الطَّوفُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأنْ يحُفَّ به، ثمَّ يُحمَلُ عليه، يقالُ: طافَ به، وبالبيتِ يطوفُ طَوْفًا وطَوافًا، والطّائفةُ من النّاس، كأنَّها جماعةٌ تُطيفُ بالواحدِ أو بالشَّيءِ[4]، والمَطافُ: موضِعُ الطَّواف[5]، والطّائفةُ تُطلقُ على جماعةٍ مواجِهةٍ مُشْرِفةٍ قريبةٍ، فالطّائفةُ عبارةٌ عن جماعةٍ لهمُ ارتباطٌ وسابقةٌ وحركةٌ وتردُّدٌ إلى الجانبِ الَّذي هو المنظورُ[6]، والمرادُ به في الآية: الجماعةُ منَ القوم الَّتي تقتربُ من مكانٍ معيَّنٍ، وتدورُ حولَهُ بغيةَ السَّماع لتكوينِ موقفٍ.

4) ﴿ظَٰهِرِينَ﴾: (ظهر) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، من ذلك ظهرَ الشَّيءُ يظهَرُ ظُهورًا، فهو ظاهرٌ؛ إذا انكشفَ، وبرزَ، والأصلُ فيه كلُّه ظهرُ الإنسانِ، وهو خِلافُ بطنِهِ، وهو يجمعُ البُروزَ والقوَّةَ، والظُّهورُ: الغلَبةُ[7]، وظهرتُ على الحائط: علوْتُ، ومنهُ قيل: ظهرَ على عدوِّه؛ إذا غلَبَهُ[8]، والمرادُ به في الآية، أي: غالبينَ ومُتفوِّقين ومُنتصرينَ بالحُجَّةِ والبُرهان والجاه والشَّأن.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ اللّه ﷻ آمرًا عبادَه المُؤمنينَ أنْ يكونوا أنصارَ اللّه في جميعِ أحوالِهم، بأقوالِهم

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حور).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حور).
(3) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 2/ 290.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوف).
(5) الفيوميّ، المصباح المنير: (طوف).
(6) المصطفويّ، التّحقيق في الكلمات القرآنيّة: 7/ 150.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(8) الفيوميّ، المصباح المنير: (ظهر).

التّذكيرُ بالأسلاف، والتّنفيرُ من تصرُّفِ الأجلاف

وأفعالِهم وأنفسِهم وأموالِهم، كما كان الحواريّونَ أنصارَ اللّه حينَ قال لهم عيسى: مَن أنصاري إلى اللّه؟ والحواريّونَ هُم أتباعُ عيسى وأصفياؤُهُ وأوّلُ مَن آمنَ به، ولمّا بلّغ عيسى عليه السلام رسالة ربِّه إلى قومِه، وآزرَ مَن آزرَهُ من الحواريّين؛ اهتدتْ طائفةٌ من بني إسرائيلَ، وضلّتْ أُخرى، فخرجَتْ عمّا جاءَ به، وجَحَدوا نبوَّتَه، ورَمَوهُ وأُمَّهُ بالعظائم، فنصرْنا، وقوّينا الّذين آمنوا بعيسى على عدوِّهم الّذين كفروا به، فصاروا بتقويتِنا ومُساعدتِنا غالبينَ مُنتصرينَ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصلِ في ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

بعدَ التشويق والتّأنيس تذكيرٌ نفيس

فصلَ النَّظمُ الكريمُ قولَهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ﴾، عمّا قبلَه؛ إعلانًا له عن استقلالِه، وتمييزًا له عمّا قبلَهُ؛ لأنَّ الدَّلالة على التِّجارةِ الرّابحةِ تشويقٌ وتأنيس، وأمّا هذا فهو تذكيرٌ بما كانَ من الأسلاف إزاءَ دعوةِ عيسى عليه السلام قبولًا ورَفْضًا، وما ترتَّبَ على ذلك حتّى لا يَقعوا في النَّتيجةِ ذاتِها.

دلالةُ تكرارِ أُسلوبِ النِّداءِ في السّورة:

نداءُ العتابِ والاستنكارِ يَنسجِمُ مع نداءِ الإغراءِ والتّذكيرِ بأحوالِ الأبرارِ والفُجّار

تكرَّرَ النِّداءُ في السورةِ الكريمةِ ثلاثَ مرّات، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصّفّ: 2]، وفيه إنكارٌ وتقريعٌ للمؤمنين، والمتبادرُ منهُ خطابُ جماعةِ المؤمنين من أصحابِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم على موقفٍ، ثمَّ تضخَّم التَّقريعُ في قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصّفّ: 3]، وتحيَّرَ المفسِّرون في حملِه على الجماعةِ الخيِّرة المُؤمنة، فجوَّز ابن عاشور أنْ يكون خطابًا لمنافقينَ، لم تنقلْ كتبُ أسبابِ النُّزول ذلك[2]، ثمَّ جاءَ النِّداءُ الثّاني بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1406.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 177.

﴿عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، فإنْ كان الخطابُ للمؤمنين؛ فما الدّاعي لطلبِ إيمانهم وحثِّهم على التِّجارةِ المُربحة؟ فقال بعضُ المفسِّرين: محطُّ الاهتمام ليس الإيمان بل الجهاد، إلّا ما كان من الإمام الرازيِّ الَّذي رَأى أنَّه يحتملُ أنْ يكون خطابًا للمؤمنينَ بالكتُبِ المتقدِّمة(1)، ثمَّ جاءَ النِّداءُ الثّالثُ الَّذي خُتِمت به السّورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ ليُمثِّلَ حالَ قولِه ﷺ لهم ذلك بحالِ عيسى عليه السلام، الَّذي نادى على الحواريّينَ، فلبّوا، ومعهم طائفةٌ من بني إسرائيل، فانتصَروا، وظَهَروا على الكافرين.

دلالةُ الوصلةِ للمُنادى (أيٌّ):

استعملَ النَّظمُ الكريمُ (أيّ) في النِّداء؛ ليُتوصَّلَ بها إلى المنادى المَوصولِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ إذ لا تدخلُ (يا) النِّداء على المُنادى الموصول، كما أنَّ فيها تعظيمًا للمنادى الَّذي لا يُنادى إلّا بواسطةٍ، وزيادةَ تنبيهٍ ولفتَ الإصغاء.

استعمالُ الواسطة في النِّداء تنبيهٌ وتفخيمٌ وسَناء

إيرادُ المُنادى اسمًا موصولًا:

أوردَ النَّظمُ الكريمُ المنادى اسمًا موصولًا، في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على تعميم الخطاب للمؤمنين، واستُفيدَ من الصِّلة الَّتي توضِّحُ الموصولَ المُبهَم أنَّ الخطابَ فيه تنويهٌ بشأنِ المُخاطَب؛ إذ خوطِبَ بشِعار الإيمان حتَّى يُقبلَ على الالتفاتِ ويَعتنيَ بالكلام، ويُصغيَ للنِّداء، إذِ الغَرضُ من النِّداء تحقيقُ مزيدٍ من الإقبالِ والاهتمام، وفيه مدحٌ للمُنادى، فهو مؤمنٌ يَنبغي عليه أنْ يلتزمَ بصِفاتِ المُؤمنين، قال ابنُ عاشور: "هَذا خِطابٌ آخَرُ لِلْمُؤمنينَ تَكْمِلَةً لِما تَضَمَّنَهُ الخِطابُ بِقَولِه تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ إلَى قولِه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، الَّذي

خطابُ المُنادى بشعارِ الإيمان استراتيجيَّةٌ للإقبالِ والإذعان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 531.

هو المَقصودُ مِن ذَلِكَ الخِطابِ، فَجاءَ هَذا الخِطابُ الثّاني تَذكيرًا بِأُسوةٍ عَظيمَةٍ مِن أحوالِ المُخلِصينَ مِنَ المؤمِنينَ السّابِقينَ، وهُم أصحابُ عيسَى عليه السلام مَعَ قِلَّةِ عَدَدِهِم وضَعفِهِم"[1].

المقصودُ بالماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

التَّذكيرُ بوقوعِ الإيمانِ تشويقٌ للعَمَلِ بالأركانِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي صلةً للموصول، في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الإيمانِ لهم ووقوعِه على سبيلِ القَطْع، وفي ذلك تحريضٌ لهم على العملِ بموجِبِ ما يأتي بعدَ النِّداءِ من لوازمِ الإيمانِ ومُقتضياتِه الضَّروريَّة، قال القونويُّ: "ذِكرُ الإيمانِ تهييجٌ لهم على الامتثالِ؛ لأنَّه مُقتضى الإيمانِ"[2].

دلالةُ استعمالِ الأمرِ بعدَ النِّداء:

الطَّلبُ بعدَ النِّداءِ أدعى للاستجابةِ والإصغاءِ

وقعَ الأمرُ بعدَ النِّداءِ في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، وهو محطُّ الاهتمامِ ومصَبُّ الحديث، الَّذي وقعَ النِّداءُ والتَّنبيهُ والتَّشويقُ إلى سَماعِه والالتفاتِ إليه، فيكون وقعُ الأمرِ بعدَ النِّداءِ أدعى للاهتمامِ به؛ لأنَّهم نودوا من أجلِه، وليكونَ أخفَّ على أسماعِهم بعدَ خِطابهم بوصفِ الإيمان، وأرجى لقَبولِهِمُ العملَ بِه.

دلالةُ فعلِ الكَونِ أمرًا:

الاتِّصافُ بالنُّصرةِ على سبيلِ الثَّباتِ

وقعَ الطَّلبُ بفعلِ الكَونِ في قولِه تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، ولم يقلِ النَّظمُ: انصُروا اللّه - مثلًا - لأنَّ فعلَ الكونِ يدلُّ على الاتِّصافِ لاسمِه بالنُّصرة للّه على سبيلِ التَّمكُّنِ والإحاطة، فيُفيدُ الثَّباتَ على النُّصرة والدَّوامَ عليها والاتِّصافَ بها اتِّصافًا غيرَ قابلٍ للتَّبدُّلِ والتَّردُّد[3]، فهو: "أبلغُ من القَولِ (انصروا اللّه)"[4]، وأسندَ النَّظمُ الكريمُ فعلَ الكونِ إلى ضميرِ الجماعة؛ ليُفيدَ كلَّ المؤمنين

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 198.

(2) القونويّ، حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 78.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 227.

(4) القونويّ، حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 78.

المُخاطَبينَ بلا استثناء، فإنْ كانَ الخطابُ لمُؤمني الكتبِ المُتقدِّمة؛ فالأمرُ على حقيقتِه، وإنْ كان لأصحابِ النَّبيِّ ﷺ؛ فالأمرُ مجازيٌّ، بمعنى: "إدامةِ النُّصرةِ والثَّباتِ عليه، أي: دوِّموا على ما أنتم عليه مِن النُّصرة"(1)، قال ابن عاشور: "فَأمَرَ اللهُ المؤمنينَ بنَصرِ الدّين، وهو نَصرٌ غَيْرُ النَّصرِ الَّذي بالجِهادِ؛ لِأنَّ ذَلِكَ تَقَدَّمَ التَّحْريضُ عليه في قَولِه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ الآيَةَ، ووعدَهُم عليه بأن يَنصُرَهُمُ اللهُ، فَهَذا النَّصرُ المَأْمورُ به هُنا نَصرُ دينِ اللهِ الَّذي آمَنوا بِهِ، بأنْ يَبُثّوهُ، ويَثْبُتوا على الأخْذِ به، دونَ اكْتِراثٍ بِما يُلاقونَهُ مِن أذًى مِنَ المُشْرِكينَ وأهلِ الكِتابِ"(2).

دلالةُ (الأنصار) جمعًا:

تلاحُمُ الأنصار في رفعِ لِواءِ النَّبيِّ المُختار

استعملَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الأنصار) مَجموعًا، في قوله تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، وهو جمعُ (نصير) كشَريفٍ وأشراف(3)، فيكونُ النَّصير صيغةَ مُبالغة، ولذا قالَ ابنُ عاشور: "النَّصيرُ: هو النّاصِرُ الشَّديدُ النَّصرِ"(4)؛ للدَّلالةِ على التَّلاحُمِ والتَّكاتُفِ في حالةِ النُّصرةِ والذَّبِّ عن دين اللهِ وكتابِه ورَسوله الكريم ﷺ، فتنصرونَهُ، وتقفونَ صفًّا واحدًا وراءَ لوائِه؛ إذِ الأنصارُ همُ الَّذين نَذَروا أنفسَهم في النُّصرة والحمايةِ والرِّعاية والعِناية، وتقديم العَوْنِ والإغاثة للمنصورِ الَّذي يقع الاعتداءُ عليه على سبيلِ الثُّبوتِ والدَّوام.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾:

نُصرةُ الرَّسول الكريم ﷺ نُصرةٌ لله العَظيم

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (الأنصار) إلى اسم الجَلالة، في قولِه تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيينِ والتَّعريف؛ إذ إضافةُ اللَّفظ إلى المعرفةِ تفيدُ ذلك، والغرضُ من التَّعيينِ تحديدُ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 439.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 198.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 266.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 199.

جهةِ النُّصرة، ولمّا كانت النُّصرةُ لرسولِ اللّه ﷺ نصرةً للّه تعالى، أضافَ النَّظمُ الكريمُ النُّصرةَ للّه تعالى؛ للدَّلالة على أنَّ النَّصيرَ لرسولِه نصيرٌ للّه تعالى؛ وفي ذلك تشريفٌ للنَّبيِّ ﷺ، حتّى إنَّه عبَّرَ عن نُصرتِه بالنُّصرة للّه تعالى؛ رضًا عمّا يفعلُهُ، وإكرامًا لناصريه ﷺ[1]، ففي الإضافةِ إشارةٌ إلى مضافٍ محذوفٍ، تقديرُهُ: (كونوا أنصارَ رسول اللّه)، بقرينةِ قولِ المسيح الآتي: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، فأضافَ النُّصرةَ لنفسِه، وفي ذلك الحذفِ ردٌّ على مَن اعتقدَ أنَّ نُصرةَ اللّه تكونُ متحقِّقةً بغيرِ نُصرةِ رسولِه، كالبقاءِ على دينِ موسى وعيسى عليهما السلام، فبيَّن أنَّ نصرةَ هذا الرَّسول الكريم بنُصرةِ اللّه، ومَن لم ينتصِرْ له؛ فلا يكونُ ناصِرًا للّه تعالى، وقيلَ: كونوا: "أنصارَ دينِه"[2]، والسّياقُ يدلُّ على نُصرةِ رسولِه.

تعدُّدُ القراءاتِ في ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾:

أجلى البيِّنات على أنَّ الإضافةَ بمعنى (اللّام) عندَ النُّحاة

اختلفَ القرّاءُ بينَ الإضافةِ وعدمِها، في قولِه تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، فـ: "قرأ الحرَميّان - نافعٌ وابنُ كثير - وأبو عمرٍو: ﴿أَنصَارًا لِّلَّهِ﴾ بالتَّنوينِ وتركِ الإضافة، وقرأ باقي السَّبعة بإضافةِ الأنصار إلى اللّه وتركِ التَّنوين ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، والقراءتانِ تدُلّان على البعضيَّة، كما قال أبو السّعود: "لأنَّ المَعْنَى كونوا بعضَ أنصارِ اللّه"[3]؛ فإنَّه يستحيلُ أنْ يكونَ المُؤْمنونَ جميعَ أنصارِه تعالى[4]، وفرّقَ ابنُ عاشور بين القراءتينِ بقوله: "فَيَكونُ ﴿أَنصَارًا﴾ مُرادًا به دَلالَةُ اسمِ الفاعِلِ المُفيدِ لِلإحداثِ، أي: مُحدِثِينَ النَّصرَ، واللّامُ لِلأجلِ، أي: لِأجلِ اللّهِ، أي: ناصِرينَ لَهُ كَما قالَ تَعالَى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾ [مُحَمَّد: 13]، وبِإضافَةِ ﴿أَنصَارَ﴾ إلَى اسْمِ الجَلالَةِ بِدونِ لامٍ على اعْتِبارِ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 227.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 266.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 246.
(4) القونويّ، حاشية القونويّ وابن التّمجيد على تفسير البيضاوي: 19/ 78.

﴿أَنصَارَ﴾ كاللَّقَبِ على نَحْوِ قولِه: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ﴾"[1]، وقرَّرَ البقاعيُّ الفرقَ بقولِه: "ويُشبِهُ أنْ يكونَ المأمورُ به في هذه القراءةِ [أي: النّصب] الثَّباتَ على الإيمانِ، ولو في أدنى الدَّرجات، وفي قراءةِ الجمهورِ الرُّسوخُ فيه"[2].

دلالةُ الاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

تعليلُ طلبِ النُّصرة بذِكرِ الذّاتِ الجليلةِ العَليَّة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالاسمِ الجليلِ، في قولِه تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّعليلِ للأمر؛ إذ طلبُ الاتِّصافِ بالنُّصرة للّه تعالى؛ لأنَّه الذّاتُ الواجبةُ الوجودِ، الدّالَّة على جلالِ الصِّفات وكمالِ الذّات، فيكونُ بمنزلة تعليقِ الحُكم والطَّلبِ بالمشتقِّ؛ للدَّلالة على العليَّة[3].

نوعُ التَّشبيه في ﴿كَمَا قَالَ﴾، والغرضُ منه:

تشبيهُ الأقوالِ والأحوالِ وصولًا لأعلى الآمال

استعملَ النَّظمُ الكريمُ أسلوبَ التَّشبيه، في قولِه تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾، والغرضُ من التَّشبيه توضيحُ حالةِ النَّبيِّ ﷺ في دعوتِه للمؤمنينَ بحالِ عيسى عليه السلام في دعوتِه للحواريّين، وموقفِ المدعوّين من دَعوته قبولًا ورفضًا، قالَ ابنُ عاشور: "والتَّشبيهُ بِدَعوةِ عيسَى ابنِ مَريَمَ لِلحَواريّينَ وجَوابِ الحَواريّينَ تَشبيهُ تمثيلٍ، أي: كونوا عِنْدما يدعوكم مُحَمَّد ﷺ إلَى نَصْرِ اللّه كَحالَةِ قَوْلِ عيسَى ابنِ مَريَمَ لِلحَواريّينَ واستِجابَتِهِم لَهُ، والتَّشبيهُ لِقَصدِ التَّنظيرِ والتَّأسّي، فَقَد صَدَقَ الحَواريّونَ وعْدَهُم، وثَبَتوا على الدّينِ، ولم تُزَعزِعْهُمُ الفِتَنُ والتَّعْذيبُ"[4].

الاختلافُ في تحديدِ المُشبَّه:

جَعلُ المشبَّه أصلًا والمشبَّهِ به فرعًا

استعملَ النَّظمُ الكريمُ أسلوبَ التَّشبيه، في قوله تعالى: ﴿كُونُوٓاْ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 199.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 41.
(3) حاشية اليزديّ على تهذيب المنطق للتّفتازانيّ، ص: 10.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 199.

أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾، واستشكل الزَّمخشريُّ ظاهره بقوله: "وظاهرُهُ تشبيهُ كونِهم أنصارًا بقولِ عيسى صلواتُ اللّه عليه: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ قلت: التَّشبيهُ محمولٌ على المعنى، وعليه يصِحُّ، والمرادُ: كونوا أنصارَ اللّه، كما كانَ الحواريونَ أنصارَ عيسى حينَ قالَ لهم: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، وقدَّرَه الرّازيُّ بقوله: "أي: انصُروا دينَ الله مِثْلَ نُصْرَةِ الحَوارِيّينَ لَمّا قالَ لَهُمْ"(1)، ويمكن أن يقال: إنَّ النِّداءَ بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قولٌ، فيدلُّ على المُشبَّه المحذوفِ، وتقديرُهُ: (أقولُ لكم كونوا كذا، قولًا يُضارِعُ قولَ عيسى ابن مريم للحواريّينَ كذا)، أو: (أقولُ لكم قولًا مثلَ ذلك القول)، وهو أحدُ توجيهَي البيضاويِّ القائل: "إذِ المُرادُ: قل لهم، كما قالَ عيسَى ابنُ مَريَمَ، أو كونوا أنصارًا، كما قالَ الحواريّون حينَ قال لهم عيسى"(2)، وجوَّزه القرطبيُّ بقوله: "ثُمَّ قيلَ: في الكَلامِ إضمارٌ، أي: قُل لَهُم يا مُحَمَّدُ: كونوا أنصارَ اللّهِ، وقيلَ: هو ابتِداءُ خِطابٍ مِنَ اللّهِ، أي: كونوا أَنْصارًا كَما فَعل أصحابُ عيسَى، فَكانوا بِحمدِ اللّه أَنْصارًا، وكانوا حَواريّينَ"(3)، لكنَّه أقامَ المُشبَّهَ به وأسلوبَ الخطاب؛ ليدلَّ عليه، وسرُّ الحذف للمشبَّه ألّا يكونَ المشبَّهُ أضعفَ من المشبَّه به، كما هو الأصلُ في التَّشبيهِ، بل جاءَ المشبَّهُ به بمنزلة الفرعِ على الأصل، فأخرجَ قولَه ﷺ للمؤمنينَ مخرجَ الأصلِ بأسلوب الخطابِ، وجعلَ قولَ عيسى عليه السلام فرْعًا له.

دلالةُ الكنايةِ في التَّشبيه:

وضَع النَّظمُ الكريمُ لازمَ المشبَّه به بدلَ المشبَّهِ به، في قوله تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾؛ إذ "قالَ أهلُ البيان: فيه تشبيهُ كونِهم أنصارًا بقولِ عيسى، وإنَّه لا يصحُّ على الظّاهر؛ لأنَّ الكونَ يُشبَّهُ بالكونِ لا القول، فوجْهُهُ أنْ يُحمَلَ التَّشبيهُ على المعنى، وبيانُهُ: أنَّ كونَ الحواريّينَ أنصارَ اللّه يُعرَفُ من سياقِ الآية بعدَها، وهو قولُ الحواريّين: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، واردٌ بطريقِ الاستئنافِ، كأنَّ سائلًا سألَ: فماذا قالَ الحواريّونَ حينَئذٍ؟ فأُجيبَ بما أُجيب، وقولُهُم لا يُخالِفُ كونَهم، فيعودُ معنى الآيةِ إلى قولِ القائلِ: كونوا أنصارَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 532.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 210، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/ 637.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 89.

اللّه مثلَ كونِ الحواريّينَ أنصارَ عيسى وقتَ قولِه: مَن أَنْصاري؟ على أنَّ (ما) مصدريَّةٌ، والمصدرُ يُستعمَلُ مقامَ الظَّرفِ اتِّساعًا، كقولك: (جئتك قدومَ الحاجّ) و(خفوقَ النَّجم)، أي: وقتَ القدومِ والخفوقِ، والسِّرُّ في العدولِ عن العبارةِ الواضحةِ إلى العبارةِ الموجودةِ هو أنَّ سوقَ الكلام بطريقِ (الكناية)؛ إذ جَعْلُ المشبَّهِ به لازمَ ما هو المشبَّهُ به أبلغُ من التَّصريح، وأنَّ بناءَ الكلام على السُّؤال والجواب أوكدُ، وأنَّ المجازَ وهو استفادةُ كونِهم من قولِهم أبلغُ من الحقيقة"[1]، في حين ذهبَ ابنُ عاشور إلى أنَّ التَّشبيه في مجموعِ الأمرين؛ إذ قال: "التَّشْبيهُ بِمَجْموعِ الأمرَيْن: قَوْلُ عيسَى وجَوابُ الحَواريّين؛ لِأنَّ جَوابَ الحَواريّينَ بِمَنزِلَةِ الكَلامِ المُفَرَّعِ على دَعْوةِ عيسَى، وإنَّما تُحْذَفُ (الفاءُ) في مِثْلِه مِنَ المُقاولاتِ والمُحاوراتِ لِلاختِصارِ"[2].

تشبيهُ الكونِ بالقولِ أبلغُ من تشبيهِ الكونِ بالكون

دلالةُ الاحتباك:

فسَّرَ بعضُهم التَّشبيهَ الواردَ، في قولِه تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ بأسلوب الاحتباك، فقال: "والأصلُ: كونوا أنصارَ اللّه حينَ قالَ لكم النَّبيُّ: مَن أنصاري إلى اللّه، كما كانَ الحواريّونَ أنصارَ اللّه حينَ قالَ لهم عيسى: مَن أنصاري إلى اللّه؟ فحذفَ مِن كلٍّ منهما ما دلَّ عليه المذكورُ في الآخرِ، وهو كلامٌ حسَنٌ"[3]، وإنَّما حذفَ قولَ النَّبيِّ لهم من الأوَّلِ لدلالةِ الخِطابِ عليه بأسلوبِ النِّداءِ، وحذفَ كونَ الحواريّين أنصارَ اللّه من الثّاني لدلالةِ جَوابهم وقولِهم عليهِ.

ربطُ القولين والكونين للدّلالةِ على التّلاحُمِ في الحالتين

الموقع الإعرابيُّ للكاف في ﴿كَمَا قَالَ﴾:

اختلفَ المفسِّرونَ في إعرابِ (الكاف)، من قوله تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾؛ تبعًا لاختلافِهم في

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 298.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 200.
(3) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 193.

يترجّحُ المَعنى، ويُؤخَذُ بنظرِ الاعتبارِ المَبنى

توجيه التَّشبيه وتحديدِ المُشبَّه المُنتَزَعِ من الكلام، على أقوال ثلاثة، الأوَّل: إنَّها في موضع نصبٍ على إضمارِ القولِ، أي: قُلنا لهُم ذلك كما قالَ عيسى. الثّاني: إنَّها نعتٌ لمصدرٍ محذوف[1]، قيل: وفيه نظرٌ؛ إذ لا يُؤمَرونَ بأن يَكونوا كونًا. الثّالث: إنَّه كلامٌ محمولٌ على معناهُ دونَ لفظِه، وإليه نحا الزَّمخشريُّ، فإنَّه قال: "فإنْ قلتَ: ما وجهُ صحَّةِ التَّشبيهِ؟ وظاهرُهُ تشبيهُ كونِهم أنصارًا بقولِ عيسى: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ قلتُ: التَّشبيهُ محمولٌ على المعنى، وعليه يصِحُّ، والمرادُ: كونوا أنصارَ اللّه كما كانَ الحواريّونَ أنصارَ عيسى، حينَ قال لهُم: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾"[2]، وبناءً عليه فـ(ما) مصدريَّةٌ، وهي مع صِلتِها ظرفٌ، وهو كقولهم: (ما رأيتُ رجُلًا كاليوم)، أي: كرجلٍ رأيتُهُ اليومَ، حُذِفَ الموصوفُ معَ صفتِه، واكتفى بالظَّرفِ عنهما"[3].

دلالةُ المصدرِ المؤوَّل ﴿كَمَا قَالَ﴾:

تحقيقُ الحصولِ لدفعِ الشّكِّ في الصُّدور

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالمصدرِ المؤوَّل عن المشبَّه به، في قولِه تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ إذِ التَّقديرُ: (كقولِ)، والغرضُ من تركِ المصدرِ الصَّريح إلى المؤوَّل الدَّلالةُ على تحقُّقِ ذلك الوقوع، وصدورِه على سبيل القطعِ بالحُصول.

نُكتةُ إيرادِ عطفِ البيان أوِ البدلِ ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾:

الرَّدُّ على أهلِ البُطلانِ من حَقائقِ القُرآن

عطفَ النَّظمُ الكريمُ ﴿ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ على ﴿عِيسَى﴾، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه ليس له أبٌ؛ تنزيهًا عمّا يَنسبُهُ اليهودُ لأُمِّه ويَتَّهمونَها به من كلامٍ زائفٍ واتِّهامِ زورٍ باطلٍ، وردًّا على المُدَّعينَ لبنوَّتِه للّه، تعالى اللّه، وتقدَّسَ، فيكونُ في العطفِ والبدلِ ردٌّ على القيلينِ الباطلَينِ.

---

(1) مكّي القيسيّ، الهداية إلى بلوغ النهاية: 11/ 7445.

(2) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 87.

(3) الإيجيّ، جامع البيان: 4/ 309.

دلالةُ ذكرِ اسمِ الأمِّ ﴿مَرۡيَمَ﴾:

التّنويهُ بالأمِّ الشّريفة ردٌّ على التّهمةِ اللّئيمة

حرَصَ النَّظمُ الكريمُ على إضافةِ البنوّةِ لـ(مريمَ) عليها السلام، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾؛ لتحديدِ أُمِّه بشكلٍ تامٍّ، فلا يرتابُ أحدٌ في بُنوَّتِه لغيرِ أمِّه باسمِها الخاصِّ العلَم، وللتّنويه بالأُمِّ ومقامِها الشّريف ومَكانتِها العالية، فيقعُ الرَّدُّ على التُّهمةِ الشّنيعةِ.

دلالةُ (اللّام) في ﴿لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾:

تخصيصُ القولِ بالحواريّين؛ لبيانِ مَوقِفِ الإسرائيليّين

استعملَ النَّظمُ الكريمُ (لامَ) الجرِّ، في قوله تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾؛ للدَّلالة على تخصيصِ القولِ بالحواريّين، فيفيدُ توجيهَ الخطابِ والقولِ لهم دونَ مَن سِواهم، لكنَّه قصدَ به إسماعَ كافّةِ بني إسرائيلَ بدليل ما سَيأتي من قولِه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾، والحواريّون: "إنَّما سُمّوا بذلك لصَفاءِ عقائدِهِم عنِ التَّردُّدِ والتَّلوين، أو لأنَّهم كانوا يُطَهِّرونَ نفوسَ النّاس بإفادتِهم الدّينَ والعلمَ، مِنَ (الحَورِ)، وهو البياضُ الخالِصُ"[1]، وقيلَ: "لأنَّهم كانوا قصّارينَ يُبيِّضونَ الثّيابَ"[2].

دلالةُ ﴿مَنۡ﴾ الاستفهاميّة:

تقريرُ المؤمنين دعوةٌ للمُعرضين

استعملَ النَّظمُ الكريمُ اسمَ الاستفهامِ ﴿مَنۡ﴾، في قولِه تعالى: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ للدَّلالة على طلبِ المعرفة بالَّذين يَنصرونَه على أعدائِه من أجل اللّه تعالى وفي سبيلِ اللّه، فالاستفهامُ حقيقيٌّ قُصِدَ به تعيينُ الأنصارِ من غيرِ الأنصار، قال ابنُ عاشور: "وقَوْلُ عيسَى ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ استِفهامٌ؛ لاختِبارِ انتِدابِهِم إلى نَصرِ دينِ اللّه مَعَهُ"[3]، ويحتملُ أن يكون الاستفهامُ مَجازيًّا دالًّا على

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 267.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 10/ 1406.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 200.

التَّقريرِ والإلجاءِ إلى الاعتراف، والغرضُ منه حينَئذٍ بيانُ موقفِ الإسرائيليّين من ذلك الجَوابِ والإقرارِ.

دلالةُ الإخبارِ بـ(الأنصار) مُضافًا:

إضافةُ الأنصارِ إليه؛ لأنَّهم ماضونَ في مِنهاجِه

ورَدَ المستفهَمُ عنهُ في الآيةِ بلفظِ (الأنصار) مُضافًا إلى المتكلِّم، في قولِه تعالى: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ للدَّلالةِ على تعيينِ الجهة التي يَنتمي إليها الأنصار، وهي الجهةُ التي تُفسِّر الإضافةَ السّابقةَ في: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، وهي نصرةُ المرسَلين في سبيلِ اللّه، ونصرةُ دعوتِه وطريقتِه، قالَ الرّازيُّ: "وفيه إشارَةٌ إلَى أنَّ النَّصْرَ بِالجِهادِ لا يَكونُ مَخْصوصًا بِهَذِه الأُمَّةِ"[1].

نوعُ الإضافة في ﴿أَنصَارِيٓ﴾ و ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾:

الإضافتانِ مَعنويّتانِ، وللاختصاصِ والحصرِ مُحقَّقتان

وقعَ في قولِه تعالى: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ إضافتانِ؛ أمّا الأولى؛ فهي إضافةٌ معنويَّةٌ على معنى (اللّام) للاختصاصِ، وأمّا الثّانيةُ؛ فقيلَ: هي إضافةٌ لفظيَّةٌ للتَّخفيف؛ لأنَّها من إضافةِ الفاعلِ إلى مفعولِه، قالَ الزَّمخشريُّ: "وإضافةُ ﴿أَنصَارِيٓ﴾ خلافُ إضافةِ ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، فإنَّ معنى: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾: نحنُ الّذينَ يَنصرونَ اللّهَ، ومعنى ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ﴾: مَن الأنصارُ الَّذين يختصّون بي، ويكونونَ معي في نُصرةِ اللّه؟"[2]، والَّذي يتبيَّنُ أنَّ الإضافتينِ للاختصاصِ؛ لأنَّ الحواريّين خُلَّصُ أصحابِه المُؤمنين، فالإضافةُ من إضافةِ الماضي إلى معمولِه، وهي للتَّعريفِ لا لمُجرَّدِ التَّخفيف، فقد أقرّوا بما كانوا عليه، والغرضُ من إقرارهم معرفةُ مواقفِ الإسرائيليّين.

دلالةُ الاستعارةِ التَّبعيّةِ في ﴿إِلَى﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿إِلَى﴾، في قولِه تعالى: ﴿مَنۡ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 532.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 528.

استمرارُ النُّصرة بلا تَعَبٍ ولا مِنَّة

﴿أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ للدَّلالة على الانتهاء، فأضفى للنُّصرةِ المتعلِّق بها حركةً متوجِّهة إلى الله تعالى، فكأنَّه قالَ: (مَن ينصُرني، وتكون حركةُ نُصرتِه متوجِّهةً إلى الله ومستمرَّةً بلا توقُّفٍ ولا تعبٍ؟)، فالانتهاءُ مجازيٌّ، وهو استعارةٌ تبعيَّةٌ بالحرف، عبَّرَ عنها ابنُ عاشور بقوله: "شُبِّهَ دُعاؤُهُم إلى الدِّين وتَعْليمُهُمُ النّاسَ ما يَرْضاهُ اللّٰهُ لَهُمْ بِسَعْيِ ساعينَ إلَى الله لِيَنْصُروهُ؛ كَما يَسْعَى المُسْتَنْجَدُ بِهِمْ إلَى مَكانِ مُسْتَنْجِدِهِمْ؛ لِيَنْصُروهُ على مَنْ غَلَبَه؛ ففي حَرْفِ (إلَى) استِعارَةٌ تَبَعيَّةٌ"[1]، وتكونُ الجملةُ الاستفهاميَّةُ بأكملِها كنايةً عن مُلازمةِ النُّصرة إلى أعلى غاياتها وأقصى نهاياتها، فهي لا تتوقَّفُ في نُصرتِها.

نُكْتَةُ وضعِ الظّاهر موضِعَ المُضمَر ﴿ٱللَّهِۖ﴾:

التَّأخُّرُ النَّظميُّ وعلاقتُهُ بالتَّقدُّمِ اللَّفظيِّ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالاسم الجليل ظاهِرًا في قولِه تعالى: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾، ولم يقل: (من أنصاري إليه)؛ لأنَّ قولَ المُشبَّه به متقدِّمٌ لفظًا على قولِ المشبَّه، وإنْ كانَ قولُ المشبَّه متقدِّمًا نظمًا وترتيبًا على قولِ المشبَّه به، فيكون تصريحُ عيسى عليه السلام بالاسم الجليل أصلًا، والتَّصريحُ به في قولِ المشبَّه استنانًا واقتداءً بقولِ عيسى لهم، فقد ضارعَ قولُ النَّبيِّ ﷺ في طلبِ النُّصرةِ من المؤمنينَ، لفظَ المسيحِ في طلبِ النُّصرةِ إلى الله من الحواريّين، فلبَّى الحواريّونَ، ولبَّى الأصحابُ الكرام، وتفرَّقَ شأنُ السّامعين المقصودينَ بالخطابِ من الإسرائيليّينَ إلى فرقتين.

دلالةُ فعلِ القولِ ماضيًا ﴿قَالَ﴾:

تحريضُ الإسرائيليّين للاقتداءِ بالمُؤمنين في الحالتين

استعملَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ الماضي في جوابِ الحواريّين لسُؤالِ عيسى لهُم، في قوله: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾؛ للدَّلالةِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 201.

على تحقُّقِ القولِ منهم ووُقوعِه على سبيلِ القَطْعِ بالحُصول، وفي ذلك تحريضٌ للمُخاطَبين من المؤمنينَ أن يَستجيبوا لقولِ المشبَّه، وتلبيةِ الأصحابِ الكرام كما استجابَ الحواريّونَ لقولِ المشبَّه بهِ، ومن ثمَّ جعلَ ابنُ عاشور الفعلَ الماضيَ ﴿قَالَ﴾ جزءَ المشبَّه به الثّاني، فيكونُ التَّشبيهُ لقولِ النَّبيِّ ﷺ للمؤمنينَ بقولِ عيسى للحواريّين وجوابِ الحواريّين لهُ معًا؛ حتى يقتديَ بِهِم الإسرائيليّون.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾:

خُلَّصُ المؤمنين أعرقُ في طاعةِ المرُسَلين

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ (الحواريّين)، في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾؛ للدَّلالة على الاستغراق؛ إذ أجابَ جميعُ الحواريين بالجوابِ ذاتِه بلا استثناء، أو أنَّ (أل) للعهد، فيكونُ دالًّا على الشُّمول لهم أيضًا؛ إذ سُؤالُه للحواريّين وجوابُهم له بنفسِ اللَّفظ دالٌّ على التَّعميم، وإلّا قال: (بعضُ الحواريّين)، ويمكنُ أنْ تكونَ (أل) موصولةً بعدَ جعلِ ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ بمعنى: خُلَّص المُؤمنين، فيكون الوصفُ دالًّا على تعليلِ إجابتهم الجماعيَّة بالطّاعةِ والقَبول.

الحواريّونَ بينَ الوصفيّةِ والعلَميَّة:

جوابُ الفريقين يُحقِّقُ رِضا الرَّسولَين

يحتملُ لفظُ (الحواريّين) في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ الوصفيَّةَ بمعنى خُلَّص المُؤمنين، فيكونُ صادقًا بأصحابِ النَّبيِّ ﷺ وأصحابِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ بناءً على أنَّ قولَ عيسى لهم: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ مُرادٌ به التَّقريرُ، فيكونُ بمنزلة الأمرِ إلى الاعتراف، فيشتركُ معَ أمرِ النَّبيِّ للمُؤمنين: ﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، فأجابَ كلا المُخاطَبَين بذلك القولِ، ويَحتملُ أنْ يكونَ خاصًّا بأصحابِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فيكونَ علَمًا عليهم لا يصدُقُ على غيرِهم.

دلالةُ وضعِ الظّاهرِ موضِعَ المُضمَر ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾:

وضعَ النَّظمُ الكريمُ الظّاهرَ موضِعَ المُضمَر، في قولِه تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾؛

إذِ الأصلُ أن يكونَ النَّظمُ: (قالوا)، لكنْ تُركَ المُضمَرُ الَّذي هو الأصلُ، ووُضِعَ الظّاهرُ مَوضِعَهُ؛ للدَّلالةِ على التَّعريضِ بالمؤمنين الذين ينبغي أنْ يُجمِعوا على القولِ نفسِه، كما أجمعَ الحواريّونَ على النُّصرة والتَّأييد، ولإفادةِ العلّيَّة؛ إذ مقولُهم التَّأييديُّ والنّاصرُ لدينِ اللّه؛ لأنَّهم خُلَّصُ المؤمنينَ وأكملُ أصحابِ عيسى عليه السلام.

التَّعريضُ والتَّعليل وراءَ العُدولِ في التَّنزيل

دلالةُ استعمالِ الضَّميرِ ﴿نَحۡنُ﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ ضميرَ الجمعِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾؛ للدَّلالة على التَّعيينِ والتَّعريفِ بأعرفِ المعارفِ، وبالضَّميرِ الموضوعِ للمتكلِّمين بغيةَ كمالِ التَّمييز؛ وللدلالة على التَّنصيصِ على ذَواتهم وأنفسِهم بكلِّ إصرارٍ وحَماس.

دلالـةُ التَّحديدِ والتَّعيين لإظهارِ عُمْقِ الإخلاص في الدّين

دلالةُ مُخالفةِ الجوابِ لظاهِرِ السُّؤال:

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن جوابِ الحواريّينَ بقولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، مع أنَّ سؤالَ عيسى لهم وتقريرَهُ إيّاهُم كانَ بلفظِ: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؛ فلم يقولوا له: (نحن أنصاركَ إلى اللّه)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الغرضَ من سُؤالِه لهم ليس طلبَ النُّصرةِ له إلى اللّه، بل النُّصرة للّه ودينِه، ففَهِموا حقيقةَ السُّؤالِ، وأدركوا أنَّه يريدُ ذلك، فأجابوهُ عمّا أرادَ سُؤالَهم عنهُ في الحقيقة، ومن ثمَّ قالَ الزَّمخشريُّ: "يجبُ أنْ يكونَ معناه مُطابِقًا لجوابِ الحواريّين: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، والَّذي يُطابِقُهُ أنْ يكون المعنى: (مَن جُندي مُتوجِّهًا إلى نُصرةِ اللّه)، وأوضحَهُ الهرريُّ بقولِه: "لا وجهَ لبقاءِ قولِ عيسى على ظاهرِه؛ لأنَّ النُّصرةَ لا تتعدَّى بـ(إلى)، فحملَ الأنصارَ في سُؤالِه على (الجُند)؛ لأنَّهم ينصرونَ مَلِكَهم، ويُعينونَهُ في مُرادِه، ومُرادُهُ عليه السلام نصرةُ دينِ اللّه، فسألَ مَن يتبعُهُ، ويُعينُهُ في ذلك المراد، ويُشارِكُهُ فيه"[1].

مُخالفةُ الظّاهر لموافقةِ السَّرائِر

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 267.

دلالةُ تعريفِ الطَّرفينِ ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ معَ الإضافةِ:

الرَّدُّ على توهُّمِ البعضيَّة بإثباتِ الكلّيَّة

عرَّفَ النَّظمُ الكريمُ طرفَي الإسنادِ، في قولِه تعالى: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾؛ للدَّلالةِ على الحَصْرِ والقَصْرِ، وهو حصرٌ ادعائيٌّ من قصرِ الصِّفة على الموصوفِ، قصرَ التَّعيينِ الدّالَّ على الاستغراقِ؛ إذ يظهرُ من سُؤال عيسى عليه السلام لهم أنَّه يتحقَّقُ في بعضٍ منهم دونَ بعض، فعيَّنوا الكلَّ، وحَصروا النُّصرةَ في الجميعِ، قال ابنُ عاشور: "فَفي حِكايَةِ جَوابِ الحَوارِيّينَ هُنا خُصوصيَّةُ صيغَةِ القَصْرِ بِتَعريفِ المُسنَدِ إليَه والمُسنَدِ، وخُصوصيَّةُ التَّعْرِيفِ بِالإضافَةِ، فَكانَ إيجازًا في حِكايَةِ جَوابِهِم بِأنَّهُم أجابوا بِالانتِداب إلَى نَصْرِ الرَّسولِ، وبِجَعْلِ أنْفُسِهِم مَحقوقِينَ بِهَذا النَّصرِ؛ لأنَّهُم مَحَّضوا أنْفُسَهُمْ لِنَصْرِ الدّينِ، وعُرِفوا بِذَلِكَ، وبِحَصْرِ نَصْرِ الدّينِ فيهِم حَصْرًا يُفيدُ المُبالَغَةَ في تَمَحُّضِهِمْ لَهُ، حَتَّى كَأنَّهُ لا ناصِرَ لِلدّينِ غَيْرُهُم مَعَ قِلَّتِهِم، وإفادتُهُ التَّعْريضَ بِكُفْرِ بَقيَّةِ قَومِهِم من بَنِي إسرائيلَ"[1].

وضعُ الظّاهرِ موضِعَ المُضمَرِ في ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾:

الاستغناءُ عنِ الآخرينَ بالاستنادِ إلى مَن بيدِه الخير

أظهرَ النَّظمُ الجليلُ اسمَ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، ولم يقولوا: (نحنُ أنصارُهُ)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لا يَحتاجونَ إلى تدريبٍ يسيرٍ ولا نظرٍ إلى غيرٍ؛ لاستحضارِهم جميعَ ما يَقدِرُ عليه الآدميُّ من صفاتِ جلالِه وجمالِه وكمالِه، ولذلك أظهَروا، ولم يُضمِروا[2].

إظهارُ جوابِ الحواريّين دونَ جوابِ مُخاطَبي النَّبيِّ الكريم:

تحديدُ المُخاطَبين سببٌ للإظهارِ والإخفاءِ عندَ المُؤَوِّلين

أظهرَ النَّظمُ الجليلُ جوابَ الحواريّين، في قولِه: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، وأخفى جوابَ الَّذين خاطبَهم النَّبيُّ ﷺ بشعارِ الإيمانِ طالبًا منهم الامتثالَ للأمرِ، وعلَّل الرّازيُّ ذلك بقولِه: "أَصْحابُ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 202.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 41.

عيسَى قالوا: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، وأصْحابُ مُحَمَّدٍ لم يَقولوا هَكَذا، نَقولُ: خِطابُ عيسَى عليه السلام بِطَريقِ السُّؤالِ، فالجَوابُ لازِمٌ، وخِطابُ مُحَمَّدٍ ﷺ بِطَريقِ الإلزامِ، فالجَوابُ غَيرُ لازِمٍ، بَلِ اللّازِمُ هو امتِثالُ هَذا الأمرِ"[1].

دلالةُ العطفِ بالفاءِ ﴿فَـَٔامَنَت﴾:

تفرُّعُ الانقسامِ بعدَ مَجيءِ النَّصرانيَّةِ والإسلامِ

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاء)، في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالة على التَّفريعِ والتَّسبُّبِ والتَّعقيب، والغرضُ بيانُ موقفِ الإسرائيليّين من دَعوةِ عيسى عليه السلام؛ إذ تفرَّعَ عن إعلانِهم مُناصرةَ دعوةِ اللّٰهِ ورسولِه ودينِه إيمانُ طائفةٍ من الإسرائيليّين، ممّا يدلُّ على أنَّهم قالوا ذلك، وعَملوا بموجِبه، فتوجَّهوا دُعاةً ومُبشِّرينَ بدَعوةِ عيسى عليه السلام، قال ابنُ عاشور: "وفُرِّعَ على قَوْلِ الحَواريّينَ ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ﴾ الإخبارُ بأنَّ بَني إسرائيلَ افترَقوا طائِفَتَين؛ طائِفَةٌ آمَنَت بِعيسَى وما جاءَ بِه، وطائِفَةٌ كفرت بذلك، وهَذا التَّفريعُ يَقتَضي كَلامًا مُقَدَّرًا، وهو: فَنَصَروا اللّٰهَ بِالدَّعوةِ والمُصابَرَةِ عليها، فاستَجابَ بَعضُ بَني إسرائيلَ، وكفرَ بعضٌ"[2]، فالفاءُ التَّفريعيَّة على هذا أيضًا مُفصِحةٌ عن محذوفٍ.

دلالةُ الفعلِ (آمنت) مادّةً وصيغةً:

على يهودِ زمنِ النُّزولِ أنْ يَقتفوا أثَرَ الرَّسولِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ الماضي، في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ والحُصول، وأنَّ الإيمان صدرَ منهم على سبيل القطعِ، وفعلُ الإيمانِ يدلُّ على التَّصديقِ القلبيِّ الجازمِ بصِدقِ دَعوةِ عيسى عليه السلام، والثِّقةِ بأنَّه الرَّسولُ الذي بشَّرتْ به التَّوراة، وفيه تعريضٌ باليهود زمنَ نزولِ القرآن أن يَقتفوا أثَرَ تلك الطّائفةِ التي نَصَرت دينَ اللّٰه، واعتقدَتْ به.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 533.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 202.

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿طَآئِفَةٌ﴾ المؤمنين:

العِبرةُ بالإيمان لا بالعددِ الكثيرِ معَ الكُفران

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ الطّائفةَ الواردةَ في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالةِ على القِلَّةِ العدديَّة والضَّعف النَّوعيِّ؛ بدلالة ما سيأتي مِن قولِه: ﴿فَأَيَّدۡنَا﴾؛ إذِ التَّأييدُ كما يكونُ للقليلِ يكون للكثير، لكنَّ الظّاهرَ بمعونةِ المقام والواقعِ أنَّه يكون للقِلَّةِ حتّى تغلبَ الكثرةَ بطريقِ جريانِ العادةِ.

دلالةُ الوصْفِ بشبه الجُملة ﴿مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

إيمانُ الإسرائيليّين دليلُ صِدقِ المُرسَلين

نعتَ النَّظمُ الكريمُ (الطّائفة) المؤمنة المُنكَّرةَ بالجارِّ والمجرورِ في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ للدَّلالة على تقييدِ تلك الطّائفةِ وتخصيصِها ببيانِ أصلِها وانتمائِها، والغرضُ من بيانِ الانتماء التَّعريفُ والتَّنويهُ بشأنِها في جانبِ الإيمان؛ إذ هي سليلةُ الأنبياءِ والمُرسَلين، فيليقُ الإيمانُ بها، وأنَّ ذلك الإيمانَ جاءَ عن معرفةٍ يقينيَّةٍ بصدقِ عيسى عليه السلام، ودعوته إلى الله تعالى.

سرُّ الإضافة في ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾:

البنوَّةُ لإسرائيلَ تحتِّمُ التَّصديقَ بالنَّبيِّ والتَّنزيل

أضافَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿بَنِيٓ﴾ إلى ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ لتعريفِ البنينَ وتعيينِهم، والغرضُ من تلك الإضافةِ تعليلُ ذلك الإيمان، وكأنَّ البُنوَّةَ لإسرائيلَ دَفَعَتْهُم إلى الاعتقاد بصِدقِ عيسى عليه السلام ودعوتِه، ولذا لم يذكر هذه البُنوَّةَ مع الفريقِ الذي اختارَ الكُفر.

إيثارُ العَلَم ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على اسمِ الجنسِ (يهود):

التَّعبيرُ بالعَلَم الجليل دعوةٌ للتَّأنيس بالثَّناءِ الجَميل

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ عن اليهودِ بأنَّهم يَنتمون إلى ﴿إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ لأنَّ اليهوديَّةَ بدأتْ بموسى عليه السلام، فحرَصَ النَّظمُ الكريمُ على ذِكرِ جَدِّهم الأعلى (يعقوب)؛ تنويهًا بهم وتقديرًا لشأنِهم، ودَفْعًا لليهودِ أن يُؤمنوا من خلال تذكيرِهم بجَدِّهم الأعلى، ومكانتِه بينَ الرُّسُل والأنبياء عليهم السلام.

دلالةُ العَطفِ في ﴿وَكَفَرَت﴾:

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الواو)، في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾؛ للدَّلالةِ على الارتباطِ والجمعِ بينَ الموقفينِ والقرارينِ المُتفرِّعينِ عن قولِ الحواريينَ: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، وهذا التَّمزُّقُ في القرارِ وعدمِ الانخراطِ الجماعيِّ في الإيمانِ أدَّى إلى تشرذمِ اليهودِ بعدَ عيسى عليه السلام.

تفرُّعُ الإيمانِ والكُفرانِ أضعفَ اليهودَ إلى آخرِ الزَّمان

دلالةُ التَّنكيرِ في ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ الكافرة:

نكَّرَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ ﴿طَّآئِفَةٌ﴾ الكافرة، في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّكثيرِ في الكمِّ والقوَّةِ في النَّوعِ بقرينةِ السّياقِ، ولكنَّهم مع كثرتِهم تمزَّقوا، وتشرَّدوا في أصقاعِ الأرضِ.

كثرةُ الكُفرانِ موجبةٌ للتَّشرُّدِ والبُطلانِ

حذفُ مُتعلِّقِ الإيمانِ والكُفرانِ:

حذفَ النَّظمُ الكريمُ متعلِّقَ الإيمانِ والكفرانِ، في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾، والظّاهرُ من السّياقِ الإيمانُ بنبوَّتِه ورسالتِه وصدقِه وعدمِ اتِّهامِه بالكذبِ واتِّهامِ أُمِّه بالزِّنى، وبتحديدِ هذا المتعلِّقِ يكونُ تأييدُهم على عدوِّهم، وظهورُهم عليهم بالتَّصديقِ، وإنْ كان هذا التَّصديقُ قد انحرفَ فيما بعدُ إلى تأليهٍ وإشراكٍ، فإنَّ المُصدِّقينَ بعيسى أُيِّدُوا بالانتصارِ على الإسرائيليّينَ المُكذِّبينَ، وإنِ انحرفوا، وغَلَوا فيه، فضَلّوا، وهذا أفضلُ من قولِ جمهورِ المفسِّرينَ أنَّ المتعلِّقَ هو بعبوديَّتِه وبشريَّتِه[1].

الإيمانُ بصدقِ النَّبيّينَ مُنْجٍ من الخُسرانِ المُبين

دلالةُ تقديمِ طائفةِ الإيمانِ على الكُفرانِ:

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ في التَّفريعِ طائفةَ المُؤمنينَ على طائفةِ الكافرينَ، في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّشريفِ والتَّكريمِ، ولحضِّ المُخاطَبينَ في زمنِ النُّزولِ على الإيمانِ بعد التَّنويه بشَرَفِ أهلِ الإيمانِ وكرامتِهم، على

تشريفُ المؤمنين حضٌّ للمخاطَبين

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 367، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 441، والحنبليّ، فتح الرّحمن: 7/ 47.

حَقارةِ أهلِ الكُفر ومَهانتِهم؛ ليتشجَّعوا على الإيمانِ برَسولِ اللّه ﷺ، ولا يَكفُروا به.

دلالةُ الطِّباقِ التَّركيبيِّ:

التَّبايُنُ التّامُّ بينَ أهلِ الكُفرِ والإسلام

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالطِّباق التَّركيبيِّ، في قولِه تعالى: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾؛ للدَّلالة على تباينِ الموقفينِ وتقاطُعِ الفريقينِ تقاطُعًا تامًّا، فالطِّباقُ كما وقعَ بينَ فِعلَيِ الإيمانِ والكُفر؛ وقعَ بينَ الطّائفتينِ المُؤمنةِ والكافِرة، وهو يَرسُمُ صورةً لأعلى درجاتِ التَّفرُّق والتَّبايُنِ بينَ أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطِل.

دلالةُ العطفِ بالفاءِ في ﴿فَأَيَّدۡنَا﴾:

سُنَّةُ الله تأييدُ المؤمنينَ وتخسيرُ الكافرين

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاء)، في قولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّفريعِ والتَّعقيبِ والتَّسبُّب، وهنالك دلالةُ السُّرعةِ في تأييدِ المؤمنينَ تفيدُها الفاءُ، والغرضُ من العطفِ: تثبيتُ أهلِ الإيمان بأنَّ التَّسديدَ من اللّه لهُم، وحثُّ أهلِ الكُفر على المُجانبةِ له؛ لأنَّ التَّخسيرَ منَ اللّه عليهِم، قال ابن عاشور: "والمَقصودُ من قولِه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ التَّوطئَةُ لقَولِه: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾"(1)، فهذه الجملةُ محطُّ الإخبارِ ومصَبُّ الاهتمام.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿فَأَيَّدۡنَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّأييدُ تقويَةٌ وضِدُّهُ تضعيفٌ وتوهية

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بفعلِ (التَّأييد) ماضيًا في قولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على حصولِ ذلك التَّأييدِ وتحقُّقِ وُقوعِه، ومادَّةُ التَّأييدِ مشتقَّةٌ من (الأيْد) بمعنى القوَّة، فيكونُ المعنى: قوَّينا الَّذين آمنوا، وذلك دليلٌ على أنَّ طائفةَ المؤمنين كانوا قليلي العُدَّة والعَدد مع ضعفٍ، فأدركَتْهُم التَّقويةُ الإلهيَّة، وأدركَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 203.

مُخالفيهم بدلالةِ المفهوم التَّضعيفُ والتَّوهينُ، قال ابنُ عاشور: "والمَقْصودُ من هَذا الخَبَرِ وعْدُ المُسْلِمينَ الّذينَ أُمِروا أن يَكونوا أنصارًا للّه بِأنَّ اللّهَ مُؤَيِّدُهُم على عَدوِّهِم"(1)، وأسْنَدَ النَّظمُ الكريمُ الفعلَ إلى ضميرِ المتكلِّمين جمعًا؛ للدَّلالةِ على التَّفخيم والتَّعظيم، وهذا التَّعظيمُ للفاعلِ القديرِ يُؤدّي إلى تقويةٍ في الفعلِ فوقَ قوَّتِه، بصيغةِ التَّفعيلِ الدّالَّةِ على المبالغةِ والكَثرةِ.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

حصولُ التَّأييد بسببِ الإيمانِ الشَّديد

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عن المفعولِ به بالاسمِ الموصولِ، في قولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على العُموم والتَّفخيم، كما يدلُّ الموصولُ بصلتِه على تعليلِ ذلك التَّأييد؛ إذ وقوعُ التَّأييد لمُسارعتِهم إلى الإيمانِ، قال ابنُ عاشور: "وإنَّما قالَ: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولم يَقلْ: (فَأيَّدْناهُمْ)؛ لأنَّ التَّأْييدَ كانَ لِمَجموعِ المُؤْمنينَ بِعيسَى لا لِكُلِّ فَرْدٍ منهُم؛ إذ قَد قُتِلَ مِن أتباعِه خَلْقٌ كَثيرٌ، والحُكْمُ على المَجْموعِ في مِثْلِ هَذا شائِعٌ، كَما تقولُ: (نَصَرَ اللّهُ المُسْلِمينَ يَومَ بَدرٍ)، مَعَ أنَّ مِنهُم مَن قُتِلَ"(2).

دلالةُ جملةِ الصِّلة ﴿ءَامَنُواْ﴾ ماضيًا:

الحثُّ على الإيمانِ لنيلِ تأييدِ الرَّحمن

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بجملةِ الصِّلة فعلًا ماضيًا، في قولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإيمان في قلوبِهم، ووقوعِ ذلك على سبيلِ القَطْع، وأفادَ فعلُ التَّصديقِ والإيمان الحثَّ والتَّحضيضَ للمخاطَبين على أن ينضَمّوا إلى قافلةِ المؤمنين، حتّى تُدرِكَهم رحمةُ التَّأييد، وتَصحبَهُم قوَّةُ التَّسديد.

وضعُ الظّاهرِ موضِعَ المُضمَر ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

وضعَ النَّظمُ الكريمُ الظّاهر بدلَ المُضمَرِ، في قولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدۡنَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 203.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولم يقُل: (فأيَّدناهُم)؛ للدَّلالة على علَّةِ التَّأييدِ والتَّقويةِ، وللانتقالِ إلى أنَّ عَداوةَ الكافرينَ لهم بسببِ الإيمانِ والتَّصديق، فتكونُ العِلَّةُ لطرفَي الكلام، أعني: (التَّأييدَ والعَداوةَ)، قال ابنُ عادل: "إيقاعُ الظّاهر موقعَ المضمَر مُبهَمًا؛ تنبيهًا على عداوةِ الكافرِ للمُؤمن؛ إذ الأصلُ: (فأيَّدناهُم عليهم)، أي: أيَّدنا المؤمنينَ على الكافرينَ"(1).

التَّعليلُ للتَّأييدِ والعَداوة، كاشِفٌ عن وجه الغَرابة

دلالةُ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ في ﴿عَلَىٰ﴾:

استعملَ النَّظمُ الكريمُ حرفَ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستعلاءِ المجازيِّ للمؤيِّدين على الأعداءِ، ففي الحرف ﴿عَلَىٰ﴾ استعارةٌ تبعيَّةٌ، فقد شبَّه تفوُّقَهم المعنويَّ على عدوِّهم بجسمٍ يَستعلي على آخَرَ.

التَّفوُّق المعنويُّ كالاستعلاءِ الحقيقيِّ

دلالةُ العُدولِ عن (الَّذين كفروا) إلى ﴿عَدُوِّهِمْ﴾:

عدلَ النَّظمُ الكريمُ عن التَّعبيرِ عن الكُفّار بـ(الَّذين كفروا)، كما عبَّر عن المؤمنينَ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾، فعبَّر عنهم بلفظ العداوة ﴿عَدُوِّهِمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ التَّأييدَ في القتال والحرب لم يكُن لكُفرهِم فحسبُ، بل لأنَّهم انتَقَلوا إلى إظهارِ العَداوة والمُحاربة للمُؤمنين، فصاروا بسببِ إيمانِهم أعداءً لهم، فيكونُ العدولُ عن (الذين كفروا) إلى ﴿عَدُوِّهِمْ﴾؛ لبيانِ علَّةِ التَّأييد لهم في قتالِ الكفّار، وهي العداوةُ الَّتي صارتْ مَنهجًا في التَّعامُلِ معَ المؤمنين، قال الهرريُّ: "فإيرادُ (العدوِّ) إعلامٌ منه أنَّ الكافرينَ عدوٌّ للمُؤمنين عداوةً دينيَّةً"(2).

تعليلُ التَّأييدِ بالعَداوة لعِنادِهم بلا هَوادَة

دلالةُ الإضافةِ في ﴿عَدُوِّهِمْ﴾:

أضافَ النَّظمُ الكريمُ (العدوَّ) إلى ضميرِ الغائبِ العائدِ إلى

العَداوةُ في الدّين موجِبةٌ للدِّفاعِ عن الحقِّ المُبين

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 19/ 67.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 29/ 268.

جماعةِ المؤمنينَ، في قولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾؛ للدَّلالة على التَّعريفِ والتَّعيين؛ إذ بمُجرَّدِ إيمانِهم صاروا لهم أعداءً حتَّى اختصّوا بعَداوتِهم، وعُرِفوا بها.

دلالةُ (الفاء) في ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾:

تفرُّعُ الغلَبةِ بالحُجَّةِ والبُرهانِ والسَّيفِ والسِّنان

عطفَ النَّظمُ الكريمُ بـ(الفاءِ)، في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على التَّفريعِ والتَّعقيبِ والتَّسبُّبِ؛ إذ نجمَ عن تأييد المؤمنينَ ظهورُهم على عدوِّهم وغلبتِهم لهم بالحُجَّة والبُرهان، كغَلَبَتِهم لهم بالسَّيف والسِّنان.

دلالةُ الفعلِ الماضي (أصبحَ) على الاستعارة:

التَّحوُّلُ للمَنَعة وقعَ بكلِّ سُرْعَة

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بالفعلِ النّاقص (أصبحَ)، في قولِه تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الصَّيرورةِ والانتقالِ من حالِ القِلَّةِ والضَّعف إلى حالِ الكثرةِ والقوَّة، وعلى القطع بالوقوع الانتقاليِّ من صورِ الضَّعف إلى صور التَّمكينِ والعِزَّة، وإنَّما عبَّر عن الصَّيرورةِ بالفعلِ (أصبحَ)؛ للدَّلالةِ على المُسارعةِ في عمليَّةِ التَّحوُّل؛ إذِ الفعلُ (أصبحَ) يدلُّ على حصولِ الشَّيءِ أوَّلَ النَّهار، فيكونُ مستعارًا للصَّيرورة السَّريعة استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً.

دلالةُ الكنايةِ في المُسنَدِ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾:

الاستعلاءُ على الظُّهور غلبةٌ بلا غُرور

أخبرَ النَّظمُ الكريمُ عن ضميرِ الجمع (الواو) بلفظِ ﴿ظَٰهِرِينَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾؛ للدَّلالة على الاستعلاءِ والغَلَبة؛ إذِ الظّاهرُ مأخوذٌ منَ (الظَّهر)، وهو الموضعُ من الجسم الذي يدلُّ على القوَّةِ والتَّحمُّلِ ورفعِ الأشياء، قال ابن عاشور: "والظّاهِرُ: هو الغالِبُ، يُقالُ: ظَهَرَ عليه، أي: غَلَبَهُ، وظَهَرَ بِهِ، أي: غَلَبَ بِسَبَبِه، أي: بِإِعانَتِهِ، وأَصْلُ فِعْلِه مُشتَقٌّ مِنَ الاسم الجامِدِ، وهو: (الظَّهْرُ)، الَّذي هو العَمودُ الوسَطُ من جَسَدِ الإنسانِ والدَّوابِّ؛ لِأَنَّ بِالظَّهْرِ

قوَّةَ الحيَوانِ"(1)، فيكونُ الظّاهر عليهم قدِ ارتقى، واستعلَى على ظُهورِهم، فيكونونَ بارزينَ للعيانِ؛ إذِ الصّاعدُ على الظَّهرِ بارزٌ للعيان، ويُؤخَذُ من مفهوم البُروزِ التَّفوُّقُ والغلَبة والتَّمكُّن، فيكونُ اللَّفظُ به كنايةً عن ذلك، "فمَعنَى ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ أنَّهُم مَنْصورونَ؛ لأنَّ عاقِبَةَ النَّصرِ كانَتْ لَهُم، فتَمَكَّنوا مِنَ الحُكْمِ في اليَهودِ الكافِرينَ بعيسَى، ومَزَّقوهُم كُلَّ مُمَزَّقٍ"(2).

المتشابه اللَّفظيُّ:

اختلافُ المَقامَين مُقتضٍ لاختلافِ الكلامَين

ناقشَ ابنُ عاشورٍ قضيَّةَ المُتشابه اللَّفظيِّ بينَ ما وردَ هنا، من قولِه تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، وما وردَ في سورةِ (آل عمران)، من قولِه تعالى: ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾ [آل عمران: 52]، فقال: "واعْلم أنَّ مَقالَةَ عيسَى عليه السلام المَحكيَّةَ في هَذِه الآيَةِ غَيْرُ مَقالَتِه المَحكيَّةِ في آيَةِ (آلِ عِمْرانَ)؛ فَإنَّ تِلْكَ موجَّهَةٌ إلَى جَماعَةِ بَني إسرائيلَ الَّذينَ أحَسَّ مِنهُمُ الكُفْرَ؛ لَمّا دَعاهُم إلَى الإيمانِ بِهِ، وأمّا مَقالَتُهُ المَحكيَّةُ هُنا؛ فَهيَ موجَّهَةٌ لِلَّذينَ آمَنوا به طالِبًا مِنهُم نُصرَتَهُ؛ لِقَوْلِه تَعالَى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الآيَةَ، فَلِذَلِكَ تَعَيَّنَ اختِلافُ مُقْتَضَى الكَلامَيْنِ المُتَماثِلَيْن، وعلى حَسَبِ اختِلافِ المَقامَيْن يُجرَى اختِلافُ اعتِبارِ الخُصوصيّاتِ في الكَلامَيْن، وإن كانا مُتَشابِهَيْن؛ فَقَد جَعَلْنا هُنالِكَ إضافَةَ ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52] إضافَةً لَفْظيَّةً، وبِذَلِكَ لم يَكُنْ قَولُهُم: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 52] مُفيدًا لِلقَصْرِ؛ لانعِدامِ تَعْريفِ المُسْنَدِ، فَأمّا هُنا؛ فالأظهَرُ أنَّ كَلِمَةَ: ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾، اعتُبِرَتْ لَقَبًا لِلحَواريّين، عَرَّفوا أنفُسَهُم به، وخَلَعوهُ على أنفُسِهِم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 203.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 204.

فَلِذَلِكَ أرادوا الاستدلالَ به على أنَّهُم أحَقُّ النّاسِ بِتَحقيقِ مَعناهُ، ولِذَلِكَ تَكونُ إضافَةُ ﴿أَنصَارُ﴾ إلَى اسمِ الجَلالَةِ هُنا إضافَةً مَعنَوِيَّةً مُفيدَةً تَعريفًا، فَصارَتْ جُمْلَةُ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ هُنا مُشتَمِلَةً على صيغَةِ قَصْرٍ، على خِلافِ نَظيرَتِها الَّتي في سورَةِ آلِ عِمرانَ"[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفئةُ والطّائفة:

الفئةُ أصالةً: الجماعةُ العائِدةُ، والطّائفةُ أصالةً: الجَماعةُ الحائِمَةُ

تُطلَقُ (الفئة والطّائفةُ) على الجماعةِ والعُصْبة والحِزْب، لكن بالرجوعِ إلى المعنى اللُّغويِّ يظهر أنَّ الجماعةَ التي تَرجِعُ بعضُها إلى بعضٍ، أو تعودُ إلى الحقِّ يقالُ لها: (فئةٌ)؛ لأنَّها مأخوذةٌ من الفعلِ (فاءَ)، أي: رجعَ بعدَ عَزْم، فتكونُ الفئةُ الجماعةَ الّتي تفيءُ، وترجعُ بعدَ إقبال وإقدام، وأمّا (الطّائفة)؛ فهي من الطّواف والدَّورانِ والحَوم حولَ المكانِ، فتكونُ الطّائفةُ عبارةً عن الجماعةِ التي تطوفُ بالمكان، قال البقاعيُّ: "أي: ناسٌ فيهم أهليَّةُ الاستدارة؛ لما لَهُم مِنَ الكثرة"[2].

أنصارُ الله وحِزبُ الله:

العلاقةُ بينَ تركيبَي الكلام عُمومٌ وخُصوصٌ وجْهيٌّ أوِ التزامٌ

الأنصارُ المنسوبونَ إلى اللّه قد يَصيرونَ حزبًا يتجمَّعونَ حولَ موقفٍ معيَّن جماعيٍّ، وقد يُمارِسونَ النُّصرةَ من دون ذلك الاجتماع والارتباط المنظَّم، وكذلك الحزبُ المنسوبُ للّه تعالى قد يتكاتفونَ للعَون والغَوث، وقد لا يتحقَّقُ ذلك الأمرُ فيهم، فينشغلونَ بالدَّعوة والنُّصحِ والإبلاغِ، فالظّاهرُ أنَّ العلاقة بينهما العمومُ والخصوصُ الوجهيُّ، وقد يكون بينهما تلازمٌ في الواقع؛ إذ حِزبُ اللّه من لوازمِه الانتصارُ في اللّه، والانتصارُ في اللّه قد يَلزَمُهُ التَّجمُّعُ والارتباطُ في الموقفِ والمنهَج.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 202.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 42.

الصَّحابيُّ والحَواريُّ:

يُطلَقُ (الصَّحابيُّ) لغةً على الصّاحبِ المُلازِم لصاحبِهِ، الدّالِّ لزومًا على الارتباطِ الوثيق والمحبَّةِ القويَّة، واصطلاحًا: على مَن أدركَ النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ، وآمنَ به، وبقي مُستمِرًّا على الإيمان، سواءٌ كانَ مِن خُلَّص المُؤمنين، أو ليسَ كذلك، في حين يُطلَقُ (الحواريّ) - وهي كلمةٌ أعجميَّة في العربيَّة - على عدَّةٍ معانٍ، أبرزُها: الأبيضُ الشَّديدُ البياض، واصطلاحًا: على أصحابِ عيسى عليه السلام مِن خُلَّص أصحابِه المؤمنينَ، فيكونُ (الحواريُّ) أخصَّ مُطلقًا من (الصَّحابيِّ)؛ لاختصاصِ الحواريِّ بالصّاحبِ الخالصِ الإيمانِ.

كُلُّ حواريٍّ صحابيٌّ ولا ينعكِسُ كلّيًّا

(ظاهرينَ) و(غالبينَ):

الظُّهورُ هو بُروزٌ للقويِّ بحيثُ تراهُ العُيون، وهو مأخوذٌ من الظَّهر الَّذي يكون بارزًا صَلْدًا يتحمَّلُ الأثقالَ، فتوضَعُ عليه الأشياءُ، فيَحملُها حتّى تكونَ بارزةً أيضًا عندَ الحَمْل، والحاصلُ: أنَّ الظُّهورَ يُفيدُ البُروزَ، ولا يكونُ بارزًا إلّا المتفوّقُ القويُّ، ومن ثَمَّ يُستعمَلُ الظّاهرُ للغالبِ القويِّ المتفوّق، فكلُّ ظاهرٍ على غيره فهو غالبٌ له، ويكون المغلوبُ كالبطنِ الَّذي لا يَستعلي على الظَّهر، والظّاهرُ قد يكون قليلًا، فيتفوّقُ معنويًّا، ويَبْرُزُ على غيرِه، في حين أنَّ الغَلَبَةَ تدلُّ على الوَفرةِ والكثرةِ في الغالبِ عدديًّا وكمّيًّا، فيختفي المغلوبُ، ويَضمَحِلُّ.

الظّاهر غالبٌ غلبةً معنويَّةً، والغالبُ يكونُ بالغَلبةِ الكمّيَّة

سُورَةُ الجُمُعَةِ

سُورَةُ الجُمُعَةِ

التّعريف العامّ بالسّورة

المكّيُّ والمدنيُّ وعدُّ الآي:

هذه السّورة مدنيّة عند جمهور العلماء كما نقل ذلك ابن عطيّة، حيث قال: "وهي مدنيّة، وذكَرَ النّقّاشُ قولًا: إنّها مكّيّة، وذلك خطأٌ ممّن قاله؛ لأنّ أمر اليهود لم يكن إلا بالمدينة، وكذلك أمر الجمعة لم يكن قطّ بمكّة؛ أعني: إقامتَها وصلاتها، وأمّا أمرُ الانفِضاض فلا مريةَ في كونه بالمدينة"[1]، وإلى مدنيَّتِها ذهب القرطبيّ[2] والسّيوطيّ[3] وأغلب المفسّرين.

وأمّا عددُ آياتها فهي إحدى عشرَة آيةً ليس فيها اختلافٌ باتّفاق أهل العدد[4].

ترتيبُ النّزول وترتيب المصحف:

جـاء ترتيبُها المصحفيُّ بين سورتي الصَّفِّ والمنافقون

هذه السّورةُ هي الثّانية والسّتّون في التّرتيب المصحفيّ الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتِي الصّفّ والمنافقون، وأمّا ترتيبها النّزوليّ فقد اختلفوا فيه، فقيل: هيَ السّوَرَةُ السّادسة والتّسعون في ترتيبِ نُزولِ السّوَرِ، نَزلتْ بعدَ سورةِ الحشر وقبلَ سورةِ الأحزاب[5]، وقيل: بل هي السّادسة بعد المئة، نزلت بعد سورة التّحريم وقبل سورة التّغابن[6]، وقيل غير ذلك.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 306.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 91.
(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 51.
(4) الداني، البيان في عدِّ آي القرآن، ص: 246.
(5) دروزة، التفسير الحديث: 8/ 555.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 205.

فضائلُ السّورة:

قرأها رسول الله ﷺ في صلاة الجمعة

هذه السّورة الكريمة من المفصّل الَّذي قال فيه النبيُّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»(1). وجاء في صحيح مسلم عن ابن عبّاس رضي الله عنه: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَقرَأُ في صَلاةِ الجُمُعَةِ سورَةَ الجُمُعَةِ والمُنافِقينَ»(2)، وجاء في سنن التّرمذيّ: عن عبيد الله بن أبي رافع قال: "اسْتَخْلَفَ مَرْوانُ أبا هُرَيْرَةَ على المَدينَةِ، وخَرَجَ إلَى مَكَّةَ، فَصَلَّى بنا أبو هُرَيْرَةَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَقرَأَ سورَةَ الجُمُعَةِ، وفي السَّجْدَةِ الثّانيَةِ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: 1]، قالَ عُبَيْدُ اللّهِ: فَأدْرَكْتُ أبا هُرَيْرَةَ فَقُلْتُ لَهُ: تَقْرَأُ بِسورَتَيْنِ كانَ عَليٌّ يَقْرَأُ بِهِما بِالكوفَةِ؟ قالَ أبو هُرَيْرَةَ: «إنّي سَمِعْتُ رَسولَ اللّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهِما»"(3).

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ الجمعة اشتُهرت بهذا الاسم، ولم يثبت لها اسمٌ غيرُه

وردت تسميتُها بسورة (الجمعة) في كتب السنة(4)، وبه جاءت تسميتُها في جميع المصاحف وكتب التّفسير، وقد ذكروا أنّ تسميتها بهذا الاسم لورودِ لفظةِ (الجمعة) فيها في قوله: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: 9].

وقد قام البقاعيُّ بالرَّبط بين اسمها ومقصودِها خيرَ ربطٍ فقال: "ومقصودها: بيان أوّل الصّفّ، بدليل الجمعة، الَّتي اسمُها مبيّنٌ للمراد منها، من فَرْضيَّةِ الاجتماع، وإيجاب الإقبال عليها، والتّجرّد

(1) أخرجه أحمد في المسند برقم: (16982)، والطبراني في المعجم: 22/ 76، رقم: (187)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: (2415) 352.
(2) مسلم، صحيح مسلم، باب ما يُقْرَأُ في يَوْمِ الجُمُعَةِ، حديث رقم: (789).
(3) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، بابُ ما جاءَ في القِراءَةِ في صَلاةِ الجُمُعَةِ، حديث رقم: (519)، وقال التِّرمذيّ: حَديثُ أَبي هُرَيْرَةَ حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ.
(4) البخاريّ، صحيح البخاريّ، باب تفسير سورة الجمعة: 4/ 1858، والترمذي، سنن التّرمذيّ، بابٌ وَمِنْ سُورَةِ الجمعة: 5/ 413.

عن غيرها والانقطاع؛ لِما وقع من التّفرُّق حالَ الخُطبة عمّن بُعث للتّزكية، بالاجتماع عليه في الجهاد وغيره، في العسر واليسر، والمنشط والمكره، واسمُها (الجمعة) أنسبُ شيءٍ فيها لهذا المقصد، بتدبُّر آياته، وتأمُّلِ أوائله وغاياته، الحاثّة على قوّة التّواصل والاجتماع، والحاملة على دوام الإقبال على المتزكّي، والحبِّ له والاتّباعِ"[1].

والحقُّ أنَّ ما قاله البقاعي له وجاهته؛ فمحورُ هذه السّورة مرتبطٌ باسمها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنَّ محورَها بلا شكٍّ يرتبطُ بوَحْدة الصّفّ والتّجمّع في صفوف القتال والصّلاة؛ ليكون ذلك أدعى إلى قوَّتهم وتحقيق أهدافهم، ولكنّ الخيطَ النّاظمَ الَّذي يشمل هذا المقصودَ وغيره يتعلَّقُ بتفنيد مزاعمِ اليهود الخاطئة حول كتابهم، وأفضليَّتِهم، ويومِ سَبْتِهمُ الَّذي باهَوا به المسلمين، وسُمِّيت باسم الجمعة؛ لتتناسبَ مع سورة الصّفّ في وقوف المسلمين صفوفًا في الصّلاة، وفي ميادين جهاد الأعداء.

المحور العامّ للسورة:

إذا كان المحورُ العامّ الَّذي نظم آياتِ سورة الصّفّ يقومُ على تقريرِ أنّ الولاءَ للّه، وأنَّ البراءَ من كلّ ما سواه مِن شأنه أن يحقِّقَ وحْدة المسلمين على الصّعيديْنِ الدّاخليّ والخارجيّ، وأن يكونوا صفًّا واحدًا أمام التّحدّيات الَّتي تواجهُهُم فإنَّ محورَ هذه السّورة مرتبطٌ تمامًا بالمحور السّابق، ومتمّمٌ له، ويتبين ذلك من خلال النقاط الآتية:

أوّلًا: يركز محور سورة الجمعة على فضل اللّه ونعمته على المسلمين من خلال إرساله رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الحكمة، مما يمنحهم مكانة خاصة، وفضيلة على باقي الأمم، وهكذا يتجلى التفوق الإسلامي في أن اللّه ﷻ أنعم عليهم بنعمة الرسالة، مانحًا إياهم نور الهدى والعلم.

ثانيًا: تؤكد السورة على أهمية الولاء للّه والبراءة من أعدائه، حيث يذكر يُذكِّر المسلمين بأهمية أن يكونوا صفًّا صفًّا واحدًا في حبّ اللّه، والدفاع عن دينه، وأن يتخلوا عن الانحرافات والأهواء الَّتي تفرقهم، مما يُحقق الوحدة والأمان بين صفوفهم.

ثالثاً: يُبرز المحور فضيلة يوم الجمعة، ويؤكد على أهميته، حيث يدعو المسلمين إلى

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 83 - 84.

محورُ السّورة يقوم على تفنيد مزاعمِ اليهود في تفضيل أنفسهم

الحرص على أداء صلاة الجمعة وعدم التفريط فيها؛ ليكونوا قدوة ويبتعدوا عن سوء الأفعال الَّتي وقع فيها اليهود، فبهذا يتحقق التواصل الروحي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي.

رابعاً: يدعو هذا المحور إلى التحرر من المظاهر الدنيوية، والعوائق الَّتي قد تفرّق بين المسلمين، مثل حب الدنيا والانشغال بالمظاهر، مع التأكيد على أهمية التخلّي عن كل ما يعترض وحدة الصفّ، والاستعلاء بالعبادة والعمل الجماعي، ليظلّ المسلمون متراصين وموحدين في مواجهة التحديات.

موضوعاتُ السّورةِ وخصائصها:

موضوعات السورة تركزت على بيان النقاط الآتية:

مَدارُ السّورة على تفضيلِ الأُمَّة المحمّديّة وردِّ مزاعمِ اليهود

أوَّلًا: تناولت سورة الجمعة موضوع أهمية الصلاة الجماعية، حيث أكدت على أن الصلاة في الجماعة وصلاة الجمعة بشكل خاصّ تعد تُعَدُّ من أهم الوسائل للانتفاع على مستوى الدين والدنيا، وهو موضوع ذكره القرآن الكريم في سور المائدة والتوبة، ولكن بصيغة مختلفة ومتنوعة، إلا أن التركيز على صلاة الجمعة مع ما فيها من الفضائل، وإنذار من أعرض عنها هو جانب فريد يميز السورة، وهو موضوع لم يُسلط عليه بهذه الصورة في سور أخرى.

ثانيًا: أكدت السورة على أن المؤمنين يعمرون الأرض، ويعملون الصالحات، وهذا الجانب متقاطع مع ما ورد في سور مثل الإنسان والملك، ولكن بسياق خاص يتصل بفضيلة الجماعة ودعوة النبي ﷺ، وفيه أيضًا تذكير بأن الله هو المطلع على السرائر والأفعال، وهو موضوع يتكرر في سور متعددة، إلا أن التركيز على أن الله يطلع على الخفيات، ويجازي عليها بشكل مباشر يكتسب طابعًا خاصًاخاصًّا في سورة الجمعة.

ثالثًا: حذرت السورة من الانشغال بالدنيا وملذاتها عن ذكر الله، فهو جزء من رسالة السورة، ويبرز فيها كيف أن الدنيا تلهي عن ذكر الله، وهو جانب يوجد في سور أخرى مثل الكهف والحشر، لكن طريقة التعبير، وأسلوب التحذير في سورة الجمعة يركز على أن الإنسان مسؤول عن نفسه، وألا ينجرف وراء الماديات.

رابعًا: تبرز السورة أن القرآن هو الهدى والرحمة، وأنه سبب العزة والنفع للمؤمنين، وهو موضوع متكرر في العديد من السور، لكن صيغة التأكيد على أن القرآن سبب في الهداية والخير، ومعه الدعوة إلى العمل الصالح بسمات الجماعة، تميزت بشكل خاص في سورة الجمعة، حيث تتداخل عناصر الدعوة والتوجيه في سياق واحد، ممّا يعطيها طابعًا فريدًا من نوعه ضمن سور القرآن الكريم[1].

الخصائصُ الموضوعيَّةُ لسورة الجمعة:

تميَّزت سورة الجمعة بخصائصَ أفردَتْها عن غيرها من السّور

أوَّلًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها تناولت الحديثَ عن نعمة إرسال النّبيّ ﷺ في الأمّيّين، يتلو عليهم آياته ويزكّيهم، وانفردت بحديثها عن عدم انتفاع اليهود بالكتب المنزلة عليهم بهذه الصّورة المُنَفِّرة، وتميّزت بحديثها عن صلاة الجمعة وأحكامها وخصائصها وآدابها.

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها زادت عن بقيّة المُسبِّحات في استهلالها بهذه الأوصاف لله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

الخصائصُ الأسلوبيَّةُ لسورة الجمعة:

أوَّلًا: تميّزت السّورة الكريمة بهذا التّشبيه التّمثيليِّ لحال اليهود ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾، يقول الرُّمّانيُّ حولَ هذا التّشبيه: "وهذا تشبيهٌ قد أخرج ما لم يُعلَمْ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 182.

بالبديهة إلى ما يُعلَمُ بالبديهة، وقد اجتمعا في الجهل بما حملا، وفي ذلك العيب؛ لطريقةِ مَن ضيَّعَ العلمَ بالاتّكال على حفظ الرّواية من غير دراية[1]".

ثانيًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنَّها حَوَتْ أبنيةً صرفيَّةً بعضُها لم يأتِ في غيرها من السّور، مثل: ﴿حُمِّلُواْ﴾، ﴿يَحۡمِلُوهَا﴾، ﴿أَسۡفَارَۢا﴾، ﴿هَادُوٓاْ﴾، ﴿يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ﴾، ﴿تَفِرُّونَ﴾، ﴿مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾، ﴿ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: 9]، ﴿قُضِيَتِ﴾ [الجمعة: 10]، ﴿وَتَرَكُوكَ﴾ [الجمعة: 11].

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بوَفْرةِ الأنساق التّعبيريّة الَّتي لم تتكرّر في غيرها، مثل: ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾، ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾، ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾، ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾، ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾، ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: 9]، ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ [الجمعة: 9].

مناسبة سورة الجمعة لما قبلها:

وجهُ اعتلاقِها بسورة الصَّفِّ قبلها يمكن تقسيمه كما يأتي:

أوّلًا: خُتِمَت سورة الصّفّ بالثناء على الحواريين من حيث استجابتهم وإيمانهم الجميل، وأمر الله المؤمنين أن يتشبهوا بهم في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الصّف: 14]، وهذا يوضح أن فضل أتباع عيسى عليه السلام هو الحافز لذكر أمة النبي محمد ﷺ والثناء عليها، حيث استهلت السورة بالتنزيه نظراً لما وقع من أهل الكتاب من الاعتقاد في النبوة، فالله نزهه عن ذلك، وذكر أنّ الله هو الذي أرسل في الأمّيّين رسولًا من أنفسهم، وهو محمد عليه السلام.

ثانيًا: أشار النظم الكريم إلى حالة طائفة من الناس التي أنارت الهداية قلوبهم، ولكنهم أصروا على الجهل وارتكبوا حيرة وضلالة، حيث قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾. فهذه الآية تنبه على من سبقهم من أهل الكتاب، الذين حملوا التوراة زاعمين الالتزام بها، ومع ذلك خانوا ذلك الوعد، وتخلّفوا عن الوفاء.

(1) الرّمّاني، النّكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، محمّد خلف الله، ص: 84.

ثالثًا: إن سورة الصّفّ بشَّر فيها عيسى ﵇ بمحمّد ﷺ، ثم يذكر النظم الكريم في سورة الجمعة أن محمدًا هو الذي بشّر به عيسى، حيث يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾. فهذا يربط بين النبوة التي بشّر بها عيسى وبين بعثة النبي محمد ﷺ، ويوضح أن التبشير جاء من قبل الله الذي أرسل محمدًا على رأس الأنبياء.

رابعًا: اختتمت سورة الصّفّ بالأمر بالجهاد وسمّت ذلك تجارةً، وختمت سورة الجمعة بالأمر بصلاة الجماعة، وأكدت أن الصلاة مع الجماعة خير من التجارة التي تُشغِل عن الجماعة، فهي رابطة تُقوّي الإيمان، وتقرب العبد من ربه، وتربط المجتمع، إذ إنَّ كلتا السورتين تتحدثان عن أهمية العمل والجهاد، ولكن بأساليب مختلفة.

خامسًا: أكَّدت سورة الصّفّ على ضرورة أن يكون المؤمنون صفًّا واحدًا في القتال، وذلك يتناغم مع حديث سورة الجمعة عن أهمية الجماعة في الصلاة، بحيث إن الجماعة شرط من شروطها، مع أن كلتا السورتين تتحدثان عن التجارة، لكن في سورة الصّفّ تناولت التجارة التي تنجي من العذاب، بينما تتحدث سورة الجمعة عن تجارة تشغل عن الجماعة(1).

(1) الغرناطي، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 335 - 336، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 181 - 182.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ
ٱلۡحَكِيمِ ١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ
لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ
ٱلۡحَكِيمُ ٣ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ
ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾ [الجمعة: 1 - 4]

❁ مُناسَبَةُ مطلّع السورة لخاتمة ما قبلها:

القرآنُ الكريم كلُّه سياقٌ واحدٌ وثيقُ الاتِّصال المعنويّ

لمّا خُتِمتْ سورةُ الصَّفِّ بإقبالِ بعضِ أتباع سيِّدنا عيسى على جنابه الأقدس، وتأييدِ اللّه تعالى لهم على عدوِّهم ممَّن استمرَّ على الزَّيْغِ فأصبحوا ظاهرين - وبذلك ثبَتَ أنَّ للّهِ تعالى تمامَ القدرة المستلزمَ للتَّنزُّهِ عن كلِّ شائبةِ نقصٍ - بُدِئَتْ سورة الجمعة بتسبيح اللّهِ، ناصرِ أهل الحقِّ، خاذِلِ أهل الباطل، مالكِ ما في السَّماوات وما في الأرض، المنزَّهِ بعَدْلِه عن خِذْلانِ المتَّقين، العزيزِ القادر على نُصْرتهم، الحكيم في تصرُّفاته.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُسَبِّحُ﴾: السَّبْحُ: المَرُّ السَّريع في الماء وفي الهواء. يقال: سَبَحَ سَبْحًا وسِباحةً، واستُعير لِمَرِّ النُّجوم في الفَلَك، نحوُ قوله: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: 40]. والتَّسبيحُ: تنزيهُ اللّه تعالى. وأصلُه: المَرُّ السَّريعُ في عبادة اللّه تعالى. وجُعِل ذلك في فِعل الخير، كما جُعِل الإبْعادُ في الشَّرِّ، فقيل: أبعَدَهُ اللّه.

وجُعِل التَّسبيح عامًّا في العبادات، قولًا كان أم فعلًا أم نيَّةً، قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ [الصّافّات: 143]، قيل: من

المُصلّين، والأولى أن يُحمل على ثلاثتِها، قال: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30][1]، فمعنى ﴿يُسَبِّحُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: يُنزِّهه في نيَّتِه وأقواله وأفعاله، ويمرُّ سريعًا في عبادته.

2) ﴿ٱلْمَلِكِ﴾: (ملك) أصل صحيح يدلُّ على قوةٍ في الشَّيء وصِحَّةٍ. يقال: أَمْلَكَ عَجِينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ. ومَلَّكْتُ الشَّيءَ: قَوَّيْتُه. مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَمْلِكُهُ مَلْكًا. والاسمُ المِلْك؛ لأنَّ يدَهُ فيه قويَّةٌ صحيحة. فالمِلْكُ: ما مُلِكَ من مالٍ. والمملوك: العبد. والمَلَكُ: الماءُ يكون مع المسافر؛ لأنَّه إذا كان معه مَلَكَ أمرَهُ[2]. فمعنى ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾: "الَّذي له مُلْكُ الدُّنيا والآخرةِ وسلطانُهما، النّافذُ أمرُه في السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما"[3].

3) ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾: (قدس) أصلٌ صحيح، يدلُّ على الطُّهر، وهو من الكلام الشَّرعيِّ الإسلاميِّ، ومن ذلك الأرضُ المُقَدَّسَةُ، هي المُطَهَّرَة. وتُسَمَّى الجنَّةُ حظيرةَ القُدُسِ؛ أي: الطُّهرِ. وجَبْرَئيلُ عليه السلام روحُ القُدُس. وكلُّ ذلك معناه واحدٌ. وفي صفةِ اللّه تعالى: ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾، وهو ذلك المعنى؛ لأنَّه مُنَزَّهٌ عن الأضداد والأنداد، والصّاحبة والولد، تعالى اللّه عمّا يقولُ الظّالمون عُلوًّا كبيرًا[4].

4) ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: الأمُّ بإزاء الأب، وهي الوالدةُ القريبة الَّتي ولَدَتْهُ، والبعيدةُ الَّتي ولَدَتْ مَن ولَدَتْهُ، ولهذا قيل لِحوّاءَ: هي أُمُّنا، وإنْ كان بيننا وبينها وسائطُ. ويقال لكلِّ ما كان أصلًا لوجود شيءٍ أو تربيته أو إصلاحه أو مَبْدَئِه: أُمٌّ، وكلُّ شيءٍ ضُمَّ إليه سائرُ ما يليه يُسَمَّى أُمًّا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزُّخرف: 4].

والأُمِّيُّ: هو الَّذي لا يَكتبُ ولا يَقرأُ من كتاب، وعليه حُمِل قوله تعالى هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ قال قُطْرُبٌ: الأُمّيَّةُ: الغفلةُ والجهالة، فالأُمّيُّ منه، وذلك هو قلَّةُ المعرفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة: 78]؛ أي: إلّا أن يتلى عليهم[5].

---

(1) الراغب، المفردات: (سبح).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 625.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدس).

(5) الراغب، المفردات: (أم).

ووَرَدَ الأُمّيُّ في القرآن في وجوه منها: العَرَب، وهم الَّذين لم يكن لهم كتابٌ من قبل، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾؛ أي: في العَرَب. ومنها: اليهود الَّذين لا يعلمون معنى التَّوراة، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: 78]، ومنها: النَّبيُّ المصطفى ﷺ، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف: 157]، وقيل: هو منسوبٌ إلى الأُمَّة الَّذين لم يَكتبوا؛ لِكونه على عادتهم، كقولك: عامّيٌّ؛ لِكونه على عادة العامَّة. وقيل: سُمّي بذلك لأنَّه لم يكن يكتبُ ولا يقرأُ من كتاب. وذلك فضيلةٌ له ﷺ؛ لِاستغنائه بِحفظه واعتمادِه على ضَمانِ اللّه له بقوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى: 6]. وقيل: سُمّي لِنِسْبَتِه إلى أُمِّ القُرَى، واللّه أعلم[1].

والمقصودُ بـ ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾: العربُ الَّذين لا يعرفون القراءةَ ولا الكتابةَ، كأنَّهم يُنسَبون إلى أُمَّهاتِهم.

5) ﴿يَتْلُواْ﴾: (تلو) أصلٌ واحد، وهو الاتِّباع. يقال: تَلَوْته، إذا تَبِعْتَهُ. ومنه تلاوةُ القرآن؛ لأنه يُتْبِع آيةً بعد آية. ومن الباب التَّليَّةُ والتُّلاوَةُ وهي البَقِيَّةُ؛ لأنَّها تتلو ما تقدَّم منها. قال ابنُ مقبلٍ:

يا حُرَّ أَمْسَتْ تَلِيّاتُ الصِّبا ذَهَبَتْ *** فَلَسْتُ مِنْها على عَيْنٍ ولا أَثَرِ[2]

والتِّلاوةُ تختصُّ باتِّباع كتب اللّه المنزلة، تارةً بالقراءة، وتارةً بالارتِسام لِما فيها من أمرٍ ونهيٍ وترغيب وترهيب. والتِّلاوةُ أخصُّ من القراءة، فكلُّ تِلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً[3]. فمعنى ﴿يَتْلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ أي: يقرأ عليهم آياتِه تعالى تِباعًا.

6) ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: زكا يزكو زَكاءً وزُكوًّا: نَما. والزَّكاةُ: النُّموُّ الحاصلُ عن بركة اللّه تعالى. ويُعتبر ذلك بالأمور الدُّنيويَّة والأخرويَّة، ومنه الزَّكاةُ لِما يُخرِجه الإنسان من حقِّ اللّه تعالى إلى الفقراء، وتسميتُه بذلك لِما يكون فيها من رجاء البركة، أو لتزكيةِ النَّفس، أي: تنميتِها بالخيرات والبركات، أو لَهُما جميعًا؛ فإنَّ الخيرَين فيها[4].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في الأم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تلو).
(3) الراغب، المفردات: (تلو).
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: (بصيرة في الزكاة).

ومعنى ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ هنا: "يُطهِّرُهم من أقذارِ العقائد والأخلاق والعادات الَّتي كانت لهم في الجاهليَّة"[1].

7) ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحِكْمَةُ: وضْعُ الشَّيْء في مَوْضِعه، وصوابُ الأمر وسدادُه، وأفعال اللّه تعالى كَذَلِك؛ لأنَّهُ يتَصرَّفُ بِمُقْتَضى المُلك فيفعلُ ما يَشاء، وافَقَ غَرَض العبادِ أم لا، والحكمةُ: معرفَةُ الحَقائِق على ما هيَ بِقدر الِاسْتِطاعَة، وهي العلمُ النّافع المعبَّرُ عَنهُ بِمَعْرِفَةِ ما لَها وما عليها[2].

والمراد بالحكمة في الآية: العلمُ النّافع المصحوبُ بالعمل الصّالح، وفي وضْعِها إلى جانبِ الكتاب إشارةٌ إلى أنَّ المقصود بها السُّنَّةُ النَّبويَّةُ المُطهَّرة[3]، وسُمّيَتِ السُّنَّةُ حكمةً؛ لأنَّها مستفادةٌ من كتاب اللّه، ومن النَّظَرِ المُلهِم في آياته وكلماته[4].

8) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: ضَلَّ الشَّيءُ يَضِلُّ ضلالًا؛ أي: ضاعَ وهلَكَ. والاسمُ: الضُّلُّ، بالضَّمِّ. ومنه قولهم: هو ضُلُّ بنُ ضُلٍّ، إذا كانَ لا يُعْرفُ ولا يُعْرَفُ أبوه. والضَّالّةُ: ما ضَلَّ مِن البهيمة للذَّكر والأنثى، والضَّلالُ والضَّلالَةُ: ضدُّ الرَّشادِ[5]، ومعنى ﴿ضَلَٰلٍ﴾: البُعْدُ الواضحُ عن الحقِّ والحكمةِ[6].

9) ﴿يَلْحَقُواْ﴾: لَحِقْتُهُ ولَحِقْتُ به: أدركتُه. قال تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: 170]، ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ ويقال: ألحقتُ كذا. قال بعضُهم: يقال: ألحَقَهُ بمعنى لَحِقَهُ، وقيل: هو مِن: ألحقتُ به كذا، فنُسب الفعلُ إلى العذاب تعظيمًا له، وكُني عن الدَّعيِّ بالمُلْحَق[7]. فمعنى ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ﴾: لمّا يُدرِكوهم، وأنَّهم سيُدرِكونهم إن شاء اللّه تعالى.

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.
(2) أبو البقاء، الكليات: (الحكم).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 376.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 943.
(5) الجوهري، الصحاح: (ضلل).
(6) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.
(7) الراغب، المفردات: (لحق).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإسلامُ، وتَعَلُّمُ القرآنِ والسُّنَّة هو الفضلُ العظيمُ مِن المَلِكِ العظيم سبحانه

ينزِّهُ اللّهَ تعالى ويقدِّسُه جميعُ ما في السَّماوات السَّبْع، وجميعُ ما في جنس الأرض، يسبِّحونه تسبيحًا مُتجدِّدًا لا يتوقَّفُ ولا ينقطع؛ فهو الإلهُ الجديرُ بذلك، الخالقُ المالك، المنزَّهُ عن كلِّ ما لا يليقُ بِمقام الألوهيَّة الحَقَّةِ، المستجمعُ كلَّ صفاتِ الكمال والطُّهرِ الواجبةِ للخالقِ، العزيزُ الغالبُ، الحكيمُ في كلِّ تصرُّفٍ يَصدُرُ عنه.

ومِن مَظاهرِ تلك العزّة والحكمة أنَّه ﷻ هو الَّذي بعث رسولًا أُمّيًّا - هو محمَّدٌ ﷺ - إلى أُمَّتِه الأُمّيَّةِ الَّتي هي أُمَّةُ قريش؛ ليقرأ عليهم آياتِ اللّه تعالى قراءةَ توقيرٍ وإجلال لها، ويُطهِّرَهم مِن أدرانِ الشِّرك وعقائد الجاهليَّة وذميم أخلاقها، ويُعلِّمَهم القرآن الكريم والسُّنَّةَ الشَّريفة، والفقهَ في دين اللّه تعالى، بعدَ أن كانوا قد غَطّوا في جهلٍ مُطبِق، وضلالٍ واضحِ الخطورة على أهله؛ حيث يُبِينُ عن نفسه بنفسه.

وكذلك يتلو الرَّسولُ الأمّيُّ آياتِ اللّه تعالى على قوم آخرينَ مِن العرب، ممَّن ليسوا من قريش، وعلى آخرينَ ممَّن ليسوا من العرب أصلًا، فيصيرُ هؤلاءِ وهؤلاءِ بلَحاقهم برَكْبِ المسلمين من أُمَّتِه، وتتوارثُ أجيالهم جميعًا الكتابَ والحكمة والفقه في الدّين، ويكونُ الرَّسولُ ﷺ السَّببَ في تعليمهم الدّينَ والتِّلاوة والكتاب، وكأنَّه بُعِثَ في هؤلاء أيضًا كما بُعِث في قريشٍ الأُمّيّينَ الأوَلِ.

ومن المقرَّرِ الجليِّ أنَّ ذلك كلَّهُ - بَدْءًا مِن بعثَةِ النَّبيِّ الأُمّيِّ ﷺ في الأُمَّةِ الأُمّيَّة، ومرورًا بتلاوته آياتِ اللّه تعالى عليهم، وتزكيته إيّاهم من شوائب الشِّرك، وتعليمِه إيّاهم الكتابَ والسُّنَّة، وانتهاءً بفعلِه ذلك في الآخرين الَّذين لم يكونوا لَحِقوا بهم وقتَ نزول الآيات الكريمات - بلا شكٍّ فضلُ اللّه تعالى، ومِنَحُهُ الَّتي يَهَبُها مَن يشاء من عباده، لا كما يزعُمُ اليهود مِن أنَّهم هم شعبُ اللّه المختار، وأنَّ الأُمّيّينَ ليسوا أهلًا لِتَلَقّي الوحي والكتاب من اللّه تعالى.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاستهلالِ في جملةِ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ الآية:

مَطالِعُ السّوَرِ الكريمةِ تُنْبِئُ عن مَقاصِدِها

في افتتاح السّورة الكريمة بالتَّسبيح بصيغة الفعل المضارع يَتحقَّقُ الاتِّساقُ بين مطلعِها ومقصدِها؛ "لأنَّ الغرض الأوَّل من السّورة التَّحريضُ على شهود الجمعة، والنَّهيُ عن الأشغالِ الَّتي تَشغَلُ عن شهودها، وزجرُ فريقٍ من المسلمين انصرفوا عن صلاة الجمعة حرصًا على الابتياع من عيرٍ ورَدتِ المدينةَ في وقت حضورهم لِصلاة الجمعة"[1].

فافتتاحُ السّورة الكريمة بالإخبار عن حصول التَّسبيح العامِّ من جميع المخلوقات يُنْبِئُ عن مقصود السّورة الكريمة، ويَلفِتُ إلى أنَّ السَّلامة في مواكبةِ عناصرِ الكون في تسبيحها اللّهَ تعالى وتنزيهه وتقديسه، تسبيحًا متجدِّدًا مستمرًّا لا ينقطع؛ فيَجْلو الرّوحَ ويَشحَنُ النَّفسَ، ويَصونُ العقلَ، ويَدعَمُها في رحلة الحياة.

دلالةُ التَّسبيح في جملةِ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾:

تسبيحُ المخلوقات أنواعٌ، منها تسبيحُ الخِلقة، والمعرفة، والضَّرورة

معنى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾: "ينقادُ لأمره، ويَتألَّهُه، ويعبُدُه"[2]، و"التَّسبيحُ يَحتملُ ثلاثةَ أوجُهٍ: تسبيحَ الخِلْقَة، أي: دلالةَ جَوْهَرِ الشَّيء وخِلقتِه على وحدانيَّة اللّه تعالى، وعلى تَعاليهِ عن الأشباه. وتسبيحَ المعرفة، بأنْ يَجعلَ اللّهُ تعالى بِلطفه في كلِّ شيءٍ حقيقةَ المعرفة؛ ليَعْرِفَ اللّهَ تعالى ويُنَزِّهَهُ وإنْ كان لا يَبلغُه عقولُنا. وتسبيحَ الضَّرورة والتَّلقين، بأنْ يُجريَ سبحانه التَّسبيحَ على ذلك الجوهرِ من غير أن يكون له حقيقةُ المعرفة، كما في عصا موسى، وذلك تسبيحُ كلِّ شيءٍ، واللّه تعالى أعلم"[3].

ومِن بركاتِ التَّسبيح على العباد أنَّه مِن أهمِّ أسباب النَّجاةِ من

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 206.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 862.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 3.

المَهالِكِ، كما قال تعالى في قصَّة يونسَ عليه السلام: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصّافّات: 143 - 144].

نكتةُ العُدولِ عن الماضي ﴿سَبَّحَ﴾ في سورة الصَّفِّ إلى المضارع هنا ﴿يُسَبِّحُ﴾:

تَمْجيدُ الخلائقِ وتنزيهُها اللهَ تعالى متجدِّدٌ مستمرٌّ لا يَفتُرُ ولا يَتوقَّف

مِن لافِتِ النَّظم الكريم مغايرتُه في صيغِ أفعال التَّسبيح، ما بينَ الماضي كما في أوَّل سورة الصَّفِّ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الصّفّ: 1] والمضارعِ كما هنا: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، والأمرِ كما في سورة الحِجر: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: 98] وسورة الأعلى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ۝١﴾ [الأعلى: 1]، فتكامَلَت الصّيَغُ، وتعاضَدَتْ على إثباتِ دوام التَّسبيح والتَّنزيه والتَّقديس للّهِ عز وجل في جميعِ الأزمان، كما عمَّتْ جميعَ المخلوقات.

فالتَّعبيرُ بالفعل المضارع هنا يدلُّ على التَّجدُّدِ الاستمراريِّ؛ للدَّلالةِ على أنّ هذا التّسبيحَ لا ينقطعُ.

ومن مناسبةِ المضارعة في فعل التَّسبيح في مطلع سورة الجمعة "أنَّ الغَرضَ منها التَّنويهُ بِصلاة الجُمعة، والتَّنديدُ على نَفَرٍ قُطِعوا عن صلاتِهم، وخرجوا لتجارةٍ أو لهوٍ، فمُناسِبٌ أنْ يُحكى تسبيحُ أهل السَّماوات والأرض بما فيه دلالةٌ على استمرارِ تسبيحِهم وتجدُّدِه؛ تعريضًا بالَّذين لم يُتِمّوا صلاةَ الجمعة"(1).

معنى اللّامِ في القيد ﴿لِلَّهِ﴾:

الـخـلائـقُ يَختَصّون اللهَ تعالى بالتَّمجيد والتَّنزيه

(اللّامُ) في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لامُ التَّعديةِ المُؤْذِنة بالاختصاص، فـ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يُسبِّحون اللّهَ تعالى وحده، ويسجدون له وحده، فيختصّونه بالتَّسبيح والتَّنزيه، ولا يُسبِّحون سواه، ولا يُقَدِّسون غيرَه سبحانه وتعالى؛ لِما له عليهم مِن حقِّ الخَلْقِ، والرِّزق، والتَّوفيق، وما إليها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 206.

دلالةُ التَّعبير بالاسْم الجليل (الله) مع التَّسبيح:

التَّسبيحُ نَوْعُ عبادةٍ، وربطُ العبادةِ بالعَلَم الدّالِّ على الذّات المقدَّسة (الله) أولى، بل أخصُّ؛ فالاسمُ الجليلُ متعلَّقُ العبادة، كما أنَّ وصفَ الرَّبِّ متعلَّقُ التَّربيةِ وفيضِ العطاء.

ولم يَرِدْ في الذِّكر الحكيم التَّسبيحُ مُقترِنًا بوصفِ (الرَّبِّ) كثيرًا كما ورَدَ مقترنًا بالاسم الجليل، وإنَّما يجيءُ التَّسبيح مقترنًا باسم الرَّبِّ، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: 1]، وقولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ [الواقعة: 74]، وبضميرِ الرَّبِّ، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾ [الأعراف: 206].

لم يَرِدْ في الذِّكر الحكيم التَّسبيحُ مُقترِنًا بوصفِ الرَّبِّ كثيرًا كما ورَدَ مُقترِنًا بالاسم الجليل

معنى ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ موصولةٌ بمعنى (الَّذين)، وهي تختصُّ بغيرِ العقلاء، بخلاف (مَن) الخاصَّة بالعقلاء؛ فـ "في ذكر ﴿مَا﴾ تغليبٌ للأكثرِ، وهو ما لا يَعقِلُ"[1]، أي: "يَسجُدُ للّه تعظيمًا وولاءً وتمجيدًا كلُّ الَّذينَ في السَّماوات والَّذينَ في الأرضِ، وإنْ أبى هؤلاء الكافرون والمشركون أن يكونوا في السّاجدين؛ فإنَّهم إنْ ظنّوا أنَّهم يَملِكون مِن أنفُسِهم أن يخرجوا عن هذا المقام الَّذي يَنتَظِمُ الوجودَ كلَّهُ في محرابِ التَّسبيح بحمد اللّه فهم واهمون؛ لأنَّهم في قبضةِ اللّه، وفي محيطِ سلطانه، وهم بهذا خاضعون للّهِ كَرْهًا وإنْ لم يَخضعوا له طَوْعًا: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرَّعد: 15]"[2].

الخلائقُ - ومِنهم الكفّارُ - يُسبِّحون اللهَ تعالى؛ لأنَّهم في محيطِ مُلكِهِ خاضِعون لسُلطانِهِ

والموصولُ ﴿مَا﴾ أكثرُ استيعابًا وأرحبُ دلالةً من الموصول (مَنْ)، بناءً على أنَّ لِلمَدِّ في ﴿مَا﴾ إيحاءً يَدْعَمُ الاستقصاءَ والإحاطة -

مَدُّ الموصولِ (ما) يُناسِبُ دلالةَ العموم، وقَصْرُ (مَنْ) يُناسِبُ قَصْرَ دلالتِها على العُقَلاء

(1) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 129.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 941، بتصرُّفٍ يسير.

والمقامُ هنا مقامُ استقصاءٍ وإحاطة - أمّا (مَنْ) فمَقْصورةُ اللَّفظِ، الَّذي يُناسبُهُ قَصْرُ دلالتِها على صنفِ العقلاء.

نكتةُ تقديمِ القيدِ ﴿لِلَّهِ﴾ في قولِه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

التَّسبيحُ خاصٌّ بالله تعالى؛ فلا يُسبَّحُ إلّا هو ﷻ

في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قُدِّمَ القيدُ ﴿لِلَّهِ﴾ على الفاعلِ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهذا التَّقديمُ يفيدُ الاختصاصَ والقصرَ؛ أي: فلا تسبيحَ إلّا ﴿لِلَّهِ﴾ ﷻ، ولا تنزيهَ ولا إجلالَ إلّا له ﷻ، وكان الشّعراويُّ رحمه اللّه تعالى يقول: "الجبابرةُ أرغموا النّاسَ على مدحهم والخضوعِ لهم، لكنْ ما رأينا واحدًا مهما كان مُجرِمًا في الدّين يقول لأحد هؤلاء: سبحانك؛ لذلك نقول في تسبيح اللّه: سبحانك، ولا تُقال إلّا لك، مهما اجترَأَ الملاحدةُ فإنَّهم لا ينطقونها لغير اللّه"[1].

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

ما مِن شيءٍ إلّا يُسبِّحُ للهِ تعالى

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جارَّةٌ ظرفيَّةٌ؛ والظَّرفيَّةُ هنا مجازيَّةٌ، وهي أعمُّ من الظَّرفيَّةِ الحسّيَّةِ؛ فلا تدلُّ على ما في داخلِ السَّماوات وما في باطن الأرض فقط، بل تدلُّ على ذلك وعلى ما فوقَها وما تحتَها وما في أجوائها، وأنَّ كلَّ ذلك يسبِّحُ للّهِ تعالى، وينزِّهُهُ، ويمجِّدُهُ، وعلى الجملةِ ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44].

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الإشارةُ إلى عمومِ التَّنزيهِ وشمولِه

(أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ لتعريف الجنس، المُستغرِقِ كلَّ سماءٍ وكلَّ أرضٍ؛ فلا يَمتنعُ مخلوقٌ - كائنًا مَن كان وأينما كان - عن تنزيه اللّه تعالى وتقديسه، والإقرارِ له بالخضوع والذُّلِّ، طَوْعًا مِن المخلوقات المجبولة على التَّسبيح ومِن المؤمنين، وكَرْهًا وإجبارًا من المكلَّفين غيرِ المؤمنين؛ "لأنَّهم في قبضة اللّه، وفي محيط سلطانه،

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 17/ 10356.

وهم بهذا خاضعون للّه كَرْهًا وإن لم يَخضعوا له طَوْعًا، ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرّعد: 15]"[1]، كما سبَقَ بيانُه.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

تقديمُ تسبيحِ ما في السَّماوات أدلُّ علـى أنَّ أسبابَ التَّنزيهِ فيها أجَلُّ

يُقدِّمُ النَّظمُ الكريم ذِكرَ السَّماوات على ذكر الأرض غالبًا، يَستوي في ذلك ما جاء في مقامِ إقرارِ مِلكيَّةِ اللّه تعالى لهما ولِما فيهما، وما جاءَ في مقامِ تسبيحِ ما فيهما للّهِ ﷻ وتنزيهِه.

وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ السَّماء ومَن فيها وما فيها أشرفُ مِن الأرض ومَن فيها وما فيها، وإشارةٌ إلى أنَّ السَّماء ومَن فيها وما فيها أدلُّ على عظمةِ الخالق العظيم سبحانه، وأدعى لتنزيهه وتسبيحه.

فقُدِّمَ هنا تسبيحُ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لأنَّه قطعًا أشرفُ وأثمنُ وأغلى وأعجَبُ؛ وتسبيحُهُم اللّهَ ﷻ لكونِهم أبصرَ وأعرفَ بأسباب التَّنزيه والتَّسبيح ثَمَّ. والذِّكرُ الحكيمُ هنا بصددِ الإحاطة والاستقصاء يَضُمُّ تسبيحَ ما في الأرض إلى تسبيحِ ما في السَّماوات كنايةً عن عموم العَظَمة، واللّه تعالى أعلم.

على أنَّه يُقدَّمُ ذِكرُ الأرض نادرًا على ذكر السَّماء؛ مُراعاةً لاعتباراتٍ سياقيَّةٍ ووفاءً بمقتضياتٍ حاليَّة، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾ [آل عمران: 5]، فالَّذي اقتضى تقديمَ الأرض هنا احتمالُ توهُّمِ بعضِ الجَهَلةِ أنَّ الأرضَ أبعدُ عن عِلم اللّه تعالى، وأنَّ عدمَ الخفاءِ عليه محصورٌ بالسَّماء؛ بناءً على أنَّ عرش الرَّحمن في السَّماوات العُلا؛ فبدأ النَّظمُ الكريمُ بذِكرِ الأرضِ؛ للدَّلالة على أنَّهما في عدمِ الخَفاءِ عليه ﷺ سواءٌ.

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

ذكَرَ العلماءُ لِجَمْعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أوجُهًا عديدةً،

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 941.

منها: "أنَّ السَّماواتِ أشرفُ من الأرض، والجمعُ أبلغُ في التَّفخيم من الوحيدِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر: 9]. وأنَّ أوامرَهُ إلى الأرض تَخترقُ جميعَ السَّماواتِ السَّبع"[1]، ومنها "أنَّها طِباقٌ بعضُها فوقَ بعض، والأرضُ وإنْ كانت سبعًا عند الجمهور فليس بعضُها فوقَ بعضٍ، بل بعضُها موالٍ لبعضٍ"[2].

في القرآنِ الكريمِ ألفاظٌ مفردةٌ لم يَرِدْ لها جمعٌ لِثِقَلِهِ، وجموعٌ لم يقعْ لها مفردٌ

أو "للانتفاع بجميع أجزاءِ الأولى، باعتبار ما فيها من نورِ كواكبِها وغيره دون الثّانية؛ فإنَّه إنَّما يُنتفَعُ بواحدةٍ من آحادِها، وهي ما نُشاهِدُهُ منها"[3]، أو لـِ "أنَّ جمعَ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ ثقيلٌ، وهو مخالفٌ للقياس كـ(أَرَضينَ)؛ ولذا لمّا أراد اللّٰه تعالى ذلك قال: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطَّلاق: 12]، فلم يَجمَعْها، ورُبَّ مفردٍ لم يَقعْ في القرآن جمعُهُ لِثِقَلِهِ وخِفَّةِ المفرد، وجمعٍ لم يَقعْ مفردُه كـ(الألباب)"[4].

بلاغةُ الطِّباقِ بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الدَّلالةُ على الشُّمول

بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ طباقٌ بديع؛ يَدعَمُ دلالةَ الإحاطةِ والشُّمولِ المُفادَيْن من ﴿مَا﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وأنَّ كلَّ المخلوقات تُسَبِّحُهُ تعالى.

نكتةُ تكرار (ما) في قوله: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

تأكيدُ العموم والإحاطة

في تكرارِ (ما) في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بعدَ تقدُّمِها في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ تأكيدٌ لدلالة العموم، وتقريرٌ للإحاطة والاستقصاء؛ بحيث لا يَسبِقُ إلى الوهمِ احتمالُ التَّجوُّزِ أو التَّوسُّعِ في الحُكم بحصول التَّسبيح والتَّنزيه والإجلال للّٰه تعالى من جميعِ ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/ 92.
(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 1/ 489.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 1/ 429.
(4) الخفاجي، الشهاب، عناية القاضي وكفاية الراضي: 2/ 261.

مناسبةُ ذكرِ الصِّفات: ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾:

المفردات القرآنيَّة تُسهِمُ في دَعْمِ الأغراض الشَّرعيَّة

فائدةُ الجمعِ بين هذه الصِّفات الأربع ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ الحثُّ على الدَّوامِ في تنزيهِ حضرةِ مالكِ المُلْك؛ إذ العظيمُ لا ينصرفُ عن مجلسِهِ مَن كان عنده إلّا عندَ انفِضاضِ مجلسه أو إيذانِهِ بانصرافِهم، و﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ يُرغَبُ في حضرته، و﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: يَعتزُّ المُلْتَفّون حولَه، فمفارقتُهم حضرتَه تفريطٌ في العِزَّة، وكذلك ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ إذا فارَقَ أحدٌ حضرتَه فاتَهُ في كلِّ آنٍ شيءٌ من الحكمة، كما فاتَ الَّذين انفضّوا إلى العيرِ ما خَطَبَ به النَّبيُّ ﷺ، إذْ تركوه قائمًا في الخُطبة[1].

وإلى ذلك فـ"﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ إشارةٌ إلى إثباتِ ما يكونُ من الصِّفات العالية، و﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ إشارةٌ إلى نفي ما لا يكون مِنها"[2]، ومَن كان على هذه الأوصافِ كان حَريًّا بالثَّباتِ تسبيحِهِ وتنزيهِهِ وعدمِ مُفارقةِ ذلك.

لطيفةُ ترتيبِ الصِّفاتِ ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾:

دلالـتُـهـا على اخـتـصـاصِ التَّنزيهِ المطلق بحضرةِ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ

في ترتيبِ الصِّفاتِ الأربع: ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ دِقَّةٌ نَظْميَّةٌ تتَّسِقُ مع السِّياق أتمَّ اتِّساقٍ؛ إذ قُدِّمَتْ صفةُ ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾؛ لمناسبةِ التَّسبيحِ في أوَّلِ السّورة الكريمة، فإذا كان النّاسُ يُسبِّحون بحمدِ ملوكهم فالمالكُ جَلَّ وَعَلَا (يُسبِّحُ له ما في السَّماوات وما في الأرض)، وفرقٌ بينَ المُلوك وبينَ ملِكِ المُلوك ومالكِهم وما يَملكون.

وثنّى النَّظمُ الكريم بذكرِ صفةِ ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ تنزيهًا لـ ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ سبحانه عن مشابهته الملوكَ في نقصهم، واحتراسًا مِن سبقِ الوَهْم إلى مشابهتِهم إيّاه في كماله.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 207.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 537.

وثلَّثَ النَّظمُ الكريم بذكرِ صفةِ العِزَّة، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ العزَّةَ تاجُ الصِّفاتِ السّابقة؛ فإنَّ مِن الملوك مَن يُقهَرُ، والله تعالى ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالب الَّذي لا يُقهَر.

ثمّ خُتِمت الصِّفاتُ بذكر صفةِ الحكمة الدّالَّةِ على وضعِهِ تعالى الأمورَ مواضِعَها، كُلَّ أمرٍ في موضعِهِ الأنسبِ عن اقتدارٍ واختيارٍ؛ إذ لا قيمةَ لحكمةٍ عاجزة، ونَفْيًا لِما قد يَسبِقُ إلى الأوهام، مِن عدمِ خُلوِّ المُلك مِن طَيْشِ الملوك، والله تعالى أعلم.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾:

المَلِكُ الحقيقيُّ مَن له مُلْكُ الدُّنيا والآخرة، وحرّيَّةُ التَّصرُّفِ فيهما بطَلاقة

(أل) في ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ لِتعريف العَهْدِ الذِّهنيِّ، وهي دالَّةٌ على الكمالِ الَّذي لا يكونُ إلّا لله تعالى، فهو ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ "صاحب المُلْك، المتصرِّف فيه كيف يشاء"[1]، "الَّذي له مُلْك الملوك، أو الَّذي له المُلك في الحقيقة"[2]، "الَّذي له مُلْكُ الدُّنيا والآخرةِ وسلطانُهما، النّافذ أمرُه في السَّماواتِ والأرضِ وما فيهما"[3].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾:

الله تعالى هو المنزَّه عن كلِّ وصفٍ يُدرِكُهُ حِسٌّ، أو يَتَصوَّرُهُ خيالٌ، أو يَسْبِقُ إليه وهمٌ

(أل) في ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ لِتعريفِ العهد الذِّهنيِّ، وهي دالَّةٌ على كمالِ القُدسيَّةِ الَّتي لا تكون إلّا لله تعالى، وأنَّه ﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ "المعظَّم"[4]، "المنزَّه عن كلِّ وصفٍ يُدرِكُه حِسٌّ، أو يَتَصوَّرُه خيالٌ، أو يَسْبِقُ إليه وهمٌ، أو يَختلِجُ بِهِ ضميرٌ، أو يَقضي بِهِ تفكير"[5].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ لِتعريفِ العهدِ الذِّهنيِّ، وهي دالَّةٌ على كمالِ العِزَّةِ الَّتي لا تكون إلّا لله تعالى، فهو ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ الكامل العِزَّة،

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 941.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 3.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 625.
(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 862.
(5) الغزالي، المقصد الأسنى، ص: 68.

العِزَّةُ المطلَقةُ تختصُّ بالله تعالى دون سِواه

"الشَّديد في انتقامِه من أعدائِه"(1)، "الغالب القاهر الَّذي لا يُعجِزُهُ شيء، أو هو ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ مقابل (الذَّليل)، والذَّليلُ يَنتَظِمُ كلَّ فقرٍ وحاجةٍ وضعف؛ فالواجب: أن يَنتَظِمَ العزيزُ - إذا كان ضدًّا ومُقابلًا - كلَّ شرفٍ ومَكرُمةٍ وغَناءٍ وقوَّة"(2)، الَّذي "جَعَلَ في كلِّ واحدٍ من البشر أثرَ الذُّلِّ به والفقرِ إليه"(3).

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾:

اللهُ تعالى هو الحكيمُ الَّذي لا يَلحَقُهُ خطأٌ في التَّدبير

(أل) في ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ لِتعريف العهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ المُطلَقِ الحكمةِ، ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ "في تدبيرِه خَلْقَه، وتَصْريفِه إيّاهم فيما هو أعلمُ به من مصالحِهم"(4)، "الَّذي يضعُ الأشياءَ مواضعَها، فاللهُ تعالى حكيمٌ حيث وضعَ الأشياءَ مواضعَها الَّتي جعلَها اللهُ تعالى مواضعَ لها، أو ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ هو الَّذي لا يَلحَقُهُ الخطأُ في التَّدبير، وهو معنى المُصيبِ أيضًا، واللهُ أعلم"(5).

دلالةُ الصّيَغِ في ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾:

صفاتُ الجمال والجلال والكمال البالغةُ الذِّروةَ في بابِها إنَّما هي للهِ تعالى

في صَوْغِ ﴿ٱلۡمَلِكِ﴾ على صيغةِ المبالغة (الفَعِل)، و﴿ٱلۡقُدُّوسِ﴾ على صيغةِ (الفُعّول)، و﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ على صيغةِ (الفَعيلِ) دلالةٌ على بلوغِه في تلك الكمالات مبلغَ التَّمام الَّذي لا يكونُ إلّا له تعالى؛ فهذه صيغُ المبالغة الدّالَّةُ على بلوغِه ﷻ في كلٍّ من المُلْكِ والقَداسةِ والعِزَّةِ والحِكمة مبلغَ التَّفرُّدِ، القاضي له تعالى بالوَحْدانيَّة في حقائقِ أسمائه الحُسنى وصفاتِه العُلا، وأنَّ كلَّ مَن اتَّصَفَ بشيءٍ منها إنَّما استمدَّهُ من عطائِه ﷻ.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 625.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 4.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 7.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 625.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 4.

علَّةُ فَصْلِ جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ﴾ عمّا قبلَها:

التَّراكيبُ القرآنيَّةُ وثيقةُ الرَّوابطِ المعنويَّة

فُصِلَتْ جملةُ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ عن جُملةِ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ؛ لِما بينهما من كمال الاتِّصال المعنويِّ، وعدم حاجتهما إلى واصلٍ لفظيٍّ يَصِلُهما؛ ذلك أنَّ ﴿ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هو نفسُه ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، و"هذا التَّسبيح الَّذي تسبِّحُ به السَّماوات والأرض للّه ربِّ العالمين وإنْ كان دائمًا لا ينقطع إلّا أنَّه هنا تسبيحٌ خاصٌّ في مواجهةِ هذه النِّعمة العظيمة، الَّتي أنعم اللّه بها على أهل الأرض، وهي بعثة الرَّسول ﷺ بالهدى ودين الحقِّ"[(1)].

ويرى صاحبُ التَّحرير والتَّنوير أنَّ الجملة "استئناف بيانيٌّ ناشئٌ عن إجراء الصِّفات المذكورة آنفًا على اسم الجلالة؛ إذ يتساءلُ السّامع عن وجْهِ تَخصيص تلك الصِّفات بالذِّكر مِن بين صفات اللّه تعالى؛ فكان الحالُ مقتضيًا أنْ يُبيِّنَ شيءٌ عظيم من تعلُّق تلك الصِّفات بأحوال خلقه تعالى؛ إذ بعثَ فيهم رسولًا يُطهِّرُ نفوسَهم، ويزكّيهم ويعلِّمُهم، فصفةُ ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ تعلَّقتْ بأنْ يدبِّرَ أمرَ عباده، ويُصلحَ شؤونَهم، وصفةُ ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ تعلَّقت بأنْ يزكّيَ نفوسَهم، وصفةُ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ اقتضَتْ أنْ يُلحِقَ الأُمّيّين من عباده بمراتبِ أهل العلم، ويُخرِجَهم من ذِلَّة الضَّلال، فينالوا عِزّة العِلم وشرفَه، وصفةُ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ اقتضَتْ أنْ يُعلِّمَهم الحكمةَ والشَّريعة"[(2)].

"وهذه الآيةُ هي مصداقُ إجابةِ اللّه تعالى لخليله إبراهيمَ عليه السلام، حين دعا لأهل مكَّةَ أن يبعث اللّه تعالى فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة، فبعثَهُ اللّه سبحانه وتعالى - وله الحمدُ والمنَّةُ - على حينِ فترةٍ من الرُّسل، وطُموسٍ من السُّبل، وقد اشتدَّت

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 942.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 207.

الحاجة إليه، وقد مقتَ اللّه تعالى أهلَ الأرض عربَهم وعجمهم إلّا بقايا من أهل الكتاب - أي: نزرًا يسيرًا - ممَّن تَمَسَّك بِما بَعَثَ اللّه تعالى به عيسى ابنَ مريم عليه السلام"[1].

لطيفةُ التَّعبير بالضَّمير ﴿هُوَ﴾:

افتتاحُ الجملةِ الفعليَّةِ بضميرِ الفصل يُحيلُها اسميَّةً، فتفيدُ الثَّبات

ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ﴾ "كنايةٌ من اسمِ اللّهِ تعالى"[2]، وداعي "ابتداء الجملة بضمير اسم الجلالة لِتكونَ جملةً اسميَّةً؛ فتفيدَ تقويةَ هذا الحُكم وتأكيدَه؛ أي: أنَّ النَّبيَّ ﷺ مبعوثٌ مِن اللّه تعالى لا محالةَ"[3].

بلاغةُ القصرِ في جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ﴾:

بعثةُ الأنبياءِ والرُّسلِ من خصائصِ اللّه تعالى

القصرُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا﴾ قصرٌ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ بتعريفِ طرفي الإسناد، يُقرِّرُ نِسبةَ بَعث النَّبيِّ ﷺ إلى اللّه تعالى وحدَهُ، ويؤكّد أنّ رسالته ﷺ سماويَّةٌ صادقة؛ ممّا يوجب على جميع المكلَّفين الإيمانَ بها، ومتابعةَ الرَّسول ﷺ عليها، وأنَّها الدّينُ المعتمد الخاتم، الَّذي يُلغي ما قبله من شرائعَ.

علَّةُ التَّعبير بالموصولِ ﴿ٱلَّذِى بَعَثَ﴾:

الموصولُ بإبهامه عُنصرُ تشويقٍ، ويُتيح ذكرَ صلةٍ ثريَّةِ التَّفاصيل

التَّعبيرُ بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يُثيرُ الشَّوقَ إلى معرفة تفاصيلِ الصِّلة، الَّتي بها يَتِمُّ الخبرُ، ويُفهَمُ معنى الموصول؛ فهو عنصرُ تشويق، إضافةً إلى أنَّه يُتيح ذكرَ جملةٍ كاملةٍ، هي جملةُ الصِّلة ﴿بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ بما تشتملُ عليه من تفاصيلِ التَّركيبِ، وخصوصيّاتِ النَّظم المحقِّقة الثَّراءَ الدَّلاليَّ، مِن مِثل عطاءِ الماضي في ﴿بَعَثَ﴾، وتقديمِ القيد ﴿فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، وتنكيرِ ﴿رَسُولًا﴾.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 116.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 625.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 207.

دلالةُ التَّعبيرِ بالبعث في قوله: ﴿بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ ولطيفةُ المُضيِّ فيه:

بعثتُه ﷺ أحدَثَت ثورة تصحيحٍ للعقائدِ والشَّرائع والأخلاق

التَّعبيرُ بالبعث في جملةِ الصِّلة ﴿بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا﴾ يُلمِحُ إلى ما أحدثَتْهُ رسالتُهُ ﷺ من تطهيرٍ للعقائدِ والشَّعائرِ من شوائبِ الشِّرك، وتنقيحٍ للأخلاق ممّا عَلِقَ بها من مساوئِ الجاهليَّة.

وصيغةُ الماضي في الفعل ﴿بَعَثَ﴾ تَقطَعُ بتأثيرِ بعثته ﷺ في حياة النّاس، وما حقَّقَتْهُ من بعثٍ للأرواح نحوَ سُلوكِ سبيل الهدى، وما أنجَزَتْهُ من تصويبِ مسارِ الشَّعائرِ والمعتقَداتِ، وإعادتِها إلى استقامتِها على سبيل الحقِّ والرَّشاد.

معنى ﴿فِي﴾ من قوله: ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾:

الرَّسولُ ﷺ مِن أوسطِ قومه نَسبًا، فنَسَبُهُ مُتغلغِلٌ فيهم كابرًا عن كابر

حرفُ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ من قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ يدلُّ على أنَّه ﷺ مِن أوسطِهم نَسبًا، وأنَّ نَسبَهُ متغلغلٌ فيهم كابرًا عن كابر؛ ممّا يقتضي وفْرةَ ثقتِهم فيه، وتصديقِهم إيّاه فيما جاء به.

وتعديةُ الفعلِ ﴿بَعَثَ﴾ بـ﴿فِي﴾ يُضَمِّنُه معنى الفعل (أظْهَرَ)، قال القاسميُّ: "وإيثار البعثةِ فيهم بمعنى إظهارِها فيهم"[1]، ويُحتمل أن يكون معنى القيدِ ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾: "إليهم"[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، ونكتةُ إيثارِ التَّعبيرِ بهذه اللَّفظة:

كانت الأُمِّيَّةُ بركةً على قوم خاتمِ المرسلين ﷺ

(أل) في ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ تعريفيَّةٌ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ المعروفين بالعرب، الَّذين كان اليهود يَحُطّون من شأنهم، ويزعُمون عدمَ أهليَّتِهم لتلقّي رسالةٍ من السَّماء، فأخزاهم اللّه تعالى، وكذَّبهم تكذيبًا عمليًّا، بأنِ امتَنَّ على هؤلاءِ ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ وبعثَ فيهم رسولًا منهم، فزادَهم شرفًا، وطَوَّقهم عِزًّا، وناطَ بأعناقِهم شرفَ استقبالِ الرِّسالة وحملِها إلى العالمين، فتجاوزوا

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 228.

(2) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 129.

اليهودَ بمراحلَ، وخلَّفوهم خلفَهم بآمادٍ، فكانت تلك الأمّيَّةُ بركةً على قوم خاتمِ المرسلين ﷺ.

و"الأُمّيُّ هو الَّذي لا يُحسِنُ القراءة والكتابة ولم يتعلَّم، ويكونُ على ما سقط من أُمِّه؛ فنُسِبَ إلى حال وِلادته الَّتي سقَطَ من أُمِّه؛ لأنَّ ذلك إنَّما يكون بالتَّعليم دون الحالِ الَّتي يجري فيها المولود.

ثمَّ وجْهُ الحِكمة في جعل النُّبوَّةِ في الأُمّيِّ أنْ يكون ذلك سببَ معرفةِ نبوَّته، وعلامةَ رسالته، بحيث يُعلَمُ أنَّه ما اختَرَع ذلك مِن لدُن نفسِه؛ إذ لم يَعرِفِ الكتابةَ والقراءة، ولا اختلفَ إلى أحدٍ ليتعلَّمَ منه، ثمَّ أحوجَ جميعَ الحكماء إلى حِكمته، وجميعَ أهل الكتابِ إلى معرفة كتابه؛ لِحُسْن نَظْمِه وتأليفه؛ ليُعْلَمَ أنَّه إنَّما نالَهُ بالوحي والرِّسالة، واللّٰه أعلم"(1).

و"أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ هنا تَوَرُّكًا على اليهود؛ لأنَّهم كانوا يَقصِدون به الغَضَّ من العَرب، ومِن النَّبيِّ ﷺ جهلًا منهم، فيقولون: هو رسولُ الأمّيّين وليس رسولًا إلينا، وكان اليهودُ ينتقصون المسلمين بأنَّهم أمّيّون، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ﴾ [آل عمران: 75].

فتحدّى اللّٰه تعالى اليهودَ بأنَّه بعث رسولًا إلى الأمّيّين، وبأنَّ الرَّسول أُمّيٌّ، وأعلَمَهم أنَّ ذلك فضلُ اللّٰه تعالى يؤتيه مَن يشاء كما في آخرِ الآيةِ، وأنَّ فضل اللّٰه ليس خاصًّا باليهود ولا بغيرهم، وقد قال تعالى مِن قبلُ لموسى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 5 - 6]"(2).

نكتةُ تخصيص ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ بالذِّكر مع عمومِ رسالةِ الإسلام:

وتخصيصُ الأمّيّين بالذِّكر لا ينفي مَن عَداهم، ولكن المِنَّة عليهم أبلغُ وآكدُ، كما في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزُّخرف: 44]، وهو ذِكر لِغيرهم يُذكَرون به، وكذا قولُه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشُّعراء: 214]، فـ "عَيَّنَتِ الآيةُ الأُمَّةَ الَّتي بُعِث منها، ولم تُعَيِّن الأُمَمَ الَّذين أُرسِل إليهم؛ ليُفهَمَ من ذلك أنَّ رسالته مفتوحةٌ لا محدودة، وقد عُلم عمومُ بعثته للعالَم من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 5.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 208.

رسالتُهُ ﷺ عالميَّةٌ، مفتوحةٌ لكلِّ النّاس، لا محدودةٌ بالعرب

كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: 33]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28]"[1].

وهذا وأمثالُهُ لا يُنافي قولَه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: 158]، وقولَه: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ [الأنعام: 19]، وقولَه إخبارًا عن القرآن: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ﴾ [هود: 17]، إلى غيرِ ذلك من الآيات الدّالَّة على عموم بعثته صلوات اللّه وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمَرِهم وأسوَدِهم[2].

"وإنَّما أوثِرَتْ بعثتُهُ صلوات اللّه عليه في الأمّيّين لأنَّهم أحَدُّ النّاس أذهانًا، وأقواهم جَنانًا، وأصفاهم فِطرةً، وأفصحُهم بيانًا، لم تَفسُدْ فِطرتهم بِغَواشي المتحضّرين، ولا بأفانينِ تلاعُب أولئك المتمدِّنين؛ ولذا انقلبوا إلى النّاس بعد الإسلام بِعِلم عظيم، وحِكمةٍ باهرة، وسياسةٍ عادلة، قادوا بها معظم الأمم، ودوَّخوا بها أعظم الممالك"[3].

نكتةُ تقديمِ القيدِ ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ على المفعول ﴿رَسُولٗا﴾:

فضلُهُ ﷺ - بعدَ فضلِ الله تعالى - على العربِ كما هو على غيرِهم كبيرٌ

وفي تقديمِ القيد بالجارِّ والمجرور ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ على المفعولِ ﴿رَسُولٗا﴾ دعمٌ لهذا التَّشريف، ولفتٌ إليه، وتنبيهٌ إلى فضل رسول اللّه ﷺ عليهم؛ إذ كان سببًا في تبويئِهم صدارةَ الأمم، بَيْدَ أنَّهم الآخِرون وجودًا في الدُّنيا.

دلالةُ التَّعبير بالرِّسالة في المفعولِ ﴿رَسُولٗا﴾ بعد ذِكر البعثة، ودلالةُ تنكيره:

سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ رسولٌ نَبيٌّ، ورسالتُهُ مكتمِلةُ العقيدة والشَّريعة

المفعولُ ﴿رَسُولٗا﴾ هنا يَعني خاتمَ الأنبياء وإمامَ المرسلين سيِّدَنا محمَّدًا ﷺ، "وكان ﷺ أيضًا أُمّيًّا مثلَ الأمَّةِ الَّتي بُعث فيهم، وكانت البشارةُ به في الكتب قد تقدَّمت بأنَّه النَّبيُّ الأُمّيُّ، وكونُه بهذه الصِّفة أبعَدَ مِن توهُّم الاستعانةِ على ما أتى به مِن الحكمة

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1411.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 115.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 228.

بالكتابة؛ فكانت حالُه مشاكِلةً لِحال الأمَّةِ الَّذين بُعث فيهم، وذلك أقربُ إلى صِدْقِهِ"[1].

والتَّعبيرُ بالرِّسالة في المفعول ﴿رَسُولًا﴾ بعدَ تقدُّم التَّعبير بفعل البعث في قوله: ﴿بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ يجمعُ للرَّسول ﷺ بين البعثة والرِّسالة، فيكونُ ﷺ رسولًا نبيًّا، وذلك يقرِّرُ استقلالَ رسالته، وكمالَ أركان عقيدتها، وتمامَ بُنيانِ شريعتها ووفائِها بأسباب السَّعادة لِمَن يَعتنِقُها.

معنى (مِن) في القيد ﴿مِّنْهُمْ﴾، ولطيفةُ هذا الوصف:

(مِن) في القيدِ بالصِّفة ﴿مِّنْهُمْ﴾ تَبعيضيَّةٌ، توحي بأنَّه ﷺ بعضٌ من كلٍّ، وتُصَوِّرُه ﷺ بالجزءِ المُتمِّم لكُلِّه، فبه يكتملُ، ومعه يلتئمُ، وهو ما يقتضي طَمْأنَةَ هؤلاء العربِ ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ إلى صدقِهِ في التَّبليغ عن الله تعالى.

ما مِن حيٍّ مِن العرب إلّا للرَّسول ﷺ فيهم قَرابَةٌ وقد ولَدوه، إلّا حيَّ تغلِب

أمّا حِكمةُ بَعْثِهِ ﷺ رسولًا أُمّيًّا مِنهم فلِموافَقَتِهِ ما تقدَّمتْ بشارةُ الأنبياء به، ولِمشاكلةِ حاله لأحوالهم؛ فيكونُ أقربَ إلى موافَقتهم، ولينتفيَ عنه سوءُ الظَّنِّ في تعلُّمه ما دعا إليه مِن الكُتب الَّتي قرأها، والحِكَم الَّتي تلاها[2].

وكذلك تَلفِتُ (مِن) التَّبعيضيَّةُ في الصِّفة ﴿مِّنْهُمْ﴾ إلى أنَّهم "يعلمون نسَبَهُ وأحوالَه"[3]، فيزيدُهم ذلك اطمئنانًا، قال العلماء: "ما مِن حيٍّ مِن العربِ إلّا لِرسول الله ﷺ فيهم قرابَةٌ وقد ولَدوه، إلّا حيَّ تغلِب، فإنَّ الله تعالى طهَّر نبيَّه ﷺ مِنهم؛ لِنصرانيَّتِهم؛ فلم يَجعَلْ لهم عليه ولادةً"[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 538.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 6.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 529.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 92.

نكتةُ تقييدِ ﴿رَسُولٗا﴾ بالوصف ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

كونُهُ ﷺ من العرب مِنَّةٌ تَستَوجِبُ شكرَ الله تعالى

في تقييدِ ﴿رَسُولٗا﴾ بالوصف ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه "ليس من أهل الكتاب، وهذا يعني: أنَّ هؤلاء الأمّيّين هم أهلٌ لِأنْ تُختارَ منهم رُسُلُ الله تعالى، كما هم أهلٌ لِأنْ يَتَلَقَّوا رسالاتِ الله تعالى، وتُنَزَّلَ إليهم كتبُ الله سبحانه"(1).

ثمَّ في كونِهِ ﷺ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ "مِنَّةٌ موجَّهةٌ للعرب؛ ليشكروا نعمة الله تعالى على لُطْفه بهم؛ فإنَّ كونَ رسول القوم منهم نعمةٌ زائدة على نعمة الإرشاد والهَدْي، وهذا استجابةٌ لِدعوة إبراهيمَ عليه السلام إذ قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ [البقرة: 129]، فتذكيرُهم بهذه النِّعمة استنزالٌ لطائرِ نفوسِهم وعنادهم.

وفيه تَوَرُّكٌ عليهم؛ إذ أعرضوا عن سماع القرآن؛ فإنَّ كون الرَّسولِ منهم وكتابِهِ بِلُغَتِهِم هو أعونُ على تَلَقّي الإرشاد منه؛ إذ يَنطِقُ بلسانِهم، ويَحمِلُهم على ما يُصلِحُ أخلاقَهم؛ ليكونوا حَمَلَةَ هذا الدّينِ إلى غيرهم"(2).

علَّةُ فصلِ قوله: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

تعدُّدُ صفاتِهِ ﷺ يُؤْذِنُ بتعدُّدِ فَضائلِه

فُصِلَتْ جملةُ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ عمّا قبلها؛ لوقوعها صفةً ثانيةً للمفعول ﴿رَسُولٗا﴾، فهو ﷺ ﴿مِّنۡهُمۡ﴾، وهو ﷺ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وتوالي الصِّفات يُؤْذِنُ بتعدُّدِ فضائلِهِ ﷺ، وتنوُّعِ بركات الله تعالى فيه على قومِه ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ وعلى غيرهم؛ ممّا يقتضي تلقّيَ الآيات، والإيمانَ بها، والعملَ بمقتضاها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتِّلاوة في الفعل ﴿يَتۡلُواْ﴾، وإشارةُ صوغِهِ مضارعًا:

وجهُ الإعجاز في أُمّيَّةِ الرَّسول أنَّه يقرأُ عليهم وهو أمّيٌّ، وقراءةُ أمّيٍّ بِغير تَعلُّمٍ آيةٌ بيِّنة

تلاوةُ الآياتِ في جملةِ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ تعني: القراءةَ "المتتابعة المرتَّلة، الّتي يكون بعضُها تِلْوَ بعضٍ"(3)، وذلك يتَّسِقُ مع

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 943.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 208.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 376.

عطاء المضارعة في الفعل ﴿يَتۡلُواْ﴾، فهو ﷺ ﴿يَتۡلُواْ﴾ ويُجدِّدُ التِّلاوة، ويتابعُها، ولا يألو جهدًا في سبيل استنقاذ قومه ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ مِن ظلامِ الجهل وضلالِ الكفر إلى أنوار العلم وهداياتِ الإسلام.

منهجُ الدَّعوة: تلاوةُ الآيات، ثمَّ تزكيةُ النُّفوس، ثمَّ تعليمُها الكتابَ والحكمة

وفي هذه التِّلاوة إلماحٌ إلى وجه الإعجازِ في أُمّيَّته ﷺ؛ إذ "يقرؤها عليهم مع كونه أمّيًّا مثلَهم لم تُعْهَدْ منه قراءة، ولم يُعرَف بِتَعَلُّمٍ، وقراءةُ أمّيٍّ بِغير تَعلُّم آيةٌ بيِّنة"[1].

والصِّفةُ ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ وما بعدها "تُبَيِّن محاملَ رسالته ﷺ إلى العَرَب، ومنهجَ دعوته لهم؛ فهو يَتلو عليهم آياتِ اللّه تعالى؛ أي: يُسْمِعُهم إيّاها، ويُلْقيها على أسماعهم مشافَهَةً منه، وهو الَّذي يتولّى تبليغَ رسالةِ ربِّه بنفسه"[2].

معنى (على) في القيد ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

ثقةُ النّاس في أنَّ الدّينَ منزلٌ مِن السَّماء يُطَمْئِنُهم إليه ويُغريهم بالإيمان به

(على) في جملة ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ حرفُ جرٍّ معناه الاستعلاءُ، وهو هنا استعلاءٌ مجازيٌّ، وفي تقييدِ التِّلاوة به إيحاءٌ بِسُموِّ المَتْلوِّ من الآيات، وإلماحٌ إلى تنزُّله مِن عند اللّه تعالى؛ ممّا يُسَكِّن نفوسَ ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ وغيرِهم، ويُطَمْئِنُهم إليه، ويُغريهم بالإيمان به، ويَحمِلُهم على الظَّفر ببركاته، واحتضانِ تشريعاته، والعملِ على مقتضاها.

نكتةُ تقديم القيدِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾:

بَعثُ الرَّسولِ في العرب، وتلاوتُه عليهم، وتزكيتُه إيّاهم، وتعليمُه لهم تشريفٌ إلى تشريف

تقديمُ القيدِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ في جملة ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يتناغمُ مع تقديم القيد السّابق ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ في جملةِ ﴿بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا﴾، ويتآزَرُ معه في بيان الاهتمام بهم، وكذلك يَلفِتُهم إلى فضيلةِ اختصاصِهم بهذا الشَّرف؛ حيث إنَّه ﷺ بُعِث فيهم هم، ويَتلو عليهم هم، إضافةً إلى كونه منهم هم، وذلك

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 520.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 943.

تشريفٌ إلى تشريفٍ إلى تشريف، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزُّخرف: 44].

دلالةُ التَّعبيرِ بالآيات، ولطيفةُ الإضافةُ في ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾، ولطيفةُ جمعِها:

الإضافةُ إلى الله تعالى تبعثُ على الثِّقة في المضافِ والطُّمأنينةِ إليه

الآياتُ المتلوَّةُ في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هي آياتُ الذِّكر الحكيم، الَّتي يتلوها ﷺ عليهم، ويُبلِّغُهم إيّاها آيةً تِلوَ آية، مبيِّنًا صحيحَ العقيدة، شارحًا صحيحَ الشَّريعة. أو الآياتُ هي: "الحلالُ والحرام وما أشبهه، أو الآياتُ: الحُجَجُ الّتي يُستظهَرُ بها الحقُّ، والله أعلم"(1).

وفي جمعِ ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلالةٌ على تَنَوُّعِها، وكثرةِ دلائلِها على صدق بعثتِه ﷺ، وثراءِ إشاراتها. وفي إضافةِ الآيات إلى ضمير الاسم الجليل في قوله: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ مَكْمَنُ التَّطمينِ لهؤلاء، ومَبعثُ التَّصديق لِدعوته ﷺ.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾:

تلاوةُ آياتِ الله تعالى تُفضي إلى تزكيةِ النَّفس، والتَّخلُّصِ مِن أرجاسِ الكفر

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ عاطفةٌ، تجمعُ له ﷺ بينَ فضيلتي تلاوةِ آيات الله تعالى على قومه ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، وتزكيتِهم وتطهيرِهم من شوائبِ الشِّركِ وأرجاسِ الكفر. والعطفُ هنا من عطف المُسَبَّب على سببه؛ فتزكيتُهم مسبَّبةٌ عن تلاوتِه عليهم ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ تلاوة تلك الآيات المباركات تُفضي إلى التَّزكيةِ والتَّخلُّصِ من الكفرِ وشوائبه.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل التَّزكية، وإشارةُ صَوغِهِ مضارعًا:

تجديدُ تلاوة آياتِ الله تعالى يُجدِّدُ التَّطهُّرَ من أدرانِ المعاصي وحلولَ البركةِ في التّالي

في التَّعبير بفعل التَّزكية في جملةِ ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ دلالةٌ على أنَّه "يُطهِّرُهم من أقذارِ العقائد والأخلاق والعادات الّتي كانت لهم في

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 6.

الجاهليَّة"[1]، و"يدعوهم إلى اتِّباع ما يَصيرون به أزكياءَ أتقياءَ"[2]، و"يُنَمّي الخيرَ فيهم"[3].

وفي صوغِ فعل التَّزكية مضارعًا في جملةِ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بيانٌ لتجدُّدِ بركاتِ تلك الآيات على أهلِها الَّذين يُجَدِّدون تلاوتَها، ويُجَدِّدون العملَ بمقتضاها.

معنى (الواوِ) في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾:

(الواوُ) في جملة ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عاطفةٌ، تجمعُ له ﷺ إلى ما سبق مِن تلاوةِ الآيات والتَّزكيةِ فضيلةً ثالثةً، هي تعليمُهم الكتابَ والحكمة، وهكذا جَعل اللّه تعالى في خاتم النَّبيّين ﷺ على البشريَّة عامَّةً وعلى ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ خاصّةً بركةً وخيرًا كثيرًا.

لـلـرَّسـولِ ﵊ فضلٌ كبيرٌ على البشرية عامَّةً وعـلى قـومِـهِ خاصّةً

دلالةُ التَّعبير بالتَّعليم في قوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾:

في التَّعبيرِ بالتَّعليم في جملةِ ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ إشارةٌ إلى جهلهم، وإلى حاجتِهم لهذا التَّعليم، مثلَ حاجة الطِّفل الصَّغير إلى مَن يُعَلِّمُه العلمَ جزئيَّةً بعدَ جزئيَّةٍ، وذلك يُترجِمُ بِقوَّةٍ فضلَ رسول اللّه ﷺ على أمَّته؛ فقد علَّمهم كلَّ شيءٍ في هذه الحياةِ؛ مِن العقائدِ الصّافية، والعبادات المشروعة، والعادات الصَّحيحة، والأخلاق الرَّفيعة، والآداب القويمة، مِن لحظةِ فتحِ الإنسان عينيه صباحًا إلى أنْ يأويَ إلى فراشه ليلًا، فعن حذيفةَ بن اليمان قال: كان النَّبيُّ ﷺ قَمِنًا أن يقول: إذا أخَذَ مضجعَه من اللّيل وضَعَ يدَه اليُمنى تحت خدِّه الأيمنِ، ثمَّ يقول: «اللهُمَّ بِاسْمِكَ أَحيا، وبِاسْمِكَ أموتُ»، فإذا استيقظ من اللّيل قال: «الحَمْدُ لِلّهِ الَّذي أحْياني بَعْدَما أماتَني وإلَيْهِ النُّشورُ»[4].

حاجةُ الأممِ إلى تعليمِ الدّين مُلِحَّةٌ، كحاجةِ الأطفالِ إلى تعليم مبادئ العلم

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 538.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 306.

(4) ابن حنبل، مسند أحمد، حديثُ حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمانِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: 38/ 323، برقم: (23286)، وقَمِنًا؛ أي: جديرًا.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تعريفيَّةٌ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: يُعلِّمُهم الكتابَ الَّذي أُنزل عليه ﷺ؛ أي: القرآنَ الكريمَ عند أغلب المفسِّرين، الَّذي اختصَّ اللّهُ تعالى به نبيَّهُ محمَّدًا ﷺ وأمَّتَهُ الإسلاميَّة، كتابًا خالدًا ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: 42].

القرآنُ يتَّسِمُ بكمالِ توجيهاته، وسموِّ تشريعاته، وفصاحةِ بيانه، ونصاعةِ أسلوبه

وتعريفُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بـ(أل) يوحي بكماله، وشموخِه في توجيهاته، وسموِّ تشريعاته، وبفصاحةِ بيانه، ونصاعةِ أسلوبه، وأنَّه سيظلُّ فوقَ كلِّ كتابٍ وفوقَ كلِّ تشريع، وسيخلَّدُ مَصونًا محفوظًا في صدور المؤمنين.

و"قال ابنُ عبّاسٍ: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ الخطَّ بالقلم؛ لأنَّ الخطَّ فَشا في العَرَب بالشَّرع لمّا أُمروا بتقييدِه بالخطِّ"(1)، واللّه تعالى أعلم.

معنى (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾:

تكامُلُ الدِّين بالقرآن والسُّنَّةِ، وبهما معًا تكون للأُمَّةِ أُستاذيَّةُ الإنسانيَّة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ عاطفةٌ، وهي هنا لمُطلَق الجمع، تجمعُ له ﷺ نوعين من تعليم ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، هما: تعليمُهم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وتعليمُهم (الحكمةَ)، وتوحي بأنَّ تعليمَهم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وحده لا يكفي، وأنَّ تعليمَهم (الحكمةَ) وحدَها لا يكفي أيضًا، وأنَّه لا بدَّ للمؤمن من الجمعِ بينهما.

وفي ذلك ردٌّ جليٌّ على القرآنيّينَ الَّذين يُنكِرون السُّنَّةَ، تصديقًا لقوله ﷺ: «يوشِكُ مُتَّكِئٌ على أريكَتِه يُحَدَّثُ بِحَديثي فَيَقولُ: بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ كِتابُ اللّهِ، فَما وجَدْنا فيهِ مِنْ حَلالٍ أَحْلَلْناهُ، ومِنْ حَرامٍ حَرَّمْناهُ، ألا وإنَّ ما حَرَّمَ رَسولُ اللّهِ ﷺ مِثْلُ ما حَرَّمَ اللّهُ ﷻ»(2).

وفي هذا دعوةٌ للعَرَب وللمؤمنين أنْ يتعلَّموا الكتابَ والحكمة،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 92.
(2) الطبراني، المعجم الكبير، الحَسَنُ بْنُ جابِرٍ، عَنِ المِقْدامِ بْنِ مَعْدي كَرِبٍ: 20/ 274، برقم: (649).

وذلك بِمُدارَسةِ كتاب اللّه تعالى؛ فمَن جعل هَمَّه له، ووجَّه عقلَه وقلبه إليه أصابَ العلمَ، وهذا من شأنه أنْ يجعلَ مِن أمَّة الإسلام - لو أنَّهم استجابوا لدعوةِ اللّه هذه - موطنَ العلم، ومعدِنَ الحكمة، وأن تكونَ لهم أُستاذيَّةُ الإنسانيَّةِ في العلم وفي الحكمة[1].

معنى (أل) في ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾:

الحكمةُ في أصل وضعِها اللُّغويِّ: العلمُ النّافع المصحوبُ بالعمل الصّالح، وفي وضعها إلى جانب الكتاب إشارةٌ إلى أنَّ المقصود بها السُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة؛ إذ بالكتاب وبالسُّنَّةِ يَعرِفُ النّاسُ أصلحَ الأقوالِ والأفعال، وأعدلَ الأحكام وأقومَ الآداب، وأسمى الفضائل[2].

السُّنَّةُ حكمةٌ مستنبَطةٌ من القرآن الكريم؛ فالحكمةُ تُؤخَذُ من كتاب الله تعالى

فـ(أل) في ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ تعريفيَّةٌ للعهدِ الذِّهنيِّ، وفي تعريفِها دلالةٌ على الكمال البشريِّ فيها، كما يدلُّ تعريف ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على الكمال الإلهيِّ فيه؛ فلا كتابَ يُضاهيه كمالًا إلهيًّا، ولا حكمةَ تضاهيها كمالًا بشريًّا، وفي تعريفها على ذلك إيحاءٌ باستغناء الأمَّة بهما عن كلِّ كتابٍ وعن كلِّ حكمة، وأنَّهما ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ المُغْنيان عن غيرِهما من الكُتب والحِكم.

وسُمّيَتِ السُّنَّةُ حكمةً لأنَّها مستفادة من كتاب اللّه، ومن النَّظر الملهِم في آياته وكلماته، فليس كلُّ ناظر في كتاب اللّه تعالى قادرًا على أنْ يتلقّى الحكمة عنه، وإنَّما رسولُ اللّه ﷺ هو الَّذي أخذ الحكمة كلَّها من كتاب اللّه تعالى بما أراه اللّهُ ﷻ[3].

ويتوسَّعُ الماتريديُّ في تأويل قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، فيذكرُ أنَّه كلامٌ مثنّى؛ وأنَّ الكتابَ والحكمة واحدٌ، أو الحكمةُ هي الفرائض، أو هي السُّنَّة؛ لأنَّه كان يتلو عليهم آياته،

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 943.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 376.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 943.

ويعلِّمُهم سنَّتَهُ؛ إمّا بلطفٍ من الله تعالى وإلهامِه إيّاه أو بالوحي، ومنهم مَن قال: الكتاب: ما يُتلى من الآيات نصًّا، والحكمةُ: ما أودِعَ فيها من المعاني؛ والله أعلم[1].

نكتةُ تقديمِ تعليمِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على تعليمِ (الحكمة):

رُتبةُ القرآنِ الكريمِ مقدَّمةٌ على رُتبةِ السُّنَّةِ الشَّريفةِ وإنْ كانَ الدّينُ يتكاملُ بهما معًا

ولأنَّ السُّنَّةَ حِكمةٌ مستنبَطَةٌ من القرآن الكريم قُدِّمَ ذكرُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ عليها؛ إذ هو الأصلُ في الدّين؛ ففي تقديم تعليم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ على تعليم (الحكمة) بيانُ تقدُّم رُتبة ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وأنَّ (الحكمة) شارِحةٌ له، مفصِّلةٌ لِمُجمَله، مقيِّدةٌ لِمُطلَقِه، والله تعالى أعلم.

دلالةُ ترتيبِ جُمَلِ الصِّفات الثَّلاث ﴿يَتۡلُواْ﴾، ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾:

مبدأُ التَّخليَةِ قبلَ التَّحليَةِ منهجٌ قرآنيٌّ أصيل

جاء ترتيبُ جُمَلِ الصِّفات الثّلاثِ: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ مُراعيًا مراحلَ مَهامِّ الرَّسول ﷺ في الدَّعوة، فالمرحلةُ الأولى هي مرحلةُ تلاوةِ الآيات عليهم؛ ليسمعوها ويتدبَّروا معانيَها، فيبدأ تأثيرُها في تطهيرِ أنفسهم من أسباب الكفرِ وأدرانِ الشِّرك، وهذه هي المرحلة الثّانية؛ مرحلةُ التَّزكية، ثمَّ تأتي المرحلةُ الثّالثة؛ مرحلةُ تربيةِ العقائدِ الصّحيحة، وبناءِ الشَّرائع المُحكَمَة.

وباتِّباع هذه المراحلِ يتحقَّقُ المنهجُ الأمثل، منهجُ التَّخلِيَة قبل التَّحلِيَة؛ فالتَّخليةُ هنا تتحقَّقُ بتطهيرِ النَّفس من الكفر وظُلمته، ثم تأتي التَّحلية ببناء الإيمان الصّافي في النَّفس، ووضعِ التَّشريع الصَّحيح لحياتها.

وذلك ما لامَسَه الشَّيخُ طنطاوي، حيث يذكرُ أنَّ ترتيبَ جُمَل الصِّفات ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ "في أسمى درجاتِ البلاغة والحكمة؛ لأنَّ أوَّل مراحل تبليغِ الرِّسالة

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 6، بتصرف.

يكونُ بتلاوة القرآن، ثمَّ ثنّى سبحانه بتزكية النُّفوس مِن الأرجاس، ثمَّ ثلَّث بِتعليم الكتاب والحكمة؛ لأنَّهما يكونان بعدَ التَّبليغ والتَّزكية للنُّفوس؛ ولذا قالوا: إنَّ تعليمَ الكتاب غيرُ تلاوته؛ لأنَّ تلاوته معناها قراءتُه قراءةً مرتَّلَةً، أمّا تعليمُه فمعناه: بيانُ أحكامه، وشرحُ ما خَفيَ من ألفاظه وأحكامِه"(1).

وقد فهم أبو السُّعود أنَّ التَّعليم مترتِّبٌ على التِّلاوة، وأنَّ التَّزكية توسَّطت بينهما للطيفةٍ مقصودة، فيقول: "وسَّط بينَهما التَّزكيةَ الَّتي هي عبارةٌ عن تكميل النَّفس بحسب قوَّتِها العَمَليَّة، وتهذيبِها المتفرِّع على تكميلها بحسب القوَّةِ النَّظريَّة، الحاصلِ بالتَّعليم المترتِّب على التِّلاوة؛ للإيذان بأنَّ كُلًّا من الأمور المترتِّبة نعمةٌ جليلة على حيالِها، مُستوجِبةٌ للشُّكر، فلو روعي ترتيبُ الوجود لَتبادَر إلى الفهم كونُ الكلِّ نعمةً واحدةً"(2).

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ في قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾:

ورَدَ متشابهُ هذه الجمل الثَّلاث: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ مجتمعةً في الذِّكر الحكيم في ثلاثةِ مواضعَ:

الأوَّلُ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129].

والثّاني في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: 164].

والثّالثُ هنا في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: 2].

وقد اتَّفقتْ آيتا آلِ عمران والجمعةِ على ترتيب تلك الجمل بتوسيطِ جملة ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، بينَما خالفت آيةُ البقرةِ، فأخَّرت جملةَ ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وهي مِن دعاءِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما السلام حينما رَفعا القواعدَ من البيت، إذ يقولان: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ﴾ [البقرة:

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 377.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 247.

المتشابهُ اللَّفظيُّ في الذِّكر الحكيم آيةٌ في الوفاءِ بحقِّ السّياقات والمقامات

[129] الآيةَ، أمّا الآيتان الأُخريان فمِن إخبار اللّه تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: 164]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾، ولا شكَّ أنَّ ترتيبَ إخبار اللّه تعالى قد راعى مبدأ التَّخلية قبل التَّحلية، بتقديم التَّزكية على التَّعليم، أمّا دعوةُ إبراهيمَ وإسماعيل فاجتهادُ نَبيَّيْنِ من البشَر، فاختلَفَ التَّرتيبان، واللّه تعالى أعلمُ بأسرار كتابه.

ويعتبرُ الآلوسيُّ - تبعًا لأبي السُّعودِ - أنَّ الأصل تأخيرُ التَّزكية عنهما، فيقول: "التَّعليمُ معطوفٌ على ما قبله، مترتِّب على التِّلاوة، وإنَّما وُسِّطَ بينَهما التَّزكيةُ الَّتي هي عبارةٌ عن تكميلِ النَّفس بحسبِ القوَّةِ العمليَّة، وتهذيبِها المتفرِّع على تكميلِها بحسبِ القوَّة النَّظريَّة، الحاصلِ بالتَّعليم المترتِّب على التِّلاوة؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأمور المترتِّبةِ نعمةٌ جليلةٌ على حيالِها، مُستوجِبةٌ للشُّكر. ولو روعي ترتيبُ الوجود - كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ﴾ [البقرة: 129] - لتبادَرَ إلى الفهم عَدُّ الجميعِ نعمةً واحدةً"[1]، وقد بيَّنّا أنَّ مبدأ التَّخلية قبل التَّحلية بخلاف ذلك، واللّه تعالى أعلم.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ أُمّيَّته ﷺ وبينَ تلاوته الآياتِ وتعليمِه الكتابَ والحكمة:

المُحسِّنُ البديعيُّ في القرآن الكريم عُنصرٌ أصيلٌ في تحقيقِ المطابقةِ لمقتضى الحال

في قول اللّه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ طباقٌ لافِتٌ بينَ كونِه ﷺ أُمّيًّا من ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ لا يقرأ ولا يكتب، وبينَ كونه بالبَعث ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، و﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾.

وفضيلةُ هذا الطِّباق أنَّه يُبرِزُ وجْهَ الإعجاز في بعْثَته ﷺ؛ إذ تحوَّلَ الأمّيُّ تاليًا آياتِ اللّه تعالى، ومعلِّمًا ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، ومربّيًا عقولَهم ومُزكّيًا نفوسَهم، قد "أتى أُمَّتَهُ بجميع الفوائد الَّتي أتى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 247، والآلوسي، روح المعاني: 2/ 325.

بها الرُّسُل غيرُ الأمّيّين أُمَمَهم، ولم يَنقُصْ عنهم شيئًا، فتمحَّضَتِ الأمّيَّةُ للكَوْنِ معجزةً حصَلَ مِن صاحبِها أفضلُ ممّا حصَلَ مِن الرُّسُلِ الكاتبين مثلِ موسى"[1].

وبغيابِ هذا الطِّباق يغيبُ وجهُ المعجزة؛ فكان الطِّباقُ هنا ضروريًّا؛ إذ اقتضاه المعنى، وساق نحوَهُ الغرضَ، فجاء وافيًا بحقِّ المقام، لا مجرَّدَ مُحَسِّنٍ بديعيٍّ ككلام البشر.

معنى (الواوِ) في قولِهِ: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٍ﴾:

نعمةُ الرِّسالةِ المحمَّديةِ أنقذَتِ العربَ خصوصًا والبشريَّةَ عمومًا من ضلالٍ مُطبِق

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٍ﴾ واوُ الحال؛ أي: يزكّيهم ويعلِّمهم والحال أنَّهم كانوا في ضلالٍ مبين؛ أي: أنَّه ﷺ استنقَذَهم من الضَّلال وهم موحِلون فيه.

وفي هذه الواوِ دلالةٌ على أنَّ نعمةَ إرسال هذا الرَّسول إليهم ليست قاصرةً على رفعِ النَّقائصِ عنهم، وعلى تحليَتِهم بكمالِ علم آياتِ الله، وزكاةِ أنفسهم، وتعليمِهم الكتابَ والحكمة، بل هي أجَلُّ من ذلك؛ إذ كانت منقِذةً لهم مِن ضلالٍ مبينٍ كانوا فيه، وهو ضلالُ الإشراك بالله[2].

أصلُ (إنْ) ومعناها في قوله: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ﴾:

الحُكمُ على العرب بالضَّلال قبلَ البعثةِ المحمَّديَّةِ مؤكَّدٌ

ذكر أغلبُ المفسِّرين أنَّ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هي "المخفَّفة من الثَّقيلة؛ و(اللّام) دليلٌ عليها"[3]، وأُبطِلَ عملُها بعد تخفيفِها، فدخلت على الجملة الفعلية ﴿كَانُواْ﴾ كما هو غالبُ شأنِها إذا خُفِّفت وأُهمِلت، واللّام في قوله: ﴿لَفِي ضَلَٰلٍ﴾ هي اللّام الفارقة الَّتي تفيد الفرقَ بين (إن) النّافية و(إن) المخفَّفة من الثَّقيلة، وهي في الأصل اللّام المزحلقة الّتي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 209.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 210.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 530.

تقترن بخبرها المتأخر؛ إذ الأصل: وإنَّهم لفي ضلال مبين[1]. "وقيل: (إنْ) بمعنى (ما)، و(اللّام) في الخبر بمعنى (إلّا)؛ أي: وما كانوا من قبلُ إلّا في ضلالٍ مبينٍ. ومثلُهُ: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة: 198]؛ أي: وما كنتم من قبله إلّا مِن الضّالّين، وهو مذهب الكوفيّين"[2]. وقيل: (إنْ) تحقيقيَّةٌ بمعنى (قد)؛ أي: وقد كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

وعلى كُلٍّ فالحُكْمُ عليهم قبل البعثة بالضَّلالِ مؤكَّدٌ؛ إذ كلُّ الأوجهِ المذكورة تصبُّ في هذا المعنى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكونِ الماضي في جملةِ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ﴾:

في التَّعبير بالكون الماضي في جملةِ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إيحاءٌ بأنَّ هذا الحكمَ مقطوعٌ به في حقِّهم، وأنَّ الضَّلال المبين كان مُتحقِّقًا فيهم قبلَ بعثة النَّبيِّ ﷺ؛ وأنّهم لذلك كانوا في مسيسِ الحاجة إلى بعثته، والاقتباس من أنوار رسالته.

كانَ الضَّلالُ متغلغِلًا في العربِ وأهلِ الكتابين قبل البعثة؛ فكانت حاجتُهم إليها أكيدة

على أنّ العرب كانوا قديمًا متمسِّكين بدين إبراهيمَ الخليل عليه السلام، فبدَّلوه وغيَّروه، واستبدلوا بالتَّوحيد شِرْكًا، وباليقين شَكًّا، وكذلك أهلُ الكتابين قد بدَّلوا كتبَهم وحرَّفوها وغيَّروها وأوَّلوها؛ فبعث الله تعالى محمَّدًا صلوات الله وسلامه عليه بِشَرْعٍ عظيمٍ كاملٍ شاملٍ لجميع الخلق[3].

معنى ﴿مِن﴾ في القيدِ ﴿مِن قَبْلُ﴾:

(مِن) الدّاخلةُ على (قبل) في النَّظم القرآنيِّ مزيدةٌ صِناعةً لازمةٌ بلاغةً

﴿مِن﴾ في القيدِ ﴿مِن قَبْلُ﴾ - أي: "قبلَ بَعثِهِ فيهم"[4] مزيدةٌ على أصلِ التَّركيب صناعةً؛ وزيادتُها حتميَّةٌ؛ لِتأكيدِ الحكم بضلالهم قبلَ بعثتِهِ ﷺ، وتزكيتِهِ إيّاهم، وتعليمِهِ إيّاهم الكتابَ والحكمة،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 210.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 4/ 264.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 116.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 294.

وهكذا هي ﴿مِن﴾ الدّاخلةُ على ﴿قَبۡلُ﴾ في النَّظم القرآنيِّ، مزيدةٌ صِناعةً لازمةٌ بلاغةً، واللّه تعالى أعلم.

نكتةُ تقديم القيد ﴿مِن قَبۡلُ﴾ على القيدِ ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ﴾:

في تقديم القيدِ بالظَّرف ﴿مِن قَبۡلُ﴾ على القيدِ بالجارِّ والمجرور ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ مزيدُ تنبيهٍ إلى سوءِ حالهم قبلَ بعثته ﷺ، وأنَّ تتبُّعَ أخبارهم، وتدبُّر حالهم في تلك المرحلة يقودُ حتمًا إلى تبيُّنِ مدى ما لَفَّهم مِن ضلال، وما هاموا فيه مِن فساد وإفساد، وهو ما يعكسُ عظمةَ ما استنقذهم به ﷺ من أسبابِ التَّزكية والتَّعليم من آيات اللّه تعالى.

آيــاتُ الـقـرآنِ بحُسنِ تلاوتِها وتبيينِ دلالتِها كفيلةٌ باستنقاذِ أهلِ الضَّلال

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

و(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ توكيديَّةٌ؛ تقرِّرُ انغماسَهم في ظلمةِ الضَّلال الرّوحيِّ العَقَديِّ والأخلاقيِّ السُّلوكيِّ، وهو ما يعكسُ عَظمةَ البعثة المحمَّديَّة، ويُجَلّي بركتَها عليهم؛ إذ أنقذتهم منه، وحوَّلتهم إلى ضدِّه مِن الهُدى.

معنى (في)، وبلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

(في) في متعلّق الخبر ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ﴾ للظَّرفية المجازيَّة، حيث تُصوِّرُ الضَّلالَ بشيءٍ مُعْتِم مظلم بهيم، وأنَّ ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ قد غطّوا فيه غَطًّا، وغابوا فيه، فلا يهتدون للخروج منه سبيلًا، وأنَّ بعثَتَهُ ﷺ رحمةٌ من اللّه تعالى، تدارَكَتْهم لِتستنقذَهم منه، وهو ما يوجِبُ عليهم حَمْدَه تعالى، وشُكْرَهُ ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ضَلَٰلٖ﴾، ونكتةُ تنكيره، ووصفِه بـ﴿مُّبِينٖ﴾:

التَّعبيرُ بـ ﴿ضَلَٰلٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يعني: أنَّهم كانوا في بُعْدٍ واضح عن الحقِّ والحكمة؛ لِجاهليَّتهم

أشدُّ الضَّلالِ السُّجودُ لِصَنمٍ والذَّبحُ له، ووَأْدُ البنتِ حيَّة

الَّتي كانوا فيها[1]، وكانوا في جَوْرٍ عن قصدِ السَّبيلِ، وأخْذٍ على غيرِ هدًى[2]، وكانوا مشركين عبدةَ الأصنام، ليس عندهم كتابٌ، ولا يعرفون الحكمةَ[3]، فلا ترى ضلالًا أعظمَ من ضلالِهم[4]، وتنكيرُ ﴿ضَلَٰلٖ﴾ يدلُّ على عِظَمِ خطره على مَن لم يَهتَدِ بهُدَى الإسلام.

وليس في الدُّنيا ضلالٌ أشدُّ ظلمةً من السُّجود لِصَنمٍ أو الذَّبحِ له، ومن وأْدِ فِلْذةِ الكبدِ حيَّةً.

ووَصْفُ الضَّلال بالمبينِ يحتمل أمرين: أنْ يكون ﴿مُّبِينٖ﴾ بمعنى "بيِّنٍ لا ريبَ في كونه ضلالًا"[5]، "وهو من شدَّةِ ظُهوره كالَّذي ينادي على نفسِهِ بإيضاحِ لَبْسِهِ"[6]. أو أنْ يكونَ ﴿مُّبِينٖ﴾ على معناه الحقيقيِّ؛ "لأنَّه لشدَّتِهِ لا يلتبسُ على أحدٍ بشائبةِ هدًى أو شبهةٍ، فكان حالُهُ مُبينًا كونَهُ ضلالًا"[7]، فـ"كان ضلالًا مبينًا لأنَّه أفحشُ ضلالٍ، وقد قامت على شناعته الدَّلائلُ القاطعة؛ أي: فَأَخْرَجَهم من الضَّلال المبين إلى أفضلِ الهُدى، فهؤلاء هم المسلمون الَّذين نَفَروا إسلامَهم في وقت نزول هذه السّورة"[8].

بلاغةُ المجاز في ﴿ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾:

ظُلمةُ الكُفرِ كثيفةٌ؛ تحجب عن الكافرِ ما يُنيرُ للرّوحِ دُروبَ الهُدى

في كلمة ﴿ضَلَٰلٖ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ وذلك بتشبيهِ الضَّلال الَّذي يَغمُرُ روحَ الكافر بوعاءٍ يَحوي جسمًا، أو ظرفٍ يَلُفُّ مظروفَه، ويحيطُ به، ويُغَيِّبه داخلَه، وحُذف ذلك المشبَّهُ به، ودُلَّ عليه بِحرف الظَّرفية (في)، وفي تلك الصّورة تخويفٌ للعاقل مِن أنْ تغرقَ روحُه

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 628.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 6.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 530.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 2/ 108.
(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآي والسور: 5/ 116.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 160.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 210.

في تلك الظُّلمات، أو تسقطَ في ذلك المستنقع؛ فتحجُبَ عنه أنوارَ الهُدى، والعياذ بالله.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ﴾:

سيِّدُنا محمَّدٌ ﷺ رســـولٌ للعالمين، ودينُهُ الإسلاميُّ رسالةٌ عالميَّة

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ عاطفةٌ، عطفت (آخرين) على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، فتُدخِلُ (آخرين منهم لمّا يلحقوا بهم) في ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، في كون رسول الله ﷺ ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وفي تلاوته ﴿عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، وفي تزكيته وتعليمه إيّاهم ﴿ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، وفي ذلك إشارةٌ إلى عالميَّةِ الدّين الخاتم؛ أي: "أنَّه تعالى بَعثه في ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ الَّذين على عهده، وفي (آخرين) من الأمّيّين لم يلحقوا بهم بعدُ، وسيَلحَقون بهم، وهم الَّذين بعدَ الصَّحابةِ ﵃. وقيل: لمّا نزلت قيل: مَن هم يا رسول الله؟ فوضع يدَهُ على سلمانَ ثمَّ قال: «لَوْ كانَ الإيمانُ عِنْدَ الثُّرَيّا لَنالَهُ رِجالٌ - أَوْ رَجُلٌ - مِنْ هَؤُلاءِ»[1]، وقيل: هم الَّذين يأتون مِن بعدِهم إلى يوم القيامة.

أو (الواوُ) عاطفةٌ "على المفعولِ المنصوب في ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾؛ أي: يُعَلِّمُهم ويُعلِّم آخرين؛ لأنَّ التَّعليم إذا تَناسَقَ إلى آخرِ الزَّمان كان كلُّه مستنِدًا إلى أوَّله، فكأنَّه هو الَّذي تولَّى كلَّ ما وُجِد منه"[2].

وفي هذا دليلٌ على "أنَّ الإسلام سيَدخُلُ فيه مَن كان بعيدًا عن موطن الدَّعوة بُعْدَ الثُّريّا، وهذا يعني امتدادَ رقعةِ الإسلام، وامتدادَ سُلطانه في أطراف الدُّنيا، وهذا مِن أنباء الغيب الَّتي أوحاها اللهُ إلى النَّبيِّ ﷺ، فقد دخلت في الإسلام طوائفُ وجماعاتٌ من جميع الأمم"[3].

وقد ذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ (الواوَ) عاطفةٌ على الضَّمير

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجُمُعَةِ: 6/ 151، برقم: (4897).
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 530.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 945.

المجرور في جملة ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: ويتلو على آخرين، وإذا كان ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ فقد عُلِم أنَّه مُرسَلٌ إليهم؛ لأنَّ تلاوة الرَّسول ﷺ لا تكون إلّا تلاوةَ تبليغٍ لِما أوحيَ به إليه.

أو يُجْعَلُ (آخرين) مفعولًا معه، و(الواو) للمعيَّة، ويَتَنازَعُه الأفعالُ الثّلاثة، وهي: ﴿يَتْلُواْ﴾، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾. والتَّقدير: يتلو على الأمّيّين آياته ويزكّيهم ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة مع آخرين.

فقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ دائرٌ بينَ النَّصب بالعطفِ أو المعيَّةِ، وبينَ الجرِّ بالعطف على محلِّ الضَّميرِ المجرورِ بحرف الجرّ.

وفي ذلك كلِّه دلالةٌ على عالميَّةِ رسالةِ سيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ.

وعلى جميعِ الأوجُهِ الإعرابيَّةِ المتقدِّمةِ تكونُ جملةُ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ معترضةً إمّا بين المعطوف والمعطوف عليه، وإمّا بين الضَّمائر والمفعول معه[1].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿وَءَاخَرِينَ﴾، ولطيفةُ تنكيرِه:

الإيمانُ بدينِ اللهِ تعالى يُزكّي صاحبَه، ويَمنَحُه وسامَ الطُّهر، ويُدخِلُه في المسلمين

﴿وَءَاخَرِينَ﴾ جمعُ آخَر، وهو: المغايرُ في وصفٍ ممّا دلَّ عليه السّياق. ولمّا جُعِلَ (آخرين) هنا مقابِلًا لـ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ كان مرادًا به آخَرون غيرُ الأمّيّين؛ أي: مِن غير العرب المَعْنيّين بِالأمِّيّين[2]، ففي التَّعبير بـ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ إفساحٌ لدلالة العموم، وتنويعٌ للمشمولين في الدَّعوة المحمَّديَّة؛ فإنَّها تتَّسِعُ لجميع أصحاب المِلَل والنِّحَل، وكلُّ مَن لحِقَ برَكْبِ الإيمان صار ﴿مِنْهُمْ﴾، ويدعمُ تلك الإشارةَ تنكيرُ (آخرين)؛ فإنَّه يجعلُهم أكثرَ شمولًا وتنوُّعًا.

والمعنى: ويعلِّمُ آخَرين ويزكِّيهم، وهم المسلمون بعد الصَّحابة، أو هم العجم بعدَ العرب؛ فعن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «رأيتُ في منامي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 210.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 211.

غَنَمًا سودًا، تَتبعُها غنمٌ عُفْرٌ»، فقال أبو بكر: يا رسول اللّه، تلك العربُ يتبعُها العجم، فقال: «كذلك عبَّرها لي المَلَك»[1]، أو هم الملوكُ أبناء الأعاجم، أو هم الأطفالُ بعد الرِّجال، أو هم النِّساء بعد الرِّجال[2].

وغيرُ العرب "إذا أسلموا صاروا ﴿مِنۡهُمۡ﴾، والمسلمون كلُّهم يَدٌ واحدةٌ وأُمّة واحدة وإن اختلفت أجناسهم، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [التَّوبة: 71]، ومَن لَم يؤمن بالنَّبيِّ ﷺ فإنَّهم لَيسوا ممّن عَناهم اللّه تعالى بقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ﴾ وإن كان مبعوثًا إليهم بالدَّعوة؛ لأنَّه قال: ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، ومَن لم يؤمن فإنَّه ليس ممَّن زكّاهُ وعلَّمَهُ القرآنَ والسُّنَّةَ"[3].

معنى (مِن) في المتعلّق ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

(مِن) في قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ﴾ تبعيضيَّةٌ، تُقرِّرُ اندماج كلِّ من يؤمن باللّه تعالى وبرسالة خاتم المرسلين ﷺ في أهل الإيمان؛ حيث يقول تعالى: ﴿بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾، وقد عمل الدّينُ الحنيف على تأكيد أُخوَّةِ الإيمان، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: 10]؛ "فالضَّميرُ المجرور بـ(مِن) عائد إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿كَانُواْ﴾ من قوله: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، والمعنى: أنَّ آخرين من الضّالين يتلو عليهم آيات اللّه تعالى ويزكّيهم ويعلِّمُهم الكتاب والحكمة. أو (مِن) اتِّصاليَّةٌ، كالّتي في قوله تعالى: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: 159]. والمعنى: وآخرين يَتَّصلون بهم، ويصيرون في جملتهم"[4].

مرجعُ الضَّمير في ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

تعدَّدَتْ تأويلاتُ المفسِّرين لمرجع الضَّمير المجرور في القيد ﴿مِنۡهُمۡ﴾، بناءً على تعدُّدِ رُؤاهم في تفسير (آخرين) من جملة ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾، فذهب أغلبُ المفسِّرين إلى أنَّ الضَّمير في ﴿مِنۡهُمۡ﴾ و﴿بِهِمۡۚ﴾ راجع إلى الأمّيّين، وهذا يؤيِّدُ أنَّ المراد

(1) الحديث في المستدرك، ونَصُّه: «إنّي رَأيتُ في المَنامِ غَنَمًا سَوْداءَ يَتْبَعُها غَنمٌ عُفْرٌ، يا أبا بَكرٍ اعْبُرْها»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هي العرب تتبعك ثمَّ تتبعها العجم حتّى تغمرها، فقال النَّبيُّ ﷺ: «هَكَذا عَبَرَها المَلَكُ بِسَحَرَ»، يُنظر: الحاكم، المستدرك على الصَّحيحين، كِتابُ تَعْبيرِ الرُّؤْيا: 4/ 437، برقم: (8193).

(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 7، بتصرف.

(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 294.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 211، بتصرف يسير.

بـ(آخرين) هم مَن يأتي بعدَ الصَّحابة مِن العرب خاصَّةً إلى يوم القيامة، والرَّسولُ ﷺ مرسلٌ إلى جميع الثَّقَلين، إلّا أنَّ تخصيصَ العرب ها هنا لِقصد الامتنان عليهم، وذلك لا يُنافي عموم الرِّسالة[1].

بـعـثـتُـهُ ﷺ هدايةٌ لكلِّ مَن اعـتـنَـقَـهـا مِـن الأمم جميعًا

ومِن المفسِّرين مَن استبعَدَ أن يكون المقصودُ بـ﴿مِنْهُمْ﴾ العربَ؛ أي: أنْ يكونَ المقصودُ عربًا آخرين غيرَ قريش؛ فإنَّ ذلك القولَ - كما يقول ابن عاشور - "ناكَدَهُ ما رَوَى البخاريُّ ومسلم والتِّرمذيُّ عن أبي هريرة قال: كنّا جلوسًا عند النَّبيِّ ﷺ فأُنزلت عليه سورةُ الجمعة، فتلاها، فلمّا بَلَغ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ قال له رجلٌ: مَن هم يا رسول الله؟ فلم يُراجعه حتّى سأل ثلاثًا، وفينا سلمانُ الفارسي، ووضَعَ رسول الله يدَهُ على سلمانَ وقال: «لو كان الإيمان عند الثُّريّا لناله رجالٌ من هؤلاء»"[2].

وهذا - أي: ربطُ توجيهِ معنى ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ بالفُرْس ممثَّلين في سَلمانَ رضي الله عنه - واردٌ موردَ التَّفسير لقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾، والَّذي يَلوح أنَّه تفسيرٌ بالجزئيِّ على وجهِ المثال؛ ليفيدَ أنَّ (آخرين) صادقٌ على أُمم كثيرة مِنها أُمَّةُ فارسَ، وأمّا شموله لقبائلِ العرب فهو بالأولى؛ لأَنَّهم ممّا شملهم لفظُ الأمّيّين؛ لأنَّه لم يُصرَّح في جواب سؤال السّائل بِلفظٍ يَقتضي انحصارَ المراد بـ(آخرين) في قوم سلمانَ[3].

نكتةُ القيدِ بالوصف ﴿مِنْهُمْ﴾:

وصفُ (آخرين) بكونهم ﴿مِنْهُمْ﴾ تقريرٌ لمبدأ أُخوَّةِ الإسلام، السّاميةِ فوقَ كلِّ أنواعِ الأخوّة وروابطِ العَلاقات، وذلك ما تجسَّدَ سريعًا في أحلكِ المواقف، كما قال أبو عزيزٍ وقد أُسِر يومَ بدر: "مَرَّ

من إخبارِ القرآن الكريم بالغيبِ ما تحقَّقَ على وجهِ الدِّقَّةِ والكمال

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 268.
(2) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجُمُعَةِ: 6/ 151، برقم: (4897).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 211.

بي أخي مصعبُ بن عمير ورجلٌ من الأنصار يأسرُني، فقال: شُدَّ يديك به؛ فإنَّ أُمَّه ذاتُ متاع؛ لعلَّها تفديه منك"(1)، زاد في سبل الهدى والرَّشاد: "فقلت: يا أخي هذه وصاتُك بي؟ فقال له مصعبٌ: إنَّه أخي دونك"(2).

و"في الآية معجزة من معجزات النُّبوَّة، وذلك في الإخبار عن غيبٍ وقع، والبشارة بدخول أُمَم غيرِ العرب في الإسلام قد حصل، فقد صارت تلك الأممُ الَّتي أسلمت من العرب؛ لأنَّ بلادهم صارت بلادَ العرب، ولغتُهم لغةَ العرب، وكذلك دينُهم وعاداتهم، حتّى أصبحوا من العرب جنسًا ودينًا ولغة، وحتّى صار لفظ العرب يطلق على كلِّ المسلمين مِن جميع الأجناس؛ لأنَّهم أمَّةٌ واحدة، ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المؤمنون: 52]، فصدق اللّه العظيم"(3).

موقعُ جملةِ ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾:

مَـن أسـلَـمَ من غير العرب صار منهم، وتحقَّقت بينهم الأُخوَّة

جملةُ ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ صفةٌ ثانية لـ (آخرين) بعد الصِّفة الأولى ﴿مِنۡهُمۡ﴾؛ ليظلَّ باب الأخوَّة الإيمانيَّة مفتوحًا لدخول مَن يلحقُ بهم إلى يوم الدّين. أو "موضعُ جملة ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ موضعُ الحال؛ وينشأ عن هذا المعنى إيماءٌ إلى أنَّ الأمم الَّتي تدخلُ في الإسلام بعد المسلمين الأوَّلين يَصيرون مِثلَهم، وينشأ منه أيضًا رمزٌ إلى أنَّهم يتعرَّبون؛ لِفَهْم الدّين والنُّطق بالقرآن، فَكَمْ مِن معانٍ جليلة حَوَتْها هذه الآية سكَتَ عنها أهلُ التَّفسير.

وهذه بشارةٌ غيبيَّةٌ بأنَّ دعوة النَّبيِّ ﷺ ستبلغُ أُمَمًا ليسوا من العرب وهم فارسُ، والأرمنُ، والأكرادُ، والبربرُ، والسّودانُ، والرّومُ، والتُّركُ، والتَّتارُ، والمغولُ، والصّينُ، والهنودُ، وغيرُهم، وهذا من

(1) الأنصاري، سيرة ابن هشام: 2/ 209.
(2) الصالحي، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد: 4/ 66.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 228.

معجزات القرآن من صنف الإخبار بالمغيَّبات، وفي الآية دلالةٌ على عموم رسالة النَّبيِّ ﷺ لجميع الأمم"[1].

معنى ﴿لَمَّا﴾ في جملةِ ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾:

﴿لَمَّا﴾ في جملة ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ نافيةٌ نفيًا مؤقَّتًا، والمعنى: أنَّهم "لم يجيئوا بعدُ، وسيجيئون"[2]؛ فهي مبشِّرةٌ بدخول أعدادٍ هائلة وأصنافٍ متكاثرة من الأُمم في الدّين الجديد، وقد تحقَّقَ ذلك، فدخَلَ العربُ والفرس والرّوم والوثنيّون وغيرُهم كثيرون في دين اللّه تعالى أفواجًا، ولا زالوا - وسيظلّون - يدخلون إن شاء اللّه تعالى؛ تحقيقًا لتلك البشارة القرآنيَّة المطويّة في ﴿لَمَّا﴾ هنا؛ ولذلك أوثِرتْ على أختها (لَم)، واللّه تعالى أعلم.

ومن لطائفِ استعمال ﴿لَمَّا﴾ دون (لم) على هذا التَّأويلِ استحثاثُ هِمَمِ المؤمنين المتأخِّرين زمانًا لعمل الصّالحات، وذلك بالتَّلويح لهم بإمكان إدراك المنازل العالية كما أدرَكَها الأوَّلون السّابقون، واللّه تعالى أعلم.

بينَ يَدَيْ مؤمني آخـرِ الـزَّمـانِ فـرصـةُ إدراكِ المـنازلِ العالية مِـن الـرِّضـوان والجِنان

دلالةُ التَّعبيرِ باللَّحاق في جملة ﴿يَلۡحَقُواْ﴾، وصوغِهِ مضارعًا:

إيثارُ التَّعبير بمُفردةِ اللَّحاق في الفعل ﴿يَلۡحَقُواْ﴾ داعمٌ لتلك الإشارة الكامنة في ﴿لَمَّا﴾ من أنَّهم سيلحقون، وأنَّ هؤلاء الـ(آخرين) على خُطا السّابقين إلى الإسلام قادمون إنْ شاء اللّه تعالى، وأنَّ تأخُّرَ بعضِهم عن اللَّحاق مجرَّدُ وقتٍ ولِحكمةٍ يعلمها اللّه تعالى، وأنَّ تأخُّرَ بعضهم الآخر لِتأخُّرِ زمان وجودهم في الدُّنيا.

وصوغُ فِعل اللَّحاق في جملة ﴿يَلۡحَقُواْ﴾ مضارعًا يتناغمُ مع دلالة اللَّحاق في دعم البشارة بإسلام (آخرين)، واستحضار صورتهم وهم يلحقون نشِطين سعداء مستبشرين بإسلامِ السّابقين.

مِـــن الأُمَـــمِ مَـــن ستـظـلُّ تَـلْـحَـق بِـرَكْـبِ الإيمان سعيدةً مستبشرةً بمَن سبقوها إليه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 212.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 631.

لطيفةُ حذفِ متعلّق اللَّحاق في جملةِ ﴿يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾:

يَظلُّ للسّابق إلى الإسلام فَضلُ السَّبق على اللّاحق وإن أُكرِمَ اللّاحقُ

في حذفِ متعلِّق اللَّحاق في جملةِ ﴿يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ لطيفةٌ ذكرها المفسِّرون؛ إذ ذكر بعضُهم أنَّ التَّقديرَ على أنَّ هؤلاء الـ(آخرين) ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ "في الفضلِ والسّابقة؛ لأنَّ التّابعين لا يدركون شأوَ الصَّحابة"(1). قال صاحبُ فتحِ البيان في جملةِ ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾: "النَّفيُ مستمرٌّ دائمًا؛ لأنّ الصَّحابة لا يَلحقُهم ولا يُساويهم في شأنهم أحدٌ مِن التّابعين، ولا مِمَّن بعدَهم، فالمنفيُّ هنا غيرُ متوقَّع الحصول؛ ولذلك لمّا ورد عليه أنَّ ﴿لَمَّا﴾ تَنفي ما هو متوقَّعُ الحصول، والمنفيُّ هنا ليس كذلك فسَّرَها المَحَلّيُّ بـ(لم) الَّتي منفيُّها أعمُّ مِن أن يكون متوقَّعَ الحصول أوْ لا، فـ﴿لَمَّا﴾ هنا ليست على بابها"(2).

ومع ذلك يبقى في جملة ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ بشائرُ بالمنازل العالية لَمَن يلحقون بهم، وفي الحديث الشَّريف يقول رسول اللّه ﷺ: «إنَّ مِنْ ورائِكُمْ أيّامَ الصَّبْرِ، لِلْمُتَمَسِّكِ فيهنَّ يَوْمَئِذٍ بما أَنْتُمْ عليه أَجْرُ خَمْسينَ مِنْكُمْ»، قالوا: يا نبيَّ اللّه! أو منهم؟ قال: «بَلْ مِنْكُمْ»(3)، واللّه تعالى أعلم.

معنى (الباء) في القيدِ ﴿بِهِمۡۚ﴾:

مَن لَحِقَ بِرَكْبِ الـكـرامِ صارَ منهم

(الباءُ) في القيد ﴿بِهِمۡۚ﴾ تُعطي دلالةَ الملاصقةِ والمصاحبة؛ أي: أنَّ الـ(آخرين منهم) لم ينضمّوا إلى ركبهم ويندمجوا في مجتمع التَّوحيد بعد، لكنَّهم سينضمّون إليه، ويَندمِجون فيه، ويَلتَصِقون به التِصاقًا معنويًّا روحيًّا إن شاء اللّه تعالى.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ عاطفةٌ على

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 294.
(2) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 131.
(3) المروزي، السُّنَّة، ص: 14، برقم: (32).

قوله تعالى في الآيةِ السّابقة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ﴾، فهو الَّذي بعث في الأمّيّين... ، وهو العزيز الحكيم.

بيانُ قدرةِ الله وحكمتِهِ في هدايةِ الكون على يدِ سيِّد الخلقِ ﷺ

أو (الواوُ) حالٌ من ضمير الجلالة فيها، وعلى كِلا الوجهين يكون ما بينهما من جملةِ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ استطرادًا وتكميلًا للأغراضِ الَّتي تجلّت في تحليلِ عناصرِها من التَّبشيرِ بدخول النّاس في دين الله تعالى أفواجًا.

أو (الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ استئنافيَّةٌ، وهو استئنافٌ بيانيٌّ لِما قبله، جوابًا لسؤالٍ مقدَّرٍ: كيف استطاع هذا الرَّجلُ الأُمّيُّ أن ينشرَ دينَ الله في الأمّيّين ومَن بعدهم ممَّن لم يلحقوا بهم بعد؟! فجاء الجواب: لأنَّ اللهَ عزيزٌ حكيمٌ "في تمكينه رجلًا من ذلك الأمرِ العظيم، وتأييدِهِ عليه، واختيارِهِ إيّاه مِن بينِ كافَّةِ البشر"[1].

دلالةُ بناءِ الجملة على تقديمِ الضَّمير (هو):

العِزَّةُ والحِكمةُ المُطْلَقتان للهِ وحدَه لا شريكَ له

بناءُ الجملة على تقديمِ الضَّمير ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يُهيِّئُ لأسلوب القصر، فيَقصُرُ العزَّةَ والحكمةَ المطلقتين على الله ﷻ دون سواه، فلا عزيزَ بالمعنى الحقيقيِّ لهذا الوصف إلّا هو ﷻ، ولا حكيمَ بالمعنى الدَّقيق لهذا الوصف إلّا هو ﷻ، وكلُّ عزّة وكلُّ حكمة تَحَلَّى بهما أو بواحدةٍ منهما عزيزٌ أو حكيمٌ سِواه ﷻ فإنَّما هو تكرُّمٌ من الله تعالى، ثمَّ يَنتزِعُهما منهم متى شاء؛ ليبقى هو كما كان ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ المتفرِّد فيهما، المنفرد بهما.

نكتةُ تذييلِ الآيةِ بالاسمَينِ الجليلَين ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾:

في تذييلِ الآية الكريمة بالصِّفتَينِ الحُسنيَيْن: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يتحقَّقُ الاتِّساقُ الدَّقيق مع بقاء بَقيَّةِ ﴿مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾؛ ليتوالى

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 480.

سيظلُّ إقبالُ النّاس على اعتناق الإسلام دليلًا على عزَّة الله تعالى وحكمتِه

لَحاقُهم بهم، وبذلك يظلُّ الدّينُ الحنيف لائحًا ببهائه، وروعةِ تشاريعه، وصفاء عقيدته، جاذبًا لأصحاب النُّفوس القابلة للخير والهدى إلى يوم القيامة، ويظلُّ عطاءُ ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ معجزةً على الدَّوام.

فقولُهُ سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ "تذييلٌ للتَّعجيب من هذا التَّقدير الإلهيِّ لانتشار هذا الدّين في جميع الأمم"(1)، وتقريرٌ لكونه سبحانه "بليغ العزَّة والحكمة في تمكينه رجلًا أُمّيًّا من ذلك الأمر العظيم، وتأييده عليه، واختياره إيّاه من بين كافَّة البشر"(2).

ومِن عِزَّته وحكمته تعالى كذلك أنَّه لَم يَترك عباده هَمَلًا ولا سُدًى، بل ابتعث فيهم الرُّسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل اللّه العظيم، الَّذي يؤتيه مَن يشاء من عباده، وهو أفضل مِن نعمته عليهم بِعافية البَدَن وسَعَة الرِّزق وغيرِ ذلك من النِّعم الدُّنيويَّة، فلا أعظمَ مِن نِعمة الدّين الَّتي هي مادَّةُ الفوز والسَّعادة الأبديَّة"(3).

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ "إشارةٌ إلى سلطان اللّه الغالب، وأنَّه سينصر هذا الدّينَ، ويُعِزُّهُ باجتماع النّاس إليه من جميع الأمم والأجناس، وأنَّ ذلك إنَّما يكون عن حِكمة الحكيم العليم، فيَدخلُ في هذا الدّين مَن شاء له الهدى والنَّجاةَ"(4).

نكتةُ تكرارِ الاسمين الجليلين: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

إرادتُهُ تعالى نافذةٌ لا يُعيقُها شيء، وحكمتُه تعالى مُطلَقةٌ لا يُخطِئُها صواب

وفي تكرار الاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ هنا بعدَ تقدُّم ذكرهما في الآية الأولى ﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ تأكيدٌ لطلاقةِ العزَّة وكمال الحكمة الإلهيَّتَينِ في نفس الملتقى، وتأكيدٌ على أنَّ إرادته تعالى نافذةٌ لا يُعيقها شيء، وأنَّ حكمته تعالى مطلقةٌ لا يخطِئُها صواب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 212.
(2) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 132.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 862.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 945.

لطيفةُ ترتيب ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾:

النَّظمُ الكريم يقدِّمُ صفةَ العزَّةِ دائمًا على صفة الحكمة، بل على الصِّفاتِ المُقترنةِ بها كلِّها ما عدا صفةَ القوَّة، كما في قوله تعالى هنا: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾ [يس: 38]، وقوله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الرّوم: 5]، وقوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩﴾ [ص: 9]، وقوله تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: 1].

العـزَّةُ المطلقة لازمـةٌ لِما سواها مـن الـصِّـفـات العُلا

وفي اطِّراد تقديم صفة العزَّة إيذانٌ بأنَّ العزّة المطلقة لازمةٌ لِما سواها من الصِّفات العُلا؛ فلا حكمةَ مطلقةً بدون عزَّةٍ مطلقة، والحكيمُ العاجز لا قيمةَ لحكمته مع عجزه. فاللّه تعالى هو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ "في تمكينه رجلًا أُمّيًّا من ذلك الأمر العظيم، وتأييده عليه، واختياره إيّاه من بين كافَّة البشر"[1].

ولم تُقدَّمْ في الذِّكر الحكيم صفةٌ على صفةِ العزَّة إلّا صفةُ القوَّة؛ لأنَّ القوَّة لازمةٌ للعزَّة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ [هود: 66]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾ [الشّورى: 19]، واللّه تعالى أعلم.

لطيفةُ صَوْغِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على (فَعيلٍ):

المبالغةُ دالَّةٌ على التَّمامِ والكمال

وفي صَوغِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على صيغة (فَعيل) دلالةٌ على بُلوغهما بالنِّسبة للّه تعالى مبلغَ التَّمام والكمال، وأنَّه تعالى "بليغُ العزَّةِ والحكمة"[2]، اللَّتَينِ يَقْصُر عن بلوغِ مرتبة كمالهما فيه سبحانه كلُّ مَن سواه؛ وذلك محقَّقٌ في تكذيبه اليهودَ؛ إذ زعموا أنَّه تعالى لا يبعثُ الرُّسلَ إلّا فيهم ومنهم، وأنَّهم شعبُ اللّه المختار.

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 480.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 268.

السّياقُ القرآنيُّ متَّصلٌ، وتراكيبُهُ وثيقةُ التَّرابُط

علَّةُ فصلِ قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبله:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبله للقَطْعِ والاستئناف؛ تفخيمًا لشأن ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشارِ إليه مِن بعثه ﷺ ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾؛ أي: "إليهم"[1]، وأنَّه ﴿مِّنۡهُمۡ﴾، وأنَّه ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾، ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾، وأنَّ ثَمَّ (آخرين منهم لمّا يَلحقوا بهم)، فكلُّ ذلك فضلٌ مِن اللّه تعالى، وأيُّ فضلٍ في هذه الدُّنيا أكبرُ مِن ﴿ذَٰلِكَ﴾؟!.

البعثةُ المحمَّديَّةُ خيرٌ وبركةٌ على الأُمَمِ كلِّها، وفضلُ اللهِ تعالى بها عَميم

مرجعُ الإشارةِ في ﴿ذَٰلِكَ﴾، ولطيفةُ البُعدِ فيها:

أجمعُ مَراجعِ الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ ما جاء في قول ابن عاشور: "الإشارةُ إلى جميع المذكور؛ مِن إرسال محمَّدٍ ﷺ بالآيات، والتَّزكية، وتعليم الكتاب والحكمة، والإنقاذ من الضَّلال، ومِن إفاضة هذه الكمالات على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ الَّذين لم تكن لهم سابقةُ عِلمٍ ولا كتاب، ومِن لِحاق أُممٍ (آخرين) في هذا الخبر؛ فزالَ اختصاصُ اليهود بالكتاب والشَّريعة، وهذا أجدعُ لِأنفهم؛ إذ حالوا أنْ يجيءَ رسولٌ أُمِّيٌّ بشريعةٍ إلى أُمَّةٍ أُمّيَّةٍ، فضلًا عن أنْ نَلتَحِقَ بأُمّيَّةِ أممٍ عظيمةٍ كانوا أمكَنَ في المعارف والسُّلطان.

وقال: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣﴾ [آل عمران: 73] يختصُّ به. وهذا تمهيدٌ ومقدِّمةٌ لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ الآياتِ"[2].

وذكَرَ غيرُه من المفسِّرين مرجعًا آخرَ للضَّمير، وفسَّر ما بعده تفسيرًا يتلاءم معه، حيث ذكر أنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّمَ؛ من

(1) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 129.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 213.

كونِهِ ﷺ رسولًا في الأمّيّين مزكّيًا ومعلّمًا لهم، ولا يشاءُ سبحانه إيتاءَ هذا الفضلِ لأحدٍ بعدَهُ ﷺ(1).

وفي (لام) البعد في اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ تنويهٌ بتلك الفضائل الَّتي تفضَّلَ اللّهُ تعالى بها على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ العرب، الَّذين بعث فيهم ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ فكلٌّ واحدةٍ منها على انفرادها نعمةٌ جليلة، وفضلٌ كبيرٌ يَستوجب الإيمانَ بها والشُّكرَ عليها.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾، ولطيفةُ الإضافة فيه:

﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ أي: إحسانُهُ وعطاؤُه(2)، وفي التَّعبير بـ﴿فَضۡلُ ٱللَّـهِ﴾ دلالةٌ على كونه محضَ تفضُّلٍ منه ﷻ على هذه الأمَّة خاصَّةً وعلى النّاس كلِّهم عامَّة.

وفي إضافة ﴿فَضۡلُ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ إضفاءٌ لِمعاني التَّشريفِ والمباركة على ذلك الـ﴿فَضۡلُ﴾؛ إذ إنَّ شرف المضاف من شرف المضاف إليه.

دلالةُ تعريفِ طرفِي الإسنادِ في جملةِ ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾:

المُتفضِّلُ بالإسلام ﷻ جديرٌ بإخلاصِ الشُّكر له

وفي تعريف طرفَي الإسناد في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ قَصرٌ للمسند إليه ﴿ذَٰلِكَ﴾ على المسند ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾، أي: ليس ذلك الَّذي تقدَّم ذِكرُهُ إلّا فضلَ اللّه تعالى وحده، وليس لأحدٍ غيرِهِ سبحانه فيه فضلٌ، وهو ما يوجبُ اختصاصَه تعالى بالشُّكر عليه، وعدمِ إشراكِ غيرِهِ فيه.

علَّةُ فصلِ جملةِ ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ عمّا قبلَها:

اللّهُ تعالى يؤتي فضلَهُ مَن يشاءُ تفضُّلًا، لا عن استحقاق

فُصِلَتْ جملةُ ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ عن جملةِ ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ لوَثاقةِ الرَّوابطِ المعنويَّةِ الذّاتيَّة بينَهُما، وعدمِ احتياجِهما إلى واصلٍ لفظيٍّ؛ حيث إنَّ الثّانيةَ مرتبطةٌ بالأولى ارتباطًا وثيقًا؛ لكونها حالًا

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 290.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.

منها، والحالُ مرتبطٌ بصاحبه، والمعنى: ذلك فضلُ اللّه مُعطًى لِمَن يشاءُ اللّهُ التَّفضُّلَ عليه، لا عن استحقاقٍ من المتفضَّلِ عليه.

دلالةُ التَّعبير بالإيتاءِ في الفعل ﴿يُؤۡتِيهِ﴾، وإشارةُ صوغِهِ مضارعًا:

فضلُ اللّه تعالى بالإسلام على العباد متجدِّدٌ مستمرٌّ لا ينقطعُ، ولا يُكلِّفُهم شيئًا

في التَّعبير بالإيتاءِ في الفعل ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ مِن جملةِ ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ دلالةٌ على يُسر إيتاء الفضل على اللّه تعالى؛ إذ لا شيءَ على اللّه تعالى عسيرٌ، ودلالةٌ على تيسيرِ فضل اللّه تعالى إلى العبادِ المتفضَّلِ عليهم؛ فلم يتكلَّفوا شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [يوسف: 104].

وفي صوغ فعلِ الإيتاءِ مضارعًا ﴿يُؤۡتِيهِ﴾ امتنانٌ بتجَدُّدِ بركات ﴿ذَٰلِكَ﴾ البعث والتَّزكية، وتعليم الكتاب والحكمة على المؤمنين، تجدُّدًا مستمرًّا؛ لأنَّ الفضلَ بيدِ اللّه تعالى، وخزائنُهُ سبحانه لا يُغيضُها عطاءُ اللَّيل والنَّهار.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في قوله: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾:

اللّهُ تعالى عَلِمَ مَن هو أهلٌ للإسلام، فأودَعَهُ إيّاه وجعَلَهُ عندَه

التَّعبير بالموصول في جملة ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ يَمتازُ عن التَّعبيرِ بالاسم الصَّريح في إتاحتِهِ ذكرَ جملة الصِّلة ﴿يَشَآءُۚ﴾، بما فيها مِن إشاراتٍ دلاليَّة مقصودة، إضافةً إلى أنَّ الموصول عُنصُرُ إيجازٍ؛ في كونه عامًّا يتناولُ ما لا يُحصى عددًا مِن أولئك الَّذين يشاءُ اللّه تعالى إيتاءَهم فضلَه ذلك؛ فضلَ الإيمان، والإسلام، والتَّزكية، والتَّعليم.

وكذلك في التَّعبيرِ بالموصول وصلتِهِ في قوله: ﴿مَن يَشَآءُۚ﴾ إلماحٌ إلى أنَّ ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ "لا يستحقُّ الذمَّ ممَّن حرَمَهُ اللّهُ تعالى إيّاه؛ لأنَّه لَم يَمنعْهُ حقًّا كان له قبلَه، ولا ظَلَمَهُ في صَرْفِهِ عنه إلى غيره، ولكنَّه عَلِمَ مَن هو له أهلٌ فأودَعَهُ إيّاه، وجعَلَهُ عندَه"(1).

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 632.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمشيئةِ، ولطيفةُ صَوْغِها بصيغةِ المضارع:

اللهُ تعالى يولي عبادَه المسلمين أسبابَ الفضل، ويُجدِّدُ عليهم أمدادَ الخير

المشيئةُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ هي إرادتُهُ تعالى المتعلِّقةُ بتنفيذِ الإيتاء، فـ"ما أرادَهُ يجبُ وقوعُه"[1]. ويدلُّ تعلُّقُ إيتاءِ الفضل وتوقُّفُه على المشيئة الإلهيَّة على أنَّ النّاسَ لا يُؤۡتَونَ فضلَ اللّه تعالى المقصودَ هنا - أي: الإسلامَ والتَّطَهُّرَ من الكفر، وتعلُّمَ الكتاب والحكمة - مِن دون مشيئته ﷻ، وإنِ اتَّخذوا في سبيل ذلك كلَّ الأسباب؛ فلا سبيلَ لهم إليه إلّا بأنْ يتطلَّعوا إلى معونته وتوفيقه ﷻ.

والمضارعةُ في فعل المشيئةِ في جملة ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ تدلُّ على تتابُعِ رحمات اللّه تعالى، وتنوُّعِ أفضاله على مَن يتفضَّلُ عليهم بالتَّوفيق إلى الإسلام، والتَّزكية، وتعليم الكتاب والحكمة؛ حيث يفيدُ المضارعُ ﴿يَشَآءُۚ﴾ تَجدُّدَ العطاءاتِ تجدُّدًا لا يَخفتُ ولا ينقطعُ.

معنى (الواوِ) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾:

اللهُ سبحانه دائمُ الاتِّصافِ بالفضل العظيم

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ واوُ الحالِ اللّازمةِ غيرِ المنتقلةِ؛ فالحالُ أنَّ اللّه تعالى قادرٌ على أن يؤتيَ فضله مَن يشاء، وهو سبحانه دائمُ الاتِّصافِ بالفضل العظيم، وهو ما يُشجِّعُ المتلقّيَ على الإقبال على الإيمان؛ لاغتنام فضل اللّه تعالى، والظَّفَرِ بفضل ذي الفضل العظيم.

دلالةُ تعريفِ طرفيِ الإسنادِ في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ﴾:

اللهُ تعالى وحدَهُ صاحبُ الفضلِ العظيم

تعريفُ طرفيِ الإسناد في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ يُعطي دلالةَ القصر، وأنَّه لا أحدَ غيرُهُ سبحانه ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ كلَّ ذي فضلٍ غيرَ اللّه تعالى محدودُ الفضل، أمّا ﴿ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فيختصُّ به ﷻ، ولا يشاركُه فيه سِواه.

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/ 233.

دلالةُ الإضافةِ في الخبرِ ﴿ذُو ٱلْفَضْلِ﴾:

اللهُ يَسَعُ فضلُهُ النّاسَ جميعًا، فإذا أصابَ قومًا فليس بمحجوزٍ عن غيرِهم

وفي إضافةِ ﴿ذُو﴾ إلى ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ تقريرٌ لذلك الخبر، وتأكيدٌ لكونه تعالى صاحبَهُ غيرَ مشارَكٍ، "الَّذي يَسَعُ فضلُهُ النّاسَ جميعًا، وأنَّه إذا أصاب فضلُهُ قومًا فليس بالمحجوز عن غيرِهم"[1]، وليس كما زعَمَ اليهودُ أنَّهم "يمتازون على النّاس بأنَّهم هم الَّذين خاطَبَتْهم السَّماءُ، وبُعِثَتْ فيهم الرُّسلُ، وأُنزلتْ عليهم الكتبُ، أمّا غيرُهم من سائر الأمم فلم يكونوا أهلًا لِأنْ يُخاطَبوا من اللّه تعالى، وأن يَتلقَّوا رسالاتِه، وبهذا صحَّ في زَعْمِهم أنْ يَدَّعوا هذه الدَّعوةَ الضّالَّةَ، وهي أنَّهم شعبُ اللّه المختار"[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلْفَضْلِ﴾:

و(أل) في ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ لتعريفِ الجنس الاستغراقيِّ، الجامعِ لصورِ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ وأنواعِه جميعًا؛ أي: هو سبحانه "ذو المنِّ العظيم على خلقه بِبعثه محمَّدًا ﷺ"[3].

نكتةُ وصفِ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ بـ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾:

كلُّ فضلِ الله تعالى عظيمٌ

﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ هو الدّائمُ الباقي[4]، وهو الَّذي لا يُساويه فضلٌ ولا يُدانيه[5]، وهو الَّذي يُحقَرُ دونَهُ كلُّ عطاء من غيره[6]؛ ففي وصفِ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ بـ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ احتراسٌ مِن نسبةِ ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ غيرِ العظيم إلى اللّه تعالى؛ وإيحاءٌ بأنَّ الفضل الجدير بنسبته إلى اللّه تعالى هو ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾، وأنَّ كلَّ فضلٍ مِن اللّه تعالى عظيمٌ في بركاته، ونوعه، وقدره مهما بدا ضئيلًا.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 945.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 942.
(3) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 294.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 8.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 268.
(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 54.

دلالةُ صَوْغِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ على (فَعيلٍ):

الفضلُ العظيمُ يتعلَّقُ بالآخرة، والفضلُ المبينُ يتعلَّقُ بالدُّنيا

وفي صَوْغِ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾ على (فَعيلٍ) مبالغةٌ لفظيَّةٌ، مُبينةٌ ومترجِمةٌ عن عظمةِ فضل اللّه تعالى، وبإنعامِ النَّظر في أعداد مَن شاء اللّه تعالى إيتاءَهم فضلَهُ من الإيمان والتَّزكية والتَّعليم يتجلَّى بعضُ عظمةِ فضله سبحانه وتعالى.

ولن يُطيقَ وصفٌ - مادَّةً وصيغةً فيما يتعلَّق بتفضُّلِ اللّه تعالى بالدّين - ما يُطيقُه وصفُ ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾؛ مِن ترجمةِ ما يمكنُ ترجمتُهُ مِن فضل اللّه تعالى على العباد، وكثرتِهِ وتنوُّعِهِ على امتدادِ التّاريخِ وتَرامي البلاد.

أمّا ما يتعلَّقُ بالدُّنيا فقد جاء وصفُ ﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ [النمل: 16] بـ﴿ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ [النمل: 16]، وذلك في قوله تعالى على لسانِ سليمانَ عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾ [النَّمل: 16]، واللّه تعالى أعلم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّسبيح والتَّقديس:

كلاهما تنزيهٌ، إلّا أنَّ التَّسبيحَ يختصُّ بالله تعالى، فالتَّقديسُ أعمُّ

التَّسبيحُ والتَّقديسُ يَرجعان إلى معنًى واحدٍ، وهو تَبْعيدُ اللّه تعالى عن السّوء، والتَّقديسُ أعمُّ مِن التَّسبيح؛ إذ لا يَختصُّ التَّقديسُ به سبحانه، بل يُستعمَلُ في حقِّ الآدميّين، فيقال: فلانٌ رجلٌ مقدَّسٌ، إذا أُريدَ تَبعيدُهُ عن مُسْقِطات العدالة، ولا يقال: رجلٌ مسبَّحٌ، بل ربَّما يُستعمل في غير ذَوي العقول أيضًا، فيقال: قدَّس اللّه روحَ فلان، ولا يقال: سبَّحَها، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: 21]؛ يعني: أرضَ الشّام[1].

(1) مؤسَّسة النشر الإسلامي، معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتابَي العسكري والجزائري، ص: 124.

البعث والإرسال:

الإرسالُ يكونُ برسالةٍ، والبعثُ: الإثارةُ بدون قيدِ الرِّسالة

الإرسالُ لا يكون إلّا برسالةٍ وما يَجري مَجراها[1]، فقولُك: (أرسلتُ زيدًا إلى عمرو) يقتضي أنَّك حمَّلتَهُ رسالةً إليه أو خبرًا أو ما أشبه ذلك، وإنَّما يُستعمَلُ الإرسالُ حيث يُستعمَلُ الرَّسولُ[2]، والبَعثُ: الإثارةُ، يقالُ: بَعَثَ النّاقةَ فانْبَعَثَتْ؛ أي: أثارَها فثارَتْ، ونهَضَتْ، ومنه يومُ البَعثِ، يومَ يَبعَثُنا اللّهُ تعالى من القبور[3].

التِّلاوة والقراءة والتَّرتيل:

التِّلاوةُ تختصُّ بالكتبِ المنزَّلة، وفيها إنشادٌ، والتَّرتيلُ التَّمهُّلُ في القراءة، والقراءةُ أعمُّ منهما

التِّلاوةُ تَختصُّ باتِّباع كتب اللّه المنزَّلة، وهو أخصُّ من القراءة؛ فكلُّ تلاوةٍ قراءةٌ، وليس كلُّ قراءةٍ تلاوةً، لا يقال: تلوتُ رُقْعَتَك، وإنَّما يقال في القرآنِ في شيءٍ إذا قرأتَهُ وجَبَ عليك اتِّباعُهُ. و"تَلا آياتٍ من القرآن الكريم: رتَّلَها في إنشادٍ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: 121]، والمرادُ: التِّلاوةُ مع إعطائها حقَّها من التَّأمُّلِ والعملِ بمقتضاها"[4].

والتَّرتيلُ من الفعل (رَتَّلَ)، ورَتَّلَ الكلامَ: أحْسَنَ تأليفَهُ وأبانَهُ وتمهَّلَ فيه، بأنْ يُبينَ جميعَ الحروف، ويوفِّيَها حقَّها من الإشباعِ بلا عجلةٍ؛ فتتميَّزَ أصواتُ كلِّ كلمة، وتتميَّزَ كلُّ كلمةٍ عن الأخرى، وفي وصفِ هيئة كلام رسول اللّه ﷺ: أنَّه "كان يُحَدِّثُ حديثًا لو عدَّهُ العادُّ لأحصاهُ"[5]، فالتَّرتيلُ هو التَّريُّثُ والتَّمهُّلُ في القراءة.

الإيتاء والإعطاء:

الإيتاءُ أقوى من الإعطاء، لذلك استُعمِلَ في القرآن في الأشياءِ العظيمة

ذكَرَ الإمامُ الزَّركشيُّ في كتابه البرهان عن الإمام الجوينيِّ فائدةً عظيمةً في الفرق بينَ الإيتاء والإعطاء، قال رحمه اللّه: "قال

(1) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 103.
(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 103.
(3) المُطَرِّزيّ، المغرب في ترتيب المعرب: (بعث).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (تلو).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رتل).

الجوينيُّ: لا يكادُ اللُّغويّون يُفرِّقون بينَ الإعطاء والإيتاء، وظهَرَ لي بينهما فرقٌ انبَنى عليه بلاغةٌ في كتاب اللّه، وهو: أنَّ الإيتاءَ أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنَّ الإعطاءَ له مطاوعٌ، يقال: أعطاني فعَطَوتُ، ولا يقال في الإيتاء: آتاني فأتيتُ، وإنَّما يقال: آتاني فأخذتُ، والفعلُ الَّذي له مطاوعٌ أضعفُ في إثباتِ مفعوله من الَّذي لا مطاوعَ له؛ لأنَّك تقول: قطعتُهُ فانقطع، فيدلُّ على أنَّ فعلَ الفاعل كان موقوفًا على قبول المحلِّ، ولولا قبولُهُ لَما ثبَتَ المفعولُ، ولهذا يصحُّ أن نقولَ: قطعتُهُ فما انقطَعَ؛ لعدم قبولِ المحلِّ فعلَ القطع، ولا يصحُّ أن نقولَ ذلك فيما لا مطاوعَ له، فلا يقال: ضربتُهُ فما انْضَرَبَ؛ لأنَّ هذه الأفعالَ إذا صدرتْ من الفاعل ثبَتَ لها المفعولُ، فالإيتاءُ إذًا أقوى من الإعطاء.

وقد تفكَّرتُ في مواضعَ من القرآن فوجدتُ ذلك مُراعًى، قال تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]؛ لأنَّ المُلكَ شيءٌ عظيم لا يُعطيه إلّا مَن له قوَّةٌ، وقال سبحانه: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 269]؛ لأنَّ الحكمةَ إذا ثبتَتْ في المحلِّ دامَتْ، وقال: ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعًا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]؛ لعِظَم القرآنِ وشأنِه. أمّا الإعطاءُ فقال اللّه تعالى فيه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: 1]؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ وأمَّتَهُ سيتركون الحوضَ ويرتحلون إلى منازلِ العزِّ والأنهارِ الجارية في الجِنان، وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ﴾ [التَّوبة: 29]؛ لأنَّها موقوفةٌ على قبولٍ منّا. فانظُرْ إلى هذه اللَّطيفةِ المؤَقِفَةِ على سِرٍّ مِن أسرارِ الكتاب"[1].

وبذلك يتَّضِحُ لنا سرُّ استعمال النَّظم القرآنيِّ لفعل الإيتاءِ في هذا الموضع: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن 4/ 85، 87، بتصرف.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾ [الجمعة: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لا يَحْقِرنَّ أحدٌ أحـدًا؛ فالكلُّ مقصِّرٌ، واللهُ تعالى السَّتّار، والقادرُ على تبديل الأحوال

في الآياتِ السّابقةِ كذَّبَ اللّهُ تعالى اليهودَ في دَعْواهم التَّفَرُّدَ في الفضل، وفي زَعْمِهم "أنَّهم العلماء الرَّبّانيّون والأحبار المتقدِّمون"(1)، تكذيبًا عَمَليًّا بِبَعْثِهِ رسولًا في ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ الَّذين يحتقرُهم اليهود، ثمَّ أمْعَنَ سبحانه هنا في الإزراء عليهم؛ بتصويرهم في صورةِ ﴿ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾؛ فيشقَى بحَملها مع كونها مستودعَ ثمرِ العقول، وفيها أبلغُ أسباب السَّعادة؛ ووَصَمَهُم ﷻ بذلك العارِ الَّذي لاطَ بهم إلى يوم القيامة.

وبعدَ أنْ بيَّنَ سبحانه أنَّه آتى فضله قومًا أُمّيّين أعقبَه بأنَّه قد آتَى فضلَه أهلَ الكتاب، فلم ينتفع به هؤلاء الَّذين قد اقتنعوا من العلم بأن يَحملوا التَّوراة مِن دونِ فهم، وهم يحسبون أنَّ ادِّخارَ أسفارِ التَّوراة وانتقالَها من بيتٍ إلى بيت كافٍ في التَّبَجُّح بها وتحقيرِ مَن لم تكن التَّوراة بأيديهم(2)، وهذه الآيةُ إلى ذلك "تشير إلى أنَّ ذلك الرَّسولَ المبعوث في ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ قد نَعَتَهُ اللّه تعالى هنا بما نعتَهُ به في التَّوراة، فقد نُعِتَ فيها بأنَّه النَّبيُّ الأُمّيُّ المبعوث إلى أُمَّةٍ أُمّيّين"(3)، فوجهُ المناسبةِ في مُنتهى القوَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حُمِّلُواْ﴾: مادّةُ (حمل) لمعنًى واحدٍ، واعتُبِرَ في أشياءَ كثيرةٍ، فسوّي بين لفظه في فَعَلَ، وفُرِّق بين كثير منها في مصادرها. فقيل

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 862.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 213.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1415.

في الأثقال المحمولة في الظّاهر كالشَّيء المحمول على الظَّهر: حِمْل، وفي الأثقال المحمولة في الباطن: حَمْل كالولد في البطن والماءِ في السّحاب والثَّمرة في الشَّجرة تشبيهًا بحَمْل المرأة. ويقال: حَمَلْتُ الثِّقَلَ والرِّسالة والوِزْرَ حَمْلًا، قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ﴾؛ أي: كُلِّفوا أن يتحمَّلوها؛ أي: يقوموا بحقِّها، فلم يَحمِلوها[1].

2) ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾: التَّوراة هي الكتابُ الَّذي أُنزل على موسى عليه السلام، وهي آخرُ كتاب مِن كُتب الشَّرائع نزل قبل القرآن الكريم، وأمّا ما جاء بعده فكتبٌ مكمِّلةٌ للتَّوراة ومبيِّنةٌ لها، مثل (زبور داود) و(إنجيل عيسى)[2] عليه السلام، و"لم يَعتدّوا بما أنزل بين القرآن الكريم وبين التَّوراة من الإنجيل وما قبله؛ لأنَّه لا يساوي التَّوراة في الجمع، ولا يَعْشِرُ[3] هذا الكتابَ - أي: القرآنَ الكريم - في الأحكام والحكم واللَّطائف والمواعظ، مع ما زاد به من الإعجاز وغيره"[4]، والتَّوراةُ أصلٌ للإنجيل، وعمدةٌ لبني إسرائيل في أحكام الشَّرع، وإنَّما الإنجيلُ مُتَمِّمٌ ومكمِّل ومغيِّر لبعض الأحكام[5].

3) ﴿أَسۡفَارَۢا﴾: السَّفَرُ: قَطْعُ المسافة، والجمع الأَسْفارُ. والسَّفَرُ أيضًا: بَياضُ النَّهار. قال السّاجعُ: إذا طَلَعَتِ الشِّعْرى سَفَرًا. والسَّفَرَةُ: الكَتَبَةُ، قال الله تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥﴾ [عبس: 15]، قال الأخفشُ: واحدُهم سافِرٌ، مثل: كافِرٍ وكَفَرة. والسِّفْرُ بالكسر: الكتاب، والجمعُ أَسْفارٌ. قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾[6]؛ أي: كُتبًا عظيمة.

4) ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾: قَوْم: اسمُ جمعٍ، وهو مفردٌ من حيث اللَّفظُ، جمعُهُ: أَقْوامٌ، وهم جماعةٌ من النّاس تربِطُهم وحْدةُ اللُّغة والثَّقافة والمصالح المشتركة، وقَوْمُ الشَّخص: أقاربُهُ، أو من هم بمنزلة الأقارب له من أهله وعشيرته، قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [مريم: 55][7]. واسمُ القوم يُستَعملُ في الرِّجال غالبًا، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾ [الحجرات: 11].

(1) الراغب، المفردات: (حمل).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 60.
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (عشر).
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 18/ 181.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 783.
(6) الجوهري، الصحاح: (سفر).
(7) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (قوم).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

أخَـسُّ الـنّـاسِ مَن عطَّلَ هُدًى آتاه الله تعالى إيّاه

صِفَةُ علماءِ اليهود الَّذين جحدوا نبوَّةَ الرَّسولِ ﷺ، وزعموا أنَّه نَبيُّ الأمّيّين فقط، وحالُهم في عدم انتفاعهم ببشارةِ كتابهم السَّماويِّ - (التَّوراةِ) الَّذي جاءَهم به موسى عليه السلام يُبشِّرُ بمحمَّد ﷺ - ومَثَلُهم في عدم الإفادة من تعاليمِها وقد حفظوا أسفارَها... صفتُهم وحالُهم ومَثَلُهم في ذلك مَثَلُ الحمارِ المُحمَّلِ بالكُتب الكبيرة العظيمة النَّفعِ، فيشقى بحَمْلِها وهو لا يدري أنَّها تحوي خلاصاتِ العلوم النّافعة، وتضمُّ ثمارَ العقول النّابهة.

والآيةُ الكريمة "في معرضِ التَّنبيهِ لِمَن تقدَّمَ الثَّناءُ عليه ورحمةُ اللّه تعالى إيّاه؛ لئلّا يكونوا فيما يتلو عليهم نبيُّهم من الآيات ويعلِّمُهم من الكتاب والحكمة مثلَ أولئك المُمْتَحَنين؛ فإنَّهم مُقِتوا ولُعِنوا بعدَ حملِهِمُ التَّوراةَ، وزعموا أنَّهم التزموا حملَهُ والوفاءَ به، فوَعَظَ هؤلاء بمثالهم؛ لطفًا من اللّه تعالى لهذه الأمَّة"[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ عمّا قبله:

اليـهـودُ لم يـنـتـفـعـوا بـالـتَّـوراة، فلن ينتفعوا بما جاء به محمَّدٌ ﷺ

فُصِلَتْ جملةُ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ عمّا قبلها للقطع والاستئناف، حيث تَقَدَّم قولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾؛ أي: لَمّا يلحقوا بـ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، فرُبَّما تَوَهَّمَ المُتَلقّي دخولَ اليهود في المسلمين ولُحوقَهم بهم في الهداية للإسلام، فقُطِعتْ هذه الآيةُ دفعًا لذلك الوَهَم، وآذنَتْ بأنَّ اليهود وعلماءَهم وأحبارَهم كالحميرِ في عدمِ الانتفاع بالخير الَّذي آتاهم اللّه تعالى إيّاه، فهل ينتفعون بما جاء به محمَّدٌ ﷺ فيدخلوا في (آخَرين) من أمَّتِهِ لَمّا يلحقوا بهم؟.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 47.

لطيفةُ التَّعبير بـ﴿مَثَلُ﴾، وإشارةُ تكرارِها في آخرِ الآية الكريمة:

أقربُ مثالٍ للعالِم المحروم مِن نَفْعِ عِلْمِه الحمارُ حالَ شَقائه بحَمل أسفار العلوم

﴿مَثَلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ معناه: "الصِّفةُ والحالُ"[1]، وإيثار لفظِ ﴿مَثَلُ﴾ في طرفيِ التَّشبيه يُقَرِّرُ تقارُبَ الطَّرفين في وجهِ الشَّبه تقارُبًا يكاد يكون مماثَلَةً تامَّة؛ لذا - واللّه تعالى أعلم - لم يقل النَّظمُ الكريم: الَّذين حُمِّلوا التَّوراة... كالحمار... ، وإنَّما أكَّدَ الإلحاقَ في قوَّةِ الشَّبَه بِذِكر ﴿مَثَلُ﴾.

ولا يزالُ النَّظمُ الكريم يُلِحُّ على ذلك المعنى؛ إذ يُكَرِّرُ ﴿مَثَلُ﴾ للمرَّةِ الثّالثة في الآية الكريمة نفسِها، حيث يقول: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ إزراءً باليهودِ عمومًا وبأحبارِهم خصوصًا.

علَّةُ التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾:

الموصولُ عُنْصُرُ تشويقٍ لإبهامِهِ، ويتيحُ للتَّركيبِ ذكرَ جملةِ الصِّلةِ على الوجهِ المُراد

﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ "هم بنو إسرائيل، الأحبارُ المعاصرون لرسول اللّه ﷺ"[2]، وفي إيثارِ التَّعبير عنهم بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ دون اسمِهم الصَّريحِ (اليهود) إتاحةٌ لذِكرِ وجهِ الإزراء بهم؛ أي: بجملة الصِّلة ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾، وفي ذلك من التَّنفير من حالهم ما فيه.

كذلك في التَّعبير عنهم بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تشويقٌ إلى إزالةِ إبهامه بِتخصيصِهِ بتفاصيله الكاشفةِ، وكلُّ ذلك يَغيبُ لو قيل في غيرِ القرآن الكريم: مثلُ اليهودِ كمثلِ الحمار.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّحميلِ في جملةِ ﴿حُمِّلُواْ﴾، ولطيفةُ صوغِهِ ماضيًا:

التَّحميلُ في جملةِ ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ من الحَمالةِ - بمعنى الكفالة والضَّمان، ومنه قيل للكفيل: الحَميل - لا من التَّحميل على الظَّهر،

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 380.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 307.

والمعنى: "عُلِّموها، وكُلِّفوا العملَ بما فيها، والتَّحميلُ في هذا شائعٌ، يُلحَقُ بالحقيقة"[1].

ولعلَّ في التَّعبير بالتَّحميل إشارةً إلى مَعونتِهم على حمل التَّكاليف، وتيسيرِ تحفيظِهم التَّوراةَ والعملِ بها، وأنَّه تعالى "علَّمَهم إيّاها، وكلَّفَهم حفظَ ألفاظِها عن التَّغيير والنِّسيان، ومعانيها عن التَّحريف والتَّلبيس، وحدودِها وأحكامِها عن الإهمال والتَّضييع"[2]؛ ومع ذلك لم يهتدوا إلى نورِها و﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ﴾ [المائدة: 44]، ولم ينتفعوا بها؛ إذ لم يعملوا بأحكامها، ومَن كان كذلك كان أبعدَ من أنْ يتهيَّأ للبصرِ بأنوار القرآن الكريم؛ فاليهودُ ممَّن لا يدخلون في بشارةِ ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾.

نكتةُ بناءِ الفعل ﴿حُمِّلُواْ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه:

مِنَ الأدبِ صيانةُ ذِكرِ الاسمِ الجليلِ في مقاماتِ الذَّمّ

في بناء الفعلِ ﴿حُمِّلُواْ﴾ لضميرِ اليهود تنزيهٌ لاسمه تعالى عن أنْ يُذكَرَ في سياق التَّقبيح بالإلحاق بالحمار، وأيضًا "صيانةٌ لاسمه الشَّريف عن أنْ يُذكر مع العصيان"[3].

وإلى ذلك ففي بناءِ فعل التَّحميل لغير فاعله دَعْمٌ لدلالة إعانتِهم في ذلك الحمل الشَّريف؛ فلكلِّ ذلك طويَ ذكرُ الفاعل الحقيقيِّ للتَّحميل، وأُسنِد الفعلُ لضميرِهم الذَّميم.

أمّا التَّضعيفُ في الفعل ﴿حُمِّلُواْ﴾ فيوحي بعظمة التَّوراة، وثِقَلِها، وفخامةِ تعاليمها، وذلك من باب قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ [المُزَّمِّل: 5]، واللّٰه تعالى أعلم.

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾:

ثِقَلُ تعاليمِ التَّوراةِ وأحكامِها على نُفوسِ اليهود

في التَّعبير بفعل التَّحميل مع ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حُمِّلُواْ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 290.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 55.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 55.

﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّة؛ وذلك بتشبيهِ تكليف اليهود بالعمل بتكاليفِ التَّوراة بالحملِ على الدَّوابِّ، وتصويرِ تكليفِهم بتحميلها، ثمَّ حُذف المشبَّه وبقيَتْ قرينتُه، وهي ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾.

وفي ذكرِ التَّحميل تَهْيئةٌ دلاليَّةٌ لِذِكر ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾، الَّذي هو أخصُّ الدَّوابِّ بالتَّحميلِ عليه.

معنى (أل) في ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾:

التَّوراةُ هي الكتابُ الَّذي أنزَلَ الله على موسى، وهي أعظمُ الكتبِ بعدَ القرآن

(أل) في ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ تعريفيَّةٌ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: "الكتابَ الَّذي أنزَلَ اللّهُ على موسى عليه السلام"[1]، "وهي أصلُ الكتبِ المُنَزلةِ على بني إسرائيلَ وأعظمُها، بل هي أعظمُ الكتب فيما نعلمُ بعدَ القرآن"[2]، و"هي خمسةُ الأسفارِ الَّتي تلقّاها موسى عليه السلام من اللّه ﷻ في جبلِ سيناءَ بعد خروج اليهود من مصرَ، ثُمَّ أُلحِقَ بها أسفارُ الأنبياء"[3].

و"التَّوراةُ معناها: الضِّياءُ والنّور. من قول العرب: قد وريَتْ بك زِنادي؛ أي: أضاءَتْ بك زِنادي. قال: وأصلُ التَّوراة: تَوْرَيَةٌ، على وزن: تَفْعَلَةٍ، فصارت الياءُ ألِفًا؛ لِتَحَرُّكِها وانفتاح ما قبلَها. ويجوز أن تكون: تَفْعِلَةً، فيكونُ أصلها: تَوْرِيَة، فتُنقَلُ من الكسرِ إلى الفتح؛ كما تقول العرب: جاريةٌ وجاراةٌ، وناصيةٌ وناصاةٌ، وباقيةٌ وباقاةٌ. أنشد الفرّاء:

فما الدُّنيا بباقاةٍ لحيٍّ *** وما حيٌّ على الدُّنيا بباقِ"[4]

و"يرى علماءُ المسلمين أنَّ التَّوراة قد انتابَتْها وانتابَتْ بني إسرائيلَ من الحوادث ما أدَّى إلى ضياعها وتحريفها، فقد ارتدَّ بنو إسرائيل، ورجعوا إلى عبادة الأوثان، وكانوا يُؤْمِنون تارةً ويرتدّون

(1) الصالحي ابن المبرد، الدر النقي في شرح ألفاظ الخرقي: 3/ 818.
(2) العثيمين، تفسير العثيمين: 1/ 292.
(3) أيوب، أحمد بن سليمان، وآخرون، موسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام: 2/ 243.
(4) الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، (قولهم: قد نَظَرَ في التوراة): 1/ 72.

أخرى ويسقطون في الوثنيَّة، وكان يُسلَّطُ عليهم مِن الملوك مَن يُبيدُهم كبُختنصَّرَ"(1).

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾:

تَتضاعَفُ مَذَمَّةُ أهلِ الضَّلالِ كلَّما تظافَرَتِ الأدلَّةُ على بيانِ الحقِّ ولم يهتدوا إليه

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ للتَّراخي الرُّتَبيِّ؛ أي: لم يعملوا بالتَّوراة بعد تحقُّقِ أخْذِهم إيّاها، وبعدَ تَبَيُّنِهم أنوارَها وهداياتِها، وبعدَ إقامةِ الحجَّة عليهم باستبصارِهم الحقَّ وصراطَ اللّه المستقيم، فنَكَثوا وانتَكَسوا وارتَكَسوا، فكانت جريمتُهم قطعيَّةً، وعقوبتُهم مؤكَّدةً، وذلك ما حصلَ فعلًا، حيث طرَدَهم الرَّسولُ ﷺ، وأراحَ مِن ضلالِهم العبادَ، وطهَّر مِن رِجْسِهم البلادَ.

معنى ﴿لَمۡ﴾ وأثرُها في المضارعةِ في جملةِ ﴿لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾:

النَّفيُ بـ(لم) يَسلُبُ المادَّةَ اللُّغويَّةَ دلالتَها، كما يَسلُبُ المادَّةَ الصَّرفيَّةَ دلالتَها

﴿لَمۡ﴾ في جملةِ ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ نافيةٌ لِقَبولهم ما تقدَّمَ مِن مُثْبَتِ تحميلِهم في ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾، جازمةٌ بتَعَمُّدِهم عدمَ قبولِ العملِ بها، قالِبةٌ حالَ اليهودِ إلى اللَّعنةِ والطَّردِ مِن رحمة اللّه بعدمِ التزامِهمُ العملَ بها، كما قَلَبَتْ دلالةَ نفي الفعل ﴿يَحۡمِلُوهَا﴾ إلى المضيِّ، إلّا أنَّ النَّفيَ بها هنا مستمرٌّ متجدِّدٌ، خصوصًا أنَّ التَّوراة قد حُرِّفَتْ وبُدِّلَتْ من أحبارهم، فكما نَفَتْ ﴿لَمۡ﴾ عن اليهود العملَ بتكاليف التَّوراةِ كذلك نَفَتْ تَجَدُّدَ قبولِهم هُداها؛ ليصير المعنى إلى دوام إصرارهم على الضَّلال، وثباتِ عقيدتهم على الكفر.

دلالةُ الحملِ في جملةِ ﴿لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾:

التَّوراةُ تُبشِّرُ بمحمَّدٍ ﷺ؛ فإنكارُ اليهودِ نبوَّتَهُ تكذيبٌ بتوراتِهم

الحملُ في جملة ﴿لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ يعني: العملَ بتعاليم التَّوراة، وأوامرِها، ونواهيها؛ أي: "لم يعملوا بما فيها من الوصيَّةِ باتِّباع عيسى عليه السلام إذا جاءهم، ثمَّ محمَّدٍ ﷺ إذا جاء، فهي - أي: التَّوراةُ

(1) هوتسما وآخرون، موجز دائرة المعارف الإسلامية: 1/ 26.

- ضارَّةٌ لهم بشهادتِها عليهم، قاذفةٌ لهم في النّار مِن غير نفعٍ أصلًا"[1]؛ فكان كلُّ حَبرٍ لم ينتفع بما حمل كمثل حمارٍ عليه أسفار"[2].

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ جملةِ ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ وجملةِ ﴿لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾:

المحسِّنُ البديعيُّ في القرآنِ الكريم يُسهِمُ في تحقيقِ مطابقةِ مقتضى الحال

وبينَ إثباتِ فعلِ التَّحميل في قوله تعالى: ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ ونفيِ حملِهم في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ طِباقُ سلبٍ يُجلّي سوءَ الأدب، وبشاعةَ الجُرم، ويقرِّرُ شدَّةَ الضَّلال الَّذي لَفَّهم.

وإلى ذلك فالطِّباقُ يَكشِفُ - عن بُعْدٍ - ما أُريدَ لهم من النّور والهدى، وما اختاروه لأنفُسِهم مِن الضَّلال والعَمَى، ومِن دونِ الطِّباقِ تخفُتُ تلك الإشارة؛ فكان عطاءُ الطِّباقِ مُسهِمًا في تحقيقِ المطابقةِ لمقتضى الحال.

لطيفةُ عَقْدِ التَّشبيهِ بالكاف في جملةِ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ﴾:

الكافُ أمثَلُ أداةٍ لإظهارِ التَّلاحُمِ وتطابُقِ الحالِ بينَ طَرَفي التَّشبيهِ المُعبَّرِ عنهما بـ(مَثَل)

لمّا استوفَى طَرَفا التَّشبيهِ المِثْليَّةَ، وهما: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾، ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾، وتقرَّرَ تأكُّدُ المشابهةِ بل المماثلةِ بينَهما جاءَ الرَّبطُ لِعَقْدِ تلك المماثلةِ بالأداةِ الخاطفة (الكاف) في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ﴾، وذلك فاعلٌ في تقويةِ لُحْمَةِ الرَّبط، وتقريب طرفي الإلحاق، وكأنَّهما مُلتحِمان بتلك المماثلة، كنايةً عن شدَّةِ المماثلةِ وقوَّةِ الإلحاق.

فلا يَحتَمِلُ الأسلوبُ أداةً أُخرى غيرَ (الكاف) وقد أحاطَتْها مادَّةُ المِثْليَّةِ مِن حوالَيها، فلا يتأتّى أن يقال: مثلُ الَّذين حُمِّلوا التَّوراةَ ثمَّ لم يحملوها شِبهُ مَثَلِ الحمار، أو مِثلُ مَثَلِ الحمار، أو كأنَّهم مَثَلُ الحمار... إلخ.

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 55.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 307.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾ لتعريفِ الجنس بأحدِ أفراده، مِن دونِ أنْ تدلَّ على حمارٍ معيَّنٍ، وهي مُؤْذِنَةٌ بتمامِ بَلادةِ ذلك ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾ الحاملِ أسفارًا، واكتمالِ صفة الغباء فيه، فهذا الحمارُ مُستجمِعٌ صفاتِ ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾، وهو دونَ غيرِهِ ما يَصِحُّ تصويرُ أحبارِ اليهود في صورتِه، وإلّا لقيل: كمثلِ حمارٍ يحملُ أسفارًا؛ ففي ذلك التَّعريفِ مزيدُ تحقيرٍ لسلوكِهم، وتنفيرٍ مِن مِثْلِ صنيعِهم.

حاملُ الهُدى مِن دونِ العملِ بـه في خِسَّةِ أغبَى الحميرِ وأدخَلِهم في البَلادة

وتخصيصُ الحمارِ بالتَّشبيهِ به لأنَّه كالعَلَمِ في الجهل[1]، وهو أبلَهُ الحيوانِ ومَثَلٌ في الغَباوة[2]، والحمارُ مِن بينِ حيواناتِ الرُّكوبِ جميعًا أكثرُها هوانًا على النّاس، وأخَسُّها مطيَّةً للرُّكوب؛ لا يتَّخِذُهُ كرامُ النّاسِ مركبًا لهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الحَمْلِ ﴿يَحۡمِلُ﴾، وإشارةُ المضارعةِ فيه:

والتَّعبيرُ بفعلِ الحَمل في جملةِ ﴿يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ يدلُّ على ثِقَلِ الحِمل، وشدَّةِ وطأتِه على الحمارِ الحامل. والمُضارَعةُ في الفعل ﴿يَحۡمِلُ﴾ تُجَدِّدُ عليه وطأةَ ذلك العِبْءِ والثِّقَل، وتَعكِسُ مَدى مُعاناتِهِ من ذلك الحِمل؛ وهو ما يُبيِّنُ تعاظُمَ خُسرانِ اليهودِ بفِقْدانِهمُ الانتفاعَ بمحمولِهم العظيمِ الفَخيم (التَّوراة)، واستمرارَ ذلك الخُسرانِ وتجدُّدَهُ على مرِّ الأزمان، وتُسهِمُ في تأديةِ التَّشبيهِ أغراضَه.

حِرمانُ اليهودِ وشقاؤُهم دائمٌ مستمرٌّ، يزدادُ تعاظُمًا بفَقْدِ الانتفاعِ بما حُمِّلوه

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿أَسۡفَارَۢا﴾ دونَ غيرِها كـ(كُتُبًا)، ونكتةُ تنكيرِها:

الأَسْفارُ جمعُ (سِفْرٍ)، وهو الكتابُ الكبيرُ المُسْفِرُ عمّا فيه[3]، وفي اصطفاءِ التَّعبيرِ بـ﴿أَسۡفَارَۢا﴾ دونَ غيرِها كـ(كُتُبًا) إضفاءٌ للقُدْسيَّةِ على ذلك المحمول؛ وذلك يَعني: أنَّ ذلك المحمولَ أشرفُ

تَوَحُّدُ المحمولِ يوحي بتَوَحُّدِ الحامل

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 290.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 56.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 56.

محمولٍ يمكن أن يُحمَلَ، ومع ذلك لا يَنتفِعُ به الحمارُ الحامل، بل يُرهَقُ به ويَشقى.

ومن بديعِ اختصاصِ ﴿أَسْفَارًاۚ﴾ بالذِّكرِ أنَّ ما حُمِّلَهُ اليهودُ أيضًا إنَّما هو (أسفارُ التَّوراة) العظيمةُ، فإذا توحَّدَ المحمولُ كان أزْرى على اليهود بإلحاقِهم بالحمار الحامل، وكأنَّ تَوحُّدَ المحمولِ يوحي بِتَوَحُّدِ الحامل.

وفي تنكيرِ ﴿أَسْفَارًاۚ﴾ تفخيمٌ وتعظيمٌ يَزيدُها قَدْرًا ورفعةَ شأنٍ، ويَجعَلُها بركةً على مَن يتَّصِلُ بها، ومع ذلك حُرِمَ الحاملُ فخامتَها وبركتَها، وذلك ينعكسُ على صورةِ ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ زِرايةً وإهانةً وتقبيحًا.

موقعُ جملةِ ﴿يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ من التَّركيب:

في الحالِ أو الوصفِ زيادةُ تشنيعِ حالِ اليهود، وتضاعُفُ صفةِ التَّحقيرِ لهم

جملةُ ﴿يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ من ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾؛ لتعريفه لفظًا بـ(أل)؛ أي: حاملًا أسفارًا؛ أي: أنَّ حالَ هؤلاءِ اليهود ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ ليس كحالِ أيِّ حمارٍ، بل كحالِ ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾ حاملًا أسفارًا تُثقِلُ كاهلَهُ غيرَ منتفِعٍ بها، وفي ذلك زيادةُ تشنيعٍ لحالهم، فيتفاقمُ عليهم النَّدمُ والهوانُ، ويتضاعفُ عليهم التَّحقيرُ والحطّ.

أو الجملةُ في محلِّ جرٍّ "صفةٌ لـ﴿ٱلۡحِمَارِ﴾؛ إذ ليس المرادُ به حمارًا معيَّنًا؛ فهو في حُكم النَّكرة؛ إذ المرادُ به الجنس"[1].

نكتةُ حذفِ صفةِ ﴿أَسۡفَارَۢاۚ﴾:

الإيماءُ إلى قُبحِ صنيعِ اليهودِ وشُؤْمِ عنادِهم

في قولِه تعالى: ﴿أَسۡفَارَۢاۚ﴾ حذفٌ لصفةِ هذه الأسفار؛ أي: كتبًا عظامًا كبارًا من كتب العلم، وفي حذفِ صفةِ ﴿أَسۡفَارَۢاۚ﴾ بعدَ تنكيرِها وإطلاقِها عن القيودِ إيحاءٌ بأنَّها أسفارٌ جليلةٌ، "لا يُعلَمُ

(1) خان محمد صديق، فتح البيان، في مقاصد القرآن: 14/ 133.

قَدْرُها وخطرُها"[1]، وفي ذلك الحذفِ والإطلاقِ بيانٌ لقبحِ صنيعِ اليهود، وشؤمِ عنادهم، وكِبْرِهم على العرب ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، الَّذين نَقَلَ اللّه تعالى النُّبوَّةَ إليهم، وجعَلَها فيهم، بعدَ انحطاطِ اليهود إلى رُتبةِ الحميرِ بَلادةً وغباءً.

نوعُ التَّشبيهِ، وبلاغتُهُ في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ﴾ الآية:

التّشبيهُ في قول اللّه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، شَبَّهَ فيه معقولًا بمحسوسٍ؛ حيث شبَّهَ حالَ اليهودِ الَّذين كلَّفهم اللّه تعالى بتكاليفِ التَّوراةِ - وفيها هُدًى ونورٌ - وصوَّرَ تخاذُلَهم عن القيام بحقِّها، وعدمَ انتفاعِهم بنورها وهُداها بمحسوسٍ هو حالُ شقاءِ الحمارِ الَّذي يحملُ حِمْلًا من كُتُبٍ كبيرةٍ عظيمةِ النَّفْعِ، وهو لا يَدري قَدْرَها، ولا ينتفعُ بعلومها، بل يَكِدُّ بصُحبتِها.

"وبذلك كان تمثيلُ حالِهم بحالِ الحمار يَحمِلُ أسفارًا تمثيلًا للمعنى المجازيِّ بالمعنى الحقيقيِّ، وهو من لطائفِ القرآن"[2].

والوجهُ الجامعُ بين طرفي التَّشبيهِ هو (حصولُ الشَّقاءِ الشَّديدِ بسببِ ما فيه أبلغُ أسبابِ النَّفعِ والسَّعادة)، والتَّشبيهُ كاشفٌ أتمَّ الكشفِ عن شدَّةِ غباءِ اليهود، وبَلادةِ تفكيرِهم، وشُؤمِ فِعالِهم، مُحَقِّقٌ غرضَهُ من تحقيرِهم، و"تقبيحِ المخالفةِ بينَ القول والفعل"[3]، والتَّنفيرِ من مِثْلِ سُلوكِهم في إهمالِ أنوارِ الوحيِ الشَّريف، والحمدُ للّهِ الَّذي نجَّى المسلمين من سوءِ حالِهم.

وهذا المَثَلُ "يَلحَقُ مَن لم يَفهَمْ معانيَ القرآنِ الكريم ولم يَعملْ به، ولهذا قال ميمونُ بنُ مِهرانَ: يا أهلَ القرآن، اتَّبعوا القرآنَ قبلَ أن يَتَّبِعَكم، ثمَّ تلا هذه الآيةَ"[4]، وكذلك في هذا المَثَلِ دليلٌ على سوءِ حالِ العالِمِ الَّذي لا يَعمَلُ بعلمِه، وسوءِ حالِ المُنكِرينَ مع عِلْمِهم[5].

وتزدادُ جريمةُ مَن سلَكَ طريقَهم حينَ يَعرِفُ قَدْرَ كتابِ اللّه تعالى ثمَّ لا ينتفعُ به؛ فإنَّ اليهودَ "وإنْ عرفوا التَّوراةَ فحينَ لم يُعَظِّموها حقَّ تعظيمِها، وكذَّبوا بما فيها كانوا

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 8.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 214.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 62.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 295.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 290.

كأنَّهم لا يعرفون قَدْرَها وخطرَها، فصار مَثَلُهم كمَثَلِ الحمارِ يحملُ الكتبَ، لا يَعلمُ ما قَدْرُها وخَطَرُها، وهذا التَّأويلُ أقربُ؛ لأنَّه قال في سياقِ هذه الآية: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾، فثَبَتَ أنَّ المَعْنيَّ من التَّمثيلِ بداية إنَّما هو التَّكذيبُ، واللَّه أعلم"(1).

ما أسوَأَ حالَ العالِمِ الَّذي لا يَعمَلُ بعِلمِه! وحالَ المُنكِرين مع عِلْمِهم!.

على أنَّ "التَّكذيبَ والتَّحريفَ إنَّما كان مِن عملِ كُبَرائهم ورُؤَسائِهم، فأخبَرَ أنَّهم كذَّبوا، ولم يَعرفوا قدرَها - أي: التَّوراةِ - حينَ كذَّبوا؛ ليَزْجُرَ مُتَّبِعيهم عن اتِّباعِهم، ويُبَيِّنَ أنَّ رؤساءَهم ليسوا ممَّن يستحقّون الاتِّباعَ، وفيه أيضًا زجرٌ للمسلمين أنْ يَستخِفّوا كتابَ اللَّه تعالى، والعملَ بما فيه، واللَّه أعلم"(2).

علَّةُ فصلِ جملةِ ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ عمّا قبلَها:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ عن جملةِ التَّشبيهِ السّابقةِ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ﴾ لكمالِ الانقطاعِ الأسلوبيِّ - لا الدَّلاليِّ - بينهما؛ إذ إنَّ أسلوبَ جملةِ ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ أسلوبُ ذمٍّ، وهو إنشاءٌ غيرُ طلبيٍّ، وأسلوبَ جملةِ التَّشبيهِ قبلَها أسلوبُ إخبارٍ عن حالِهم؛ فهما مُختلفا المَهْيَعِ الأسلوبيّ.

كمالُ الانقطاعِ البلاغيُّ ليس بترًا للعلاقةِ المعنويَّةِ بينَ الجملتين، بل مجرَّدَ اختلافٍ أسلوبيّ

أمّا مَعْنياهُما فمترابِطان؛ حيث إنَّ الخبرَ المتقدِّمَ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ﴾ يُؤذِنُ بالذَّمِّ اللّاحقِ ويُهيِّئُ له؛ فليس المقصودُ بكمال الانقطاع في باب الفصل والوصل البلاغيِّ بترَ العلاقةِ المعنويَّةِ بينَ الجملتين، وإلّا لكان الكلامُ مُتعاديًا.

معنى ﴿بِئۡسَ﴾، وبيانُ فاعلِها والمخصوصِ بالذَّمِّ بها:

﴿بِئۡسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ فعلٌ لإنشاءِ ذمِّ هؤلاء اليهود، الَّذين شَقوا باستصحابِ ما فيه أبلغُ أسبابِ السَّعادة - أي: التَّوراةِ - فحُقَّ لهم الذَّمُّ، وحَقَّ عليهم

تكذيبُ اليهودِ للقرآنِ تكذيبٌ للتَّوراةِ الَّتي جاء بها موسى عليه السلام

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 8.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 9.

العذابُ. وفاعلُ الذَّمِّ مذكورٌ مضافٌ لِما فيه (أل)، وهو قوله: ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾، وهو موح بالمخصوصِ بالذَّمِّ المحذوفِ المفهوم من سياقِ الكلام؛ أي: بِئْسَ مَثَلُ القَوْمِ الَّذينَ كَذَّبوا بآياتِ اللّهِ (مَثَلُهم)؛ أي: تشبيهُهم بالحمارِ يحملُ أسفارًا، ثمَّ حُذِفَ؛ لأنَّه قد تقدَّمَ ذِكرُه[1]، وفي إعادتِه أكثرَ من ثلاثِ مرّاتٍ إثقالٌ للكلام، وهذا مِن تَفَنُّناتِ القرآن[2]. أو المخصوصُ بالذَّمِّ هو ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾، أُقيمَ مُقامَ المخصوصِ المحذوف؛ إذ التَّقديرُ: بئسَ مثلُ القوم مثلُ الَّذين كذَّبوا بآيات اللّه، فحُذِفَ المخصوصُ (مثل) لئلّا يُثقِلَ الكلام، ثمَّ أُقيمَ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ مُقامَهُ، فأُعرِبَ إعرابَه[3].

وذكر الزَّمخشريُّ في الكشّاف أنَّ فاعلَ ﴿بِئْسَ﴾ ضميرٌ مستترٌ مفسَّرٌ بتمييزٍ محذوف، والمخصوصُ بالذَّمِّ مذكورٌ هو ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾، والتَّقديرُ: بئس مثلًا مثلُ القوم الَّذين كذبوا بآيات اللّه[4].

"وتُعُقِّبَ بأنَّ سيبويهِ نصَّ على أنَّ التَّمييزَ الَّذي يفسِّرُ الضَّميرَ المستترَ في باب نعم لا يجوزُ حذفُهُ"[5].

والمعنى: "ساءَ حالُ الَّذين كذَّبوا بكتاب اللّه تعالى؛ فهم قد ضَمّوا إلى جهلِهم بمعاني التَّوراةِ تكذيبًا بآيات اللّه تعالى وهي القرآن"[6].

وفي هذا الذَّمِّ "ذَمٌّ لِمَثَلِهم، والمرادُ به ذمُّهم، واليهودُ كذَّبوا بالقرآن وبالتَّوراة حين لم يؤمنوا بمحمَّدٍ ﷺ"[7].

و"هذا المَثَلُ وإن كان نصًّا في اليهود فهو لجميع قُرّاءِ السّوءِ من كلِّ ملَّةٍ؛ لاشتراكِهم معهم في وجهِ الشَّبه، كما أنَّ مَثَلَ الكلبِ في الأعراف على هذا النَّحو، وكأنَّه لم يُدخِلْ سبحانه هذه الأُمَّةَ في ذلك صريحًا؛ إشارةً إلى حفظها من غيرِ أنْ يَكِلَها إلى نفسها، كما

---

(1) النحاس، إعراب القرآن: 4/ 281، والنَّسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 481، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1415.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 214.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 290.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 530.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 290.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 214.

(7) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 295.

أنَّه آتاها العلمَ مع الأُمّيَّة منها ومن رسولها مِن غير أنْ يَكِلَهم إلى كتابةٍ، ولا تقدُّم علمٍ ما، ولا تكلُّفٍ لشيء"[1].

دلالةُ المثَلِ في جملةِ ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾:

الـكـذبُ على اللـه سبحانه، والتَّكذيبُ بآياتِهِ يَستوجِبُ أبلغَ الذَّمّ

والمقصودُ بالمَثَلِ في جملةِ ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ النَّعتُ والصِّفةُ؛ أي: "بئس النَّعتُ والصِّفةُ صفةُ الَّذين بلَغَ كذِبُهم مبلغَ الكذبِ على الله تعالى؛ لأنَّ الكاذب في العباد موصوفٌ بالشَّرِّ، فإذا بلغ كذِبُهُ مبلغًا يَكذِبُ على الله تعالى عُلِمَ أنَّه في النِّهاية في الشَّرِّ، فكأنَّه يقول: صفةُ الَّذين كذَبوا على الله تعالى في الغايةِ من الشَّرِّ والقُبح، أو يقولُ: بئسَ مثلُ الَّذين كذَّبوا بآيات الله؛ لأنَّ الله تعالى ضرَبَ أمثالَ المشركين بكلِّ ما يُستخبَثُ، ويُستقبَح، وضرَبَ أمثالَ المؤمنين بكلِّ حَسَنٍ وطَيِّبٍ"[2].

و"الوصفُ وإن كان في الظّاهرِ للمَثَلِ فهو راجعٌ إلى ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾، فكأنَّه قال: بئس القومُ قومٌ مَثَلُهم هكذا"[3].

نكتةُ استعمالِ لفظةِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾، ومعنى (أل) فيها:

استوجَبوا أنواعَ الذَّمِّ بتعطيلِهم عقولَهم في فهم الحقِّ في توراتِهم

(أل) في ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ لتعريفِ العهدِ الذِّكريِّ؛ إذ هم ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾. وفي التَّعبيرِ عنهم بـ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ تهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ كلمةَ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ غالبًا ما تُستعمَلُ في الرِّجالِ العقلاءِ، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّهم استوجَبوا تلك المَذامَّ واستَحَقّوها، بتعطيلِهم عقولَهم في فهم الحقِّ الَّذي جاءت به توراتُهم.

مَحَلُّ لفظةِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من الإعراب:

قِـوامُ قـوميَّةِ اليهود نَبْذُ الحقِّ، والاعـتـصـامُ بالكذب، ودوامُ ظُـلـمِ الـنَّـفس والآخر

تقعُ لفظةُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من التَّركيبِ موقعَ صفةِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾[4]، والصِّفةُ تدلُّ على تأصُّلها في موصوفِها، وفي هذه الصِّفةِ افتُضِحَ أمرُ اليهود،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 56.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 9.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 540.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 214.

وتعرَّى قِوام قوميَّتِهم الخبيثة، وأنَّها مبنيَّةٌ على التَّكذيب بآيات اللّه تعالى، والواقعُ شاهدٌ بذلك؛ فإنَّهم يتقوَّمون بنَبْذِ الحقِّ، ورفضِ الهدى، والاعتصامِ بالكذب والضَّلال، وظُلم أنفُسِهم وغيرِهم.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾:

الموصولُ يُمَهِّدُ لِذِكرِ جملةِ الصِّلة؛ فيُروَى الشَّوقُ المُثارُ بإبهامِه

التَّعبيرُ بالموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ يُهيِّئُ لذكرِ جملة الصِّلة، بعدَ التَّشويقِ إليها بما فيه مِن إبهامٍ، وقد "جُعلت الصِّلةُ في قوله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ لأهلِ الكتاب مقرِّرًا للتَّمثيل في قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾"[1].

و﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ هم اليهودُ، الَّذين كذَّبوا بآياتِ اللّه الدّالَّةِ على صِحَّةِ نُبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّكذيب، ونكتةُ تضعيفِ عَيْنِ الفعل ﴿كَذَّبُواْ﴾:

اليهودُ يَتَعمَّدون التَّكذيبَ بآياتِ اللّه على عِلْمٍ عِنادًا منهم وكُفْرًا

في التَّعبيرِ بالتَّكذيبِ في قوله تعالى: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ دلالةٌ على أنَّ اليهودَ تعمَّدوا التَّكذيبَ على عِلْمٍ عِنادًا منهم وكُفْرًا[3]، فحَقَّ عليهم العقاب.

وفي تضعيفِ عينِ الفعل ﴿كَذَّبُواْ﴾ تهيئةٌ لتعديةِ فعل التَّكذيب، ودلالةٌ على وقوعِه منهم بكثرةٍ، وإلى ذلك ففي تضعيفِها إلماحٌ إلى شدَّةِ جُرمِ التَّكذيب بآيات اللّه تعالى، وأنَّه مِن الخُطورةِ وثِقَلِ التَّبِعةِ بحيث لا يُحتمَلُ، ولا يُحتمَلُ عقابُه.

معنى الباءِ في القيدِ ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾:

تكذيبُ آياتِه ﷻ مِن الفظاعةِ بمكانٍ

و(الباء) في القيدِ بالجارِّ والمجرور ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ للإلصاقِ على أصلِ الوضع؛ إذ التَّكذيبُ يتعدَّى إلى الآياتِ مِن دونِ حرفٍ، فيقالُ: كذَّبَ آياتِ اللّه؛ لكنَّ زيادتَها ضروريَّةٌ لبيانِ فظاعةِ تكذيبِهم المُلتصِقِ بآياتِهِ ﷻ.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 411.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 530.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 56.

دلالةُ التَّعبيرِ بالآيات، ونكتةُ جمعِها وإضافتِها إلى الاسم الأعظم:

أوتيَ اليهودُ من الآياتِ كثرةً وتنوُّعًا ما هو جديرٌ بحَمْلِهم على التَّصديقِ بالرَّسول ﷺ

المرادُ بـ(آيات اللّه) هنا "الآياتُ الدّالَّةُ على صحَّةِ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وهو قولُ ابن عبّاسٍ ومقاتلٍ، وقيل: الآياتُ: التَّوراةُ؛ لأنَّهم كذَّبوا بها حينَ تركوا الإيمانَ بمحمَّدٍ ﷺ، وهذا أشبهُ هنا"(1).

وفي جمعِ الآياتِ وإضافتِها إلى الاسمِ الأعظمِ دلالةٌ على شرفِها وعُلوِّ شأنِها، وعلى كثرتِها وتنوُّعِها كثرةً جديرةً بحَمل المُخاطَبِ والمتلقّي لها على التَّصديقِ بها والعملِ بمقتضاها، فإذا كذَّبوها بعدَ ذلك كان تكذيبُهم دليلًا على تَراكُمِ غِشاواتِ الضَّلالِ على أبصارِهم، وظَلامِ نفوسِهم.

معنى الواوِ في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلمُ يَحولُ بينَ الظّالمِ وبينَ هدايةِ الله تعالى وتوفيقِه

(الواوُ) في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافيَّةٌ، والاستئنافُ بيانيٌّ، والجملةُ بعدَها "لا محلَّ لها"(2)، وهي "تذييلٌ قُصِدَ به بيانُ الأسبابِ الَّتي أدَّتْ إلى عدمِ توفيقِ اللّه تعالى لهم إلى الهداية"(3)؛ "لأنَّ اللّه تعالى حَرَمَهُمُ اللُّطْفَ والعنايةَ بإنقاذهم؛ لِظُلمِهِم بالاعتداء على الرَّسول ﷺ بالتَّكذيب دون نَظَرٍ، وعلى آياتِ اللّه تعالى بالجَحْدِ دونَ تدبُّرٍ"(4).

وجعَلَ البقاعيُّ الواوَ عاطفةً، فقال: "لمّا كان التَّقديرُ: (فاستحَقّوا الوصفَ بجميع المذامِّ؛ لأنَّهم ظَلَموا أشدَّ الظُّلم) عُطِف عليه قولُهُ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾"(5).

معنى ﴿لَا﴾ **في جملةِ** ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

﴿لَا﴾ في جملةِ ﴿لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ نافيةٌ، قاطعةٌ بانتفاءِ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 540.

(2) الدعاس، إعراب القرآن: 3/ 342.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 382.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 214.

(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 57.

هداية اللّه تعالى عن هذا الصِّنف، ممَّن يُؤتَى الكتابَ، وتُتلَى عليه الآياتُ، ويُعلَّمُ الحكمةَ، ثم يُحرَمُ هدايتَها، وتَعشو عيناه عن أنوارِها.

نكتةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على الخبرِ الفعليِّ:

اللّهُ تعالى وحدَهُ القادرُ على هدايةِ مَن يشاء، وعلى حَجْبِها عمَّن يشاء

في تقديمِ المسند إليه على الخبرِ الفعليِّ المنفيِّ في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دلالةٌ على كونِ حَجْبِ الهداية عن هؤلاء اليهود الظّالمين مقصورًا على اللّه تعالى، وهو بأمرِه وحدَه؛ فاللّه تعالى وحدَهُ القادر على هدايةِ مَن يشاءُ من صالحي العباد، وهو تعالى وحده القادرُ على حجب الهداية عمَّن يشاءُ من ظالِميهم، وفي القرآن الكريم: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾ [الروم: 29]؟؛ أي: لا أحدَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالهدايةِ في الفعل ﴿يَهۡدِي﴾:

هدايةُ اللّهِ تعالى هدايةُ توفيقٍ وتسديدٍ، أمّا هدايةُ غيرِهِ فهدايةُ إرشادٍ وتوجيه

المقصودُ بالهدايةِ في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هدايةُ التَّوفيق والتَّسديد والمعونة؛ لأنَّها مِن اللّه تعالى، بخلاف هدايات البشر؛ فإنَّها هدايةُ إرشادٍ وتبيينٍ وتوجيه، والمعنى: واللّه تعالى لا يوفِّقُ الظّالمين إلى الإيمان، ولا يُعينُهم على اعتناقِهِ، ولا يُسَدِّدُهم، بل يَخذُلُهم، ويَكِلُهم إلى غَيِّهم وضلالِهم.

دلالةُ إظهارِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلمُ أخصُّ جرائمِ اليهود وأقوى رابطةٍ لقوميّتِهم

في إظهارِ ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دون إضمارِهم - أي: اليهودَ - إفصاحٌ بظلمهم، وفَضْحٌ لها، وفي إيثارِ وصفِ الظُّلم من بين جرائمِهم إيحاءٌ بأنَّه أخصُّ جرائمِهم، وأقوى رابطةٍ لقَوْميَّتِهم، والواقعُ منهم عبرَ تاريخِهم المُظلِم شاهدٌ على ذلك، مُؤكِّدٌ له.

معنى (أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لتعريفِ العهدِ الذِّكريِّ؛ إذ ﴿ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ هم ﴿ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾. ولا مانعَ مِن إطلاق الحُكمِ؛ ليشمل كلَّ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الَّذين يتعمَّدون الظُّلمَ

بلا جهلٍ به وبعقوبتِهِ، "أمّا مَن ظلَمَ عن جهلٍ، أو فسَقٍ ثمَّ استرشَدَ فإنَّه يَهديه ويُرشِدُهُ، واللهُ أعلم"(1)، فتكونُ (أل) حينئذٍ لتعريف الجنس الاستغراقيِّ، ويكون حُكْمُ حَجْبِ الهدايةِ عن كلِّ ظالمٍ وكلِّ قوميَّةٍ ظالمةٍ قانونًا إلهيًّا عامًّا عادلًا.

حَجْبُ الهدايةِ الإلهيَّةِ عن كلِّ ظالمٍ وعن كلِّ قوميَّةٍ ظالمةٍ قانونٌ إلهيٌّ عامّ

دلالةُ صَوْغِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ، وإشارةُ جمعِه:

وفي صوغِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ إشارةٌ إلى رُسوخِ خُلُقِ الظُّلم في اليهود، ودوامِهم عليه، واطمئنانِهم إليه حتّى استَمْرَؤوه، وما عادوا يَستقبِحونه، ولا يَتورَّعون عنه، وأنَّهم "الَّذين تعمَّدوا الظُّلمَ بمنابذةِ الهُدى، الَّذي هو البيانُ الَّذي لم يَدَعْ لبسًا، حتّى صار الظُّلمُ لهم صفةً راسخة"(2)، "والمرادُ بهم الَّذين سبَقَ في علمِهِ أنَّهم لا يؤمنون، وإلّا فقد هَدَى كثيرًا من الكفّار"(3).

مَن استَمْرَأَ الظُّلمَ صارَ سُلوكًا لازِمًا له ثابتًا فيه، وهدايةُ الله تعالى محجوبةٌ عنه

كما فيه إيحاءٌ بأنَّ مَن استمرَأَ الظُّلمَ وتشرَّبَهُ صارَ سلوكًا لازمًا له ثابتًا فيه، وأنَّ هدايةَ اللهِ تعالى محجوبةٌ عنه بسبب الظُّلم.

وفي جَمْعِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لَفْتٌ إلى كثرتِهم في النّاس، واتِّساقٌ مع نُصوصِ الشَّرعِ الحنيفِ القاطعةِ بأنَّ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٢٤٣﴾ [البقرة: 243]، و﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف: 103].

نكتةُ حذفِ متعلّق الظُّلمِ في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

الظُّلمُ كلُّه عاقبتُهُ وخيمة، وعقوبتُهُ أليمة

لم يَنُصَّ النَّظمُ الكريم على مفعولٍ مخصوصٍ لـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والتَّقديرُ: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ "أنفسَهم بتكذيبِ الأنبياء"(4)، كما ظلَمَ اليهودُ رسولَ اللهِ ﷺ بتكذيبه، أو ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ آياتِ اللهِ تعالى، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ عبادَ اللهِ تعالى في كلِّ جيلٍ وقَبيل.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 9.
(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 57.
(3) خان محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 133.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 295.

ولطيفةُ هذا الحذفِ إفادةُ العموم والشُّمول، والقطعُ بأنَّ جنسَ الظُّلم - بغضِّ النَّظرِ عن المظلوم مسلمًا كان أو كافرًا - عاقبتُهُ وخيمة، وعقوبتُهُ أليمة، والعياذُ باللَّه تعالى من الظُّلم والظّالمين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأسفار والكُتُب:

السِّفر: الكتاب الكبير، وقال الزَّجّاج: الأسفارُ: الكتبُ الكبار، وقال بعضُهم: السِّفرُ الكتابُ يتضمَّنُ علومَ الدّيانات خاصَّةً.

السِّفرُ: الكتابُ الكبير، المتضمِّنُ لعلومِ الدّيانات، والكتابُ أعمُّ من ذلك

والَّذي يوجِبُهُ الاشتقاقُ أن يكونَ السِّفرُ: الواضحَ الكاشفَ للمعاني، من قولك: أسفَرَ الصُّبح إذا أضاء، وسَفَرت المرأةُ نقابَها إذا ألقَتْهُ فانكشَفَ وجهُها، وسَفَرتُ البيتَ: كَنَسْتُهُ، وذلك لإزالتِكَ التُّرابَ عنه حتّى تنكشفَ أرضُهُ، وسَفَرَتِ الرّيحُ التُّرابَ أو السَّحابَ إذا قَشَعَتْهُ فانكشَفَتِ السَّماء[1].

(1) مؤسسة النشر الإسلامي، معجم الفروق اللُّغوية الحاوي لكتابَي العسكري والجزائري، ص: 278.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ [الجمعة: 6 - 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الأدلَّةُ العقليَّةُ المُلزِمةُ إحدى وسائلِ الذِّكرِ الحكيم في فَضْحِ مَزاعِمِ الخُصوم

أخبَرَتِ الآيةُ السّابقةُ عن حال اليهود وصِفتهم في عدم انتفاعِهم بنور التَّوراة وهُداها؛ حيث لَم يَعْمَلوا بما كلَّفهم اللّه تعالى فيها، وذكرتْ أنَّ مَثَلهم في ذلك كمثل الحمار حالَ شقائه بحَمل أشرف محمولٍ وهو أسفار العلم، وجاءت الآياتُ هنا بذِكرِ واحدٍ من أكاذيبهم الَّتي بها استحقّوا بها ذلك الوصفَ المُهين، وأكَّدتْ دَحْضَه بالدَّليل العقليِّ المُلزِم على كذبهم في هذا الزَّعْم، وفي غيره من مزاعمِهم المغلوطةِ إجمالًا.

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿هَادُوٓاْ﴾: الهودُ: اليهود. وهادوا يَهودون هَوْدًا، وسُمّوا اليهودَ اشتقاقًا مِن هادوا؛ أي: تابوا. ويُقال: نُسبوا إلى يهوذا، وهو أكبرُ ولدِ يعقوبَ عليه السلام، وحوِّلَتِ الذّالُ إلى الدّال حين عُرِّبت. والتَّهويد: شبهُ الدَّبيب في المَشْي، والسُّكونُ في الكلام، والهَوادةُ: البقيَّةُ من القوم يُرجى بها صلاحُهم[1]. فالمقصودُ بالَّذين ﴿هَادُوٓاْ﴾ هنا: أبناءُ يهوذا بنِ يعقوبَ عليه السلام.

2) ﴿زَعَمْتُمْ﴾: الزَّعْمُ - مُثَلَّثةً - : القولُ، زَعَم زَعْمًا وزُعْمًا وزِعْمًا: قالَ، ويُقال: الضَّمُّ لُغَةُ بَني تَميم، والفَتْحُ لُغَةُ الحِجاز. قالَ اللَّيْث: سَمِعْتُ أهلَ العَرَبيّة يَقولونَ: إذا قيل: ذَكَر فلانٌ كَذا وكَذا

(1) الخليل، العين: (هود).

فإنَّما يُقال ذلك لأمرٍ يُستَيْقَنُ أنَّه حَقٌّ، وإذا شُكَّ فيهِ فَلم يُدْرَ لَعَلَّه كَذِبٌ أو باطِل قيل: زَعَم فلان. وقالَ ابنُ خالَوَيْه: الزَّعْمُ يُستَعْمل فيما يُذَمَّ كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التغابن: 7]، حَتَّى قالَ بعضُ المُفسِّرين: الزَّعْمُ أصلُه الكَذِب[1]. فمعنى ﴿زَعَمۡتُمۡ﴾ هنا: قُلتُم كذِبًا وادَّعيتُم ذلك.

3) ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾: الوَلاءُ والتَّوالي: أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النّسبة، ومن حيث الدّين، ومن حيث الصّداقة والنُّصرة والاعتقاد. والوِلايَةُ: النُّصرةُ، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، والوَلِيُّ والمَوْلَى يستعملان في ذلك، كلُّ واحدٍ منهما يقال في معنى الفاعل؛ أي: الموالي، وفي معنى المفعول؛ أي: الموالَى[2]. فمعنى ﴿أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ هنا: أحبابُهُ الأقربون، والله تعالى أعلم.

4) ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾: المنى: التّقدير. يقال: مَنَى لك الماني؛ أي: قدَّرَ لك المقدِّر، ومنه: المَنا الَّذي يوزن به فيما قيل، والمَنِيُّ للّذي قُدِّرَ به الحيوانات. قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧﴾ [القيامة: 37]، ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦﴾ [النّجم: 46]؛ أي: تُقدَّرُ بالعزَّةِ الإلهيَّة ما لم يكن منه، ومنه: المَنِيَّة، وهو الأجلُ المقدَّرُ للحيوان، وجمعه: مَنايا.

والتَّمَنّي: تقديرُ شيءٍ في النّفس وتصويرُه فيها، وذلك قد يكون عن تخمينٍ وظنّ، ويكون عن رَوِيَّةٍ وبناء على أصل، لكنْ لمّا كان أكثره عن تخمينٍ صار الكذبُ له أملكَ، فأكثرُ التَّمنّي تصوُّرُ ما لا حقيقةَ له. قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾. والأُمْنِيَّةُ: الصّورةُ الحاصلة في النّفس من تمنّي الشَّيء[3]، فمعنى ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ هنا: اطلُبوه وتطلَّعوا إلى نزوله بكم.

5) ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾: القَدَمُ: قَدَمُ الرِّجل، وجمعه أقْدامٌ، قال تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ١١﴾ [الأنفال: 11]، وبه اعتُبِر التَّقدُّم والتّأخُّر، وقَدَمْتُ فلانًا أقْدُمُه: إذا تَقَدَّمْتَه، وقَدَّمْتُ به: أعلمتُهُ قبلَ وقت الحاجة إلى أن يعملَهُ، ومنه: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨﴾ [ق: 28]، وقُدّامُ بإزاء خَلْف[4]. فمعنى ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾: اكتسبوا من أقوالٍ وأعمال وأفعال، وسبَقَتْهم إلى الآخرة ليُجازَوا بها هنالك.

(1) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (زعم).
(2) الراغب، المفردات: (ولي).
(3) الراغب، المفردات: (منى).
(4) الراغب، المفردات: (قدم).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أكاذيبُ اليهودِ فظيعةٌ، لذا يخشون الموت؛ وهم أحرصُ النّاسِ على حياة

أقِمْ - يا رسولَ الله - الحُجَّةَ المُفْحِمَةَ لليهود على كَذِبِهم، مُدَلِّلًا بالدَّليل العقليِّ المُلْزِم لهم، المؤكِّد لِكَذِبِهم، الفاضحِ لِمَزاعِمِهم، قائلًا لهم: إن كنتم حقًّا صادقين في أنَّكم بأعمالكم الصّالحات أولياءُ للّه تعالى من دون النّاس، وأنَّكم أبناءُ اللّه تعالى وأحبّاؤُه، وأنَّ الدّار الآخرة خالصةٌ لكم من دون النّاس فأثْبِتوا صدقَكم في ذلك بأنْ تتمنَّوا الموتَ، وتطلبوه من اللّه تعالى؛ فإنَّ الحبيبَ يَرْنو إلى لقاء حبيبه، والوليَّ يسارع إلى جوار وليِّه، وإنْ تطلبوا الموتَ يَنزِلْ بكم على الفور، فترتاحوا مِن هموم دارِ الأغيار والأكدار، وتأْوون إلى دار النَّعيم والكرامة والاستقرار.

لكنِ اعلمْ - يا رسول اللّه - أنَّ اليهودَ كاذبون، وأنَّهم لن يَجرُؤوا على تَمَنّي الموت، ولن يُقدِموا على طلبه من اللّه تعالى؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ ما عطَّلوه من أوامره تعالى الواجبة، وما قدَّموه لأنفسهم من أعمالهم الفاسدةِ ومعاصيهم الموبقة، وما ارتكبوه في حقِّ أنفسهم وحقِّ العباد والبلاد من المظالم الآثمةِ كلُّ ذلك ينتظرُهم عقابُه، واللّهُ تعالى عليم بِظُلمِهم وظُلم الظّالمين جميعًا، ولن يُفلِتوا من عذابه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ جملةِ ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ عمّا قبلها:

الفصلُ اللَّفظيُّ بينَ الجُملِ القرآنيَّةِ تحتَهُ وصلٌ دلاليٌّ وثيقٌ بينَ معانيها

فُصِلَتْ جملةُ ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ عن جملةِ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ الآية؛ لِما بينهما مِن كمالِ الانقطاع، إذ الأولى إخبارٌ، والثّانيةُ إنشاءٌ طلبيٌّ بالأمرِ ﴿قُلۡ﴾؛ فلمّا اختلف مَهْيَعُ الكلام فُصِل بينهما.

غيرَ أنَّ مَعْنَيَيْهِما متَّصلان بخيطٍ دلاليٍّ جليٍّ؛ حيث يَجمَعُ بينَ معنييهما الحديثُ عن اليهود؛ بسَوْقِ الأولى مَثَلًا لَهُم في تعطيلِ ما كُلِّفوه مع جليلِ قدرِه وجميلِ نفعِه، وتحقيقِ الثّانية عليهم ذلك المَثَلَ بسَوْقِ دليلٍ عقليٍّ فاضحٍ لأكاذيبهم المتكاثرة.

دلالةُ القولِ في جملةِ ﴿قُلْ﴾:

الذِّكرُ الحكيم يوجِّهُ الدُّعاةَ نحوَ الأدلَّةِ العقليَّةِ في إلزامِ الخُصوم

في النَّصِّ على القولِ في جملة ﴿قُلْ﴾ توجيهٌ للنَّبيِّ ﷺ، وللدُّعاةِ من بعده نحوَ اتِّخاذ الأدلَّة العقليَّة المفحِمة لإلزامِ الخصوم من الكفّار عامَّةً واليهودِ خاصَّةً، وإلى ذلك ففي تزويدِهِ ﷺ بالحُجج دعمٌ لنبوَّتِهِ؛ وذلك بأنْ يَصدُرَ القولُ لهم مِنه هو ﷺ؛ لأنَّهم إنَّما كذَّبوه هو، وإلّا لتوجَّهَ الخطابُ منه ﷻ إليهم مباشرةً، فقيل: يا أيُّها الَّذين هادوا إن زعمتم ذلك فتمنَّوا الموت.

مَرجِعُ ضميرِ الخطابِ في ﴿قُلْ﴾:

أوامرُ اللهِ تعالى للرَّسولِ ﷺ أوامرُ لأُمَّتِه ما لم تكنْ له خصوصًا

المخاطبُ بالأمرِ ﴿قُلْ﴾ هو الرَّسولُ ﷺ؛ لأنَّه المُتلقّي عن اللّه تعالى من هذه الأمة، والمعنى: "قلْ - يا محمَّدُ - لليهودِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾"[1].

ثمَّ يصلُحُ الأمرُ بـ﴿قُلْ﴾ لكلِّ مَن يتأتّى له أنْ يقولَ هذا القولَ لليهود من الدُّعاة إلى اللّه تعالى؛ إذ ليس فيه خصوصيَّةٌ من خصوصيّاتِ النُّبوَّة، كما أنَّ ديدنَ اليهود في كلِّ زمانٍ ومكان؛ مِن دَعْوى الولاية للّه تعالى من دون النّاس، ومِن ظُلمِ العباد، والإفساد في البلادِ يُؤَهِّلُهم لهذا القولِ الفاضح.

غَرَضُ الأمرِ في جملةِ ﴿قُلْ﴾:

الرَّسولُ ﷺ يُنَفِّذُ أوامرَ الله تعالى كما هي

والأمرُ في جملةِ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ للاهتمام بشأن التَّحدّي مِن قِبَلِ الرَّسول ﷺ لهم، ولبيانِ أنَّه أمرٌ من اللّه تعالى، وليس للرَّسول ﷺ سوى التَّنفيذ[2].

و"قد أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ أن يقولَ لهم ذلك إظهارًا لكذبهم؛ وإنَّهم كانوا يقولون: نحن أبناءُ اللّه وأحبّاؤُه، ويزعُمون أنَّه لا يدخلُ الجنَّةَ إلّا مَن كان هودًا، إلى غيرِ ذلك من سائرِ دعاواهُمُ الكاذبة"[3].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 635.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 384.

(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1415.

نكتةُ النِّداء بـ(يا):

في النِّداءِ بأداةِ البعيد (يا) في مَقامِ التَّحدّي إمعانٌ فيه وفَضحٌ لهزيمةِ المُنادَى

وفي توجيهِهِ ﷺ إلى نداء اليهود في هذا المقام بـ(يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ - وهم أمامَه وحَوالَيْه - نداءٌ على كذِبهم في زعمهم أنَّهم أولياءُ للّه تعالى من دون النّاس، وإفشاءٌ لظُلمِهم أنفسَهم، وظلمِهم العبادَ، وفضحٌ لهزيمتِهم أمامَ أنفسهم، وأمامَ النّاس جميعًا في هذه المباهلةِ الحازمة.

روي أنَّه لمّا ظَهَر رسولُ اللّه صلّى اللّه تعالى عليه وسلَّم كتَبَتْ يهودُ المدينةِ ليهودِ خيبرَ: إنِ اتَّبَعْتُم محمَّدًا أطَعْناه، وإنْ خالفتُموه خالفناه. فقالوا: نحنُ أبناءُ خليلِ الرَّحمن، ومِنّا عُزَيرٌ ابنُ اللّهِ والأنبياءُ، ومَتَى كانتِ النُّبوَّةُ في العرب؟! نحنُ أحقُّ بها من محمَّدٍ، ولا سبيلَ إلى اتِّباعِه، فنزلت: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ الآيةَ[1].

معنى (أيُّ)، وأثرُ (الهاء) في صيغةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

صيغةُ (يا أيُّها) ممتلئةٌ كثيفةُ الدَّلالة، تَحفِزُ على معرفةِ المُنادى المقصودِ بعدَها

(أيُّ) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ "منادًى، نكرةٌ مقصودةٌ، مبنيٌّ على الضَّمِّ في محلِّ نصبٍ"[2]، وإبهامُه باعثٌ على استثارةِ الشَّوقِ لتخصيصِه بذِكر البدلِ أو عطفِ البيان الَّذي يأتي بعده، و(الهاء) للتَّنبيه، فتقديمُها بين يدَي المنادَى المقصود تهيئةٌ للمُتلقّي، وحَفزٌ لِهِمَّته على معرفةِ ذلك المنادَى الحقيقيِّ الآتي ذِكرُه وراءَ تلك الصّيغةِ العامرة.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الاسمُ الموصولُ عُنصُرُ تشويقٍ إلى معرفةِ صِلَتِه، وفي ذلك تشويقٌ مضاعفٌ لمعرفةِ المقصودِ بالخِطاب

وإلى ما سبق من مُثيرات الشَّوق في صيغةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ يأتي الاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عُنْصرَ تشويقٍ آخر؛ لأنَّه فقيرُ الدَّلالة يَطلُبُ ما يَسُدُّ فَقْرَ دلالته، فإذا جاءت جملة الصِّلةِ ﴿هَادُوٓاْ﴾ صارتْ هي الأُخرى عُنصرَ تشويقٍ تَطلُبُ ما وراءها من فحوى الخطاب الَّذي

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 291.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 246.

طال الشَّوقُ إلى معرفته؛ فيكونُ الوقوفُ عليه في لذَّةِ ما حُصِّلَ بعدَ معاناة.

وإلى ذلك فوراءَ الموصولِ هنا لطيفةٌ أُخرى؛ هي التَّعريض بكذب اليهود، "كأنَّه قيل: يا أيُّها الَّذين ادَّعَوا أنَّهم رجعوا إلى اللّٰه وتابوا إليه، إنْ زعمتُم أنَّكم أولياء اللّٰه - لأنَّ التّائب إلى اللّٰه وليُّ اللّٰه - فتَمَنَّوا لقاءَ اللّٰه؛ فإنَّ الحبيب لا يكرهُ لقاء حبيبه، ولقاءُ اللّٰهِ الموتُ"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿هَادُواْ﴾، وإشارةُ المضيِّ فيه:

الكذِبُ مِن أهلِ الدّيانةِ الإلهيَّةِ الصَّحيحةِ مُستبعَد

﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ "هم اليهودُ، وأصلُهُ من الهَوْد[2]، وهو الرُّجوع برِفقٍ، وسُمّي اليهودُ يهودًا لأنَّهم رجعوا إلى اللّٰه تائبين بعدَ أنْ عبدوا العجلَ، كما جاء في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 156]، ولذلك عُبِّرَ هنا بصيغةِ الماضي ﴿هَادُوٓاْ﴾، ثمَّ لَزِمَهم هذا الاسمُ، ولعنهم اللّٰه وهم معروفون به"[3]، و"يقال: هادَ فلانٌ وتهوَّدَ إذا دخل في اليهودية؛ نسبةً إلى (يهوذا) أحدِ أبناء يعقوبَ عليه السلام"[4].

وفي اصطفاءِ صفةِ الهَوْدِ - أي: التَّوبةِ والرُّجوع - في ندائهم هنا استدراجٌ لهم نحوَ مباشَرةِ المُباهلة، إمعانًا في إذلالهم وإخزائهم؛ لأنَّهم لن يفعلوا، ولو كانوا فعلًا هودًا تائبين فلن يخافوا سوءَ المصير، ولَطَلبوا الموتَ تعجيلًا إلى الفوز بالدّار الآخرةِ الخالصةِ لهم من دون النّاس، بحسبِ زعمهم الكاذب.

كذلك في اصطفاءِ وصف (الهَوْدِ) إزراءٌ عليهم؛ إذ الكذِبُ من

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 412.
(2) أصلُ الهَوْدِ: الرُّجوع برفق، وبه سمّيت اليهود، وكان اسمَ مدحٍ قبل نسخِ شريعتهم، وبعده صارَ اسمَ ذمٍّ لازمًا لهم أبدًا يتّسِمُون به إلى الأبد، يُنظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/ 465.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 948.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 383.

أهلِ الدّيانة الإلهيَّة الصَّحيحةِ مُستبعَدٌ؛ فكيف يكذبون وهم من أهل التَّوبة والرُّجوع عن المعصية؟!.

نكتةُ التَّصريح بذكرِ اليهود بعدَ الإلماحِ إليهم:

وفي التَّصريحِ بذكرِ اليهود في جملةِ النِّداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ بعدَ الإلماحِ إليهم في جملةِ التَّشبيهِ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ تحديدٌ لهم، وتصريحٌ بذكرِهم؛ مبالَغةً في فَضْحِهم ومُجابهتِهم بإثباتِ كذبِهم في دَعْواهُم أنَّهم ﴿أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، وتكذيبًا لزعمِهم أنَّهم شَعْبُ اللّه المختار، وتحقيقًا لإثباتِ التُّهمةِ عليهم، وإلصاقِها بهم بصراحَةٍ لا موارَبةَ فيها.

في التَّصريحِ باسم المجرم لمجابهتِهِ بجريمتِهِ تحقيقٌ لها عليه

معنى ﴿إِن﴾، ونكتةُ إيثارِها على (إذا):

تقييدُ صِدقِ اليهودِ في دَعْواهمُ الانفرادَ بالولاية للّه تعالى من دون النّاس بأداةِ الشَّكِّ ﴿إِن﴾ إهانةٌ لهم وإزراءٌ عليهم؛ لأَنَّ ﴿إِن﴾ تُعرِّض بفُجورهم في هذا القولِ الكاذب، وتدلُّ على أنَّه ما كان ينبغي أنْ يصدرَ عنهم ذلك الزَّعمُ إلّا على سبيلِ الافتراضِ والشَّكِّ والاستبعاد، خصوصًا أنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ وتابوا ورجعوا إلى اللّه تعالى.

لا يَنبغي لأحدٍ تزكيةُ نفسِهِ على الله تعالى، وادِّعاءُ وِلايتِهِ له

وإلى ذلك آثرَ النَّظمُ الكريمُ تقييدَ زعمِهم ذلك بـ﴿إِن﴾ دون (إذا) - مع أنَّ دلالةَ القطعِ فيها تلائمُ صدورَ ذلك الزَّعمِ عنهم فعلًا - إخجالًا لهم، وإغلاقًا لبابِ هُروبهم مِن الحوارِ المُلزِم باستِثارَتِهمُ الضَّجيجَ، وتحويلِهمُ المُحاجَّةَ إلى مغالطةٍ، بإعطائِهمُ الفرصةَ لتحويلِ الحوارِ إلى دَعْوى اتِّهامٍ بالكذب الصَّريح.

وكذلك في التَّقييدِ بـ﴿إِن﴾ "إشارةٌ إلى أنَّه لا ينبغي أن يُجزمَ به لوجودِ ما يُكَذِّبُه"[1]، و"للإشارةِ إلى أنَّ زعمَهم هذا لمّا كان باطلًا بالدَّلائل كان بمنزلةِ الشَّيءِ الَّذي يُفْرَض وقوعُه كما يُفرَضُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 291.

المُستبعَد، وكأنَّه ليس واقعًا، على طريقةِ قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ [الزُّخرف: 5]، ويفيدُ ذلك توبيخًا بطريقِ الكناية"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالزَّعم، وإشارةُ صَوغِهِ ماضيًا في ﴿زَعَمْتُمْ﴾:

دَعاوى اليهودِ تميُّزَهم على النّاسِ زعمٌ كاذِب

وفي التَّعبيرِ بمُفردةِ الزَّعم في جملةِ الشَّرط ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ ترجيحٌ لكذبِهم في دَعْواهم؛ لأنَّ "الزَّعْمَ يُستَعمَلُ فيما يُذَمُّ كَقَوْلِه تعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ [التَّغابن: 7]، حَتَّى قالَ بعضُ المُفسِّرين: الزَّعْمُ أصلُه الكَذِب"[2]؛ فيحصلُ الاتِّساقُ الدَّلاليُّ، والتَّوازنُ المعنويُّ بينَ إغلاقِ باب تُهمَتِهم الصَّريحةِ بالكذبِ باستعمالِ أداةِ الشَّكِّ والاستبعاد ﴿إِن﴾، وبينَ الإلماحِ إلى ترجيح كذبِهم باستعمال مفردةِ الكذب ﴿زَعَمْتُمْ﴾.

وفي صوغِ الزَّعم بصيغةِ الماضي ﴿زَعَمْتُمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ زَعْمَهم كان مجرَّدَ قولٍ منهم بألسنتِهم من دون أن يعملوا بمقتضاه، حيث وقع منهم قولًا ثمَّ انقضى.

وهكذا يُعلِّمُنا النَّظمُ القرآنيُّ أساليبَ الحِجاجِ الملزِم، والخِطابِ المُفحِم، خصوصًا مع أهل الباطِلِ والمغالطة، المجادِلين في الحقّ.

موقعُ المصدرِ ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ من التَّركيبِ:

المصدرُ المؤوَّلُ مِن (أنَّ) ومعمولَيْها في قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ منصوبٌ واقعٌ موقعَ مفعولَيْ ﴿زَعَمْتُمْ﴾؛ أي: إنْ زعمتُم ثبوتَ وِلايتِكم للّهِ من دون النّاس وانفرادِكم بذلك حاصلًا فتمنَّوُا الموت، وأنْ "ينقُلَكم سريعًا إلى دار كرامته الَّتي أعدَّها لأوليائه"[3]، وتلك حُجَّةٌ عقليَّةٌ، ودليلٌ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 215.

(2) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (زعم).

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 531.

منطقيٌّ على كونِهم كاذبين، وفيها كشفٌ لهم أمامَ أنفُسِهم، وفَضْحٌ لادِّعائِهم أمامَ غيرهم.

معنى (أنَّ)، ولطيفةُ إيثارِ التَّعبيرِ بها في قولِهِ: ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾:

اعتقادُ اليهودِ تَفَرُّدَهم بالوِلاية للهِ مِن دون النّاس ادِّعاءٌ في مَعرِضِ التَّكذيب

وعلى ذلك فـ(أنَّ) في قوله: ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ﴾ مصدريَّةٌ توكيديَّةٌ، وفي إيثار التَّعبير بها دلالةٌ على قوَّةِ تأكيدِهم لزعمِهم ذلك؛ لأنَّ زعمَهم فيه من الكذبِ ما لا يخفى على أحدٍ، وهم يعرفون قبلَ النّاس كذبَهم في هذا الادِّعاء، فاضطرّوا لتأكيدِهِ بأداةِ التَّأكيد[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالوِلاية، ولطيفةُ تنكيرِ لفظةِ ﴿أَوْلِيَآءُ﴾:

اليهودُ يَزعُمون أنَّهم أحبابُ الله تعالى، وأحقُّ بكرامتِه

الوليُّ هو النّاصرُ، والمُطيع، ويقال: المؤمنُ وليُّ اللّه تعالى، وفلانٌ أولى بكذا؛ أي: أحقُّ به[2]؛ فقولُهُ تعالى: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ معناه: "مُقرَّبون منه، كُرَماءُ عليه، لهم منزلةٌ خاصَّةٌ عندَه تعالى"[3].

وقولُهُ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18] "آذَنَ بأنَّ الوليَّ بمعنى الحبيب؛ فإنَّ المُحِبَّ يُحِبُّ لِقاءَ محبوبه، ولا يَكرهُ قُرْبَهُ، نحوُهُ قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: 94]"[4].

واليهودُ "كانوا يقولون: نحن أبناءُ اللّه وأحبّاؤه، ويدَّعون أنَّ الدّارَ الآخرة لهم عندَ اللّه خالصة، ويقولون: لن يدخلَ الجنَّة إلّا مَن كان هودًا؛ فأُمِرَ رسولُ اللّه ﷺ بأنْ يقولَ لهم إظهارًا لكذبِهم: إنْ زعمتُم ذلك ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾"[5]؛ فإنَّ الحبيب يتمنّى لقاءَ مَن يحبُّ، ولا يَفِرُّ منه، ويَوَدُّ أن يستريحَ من كُرَبِ الدُّنيا وغُمومِها، ويصيرَ إلى رَوحِ الجِنان ونعيمِها"[6].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 58.

(2) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (ولي).

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 383.

(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 406.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 248.

(6) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 230.

وفي تنكيرِ لفظةِ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ تحقيرٌ لشأنِهم، وازدراءٌ لهم، وتهكُّمٌ بهم؛ إذ لو عرَّفَهم بالإضافةِ لنَسَبَهم إليه، وفي ذلك تشريفٌ لهم، ولو عرَّفَهم بـ(أل) لبَرَزَ فيه معنى قصرِ الولايةِ عليهم، لذلك جاءَ اللَّفظُ مُنكَّرًا؛ دلالةً على انحطاطِ منزلتِهم.

دلالةُ جمعِ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾:

اليهودُ يعتقدون أنَّهم جميعًا أهلُ الولاية، رجالُهم ونساؤُهم، عُبّادُهم وفُسّاقُهم

وفي جمعِ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ إشارةٌ إلى مُعتقَدِ اليهودِ؛ أنَّ رجالَهم ونساءَهم، وعُبّادَهم وفُسّاقَهم جميعًا أهلُ الولاية، وأنَّ ذلك مقرَّرٌ في ميزانِ اللّه تعالى لا شكَّ فيه.

معنى اللّامِ في القيدِ ﴿لِلَّهِ﴾، ولطيفةُ إيثارِ التَّعبيرِ بالاسمِ الجليل:

زَعْمُ اليهودِ اختصاصَهم بولايةِ الله تعالى كَذِبٌ مَحض

اللّامُ في القيد ﴿لِلَّهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ للاختصاصِ؛ أي: ادَّعيتُم أنَّه تعالى "خَصَّكم بذلك خصوصيَّةً مُبتدَأةً"[1]، وهذا الاختصاصُ بولايةِ اللّه تعالى زَعْمٌ منهم فاسدٌ، لا حقيقةَ في واقعِ حالهم.

وأوثِرَ التَّعبيرُ في مقامِ ذِكرِ الولايةِ بالاسم الجليل لأنَّ المقامَ مقامُ عبوديَّةٍ، والعبوديَّةُ تكاليفُ، والاسمُ الجليل بالتَّكاليفِ أخصُّ، كما أنَّ التَّعبير بوصف الرَّبِّ في مقامِ الامتنانِ بالعطايا أخصُّ، واللّه تعالى أعلم.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ في ﴿أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾، و﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾:

بَونٌ شاسعٌ بينَ مَن يَدَّعي الولايةَ لله سبحانه، وبينَ مَن يَخُصُّهُ اللهُ تعالى بالولاية

وقعَ التَّشابُهُ اللَّفظيُّ بينَ قوله تعالى هنا: ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ وبينَ قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [يونس: 62]، على فَرْقِ ما بينَهُما من اختصاصٍ مُدَّعًى مكذوبٍ في زَعمِ اليهود أنَّهم ﴿أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾، واختصاص حقيقيٍّ صادقٍ في إخبارِ اللّه تعالى عن عبادِهِ المؤمنين الطّائعين أنَّهم (أولياءُ اللّه).

وقد لَفَتَ الطِّيبيُّ إلى هذا المعنى، حيث قال: "لم يُضِفْ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 58.

لـ(اللّه) كما أضافَ في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس: 62]؛ ليُؤذِنَ بالفَرْقِ بينَ مَن يدَّعي أنَّه مِن أولياء اللّه سبحانه، وبينَ مَن يَخُصُّ اللّهُ تعالى بالولاية، ونحوُهُ في الإضافةِ قولُهُ: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الصَّفّ: 14]؛ أي: مَن الأنصارُ الَّذين يَختصّون بي، ويكونون معي في نُصرةِ اللّه؟ ومعنى ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: 14]: نحن الَّذين يَنصرون اللّهَ تعالى"(1).

محلُّ القيدِ ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ ومعنى ﴿مِن﴾ فيه:

التَّأكيدُ - في زعمِهم - على اختصاصِ الولايةِ بهم مِن دونِ باقي الأُمَم

الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن دُونِ﴾ متعلِّقان إمّا بمحذوفِ نعتٍ ثانٍ لـ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾، وإمّا بمحذوفِ حالٍ من ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾؛ لاختصاصِها بالنَّعتِ الأوَّل(2).

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ زائدةٌ على أصلِ التَّركيبِ صناعةً؛ إذ الأصل: إنْ زعمتم أنَّكم أولياء للّه دون النّاس فتمنّوا الموت، فزيدت ﴿مِن﴾ لتأكيدِ نفي ولايةِ النّاس جميعًا للّه تعالى، وتخليصِها لليهود فقط وتخصيصِها بهم. واعتبر البقاعيُّ ﴿مِن﴾ هنا ابتدائيَّةً فقال: "خصَّكم بذلك - أي: ﴿أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ - خصوصيَّةً مُبتدَأةً مِن دونِ النّاس"(3).

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿دُونِ﴾، ولطيفةُ إضافتِهِ لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

دَأْبُ اليهودِ وشأنُهم احتقارُ النّاس وازدِراؤُهم وظُلمُهم

﴿دُونِ﴾ ظرفُ مكانٍ ملازمٌ للظَّرفيَّة الحقيقيَّة أو المجازيَّة(4)، غيرُ متصرِّفٍ، وهو نقيضُ (فوْق)، نحو: (هو دونَه)؛ أي: أحطُّ منه رتبةً، أو منزلةً، أو مكانًا(5)، وفيه معنى الدُّنوِّ؛ أي: القُرْب.

وسِرُّ التَّعبير بـ﴿دُونِ﴾ هنا تصويرُ اقترابِ اليهودِ - في زعمهم

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 407.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 92.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 58.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط في التفسير: 1/ 165.
(5) الغلاييني، جامع الدروس العربية: 3/ 64.

- إلى ولاية اللّه تعالى اقترابًا مجازيًّا أكثرَ مِن سِواهم، وأنَّ النّاس في ذلك أدنى وأحطُّ مِنهم منزلةً، ولعلَّ تلك الدَّلالةَ بعضُ عطاءِ الإضافةِ في ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، واللّه تعالى أعلم.

وذكَرَ أبو حيّان لِلَفظةِ ﴿دُونِ﴾ في سياقِ هذا التَّركيبِ معنًى جميلًا، فقال: "و﴿دُونِ﴾ هنا لفظٌ يُستعمَلُ للاختصاصِ وقَطْعِ الشِّرْكة، تقول: هذا لي دونَك؛ وأنت تريد: لا حَقَّ فيه لك معي ولا نصيبَ، وفي غير هذا المكانِ يأتي لمعنى الانتقاصِ في المنزلةِ أو المكانِ أو المقدار"[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لتعريفِ الجنسِ، دالَّةٌ على استغراقِ جميعِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وهذا هو اعتقادُ اليهود الجازم؛ إذ يعتقدون أنَّ عمومَ النّاس مِن غيرِهم محرومون من ولاية اللّه تعالى، وأنَّهم هم فقط مَن يَمْتازون بها ويَنفَرِدون بكراماتِها.

اليهودُ يَعتقِدون حِرمانَ عمومِ النّاسِ سِواهم مِن ولايةِ الله تعالى، وأنَّهم يَنفَرِدون بكراماتِها

معنى الفاءِ في جملةِ ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾:

(الفاءُ) في جملةِ ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ﴾، رابطةٌ لجُزئَيِ الكلام، شادَّةٌ لطَرَفَيْ جملةِ الشَّرطِ الثَّريَّةِ بكثرةِ تفاصيلها.

خوفُ اليهودِ تحدّيَ الرَّسولِ عليه السلام دليلُ اعتقادِهم صدقَهُ، فإصرارُهم عِنادٌ وجُحود

وقد جعَلَ اللّه تعالى هذه الجملةَ بشَرْطِها وجوابِها معجزةً لسيِّدنا محمَّدٍ ﷺ فيهم، وآيةً باهرةً، وأعلَمَهُ أنَّه إنْ تمنَّى أحدٌ منهم الموتَ في أيّامٍ معدودةٍ ماتَ وفارَقَ الدُّنيا، فقال لهم رسول اللّه ﷺ: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ على جهةِ التَّعجيزِ، وإظهارِ الآيةِ والعِبرة، فما تمنّاه أحدٌ خوفًا مِن الموت، وثِقَةً بِصدقِ محمَّدٍ ﷺ[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 1/ 497.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 308.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّمنّي في جملةِ ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾:

"والتَّمنّي: ارتياحُ النَّفسِ ورغبتُها القويَّةُ في الحصولِ على الشَّيء. ويُستعمَلُ التَّمنّي في المعنى القائم بالقلب، بأنْ تتَطَلَّعَ نفسُ الشَّخص إلى الحصول على الشَّيء، كما يُستعمَلُ عن طريق النُّطْق باللِّسان، بأنْ يقولَ الإنسان بلسانه: ليتني أحصُلُ على كذا. وهذا المعنى الثّاني هو المرادُ هنا؛ لأنَّ المعنى الكائنَ في القلبِ لا يَعلَمُهُ أحدٌ سوى اللّه تعالى.

والمعنى: قل لهم على سبيلِ التَّحدّي والتَّعجيزِ والتَّبكيت: إنْ كان الأمرُ كما زعمتُم فاذكروا أمامَ النّاس بألسنتِكم لفظًا يَدلُّ على أنَّكم تُحِبّون الموت، وترغَبون فيه؛ لكي تظفروا بعدَ الموتِ بالمَحَبَّةِ الكاملة مِن اللّه تعالى، ولكي تَنْتَقِلوا مِن شقاء الدُّنيا ومتاعبِها إلى النَّعيم الخالصِ بعدَ موتِكم"[1].

قال الماتريديُّ: "المباهَلةُ[2] في المتعارَفِ إنَّما هي المُحاجَّةُ في بلوغ العِنادِ والتَّمرُّدِ غايتَهُ، فكأنَّه لمّا قُرِّرَتْ عندهم جميعُ الحُجَجِ فلم يقبلوها أمَرَهُ بالمباهلة؛ فلم يُباهِلْهُ اليهودُ والنَّصارى؛ لأنَّه يجوزُ أنْ قد كان في كتابهم هذا أنَّ المباهلةَ مِن غايةِ المُحاجَّةِ، وأنَّ مَن باهَلَ نزَلَ عليه العذابُ واللَّعنة إنْ لَمْ يكن مُحِقًّا؛ فلذلك امتَنَعوا من المُباهلة.

وأمّا العربُ مِن المشركين فلم يكن لهم كتابٌ يعرفون به حُكْمَ المُباهلة فباهَلوا، وذلك أنَّه روي: أنَّ أبا جهلٍ كان يقول: اللهمَّ انصُرْ أحبَّنا إليك، وأقْرانا للضَّيْف، وأوْصَلَنا للرَّحِم؛ فنَصَرَ اللّهُ تعالى نَبيَّه ﷺ، فأبو جهلٍ باهَلَه؛ لأنَّه لم يكن له كتابٌ، ولم يُباهِلْهُ اليهودُ والنَّصارى لَمّا كانت لهم كُتُبٌ عرَفوا فيها حُكْمَ المُباهلة، واللّه أعلم"[3].

وفي التَّعبيرِ بمُفردةِ التَّمنّي في جملةِ جواب الشَّرط ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ دعوةٌ لليهود إلى قوَّةِ التَّعلُّقِ القلبيِّ واللَّفظيِّ بالموت؛ ليكونَ تعلُّقُهم به كنايةً عن صدقِهم في أنَّهم ﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، وقد خافوا ولم يَتَمنَّوا، وهذا دليلٌ على كذبِهم في دَعْواهم التَّفرُّدَ بولاية اللّه تعالى من دون النّاس.

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 383.

(2) "المُباهَلَة: المُلاعنة، يقال: باهَلْتُ فُلانًا؛ أي: لاعَنْتُهُ، وَمَعْنَى المُباهَلَة أن يَجْتَمِعَ القَوْمُ إذا اخْتَلَفُوا في شَيْءٍ فَيَقُولُوا: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِ"، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (بهل).

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 10.

تمنّي الشَّيءِ دليلُ التَّعلُّق به

كما يوحي فعلُ التَّمنّي باستحالةِ حصولِ الموت بالتَّمنّي، وأنَّه لا يأتي إلّا في أجَلِه، وفي حينِه الَّذي وقَّتَهُ اللّه تعالى، كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ٣٤﴾ [الأعراف: 34].

غَرَضُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾:

أهلُ الباطلِ يَجْبُنون عن مُجابَهةِ الحقِّ في المقاماتِ الحاسِمة

الأمرُ بالتَّمنّي في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ "مستعملٌ في التَّعجيز؛ كنايةً عن التَّكذيب، مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾ [آل عمران: 93]"(1)، وفي عدمِ مُجاراتِهم لذلك التَّحدّي دلالةٌ على أنَّ أهلَ الباطل يَجْبُنون عن مُجابهةِ الحقِّ في اللَّحظاتِ الحاسمة.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾:

الواثقُ في صلاحيةِ أعمالِه للعَرْضِ على اللهِ تعالى لا يَخشى الموتَ على أيِّ حال

و(أل) في ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾ لتعريفِ الجنس؛ أي: فتمنَّوا أيَّ موتٍ، بأيِّ وسيلةٍ، وعلى أيِّ صورةٍ إن كنتم واثقين أنَّ في الموتِ خلاصًا مِن همومِ الدُّنيا وأكدارِها إلى جنّاتِ اللّه تعالى وكراماته، وصادقين في أنَّكم أولياءُ للّه تعالى أصلًا، بِغضِّ النَّظر عن ولايةِ غيرِكم له تعالى مِن عدمِها، وإنْ كان عدمُها - كما تزعُمون - يُفرِدُكم بها فلْيكنْ حرصُكم على الموت الآنَ آكَدَ.

نكتةُ تقييدِ كونِهم صادقين بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

الدَّلالاتُ النَّظميَّةُ في الذِّكر الحكيم تتآزرُ على مستوى السّياقِ القريبِ المباشرِ والبعيدِ المُمتَدّ

في تقييدِ كونِ اليهود صادقين في دَعْواهم ولايتَهم للّه تعالى من دون النّاس بـ﴿إِن﴾ دون (إذا) تَحَدٍّ لهم في أنْ يتمنَّوا الموتَ، وتهييجٌ لكبريائهم بالإلماح بـ﴿إِن﴾ إلى استبعادِ حصول ذلك منهم؛ فـ﴿إِن﴾ توحي بالشَّكِّ في كونهم صادقين، وترجِّح أنَّ صدقَهم مجرَّدُ افتراض واحتمال، وذلك لا يتَّسِقُ مع دلالة (إذا) الَّتي تُرجِّحُ صِدقَهم في هذا الزَّعم لو قُيِّد صدقُهم بها.

وإلى ذلك ففي إيثار ﴿إِن﴾ اتِّساقٌ مع مفردةِ الزَّعم، وتناغُمٌ مع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 216.

﴿إِن﴾ قُبَيْلَه في جملةِ ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ﴾، وهكذا تتآزَرُ الدّلالاتُ النَّظْميَّةُ في الذِّكرِ الحكيم في السّياقَينِ القريبِ المباشِرِ والبعيدِ الممتدّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكونِ الماضي في جملةِ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

وفي التَّعبيرِ بفعل الكون الماضي في جملةِ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ إلحاحٌ في التَّهييجِ والاستثارة والإلهاب، والاستدراج إلى المُتحدَّى به مِن تَمَنّي الموت؛ إذ الكونُ الماضي يوحي بالقطعِ بتَحقُّقِ صِدقهم وثبوته ماضيًا مفروغًا منه، وإلّا فالأصلُ الإيجازُ، فيقال في غيرِ القرآن الكريم: فتمنَّوا الموت إنْ صَدَقْتُم، وهكذا يُمعِنُ أهلُ الحقِّ في تحدّي أهل الباطل، فيفضحونهم ويُحَقِّقونه عليهم.

الحقُّ قويٌّ يُمعِنُ به أهلُهُ في تَحدّي أهلِ الباطل، فيَفضَحونهم ويُحقِّقونه عليهم

ووجهُ الملازمة بين الشَّرط وجوابه أنَّ الموت رجوعُ الإنسان بِروحِه إلى حياةٍ أبديَّةٍ تَظهَرُ فيها آثارُ رضا اللّه تعالى عن العبد أو غضبِه؛ ليجزيَه على حسَب فِعله. والنَّتيجةُ الحاصلةُ من هذا الشَّرط تُحَصِّلُ أنَّهم - أي: اليهودَ - مثلُ جميع النّاس في الحياتَينِ الدُّنيا والآخرة، وآثارِهما، واختلافِ أحوالِ أهلهما، فيُعلَمُ من ذلك أنَّهم ليسوا أفضلَ من النّاس. وهذا ما دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ﴾ [المائدة: 18].

وبهذا يندفعُ ما قد يَعرِضُ للنّاظر في هذه الآية من المُعارضةِ بينها وبين ما جاء في الأخبارِ الصَّحيحةِ مِن النَّهي عن تَمَنّي الموت، فلو حَصَل لأحدٍ يقينٌ بالتَّعجيل إلى النَّعيم لَتَمَنَّى الموتَ، إلّا أنْ تكونَ حياتُهُ لتأييدِ الدّين كحياةِ الأنبياء(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بالصِّدق، ونكتةُ تنكيرِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾، ولطيفةُ صَوْغِهِ اسمَ فاعل:

وفي التَّعبيرِ بمفردةِ الصِّدق الصَّريح في جملةِ ﴿إِن كُنتُمۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 216.

القرآنُ الكريمُ يَفضَحُ اليهودَ بأنَّهم عالِمون ببُطْلانِ ما هُم عليه وفسادِه

﴿صَٰدِقِينَ﴾ دَعْمٌ لذلك الإلهابِ والاستدراج؛ إذ التُّهمةُ بِضِدِّ الصِّدق هي المفهومةُ مِن ﴿إِن﴾؛ أي: أنَّهم كاذبون في دَعْواهم ولايتَهم للّٰهِ تعالى دون مَن سواهم مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾.

وفي تنكيرِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ مزيدُ تشكيكٍ في أدنى صدقٍ منهم، وفي أيِّ قدرٍ منه فيهم، وإلّا لقيل لهم: إن كنتم الصّادقين؛ أي: المُنفرِدينَ بالصِّدق؛ فدلَّ التَّنكيرُ على أنَّهم مُجرَّدون من كلِّ صدقٍ، مُتَّهمون بكلِّ كذبٍ، وفي ذلك إهانةٌ لهم ما بعدَها إهانة.

وفي صَوغِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ كذلك تشكيكٌ في ثُبوتِ الصِّدق لهم، ونفيٌ لرُسوخِه فيهم خُلقًا ودينًا، و"لو علموا أنَّهم على حقٍّ لَمَا توقَّفوا عن هذا التَّحدّي الَّذي جعله اللّٰه تعالى دليلًا على صدقِهم إنْ تمنَّوهُ، وعلى كذبِهم إن لم يتمنَّوهُ، ولمّا لَم يقعْ منهم مع الإعلانِ لهم بذلك عُلِمَ أنَّهم عالِمون ببُطْلانِ ما هم عليه وفسادِه"[1].

دلالةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ من جملةِ ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

حذفُ جوابِ الشَّرطِ الدّالِّ ما قبلَهُ عليه يوحي باستبعادِ حُصولِ ذلك الجوابِ أصلًا

الشَّرطُ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ محذوفُ الجوابِ؛ وذلك لِدلالةِ ما قبلَهُ عليه، والمعنى: إن كنتم صادقين في زَعْمِكم واثقين بأنَّه حقٌّ فتمنَّوا الموت؛ فإنَّ مَن أيْقَنَ بأنَّه من أهل الجنَّة أحبَّ أنْ يَتخلَّصَ إليها من هذه الدّارِ الَّتي هي قرارةُ الأكْدار[2].

وفي حذفِ جوابِ الشَّرط في مثلِ هذا السّياقِ إيحاءٌ باستبعادِ تحقُّقِ جوابِه المحذوف، وكأنَّ المعنى هنا: أنَّهم في الأصل ليسوا صادقين؛ فكيف يَتحقَّقُ تَمَنّي موتِهم؟.

معنى (الواوِ) في قولِه: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾ "إخبارٌ بحالِهم المستقبَلة،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 863.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 248.

أخبارُ القرآنِ الكريمِ بالغيبِ تَقعُ على ما أخبَر

وهو عدمُ تمنّيهمُ الموتَ، وذلك خاصٌّ - على ما صرَّح به جمعٌ - بأولئك المخاطبين"[1].

و(الواوُ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ استئنافيَّةٌ، حيث يَتحوَّلُ الخطاب إلى رسول الله ﷺ؛ يُخبِرُهُ بالغيب قبلَ وقوعه، ويبشِّرُه بافتضاحِ كذب اليهود أمامَ أنفسهم وأمامَ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، الَّذين يزعُمون حرمانَهم من ولاية الله تعالى، وقد خافَ اليهودُ مِن لقاءِ الموت، ولم يتمنَّوهُ على وفْقِ ما أخبر القرآنُ الكريم بالغيب قبلًا.

أو (الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ اعتراضيَّةٌ على توجيهِ ابن عاشورٍ بأنَّ الآيةَ "اعتراضٌ بينَ جُملتَي القولين؛ قُصِدَ به تَحَدّيهم؛ لإقامةِ الحجَّةِ عليهم أنَّهم ليسوا أولياءَ لله. وليس المقصودُ من هذا معذرةً لهم من عَدَم تمنّيهمُ الموتَ، وإنَّما المقصودُ زيادةُ الكشفِ عن بُطلانِ قولهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: 18]، وإثباتُ أنَّهم في شكٍّ مِن ذلك، كما دلَّ عليه استدلالُ القرآن عليهم بتَحَقُّقِهم أنَّ الله تعالى يُعذِّبُهم بذُنوبهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ [المائدة: 18]"[2].

معنى (لا) في جملةِ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾:

التَّحدّي المُسبَقُ؛ لإظهارِ جُبنِهم وكَذِبِهم

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ نافيةٌ، تتحدّاهم مُسبقًا بجُبنِهم وتحاشيهم طلبَ الموت لِسوءِ ما يعلمون من أعمالهم؛ دليلًا على عِلمهم بِكَذِبهم في أنَّهم ﴿أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾.

توجيهُ التَّشابهِ اللَّفظيِّ في جملةِ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ وجملةِ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ﴾:

المتشابهُ القرآنيُّ يُحقِّقُ لكلِّ مقامٍ ما يَقتضيه، فَيَفي لكلّ مقامٍ بِحَقِّه

وقعَ التَّشابُهُ اللَّفظيُّ في قوله تعالى هنا: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾، مع قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ٩٥﴾ [البقرة: 95].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 291.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 217.

وقد سوَّى بينَهُما الزَّمخشريُّ فقال: "ولا فرقَ بين (لا) و (لن) في أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما نَفْيٌ للمستقبل، إلّا أنَّ في (لن) تأكيدًا وتشديدًا ليس في (لا)؛ فأُتيَ مرَّةً بلفظِ التَّأكيدِ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾، ومرَّةً بغيرِ لفظه ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾"[1].

لكنَّ الطِّيبيَّ في حاشيته على الكشّاف نقل عن الرّاغب لطيفةً دقيقةً، هي أنَّه "لمّا كان قولُه تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا﴾ [البقرة: 94 - 95] مُفتتَحًا بشرطٍ عُلِّقَتْ صِحَّتُهُ بتمنّي الموت، ووقَعَ هذا الشَّرطُ غايةَ ما يَطْلُبُهُ المُطيعُ، ولا مطلوبَ وراءَه على ما ادَّعَوْه لأنفسِهم، وهو أنَّ لهم الدّارَ الآخرةَ خالصةً من دون غيرِهم وجَبَ أنْ يكونَ ما يُبطِلُ تمنّيَ الموتِ المُؤدّي إلى بُطلانِ شرطِهم أقوى ما يُستعمَلُ في بابه، وأبلَغَهُ في نفيِ ما يَنتفي شرطُهم به؛ فكان ذلك بلفظةِ (لن) الَّتي للقَطْعِ والبَتات.

وليس كذلك الشَّرطُ في سورة الجمعة؛ إذْ ليس زعمُهم أنَّهم أولياءُ للّهِ من دون النّاس مِثْلَ المطلوب الَّذي لا مطلوبَ وراءه وهو الدّار الآخرة؛ لأنَّهم يَطلُبون بعد ذلك - إذا صحَّ لهم هذا الوصفُ - دارَ الثَّواب؛ فلمّا كان الشَّرطُ في هذا المكانِ - أي: في الجمعة - قاصرًا عن الشَّرطِ في ذلك المكانِ - أي: في البقرة - ولم تكنِ الدَّعوى في الجمعة غايةَ المطلوب لم يَحتَجْ في نفيِه وإبطالِه إلى ما هو غايةٌ في بابه"[2].

وفي هذا المتشابه "بيانُ أنَّ مَن كان من أوليائه تعالى فله الدّار الآخرةُ عند اللّه خالصةً، ومَن كانت له الدّارُ الآخرة فهو من أوليائه ﷻ"[3].

دلالةُ التَّمنّي في جملةِ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾:

اليهودُ يكرهون الموتَ؛ لعِلْمِهم بسوءِ حالِهم عندَ الله

يدلُّ التَّعبيرُ بالتَّمنّي في جملةِ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾ على عدمِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 531.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 407.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 9.

إرادةِ لقاءِ الموت، وعدمِ إرادةِ حصولِهِ لهم، قال ابنُ عطيَّةَ: "ولا يتمنَّونه: ولا يَلقَونه إلّا كَرهًا؛ لِعِلْمِهم بسوءِ حالِهم عند اللّه تعالى، وبُعدِهم منه"(1).

نكتةُ التَّقييدِ بالظَّرفِ ﴿أَبَدًا﴾:

اليهودُ يعلمون أنَّهم لو تَمَنَّوا لَماتوا؛ فامتَنَعوا عن التَّمنّي خوفَ الهلاكِ على أنفُسِهم

وفي تقييدِ عدمِ تمنّي اليهودِ الموت بالظَّرف ﴿أَبَدًا﴾ دلالةٌ على صدقِ رسالةِ رسولنا ﷺ؛ لأنَّه لو كان يقولُهُ مِن تلقاءِ نفسه لكانوا يُبادِرون فيَتَمَنَّون الموتَ للحالِ؛ ليَظهَرَ كذبُهُ فيه حاشاه ﷺ، فلمّا أخبَرَ أنَّهم لا يتمنَّونه أبدًا، ولَمْ يتمنَّوه حقًّا تَبَيَّنَ أنَّه قالَهُ من سبيلِ الوحي، وأنَّهم علموا ذلك حتّى امتنعوا عن التَّمنّي؛ خوفًا على أنفُسِهم من الهلاك؛ لعِلْمِهم أنَّهم لو تمنَّوا لَماتوا، واللّه تعالى أعلم(2).

معنى (الباءِ) في قولِهِ: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾:

يكرهُ المُذنِبُ الموتَ بسببِ معاصيه، ويتحاشى تَمنّيَ حُلولِه

(الباءُ) في القيد ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ سببيَّةٌ؛ أي: أنَّ اليهودَ بسببِ ما قدَّمت أيديهم مِن شرورٍ وآثامٍ وجرائمَ، وعلمِهم ما يَنتَظِرُهم من عقابِ اللّه تعالى وعذابه لا يكونُ موتُهم أُمْنيَّةً لهم ولا مطلبًا.

معنى (ما) في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾:

(ما) غزيرةُ الدَّلالة؛ حيث تُعطي بإيجازٍ ما لا يُعطيهِ الاسمُ الصَّريحُ بإطناب

(ما) في القيدِ ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ موصولةٌ، والعائدُ عليها محذوفٌ تقديرُهُ: بما قدَّمته أيديهم؛ أي: أنَّهم لا يتمنَّون الموتَ بسببِ جرائمِ الظُّلم والفسادِ والإفسادِ الَّتي فعلوها وقدَّموها لأنفسِهم في الآخرة، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١﴾ [البقرة: 11]، وتَحتَمِلُ (ما) أنْ تكونَ مصدريَّةً؛ أي: أنَّهم لا يتمنَّون الموتَ بتقديمِ أيديهم الأعمالَ السَّيِّئةَ والأفعالَ الخبيثة.

وجملةُ ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ على كِلا الوجهين لا محلَّ لها من

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 308.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 10، بتصرف.

الإعراب؛ لأنَّها على الأوَّل صلةُ الموصول الاسميِّ، وعلى الثّاني صلة الموصول الحرفيّ.

وتَحتَمِلُ (ما) كذلك وجهًا ثالثًا، وهو أنْ تكونَ نكرةً موصوفةً بمعنى (شيء)، والجملةُ حينئذٍ في محلِّ جرٍّ؛ لأنَّها صفةٌ لـ(ما)، والعائدُ على الموصوفِ في جملةِ الصِّفةِ محذوفٌ تقديرُهُ: بسببِ شيءٍ قدَّمتْهُ أيديهم.

والمقصودُ بـ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ "تحريفُ التَّوراةِ والإنجيل؛ لأنَّ قولَ النَّصارى ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ﴾ [المائدة: 18] لم يكنْ في الإنجيل، وقولَ اليهود: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: 111] لم يكن في التَّوراة، ولكنَّهم غيَّروا وبدَّلوا؛ فلا يتمنَّون الموت بما قدَّمت أيديهم؛ من تحريفِ هذه الآياتِ وتبديلِها، وتغييرِ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ"[1]. فـ(ما) غزيرةُ الدَّلالةِ ثريَّةُ العطاء؛ وتُعطي بإيجازٍ ما لا يُعطيهِ الاسمُ الصَّريحُ بإطنابٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّقديم، ولطيفةُ صَوغِهِ ماضيًا في ﴿قَدَّمَتۡ﴾:

لا يمكنُ تَداركُ ما انقضى من أعمالِ العباد لِمعالجةِ شُروره في الدُّنيا

في التَّعبير بمُفردةِ التَّقديم في جملةِ ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ دلالةٌ على أنَّ أفعال العباد من خيرٍ وشرٍّ إنَّما تُقَدَّمُ إلى مستقبلِهم الأخرويِّ، فتَسبِقُهم وتنتظِرُهم ليُجازَوا بها، ولا تُؤخَّرُ وراءَهم في الدُّنيا فتهملَ وتضيعَ سُدًى.

وصَوغُ فِعلِ التَّقديم ماضيًا في جملةِ ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ إشارةٌ إلى طَيِّ الأعمالِ في الدُّنيا، وعدمِ تدارُك ما انقضى منها لمعالجةِ شروره في الدُّنيا إلّا بالتَّوبةِ النَّصوحِ، ودلالةٌ على ذَهابِها إلى الآخرةِ ليُحاسَبَ بها أصحابُها.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 10.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿قَدَّمَتۡ﴾:

جميعُ أعمالِ العبدِ تُحصى عليه، واللهُ تعالى يغفرُ مِنها ما يشاءُ برحمتِه

في حذفِ المفعولِ مِن جملةِ ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾ - وهو الذُّنوب والمعاصي الَّتي يَستوحِشون من الموت مِن أجْلِها[1] إفادةُ الإطلاقِ والعموم؛ أي: لا يَضيعُ عَمَلٌ عَمِلَهُ العبدُ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزَّلزلة: 7 - 8]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ [آل عمران: 30].

ومِن رحمةِ الله تعالى في هذه الآيةِ أنَّه لم يقل: وما عملتْ من سوءٍ مُحضَرًا كما قال في مقابله، نَعَمْ إنَّه ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 8]، لكنْ ليس شرطًا أن يكونَ مُحضَرًا يُؤاخَذُ به؛ ففتَحَ حَذْفُ (مُحضَرًا) مع عملِ السّوء بابَ الأملِ للعصاةِ، وبابَ الرَّجاء ليتوبوا.

بلاغةُ المجازِ في جملةِ ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾:

أعمالُ الجوارح كلُّها محفوظةٌ باقية، تَقَدَّمتْ صاحبَها إلى الآخرة

صوَّر النَّظمُ الكريم أعمالَ العباد بأشياءَ تُقَدَّمُ بالأيدي على سبيلِ الاستعارة المكنيَّة، من بابِ تشبيهِ المعقول بالمحسوس؛ مبالغةً في تمايُزِ الأعمال، وبقائِها وعدمِ هدرها أو ضياعِها، وتأكيدًا على حفظها لمواجهةِ أصحابها بها يومَ القيامة.

وفي جَعْلِ التَّقديم للأيدي خاصَّةً مجازٌ مرسلٌ عَلاقتُه الجزئيَّة، حيث عُبِّر بالأيدي عن جميعِ أعضاء الجسم؛ لأنَّ الأيديَ بالتَّقديم أخصُّ؛ فـ"الأيدي مجازٌ في اكتسابِ الأعمال؛ لأنَّ اليدَ يَلزَمُها الاكتسابُ غالبًا"[2]، و"لمّا كانت اليدُ من بينِ جوارح الإنسان مَناطَ عامَّةِ أفاعيلِه؛ عُبِّرَ بها تارةً عن النَّفْس، وأُخرَى عن القُدْرَة"[3].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 863.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 218.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 248.

غرضُ الالتفاتِ من خطابِ اليهودِ إلى الحديث عنهم:

في الالتفاتِ من خطابِ اليهود إلى الإخبارِ عنهم تعريضٌ بسَخَطِ الله تعالى عليهم

التَفَتَ النَّظمُ الكريم من خطابِ اليهود في قوله تعالى: ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ إلى الإخبار عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفي ذلك الالتفاتِ إهمالٌ لشأنِهم بالانصرافِ عن خطابهم، وتعريضٌ بسَخَطِ اللّه تعالى عليهم، وتأكيدٌ للوعيد في جملةِ التَّذييل ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وتَطْرِيةٌ على المتلقّي بالتَّحوُّل بالأسلوب عن مَهيَعِه المطَّرِد؛ فتُطرَدُ عنه السَّآمةُ، ويتجدَّدُ عنده نشاطُه.

معنى (الواوِ) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

(الواوُ) في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافيَّةٌ؛ "والجملةُ تذييلٌ لِما قبلَها، مُقرِّرةٌ لِما أشار إليه مِن سوءِ أفعالِهم واقتضائِها العذابَ؛ أي: واللّهُ تعالى عليمٌ بما صدَرَ منهم من فُنونِ الظُّلم والمعاصي وبما سيكونُ منهم فيُجازيهم على ذلك"(1).

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ حاليَّةً، والجملةُ حالٌ من ضميرِ الرَّفع في ﴿يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ﴾؛ أي: ولا يتمنَّون الموتَ بسبب معاصيهم عالِمًا بهم ربُّهم وبظُلمِهم، مُجازيًا لهم على سوءِ فِعالِهم.

نكتةُ خَتْمِ الآيةِ بصفةِ العلم، ولطيفةُ صوغِهِ على (فَعيل):

العليمُ سبحانه محيطٌ مُطَّلِعٌ على أكاذيبِ اليهود مُؤاخِذُهم بها

العليمُ: اسمٌ من أسماء اللّهِ الحُسْنَى، ومعناه: المُدرِكُ لِما يُدركه المخلوقون بعقولهم وحواسِّهم وما لا يستطيعون إدراكَه، مِن غير أن يكون موصوفًا بِعقل أو حِسٍّ. أو الفائقُ في العلم(2).

وفي ختم الآية بصفة العلم في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تهديدٌ شديدٌ ووعيد أكيدٌ لليهود الظّالمين؛ حيث "كُنِّيَ بعِلم اللّه

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 291.
(2) عمر أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (علم).

تعالى بأحوالهم عن عدم انْفِلاتِهم مِن الجزاءِ عليها؛ ففي هذا وعيدٌ لهم"[1].

وفي صَوغِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ على صيغةِ (فَعيل) مبالغةٌ في وصفِه سبحانه بالعِلم، تدلُّ على سَعةِ علمه تعالى، وتمامِ إحاطته بكلِّ شيءٍ على وجهِ الإجمالِ والتَّفصيل، كما قال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]، جلَّ جلال اللّه العظيم.

معنى الباءِ في القيدِ ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

عِلمُ اللهِ تعالى محيطٌ بالظّالمين، لا يَنفَكُّ عنهم قطُّ

و(الباءُ) في القيدِ ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للإلصاقِ المعنويِّ المجازيِّ؛ أي: أنَّ عِلم اللّه تعالى محيطٌ بالظّالمين، مصاحِبٌ لأعمالهم الظّالمة، لا ينفكّ عنهم ولا عنها قطُّ، وفي ذلك تهديدٌ شديد ووعيد أكيد لليهود الظّالمين، الزّاعمين (أنَّهم أولياء للّه من دون النّاس)، واللّه تعالى أعلم.

معنى (أل) في (الظّالمين)، ولطيفةُ إعادةِ وصْفِهم بالظُّلم:

ظلمُ اليهودِ خاصَّةً وظلمُ الظّالمين عامَّةً محلُّ سخطِ الله تعالى وعقوبتِه

(أل) في (الظّالمين) لتعريف العهدِ الذِّكريِّ؛ لأنَّ الحديثَ عن اليهود؛ فالمعنى: أنَّ اللّه تعالى عليمٌ "بهم، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمار لِذَمِّهم، والتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم ظالمون في كلِّ ما يأتون وما يَذَرون من الأمور، الَّتي مِن جملتها ادِّعاءُ ما هم عنه بِمعزِلٍ"[2].

ويجوزُ أن تكونَ (أل) معرِّفةً للجنس، وحينئذٍ تكونُ لفظةُ (الظّالمين) في موضعها، وليستْ في موضعِ الضَّمير؛ فـ(أل) في (الظّالمين) تتَّسِعُ دلالتُها لِتستوعِبَ كلَّ الظّالمين "على العموم، وهؤلاء اليهودُ داخلون فيهم دخولًا أوّليًّا"[3]، ففيها عمومُ الاستغراقِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 218.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 248.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 269.

والإحاطة، وإنَّ عِلمَ اللّه تعالى مُحيطٌ بجميع (الظّالمين) مِن اليهود وغيرِهم، ولا يُفلِتُ مِن عذابه ظالمٌ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّمنّي والرَّجاء:

التَّمنّي يصاحبُه الكسل، ويتعذَّرُ أو يستحيلُ، والرَّجاءُ ممكنٌ، ويصاحبُه الجِدّ

التَّمنّي يصاحبُه الكسل، ولا يَسلُكُ صاحبُه طريقَ الجِدِّ، والرَّجاءُ على الضِّدِّ من ذلك. ومن الوجهةِ اللُّغويَّة فإنَّ أداةَ الرَّجاء (لعلَّ)، وأداةَ التَّمنّي (ليت)، كما أنَّ الرَّجاء يفيدُ إمكانَ الوقوعِ، بخلافِ التَّمنّي الَّذي يفيد تعذُّرَ الوقوعِ أو استحالتَهُ[1].

(1) عدد من المختصين، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: 5/ 2022.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الموتُ الَّذي يَحذَرُهُ اليهودُ قَدْرَ طاقتِهم يَنتظِرُهم على قارعةِ طريقِ حَيَواتِهم

لمّا تحدَّى الرَّسولُ ﷺ اليهودَ - بأمرِ ربِّه تعالى في الآيتين السّابقتين - بأنْ يتمنَّوا الموت إن كانوا صادقين في دَعْواهم ولايتهم للّه تعالى دون سواهم من النّاس، فجَبُنوا وحاذَروا من الموت؛ لعِلمِهم ما ينتظرُهم من سوءِ المصير بكَذِبهم وظُلمهم؛ لمّا تحدّاهم بذلك توعَّدَهم هنا بأنَّ الموتَ الَّذي حاذَروا من أسبابه قدْرَ طاقتهم يَنتظِرُهم قطعًا على قارعةِ طريق حَيَواتِهم كُلًّا على حَسَبِ أجله، وأكَّد لهم أنَّهم لن يُفلتوا منه ألبتَّة، وفي ذلك ما فيه من التَّهديد والوعيد؛ لعلَّهم يتوبون ويستقيمون، ولكنْ هيهاتَ لليهود أن يستقيموا على الجادَّة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَفِرُّونَ﴾: الفِرارُ: الهُروب مِن مَحْذورٍ إلى ما يَظُنُّ الفارُّ أنَّه مَكْمَنُ أمانٍ يَلجأ إليه. والفِرارُ: الانْكِشافُ، يُقالُ: فَرَّ يَفِرُّ، والمَفَرُّ المَصْدَرُ. والمَفَرُّ: المَوْضِعُ يُفَرُّ إلَيْهِ. والفَرُّ: القَوْمُ الفارّونَ. يُقالُ: فَرٌّ جَمْعُ فارٍّ، كَما يُقالُ: صَحْبٌ جَمْعُ صاحِبٍ، وشَرْبٌ جَمْعُ شارِبٍ[1]، وفرَّ إلَيْهِ: لَجأ وأسرَع، قالوا: فرَّ الفارِسُ: أوسَعَ الجَوَلانَ لِيَنْعَطِف[2].
فمعنى ﴿تَفِرُّونَ﴾: تهرُبون من أسبابه، وتتحاشَون ملاقاتَه.

2) ﴿مُلَٰقِيكُمْ﴾: لقيَ، يَلقَى، القَ، لِقاءً ولُقيانًا ولُقْيَةً وتِلقاءً، ولقيَ الشّخصَ: صادفه ورآه، قال تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فر).
(2) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط: (فر).

[الكهف: 74]، ولقيَ عدوَّه: قاتله وحاربه، ولاقى الشَّيءَ أو الأمرَ: وَجَدَهُ. فمعنى ﴿مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾: نازلٌ بكم لا محالةَ، ومُصادِفكم من حيث لا تحتسبون.

3) ﴿تُرَدُّونَ﴾: الرَّدُّ: صَرْفُ الشَّيء بذاته، أو بحالةٍ من أحواله. يقال: رَدَدْتُهُ فارْتَدَّ، فمِنَ الرَّدِّ بالذّات قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومن الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 149]. ومن هذا الرَّدُّ إلى اللّه تعالى، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[1].

4) ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الشُّهدُ بالضَّمِّ والفتح: العَسَلُ ما دام يُعْصَرُ من شَمعِهِ. والشّاهد: الَّذي يخرجُ مع الولد كأنَّه مخاطٌ. وأشهد الغلامُ: أَمْذَى وأدرك، وشَهِد المجلسَ: حضره، والشّاهد والشَّهيد: الحاضر، قال تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ﴾ [الزُّخرف: 19]، وبالحضور يُفسَّرُ كلُّ (شهادةٍ) في ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[2].

المَعنى الإجماليُّ:

توعّد من وحي اللّه تعالى لنبيّه ﷺ بأن يُخبر أولئك اليهودَ بأنَّ الموتَ مُلاقيهم ومقابِلُهم حيثما فرُّوا منه ومن أسبابه، ثمَّ إذا انقضَتِ الحياةُ الدُّنيا، وقضَى كلٌّ منهم أجلَه المحدَّدَ له فيها فلا مهربَ لهم ولا مَفرَّ إلّا إلى طريقٍ واحدٍ، هو أنْ يُرَدّوا إلى اللّه تعالى المحيطِ بكلِّ شيءٍ علمًا؛ فيُفاجِئُهم بعَرْضِ ما كانوا يعتقدون خفاءَهُ عليه تعالى من جرائمِهم، ويُجازيهم بها أسوَأ جزاءٍ يستحقّونَهُ.

في الآخرةِ يَتفاجأُ الكفّارُ بجرائمَ كانوا يعتقدون خفاءَها عليه تعالى؛ فيُجازيهم بها أسوَأ جزاءٍ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ قولِهِ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ﴾ عمّا سبَقَهُ:

فُصلَتْ جملةُ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ﴾ عن جملةِ ﴿وَلَا

(1) الراغب، المفردات: (رد).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شهد).

﴿يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾؛ لِما بينهما من كمالِ الانقطاع، إذ الأولى إخبارٌ، والثّانيةُ وإنْ تضمَّنَتْ معنى الإخبارِ إلّا أنّها مبدوءةٌ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾، فهي إنشاءٌ طلبيٌّ بالأمرِ، فلمّا اختلف مَهْيَعُ الكلام فُصِل بينهما.

لُحْماتُ النَّسَبِ بينَ المعاني القرآنيَّةِ وثيقةُ التَّرابُط

غيرَ أنَّ مَعْنَيَيْهِما متَّصلان بخيطٍ دلاليٍّ جليٍّ؛ إذ الثّانيةُ تخبرُ عن حَتْميَّةِ الموت الَّذي يهربون منه، والأولى تَخبِرُ عن كراهيتِهم إيّاه وخوفِهم منه بسببِ ما قدَّمَتْ أيديهم، فالمعاني بعضُها مِن بعض، وبين الجملتين اتِّصالٌ معنويٌّ وثيقٌ.

يضاف إلى ذلك أنَّ الثّانية تصريحٌ بما اقتضاه التَّذييلُ في الآية السّابقة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من الوعيدِ، وعدم الانفلات من الجزاء على أعمالهم ولو بعدَ زمانٍ وقوعها؛ لأنَّ طول الزَّمان لا يُؤثِّرُ في علم اللّه نسيانًا؛ إذ هو عالمُ الغيب والشَّهادة[1].

دلالةُ إعادةِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

اللهُ تعالى يُلهِمُ أولياءَهُ أسبابَ النَّصرِ على أعدائِهم

وأُعيدَ فِعلُ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ في جملةِ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ﴾ بعدَ ذكرِهِ في جملةِ ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾؛ لإعادة العاملِ الَّذي في المُبْدَلِ منه في البدل، كقوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ [المائدة: 114]؛ إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ﴾ بدلُ اشتمالٍ من قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[2].

وفي إعادةِ الأمرِ ﴿قُلۡ﴾ إضافةً إلى ذلك دَعْمٌ لِرسول اللّه ﷺ في مَقامِ النُّصرة في الحِجاجِ، بلَفْتِهِ إلى التَّحدّي المشتملِ على التَّهديدِ بالوعيد المنتظَرِ؛ و"ذلك أنّ اليهود علِموا أنَّهم أفسدوا على أنفسِهم أمرَ الآخرة بِتكذيبِهم محمَّدًا ﷺ؛ فكانوا يكرهون الموتَ أشدَّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 218.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 218.

الكراهة، فقال الله تعالى لنبيِّهِ ﷺ: قل لهم: إنَّكم وإنْ فَرَرْتُم مِن الموت وكرِهتُموه، فإنَّه لا بُدَّ يَنزل بكم ويَلقاكم، ثمَّ تُردّون بَعدَ الموت إلى عالم الغيب والشَّهادة"[1].

نكتةُ تتابُعِ المُؤكِّداتِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾:

الموتُ حَتْمٌ لا شكَّ فيه، على الرَّغْمِ مِن ظاهرِ إنكارِ المُنكِرين

وفي حَشْدِ مُؤكِّداتِ الخبر في جملةِ ﴿إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ مُلاءَمةٌ لحالِ اليهود الَّذي يوحي ظاهرُه بإنكارِهم الموتَ ورجوعَهم إلى الله تعالى، وأنَّهم سيُحاسَبون بظُلمهم وكذبهم وتكذيبهم رسولَ الله ﷺ، وكأنَّهم يعتقدون أنّ منه مهرَبًا يُمكنُهم الفرارُ إليه، فـ"أكَّدَ إعلامًا لهم بأنَّه يَلزَمُ من فِعلهم هذا إنكارُ الموتِ الَّذي لا يُنكِرُهُ أحدٌ"[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلْمَوْتَ﴾:

تتعدَّدُ الأسبابُ والموتُ واحد

الموتُ: مُفارَقةُ الرّوحِ الجسدَ، لرُجوعِها إلى عالَمِ الغيبِ الَّذي منه أتَتْ، و(أل) في ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ لتعريفِ العهدِ الذِّكريِّ، حيث سبَقَ ذكرُهُ في جملةِ ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، ومع ذلك فيمكنُ أن تكونَ (أل) في ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ استغراقيَّةً، تَستوعِبُ كلَّ صورِ الموت؛ فقد تتعدَّدُ الأسبابُ والموتُ واحد.

لطيفةُ وصفِ ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ بالموصولِ وصلتِهِ ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾:

لا فرارَ مِن الموت

في وصْفِ ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ بالاسم الموصول وصِلتِهِ ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ "زيادةٌ في التَّقريع والتَّوبيخ[3] لليهود، وكنايةٌ عن بَلادةِ تفكيرهم، وزيادةٌ في التَّشنيع على سوء مُعتقَدِهم أنَّ مِن الموت فرارًا؛ لأنَّ المؤمنَ الصّالحَ لا يَفِرُّ من الموت، بل يرجو جوارَ ربِّه ويحبُّ لقاءَهُ، وفي الحديث الشَّريف: أنَّ الرَّسول ﷺ قال: «مَنْ أحَبَّ لِقاءَ اللّهِ أحَبَّ اللّهُ لِقاءَهُ، ومَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللّهِ كَرِهَ اللّهُ لِقاءَهُ»[4].

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 296.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 60.

(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 61.

(4) البخاري، صحيح البخاري، كِتاب الرِّقاقِ، باب مَنْ أَحَبَّ لِقاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقاءَهُ: 5/ 2386، برقم: (6142).

وفي الموصولِ أيضًا تهيئةٌ لِذكرِ جملة الصِّلةِ ﴿تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾، وهي هنا مَناطُ الإزراء، ومُتعلَّقُ الإفشاء؛ لذلك لا يَفي تعبيرٌ بحقِّ المَقامِ كما يَفي الموصولُ وصلته بحقِّه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِرار، وإشارةُ صَوغِهِ مضارعًا في جملةِ ﴿تَفِرُّونَ﴾:

فـرارُ اليـهـودِ مـن المـوتِ دليـلُ علـمِهم بـمـصـيرِهـمُ الأليم

ومعنى ﴿تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾: "تَكرَهونه، وتَأْبَون أنْ تتمنَّوهُ"[1]، و"تخافون أن تتمنَّوهُ بلسانِكم؛ مخافةَ أن يصيبَكم، فتُؤخَذوا بأعمالكم"[2]، وإلّا فلا يُمكنُ لأحدٍ أنْ يفرَّ من الموت يهودًا كانوا أم غيرَهم، بل لا يفكِّرُ أحدٌ في الإفلاتِ منه أصلًا، والجميعُ يعلم ذلك، وكلٌّ ينتظرُ دورَهُ فيه.

والتَّعبيرُ بمفردةِ الفِرار تعبيرٌ تصويريٌّ كِنائيٌّ؛ كاشِفٌ عن ثِقَتِهم في صدقِ الرَّسول ﷺ في أنَّ تَمنّيَهم الموتَ يُعجِّلُ بهم إلى العقوبة، فاضِحٌ لِما وراءَهُ من دلائل الظُّلم والإجرام الَّذي قدَّموه لأنفسهم في الآخرة، وإلّا لَتَمَنَّوُا الموتَ ليستريحوا من عَناءِ الدُّنيا، ولم يَفِرّوا منه ويتحاشَوا أسبابَه.

وصوغُ الفعلِ ﴿تَفِرُّونَ﴾ مضارعًا يدلُّ على اجتهادِهم في النَّجاةِ من الموت، وتجديدِهم وتنويعِهم أساليبَ الفرارِ منه، واستمرارِهم على تلك الحالةِ، ولكن هيهات!.

بلاغةُ الاستعارةِ في الفِرارِ من الموت:

الموتُ عندَ اليهود مـثـلُ الـسَّـبُـعِ المُفترسِ المَغيظِ من فريستِه

في قوله تعالى: ﴿تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ في فِعل الفرار؛ حيث "أُطلِق الفِرار على شدَّةِ الحَذَر"[3]، واشتُقَّ منه المضارع ﴿تَفِرُّونَ﴾، وهو يُصَوِّرُ زَوَغان[4] اليهود ورَوَغانهم[5]، وتحاشيَهم أسبابَ لقاء الموت في صورةِ شخصٍ يجتهدُ في الهَرَب

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 636.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 230.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 219.
(4) زاغَ الطريق زَوْغًا وزَيْغاً: عَدَلَ، والزَّيْغُ: المَيْلُ، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (زوغ، زيغ).
(5) راغ الرَّجُل رَوْغًا ورَوَغانًا: عَدَلَ مُستترًا، الصقلي، يُنظر: ابن القطاع، الأفعال: 2/ 73.

ممّا فيه هلاكه، وأنَّ الموتَ عند اليهود مثلُ السَّبُعِ المفترسِ المَغيظِ من فريسته.

ويمكنُ إجراءُ الأمر على الاستعارةِ المكنيَّة، بأنْ شبَّهَتِ الآيةُ الموتَ بالسَّبُعِ الفاتكِ الَّذي من شأنه أن يُفَرَّ منه، وفي ذلك التَّصوير مبالغةٌ في بيان خوفِهم مِن الموت، وشدَّةِ حرصهم على الحياة، بل على أدنى حياة، كما قال تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: 95 - 96].

ووراءَ تلك الاستعارةِ كنايةٌ عن سوءِ ما قدَّموا لأنفسهم في الآخرة مِن أنواع الإجرام؛ فقد ادَّعَوْا أنَّهم أولياءُ للّهِ من دون النّاس، وأنَّ الآخرةَ خالصةٌ لهم من دون النّاس، وأنَّهم شعبُ اللّه المختار، وحرَّفوا التَّوراةَ، وكذَّبوا بها، وكذَّبوا برسولِ اللّه ﷺ، إلى غيرِ ذلك من الجرائمِ الفظيعة الَّتي تجرَّؤوا على اقترافها.

معنى (مِن) في القيدِ ﴿مِنْهُ﴾:

خوفُ اليهودِ من الموتِ باعثٌ على التَّشبُّثِ بالحياة

(مِن) في تقييدِ فرار اليهود بالجارِّ والمجرور ﴿مِنْهُ﴾ ابتدائيَّةٌ؛ أي: أنَّ الحافزَ على فِرارهم الموتُ، وكأنَّه السَّبُعُ المُتربِّصُ بهم ليفترسَهم، والمعنى: "تفرّون من الدّاء بالدَّواء؛ فإنَّه مُلاقيكم بانقضاءِ الأجل، أو تفرّون من الجهادِ بالقعودِ؛ فإنَّه مُلاقيكم بالوعيد، أو تفرّون منه بالطّيَرَةِ من ذِكره حذرًا من حُلوله؛ فإنَّه ملاقيكم بالكَرهِ والرِّضا، أو تفرّون أن تتمنَّوه حين قال تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾"[1]، واللّه تعالى أعلم.

معنى (الفاءِ) في قولِه: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾:

الموصولُ كثيرًا ما يُعامَلُ مُعاملةَ الشَّرطِ في اقتضاءِ خبرِه الفاءَ

اقترَنَ خبرُ ﴿إِنَّ﴾ بالفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾؛ لأنَّ اسم ﴿إِنَّ﴾ ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ نُعِتَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾، والموصولُ عمومًا كثيرًا ما يُعامَلُ معاملةَ الشَّرط؛ فعومِلَ اسمُ ﴿إِنَّ﴾ المنعوتُ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 8.

بالموصول معاملةَ نَعْتِه[1]، والمعنى: "إنْ فَرَرتُم منه فإنَّه مُلاقيكم، ويكون مبالغةً في الدَّلالة على أنَّه لا ينفعُ الفرارُ منه، وقيل: إنَّ الكلامَ قد تمَّ عند قوله: تفرّون منه، ثمَّ ابتَدَأ فقال: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾"[2]، و"الموت مُلاقيهم على كلِّ حالٍ - فَرّوا أم لم يفِرّوا - فهذا على جهةِ الرَّدِّ عليهم؛ إذ ظنّوا أنَّ الفرارَ يُنجيهم"[3].

نكتةُ إعادةِ (إنَّ) في جملةِ ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾، وصوغِ الخبرِ جملةً اسميَّةً:

توكيدُ الخبرِ أو عدمُهُ يكونُ وفْقَ مُقتضى ظاهرِ الحال

(إنَّ) في جملةِ ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ توكيديَّةٌ، تتآزرُ مع اسميَّةِ الجملةِ الأمِّ الكبرى ﴿إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ﴾، ومع اسميَّة خبرِها هي ﴿مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ في كونِ الموتِ مُلاقيهم حتمًا مؤكَّدًا؛ و"أُكِّدَ وقوعُهُ بهم لأنَّ عَمَلَهم عَمَلُ مَن هو مُنكِرٌ له"[4]؛ "وإعادةُ (إنَّ) لزيادة التَّأكيد"[5].

وهناك لطيفةٌ في تكرارِ التَّوكيدِ بـ(إنَّ) ووقوعِ فرارِهم من الموت بينهما، وذلك أنَّ الفرارَ من الموت الصادرَ منهم لمّا وقَعَ بينَ مُؤكِّدَين لملاقاتِهم الموت كان ذلك دليلًا على إحاطةِ الموتِ بهم من كلِّ جانب.

بلاغةُ المجازِ في قولِه: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾:

الموتُ يُفاجِئُ الهاربَ منه مِن حيث يَستبعِدُه

قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ مِن اللُّقْيا، والمقصودُ: أنَّ الموت "مدْرِكُكُم في كلِّ وجهٍ سَلَكتُموه بالظّاهر أو الباطن"[6]، و"موافيكم ومُقابِلٌ لكم حيثما كنتم"[7].

وفي التَّعبير عن نزول الموت بهم بالمُلاقاةِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّة؛ وكأنَّ الموت إنسانٌ يَنتظِرُهم على قارعةِ الطَّريق، فيَلْقاهم مِن قُدّامِهم، أو كأنَّه يبحثُ عنهم فيُلاقيهم ويَلقاهم وجهًا لوجهٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 219.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 269.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 541.
(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 61.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 219.
(6) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 61.
(7) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1414.

"مبالغةً فيما ذُكر، وتعكيسًا للحال"(1)؛ أي: أنَّ الموت يُفاجِئُهم من أمامِهم بينَما هم دابَروه فِرارًا منه.

وفي إسنادِ الملاقاةِ إلى الموتِ مجازٌ عقليٌّ علاقتُه السَّببيَّة، إذ الَّذي يلقاهم به ملكُ الموت، فزُحزِحَ اللِّقاءُ مِن إسنادِهِ إلى ملكِ الموت إلى إسنادِهِ إلى الموتِ نفسه تفظيعًا وتفجيعًا لهم.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في جملةِ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾:

ما يَنتظِرُ اليهودَ بعدَ الموتِ من العقابِ أفظعُ مِن شدَّةِ الموتِ وسَكَراتِه

و﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ للتَّراخي الرُّتَبيّ؛ إذ "لمّا كان الحبسُ في البرزخِ أمرًا - مع أنَّه لا بدَّ منه - مَهولًا نبَّهَ عليه وعلى طولِهِ بأداةِ التَّراخي فقال: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾"(2).

و﴿ثُمَّ﴾ توحي بأنَّ ما يَنتظِرُهم هنالِكَ بعدَ الموت عندَ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ من العذابِ والنَّكال أخطرُ وأفظعُ من مجرَّدِ الموت وشدَّة سَكَراتِه، و﴿ثُمَّ﴾ تُسهِمُ في بيان تَخَوُّفِهم ممّا بعدَ الموت، وأنَّ فِرارَهم ممّا وراءَهُ أشدُّ.

على أنَّ الفرارَ ممّا وراءَ الموت من النَّكال والعذاب لا يكون إلّا بالإيمان الصّادق، وعدمِ ظُلم النّاس واحتقارِهم، واتِّهامِهم في إنسانيَّتِهم وأنَّهم أمّيّون لا قيمةَ لهم، واتِّهامِهم في دينهم بأنَّ اليهودَ هم شعبُ اللّه المختارُ دونَهم، إلى غيرِ ذلك مِن مزاعمَ ساقطةٍ ما أنزَلَ اللّه بها مِن سلطان.

و﴿ثُمَّ﴾ هنا تتَّسِعُ زمانًا لاستيعابِ الحياةِ الدُّنيا كلِّها؛ أي: "ثُمَّ بعدَ الموتِ واستكمالِ الآجالِ يُرَدُّ الخَلْقُ كلُّهم يومَ القيامة إلى عالمِ الغيب والشَّهادة"(3).

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 291.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 61.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 863.

الله تعالى يَمقُتُ حالَ اليهود، ويَرُدُّهم إليه للمُجازاةِ مقهورين

دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّدِّ، ولطيفةُ صَوغِهِ مُضارعًا مَبْنيًّا للمفعول:

نصَّ أهلُ اللُّغة على أنَّ في الرَّدِّ كراهةً للمردود، بخلافِ الرَّجْع؛ فإنَّه يكونُ عن غيرِ كراهةٍ، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التّوبة: 83]، ولا يجوزُ أنْ تردَّهُ إلّا إذا كَرِهتَ حالَهُ[1]، وعلى ذلك فالتَّعبيرُ بالرَّدِّ في قوله تعالى لليهود: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ إنَّما هو عن كراهةٍ لهم ومَقْتٍ لسُلوكِهم، وما قدَّموه لأنفسِهم، والله تعالى أعلم.

وفي صَوغِهِ مضارعًا ﴿تُرَدُّونَ﴾ استحضارٌ لتلك اللَّحظةِ الشَّديدةِ عليهم، وإقامةٌ لها في تصوُّرِهم؛ معالجةً لنُفورِ نفوسِهم وجُموحِ كبريائِهم الآثِم.

وفي بناءِ الفعل ﴿تُرَدُّونَ﴾ للمفعولِ تنبيهٌ على "القهرِ منه سبحانه، والصَّغار منهم، وأنَّه عنده في غايةِ السُّهولة"[2]؛ أي: أنَّ رَدَّهم إلى عالم الغيب والشَّهادة ليُجازيَهم يكونُ على رَغْمِ أُنوفِهم، وبِقَهْرِهم صاغِرين أذِلّاء؛ وذلك بفرارِهم من الموتِ بسوءِ أفعالِهم.

المصيرُ إلى اللهِ تعالى نهايةُ كلِّ حيّ

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في القيدِ ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾:

﴿إِلَىٰ﴾ في قيدِ الرَّدِّ ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ يدلُّ على انتهاءِ الغاية، ويُبيِّنُ أنَّهم لا ملجَأ لهم ولا مهرَبَ من الله تعالى إلّا إليه، وفي ذلك تضييقٌ لآفاقِ الفِرارِ عليهم، وكَبْحٌ لِجماحِ الظُّلم لَدَيْهم، ولعلَّهم بذلك يثوبون إلى صوابِهم، لكنْ هيهاتَ وقد غلبَتْ عليهم شِقوَتُهم، فأوْغَلوا في الكذبِ والتَّكذيبِ والظُّلمِ والإجرامِ!.

عِلْمُ الله تعالى محيطٌ بما يُخفي عُلَماؤُهم وما يُظهِرون، وسيُجازيهم بذلك

دلالةُ التَّعبيرِ بالعِلْمِ في ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾:

التَّعبيرُ بخُصوصِ صفةِ العلم مضافًا إلى ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ دونَ التَّعبير بالاسم

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 249.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 61.

الجليل (اللّه) - إذ لم يقل: ثُمَّ تُرَدّون إلى اللّه - فيه مَزيدُ ترهيبٍ لليهود؛ فإنَّهم إنْ أمكنَهم مُخادَعةُ الخلقِ والكذبُ عليهم فلن يُمكِنَهم مخادعةُ عالم الغيب والشّهادة؛ لأنَّ عِلمَهُ محيطٌ بكلِّ ما غَيَّبوه عن النّاس من التَّوراة، كما هو مُطَّلِعٌ على كلِّ ما بَيَّنوه للنّاس منها ومن أحكامِها، ومِن صفةِ الرَّسول ﷺ فيها.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّه ﷻ هو المُطَّلِعُ على كلِّ ما غابَ عن العباد، "فهو مُخبِرٌ عن أخلاقِكم عن عِلم"[1]، وفي ذلك تهديدٌ بأنَّه يُمكِنُهُ كشفُ ما سَتَرَ مِن عُيوبِهم، ففيهِ إخزاءٌ لهم، وكَسْرٌ لِكِبْريائِهم.

معنى (أل) في ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

اللّهُ تعالى عالِمُ كـلِّ غـيـبٍ عن كلِّ أحدٍ، وعالِمُ كلِّ شهادةٍ لكلِّ أحدٍ؛ فكلُّ شيءٍ عندَهُ مكشوف

(أل) في ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لتعريفِ الجنسِ الاستغراقيِّ؛ أي: أنَّه تعالى عالمُ كلِّ غيبٍ وعالمُ كلِّ شهادةٍ؛ حيث تتعدَّدُ الغُيوبُ وتتعدَّدُ الشَّهاداتُ، بحسبِ تعدُّدِ البشرِ وتعدُّدِ الأكوانِ ومُكوّناتها.

فما يَغيبُ عن إنسانٍ قد يكونُ شهادةً لغيره، واللّهُ تعالى عالمٌ به، وما يُعَدُّ غَيْبًا عنهم جميعًا فهو معلومٌ عند اللّه تعالى، فلا غَيْبَ بالنِّسبةِ للّهِ ﷻ.

ووجهُ التَّهديدِ فيه: أنَّه تعالى عالمٌ فِرارَهم من الموت، وعالمٌ لِقاءَ الموت إيّاهم، وعالمٌ ما يَنتظِرُهم من عذابٍ في الآخرة.

وفيه دلالةٌ على أنَّه تعالى "عالمٌ ما أشهَدتُمُ الخَلقَ من التَّوراة والإنجيل، وعالمٌ ما غَيَّبتُم عن الخلقِ مِن نعتِ مُحَمَّدٍ ﷺ وغيرِ ذلك، أو عالمٌ ما غَيَّبتُم في أنفُسِكم وأسرَرتُم من تكذيبِكم بمُحَمَّدٍ ﷺ، وما أشهَدتُم عليه ضَعَفَتَكم وأتباعَكم مِن نَهيِكم إيّاهم عن اتِّباعه"[2]، وعالمٌ "غَيْبَ السَّماواتِ والأرضِ، وما شُهِدَ فظهَرَ لرأيِ العينِ، ولم يَغِبْ عن أبصارِ النّاظرين"[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 61.

(2) تفسير الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 10.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 636.

نكتةُ تقديمِ علمِ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ على (الشَّهادةِ):

علمُ اللهِ تعالى بالغيبِ مثلُ علمِهِ تعالى بالشَّهادة

وقَدَّمَ النَّظمُ الكريمُ علمَهُ ﷻ بالغَيْبِ على علمِهِ ﷻ بالشَّهادة؛ معالَجَةً لِما يقعُ في الأوهام؛ مِن أنَّ عِلْمَ الغيبِ أبعدُ في التَّحصيلِ والوقوفِ عليه من عِلمِ الشَّهادة؛ فبَدَأ به النَّظمُ الكريم؛ ليُقرِّرَ استِواءَهما في علمِ اللّه تعالى بهما.

على أنَّ الشَّهادةَ نفسَها بالنِّسبةِ للبشرِ مُفعَمةٌ بالغيب؛ إذ يشهدُ النّاسُ ظواهرَ الأشياء، وتَظَلُّ بواطنُها وأسرارُها ومصائرُها وما إلى ذلك غَيْبًا عنهم، وهذا كلُّه داخلٌ تحتَ معلومِهِ ﷻ؛ فكان ذِكرُ الشَّهادةِ مع الغَيْبِ من بابِ إطلاقِ الإحاطةِ اللَّفظيَّة، واللّه تعالى أعلم.

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ و(الشَّهادة):

الطِّباقُ المعنويُّ في الذِّكرِ الحكيمِ عُنصرُ مُطابَقةٍ لمُقتضى الحالِ، لا مجرَّدُ مُحسِّنٍ شكليّ

جَمَعَ النَّظمُ الكريم (الشَّهادة) إلى ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ ذِكرًا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لِما في ذلك من الدَّلالةِ على إحاطةِ عِلمِه تعالى وشُمولِه، ولولا هذا الطِّباقُ ما تَحقَّقَتْ تلك الإحاطةُ بذلك الإيجازِ المُؤكَّد البديع، فلو ذُكِرَ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ وحدَه لَدَلَّ على (الشَّهادة) ضِمنًا؛ إذ كلُّ (شَهادةٍ) عندَ أحدٍ هي (غَيْبٌ) عندَ غيرِه، لكنَّ الطِّباقَ قرَّرَ الإحاطةَ، وبيَّنَها، وأكَّدَها.

معنى (الفاءِ) في جملةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

رحلةُ الشَّقاءِ الأُخرويِّ بالنِّسبةِ للظّالمين تبدأُ فورَ الموت

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ عاطفةٌ الجملةَ بعدَها على جملةِ ﴿تُرَدُّونَ﴾، وفي العطفِ بها دلالةٌ على سُرعةِ المجازاةِ، وفَوْرِيَّةِ التَّنبيءِ، وفي التَّعقيبِ إشارةٌ إلى عذابِ القبر، وأنَّ رحلةَ الشَّقاءِ الأُخرويِّ بالنِّسبةِ لليهود تبدأ فورَ الموت.

وإلى ذلك ففَتْرةُ الحياةِ البَرْزَخيَّةِ قصيرةٌ بالمقارنةِ بالحياةِ الآخرة مهما طالت الأولى، وعلى ذلك فالفاءُ أيضًا تعقيبيَّةٌ تدلُّ على أنَّ حسابَ الآخرة يَعقُبُ حلولَ الموت.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّنْبيء، ولطيفةُ المضارَعةِ في (ينبِّئُكم):

النَّبَأُ: نوعٌ معيَّنٌ من الأخبار، وهو الَّذي "يُستعمَلُ فيما كان الأصلُ فيه مجهولًا لأحدِ الطَّرفين"[1]، كما أنَّ حَقَّ الخبرِ الَّذي يقال فيه: (نَبَأٌ) أنْ يَتعرَّى عن الكذب، كالتَّواتُرِ وخبرِ اللّٰه تعالى وخبرِ النَّبيِّ ﷺ. قال اللّٰه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص: 67 - 68][2].

فقولُه تعالى: "﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: "يخبرُكم إخبارًا عظيمًا مُستقصًى مُستوفًى"[3].

يَكشِفُ اللّٰه تعالى للمُجرمين يومَ القيامةِ أسرارًا كانوا يَظنّون أنْ لا أحدَ يَعلمُها سِواهم

وفي التَّعبيرِ بمفردة التَّنبيءِ إضافةً إلى ذلك دلالةٌ على أنَّ اللّٰه تعالى سيكشفُ لهم عمّا غاب في أنفسهم وما غاب في أفعالهم وأقوالهم أسرارًا كانوا يظنّون أنْ لا أحدَ يَعلمُها سواهم، فإذا أظهَرَها اللّٰه تعالى لهم وفضَحَها عليهم كان ذلك بالنِّسبة لهم نبأً فاجعًا لا خبرًا معتادًا، ولا مجرَّدَ تذكيرٍ بما يعرفون وما كانوا يعلمون.

وفي التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع دلالةٌ على تجدُّدِ إنباءِ اللّٰه لهم بتجدُّدِ أعمالهم مع قِدَمِ علمِه ﷻ بأحوالِهم.

بلاغةُ الكنايةِ عن الجزاءِ بلفظِ التَّنْبيء:

مجرَّدُ التَّنبيءِ بعقوبةِ إجرامِ اليهودِ عقوبةٌ شديدةٌ يحصُلُ بها الوعيد

النَّبأُ يكون عيانًا؛ أي: تَقرَؤونه في كتابكم يومَ القيامة، ويكونُ بالجزاء، إنْ خيرًا فخيرٌ وإنْ شرًّا فشرٌّ[4]، فمعنى ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾: فيُجازيكم أيُّها اليهودُ بما أنتم أهلُه من العقاب[5]؛ فهو إنباءُ مُعاقِبٍ مُجازٍ بالتَّعذيب[6]؛ فالتَّنبيءُ هنا كنايةٌ عن الحساب، وهو تعريضٌ بالوعيد[7].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نبأ).
(2) الراغب، المفردات: (نبأ).
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 61.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 11.
(5) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 481.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 308.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 219.

وفي إيثارِ فعل التَّنبيءِ في جملة ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ دونَ فعل الإنباء إسهامٌ في الإبانةِ عن شدَّتِه وفظاعته، وأنَّ ثِقلَ اللَّفظِ يُترجِمُ ثِقَلَ النَّبأ، وهذا بدَوْرِه يعكسُ ثِقَلَ العقوبة، وخُطورةَ العذاب.

والَّذي يُخيفُ اليهودَ وكلَّ مجرم هو جزاءُ الإجرام وعقوبتُه، لا مجرَّدُ تنبيئِه وإخباره به، ومع ذلك اكتفى النَّظمُ الكريم هنا بتنبيئِهم نبَأَهُ لا مُعاقبتِهم ذنْبَهُ، وهذا يدلُّ بطريقِ الكناية على فظاعةِ جُرمِهم، حتّى إنَّ مجرَّدَ التَّنبيءِ به يُعَدُّ عقوبةً شديدةً يحصلُ بها الوعيد، فما الظَّنُّ بالعقوبةِ الحقيقيَّةِ الَّتي تنتظرُهم بعدَ ذلك التَّنبيء؟!.

معنى (الباءِ) في القيدِ ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

لا يُعذِّبُ اللهُ تعالى إلّا بذَنْبٍ وإنْ كان حُرًّا مختارًا فعّالًا لِما يُريد

(الباءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ باءُ السَّببية باعتبارِ تضمينِ التَّنبيءِ معنى المُجازاة، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ عدلَ الله تعالى مع المجرمين مطلَقٌ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ٤٩﴾ [الكهف: 49]، وعليه فلا يُعذِّبُ الله تعالى إلّا بذَنْبٍ وإنْ كان حُرًّا مختارًا فعّالًا لِما يُريد.

معنى (ما) في القيدِ ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

(ما) عُنصُرُ إيجازٍ باشتمالِها على معانٍ يَطولُ التَّركيبُ بذكرِها مِن دونِها

و(ما) في القيدِ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تَحتملُ المصدريَّةَ؛ أي: يُجازيكم بعَمَلِكم الآثِمِ أيُّها اليهود، كما تَحتملُ الموصوليَّةَ والعائدُ محذوفٌ؛ أي: يُجازيكم بالَّذي كنتُم تعملونه من إجرام وظُلم واستبدادٍ، وجملةُ ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الوجهين لا محلَّ لها من الإعراب، صلةٌ للموصولِ الحرفيِّ على الوجهِ الأوَّل، والاسميِّ على الوجهِ الثّاني.

كما تحتملُ وجهًا ثالثًا: أنْ تكونَ نكرةً موصوفةً، وجملةُ ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ صفةٌ لها في محلِّ جرٍّ، والرّابطُ في جملةِ الصِّفة محذوفٌ، تقديرُهُ: بشيءٍ كنتُم تعملونه. وعلى هذا الوجهِ فـ(ما) مُنكَّرةٌ من

حيث المعنى، وفي التَّنكيرِ دلالةٌ على أنَّ اللّٰه تعالى قد أحصى عليهم كلَّ عملٍ ولو كان حقيرًا في ظَنِّهم.

فلفظةُ (ما) باحتمالِها تلك الدَّلائلَ مُستويةً تكونُ عُنصُرَ إيجازٍ وضغطٍ للمعاني؛ لأنَّها تشتملُ على ما يَطولُ التَّركيبُ بذكرِهِ مِن دونِها.

نكتةُ التَّعبيرِ بالكونِ الماضي في القيدِ ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

أعمالُ اليهودِ الخسيسةُ قد تأصَّلَتْ فيهم طِباعًا وضيعةً عبرَ تاريخِهم المُخزي كلِّه

التَّعبيرُ بالكونِ الماضي في جملةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يُلمِحُ إلى أنَّ تلك الأعمالَ الخسيسةَ قد تأصَّلَتْ فيهم طِباعًا وضيعةً، وأنَّ المعنى: فيُنبِّئكم "بما هو لكم كالجِبِلَّة"[1]، وإلى ذلك يوحي فعلُ الكون الماضي بأنَّ تاريخَهم الطَّويلَ المُمتدَّ أسودُ مُخزٍ، وذلك يَزيدُهم خِزْيًا إلى خِزْيٍ.

كما أنَّ التَّعبيرَ بالكون الماضي في جملةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هو الَّذي هيَّأ الأسلوبَ لِصَوْغِ الخبرِ مُضارِعًا في جملةِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾، والمضارَعةُ فاعِلةٌ في هذا السّياقِ كما سيأتي قريبًا إن شاء اللّٰه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ العَمَلِ في جملةِ الخبرِ ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

اليهودُ يُؤاخَذون بكلِّ أعمالِهم؛ إذ يُعامَلون بعَدْلِ اللهِ تعالى لا بعَفْوِه وفضلِه

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بفعلِ العملِ في قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دونَ مُفردةِ الفعلِ والصُّنع مَثَلًا؛ لِما في (العمل) من تأثيرٍ واضحٍ في المعمول؛ ولِما فيه مِن إبهامِ النَّتيجةِ بالنِّسبةِ للعامِلِ، أمّا (الفعلُ) فيكونُ قبلَها مَقدورًا كما يقول أبو هلالٍ[2]، سواءٌ كان عن سببٍ أم لا، و(الصُّنعُ) فيه ترتيبٌ وإحكامٌ؛ فيَقتضي العِلْمَ بما يكونُ، أمّا العملُ فليس فيه هذا ولا ذاك.

فإيثارُ التَّعبيرِ بالعمل هنا أبلغُ تهديدًا؛ لأنَّه يَشمَلُ ما صدَرَ عن اليهودِ مِن قولٍ، وفعلٍ، وصُنعٍ، ومَكيدةٍ، وتدبيرٍ وغيرِ ذلك، وأنَّهم

---

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 61.

(2) معجم الفروق اللغوية ص 321، 377.

يُؤاخَذون بذلك كلِّه، ولا يُعفَون مِن شيءٍ منه؛ إذ يُعامَلون بعَدْلِ اللّه تعالى، لا بعفوِه وفضلِه، والعياذُ باللّه تعالى.

دلالةُ صَوغِ الفعلِ في جملةِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ مُضارِعًا:

أقوالُ اليهودِ وأعمالُهم تُستحضَرُ مع نيّاتِهم وعقائدِهم

وصيغةُ المضارعِ في جملةِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ تَستحضِرُ لليهودِ لحظاتِ مُمارستِهم أعمالَهم الذَّميمةَ، ممّا ربَّما أفلحوا في إخفائِها عن النّاس، وتُقيمُها أمامَ أعيُنِهم حيَّةً تُخزيهم، حتّى كأنَّهم يُعايِنونها؛ فيَتَفاقَمُ عليهم الخَجَلُ والمعاناةُ.

والمُضارعَةُ تعني استحضارَ أعمالِهم بِعَرْضِها عليهم على شاشاتِ عرضٍ غيبيَّةٍ أُخْرويَّةٍ، قادرةٍ على أنْ تُبديَ بواطنَ نيّاتِهم وعقائدِهم مع ظواهرِ أقوالِهم وأعمالِهم، ويكونُ ذلك مِن قراءتِهم الَّتي وعَدَ اللّه تعالى بها في قوله: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: 14]، نسألُ اللّه تعالى السَّترَ لنا ولعباده المؤمنين.

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

أعمالُ اليهودِ من الضَّلالِ والانحطاطِ والخِسَّةِ بمكان

جاءَ فِعلُ العَمَلِ في جملةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بصورةِ اللّازم؛ إذ لم يُذكَرْ معه مفعولُهُ؛ لدلالةِ (ما) في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ عليه؛ أي: فينبِّئُكم بما كنتم تعملونه في الدُّنيا "مِن الأعمالِ سيِّئِها وحَسَنِها؛ لأنَّه محيطٌ بجميعِها، ثمَّ يُجازيكم على ذلك؛ المحسنَ بإحسانِه، والمسيءَ بما هو أهلُه"(1).

وفي حذفِ ذلك المفعولِ إيحاءٌ بفظاعتِه ووضاعتِه؛ وكأنَّ العبارةَ لا تُطيقُه؛ فكان في حذفِه تطهيرٌ للسّياقِ من ذِكره؛ لأنَّه من الضَّلال والانحطاطِ والخِسَّةِ بمكان، واللّه تعالى أعلم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّدّ والإرجاع:

الرَّدُّ: صَرْفُ الشَّيءِ بذاته، أو بحالةٍ من أحواله. يقال: رَدَدْتُهُ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 636.

فارْتَدَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٤٧﴾ [الأنعام: 147]، فمِنَ الرَّدِّ بالذّاتِ قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومن الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها قولُه تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 149][1].

الـرَّدُّ: صَـرْفُ الـشَّيءِ بذاتِه أو بـحـالـةٍ مـن أحـوالِـهِ، وبكراهةٍ له، أمّا الإرجاعُ فبغيرِها

وفي الرَّدِّ كراهةٌ للمردود، ويجوزُ أن تُرْجِعَهُ من غيرِ كراهةٍ له، فيُعبَّر عنه بالإرجاع، قال اللّه تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التَّوبة: 83]، ولا يجوزُ أنْ تردَّهُ إلّا إذا كَرِهتَ حالَهُ، ولهذا يُسمّى البَهْرَجُ ردًّا[2]، ولم يُسَمَّ رجْعًا[3].

الإنباء والإخبار والإعلام:

الإنـبـاءُ إخـبـارٌ بـذي شـأنٍ، والإخبارُ إظهارُ الخبرِ، والإعلامُ التَّعريضُ، أو وضعُ العِلمِ في القلب

الإنباءُ: الإخبارُ بما فيه عظيمُ الشَّأنِ، ومنه: لهذا الأمرِ نبأٌ، ومنه أُخِذَتْ صفةُ النَّبيِّ؛ لقطعِ شأنِ ما يأتي به مِن الوحي عن اللّه تعالى[4].

والإعلامُ: التَّعريضُ لِأَنْ يُعلَمَ الشَّيْءُ، وقد يكونُ بخَلْقِ العِلم الضَّروريِّ في القلب، كما خلق اللّه سبحانه من كمالِ العقل والعلم بالمُشاهَدات، ويكون الإعلامُ بِنَصْبِ الأدلَّةِ على الشَّيء.

والإخبارُ: الإظهارُ للخَبَر علم به أو لم يعلم، ولا يكون اللّهُ مُخبِرًا بِما يُحدِثُهُ من العلم في القلب[5]، كما يكونُ مُعلِمًا بذلك[6].

العمل والفعل والصُّنع:

العـمـلُ المهنةُ ولا يقتضـي العِلمَ، والصُّنعُ إحـكـامُ العمل ويَـقـتَـضـيـه، والفعلُ ما وُجِد فـي حـالٍ كـان قبلَها مَقدورًا

العملُ: المهنةُ، وإيجادُ الأثرِ في الشَّيء. يقال: فلانٌ يعملُ الطّينَ خَزَفًا، ويعملُ الخوصَ زَنبيلًا، والعملُ يَحتاجُ إلى نيَّةٍ ويطولُ زمانُهُ.

---

(1) الراغب، المفردات: (رد).

(2) "البَهْرَجُ: الرَّديءُ من الدَّراهم، وهو فارسيٌّ مُعرَّبٌ، ورُدُودُ الدَّراهم: ما رُدَّ، واحدُها رَدٌّ، وهو ما زِيْفَ فرُدَّ على ناقدِهِ بعدَما أُخِذَ منه، قال ابن الأعرابيِّ: وكلُّ مردودٍ عندَ العربِ بَهْرَجٌ ونَبَهْرَجٌ"، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: (بهرج)، (ردد).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 249.

(4) ابن فورك، تفسير ابن فورك: 1/ 274.

(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 96.

(6) مؤسسة النشر الإسلامي، معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتابَي العسكري والجزائري، ص: 59.

والفعلُ: ما وُجِدَ في حالٍ كان قبلَها مَقدورًا، سواءٌ كان عن سببٍ أم لا، وقد لا يَطولُ زمانُه، ولا يَستلزِمُ وجودَ النِّيَّة، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: 96]؛ أي: خلَقَكم وخلَقَ ما تُؤثِّرون فيه بنَحْتِكُم إيّاه أو صَوْغِكم له[1].

والصُّنْعُ: ترتيبُ العملِ وإحكامُهُ على ما تَقَدَّمَ عِلمٌ به، والعِلمُ بما يوصِلُ إلى المرادِ منه؛ ولذلك قيل للنَّجّار: صانِعٌ، ولا يقال للتّاجِر: صانعٌ؛ لأنَّ النَّجّار قد سبَقَ عِلمُهُ بما يُريدُ عملَهُ مِن سريرٍ أو باب، وسبق علمُهُ بالأسبابِ الَّتي توصِلُ إلى المراد من ذلك، والتّاجرُ لا يَعلَمُ إذا اتَّجَرَ أنَّه يَصِلُ إلى ما يُريدُه مِن الرِّبح أو لا، فالعملُ لا يَقتضي العلمَ بما يَعمَلُ له[2].

(1) العسكري، الفروق اللغوية ص: 377.

(2) العسكري، الفروق اللغوية ص: 321.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ
ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا
قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ
ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ [الجمعة: 9 - 10]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

أكـــرَمَ الـلـهُ تعالى المسلمين بـالاهـتـداءِ إلى الجُمُعةِ، بينَما ضَلَّ عنها اليهودُ والنَّصارى

لمّا ذكَرَ السّياقُ في الآياتِ السّابقة نكوثَ اليهودِ عن العمل بالتَّوراة بعدَ أن أكرمَهم اللّه تعالى بها، بل إنَّهم تقوَّلوا على اللّه تعالى الأقاويلَ حتّى قبَّحَ صنيعَهم، فشبَّههم بالحمارِ يحملُ أسفارًا، وأبطَلَ زعمَهم إذ جَبُنوا عن تمنّي الموت، وثَبَتَ كذِبُهم بفرارهم منه؛ لمّا سبَقَ السّياقُ بذلك وجَّهَ المسلمين هنا إلى الفرارِ إلى ذِكر اللّه تعالى في خُطبة الجمعة وصلاتِها؛ فهي ممّا أكرَمَهم اللّه تعالى بالاهتداءِ إليها، وضَلَّ عنها اليهودُ والنَّصارى، فبانَ فضلُ اللّه على المؤمنين، وتكذيبُه لليهودِ في دَعاواهم الكاذبةِ بأنَّهم أحقُّ بالجنَّةِ خالصةً لهم، وأنَّ لهم السَّبتَ، إلى آخرِ ما ادَّعَوا لأنفُسِهم.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿نُودِيَ﴾: أصلُ النِّداء مِن النَّدَى؛ أي: الرُّطوبةِ، يقال: صوتٌ نَديٌّ رفيعٌ، واستعارةُ النِّداء للصَّوْت من حيث إنَّ مَن يَكْثُرُ رطوبة فَمِهِ حَسُنَ كلامُه، ولهذا يوصَفُ الفصيحُ بكثرة الرّيق، ويقال: نَدًى وأنْداءٌ وأنْديَةٌ، ويُسمّى الشَّجَر نَدًى لكونه منه، وذلك لتسميةِ المسبَّبِ باسم سببِهِ[1]، والنِّداءُ: رفْعُ الصَّوت وظُهورُهُ، وقد يقال ذلك للصَّوْتِ المجرَّد، ويقال للمركَّبِ الَّذي يُفْهَمُ منه المعنى ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشُّعراء: 10].

(1) الراغب، المفردات: (ندا).

وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: 58] معناه: دَعَوْتُم، وكذلك: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾، ونداءُ الصَّلاة مخصوصٌ في الشَّرع بالألفاظِ المعروفة.

2) ﴿ٱلْجُمُعَةِ﴾: الجَمْعُ: ضَمُّ الشَّيءِ بتقريبِ بعضِه من بعضٍ، يقال: جَمَعْتُهُ فاجْتَمَعَ، و(أَجْمَعْتُ كذا) أكثرُ ما يقالُ فيما يكونُ جمعًا يُتَوَصَّلُ إليه بالفكرة، نحو: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ [يونس: 71]، ويقال: أَجْمَعَ المسلمون على كذا: اجتَمعَتْ آراؤُهم عليه، وقولهم: يومُ الجُمُعةِ؛ لاجتماعِ النّاس للصَّلاة، وجَمَّعوا: شَهِدوا الجمعةَ، أو الجامعَ، أو الجماعةَ[1].

3) ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾: السَعْيُ: عَدْوٌ دونَ الشَّدِّ، فيقطعُ مسافةً ممتدَّةً، والسَّعْيُ: الكَسْبُ بالذَّهاب هنا وهنا، سَعَى لهم وعليهم: عَمِلَ لهم وكسَبَ، ثمَّ استُعمِلَ في مجرَّدِ الكسب، وكلُّ عملٍ مِن خيرٍ أو شرٍّ سَعْيٌ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ [الصّافّات: 102]، فُسِّرَتْ بالاحتلام وبالعقل وبالكسب، والرّاجحُ أنَّ المرادَ القدرةُ على العمل لكسبِ الرِّزق كما يعملُ النّاس[2]. فمعنى قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ يَحتمِلُ العَدْوَ دونَ الشَّدِّ، ويَحتملُ الاستعدادَ والعملَ للجمعة.

4) ﴿وَذَرُواْ﴾: قالوا: هوَ يَذَرُهُ تَرْكًا. وأماتوا مَصْدَرَه وماضيَه؛ ولذلك جاءَ على لَفْظِ يَفْعَل، ولو كانَ له ماضٍ لجاءَ على يَفْعُل أو يَفْعِل، وهذا كُلُّه أو جُلُّه قولُ سيبَوَيْهِ. وقولُه تعالى ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: 44] مَعْناه: كِلْهُ إليَّ، ولا تَشْغَلْ قَلْبَك به؛ فإنّي أُجازيه. وحُكي عن بَعْضهم: لَمْ أَذِرْهُ ورائي شَيْئًا، وهو شاذٌّ[3]. فمعنى قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾: اترُكوه، وتَوَجَّهوا إلى صلاةِ الجمعة، والله تعالى أعلم.

5) ﴿قُضِيَتِ﴾: (قضى) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه، وإنفاذِه لجهتِه، قال الله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فُصِّلت: 12]؛ أي أحكَمَ خلقَهُنّ. والقضاءُ: الحُكْم. قال الله سبحانه على لسانِ مَن قال: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: 72]؛ أي: اصنَعْ واحكُمْ.

ولذلك سُمّي القاضي قاضيًا؛ لأنَّه يَحْكُمُ الأحكامَ ويُنَفِّذُها، وسُمّيت المنيَّةُ قضاءً؛ لأنّه

(1) الراغب، المفردات: (جمع).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سعي).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (وذر).

أمرٌ يُنفَّذُ في ابنِ آدمَ وغيرِهِ من الخلق. وكلُّ كلمةٍ في الباب فإنَّها تَجري على القياس الَّذي ذكرناه، فإذا هُمِزَ تغيَّرَ المعنى، فالقُضأةُ هي الفساد[1]. فقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ﴾ معناه: إذا فُرِغَ من الصَّلاةِ على وجهِ الإتقان فتفرَّقوا بحثًا عن أرزاقِكم.

6) ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾: نَشَرَ الثَّوبَ، والصَّحيفَةَ، والسَّحابَ، والنِّعْمَةَ، والحَديثَ: بَسَطَها. قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠﴾ [التَّكوير: 10]، ونَشِرَ المَيِّتُ نُشورًا، ونَشَرَ اللّهُ المَيِّتَ، وأَنْشَرَهُ بمعنًى، والحقيقةُ أنَّ نَشَرَ اللّهُ الميِّتَ مستعارٌ من نَشْرِ الثَّوْبِ.

وانْتِشارُ النّاسِ: تصرُّفُهم في الحاجاتِ. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2]؛ أي: تفرَّقوا للتَّصرُّفِ في مصالحِكم.

7) ﴿وَٱبۡتَغُواْ﴾: يقال: بغَى، يَبْغي، ابْغِ، بُغْيَةً، فهو باغٍ، والمفعول مَبْغيٌّ، بغَى المالَ، وبغَى الأمرَ: طلَبَهُ، وأرادَهُ، ورَغِبَ فيه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [القصص: 77].

وابتَغى الأجرَ وغيرَه: أرادَهُ وطلبَهُ، قال تعالى: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ﴾[3] [المائدة: 2]. فقولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ معناه: اطلُبوه والتَمِسوه في أعمالِكم، فلا حرجَ عليكم.

المَعْنى الإجماليُّ:

أهلُ العلمِ بالحقائقِ يَحرِصون على أداءِ حقِّ الجُمُعَة

يا أيُّها المؤمنون باللّه تعالى ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، توجَّهوا إلى صلاةِ الجمعة بقلوبِكم وأبدانِكم حيث تُقامُ حينَ يَحينُ وقتُ دخولِها ويُؤَذَّنُ لها، واترُكوا كلَّ أعمالِكم الدُّنيويَّة ولو كانت بيعًا وشراءً تُحَصِّلون به الأرباحَ المباشِرة؛ فذلك التَّوجُّهُ إليها أفضلُ لكم مِن التَّبايُعِ وتحصيلِ الأرباحِ الدُّنيويَّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).
(2) الراغب، المفردات: (نشر).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: 1/ 229.

الزّائلة، تلك هي الحقيقةُ إنْ كنتُم من أهلِ العِلمِ بحقائقِ الأمورِ كما شَرَعَها اللّه تعالى.

وبعدَ فراغِكم من أداء صلاةِ الجمعة أمامَكم اليومُ، وهو متّسِعٌ مبارك، فانصرِفوا إلى أعمالِكم، والتمِسوا فضلَ اللّه تعالى في تجارتِكم وزراعتِكم وصناعتِكم كما تحبّون، على ألّا يَشغَلَكم ذلك عن ذكرِ اللّه تعالى، فاذكُروه بقلوبِكم وألسنتِكم، وأكثِروا من ذكرِهِ ﷻ بحَمدِهِ وتسبيحِهِ وتكبيرِهِ وتهليلِهِ؛ لكي تفوزوا بالفلاح، وتَسعَدوا بالتَّوفيقِ في الدُّنيا والآخرة.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ قولِهِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عمّا قبلَهُ:

اللّهُ تعالى يَخذُلُ المُستكبِرينَ بنُصرةِ الضُّعَفاءِ المُنكسِرين

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ﴾ عن قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾ [الجمعة: 8]؛ لعدمِ تَوَفُّرِ الرّابطِ المُسَوِّغِ للوصلِ؛ حيثُ التَفَتَ السّياقُ مِن تهديدِ اليهودِ بمُلاقاةِ الموت إيّاهم مهما حاذَروا أسبابَهُ إلى أمرِ المؤمنين بالسَّعيِ إلى صلاةِ الجمعةِ في أوَّلِ وقتِها.

وليس معنى انعِدام الجامعِ هنا انبِتاتَ السّياقِ تمامًا؛ إذ الخيطُ الدَّقيقُ الرّابطُ بينَهُما يَكمُنُ في إشعارِ اليهودِ بالغضبِ الإلهيِّ عليهم؛ إذ كَذَبوا، وكذَّبوا رسولَهُ ﷺ، واليهودُ افتَخَروا على المسلمين بالسَّبتِ؛ فشَرَعَ اللّه للمسلمين الجُمُعةَ. فهذا وجهُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بالآياتِ الأربعِ الَّتي قبلَها؛ فكُنَّ لهذه الآيةِ تمهيدًا وتوطئةً[1].

معنى (يا)، ونكتةُ نداءِ القريبِ بها:

أداةُ النِّداءِ (يا) تَتَّسِمُ بالمُرونةِ والثَّراء، وتُفعِمُ السّياقاتِ بكثرةِ الدَّلالات

(يا) في قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أداةُ نداءٍ، وهي أمُّ البابِ المختصَّةُ بِنداءِ البعيد؛ لامتدادِ الصَّوتِ بها،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 219.

فيَسمَعُ ويُقبِلُ؛ لذلك فهي هنا مستعملةٌ في نداءِ القريب؛ إذ المُنادي هو اللّه تعالى، ولا يَبعُدُ عليه ﷻ شيءٌ؛ فوجَبَ أن يكونَ للنِّداءِ بها إشاراتٌ مقصودة.

ومِن تلك الإشاراتِ في هذا السّياق خصوصًا تشريفُ اللّه تعالى عبادَهُ المؤمنين بخطابِهم مباشرةً، وبنداءٍ يُشعِرُهم ببُعدِ مكانتِهم عنده ﷻ، ويَرفعُ قَدْرَهم ومقامَهم الَّذي حاوَلَ اليهودُ الحَطَّ منه بوصفِهم إيّاهم أُمّيّين، وبتحقيرِهم إيّاهم بأنَّهم ليسوا أهلًا لخطابِ اللّه تعالى والتَّلقّي عنه.

فجاءَ النِّداءُ هنا من اللّهِ تعالى للمؤمنين مباشَرةً لا تكليفًا عن طريقِ رسول اللّه ﷺ كما سبَقَ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ [الجمعة: 6]، وقولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ﴾ [الجمعة: 8]؛ إيحاءً بأنَّ المؤمنين أهلٌ لخطابِه ﷻ، وأنَّكم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ [الجمعة: 6] لم تعودوا أهلًا لذلك؛ فكلَّفَ اللّه تعالى رسولَهُ ﷺ في الآياتِ السّابقةِ بأنْ يُبلِّغَهم ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ﴾ [الجمعة: 6]، ﴿إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ﴾ [الجمعة: 8].

وإلى ذلك: يُمكِنُ أن يُلْمَحَ في ندائه سبحانه المؤمنين نداءَ البَعيدِ بعضُ العِتاب؛ إذ ترَكَ كثيرٌ منهم خطبةَ الجمعة، وتركوا رسولَ اللّه ﷺ على المنبر، وانصرفوا إلى غَرَضٍ دنيويٍّ زائلٍ؛ فجاءت الآيةُ هنا تمهيدًا بهذا اللَّومِ لوضعِ الحُكمِ الشَّرعيِّ المُلزِم.

وهكذا تتَّسِمُ أداةُ النِّداء (يا) بالمُرونةِ والثَّراءِ الدَّلاليِّ، وتُفعِمُ السّياقاتِ بالإشاراتِ اللَّمّاحة.

صيغةُ (يا أيُّها) مُمتلِئةٌ كثيفةُ الدَّلالة، تَحفِزُ نحوَ معرفةِ المنادى المقصودِ بعدَها

معنى (أيٌّ)، وأثرُ (الهاء) في صيغةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

(أيُّ) في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ "منادًى، نكرةٌ مقصودةٌ، مبنيٌّ على الضَّمِّ في محلِّ نصبٍ"(1)، وقد سبقَ القولُ بأنَّ

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 246.

إبهامَهُ باعثٌ على استِثارةِ الشَّوقِ؛ لتخصيصِهِ بذِكرِ البدل أو عطف البيان الَّذي يأتي بعدَهُ، وأنَّ (الهاءَ) للتَّنبيهِ، فتقديمُها بينَ يدَي المنادَى المقصودِ تَهْيئةٌ للمُتلقّي، وحَفْزٌ لِهِمَّتِهِ نحوَ معرفةِ ذلك المنادَى الحقيقيِّ، الآتي ذِكرُهُ بعدَها على سبيلِ البدل أو عطفِ البيان.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

الاسمُ الموصولُ عُنصُرُ تشويقٍ إلى معرفةِ صِلَتِهِ، وهو يُفسِحُ التَّركيبَ لها

وإلى ما سبَقَ من مُثيراتِ الشَّوقِ في صيغة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ يأتي الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عُنْصرَ تشويقٍ آخَرَ؛ لأنَّه فقيرُ الدَّلالةِ، يَطلُبُ ما يَسُدُّ فَقْرَ دلالته، فإذا جاءتْ جملةُ الصِّلة ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صارتْ هي الأخرى عُنصرَ تشويقٍ، تَطلُب ما وراءَها من المقصود بفَحْوى الخطاب، الَّذي طالَ الشَّوقُ إلى معرفته؛ فيكونُ الوقوفُ عليه في لذَّةِ ما حُصِّلَ بعدَ معاناةٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بوصفِ الإيمان، وإشارةُ صَوغِهِ ماضيًا في ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

الإيمانُ شرفٌ للمؤمنين، ويُحقِّقُ لهم الأمانَ وإنْ أحاطَتْ بهم المَخاطرُ والأهوال

في التَّعبيرِ بوصف الإيمان في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ﴾ - أي: "يا أيُّها الَّذين صدَّقوا اللّٰهَ ورسولَه"(1) دلالةٌ على عُمْقِ اليقينِ باللّٰه تعالى في نفوسِهم، و"ليعلموا أنَّ إيمانَهم يقتضي الإسراعَ في إجابةِ هذا الطَّلبِ وتحقيقِ هذا الأمر"(2)، فيَنهَضوا بحقِّ هذا النِّداءِ الشَّريف.

كما أنَّ في وصف الإيمان معانيَ الأمنِ والأمان؛ فمَن آمَنَ باللّٰه تعالى حقَّ الإيمانِ استشعَرَ الأمنَ، وعاش الأمانَ وإن كان في عين المَخاطِرِ، كما أحسَّهُ وعاشَهُ الخليلُ ﷺ في حُفْرةِ النّار، وكما عاشَهُ رسولُنا ﷺ والكفّارُ يَطوفون به حولَ الغار؛ إذ يُجيبُ صاحبَهُ - وقد قال له حينَها: يا رسولَ اللّٰه، لو أنَّ أحدَهم رفَعَ قَدَمَهُ لَرآنا - فيقولُ: «ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللّٰهُ ثالِثُهُما؟»(3).

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 637.

(2) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 675.

(3) البخاري، صحيح البخاري، كِتاب التفسير: 4/ 1713، برقم: (1713).

دلالةُ حذفِ مفعولِ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾:

لا يَنصرِفُ الإيمانُ إذا أُطلِقَ إلّا إلى الواحدِ الأحدِ ﷻ

حُذِفُ مفعولُ الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ﴾ لِتَعَيُّنِه؛ إذ لا يجوزُ الإيمانُ بغيرِ اللّه الواحدِ الأحدِ ﷻ، ولا ينصرفُ إلّا إلى اللّه تعالى ربًّا وإلهًا واحدًا، ولا ينصرفُ إلّا إلى الإسلام دينًا وتشريعًا، وإلى القرآن كتابًا ودستورًا، وإلى محمَّدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا، واللّه تعالى أعلم.

نكتةُ تقييدِ النِّداءِ للصَّلاةِ بـ ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ):

النِّداءُ للصَّلاةِ حَتْمٌ في الإسلام

ومِن دقيقِ النَّظم الكريم تقييدُ فعلِ النِّداء للصَّلاةِ ﴿نُودِيَ﴾ بـ﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾؛ "أي: إذا جاءَ وقتُها، وأذَّنَ المُؤذِّنُ بها"[1]، وذلك لوجوبِ الصَّلاة والقطع بالنِّداء لها، والجَزْم بعدم التَّهاوُنِ فيها؛ لأنَّ ﴿ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النِّساء: 103]، فيجبُ النِّداء بها في أوائلِ أوقاتِها؛ فلا تَصلُحُ لذلك (إنِ) المُشكِّكةُ في النِّداء بها. وفي النِّداء بهذه الأداةِ إشارةٌ إلى تحقُّقِ دوام النِّداء لصلاةِ الجمعة في الأمَّةِ الإسلاميَّة، فهي من المُبشِّرات.

وتقييدُ الأفعالِ في الذِّكر الحكيم بـ(إنْ)، و(إذا)، و(لو) آيةٌ في البلاغةِ والإحكام، والاتِّساقِ مع أحكامِ الدّين وآدابه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالنِّداء، ونكتةُ بناءِ الفعلِ ﴿نُودِيَ﴾ للمفعول:

أذانُ الجمعةِ واجبٌ، ولا يُمنَعُ أحدٌ مِنَ النِّداءِ للصَّلاة

النِّداءُ في جملةِ ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ هو "الأذانُ الشَّرعيُّ المعهودُ؛ لِما فيه من قولِ المؤذِّنِ: حَيَّ على الصَّلاة؛ أي: أقبِلوا عليها وتعالَوا لأدائِها"[2]، ووقتُهُ هو الوقتُ الَّذي نُهيَ عن البيع فيه يومَ الجمعة؛ عن مسروقٍ وجماعةٍ: هو وقتُ الزَّوالِ إلى أنْ يَفرَغَ الإمامُ من الجمعة؛ لأنَّه إنَّما يجبُ الحضورُ إلى الجمعة عندَ دخولِ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 951.

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1416.

الوقت - وهو زوالُ الشَّمس - وإنْ تأخَّرَ النِّداء؛ ولأنَّ النِّداء بعدَ الزَّوال غيرُ مُعتبَرٍ، فكان وجودُهُ وعدمُه سواءً[1].

و"لم يكنْ على عهدِ رسولِ اللّه ﷺ نداءٌ لحضورِ الجمعةِ سِواهُ، كان إذا جلسَ على المنبرِ أذَّنَ بلالٌ على بابِ المسجد، وكذا كان على عهدِ أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما"[2].

وفي بناءِ فعلِ النِّداءِ ﴿نُودِىَ﴾ للمفعولِ تخليصٌ للسّياق ممّا يَشغَلُ عن القضيَّةِ الأهمِّ؛ وهيَ التَّنبيهُ إلى وجوب النِّداءِ للصَّلاةِ بغضِّ النَّظرِ عن المُنادي مَن يكون؟.

ثمَّ إنَّ في حذفِ الفاعل هنا إيذانًا بجوازِ نداء كلِّ مَن يتأتَّى مِنه من رجلٍ وصبيٍّ، إلّا المرأةَ لفتنةِ صوتِها، وما يُثيرُهُ من كَوامِنِ الشَّهواتِ، كما أنَّ في حذفِ فاعلِ ﴿نُودِىَ﴾ مراعاةً لعدمِ إمكان تعديدِ الفاعلين؛ فالسّياقُ والمقامُ لا يتَّسِعُ لذلك، كما أنَّ في حذفِه إيحاءً بأنَّه لا يُمنَعُ أحدٌ من الأذان، وهكذا يُحَقِّقُ حذفُ الفاعل كلَّ تلك الإشاراتِ، ويُعطي كلَّ تلك الأحكام.

معنى (اللّامِ) في القيدِ ﴿لِلصَّلَوٰةِ﴾:

فريضةُ الصَّلاةِ جديرةٌ بأنْ يُنادَى لأجلِها، وقتَ حُرمةِ البيعِ عندَ الأذانِ والإمامُ على المنبر

(اللّامُ) في القيدِ ﴿لِلصَّلَوٰةِ﴾ هي لامُ التَّعليلِ؛ أي: إذا نوديَ لأجْلِ الصَّلاة، وفي (اللّام) إلى ذلك معنى (التَّعدية)؛ لأنَّ فعلَ النِّداء لا يتعدَّى إلى (الصَّلاة) بنفسِهِ؛ فلا يقال: إذا نوديَ الصَّلاة؛ ممّا اقتضى التَّعدية بحرف الجر، فقيل: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾.

و"عن الضحاكِ في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ قال: إذا زالتِ الشَّمسُ حرُم البيعُ والشِّراءُ"[3]، وعن ابنِ زيدٍ قال: "ولا يَحِلُّ له البيعُ إذا سَمِعَ النِّداءَ الَّذي يكونُ بينَ يدَي

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 13.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 296.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 642.

الإمامِ إذا قعَد على المنبرِ، وقرَأ: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾. قال: ولم يأمُرْهم يَذَرون شيئًا غيرَه؛ حرَّمَ البيعَ، ثمَّ أذِنَ لهم فيه إذا فَرَغوا مِن الصَّلاةِ. قال: والسَّعْيُ: أن يُسْرِعَ إليها، أن يُقْبِلَ إليها"(1).

معنى (أل) في قولِه: ﴿لِلصَّلَوٰةِ﴾:

لا تَرَخُّصَ في صلاةِ الجُمُعة، وكلُّ الصَّلوات عظيمةٌ جليلة

(أل) في قولِه تعالى: ﴿لِلصَّلَوٰةِ﴾ عهديَّةٌ؛ أي: صلاةِ الجمعةِ المعهودةِ لديكم يا أيُّها المؤمنون، المحدَّدةِ بعَيْنِها في قوله تعالى: ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾؛ فتلك لا تَرَخُّصَ فيها، بخلافِ غيرها من الصَّلواتِ المكتوبات، وإن كان أداؤُها في الجماعة مُهمًّا، وإلّا لأُطلق الحُكم فقيل: إذا نوديَ للصَّلاةِ فاسعَوا إلى ذكر اللّه، ولم يخصِّص الحكم بـ﴿يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾.

وإلى ذلك ففي تعريفِ (الصلاة) أيضًا إيحاءٌ بعظمةِ جنسِ (الصلاة)، والحضِّ على النِّداء لها، والهمِّ والسَّعيِ إليها في أوَّلِ وقتِها، واللّه تعالى أعلم.

معنى ﴿مِن﴾ في القيدِ ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾:

الأمـرُ بتَرْكِ المعاملاتِ يومَ الجمعةِ مُؤقَّتٌ بمُدَّةِ الصَّلاة

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ تبعيضيَّةٌ، لطيفةُ الدَّلالة؛ حيث تتَّسِقُ مع لطيفةِ التَّقليلِ من وقتِ أداء الجمعة، ووَفْرةِ الوقتِ بعدَ ذلك لأعمالِ الدُّنيا، وأنَّ خُطبةَ الجمعة وصلاتَها لا تَشغَلُكم وقتًا طويلًا؛ لأنَّها تُقضَى في بعضِ سويعاتِ يومِها، فلا عُذْرَ في التَّهاوُنِ بها، وقد لمَحَ السَّعديُّ فقال: "وهذا الأمرُ بتركِ البيعِ مؤقَّتٌ مدَّةَ الصَّلاة"(2).

ويَدْعَمُ دلالةَ التَّبعيضِ في ﴿مِن﴾ إلحاقُها بإباحةِ الانتشارِ وابتغاءِ فضلِ اللّه تعالى؛ أي: إنَّ لكم في بقيَّةِ اليومِ مُتَّسَعًا لابتغاءِ الفضل،

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 641.

(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 863.

وإلى ذلك فهو فضلُ الله تعالى الَّذي أمَرَكم بالصَّلاة؛ فطريقُ ابتغاءِ فضله الاستجابةُ لأمرِهِ ﷺ بالسَّعيِ إلى الجمعة.

وقيل: ﴿مِن﴾ بمعنى (في)؛ أي: ظرفيَّةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأحقاف: 4]؛ أي: في الأرض(1).

وذكَرَ الزَّمخشريُّ أنَّ ﴿مِن﴾ بيانٌ لـ ﴿إِذَا﴾ وتفسيرٌ له(2)؛ أي: لبيانِ أنَّ ذلك الوقتَ في أيِّ يومٍ من الأيّام إذا فيه إبهامٌ، فيُجامِعُ كونَها بمعنى (في)، وكونَها للتَّبعيض(3).

معنى (أل) في ﴿يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾، ونكتةُ تخصيصِهِ بالذِّكر:

يــومُ الجمعةِ عيدٌ للمسلمين، هدانا الله تعالى إليه وضَـلَّ عنه الآخَرون

و(أل) في ﴿ٱلْجُمُعَةِ﴾ تعريفيَّةٌ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: ذلك اليوم المعهودِ لديكم، يوم تجمُّعِكم المشروعِ لحضورِ الخُطبة وأداءِ الصَّلاة، وهو اليومُ الَّذي ضلَّ عنه اليهودُ والنَّصارى وهدانا الله تعالى إليه، كما قال الرَّسول ﷺ: «نَحْنُ الآخِرونَ السّابِقونَ يَوْمَ القيامَةِ، بَيْدَ أنَّهُمْ أوتوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِنا، ثُمَّ هَذا يَوْمُهُمُ الَّذي فُرِضَ عليهِمْ فاخْتَلَفوا فيه، فَهَدانا اللَّهُ، فالنّاسُ لَنا فيهِ تَبَعٌ: اليَهودُ غَدًا والنَّصارَى بَعْدَ غَدٍ»(4).

و"إنَّما سُمّيَتْ جمعةً لأنَّ الله جمَعَ فيها خَلْقَ آدمَ، وقيل: لأنَّ اللّهَ فرَغَ فيها من خَلْقِ كلِّ شيءٍ، فاجتَمَعَتْ فيها جميعُ المخلوقات، وقيل: لاجتماعِ النّاس فيها"(5).

وكان يومُ الجمعةِ معروفًا منذُ قديم، وكان اسمُه في الجاهليَّة عَروبةَ؛ لأنَّ أسماءَ الأيّام في الجاهليَّةِ كانت غيرَ هذه الأسماءِ، وأوَّلُ مَن سماهُ يومَ الجمعةِ كعبُ بنُ لؤيِّ بنِ غالبٍ؛ لاجتماعِ قريشٍ فيه إلى كعب، وقيل: بل سُمّيَ في الإسلام؛ لاجتماعِ النّاس فيه للصَّلاة(6).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 249.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 532.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 294.
(4) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة: 1/ 299، برقم: (836).
(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 270.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 9.

وممّا يَدعَمُ ذلك ما رويَ "عن ابنِ سيرينَ قال: جَمَّعَ أهلُ المدينة قبلَ أنْ يَقدَمَ النَّبيُّ ﷺ وقبلَ أن تنزلَ الجمعةُ، قالت الأنصارُ: لليهود يومٌ يجتمعون فيه بكلِّ سبعةِ أيّام، وللنَّصارى مثلُ ذلك؛ فهَلُمَّ فلْنَجعَلْ لنا يومًا نجتمعُ فيه فنذكُرُ اللّه تعالى ونشكُرُه. فقالوا: يومُ السَّبتِ لليهود، ويومُ الأحد للنَّصارى، فاجعلوه يومَ العَروبة، وكانوا يُسمّون يومَ الجمعة بذلك، فاجتَمَعوا إلى أسعدَ بنِ زُرارةَ فصلّى بهم يومئذٍ ركعتين، وذكَّرَهم، فسمَّوْهُ (الجمعةَ) حين اجتمعوا إليه، فذَبَح لهم شاةً فتغدَّوْا، وتعشَّوْا منها، وذلك لعامَّتِهم، فأنزَلَ اللّه تعالى في ذلك بَعْدُ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ الآيةَ"(1).

و"مشروعيَّةُ صلاةِ الجمعة والتَّجميع فيه إجابةٌ من اللّه تعالى رغبةَ المسلمين مثلُ إجابتِه رغبةَ النَّبيِّ ﷺ استقبالَ الكعبةِ المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة: 144]"(2).

و"لمّا جُعِلَ يومُ الجمعة يومَ شكرٍ وتعظيمِ نعمةٍ احتيجَ فيه إلى الاجتماع الَّذي تقعُ به شهرتُهُ، فجُمِّعَتِ الجماعاتُ لذلك، واحتيجَ فيه إلى الخُطبةِ تذكيرًا بالنِّعمةِ وحثًّا على استدامتها. ولمّا كان مدارُ التَّعظيم إنَّما هو على الصَّلاةِ جُعِلَتِ الصَّلاةُ لهذا اليوم وسطَ النَّهار ليَتِمَّ الاجتماعُ، ولم تَجُزْ هذه الصَّلاةُ إلّا في مسجدٍ واحدٍ؛ ليكونَ أدعى للاجتماع"(3).

معنى (الفاءِ) في جملةِ ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾:

يجبُ الانصرافُ عن أعمالِ الدُّنيا إلى الصَّلاةِ فَوْرَ سماعِ النِّداءِ لِلجُمُعَة

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ رابطةٌ للجواب بالشَّرط ﴿إِذَا نُودِىَ﴾، فيها رائحةُ التَّعقيبِ الفَوْريِّ؛ فتُسهِمُ في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 294.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 220.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 222.

تقريرِ حكم شرعيٍّ هو وجوبُ الانصرافِ عن أعمالِ الدُّنيا إلى الصَّلاة فورَ سماعِ النِّداء لِصلاة الجمعة؛ فهذا هو الحدُّ الفاصلُ بين وقتِ التَّبكيرِ إلى الصَّلاةِ رغبةً في الأجر، ووقتِ تحريم العمل أثناءَ الخطبة اختيارًا، أمّا الاضطرارُ فيكون بحسبِهِ في إطار قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286]، والله تعالى أعلم.

دلالةُ السَّعيِ، وغرضُ الأمرِ في جملةِ ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾:

أوامِرُ الدّينِ مع إيجابِها على المسلمين تَأتي مقرونةً بما يُرَغِّبُ فيها ويُغري بها

السَّعْيُ في كلامِ العربِ هو العملُ، يقالُ: فلانٌ يَسْعَى على أهلِه؛ أي: يَعْمَلُ فيما يعودُ عليهم نفعُهُ[1]، ومِن معاني السَّعي إلى ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هنا توطينُ "النِّيَّةِ بالقلوب، والعملُ لها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ [الليل: 4]، وإجابةُ الدّاعي، والمشيُ على القدم من غير إسراعٍ"[2]، ومِن السَّعيِ "الغُسلُ والوضوءُ والتَّوجُّهُ إليه"[3]، ومنه الهِمَّةُ في المشي "بدونِ إفراطٍ في السُّرعة، وقد جاء في الحديث مقابَلَةُ السَّعيِ بالمشي في قوله ﷺ: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ فَلا تَأْتوها تَسْعَوْنَ وأْتوها تَمْشونَ وعَلَيْكُمُ السَّكينَةُ، فَما أَدْرَكْتُمْ فَصَلّوا، وما فاتَكُمْ فَأَتِمّوا»"[4]، فـ"عبَّرَ سبحانه بالسَّعيِ؛ لِتَضَمُّنِه معنًى زائدًا على المَشْيِ، وهو الجِدُّ، والحرصُ على التَّبكيرِ، وعلى تَوَقّي التَّأخيرِ"[5]، "وجُعِلَ ذلك في خصائصِ الجمعة"[6]، ومن السَّعيِ "المبادرةُ إليها والاهتمامُ لها، وجَعْلُها أهمَّ الأشغالِ"[7].

والأمرُ بالسَّعْيِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ للوجوب؛ إذ فيه معنى الاستعلاءِ المُلْزِم؛ لِصُدورِهِ من الله تعالى لِعباده المؤمنين،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 3/ 581.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 8.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 101.
(4) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة: 1/ 307، الحديث رقم: (109).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 388.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 296.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 863.

وإلى ذلك ففيه نُصحٌ وإغراءٌ على العملِ لأجلِ الصَّلاةِ بالاستعدادِ لها والتَّبكيرِ إليها، ويُلَمِّحُ الإغراءُ بتعليلِ السَّعيِ بأنَّه ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ دون (الصَّلاة)؛ ففي ذكرِ اللّه طمأنينةُ القلوب، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرَّعد: 28]، وهكذا أوامرُ الدّينِ مع إيجابِها على المسلمين تأتي مقرونةً بما يُرَغِّبُ فيها ويُغري بها.

وفي هذا التَّوجيهِ الكريم كذلك "تعريضٌ باليهود، وأنَّهم لم يوَفَّقوا لِما سَعِدَ به المؤمنون، كما ورد في الحديث: «هذا يومُهم الَّذي فُرِضَ عليهم»؛ يعني: يومَ الجمعة، «فاختلفوا فيه، فهدانا اللّه له، فالنّاس لنا فيه تبعٌ؛ اليهودُ غدًا، والنَّصارى بعدَ غد»(1).

و"قد اتَّسَعَ العمرانُ في هذا الزَّمان، فينبغي عدمُ انتظارِ الأذان للسَّعي إلى المسجد، وأنْ يُبَكِّرَ المصلّي؛ ليأخذَ له مكانًا فيه قبلَ امتلائِه بالمصلّين، بعد أن يكونَ قد اغتسَلَ وتطيَّبَ وتزيَّنَ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: 31]"(2).

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في القيدِ ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾:

سعادةُ المؤمنِ تَتَحقَّقُ إذا جعَلَ ذكرَ اللهِ تعالى والصَّلاةَ غايةَ غاياتِهِ

﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ لانتهاءِ الغاية، وهو يوحي إلى المؤمن بأنَّ سعادتَهُ تتحقَّقُ بأنْ يجعَلَ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى والصَّلاةَ غايةَ غاياته، لا البيعَ والشِّراءَ، وجمعَ المالِ والانشغالَ بأعمالِ الدُّنيا، والعملَ على جمعِ أعْراضِها الزّائلة، وتقديسَ أغراضِها الدَّنيئة، وأنَّ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى هو ما يستحقُّ أن يَسعى إليه، ويَتَّخِذَهُ غايتَهُ.

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ بـ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾:

المقصودُ بـ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 411، والحديث في البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة: 1/ 299، برقم: (836).

(2) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1418.

الصَّلاةُ مَحلُّ الذِّكرِ، وهو جزءٌ مِنها

صلاةُ الجمعةِ، أو خُطبتُها، أو هما معًا، و"لمّا قال تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ لم يقلْ: إلى الجمعةِ، ولا: لها؛ فدلَّ أنَّه قبلَ الجمعة ذكرٌ يجبُ الاستماعُ إليه والسَّعيُ إليه؛ فدلَّ هذا على فَرْضيَّةِ الخُطبة"[1].

وبناءً على ذلك فالتَّعبيرُ بـ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ عنها مجازٌ مرسلٌ، والعلاقةُ بينَ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ والصَّلاةِ هي الجزئيَّةُ؛ لأنَّ الصَّلاةَ تشتملُ على الذِّكر، و"العربُ تُسمّي الشَّيءَ باسم بعضِه، كما سُمّيت الصَّلاةُ قرآنًا وركوعًا وسجودًا"[2]، أو العلاقةُ بينَهما المَحَلّيَّةُ؛ "لأنَّها كالمحلِّ له"[3]؛ لأنَّ الخُطبةَ والصَّلاةَ محلُّ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالذِّكر، ولطيفةُ إضافتِهِ إلى الاسمِ الجليل:

ذكرُ الله تعالى أهمُّ مَقاصِدِ الجُمُعة

في إيثارِ التَّعبير بـ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ عنهما - أي: الخُطبةِ والصَّلاةِ - تنويهٌ بفضلِه، وتنبيهٌ إلى أنَّ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أهمُّ ما في الخُطبة والصَّلاة، وأنَّه "أهمُّ مقاصِدِها"[4]، بل هو غايةُ العبادات، كما قال تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: 45]، ودليلُ ذلك رَبْطُ الإذنِ بالانتشارِ في الأرضِ للعملِ والبيعِ والشِّراء والكسب بذِكر اللّه ﴿كَثِيرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

وإضافةُ الذِّكرِ إلى الاسم الجليل يَمنَحُ الذّاكرَ الفضيلةَ والشَّرفَ المُعَلَّى، ويَسمو بروحِه؛ إذ لا شيءَ يَعلو على ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وإجرائِه على اللِّسانِ وفي الجَنانِ، فبذكرِ اللّه تطمئنُّ القلوبُ، وتُطرَدُ الشَّياطينُ، وتُبارَكُ الحياة.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 12.

(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 415.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 296.

(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1416.

ومِن ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ "موعظةُ الإمامِ في الخُطبةِ، ووقتُ الجمعة، وصلاةُ الجمعة، وهو قولُ الجمهور"[1]، و"ما كان مِن ذكرِ رسول اللّه ﷺ، والثَّناءِ عليه وعلى خلفائِهِ الرّاشدين، وأتقياءِ المؤمنين، والموعظةِ، والتَّذكيرِ فهو في حُكم ذِكرِ اللّه، فأمّا ما عدا ذلك مِن ذِكرِ الظَّلَمةِ وألقابِهم، والثَّناءِ عليهم والدُّعاءِ لهم - وهُم أحِقّاءُ[2] بعكسِ ذلك - فمِن ذِكرِ الشَّيطان، وهو مِن ذكرِ اللّه على مراحلَ؛ أي: بعيدٌ جدًّا، وإذا قال المُنصِتُ للخُطبةِ لصاحبه: صَهْ فقد لَغا، أفلا يكون الخطيبُ الغالي في ذلك لاغيًا؟!"[3].

معنى (الواوِ) في جملةِ ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾:

على المؤمنِ أنْ يَتركَ شُؤونَ الدُّنيا ويُقبِلَ على الجُمعةِ إذا دخلَ وقتُها

(الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ واوُ العطف، الجامعةُ بينَ واجبينِ: السَّعيِ إلى ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى وتركِ البيعِ، وذلك التَّرتيبُ جارٍ على المعنى الأعمِّ للسَّعي، وهو توطينُ النِّيَّةِ والتَّهيئةُ للجمعة، فذلك يَتقدَّمُ تركَ البيعِ، أمّا على أنْ يكونَ معنى السَّعيِ المشيَ بِهِمَّةٍ ونشاطٍ فـ "لا يقتضي العطفُ تقديمَ السَّعْيِ على تركِ البيع بالاتِّفاق"[4]، ويكونُ في النَّصِّ على تركِ البيع حينئذٍ تقريرٌ عَمَليٌّ للسَّعي إلى ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وتأكيدٌ له، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ مِن مواضعِ العطفِ بالواو أنْ يكون في المعطوفِ تقريرٌ لحصولِ المعطوف عليه.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظةِ (ذَروا)، وغرضُ الأمر منه:

يَحرُمُ التَّبايُعُ وقتَ الجُمُعَة

معنى ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾: "اترُكوا المعاملةَ به، ويُلحَقُ به سائرُ المعاملات. قال الحسن: إذا أذَّنَ المؤذِّنُ يومَ الجمعة لم يَحِلَّ الشِّراءُ والبيع"[5]، والأمرُ في ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ للإيجابِ والقطعِ، مثلُ الأمرِ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 9، بتصرف.

(2) يقال: هو حَقيقٌ أن يفعل كذا، وهو حَقيقٌ به، ومَحْقوقٌ به؛ أي: خليقٌ له، والجمع أَحِقّاءُ، يُنظر: الجوهري، الصحاح: (حقق).

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 535.

(4) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 3/ 276.

(5) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 271.

بالسَّعي في ﴿فَٱسۡعَوۡاْ﴾؛ لأنَّهما يتظافرانِ على تقريرِ حكمٍ واحدٍ، و"عن ابن عبّاسٍ: ﴿إِذَا نُودِىَ﴾ يَحرُمُ البيعُ حينئذٍ، وقال عطاءٌ: يَحرُمُ الصِّناعاتُ كلُّها"(1).

و"لمّا كان ذلك الوقتُ مظنَّةَ الذُّهولِ بالبيع عن ذكر اللّٰه والمُضيِّ إلى المسجد قيل لهم: بادِروا تجارةَ الآخرة، واتركوا تجارةَ الدُّنيا، واسعَوا إلى ذكر اللّٰه الَّذي لا شيءَ أنفعُ منه وأربحُ، وذَروا البَيْعَ الَّذي نفعُهُ يسيرٌ ورِبْحُهُ مُقارِب"(2)، وقد "كان قومٌ يجلسون في بقيعِ الزُّبَير، فيشترون ويبيعون إذا نوديَ للصَّلاة يومَ الجمعة؛ فنزلت: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ أي: سعيُكُم لها وتَرْكُ البيع خيرٌ لكم ممّا نفعُهُ يسيرٌ، ورِبْحُهُ مُقارِب"(3).

مرجعُ ضميرِ الخطابِ في الفعل (ذَروا):

كلُّ المسلمين محظورٌ عليهم التَّبايُعُ وقتَ الجُمُعة

ضميرُ الخطابِ في فعل الأمر ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ لكلٍّ من البائع والمشتري. والمرادُ بالآية: تَرْكُ ما يُذهِلُ عن ذكرِ اللّٰه مِن شواغلِ الدُّنيا(4).

معنى (أل) في ﴿ٱلۡبَيۡعَۚ﴾، ووجهُ المجازِ فيه:

كلُّ بيعٍ وكلُّ شراءٍ وقتَ الجمعةِ محظورٌ

(أل) في ﴿ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ مُعرِّفةٌ، لبيانِ الجنس؛ تُفسِحُ الحُكمَ ليشملَ جميعَ أنواع البيوع وصورِه، ويستغرقُها مهما ضَؤُلَ حجمُ ﴿ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ أو عظُمَ، وفي ذلك دلالةٌ على أهمّيَّة صلاةِ الجمعة في ميزانِ الحقِّ سبحانه، وقوَّةِ أثرِها في نجاحِ حياة العبادِ وصلاحِ أحوالِ البلاد.

وفي الأمرِ ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ اكتفاءٌ بالنَّصِّ على الأمرِ بترك البيع عن الأمرِ بتركِ الشِّراء؛ إذ البيعُ يَقتضيه، لكنَّهُ أهمُّ، أمّا الشِّراءُ فصاحبُه

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 419.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 536.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 231.
(4) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 139.

على الرَّحبِ والسَّعةِ من الوقت، والمقصودُ: "اترُكوا البيعَ والشِّراء، وكلَّ ما يَشغَلُكم من عملٍ حتّى تَفرَّغوا للصَّلاة جَسَدًا وروحًا"(1).

وإذا كان المقصودُ في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ التَّفرُّغَ بالكلّيَّةِ لأداء الجمعة فإنَّ ﴿ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ "مَجازٌ عن ذلك؛ فيعمُّ البيع، والشِّراء، والإجارة، وغيرَها مِن المعاملات، أو هو دالٌّ على ما عَداهُ بدلالةِ النَّصّ"(2).

"وإنَّما خُصَّ البيعُ من بينِها لأنَّ يوم الجمعة يتكاثرُ فيه البيعُ والشِّراءُ عند الزَّوالِ، فقيل لهم: بادِروا تجارةَ الآخرة، واتركوا تجارة الدُّنيا، واسعَوا إلى ذكر اللّه الَّذي لا شيءَ أنفعُ منه وأربحُ، وذَروا البيعَ الَّذي نفعُهُ يسير. والبيعُ لم يَحرُمْ لِعينِهِ، بل لِما فيه من التَّشاغُلِ عن الصَّلاة"(3).

علَّةُ فصلِ قولِهِ: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ﴾؛ لِما بينَهُما من شبهِ كمالِ الاتِّصال، فكأنَّ سائلًا يسألُ: لِمَ أمَرَ اللّه بالسَّعي إلى ذكرِهِ وبتركِ البيع؟ فجاء الجوابُ: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾؛ تنبيهًا إلى خيريَّةِ السَّعي إلى ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، وتركِ ﴿ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ وغيرِهِ من المعاملات والشَّواغل.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإشارةِ للبعيدِ وخطابِ الجماعةِ في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾:

اسمُ الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ راجعٌ إلى المأمورِ به من الاستعدادِ للجمعة، والعمل لذلك، وتركِ شُؤونِ الدُّنيا كلِّها لأجْلِها، والمعنى: "سَعْيُكم إذا نوديَ للصَّلاةِ من يوم الجمعةِ إلى ذكرِ اللّهِ، وتَرْكُ البيعِ خيرٌ لكم مِن البيعِ والشِّراءِ في ذلك الوقتِ"(4).

في الاهتمامِ بالجمعةِ، والتَّفرُّغِ لها، والتَّبكيرِ إليها أثرٌ طيِّبٌ في حياةِ الفَرْدِ والجَماعة

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 952.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 297.
(3) خان، محمد صديق، فتح البيان في مقاصد القرآن: 14/ 139.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 643.

وفي التَّعبيرِ بإشارةِ البُعدِ في جملةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ إشادةٌ بالسَّعيِ إلى ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وتركِ ﴿ٱلۡبَيۡعَۚ﴾؛ وتنبيهٌ إلى عظيمِ أثرِهما في ضبطِ حياة الأمَّة، وتحقيقِ السَّعادة لأفرادها الذّاكرين اللّهَ تعالى، التّاركين كلَّ مَهامِّهم الدُّنيويَّةِ ابتغاءَ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ ﷻ.

وفي خطابِ الجماعةِ في ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ خطابٌ لجُموعِ الأمَّة؛ اتِّساقًا مع طبيعةِ صلاة الجمعة، والاجتماعِ لها، واتِّخاذِها عيدًا لهم جميعًا.

دلالةُ الخيريَّةِ، ونكتةُ حذفِ المفضَّلِ عليه:

التَّفرُّغُ لشهودِ الجمعةِ وخُطبتِها خيرٌ للمؤمنِ من الدُّنيا جميعًا

لفظُ ﴿خَيۡرٞ﴾ "اسمُ تفضيلٍ، أصلُهُ: أَخْيَرُ، حُذِفَتْ همزتُهُ لكثرةِ الاستعمال. والمفضَّلُ عليه محذوفٌ؛ لدلالةِ الكلام عليه، والمفضَّلُ: الصَّلاةُ؛ أي: ثوابُها، والمفضَّلُ عليه: مَنافِعُ البيعِ للبائعِ والمشتري"[1]، والمعنى: اهتمامُكم بالصَّلاةِ وتبكيرُكُم إليها وتفرُّغُكم لها خيرٌ لكم من الانشغالِ بالبيعِ والشِّراء، ومن أمورِ الدُّنيا كلِّها؛ "لِما في الامتثال من الأجرِ والجزاء، وما في عدمه من عدم ذلك، إذا لم يكن موجِبًا للعقوبة"[2] أيضًا، و"لأنَّ الصَّلاةَ تفوتُ بخروجِ وقتها، والبيعُ لا يفوتُ"[3].

وحُذِفَ المُفضَّلُ عليه للعِلمِ به بطريقِ مفهومِ المخالفة؛ إذ التَّقديرُ: اسْعَوا وذَروا البيعَ؛ ذلكم خيرٌ لكم من عدمِ السَّعيِ وعدمِ تركِ البيع.

وإلى ذلك ففي حذفِهِ دلالةٌ على إطلاقِ الخيريَّةِ عن أن تتعلَّقَ بمفضولٍ أو مفضَّلٍ عليه معيَّنٍ، أو حصرِها في عدمِ السَّعي وعدمِ تركِ البيعِ؛ ليصيرَ المعنى: ذلكم خيرٌ لكم من الانشغالِ بأمورِ الدُّنيا جميعًا، واللّه تعالى أعلم.

فـ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ خيرٌ من كلِّ ما سواه ممّا يعلمُه النّاس وممّا لا يعلمونه، ولا شيءَ يوازيه أو يُدانيه في الخيريَّة، فضلًا عن أن يَفوقَه فيها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 227.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 271.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 10.

الجُمُعة خِصّيصةٌ اختصَّ اللهُ تعالى بها أُمَّةَ الإسلام

معنى اللّامِ في القيدِ ﴿لَّكُمْ﴾:

(اللّامُ) في قيدِ الخيرِ ﴿لَّكُمْ﴾ لامُ الاختصاص؛ أي: التَّوجيهُ إلى الاهتمام بالجمعةِ، والتَّبكيرِ إليها، والتَّفرُّغ لها من مَشاغلِ الدُّنيا خيرٌ يَختصُّكم اللّه تعالى به دون سواكم من الأمم، وذلك يتَّسِقُ مع الحديث السّابقِ ذكرُه، حيث يقولُ الرَّسولُ ﷺ: «فَهَدانا اللّهُ، فالنّاسُ لَنا فيهِ تَبَعٌ: اليَهودُ غَدًا والنَّصارَى بَعْدَ غَدٍ»[1].

وقد جاء التَّحذيرُ من التَّهاوُنِ بالجمعة شديدًا، حيث قال النَّبيُّ ﷺ: "مَنْ تَرَكَ الجُمُعَةَ ثَلاثَ مَرّاتٍ تَهاوُنًا بِها طُبِعَ على قَلْبِهِ"[2].

الذِّكرُ الحكيمُ يُلهِبُ المؤمنين نحوَ الفضائل

نكتةُ الاشتراطِ بـ﴿إِن﴾ دون (إذا) في جملةِ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

من دقيقِ النَّظمِ الكريم هنا تقييدُ كونِ المخاطَبين من أمَّة الرَّسول ﷺ عالمِينَ بـ﴿إِن﴾، بينَما قَيَّدَ النِّداءَ للصَّلاةِ من يوم الجمعة في أوَّل الآية الكريمة بـ﴿إِذَا﴾؛ لِما في ذلك من لطيفِ الإشاراتِ الَّتي سَبَقَتْ في تحليلِ التَّقييدِ بـ﴿إِذَا﴾ هناك.

أمّا التَّقييدُ بـ﴿إِن﴾ هنا ففيه إيحاءٌ بالعتاب الرَّقيق المغلَّف باللُّطفِ الرَّحمانيِّ لَمَن يُهمِلُ السَّعيَ إلى ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ تعالى، ويُؤْثِرُ مصالحَهُ الدُّنيويَّةَ على الاهتمام لأمر الجمعة؛ لِما في ﴿إِن﴾ من التَّشكيكِ والاستبعاد لاتِّصافهم بالعلم في جملة ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، والمعنى على ذلك: أنَّكم مشكوكٌ في علمِكم، ومُستبعَدٌ وعْيُكم بقَدْرِ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك إلهابٌ لهم، واستثارةٌ لِهمَّتِهم نحوَ تنفيذِ الأمرَين: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالكونِ الماضي في جملةِ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

التَّعبيرُ بالكونِ الماضي في جملةِ الشَّرطِ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

---

(1) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة: 1/ 299، برقم: (836).

(2) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب فيمن ترك الجمعة من غير عذر: 1/ 357، برقم: (1125).

يُمكِنُ للعبدِ تَداركُ ما فاتَ مِن تقصيرٍ في العبادةِ فيما يَستقبِلُ من عُمُرِه

يُسهِمُ في إلهابِ المسلمين نحوَ الامتثال لأمر اللّه تعالى بالعناية بالجمعة؛ إذ عُلِّقَ الشَّكُّ في ﴿إِن﴾ بعلمِهم بالكونِ الماضي: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يُعلَّقْ بالعلم الماضي، فلم يقل: إنْ عَلِمْتُم، وذلك يفتحُ لهم بابَ النُّزوعِ نحوَ العلم التَّطبيقيِّ الفعليِّ والتَّنفيذِ الواقعيِّ في الحالِ والاستقبال.

فإنْ كانَ قد فاتَهمُ العلمُ التَّنفيذيُّ للجمعةِ في الماضي البعيد ﴿كُنتُمْ﴾ فلا زالَتِ الظُّروفُ سانحةً لتدارُكِ الأمرِ فيما يأتي.

وعليه يكونُ المعنى: إنْ كنتُم تعلمون ذلك فيما مضى فضيلةَ الجُمُعةِ، وسَعَيتُم إلى ذكر اللّه، وتركتُمُ المُلْهياتِ حينَ النِّداءِ إليها فقد ظَفِرتُم بالخير العميم، وإن لم تكونوا تعلمون ذلك فأمامَكم فرصةٌ لتَغنَموا ذلك الخيرَ العظيمَ في قادماتِ أيّام جُمُعتِكم، واللّه تعالى أعلم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالعِلمِ في جملةِ ﴿تَعْلَمُونَ﴾:

صاحبُ العِلْمِ المُعطَّلِ مذمومٌ مأزور، كاليهود الَّذين حُمِّلوا التَّوراةَ ثمَّ لم يَحمِلوها

العِلمُ هو معرفةُ الشَّيءِ على ما هو به[1]؛ والمقصودُ به هنا أثرُهُ في العالِمِ وعملُهُ به، أمّا العلمُ المعطَّلُ فلا يُمدَحُ صاحبُه، بل هو عالمٌ مأزورٌ مذمومٌ بعلمِهِ كاليهود الَّذين حُمِّلوا التَّوراةَ ثمَّ لم يحملوها، ولذلك كان مِن دعائه ﷺ: «اللهُمَّ إنّي أعوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ»[2].

فضيلةُ الاهتمامِ بالجمعةِ ممّا لا يَعلَمُ قَدْرَهُ إلّا أهلُ العِلمِ من المؤمنين

ففي قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ دلالةٌ على أنَّ السَّعيَ إلى الجمعة، وتركَ الانشغالِ بأمورِ الدُّنيا أثَرٌ من آثارِ العلم النّافع، وأنَّه "ممّا لا يعلمُهُ ويعلمُ قَدْرَهُ إلّا أهلُ العلم من المؤمنين، المُستيقِنين من واسع الفضل، وعظيمِ الإحسانِ عند اللّه تعالى"[3].

(1) التوحيدي، البصائر والذخائر: 2/ 209.
(2) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل: 8/ 82، برقم: (73).
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 952.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، وإشارةُ صَوغِهِ مُضارِعًا:

في الحذفِ إثارةٌ للعقولِ؛ لتَجتهِدَ في تقديرِ المحذوفِ؛ فتَسعَدَ بلَذَّةِ تحصيلِه

حَذْفُ مفعولِ العلمِ في جملةِ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ يَحتمِلُ قصدَ أنْ يكونَ كاللّازم غيرِ المتعدّي إلى مفعول، ويكونُ المعنى: "إن كنتم من أهلِ العلم فإنَّه لا يخفى عليكم أنَّ ذلكم خيرٌ لكم"[1].

كما يَحتمِلُ كونَهُ مُتعدّيًا إلى مفعولٍ، فيكونُ في حذفِ المفعول إثارةٌ للعقولِ؛ لتذهبَ في تقديرِ المفعولِ كلَّ مذهبٍ، مِن مثلِ: "إنْ كنتم تعلمون مصالحَ أنفسِكم ومضارَّها"[2]، أو: إنْ كنتم تعلمون أنَّ في السَّعيِ للجمعة نجاتَكم ممّا سقطَ فيه اليهودُ، أو من غضبِهِ ﷻ، أو فوزَكُم برضوان اللّه تعالى، أو بالنَّعيم المقيم في الآخرة، أو غيرِ ذلك ممّا لا يُحصى من المفاعيلِ المسموحة كلِّها.

الانتفاعُ الحقيقيُّ بالعلمِ بتجديدِ الانتفاعِ به والعملِ بمُقتضاه

وفي صَوغِ فِعلِ العلمِ في القيد ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ مضارِعًا إشارةٌ إلى تجديدِ الانتفاعِ بثمرةِ العِلم، والمعنى: إنْ كنتُم تُجدِّدون العَمَل بِعلمكم، وتنتفعون به فامتثِلوا للأمرِ بالسَّعيِ إلى الجمعةِ حينَ يحينُ وقتُها ويُؤَذَّن لها.

نكتةُ حذفِ جوابِ الشَّرط ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾:

النَّظمُ الكريمُ يَقتَصِدُ في تَوجيهِ الأوامرِ للمسلمين ما أمكَن

وحُذِفَ جوابُ الشَّرطِ من جملةِ ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ لدلالةِ السّياقِ عليه؛ إذ إنَّ الأمرين: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾ يوحيان به، فيكونُ التَّقدير: إن كنتم تعلمون أنَّ ذلك خيرٌ لكم فامتثلوه.

وفي حذفِ الجوابِ (فامتثلوه) تخفيفٌ على المؤمنين بعدمِ الإثقال بتكرارِ الأوامر، وذلك ممّا التمسَهُ الصَّحابةُ من تعهُّدِ رسولِ اللّه ﷺ إيّاهم بالموعظة، كما يقولُ عبدُ اللّه بن مسعود: "كانَ النَّبيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنا بها؛ مَخافةَ السَّآمةِ علينا"[3]، واللّه تعالى أعلم.

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 271.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 643.

(3) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العِلم، باب من جعل لأهل العلم أيامًا معلومة: 1/ 25، برقم: (70).

معنى (الفاءِ) في قولِه: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾:

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ تفصيليَّةٌ تعقيبيَّةٌ، تُرَتِّبُ الإذنَ بالانتشارِ في الأرضِ على قضاءِ الصَّلاةِ والفراغِ منها، وتُفصِحُ بأنَّ صلاةَ الجمعة لا تَستغرِقُ كبيرَ وقتٍ، وأنَّ اليومَ يُبارَكُ بها، وأنَّ وقتَ الوجوبِ يبدأُ مِن النِّداءِ ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ وإن كان التَّبكيرُ إليها مطلوبًا.

صلاةُ الجمعةِ لا تَستغرِقُ كبيرَ وقتٍ، واليومُ مُبارَكٌ بها

نكتةُ الاشتراطِ بِ(إذا) دون (إنْ) في قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾:

وفي التَّقييدِ بـ(إذا) في جملةِ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ﴾ يَقطَعُ بأنَّها ستُقْضَى وتَنتهي، وعندئذٍ فليَعُدِ النّاسُ إلى أمورِ الحياة من بيعٍ وشراء، ولا إشكالَ في ذلك، أمّا وقتُ الصَّلاةِ فمحرَّمٌ فيه ذلك. وهكذا تتناغمُ (إذا) الموجِبةُ في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ معَها في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ في تحديدِ الأمورِ الشَّرعيَّة بدقَّةٍ وقوَّة.

عناصرُ التَّراكيبِ القرآنيَّةِ تُحدِّدُ الأمورَ الشَّرعيَّةَ بدقَّةٍ وقوَّة

دلالةُ التَّعبيرِ بالقضاء، ولطيفةُ صَوغِهِ ماضيًا في جملةِ ﴿قُضِيَتِ﴾:

معنى ﴿قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾: "صَلَّيْتُمُ الفريضةَ، وفَرَغتُم من الصَّلاة"[1]، وفي إيثارِ التَّعبيرِ بمُفردةِ (القضاء) في جملةِ ﴿قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ دلالةٌ على أنَّ صلاةَ الجمعة دَيْنٌ على العبدِ واجبُ القضاء، وأنَّه حقٌّ للّه تعالى لا تهاوُنَ فيه؛ وقد سبقَ آنفًا قولُ النَّبيِّ ﷺ: "مَنْ تَرَكَ الجُمُعَةَ ثَلاثَ مَرّاتٍ تَهاوُنًا بِها طُبِعَ على قَلْبِه"[2].

فَفي التَّعبيرِ بمُفردةِ (القضاء) تنبيهٌ شديدٌ إلى وجوبِ قَطْعِ أمورِ الدُّنيا حينَ النِّداءِ، والتَّوجُّهِ بالكلِّيَّةِ إلى مساجدِ الجَماعاتِ لشهودِ الجُمعات.

صلاةُ الجمعةِ حقٌّ للهِ تعالى، ودَيْنٌ على العبدِ واجِبُ القضاء

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 300.

(2) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب فيمن ترك الجمعة من غير عذر: 1/ 357، برقم: (1125).

معنى (أل) في قوله: ﴿قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾:

لصلاةِ الجمعة خُصوصيَّةٌ في الإسلام

(أل) في ﴿ٱلصَّلَوٰةُ﴾ من جملةِ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ﴾ تعريفيَّةٌ للعهدِ الذِّكريِّ؛ أي: "صلاةُ الجمعةِ يومَ الجمعةِ"[1]؛ حيث تقدَّمَ ذِكرُها في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ﴾، فدلَّ على أنَّ ﴿ٱلصَّلَوٰةُ﴾ هنا لها.

ومن لطائفِ اختصاصِها بالذِّكر بهذه الإباحة - وهي لجميع الصَّلواتِ - التَّنويهُ بشأنها، والإشارةُ إلى أنَّها مع ذلك لا تُكلِّفُ العبدَ وقتًا طويلًا، ثمَّ للعبدِ أن ينصرفَ بعدَها كما كان قبلَها؛ ليُمارِسَ من مُباحاتِ الأمورِ الدُّنيويَّة ما يشاء.

معنى (الفاءِ) في قولِه: ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾:

كما يأمُرُ الإسلامُ بالاهتمامِ بالصَّلاةِ يأمُرُ بالسَّعيِ على الأهلِ وابتغاءِ الفضل

(الفاءُ) في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ رابطَةٌ جوابَ الشَّرط (انتشروا) بالشَّرطِ (إذا قُضيت)، وهي تُلمِحُ إلى معنى التَّعقيب، وتوحي بأنَّ الضَّرب في الأرض لابتغاءِ فضلِ اللّه تعالى مُهِمٌّ أيضًا، وأنَّ الدّينَ الحنيفَ يوازِنُ بينَ مَطالبِ الرّوح ومَطالبِ الجسد، فكما يأمرُ بالصَّلاة والاهتمام بها وإعطائِها حقَّها كذلك يأمرُ بالضَّرب في الأرضِ والسَّعي على الأهل، وابتغاءِ الفضل، ولا رهبانيَّةَ في الإسلام.

دلالةُ التَّعبيرِ بالانتشارِ في جملةِ ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾:

الطِّباقُ القرآنيُّ يَدعَمُ وسَطيَّةَ الإسلام

في التَّعبيرِ بالانتشارِ في جملة ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ تحقيقٌ لضدّيَّةِ (اجتمِعوا) المفهومِ من الدَّعوةِ إلى ﴿ٱلۡجُمُعَةِ﴾، وفي ذلك الطِّباقِ دعمٌ وتأكيدٌ لموازنةِ الدّين الحنيف بينَ مصالح العبادِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّة، وفي الدُّعاءِ القرآنيِّ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة: 201] ما يُقرِّرُ ذلك.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 643.

ففي الأمرِ ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ دعوةٌ إلى العملِ وإلى السَّعي إليه، كما سعى المؤمنون إلى الصَّلاة، فالسَّعيُ إلى العمل أداءٌ لحقِّ النَّفس، وحقِّ الأهلِ والولد، كما أنَّ السَّعيَ إلى الصَّلاةِ أداءٌ لحقِّ اللّه ﷻ، وكِلا الحقَّينِ واجبُ الأداء، فمَن قصَّرَ في أحدِهما حوسِبَ عليه حسابَ المقصِّرين[1].

و"عن عراك بن مالك: أنَّه كان إذا صلّى الجمعةَ انصرَفَ فوقَفَ على باب المسجد، فقال: اللهمَّ إنّي أَجَبْتُ دعوتَك، وصلَّيتُ فرضيتَك، وانتشرتُ كما أمرتَني، فارزُقْني من فضلِكَ وأنت خيرُ الرّازقين"[2].

غرضُ الأمرِ في جملةِ ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾، ولطيفةُ إسنادِهِ إلى ضميرِ الجماعة:

استصحابُ روحِ الجماعةِ في أعمالِ الدُّنيا كاستصحابِها في أعمالِ الآخرة مبدأٌ إسلاميّ

والأمرُ في جملةِ ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ "للإطلاقِ بعدَ الحظر"[3]، وبيانٌ للإباحة، وعدمِ وجوبِ البقاء في المسجد؛ فلا يُفهَمُ منه حرمةُ البقاء في المسجد بعدَ الصَّلاة، فمَن شاء انتشَرَ للبيع والشِّراء وأعمالِ الحياة، ومن شاء مكَثَ فيه يَذكُرُ اللّه تعالى، "قال ابن عبّاسٍ: إن شئتَ فاخرُجْ، وإن شئتَ فصَلِّ إلى العصر، وإن شئتَ فاقعُدْ"[4].

وفي إسنادِ فعلِ الانتشار إلى ضميرِ جماعة المؤمنين ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ إيحاءٌ بدعوةِ القرآن الكريم إلى استصحابِ روحِ الجماعة في أعمالِ الدُّنيا، كما دعا إليها في أعمال الآخرة ﴿فَٱسْعَوْاْ﴾، ﴿وَذَرُواْ﴾، فالرَّسولُ ﷺ يقول: «إنَّ المُؤْمِنَ لِلمُؤْمِنِ كالبُنْيانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»[5].

معنى ﴿فِى﴾ في القيدِ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

القرآنُ الكريمُ يوَجِّهُ المسلمين إلى استخراجِ خيراتِ الأرض

﴿فِى﴾ من القيدِ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حرفُ جرٍّ معناه الظَّرفيَّة، وفي تقييدِ الانتشارِ بحرف الظَّرفيَّةِ ﴿فِى﴾ تنبيهٌ إلى ما ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 952.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 10.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 250.
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 300.
(5) البخاري، صحيح البخاري، باب المساجد، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره: 1/ 182، برقم: (467).

من مخزونِ خيراتِ اللّه تعالى، من معادنَ نفيسةٍ، وأسبابِ الإنباتِ الغنيَّة، ففيه "دعوةٌ إلى أنْ يملأ المسلمون وجوهَ الأرضِ سعيًا وعملًا، وأن يأخذوا بكلِّ ما يُمكِّنُ لهم منها، ويُقيمُ لهم فيها المُقامَ الكريم، وألّا يَقصُروا جهدَهم على جانبٍ منها، أو في ميدانٍ من ميادينها، بل ينبغي أن يكونَ لهم في كلِّ ميدانٍ مجالٌ، وفي كلِّ موقعٍ عملٌ"(1).

كما أنَّ تقييدَ الانتشارِ بحرف الظَّرفيَّةِ ﴿فِى﴾ يُضَمِّنُهُ معنى الضَّرْبِ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾، والسَّعي في مناكِبِها بحثًا عن الأرزاق، وابتغاءً لفضل اللّه تعالى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: 15].

في الأرضِ خيراتٌ وبركاتٌ، مَن يَستَخرِجُها فهو أولى بها

معنى (أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: الأرضِ الَّتي عَهِدتُموها، وتعيشون عليها، وتنعُمون بخيرات اللّه تعالى فيها، وتتقلَّبون في مناكبها، أو ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ الَّتي قدِمتُم من أرجائها للصَّلاة، فمنها المصنعُ، ومنها المزرعةُ، ومنها البيتُ، إلى غير ذلك.

و(أل) تَلفِتُ إلى ما في أقطار ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ جميعًا من كنوزٍ وخيراتٍ وبركاتٍ تنتظرُ مَن يَستخرجُها، ومَن يَستخرِجْها فهو أولى بها وأحقُّ، وفي الحديث الشَّريف شاهدٌ لهذا المعنى، يقولُ ﷺ: «مَنْ أحْيا مَواتًا مِنَ الأرْضِ في غَيْرِ حَقِّ مُسْلِمٍ فَهوَ لَهُ، ولَيْسَ لِعِرْقٍ ظالِمٍ حَقٌّ»(2).

معنى (الواوِ) في جملةِ ﴿وَٱبْتَغُواْ﴾:

(الواوُ) في جملةِ ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ عاطفةٌ ما بعدَها على جملةِ ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾، وهذه (الواوُ) قد يُلحَظُ فيها معنى التَّعليل؛ أي: انتشروا في الأرض لِتبتغوا من فضل اللّه؛ لذلك كان الأمرُ بالانتشارِ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 952.
(2) الطبراني، المعجم الكبير، باب من اسمه عمر، عمرو بن عوف بن ملحة المزني، برقم: (17/ 13).

على الإباحةِ، فمِن النّاس مَن لا ينتشرُ لابتغاءِ الفضل؛ لأنَّه يَبتَغيهِ أمامَ المسجد بيعًا وشراءً، ولا حرجَ ما دام قد انصرفَ من الصَّلاة وخرج من المسجد.

غرضُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾:

الأمرُ بعدَ الحظرِ يدلُّ على الإباحة

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ لبيانِ الإباحة، والأصلُ المُجْمَعُ عليه عندهم: أنَّ كلَّ أمرٍ خرَجَ على أثرِ الحَظْرِ فهو في حُكم الإباحة، والمعنى: فانتشِروا في الأرض إنْ أردتُم أو إنْ شئتُم؛ فقد أحْلَلْتُهُ لكم[1].

الإسلامُ يُرَغِّبُ في الجماعةِ ويُحَذِّرُ من الانفراد، ولو في صلاةِ الفردِ مُنفردًا خلفَ الصُّفوف

وفي إسنادِ فعلِ الابتغاءِ إلى ضميرِ جماعة الذُّكورِ العقلاءِ في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ إيحاءٌ بأنَّ رزقَ اللّه تعالى وفضلَهُ في الأعمال الجماعيَّةِ وفيرٌ عميمٌ؛ ففيه ترغيبٌ في الابتغاءِ الجماعيِّ، وذلك يتَّسِقُ مع مبدأ الإسلام في التَّرغيبِ في التَّعاضُد، والتَّحذيرِ من الانفراد ولو كان الفردُ مُصلّيًا مُنفرِدًا خلفَ الصُّفوف في الجماعة.

معنى ﴿مِن﴾ في القيدِ ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾:

قليلُ فضلِ الله كثيرٌ، وبركاتُهُ وفيرةٌ لمَن يؤمنُ بالله تعالى ويَذَرُ البيعَ إلى صلاةِ الجُمُعة

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ تبعيضيَّةٌ، وهي مزيدةٌ في مفعولِ الابتغاء؛ إذ الأصلُ: وابتغوا فضلَ اللّه؛ لأنَّ فعلَ الابتغاء يتعدّى بنفسه وبحرف الجرِّ، غيرَ أنَّ حرف الجرِّ التَّبعيضيَّ هنا في قوله: ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ يَغرِسُ الطُّمَأنينةَ في النُّفوس فيما يتعلَّقُ بقضيَّةِ الرِّزق؛ إذ يُقرِّرُ أنَّ قليلَ فضلِ اللّه كثيرٌ، وأنَّ بركاتِهِ وفيرةٌ لَمَن يؤمنُ باللّه تعالى ويَذَرُ البيعَ إلى صلاةِ الجمعة.

على أنَّه قد يُلحَظُ في ﴿مِن﴾ كذلك معنى الابتداء؛ أي: ابتغوا الرِّزقَ مُبتدَأً من فضل اللّه، والمعنى على ذلك: يَبدأُ فضلُ اللّه الدُّنيويُّ بعدَ انتهاءِ صلاةِ الجمعة.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 14.

الرِّزقُ مَحْضُ تفضُّلٍ منه ﷻ، وابتغاءُ العبدِ مجرَّدُ أخذٍ بالأسباب

دلالةُ التَّعبيرِ بالفضل، وإشارةُ الإضافةِ في ﴿فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾:

﴿فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ إحسانُهُ وعطاؤُه[1]، و﴿فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ هنا "اكتسابُ المالِ والرِّزق"[2]، و"رحمةُ اللّه، والتِّجارةُ، والكَسبُ، بدليلِ أنَّ المنعَ كان مِن البيع"[3].

و"عن ابن عبّاسٍ قال: لم يُؤمَروا بطلبِ شيءٍ مِن الدُّنيا، إنَّما هو عيادةُ المرضى، وحضورُ الجنائزِ، وزيارةُ أخٍ في اللّه. وعن الحسنِ وسعيد بن المسيّب: طلبُ العلم، وقيل: صلاةُ التَّطوُّع. وعن بعض السَّلف: أنَّه كان يَشغَلُ نفسَهُ بعدَ الجمعةِ بشيءٍ من أمورِ الدُّنيا نظرًا في هذه الآية"[4].

وفي التَّعبيرِ بـ﴿فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ دلالةٌ على كونِهِ محضَ تفضُّلٍ منه ﷻ، وأنَّ ابتغاءَ العبد مجرَّدُ أخْذٍ بالأسباب.

وفي إضافةِ ﴿فَضۡلِ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ إضفاءٌ لِمعاني التَّشريفِ والبركةِ على ذلك الـ﴿فَضۡلِ﴾؛ إذ إنَّ شرفَ المُضافِ من شَرف المضافِ إليه.

النَّهيُ مُقيَّدٌ بالبيعِ يومَ الجمعة، والإباحةُ مُطلقةٌ لفضلِ الله على الدَّوام

لطيفةُ النَّظمِ القرآنيِّ بينَ ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾، و﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾:

أطلَقَ النَّظمُ القرآنيُّ في مَعرِضِ الإذنِ فقال: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، وقيَّدَ في مَعرِضِ النَّهيِ فقال: ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾، وإن كان المرادُ منهما جميعًا البيعَ؛ لأنَّه يَقبُحُ أن يقالَ: وذَروا ابتغاءَ فضلِ اللّه؛ لأنَّ ابتغاءَ الفضل يتضمَّنُ البيعَ وغيره، فلا يستقيمُ أن يقالَ: وذَروا ابتغاءَ فضل اللّه، فقال هاهنا ﴿وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ﴾؛ ليَلحَقَهُ النَّهيُ خاصَّةً، وأمّا الإطلاقُ والإذن فإنَّه يستقيمُ في البيعِ وغيره، فقال: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، واللّهُ المستعان[5].

---

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1409.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 227.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 14.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 536.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 14.

معنى (الواوِ) في جملةِ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾:

اصطحابُ ذكرِ اللهِ تعالى في طلبِ الرِّزقِ يُعينُ العبدَ، ويُنجِحُ عملَهُ، ويُبارِكُ رزقَه

(الواوُ) في جملةِ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ عاطفةٌ على جملةِ ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وهي تقتضي الجمعَ؛ أي: اجمعوا بين الأمرينِ: الانتشارِ في الأرضِ لابتغاءِ فضل اللّه تعالى، والإكثارِ من ذكر اللّه تعالى، فلا يُلهِكم الانتشارُ عن الذِّكر، ففي (الواو) في جملةِ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ معنى المصاحبة؛ أي: انتشِروا مُصطحِبين ذكرَ اللّه مُكثرين منه، ففيه معونةٌ لكم، وفيه إنجاحُ أعمالِكم، ومباركةُ أرزاقِكم.

دلالةُ الذِّكرِ، وغرضُ الأمرِ به في جملةِ ﴿وَٱذۡكُرُواْ﴾:

ذِكرُ اللهِ يَحفَظُ من الانغماسِ في الدُّنيا الشّاغِلِ عن الصَّلوات

التَّعبيرُ بالذِّكر في جملة ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ يشملُ ذكرَ اللِّسان وذكر الجَنان، ويُحذِّرُ بطريقِ اللُّزوم من الغفلة؛ فإنَّ الشَّيطانَ يَلتَقِمُ القلبَ الغافل، فعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ قالَ: "الشَّيْطانُ جاثِمٌ على قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإذا سَها وغَفَلَ وسْوَسَ، وإذا ذَكَرَ اللّهَ خَنَسَ"[(1)]، ومن ذِكر اللّه تعالى شكرُهُ؛ أي: و"اشكروا على ما وفَّقكم لأداءِ فرضِه"[(2)].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ "احتراسٌ مِن الانصِبابِ في أشغالِ الدُّنيا انصِبابًا يُنسي ذِكرَ اللّه، أو يَشغَلُ عن الصَّلوات؛ فإنَّ الفَلاح في الإقبالِ على مرضاةِ اللّه تعالى"[(3)].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكثرةِ، وموقعُ ﴿كَثِيرٗا﴾ من التَّركيب:

الإكثارُ من الذِّكرِ يَرفَعُ مناعةَ إيمانِ الذّاكرِ؛ فلا يَقدِرُ الشَّيطانُ على إغوائِه

لمّا كان الاشتغالُ في التِّجارة مظنَّةَ الغفلة عن ذكر اللّه أمَرَ اللّه تعالى بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾؛ أي: في حالِ قيامِكم وقعودِكم وعلى جُنوبكم[(4)].

وكلمةُ ﴿كَثِيرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ منصوبةٌ

---

(1) ابن أبي شيبة، مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الزهد، كَلامُ ابْنِ عَبّاسٍ ﵄: 7/ 135، برقم: (34774).

(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 482.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 227.

(4) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 863.

على المصدريَّةِ أو الظَّرفيَّةِ، صفةٌ لمحذوفٍ، والتَّقديرُ: "ذكرًا كثيرًا، أو زمانًا كثيرًا، ولا تَخُصّوا ذِكرَهُ تعالى بالصَّلاة"[1]؛ لأنَّ "الإكثارَ من الذِّكر يَرفَعُ مناعةَ الإيمان لدى العبد، فلا يَقدِرُ الشَّيطانُ على إغوائه، ولا يَغلِبُه على صلواتِهِ فيُلهيَهُ عنها، أمّا الغفلةُ فتُضعِفُ الإنسانَ، وتُقوّي عليه الشَّيطانَ. وفي الحديث الشَّريف يقولُ ﷺ: «وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُروا اللّهَ؛ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ العَدُوُّ في أَثَرِهِ سِراعًا، حَتَّى إذا أَتَى على حِصْنٍ حَصينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ العَبْدُ لا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطانِ إِلّا بِذِكْرِ اللّهِ»[2].

علّةُ فصلِ قولِهِ: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ عمّا قبلَهُ:

كثرةُ ذكرِ اللهِ سببُ الفلاحِ

وفُصِلَتْ جملةُ ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ عن جملةِ ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ لشبهِ كمالِ الاتِّصالِ بينَ الجملتين، وقوَّةِ ارتباطِ المتأخِّرة بالمتقدِّمة؛ إذ إنَّ كثرةَ ذكر اللّه تعالى سببٌ داعٍ إلى الفلاح؛ فجاء قولُهُ تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ علَّةً للأمرِ بالذِّكر، والمعنى: واذكروا اللّه كثيرًا؛ لأنَّه سببُ فلاحِكم، فبيانُ تعلُّقِ الفلاحِ بالذِّكر كافٍ ومُغنٍ عن العاطفِ اللَّفظيِّ، وجامعٌ معنويٌّ قويّ.

معنى (لعلَّ) في قولِهِ: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾:

فلاحُ العبدِ مَنوطٌ بذِكرِ اللهِ تعالى كثيرًا

(لعلَّ) في قوله سبحانه: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ حرفُ ترجٍّ فيه معنى التَّعليل؛ أي: اذكروا اللّه كثيرًا لتُفلِحوا، و"لتصيرَ مَلَكَةً لكم، تَظهَرُ آثارُها على أعمالكم وأخلاقكم، فتُفلِحوا بسعادةِ الدّارين"[3]، فالفلاحُ مَنوطٌ بذِكر اللّه تعالى كثيرًا، وجُعِلَتْ كثرةُ ذِكر اللّه تعالى سببًا في الفلاح والفوزِ المطلق؛ أي: الفوزِ بخيرَيِ الدُّنيا والآخرة.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 250.
(2) الترمذي، سنن الترمذي، أبواب الأمثال، بابُ ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة: 5/ 149، برقم: (2863).
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 231.

وتَحتمِلُ (لَعَلَّ) معنى القطعِ بوجوبِ الفلاح إذا فعل ذلك؛ فقد قالوا: إنَّ (لعلَّ) و(عسى) مِن اللّه تعالى واجبٌ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفلاح، ولطيفةُ صَوغِهِ مُضارِعًا في ﴿تُفۡلِحُونَ﴾:

الفلاحُ: الظَّفَرُ بالمطلوبِ[2]، فمعنى قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: كي تفوزوا بخيرِ الدّارين"[3]، "حيث يَجِدُ الذّاكر للّه ﷻ حارسًا يَحرُسُه مِن وساوسِ الشَّيطان، وأهواءِ النَّفس، فلا يتعثَّر، ولا يَنحرِفُ، ولا يَزِلُّ"[4].

الذّاكرُ يَجِدُ حارسًا يَحرُسُهُ مِن وساوِسِ الشَّيطانِ وأهْواءِ النَّفس، فلا يَتَعثَّر

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّعيِ والمشي:

السَّعيُ: المشيُ السَّريعُ، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمر، خيرًا كان كقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ [الصّافّات: 102]، أم شرًّا كقوله سبحانه: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في الأفعالِ المحمودة كالسَّعي بين الصَّفا والمروة وغير ذلك[5]. سَعَى: جدَّ ونشَطَ، قال تعالى: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ١٥﴾ [طه: 15]، وقال تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾. ومشى وذهب بسرعة؛ أسرَعَ الخُطا، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ﴾ [يس: 20]، وقال تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾[6]. والمشيُ: السَّيرُ على القدم سريعًا كان أو غيرَ سريع، ومنه قولُه ﷺ: «إذا أتيْتُمُ الصَّلاةَ فَأْتوها وأنْتُمْ تَمْشونَ، ولا تَأْتوها وأنْتُمْ تَسْعَوْنَ»[7].

السَّعيُ يَختَصُّ بالأمورِ الجادَّة، وغالبًا ما يُستعمَلُ في الخير، وليس المشيُ كذلك

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 14.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 346.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 250.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 953.
(5) الراغب، المفردات: (سعى).
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (سعي).
(7) المطرزي، المغرب في ترتيب المعرب: (مشى)، والحديث لم أجده بهذا اللفظ إلا في شرح مشكل الآثار، للإمام الطحاوي، بابُ بَيانِ مُشْكِلِ ما رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ نَهْيِهِ مُريدَ الصَّلاةِ عَنْ تَشْبيكِ أصابِعِهِ في طَريقِهِ إلَيْها: 14/ 196، برقم: (5571)، ورواه الإمام مسلم وغيره، ولفظُه: «إذا نُودِيَ بِالصَّلاةِ فَأْتُوها وَأَنْتُمْ تَمْشُونَ، وَعَلَيْكُمُ السَّكينَةُ، فما أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا وما فاتَكُمْ فأتموا»، أخرجه مسلم، صحيح مسلم، كِتاب المَساجِدِ وَمَواضِعِ الصَّلاةِ، باب اسْتِحْبابِ إتْيانِ الصَّلاةِ بِوَقارٍ وَسَكينَةٍ: 1/ 421، برقم: (153/ 602).

الانتشار والتَّفرُّق:

النَّشْرُ: الإحياء، نشَرَ اللّهُ الميتَ: أحياهُ، والنَّشْرُ: الرّيحُ الطيِّبةُ، قال سبحانه: ﴿وَٱلنَّـٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾ [المرسلات: 3]؛ أي: الرّياحُ تأتي بالمطر، والنَّشْرُ هو المِسْكُ، والنَّشْرُ: الحياةُ، ونَشْرُ الأرضِ: إنباتُها[1]. وانتشَرَ الشَّيءُ: انبسَطَ وامتدَّ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وانتشَرَ: راجَ وكثُرَ استعمالُه، وانتشَرَ الخبرُ: ذاعَ وشاع[2].

الانتشارُ: الانبساطُ والامتدادُ في الأرض، والتَّفرُّقُ: الانفصالُ والتَّشتُّت

والتَّفرُّقُ: والتَّفرُّقُ: هو الانفصالُ، يقال: فَرَقْتُ بَيْنَ الشَّيْءِ فَرْقًا مِنْ بابِ قَتَلَ: فَصَلْتُ أبعاضَهُ[3]، وفرَّقَ بينهما: باعَدَ وفصَلَ بينهما، وفرَّق القاضي بين الزَّوجين، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: 102]، وفرَّقَ الأشياءَ والنّاسَ: شتَّتهم وقسَّمهم، ضدُّ جمَّعهم، قال تعالى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94][4].

ومِن هنا يتَّضِحُ لنا عظيمُ نظمِ القرآن الجليل حينَ استعمَلَ لفظةَ الانتشار، وفيها ما فيها من معاني الحياةِ والطّيب، وذلك يتناسبُ مع ابتغاءِ الرِّزق؛ إذ الرِّزقُ حياةٌ للإنسان، وبالمالِ قِوامُ المجتمعات.

الفلاح والفوز والظَّفَر:

الفَلاحُ: نَيْلُ الخيرِ والنَّفعِ الباقي أثرُه، وسُمّيَ الشَّيءُ الباقي الأثرِ فَلْحًا، ويُقال للأكّار[5] فلّاح؛ لأنَّه يَشُقُّ الأرضَ شَقًّا باقيًا في الأرض، والأفلَحُ: المشقوقُ الشَّفةِ السُّفلى[6].

الفَلاحُ: نَيْلُ الخيرِ والنَّفعِ الباقي أثرُه، والفَوْزُ: الظَّفَرُ بالخيرِ مع السَّلامة، والظَّفَرُ: العُلوُّ على المنازِع

والفَوْزُ: الظَّفرُ بالخيرِ مع حصول السَّلامة.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نشر).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نشر).
(3) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (فرق).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (فرق).
(5) الأكّار: المزارع الَّذي يعمل في الأرض، أكَرَ الأرضَ؛ أي: حرثها، ينظر: الفيروزابادي، المصباح المنير: (أكر).
(6) مؤسسة النشر الإسلامي، معجم الفروق اللغوية الحاوي لكتابَي العسكري والجزائري، ص: 321.

والظَّفَرُ هو: العُلوُّ على المُناوِئ المنازِع، قال الله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [الفتح: 24]. وقد يُستعمَلُ في موضع الفوز، يقال: ظَفِرَ ببُغْيتِهِ، ولا يُستعمَلُ الفوزُ في موضع الظَّفَر؛ فلا يقال: فاز بعَدوِّهِ، كما يقال: ظَفِرَ بعَدوِّهِ بعينه، وأصلُهُ نَيْلُ الحظِّ من الخيرِ[1].

(1) الفروق اللغوية، ص: 340، بترتيب وزيادة.

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾ [الجمعة: 11]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الدِّينُ الحنيفُ حريصٌ على مُعالَجةِ أخطاءِ المسلمين

لمّا كان السّياقُ للحديثِ عن صلاة الجُمُعة، وبيانِ أحكامها، وبعضِ آدابها، وكانت الآيتان السّابقتان لإثباتِ فرْضيَّتها، والتَّرغيبِ في أدائها، وإيجابِ تقديمها على البيع والشِّراء وكافَّةِ المعاملات الدُّنيويَّة اقتَضَى السّياقُ استدعاءَ ما وقَع مِن المؤمنين مِن خطأٍ فيها، ومعالجتَهُ تحذيرًا من تَكرارِهِ فيما يُستقبَلُ من جُمَعٍ؛ فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تِجَٰرَةً﴾: تجَرَ يَتجُرُ، تجارةً وتَجْرًا، فهو تاجِرٌ؛ أي: مارَس البَيْعَ والشِّراء. وكذا اتَّجَرَ يَتَّجِرُ اتِّجارًا، فهو مُتَّجِرٌ، وتاجَرَ يُتاجِرُ مُتاجرةً، فهو مُتاجِرٌ، وتاجِرٌ مفردُ تِجارٍ وتُجّارٍ وتَجْرٍ، اسمُ فاعلٍ من تجَرَ: مَن يمارسُ الأعمالَ التّجاريّة بيعًا وشراءً على وجهِ الاحتراف.

والتِّجارة: مفردٌ، مصدرُ تجَرَ؛ أي: حِرفةُ التّاجِر، قال تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النّور: 37]، والتِّجارة: تحريكُ المالِ بالبيع والشِّراء لغرض الرِّبح، والتِّجارة: ما يُتَّجَرُ فيه[1]. والمقصودُ بـ﴿تِجَٰرَةً﴾: عيْرَ تجارةٍ، أو حُمولًا هي موضعٌ للتِّجارة[2].

2) ﴿لَهۡوًا﴾: اللهْوُ: ما لهَوْتَ بِهِ وشغَلَكَ مِن هوًى، وطَرَبٍ، ونَحْوِهما، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا﴾ قيل: اللهْوُ: الطَّبْلُ،

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (تجر).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 644، والبقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 69.

وقيل: اللهْوُ: كلُّ ما يُلْهَى بِه. لَها لَهْوًا والتَهى وألْهاه ذَلِك، والمَلاهي: آلات اللهْوِ، وقد تَلاهَى بذلك[1]. فمعنى ﴿لَهۡوًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾: ما يُتَلهَّى به عن الجمعة، مثل الطَّبْلِ المرافق لدخول عيْرِ التِّجارة، أو غيرِه.

3) ﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾: الفَضُّ: كَسْرُ الشَّيءِ، والتّفريقُ بينَ بعضِه وبعضِه، كفَضِّ خَتْم الكتاب، وعنه استعير: انْفَضَّ القومُ. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾، وقالَ تعالى: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159][2]. فمعنى ﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾: انصرفوا عنك، وخرجوا يطلُبونها.

4) ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: رزَق اللهُ تعالى الخلْقَ، يَرزُقُهم، والرِّزق بالكسر: اسمٌ للمرزوق، والجمع الأرزاق. مثلُ: حِملٍ وأحمالٍ، وارتزَقَ القومُ: أخذوا أرزاقهم، فهم مُرتزِقةٌ[3]، والرِّزْق المذكورُ في الكتابِ والآثار: ما مَنحَه اللهُ من حَلالٍ أو حرامٍ عند أهلِ السُّنَّة، وغيرُهم يَخُصُّه بالحَلالِ، واللُّغةُ لا تَقتَضيه[4]. فمعنى ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾: الواهبين المانحين الخيرَ، واللهُ تعالى أعلم.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الخيرُ كلُّ الخير للمؤمنين في تنفيذِ أوامرِ الشَّرعِ كما فَرَضَها اللهُ تعالى

وإذا عَلِمَ المسلمون وهم يشهدون الجمعةَ معك - يا رسولَ اللهِ - بِسُنوح فُرْصةٍ لاقتناصِ دُنيا مِن تجارةٍ أو غيرها تفرَّقَ بعضُهم عنك، وانصرفوا إليها، مُؤْثِرينَ إيّاها على إكمالِ الخطبة معك، وتركوك - يا رسولَ اللهِ - على المنبرِ قائمًا تخطُبُ.

فقل لهم - يا رسولَ اللهِ - : حضورُ الخطبةِ وأداءُ صلاة الجمعة

(1) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (لهو).
(2) الراغب، المفردات: (فض).
(3) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (الراء والزاي وما يثلثهما).
(4) البستي، عياض بن موسى، مشارق الأنوار على صحاح الآثار: 1/ 571.

فيهما ثوابٌ جزيل وخيرٌ كبير، أعظمُ ممّا تنالونه من انشغالِكم بتحصيل ملذّاتِ الدُّنيا وأرباحِ تجاراتها الزّائلة؛ لأنَّ اللّه تعالى هو الرزّاق، القادرُ على تعويضِكم وإعطائِكم من واسعِ برِّهِ وفَيْضِ عطائِهِ، ورزقُهُ خيرٌ عطاءً وأضمنُ جزاءً؛ فاطلبوا ما عندَهُ، وآثِروه على ما عندكم؛ فما عندكم يَنفَدُ، وما عندَ اللّه باق.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى (الواوِ) في جملةِ ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً﴾:

مقصودُ الالتفاتِ يَتَنافى معَ دلالةِ العطف

(الواوُ) في جملةِ ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً﴾ إمّا استئنافيَّةٌ[1] وهو الأظهرُ، حيث يلتفتُ النَّظمُ الكريم من خطاب المؤمنين في قوله تعالى قبلَها: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى خطابِ الرَّسول ﷺ هنا: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾.

أو (الواوُ) هنا حرفُ عطفٍ[2]، وحتّى يستقيمَ العطفُ قدَّرَ البقاعيُّ محذوفًا قبل هذه (الواو) فقال: "ولمّا كان التَّقدير ممّا يَنطِقُ به نصُّ الخِطاب: هذه أوامرُنا الشَّريفةُ، وتقديساتُنا العظيمة، وتفضُّلاتُنا الكريمة العميمة، فما لهم إذا نودي لها تَوانَى بعضُهم في الإقبال إليها، وكان قلبُه مُتوجِّهًا نحوَ البيع ونحوِه من الأمور الدُّنيويَّة، عاكفًا عليها، ساعيًا بجهده إليها؟! فخالَفَ قولَهُ: إنَّه أسلَمَ لِرَبِّ العالمين فعلُهُ هذا؛ عُطِفَ عليه قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً﴾"[3]، وهكذا يحتاجُ القولُ بأنَّ (الواو) عاطفةٌ إلى تقديرِ هذا المحذوفِ الطَّويل، الَّذي بلَغَ أربعةَ أسطُرٍ، ولا داعيَ له أصلًا؛ إذ ما لا يَحتاج إلى تقديرٍ أولى ممّا يَحتاج إلى تقدير.

وذكر ابنُ عاشور أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً﴾ "عُطِفَ على

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 250.
(2) الدعاس وآخرون، إعراب القرآن للدعاس: 3/ 343.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 68.

جملةِ ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ عطفَ التَّوبيخِ على تركِ المأمور به بعد ذكر الأمر(1).

على أنَّ مقصودَ الالتفات - وهو إهمالُ شأن المُلتفَتِ عنهم الَّذين انفضّوا إلى التِّجارة - يَتَنافى مع دلالةِ العطف بمواصلةِ الحديث معهم، والظّاهرُ أنَّه لا يُعطَفُ خطابُ مخاطَبٍ - هو الرَّسولُ ﷺ في جملةِ ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ - على خطابِ مخاطَبٍ آخرَ هم المؤمنون في الآيتين السّابقتين، وهذا ما يُرجِّحُ استئنافيَّةَ (الواو) هنا، واللّه تعالى أعلم.

نكتةُ تقييدِ رُؤيتِهم تجارةً بـ(إذا):

ذَكَرَ في الجنى الدّاني لـ(إذا) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ توجيهًا يَتَّسِقُ مع مُضيِّ الواقعة؛ واقعةِ الانفضاضِ يومَ الجمعة ورسولُ اللّه ﷺ يخطُبُ، قال المراديُّ: "(إذا) في هذا ونحوه بمعنى إذ"(2)؛ أي: وإذ رَأَوا تجارةً؛ فتكونُ (إذا) للظَّرف الماضي مطابَقَةً للواقع. قال ابن عاشور: "و(إذا) ظرفٌ للزَّمان الماضي، مجرَّدٌ عن معنى الشَّرط؛ لأنَّ هذا الانفضاضَ مضَى، وليس المرادُ أنَّهم سيعودون إليه بعدما نزَلَ هذا التَّوبيخُ وما قبلَهُ من الأمرِ والتَّحريضِ"(3).

من رحمةِ الله تعالى بالمسلمين أنَّه لم يُعاقِبْهم بانفضاضِهم عن رسول الله ﷺ وهو يَخطُب

ولعلَّ في (إذا) في جملةِ ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً﴾ دلالةً على القطعِ بقَسْوَةِ الظُّروفِ الَّتي حمَلَتِ المسلمين على الانفضاضِ، فلم يُعاقَبوا، بل ليموا، وعوتِبوا فقط؛ رحمةً من اللّه تعالى بأمَّة حبيبِه ﷺ.

دلالةُ الرُّؤيةِ في ﴿رَأَوْاْ تِجَٰرَةً﴾:

الرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ رؤيةٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 227.

(2) المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، ص: 371.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 229.

للرُّؤيةِ من قوَّةِ التَّأثيرِ ما ليس للسَّماعِ بالشَّيءِ أو العِلْمِ به

عِلميَّةٌ سماعيَّةٌ؛ لأنَّ "التِّجارة واللّهو لا يُرَيان في الحقيقة، وإنما يُرَى اللّاهي والتّاجرُ، ولكنَّه ذكَرَ فيه الرُّؤيةَ؛ لقُربِ اللّهوِ من اللّاهي والتِّجارةِ من التّاجر"(1).

كذلك في إيثارِ التَّعبيرِ بفعل الرُّؤيةِ على التَّعبيرِ بفعلِ العِلم أو السَّماع تنبيهٌ إلى قوَّةِ تأثيرِ الرُّؤية، وقد قال رسول اللّه ﷺ: «لَيْسَ الخَبَرُ كالمُعايَنَةِ»(2)، وكأنَّ شدَّةَ الفاقة ومعاناةَ الجوع الَّذي أصاب القومَ قد رفع من تأثيرِ السَّماع والعلم بقُدوم العيرِ بالتِّجارة إلى مستوى تأثيرِ الرُّؤية لو كانوا رَأوها؛ كنايةً عن قسوةِ الحال؛ ليَتَقرَّرَ من لَوْمِهم مع تلك الحالةِ الشَّديدةِ وجوبُ تقديرِ الجمعة وعدمُ التَّهاون في أدائها بِشِقَّيْها: الخطبةِ والصَّلاةِ، واللّه تعالى أعلم.

العُصاةُ جَديرون بالحِرْمانِ من عِزِّ الحُضور

دلالةُ الالتفاتِ في جملةِ ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً﴾:

التفَتَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى هنا: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ إلى خطابِ الرَّسول ﷺ بعدَ خطابِ المؤمنين فيما سبَقَ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ "إيذانًا بأنَّهم أحرياءُ أن يُصرَفَ الخِطابُ عنهم؛ فحُرِموا من عزِّ الحضور، وأُخبِرَ عنهم بحالِ الغائبين، وفيه تعريضٌ بالتَّوبيخ. ومقتضى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: وإذا رأيتُم تجارة أو لهوًا فلا تنفضّوا إليها، ومن مُقتضياتِ تخريجِ الكلام على خلافِ مقتضَى الظّاهر هنا أن يكون هذا التَّوبيخُ غيرَ شاملٍ لجميع المؤمنين؛ فإنَّ نفرًا منهم بَقوا مع النَّبيِّ ﷺ حينَ خُطبته، ولم يَخرُجوا للتِّجارةِ ولا للهو"(3).

قـوَّةُ تأثيرِ المالِ، وسَطْوةُ سُلطانِه على النُّفوس

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿تِجَٰرَةً﴾:

التِّجارةُ: تحريكُ المالِ بالبيع والشِّراء لغَرَضِ الرِّبح. والتِّجارة:

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 15.

(2) ابن حنبل، مسند أحمد، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، عن النبي ﷺ: 3/ 341، برقم: (1842).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 227.

ما يُتَّجَرُ فيه[1]، والتَّعبيرُ بـ﴿تِجَٰرَةً﴾ يوحي بِقوَّةِ تأثير المال، وسَطْوةِ سُلطانِهِ على النُّفوس، لكنَّها أمامَ المؤمنِ زهيدةُ القيمةِ، لا سلطانَ لها عليه؛ لأنَّه يعلمُ أنَّ ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ﴾.

والمقصودُ بـ﴿تِجَٰرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾: "عيرَ تجارةٍ"[2]، ففي التَّعبيرِ بها مجازٌ مرسَلٌ علاقتُهُ المُجاورة، أو: "حُمولًا هي موضعٌ للتِّجارة"[3]، ففي التَّعبيرِ بها مجازٌ مرسَلٌ علاقتُهُ المُسبَّبيَّة.

معنى ﴿أَوۡ﴾ في قولِهِ: ﴿أَوۡ لَهۡوًا﴾:

﴿أَوۡ﴾ في قولِهِ: ﴿تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا﴾ للتَّقسيمِ، وتنويعِ أحوالِ المُنفضّين؛ إيحاءً بضَعفِ إيمانِ مَن انفَضّوا من المسجد ورسولُ اللّه صلّى اللّه تعالى عليه وسلَّم يخطب؛ إذ إنَّ خروجَهم واردٌ لأيِّ سببٍ وبأيِّ نوعٍ مِن أنواعِ المُغريات.

مَن تنازَلَ عن شيءٍ من دينِهِ لسببٍ قويٍّ مُؤهَّلٌ للتَّنازُلِ عنه لسببٍ ضعيف

و"لعلَّ التَّقسيمَ الَّذي أفادَتْهُ ﴿أَوۡ﴾ في قولِهِ: ﴿أَوۡ لَهۡوًا﴾ تقسيمٌ لأحوالِ المنفَضّين؛ إذ يكونُ بعضُهم مِن ذَوي العائلات؛ خرجوا ليَمْتاروا لأهلِهم، وبعضُهم مِن الشبابِ لا هِمَّةَ لهم في الميرة، ولكن أحبّوا حُضورَ اللّهو"[4].

ويُشْتَمُّ في ﴿أَوۡ﴾ عتابٌ مُرٌّ قاسٍ؛ إذ تُفصِحُ عن ضعفِ إيمانِ مَن انفَضَّ في أثناءِ الخُطبة، إلى درجةِ أنَّ ﴿لَهۡوًا﴾ يمكنُ أن يَجتَذِبَهم إليه، وليس ﴿تِجَٰرَةً﴾ قد يكونُ لها بعضُ الضَّرورة؛ ففي ﴿أَوۡ﴾ تَنَزُّلٌ برُتبةِ أولئك النَّفرِ الَّذين انفضّوا وتركوه ﷺ قائمًا على المنبرِ يخطُبُ.

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (تجر).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 644.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 69.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 229.

وقد التَفَتَ البقاعيُّ إلى هذه الإشارة فقال: "ولمّا ذكَرَ ما مِن شأنِهِ إقامةُ المعاشِ أتبَعَهُ ما هو أنْزَلُ منه، وهو ما أقلُّ شُؤونِهِ البطالةُ الَّتي لا يَجنَحُ إليها ذو قَدْرٍ ولا يُلقي لها بالَهُ، فقال: ﴿أَوۡ لَهۡوًا﴾؛ أي: ما يُلهي عن كلِّ نافعٍ"(1).

وفي ﴿أَوۡ﴾ إضافةً إلى ذلك إشارةٌ إلى أنَّ مَن تَنازَلَ عن شيءٍ مِن دينه لسببٍ قويٍّ فإنَّ لديه استعدادًا للتَّنازُلِ عنه لِسببٍ ضعيف، والعياذُ باللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿لَهۡوًا﴾:

اللّهوُ نقيضُ التِّجارة؛ إذ لا نفعَ فيه، وكِلاهما يَحرُمُ تركُ الخُطبةِ والصَّلاةِ لأجْلِهما

التَّعبيرُ بـ﴿لَهۡوًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ يعني: "ما يَشغَلُ الإنسانَ مِن هزْلِ الأمور عن جدِّها"(2)، "لعبًا كان، أو طبلًا، أو مزمارًا، أو غناءً"(3)، و"كانوا إذا أقبَلَتِ العيرُ استقبَلوها بالطَّبلِ والتَّصفيق، وهو المرادُ باللّهو"(4)، واللّه تعالى أعلم.

على أنَّ بينَ ﴿تِجَٰرَةً﴾ و﴿لَهۡوًا﴾ نوعَ طباقٍ؛ وذلك من حيث إنَّ قولَهُ: ﴿تِجَٰرَةً﴾ يدلُّ على الجِدِّ، وقولَهُ: ﴿لَهۡوًا﴾ يدلُّ على الهزلِ، والتِّجارةُ نفْعٌ واللّهوُ ضُرٌّ، وذكرُ أحدِهما بإزاءِ الآخرِ يُحدِثُ في النَّفسِ يَقَظةً، والجمعُ بينهما في قَرْنٍ جمْعٌ بين جميعِ الصَّوارفِ على الإطلاق، وإناطةٌ لحكم تحريمِ مُفارقةِ الخُطبةِ والصَّلاةِ بها جميعًا حتّى تَنقَضيا وتَتِمّا.

نكتةُ تقديمِ رؤيةِ التِّجارةِ على اللّهو:

للتِّجارة وما يُؤَمَّلُ مِن أرباحِها قوَّةُ تأثيرٍ ليستْ لغيرِها مِن الصَّوارِف

قُدِّمَتْ رُؤيةُ التِّجارةِ على اللّهوِ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾؛ لأنَّ اللّهوَ والطَّبلَ والطَّربَ المُصاحِبَ للتِّجارة إنَّما كان لأجلِها؛ فهي المقصودةُ، وإنَّما "المرادُ من اللّهوِ نفسُ التِّجارة؛ فاعتُبِرَ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 69.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 953.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 11.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 250.

خروجُهم لِتَلَقّيها لَهوًا تهجينًا له؛ لِما فيه من الإعراض عنه ﷺ، ولهذا رجع الضَّمير مؤنَّثًا في قوله: ﴿إِلَيۡهَا﴾ - أي: إلى التِّجارة - ولم يُذَكَّرْ ليَرجِعَ إلى اللّهو؛ لأنَّه لم يُقصَدْ لذاته، بل لِتَقْبيحِ خروجهم للتِّجارة أثناءَ الخُطبةِ؛ لمشاهدةِ ما جاءَ فيها أو للشِّراءِ منها، فإنَّ رِزْقَهم منها مكتوبٌ عند اللّه تعالى، فلا وجهَ لتَرْكِهم سماعَ الخُطبةِ والانصرافِ إليها"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالانفِضاض، ولطيفةُ إسنادِهِ إلى ضميرِ الجماعة:

مَن أحَبَّ الدُّنيا وانغَمَس فيها مَشَى في حياتِهِ على غيرِ نِظام

الانفِضاضُ: التَّفرُّقُ في عجلةٍ، وفي غيرِ نظامٍ[2]، و﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾ يعني: ذهبوا، أو تفرَّقوا. فمَن جعَلَ معناه: ذهبوا أرادَ التِّجارةَ، ومَن جعَلَ معناه: تفرَّقوا أرادَ: عن الخُطبةِ، وهذا أفصحُ الوجهين[3]، وأسرَعوا إلى التِّجارة[4]؛ خشيةَ أن يُسبَقوا إليها[5].

و"الَّذي سَوَّغَ لهم الخروجَ وترْكَ الرَّسول ﷺ يخطُبُ أنَّهم ظنّوا أنَّ الخروج بعدَ تمام الصَّلاةِ جائزٌ؛ لانقضاءِ المقصودِ وهو الصَّلاةُ؛ لأنَّه كان ﷺ في أوَّلِ الإسلام يُصلّي الجمعةَ قبلَ الخُطبة كالعيدين، فلَمّا وقعَتْ هذه الواقعةُ ونزلَت الآيةُ قَدَّمَ الخُطبةَ وأخَّرَ الصَّلاةَ"[6].

وفي إسنادِ فعلِ الانفضاضِ إلى واوِ الجماعة دليلٌ على كثرةِ المُنْفَضّين عن رسولِ اللّه ﷺ، وإلّا لقيل: انفَضَّ بعضُهم إليها، فعن جابرِ بن عبد اللّه رضي الله عنه قال: بينا النَّبيُّ ﷺ قائمٌ يومَ الجمعةِ إذ قَدِمَتْ عيرٌ إلى المدينةِ، فابتَدَرَها أصحابُ رسول اللّه ﷺ، حتّى لم يبقَ معه إلّا اثنا عشرَ رجلًا فيهم أبو بكرٍ وعمرُ. قال: ونَزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾[7].

---

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1421.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 953.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 12.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 644.
(5) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 231.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 391.
(7) مسلم، صحيح مسلم، كتابُ الجُمُعَةِ: 2/ 590، برقم: (38/ 863).

نكتةُ تنكيرِ ﴿تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا﴾ هنا، وتعريفِهما في قولِهِ: ﴿خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾:

ضَعفُ الإيمانِ يَجُرُّ إلى المعصية

نكتةُ تنكيرِ ﴿تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا﴾ في أوَّلِ الآية الكريمة ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ الدَّلالةُ على ضعفِ إيمانِ الَّذين ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾؛ إذ يَهتَزُّ دينُهم لأضعفِ لهوٍ، وأيسرِ تجارةٍ.

بينَما عُرِّفَ ﴿ٱللَّهۡوِ﴾، و﴿ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ في قوله تعالى بعدُ: ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ أخطرَ ﴿ٱللَّهۡوِ﴾ وأكملَ ﴿ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ لا يُساوي شيئًا بالنِّسبةِ لـ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، بل يَظَلُّ ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ سبحانه خيرًا منهما، واللهُ تعالى أعلم.

نكتةُ تعديةِ الفعلِ في ﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾ بـ(إلى):

مُـحِـبُّ الـدُّنـيا غايتُهُ المَيْلُ إلى المالِ والمُلْهيات

في تعديةِ الفعلِ في ﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾ بـ(إلى) في جملةِ ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ إفادةُ الغائيَّة، وأنَّ منتهى غايتِهم كانت عَرَضًا دنيويًّا حقيرًا مُقارَنةً بما استبدلوا به ذاك العَرَضَ؛ فمعنى ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾: "تفرَّقوا عنك خارجين إليها، وقال المبرِّدُ: مالوا إليها"[1]؛ أي: أنَّ فعلَ الانفِضاضِ مُضمَّنٌ معنى فعلِ المَيْل، وهو يَحتمِلُ الميلَ الجسديَّ والرّوحيَّ معًا.

مَرجِعُ الضَّميرِ في ﴿إِلَيۡهَا﴾:

التِّـجـارةُ أكـثرُ إلـهـاءً مِـن غيرِها؛ لأنَّ المالَ شقيقُ الرّوح

والضَّميرُ في ﴿إِلَيۡهَا﴾ راجعٌ إلى ﴿تِجَٰرَةً﴾، وكان ظاهرُ السّياقِ يَقتضي ضميرَ المثنّى فيقال: انفضّوا إليهما؛ أي: إلى التِّجارةِ واللّهو؛ وإنَّما "خُصَّتْ بردِّ الضَّميرِ إليها لأنَّها كانتْ أهمَّ إليهم"[2]، و"لأنَّ الانفضاضَ للتِّجارةِ مع الحاجةِ إليها والانتفاعِ بها إذا كان مذمومًا فما ظنُّكَ بالانفضاضِ إلى اللّهوِ وهو المذمومُ في نفسه؟!"[3]، "ولأنَّه قد تَشغَلُ التِّجارةُ عن العبادةِ ما لا يَشغَلُه اللّهوُ"[4].

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 301.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 301.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 250.
(4) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 126.

وفي الكلام حَذْفٌ، و"تقديرُهُ: إذا رَأوا تجارةً انفضّوا إليها، أو لهوًا انفضّوا إليه؛ فحُذِفَ أحدُهما لدلالةِ المذكورِ عليه، وكذلك قراءةُ مَن قرَأ: (انفضّوا إليه)، وقرئ: (إليهما)"[1].

و"قال الأنباريُّ: ولم يُؤثَرِ الأوَّلُ بالعائدِ في القرآن كلِّه إلّا في موضعٍ واحد، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾، معناه: إليهما، فخَصَّ التِّجارةَ بالعائدِ؛ لأنَّها كانت سببَ الانفِضاضِ عنه ﷺ وهو يخطُب"[2].

تـرْكُ النَّبيِّ ﷺ بكلِّ الأحوالِ خطأٌ جسيمٌ استوجَبَ العتابَ من الله تعالى

معنى (الواوِ) في قولِهِ: ﴿وَتَرَكُوكَ﴾:

(الواوُ) في قولِهِ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾ تَحتمِلُ أنْ تكونَ حاليَّةً من فاعلِ ﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾ و(قد) مقدَّرةٌ؛ أي: انفضّوا إليها وقد تركوك قائمًا؛ أي: انفضّوا إليها تاركين إيّاك قائمًا. وتَحتمِلُ أنْ تكونَ عاطفةً، مَنسوقةً على سَوابِقِها[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ التَّرْكِ ﴿وَتَرَكُوكَ﴾:

من أفظعِ الآثامِ الخروجُ والإمامُ يَخطُبُ مِن دونِ ضرورةٍ شَرْعيَّة

وفي التَّعبيرِ بفعلِ التَّركِ تفظيعٌ لِفعلِهم؛ إذ فرَّطوا في سماعِ وعْظِ النَّبيِّ ﷺ؛ أي: تركوك قائمًا على المنبر، وذلك في خُطبةِ الجمعة، وفي هذا تهاونٌ بخُطبةِ الجمعة وهي مُعظَّمةٌ عند اللّه تعالى، فالتَّركُ فيه معنى التَّهاون. وهذه الآيةُ تدلُّ على وجوبِ حضورِ الخُطبةِ في صلاةِ الجمعةِ؛ إذ لم يَقُل: وتركوا الصَّلاة[4].

مَرجِعُ ضميرِ الغَيْبةِ في قولِه: ﴿وَتَرَكُوكَ﴾:

ضميرُ الغَيْبةِ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾ يرجِعُ إلى سوقةِ القومِ وسَفِلَتِهم، ولم يكونوا عرفوا حقَّ الخِطابِ وحقَّ الخُطبةِ عليهم، وكانت تلك تجارةً يَأمُلون منها منافعَ لو لم يُبادِروا

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 537.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 31.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 94.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 229.

إليها لذَهَبَتْ عنهم، فإنَّما خرجوا من المسجدِ جَهْلًا منهم بحقِّ الخُطبةِ والخاطبِ.

ولم يكونوا من أجِلَّةِ القوم، ولا صاحَبوا أجلَّتَهم ليعرفوا حقَّ الخُطْبةِ والخاطبِ، فانفلتَتْ منهم الزَّلَّةُ، فأمّا الَّذين كانوا من أجِلَّةِ الصَّحابةِ رضوان اللّٰه عليهم أجمعين ومن علمائِهم فلم يَنفِرْ واحدٌ منهم.

مَرجِعُ ضميرِ الخِطابِ في قولِهِ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾:

الـخـطـابُ القـرآنيُّ لغيرِ معـيَّنٍ يَتـوجَّـهُ إلى رسولِ الله ﷺ، وقد يَتَّسِعُ لسِواه

ضميرُ الخطابِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾ يَرجِعُ إلى الرَّسول ﷺ، "يقولُ للنَّبيِّ ﷺ: وتركوك - يا محمَّدُ - قائمًا على المنبر، وذلك أنَّ التِّجارة الَّتي رَأوها، فانفضَّ القومُ إليها، وتركوا النَّبيَّ ﷺ قائمًا كانت زَيْتًا قَدِمَ به دِحيَةُ بنُ خليفةَ من الشّام"(1).

وكونُ الخطابِ في قوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾ لغيرِ مُخاطَبٍ معيَّنٍ يَعني: أنَّ المقصودَ به رسولُ اللّٰه ﷺ؛ لأنَّه المخاطبُ الأوَّلُ بالقرآن الكريم، ثمَّ قد يَتَّسِعُ الخطابُ القرآنيُّ لسِواهُ، وقد يَبقى خاصًّا به ﷺ.

دلالةُ القيامِ في ﴿قَآئِمًاۚ﴾، وموقعُهُ من التَّركيب:

مُقابَلَةُ الإحسانِ بالإساءةِ سوءُ خُلُقٍ، وتقديمُ الفاني على الباقي حُمْقُ تَصَرُّف

القيامُ في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾ يعني: ﴿قَآئِمًاۚ﴾ تخطُبُ، "وفيه دليلٌ على أنَّ الخطيبَ ينبغي أنْ يخطُبَ قائمًا"(2).

وفي التَّعبيرِ بالقيام تبشيعٌ لانصرافِ الَّذين ﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾ عنه ﷺ؛ إذ إنَّه قائمٌ وهُم جلوسٌ، وهو يَبذُلُ لهم النُّصحَ ويُقدِّمُ لهم العِلمَ وهم يَنشغِلون بدُنيا زائلةٍ؛ وتلك الدَّلالاتُ كانت ستَفوتُ بغيابِ مُفردةِ القيام لو عُبِّرَ بالخُطبةِ مُباشَرةً، كما لو قيل في غير القرآن الكريم: وتركوك تخطُبُ، وكان يَفوتُ حينَئذٍ أيضًا حُكمُ الخُطبةِ قائمًا.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 645.

(2) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 483.

و﴿قَآئِمٗاۚ﴾ منصوبٌ على الحالِ مِن ضميرِ الخطابِ في (تركوك)، أو مفعولٌ ثانٍ للفعل (تركوك) بتعديتِهِ إلى مفعولين.

علَّةُ فَصْلِ قولِه: ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾:

كمالُ الانقِطاعِ بينَ جملتينِ لا يقتضي الانبِتاتَ التّامَّ بينَ معنَيَيْهما، بلِ الانقِطاعَ بينَ مَهْيَعَي الأسلوبين

فُصِلَ قولُهُ: ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ عن قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا﴾؛ لِما بينهما من كمالِ الانقطاعِ الأسلوبيِّ؛ إذ الأولى شرطيَّةٌ إخباريَّةٌ، والثّانيةُ إنشائيَّةٌ طلبيَّةٌ، وإنْ كانت الثّانية علاجًا لِما تتضمَّنُهُ الأولى من اختلالٍ في عبادةِ المُتحدَّثِ عنهم هنا؛ إذ "أرشَدَهم بعدَ التَّوبيخِ والتَّعييرِ إلى تَحرّي الأصوبِ، وتَوَخّي المَنهَجِ الأقومِ على سبيلِ العموم"[1].

لذلك لا يَعني كمالُ الانقطاعِ انبِتاتًا تامًّا بين معنيَيِ الجملتين، بل هو انقطاعٌ بينَ مَهْيَعَيِ الأسلوبين؛ لذلك ينبغي تقييدُ (كمال الانقطاع) البلاغيِّ في مثلِ هذا بوصفِ (الأسلوبيِّ)؛ حتّى لا يَسبِقَ إلى الأوهامِ خلافُ المراد.

دلالةُ القولِ، وغرضُ الأمرِ في جملةِ ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾:

من تمامِ التِزامِ الرَّسولِ ﷺ بالتَّبليغِ حكايةُ لفظِ القولِ (قل)

الأمرُ الإلهيُّ في جملةِ ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ للوجوب؛ لأنَّه تشريعٌ يَقضي بالتَّبليغ، بل إنَّ تمامَ التِزامِ الرَّسول ﷺ تَجَلَّى في حكايةِ لفظِ القولِ ﴿قُلۡ﴾، مع أنَّ الظّاهرَ كان يقتضي حكايةَ مَقولِ القولِ دونَ القول، فتكون الآيةُ المَحكيَّة: تركوك قائمًا ما عند اللّه خيرٌ، دون ﴿قُلۡ﴾، وهذا يدلُّ على تمام حرصِ رسول اللّه على تبليغ ما فيه خيرٌ لأمَّته، صلَّى اللّه تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾:

﴿مَا﴾ في جملةِ ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ موصولةٌ، والمعنى: "قل لهم يا محمَّدُ: الَّذي عند اللّه - من الثَّوابِ لِمَن جلَسَ مُستمِعًا خطبةَ

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 421.

رسول اللّه ﷺ وموعظتَه يوم الجمعة إلى أنْ يَفرَغَ رسول اللّه ﷺ منها - خيرٌ من اللّهوِ ومن التِّجارة الَّتي يَنفَضّون إليها"[1]، وكذلك "ما عند اللّه تعالى من رزقِكم الَّذي قسمتُ لكم خيرٌ ممّا أصبتُموه بانفِضاضِكم مِن لَهْوِكم وتجارتِكم"[2].

ما عندَ اللّه تعالى من خيراتٍ وأرزاقٍ، مِن التّنوُّعِ والكثرةِ بحيثُ لا يُحاطُ به وصفًا ولا عَدًّا

ففي التَّعبيرِ بـ﴿مَا﴾ إيجازٌ بالغُ التَّطمين للمؤمنين؛ إذ يفيدُ أنَّ ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى من خيرٍ ورزقٍ هو مِن التَّنوُّعِ والكثرةِ بحيث لا يُحاط به وصفًا ولا عدًّا، وعلى ذلك فلا قيمةَ لتجارةٍ تَشغَلُ، ولا لِلَهْوٍ يُلهي.

نكتةُ التَّعبيرِ بالعنديَّةِ، ولطيفةُ الإضافةِ في ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾:

ما عندَ اللّه تعالى نفعُهُ مُحقَّقٌ ومُخلَّد، بخلافِ ما في التِّجارة وغيرِها

في التَّعبيرِ بالعِنْديَّةِ، والإضافةِ إلى الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ﴾ بيانٌ لـ"نَفْعٍ محقَّقٍ مخلَّدٍ، بخلاف ما فيهما - أي: التِّجارةِ واللّهوِ - مِن النَّفعِ المُتوهَّم"[3].

ففي تلك العنديَّةِ تطمينٌ للعبد المؤمن - باللّه تعالى ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمَّدٍ ﷺ نبيًّا ورسولًا - إلى ضمانِ الرِّزق ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ تعالى، والثِّقةِ في يُسرِ وصولِهِ إليه، حتّى يصيرَ عنده أوثَقَ ممّا بينَ يديه من التِّجارةِ وأرباحِها المَنظورة، وإلّا لكان العبدُ ناقصَ الإيمان.

دلالةُ الخيريَّة، ولطيفةُ التَّفضيلِ في قولِه: ﴿خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ﴾:

مَن يَختَرْ موهومَ الخيريَّةِ على مَن بيدِهِ الخيرُ كلُّهُ فهو مَأفونٌ خاسِر

﴿خَيۡرٞ﴾ في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ اسمُ تفضيلٍ، من الخيريَّة؛ أي: ما عندَ اللّه تعالى أفضلُ ﴿مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ من كافَّةِ الاعتبارات، وفي هذه المفاضَلَةِ بأفعلِ التَّفضيلِ ﴿خَيۡرٞ﴾ مفاضلةٌ بين شيئين: أحدُهما خيرُهُ يكادُ يكونُ معدومًا؛ إذ لا أحدَ يَقدِرُ على أن يَرزُقَ نفسَهُ فضلًا عن أنْ يَقدِرَ على أن يَرزُقَ غيره،

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 649.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 12.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 250.

والآخَرُ خيرُهُ هو كلُّ الخيرِ، ففي تلك المفاضلةِ إظهارُ ما بينَهُما من شُسوعٍ، يُزري بمَن يختارُ موهومَ الخيريّةِ على مَن بيدِهِ الخيرُ كلُّه.

معنى ﴿مِّنَ﴾ في قولِهِ: ﴿خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ﴾ ابتدائيَّةٌ؛ أي: أنَّ الخيرَ يَبدأُ حيث يَنتهي الانشغالُ باللّهوِ والتِّجارة، ولا خيرَ فيهما، واللّه تعالى أعلم.

لا خيرَ للمؤمنِ في الانشغالِ بغيرِ الخُطبةِ والصَّلاةِ مِن أسباب

نكتةُ إعادةِ (مِن) مَعَ ﴿ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾:

وفي إعادةِ (مِن) مع ﴿ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾ تأكيدٌ لانعدام الخيريَّةِ في الانشغالِ وقتَ الخُطبةِ والصَّلاةِ بغيرِهما، وأنَّ الخيريَّةَ تبدأُ حيث يَتَجاوزُ العبدُ المؤمن تلك الأسبابَ الدُّنيويَّةَ الشّاغلةَ عن عبادة الجمعة في حينِها، واللّه تعالى أعلم.

الخيريَّةُ تبدأُ حيث يَتَجاوزُ المؤمنُ الأسبابَ الدُّنيويَّةَ الشّاغلةَ عن الجُمُعةِ في حينِها

براعةُ تقديمِ ﴿مِّنَ ٱللَّهۡوِ﴾ على (مِن التِّجارة):

قُدِّم القيدُ ﴿مِّنَ ٱللَّهۡوِ﴾ على القيدِ (من التِّجارة) هنا في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾، بينَما قُدِّمت (التِّجارةُ) على (اللّهو) في صدرِ الآية في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا﴾؛ "لأنَّ رؤيتَها كانت الباعثَ الأعظمَ على الانفضاض إليها، وتَرْكِ الرَّسول ﷺ قائمًا يَخطُبُ على المنبر"[1]، بينَما قُدِّم ﴿ٱللَّهۡوِ﴾ هنا لأنَّه أقوى مَذَمَّةً، فناسَبَ تقديمُهُ في مقام بيانِ الذَّمّ[2]، وبيانِ أنَّ الانفِضاضَ إليه - وهو عديمُ المنفعةِ - أَدخلُ في باب الذَّمِّ من الانفِضاضِ إلى ما فيه منفعةٌ - وهي التِّجارة - وإنْ كان الانفِضاضُ إلى كليهما خطيئةً. وكذلك بدَأ به "لإقبالِ الأغلبِ في حالِ الرَّفاهيةِ عليه"[3].

الانشغالُ بما يَنفَعُ دُنيويًّا أهونُ مِن الانشغالِ بما لا يَنفَعُ، وإنْ كان الانشغالُ بهما جميعًا خطيئةً

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 391.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 231.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 71.

وكذلك في تقديمِ ﴿ٱللَّهۡوِ﴾ وتأخيرِ ﴿ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ هنا "إرادةُ الإطلاقِ في كلِّ واحدٍ، واستقلالِهِ فيما قُصِدَ منه التَّخالُفُ السّابقُ في اتِّحادِ المعنى؛ لأنَّ ذلك في قصَّةٍ مخصوصةٍ كما رَوينا عن الأئمَّة"(1).

وقد يكونُ الغرضُ في مثلِ ذلك مُتعلِّقًا بالمُؤخَّرِ ﴿ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ دون المُقدَّم ﴿ٱللَّهۡوِ﴾؛ "لقصدِ أنْ يقعَ البَداءةُ والخَتْمُ به؛ للاعتناءِ بِشأنِهِ"(2)؛ أي: في مَقامِ الذَّمّ.

معنى (الواوِ) في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

(الواوُ) في قولِهِ: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ "استئنافيَّةٌ"(3)، وجملةُ الاستئنافِ ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ جاءَتْ تذييلًا؛ لتأكيدِ معنى جملةِ ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ﴾، ومبيِّنةً سببَ تلك الخيريَّة، وأنَّ ما عنده سبحانه خيرٌ؛ لأنَّه تعالى ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

ما عندَ خيرِ الرّازقين سبحانه وتعالى قطعًا خيرٌ وأفضلُ ممّا عندَ سِواه

وهذه الجملةُ المستأنفَةُ جاريةٌ مَجرى المَثَل، فهي تذييلٌ لِما قبلَها ببيانِ السَّببيَّة من ناحية، ومستقلَّةٌ من ناحيةٍ أُخرى صالحةٌ لإطلاقِ معناها بغضِّ النَّظرِ عمّا قبلَها.

أو (الواوُ) في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ "حاليَّةٌ"(4)؛ أي: لا تَنفَضّوا عن الخُطبةِ لِطلب الدُّنيا، بل اطلُبوا بحضورِ الخُطبة والصَّلاة ما عند اللّه تعالى؛ فما عنده سبحانه خيرٌ من اللّهوِ ومن التِّجارةِ مُقدَّمًا سبحانه على كلِّ مَن سِواهُ مِن الرّازقين غيرَ مُنازَعٍ في ذلك.

دلالةُ الخيريَّةِ في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

لا رازقَ إلّا الله، وإنَّما عُبِّرَ بصيغةِ التَّفضيلِ (خيرُ الرّازقين) افتراضًا لِنُكْتة

التَّعبيرُ بـ﴿خَيۡرُ﴾ في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ "مِن قَبيلِ ﴿بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾ [التّين: 8]، و﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون:

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 421.
(2) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 286.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 250.
(4) الدعاس، وآخرون، إعراب القرآن للدعاس: 3/ 343.

14]، والمعنى: إنْ أمكَنَ وجودُ رازقين فهو خيرُ الرّازقين، وقيل: لفظُ الرّازق لا يُطلَقُ على غيره إلّا بطريقِ المجاز، ولا يُرتاب في أنَّ الرّازقَ بطريقِ الحقيقةِ خيرٌ من الرّازق بطريق المجاز"[1].

و"جائزٌ أنْ يُضافَ الرِّزقُ والخَلْقُ والحُكمُ إلى العبيدِ مجازًا، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ مِمَّن يَرزُقُكم؛ لأنَّ غيرَهُ من الخلقِ إنَّما يَرزُقُ غيرَهُ من رزقِه، ويَعدِلُ بحُكمِه، ويَفعَلُ بتوفيقِه وتسديدِه، فقال: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ الَّذين يَرزُقون من رزقِه، واللّٰه أعلم"[2].

وبذلك تَنحصِرُ خيريَّةُ الرّزقِ فيما عندَ اللّٰه تعالى دونَ سِواه؛ إذ لا رازقَ سِواه أصلًا، وإنَّما خُرِّجَتْ صيغةُ التَّفضيل في ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ على سبيلِ الافتراض؛ زجرًا لهم ورَدْعًا عن التَّعلُّقِ بما عندَ غيرِهِ تعالى.

معنى (أل) في ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، ودلالةُ التَّعبيرِ بمُفردةِ الرّزق:

اللّٰهُ سبحانه خيرُ مَن رزَقَ وأعطَى، ورزقُ اللّٰه تعالى خيرُ الأرزاق

(أل) في ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تعريفيَّةٌ لاستغراقِ الجنس، تَستدعي دخولَ جميعِ الرّازقين - على التَّجوُّزِ في تسميتِهم رازقين - تحت (أل) هذه، واندِراجَهم تحتَ طَرَفِ المُفضَّلِ عليه، على أنَّ "لفظ الرّازق لا يُطلَقُ على غيره تعالى إلّا بطريقِ المجاز، ولا يُرتابُ في أنَّ الرّازقَ بطريقِ الحقيقةِ خيرٌ من الرّازق بطريقِ المجاز"[3].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ "يَحتمِلُ وجهين، **أحدُهما:** أنَّ اللّٰه سبحانه خيرُ مَن رزَقَ وأعطَى. **الثّاني:** أنَّ رزقَ اللّٰهِ خيرُ الأرزاق"[4]، "فإليه اسعَوْا، ومنه اطلُبوا الرِّزق"[5].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 544.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 17.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 544.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 6/ 12، بتصرف يسير.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 250.

نكتةُ تذييلِ الآيةِ بهذا الخبرِ:

اللهُ تعالى يَرزُقُ مَن يَرضَى عنه الرِّزقَ سليمًا من الأكدارِ والآثام، ويَرزُقُه خيرَ الدُّنيا والآخرة

ذُيِّلَتِ الآيةُ الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾؛ تنبيهًا إلى "أنَّ اللهَ تعالى يَرزُقُ الرِّزقَ لِمَن يَرضَى عنه سليمًا من الأكدار والآثام، وأنَّه يَرزُقُ خيرَ الدُّنيا وخيرَ الآخرة، وليس غيرُ الله قادرًا على ذلك، والنّاسُ في هذا المقام درجاتٌ لا يَعلَمُها إلّا الله، وهو العالِمُ بالسَّرائر"[1].

فالخبرُ ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ يَدعَمُ معنى جملةِ ﴿مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾؛ "أي: فاعملوا للأعْراضِ الباقيةِ عنده؛ فإنَّها خيرٌ من الأمورِ الفانيةِ عندكم، وفَوِّضوا أمرَ الرِّزقِ إليه بالتَّوكُّلِ والثِّقةِ بفضلِه؛ فإنَّه خيرُ الرّازقين"[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البيع والتِّجارة:

التِّجارةُ تُطلَقُ على البيعِ والشِّراء، ويُشترَطُ فيها الرِّبحُ، فهي أعمُّ، والبيعُ أخصّ

التِّجارةُ مصطلحٌ عامٌّ؛ لأنَّ صناعةَ التّاجر قد يَقع فيها البيعُ وقد يقعُ فيها الشِّراء، وخُصَّ البيعُ؛ لأنَّ الرِّبحَ فيه مُتيقَّنٌ، وفي الشِّراء مظنونٌ، فالبيعُ أدخَلُ في الإلهاء. وقيل: أرادَ بالتِّجارةِ الشِّراءَ؛ إطلاقًا لاسم الجنس على النَّوع. وقال الفرّاءُ: التِّجارةُ لأهل الجَلْب، يقال: تَجَرَ فلانٌ في كذا، إذا جَلَبَهُ من غيرِ بلدِه[3].

ويُشترَطُ في التِّجارة قصدُ الرِّبح، أمّا البيعُ فقد يكونُ اضطرارًا لأمرٍ طارئ.

الانفِضاض والتَّفرُّق:

الانـفِضاضُ: الانصرافُ وتفرُّقُ أبعاضِ الشَّيءِ، والتَّفرُّقُ: التَّباعُدُ مع تدابُرٍ أو مِن دونه

الفَضُّ: كَسْرُ الشَّيءِ، والتَّفريقُ بينَ بعضِه وبعضِه، كفَضِّ خَتْمِ الكتاب، وعنه استُعير: انْفَضَّ القومُ. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾، وقال تعالى: ﴿لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159][4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 230.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 231.

(3) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 200.

(4) الراغب، المفردات: (فض).

والتَّفرُّقُ: التَّباعُدُ، تفرَّقَ القومُ: تباعدوا، وتشتَّتوا، وذهَبَ كلٌّ مِنهم في اتِّجاه، عكسُهُ تجمَّعوا، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: 103]؛ أي: ولا تَتَقاطعوا ولا تَتَدابروا، وقال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩﴾ [يوسف: 39]؛ أي: مُتعدِّدون مختلفون، وفرَّقَ بينَهُما: باعَدَ بينهما، وفصَلَ بينهما، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: 102]، وفرَّقَ الأشياءَ والنّاسَ: شتَّتهم وقسَّمَهم، ضدُّ جمَّعَهم، قال تعالى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: 94][1].

اللّهو واللَّعب:

"اللهْوُ واللَّعِبُ يَشْتَرِكانِ في أنَّهما اشْتِغالٌ بِما لا يَعني من هَوًى أو طَرَبٍ حَرامًا أو لا، قيل: واللهْوُ أعَمُّ مُطْلَقًا، فاسْتِماعُ المَلاهي لَهْوٌ لا لَعِبٌ، وقيل: اللَّعِبُ ما قُصِدَ بِهِ تعجيلُ المَسَرَّةِ والاسترواحُ بِهِ، واللهْوُ: ما شغَلَ مِن هَوًى وطَرَبٍ وإنْ لم يُقصَدْ بِهِ ذلكَ"[2].

اللّهوُ ما يَشغَلُ الإنسانَ عمّا يَهُمُّه ويَعنيه، واللَّعِبُ طلبُ المَزْحِ بما لا يَحسُنُ أنْ يُطلَبَ به

واللّهوُ ما يَشغَلُ الإنسانَ عمّا يَهُمُّهُ ويَعنيه، واللَّعِبُ: طلبُ المَزْحِ بما لا يَحسُنُ أن يُطلَبَ به. قيل: واشتقاقُهُ من اللُّعاب، وهو المرورُ على غيرِ استواءٍ كلُعابِ الطِّفل[3]، وفي الكلّيّات: "واللهْوُ صَرْفُ الهَمِّ بما لا يَحسُنُ أن يُصرَفَ بِهِ، واللَّعبُ طلبُ الفرحِ بما لا يَحسُنُ أن يُطلَبَ بِهِ. وقيل: اللهْوُ الاستمتاع بلَذّاتِ الدُّنيا، واللَّعبُ العَبَثُ، وقيل: اللهْوُ المَيْلُ عَن الجِدِّ إلى الهزْلِ، واللَّعبُ تركُ ما يَنفَعُ بما لا يَنفَع. وقيل: اللهْوُ الإعراضُ عن الحقِّ، واللَّعبُ الإقبالُ على الباطِلِ"[4].

---

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (فرق).
(2) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (لهو).
(3) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 470.
(4) أبو البقاء، الكليات، ص: 799.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّيُّ والمدنيُّ وعدُّ الآي:

هذه السّورة مَدَنيَّةٌ بالإجماع، نقل ذلك ابنُ عطيّة[1]، والقرطبيّ[2]، والسُّيوطيُّ[3]، وأغلَبُ المفسّرين. ويُستدلُّ على مدنيَّتِها بما حَوَتهُ مِن حديثٍ عن المنافقين وعَن مَواقِفِهم وصفاتهم، حيثُ إنّه لم يُعرف لهم ظهورٌ إلّا في العهد المدنيّ، وبعد غزوة بدرٍ تحديدًا، فضلًا عن أنّ أسباب النّزول لبعض آياتها مرتبطٌ بأحداثٍ معروفةٍ جَرَت في المدينة المنوّرة كما سيأتي ذِكرُه.

وأمّا عدد آياتها فهي إحدى عشرَة آيَةً لَيْسَ فيها اخْتِلافٌ باتّفاق أهل العدد[4].

ترتيبُ النُّزول وترتيبُ المصحف:

هذه السّورةُ هي الثّالثةُ والسِّتّون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعَوَّل عليه عِند أهل النَّظر والتَّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتَيِ الجمعة والتّغابن.

وَأمّا ترتيبها النُّزوليُّ فقد اختلفوا فيه، فقيل هيَ السّورَةُ الثّالثة بعد المائة في ترتيب نُزول السّور، نزلت بعدَ سورة النّور وقَبل سورَةِ المجادلة[5]، وقيل بل هي الثّانيةُ بعد المائة، نَزَلت بعد سورة الحَجِّ وقَبل سورة المجادلة[6]، وقيل غير ذلك.

فضائلُ السّورة:

هذه السّورةُ الكريمةُ مِن المُفَصَّل الذي قال فيه النبيّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 311.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 120.

(3) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.

(4) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 247.

(5) دروزة، التَّفسير الحديث: 8/ 457.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 231.

سورةُ المنافقون من سوَرِ المُفَصَّل

مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[1]، وكان النَّبيّ ﷺ يقرأ بها في صلاة الجمعة[2].

التَّوقيتُ الزَّمنيُّ لنزول السّورة الكريمة:

نزلت سورةُ المنافقون في غزوة بني المُصْطلِق على الرّاجح

تعدَّدَت الأقوالُ في التَّوقيت الزَّمَنيِّ لِنُزول هذه السّورة؛ فَمِنهُم مَن قال إنَّها نزلت في غزوة بني المصطلق سَنَةَ خمسٍ للهجرة، ومِنهم مَن قال إنّها نَزَلت في غزوة تبوك سَنَةَ تِسْعٍ؛ والصَّحيحُ الأوّلُ، لِأنَّ قولَ عَبدِ اللّه بن أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ: ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾، يُناسِبُ الوَقتَ الَّذي لَم يَضعُف فيه شَأنُ المُنافِقينَ وكانَ أمرُهم كُلَّ يَوم في ضَعْفٍ، وكانَت غَزوَةُ تَبوكَ في آخِرِ سِنيِّ النُّبوَّةِ وقَد ضَعُفَ أمرُ المُنافِقينَ.[3] ولأنّه روي أنّ الأقوال التي حَكَتها بعض آيات السّورة صَدَرت مِن زعيم المنافقين أثناء غزوة بني المصطلق[4].

اسمُ السّورة ومناسبةُ تسميتها:

اشتهارُ سورة (المنافقون) بهذا الاسم

ورَدَت تسميتُها بسورة (المنافقون) في كُتُبِ السُّنّة، وكتب التّفسير، وقد ذكروا أنّ تسميتها بهذا الاسم لورود لفظة ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ و﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيها مرّاتٍ عديدة، ومِن المعلوم أنّ هذا التّعليلَ ليس بكافٍ في هذا المجال.

وقد قام البقاعيّ بالرّبط بين اسمها ومقصودها خير ربطٍ فقال: "ومقصودها كمالُ التّحذير ممّا يثلم الإيمان مِن الأعمال الباطنة، والتَّرهيب ممّا يقدح في الإسلام مِن الأحوال الظّاهرة، بمخالفة الفعل للقول، فإنّه نفاقٌ في الجملة، فيوشك أن يجرَّ

(1) أخرجه أحمد في المسند برقم: (16982)، والطَّبرانيُّ في المعجم: 22/ 76، (187)، والبيهقيُّ في شعب الإيمان: (2415)352.

(2) مسلم، صحيح مسلم، باب ما يُقْرَأُ في يَوْمِ الجُمُعَةِ، حديث رقم: (789)، والتّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، حديث رقم: (519)، وقال التّرمذيّ: حديثُ أبي هريرَة حَديثٌ حسَن صحيح، وقال الألبانيّ: صحيح.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 231 - 232.

(4) دروزة، التَّفسير الحديث: 8/ 457.

إلى كمال النّفاق فيُخرج مِن الدّين، ويُدخِل الهاوية. وتسميتُها بالمنافقين واضحةٌ في ذلك[1].

والحقُّ أنَّ ما قاله الإمام البقاعيُّ له وجاهته، فمحور هذه السّورة مرتبطٌ باسمها ارتباطًا مباشرًا؛ لأنّ محورها بلا شكّ يرتبط بالتّحذير مِن المنافقين والنّعي عليهم بذكر بعض مواقفهم وأقوالهم وأفعالهم وصفاتهم مِن أجل تحذير المؤمنين مِن شَرِّهم، والتّرهيب من الاتِّصاف بصفاتهم.

المِحور العامُّ للسّورة:

ذمُّ النِّفاق والمنافقين والكشفُ عن مؤامراتهم وتحذير المؤمنين منهم

يُؤَكِّدُ مِحورُ السّورة على بيان حال أهل النِّفاق ومن يتخلَّق بأخلاقهم، ويظهر ذلك في السّورة على التَّرتيب الآتي:

أولًا: يدورُ مِحوَرُ هذه السّورَةِ على ذَمِّ أهلِ النِّفاق وكَشفِ مُؤامراتِهم وفَضحِها وبَيانِها للمؤمنين؛ لكي يَحذَروهم ولا يغتَرّوا بظاهر أقوالهم وأفعالهم، ولا تسري إليهم معتقداتُهم.

ثانيًا: وجهت السورة الكريمة الكلام مباشرةً إلى المؤمنين في الآيات الثّلاث الأخيرة، محذِّرَةً إيّاهم مِن الاغترار بفِتَنِ الأموال والأولاد، آمِرَةً لهم بالإنفاقِ قبل انقضاء الآجال، وكأنّها بذلك تومئُ إلى أنّ مخالطةَ المنافقين والرُّكونَ إليهم تورث حُبَّ الدُّنيا وتَرْكَ الإنفاق.

موضوعاتُ السّورةِ وخصائصها:

مَدارُ السّورةِ يدور على فَضحِ المنافقين وكَشفِ سرائرهم

جاء سياق هذه السّورةِ كسياق سورة الجمعة والسّور التى قبلها في الحديث عن التّشريعات والأحكام وما تمخّض عنه مجتمع المدينة بعد الهجرة مِن بروز ظاهرة النّفاق:

أولًا: ابتدأت السّورةُ بإيراد صفات المنافقين التي مِن أهمّها الكذبُ في ادّعاء الإيمان، وحَلِف الأيمان الفاجرة الكاذبة، وجُبنُهم

(1) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 83 - 84.

وضَعفُهم وتآمُرُهم على النّبيِّ ﷺ وعلى المؤمنين، وصدِّهم النّاسَ عن دين اللّه.

ثانيًا: ذكرت السّورة مَوقِفَهم المخزي والمستعلي - وهو ادّعاؤهم العِزَّةَ - وزعمَهم بأنّهم بعد العودة مِن غزوة بني المصطلق سيُخرِجون الرَّسولَ ﷺ والمؤمنين مِن المدينة.

ثالثًا: خُتِمت السّورة بحثِّ المؤمنين على الطّاعة وعبادة اللّه، وعدم الانشغال بالأموال والأولاد عن ذكر اللّه.

رابعًا: دَعَت السّورة المؤمنين إلى إنفاق الأموال في سبيل اللّه لمواجهة الأعداء في الدّاخل والخارج، قبل انقضاء الأجل أو فوات الأوان، فإنّ الأجل لا يتأخَّرُ لَحظَةً[1].

الخصائِصُ الموضوعيّة للسُّورة:

تـمـيّـزت سـورة الـمـنـافـقـون بـخـصـائـصَ مـوضـوعـيَّـةٍ أفـردتـهـا عـن غيرها مِن السّور

أولًا: تميّزت السّورة الكريمة بأنّها تناولت الحديث عن المنافقين مِن زوايا جديدة لم تأت في السّوَر المدنيَّة الأخرى التي ذكرت مِن صفاتهم ومواقفهم، فالحديثُ عن شهادتهم الكاذبة، وعن أجسامهم وعن وصفهم بالخشب المسنّدة، وعن مواقفهم في بعض الغزوات، وكذلك الحديث عن خوفهم وفزعهم، وعن التّصريح بعداوتهم للمسلمين، وكذلك التّصريحُ بأنّهم لا يفقهون، كُلُّ ذلك ورَدَ في هذه السّورة على وجه الخصوص.

ثانيًا: اختصّت السّورة بحديثها عن تحذير المؤمنين من الالتهاء بالأموال والأولاد.

اخـتـصـاصُـهـا بـبـدء آيـاتـهـا بـ (إذا) الـشـرطـيّـة في تـحـقـيق أمـر النِّفاق

ثالثًا: تميَّزت السّورةُ الكريمةُ بميزةٍ لم تشارك فيها السّوَرَ السِّتَّ الأخرى المبتدأة بـ﴿إِذَا﴾ الظّرفيّة الشّرطيّة، (الواقعة، التّكوير، الانفطار، الانشقاق، الزّلزلة، النّصر)، وهي تناولُ أحداثِ السّاعةِ

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 28/ 212 - 213.

وما يكون بين يديها مِن أحداثٍ، فكانت هي السّورةَ الوحيدةَ الَّتي تناولت موضوع النّفاق بهذه الصّورة، ولكنّها مع ذلك اختتمت بالإشارة إلى نهاية الوجود وانقضاء الآجال.

الخصائِصُ الأسلوبيّة للسُّورة:

مِن خصائصها الحديثُ عن المنافقين بالاسم الظّاهر والمضمر:

أوّلًا: تميّزت السّورةُ الكريمةُ بأنّها ذَكَرت المنافقين باسمهم الصّريح أربع مرّات[1]، فضلًا عن ذِكرِهم بالضّمائر الظّاهرة والمُضمَرَة، والَّتي تعود عليهم بنحو أكثرَ مِن أربعين موضعًا في أحَدَ عشر آيةً هي مجموع آيات السّورة.

مِن خصائصها رَسمُ صورةٍ فريدَةٍ في تشبيه المنافقين:

ثانيًا: تميّزت السّورةُ الكريمةُ بهذه الصّورة الفَنّيَّة الفريدة في تشبيه المنافقين ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، يقول ابن عاشور حول هذا التّشبيه: "شُبِّهوا بالخُشُبِ المُسَنَّدَةِ تَشبيهَ التَّمثيلِ في حُسنِ المَرأى وعدَمِ الجَدوَى، أُفيدَ بها أنَّ أجسامَهُمُ المُعجَبَ بها ومَقالَهُمُ المُصغى إلَيهِ خاليانِ عن النَّفعِ كَخُلُوِّ الخُشُبِ المُسَنَّدَةِ عن الفائدَةِ، فإذا رَأيتُموهُم حَسِبتُموهُم أربابَ لُبٍّ وشَجاعَةٍ وعِلمٍ ودِرايَةٍ. وإذا اختَبَرتُموهُم وجَدتُموهُم على خِلافِ ذَلِكَ فلا تَحتَفِلوا بِهِم[2]".

ثالثًا: تميّزت السّورةُ الكريمة بأنّها حوت قاموسًا مُعجميًّا مِن الألفاظ والتّراكيب الَّتي تُصَوِّرُ شخصيَّة المنافقين وتُظهِر لُغةَ أجسادهم مثل: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، ﴿تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾، ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾، ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾، ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

رابعًا: امتازت السّورةُ الكريمةُ بِوَفرةِ الجُمَلِ الشَّرطيَّة بها،

(1) الآيات: 1(2)، 7، 8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 240.

حيثُ بَلَغَت ثَمان جُمَلٍ هي: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ﴾، ﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ﴾، ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ﴾، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾، ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّۚ﴾، ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾، ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ﴾.

خامسًا: تميّزت السّورةُ الكريمةُ بأنّها حَوَت أبنيةً صَرفيَّةً لم تأت في غيرها مِن السّوَر، مثل: ﴿نَشْهَدُ﴾، ﴿أَجْسَامُهُمْۖ﴾، ﴿ٱلْعَدُوُّ﴾، ﴿لَوَّوْاْ﴾، ﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾، ﴿يَنفَضُّواْۗ﴾، ﴿لَيُخْرِجَنَّ﴾، ﴿ٱلْأَعَزُّ﴾، ﴿ٱلْأَذَلَّۚ﴾، ﴿تُلْهِكُمْ﴾، ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، وغيرها.

سادسًا: تميّزت السّورةُ الكريمةُ بأنّها حَوَت لفظَين فريدَين مادّةً وصيغةً، وقد جاءا في معرض تشبيه المنافقين، وهما ﴿خُشُبٌ﴾ و﴿مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ في قوله ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾.

سابعًا: تميّزت السّورة الكريمةُ بوفرةِ الأنساقِ التّعبيريّة الّتي لم تتكرّر في غيرها، مثل ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾، ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾، ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، ﴿۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ﴾، ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ﴾، ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْۚ﴾، ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾، وغيرها.

مناسبةُ السّورة لما قبلها:

التَّناسبُ بين سورة المنافقون والجمعة ظاهِرٌ لِما بينهما مِن تَلازُمٍ في المضمونِ والأسلوبِ مِن وجوهٍ عِدَّةٍ يُؤَكِّد ذلك قراءةُ النَّبيِّ ﷺ في صلاة الجمعة في الرَّكعة الأولى بسورة الجمعة وفي الثّانية بالمنافقون.

ولأنّ سورة الجمعة بيَّنت أنَّ الموت حقيقةٌ لا شكَّ فيها، وقَدرٌ لا يستطيع أحدٌ رَدَّه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ﴾ [الجمعة: 8] الآية، وفي سورة المنافقون تذكيرٌ بالموت والتنبيهُ إلى الاستعدادِ له بالمبادرة للقيام بالعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

ولمّا أعقب حال المؤمنين فيما خَصَّهم الله به ممّا انطوت عليه الآيات الثّلاث في صدر سورة الجمعة إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٤﴾ [الجمعة: 4] بِذِكر حال مَن لم ينتفع بما

سورة (المنافقون) متّصلةٌ تمامًا بسورة الجمعة مضمونًا وأسلوبًا

حُمِّل حسبما تقدّم، وكان في ذلك مِن المواعظ والتّنبيه ممّا ينتفع به مَن سبقت له السّعادة، أتبَعَ ذلك بما هو أوقعُ في الغرض، وأبلغُ في المقصود وهو ذِكرُ طائفةٍ مِمَّن أظهر الإيمان وتلبَّس به في الظّاهر، وأظهر الانقياد والإذعان، وتعرّض فأعرض، وتنصّل فما وصل، بل عاقَته الأقدار فعُمّيتِ البصائرُ والأبصارُ.

فأُتبِعت سورةُ الجمعة بسورة المنافقين وعظًا للمؤمنين بحال أهل النّفاق، وبُسِط مِن قَصَصِهم ما يلائم ما ذكرناه، وكَأَنْ قد قيل لهم ليس مَن أظهَرَ الانقيادَ والاستجابةَ في بني إسرائيل ثمّ كان فيما حُمّل كَمَثَل الحمار يحمِل أسفارًا بأعجبَ مِن حالِ إخوانِكم زمانًا وقرابةً، وأنتم أعرفُ النّاس بهم، وأنّهم كانوا في الجاهلية موصوفين بجودة الرّأي وحسن النَّظر ﴿۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾[1].

فإنَّ الحديثَ عَن اليهود وأكاذيبهم على المؤمنين يستلزم الحديثَ عَن المنافقين على اعتبار أنّهم كانوا يُحرِّضون اليهودَ على المؤمنين كما برز ذلك في سورة الحشر، بل إنّهم أخطرُ مِنهم لأنّهم يُظهرون الإيمان ويُبطِنون الكفر، فلا ينتفعون بصلاتهم مع المؤمنين، فهم يُشبِهون في هذا حالَ اليهود في حملهم الكتابَ دون أن ينتفعوا به، فَهُم كالحمار يَحمِل أسفارًا.

مناسبةُ صدر السّورة لخاتمتها:

تحدَّثتِ السّورةُ في صدرها عن صفات المنافقين ومواقفهم المذمومة مِن الرَّسول ﷺ والمسلمين، وخُتمت السّورة بتحذير المؤمنين مِن أسباب النِّفاق ودوافعِه مِن الاغترار بالدُّنيا وزخارفِها وتسويفِ العمل الصّالح حتَّى فواتِ الأوان.

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 336 - 338.

بلاغةُ ترتيب السّورة:

جاء ترتيبُ هذه السّورة في المصحف الشَّريف على أبلغ وجهٍ وذلك مِن خلال النَّظر في سياقات السّور الَّتي قبلها؛ حيث كان الحديثُ في سورة (الجمعة) عن اليهود، والَّتي قبلها وهي سورة (الصَّف) عن بشارة موسى وعيسى بنبوَّة نبيِّنا ﷺ، وفي (الممتحنة) ذكر المعاهدين مِن المشركين؛ أمّا سورة (الحشر) الَّتي قبلها ففيها ذكر المعاهدين مِن أهل الكتاب؛ لأنّها نَزَلت في بني النضير حين نبذوا العهود، وفي هذا إظهار لبلاغة التَّرتيب لاشتمالها على أصناف الأمم، وذلك بالحديث عن المعاهدين مِن أهل الكتاب؛ ثُمَّ إتباع ذلك بالحديث عن المعاهدين مِن المشركين؛ ثُمَّ الحديث عن المؤمنين؛ ثُمَّ الحديث عن المنافقين، وفي هذا براعة ترتيب[1].

سببُ نزولِ سورةِ (المنافقون):

سببُ نزولها مرويٌّ عن زيد بن أرقم، قال: "كنتُ في غزاةٍ، فسمعت عبد اللّه بنَ أُبيٍّ يقول: لا تُنفقوا على مَن عند رسول اللّه حتى ينفضّوا مِن حوله، ولئن رَجَعْنا مِن عنده ليُخرِجَنَّ الأعزُّ مِنها الأذَلَّ، فذَكَرتُ ذلك لعمّي أو لِعُمر، فَذَكره للنَّبيِّ صلَّى اللّه عليه وعلى آله وسلَّم، فدعاني فحدَّثتُه، فأرسلَ رسولُ اللّه صلَّى اللّه عليه وعلى آله وسلَّم إلى عبد اللّه بن أُبيٍّ وأصحابه، فحلفوا ما قالوا فكذَّبني رسولُ اللّه صلَّى اللّه عليه وعلى آله وسلَّم وصَدَّقَه، فأصابني هَمٌّ لم يُصبني مِثلُه قَطُّ. فجَلَستُ في البيت فقال لي عَمّي: ما أردتَ إلى أن كذَّبك رسولُ اللّهِ صلَّى اللّه عليه وعلى آله وسلَّم ومَقَتَك، فأنزل اللّه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ فبَعَث إليَّ النَّبيُّ صلَّى اللّه عليه وعلى آله وسلَّم فقرأ فقال: «إنَّ اللّه قد صَدَّقك يا زيد»[2].

(1) السُّيوطيُّ، الإتقان: 1/ 97.
(2) البخاريّ، صحيح البخاري، برقم: (4900)، ومسلم، صحيح مسلم، برقم: (2772).

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ
لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ
جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣﴾

[المنافقون: 1 - 3]

مُناسَبَةُ مطلعِ السّورةِ لآخِرِ لما قبلها:

بَعْدَ ذِكرِ الإعراض عن الصّلاة شروعٌ بِفضحِ النِّفاق

لمّا حَذَّر النَّظمُ الجليل في آخر سورة الجمعة مِن الإعراض عَن النَّبيِّ ﷺ وقتَ الصَّلاةِ - لأنّ الانشغالَ بالتِّجارة عَن الصَّلاةِ يُؤَدّي إلى التَّلَبُّس بصور النِّفاق - أتبعَه في مفتتح هذه السّورة بتقبيح حالِ مَن أقبَل على مَجلِس النَّبيِّ ﷺ على حالِ النِّفاق، لأنَّه سيكون بذلك كاليهود الَّذين حُمّلوا التّوراة ثمّ تقاعسوا عنها وتخلَّوا عن تعاليمها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾: (نفق) أصلٌ يَدُلُّ على إخفاء شَيءٍ وإغماضِه، والنَّفَقُ: الطَّريقُ النّافذُ، وهو: سَرَبٌ في الأرضِ له مَخلَصٌ إلى مكان[2]. ومنه اشتقاق النِّفاق؛ لأنَّ صاحبه يكتم خلافَ ما يُظهِر، فكأنّ الإيمان يَخرُج منه، أو يَخرُج هو مِن الإيمان في خفاء[3]. أو هو الدّخولُ في الشَّرْعِ من بابٍ والخروجُ عنه من بابٍ، وعلى ذلك نبَّه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧﴾ [التوبة: 67] أي: الخارجون مِن الشَّرْعِ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 20/ 74.
(2) الخليل، العين: (نفق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نفق).
(4) الرّاغب، المفردات: (نفق).

2) ﴿نَشۡهَدُ﴾: (شهد) أصلٌ يدُلُّ على حضورٍ وعِلمٍ وإعلام[1]، والشَّهادةُ خَبرٌ قاطعٌ، تقول منه: شَهِد الرَّجُلُ على كذا، ورُبَّما قالوا شهْدَ الرَّجُل بسكون الهاء للتَّخفيف[2]، وقولهم: اشهدْ بكذا، أي احلفْ[3]. والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، والشَّهادَةُ: قولٌ صادِرٌ عَن عِلمٍ حَصَلَ بمشاهدة بصيرةٍ أو بَصَرٍ[4]. وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ٧٠﴾ [آل عمران: 70] أي: (تَعلَمون)[5]. والمراد به في الآية الكريمة: الإخبارُ عَن عِلمٍ بمشاهدةٍ وحُضورٍ واطِّلاعٍ[6].

3) ﴿جُنَّةً﴾: (جنن) أصلٌ يدلُّ على السَّتر والتَّستُّر. جَنَّ الشيءَ يَجُنُّه جَنّاً: سَتَره. وكلُّ شَيۡءٍ سُتر عَنۡكَ فَقَدۡ جُنَّ عَنۡكَ[7]. والجُنَّةُ: الدِّرع، وكُلُّ ما وقاك فهو جُنَّتُك[8]. والسِّلاحُ ما قوتل به، والجُنَّةُ ما اتُّقي به[9]. والجَنان: القَلبُ؛ لكونه مستورًا عن الحاسَّة؛ والمِجَنُّ والمِجَنَّة: التُّرس الَّذي يَجُنُّ صاحبَه. قال ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ [المجادلة: 16][10]. والمراد به في الآية الكريمة: سترةٌ ووقايةٌ[11].

4) ﴿فَصَدُّواْ﴾: (صدد) أصلٌ يدلُّ على إعراضٍ وعدولٍ[12]. وصَدَدتُه عن كذا أَصُدُّه صَدًّا، أي: عَدَلْتُه عنه وصَدَدْتُ عنه بنفسي صُدودًا[13]. ويقال صَدَّه عَن الأمر يَصُدُّه صَدًّا: مَنَعَه وصَرَفَه عنه[14]. الصُّدودُ والصَّدُّ قد يكون انصرافًا عن الشّيء وامتناعًا، نحو: ﴿يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾، [النساء: 61]، وقد يكون صَرْفًا ومَنْعًا نحو: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شهد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (شهد).
(4) الرّاغب، المفردات: (شهد).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (شهد).
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 214.
(7) ابن منظور، لسان العرب: (جنن).
(8) الخليل، العين: (جنّ).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جنّ).
(10) الرّاغب، المفردات: (جنّ).
(11) القنُّوجيّ، فتح البيان: 14/ 146.
(12) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صدّ).
(13) الخليل، العين: (صدّ).
(14) ابن منظور، لسان العرب: (صدد).

﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النمل: 24][1]، والمراد به في الآية الكريمة: منعوا الناس عن الإيمان[2].

5) ﴿سَآءَ﴾: (سوأ) أصلٌ يَدُلُّ على القُبْح. ساءَهُ يَسوءُه سَوْءًا وسوءًا: فَعَلَ بِهِ ما يَكْرَهُ، نَقيضُ سَرَّه[3]. والسّوءُ: كلّ ما يَغُمُّ الإنسانَ من الأمور الدُّنيويَّة، والأُخرويَّة. والسَّيِّئَةُ: الفِعلة القبيحة، وهي ضِدُّ الحَسَنَة، قال تعالى: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: 81][4]. وساءَه كَذا، وأسَأتُ إلى فلانٍ، أي أدخلتُ عليه السّوء. وساء يكون قاصرًا إذا كان للذَّمِّ (بمعنى بئْس)، كقوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ﴾ [الأعراف: 177][5]، وهو المراد هنا.

6) ﴿فَطُبِعَ﴾: (طبع) أصلٌ يدلُّ على نهايةٍ ينتهي إليها الشَّيءُ حتّى يُخْتَمَ عندها، يقال: طبعتُ على الشَّيء طابعًا. وطَبْعُ الإنسانِ سجيَّتُه. والطَّبْعُ: الخَتْمُ على الشَّيءِ[6]، وهو التَّأثيرُ في الطّين ونحوه[7]. والطَّبْعُ: التَّغطيةُ على الشَّيءِ والاستيثاقِ من أن يَدخُلَه شَيءٌ[8]. ومن ذلك طَبعُ اللّهِ على قَلبِ الكافر، كأنَّه خَتَم عليه حَتَّى لا يَصِلَ إليه هُدًى ولا نورٌ، فلا يوَفَّقُ لِخَيرٍ[9]، والمراد به في الآية الكريمة: التَّغطيةُ على قلوبهم[10].

7) ﴿يَفۡقَهُونَ﴾: (فقه) أصْلٌ يَدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ والعِلم به[11]. وفَقِهَ يَفْقَهُ فِقْهًا إذا فَهِمَ. وأفقهتُه: بَيَّنْتُ لهُ[12]. والفِقْهُ: العِلْمُ بِالشَّيءِ والفَهْمُ لَهُ[13]. وهو التَّوَصُّلُ إلى عِلم غائبٍ بِعِلم شاهِدٍ، فَهو أخَصُّ مِن العِلم. قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ٧٨﴾ [النساء: 78]. والمراد به في الآية الكريمة: (لا يَفْهَمون)[14].

(1) الرّاغب، المفردات: (صدد).
(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 275.
(3) ابن منظور، اللّسان: (سوأ).
(4) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سوأ).
(6) الخليل، العين: (طبع).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (طبع).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (طبع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طبع).
(10) الواحديّ، البسيط: 21/ 469.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(12) الخليل، العين: (فقه).
(13) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(14) الواحديّ، البسيط: 21/ 469.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أوصافُ المنافقين غايةٌ في الشَّناعة والسّوء

يكشِفُ النَّظمُ الجليلُ شيئًا مِن صِفات المنافقين وسلوكِهم؛ فَهُم عند حضورِهم مَجلِسَ النَّبيِّ ﷺ يتظاهرون بالإيمان، قائلين بألسنتهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾، وإنّ اللّه يعلم إنّه لرسولُ اللّه، وهذا حقٌّ، ولكنَّ اللّه تعالى يَشهَد إنّ المنافقين لكاذبون في ادّعاءهم الإيمانَ وفيما أظهروه مِن شهادتهم، فَهُم أعلنوا الإيمانَ وأسَرّوا الكُفرَ، وأقسموا على ذلك بألسنتهم، وإنّهم إنّما حَلَفوا على ذلك لأنّهم أرادوا مِن أيمانِهم أنْ تكونَ لَهم وِقايةً مِن القَتلِ والمؤاخذةِ والعذاب، ومَنَعوا أنفُسَهم وغيرَهم عَن الإيمان باللّه، إنّهم ساء ما كانوا يعملون؛ ذلك لأنَّهم آمنوا في الظّاهر، ثمّ كفروا في الباطن، فعاقَبَهم اللّهُ بأنْ خَتَم على قلوبهم بسبب كُفرِهم، فَهُم لا يفهمون ما فيه صلاحهم وما فيه الخيرُ لهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

براعة الاستهلال بالجملة الشَّرطيّة:

فَضحُ المنافقين بأسلوبٍ بَلاغيٍّ يلفت الانتباه:

افتتح النّظمُ الكريمُ السّورةَ بِجُملةٍ شَرطيَّة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ إيذانًا بأنَّ مضمونَ الكلام مُتكرِّرُ الحدوث، كما أنّ أداةَ الشَّرط تَدُلُّ على التَّوقُّع والتَّشويقِ مِمّا يَجعَلُ السّامِعَ مُتطَلِّعًا لسماعِ ما يأتي بعد، فَهو استهلالٌ لِفَضحِ المنافقين بأسلوبٍ بَلاغيٍّ مُشَوِّقٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

إظهارُ الإيمان وإبطانُ الكفر سُلوكٌ مُحقَّقٌ في المنافقين

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بأداةِ الشَّرط ﴿إِذَا﴾ دون (إن) في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ وذلك لأنّ (إذا) تَدُلُّ على تحقُّق الوقوع، بخلاف (إن) التي تَدُلُّ على الاحتمال[2]. وهذا يَدُلُّ على أنّ

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 554.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 85.

مجيء المنافقين إلى النَّبيِّ ﷺ كان متكرّرًا ومتيقّنًا، لا نادرًا، فالآية تُشير إلى اعتيادهم هذا النّفاق؛ وفيها دلالةٌ على حُسنِ خُلُقِه في التَّعامل مع المنافقين، فَلَم يكن يَطرُدُهم مِن مجلسه، رغم كثرةِ تردُّدِهم إليه.

دلالةُ التَّعبير بالمجيء مادّةً وصيغةً:

نفاقُ المنافقين صِفَةٌ راسِخَةٌ فيهم تَتَجدَّدُ في تعامُلِهم مع رسول الله

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمجيء في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ دون الحضور لوصفِ الحالَةِ التي يكونون عليها عند ذهابهم إلى مَجلِسه ﷺ مِن الثِّقَل والكراهة وعَدَمِ الطّاعة؛ بخلاف الحضور فإنَّه يَحمِلُ معنى الحِرصِ على سماعِ ما يُقال وفهمِه، وليس هذا مِن شَأنِ المنافقين؛ لذلك كان التَّعبيرُ بالمجيءِ دون الحضور.

كما آثر التَّعبيرَ بالمجيء دون الإتيان لأنَّ المجيءَ فيه صعوبةٌ ومشَقَّةٌ، فَهُم يأتون متثاقلين كارهين، أمّا الإتيان ففيه معنى السّهولة واليُسر، وهو يناسب المُطيعَ الرّاغب، فالمنافقون يأتون النَّبيَّ ﷺ كارهين، أو يخافون أن يَظهَرَ نِفاقُهم أمامَ النّاس[1]، وهذا تصويرٌ بليغٌ لسلوك المنافقين.

وجاء التَّعبيرُ بصيغة الفعل الماضي ﴿جَآءَكَ﴾ دون المضارع مع أنّ ﴿إِذَا﴾ ظرفٌ لما يُستقبل مِن الزَّمان[2]، وذلك للدّلالة على أنَّ مجيئَهم مُتَكَرِّرٌ، وهذا مِن باب تصويرِ المستقبل بصورة الماضي لِتَحقُّق الوقوع وتأكيدِه في ذِهنِ السّامع.

دلالةُ كاف الخطاب في قوله ﴿جَآءَكَ﴾ مَعَ سِرِّ التَّقديم:

جاء التَّعبيرُ بكاف الخطاب في قوله: ﴿جَآءَكَ﴾ مِن باب تشريف النَّبيِّ وتكريمه، وقُدِّم المفعول على الفاعل لبيان مَحَلِّ العناية والاهتمام؛ ولأنَّ أهلَ النِّفاق ليسوا مَحَلًّا للتَّقديم.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 85.

(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 715.

دلالةُ التَّعبيرِ بالنِّفاق مادَّةً وصيغَةً:

المـخـادِعُ ذو الوجهين عريقٌ في الكذب

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالنِّفاق في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ تعبيرًا عن إظهارهم الإيمانَ وكتمانهم الكُفرَ[1]، تشبيهًا لهم بنَفَق اليربوع، وهو حيوانٌ يحفر لِنفْسِه نفقًا في الأرض له بابان أو أكثر، إنْ ترصّده أحدٌ عند أحدهما يخرج مِن الثّاني، كالمنافق له وجهان[2]. فاللّفظُ يبيِّنُ سلوكَهم القبيحَ في الخداع.

وجاء التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ ولم يَرِد التَّعبيرُ بصيغة (الَّذين نافقوا) كما في سورة آل عمران؛ للدِّلالة على عراقتِهم بالنِّفاق[3] ولأنَّ النِّفاق صار عَلَماً عليهم فأصبحوا يُعرَفون بهذا الوصفِ، فلا ينفَكّون عنه ولا ينفكُّ عنهم؛ بخلاف التَّعبير بـ(الَّذين نافقوا)؛ فإنَّه يَدُلُّ على أنَّهم شَرعوا في أعمال النِّفاق في غزوة أُحُدٍ؛ فهذا بيانٌ لِما وقَع منهم؛ أمّا هنا فهو حُكمٌ عليهم بثبوت الصِّفة.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجمعِ ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾:

تحقيرٌ لِشأنِهم وإشـارةٌ إلى جُبْنِهم

جاءَ التَّعبيرُ بالجمع ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ ولم يَرِد بالمُفرد (منافق) في القرآن كلِّه، بخلاف (الكافر) و(الكفّار) مثلًا، وهذا أمرٌ ينبغي الالتفاتُ إليه في تعبيرات القرآن الكريم؛ للدِّلالة على أنَّهم يتواطؤون فيما بينهم ويُسِرّون فيما بينهم؛ فلا يعيشون إلّا بصفة الجُبن مجتمعين؛ لذلك كان التَّعبير بصيغة الجمع دون المفرد.

وبالنَّظَر إلى سبب النُّزول فإنّ الآيةَ نزلت في عبد اللّه بن أبيٍّ لمّا قال: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ﴾ ومع ذلك جاء التَّعبير بصيغة الجمع دون المفرد لتَجَنُّبِ التَّصريح بِذِكرِ المقصود بالنِّفاق على طريقة قول النَّبيِّ ﷺ «ما بالُ أقوامٍ»[4]

---

(1) القنُّوجيّ، فتح البيان: 14/ 145.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 85.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 74.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 234.

نكتةُ التَّعبيرِ بالقول مادّةً وصيغةً:

ادّعاءُ المنافقين الإيمانَ بالقول دون مواطأة القلب

عبّرَ النَّظمُ الجليل بفعل القول في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ للدِّلالة على أنَّهم يقولون ذلك بألسنتِهم دون أن يواطئَ قلوبهم[1]، فأقوالهم لا تتجاوز ألسنتهم. فهم خَلَوا مِن الإيمان ودَأبوا على التَّمويه والادِّعاء.

وجاء بصيغة الماضي ﴿قَالُواْ﴾ دون المضارع (يقولون) للدِّلالة على تحقُّقِ هذه المقولة مِنهم، وأنَّها صارت راسخةً في طبيعة تَعاملهم مَعَ رسولِ اللّه ﷺ.

دلالةُ التّعبير بـ﴿نَشۡهَدُ﴾ مادّةً وصيغةً:

ادّعاءُ الإيمانِ بتأكيدِ الشّهادة

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبير بالفعل ﴿نَشۡهَدُ﴾ حكايةً عن المنافقين في قوله جلّ شأنه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ للدّلالة على تأكيدهم على إيمانهم، فالشّهادةُ هي خبرٌ مُؤَكَّدٌ؛ لأنّها مشتقَّةٌ مِن المشاهدة، وهي أقوى طُرُقِ العِلم والمعرفة[2]، فهو فِعلٌ دالٌّ على تأكيد ما يُعلنونه ويُخبرون به، وذلك لتأكيد إيمانهم وأنّهم صادقون بانتسابهم إلى الإسلام.

وجاء بصيغة المضارع ﴿نَشۡهَدُ﴾ للدِّلالة على تجدُّد هذه الشَّهادة منهم لدفع التُّهَم عن أنفُسِهم مِن غير أن يُطلب مِنهم أو أن يُستدعوا للشَّهادة، ولكنَّه مِن باب: (كاد المُريبُ أن يقول خذوني).

نُكتةُ العدول عن العلم إلى الشّهادة:

تأكيدُ القول وإيهامُ السّامعين

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالشَّهادة دون العلم في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾؛ لأنّهم أرادوا تأكيد قولهم، فإنّ الشّهادة بمنزلة اليمين، فكأنّهم قالوا: نُقسم[3].

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 85.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 234.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 74.

ولأنَّ الشَّهادة تَجمَعُ مَع الإقرار العِلمَ؛ فهي قولٌ صادِرٌ عَن علم حَصَلَ بمشاهدة بصيرةٍ أو بَصَرٍ؛ فالشَّهادةُ أعَمُّ؛ لأنَّ الذي يشهَدُ يعلَم، أمّا إذا لا يعلمُ فهو لا يشهد، ولأنَّ الذى يعلم ليس بالضّرورة أن يكون شاهداً حاضراً؛ لذلك كلِّه عُبِّر بقوله: ﴿نَشۡهَدُ﴾ دون (نعلم).

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في الجملة:

مـحـاولـةُ سَـترِ كَـذِبـهـم بـاسـتـخـدام المؤَكِّدات

أكَّدَ النَّظمُ الجَليلُ قولَه جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ بتتابع المؤكِّدات فَجَمَعَ بَين كَونِها اسميَّةً و(إنّ) واللّام؛ وذلك للدِّلالة على أنّهم أرادوا تأكيدَ قولِهم ذلك، وأنّه صادِرٌ عَن صميم قلوبهم؛ كأنَّهم قالوا: (إنّنا نشهد عن صميم قلوبنا بأنّك رسولُ اللّه)[1].

وفى هذا كلِّه ما يَدُلُّ على أنَّهم كاذبون منافقون؛ لأنَّ المؤمنَ الحقيقيَّ لا يحتاج إلى أنْ يُحمِّلَ نَفْسَه في كُلِّ وقتٍ مِن الأوقات التَّوكيدَ على إعلان إيمانه، إنَّما يفعل ذلك مَن هو مُتَّهَمٌ في إيمانه كالمنافقين.

سِرُّ التَّعبير بلفظ الرَّسول مَعَ دلالة إضافته إلى لفظ اسم الجلالة:

النّسبةُ إلى الله تـعـالى تـقـويةٌ للادّعاءِ وتمويهٌ للنِّفاقِ

جاء التَّعبيرُ بِلَفظ الرَّسول دون لفظ النَّبيِّ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ مِن باب مبالغة المنافقين في سَتر كَذِبهم فَكَأنَهَّم يوهمون مَن يَسمَعُ قَولهم بأنَّهم يؤمنون به حقًّا؛ لأنَّ مقام الرَّسول أعظمُ مِن مقام النَّبيِّ؛ فكان قولهم هذا لِتبرئة أنفُسِهم مِن تُهمة النِّفاق، وتأكيد إيمانهم برسالة الإسلام الَّتي يوحي بها لفظ الرَّسول، وأُضيف لفظُ الرّسول إلى اسم الجلالة لتقوية ادّعاءهم وتمويه كذبهم بجعل اعترافهم موَثَّقًا بنسبة الرّسول إلى اللّه تعالى.

دلالةُ الواو في صدر الجملة وأثرُها الدّلالي:

اعـتراضُ الكلام لِـدَفـع الـوَهـم والاحـتـراس مِن الزَّلل

افتَتح النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ بالواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 423.

﴿يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ وهي هنا اعتراضيَّةٌ، وجيء بالجملة المعترضة بين قول المنافقين وبين الإخبار عن تكذيبهم دفعًا للوهم[1]؛ إذ لو لم يذكرْه لَتَوَهَّم السّامِعُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ يَشمَلُ مضمون قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ فيكون تكذيبًا للرّسالة، فاعترض بالجملة ليدفعَ هذا الوهم ويحترسَ مِن نسبة التَّكذيب إلى رسالة النَّبيِّ ﷺ[2].

نُكتةُ تقديم المُسند إليه على المُسند الفعليّ:

تقديمُ الـذّاتِ العـليّة تأكيدٌ للحقيقةِ

قَدَّمَ النَّظمُ الجليلُ المسنَد إليه - وهو لفظ اسم الجلالة - على المسند الفعليِّ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ تأكيدًا لمضمون الخطاب، فاللّه تعالى بجلاله وعَظَمته هو الَّذي حكم بذلك وشهد به، فَعِلمُ اللّه وشهادتُه لا يضاهيها شيءٌ في التَّأكيد[3].

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ دون (يشهد):

عِـلمُه سبحانه عِـلـمٌ مُـحيـطٌ متجدّدٌ لا يزول

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفِعل المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ دون أن يقول (يشهد) مثلًا؛ لأنَّ الَّذي يَشهَد هو يَعلَمُ، فهو يشهَدُ عن حضور ومشاهدة، أمّا من يعلم فلا يشترط فيه الحضور والمشاهدة، فهو إخبارٌ عَن قوَّة العِلم[4]، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع للدّلالة على التَّجدُّد والاستمرار، فعِلمُ اللّه تعالى برسالة النَّبيِّ ﷺ دائمٌ ومستمِرٌّ لا يتغيَّرُ ولا يزول.

دلالةُ تَأكيد الجُملة الخَبَريّة:

تأكيدُ الرّسالةِ وفضحُ النِّفاقِ

أكَّدَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾؛ ليُثبِتَ رسالة النَّبيِّ ﷺ ثُبوتًا لا يَقبَلُ الشَّكَّ، فالتَّأكيدُ للرَّدِّ على إنكارِ المنافقين، فمعَ أنَّهم نَطَقوا بالشَّهادة، إلّا أنّ الإيمانَ لم يواطِئْ

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 425.
(2) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التّنزيل: 2/ 377.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 75.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 85.

قلوبَهم، لذا جاء التَّأكيدُ ليَكشِفَ كَذِبَهُم، ويُثْبِتَ الرِّسالة، فسواء شهدوا أو لم يشهدوا فالرّسالةُ حقٌّ لا تحتاج إلى شهادتهم(1).

بلاغةُ التَّعبيرُ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾:

إدمـاغُ الباطلِ وإثباتُ الحقِّ

تظهَرُ بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ في ردِّ اللّه تعالى عليهم شهادتَهم تلك وإن كانت تُعَبِّر عَن الصِّدق لأنَّها خَرَجَت مِن أفواهٍ لا تقول إلّا الزّور مِن القول؛ لذلك جاء قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ليُقيم مكانَ قولِهم الزّائِفِ قَولَةَ الحَقِّ مِن الحَقِّ سبحانه، ولهذا أيضاً وقَعَ التَّطابُقُ اللَّفظيُّ بَين قَولِهم ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ وقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ من باب ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: 18](2).

دلالةُ الواو في قوله ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾:

فـضـحُ كَـذِبِ المنافقين وكَشْفُ زيفِهم

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ قَولَه جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ على قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ كَشْفًا لِكَذِبِهم، وإعلامًا للنَّبيِّ ﷺ بِشَأنِهم(3).

نُكتَةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المسند الفعليّ:

تأكيدُ مضمونِ الخطاب وتقويةُ الحكم

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ المُسنَدَ إليه وهو لفظ اسم الجلالة على المُسنَدِ الفِعليِّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ تأكيدًا لمضمون الخطاب، وتقويةً للحُكم. فاللّه تعالى هو الذي يُخبِر عن عِلمه بِكَذِبهم وزَيفِهم(4).

فائدةُ الإظهارِ في موضع الإضمار لِلَفظِ لاسم الجلالة:

عِـظَـمُ الشّاهد للقطع بالمشهود به

وضَعَ النَّظمُ الجليلُ الاسمَ الظّاهرَ موضعَ المُضمَر في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فَأظهرَ الاسمَ الجليل

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 75.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 10/ 956.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 234 - 235.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 235.

دون الاكتفاء بالضَّمير؛ وذلك لتأكيد مضمون الخطاب، فاللهُ تعالى المحيط بجميع صفات الكمال هو الَّذي يشهد على كَذِبهم[1]. كما أنَّ وضع الاسم الظّاهر موضع المضمر فيه تكرارٌ لاسم الجلالة مِمّا يُضفي هَيبَةً وجلالَةً وتأكيدًا لمضامينِ الخِطاب.

بلاغةُ المُشاكَلةِ في الآية:

تكذيبُ القول على وجه الكفاية

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل ﴿يَشۡهَدُ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ ليكونَ مقابَلَةً ومشاكَلَةً لقولهم: ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾، فيكون تكذيبُ اللّه تعالى لهم وإبطالُه لقولهم مساويًا لِخَبَرِهم وقَولِهم[2]. وهذا مِن جماليّات التَّعبير القرآنيّ.

دلالةُ التَّعبير بالفِعلِ ﴿يَشۡهَدُ﴾ مادّةً وصيغةً:

شهادةٌ دائمةٌ لفضح كَذِبهم المستمرِّ

عَبَّرَ النَّظمُ الجَليلُ بالفعل ﴿يَشۡهَدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنّها هي الشّهادة الحقيقيَّة لا ما يزعمه المنافقون؛ فإنّ الشّهادة تَتَضَمَّنُ شيئَين: صِدقَ مضمون الخبر، والإذعانَ له؛ فَصَدَّقَهم اللّه في الأوّل (إثبات الرّسالة) وكَذَّبَهم في الثّاني (طاعة الرَّسول)، فصارو بنفاقهم أسفَلَ حالاً مِن اليهود.[3]

وعبَّرَ عن الشَّهادة بالفعل المضارع ﴿يَشۡهَدُ﴾ للدّلالة على استمرار شهادته تعالى عليهم بالكَذِب، فهي شهادةٌ لا تزول، وهذا يقتضي أنَّ كَذِبَهم دائمٌ مستمِرٌّ.

نُكتةُ تأكيد قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾:

تأكيدُ النِّفاق وتبيينُ الشَّهادة

أكَّد النَّظمُ الجليلُ الجُملَةَ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ لتأكيد نِفاقِهم وكَذِبهم، وذلك لأنّهم عرضوا شهادتهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 75.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 235.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 606.

بطريقة التّأكيد فجاء تكذيبُهم بأسلوبٍ يُبطِلُ ادِّعاءَهم ويُثبِتُ كَذِبَهم، وفي هذا تحذيرٌ للنَّبيِّ ﷺ والمسلمين مَعَه من هذه الطّائِفة ليَحذروهم ويختبروا أحوالَهم؛ لأنَّهم كانوا مبثوثين ومنتشرين في المجتمع الإسلاميِّ.[1]

دلالةُ التَّعبير بالإظهار موضعَ الإضمار:

الـذمّ بالصّفةِ وتعليلُ التَّكذيبِ

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ أن يُعَبِّرَ بالاسم الظّاهر ﴿ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ مَوضِعَ المُضمَرِ في قوله جَلَّ شَأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فلم يقل: (يشهد إنّهم لكاذبون)؛ وذلك لإظهار صِفَتهم المذمومة، ولبيان عِلَّة الحكم، فكذبُهم إنَّما هو بسبب كونِهم منافقين[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكذب مادَّةً وصيغَةً:

مخالفةُ القولِ للواقع، والتَّلازُمُ بين النِّفاق والكَذِب

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الكذب في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ للدِّلالة على أنَّ كلامَهم يُخالف الواقع، فَهُم كاذبون في إخبارهم عن شهادتهم برسالة النَّبيِّ ﷺ؛ لأنّه خَبَرٌ يُخالِف ما في أنفُسِهم ومُعتَقَدِهم؛ وبهذا الاختلاف صاروا منافقين[3]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل دون الفعل للدِّلالة على عَراقَتِهم بالكَذِب وثبوتِ الوَصْفِ بهم.

بلاغةُ حَذفِ مُتَعَلَّق الكَذب:

كـذبُ المنافقين عـامٌّ لا يختصُّ بحالٍ

حذَفَ النَّظمُ الجليل مُتَعَلَّقَ الكَذِب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ اكتفاءً بدلالة السّياق، فَهُم كاذبون في شهادتهم برسالة النَّبيِّ ﷺ، وفي صدق اعتقادهم[4]. كما أنّهم قد دَأَبوا على الكَذِب حَتَّى صار في عامّة كلامهم، فَكَذِبُهم عامٌّ لا يختصُّ بحالٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 235.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 235.
(4) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 146.

كشفُ الدّافعِ الخفيِّ للكذب

نُكتةُ فَصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا[1]؛ سيقت للجواب عن سؤالٍ مُقَدَّرٍ يُثار في ذِهن السّامع بعد تكذيب اللّه تعالى للمنافقين في شهادتهم برسالة النَّبيِّ ﷺ، فَكَأنَّه قيل: لماذا نَطَقوا بالشَّهادة إذا كانوا كاذبين؟ فقيل إنَّهم اتَّخذوها تَقيَّةً ودِرعًا يَتَّقون به المؤمنين، ويُخفون وراءه كُفرَهم ونِفاقَهم[2].

سَترُ الكُفرِ بالكَذِبِ تقيَّةً

دلالةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذ مادَّةً وصيغَةً:

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بِفعلِ الاتِّخاذ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ لِلدِّلالة على أنَّهُم صَيَّروا الأيمان والشَّهادة دِرعًا للاتّقاء، وجعلوه تغطيةً لِكُفرهم[3]، وقد جاء التَّعبيرُ بصيغة الافتعال للدِّلالة على تَكَلُّفِهم وتَصَنُّعِهم، وعلى بذلِ الجُهد في التَّخفّي وراء هذه الأيمان، كَأنَّهم حازوا شيئًا يستترون وراءه، ويَدُلُّ ذلك على أنَّ الأيمانَ لم تَصدُر مِنهُم عفويًّا، بل صاغوها عَمدًا وتَكَلُّفًا، وبعِلمِهم أنَّ ما يفعلونه خارِجٌ عَن الحقيقة والطَّبيعة.

جعلوا الشَّهادة المُؤَكَّدة في قوَّة اليمين

بلاغةُ المجاز في التَّعبير عن شهادتهم بالأيمان:

عَبَّرَ النَّظمُ الكريمُ بـ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ مجازًا عن شهادتهم، إذ لم تكن شهادتُهم يمينًا صريحَةً، لكنَّها بَلَغَت في تَكَلُّفِها حَدَّ القَسَم، فصارت في قوَّة اليمين. وهذا مجازٌ مُرسلٌ بجامع التَّوكيد، وفيه كشفٌ لِتَمويهِهِم، حيثُ زَيَّنوا كَذِبَهم بظاهر التَّوكيد، فاتَّخذوه سترًا يخدعون به النّاس، قال الطّيبيُّ: "أي: اتَّخذوا شهادتهم تلك سُترةً

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 275.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 236.

(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 86.

سَتَروا بها ما أخفَوه في أنفُسهم، وخافوا أن يَظهَر أثرُه، وفيه إشعارٌ بأنَّ وكادَتَهم لتلك الشَّهادة بلغت مبلغ الحَلِفِ والأيمان، فإذن لا يُسمَّى كلُّ شهادةٍ يمينًا"[1].

دلالةُ الجمع والإضافة في ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾:

الإكثارُ مِن الشَّهادة، تمويهًا وخِداعًا

جاء التَّعبيرُ بالجمع في لفظ ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ للدِّلالة على أنَّهم يبالغون في التَّستُّر، كَأنَّ كُلَّ واحدٍ مِنهم يَحلِفُ هذا اليمينَ ويَشهَدُ هذه الشَّهادَةَ على أنَّه رسولُ اللّه، وهذا جزءٌ مِن تصوير حالة الخداع عند المنافقين؛ يُؤَكِّد هذا الإضافةُ في قوله: ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ المفيدةُ للتَّعريف، حيث جعلوها وحدها سبيلَ النَّجاة في زعمهم، ودليلَ البراءة مِمّا قد يوَجَّهُ إليهم مِن التُّهَم.

بلاغةُ التّشبيه في قوله: ﴿جُنَّةٗ﴾:

تَـتَرُّسُ المنافق بِـدِرع الكَـذِب والخِداع

شَبَّه النَّظمُ الكريمُ الأيمانَ بالجُنَّة في قوله جَلَّ شَأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وهو تشبيهٌ بليغٌ؛ حُذِفَت أداةُ التَّشبيهِ ووَجْهُ الشَّبَه؛ للدِّلالة على قوَّة الشَّبه بينهما؛ إذ جعلوا أيمانهم وقايةً يتّقون بها انكشافَ نفاقهم كما يُتَّقَى بالتُّرس في القِتال[2].

وقد آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ﴿جُنَّةٗ﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ دون (وقاية)؛ لأنَّها أخَصُّ؛ فأصلُ (الجَنِّ) سَترُ الشّيء عَن الحاسَّة، ويُقال: (جَنَّه اللَّيلُ وأجَنَّه) سَتَرَه، والمِجَنُّ: التُّرس الذي يَجُنُّ صاحِبَه؛ فجاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بهذه المادَّةِ الدّالَّة على شدّة السّتر موافقةً لسترهم الكُفرَ ومحاولة إخفائه، فناسب التَّعبيرُ بهذا اللَّفظ مواطَأةً لِفعلِهم؛ بخلاف الوقاية فإنّها تُطلَق على كُلِّ ما يقي الشَّيءَ ويحفَظُه، وهذا غيرُ مرادٍ في هذا السّياق[3].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 427.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 236.
(3) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات القرآن: (جنن، وقي).

وقيل بأنَّ الجُنَّة مخصوصةٌ بالوقاية مِن المكاره الدُّنيَويَّة؛ فَهُم يَتَستَّرون بها ليصونوا دماءهم وأموالهم مِن القتل والأخذ.(1)

نُكتةُ تنكير ﴿جُنَّةً﴾:

جُنَّةٌ موهومَةٌ لا يُعَوَّلُ عليها

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بتنكير لفظ ﴿جُنَّةً﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ تحقيرًا وتقليلًا لشأن هذا الاتّقاء، فهي ليست جُنّةً حقيقيَّةً، بل وقايةٌ زائفةٌ لا تدفعُ ضُرًّا ولا تَكتُمُ الحقيقة، فجاء التّنكير تعبيرًا عن كونها جُنَّةً موهومةً لا يُعوَّل عليها كما يزعمون ويعتقدون.

دلالةُ الفاء في قوله ﴿فَصَدُّواْ﴾:

تفريعٌ لبيانِ عِلَّةِ الصَّدِّ وأصلِه

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفاء في قوله جَلَّ شأنه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وهي هنا دالَّةٌ على السَّبَبِيَّة، فقد صَدّوا النّاسَ عن الإيمان بسبب ما يصدُرُ مِنهم مِن التَّشكيك، والقَدْحِ في النّبوّة(2)، كما أنَّها فَرَّعَت الصَّدَّ عن سبيل الله على الحلف الكاذب، فَرَبَطَت ما بعدها بما قبلها على وجه النَّتيجة والمآل. فبسبب اتِّخاذهم الأيمانَ جُنَّةً، تَرَتَّب عليه الصَّدُّ عن سبيل الله(3).

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَصَدُّواْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

مَنعُ النّاس وصَرفُهم عن سبيلِ اللهِ غايةُ المنافقين

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بالصَّدِّ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ دون المنع؛ لأنَّ الصَّدَّ أشَدُّ المنع، فإنَّه مأخوذٌ مِن مادَّةِ (صدد) الدّالَّة على اعتراضٍ بقَويٍّ أو كثيفٍ يَرُدُّ المُقبل أو يمنعه كالجبل؛ والمنافقون يحولون بين النّاس والأعمال الصّالحة؛ فيصرفونهم عنها، وذلك بسبب ما يُبدونه مِن تشكيكٍ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 607.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 146.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 236.

بالنُّبوَّة[1]. فاستعملوا أيمانَهم الكاذبةَ كستارٍ ليقوموا بهذا الدَّور الهدّام في الصَّدِّ عن سبيل الحقِّ.

والصَّدُّ مِن معانيه الانصرافُ عن الشَّيء، وهم انصرفوا عن الإيمان باللّه وبرسوله؛ وجاء التَّعبيرُ بالفعل الماضي للدّلالة على تَحَقُّقِ ذلك المسلك، وهو الصَّدُّ عَن سبيل اللّه.

فائدةُ تعدية الفعل ﴿فَصَدُّواْ﴾ بـ﴿عَن﴾:

عدّى النَّظمُ الجليلُ فِعلَ الصَّدِّ بحرف الجرِّ ﴿عَن﴾ الدّالِّ على المجاوزة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ للدِّلالةِ على إبعادهم النّاس عن الإيمان باللّه بسبب ما يصدر منهم من التَّشكيك والقدح في النُّبوَّة.

نُكتةُ حَذفِ مُتعلَّق فِعل الصَّدِّ:

غـايـةُ المنافقين شـمـولُ الـصَّـدِّ وعـمـومُه لِـكُـلِّ أحَدٍ

حَذَفَ النَّظمُ الجليل مُتَعلَّق فِعل الصَّدِّ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ فَلَمْ يَذكُر مَن الَّذي وقَعَ عليه الصَّدُّ؛ وذلك للدِّلالة على التَّعميم والإطلاق؛ فالمنافقون لم يصدّوا فِئةً مُعَيَّنَةً مِن النّاس، بل سَعَوا لِصَدِّ كُلِّ النّاس، المسلمين والكافرين، وكُلِّ مَن بدا له الحقُّ ورَغِب فيه، وفي هذا دلالةٌ على قُبح سلوك هؤلاء؛ فَلَم يكتفوا بنفاقهم، بَلْ أرادوا تعديَتَه للآخَرين.

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

الـدّيـنُ طـريـقُ الـهُـدى وسبيلُ النَّجاة

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ السَّبيلِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وهو الطَّريقُ السَّهلُ الواضح[2]. وأوثر استعمالُه دون لفظ (الطَّريق) لِما في الطَّريق من معنى الصُّعوبة بخلاف يُسر (السَّبيل)؛ ولهذا يغلِبُ استعمالُ (السَّبيل) في الخير.

واستُعير هنا تعبيرًا عن الدّين القويم الَّذي ارتضاه لعباده، كما

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 146.

(2) الرّاغب، المفردات: (سبل).

صرَّحَ به في قوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: 3](1).

فَشُبِّهَ الدّينُ بالطَّريقِ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، حيث صُرِّحَ بلفظ المشبَّهِ به (السَّبيل) وحُذف المشبَّهُ (الدّين)، وهذا يَدُلُّ على أنَّ الدّينَ هو مَنهَجُ حياةٍ وطريقٍ يسلُكُه الإنسانُ للوصول إلى مرضاة اللّه والفوزِ في الآخرة.

ومِن بلاغة هذه الاستعارة اشتمالُها على تشبيه المنافقين الَّذين يمنعون النّاس عن الإيمان باللّه وعمل الصّالحات بِمَن يَصُدُّ النّاس بقوَّةٍ ويَضَعُ أمامهم العراقيل في طريق سَيرِهم إلى المقصود الَّذي يوصلهم إلى الإيمان.

دلالةُ إضافة السَّبيلِ إلى لفظ اسم الجلالة:

تعظيمُ المنهج وتهويلُ الجُرمِ بالصَّدِّ عَنه

أضاف النَّظمُ الجليلُ لَفظَ السَّبيل إلى اسم الجلالة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ تعظيمًا لشأنِ السَّبيلِ بنسبتِهِ للّه تعالى، وهذا يَؤول إلى التَّشنيع على المنافقين، والتَّصريح بِعِظَم جُرمِهم؛ فَهُم يَصُدّون النّاس عن السَّبيل الذي تَشَرَّفَ بالانتساب إلى اللّه تعالى، وهو منهجٌ قويمٌ فيه سعادةُ الدّارَين.

نُكتةُ فَصلِ قوله ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ عَمّا سَبَقَ لأنّها مُستأنفةٌ، سيقت تذييلًا لِما سَبَقَ من القول، لتفظيع حال المنافقين عند السّامع(2).

نُكتةُ تَتابُعِ المؤكّدات في فاصلة الآية:

تـقـريـرُ قُـبـحِ النِّفاق، والتَّأكيدُ عـلـى سـوءِ أفعالهم

أكَّدَ النَّظمُ الجليل الجُملَةَ في قَوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وذلك لتأكيد قُبحِ أعمال المنافقين، ولِتثبيت حَقيقةِ سوء أفعالهم، ولِأنَّهم كانوا مُعجَبين بِحالهم، فجاء التَّأكيدُ القاطِعُ إبطالًا

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 717.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 236.

لذلك[1]، وإنكارًا على ما اعتقدوه مِن أنَّهم يُحسِنون بفعلهم ذلك كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة: 11 - 12].[2]

دلالةُ التَّعبير بـ﴿سَآءَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أفعالُ المنافقين قَبيحَةٌ مَذمومَةٌ

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بالفعل ﴿سَآءَ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهو فِعلٌ دالٌّ على الذَّمِّ، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، وتقديرُه: ساء العَمَلُ ما كانوا يعملون، أو: ساء ما كانوا يعملون عَمَلُهم، وذلك لتقبيح أعمالهم؛ أي: بئسَ تلك الأعمالُ القبيحةُ الَّتي يأتونها، مِن نفاقهم وأيمانهم الكاذبة، وصَدِّهم النّاس عن الإيمان[3].

والملاحَظُ في السّياقِ القرآنيِّ وصفُ أعمال المنافقين بالسّوءِ دون أعمال الكافرين، في ثلاثة مواضع من الكتاب العزيز، هنا: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وفي سورة المجادلة (15)، وفي سورة التَّوبة (9)؛ وذلك لِما اختَصَّ به المنافقون مِنَ الأيمان الكاذبة التي جعلوها سُترَةً لأموالهم ودمائهم حتَّى لا يستبيحها المسلمون.[4]

دلالةُ تقديم المُسنَد إليه على المُسنَد الفِعليّ:

تأكيدُ اتّصافِ المنافقينَ بالسّوءِ

قدَّمَ النَّظمُ الجليل المُسنَدَ إليه، وهوضمير الغائبين (هم)، على المُسنَد الفِعليِّ، وهو الفعل ﴿سَآءَ﴾، في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: (ساءَ ما كانوا يعملون) مباشرةً؛ وذلك لتأكيد اتّصافهم بسوء الأفعال، ورسوخ هذا الوصف فيهم. ويوَجِّهُ التَّقديمُ الاهتمامَ إلى ذات المنافقين، ليُقرِّرَ حُكم السّوء عليهم مباشرة. وهذا أبلَغُ في وصفِهم بالسّوء.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 78.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 78.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 717.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 230.

سِرُّ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قولِه ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

تقبيحُ أعمال المنافقين على وجه الشُّمول

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بـ﴿مَا﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وهي هنا نَكِرةٌ موصوفةٌ بمعنى (شيئًا)، والجملةُ الفعليَّةُ بعدها صفتُها، والرّابط محذوفٌ، والتَّقدير: (ساء الشَّيءُ شيئًا كانوا يعملونه)[1]. ويجوز أن تكون موصولةً، والجُملة الفعليَّةُ بعدها صِلَةٌ، أي: (بئس الَّذي كانوا يعملونه)، وهذا المعنى يُفيدُ الشُّمول، فيشمل كُلَّ الأقوال والأفعال الَّتي كانوا يقومون بها مِن نفاقٍ وصَدٍّ عن سبيل اللّه واتِّخاذ الأيمانِ جُنَّةً وغيرِها[2]. وفي هذا دلالةٌ على أنَّه لا يصدر مِن المنافقين إلّا العملُ السَّيّئُ، وفي هذا مزيدُ تبكيتٍ وتوبيخٍ لَهُم.

دلالةُ التَّعبير بقوله ﴿كَانُواْ﴾:

سوءُ العمل وقُبحُه طَبعُ المنافقين

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بِفعلِ الكَون في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وذلك للدِّلالة على الاستمراريَّة والتَّكرار، فالسّوء الَّذي يقوم به المنافقون ليس عارضًا أو مُؤَقَّتًا، بل هو دائمٌ ومستمرٌّ ومتكرِّرٌ. وهذا يدُلُّ على أنّ هذه الأعمال السَّيِّئَة قد أصبَحَت صِفَةً راسخةً فيهم، وجُزءًا لا يَتَجَزَّأُ مِن سلوكهم.

دلالةُ التَّعبير بـ(العمل) مادَّةً وصيغَةً:

الاستمرارُ على السّوء مع القصدِ وسوءِ النّيّة

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالعمل في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لأنَّه يَدُلُّ على ما فُعِل بقَصدٍ[3]، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم فَعَلوا ذلك بقَصدٍ وإصرارٍ وسوءِ نيَّةٍ، وجاء التَّعبير بالفعل المضارع للدِّلالة على استمرارهم بِفِعلِ ذلك وتَجَدُّدِ إساءتهم[4].

وَوَقَعَ الوصفُ بالسّوء على (الأعمال) دون (الأقوال)؛ لأنَّ

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 717.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 86.
(3) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 78.

الأعمال هي الَّتي تَظهرُ على مَحكِّها الأقوال؛ أمّا الأقوالُ فما أكثَرَ ما تُخالفُها الأعمال؛ فقد يكون القولُ في ظاهِرِه حَسَناً جَميلاً على حين يكون العمل مِن ورائِه سَيِّئاً خبيثاً، وإنَّه لن يكون عملٌ طيِّبٌ إلّا وكان مَعَه القولُ الطَّيِّبُ؛ لأنَّ القولَ أخَفُّ مُؤنَةً مِن العَمَل، ولهذا كانت الأعمالُ هي مناطَ الحساب والجزاء.(1)

دلالةُ حَذفِ مفعول ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

حُذِف مفعولُ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ لإفادة العموم؛ فَكُلُّ ما يصدر عنهم هو عملٌ سَيِّئٌ مع أنفُسِهم أو مع غيرهم.

نُكتةُ فَصلِ الآية عن سابقتها:

سببُ سوء أعمالِ المنافقين رسوخُ الكُفرِ في نُفوسِهم

فَصَلَ النَّظمُ الجليل الجملة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا تعليليًّا؛ فقد سيقت لتعليل مضمون قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، أي إنّ سبب جُرأتِهم على المعاصي والنِّفاق هو استخفافُهم بالأيمان وارتدادُهم عن الإيمان، فَلَمّا رَسَخَ الكُفرُ في نفوسهم تَجَرَّأت أنفُسُهم على الجرائم، فَطُبِعَ عليها فلا يخلُصُ إليها الخير(2).

سِرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

ما أقبَحَ النِّفاق وأبعَدَه في منازِلِ الشَّرِّ والسّوء

آثَرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدّالِّ على البُعد في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ مُشيرًا إلى نِفاقهم وصَدِّهم عن سبيل الله، واتّخاذهم الأيمانَ جُنَّةً، أو مُشيرًا إلى عُمومِ سوءِ أعمالهم مِمّا ذُكِرَ في قوله: ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. وقد جيء به بصيغة البُعدِ للدِّلالة على بُعدِ المذكورات في

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 10/ 958.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 237.

منازل السّوء والشَّرِّ[1]، خاصّةً؛ لأنَّه لَمّا كان الكفرُ مستبعداً، فَكَيف به بعد الإقرار؟.

دلالةُ الباء في قولِه ﴿بِأَنَّهُمْ﴾:

سَبَبُ ذَمِّ المنافقين تَذَبذُبهم بين الإيمان والكفر

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الجَرِّ (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ وهو هنا بمعنى السَّبَبِيَّة، فَسَبَبُ ذَمِّهم ونِسبَتِهم إلى الشَّرِّ وجُرأتهم على الله أنَّهم آمنوا ثُمَّ تَرَكوا الإيمانَ وارتَدّوا إلى الكفر واستبدلوا الضَّلالَ بالهُدى[2].

دلالةُ تأكيد جُملةِ ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾:

أكَّدَ النَّظمُ الجَليلُ الجُملَةَ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ وذلك لتأكيدِ تَحَقُّقِ إيمانهم قَبْلَ كُفرِهم، وهذا يُشير إلى عِظم جُرم كُفرِهم، فَهُم قَد عَرَفوا الحَقَّ ثُمَّ أعرَضوا عنه؛ لِمَرَضٍ في قُلوبِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِعل ﴿ءَامَنُواْ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

تَحَقُّقُ الإيمان يُظهِرُ عِظَمَ جِنايةِ النِّفاق

عَبَّرَ النَّظمُ الكريمُ عَن إيمانِهم بالفِعل الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؛ لتأكيدِ تَحَقُّقِ إيمانهم، فَهُم قد نَطَقوا بكلمة الشَّهادة كسائر المسلمين[3].

وفي بيانِ طبيعةِ تَحَقُّقِ إيمانِهم هذا - مع أنَّ المنافقين لم يكونوا إلّا على الكفر الثّابت - عِدَّةُ أوجُهٍ:

أوَّلُها: أنَّ المراد بقوله ﴿ءَامَنُواْ﴾: نَطَقوا بكلمة الشَّهادة وفعلوا كما يفعل مَن يَدخُل في الإسلام ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾: أي ظهر كفرهم بعد ذلك. **وثانيها**: أنَّ المراد به: نطقوا بالإيمان عند المؤمنين، ثُمَّ نَطَقوا بالكفر عند شياطينهم استهزاءً بالإسلام. **وثالثُها**: أنَّ المرادَ أهلُ الرِّدَّة منهم؛ فالمنافق قبل أن يُنافق يُمكن أن يَكون قَد آمن ثُمَّ كفر.[4]

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 330.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾:

النِّفاقُ بإظهار الإيمان أشَدُّ شناعةً مِن الكفر الصَّريح

عَبَّرَ النَّظمُ الجَليلُ بِحَرفِ العَطفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ وهي هُنا لِلتَّراخي الرُّتَبيِّ؛ فإنَّ الكُفرَ أرسخُ فيهم مِن إيمانهم الظّاهِريِّ، ويجوز أن يراد بها التَّراخي الزَّمانيُّ، فَقَد كَفَروا بَعدَ مُهلَةٍ[1]. وهذا يَدُلُّ على تَعَمُّدِهم الضَّلال والكُفرَ والنِّفاق حَتَّى يَفتِنوا المؤمنين في إيمانهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾:

عَبَّرَ النَّظمُ الكريم عن الكفر بالفعل الماضي في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؛ لتأكيدِ تَحَقُّقِ كُفرِهم، فهو كُفرٌ ظاهِرٌ مُحَقَّقٌ مُشاهَدٌ، قد بانت دلائلُه[2]. فهو راسِخٌ في قلوبهم، ظاهِرٌ في سلوكهم.

نُكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ الكفر:

شناعةُ الكُفرِ بِكُلِّ واجبات الإيمان

حَذَفَ النَّظمُ الجَليلُ مُتَعَلَّقَ الكُفرِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؛ وذلك للدِّلالة على شمول كفرهم لِكُلِّ ما يجب الإيمان به، فهو حَذفٌ بليغٌ يَدُلُّ مع الإيجاز على عِظَمِ الكُفر وأصالتِه فيهم، فَقَد جَحَدوا بِكُلِّ أركان الإيمان.

بلاغةُ الطِّباق بين الإيمان والكفر:

مفارقةٌ بَيِّنَةٌ تَفضَحُ تَذبذُبَ المنافقين

جَمَعَ النَّظمُ الجليل بين لفظَيِ الإيمانِ والكُفرِ في جُمَلةٍ واحدةٍ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ للطِّباق بينهما، وهذا يُظهِرُ التَّناقُضَ الشَّديدَ في حال المنافقين، ويُبَيِّنُ تَقَلُّبَهم الوشيك بين الإيمان والكفر، تقبيحًا لِفعلِهم وجنايتهم.

دلالةُ الفاء في قوله ﴿فَطُبِعَ﴾:

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفاء في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 28/ 237.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.

الطَّبعُ على القلوب نَتيجةٌ لأعمال المنافقين

وهي هنا دالَّةٌ على السَّبَبيَّة، أي إنَّ الطَّبعَ على قلوبهم كان بسبب ما تَقدَّمَ مِن تَقلُّبِهم مِن الإيمان إلى الكفر، وإظهارِ نِفاقِهم[1]. فالفاءُ تربط بين أفعال المنافقين الشَّنيعة مِن الكفر بعد الإيمان، والصَّدِّ عن الحقِّ وما نَتَجَ عنها وترتَّبَ عليها مِن الطَّبع على القلوب.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿فَطُبِعَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

غلقٌ مُحكَمٌ وعُقوبَةٌ لا تُفَكُّ

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفعل ﴿فَطُبِعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ ما خُلِقَ في قلوبهم وقَرَّ فيها مِن الرَّيب والشَّكِّ لا يزول حتّى يُلاقوا مصيرَهم إلى النّار[2]؛ لأنَّ توبة المنافقين تكادُ تكون منعدمةً، وعُبِّر بالطَّبع دون الخَتم لأنَّ الطَّبعَ أشَدُّ مِن الختم، فالخَتمُ بدايةُ الطَّبع، والطَّبعُ إغلاقٌ تامٌّ مُحكَمٌ، وهو يشير إلى أنَّ قلوبَهم بَلَغت مَبلغًا مِن العناد والزَّيغ لا تنال الهدى بعده[3]؛ كما أنَّ صيغة الفعل المبنيِّ للمفعولِ تَدُلُّ على تعظيم الطَّبعِ والاهتمام به لا بالنَّظَر لكونه مِن مُعَيَّنٍ. مع أنّه مِن المعلوم أنَّ الله وحدَه يقدِرُ على ذلك[4].

بلاغةُ المجاز في الطّبع على القلوب:

الطَّبعُ على القلوب بمعنى فقدان آليّة الفقه

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالطَّبع على القلوب في قوله جلّ شأنه: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ استعارةً للبَلادةِ وعدم الفهم، وهما مِن أسباب منع العلم والفقه، فشبَّهَ قلوبَ المنافقين الَّتي لا يدخلها الإيمانُ بالأوعية المختومة الَّتي لا يدخلها شيء، وذلك جزاءً على كذبهم ونفاقهم[5].

نُكتةُ تعدية فِعلِ الطَّبعِ بحَرفِ الاستعلاء:

شِدَّةُ إغلاق قلوب المنافقين عن قَبولِ الحَقِّ

عُدّيَ فِعلُ الطَّبعِ في قوله جَلَّ شأنه: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بحرف

(1) محمَّد الهلال، تفسير القرآن الثَّريّ الجامع: 28/ 87.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 312.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 87.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 79.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 718.

الجَرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعلاء، وذلك للدِّلالة على أنَّ الطَّبع مُتَمَكِّنٌ مِن قلوبهم، مستولٍ وجاثمٌ عليها، مُحيطٌ بها مِن كُلِّ جانب، لا يَدَعُ لها منفذًا لِفَهمٍ أو هدايةٍ. وهو تصويرٌ بليغٌ لانغلاق قلوبهم التّامِّ عن الحَقِّ.

دِلالةُ الفاء في قوله ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾:

حِرمانُ الفَهم والعلم مُترتِّبٌ على عقوبة الطَّبعِ

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الفاء في قوله جَلَّ شأنه: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ وهي هنا للتّفريع، ففرَّعت انتفاء الفقه عنهم على ما قبلها، فإنَّ عَدَم الفقه نتيجةٌ حتميَّةٌ لطبع قلوبهم. فبَعدَ أن خُتم عليها جزاءً على نفاقهم وتقلُّبهم، ترتَّب على ذلك انعدامُ بصيرتهم وزوالُ إدراكهم للحقائق، فغشاوةُ الطَّبع صارت حاجزًا يمنعهم مِن الفهم والهداية[1] ويجوز أن تكون الفاءُ في قوله: ﴿فَهُمۡ﴾ تفريعًا على قوله: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾، فصار كُفرُهم بعد الإيمان سببًا في سوء أعمالهم بمقتضى فاء السَّببيَّة، وسببًا في انتفاء إدراكهم الحقائقَ النَّظريَّةَ بمقتضى فاء التَّفريع.[2]

نُكتةُ تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

انتفاءُ الفهم والفقه صفةٌ مُؤَكَّدةٌ في المنافقين

قدَّمَ النَّظمُ الجليل المُسندَ إليه وهو الضَّميرُ المنفصلُ (هم) على المسندِ وهو الفِعلُ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾؛ لِتأكيدِ انتفاء الفَهمِ عنهم، وتقويةً لمضمون الخطاب[3].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿يَفۡقَهُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

انطفاءُ الفهم الباطِنِ والإدراكِ السَّليمِ للحقائق

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفقه في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ دون (لا يعقلون)؛ إذ الفقهُ يَدُلُّ على العلم بالشَّيء والفَهم له[4]، بخلافِ العَقلِ الَّذي يُقالُ للقوَّةِ المتهيِّئة لقَبول العلم؛ وعلى ذلك

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 238.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 238.

(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 87.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).

فالفقه أعلى درجةً، لأنَّه يُراد به فهمُ الحقائقِ الخَفيَّة. والمعنى: إنَّهم لا يُدرِكون دلائلَ الإيمان، فلذا هم لا يعلمون حقيقته[1]. ونفيُه هنا يُشير إلى عَمًى قلبيٍّ، فَهُم لا يُمَيِّزون بين الحقِّ والباطل. فهو نفيٌ عن المنافقين إعمالَ العقل فضلًا عن الفقه؛ فإنَّ المنافقين يَظُنّون بتستُّرِهم وإخفاءِ ما يُضمرون للمسلمين أنَّهم في مأمنٍ؛ فجاء التَّعبيرُ بنفي الفقه مِن باب التَّعريض بهم، ولذلك جاء بصيغة المضارع المنفيِّ ليَدُلَّ على الاستمرار والثُّبوت، فهم في حالةٍ دائمةٍ مِن التّيه والضَّلال.

نُكتةُ حَذفِ مفعول ﴿يَفۡقَهُونَ﴾:

خلوُّ عقول المنافقين مِن كُلِّ فَهمٍ

حذَفَ النَّظمُ الجليلُ مفعولَ الفقهِ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ وذلك لِما في الحَذفِ مِن دلالةٍ على التَّعميم، فَهُم لا يفقهون حقيقَةَ الإيمانِ، ولا فوائدَه عليهم وضرورتَه في حياتهم[2]. فكأنَّ فِقهَهم قد سُلب جملةً، فلا عقولَ تَهتدي، ولا قلوبَ تعي.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّهادة والعِلم:

الشّهادة أخصّ مـن العلم فهي العلم بما شوهد دون ما غاب

الشَّهادَةُ أخَصُّ مِن العِلم؛ لأنَّ الشَّهادة عِلمٌ يتناول المُشاهَد، والعِلمُ يتناوَلُ المُشاهَد والغائِبَ[3]. فالَّذي يشهَدُ يعلَمُ، لأنَّه حاضِرٌ ويَعلَمُ ما يَحدُثُ، والَّذي يَعلَم ليس بالضَّرورة أن يكون شاهدًا، فهو يَعلَمُ بدون حضورٍ، بأن يُخبِرَه غيره[4]. وعَبَّر في الآية بلفظ المشاهدة للدِّلالة على تأكيدِ العِلم، هذا من جهة المعنى، كما لا يخفى ما يُضفيه لفظ ﴿يَشۡهَدُ﴾ من جمالٍ ذوقيٍّ في مُجانسة ﴿نَشۡهَدُ﴾، وبيان عظيم الفَرقِ بين الشَّهادتين.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 238.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 252.

(3) العسكريّ، الفروق، ص: 95 - 96.

(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 85.

العمل والفعل والصُّنع:

العمل أعمّ من الصُّنع، وأخصّ من الفعل

الفِعْلُ: التَّأثيرُ مِن جهة مُؤَثِّرٍ، وهو عامٌّ لِما كان بإجادةٍ أو غير إجادةٍ، ولِما كان بِعلم أو بغير عِلم، وقَصدٍ أو غيرِ قَصدٍ، ولِما كان مِن الإنسانِ والحيوانِ والجماداتِ[1]. أمّا العَمَلُ فهو كُلُّ فِعلٍ بِقَصدٍ، فهو أخصُّ مِن الفِعلِ[2]. أمّا الصُّنعُ فهو ترتيبُ العمل وإحكامُه، وتقدُّم العلمِ به وبما يوصِل إلى المراد منه، ولذلك قيل للنَّجّار صانِعٌ، ولا يقالُ للتّاجر صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجّارَ قد سَبَقَ عِلمُه بما يريد عَمَلَه مِن سريرٍ أو باب، ويَعلَمُ الأسبابَ الَّتي توصِل إلى ذلك، والتّاجِر لا يعلم إذا اتَّجر أنَّه يَصِل إلى ما يريده مِن الرِّبح، وفي الصُّنع جودةٌ وحذقٌ[3]، فهو أخصُّ مِن العمل، فلا يقال إلّا لِما كان مِن الإنسان بقَصدٍ واختيار، وبعدَ فِكرٍ وتحرٍّ. وقد عبَّرَ في الآية الكريمة بالعمل لأنّ العمل يشمل أعمال القلوب وغيرها، ولأنّه يدُلُّ على ما عُمِلَ بِقَصدٍ.

الطَّبع والخَتم:

الطَّبعُ إغلاقٌ ثابِتٌ، والخَتمُ يحتمل الزَّوال

الطَّبْعُ أَثَرٌ يثبُتُ في المطبوع ويلازمُه، فيُفيدُ مِن معنى الثَّباتِ واللُّزوم ما لا يفيدُهُ الخَتْم، ولهذا قيل طُبِعَ الدِّرْهَمُ طبعًا، وهو أثَرٌ لا يَزول عَنهُ، وطبعُ الإنسان ثابتٌ غيرُ زائلٍ[4]. فالطَّبعُ أشَدُّ مِن الخَتم؛ وذلك لأنَّه لا يُفَكُّ، أمّا الخَتمُ فقد يُفَكُّ[5]. فَعَبَّرَ في الآية بالطَّبع لأَنَّ قلوبَهم قد خُتِم عليها للأبد، فلا يتطرَّقُ إليها سبيلُ الهُدى.

ومِن الفروق بينهما أنَّ الطَّبع علامةٌ للمنافقين والأقوام السابقة الَّتي أعرضت عن الهدى وتولَّت عن النَّظر في الدَّلائل الواضحة الَّتي تدعوهم إلى الإيمان؛ بخلاف الخَتم فإنَّه يَرِد غالبًا في جانب

(1) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 135 - 136.
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 73.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 87.

الكُفّار، ومعلومٌ أنَّ المنافقين أشدُّ ضرراً مِن الكُفّار، وآيات القرآن في إسناد الطَّبع إلى المنافقين كثيرةٌ وظاهرةٌ.

(لا يعقلون) و(لا يفقهون):

الفقهُ تَوَصُّلٌ للعلم وإدراكٌ له، والعقلُ قيدٌ للعلم والانتفاعِ به

الفِقْهُ: العِلْمُ بِالشَّيءِ والفهمُ لَهُ[1]. وهو التَّوَصُّلُ إلى علم غائبٍ بعلم شاهِدٍ، فَهو أخَصُّ مِن العِلم[2]، الَّذي هو وصولٌ إلى حقيقةِ باطِنِ الشَّيءِ، كالعِلم بالشَّيءِ وفهمِه فهمًا عميقًا مستوعبًا، وقد فَقِه الشَّيءَ كَأنَّما غاص في داخله فأدرك دقائقه وخفاياه[3]. أمّا العقلُ فأصْلُه مِن الحَبسِ، يقال: عَقَلتُ البعيرَ أعقِلُه عَقلًا: قيَّدتُه بما يحبِسُه عن الانبعاث. وسمّيَ عقلُ الإنسان لأنَّه يمنَعُه ويحبِسُه عن محذوراتٍ[4]. والعَقْلُ يُقال للقوَّةِ المتهيِّئة لقبول العلم، ويقال للعلم الَّذي يستفيده الإنسانُ بتلك القوّة عَقْلٌ[5]. وقد عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الفقه للدِّلالة على أنَّهم لا يُدركون دلائل الإيمان العميقة، فلذا هم لا يعلمون حقيقته[6].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فقه).
(2) الرّاغب، المفردات: (فقه).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (فقه).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عقل).
(5) الرّاغب، المفردات: (عقل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 238.

﴿۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾ [المنافقون: 4]

۞ مُناسَبةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّحذيرُ مِن خِداعِ مَظهَرِهم بَعدَ فَضحِ نواياهم

بعدَ أن بيَّنَ النَّظمُ الجليلُ بواطنَ المنافقين وفَضَحَ كَذِبَهم، وقَبَّحَ أعمالَهم، أتبَعَهُ هُنا في هذه الآية بِبَيان أحوالِهم مِن حُسنِ المنظر في الظّاهر وسوء المَخبر في الدّاخِل، فهو انتقالٌ مِن كشف سلوكهم الخفيِّ إلى كَشفِ صفاتهم الظّاهِريَّة[1].

۞ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿خُشُبٌ﴾: (خشب) أصلٌ يَدُلُّ على خُشونَةٍ وغِلَظٍ[2]. والخَشَبَةُ: ما غَلُظَ مِن العيدانِ، والجَمْعُ خَشَبٌ، مِثْلُ شجرةٍ وشَجَرٍ، وخُشُبٌ وخُشْبانٌ[3]. قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾، ووُصِفَ به المنافقون في هذه الآية تشبيهًا لهم بالخَشَبِ في تَركِ التَّفَهُّمِ والاستبصار، وتَركِ وعْيِ ما يسمعون من الوَحْيِ[4].

2) ﴿مُّسَنَّدَةٞۖ﴾: (سند) أصلٌ يَدُلُّ على انضمام الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[5]. وكلُّ شيءٍ أسندتَ إليه شَيْئًا، فَهوَ مُسْنَد[6]. سَنَدَ إليه: رَكَن إليه واتَّكأ، وكذلك استند وتساند[7]. والمرادُ به في الآية الكريمة: مُمالةٌ إلى الجدار[8].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 238.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خشب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خشب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (خشب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سند).
(6) الخليل، العين: (سند).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سند).
(8) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 404.

3) ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾: (أفك) أَصْلٌ يَدُلُّ على قَلبِ الشَّيْءِ وصَرْفِه عن جِهَتِه. يُقالُ: أُفِكَ الشَّيءُ؛ وأفِكَ الرَّجُلُ: إذا كَذَبَ. والإفكُ الكَذِبُ. وأفَكْتُ الرَّجُلَ عن الشَّيْءِ: إذا صَرَفْتُهُ عنه[1]. والأَفْكُ، بالفتح: مَصدَرُ قولِك أفَكَهُ عن الشَّيْءِ يَأْفِكُه أفْكاً، أي: صَرَفَهُ عَنهُ وقَلَبَهُ، قال تعالى: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: 9]؛ أي يُصْرَفُ عن الإيمان مَن صُرِف، والأفّاك: الَّذي يَأْفِكُ النّاسَ أي يَصُدُّهُمْ عن الحَقِّ بباطِلِه[2]. فالإفْكُ: كُلُّ مَصروفٍ عَن وجهِه الَّذي يَحِقُّ أن يكون عليه، ومنه قيل للرّياح العادلة عن المَهابِّ: مُؤْتَفِكَة. قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩﴾ [الحاقة: 9]، وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30] أي: يُصرَفون عَن الحَقِّ في الاعتقاد إلى الباطل[3]. فالمقصود في الآية الكريمة: يُصَدّون ويُصرَفون عن الحَقِّ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مظهرٌ خادِعٌ وقولٌ مُزَوَّرٌ

يَذكُرُ اللّهُ تعالى مِن أوصافِ المنافقين ما يُعرَفون به، فيقول ما معناه: وإذا رأيت هؤلاء المنافقين أيُّها الرّائي ستُعجِبُك هيئاتُهم ومناظرُهم، وإنَّهم إذا تَحَدَّثوا فإنَّك تَسمَعُ لِحَديثِهم؛ لِفَصاحتهم وحُسنِ بيانهم، ولكنَّهم فارِغو القلوب والعقول مِن الفَهم والإيمان، فَهُم أشبَهُ بالأخشاب الميِّتَة الملقاة على الحائط، التي لا نَفعَ فيها، وإنَّهم لِشِدَّة خوفهم وجُبنِهم فإنَّهم يظُنّون كُلَّ صَوتٍ مرتفعٍ قَصدًا لهم وفَضْحًا لِأمرهم، فَهُم في رُعبٍ دائِم،؛ لِعلمِهم بحقيقة حالهم، فاحذَرْهُم يا رسول اللّه؛ لِأنَّهم هُمُ العَدوُّ الكامِل في العِداء، ولا عَدوَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفك).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(3) الرّاغب، المفردات: (أفك).
(4) الواحديّ، البسيط: 10/ 383.

غيرهم، فَخُذ حِذرَك مِنهم، أخزاهم اللّه وطَرَدَهم مِن رحمته، كيف ينصرفون عن الحق إلى ما هم فيه من النِّفاق والضَّلال؟[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بالواو في قوله ﴿وَإِذَا﴾:

تحذيرٌ مِن جمال الظّاهر وخَواء الباطن

عَطَفَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ على الجملة في قوله جَلَّ شأنه: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾؛ وفائدةُ العَطفِ هنا الاحتراس؛ وذلك لِدَفع إيهام مَن يَغتَرُّ بظواهر النّاس، ولتحذير المؤمنين مِن الانخداع بجمال المظهر وفصاحة القول. وهو يكشِفُ التَّناقض الواضح بين ظاهر المنافقين الَّذي يُعجِبُ الرّائي، وباطنِهم الفاسد[2].

بلاغةُ التَّعبير بالجُملة الشَّرطيَّة:

حُسنُ الظّاهر لا يُخفي سوءَ الباطن

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالجملة الشَّرطيَّة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ وذلك للدِّلالة على أنَّ الرُّؤيَة مُتَكَرِّرَة، فَهُم على هذه الحال دائمًا، تنبيهًا على أنَّهم لا يجاوزون الاهتمام بالظّاهر، فهو مبلَغُ اهتمامهم[3].

وفي التَّعبير بـ(إذا) إشارَةٌ إلى كَثرَةِ غَشَيان المنافقين إلى مجالس رسول اللّه ﷺ ليُبعدوا عن أنفُسهم تُهمة النِّفاق؛ لذلك كان التَّعبيرُ بـ(إذا) الدّالَّة على تَحَقُّق الرُّؤية، وكَأنَّهم يحاولون إبرازَ هيئتهم ليراهم رسولُ اللّه ﷺ.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالرُّؤية مادَّةً وصيغَةً:

محطُّ الإعجاب بهم رؤيةُ البصر لا البصيرة

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بـ(الرُّؤيَة) في قوله جَلَّ شأنه: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ دون (النَّظر) لأنَّ المرادَ بها هنا رُؤيَةٌ بَصَرِيَّةٌ

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسّر: 1/ 554.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 239.

(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 88.

عَينيَّةٌ[1]. وذلك إشارةً إلى أنَّ الإعجابَ يَنشأُ مِن مُجَرَّد النَّظر الظّاهِريِّ، لا مِن التَّأمُّل العميق أو التَّبصُّر بحقيقتهم، والَّذي يَحملُه معنى النَّظر، وجاءت الرُّؤية بصيغة الماضي للدِّلالة على تَحَقُّقِها ووقوعِها.

دلالةُ التَّعبيرِ بالإفراد ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾:

مَـظـهـرٌ خـادعٌ كـاذبٌ يدعو إلى الإعـجـاب في بادئ الأمر

جاء التَّعبيرُ بالإفراد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ﴾ مع أنَّ المعجَبين أصحابُ رسول اللّه ﷺ؛ لأنَّ الإعجاب إذا وقع منه ﷺ بهم؛ فأولى أن يقع الإعجاب مِن أصحابه رضوان اللّه عليهم، ويجوز أن يكون الخطاب موَجَّهًا للصَّحابة وللمسلمين؛ لأنَّ رسولَ اللّه ﷺ لا يُعجِبُه مثلُ هذه الصّورةِ الفانيةِ إلّا إذا لاحظ خالِقَه كما قال ﷺ «إنّ مِن البيان لَسِحرًا[2]».[3]

دلالةُ الإضمار في قوله ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالإضمار ﴿رَأَيۡتَهُمۡ﴾ دون الإظهار (رأيت المنافقين) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ﴾ مع أنَّهم معروفون لدى رسولِ اللّه ﷺ، وهُم: عبدُ اللّه بن أُبَيٍّ، ومغيثُ بن قَيس، وجَدُّ بن قيس؛ كانت لهم أجسامٌ تُعجِب النّاظِر لها لِحُسنِها وجَمالِها، ومع ذلك جاء التَّعبيرُ بالإضمار للتَّقليل والتَّهوين مِن شأنهم، رغمَ ظَنِّهم أنَّهم يمتلكون مُقَوِّمات التَّشريف في الخطاب؛ فجاء الإضمارُ ليُظهِرَ أنَّ الحُسنَ الظّاهريَّ لا وزنَ له ولا قيمَةَ ما لم يرتبط بالإيمان.[4]

دلالةُ التَّعبير بقوله ﴿تُعۡجِبُكَ﴾:

حُسْنَ مظهرهم حـتّـى أثـاروا الإعجاب

عَبَّرَ النَّظمُ الجَليلُ بالفعل ﴿تُعۡجِبُكَ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ للدِّلالة على أنَّ مَظهرَهم يَعظُم في نفوس

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 294.
(2) البخاري، صحيح البخاريّ، الحديث رقم: (5767).
(3) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 100، والآلوسيّ، روح المعاني: 28/ 111.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 331.

مَن يَراهُم، لِحُسن منظرهم ولغرابته؛ لأنَّ العُجب انفعالٌ يعرض للنَّفْس عند مشاهدة أمرٍ غير مَألوفٍ خَفيَ سَبَبُه، ولمّا كان شأنُ ما يَخفى سببُه ترغب فيه النَّفس، صار العُجب مستلزمًا للإحسان، وذلك لأنَّ مظهرهم يَعظُم في نُفوس مَن يَراهم لِحُسنِه وجماله، ولِأنَّ الإعجابَ مِن العُجب، وهو كونُ الشَّيءِ خارِجاً عَن نَظائِره مِن جِنسِه، وهذا ظاهِرٌ في حُسنِ مَظهَرِهم وجَمالِ خِلقَتِهم الَّتي تُمَيِّزُهم عن غيرِهم.(1)

دلالةُ الخِطاب في قوله ﴿تُعۡجِبُكَ﴾:

بلاغةُ الخطاب في التَّحذير والإنذار

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالخِطاب في قولِه تعالى: ﴿تُعۡجِبُكَ﴾؛ لِغَرَض تَحذيرِ النَّبيِّ ﷺ أصالةً، والمؤمنين تبعًا، مِن هذا الصِّنف الخطير في المجتمع، ولِكَي لا تَروج على المسلمين حيَلُ هؤلاء المنافقين انشغالًا بِمَظهَرِهم وحُسنِ كلامهم؛ لأنَّ حُسنَ المَظهَرِ وقوَّةَ البيان مِن وسائل الهَدمِ الَّتي يَتبَعُها المنافقون في سُلوكِهم معَ المسلمين.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الأجسام دون غيره:

مِن حُسنِ الإنعام عليهم حُسنُ ظاهِرِهم

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الجِسمِ في قولِه جَلَّ شَأنُه: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ وذلك لأنَّ الجِسمَ ما فيه ضخامةٌ وحُسنُ هَيئَةٍ، وهو يشمَلُ البَدَنَ والرّوحَ والنَّفسَ، ويمتاز بالحياة(2)، وأمّا الجسد فهو الَّذي لا يعقِل ولا يُمَيِّزُ، ويُطلَقُ على الجُثَّة فقط(3)، ولذلك كان إطلاقُ الجسم على الأجزاء والأعضاء مِن الأحياء دون الأموات، والجسمُ يحمِلُ دلالةَ البَهاءِ والإعجاب مِن عِظَم الخَلقِ وتناسُقِ الأجزاء، وليس هذا في الجسد(4).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 226.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 28/ 88.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (جسد).

(4) الدّوريّ، دقائقُ الفروق اللّغويّة في البيان القرآنيّ، ص: 109.

بلاغةُ الكِناية في قولِه ﴿تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾:

المنافقون مُجرَّد أشباحٍ ليس وراءها جواهِرُ وحقائقُ

كنَّى النَّظمُ الجليلُ بقولِه جَلَّ شَأنُه: ﴿تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ عَن خَوائهم الدّاخليِّ، فإنَّ منتهى غايتهم وكُلَّ عنايتهم بصلاح ظواهرهم وترفيه أنفُسِهم، فَهُم مُجَرَّدُ أشباحٍ وقوالب، ليس وراءها جواهِرُ وحقائق(1)، وهذا شَأنُ مَن خلت قلوبُهم من الإيمان؛ فلا ينشغلون إلّا بالمَلَذّات والشَّهوات وحُسنِ المَظهَرِ واللِّباس؛ فَهُم لا يبنون العقولَ، بل يبنون الأجسام.

دلالةُ الإضافةِ في قوله ﴿أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾:

تخصيص المنافقين بتوظيفِ النِّعمة في غير محلِّها

دَلَّت الإضافةُ في قولِه جَلَّ شَأنُه: ﴿تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ على التَّخصيص والتَّعيين لهذا الصِّنف من النّاس بما خُصّوا به مِن جمالِ الخِلقَةِ وحُسنِ الهَيئَةِ وتوظيفهم ذلك في إثارة الفِتَنِ بين المسلمين، وإلّا فالكثيرُ مِن المسلمين يتمتَّعون بحُسن الخِلقة وجمال المظهر، ويعُدّون ذلك مِن باب النِّعَم الَّتي ينبغي شُكرُها.

سِرُّ إسنادِ الإعجاب إلى الأجسامِ دون الأقوال:

الخداعُ بفصاحة اللّسان وقوَّة البيان وصفٌ عامٌّ في المنافقين

النّاظِرُ في هذه الآية يَجِدُ أنَّ القرآنَ أسنَدَ الإعجابَ إلى الأجسام في قوله: ﴿تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ دون القول؛ بخلافِ قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ﴾ [البقرة: 204] لاختلاف السّياق بينهما؛ فموضع سورة المنافقون جاء في أشخاصٍ بأعينهم، وهُم عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ وجماعته، وكانوا يُعرَفون بجمال أجسامهم وضخامة بنيتهم؛ فجاء القرآن لبيان هذه الحالة الَّتي كانوا عليها؛ أمّا في موضع سورة البقرة، فهو حديثٌ عامٌّ في شأن المنافقين، والغرضُ تحذيرُ الأُمَّةِ من فصاحة لسانهم وقوَّة بيانهم الكاذب في عرض الحقائق؛ لذلك أُسنِد الإعجاب إلى القول لأنَّ عادةَ المنافقين تزيينُ أقوالهم دون تزيين أفعالهم.

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 294.

دلالةُ الواوِ في قوله ﴿وَإِن يَقُولُواْ﴾:

تحسينُ القول للتَّغطية على سوء الباطن

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالواوِ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ وهي هنا اعتراضيَّةٌ، تَفصِلُ بين الجُملَتَين المُرتبطتين في المعنى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾، وقولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾، والمقصودُ بها إبرازُ خداعٍ آخَرَ في صِفاتِهم، وهو فصاحةُ القولِ الَّتي تخدع السّامِعَ كما يخدعه حُسنُ المَظهَرِ، فهي تُعَمِّقُ المفارَقَةَ بين ظاهِرِهم الجاذِب وباطِنِهم الفارغ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الشَّرطيَّة:

حُسنُ البيان وسيلةُ الخداع

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالجملة الشَّرطيَّة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ لِما في صيغة الشَّرط مِن دلالةٍ على التَّكرار والتَّلازم، أي إنَّهم متى تَحَدَّثوا سَحَرك مَنطِقُهم، فَدَلَّ بذلك على فِتنَةِ المظهر وفصاحة اللَّفظ، مع خَواء الجوهر وانتفاء الإيمان[2].

سرُّ التَّعبيرِ بـ(إن) مَعَ القول:

تحقيقُ الرُّؤية واحتمالُ القَولِ

عَدَلَ النَّظمُ الجليلُ عن استعمالِ أداة الشَّرطِ (إذا) إلى الأداة (إن) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ بَعدَ قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ وذلك لأنَّ (إن) لَمّا كان محتملًا غَيرَ مُؤَكَّدٍ، و(إذا) لَمّا كان مُحَقَّقَ الوُقوع، استُعملت (إذا) مع الرُّؤية لأنَّ أجسامَهم حاضرةٌ مَرئيَّةٌ لا تَنفَكُّ، فهي أمرٌ مُتَحَقِّق الوُقوع، بينما عُدِل إلى (إن) مع القول لأنَّه أمرٌ كَسبيٌّ مِن قِبَلِهم، قد يكون أو لا يكون، وهو غيرُ دائم لارتباطه بنُطقِهم أو سكوتِهم، فناسبه التَّعبيرُ بـ(إن) لكونه محتمَلًا غير متحقِّقٍ دائمًا[3]. وفيه إشارةٌ إلى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 239.

(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 294.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 231 - 232.

أنَّهم لا يُكلِّمونه ﷺ إلّا اضطرارًا؛ لأنَّهم لا يُحبّون مكالمَتَه، ولا باعِثَ لهم عليها لِما عندهم مِن أمراض القلوب.(1)

دلالةُ التَّعبيرِ بِفِعل القَول مادَّةً وصيغَةً:

أقوالُ المنافقين لا تصدُر عن عقيدةٍ صحيحةٍ

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالقَولِ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ للدِّلالة على أنَّ كلامَهم غيرُ مُفيد، وإشارةً إلى خَواء كلامهم مِن الحقائق، فهو لا يَعدو أن يَكون حروفًا مَنطوقَةً تُسمع كما يُسمع صليلُ الأجراس(2)، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أقوالَهم لا تصدُرُ عن عقيدةٍ؛ فَهُم يقولون ما لا يَفعَلون، وجاء التَّعبيرُ بالفِعل المُضارع للدِّلالة عَلى تَجَدُّدِ صدور هذا اللَّفظِ مِنهم كُلَّما أرادوا خِداعَ السّامعين بزُخْرُف الكلام.

دلالةُ التَّعبيرِ بِفعلِ السَّماعِ مادَّةً وصيغَةً:

حُسنُ الفصاحة يُغري بالسَّماع

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالسَّماعِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ دونَ الإنصات؛ لأنَّ السَّمعَ هو إدراكُ المسموع؛ بخلافِ الإنصات، فأصلُه يَدُلُّ على السُّكوتِ والاستماعِ للحَديث؛ ولمّا كان المقامُ يَتَعَلَّقُ بالكلام الصّادر عَن المُنافقين، وهو لا يَحمِلُ حَقيقةً تحتاج إلى إنصات، اكتُفي بالسَّماع؛ يؤكِّد هذا ما ورَدَ في القرآن الكريم في قوله: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: 204]؛ فَجَمَعَ القرآنُ بين الاستماع والإنصات، لِما يَحمِلُه مِن المعاني والعِظات؛ وجاء الفِعلُ بصيغة المضارع للدِّلالة على التَّجَدُّد والتَّكرار لِفعلِ السَّماع، مع أنَّه سماعٌ لا يُقصد به التَّأثُّر أو الفَهمُ، بل هو مُجَرَّدُ تَلَقٍّ للصَّوتِ لجمالِ ألفاظهم وفصاحة كلامهم، كما يَسمَعُ المرءُ صَوتَ الأجراسِ دون أن يكون له فيها نفعٌ أو معنًى(3).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 7/ 609.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 231.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 239.

سِرُّ تَعديةِ فِعل السَّماع باللّام:

تضمين السّماع الإصغاءَ مبالغَةً في حُسنِ الفصاحة

عَدَّى النَّظمُ الجَليلُ فِعلَ السَّماعِ (باللّام) في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ وذلك لتضمين الفِعلِ معنى الإصغاء[1]، فإنَّ ألفاظَهم فصيحَةٌ حَسنةٌ بِحَيثُ إنَّها تستدعي الإصغاء، وذلك مِن خلال عبارات السَّجَعِ والألفاظ المُنَمَّقة؛ لأنَّهم يهتَمّون بتحسين القول وإغفال المعنى.

بلاغةُ الكِناية في السَّماع لقولهم:

فصاحةٌ ظاهرةٌ تُغطّي خَواء الجوهر

كَنَّى النَّظمُ الجَليلُ بالسَّماعِ لِقولِهم في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ عَن فَصاحَتِهم وذلاقة ألسِنَتِهم وحلاوة كلامهم[2] لدرجة أنَّك تَظُنُّ أنَّهم يقولون الحَقَّ لِحُسنِ قَولِهم، فهو تعبيرٌ يَكشِفُ اهتمامَهم بظواهرِ الأمور دون بواطنها.

نُكتةُ فَصلِ قولِه ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾:

تنبيهٌ لكشف حقيقةِ الباطن بعد خداع الظّاهر

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، سيقت جوابًا عَن سؤالٍ يُثار بَعد مَدحِ ظاهرهم بِحُسنِ الأجسامِ وفَصاحةِ الكلام، إذْ قد يَتَوَهَّمُ السّامع أنَّ هذا مدحٌ حقيقيٌّ لَهم، وهو غيرُ مناسب لِما قبله مِن الذَّمِّ، فيسأل ماذا بعد هذا المدح؟ فاستأنف تشبيهَهم بالخُشُب المُسَنَّدَة لِكَشف خَوائهم الدّاخليِّ، وبيانِ أنَّ ظاهرَهم الخادع لا يعكس باطنَهم الفاسد[3].

بلاغةُ التَّشبيه في قوله ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾:

تشبيهٌ يكشِفُ حقيقةَ الباطن بعد خداع الظّاهر

تظهرُ بلاغةُ التَّشبيه في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾؛ حيثُ شَبَّهَ النَّظمُ الكريمُ قُلوبَ المنافقين وهي فارغةٌ مِن الإيمان

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 403.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 214.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 239.

والخيرِ بالخُشُب الجوفاء المُسَنَّدةِ إلى الحائط، وهو تشبيهٌ تمثيليٌّ يَجمَعُ بين ظاهرِ أجسامِهم المُدهِش، وخواءِ باطنِهم مِن الفَهم والإيمان[1]. فالخُشُب المُسنَّدة لها منظرٌ يوهم بالقوَّة والنَّفع، لكنَّها في حقيقتها جمادٌ أجوَفُ لا حياةَ فيه ولا ثمرة، لا يُنتفع بها ولا يُرجى منها عملٌ. كذلك حالُ المنافقين: أجسامٌ تُثير الإعجاب، وكلامٌ يَغُرُّ السّامع، ولكن لا عقلَ ولا فقهَ ولا إيمانَ في قلوبهم. وجاء التَّشبيه على وجهِ الذَّمِّ البليغ، لِكَشف خوائهم الدّاخِليِّ بعد أن صوِّرت أجسامُهم فيما سبق بما يُثيرُ الإعجاب[2].

بلاغةُ موقِعِ التَّشبيهِ بَعدَ قوله ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾:

أجسامٌ خاليةٌ، لفُقدان الفقه

تظهرُ بلاغةُ ترتيب الآيات في السّورة في إبراز المعاني وتناسقها، وهذا واضحٌ في إيراد تشبيه المنافقين في قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ بعد ختام الآية السّابقة بقوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾، وذلك للتَّنبيه على عدم الاغترار بِحُسنِ صوَرهم؛ لأنَّها أجسامٌ خاليَةٌ من كمالِ الأنفُسِ؛ فلا تحملُ مِن كمال الإنسانيَّة شيئًا؛ فجمالُ الإنسان الحقيقيُّ مرتبطٌ بإيمانه. وفيه إشارةٌ إلى تحذير المؤمنين مِن فصاحة كلامهم وذلاقة لسانهم؛لأنَّ القرآن وصَفَهم بِعَدَم الفقه في قوله: ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿خُشُبٞ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أهلُ النِّفاق لا يفقهون ولا يعقلون

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الخُشُب في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾، فهم كأخشابٍ مَرصوصَةٍ مَيِّتَةٍ، لا تَفقَه ولا تَعقِل. وأنَّ الخُشُبَ يدُلُّ تدُلُّ على الجمود وخُلوِّ الدّاخل، فَهُم في تَركِهم للفَهمِ والوَحي كالأخشاب اليابسة، لا حياةَ فيها ولا وعي[3]. وجاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 240.

(2) الواحديّ، البسيط: 21/ 470 - 471، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 403.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خشب).

التَّعبيرُ بصيغة جَمعِ الكَثرة ﴿خُشُبٌ﴾ دون أخشاب؛ للدِّلالة على كثرة عددهم[1] ولأنَّه أبلغ في الذَّمِّ مِن جَمع القِلَّة، وهذا التَّعبيرُ يُشير إلى أنّهم - مَع كثرتهم الظّاهرة - لا يختلِفُ بعضُهم عن بعض في صفاتِ الجمود والخواء مِن الفَهم والبصيرة.

سِرُّ إيثارِ التَّشبيهِ بالخُشُب دون سائِر الجمادات:

شَبَهُ المنافقين بـالـخُـشـب المُسنَّدة في عدم الانـتـفـاع، وفي تغاير الطَّرَفين

آثر القرآنُ الكريمُ التَّشبيهَ بالخُشب في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ﴾، لأنَّ الخُشبَ إمّا أن يُنتفع بها في سَقفٍ أو جدار أو غيرهما مِن مظانِّ الانتفاع، وإمّا أن تُترَك فارغةً غيرَ منتفع بها، فتُسنَدَ إلى الحائط؛ فَشُبِّه بها المنافقون في عدم الانتفاع.

وممّا يُذكَر في سِرِّ التَّشبيه أيضاً أنَّ الخشب المسنّدة كانت في الأصل غصنًا طريًّا يصلح أن يُنتفع به؛ ثُمَّ صارت غليظةً يابسةً لا ينتفع بها؛ فكذلك المنافق كان في الأصل صالحًا، ثُمَّ خرج عن تلك الصَّلاحيَّة بنفاقه.

ومنها أنَّ الخشب المسنّدة إلى الحائط أحد طرفيها إلى جهةٍ، والآخر إلى جهةٍ أُخرى، والمنافقون كذلك؛ لأنَّ المنافق أحدُ طَرَفيه وهو الباطن إلى جهة أهل الكُفر، والطَّرفُ الآخر وهو الظّاهر إلى جهة أهل الإسلام.[2]

نُكتةُ وصفِ الخُشُب بأنّها ﴿مُّسَنَّدَةٌۖ﴾:

خشبٌ ميتةٌ لا انتفاعَ فيها

وصَفَ النَّظمُ الجليلُ الخُشبَ بأنّها مُسَنَّدةٌ في قَولِه جَلَّ شأنُه: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌۖ﴾؛ وذلك للدِّلالة على أنَّها ليسَت بأشجارٍ نابِتَةٍ في الأرض تنمو وتزيد وتُنبت الورق والثَّمر، بل هي خشبٌ ميتةٌ مُلقاة بعضُها على بعضٍ مُسَنَّدة إلى حائط، لا انتفاع بها[3]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 81.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 15/ 332.
(3) الواحديّ، البسيط: 21/ 471.

لأنّها "إذا كانت غيرَ مسنّدة تكون سُقُفًا أو عُمُدًا أو غيرَ ذلك ممّا فيه منفعة"[1].

كما فيه إشارةٌ إلى أنَّ هذه الخُشُبَ قُطِعَت مِن مغارسها، وقُشرت وأُسنِدت إلى الجدار لِئَلّا يُفسدها التُّراب؛ فهي بيضٌ تَلوحُ، تُعجِبُ ناظرَها، ولا ثبات لها، ولا باطنَ بثمرةٍ، ولا سقيَ، فلا مددَ سماويَّ لها أصلًا يزكّيها؛ لذلك فَقَدَت روح الإنباتِ الَّذي به كَمالُها، كما فَقَدَ المنافِقُ روحَ الإيمان الَّذي به كمال النّاطق وبقاؤه؛ فَهُم في تلك الحالة أشباحٌ بلا أرواح، أجسامٌ بلا أحلام.[2]

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

هيئةٌ ظاهرُها ثباتٌ، وباطنها خَواءٌ وجمودٌ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ المُسَنَّدة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾؛ للدِّلالة على أنَّها مُمالةٌ إلى الحائط تستند عليه، فهي مُلقاةٌ بعضها على بعض مُسنَّدةٌ إلى حائطٍ[3]. وجاء التَّعبيرُ بصيغةِ (مُفَعَّلة) بتشديد العين للمبالغة والتَّكثير، فَكَأنَّها أُسندت كثيرًا إلى مواضعَ مختلفة[4].

نُكتةُ فَصلِ قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾:

المـنـافـقـون جُبناءُ في صورة شُجعان

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجملةَ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ، سيقت لبيان صِفَةٍ أخرى مِن صفات ذَمِّهم ومخالفتهم لصورتهم الحسنة الّتي تراها العين، فَهُم جُبناءُ يخافون مِن كُلِّ صَيحَةٍ[5]. فَهُم أهلُ جُبنٍ في صورة شُجعان. وهذا مِن جُملة ما فَضَحته هذه السّورة مِن أسرارهم وفضائحهم[6].

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 232.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 609.
(3) الواحديّ، البسيط: 21/ 471، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 547.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 533.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 547.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 240.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿يَحۡسَبُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

خوفٌ دائمٌ نابعٌ مِن رَيبٍ مُقيم

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ الحسبان في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ للدِّلالة على الظَّنِّ[1]، فَهُم يتَّبِعون الظَّنَّ الغالب غير المبنيِّ على بَيِّنَةٍ، وهذا يكشف ضَعفَ عقولهم وشِدَّة ارتيابهم، فَهُم يتقلَّبون في سوء أعمالهم، ويَقعون أسرى لأوهامهم[2].

وقَد يُفَرَّقُ بَينَ الحُسبانِ والظَّنّ بأنَّ الحسبانَ معناه أنْ يَحكُم لأحد النَّقيضَين مِن غير أنْ يخطر الآخرُ بباله، بخلاف الظَّنِّ، فهو اسمٌ لما يحصل عن أمارةٍ متى قويَت أدَّت إلى العلم، ومتى ضعفت لم تتجاوز حدَّ الوهم، وعلى ذلك كان التَّعبيرُ بالحسبان؛ لأنَّ المنافقين لا يخطر ببالهم إلّا الخوفُ والرُّعب، ولم يجعلوا في حساباتهم جانبَ الأمن والطُّمأنينة بل يعيشون في خوفٍ دائم.

وجاء التَّعبيرُ بالفِعل المضارع للدِّلالة على تَكرار خوفهم، وقَلَق أنفُسِهم، فَهُم في خوفٍ دائم وارتقابٍ مُرعب، يحسبون كُلَّ نداءٍ نذيرَ هلاك، وكُلَّ صَوتٍ تهديدًا يقصدهم.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظ ﴿كُلَّ﴾:

رعبٌ متجدِّدٌ مِن كُلِّ مجهول

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ ﴿كُلَّ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ لدِلالته على الكثرةِ لا العموم؛ فَهُم إنَّما يتوَجَّسون خوفًا مِن تلك الصَّيحات الَّتي لا يعلمون أسبابها[3]، ويجوز أنْ يُحمَل على العموم ليشمل صغيرَ الصَّيحات وكبيرَها، وفي هذا تصويرٌ للحالة النَّفسيَّة الّتي يعيشُها المنافقون مِن القلق والخوف.

سرُّ التَّعبير بـ﴿صَيۡحَةٍ﴾:

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ﴿صَيۡحَةٍ﴾ دون صوت في قوله تعالى:

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حسب).

(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 294.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 241.

﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ لأنَّ الصَّيحَةَ تُطلَقُ على الصَّوت المرتفع، ويُعَبَّرُ بها في مقام الفزع والعقاب والخوف، وهذا هو المناسِب لحال المنافقين.

نُكتةُ تَنكيرِ ﴿صَيۡحَةٍ﴾:

تهويلٌ للرُّعب النّاجِم مِن كُلِّ صوت

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بلفظ الصَّيحةِ بصيغة التَّنكيرِ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ لِما في التَّنكيرِ مِن تعميم وتكثيرٍ، فَكُلُّ صوتٍ ينادي به المنادي، لنُشدان ضالَّةٍ، أو انفلات دابَّةٍ يحسبونه قاصدًا إيّاهم[1]. كما أنَّه يَدُلُّ على جهالة مصدر الصَّيحة، فَهُم لا يدرون ما نوعُ الصَّوت ولا سببُه، لكنَّهم يظُنّون كُلَّ صوت مرتفعٍ تهديدًا، وكُلَّ نداءٍ نذيرَ فضيحةٍ. وذلك لفرط جُبنِهم، وبيانًا لِما في قلوبهم مِن رُعبٍ وهَلَعٍ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بِحَرف الاستعلاء:

نــزولُ الـهـلاك متمكِّنٌ منهم

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بحرف الجَرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاء في قولِه جَلَّ شَأنُه: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ وذلك للدِّلالة على شِدَّةِ وقعِ تلك الصَّيحة عليهم، فَكَأنَّها تَقَعُ عليهم وقوعًا لِفَرَط خَوفِهم ورُعبِ قُلوبِهم[3].

أثَرُ الموقعِ النَّحويِّ لقوله ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ على المعنى:

تصوُّرُ المنافقين للصَّيحة على أنّها هي العدوُّ لشدّة خوفِهم وجُبنهم

تَعَدَّدَ أقوالُ النُّحاة في تعيين المفعول الثّاني للحسبان في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ فمنهُم مَن قال إنَّه ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾، والمعنى: واقِعَةٌ عليهم لِجُبنهم واتِّهامهم؛ فيكونُ مِن باب وضع العِلَّة موضع المعلول، وتكونُ جُملةُ ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ مستأنفةٌ لبيان أنَّهم الكامِلون في العداوة، ومِنهم مَن قال إنَّ المفعولَ الثاني للحسبان

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 404.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 276.

(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 294.

﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾، ويكون قوله: ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ متعلّقٌ بـ﴿صَيۡحَةٍ﴾، وكونُ كُلِّ صَيحَةٍ عدوًّا إمّا للمبالغة، وإمّا بتقدير مضاف، أي: (يحسبون أهلَ كلِّ صيحةٍ).[1]

نُكتةُ فَصلِ قولِه ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾:

التّحذيرُ لِفَضح العَدوِّ المُتخفّي

فَصَلَ النَّظمُ الجليلُ الجُملةَ في قوله جَلَّ شَأنُه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾؛ لأنّها مستأنفَةٌ استئنافًا بَيانيًّا، سيقت للإجابة عَن سَبَب هَلَعِ المُنافقين وخوفِهم المُعبَّر عنه في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، فأُجيب بِأنَّ ذلك كان لِأنَّهم أعداءٌ للمسلمين، فكَما أنَّهم يتربَّصون بالمسلمين الدَّوائِرَ، فَهُم كذلك يَظُنّون أنَّ المسلمين يتربَّصون بهم مضمرين نيَّةَ البَطشِ بهم[2].

دلالة التَّعبير بالجملة الاسميّة ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾:

تأكيدُ صفة العداء وثبوتها في المنافقين

آثر النّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾؛ للدِّلالة على تأكيد مضمون الخطاب، وعلى ثبات الحُكم، فَهُم مُتَّصِفون بالعداء الكامل للمسلمين على وجه الثُّبوت.

بلاغةُ القصر بتعريف طَرَفِي الإسناد:

لا عداوةً كاملةً إلّا عداوة المنافقين

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بأسلوب القصر بطريقة تعريف طَرَفَيِ الإسنادِ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ أي هم العَدوُّ الكامل في العداوة[3]، فلا عدوَّ غيرُهم؛ لأنَّ أضرَّ الأعداء هوُ العدوُّ المُتخَفّي[4]، والقصرُ ليس حقيقيًّا؛ لأنّ للمسلمين أعداءً غير المنافقين، وإنَّما قَصر العداوة عليهم لبيان شِدَّة ضررها لأنّهم يعيشون بين المسلمين ويَطَّلِعون على شؤونهم، فكأنَّ عداء غيرهم ليس موجودًا، ولا شَكَّ أنَّ إظهارَ المشركين شِركَهم وإعلان اليهودِ كُفرَهم مدعاةٌ للحَذَر؛ أمّا

(1) القونويّ، حاشيةٌ على تفسير البيضاويّ: 19/ 102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 241.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 430.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 486، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 82.

المنافِقون فادِّعاؤُهم الإيمانَ وحِلفُهُم وحَلِفُهُم عليه قد يوحي بالرُّكون إليهم ولو رَغبَةً في تأليفهم، فكانوا أولى بالتَّحذيرِ مِنهم بوَصفِ العَداوةِ في قوله: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ لشدَّة عداوتهم ولِقوَّة مُداخلَتِهم مَعَ المسلمين مِمّا يُمَكِّنهم مِن الاطِّلاع على جميع شُؤونِهم.[1]

سِرُّ التَّعبير بقوله ﴿ٱلْعَدُوُّ﴾:

جاء التَّعبيرُ القُرآنيُّ بلفظ ﴿ٱلْعَدُوُّ﴾ دون (الأعداء) لأنَّه مصدرٌ، والمصدرُ يستوي فيه الإفراد والجمع، ولأنَّ عداوتَهم واحدةٌ؛ فلا تختلفُ عداوةُ مُنافقٍ مع المسلمين وعداوة منافقٍ آخرَ.

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾:

عداوةُ المنافقين سببٌ لأخذ الحذر منهم

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بحرف الفاء في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾ وهي هنا للعطف بمعنى السّببيَّة، فرَبَطَت بين المسبَّب وهو الحذر بالسَّبَب وهو العداوة[2]، فلَمّا كانوا هُمُ العَدوَّ الكاملَ في العداوة وجبَ الحذرُ منهم أشَدَّ الحَذر، فهُم أعدى الأعداء.

دلالة الأمر في ﴿فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾:

التَّحذيرُ مِن خَطَر المنافقين وعدم الاغترار بظواهرهم

عَبَّرَ النَّظمُ الجليل بِفعلِ الأمر في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾ للدّلالة على التَّحذير والتَّنبيه على خَطَرِ المنافقين، وعَدَمِ الاغترار بظواهرهم الخادعة[3]، فوجب على المسلمين التَّنَبُّهُ على هذا العدوِّ الخَفيِّ وعَدَمِ ائتمانهم على السِّرِّ؛ لأنَّهم عيونٌ للأعداء على المسلمين[4].

دلالةُ الإفراد في قوله ﴿فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾:

خطابٌ للرَّسولِ أصالةً ولأُمَّتِه تَبَعًا

جاء التَّعبيرُ بالإفراد في قوله ﴿فَٱحْذَرْهُمْۚ﴾ دون الجمع (فاحذروهم)؛ لأنَّه موَجَّهٌ لرسول اللّه ﷺ ولِكُلِّ مَن يتأتّى منه

(1) الشّنقيطيّ، أضواء البيان 192/ 8.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 254.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 547، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 486.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 276.

الخطاب، وتوجيهُ الخطاب له ﷺ فيه إشارةٌ إلى عظيم خطرهم، حتّى كان التَّحذيرُ موجَّهًا أصالةً إلى الرّسول نفسِه، وإذا كان الأمرُ موَجَّهًا لرسول الله الذي يوحى إليه فمِن باب أولى أن تأخذ الأُمَّةُ حِذرَها.

نُكتةُ فَصلِ قوله ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾:

التَّعَجُّبُ مِن بُعدِ انحرافهم وشِدَّة ضلالهم

فَصَلَ النَّظمُ الجليل الجُملة في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ لأنّها مستأنفةٌ سيقت تذييلًا لِما سبق، فلمّا تَقَدَّم ذِكرُ صفاتهم وفضحُ دواخلهم تَعَجَّب مِن شِدَّةِ تَوغُّل الضَّلالة والجهالة فيهم لانصرافهم عن الحقّ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالقَتل مادَّةً وصيغةً:

الدُّعاءُ عليهم بالطَّرد واللَّعن

عبَّرَ النَّظمُ الجليل بلفظ القتل في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ وذلك لِتَعَدُّدِ المراد بهذه الجملة؛ فيجوز أن يكون المرادُ بها الدّعاء عليهم بالطَّرد واللَّعن، ويجوز أن تكون بمعنى التَّعجيب مِن حالهم الّتي بلغت النِّهاية في السّوء والقبح[2]، ويجوز أن يكون مِن باب تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك لهم؛ فهو ليس مِن القتال الّذي يعني المحاربة، بل هو مِن باب اللَّعن والدُّعاء بالطَّرد[3].

وجاء التَّعبيرُ بالقتل مِن باب المناسبة لِقُبح أعمالِهم وبشاعة فِعلِهم، ذلك أنَّ القتل مِن أبشع الأمور وأشدِّها لِما فيه مِن إزهاق الأرواح وإعدامِها مِن الوجود، وكذلك القتلُ في معناه المجازيِّ؛ فهو يحمل معنى الطَّرد واللَّعن، ومَن طُرد مِن رحمة الله يعيش أقسى أنواعِ العذاب؛ فهو ميِّتٌ لحرمانه مِن الرَّحمة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 242.
(2) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 14/ 405.
(3) الواحديّ، البسيط: 10/ 382، والقنّوجيّ، فتح البيان: 14/ 149.

دلالة التّعبير باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في المُسند إليه:

تهويلُ السَّخط بالدُّعاء عليهم بالمقاتلة

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ في المسند إليه باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه جَلَّ شأنُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾؛ للدِّلالة على شِدَّةِ المقاتلة واللَّعنة، فإنَّ اللّه تعالى هو مَن يلعنُهم ويطردُهم، فنسبة الفعل إلى اللّه - الجامع لصفاتِ العظَمة والقُدرة والقَهر... - يدُلُّ على شِدَّة أثَرِه وتأكيد تحقُّقِه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاستفهامِ في قوله ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾:

تعجُّبٌ إنكاريٌّ يفضح جَهلَهم

عَبَّرَ النَّظمُ الجليلُ باسم الاستفهام ﴿أَنَّىٰ﴾ في قوله جَلَّ شأنُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ وهو هنا بمعنى (كيف)، والمراد منه التَّعجيبُ من شِدَّةِ جَهلِهم وضلالتهم، ومِن ظَنِّهم الفاسد بأنَّهم على الحَقِّ[2].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿يُؤۡفَكُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

انصرافٌ مستمرٌّ عن الحقِّ وإصرارٌ على الضَّلال

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بفعل الإفكِ في قوله جلَّ شأنُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ دون الصَّرف؛ لأنَّ الإفكَ كذبٌ يقلِبُ الحقائق؛ يقال أفِكَ الرَّجلُ عن كذا إذا عدل عنه، ومنه الأفّاك الَّذي يصرف النّاس عن الحقِّ؛ بخلاف الصَّرف فإنَّه يُستعمل في مُطلق التَّحويل والتَّنقُّل، وعلى هذا فالتَّعبيرُ بالإفك هو المناسب لسياق الآية؛ لأنَّ المنافقين كَذَبوا وقَلَبوا الحقائق، ولأنَّه دالٌّ على الانصراف والإعراض عن الهدى، وهُم قد فَعَلوا ذلك، فما آمنوا برسول اللّه معَ وجود الأدلَّة الدّالَّة على صِحَّة نُبوَّته ﷺ، وصَدّوا عن سبيله، وجاء التَّعبير بالفعل المضارع للدِّلالة على تجدُّد الانصراف واستمراره، والتَّعبيرُ بصيغة المبنيِّ للمفعول ليشمل كُلَّ صارف يصرفهم، فَهُم يصرفون أنفُسَهم وكذلك يصرفهم مَن يضلُّهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 20/ 82.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 547.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/ 243.

❁ الفروقُ المُعجَميَّة:

السّماع والإصغاء والإنصات:

السّمع هو إدْراك المسموع، واسم الآلة التي يسمع بها الإنسان. أمّا الإصغاء فهو طلبُ إدْراك المسموع بإمالة السَّمع إلَيْه، يُقال صغا يصغو إذا مال وأصغى غَيره[1]. أمّا الإنصات فأصله يدُلُّ على السُّكوت[2]. والإنصات: السّكوت والاستماع للحديث[3]. فهو الاستماعُ مع السّكوت. فعبّر في الآية بالسَّماعِ لأنّه مجرّدُ إدراك القول الَّذي يقولونه.

السّماع إدراك المقول، والإصغاء اجتهادٌ للاستماع، والإنصات سكوتٌ للاستماع

(يُؤْفَكون) و(يُصْرَفون):

الصّرف: يَدُلُّ على رَجْعِ الشَّيْءِ، وهو ردُّ الشَّيءِ مِن حالة إلى حالة[4]، صَرَفْتُ القَوْمَ صَرْفًا وانْصَرَفوا، إذا رَجَعْتَهُمْ فَرَجَعوا[5]. أمّا يؤفكون: فهو صرف الشّيء عن جهته[6]. قال تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: 9]؛ أي يُصرَفُ عَنِ الإيمان مَنْ صُرِف[7]. والإفك: كلُّ مصروف عن وجهه الَّذي يحقّ أن يكون عليه، وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: 30] أي: يصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصِّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[8]. فالصَّرف تحوّلٌ عامٌّ، بمعنى الرَّدِّ والإرجاع، يستعمل للردِّ العامِّ ولا يتعلَّق بالتَّوجُّه. أمّا الإفكُ فهو صرفٌ عن الوجه الَّذي ينبغي أن يكونوا عليه، وعَبَّر في الآية بالإفك لأنَّهم انصرفوا عن الإيمان والحقِّ مع قيام الادلَّة عليه.

الصَّرفُ تحويلٌ وردٌّ، والإفكُ انصرافٌ عمّا ينبغي أن يكون عليه

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 89.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصت).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (نصت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صرف).
(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صرف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أفك).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (أفك).
(8) الرّاغب، المفردات: (أفك).

المحتويات